الحلف العربي كما ينبغي أن يكون

والوسائل التي يمكن ان تؤدي الى تحقيقه

بقلم الاستاذ محمد على علوبة باشا

> « يجب أن تكون الروابط بين مصر وشقيقاتها العربية كالروابط التي بين انجلترا وبقية أجزاء الامبراطورية البريطانية ، مع فارق واحد ، هو أن تحتفظ كل واحدة من هذه الشقيقات باستقلالها السياسى تاما كاملا »

أمة واحدة .. وعنصر واحد

العرب أمة واحدة . ما فى ذلك شك رغم كل خلاف على أصل العناصر . فهم ـ وان كانوا يؤلفون عدة شعوب ودول ـ انما يتكلمون لغة واحدة هى اللغة العربية . وقد سار أكثر علماء الاجتماع على أن اللغة هى أصل العنصر وعلامته المميزة

وها هى الصيحة ترتفع من جانب بعض الدول القوية بأنها لا تبغى بحركاتها الا أن تحق الحق ، بتوحيد كل مجموعة من الدول ترجع الى عنصر واحد ، لتتألف منها كتلة واحدة ، تتعاون على النهوض بالانسانية ، وتساعد على إقرار السلم وتوحيد أركانه .. فاذا كانت حجة هذه الدول فيما تذهب اليه مجرد الاتفاق فى اللغة ، أفلا يكون أولى بالشعوب العربية أن تعمل على تأليف كتلة واحدة منها ، وقد اجتمع لها من أسباب الامتزاج ـ فوق رابطة اللغة ـ روابط أخرى تكفى كل واحدة منها لان تكون باعثاً عليه وحافزاً اليه ؟

فضلا عن أن أسباب التفاهم بين هذه الشعوب سهلة ميسورة لانها كما قدمنا تتكلم لغة واحدة ، فانها أمم متجاورة ، أسباب الاتصال بينها كأسباب التفاهم سهلة ميسورة . كما تربطها

عقيدة واحدة هي « الدين الاسلامي » ، الذي هو الطابع الغالب لهذه الشعوب العربية وهي لذلك تعتبر نفسها - وبحق - أمة واحدة وشرقا واحداً

فلا خلاف إذن على أن أسباب الامتزاج بين تلك الشعوب موجودة متوفرة ، وأن الروابط التي بينها قوية لا انفصام لها ، إنما الذي يجب أن يكون موضع تفكيرنا هو : كيف يتم هذا الامتزاج الذي يسميه بعضهم « حلفاً عربياً » ، ويسميه آخرون « جامعة عربية » ، والذي لا تعنينا الآن تسميته بقدر ما يعنينا الوضع العملي الذي يجب أن يكون عليه ؟

الامبراطورية فكرة خاطئة

يقول البعض انه يكون بأن تتألف من تلك الشعوب « امبراطورية » أو « مملكة » عربية ، توحد بين أقطارها المختلفة وتضم أشتاتها تحت لواء واحد وراية واحدة . ولست أتردد في القول بأن هذه فكرة خاطئة لا تصح إضاعة الوقت في مناقشتها بل ولا حتى في مجرد التفكير فيها ، لأن مشروعا كهذا - إذا فرضنا جدلا إمكان تحقيقه ، وهو ما أشك فيه - ضرره أكثر من نفعه ، بل لا نفع فيه على الاطلاق ، ولن يربح منه العرب ولا الشرق ولا المسلمون بقدر ما يخسرون

فكل أمة من الأمم التي ستتألف منها هذه « الامبراطورية » تريد - رغم حبها لأخواتها - أن تحتفظ باستقلالها السياسي . وهذا حق يجب علينا جميعاً أن نشجعه ، وما أظن عربياً يرضى لبلاده أن تنزل عن سيادتها .. وتلك أول عقبة تقوم في وجه إنشاء « امبراطورية عربية » كما يتصورها القائلون بها ، وهي عقبة سيكون من نتائجها نشوب الخلاف بين هذه الامم على أيها تكون صاحبة السيادة على الامبراطورية المذكورة ؟ وبذلك تنعكس الآية ، وينتهي المشروع الى تنازع تلك الأمم وخلق أسباب الشقاق بينها ، بدلا من توثيق عرى المودة والاخاء فيما بينها

وهي أيضا مستحيلة . .

ثم كيف يا ترى يمكن - مثلا - أن تحكم أمم هذه الامبراطورية وأقطارها المتباعدة رغم تجاورها ، وطرق المواصلات بينها على ما نعلم ، المختلفة في أمزجتها ودرجة ثقافتها رغم اتحاد لغتها وعقائدها ؟

هل توجد طريقة الحكم فيها ؟ ما أظن ذلك إلا متعذراً إن لم يكن مستحيلا . لأننا إذا

وقع اختيارنا على الحكم النيابي مثلا ، لا نستطيع أن ننكر أن بين تلك الاقطار ما لا يصلح له هذا النوع من الحكم في الوقت الحاضر ، بل لابد قبل الأخذ به من التدرج اليه ، حتى تصبح هذه الأقطار على درجة من الثقافة والمدنية تؤهلها للحياة النيابية . . وهذا فضلا عما فيه من معانى الاستقلال السياسى بطبيعة الحال ، فضلا عما سيخلقه بين العائلات التواقة لتولى الحكم فى كل من هذه الاقطار من تنازع وتطاحن وخصام

ذلك كله . وكثير غيره ، يجعلنى أؤمن بأن التفكير فى إنشاء «امبراطورية» عربية ـ رغم استحالة تحقيقه عملياً ـ تفكير سقيم يضر ولا ينفع ، ويؤدى الى خراب تلك الامبراطورية على فرض امكان إنشائها ، ويحمل بعضها الانفاق على البعض والدفاع عنه ، وينتهى بها آخر الأمر الى مثل ما انتهت اليه الامبراطورية العثمانية ، التى يحمد الأتراك ربهم اليوم على أن خلصهم من مسئولياتها الجسام ، والتى غدوا بعد زوالها أعز جانباً منهم فى تلكم الأيام

امتزاج تام . . واستقلال تام

فكيف إذن يتم الامتزاج المنشود ويتكون « الحلف » الذى نسعى اليه ونعمل لتحقيقه ؟

الذى أريده ، ويجب أن نريده جميعاً ، هو تضامن تلك الامم العربية وتعاونها فى كل ما يعود عليها بالخير ، بشرط ضمان الاستقلال السياسى لكل واحدة منها ضمانا تاماً كاملا . . فيترتب على ذلك أن يكون هناك تعاون أكيد فى الثقافة ، وفى التجارة ، وفى الصناعة ، وفى شئون الدفاع ، وبالجملة فى كل ما لا يمس استقلال أمة من هذه الامم سياسياً أو جغرافياً

ومصر قد حباها الله ميزات متعددة لا شك فيها ، تعترف بها شقيقاتها العربية وتعترف لها بالزعامة العربية الشرقية الاسلامية من أجلها . . تمتاز بارتفاع مستوى الثقافة فيها ووجود الازهر الشريف والجامعة المصرية وغيرها من المعاهد العلمية . وتلك قوة روحية تهذيبية لها الامتياز الذى لا يجادل فيه أحد

وهى تمتاز الى ذلك بأن عدد سكانها أكثر من أى بلد عربى آخر ، كما أن ثروتها أكبر من ثروة غيرها من الاقطار العربية

وذلك كله فضلا عن أنها بحكم موقعها الجغرافى تعتبر قلب العالم العربى ونقطة الاتصال بين أممه المختلفة ، من طنجة الى ايران ، وبذا تستطيع كل منها أن تلتقى بأخواتها فى القاهرة للتفاهم

على ما يعود بالخير على العرب ، كما يجد كل مؤتمر عربي فى هذه العاصمة مركزاً رئيسياً لاظهار التضامن والتفاهم ، كما حدث فى المؤتمر البرلمانى الفلسطينى مثلا . . . وهى اذن بكل تلك المزايا أقدر على تحقيق ما ترجوه الأمم العربية من تطبيق هذه الزعامة تطبيقاً عملياً ناجحاً

فلم اذن لا تكون الروابط بين مصر وشقيقاتها التى تشاطرها العنصرية واللغة والدين ، كتلك الروابط التى تجمع بين انجلترا والامم البريطانية الاخرى التى تتألف منها الامبراطورية ، كأوستراليا ونيوزيلندا وكندا وجنوب أفريقيا ، مع فارق واحد ، هو أن تكون كل واحدة من هذه الامم مستقلة من الناحية السياسية والجغرافية استقلالا تاماً كاملا ؟ !

الزعامة الدينية بعد الزعامة العنصرية

ثم ان مصر كما أن لها هذه الزعامة بين الامم العربية تستطيع أن تدعيها أيضاً بين أمم الاسلام . . وها نحن قد رأينا تلك الحركة المباركة التى قامت بها مصر بزعامة المغفور له الملك فؤاد ، ثم بزعامة الفاروق من بعده ، اذ فتحت أبواب معاهدها الدينية والعلمية لأبناء الاقطار الاسلامية جميعاً دون أن تقصرها على أبناء العرب ، فأصبحت تلك المعاهد تضم طلاباً من تركيا وايران وأفغانستان والصين واليابان والملايو وغيرها من الاقطار النائية ، الى جانب أبناء العراق والحجاز واليمن والشام سواء بسواء . . وتلك لا ريب قوة عظيمة لمصر وللأمم العربية كلها مستندة الى أخواتها الاسلامية فى العالم كله

فاذا ما قدرنا هذه الفوائد الجمة كان السبيل أمامنا ميسراً لتحقيق المثل الاعلى الذى يتفق واستعداد الامم العربية الاسلامية ، ولنسترجع ذلك المجد الذى ضيعناه بانقسامنا على أنفسنا وانغماسنا فى المهاترات الحزبية التى لاطائل تحتها ، فما من أمة فقدت مثلها العليا الا فقدت معها كيانها وشخصيتها واستقلالها .

واذا كان العالم الآن يضطرب فى أتون من الحقد والظلم ، ألم يكن أولى بنا أن نعمل على أن نظهر للانسانية جمعاء أننا وان كنا أمماً ضعيفة فى الوقت الحاضر الا أننا كنا فى الماضى أقوياء ، وأننا سنسعى لنسترد هذه القوة ونستعيد ذلك المجد فى المستقبل القريب ؟ !

العرب عنصر طاهر

وانا لنسمع بعضهم يهذر بأننا لسنا من العناصر الراقية التى يصح لها أن تطمع فى الوصول

الى درجات الانسانية السامية . وهذا زعم باطل ، التاريخ القريب والبعيد أكبر شاهد على فساده وتلفيقه ، لأن العنصر العربي عنصر طاهر زكى من أسمى العناصر وأنقاها ، لا يعيبه الا هذا العارض الوقتى الذى أدى به الى ما هو عليه اليوم من ضعف سيزول ان شاء الله عما قريب . .

فهذه مصر مثلا . . فهى إما أمة مصرية بحتة ، أو أمة عربية ، أو مزيج بين المصرية والعربية . وهى قد أثبتت ـ كمصرية ـ أنها كانت فى الازمان الغابرة سيدة هذا العالم كله فى العلوم والفنون والفلسفة والسياسة ، فى حين كان غيرها يسكن الجبال والغابات . . وهى قد أثبتت كأمة عربية ما كان عليه العرب من ذكاء ونبل وتقدم فى العلوم والسياسة والفلسفة والاختراع

وما يقال عن مصر يقال مثله عن العراق والحجاز والشام . . أنظر الى ممالك الاشوريين والبابليين والفينيقيين ، وانظر الى الدولة الاموية والدولة العباسية والاندلس . . أنظر الى هذا الميراث الضخم الذى يدل دلالة واضحة على أن الامم العربية هى هذا العنصر الزكى الطاهر القادر، الذى ان كان قد تخلف عن تبوء مكانه اللائق فى خدمة الانسانية وفى ميدان الحضارة والمدنية في الوقت الحاضر، فليس ذلك راجعاً الى أنه دون غيره من العناصر التى تتمتع اليوم بالجاه والسلطان ، انما هو راجع الى تلك السياسات الخربة الهدامة التى سار عليها حكامه فى بعض القرون الماضية ، مما نسأل الله أن يبرئنا جميعاً من مساوئه ، ويهيء للشرق كافة من ولاة أموره من يعمل على استرداد مجده واسترجاع عزه وسؤدده ، ويلهم رجال السياسة منا ألا ينظروا الى شيء الا مصلحة أوطانهم ، وأن يفنوا ذواتهم وشخصياتهم فى سبيل بلادهم ، فيرفع هذا الشرق العربى رأسه من جديد ، ويسير فى معترك الحياة موفور القوة والكرامة ، وكفانا ما يحيط بنا من عبر تفتت الاكباد

محمد على علوبة

الثقافة العربية والحرب

بقلم الدكتور طه حسين بك

مراقب الثقافة العامة بوزارة المعارف

« ما أظن أمة متحضرة تستطيع أن تزاحم الامة العربية فى الشعر العربى الرائع »

إذا ذكرت الثقافة العربية فهم منها فيما أعتقد مجموعة التراث المعنوى الذى تناقلته أجيال الأمم الاسلامية منذ العصر الجاهلى العربى الى الآن ، والذى اعتمدت عليه فيما لا بد لها منه من غذاء العقول والقلوب وتكوين الشعور

وأقول الأمم الاسلامية ولا أقول الأمة العربية وحدها لأن الأمم الاسلامية على اختلاف أجناسها وأمزجتها و بيئاتها الجغرافية ، لم تعرف لنفسها بعد الى الآن ثقافة خاصة قد انفصلت عن الثقافة العربية انفصالا تاما ، بل سنرى بعد قليل أن هذه الامم مهما تستقل ، ومهما تبالغ من التعصب لجنسيتها ولغتها ، ومهما تخاصم اللغة العربية خصاما متعمداً ، أو خصاما غير مقصود ، فلن تستطيع أن تقطع الصلة بين ثقافتها و بين الثقافة العربية الخالصة . ذلك أن هذه الامم مسلمة مهما تجدد ، ومهما تتصل بالعالم الاوربى الحديث . وللاسلام ثقافته العقلية والشعورية . وهذه الثقافة الاسلامية قد صبت فى قوالب اللغة العربية أثناء أربعة قرون أو خمسة قرون . فلما أخذت اللغات الاجنبية الاسلامية تستقل لم تستطع أن تنفصل عن هذه الثقافة الاسلامية العربية ، وانما جعلت تترجم هذه الثقافة وتذيعها مضيفة اليها أو ناقصة منها أو منحرفة بها بعض الشيء عن طريقها الاولى . ولكنها احتفظت بها فى جوهرها ومضت على ذلك القرون . وتتابعت على ذلك الأحداث ، وظلت هذه الثقافة العربية الاسلامية جوهر الحياة العقلية والشعورية لهذه الأمم ، حتى كان ذلك العصر الحديث ، فاتصل منها بالعالم الأوربى من اتصل وزينت الحضارة لبعض هـــذه الأمم واقتضت الظروف أن تغلو فى الاتصال بأوربا ومضى

بعضها فى هذا الغلو حتى خاصم اللغة العربية خصاما صريحاً ، وحتى دعاه ذلك الى أن يدخل فى نظامه هذه الفكرة الاوربية الشائعة فى بعض البلاد فكرة الدولة التى لا دين لها

وعلى رغم هذا كله لم تستطع هذه الامم ولن تستطيع أن تخلص ثقافتها من أصولها وجواهرها الأولى التى هى أصول الثقافة العربية وجواهرها ، لأن هذه الأمم مسلمة أولا ، سواء تدينت الدول فيها أم لم تتدين ، ولأن الثقافة الاسلامية قد كونت لهذه الامم قديمها أو جزءاً أساسياً خطيراً من قديمها فهى لا تستطيع أن تتبرأ من هذا القديم . ومثل هذه الامم فى ذلك مثل الامم الاوربية الحديثة التى لا تستطيع أن تبرأ من تراثها اللاتينى اليونانى مهما تفعل ، مع أنها قد برئت من الديانات الوثنية التى كان اليونان والرومان يؤمنون بها ومع أنها قد غيرت الحضارة اليونانية الرومانية تغييراً عظيما

فالثقافة العربية إذن معنيان : أحدهما ضيق الحدود لا يتجاوز هذه الأمم التى تتكلم اللغة العربية وتعيش عليها ، والآخر واسع الحدود يشمل الأمم التى تدين بالاسلام وتقيم حضارتها على أصوله وعلى كتابه الكريم

وأذكر غذاء العقول والقلوب وتكوين الشعور لأنى لا أفهم من الثقافة ما يتصل بناحية بعينها من نواحى الملكات التى تكون الحياة المعنوية للفرد أو الجماعة . وانما أفهم منها ما يتصل بهذه الملكات جميعاً فيغذيها وينميها ويمضى بها فى طريق التطور والارتقاء

فالثقافة العربية ليست مقصورة على الأدب ولا على الفن ، ولكنها تشمل الأدب والفن وتشمل العلم والفلسفة وتشمل هذه الاشياء كلها . فالثقافة العربية كلمة جامعة تشمل كل ما تجد النفس الاسلامية فيه مادة لأى ناحية من نواحى حياتها المعنوية

وإذا حددت الثقافة العربية على هذا النحو كان من السهل بعد ذلك أن نبحث عن هذا الموقف منذ أقدم العصور التى عرفنا فيها هذه الثقافة

وواضح جداً أن هناك فرعاً من فروع هذه الثقافة بل من فروع الثقافات كلها لا نحتاج الى أن نبحث عن موقفه من الحرب والسلم ، لأن موقفه منهما معروف وهو بطبيعته واحد فى جميع الأمم والعصور وان اختلفت فى المظاهر اختلافاً ما . وأريد بهذا الفرع العلم الذى يصدر عن العقل ويتجه الى العقل فيغذيه وينميه ، ويمكنه من استنباط علم جديد كما يمكنه من تيسير الحياة العملية للناس وتنظيمها وتمكينها من الانتاج . فالعلم فرع من الثقافة يتصل

بالاجناس كلها و بالأوطان كلها و باللغات كلها و ينسب الى هذه الأجناس والأوطان واللغات ، ولكنه على ذلك يظل مستقلا عنها مسيطراً عليها دون أن يتأثر بأمزجتها و بيئاتها إلا قليلا . فأنت تذكر العلم العربي والفرنسي والانجليزي والالمانى . تريد بذلك هذه الفنون العلمية التى كتبت بلغة أمة من هذه الأمم وتأثرت بجهود أبنائها ونمت بما أتيح لهم من البحث والانتاج ، ولكنك مع ذلك معترف بأن جواهر هذه العلوم شائعة بين هذه الامم ، متصلة بعقولها جميعاً ، مستقلة عن أجناسها ولغاتها وعن أوطانها وأمزجتها ، فقانون الثقل هو قانون الثقل سواء كتب باللغة العربية أو بغيرها من اللغات ، وهو قانون الثقل مهما يكن العقل الذى استنبطه ، وهو قانون الثقل مهما تجتهد الامم فى درسه وتطبيقه فى الحياة العملية واتخاذه وسيلة الى استنباط قوانين أخرى . هو اذن عربي وانجليزى وفرنسى لانه يكتب بلغات هذه الأمم ولأن هذه الأمم تدرسه وتستغله فى حياتها العملية والعلمية . ولكنه على كل حال مستقل عن هذه الامم وعن غيرها لا تتغير طبيعته ونتائجه بتغير الاقاليم التى يدرس فيها

وهذا الفرع من فروع الثقافة الذى نسميه العلم له موقف واحد من الأمم كلها ، فهو يغذى عقولها ويعينها على استغلال الطبيعة وتسخيرها لمنافع الناس . وهو فى أصله معرفة خالصة ونفع خالص ، ولكن طبائع الأمم وأمزجتها تستطيع أن تستغل نتائجه وآثاره لمصلحة السلم ولمصلحة الحرب . ونحن نرى الآن من هذا كله الشىء الكثير

فلسنا فى حاجة اذن الى أن نبحث عن موقف هذا الفرع العلمى من فروع الثقافة العربية بالقياس الى الحرب ، انما فروع الثقافة الأخرى تلك التى تتصل بالشعور والقلوب وتصوغ الأمزجة وتكون الأخلاق هى التى تختلف باختلاف الأمم ، وهى التى تتباين بتباين الأوطان والبيئات ، وهى التى يمكن أن تصور تصويراً صحيحاً ميول الأمم الى الحرب أو حرص الأمم على السلم . فانت واجد فى الفرع الأدبى من الثقافة لأى أمة من الأمم ما يصور لك مزاج هذه الأمة وأخلاقها وعواطفها وأهواءها ، وأنت تستطيع بملاحظة هذه الصور أن تحكم بان هذه الامة تميل الى الحرب أو تنفر منها وتجنح الى السلم أو تزور عنها . وأنت حين تقرأ آداب الامة اليونانية القديمة مضطر الى أن تعترف بأن الأمة اليونانية كانت أمة حرب وصراع ، كما أنها كانت أمة سلم ودعة . تجد ذلك مصوراً فى الالياذة والاودسة كما تجد ذلك مصوراً فى تمثيل الممثلين وغناء المغنين وتاريخ المؤرخين . وفى هذا القسم من الفلسفة الذى يتصل بالسياسة

والاخلاق . بل أنت تستخلص من آداب اليونان وفنهم ومن فلسفتهم السياسية والخلقية طبيعة الحرب التى كانوا يميلون اليها و يبرعون فيها . ومن هذه الآداب والفنون والفلسفة نعرف طبيعة الحياة الحربية الخالصة فى سبرتا ، كما نعرف طبيعة الحياة التى كانت مزاجا بين الحرب والسلم فى أثينا . ومن هذه الاداب والفنون والفلسفة نعرف تفوق اللاتينيين فى الحرب البحرية وتفوق خصومهم الاسبرتيين فى الحرب البرية

ومثل هـذا يقال بالقياس الى الرومان فآدابهم وتاريخهم وفنونهم تعرفنا طبيعة مزاجهم الحربى ، ومقدار تفوقهم فى الحرب و براعتهم فيها ، وأرباب الفنون الحربية التى كانوا يمتازون بها . وأنت اذا درست الديانات اليونانية والرومانية عرفت مقدار ما كان لهذه الديانات من تأثير فى ميل اليونان والرومان الى الحرب واقدامهم عليها وثباتهم لاهوالها اذا شبت نارها ، وعرفت ان آلهة اليونان والرومان كانوا يحثون على الحرب ويرغبون فيها و يدفعون اليها وان آلهتهم كانوا يحبون السلم ويدعون اليه ويصدون الناس عن أهوال الحرب ومنكراتها . وليس فى هذا كله شىء من الغرابة فان الادب والفن والدين وبعض فنون الفلسفة متصلة أشد الاتصال بحياة الأفراد والجماعات مؤثرة أشد التأثير فى طبائع الأمم وأمزجتها . فهى من هـذه الجهة مرآة صادقة لما تمتاز به الحياة الخاصة والعامة من غلظة ورقة ومن عنف ولين

واذن فما عسى أن يكون موقف الثقافـة العربية الأدبية والدينية من الحرب ؟ سؤال لا يحتاج الباحث الى كثير من الجهد للجواب عنه . فادبنا العربى قد اصطبغ منذ عصره الجاهلى بهذه الصبغة التى تصور حياة الامة العربية فى باديتها ، مهما تختلف العصور والظروف على هذه البادية وهذه الحياة العربية البدوية تقوم على الجهاد والصراع قبل كل شىء ، فجدب الأرض وشدة الاقليم وقصور ماتنتجه الطبيعة عن ارضاء حاجات الناس . كل ذلك يجعل هذه الحاجات أكثر من الموارد التى تستطيع ارضاءها ، ويضطر الناس اذن الى التنافس ، و يثير بينهم أنواع الخصومات وينتهى بمزاجهم الى شىء من الحدة يجعلهم الى الجهل اقرب منهم الى الحلم والى العنف ادنى منهم الى اللين . وكذلك عرف العرب منذ عصورهم الاولى بميلهم الى الحرب وامعانهم فيها ، وصورت لنا الآداب التى حفظت عنهم أمة لاتسالم الا ريثما تدفع الى الحرب دفعاً ولا تهدأ الا ريثما تتهيأ للثورة . ومن هنا كان أظهر فن من فنون الشعر حفظ عن القدماء ، هو فن الحماسة الذى يصور الحرب وأهوالها و يصور ما يتصل بالحرب وأهوالها من أخلاق الصبر والجلد واحتمال المكروه .

والشاعر العربي الجاهلي اذا تحدث عن نفسه عنى قبل كل شيء بتصوير شجاعته اذا كانت الحرب ، و بتصوير جوده اذا كانت السلم . فاذا تحدث عن قومه لم يصور من الاخلاق الاجتماعية إلا الشجاعة والبأس فى أوقات الحرب والسخاء والجود فى أوقات السلم . وهو كذلك اذا مدح أو رثى كما أنه اذا هجا عاب خصمه بالجبن والاحجام كما يعيبه بالبخل والحرص . وهو اذا تغزل أو أراد أن يتحدث الى صاحبته عن نفسه وعن قومه لا يكاد يتحدث الا عن الشجاعة والبأس وعن الكرم والجود

وقد رويت عن العرب الجاهليين خطب ، سواء صحت عنهم أم لم تصح ، وهي كلها أو أكثرها انما تصور الحرب والسلم التى تأتى فى أعقاب الحرب . وقليل جداً مما يؤثر عن العرب القدماء من الشعر والنثر ، يصور الحياة الهادئة المطمئنة التى لا يشوبها فزع ولا خوف . وربما كان سلامة بن جندل فى بائيته المشهورة :

أودى الشباب حميداً ذو التعاجيب أودى وذلك شأو غير مطلوب

من أصدق ما حفظ عن العرب القدماء تصويراً لهذه الحياة التى كان الامر فيها دولة بين الحرب والسلم

إن الشباب الذى مجد عواقبه فيه نلذ ولا لذات للشيب
يومان يوم مقامات وأندية ويوم سير الى الاعداء تأويب

وقد ورث العرب المسلمون سنن الشعر الجاهلى وتأثروها وكانت حياتهم بعد ظهور الاسلام ملائمة لهذه السنن والتقاليد . فهم كانوا يحاربون ويسالمون ويقسمون أيامهم قسمة ربما كان حظ الحرب فيها أعظم من حظ السلم . فهم قد جاهدوا المشركين أيام النبي ، وهم قد فتحوا الارض أيام الخلفاء ، وهم قد استمروا فى الفتح وخاصم بعضهم بعضاً أيام بنى أمية

فهم إذن كانوا فى حرب متصلة وكانت آدابهم مصورة لهذه الحياة بل كان أمر أدبهم عجيباً . فهم كانوا ان نظروا الى حاضرهم وجدوا حرب الفتوح والفتن فصوروها وتفاخروا ببلائهم فيها ، وان نظروا الى قديمهم وجدوا ما كان بين القبائل من الجهاد والصراع . فصوروهما وتفاخروا ببلاء آبائهم فيهما . وأنت واجد فى شعر الاسلاميين أيام بنى أمية وفى خطبهم وفيما حفظ من رسائلهم حروب الاسلام والجاهلية جميعاً . على أن العرب خاصة ، والمسلمين عامة ، قد وجدوا منذ القرن الثانى شيئاً من الامن والدعة والهدوء فى بعض

الامصار ، أو قل انهم مضوا فيما كانوا فيه من حرب الفتح والفتن . ولكن جماعة من شعرائهم وكتابهم وأدبائهم بوجه عام قد نظروا الى حياة السلم الآمنة أكثر مما نظروا الى حياة الحرب والخوف ، فكثر الشعر والنثر اللذان يصوران الحياة الآمنة الوادعة ، ولم يقل مع ذلك الشعر والنثر اللذان يصوران الحياة الثائرة المحاربة . وقلما تجد شاعراً أعرض عن وصف الحرب إلا أن يكون رجلا قد فرغ لفن بعينه من فنون الشعر كجميل وعمر أيام بنى أمية وكالعباس بن الاحنف أيام بنى العباس . والآداب العربية الرفيعة مسايرة للتاريخ العربى العام تصور الحرب والسلم كما يصورها

حتى اذا كان القرن الرابع وتغيرت حياة المسلمين تغيراً شديداً بقى من حياتهم القديمة شيئان لم يتغيرا . أحدهما اتصال الحروب الداخلية بين الاقاليم الاسلامية والحروب الخارجية بين المسلمين والروم . والآخر تصوير الشعر لهذه الحياة الحربية المتصلة . وما أظن أن أمة متحضرة تستطيع أن تزاحم الأمة العربية فى الشعر الحربى الرائع بعد أن وجد المتنبى الذى صور الحرب الداخلية والخارجية أروع تصوير وأبرعه ، والذى ظفر من إعجاب الامة العربية القديمة والحديثة بما لم يظفر به شاعر عربى آخر

ويجب أن تكون هناك صلة بين تصوير هذا الشاعر للحرب وميول الامة العربية الى الحرب فى أطوار نشاطها وخمودها جميعاً . فلا يمكن اذن أن يقال إن الادب العربى ، ولا سيما الشعر ، أدب سلمى خالص . ولا غلو ولا اسراف اذا قيل ان نزعة الحرب أظهر فى الشعر العربى على اختلاف عصوره من نزعة السلم سواء أكان مصدر هذه النزعة اشتراكا صحيحاً فى الحرب أو تقليداً للشعراء القدماء . وأظن ان شيئاً مثل هذا يمكن أن يقال فى شعرنا المصرى الحديث . فقد أرادت ظروفنا الادبية والسياسية أيضاً أن يكون البارودى مثلا مقلداً للقدماء فى مذاهبهم الشعرية وأن تواتيه حوادث السياسة المصرية والشرقية فتعرض أمامه حروباً يشترك فيها ويقول فيها الشعر . وكذلك أرادت الظروف لشوقى أن يقلد القدماء من جهة وأن يصف حروب الترك وثورة المصريين من جهة أخرى . ومثل هذا يقال فى حافظ

فللحرب اذن سلطان ممتاز على شعرنا العربى بل على أدبنا العربى كله قديماً وحديثاً

طه حسين

(البقية على صفحة ١٧٤)

المستقبل بعد الحرب

هل هو للشرق أو للغرب ؟

بقلم الاستاذ عباس محمود العقاد

ان الشرق بعد اليوم لن يكون كما مهملا ، ولا لقمة سائغة للمزدرد ، بل سيأخذ كما يعطي ، ويعمل كما يعمل في الشركة الانسانية وسيكون له المستقبل على هذا الاعتبار

أى مستقبل ؟ هل المقصود بالمستقبل هنا تداول السيادة بين الشرق والغرب على النحو الذى رأيناه فى تاريخ المشارقة والمغاربة حتى الآن ؟

ان كان هذا هو المقصود ففى اعتقادنا ان المستقبل لا يأتى بسيادة لأحد الفريقين على الآخر ، لان العبرة التى ستخرج بها الامم من الحرب الحاضرة ان السيادة خطة عقيمة تربى خسائرها على غنائمها وترجح كفة السيئات فيها على كفة الحسنات

فالدولة من الدول القوية تحتاج الى بضاعة من الصين وبضاعة أخرى من إيران ومادة خامة من العراق ومادة أخرى من جزر الملايا ، وهكذا المواد التى تحتاج اليها من البلاد الافريقية او الاوربية ، تتفرق كما تفرقت بلاد المعمور فى الشرق والغرب والشمال والجنوب

وما تحتاج اليه دولة قوية تحتاج اليه دولة مثلها فى القوة وأقوى ، فليس فى استطاعتها أن تسود العالم كله عنوة ، ولا أن تجمع بين إخضاع البلاد المطموع فيها والغلبة على البلاد المنافسة لها فى مضمار التجارة والصناعة ، وبخاصة اذا نظرنا الى تقدم الامم التى كانت متأخرة وارتقاء طبقة المعيشة بين الشعوب التى كانت تقنع بقليلها ولا تكلف السادة عناء كبيراً فى سيادتها

فلا نقول ان الدول القوية ستعدل عن خطة السيادة تعففاً منها عن الكسب ورحمة بالضعفاء فقد يكون هذا كثيراً على آداب السياسة الدولية التى لا تزال حتى الساعة فى مؤخرة الآداب

ولكننا نقول إنها تعدل عن خطة السيادة لأنها لا تجد فيها كسباً يساوى جهودها وأخطارها ، ولأنها قد تنال بالتعاون المعقول ما ليست تناله بقمع الضعفاء والتغلب على المنافسين ، وهم يزدادون ولا ينقصون

وقد مضى زمن كانت السيادة فيه أنفع وأسهل من التعاون ، فاستمرت السيادة لأنها نافعة وسهلة ، ثم استمرت بالمحاكاة والبقاء على القديم بعد أن قلت منافعها وزادت مشقاتها ، ولكنها بلغت أقصاها فى الحرب الحاضرة فلا تعيش بعد الآن الا ريثما يوجد النظام الذى يخلفها . وقد يصعب ايجاد هذا النظام دفعة واحدة عند الحاجة اليه ، ولكنه متى أصبح ضرورة من الضرورات فسوف يتغلب على عقبات التقليد والبقاء على القديم

إذن لا سيادة للغرب على الشرق ولا للشرق على الغرب بعد الحرب الحاضرة ، وانما المستقبل للتعاون فيما نرجو ونعتقد ، لأنه محقق لمصلحة الأقوياء والضعفاء

أما اذا كان المقصود بالمستقبل أن تنتقل الحضارة الاوربية الى البلاد الشرقية فنحن من الذين يؤمنون بأن الحضارة العصرية انسانية فى صبغتها واتجاهها . فليس فى العصر الذى نحن فيه حضارة تبنى هرماً مصرياً أو بيعة أشوربة ، وليس فيه علم خاص بأمة دون أمة أو طائفة دون طائفة ، وانما هى حضارة العلم التجريبى التى تظهر فى كل مكان يظهر فيه العلم والعمل والتى يدان بها فى القاهرة كما يدان بها فى لندن ونيويورك . فلا محل لأن يقال إن مصباح الحضارة يخبو هنا و يسطع هناك ، أو أن الحضارة تصبح شرقية بعد أن كانت غربية . وتنزل بين أناس ثم تأبى النزول بين أناس آخرين ، وأصوب من هذا أن يقال إن الانسانية بأسرها تشترك فى حضارة واحدة تختلف بالمقدار أكثر من اختلافها بالكنه والحقيقة

ومن من الشرقيين اليوم يتمنى أن ينتقل العلم كله الى الشرق وأن يحتجب نوره عن الأمم الاخرى فتغرق فى ظلام الجهالة ؟

إن جهالة الامم الأخرى لا تنفعنا بل تضرنا وتهددنا وتقطع علينا سبيل الانتفاع بحضارتنا وتقدمنا ، وأقل ما فى الأمر انك تحتاج الى من يشترى ثمرات حضارتك فلا تجده ، وتحتاج الى من يبادلك وتبادله فوائد العلم فلا تجده ، وتحتاج الى غيرك فلا تجد غيرك قادراً على سد حاجة من حاجات الفكر أو الروح أو المعيشة

فالمستقبل فيما نرجو ونعتقد بعيد من آفة السيادة ، بعيد من احتكار الحضارة والعلم والصناعة ، بعيد من العزلة التى جعلت الشرق والغرب فيما مضى كالميزان ذى الكفتين لا ترتفع إحداهما الا هبطت الثانية

وقد برزت شواهد هذا التغير من سنين عدة وان كانت آفات العهد البائد لم تتغير كل التغير فى خلال هذه السنين ، فتقاربت المصالح أو اشتبكت حيث حيل بينها و بين التقارب ،

وأصبح العمل المنفرد وبالا على المنفردين هاجمين كانوا أو مدافعين ، ولاحت طلائع المستقبل فرأينا من طلائعه اللائحة انه لن يكون للاقوياء وحدهم بالغة ما بلغت قوتهم ، وتلك فيما نرجو ونعتقد علامة على أن المستقبل للاقوياء والضعفاء ، وأن القوى يسعى الى هذه النتيجة كما يسعى اليها الضعيف

* * *

وسيكون المستقبل للشرق على هذا الاعتبار

أى على اعتبار ان الشرق بعد اليوم لن يكون كما مهملا ولا لقمة سائغة للمزدرد ، وسيأخذ كما يعطى ، ويعين كما يعان ، وان اختلفت أنواع الاعانة والعطاء

وسيكتب النصر لفريق من الفريقين المتنازعين ، فيخرج من الحرب وهو مضطر الى أن يحسب حساب المغلوبين الجدد وحساب الامم الصغيرة التى كانت منسية قبل الآن ، ولن يخرج من الحرب بالقوة التى تطغى على جميع هؤلاء . فلا غنى له عن سياسة التعاون والموادة ، ولا نجاح للذين يواجهون هذا العالم الجديد بخطة القمع والجبروت ، فانها خطة تؤدى الى الفوضى وتتابع الفتن ولا يستقر عليها قرار غالب ولا مغلوب

وعندنا أن تمام هذا التعاون انما يكون بانتصار الديمقراطية وهزيمة النظم القائمة على العصبية والاستبداد ، ولا سيا فى الامم الشرقية

لأن تقدم الشرق فى الثقافة ، بل تقدم كل أمة فى الثقافة ، انما يعتمد على دعامتين اثنتين الاولى حرية الفكر ، فلا يتصور العقل ثقافة مع تقييد الأفكار والقرائح والحجر على القول والكتابة وأخذ الناس بالزجر والارهاب

والدعامة الثانية هى نهضة الصناعة وهى النهضة التى تتعلق بها الثروة والمنعة وترقية المعيشة واكتفاء الأمة بما عندها جهد ما يستطاع الاكتفاء فى العالم الجديد

اوليس مع انتصار المستبدين نهضة صناعية لأمة من الأمم الصغيرة والامم الشرقية على التخصيص

لأن الاستبداد النازى قائم على احتكار الصناعة الكبرى للنازيين وتسخير الأمم كلها فى الأعمال الزراعية التى تجعلها فى حكم العبيد المفتقرين أبداً الى السيد الجائر المساط عليهم بعصا من حديد ، فلا يزال هؤلاء العبيد مسخرين لمن يأخذ منهم محصولاتهم الزراعية ، مسخرين لمن يجاب لهم البضائع المصنوعة التى لا تصنع فى بلادهم ، مسخرين لمن فى يده

السلاح ومعامل الذخيرة ، يائسين من الثورة على هذا الاستعباد ، مذ كانت الثورة عسيرة على من تثور عليه وأنت مفتقر اليه فى القوت والمعاش ، خائف مما فى يديه من سلاح وسيطرة متغلغلة فى الجهر والخفاء تجمع له الخدام والأعوان من صفوف المغلوبين المسخرين

فلا مستقبل بغير ثقافة

ولا ثقافة بغير حرية فكرية ونهضة صناعية

ولا حرية للفكر ولا نهضة للصناعة بين الشرقيين مع انتصار الاستبداد وهزيمة الديمقراطية

فمستقبل الشرق فى طريق واحد وهو طريق التعاون الذى يجعل له حصة محسوبة فى الشركة الانسانية ، ولن يكون تعاون فى العالم بغير حرية لمن يعين ومن يعان

عباس محمود العقاد

اصحاب الجلالة ملوك العرب

فى البلدان العربية ملوك خمسة يحملون لقب صاحب الجلالة ، وهم :

صاحب الجلالة ملك مصر فاروق الاول

صاحب الجلالة ملك المملكة العربية السعودية عبد العزيز ال سعود

صاحب الجلالة ملك العراق فيصل الثانى

صاحب الجلالة امام اليمن يحي محمد حميد الدين

صاحب الجلالة سلطان المغرب سيدى محمد

أنّى تتجه الثقافة العربية
بعد الحرب العالمية الحاضرة

بقلم الدكتور أمير بقطر

- اتجاه الثقافة العربية الى الثقافة الالمانية أمر بعيد الحدوث
- سيخبو نور الثقافة الفرنسية وانفها سنوات
- سيعجب العرب بالانجليز وجلدهم على الشدائد
- ستأخذ الثقافة العربية فى الاعتماد على نفسها

يحمل التاريخ فى كل صفحة من صفحاته ، مدى العصور والاجيال ، صورا من الوقائع والحوادث تعززها الادلة والشواهد . ولعل أبرز ما فى هذه الصور نهيرات وغدران تجرى فى غير أعنتها ، وتتلون بغير ألوانها ، وتتخذ لها اتجاهات غير اتجاهاتها . وما هذه النهيرات والغدران سوى ثقافات الامم والشعوب أثر الحرب الفاصلة ، وعقب الانقلابات العالمية الخطيرة ، هذه الثقافات تتغير وتتحول ، وتتلون وتتبدل ، وتمتزج وتتفرع ، وفقا لعوامل داخلية قومية، وخارجية دولية . ونعنى بالثقافة هنا أوسع ما ينطوى عليه معناها الحديث ، وهو طابع الحياة العامة ، من عيش ، وتربية ، وتفكير ، ووجدان

أخذت اليابان منذ الربع الاخير من القرن التاسع عشر تنسلخ فى ثقافتها عن الامم المنغولية « الصفراء » وطفقت تقلد الغرب « الابيض » فى علومه وفنونه ، وتقتبس طرق العيش فيه ، ولم تمض عشرون سنة من القرن العشرين حتى أخذت (بلاد الشمس المشرقة) التربية والزراعة عن أميركا ، وفنون الحرب والطب من ألمانيا ، والهندسة من انجلترا ، والفنون الجميلة من ايطاليا وفرنسا . على انه لم تكد تقف رحى الحرب العالمية الكبرى ، حتى اتجهت الثقافات اليابانية اتجاهات جديدة ، فشقت لبعضها طرقا مستقلة ، مستقاة من البيئة اليابانية والوجدان اليابانى والتفكير القومى ، وحولت دفة البعض الآخر من بلد أوربى الى بلد أوربى غيره . وقد حدا بها الى هذا التحول عدة عوامل ، منها ضياع الثقة فى بعض المبادىء الروحية الاوربية التى أظهرت الحرب فسادها ، ومنها رجحان كفة بلد محارب على غيره فى فنون وعلوم بدت طلائعها ونتائجها

في سنوات الحرب وبعدها ، ومنها تقدم اليابان واعتقاد مفكريها في صلاحية البيئة الاهلية لنمو بذور ثقافية قومية لا تتصل ببذور أخرى أجنبية ، الا عن طريق غير مباشر

والبلدان العربية في مدنيتها الحاضرة واقتباسها للثقافات الغربية ، مثلها مثل اليابان ، وان كان بعضها يعيش في حضارة اليابان في سنة ١٨٩٩ والبعض الآخر يعيش في حضارتها سنة ١٨٧٠ . على ان المراحل التي تقطعها البلدان العربية في ميدان الثقافة تكاد تكون عين المراحل التي قطعتها اليابان من قبل

عبادة البطولة

ولكن ... ما علاقة الحروب الفاصلة بالثقافة ؟

الجواب السريع الذي يخطر بالبال قبل كل شيء ، ان الدولة التي تخرج من المعمعة وعلى رأسها اكليل النصر تبسط سلطانها على دويلات وشعوب ، وتضم اليها من الكرة الارضية مساحات . فيجر معه هذا السلطان ثقافة الدولة الظافرة . ويتعدى هذا الأثر دولا وقد لا يدوم تاج الظفر على رأس الدولة طويلا ، ومع ذلك تتأثر دول بثقافتها لما أبداه رجالها من ضروب الشجاعة والحذق في فنون وعلوم تتصل بالحرب . وهذا يؤدي بنا الى جواب آخر لا يدور بخلد مفكر قبل تأمل في الطبيعة الانسانية ، وما هذا الجواب الا عبادة البطولة والابطال . ولما كانت هذه الظاهرة في طبيعة الانسان تتصل بالعاطفة دون العقل ، وبالقلب دون الرأس أو المنطق ، فان عباد الابطال من الافراد والامم ، لا يفرقون في الغالب بين الدولة الغاشمة المعتدية ، والعادلة المدافعة ، ولايميزون بين الزعيم الوحشي الغاصب والمحارب الذي لا يستل سيفا الا ذودا عن حياضه

الم يدوخ اسكندر الاكبر وجنكيز خان ونابوليون أقطار الارض ؟ ألم تلطخ حرابهم بدماء الابرياء ؟ ورغم ذلك نجد ما وضع من المجلدات والكتب والمقالات تغنيا ببطولة نابوليون مثلا — في جميع لغات الارض — تضيق بها المكتبات العامة والخاصة . وقد وضعت قوائم بأسماء جميع العظام من كبار الفاتحين والمحاربين والعلماء والشعراء والروائيين ، وطلب من مئات الالوف من الناشئين ، في المعاهد الابتدائية والثانوية والجامعية ، أن يضعوا اشارة أمام الاسم الذي يؤثرونه على سواه ، فكانت النتيجة على الدوام « نابوليون » ، ولم يفز « باستور » و « شكسبير » الا بأصوات لا تذكر في جانب نابوليون ، وقد خذل بونابارت في آخر أيامه وعادت خريطة أوربا الى ما كانت عليه تقريبا ، ومع ذلك فقد ظل ابن كورسيكا الى اليوم في أذهان الفتيان والشيوخ بطل الابطال ولعل ذلك يتفق والمبدأ القائل ان الفرص تطرق أكثر من مرة ولكن الطرقة الاولى في الغالب أعلاها . ولكنه لا يتفق والمثل الانجليزي « العظمة كالحب تتسلل الى صاحبها في الظلام ولكنها تخرج منه في وضح النهار »

ولعل السواد الاعظم من البلدان العربية أشد ميلا لعبادة البطولة ، مهما شابها من

عيوب الانسانية ، من سكان أوربا وأميركا ، وذلك لقربهم عهدا بعيشة البداوة • فمن المتحاربين اليوم من لا يتجافى عن قول الزور ، ومنهم من هو أكذب من سراب ، يتخرص على الغير ويفترى عليهم الاكاذيب تحرشا بهم ، ولا يفتأ يتبع السيئة بالسيئة والمنكر بالمنكر ، حتى يجتاح بلادهم ، ويتخذ من أبنائهم عبيدا • بيد ان عباد البطولة لا يعبأون بالطاغية ، طالما كان النصر حليفه ، وطالما كان أتباعه عريضى المناكب ، ضخام الابدان ، كاملى الاستعدادات الحربية ، ينقضون كالصاعقة ، ويسابقون الريح ، فى حين يتثاقل غيرهم ويتقاعد ويتباطأ ويقف موقف المدافع لا المقحام المغوار المهاجم

أثر الحرب الماضية فى نشر الثقافة الانجليزية والفرنسية

كانت دانيمركة وأسوج ونروج والبلاد المتاخمة لالمانيا ، قبل الحرب العالمية الكبرى تعنى بالثقافة الالمانية ، ويتكلم معظم أهليها اللغة الالمانية ، ويقرأ طلبة مدارسها الالمانية ويكتبونها كما يقرأون لغات بلادهم • وما كادت تضع تلك الحرب أوزارها حتى اتجهت الريح نحو انجلترا وفرنسا،خصوصا الاولى،فعكف الكبار والصغار على تعلم الانجليزية كتابة وقراءة ، والاطلاع على آدابها ، والكتب العلمية والاجتماعية فيها ، ونقلوا منها الكثير الى لغاتهم حتى يطلع من لا يتاح له فهم اللغة الاصلية الوقوف على الثقافة الانجلو ساكسونية ، ولما أتيح لنا فى صيف سنة ١٩٣٩ زيارة البلدان الاسكندنافية ، هالنا ما شاهدناه فيها من الاعجاب بالثقافة الانجليزية ولغتها ، والالمام بآدابها وعلومها ، وايثارها على سائر اللغات الاجنبية حتى الالمانية ، فى جميع معاهد التعليم حتى الاولية والشعبية • ولما أن اجتاحت ألمانيا دانيمركة واستولت على مواردها بغير انذار سابق وبغير أن تطلق رصاصة واحدة ، كان أول ما خطر ببالى مصير معاهد التعليم التى زرتها هناك ، وكلها كانت تنبض أفئدتها بحب اللغة الانجليزية والشغف بثقافة المتكلم بها ، وانتشار الكتب والمجلات الانجليزية والاميركية فى كل مكتبة ومعهد وقهوة وفندق ومنزل • وهذه اليابان مع شدة تقربها من ألمانيا سياسيا وثقافيا منذ سنوات ليست بقليلة ، فانها تؤثر الانجليزية أولا والفرنسية ثانيا على الالمانية ، واذا استثنينا تشيكوسلوفاكيا وهنغاريا والنمسا وربما بلغاريا ، فان سائر ممالك أوربا قبل الحرب الحاضرة كانت تؤثر الانجليزية وثقافة أهلها على الالمانية • ولما كان معظم السياح من البلدان السكسونية ، وكانوا فوق ذلك أشد أمانة فى معاملاتهم وأكثر سخاء فى الانفاق من سواهم ، أصبح الزائر يسمع الانجليزية أكثر من الفرنسية حتى فى الامم اللاتينية ذاتها

وليس بخاف ان الثقافة فى أكثر البلدان العربية خصوصا فى الشام وتونس والجزائر ومراكش ومصر ، كانت ، ولا تزال الى حد ما (فى مصر) فرنسية أكثر منها أى شىء آخر • وقد أخذت اللغة الانجليزية فى الانتشار فى مصر ، وأخذت آدابها تتوغل فى أبناء المصريين منذ أوائل القرن العشرين • والمصريون الذين يلمون بلغة أجنبية طائفتان،

أولا أولئك الذين اشتعل فيهم الرأس شيبا وهم يتحدثون بالفرنسية وتكاد أغلبيتهم لا تقرأ الا الفرنسية • وثانيا الفتيان والشبان وطبقة راقية من الذين وخط الشيب شعورهم أو كاد (أو حاول فلم يفلح) ، وهؤلاء يتحدثون بالانجليزية ، ويقرأ آدابها نفر قليل منهم ، ممن تلقوا العلم فى انجلترا واسكوتلندا (وفى حالات نادرة فى أميركا) وفى الجامعة الاميركية فى بيروت ، وفى المعاهد الانجلوساكسونية فى مصر • واذا استثنينا خريجى كلية الطب فى مصر فان الشبان من خريجى سائر الكليات والمعاهد المصرية لا يقرأون (الا فى النادر) كتبا انجليزية ، علمية أو أدبية أو روائية ، لانهم لا يستسيغون الانجليزية لعدم رسوخ أقدامهم فيها

الا ان ما قلناه عن مصر ينطبق على الرجال دون النساء • فلغة المرأة المصرية الراقية لا تزال الفرنسية ، لكونها لغة « الصالون » والنشاط الاجتماعى وقل من النساء المصريات من يتكلم الانجليزية أو يلم بآدابها ، اللهم الا الفتيات الناشئات اللاتى تخرجن من مدارس الحكومة فى السنوات القليلة الاخيرة ، والنساء اللاتى تلقين علومهن فى المدارس الانجلوسكسونية فى مصر والخارج

على انه يلاحظ جليا ان الفئة التى تحسن الانجليزية وثقافتها فى مصر وسائر البلدان العربية ، تحسن كذلك العربية وتستسيغ آدابها ، وتتخاطب بها ، فى حين ان الفئة التى تحسن الفرنسية وتأثرت بثقافتها ، يجهل أفرادها العربية وآدابها ولا يستسيغون كتبها وصحفها ومجلاتها ، ولا يكادون يقرأونها • ولست أبالغ اذا قلت ان السواد الاعظم منهم أعاجم لا يستطيعون أن ينطقوا بجملة عربية بغير أن يكون المبتدأ فرنسيا ، أو الخبر ، وفى تونس والجزائر من المتعلمين من لا يتكلم غير الفرنسية • وقبل أن آتى على آخر هذه الفقرة أرى نفرا من القراء يقاطعوننى بقولهم لا• لا• ويسردون لى أسماء من سوريا على الاخص من نوابغ الفرنسية ومن نوابغ أدباء العربية وكتابها • هؤلاء أيها القارىء الكريم شواذ عن القاعدة والشاذ لا يعول عليه • فما عليك الا أن تخاطب وزراءنا السابقين وكبار موظفينا من ثمرة الثقافة الفرنسية وأنا أراهنك فى معظم الاحوال ان جملة واحدة عربية لن يكمل معناها دون أن تسد ثغراتها كلمات وعبارات فرنسية

هزيمة فرنسا وأثرها فى الثقافة الفرنسية

وهناك ظاهرة غريبة أعرضها أمام القراء • لما أن رأى الناس بعيونهم فى الحرب الحاضرة ـ لما رأوا الفرنسى مخلوع الفؤاد ، واهى الجأش ، خوار العود ، وانه أخذ يضرب بذقنه الارض حتى انخذل وتقاعس ، ودب فى زعمائه وقواده الفساد حتى أصبحت فرنسا كالثياب المتداعية ، كلما خيطت من جانب تهتكت من آخر ـ لما رأى الناس هذا تزعزع ايمانهم فى فرنسا وثقافتها فأخذوا ينصرفون عنها رويدا ، وأخذ

اتجاه الكثيرين فى مصر (خصوصا أولئك الذين لا لغة قومية لهم فيتكلمون نوعا من الفرنسية) يتساءلون اذا كان للغة ، هذه خلق أهلها ، مستقبل يعول عليه ، فحولوا أنظار أبنائهم من الثقافة الفرنسية الى الانجليزية ، واتجهت أنظار آخرين الى الالمانية وثقافتها وعولوا على دراستها حالا أو مستقبلا ، برغم ما شاهدوه فى الخلق الالمانى من كسر العهود والمواثيق ، وتمزيق القانون الدولى ، والاتصاف بالظلم والقسوة والعدوان • لقد دهشت حقا لاننى رأيت لاول مرة فى القاهرة باعة يشترى منهم الشبان فى القهوات الكتب التى تعلم الالمانية بغير معلم ، بكميات ليست بقليلة

ولكنى لم أذكر للقارىء بعد الظاهرة الغريبة التى أومأت اليها ، اذ ان كل ما قلته للآن ليس غريبا • الظاهرة الغريبة ـ أولا ان وزارة المعارف اختارت هذا العام ، دون جميع الاعوام ،فأعطت لبعض معاهد التعليم الحرية فى أن يختار الطالب الانجليزية أو الفرنسية كلغة أساسية • ولعلها فعلت ذلك تأثرا بكتاب « مستقبل الثقافة » للدكتور طه حسين بك ، وقد نسيت ان هذا الكتاب قد صدر قبل انهيار فرنسا بزمن • وقد زادنى تحين الوزارة هذه الفرصة غير الملائمة اعجابا بالمثل العربى القوى « وفى الليلة الدهماء يفتقد البدر » هذه هى الظاهرة أو المفاجأة الغريبة الاولى • أما المفاجأة الثانية ، فهى ان معهدا حكوميا راقيا للبنات ، ممن طبق فيه النظام هذا العام (أو منذ بضعة اسابيع) تخير معظم طالباته الفرنسية كلغة أساسية ، حتى ان فى فرقة مبتدئة عدد طالباتها حوالى ٢٥ لم يتخير منهن الانجليزية سوى اثنتين ، عملا بالمبدأ القديم الذى سبقت الاشارة اليه من أن الفرنسية هى اللغة الغالبة بين المصريات ، ولعل أهالى اولئك الطالبات فى حاجة الى من يذكرهم بالمجاملة البلدية اللطيفة « صحوا النوم »

اتجاهات الثقافة العربية فى المستقبل

ولسنا نستطيع ان نجزم تماما أنى تتجه الثقافة العربية بعد الحرب التى تدور رحاها الآن ولكنا نستطيع ان نستخلص من المقدمات النتائج الآتية :

اولا ـ مهما قيل عن احتمال اعجاب البعض بالالمان ، ودقة علومهم ، وعمق دراساتهم، ومفعول عقاقيرهم ، وما أبدوه من المغامرات وضروب الشجاعة والاستماتة فى الحرب الحاضرة ، فان اتجاه البلدان العربية الى ثقافتهم أمر بعيد الاحتمال ، اللهم الا اذا استثنينا نفرا من عباد البطولة • على ان هذا النفر سيكون أكثر عددا بمراحل مما كان قبل الحرب الحاضرة • وليست الدكتاتورية وحدها ، بمبادئها التى تخالف مبادىء البلدان العربية ، هى التى تنفر الناس من الثقافة الجرمانية • فليس بخاف ان اكثر العلوم لا تستقيم الدراسة فيها ما لم تكن حرية المناقشة والخطابة والصحافة بالغة فيها الحد الاقصى • ومن العلوم التى تسير الى التقهقر والاضمحلال الفلسفة والاجتماع والسلالات البشرية والنفس

والقانون الدولى والتاريخ ، اذ ان هذه وغيرها تسير الدراسات فيها وفق العواطف والاهواء النازية بغض النظر عن المبادىء العلمية

ويذكر القراء نيقولاس مرى بطلر رئيس جامعة كلومبيا فى نيويورك، الذى دعا أخيرا نحو ألف من اساتذة جامعته (وعددهم ١٢٠٠) فجأة وأنذر من يجنح منهم الى المبادىء الدكتاتورية بالاستقالة ، ومن أكبر رجال الاجتماع نفوذا واقدرهم على الخطابة والكتابة. من أقوال ذلك الزعيم (مشيرا الى الثقافة الجرمانية) : « ان الثقافة الحقة فى صورتها العلمية أصبحت اضحوكة الاضاحيك ، والاخلاق الكريمة وحفظ العهود والمواثيق أصبحت عندهم مرادفة للرجعية والتمسك بأهداب القديم البالى . اما الوصايا العشر ، فقد أضحت كجدول الضرب من مخلفات العصور المظلمة . وأكبر كارثة تتمثل على مسرح أوربا اليوم هى فساد النشء واعتبار هذا الفساد نبراس التقدم الحديث وعنوان المدنية الصحيحة »

ثانيا ـ سيخبو نور الثقافة الفرنسية ولغتها سنوات ، وهيهات ان ينسى الناس كبوة زعمائها واطمئنانهم الى الغضاضة واقامتهم على المذلة والاستعباد بغير مبرر ظاهر . وسيمضى زمن طويل قبل ان يقبل الناس مرة أخرى على ما خلفه السلف الفرنسى الصالح من العلوم والفنون والآداب

ثالثا ـ يظل الناس معجبين بقوم لا تلين جنوبهم لحادث ، وقد دلت الاحوال على أن الانجليز لا نجد أصبر منهم على خطب ولا أقوى جلدا على محنة ، فكأنهم فى الشدائد صخرة واد أو طود من الاطواد . على ان القليل من سكان البلدان العربية سينصرفون عن شىء من ثقافتهم ويستبدلونها بسواها ، وقد تتنازع عند هؤلاء الثقافة الالمانية ابنة عمها الانجلوسكسونية

رابعا ـ ستأخذ البلدان العربية فى الاعتماد على ذاتها والاقلال من اقتباس الثقافات الغربية ـ الى حين على الاقل ـ وبناء ثقافات قومية على أساس بيئاتها. فقد أضاعت الحرب الحاضرة الثقة فى المدنية الغربية او كادت ، وضاعت من نفوس الكثيرين الثقة بما يسمونه فى أوربا واميركا « بالخلق المسيحى » فقد انهار هذا الخلق فى كثير من البلدان وكاد يصدق الفيلسوف الانجليزى المتطرف برتراند رسل فى قوله : « انه لم يعتنق المسيحية منذ نشأتها سوى فرد واحد ، وهذا الفرد مات على الصليب » . فهذه اميركا التى نظن انها تمثل هذا الخلق لم تنهض للآن نهضة جدية فعلية بمساعدة الديمقراطية . ولعل ما يسمونه « الخلق المسيحى » فى أوربا هو ما تعبر عنه فلسفة غاندى بهذه الكلمات الخالدة : « أعداء البشرية الشهوة والطمع والقتال ، وعكسها الاعتدال ، والصبر ، والقناعة ، واجمل من هذه الصفات العاطلة (passive) شقيقاتها العاملة (active) وهى العفة والحب والكرم »

امير بقطر

الخنجر

قصيدة للمرحوم الملك فيصل الاول

كان الامير عبدالله امير شرق الاردن قد اهدى اخاه الامير زيداً خنجراً نفيساً اثناء الثورة العربية ، فارسل اليـه الملك فيصل الاول « الامير فيصل وقتئذ » قصيدة يحتج عليه لانه لم يهد اليـه خنجراً مثله ، ويهـدده مداعباً بأنه يترك محاربة الترك

أعبد الله قد أوريت زنداً ... له شرر بقلبي ليس يهدا
يفور وما يفور أما تراها ... تجر بذيلها برقا ورعدا
أتتك وبين أضلعها أوار ... يريك اللعب منها صار جدا
تحاول أن تثور فتدريها ... حمية هاشم كرما وعهدا
علام وفيم خنجرك المحلى ... خصصت به أخاك الشهم زيدا
بمنطقه ، فكان ككف خود ... على قلب المحب يحس وجدا
وقلبه ، فكان كنصف شمس ... قد اختطفته كف البدر عمدا
ألست لمثله كفؤا ، فاني ... ابو الهيجاء كم لاقيت أسدا
وإن اخرته عني ، فاني ... سأرفعها الى الملك المفدى
وأطرح الحروب وازدريها ... وأترك للعدى جزراً ومدا
وارحم آل جنكيز جميعا ... ومن منهم على قومي تعدى
وازعم أنهم صيد ليوث ... لقد نبذوا متون الخيل جردا
ولم يك في بني طوران عيب ... ولا منهم على من استبدا
وانصر أنوراً ومشايعيه ... وأطلب أن يعود وأن يردا
وأصرخ في بني قومي هلمو ... الى فان رأى الترك اهدى
وفيم ومم نحن محاربوهم ... وهم قد شيدوا للدين مجدا

فيصل بن الحسين

تطورات الحرب منذ نشوبها إلى اليوم

بقلم الاستاذ سامي الجريديني

أصبحنا بعد أن مرت بنا اكثر من سنة على الحرب وفي استطاعتنا أن نوضح أموراً ثلاثة تقوم عليها هذه المأساة العالمية

أولها ـ وضوح الغاية من الحرب

وثانيها ـ وضوح طريقها

وثالثها ـ وضوح النتيجة

ولا بد لنا من شرح لكل من هذه الامور محاولين جهدنا أن نختصره غير مغفلين البيان اللازم لايضاح ما نرى اليه وما نؤمن به

١ ـ الغاية من هذه الحرب

كان من الجائز أن يختلف الناس في أسباب هذه الحرب والغاية منها وذلك قبل أن تضطرم نيرانها بشهور أو بأيام لأن الاهواء السياسية والدعاوة كانت تهاجم عقول الناس وعواطفهم فيضيع عليهم الصواب

أما الآن وقد مرت سنة ونيف على قتال استنفر كل ما في البشرية من غرائز فقد وضحت الغايات وظهرت الأغراض

واننا نذكر شيئا قرأناه لكاتب أميركي من سنوات قال فيه إن هناك دولا ألح عليها العوز وضاقت بها أرضها بما وسعت فان لم يرضها المشبعون اضطرب العالم ولم يهدأ لدعاة السلم بال

وذكر هذه الدول انها اليابان والمانيا وايطاليا

على أن الأمر الذي دفع الناس الى الحرب ليس ماقاله هذا الكاتب أو تدعيه هذه الشعوب . انه لو كان الأمر مقصوراً على اتفاق يؤدي الى تفاهم على الأمور الاقتصادية لهان فقد دعا أولياء الأمر بأميركا الى مثل هذا الاتفاق ودعا اليه الانجليز

إن المسألة التي كانت ترمي اليها المانيا ومعها حلفاؤها لم تكن الاشتراك مع الآخرين بخيرات الارض وانما كانت الاستئثار بهذه الخيرات دون الآخرين

والبرهان على هذا قائم يكاد يلمس باليد

فقد دأب الألمانيون منذ وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها يطلبون فيجابون ويسألون فيعطون بحجة إقرار مبادىء العدل وتقرير المصير

فمن تخلف عن تأدية الغرامات والتعويضات الى تسوية حساباتها ثم التلكؤ فى القيام بها . ومن اجتياح للنمسا بحجة وحدة العنصر ووحدة الجغرافيا ونزولا على رغبة النمساويين ومن مطالبة مفاجئة بحقوق خلقوها للالمانيين المقيمين بتشكوسلوفاكيا

كل هذا كان يُمر به ويُسكت عنه ويجد له مدافعين حتى فى البلاد التى كانت تُتحدى

وكل هذا كان من السهل تسويته وتسوية كل المشكلات الاقتصادية المتعلقة به

ولكن عند ما احتل القوم منطقة الرين الحرام ثم حصنوها ثم عادوا الى بوهيميا ومورافيا فانتزعوهما ومحوا تشيكوسلوفاكيا وأخذوا يتأهبون لبولندا ـ عند ذلك أدرك العالم ما كان يعلمه رجال السياسة القليلون أن غرض المانيا كل الغرض ليس نيل شىء يسير أو استرجاع أمر صغير انما هى ترمى الى سيادة عالمية والى إقامة نظام تكون كلمتها فيه العليا

وبعبارة أخرى انها رأت السيادة فى العالم من الناحية الاقتصادية والأدبية والسياسية فى يد بريطانيا وفرنسا وأميركا فارادتها فى يدها من دون هذى الأيدى المرتجفة

وليس كايطاليا وكاليابان من مؤيدين ، فالأولى على ضعفها التاريخى والواقعى ذات مطامع لا تحد والثانية تفوق الاثنتين نشاطاً واعتزازاً بقوتها الحربية والصناعية . فكانت الشركة بين الثلاث طبيعية تجمع بينهم الاهواء والمآرب وتدفعهم متكاتفين متضامنين يبغون هدم بناء الحضارة الغربية وتشييده على أساس يقيمون هم قواعده دون سواهم

هذه الغاية من هذه الحرب ، ظهرت الآن وأبدت نواجذها بعد أن حاول القائمون بالدعوة اليها التمويه والظهور بما لا يبطنون

فلم يعد القول بأنهم يطلبون مجالا حيوياً ليعيشوا بمجد ولم يعد التغرير بالشعوب الصغيرة بأن لا تنتهك حرمتها بنافع أو الضحك من ذقون صغار رجال السياسة بأنهم يبغون كسر نير الانجليز والفرنسيين وإطلاق حريتهم بجائز على أحد

وضحت النية وصار الأمر إما اندحاراً لا قيامة بعده يحيق ببريطانيا أو فوزاً لمبادئها يسحق القوات الالمانية وقوات شريكتيها

وليس للعالم من مفر إذا أريد بأهله خير من أن يرجو النصر للبريطانيين . ولا نقولها حباً بهؤلاء القوم إنما تأييداً للمبدأ الانسانى الذى يشمل الناس جميعهم فلا يكون هناك نظام يقوم على سيد ومسود بل إخوان متضامنون تجمع بينهم الانسانية والحاجة الاقتصادية والتجربة التى أرتهم أن التعاون خير من التزاحم

وقد كادت هذه المبادىء تستقر فى أذهان الشعوب بانشاء جمعية الامم ولكن الذين أخذوا زمامها بأيديهم أساءوا العمل وضللوا وتمسكوا بمبادىء القرون الماضية فأعمتهم عصبيتهم عن رؤية روح العصر

وكانت فرنسا شر من أذل عصبة الأمم وأماتها

فرجال السياسة فيها لم يكونوا يفهمون شيئاً عالمياً ولم يكونوا ينظرون إلا الى المنفعة الفرنساوية القائمة على الانانية ووضع مبادىء ريشليو ولويس الرابع عشر ونابوليون موضع المبادىء الحديثة

واضطرت انجلترا فى كثير من الأحيان الى مجاراة فرنسا تارة والى إغضابها تارة أخرى وقد كان رجالها أبعد نظراً وأثقب رأياً ولكنهم ثقلت عليهم الأعباء فناءوا بها فتهاونوا ولم يتخذوا خطة حازمة فى وجهة واحدة

فكان أن اشتد ساعد المستائين من معاهدات الصلح وأخذت دعاويهم تنشط. وتظهر جمعية الامم بمظهر الآلة الخاضعة لفرنسا ولانجلترا وليست بالعاملة على خدمة المجتمع الأوربى فالعالمى

ولو حسنت نية المانيا لما خرجت من الجامعة بل عملت على استمالة الاعضاء اليها وإجبار العالم كله على الرجوع الى المبادىء التى وضعها عهد الجامعة

ولكنها كانت فى الواقع ونفس الأمر ترمى الى تشويه سمعة الجامعة واغتنام فرصة رغبة انجلترا فى السلام وانحلال فرنسا الى الوثوب الى موضع التسلط والتحكم

والعالم الآن ـ وقد أفاقت الشعوب فلم تعد تقبل الاستبداد سواء أجاءها عن يد فرد أو عن يد جماعة ـ لا يرضى بأن يساق لارضاء نزوات دولة مطلقة الأحكام أو ديموقراطية المبادىء

الشعوب الآن تطلب أن تنال قسطها من الحياة والاستمتاع بها ماديا وروحياً

وليس فى الأنظمة النازية أو الفاشية أو اليابانية ما يعطيها شيئا من هذا

انها أنظمة قائمة على تفضيل عنصر على آخر . وبضاعة على أخرى . وثقافة على ثقافة

وفى هذا القضاء على الحرية الفردية

وعلى الحرية الفردية قامت خير الحضارات

لذلك يصح القول أن غاية الألمانيين وشركائهم من الحرب وضحت ولا تتفق مع ما يرمى اليه العالم من هناء ·

٢ ـ الوسيلة لهذه السيادة

ليس ما يحاوله الألمانيون من سيادة أوربا فالعالم بالشىء الجديد فى تاريخ القارتين الأوربية والافريقية . فقد كان الاستئثار بالمنافع شريعة عامة منذ بدأت الخليقة . وظهرت على أشدها فى أوربا بعد زوال دولة الرومانيين

فمن سيادة أسبانية الى أخرى نمساوية الى تزاحم بينهما وقتال روى بدمائه أودية أوربا وسهولها الى ظهور فرنسا تناوىء المملكتين . حتى خضعت أسبانيا وأمن خصومها شرها

فانقلبت السياسة نزاعاً بين فرنسا والنمسا على من منهما تكون ذات الكلمة العليا فى شؤون القارة

وكانت انجلترا بعد أن دخلت فى ميدان الدول العظمى ترجح أبداً دائماً دولة تضعف على أخرى تقوى وتحاول الاستئثار حتى تتوازن القوى فى أوربا فلا تطغى واحدة ويعم سلطانها فتزاحم انجلترا فى تجارتها عبر البحار وتعترض قوتها البحرية فينصرف هم أسطولها من حماية التجارة الى محاربة الجيوش . وما هذا بالأمر الذى ترمى اليه السيادة الانجليزية

لذلك أعاد التاريخ نفسه فى الحكاية الانجليزية فان هذه الدولة كانت تقف فى وجه كل من يسيطر على أوربا ويهدد سيادة البحر . ذلك لأن كيانها وقف على البحار ومن دافع عن ماله ونفسه حل له ما حرم على غيره

واذا قلنا إن التاريخ يعيد نفسه فليس معنى هذا أن الحوادث تروى وتتكرر بأسلوب يكاد يكون واحداً بين آونة وأخرى . انما معنى هذا أن الأوضاع الجغرافية فى البر وفى البحر تتحكم فى شؤون العالم الاقتصادية والاجتماعية فتولد أسباباً متماثلة تؤدى الى نتائج متماثلة

وأعظم من حاول اغتصاب السيادة البحرية من انجلترا نابوليون . وقد حاول ذلك بعده الألمانيون على عهد غليوم بالأمس وعلى عهد هتلر الآن

ومعاذ الله أن نجرؤ على مقارنة بين أعظم عبقرى أنجبته القرون ـ عبقرى فى الحرب وفى الادارة وفى السياسة والعمران ـ وبين هؤلاء الذين قاموا أو يقومون بألمانيا

ولكننا نسوق المثل لأن حكم التاريخ صورة طبق الأصل من الحالة فى أوائل القرن التاسع عشر وبين حالنا فى هذا القرن المشئوم

(إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها)

لم يلبث نابوليون أن جعل الأمانى الفرنساوية التى جالت بخواطر ملوكها وحكامها أمراً مقضياً حتى وضح أنه يتحدى انجلترا

فقد رمى الفرنساويون منذ ريشيليو الى جعل الحدود الفرنساوية وراء الرين وهى ما كانت ولا تزال تسميه « حدودها الطبيعية »

ففى أول مرة فى التاريخ ـ وآخر مرة ـ نالت فرنسا هذه الحدود على يد نابوليون فى أيام القنصلية بمعاهدة لونيفيل

هذا النجاح الذى هز أوتار قلوب الشعب الفرنساوى مكن له فى عقولهم وعواطفهم ومكن لجيشه سيادة القارة الأوربية

فى هذه الساعة وعند توقيع تلك المعاهدة بدأ النزاع بين انجلترا وفرنسا

فنابوليون اذ أصبح الحكم فى القارة تحدى سيادة البحار أى الكيان الانجليزى

ولم تكن جميع انتصاراته الباهرة بمغنية شيئاً . فهو كلما مشى من فتح الى آخر كان يعلم فى

قرارة نفسه أن لا خير يرجى منها ان لم يغلب انجلترا أو يعقد معها صلحاً

وقد حاول الصلح . وكيف يطمئن الانجليز الى صلح عاقبته المد له فى جبروته وتهيئة أسباب فوزه

فكان النزاع لا يستقر . وقد حاول ثلاث مرات غزو انجلترا عسى أن يضرب النسر فى عشه فما تيسر له ذلك

فلما كانت وقعة الطرف الأغر من بعد معركة أبى قير وسلم سلطان البحر للانجليز حاول الحصار تضربه القارة الأوربية على انجلترا فكانت النتيجة افقار أوربا وسريان روح العداء فى كل الشعوب عليه

وأما حصار الانجليز فمنع عن أوربا تجارة البلاد الخارجية فأغناها هى . حتى سنة ١٨٠٩ – بل حتى ١٨١٢ ورغم فشله فى أسبانيا ظلت أوربا خاضعة لنابوليون لا يستثنى منها روسيا وقد كان قيصرها صديقه وحليفه

ولكن ما جاءت سنة ١٨١٤ حتى كان منفياً فى جزيرة البا بعد أن كسر الحلفاء جيشه

لم يكن نابوليون بالفاتح يقهر جيشه الجيوش غير الفرنساوية فقط انما كان مصلحاً وكأن روح الثورة الفرنساوية تمثلت له بشراً تقمص فيه فهدم عروشاً بالية وأقام نظام القوميات وأفهم الايطاليين والالمانيين ومن اليهم معنى الحرية وأذاقهم طعم الاستقلال

وأما هؤلاء الطغاة الذين يحاولون خلق نظام جديد للعالم فما خطبهم

ان كان العبقرى الفذ ووراءه أو تحته كل أوربا قد عجز عن كسر شوكة البحر وما أغنت عنه عبقريته وجميع ما أصلح ووضع من نظم عاشت حتى الآن فما بالك بهؤلاء الصعاليك الذين مدت لهم البشرية العاثرة طريق الزعامة فظنوا أن قد مهدت لهم سبل هدم الامبراطورية البريطانية ليخلو لهم وجه الأرض يتسلطون ويتحكمون فى رقاب سكانها دون الله

وتنقصهم الحيلة ولم يخنهم العلم والحيطة فقد جعلوا اعتمادهم على الطيران يشحذون أسلحته عسى أن يبز سلطانه سلطان البحر

وظنوا أنهم نالوا ما يبتغون

وفاتهم أن سلطان الجو متيسر للانجليز أكثر مما هو لهم لعظم مواردهم الصناعية والمالية . وأما سلطان البحر الذى تمردوا عليه فلا يجيء الا بسنين وبمؤهلات يفوقهم فيها الانجليز أيضاً

لذلك رأينا نسورهم وقد غرها النصر الرخيص فى فرنسا فما فوق حتى النرويج أخذتها العزة بالاثم فظنت أن قد دنا أجل الجزيرة المطروحة فى البحر تعارض وجه ألمانيا وتسد عليها المنافذ فبدأوا هجوما بعد هجوم بعد آخر فباءوا بفشل لا شك ذريع

وثبت الآن للعالم أن سلطان البحر لا يزال غالبا على أمره ، وأن بيده النصر يعطيه لمن يوليه أمره

فأنت ترى أن الحاكمين بأمرهم يحتذون مثال نابوليون حتى كأن حركاتهم صورة طبق الأصل لحركاته

فلما عز عليهم النصر فى الغرب ولوا وجوههم شطر الشرق وقد يغزون البلقان وما بعده وقد يشقون لأنفسهم طرقا فى البر عبر روسيا أو عبر ايران ولكنهم اذا حاولوا أن يتنفسوا الصعداء بالقرب من بحر من بحار العالم السبع تعرض لهم نبتون البريطانى ومنعهم من الدنو الى الماء فضاع عليهم كل ما عرشوا

وليس الطريق الذى أوضحناه بالطريق الوحيد الذى سلكه الالمانيون وأتباعهم للوصول الى السيادة العالمية

وانما ألقوا اتكالهم فيما اعتزموه على ما فى النفس البشرية من مواطن خزى وضعف وفساد فاستغلوها وظنوا أنها مشاع فى كل أعدائهم

جربوا عوامل الفساد تغذيها روح كادت تبلغ الحشرجة فى قوم خدرهم حب السلامة وعبادة المال فنجحوا

ألا ترى اليهم وقد شقوا طريقهم شقا تخاله لعبا فى النرويج وفى الدانمرك وفى هولاندا وفى بلجيكا وفي فرنسا

فانهم قبل هجومهم بالسلاح كانوا قد زرعوا فى أرض صالحة بذرة الضعف وربوا سوس الانحلال

ذلك أنهم صدروا عن ايمان بأن أوربا فى طريقها الى هاوية الانحلال ـ فرنسا وانجلترا ولم يستثنوا أميركا ـ فقالوا ان فرنسا دولة من الدرجة الثالثة يؤثر شعبها نفيسه على نفسه وأنها ليست أهلا وقد خارت قواها فلا تلد ولا تعزم أن تتولى امبراطورية هذه مساحتها

وقالوا ان انجلترا هرمت وشاخت فلا تحارب

وقالوا ان أميركا مفككة الأوصال لا تعد أمة بالمعنى المعروف فلا يخشى بأسها

وأما ما بقى من دول الأرض فلا يؤبه به ومن السهل لمن يستعصى على الارهاب أن يؤخذ بالسيف وكان أمراً مقضياً

ولما بسم لهم الحظ ورأوا خططهم تنجح الواحدة بعد الاخرى لا سيما عندما رأوا ما كان الناس يظنونه أعظم جيش في أوربا فاذا به يأبى القتال ويرمى السلاح ويجبن زعماؤه السياسيون والحربيون أن يلقوا الموت عند ذاك قالوا كسبنا الوقعة وتم لنا الفوز على العالم وسيصير مصير هذه الجزيرة الانجليزية مصير من تقدمها

ولكن نسيج الأمة البريطانية غير نسيج الأخرى فتولوا وحدهم مقاومة الفاتحين وصمدوا لهم فتأكد للرأى العالمى صلابة العود الانجليزى فانضم الاميركيون الى أبناء أعمامهم وسوف نرى عما قليل كتلة انجليزية اللسان تقاتل كل هذه الكتلات المختلطة حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا

٣ – نتيجة هذا النزاع

وبعد كل هذا فماذا تكون النتيجة ولمن يكتب النصر فى هذه الحرب ؟

هذا سؤال على كل شفة ولسان

أما الجواب عليه فواضح فى نظرنا لا يحتاج تفسيره الى كثير عناء

فقد يعلم الناس كلهم ان أساس الفوز فى صدام تقوم به أمة على أمة وشعب على آخر انما يكون بمؤهلات معروفة منذ القدم ولا تزال هى هى حتى الآن

فلابد من العزم ومشيئة النصر لأمة تريد أن تبقى

وما علينا إلا أن نرمى بأبصارنا الى تاريخ هذه الحرب فى سنتها الأولى حتى ندل باليد على هؤلاء وعلى أولئك . وانا نكتفى بذكاء القارىء دليلا الى تعرف الحقيقة

ثم لابد من موارد تغذى الشعب المحارب وتمده بما يحتاج اليه رجال القتال الحديث من صناعة ومال وأغذية . فمن تهيأت له الأسباب صمد وصابر ورابط فتم له النصر

انما هناك السبب الأساسى الذى كان ولا يزال العامل الفاصل ألا وهو سيادة البحار

وقد قلنا وقال المئات من الناس فى هذا ما جعله فى حكم الأوليات

فمن كان يملك سلطان البحر غلب على أمره فى آخر الأمر

هذه قاعدة لم يشذ عنها شاذ منذ بدأت الامم تتقاتل

وظاهر كل الظهور أن البحار تكاد تكون ملكا موقوفا على البريطانيين والاميركيين

وانه ليس فى العالم قوة تستطيع الوقوف فى وجه هذه القوى الا اليابان فهى قوية وانما لا تقاس قوتها بهاتين القوتين

وهى ينقصها الموارد التى لا بد من توفرها فى صناعة الحرب

فاذا قلنا أن نتيجة هذه الحرب تكاد تظهر للعيان وانها لا جدال فيها وانها فوز محقق للبريطانيين وللاميركيين على أعدائهم لا نصدر عن هوى إنما ننطق بما يوحيه الينا منطق التاريخ ومعنى حوادث الدهر

سامى الجريدينى

البحر الابيض المتوسط

بقلم امير الشعراء احمد شوقي بك

تدور الآن رحى القتال على امواج البحر الابيض المتوسط ، وفى شواطئه . وقد رأينا بهذه المناسبة ان ننشر هذه القطعة الفنية لامير الشعراء احمد شوقي بك الذي يصف فيها هذا البحر العظيم بجوارحه وذكرياته

سيد الماء ، وملك الدأماء ، مهد العلية القدماء ، درجت الحكمة من لججه ، وخرجت العبقرية من ثبجه (١) ، ونشأت بنات الشعر فى جزره وخلجه . بدن الحقيقة للوجود من يبسه ومائه ، وجرب ناهض الخيال جناحيه بين أرضه وسمائه . العلوم نزلت مهودها من ثراه ، والفنون ربيت فى حجال رباه ، والفلسفة ترعرعت فى ظله وذراه . بنتاؤر ولد على عبره (٢) ، وهومير مهد بين سحره ونحره(٣) ، ونحت الالياذة من صخره . وهيرودوت دون متونه على ظهره ، والاسكندر انتهى اليه بفتحه ونصره

الموسيقى دبت فى أحناء هياكله ، وشبت فى افياء خمائله ، ثم لم يزل بها ترسل الرهبان وترتل الاحبار والكهان ، حتى جاوزت الحناجر الى المعازف ، فنزلت اليراع المطرب والنحاس الهاتف ، لم تخل نكنته من بوق ، أو طبل مدقوق ، ولم يخل كوخ من يراع مثقوب ، ولا قصر من وتر مضروب

وعلى أديم الابيض المتوسط مشى المثال الاول ، وبحجارته وقف فتخيل ، فلان لبنانه الحجر ودان لمنحاته الصخر ، حتى زين الزون بالبديع والغريب ، ونثر الدمى على المحاريب وجاء فى الفن بالاعاجيب . صنع أبا الهول ، فجاء بالهول والزول (٤) . كان ذلك حين سائر المعمور مجاهل ، والناس جهال ، عالم وغافل ، يهيم فى أغفال

فيا ناشىء الكنانة :

اذا وقفت على لجة الرمل ، أو نقلت القدم على رملة (المكس) فى أصيل لذت حواشيه ، وحلى جلبابه بالذهب واشيه ، وفضاء اصفر من نعى (٥) الشمس ضاحيه ، وقربت لها الاكثان من زعفران نواحيه ، فتبصر . هل ترى غير ساحل طيب البقعة ، وأديم جيد الرقعة ، وهل تحس غير بحر ضاحك الماء ، متهلل السماء ، حلو بشاشة الفضاء ، يصحب الصحو ، ويسحب الزهو ، ويلهو وما عرف اللهو ، وخريره تسبيح وما هو بلغو ؟

---

(١) الثبج من كل شىء وسطه ومعظمه (٢) عبر البحر بكسر العين شاطئه (٣) السحر والنحر الرئة وموضع القلادة على الصدر (٤) الزول بسكون الزاى العجب (٥) نعى الشمس مجاز عن غروبها

لا بأنك عنده - منذ ماجت أمواجه ، ولجت لجاجه ، وهدر عجاجه ، وأنشيء للرياح شراعه وساجه (١) ، - جوار الاكرمين ، وصحبة المحسنين ، وكنف السماح الخيرين • شمس متوقدة ، وطبيعة متوددة ، ولجة غير متمردة ، وغيره من البحار ذميم الجوار ، لئيم النجار ، ضباب مخيم ، وسحاب مديم ، أعاصير مرسلة ، وصواعق منزلة ، زمن مضطرب الفصول ، وطبيعة تختلف وتحول ، كما تلون فى اثوابها الغول

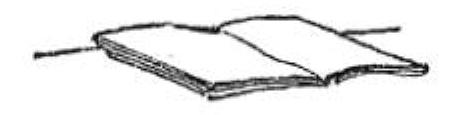
تلك اللجة أيها الناشيء - هى من أوطانك عنوان الكتاب ، ومصراع الباب ، ووجه الخميلة ، وظاهر المدينة ، وعورة الحصن • وان قوما لهم على البحر ملك ، وليس لهم فلك ، لقوم دولتهم واهية السلك ، وسلطانهم وان طال المدى الى هلك

ويا أيها الابيض الاغر سلام ، وان انزلتنا عن صهوتك الايام ، وأبدلتنا من سلطانك الخافق الاعلام بممالك من كلام ، ودول من أمان واحلام

ويا عرش الابوة ثناه ، وان ثلك الابناء ، ثم لم يحسنوا البناء • أين دول كانت مطالع انوارك ، ومعاصم سوارك • وما الذى نأى بجواريها عن جوارك ، وهوى بسواريها عن أغوارك ؟ • أين الفراعنة وما جدفوا من بروج مشيدة ، والبطالسة وما مدوا من شرع كالصروح الممردة ، وأين الشونات الايوبية ، والبوارج العلوية ؟

هيهات أزرى الدهر بالاسكندرية ، فحجب ذلك المنار (٢) ، ونصب هذا الفنار • وأين الليل والنهار ، وأين الظلمات من الانوار • ذلك كان أضوأ هالة ، واسطع على التمكن فى الارض دلالة ، وأضفى على مناكب البر والبحر جلالة ، يهتدى به الداخل والخارج ، ويستأمن الداب فى حماه والدارج ، وتقيف عليه البروج ، وتطيف به البوارج • وهذا سراج بيت وذبالة زيت ، وشعاع كنفس المحتضر لحى ميت

ملكنا الواسع من ورائه باب ولا بواب ، وسدة ولا حجاب ، غاب ولا ناب ، ووكر ولا عقاب • تعاقبت عليه حكومات ألقت السلاح ، وألفت الاصلاح ، تقول فتجد ، وتمهل فتهزل ، ولا تحسن من سياسة الملك غير أن تولى وتعزل ، وتجبى القطن ، ولا تفكر فى المغزل • تخايل بالبحرية والوزير ، وتأتى قبل الماء بالزير



(١) الساج شجر عظيم ذو خشب اسود متين ، والمراد به هنا السفين (٢) المنار الذى أقامه البطالسة فى الاسكندرية ، فكان سراجها الوهاج

الشرق لا يصلح لخلافة الغرب

ما دام متورطاً فى تقاليده

بقلم الاستاذ محمد فريد وجدى

الشرق ليس مجرداً من وسـائل النهوض فحسب ، ولـكنه متقمص روحاً رجعيـة لا تؤهله لخلافة الغرب بعد الحرب ، لو قدر عليه فناء حضارته وعلومه ـ هذا ما يوضحه الاستاذ الكبير كاتب هذا المقال

اذا قلت الشرق فانما أقصد منه الشرق القريب الذى نحن جزء منه ، لا الشرق البعيد الذى لا تجمعنا واياه أية آصرة من جنس أو لغة أو دين . أما موضوعنا فهو : هل اذا قدر على الغرب أن تنتهى رسالته بما يتعاوره من ضروب الانقلابات ، يصلح الشرق لخلافته على تراث الانسانية ، فيعود اليه الدور الذى كان له وانتزعه الغرب منه ؟

فى رأيى انه لم يحن الوقت الذى يحسن فيه أن نتساءل فيه هل المستقبل لنا أم لغيرنا ، لاننا فى حال يتعين علينا فيه أن نتدارك وجودنا ، وأن نحوطه بالحوافظ والوسائل التى تضمن الحياة والتطور ، وأولى بنا أن نجاهر بالحقيقة من أن نداري العامة فنعدها بما يستحيل أن يتحقق ونحن على ما نحن عليه من الادواء الدوية

ومهما تكن الحال فلا يوجد ، ودولة الغرب قائمة ، ما يمنع الشرق من بلوغ أبعد شأو من الترقى بل يكون نهوضه أسرع اذا وجد حياله من يباريه وينافسه . وقد ارتقت الامة اليابانية الى الأوج الذى هى فيه اليوم والغرب على أكمل ما يكون من قوة وسلطان

أما والشرق على ما هو متورط فيه الآن من النفسية السقيمة ، والتقاليد الضارة ، فلا يعقل أن يخلف الغرب فى رسالته حتى ولو أصبحت مدنيته وثقافته وصنائعه خبرا من الاخبار ، لان ما بالشرق من اللوث ذاتى فيه لا معكوس عليه من الخارج ، فلا اخاله ينتفع بتفرده بالبقاء ، وربما ازداد انحطاطا لأمنه من العدوان الخارجى عليه

فالشرق اليوم ليس مجردا من وسائل النهوض فحسب ، ولكنه متقمص روحا رجعية لا تدعه يقف حيث هو ، فضلا عن أن يتقدم خطوة . فاذا أراد أن ينهض وجب عليه أن يتجرد أولا من هذه الحالة النفسية التي لا تنى تدفعه الى الوراء ، وأن لا ينتظر أن يموت من حوله ليختال راسفا في قيوده خلال الجثث الهامدة ! وهو اذا توقع طروء عهد كهذا ، فلن يتحقق له أمل ، لان قيم الوجود لا يملك جيلا من الناس حتى يهيىء جيلا آخر لخلافته

نحن لا نقصد من القيود التى تعطل الشرق عن النهوض ما يفهمه بعضهم من الاملاس من كل ما يربطه بماضيه ، فمن لم يكن له ماض ، فلا يكون له حاضر ولن يكون له مستقبل ، ولكنا نقصد منها ما ترسب فى كيانه من آثار عادات وتقاليد وأوهام ليست من دينه القيم ولا من حكمته المأثورة ، ولا من تقاليده الكريمة . وهو اليوم يحسبها منها ، ويتشدد فى تمسكه بها ، فاذا حاول علاجه من ناحيتها مصلح اتهمه بالخروج على الدين ، وبالدعوة للالحاد

هذه الحال من الرجعية أودت ، تحت تأثير الثقافة العلمية والفلسفية الحديثة ، الى نشوء جيل أملس من كل ما يمت الى الشرق بسبب ، وحاول أن يلتحق بأهل الغرب فلم يفلح ، فانقطع عن القافلتين المتقدمة والمتقهقرة ، فوقف حائرا لا يهتدى الى مذهب

هذه الحيرة الشديدة لا تسمح لطائفة ما بأن تتقمص روحا اجتماعية ذات وجود مستقل وشخصية متعينة وغاية بينة ، فتلبث بين الجماعتين على حالة شذوذ لا تتفق والحياة الصحيحة. وعلة ما منيت به هذه الطائفة انها ظنت أن اللحاق بالغربيين يكون من طريق تقليدهم فى أزيائهم ومظاهر حياتهم ، فأوغلت فى هذه السبيل ثم حاسبت نفسها فوجدت انها أبعد ما تكون عن الغاية التى رمت اليها . ذلك لانها وان افكت عن المجتمع الذى تعيش فيه بأفكارها ، فهى مرتبطة به بأجسادها ، فمهما تظاهرت باللحاق بقوم غير قومها ، فلا تجنى من وراء ذلك غير الشذوذ الذى لحق بها

***

الانتقال الاجتماعى لا يكون الا عقب ثورة فكرية، وهذه الثورة الفكرية مختمرة اليوم فى كثير من الرؤوس ولكن يعطلها عن الاثمار رياء مستعص ، وهو من العيوب الشرقية الشديدة المراس ، فكل ثائر على ما هو موجود يتحاشى أن يجاهر برأيه لكيلا يتهم بالزيغ عن عقيدته ، أو بالعقوق لقوميته ، فهو يريد أن يقوم بنصيبه من نعرة الاصلاح ولكن بشرط أن لا يلاحظ عليه شذوذ عن الجماعة ، فهو يدارى دهماءها ، عامدا فى نشر مبادئه الى طريقة الدس لا المصارحة ، فيجنى من وراء ما يفعل شرا مما يخشى منه من سوء القالة ، وشناعة الأحدوثة . وربما شارك العامة فى جاهليتهم تورطا ، فاذا خلا الى أمثاله أرغى وأزبد ، وجال وصال ، ثم تلفت يمنة ويسرة خشية أن يكون قد سمعه أحد !

الثورة على هذا النحو أجدر بأن تسمى نفاقا ، وهى لا تجدى الا اذا تعينت حقيقتها ، وسطعت أدلتها ، وباشرت الكفاح علنا لتحل المبادىء الصالحة محل الحالات النفسية الضارة ، فاذا لم يحصل هذا ازداد داء الامة استعصاء بما تنشئه من نفسيات متلونة ، وارادات مترددة

وكيف يعقل نشوء اصلاح ولم يقم وراءه رأى عام يسنده ويؤيده ؟ وهل يتأتى قيام هذا الرأى العام تحت ستار هذا الرياء الذى لا معنى له غير مشايعة الدهماء فى باطلهم ؟

ان مؤسسى المدنية الاوربية ومقيمى دولة العلم فيها لم يخشوا فى المجاهرة بآرائهم أن يلقوا فى النار أحياء ، فهلك منهم أكثر من ثلاثمائة ألف قذفا فى التنانير المسجورة ، فهل نجبن نحن عن المجاهرة بآرائنا صريحة وليس وراءها أكثر من اغضاب العامة ؟

ان هذه الثورة المقنعة تسارع اليها نزعة الهدم مجردة عن نزعة البناء ، لانها بما التاث به من نقيصة النفاق لا تريد أن تخلع العذار الا بعد أن يخلو لها الجو ، وهو لا يخلو الا بعد تحطيم كل ما هو قائم أمامها لا فرق بين صالح وفاسد . وقد جرت سنة الاصلاح فى الجماعات أن لا تهدم من أساسها ثم تنشأ من جديد ، ولكن أن يهدم منها ما تداعى الى السقوط مع ابقاء الاجزاء الصالحة للبقاء قائمة لكيلا تجد الجماعة نفسها فى العراء فينحل وجودها وتفنى فى أجساد أمم أخرى ، وهذا ما لا يتفق ونفسية الثورة المقنعة التى لاتريد أن تسفر الا بعد أن يخلو لها الجو !

ومن عيوب الثورة المقنعة انها تبقى على تطرفها ، بل تزداد ايغالا فيه كلما طال عليها الامد ، ولكن الذى تعيش به الجماعات هو الاعتدال لا التطرف ، وأنى لهذه الثورة المقنعة أن تعتدل ولم تكابد من احتكاكها بالمبادىء المناقضة لها عنتا يكشف لها عن نقائصها فتتكمل ؟

ومما يؤلم أمثالى ان الجيل الثائر قد أوجب عليه تقنعه وتحاشيه خوض المعارك ، أن يلتاث بكثير من الأدواء الخلقية التى تقضى عليه ولم يبلغ أشده . ذلك انه بنى مذهبه على التقليد المحض حتى فى الصغريات التى توجب اساءة الظن به . فاذا تسنى لواحد من الدهماء أن يشهد حياة بعض هؤلاء الثائرين ، رأى مبالغة فى السرف ، واغراقا فى الترف ، وامعانا فى اللهو ، فتصادمه الاباحة فى جميع مظاهرها ، ولم يلمح للفضائل المؤثرة فى النفس أثرا . فاذا كان لاحدهم ابن منهم أرهقه بالمطالب ، وبهظه بالتكاليف . فاذا أشرف على النواحى التى يستنفد فيها ابنه وسعه ، ويضحى فى سبيلها نفسه ، وجدها كلها لا تعدو المتع الجسدية ، فيسوء ظنه بكلمة التجديد ، ويعتبرها سبيلا الى اضاعة الوجود الاجتماعى اضاعة لا قيام له معها . فاذا أراد أن يتقصى فى بحثه ، وتجاوز مجالهم الجسدى الى مجالهم الفكرى ، ألفى صحفهم وكتبهم لا تعدو هذه الوجهة . وأمامى وأنا أكتب هذه الكلمة مجلة تجديدية جعل صاحبها على غلافها صورا رمزية تكشف عما يفهمه المجددون

من معنى الحياة ، وتنم عن غايتها فى نظرهم • فأولى هذه الصور ظل امرأة عارية كساعة ولدت ، قوامها مقوس الى الامام ، وثدياها مشرفان ، رافعة بيمناها اطارا فيه اسم المجلة ، وواضعة يسراها على مؤخرها • وعلى القارىء أن يتصور تفصيلات ما تعطيه هذه الصورة الطالية وبجانبها دائرة فيها صورة امرأة أخرى مكشوفة الثديين والذراعين ، مسندة على صدرها قيثارة تحرك أوتارها بأصابع يدها اليسرى • تلى هذه دائرة ثالثة فيها صورة امرأة ناهدة الثديين أيضا وعليها صدار البحر الذى يدعونه بالمايو وساقاها عاريتان

ان هذا وأمثاله وهو كثير يحمل الجامدين على سوء الظن بالمجددين ، ويعطيهم أدلة محسوسة على فساد مذهبهم ، ويمنعهم أن يخطوا خطوة واحدة فى سبيلهم الا مدفوعين بأهوائهم

فالشرق تحت كل هذه الآصار الفادحة لا يجمل به أن يفكر الا فى شىء واحد ، ألا وهو أن يتخلص من هذه الهوادم العاملة فى كيانه ، فخير له أن يعيش الطامعون فيه ، الماصون لدمه ، تنتبه غريزة حفظ الذات فيه ، وتستثير كل ما كمن فى نفسيته من مناعة ، من أن يفقدهم ويفقد معهم العوامل الدائبة على ايقاظه

هذا ما عن لى أن أقوله فى الموضوع الذى شرفتنى مجلة الهلال بالكتابة فيه ، ولست من المتشائمين وخاصة فيما يتعلق بحياة الامم ، فان فى صميم الطبيعة الانسانية ضروبا من النزعات تظهر فى أشد أدوارها خطرا على وجودها ، فتدفعها فى سبيل الحياة دفعا عنيفا ، فتأتى بما لم يكن يدور فى خلد أكثر أبنائها تفاؤلا

وعلى أية حال فلا بد من أن يجىء يوم يتبلج لنا صبحه عن نهضة سليمة من العوج ، فتحلنا محلنا الجدير بنا تحت الشمس المشرقة

فان سألنى سائل متى هذا ؟ قلت : « ان أدرى أقريب ما توعدون أم يجعل له له ربى أمدا » ، فان ألح على قلت : « عسى أن يكون قريبا »

محمد فريد وجدى



آثار الفتوحات العربية فى القوقاز

بقلم الاستاذ راشد رستم

أهل القوقاز أهل حرب ونضال تضرب بهم فى ذلك الامثال . وهم أشبه بالعرب فى التقاليد وألوان الحياة . وقد أثرت فيهم الفتوحات العربية واللغة العربية تأثيراً كبيراً ، وجعلت صلتهم بالعرب صلة دقيقة . وقد دافعوا عن كيانهم ضد الروس دفاعاً مجيداً . كما ترى تفصيل صفاتهم الحربية والاجتماعية فى هذا المقال القيم .

فى ٥ يناير سنة ١٩٣٦ أذاعت وكالة (تاس) الروسية عن موسكو نبأ العثور على آثار عربية أدبية قالت كما جاء فى تلغرافاتها : « ان أدباء العربية والمستعربين يستطيعون أن يضيفوا صفحة جديدة الى تاريخ آداب اللغة العربية الفصحى تقرب من تاريخ البلدان العربية وشعوب القوقاز

« فقد عثر معهد الآداب الشرقية على عدد كبير من المخطوطات العربية كتبت فى عهد الامير شامل البطل المشهور فى تاريخ القوقاز ، وقد جعلت وقفا على وصف جهاده لدفع استبداد قياصرة الروس

« ولهذه الوثائق أهمية عظيمة جدا من الوجهات التاريخية والعلمية وقد عثر عليها فى دفترخانة الدولة . وهى رسائل جىء بها من تفليس ومن غروزنى ، وعددها ١٥ رسالة

« وقد عثروا علاوة على هذه الوثائق على مقدار كبير من المخطوطات والمؤلفات الادبية من عهد الامير شامل »

على ان صلة العرب بالقوقاز قديمة العهد . ففى خلافة عمر رضى الله عنه فى سنة ٢٢ هجرية الموافقة لسنة ٦٤٧ ميلادية ، وصل جيش اسلامى الى حدود بلاد العجم ، وبعد أن استولى على أذربيجان ، انفصلت عنه قوة بقيادة (بكر بن عبد الله ، وعبد الرحمن بن ربيعة) وقصدت جنوب القوقاز للفتح

وقد دخلت هذه القوة من الجنوب فى بلاد شروان وجزء من بلاد الداغستان ، واستمر زحفها حتى استولت على بلاد الارمن القوقازية وبلاد الكرج وفتحوا عاصمتها تفليس

وتأسست بذلك حكومة اسلامية دامت أربعة قرون تقريبا حتى كانت الحرب الصليبية واستفحل أمرها واضطر العرب الى توحيد قواتهم أمام الصليبيين ، فأخذوا يخلون البلاد من جنودهم يوجهونها الى ميادين القتال ، فانتهز الكرج هذه الفرصة وعادوا الى سيرتهم

الاولى ونادوا بأحد أبناء ملوكهم وزحفوا على تفليس واستردوها سنة ١٠٢٦ ، وبعد ذلك زال نفوذ العرب من القوقاز

على انه الى سنة ١١٤٥ ميلادية كانت نقود الملك ديمترى الكرجي تسك باللغة العربية وعليها اسمه واسم الحاكم السلجوقي بايران ــ هكذا : (مسعود ديمترى)

صفات القوقاز الحربية

وتوالت على البلاد الحكومات المستقلة الى أن جاءت الروسيا بدورها ، وأخذت فى مناوأتهم حربا بعد حرب ، وجيلا بعد جيل

ولكن أهل القوقاز أهل حرب ونضال ، تضرب بهم فى ذلك الامثال ، فلا يهونون ولا بأسهم يهان ، ووقفوا أمام الروسيا المتعاظمة المتزايدة ، يصلونها من هزائمهم لها قرنا وبعض قرن ، حتى اضطر الروس بعد خضوع البلاد أن يجعلوها ذات ميزات عن غيرها من أجزاء الروسيا ، فكان لايقوم حاكما عليها الا أمير من أمرائهم • وكانوا لا يجندون منها الجند في جيوشهم ، اللهم الا من تطوع عن رضا نفس • وذلك لشدة شكيمة أهلها ، ولاعتزازهم بعنصريتهم العالية واعتراف الروس لهم فى ذلك (١)

ولهؤلاء القوقازيين تفنن فى الحروب وقواعدها حيروا بها الروس على كثرتهم وقوتهم وقادتهم

تتألف قواهم الحربية من الخيالة والمشاة • ووظيفة الخيالة التعرض والهجوم • أما المشاة فكانوا مكلفين بالاستيلاء على الاستحكامات وسوق الغنائم وحفظ خطوط الرجعة

وطريقة حروبهم هى مداهمة أعدائهم ومفاجأتهم مما هو معروف فى الفن العسكرى باصطلاح (الكبسة) • فكانوا يسيرون ليلا ويهجمون فجرا ، ويأخذون العدو على غرة

ومن غريب أسلحتهم انهم كانوا يستعملون نوعا من القسى والنبال تحدث أصواتا هائلة يرهبون بها العدو ••

تشابه العرب والقوقاز

والجراكسة ــ وهم أميز الامم القوقازية ومثلها ــ قبائل وبطون كالحال عند العرب •

(١) لم يعرف فى تاريخ الشعوب ان أمة غالبة تقلد أمة مغلوبة فى لباسها ومظهرها وفروسيتها مثل ما فعل الروس مع أهل القوقاز • فقد أخذ الروس لباس الجراكسة وهندامهم وجعلوه لباسا رسميا لفرق عديدة من جيوشهم وحرس قياصرتهم • وذلك لانه اصلح لباس للفارس وللراجل • فضلا عن منظره ووقاره • وقد أدخل الروس عليه بعض التعديل وزادوه الوانا لزيادة الزينة به ، وكان يلبسه القيصر وامراء العائلة • كما اتخذته قبائل القوزاق لباسا لها • وهنا يحسن التنبيه لعدم الخلط بين القوزاق وأهل القوقاز • فهؤلاء عنصر آرى قوقازى • واما اولئك فهم عنصر تاتارى وموطنهم بين نهرى الدون والفولجا فى جنوب روسيا متاخمين للقوقاز من الشمال • فضلا عن ان القوزاق مسيحيون واما اهل القوقاز فهم مسلمون

ويمتازون بالشجاعة والفروسية ، وفيهم من حياة البداوة شيء كثير

ولعل ما هنالك من تشابه بعض التقاليد وألوان الحياة بين قبائل الجراكسة وقبائل العرب جعل الكثيرين من الباحثين - ومنهم بعض الجراكسة أنفسهم خصوصا بعد أسلافهم - يقولون باتصالات عرقية بين القومين • ولهم فى هذا الباب تخريجات وتخمينات ، هم فيها معذورون لتشابه بعض نواحى الحياة

وفى رأى بعض المؤرخين ان (جبلة بن الايهم) الغسانى ، عند ما وقعت له حادثة الاعرابى فى خلافة عمر ، ولم يرض بقصاص هذا منه للعربى الذى داس على ثوب جبلة فلطمه ، يقولون انه التجأ الى بلاد القوقاز وان له هناك قوما ينتسبون اليه الى الآن • بل يقولون فيما يقولون ان بني غسان الامراء أصلهم قوقازى انحدروا الى أرض غسان من زمان قديم • ولذلك عندما رفض جبلة قصاص عمر رأى أن يعود الى أصوله

وهناك مؤلف مطبوع يقول بنسب كثيرين من الجراكسة الى قريش • ولعل ذلك كما قلنا ، سببه دخول قبائلهم فى الاسلام فى القرن الثامن عشر الميلادى ووجود تشابه بين الحياتين

والقوقازيون بطبعهم قوم أشداء يعتدون بأنفسهم كثيرا • فلما اقتنعوا بالاسلام وأخذوا به ، جعلوا يتمسكون به فى قوة ودقة • وذلك خلق من أخلاقهم ، يشير به البعض بما هو مشهور عنهم من انهم عنيدون

وأمر آخر جعل للعرب صلة بأهل القوقاز ذلك ان أحد أمراء قبيلة (قبرداى) أكبر قبائلهم اسمه (عادل كراى) أنشأ فى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى (المحاكم الشرعية) مستعينا فى ذلك بأحد علمائهم العاملين وقضاتهم الاعلام (أبوق حاجى اسحاق افندى)

وبهمة هذا العالم الفاضل انتشرت هذه المحاكم الشرعية الاسلامية • وكانت تنفذ أحكامها بدقة وعناية حسب نصوص الشريعة الغراء • على انه لا يصح بالرغم من هذا أن نغض الطرف عن عظيم عنايتهم الخاصة الفائقة بمحاكمهم القومية الاصلية • اذ هم قوم لهم عاداتهم وتقاليدهم المقدسة

فمن هذا مثلا محافظتهم على القاعدة القديمة عندهم وهى الخاصة بمسائل الميراث ، والتى تجيز فى تقليدهم اعطاء فرصة أربعين سنة لسماع الدعوى فيها

كذلك تمسكهم بالزواج من واحدة • فانه وان أجاز الاسلام غير واحدة ، الا انهم لم يغيروا تقليدهم التاريخى القديم جدا

وأمر آخر • فقد ظهرت طائفة (المريد) وهى من طرق الصوفية ، ورجالها فى اصطلاحهم هم مشايخ الطرق ومريدوهم ببلاد الداغستان وبلاد اللزكى • وأشهرهم الشيخ شامل الذى ألف سنة ١٨٢٦ حكومة متحدة بأمارته ضد الروسيا

أثر اللغة العربية فى القوقازيين

وقد لعبت اللغة العربية في كل هذه الصفحات من حياة الامة أدوارا هامة • فهى لغة القرآن ولغة الصلوات ولغة الدعوات ولغة الأوردة والأذكار

وقد كانت مفروضة دراستها على كل شخص • غير ان منهم من يفهمها وان لم يقرأها ، ومنهم من يكتبها وان لم يقرأها

وقد كانت اللغة العربية وسيلة فى بعض الاحوال لتسهيل التفاهم والمخاطبة بين جماعات لا تعرف لغة بعضها • فقامت اللغة العربية بدور لغة التفاهم • ومن هذا رسالة من أحد رجال الشيخ شامل بعثها اليه فى مسألة خاصة بشؤون الحرب

وكانت حكوماتهم الاخيرة تجمع بين الامامة الدينية والزعامة السياسية والقيادة الحربية • ومن مشهوريهم فى ذلك حاجي غازي محمود ، وحمزة ، وحاجي مراد ، وسليمان ومحمد أمين شامل ومنصور الخ

ذلك أمر اللغة العربية فى تلك البلاد وفى تلك الازمان

على ان أهل القوقاز لهم صلة باللغة العربية أوثق معهم وهم فى غير بلادهم • فمثلا فى دول المماليك بمصر والشام وتلك دراسة واسعة لها ما لها وعليها ما عليها

أما فى بلاد الهجرة التى استوطنها الجراكسة بعد حرب الاستقلال منذ سنة ١٨٦٠ ، فهى اما بلاد تركية أو بلاد عربية • وهم وان حافظوا على لغتهم وعلى الكثير من عوائدهم وقوميتهم رغم شدة الحال معهم ، فانهم تعلموا لغة من سكنوا بينهم

وقد أظهروا بالنسبة للغة العربية براعة فى الاقبال عليها والبيان فيها • وكثير منهم يعد من كبار كتابها وشعرائها • ولنضرب مثلا بالشاعر المبين سامى باشا البارودى • صاحب الفضل فى تهذيب أسلوب الشعر العربى فى أواخر القرن التاسع عشر

والواقع ان اللغة العربية كان لها سحر أخذ بنفوس أهل القوقاز ، من غير طريق الدين ، اذ هم الشجعان أهل النجدة ، ورجال الفروسية والميدان ، فيرضيهم خيالها ، وتسحرهم تعابيرها ، وتشجيهم أوزانها

راشد رستم

أمثال عربية

* ما حك جلدك مثل ظفرك فتول انت جميع امرك
* انا واخى على ابن عمى وانا وابن عمى على الغريب
* لا تكن رطباً فتعصر ولا يابساً فتكسر

بين العرب والانكليز

تشابه فى الطباع وأسلوب التفكير

بقلم الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

.. ان ما يكتسبه الانكليزى من الثقافة والصقل هو الذى يخدعنا ، ويخفى عنا تشابه المعدنين ، ولقد رأيت الانكليزى فى بلاده ، وفى ريفه على الخصوص ، ورأيت البدوى فى خيمته ، واعترف انى لم أجد فرقا يستحق الذكر فى الطباع ، وفى اسلوب التفكير ، ونوع النظرة الى الحياة والاقدار . نعم تختلف العبارة ، ويتفاوت مبلغ العمق ، ولكن ما تصدر عنه النفس يكاد لا يختلف او يتفاوت

وقد عدت من رحلة العراق ، وانا اعتقد ان الانكليزى اقرب الى العربى من الفرنسى والالمانى أو غيرهما من شعوب اوربا ، بل صرت اعتقد ان الانكليزى اقرب الى العربى فى الطبيعة والعقلية من الانكليزى للفرنسى . وقد يبدو هذا غريبا ، ولكنه فى نظرى غير غريب ، لانى لا اجعل بالى الى الثقافة ، وما تحدثه من التقارب والتشابه ، بل الى المصادر الاولى لاتجاه النفس ، والبواعث العميقة على النظر الى الحياة . وفى هذا أرى الانكليزى والعربى نظيرين

وخطر لى وأنا ادير هذا المعنى فى نفسى انه ليس مما يستغرب اذن ان الانكليزى اقدر من غيره من ابناء الشعوب الاوربية على الاتصال بالعربى وفهمه والاندماج معه فى حياته واعظم توفيقا فى ذلك

وليس الانكليزى اذكى من غيره ، ولا ابرع ، وليست المسألة مسألة دهاء يمتاز به الانكليزى ويحتاج الى مثله الالمانى والايطالى . وانما هى فى رأيى على الاقل مسألة تشابه وتشاكل فى الجوهر والمصادر الاولى للنفس . ومن هنا فيما أرى يستطيع العربى ان يفهم عن الانكليزى ، والانكليزى أن يفهم عن العربى ، وانهما ليتماثلان فى الحسن والقبح ، والحميد والذميم من الاخلاق

ولو شئت ان اتوسع فى البيان لامتد بى نفس المقال ، فحسبى هذه الاشارة واللمحة الدالة . وانى لارجو ان يتاح لى ان اسوق للقارىء شواهد عن الادب الانكليزى والادب العربى تدل على هذا التشاكل العجيب فى النظرة الى الحياة ، وهو بحث شاق ، ولكنه يستحق ما يجشمه من التعب ، وفى وسع القارىء ان يكون على يقين من انى غير متأثر فى هذا الرأى بثقافتى الانكليزية

[من مقال للاستاذ المازنى ـ كتبه على أثر عودته من العراق منذ سنوات يقارن فيه بين الروح العربية والروح الانكليزية]

تأثير الحرب في اقتصاديات الشرق

بقلم الاستاذ سامى السراج

خبير الاسواق الشرقية بوزارة التجارة والصناعة

هو ذا الشرق ، يشهد فى ربع قرن حربين ضروسين ، حربا مضت وحربا ما تبرح مشبوبة . ولو كان للشرق لسان ينطق لقال ما قاله فارسى بكر :

لست من جناتها علم الله ولكن بحرها اليوم صال

على أن حرب اليوم تختلف عن الحرب الكبرى الماضية بأن الشرق لم يؤخذ فيها على غرة فقد لبثت إرهاصاتها تتراءى لعينيه منذ سنة ١٩٣٤ أو من قبل ذلك وكان على يقين من أن فشل مؤتمرات نزع السلاح مؤد الى امتشاق السلاح فى يوم قابل وان القواعد التى اتبعت فى معاملة بعض الشعوب عقب الهدنة كانت اصطلاحا لاخضاعها الى ارادة الغير اضافة الى ما بدا من اتساع المطامع من جراء ضيق بعض البلدان عن استيعاب عدد سكانها المتزايد وحاجتها الى أسواق جديدة لتصريف فيض منتجات معاملها ، وعوامل أخرى كانت تشير الى أن الحرب واقعة لا محالة . إذن لقد دق نفير هذه الحرب وشرقنا معتقد بدنو يومها ، فلم يكن أمامها مدهوشاً أو مشدوهاً كما كان يوم دقت أجراس الحرب الماضية وكانت أقطاره مبعثرة واتجاهاته مختلة وروابطه مفككة وصناعاته المحلية أقرب الى العدم وثرواته فى أيدى الاغيار يستغلونها فيما يشاءون وعقد الشرق مفروط ولا ناظم لحباته

على انك مهما تقل فى ويلات تلك الحرب العضوض وصنوف ضيقها وما أنزلته من نقص فى الانفس والثمرات فان الشرق الذى عصرته تلك الحرب عصراً وأرته ألوان النكال قد تفتحت عيونه على مصالحه فأشربته معانى أهمية الصناعة وأيقظت فيه روح الاعتداد بنفسه للاكثار من انتاج ما يحتاج اليه وتحديد اتكاله على صناعات غيره مما يمكن أن يحسنه ويتقنه أبناؤه ويخلق أن يعده لتفريج كروبه إذا ما وقع حصر أوسدت منافذ الطرق وأغلقت أبواب الاستيراد

وقد مر على انتهاء الحرب الكبرى عشرون عاما كاملة والشرق آخذ بهذا النصيب من الانتباه العام يعمل لفك الايسار عن عنقه من جهة وتحسين انتاجاته وتعهد مرافقه من الجهة الثانية . نعم ان الصناعات الشرقية لم تبلغ فى الواقع حداً يمكن من الاستغناء التام عن الصناعات الاجنبية لكن أحداً لا يستطيع أن ينكر تقدم معامل مصر والعراق والشام وفلسطين فى الانتاج العملى

ولا تطور زراعاتها وتنوع غلاتها وتضاعف كميات المستغل من مساحات أراضيها بالاستفادة فى كل هذه الضروب من ثورة الصناعة الهائلة فى الغرب بعد الهدنة ومما جلبته منه هذه الأقطار واستزادته من الماكينات والآلات الحديثة والمعدات التى تأخذ بيد الانتاج وتزيده أضعافا متراكبة

ونظرة واحدة الى بيانات ادارة الجمارك فى الاقطار السالفة الذكر تريك النسبة المتزايدة فى جلب تلك الآلات والمعدات الصناعية الحديثة عاماً بعد عام وتجعلك تطمئن الى تطور الانتاج الصناعى والزراعى فى أنحاء الشرق تطوراً يدعو الى الارتياح ولولا أن الحرب القائمة قد حدت من الاستزادة من المجلوب لكان التطور الذى نشير اليه قطع مراحل أخرى غاية فى الأهمية والتوسع وليس يخاف أن بلدان الشرق غنية بكنوز الارض ظاهرها ودفينها ، حتى البترول قد أدت أعمال الكشف والاستنباط الى تفجر ينابيعه فى معظم النواحى التى جربت فيها عمليات الكشف فقد زادت منتجات مصر منه من ٢٥٠ ألف طن فى السنة الى قراب ٨٠٠ ألف طن فى السنة وبلغت منتجات العراق من النفط نحو أربعة ملايين ونصف مليون طن فى العام ونجحت عمليات استنباطه فى الجزيرة العليا من بلاد الشام ومناطق الجنوب من فلسطين وفى أواسط نجد وغربها كما تبين أن فى الشرق معادن كثيرة قابلة للاستغلال كمعادن الفحم والصلب والقصدير والبلور والاسمنت والذهب والفضة والنحاس والجرانيت وغير ذلك من مختلف المعادن مما ترتب عليه قيام حضاراته الاولى ووفرة غناه فى العهود الماضية وما يمكن أن يتجدد ويؤتى أكله إن أحسنا استغلال تلك المعادن واستمر تقدمنا الآلى ماضياً الى الأمام

وهنالك عامل آخر يجعل تأثير الحروب هيناً علينا ، وهو التعاون بين ممالك الشرق وأقطاره بعضها وبعض ، فان لكل قطر طابعا خاصا فى الانتاج يستمده من طبيعة أرضه ومناخه . فى مصر مثلا شمس لا يغيب اشراقها صيفا وشتاء تجعل نمو الزراعات يستمر ونجاحها يطرد . وفى غيرها كبلاد الشام وأقاليمها جبال شاهقة وأشجار باسقة وأغوار دافئة وغابات متكاثفة ففى تنوع طبيعة الارضين بين سهول ونجود وهضاب وآكام تنوع فى صنوف الانتاج يساعد على المبادلة والمقايضة وعلى التناوب فى تفريج الكرب فما قل فى فصل من الفصول من أنواع الغذاء فى قطر شقيق يمكن أن يمده به الشقيق الآخر كما أن النواتج السهلية والجبلية يتمم أحدها الثانى . هذا فى الانتاجات الزراعية وأما فى الانتاجات الصناعية فالقياس على ذلك سهل ميسور وفى مكنة كل قطر شرقى أن يخص أخاه بالزائد عنده الفائض عن حاجات سكانه ، فلا يكون ثمة تأثير كبير لنكبات الحرب

فأنت ترى من هذا أن يقظة أولى قد نبهت فى شرقنا فى بحبوحة عشرين عاما فقط وهى مدة غير طويلة فى حياة الامم قد قررت هذه الفوائد وساعدت على تخفيف الكروب زمن الحروب ، وحققت لشعوب الشرق تعاونا قائما ليس على العاطفة فحسب ، بل على المصلحة المشتركة أيضا . فما بالك اذا استمرت نهضتنا الانتاجية فى أفق منسرح مستمر وجو مشبع بالوعى القومى وصادق العزم

أعواما ممتدة فتستثمر البلاد جميع مرافقها ومنابع ثروتها وتوجه أبناءها الى الافادة والاستفادة عن طريق الحذق والاتقان وكثرة اليد العاملة ثم تتوج ذلك باقبال سخى من جميع الافراد على ايثار المنتجات المحلية وحصر استهلاكهم لحاجاتهم فيها

اننا فى الواقع ما نزال فى أول الشوط ولكننا سنبلغ الغاية ما دمنا قد عقدنا العزم على بلوغ المقاصد والوصول الى الغاية . وما خاب المؤملون

سامى السراج

عواصم البلدان العربية

القاهرة	عاصمة	مصر	اللاذقية	عاصمة	بلاد العلويين
تونس	«	تونس	بغداد	«	العراق
الجزائر	«	الجزائر	مكة	«	الحجاز والمملكة العربية السعودية
فاس	«	مراكش			
تطوان	«	المغرب الاسبانى	الرياض	«	نجد
طنجة	«	منطقة طنجة	صنعاء	«	اليمن
طرابلس	«	لوبيا	عدن	«	محمية عدن
القدس	«	فلسطين	الكويت	«	امارة الكويت
عمان	«	شرق الاردن	مسقط	«	مسقط
بيروت	«	لبنان	الشحر والمكلا	عاصمتا	بلاد حضرموت
دمشق	«	سورية	الخرطوم	عاصمة	السودان
السويداء	«	جبل الدروز	زنجبار	«	زنجبار

المـرأة العربيّـة والحرب

بقلم السيدة لبيبة هاشم

إن ما نطالعه من أخبار النساء فى هذه الحرب يدعو الى الاعجاب الشديد ، ويدل على عظم الانقلاب الاجتماعى الذى يحتمل أن ينشأ عنها . فان تلك التى قيل إن النسيم يجرح خديها ولمس الحرير يدمى بنانها تسير الآن مع الرجل جنباً الى جنب فى مختلف ميادين القتال البرية والجوية ، فتؤلف فرقاً من المشاة فى روسيا ، ومن جنود المظلات وقاذفات القنابل وطائرات المطاردة والاستكشاف ، ومن العاملات فى مصانع الذخيرة والمعدات الحربية وفى الحقول والمستشفيات ، وتتولى الدفاع المدنى فى كل مكان ، وتقف أمام صرعى الحرب لتشهد دماءهم المهرقة ، وتسمع أناتهم الموجعة ، وتنظر الى القنابل تتساقط حولها وتخطف منها آلها وأعزاءها ، فلا تستسلم الى الذعر ولا ترزح تحت أثقال الحزن ، بل تنصرف بسكون الى انقاذ من بقى حياً من الجرحى فتداويه ، وتخفف آلام المنازع ، وتسق الظمآن ، وتبذل كل ما فى وسعها لتخفيف ويلات الحرب

وليست هذه المحامد محصورة فى المرأة الأوربية ، بل هى تبدو جلياً فى نشاط أختها العربيـة التى لم يصرفها نعيم الحياة ولا بؤسها عن التفكير فى واجبها الوطنى ، فاندفعت بكل ما فيها من قوة ومواهب وإخلاص لخدمة أمتها وبلادها ، فانضمت الى جمعيات الهلال الاحمر ومصلحة الوقاية من الغارات ولم تتقاعد عن طلب الانتظام فى سلك الأعمال العسكرية والسلاح الجوى

ليس بمستغرب اقدام المرأة على مجابهة أخطار الحرب فى العصر الحديث ، فان الشجاعة من صفاتها البارزة ، وهى فى حالة الفطرة كالرجل بسالة وقوة واندفاعاً الى القتال . واذا رجعنا الى تاريخ المرأة العربية فى الجاهلية وفى صدر الاسلام لوجدناها مثالا بليغاً فى الشجاعة والأنفة والاستهانة بالموت . ولو أردنا بيان اللواتى تزعمن القبائل وقدن الجيوش واشتركن فى المعارك لضاق بنا المقام . ولكننا نقتصر على الاشارة الى بعضهن على سبيل المثال

روى عن سلمى بنت مالك ، الملقبة بقرة العين لما كانت عليه من المنزلة السامية فى قلوب مواطنيها ، أنها كانت على دين الجاهلية وسبيت فى صدر الاسلام . فأعتقتها عائشة ، فعادت الى قومها ، وألقت فيهم خطبا حماسية أثارت الحمية فى صدورهم واستنهضت هممهم الى الدفاع عن حوزتهم . فاجتمع حولها رهط من بنى غطفان وطيء وهوازن . فعظمت بهم شوكتها وخشى خطرها . فسار اليها خالد بن الوليد فى أيام أبى بكر وقاتل جموعها قتالا شديداً . وكانت سلمى تسير فى طليعة

الجيش راكبة جملا ، وكلما بلغت قبيلة أو قرية خطبت فيها واستثارت أهلها ، فكان الناس ينقادون اليها انقياد الاطفال ، إذ كانت ألفاظها تفعل فيهم فعل السحر الحلال ، فيرتمون فى أحضان الموت مختارين . واستمرت فى ذلك الى أن قتلت

وذكر عن صفية بنت عبد المطلب بن هاشم عمة النبى (صلعم) أنها أسلمت قبل الهجرة ، وهاجرت الى المدينة . وكان النبي اذا خرج من المدينة لقتال عدوه يرفع أزواجه ونساءه فى حصن حسان بن ثابت . فلما كان يوم «أحد» صعدت صفية معهن ، وتخلف عندهن حسان . فجاء يهودى فلصق بالحصن يتجسس . فقالت صفية لحسان : «انزل اليه فاقتله» . فتوانى حسان فأخذت عموداً ونزلت ، ففتحت باب الحصن بهدوء ، وحملت على الجاسوس فقتلته

وذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٦٧ هـ أن عمرة بنت النعمان بن بشير الأنصارية زوجة المختار الثقفى ظلت ملازمة لزوجها فى ميادين القتال الى أن قتل وقتلت بعده بيد مصعب بن الزبير

ومن أعظم الأدلة وأبلغها على شجاعة المرأة العربية ، وقوة قلبها ، وتعقلها ، وامتلاك نفسها ، كلام أسماء بنت أبى بكر الصديق لابنها عبد الله حين قاتل الحجاج ، وقد أتاها يستشيرها فى التسليم بحجة أنه لم يبق معه من الرجال من يضمن معهم الفوز والنصر

فأجابته : «أنت أعلم بنفسك ، فاذا كنت تعلم أنك على حق واليه تعود فامض اليه ، ولا تمكن من رقبتك غلمان بنى أمية . وان كنت تريد الدنيا فبئس العبد أنت ، فقد أهلكت نفسك ومن معك . وان قلت انك كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار»

فقال : «يا أماه ، أخاف ان قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بي فيمثلا فظيعا»

قالت : «يا بنى ، ان الشاة لا تتألم بالسلخ»

ولا بدع أن تفعل كلمات مثل هذه الأم فى ولدها فعل النار فى الهشيم فتلهبه حماسة وبسالة وإباء . ولا عجب أن يشتهر رجال العرب بالبطولة ولهم أمثال هاته الأمهات

وظلت الشجاعة من صفات نساء العرب بعد الاسلام الى أن طغت عليهن سيول الحضارة فقضت بتخفيف واجباتهن ، ثم جاء دور انحطاط الأمة فأخلدن الى الراحة داخل بيوتهن . ولكن روح البسالة لم تقتل فيهن بل خبت شعلتها تحت رماد الطمأنينة وجعلت تنقشع عنهن كلما هبت عواصف الاعتداء على أوطانهن . فانه حينما هاجم الملك لويس مصر سنة ٦٤٧ هـ استولى على دمياط ، فتوجه الملك الصالح أيوب الى المنصورة لقتاله . فتوفى فى معسكره . فأخفت شجرة الدر زوجته خبر وفاته حتى لا يتسرب الوهن الى همة الجيش ، وتولت هى قيادته الى أن تمكنت من الانتصار على عدوها

وفعلت فعلها حنيفة بنت الملك العادل ملك مصر وبنت أخي صلاح الدين الأيوبي ، فقد قادت جيشاً دافعت به عن وطنها وحملت الأعداء خسائر عظيمة وهزمتهم شر هزيمة

واننا ما زلنا نذكر أعمال الباسلات من نساء عرب طرابلس الغرب في الدفاع عن بلادهن ضد الايطاليين ، فقد كن يصحبن رجالهن في ميادين القتال غير عابئات بدوى المدافع وتساقط المقذوفات ومشهد دماء القتلى الجارية وجثثهم المطروحة ، وانما كن ينشدن غاية واحدة هي إنقاذ وطنهن من أيدي الأعداء

وقد امتازت من بينهن فتاة من قرقاويش بأن أبدت من مظاهر البسالة الخارقة في ميدان الطعان ما أدهش مكاتبي الصحف الفرنسية وقتئذ . فطفقوا يتناقلون أخبارها. ويعددون مناقبها وينشئون الفصول الطوال في بيان مغامراتها حتى اتفقت كلمتهم على إعطائها لقب جان دارك الثانية ، ومما ذكره أحد أولئك المكاتبين قوله : انها هجمت على المواقع الايطالية في قرقاويش تقود فرقة من أبناء قومها. وهي ممتطية جواداً أسحم ومتشحة برداء أحمر ، تستحث رجالها على النضال . وقد أصابتها شظايا قنبلة كسرت يدها فظلت مع ذلك رابطة الجأش ، ولم تفتر من الترنم بالأناشيد الحماسية . وكانت أول من وطىء متاريس العدو . وقد كتبت في هذه المناسبة السيدة فاطمة علية بنت جودت باشا المؤرخ المعروف فصلا في جريدة صباح التركية قالت فيه : « إن للغربيين جان دارك واحدة وهم لا ينسونها أبداً ، أما العرب فتاريخهم حافل بذكر كثيرات من نظائر جان دارك اللواتي رفعتهن بسالتهن في الحروب الى مصاف الأبطال »

واننا لنذكر كذلك أعمال السيدات والأوانس في مصر وسوريا وفلسطين في أثناء الحرب الكبرى الماضية ، وما تلاها من الثورات الداخلية في طلب الاستقلال . فكن في مصر يقفن في الساحات العامة ويلقين الخطب الحماسية معرضات أنفسهن للاضطهاد والعقاب ، رافعات أصواتهن بالشكوى من الظلم ، سائرات في طليعة المتظاهرين . وكن اذا سكتت أصواتهن ناب عنها صرير أقلامهن في إنشاء المحررات والدعوة الى المؤتمرات

وما عهدنا ببعيد بالمؤتمر النسائي الأخير الذي عقد في مصر دفاعا عن قضية فلسطين برياسة السيدة هدى هانم شعراوي ، فأقبلت عليه فضليات العرب في مختلف بلادهن قاطعات القفار والبحار ، متحملات ما شاءت متاعب السفر من عناء ونصب إجابة لداعي الوطنية وخدمة للعرب والعربية

ولقد كانت المرأة في أثناء الثورة السورية سنة ١٩٢٤ — ١٩٢٥ والثورات التي تلتها تشاطر الرجل نضاله ، وتدفعه الى الاستبسال بما تبثه فيه من روح الحماسة ، وما تبديه من حسن الأمثولة بمجاراتها إياه في مجابهة الاخطار . فان كثيرات منهن اشتركن في القتال وقتلن أو جرحن . بينما كانت سائر النساء يعملن على نقل المؤن والذخائر والاسلحة والزاد الى خطوط الثوار ، فضلا عما

كن يسعين اليه من جمع الاعانات ، والاهتمام بصنع الملابس . وقد كان ثباتهن وصبرهن ولا سيما فى أثناء نكبة دمشق ، ومعارك جبل الدروز ، والغوطة ، وحماة ، وجبل الشيخ ، والقلمون ، أعظم مشجع لرجالهن على الاستمرار فى النضال والكفاح نحو سنتين استولوا فيها على نصف سوريا ، وظل نحو ثلاثة أرباع مدينة دمشق فى أيديهم أسابيع طويلة

وفى أثناء الثورة الفلسطينية الاخيرة لم يكن عمل النساء الفلسطينيات بأقل خطورة من عمل أخواتهن السوريات . فقد بارين رجالهن فى الشجاعة وعانين ما عانوا من الاهوال وتعرضن مثلهم للموت . فكن الروح المنعشة للثورة والقلب النابض واليد المغذية ، ولولا تضامنهن لأمكن قمعها بسهولة ، ولكانت ويلاتها أعظم وأشد

ويروى عن ثورة العراق الكبرى التى أدت الى استقلاله ودعوة الملك فيصل الى تبوء عرشه ، أنه كان للمرأة العراقية اليد الطولى فى تلك الثورة ، كما أن لها الفضل الاكبر فى تقدم العراق الاجتماعى والاقتصادي والثقافى والسياسى

وهكذا نجد للمرأة العربية أثراً محموداً فى كل واد يسجل لها بمداد الاعجاب والفخار . فاذا نحن نوهنا بذكرها فانما نكون قد قمنا بواجب المؤرخ ، وان فاتنا الترنم بالثناء الحق

لبيبة هاشم

أسماء خاصة ببعض المدن العربية

يقولون :

مصر القاهرة

ومصر المحروسة

والقاهرة المعزية

ودمشق الشام

وطرابلس الفيحاء

وحلب الشهباء

ومكة المكرمة

والمدينة المنورة

وتونس الخضراء

والقدس الشريف

ومدينة الرشيد (بغداد)

لمن البحر الأبيض المتوسط ؟

بقلم الدكتور محمد عوض محمد

الشعب الايطالي اليوم ليس سلالة الرومان و لاوريثهم في البحر الأبيض المتوسط وان ما خلفه العرب من اثر ظاهر واضح فى هذا البحر أقوى وأعظم مما خلفه الرومان ، أو أى شعب آخر

منذ عدة أعوام وقف زعيم ايطاليا فى شرفته ، يخطب في جمع كبير ضخم من تابعيه وأنصاره ، وحمى وطيس الكلام ، وارتفعت حرارة الخطابة الى درجة الغليان . وصاح الزعيم في سامعيه : لمن البر أيها الابطال ، لمن البحر ، لمن الجو أيها الابناء ؟..

أسئلة ثلاثة عجيبة جريئة توجه بها الزعيم الى رهطه وهو يعلم تماما الرد الذى سيطرق سمعه ، وربما كان هذا الرد معدا من قبل ، فان الاصوات اندفعت جميعا برد واحد ، وهو « للفاشستي ! » ... فالبر والبحر والجو لهم وحدهم من دون الناس ...

ولو ان سيادة الاقطار والاجواء والبحار تنال بقوة الحناجر وبالصيحات البالغة عنان السماء لتم لهذا الرهط منذ زمان ما ينشده، ولما بقى لشعب من شعوب هذا الكوكب المسكين سوى زوايا وأركان صغيرة فى أطراف الارض ، يعيش فيها - اذا سمح له أن يعيش - عيشة الذلة والخضوع والاذعان

لم يكن هنالك بأس فى تلك الصيحات ، يوم كان الغرض منها أن تخلق روح الجرأة والشجاعة والبسالة ، فى نفوس أدرك زعيمها انها فى حاجة الى التجرىء والتشجيع والتبسيل

ولكن هذا العبث لم يلبث أن ولد نظريات وسياسات ودعايات كثر ترديدها وتكرارها ، حتى لفتت الانظار ، ومن هذه النظريات تلك الدعوى التى نسمعها كثيرا بأن البحر المتوسط بحيرة ايطالية ، ونادى الايطاليون بأن هذا البحر بحرهم Mare nostrum (١) وطال تكرارهم لهذا النداء والامعان فيه حتى جاز لنا أن نتوهم ان بعضهم بقوة التكرار ، بات مؤمنا بأن هذه الدعوى تستند الى أساس

ولم تلبث هذه الصيحة أن أعقبت صيحة أخرى ، وهى أن ايطاليا سجينة البحر المتوسط، وانه لا بد لها أن تنفذ من هذا البحر الى بحار وأقطار أخرى !

---

(١) هذا الاصطلاح قديم ولكن الرومان كانوا يذكرونه لا على سبيل الفخر والادعاء ، بل للتمييز بين بحرهم هذا وبين بحور أخرى

والنفس راغبـة اذا رغبتهـا وإذا ترد الى قليل تقنع

ورجال السياسة الذين يريدون أن يسلكوا بأمتهم مسلك العدوان ، لن يعدموا الصيحات المناسبة والنظريات الملائمة . ومن الامثلة الشائعة فى اللغة الانكليزية : ان الشيطان لن يعجز عن أن يستشهد بالكتب المقدسة فى الدفاع عن أعماله

***

ولكننا اذا فكرنا فى الاسس التاريخية التى تخول ايطاليا الحديثة ولو بعض الحق فى دعواها بأن البحر المتوسط بحيرة ايطالية لما وجدنا دعامة قوية واحدة تستطيع تلك الدعوى أن تقوم عليها سواء أنظرنا اليها من الوجهة السياسية الخالصة أو من الوجهة الثقافية . ومع ذلك فان من الايطاليين من يحاول أن يجعل لهذه الدعوى حجة ، أو شبهة حجة

وشبهة الحجة التى تقوم عليها الدعاية الايطالية هى ان ايطاليا الحديثة خليفة روماالقديمة وان روما القديمة جعلت البحر المتوسط بحيرة رومانية نحو ثلاثة أو أربعة قرون ، فلابد لايطاليا الحديثة أن تخلفها . ولم يكن بد من أن تتسلط السياسة فى ايطاليا على كتب التاريخ فتمسخها وتشوهها ، لكى تجعل منها الغذاء العقلى اللازم لمسخ العقول ، وتشويه أفكار الناشئين ، الذين لا بد لهم فى النهاية أن يضحوا بأرواحهم فى تحصيل تلك الاطماع . وتحقيق تلك الاوهام . مضى على هذه الدعايات بضعة عشر عاما يلقن فيها أبناء ايطاليا هذا التاريخ الممسوخ ، ولكن التاريخ أقوى عودا وأصلب جسما من أن ينال منه التحريف والتشويه بكل هذه السهولة ، فقد نسى أولئك الدعاة ان أبناء الشعب الايطالى لا ينقصهم من الذكاء ما يميزون به بين التمويه والحقيقة وبين الدعاية والتاريخ . وأعمالهم فى الحرب اليوم تشهد انهم لم يقدموا عليها عن رغبة وايمان ، وانما زج بهم فيها على كراهية منهم وهم يعلمون أن حكومتهم ليست مطالبة بإرث شرعى ، بل طامعة فيما ليس لها

الشعب الايطالى ليس سلالة الرومان

والذين يزعمون ان ايطاليا الحديثة وريثة روما القديمة ، وان الشعب الايطالى اليوم سلالة الرومان القدماء جريئون على التاريخ ، وعلى الحقائق التى لا يتسرب اليها أى شك . فان الدولة الرومانية حين امتد سلطانها ، واتسعت رقعتها ، لم تلبث ايطاليا نفسها أن أصبحت متدفقا لجميع العناصر التى تتألف منها الدولة ، كانت تجلب لها العبيد الارقاء ثم لا يلبثون أن يتحرروا ويندمجوا فى سكان ايطاليا ، ولقد يصبحون من ذوى السلطان والكلمة النافذة . وكان يجلب لها الجنود الاحرار لكى يحملوا نصيبا كبيرا من عبء الحروب التى لم تكن تنقطع فترة من الزمن . وحين اندك صرح الدولة الرومانية وأغارت عليها القوط والآفار والهون واللمبارد وتوغلت فيها العناصر السلافية ، ودام هذا التوغل فى مدى خمسة عشر قرنا لم تقم فيها بايطاليا حكومة تلم شعثها وتحميها اغارة المغيرين من شعوب متعددة وأجناس متباينة . وقد امتزجت دماء هذه العناصر واختلطت ، فاذا طلبت

اليوم الدم الرومانى الصميم ، وفتشت عنه وأمعنت فى البحث فسيعيك الطلب . وهذه حقيقة معروفة شائعة عند علماء الاجناس لا سبيل الى جحودها أو انكارها

ومن المعلوم ان القيصر أغسطس نفسه كان يشكو ان العناصر الرومانية لاتلد من يخلفها وان الدماء البربرية أخذت تطغى على الدماء الرومانية وهذا فى القرن الاول للميلاد ، فكيف بالقرون التى جاءت بعده ؟ لقد أتى على روما زمان كان يحكمها قياصرة من أصل أجنبى فالامبراطور تريانوس وهدريانوس وماركوس أوريليوس هم جميعا من أصل اسبانى . لقد كانوا من أجل الملوك شأنا وأرقى من القياصرة الذين سبقوهم مع انهم أبناء الاسر الرومانية الصميمة . وقد أنقذوا الدولة الرومانية من الفوضى والاختلال الذى كاد أن يقضى عليها

ونحن اذا قررنا ان الايطاليين اليوم ليسوا من أصل رومانى ، فليس هذا بضائرهم . فان للايطاليين مزايا ثقافية ، ظهرت فى عصر النهضة وفى القرون الحديثة كالنبوغ فى الفنون والآداب ، نبوغا لم يكن للرومانيين القدماء الذين اقتبسوا الثقافة من اليونان واتخذوهم أساتذة ومثلا يحتذونها . وانما امتاز الرومان فى الادارة والتشريع والحكم السياسى والنظام ، كان حكمهم لشعوب الدولة الرومانية ممتازا بالانصاف والعدل فى أكثر الاحيان ، ولم يكونوا يعذبون الناس ويخرجونهم من ديارهم ويسلبونهم مزارعهم وأموالهم

فايطاليا الحديثة بعيدة كل البعد عن أن تكون وريثة روما القديمة ، وسكانها يختلفون عن الرومان كل الاختلاف . ولكل من العنصرين مزاياه ، وقد أثبتت ايطاليا الحديثة أن ليس من مزاياها تلك الصفات التى امتاز بها الخلق الرومانى الصميم . والتى جعلته أهلا لان يؤسس ويبنى أمبراطورية عظيمة يسودها العدل والانصاف

ارث لا يصلح للمطالبة به

واذا افترضنا جدلا ان الايطاليين اليوم سلالة روما القديمة . فليس من السهل أن نفهم كيف يخولهم هذا أن يطالبوا بارث روما ، بعد أن مزق ذلك الارث كل ممزق ، وأعقبه زمن الجاهلية الطويل . الذى كانت فيه ايطاليا نفسها مقسمة الى دويلات وامارات صغيرة ، لم يتيسر لها أن تتحد وتكون دولة الا فى الثلث الاخير من القرن الماضى بفضل مساعدة الدول التى تناوئها ايطاليا اليوم وتناصبها العداء

لقد تم تأسيس الدولة الرومانية فى عهد القيصر أغسطس فى أول العهد الميلادى . وأصبح البحر المتوسط فى ذلك الوقت بحيرة رومانية ولكن هذه الحال لم تدم طويلا ، وكان لا بد للقياصرة من شن الحروب لاخماد الثورات ، ولم شعث الامبراطورية . فكأن الدولة الرومانية لم تقم الا بغزو أقطار والاستيلاء عليها ، ثم انقضت السنون بعد ذلك فى الذود عنها والمحافظة عليها من التمزق والتفكك . فكان عهد تلك الامبراطورية عهد غزوات وحروب لا تكاد تنقطع ، ولم يتسع المجال لان تبث فى تلك الدولة المترامية

الاطراف ثقافة أو ينتشر فيها علم أو أدب . بل لم تلبث هذه الدولة أن انقسمت شطرين في القرن الرابع ، شرقى عاصمته القسطنطينية ، وقسم غربى عاصمته روما ، والاول ثقافته يونانية والثاني ثقافته لاتينية ، وقد دام الشطر اليوناني زمنا طويلا أما القسم الغربى وفيه روما نفسها فانه لم يلبث أن طغى عليه سيل البرابرة الجارف ، وتمزق كل ممزق

اذن لم تدم دولة روما الواسعة وسلطانها المبسوط على البحر المتوسط سوى ثلاثة أو أربعة قرون .. ولو ان روما استطاعت أن تنشر في أرجاء هذا البحر ثقافة رومانية خاصة، لكان هنالك مجال لان تتحدث ايطاليا اليوم عن تركة روما القديمة ، ولكن الدولة الرومانية لم تكن سوى أداة حكم ، فلما دالت الدولة لم تدع وراءها أثرا ثقافيا اللهم الا في اسبانيا وفرنسا ، حيث تأثرت اللغة القومية باللغة اللاتينية وبقى هذا الأثر الى يومنا هذا

ان أربعة قرون ليست سوى جزء يسير في عمر هذا البحر العظيم ، الذى كان مهد الحضارة قبل أن تخلق روما بآلاف السنين . وفي الحق ان أثر روما في الثقافات المختلفة التي انتشرت في هذا البحر لاقل من أثر الدول الاخرى التي بسطت نفوذها عليه ، واليونان التي تعتدى عليها ايطاليا اليوم ، لها من الآثار في تاريخ هذا البحر وثقافته نصيب أجل وأعظم كثيرا من نصيب روما القديمة وايطاليا الحديثة . وحسبنا أن نذكر ان أول عمران دخل ايطاليا هو ما أدخله اليونان يوم أسسوا مستعمراتهم في مدينة (نابولى) وفي معظم سواحل ايطاليا . وعن اليونان أخذ الرومان الكتابة والفنون والعلوم والآداب

الشعوب العربية وأثرها العظيم في البحر الابيض

من الواضح اذن ان الدولة الرومانية لم تبسط نفوذها على البحر المتوسط سوى زمن يسير من حياة هذا البحر العظيم ، ولم يكن نصيبه من حضارتها غير شطر ضئيل

ولقد سبق الرومان شعوب ، وجاءت بعدهم شعوب طبعوا هذا البحر بطابعهم وأثروا في أقطاره آثارا عميقة خالدة ، لم تجرؤ القرون أن تزيل من معالمها الا النزر اليسير

ومن احقاق الحق أن نقرر أن ليس لامة ولا لشعب من الاثر الخالد الراسخ في أقطار هذا البحر ما للشعوب العربية

ونحن نستخدم لفظ الشعوب العربية هنا بأوسع معناه ، ونقصد بذلك الشعوب الصادرة عن جزيرة العرب ، التي انتشرت منها ، وشيدت بناء الحضارة في الاقطار التي تحف بالبحر المتوسط . ويدخل في هذا التعريف جميع الشعوب التي تتكلم اللغات السامية على اختلافها وتعدد لهجاتها

وأقدم هذه الشعوب من غير شك الشعب المصرى فهو أول من رفع منارة الحضارة وبسط نورها على صفحات بحرنا هذا . كان المصريون القدماء من غير شك سلالة افريقية شمالية تخالطها سلالة سامية صادرة عن الجزيرة العربية . واختلطت السلالتان وامتزجتا في زمن بعيد قبل مولد المسيح ببضعة آلاف من السنين . وانطبعت اللغة المصرية بالطابع السامي ،

فكانت أول اللهجات العربية التى أشرق بها فجر التاريخ • ومن ضفاف النيل انبعثت مؤثرات الحضارة ، الى الجزر اليونانية ، وتناولت ـ فى رأى كثير من الباحثين ـ أقطارا أخرى لا نستطيع أن نذكرها جميعا على وجه التحقيق ، وكان ذلك قبل تأسيس روما بثلاثة آلاف من السنين •• ففى مصر اخترعت الزراعة والملاحة وفنون البناء ومبادىء العلوم • وجميع تلك الظاهرات المادية والمعنوية التى تنعتها باسم الحضارة • وظلت مصر زمنا طويلا هى المصباح الذى ينير أركان تلك الاقطار التى يكتنفهـا الظلام الكثيف

فى مصر اذن نبتت عناصر الحضارة ومنها انتشرت ، ولولا ان المصريين شعب لا يحب الاغتراب طويلا لكان للمصريين فى جوانب هذا البحر مستعمرات دائمة

فانظر الفرق بين روما التى استعمرت ولم تنشر حضارة ، وبين مصر التى نشرت حضارتها دون أن تستعمر

ثم جاء بعد ذلك الفينيقيون ، وهم أيضا مزيج من عناصر سورية قديمة وعناصر صادرة عن جزيرة العرب ، ولغتهم السامية التى انتشرت فى أطراف البحر المتوسط شديدة الشبه بلغتنا العربية اليوم • ولا نزال نجد آثارها الى اليوم ، فى جهات منعزلة مثل جزيرة مالطة

وقد استطاع الفينيقيون أن يجعلوا البحر المتوسط بحيرة عربية قبل ميلاد السيد المسيح بألف عام • فأسسوا المستعمرات فى أطرافه الغربية والشرقية ، وكانت سفنهم تجوب البحر من أدناه الى أقصاه وتنقل التجارة وتنشر عناصر الحضارة • ومنهم تعلم اليونان القدماء الكتابة وكثيرا من الصناعات التى بنيت عليها حضارة اليونان فيما بعد • وليس من شك فى انهم قد علموا اليونان فن الملاحة الذى نبغ فيه اليونان بعد ذلك وظل البحر المتوسط زمنا طويلا تجتازه السفن الفينيقية وليس لها من ينازعها السيادة عليه ، وقد استطاعوا فى هذه الفترة الطويلة أن يحتلوا سواحل افريقية والاندلس ، وأن يطبعوها بطابع سامى

استطاعت روما بعد ذلك أن تقضى على قرطاجه ، ولكن النفوذ العربى لم يلبث أن ظهر فى الدولة الرومانية وأخضعهـا لنفوذه وسلطانه • وذلك ان الدين المسيحى ظهر فى شرق البحر المتوسط فى شعب سامى اتخذ فلسطين وطنا له • وانبعث هذا الدين من الساحل الشرقى للبحر ، ولم يزل يغزو أقطاره قطرا قطرا • حتى أغار على روما نفسها ، ولم تلبث فى منتصف القرن الرابع أن أذعنت لسلطانه وأعلن عاهلها ان المسيحية هى الديانة الرسمية للدولة الرومانية ! لقد عاشت روما قرونا حليفة الوثنية ، تبعث الجيوش وتنشر الغزوات ، ولكنها لم تستطع أن تنشر دينا أو تنشىء مذهبا روحيا

ومن المدهش حقا ان المسيحية التى انتشرت من الاقطار العربية ، ومدت ظلها على الدولة الرومانية ، قد استطاعت أن تنقذ روما من الفناء المحقق ، وأن تبقى لها ذكرها ونفوذها ، فبعد أن مزقت ايطاليا شر تمزيق ، وانهارت الدولة الرومانية الغربية تحت أقدام الغزاة البرابرة ، نهضت روما نهضة جديدة ، قوامها الدين ، وعمادها الروح ،

لا تستند الى الفيالق والاساطيل ، بل الى العقيدة الروحية السمحة السهلة وليقارن القارىء بين ما أثرته روما في الاقطار العربية ، وما أثرته هذه الاقطار في روما ، وليحكم بعد ذلك في تلك المهاترات التي تدعي السلطان على البحر الابيض المتوسط

انتشار الاسلام والثقافة العربية على شواطئه

على ان الاقطار العربية لم تلبث أن اندفع منها صوت جديد ، وانطلقت في أرجاء البحر المتوسط قوى عربية جديدة تحمل الى سواحله تعاليم الاسلام والثقافة العربية . ولم يعرف ان ثقافة جديدة انتشرت بالسرعة العظيمة التي انتشرت بها الثقافة العربية في القرنين السابع والثامن الميلادي . ولقد يكون من العسير أن نلمس السر في هذا الانتشار السريع ولكن ليس من الاسراف في شيء أن نقول ان الثقافة العربية التي انتشرت في هذا العصر، لم تكن سوى حلقة من الحلقات المتتابعة التي تأثر فيها حوض البحر المتوسط بجزيرة العرب وما يصدر عنها من ثقافة وحضارة . ومهما يكن من شيء فقد انتشرت اللغة العربية حتى عمت سواحل سوريا وفلسطين ومصر وليبيا وتونس والجزائر ومراكش وعبرت البحر الى جزيرة ايبريا حيث أسست ثقافة أندلسية عربية تعد بحق العصر الذهبي في تاريخ اسبانيا كله . ومع ان الحكم العربي قد زال عن اسبانيا ، فقد تركت اللغة والثقافة العربية في اسبانيا أثرا باقيا خالدا .. ولقد كان اتصال أوربا بالثقافة العربية في الاندلس ، سببا في خلق نهضة في الادب والعلم في الشطر الجنوبي والغربي من أوربا

وقد استولى العرب زمنا ما على جزر البليار وصقلية ومالطة ، ولئن كان الحكم العربي واللغة العربية قد زالتا من هذه الاقطار ، فان أثر الثقافة العربية لم يزل عنها

وفي النصف الشرقي من البحر المتوسط ، أقامت دولة الروم الشرقية زمنا حاجزا منيعا يحول دون نفوذ الثقافة العربية الى بلاد الاناضول . الى أن أتاحت الظروف لشعب تركي قد تأثر بالثقافة العربية تأثرا شديدا في اللغة وفي الدين أن يبسط نفوذه على سواحل الاناضول والبلقان ، وبرغم تراجع هذا النفوذ وزوال الحكم التركي عن جزء كبير من جهات البلقان ، فان القرآن الكريم لايزال يقرأ في ألبانيا ، وفي البوسنة والهرسك

اذن فليس من الغلو والاسراف في شيء اذ اقلنا ان أثر الثقافة العربية في سواحل البحر الابيض يتناول جميع الاقطار المحيطة به ، اذا استثنينا سواحل فرنسا وايطاليا واليونان . وليس من الاسراف أن نقول ان ما خلفه العرب من ارث ظاهر واضح أقوى وأعظم مما خلفه الرومان ، أو أي شعب آخر في هذا البحر

ولسنا في مقام التبجح والفخر فنصيح بأن البحر المتوسط بحرنا أو انه بحيرة عربية . وانما نحاول بما ذكرناه وضع الحقيقة في نصابها ، ردا على الصائحين الذين يحلو لهم أن يمسخوا الحقائق ، ويطمسوا معالم التاريخ

محمد عوض محمد

طلائع الحرب

بقلم الاستاذ محمد رضا الشبيبي

وزير معارف العراق الاسبق

أصدر الاستاذ الكبير محمد رضا الشبيبي ديواناً نفيساً باسم « ديوان الشبيبي » يحوى طائفة من قصائده المختارة فى الحماسة والحكميات ، والاجتماعيات والاخلاقيات والوجدانيات ، والوصفيات والرثاء ، وبعض المتفرقات ، وكلها من الشعر المتين الاسلوب ، المشرق الديباجة . ونحن ننشر هنا ابياتا من هذه القصيدة البليغة التى قالها فى الحرب الكبرى الماضية

طلائع يوم الوعد أنجزت الوعدا ... وأذهلن جيلا ما أعاد ولا أبدى
من الغرب هدت جانب الشرق نبأة ... وفى الغور صوت موحش طرق النجدا
لدن أضحت الدنيا مكراً ومن بها ... من الأمم الكبرى معبأة جندا
مكشرة شوهاء فوهاء أنشبت ... بنا وبأهل الأرض أنيابها الدردا
فكنت اذا أطلقت طائر نظرة ... لتكشفها أحشاءنا استعرت. وقدا
لظى نضجت فيها الجلود وعاذر ... بجاحمها أن ينضج القلب لا الجلدا
فلا حرها يطفا ولا هو يتقى ... ولا نارها كانت سلاماً ولا بردا
هى الحرب ما شبت أداة رديئة ... وإلقاحها فى غير منفعة أردى
مظنـــة جرح دبروها لتشتفى ... فما نجع التدبير فيها ولا أجدى
الى أن بدت نغارة ذات قرحة ... فما وجد العراف من نكثها بدا
وما زال فتل فى الغوارب والذرا ... وما انفك خيط الشر يلحم أو يسدى
إلى أن أتى ما ليس يملك دفعه ... ولا يستطيع الجالبون له ردا
خراب سيغدو الغرب مهد ظهوره ... كما كان للعمران قبلئذ مهدا
وما غاية الغبراء إلا خرابها ... اذا استفحل العمران واضايقت حدا
خبت غير مورأة نفوس وما خبت ... بها الحرب إلا أنها وريت زندا
شباب من البيض الزواهر ما لهم ... من العمر إلا مر عشرين أو احدى

ومرد ثنتها الحرب شيباً بما جنت … وشيب تعاطوا خوض غمرتها مردا
تحامى ولا تحمى وان جل ما بها … وتفدي أكاليل الملوك ولا تفدى
يخاف عليها أن تحيد وأن تني … وأن تنثنى لا أن تجوع وأن تصدى
ويكونها من أجل نزع جلودها … ممزقة سحقاً وبالية جردا
كأن لم تجد أيناً ولم تشك غلة … ولم تضطرم حراً ولم ترتجف بردا
كتائب شهب كلها مستطيرة … من الشر برقا أو مجلجلة رعدا
فيالق حين استنفرت مستجاشة … مشت للردى مشى القطا الكدر أو أهدى
ورهط على آثار آخر مهتد … وركب الى منهاج سابقه يحدى
فما أحصيت أحياؤها وتقطرت … على الأثر قتلى غير محصنة عدا
مشوا ذلل الأعناق دارين أنهم … يراح بهم للموت أو بهم يغدى
مساعير لم تؤثر على الجرى للردى … رجوعا ولم تترك الى الصدر الوردا
وما رغبوا فى الحرب حتى تحولت … محبتهم كرهاً ورغبتهم زهدا
سيندم خواض الملاحم هازلا … وسوف يرى هزل التى خاضها جدا
وأغرب ما فى هذه الحرب فقدها … ظباً جربت أفعالها وقناً ملداً
وغى يتساوى عندها الرمح والعصا … ولا يفضل السيف الحمائل والغمدا
تسدد فيها كل فوهاء حشوها … فرى الخوذة الملساء أو هتك السردا
اذا اخترق الاوهاد دكدك متنها … أو اقترع الاطواد ضعضعها هدا
فلا يتحاشى شاهقا أن يحطه … ولا يختشى حصناً ولا يتقى سدا
مقاليع لكن ما رمت قطع الصفا … ولا اجتهدت أن تدفع الحجر الصلدا
ولكنها ترمى الحديد بمثله … وينبو ولا تنبو مضاربها حدا
وما حربنا المشبوبة ابنة آنها … ولا نشأت عن قتل من ولى العهدا
ولا حمل الدولات أن تلج الوغى … تعاهدها بل انها اختلفت قصدا
فناشدة ثأراً لتدرك ثأرها … وطالبة فتحاً وحارسة مجدا
تسير أنى سارت الخيل صبرها … وتخفق قلباً أينما خفقت بندا
اذا افتقدت جمعاً أعدت نظيره … أو استهلكت حشداً دعت مثله حشدا
سيصبح شعب شامخاً أنف عزه … ويصبح شعب صاغراً دونه خدا
وكم أمة نهاضة بعد كبوة … وأخرى كبت من بعد نهضتها زندا
إذا أمة سيقت بجر خطامها … إلى غير ما تهوى إذاً تمت جدا

السيف في العالم الاسلامي

بقلم الصاغ عبد الرحمن زكي

أمين المتحف الحربي

نشأة السيف - السيف عند العرب - السيف المقوس

السيف الفارسي - السيف التركي - السيف

السوري المصري - السيف الهندي - السيف المغربي

تاريخ السيف وثيق الصلة بتاريخ الانسانية . هذا السلاح الابيض هو أقدم الاسلحة وأهمها منذ بدء الخليقة

والسيف منذ عرف كان أهم عامل في تاريخ الانسان . فقد نقش صفحته . وكون الامم . وصور الكون . وهو الذي قرر بحديه انتصارات الاسكندر وأمبراطوريات القياصرة . وهو الذي افتتح مناحي جديدة في معيشة الناس . أزال من الوجود دولا وأوجد في مكانها دولا أخرى عمرت زمنا ثم دالت دولتها بدورها

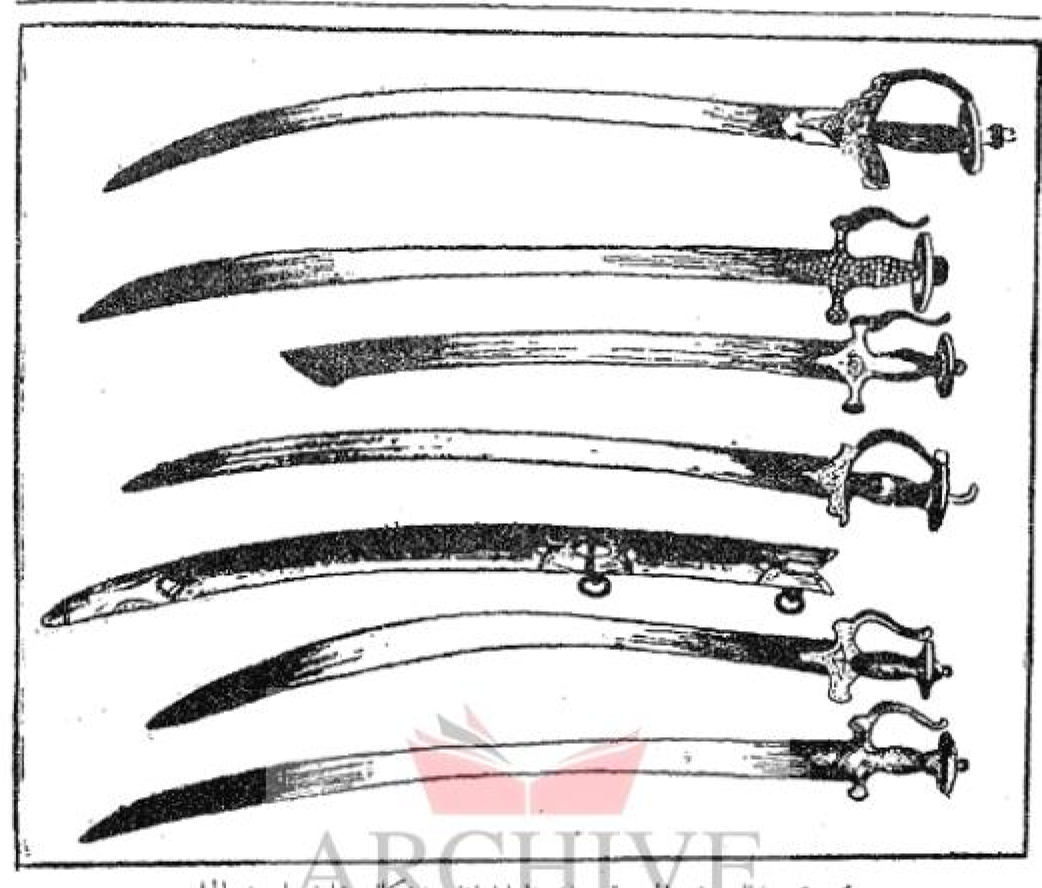
وليس تناقضا أو وهما أن تكون الحرب قد ولدت القانون . فلولاها لما وجد الحق أو القانون

والسيف وحده هو الذي تناول أمة طامحة مجيدة ليضعها في مكانتها الجديرة بها على انقاض أخرى دبت فيها عوامل الفناء والوهن والعجز . ثم أقام حضارة زاهرة عمت انحاء العالم . الاسيوي والافريقي والاوربي . وجعل للانسان مدنية تزينها العلوم والفنون والآداب

هذا السيف في قبضة الفارس النبيل لا يعرف معنى للقضاء أو القدر . لكنه يدرك أسمى معاني الحرية والارادة وما روح الفروسية الحقة الا ربيبة السيف . يحيطها بعض الفضائل كاحترام النفس والهيبة والوقار والاخلاص ورعاية الضعيف والشجاعة

والسيف في ماضيه وحاضره هو الرمز الذي يمثل الشجاعة والحرية . بل هو في كل عصر ومكان صديق الشجاعة الذي يقربها الى أمانيها . وزميل السيادة وشارة القيادة وعلامة القوة والاستقامة . ومؤيد السلطان

والسيف يكفل للانسانية كل حاجتها وكل ما تؤمل أن تكون عليه . فهو محقق أملها



مجموعة من السيوف الهندية ويلاحظ اختلاف أشكال مقابضها ونصالها

وأمنيتها يحمله الملوك ويقدسه التاج والصولجان . وهو وثيقة الجندى الباسل ففى حمل الجندى له معنى الشرف والشجاعة

نشأة السيف (١)

وجد السيف منذ أقدم العصور فى أماكن عديدة بين جميع الاقوام التى أحرزت مهارة فى صناعة المعادن . ومن المرجح أن يكون تطور الخنجر أو السكين قد أدى الى ظهور السيف . ولدينا نموذجان للسيف عريقان فى القدم . هما السيف المستقيم الحد والسيف الذى على شكل ورقة الشجر . ففى آثار الاشوريين مثلا نرى سيوفا مستقيمة الحد ضيقة الفرند أليق للطعن منها للضرب والبتر . ومن هذا النوع وجدت سيوف مصنوعة من البرنز فى أنحاء كثيرة من القارة الاوربية . وللسيوف التى عثر عليها فى العصور التاريخية نموذجان أصليان منهما كل أشكال السيوف المستعملة عند الامم المتمدينة . هذان النموذجان

(١) الجمع أسياف وسيوف . رجل سياف معه سيف . والمسيف المتقلد للسيف . ورجل سائف اذا ضرب بالسيف . وسافه يسيفه ضربه بالسيف . واستاف القوم وتسايفوا تضاربوا بالسيف

هما بوجه الاجمال : السيف المستقيم والسيف المقوس • فالسيوف المستقيمة وهى عريقة فى القدم تتوافر فيها الصلاحية للبتر والطعن • وفرندها قد يكون ذا حد واحد أو ذا حدين اثنين• فذو الحدين كان شائعا فى أوربا الى القرن السابع عشر • أما ذو الحد الواحد (أى ذو الحد والظهر) فهو النوع الوحيد المستعمل فى الجيوش اليوم • على أن هذه السيوف ما عدا القليل منها قد اقتبست شيئا قليلا كان أو كثيرا من السيوف الشرقية المقوسة

ويخرج عن نطاق هذا المقال ذكر الادوار المتتالية التى مر خلالها السيف منذ أقدم أيامه الى اليوم • كما أننا لا نستطيع معالجة تطوره فى البلاد التى وجد فيها السيف بأنواعه وأشكاله ولا سيما فى أسبانيا والمانيا وايطاليا فقد اشتهر القرنان السادس عشر والسابع عشر بصناعة السيوف الاوربية وعرفت اسماء بعض الفنانين المهرة فى صناعة الاسلحة البيضاء فى توليدو وسولنجن وميلانو • وآثار هؤلاء ما زالت الى اليوم معروضة فى أبهاء متاحف الفنون فى أوربا وأميركا

السيف عند العرب

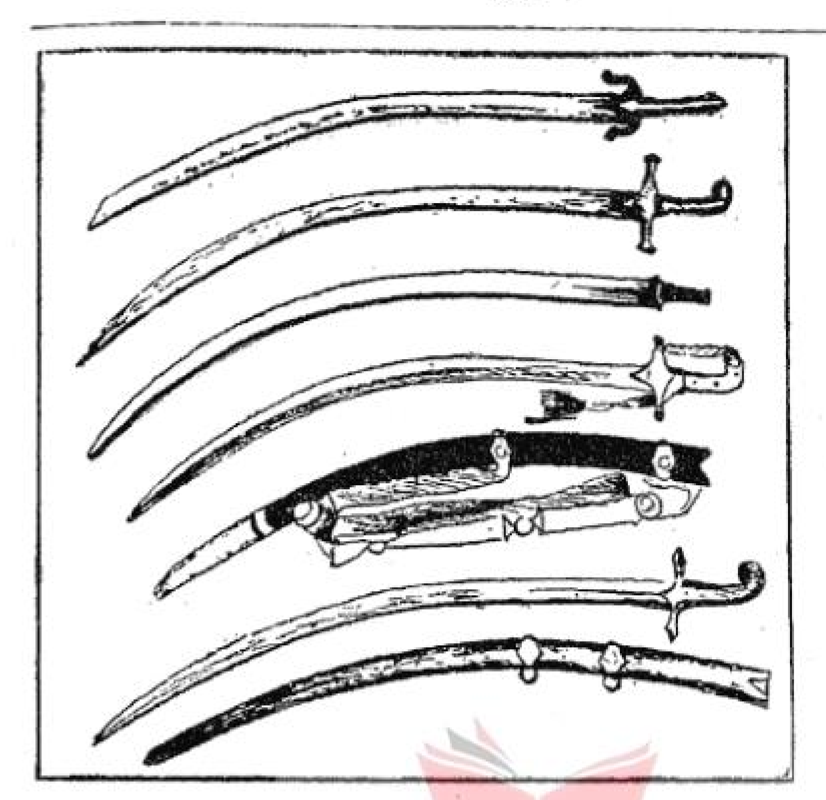
كان العرب يعدون السيوف اشرف الاسلحة • وأشهرها لديهم اليمانية والهندية والخراسانية والسليمانية والشامية • وكان لكل منها علامة تميزها • فالسيوف اليمانية مثلا وهى التى صنعت فى الجاهلية كانت تمتاز بثقبين فى سنبل السيلان (مقبض السيف) وثقب السنبل من احدى وجهتيه أوسع من الجهة الاخرى او الجهتان متساويتان وبينهما ضيق غير ان هذه السيوف كانت قاطعة فى اللين فاذا صادفت يابسا تقصفت • وكثيرا ماكان ينقش عليها تماثيل وصور وآيات

وفيما يلى أشهر الاسماء التى عرفت بها سيوف ابطال العرب القدماء :

ابو موسى الاشعرى	الصدى
الحارث بن جبلة	رسوب مخذم
خالد بن سعيد	الصمصامة
خالد بن الوليد	القرطبق الاولق ذو القرط
سعد بن ابى وقاص	ملاء
عمر بن الخطاب	الوشاح
عمرو بن كلثوم	المستلب
عميره بن هاجر	المقارع (١)

كانت العرب اذا أصابت سيفا قاطعا تناقلوا خبره وأطروه كسيف ذى الفقار لعلى بن

(١) Schwarzlose : die Waffen der alten Araber. المعروف باسم كتاب السلاح ص ٣٦٨–٣٧١



مجموعة من السيوف والاغمدة الفارسية

ابى طالب الذى توارثه آله ثم المهدى العباسى ثم الهادى فالرشيد • وكان النبى قد غنمه فى موقعة بدر بعد ان كان ملكا لعربى من المشركين اسمه منبه بن الحجاج • وقد ذاع صيت هذا السيف حتى قيل لا سيف الا ذو الفقار • وهى العبارة التى نراها منقوشة على السيوف الأثرية

وقد جاء فى كتب التاريخ ان هرون الرشيد حين أرسل قائده يزيد بن مزيد الشيبانى ليقمع ثورة الوليد بن طريف اعطاه ذا الفقار سيف النبى فنصر به • ولسنا نستطيع أن نؤكد ان السيف الذى كان فى خزانة الفاطميين والذى كانوا يعرفونه بهذا الاسم كان حقا السيف المشهور الذى استولى عليه النبى فى غزوة بدر (١)

ويقال أيضا ان خزائن السلاح الفاطمية كانت تحوى بين جدرانها صمصامة عمرو بن معدى كرب الفارس العربى المشهور وقد سارت بذكر سيفه الركبان ، واعتبره العرب أمضى السيوف قاطبة وكانوا ينسبونه الى بلاد العرب الجنوبية ويرجعونه الى أقدم العصور • وسيف عبد الله ابن وهب الراسبى • وسيف كافور الاخشيدى وسيف المعز لدين الله ودرعه • وسيف الحسن بن على بن ابى طالب وسيف جعفر الصادق

وقد احتضنت هذه الاسياف النفيسة دور التحف والآثار الاوربية وفى طليعتها استانبول

(١) الدكتور زكى محمد حسن ـ كنوز الفاطميين ص ٥٤ـ٥٥ وقد ذكر فى الحواشى تعليقات شتى عن سيوف العرب المشهورة وأسلحتهم

ولندن ومدريد • وفى هذه الاخيرة سيف آخر خليفة فى الاندلس (محمد أبو عبد الله) وطول هذا السيف ٣١ بوصة مزينة قبضته بالمكفت البيضاء والزرقاء وتمشت بالذهب

السيف المقوس

ليست لدينا بيانات واضحة عن منشأ السيف المقوس لا من حيث الزمان ولا من حيث المكان • فقد رأى الدكتور «جيمس مان» أمين متحف والاس بلندن • انه عرف فى بلاد اليونان القديمة وانتقل منها الى اسبانيا فى العصور القديمة وعرف باسم (فالكاتا falcata) ومن هناك انتقل الى الشرق بعد فتح المسلمين لبلاد الاندلس • وكان يحمل هؤلاء السيوف المستقيمة ذات الحدين • ويعزز لنا هذا الرأى مجموعة السيوف الاسلامية التى رأيناها معروضة فى متحف « طوبقابو سراى » باستانبول وكلها من النوع المستقيم ذى الحدين • واهمها السيف الذى ينسب للخليفة معاوية مؤسس أسرة الامويين وخامس خلفاء النبى صلى الله عليه وسلم • والسيوف التى تنسب للخلفاء العظام عمر بن عبد العزيز وهرون الرشيد والسلطان قايتباى

هذه السيوف النادرة ـ اذا صحت النقوش التى عليها تكون من صناعة القرن الاول الهجرى • وتكون قد انتقلت من يد الاسرة الاموية الى العباسيين • ومن هؤلاء انتقلت الى المماليك المصريين حتى استولى عليها السلطان سليم الاول اثر موقعة مرج دابق

ويعتقد الدكتور فورر (Dr. R. Forrer) ان كل انواع السيوف المقوسة تطورت عن المدى المصنوعة من البرنز

ومهما يكن من أمر هذه السيوف فشهرة مدينة دمشق فى صناعة نصال السيوف ترجع الى فجر الاسلام • كذا خراسان فهى أيضا كانت موطن احسن صناعة شرقية للسيف كما كانت مدينة القاهرة فى عصر السلاطين المماليك

طرز السيف الاسلامى

يتصف كل سيف فى بلد اسلامى بمميزات خاصة يعرف بها • فالسيف العربى ذو نصل عريض • فى أعلى قبضته رمانة كروية غريبة الشكل • وتتفاوت احجام السيف العربى من حيث طول النصل وعرضه له فى غمده حلقتان تمر فيهما نجاد السيف لتعليقه فى رقبة حامله

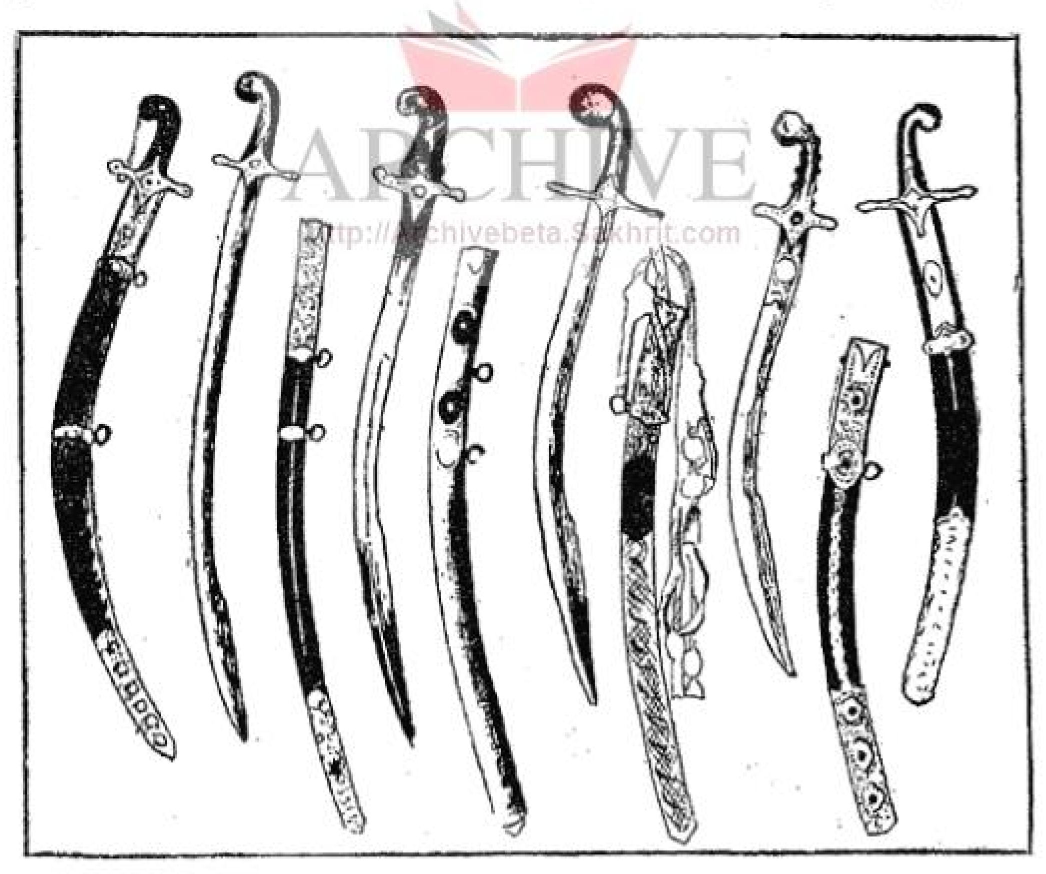
وسنذكر أهم الاصطلاحات المعروفة لاجزاء السيف ليسهل على القارىء فهم ما قد يتعذر عليه :

النصل ـ حديدة السيف ما لم يكن لها مقبض
فى النصل السيلان ـ وهو سنخه الذى يدخل فى القائم
فى النصل المضرب ـ وهو الموضع الذى يضرب به

مقبض السيف أو قائمه ـ ما يقبض عليه منه
شفرة السيف وظبته ـ حده
السفن ـ الجلدة المحببة التى تلبسها القدائم
الكلبان ـ المسماران المعترضان فى القائم الاعلى منها ذؤابة السيف
الشعيرة ـ رأس الكلب وهى من فضة أو حديد
فى القائم القبيعة ـ وهى الحديدة العريضة التى تلبس أعلاه
الشاربان فى القائم ـ هما الحديدة المعترضة فى أسفل القائم على فم الجفن لها طرفان ينظران من عن يمين وشمال
فرند السيف ـ الوشى الذى يكون متنه
الحصير ـ فرند السيف الذى كأنه مدب النمل
كل السيف ـ قفاه الذى ليس بحاد • وكذلك السكين

السيف الفارسى

السيف الفارسى المعروف بشمشير سيد أسياف الشرق على الاطلاق لاسباب شتى ترجع



مجموعة من السيوف التركية

الى جودة الصناعة ومهارة سقية صلبه • وجمال شكله وفنة نقوشه وزخرفه • ومجموعات السيوف الفارسية تزدان بها المتاحف الفنية • ولكن أجمل المجموعات طرا للاسلحة الفارسية هى مجموعة البارون « هنرى موزر » التى أودعها فى المتحف التاريخى بمدينة برن • ومجموعة متحف طوبقابو سراى باستانبول (١)• ومعظم الاسلحة فى المجموعتين النفيستين يرجع الى موقعة شالديران (٩٢٠ هـ - ١٥١٤ م) التى غنم الترك فيها كميات هائلة من الاسلحة الفارسية المتنوعة وما وقع فى يدهم عندما فتحوا تبريز على أثر هذه الموقعة• والسيوف الفارسية التى تعود الى ما قبل القرن الخامس عشر قليلة العدد جدا ولكن يمكن معرفة نماذجها من المخطوطات الايرانية ومن صور كتاب جامع التواريخ لخوجه رشيد الدين (١٣٠٦ - ١٣١٤)

اما المدة المحصورة بين نهاية القرن الاول الهجرى وبداية القرن السابع فاننا لا نكاد نعرف عن الاسلحة فيها شيئا يستحق الذكر • اللهم الا ان شمال شرقى ايران كان مشهورا بالاسلحة النفيسة

كانت سيوف الايرانيين قبل الاسلام قصيرة ومستقيمة • ولم يطرأ عليها بعده تغيير يستحق الذكر • وقد كانت ايران فى العصور الوسطى من أهم أقطار العالم الاسلامى فى صناعة نصال السيوف من الصلب والحديد كما شهد بذلك الجغرافيون والرحالة • على أن ما يعنينا من الناحية الفنية بنوع خاص هو أن هذه النصال كانت تكفت بالذهب والفضة، ولا سيما فى بعض الاقاليم الشرقية من ايران • ومن أبدع السيوف الايرانية المعروفة سيف فى المتحف التاريخى بمدينة درسدن مرصع بالجواهر ويرجع الى نهاية القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) (٢)

وقد ذاع اسم الفنان أسد الله الاصفهانى فى القرن الحادى عشر الهجرى • ووصلتنا بعض النصال المنسوبة اليه • ومنها ما صنع للشاه عباس نفسه • اما سيوف القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) فقد تطرق الى صناعتها الانحلال • وأقبل القوم على تزيينها بالجواهر تزيينا بلغ حد الاسراف فى بعض الاحيان

السيف التركى

أما السيف التركى فحده أعرض من زميله الفارسى وأقصر أيضا وأقل منه تقوسا • ونجد أوضح اختلاف بينهما عند مقارنة طرفيهما • ففى السيف الفارسى نلاحظ انحناء خفيفا للظهر يكاد يوازى شفرة السيف (حده) بينما فى السيف التركى يقف الانحناء على بعد ثمانى أو عشر بوصات من الطرف ويعرض النصل فجأة ويمتد بهذا العرض الى نهايته المدببة • ولهذا يستعمل السيف التركى للبتر وقد يمكن استعماله للطعن ولكن

(١) اذا استثنينا ما قد يكون فى ايران نفسها مما لم ينشر عنه شيء بعد

(٢) الدكتور زكى محمد حسن ـ الفنون الايرانية فى العصر الاسلامى ص ٢٥٧-٢٥٨

دون كبير تأثير ، اما الشمشير فلا يستخدم فى البتر • وقد بدىء صنع السيف التركى على هذه الصورة فى القرن الخامس عشر

ومقبض السيف التركى على هيئة قبضة المسدس ومصنوعة من قطعتين من القرن أو العظم أو العاج أو الحجارة مثبتين بحديدة السيف ويعترض القائم شارباه (الحارس) وهما مستقيمان ورفيعان نسبيا ينتهيان بكرتين صغيرتين

السيف السورى المصرى

وفى دار الآثار العربية بعض الاسياف النادرة من الطراز المصرى السورى صناعة دمشق أو القاهرة ، وقد عثرنا فى اثناء بحثنا لمجموعة السلاح مع صديقنا الدكتور زكى محمد حسن أمين الدار وقتذاك على نصل حسام على أحد شقيه دائرة داخلها رنك يليها مستطيل داخله العبارة الآتية :

« وقف المقر الاشرف السيفى أزبك أميراس نوبة النواب الملكى الاشرفى اعز الله تعالى انصاره على••• وذلك بالحفر البسيط ومقاس هذا النصل ٩٤ سنتيمترا وعرضه ٣ سنتيمترات وكان فى الاصل لسعادة يعقوب ارتين باشا اهداه الى الدار عام ١٩١٠ (١)

وفى الدار حسام آخر على نصله من جانب واحد كتابة مزخرفة مكفتة بالذهب ذكر فيها اسم السلطان قنصوه الغورى ومقاس هذا النصل ٨٢ سنتيمترا وعرضه ٣ سنتيمترات• وقد اشترى من تاجر للآثار فى استانبول عام ١٩١٠

وفى استانبول شاهدنا أسياف السلاطين المصريين قايتباى والغورى وطومان باى ، وكلها من الصناعة المصرية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر

السيف الهندى

والسيف الهندى يعرف باسم « طالوار » أو « طاروار » وهذا الاسم تعرف به معظم السيوف فى الولايات الهندية الممتدة من الحدود الشمالية الشرقية الى بورما وسيام ونبال وراجبوتانا وولاية الدكن وميسور وبنجاب والسند ـ الى الحدود الشمالية الغربية وافغانستان • والسيف الهندى وحده يحتاج لدراسة فنية خالصة لتعدد الطرز من نواح عدة • شكلا وصناعة وفنا واستخداما • وقد عالج دراسة الاسلحة الهندية كثيرون من علماء الانجليز خلال القرنين الماضيين • واودعوا منها مجموعات لا تحصى فى المتاحف البريطانية العامة والخاصة

وعلى العموم فان السيف الهندى الذى يطلق عليه « طالوار » مقوس النصل • وما خرج عن الطراز الهندى اطلق عليه « الشمشير الفارسى » وتختلف طرز الاسياف الهندية عن

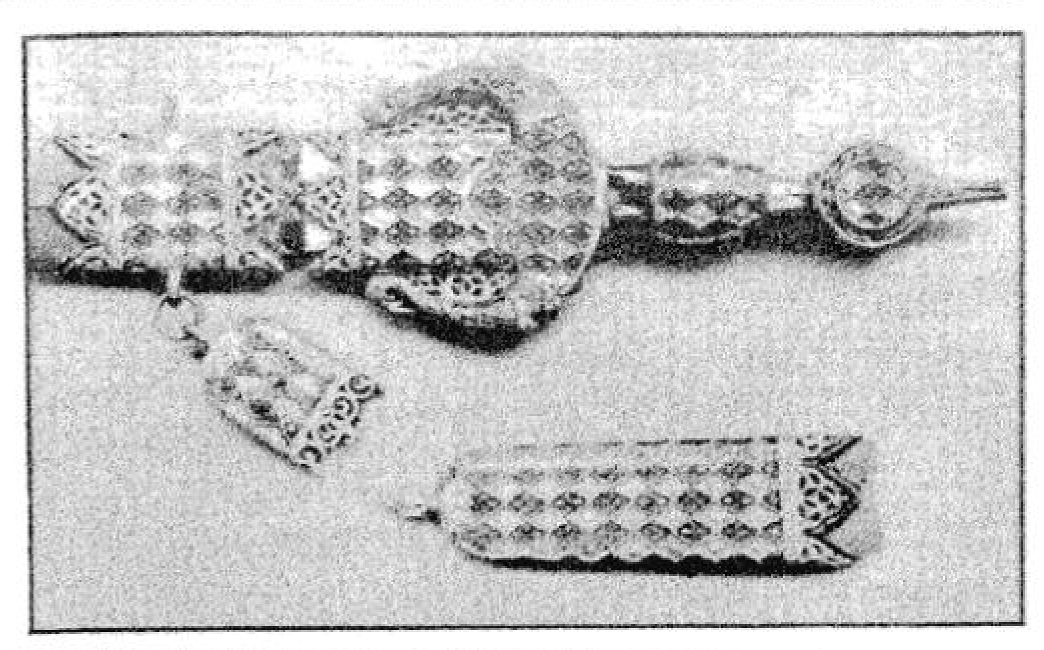
---

(١) يقوم الدكتور زكى محمد حسن مع كاتب المقال بوضع كتالوج علمى لمجموعة الاسلحة الاثرية فى دار الآثار العربية

بعضها البعض من حيث درجة التقوس والحجم ونوع الصلب وسقية السلاح • وتختلف مقابضها عن بعضها اختلافا شديدا كما تتنوع فى زخرفتها ونقشها



بعض السيوف والخناجر التركية والايرانية تتوسطها درقة فارسية ، وهى من مجموعة متحف فكتوريا و ابرت بلندن





سيف ابى عبد الله آخر ملوك غرناطة (القرن الرابع عشر) فى متحف كاسل



بعض السيوف التركية من مجموعة دار الآثار العربية

السيف المغربى

ويمتاز السيف المغربى بطول نصله واستقامته • وهو ذو حد واحد وطرفه أطول من الأسياف الاخرى كما يختلف عرضا من الطرف الى القبضة

ويعرف السيف المغربى باسم الفليسة (flyssa)

تلك نظرة عامة فى السيف الاسلامى فى مواطنه بين السند ودمشق والنيل وجبال الاطلس بالمغرب ذكرنا فيها أهم الخواص التى يمتاز بها كل طراز تاركين الناحية الشعرية حيث يجد الأدباء والشعراء مجالهم الفسيح

الصاغ عبد الرحمن زكى

ملوك العرب في حياتهم العسكرية

لا يستطيع الهلال أن يحيط بحياة جميع ملوك العرب
وسلاطينهم وأمرائهم من الناحية العسكرية لاعتبارات شتى
ولهذا رأينا أن نكتفي هنا بالحديث عن زعمائهم الذين يحيون
في بلادهم حياة مستقلة ويشرفون على جيوشهم إشرافا تاماً

الملك فاروق الاول

جلالة الملك فاروق الأول، ملك مصر ، هو القائد الأعلى للجيش ، وأول مصرى يعنى بالشئون العسكرية عناية كبرى . وله ولع شديد بالحياة العسكرية ونشرها بين جميع أبناء الشعب ، ويفخر دائما كلما وجد آثار عنايته واهتمامه بادية فى تقدم جيشه يوماً بعد يوم . وقد نما الجيش المصرى فى عهده نمواً سريعاً ، فقد بلغ اليوم أكثر من خمسين ألف جندى بعد ما كان عدده لا يزيد على عشرين ألفاً . وعنى جلالته بتجديد أسلحته ، وتأسيس أقسام جديدة له كقسم لواء الاساس الذى كان موجوداً فى عهد جده العظيم محمد على باشا الكبير لتغذية الجيش بالرجال المدربين ، ثم ألغى فى عهد الاحتلال ، كما أعاد جلالته مدرسة أركان حرب الجيش المصرى ، وبعث بطائفة من متخرجيها لاتمام تدريبهم فى فرنسا وانجلترا وأماكن المعارك الحربية الكبرى

ولجلالة الملك فاروق غرام عظيم بالاطلاع على المؤلفات العسكرية فى مختلف اللغات عن قيادة الجيوش وتسليحها وتدريبها حتى أصبح واسع الاطلاع فى الشئون الحربية الى حد لم يبلغه كثيرون ممن قضوا عمرهم فى الحياة العسكرية

وجلالته يقوم يومياً بتمرينات وأنواع مختلفة من الرياضة البدنية التى تجعله قادراً على تحمل المشقات أيا كان نوعها ــ وهذه ميزة من ميزات الجندى الحقيقى . والذين شاهدوا جلالته وهو يشرف على المناورات والتمرينات العسكرية قد أدركوا بلا شك أن فاروق مصر لا يكتفى بتشجيع جيشه بوجوده فقط بل أنه يتتبع تقدم ذلك الجيش باهتمام القائد وعطف الأب ويرقب بكثير من الفخر ارتقاءه ونموه على الدوام



جلالة ملك مصر فاروق الأول فى ثوب القائد الأعلى لسلاح الطيران

ومن أروع المظاهر لعناية جلالة الملك فاروق بشئون الجيش إشارته بانشاء المتحف الحربى الذى تم انشاؤه أخيراً بالقاهرة وهو يضم الآن مجموعة من التحف والأسلحة نعتقد انها الوحيدة والفريدة من نوعها فى الأقطار العربية



جلالة الملك بن سعود

الملك ابن سعود

وجلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود أحد أولئك الملوك الذين أقاموا ملكهم على الأسنة والسيوف . فقدسار الى طلب العلى -والعرش- على رأس بضع عشرات من الأنصار الأشداء ، فكان له ما أراد ، وما مضت سنوات معدودة على زحفه ، حتى كان قد أسس أو بالحرى أعاد الى أسرته الملك فى نجد ، ثم فتح الحجاز وأنشأ المملكة العربية السعودية كما هو معروف

والملك ابن سعود جندى بكل مافى هذه الكلمة من المعانى. ولكنه جندى على الطريقة العربية البدوية ، وهى وان كانت تختلف فى شكلها عن الطريقة الحديثة الأوربية ، فان فيها من النبل والشهامة مالا نجده الآن فى كثير من جيوش الدول المتمدينة

ولعل جلالته من أكثر ملوك العرب اختلاطاً برجال جيشه . فهو يسير معهم ويشاركهم حياتهم كأنه واحد منهم لا فرق بينه وبين أصغر واحد فيهم ، يجلس على الأرض اذا جلسوا عليها ، ويفترشها اذا افترشوها ، ويأكل

ويشرب مثلما يأكلون ويشربون. وفى هذا بعض السر لتعلق رجاله به وتفانيهم فى سبيله واخلاصهم له الى أبعد ما يمكن من حدود الاخلاص

وجلالة الملك ابن سعود أراد أن ينسج أبناؤه على منواله من هذه الناحية . فهم الآن أمراء وجنود ، يفعلون ما فعله ويفعله والدهم ، ويعدون عدتهم للاحتفاظ بذلك الملك الشاسع الذى سيخلفه لهم

وعند الملك ابن سعود جيش نظامى يقوم بتدريبه ضباط من البلدان العربية المجاورة ، ولكن جلالته لا يرتدى أبداً الثوب العسكرى ، بل يظل محتفظا بزيه العربى البدوى ، حتى فى أثناء عرض الجيش ، حيث يقف على منصة بعباءته وكوفيته وعقاله ، وبيده عصاه التى لاتفارقه الانادراً

الملك فيصل الثانى

أما جلالة الملك فيصل الثانى فهو أصغر ملوك العرب بل أصغر ملوك العالم سناً وقد كان والده غازى الأول يفاخر بالثوب العسكرى ويباهى ويعده أجمل أثواب الملك على الاطلاق . فان ذلك الفقيد الذى بكاه العراق كان

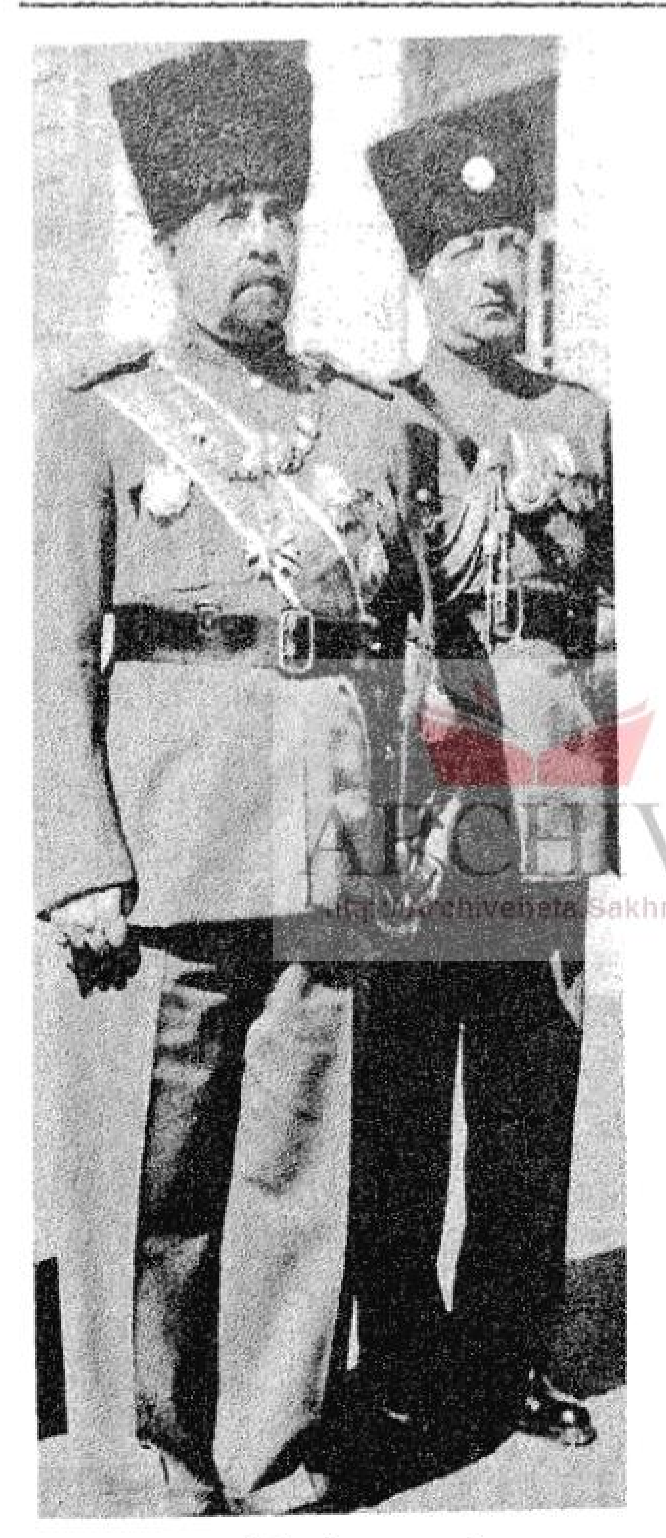
جلالة الملك فيصل الثاني فى ثوب ضابط عراقى وقد أمسك بيد سمو الأمير عبد الاله الوصى على عرش العراق

يشبه من هذه الناحية ملك مصر المحبوب فاروق الاول ، وكان غرامه بالجيش كغرام فاروق الاول به . وقد ورث نجله الملك فيصل الثانى هذا الميل الى الحياة العسكرية عن أبيه ، وسيحافظ على تقاليد الأسرة التى تعدبين رجالها الحسين بن على وفيصل الاول والملك غازى والملك على والأمير عبد الله

الامير عبد الله

أمير شرق الاردن من رجال السيف أيضاً . وهو شديد الاهتمام بشؤون الجيش . وقد ارتدى فى السنوات الاخيرة ثوباً عسكرياً غربياً جميل التفصيل والصنع . وهو يقف شطراً كبيراً من حياته ونشاطه على الاشراف على جيشه الصغير بعدده الكبير بهمة رجاله وفروسيتهم واخلاصهم للعروبة

وقد بدأ الامير عبد الله حياته العسكرية فى صفوف الثائرين من العرب فى الحرب العظمى الاخيرة حيث كان يقود أحد الجيوش غير النظامية التى جمعها والده الشريف الحسين بن على وكانت تشن الغارات على الجيش التركى . وله مواقف مشهورة تشهد له



سمو الأمير عبد الله فى ثوبه العسكرى
والى يساره ياوره اليوزباشى احمد صدقي

بالشجاعة والاقدام. وأنجال الامير عبد الله ينشأون الآن نشأة عسكرية أيضاً ويتدربون على الطريقة الاوروبية ، وسمو والدهم يشجع فيهم الميل الفطرى الى الجندية


جلالة الأمام يحيى حميد الدين

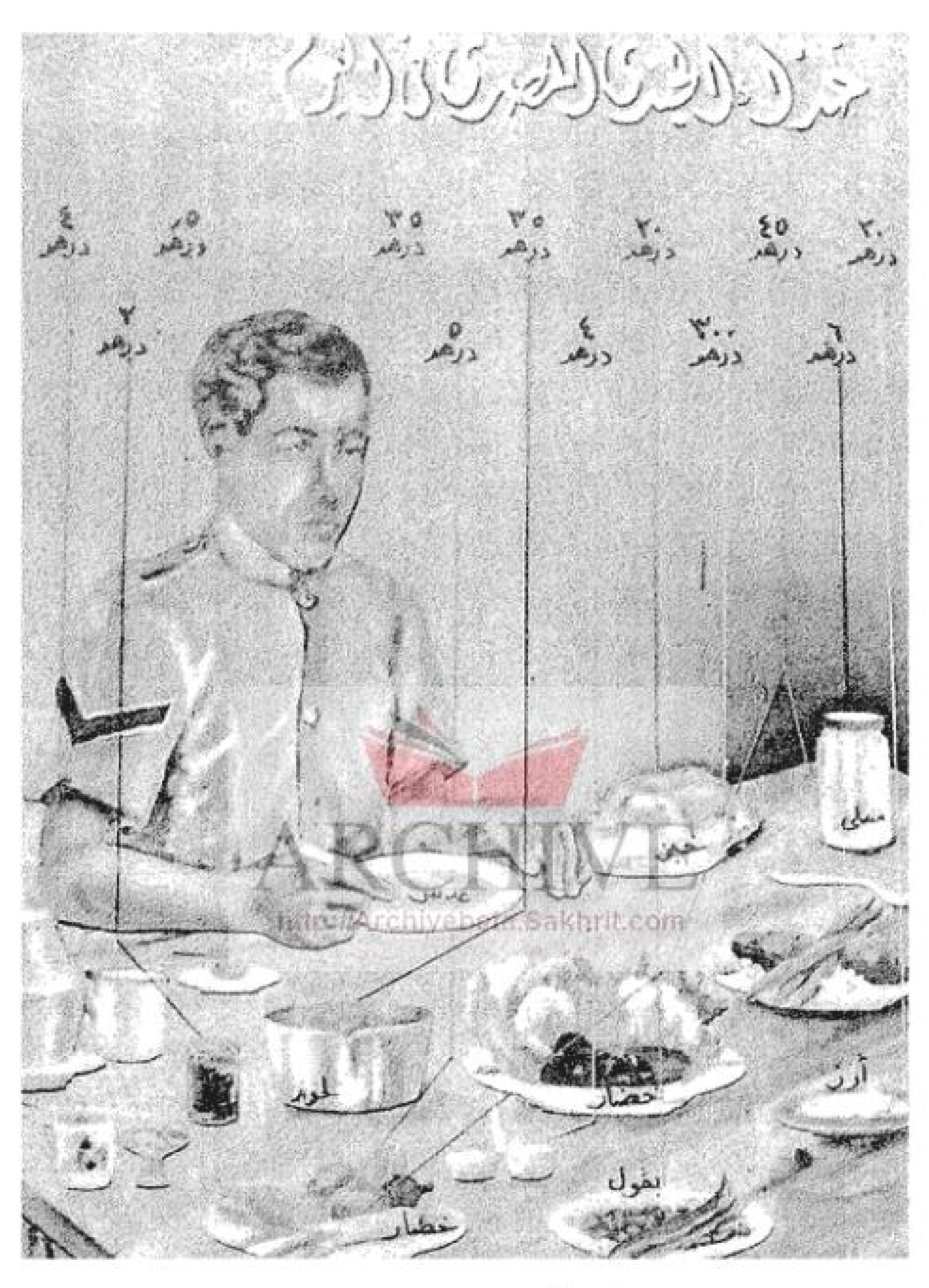
الامام يحيى حميد الدين

وإمام اليمن جلالة يحيى حميد الدين كان فى شبابه وكهولته جندياً مقداماً أثبت فى ميادين الوغى أنه أهل لأن يسجل اسمه بين أسماء أبطال التاريخ فى جزيرة العرب . وحروبه فى عهد الدولة العثمانية ، ومواقفه بعد الحرب العظمى ، واهتمامه بتأليف جيش عصري فى اليمن، كل ذلك معروف أما اليوم فقد أثقلت السنون كاهل العاهل اليمانى ، ولكنها لم توهن همته ولم تنل من عزيمته . فهو ما زال الملك العربى الصميم ، الذى يعلم أن الامم فى حاجة الى جيوش قوية تصون كيانها ، فراح ينفق بسخاء على مشروعه الواسع الرامى الى تأليف جيش يمانى كفء للقيام بمهمة الدفاع عن بلاده وحفظ الامن فيها . ويقوم بتدريب هذا الجيش لفيف من الضباط والقواد السوريين والعراقيين المعروفين . وكثيراً مايشرف الامام يحيى بنفسه على ذلك التدريب ، فى الوقت الذى يحث فيه أنجاله « سيوف الاسلام » على أن يكونوا مثله ، ويؤمنوا بضرورة الاعتماد على الجيش لصيانة الملك والاستقلال

البلدان العربية مهبط الوحى ومنشأ الاديان

الدين اليهودى : صحراء سيناء ، ثم الدين المسيحى : فلسطين

ثم الدين الاسلامى : الحجاز



غذاء الجندى المصرى فى اليوم

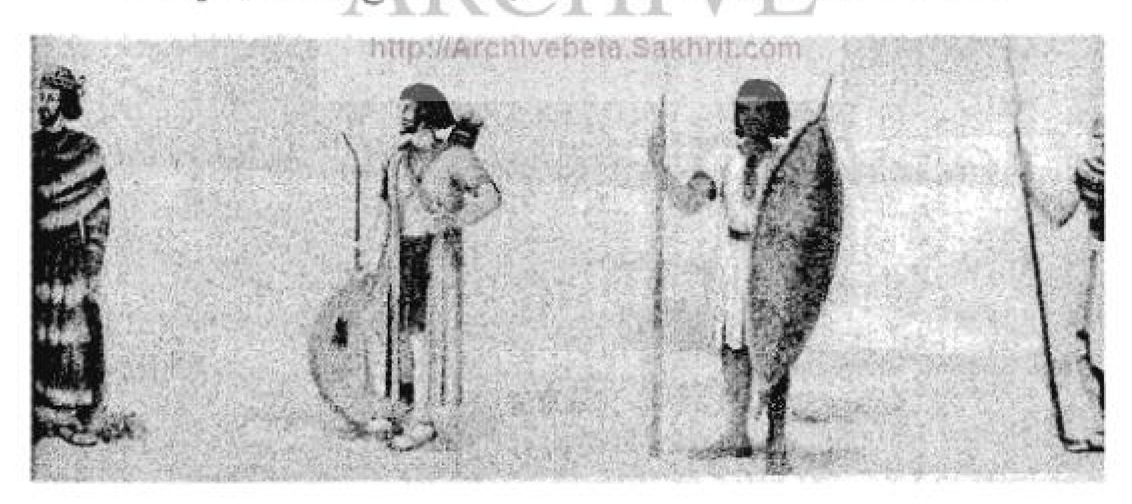
تكون غذاء الجندى المصرى من جميع المواد والعناصر اللازمة لتغذية الرجل الكامل الجسم تغذية كاملة .
وهو يتألف من : ٢٠ درهما من الأرز ، و٤٥ درهما من الخضراوات ، و٣٠٠ درهم من الخبز ، و٢٠ درهما من البقول ، و٤ دراهم من الملح ، و٣٥ درهما من اللحم ، و٥ دراهم من الطماطم ، و٣٥ درهما من العدس ، و٥ دراهم من الليمون ، ودرهمان من الصلصة ، و٤ دراهم من السكر ، ودرهم ونصف درهم من الكاكاو

العناصر الحربية

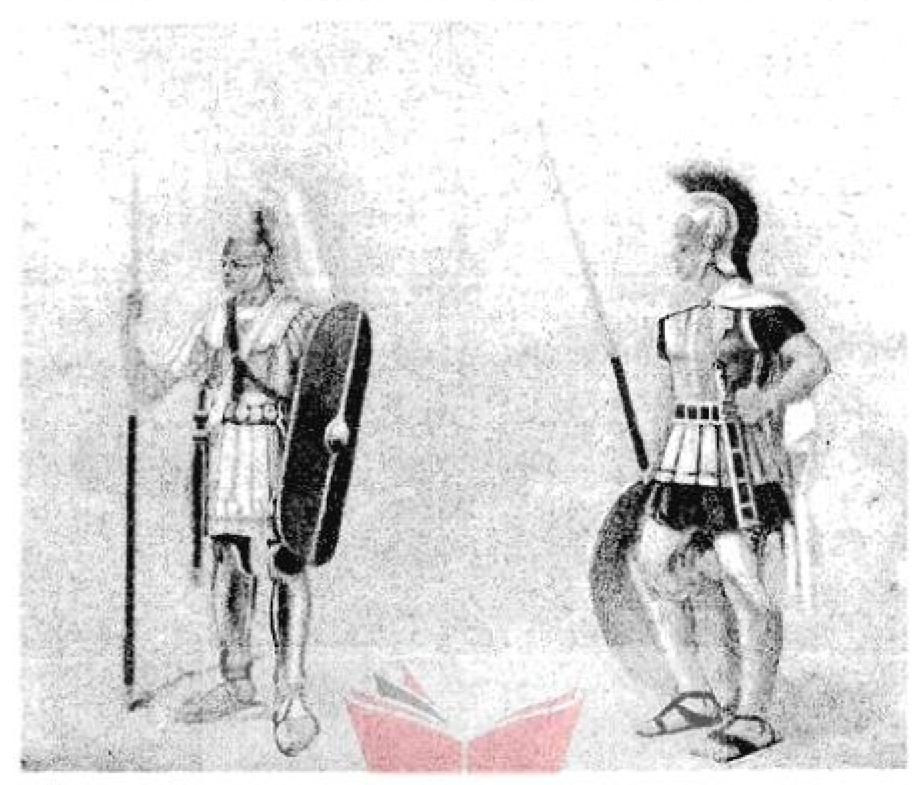
التى عملت فى مصر فى مختلف العصور

أقام المتحف الحربي بالقاهرة عدداً من اللوحات الحربية التاريخية لأنواع الجنود الذين عملوا فى مصر سواء أكانوا من المصريين ، أم من الفاتحين الذين دخلوا هذا القطر ، وعملوا فيه فترة من الزمان وعددهم ١٦ عنصراً . وهم يبدأون بالجنود المصريين الأقدمين وهم جنود الفراعنة العظام الذين أقاموا حضارة مجيدة ، وفتحوا الأمصار ، وأخضعوا كثيراً من الشعوب الأخرى . ثم الجنود الذين قامت دولتهم فى الجنوب ، ثم الليبيين وهم من أهالى صحراء ليبيا ، ويليهم الفينيقيون ، فاليونانيون ، فالرومان ، فالعرب ، فالجنود المغاربة الذين فتحوا مصر فى عهد الفاطميين ، فالأكراد ، فالمماليك ، فالألبانيون ، فالأتراك ، فالعلويون وهم جنود محمد على باشا الكبير ، ثم جنود محمد سعيد باشا ، فجنود الخديو اسماعيل والخديو توفيق ، ثم الجنود المصريون فى عهد عباس الأول والسلطان حسين والملك فؤاد

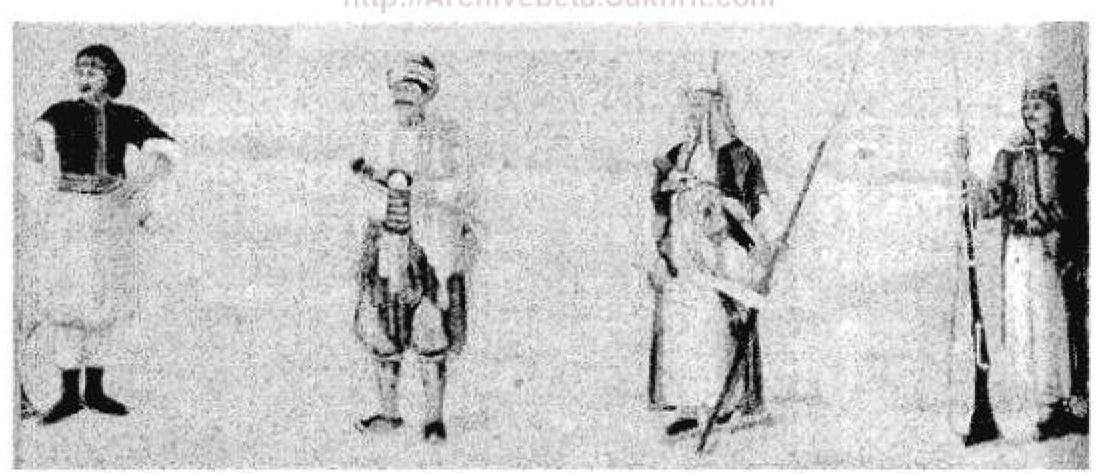
ويمتاز كل من هؤلاء الجنود بزيه وأسلحته تبعا لاختلاف العهود والتقدم الصناعى والحربي . ومن الملاحظ أن أبسط الملابس العسكرية هى ملابس الجندى المصرى القديم ، وقد عنيت الدول الكبرى بتخفيف الأحمال التى يحملها الجندى خصوصا بعد تقدم الميكانيكا العسكرية . ومن المعروف أن ملابس الجندى فى الجيش الآن وما يحمله فوقها من مؤونة وسلاح تزن خمسة وستين رطلا



من اليمين الى اليسار : العسكرى المصرى القديم ، فالنوبى فالليبي فالفينيقى



جندي روماني جندي اغريقي



من اليمين الى اليسار : العسكرى الكردى ، فالمملوكى فالألبانى فالتركى



الجندى العربى حاملا رمحه ودرعه وخنجره



الجندى المغربي حاملا رمحه ودرعه وسيفه



جندى سوارى من الألايات المدرعة فى عهد محمد على باشا ، وقد
لبس سروالا أبيض وقميصا أزرق عليه درع معدنى أبيض



جندى سوارى من ألآيات حاملى الزاريق فى عهد محمد على باشا ، وقد لبس قيصا أخضر اللون ، وسروالا أبيض

عسكري عهد محمد علي باشا

عسكري عهد محمد سعيد باشا

عسكري عهد اسماعيل وتوفيق

عسكري عهد عباس حلمي والملك فؤاد

العالم العربي في نظر الألمان

بقلم الاستاذ محمد عبد الله عنان

العالم العربي في نظر الالمان ليس الا منطقة من مناطق التوسع والاستعمار التي كانت المانيا وما زالت تطمح الى الفوز بها ، وليست الشعوب العربية في نظر السياسة الهتلرية سوى مجموعة من الامم السامية المنحطة

لم تصل المفاضلة الجنسية بين الامم الغربية والامم الشرقية في عصر من العصور الى ما وصلت اليه في عصرنا من الاغراق والتعصب • وقد كانت تسود الغرب دائما نزعة الى الاعتزاز بالجنس والى الانتقاص من طبائع الاجناس الشرقية انتقاصا يقوم على فكرة التفوق الجنسي • ولكن هذه النزعة التي كانت تبدو دائما في ثنايا السياسة الاستعمارية تتخذ اليوم في ألمانيا الهتلرية صورة نظرية علمية راسخة ، تنظم بطريقة علمية اجتماعية وتؤيد بقوانين وتشريعات عملية

الحركة العنصرية والعالم العربي

وقد كانت خصومة السامية منشأ هذه الحركة العنصرية الشاملة في ألمانيا وقوامها التفرقة الحادة بين الجنس الآري الذي ينتسب اليه الالمان والاجناس غير الآرية ، وهي في نظرهم الاجناس المنحطة • وهذه المفاضلة العنصرية هي من أخص أسس الاشتراكية الوطنية التي يقوم عليها النظام الهتلري • وكان رمز التفرقة منذ البداية اليهود ، ومطاردة اليهودية بأشنع الوسائل والصور التي عرفت منذ العصور الوسطى • فاليهود هم « غير الآريين » الذين يجب حماية الجنس الآري (الالمان) من كل اتصال بهم • ولهذا أصدرت الحكومة الهتلرية في سنة ١٩٣٥ قانون نورنبرج الشهير الذي سمته قانون حماية الشرف الالماني • وجعلت فيه كل اتصال جنسي من جانب اليهود بالالمان سواء بطريق الزواج أو غيره جناية يعاقب عليها القانون بالسجن أو الاشغال الشاقة

وعلى أثر صدور هذا القانون صدرت عدة قرارات وأوامر تفسيرية بذكر مختلف الاجناس غير الآرية التي تشبه باليهود من حيث خطرها على الشرف والدم الالمانيين ،

فكان فى مقدمتها الامم العربية ومصر • وقد وضعت فى المرتبة الرابعة عشرة من قائمة الترتيب العنصرى

فالعرب والمصريون وفقا للنظرية العنصرية الالمانية يعتبرون الى جانب اليهود والزنوج وغيرهم من الامم الاسيوية والافريقية الاخرى أجناسا منحطة

ولا يزال الالمان كلما أصدروا قانونا يتعلق بالمسألة العنصرية يذكرون اليهود والعرب والزنوج جنبا الى جنب باعتبارهم عنوان الاجناس المنحطة ، وآخر ما فعلوه من هذا القبيل فى مناطق فرنسا المحتلة حيث حرموا دخولها على « اليهود والعرب والزنوج » .

وتحذو ايطاليا فى ذلك حذو ألمانيا • فقانون العنصرية الذى أصدرته حكومة رومة أخيرا لحماية الجنس الايطالى من التدهور الجنسى ينصب أيضا على «اليهود والعرب والزنوج»

وكل من زار ألمانيا من العرب أو المصريين فى الاعوام الاخيرة يذكر بلا ريب تلك الرقاع العديدة التى وضعت على واجهات كثير من المقاهى والمطاعم والمنتديات والحدائق العامة وفيها ان الدخول « مباح فقط للآريين » « Nur fuer Arier »

ولا يزال من أشنع الاهانات التى توجه من ألمانى الى عربى أو مصرى أو مغربى أن يقال له « عربى دنىء » « Ein mieser Araber » أو « عربى قذر » Ein dreckiger Araber

متى عنى الالمان بدراسة الامم العربية

وقد عنيت ألمانيا بدراسة أحوال الامم العربية ومصايرها منذ أواخر القرن الثامن عشر أعنى منذ اضمحلال الدولة العثمانية • وكانت ألمانيا تؤمل بتوثيق روابطها وتمكين نفوذها من « الرجل المريض » أن تحقق على يديه بعض مطامعها الاستعمارية فى تلك المنطقة الهامة • وفى أواخر القرن الثامن عشر قام الرحالة الالمانى نيبور Niebuhr بعدة رحلات فى مصر وسوريا ، وبلاد العرب وكتب عن رحلاته ثلاثة كتب شهيرة هى « وصف بلاد العرب » و « وصف سائح لبلاد العرب وغيرها من الامم المجاورة » و « رحلات فى سورية وفلسطين » وتلاه بعد ذلك عدد من الرحالين الالمان الذين تجولوا تباعا فى تلك البلاد يدرسون أحوالها وثرواتها الطبيعية • ولم تكن هذه الرحلات التى تتخذ سمة المباحث العلمية سوى دراسات تمهيدية لمشاريع الاستعمار الالمانى • كذلك نظمت فى ألمانيا فى أواخر القرن التاسع عشر حركة استشراق قوية عنيت عناية خاصة بدراسة الآداب العربية والعلوم الاسلامية وحضارة العرب القديمة وتاريخ الامم الاسلامية • ونبغت فى هذه المدرسة طائفة كبيرة من المستشرقين الالمان الذين تجولوا فى مصر والشام والعراق والحجاز يدرسون أحوال هذه الامم وخواصها وحركاتها العقلية • ومع ان هذه الدراسات كانت تؤدى تحت ستار البحث العلمى فانها كانت ترمى غالبا الى خدمة المشاريع الاستعمارية ، وقد ظهرت هذه الحقيقة جلية أثناء الحرب الكبرى • فلما تحطمت آمال ألمانيا الاستعمارية على أثر هزيمتها فى سنة ١٩١٨ انهارت حركة الاستشراق الالمانى ، وتخلت عنها الحكومة

حتى كادت تتلاشى • ولما تجددت آمال ألمانيا الاستعمارية عقب قيام الاشتراكية الوطنية (الهتلرية) تجدد نشاط الدراسات العربية والشرقية نوعا ما • وكان من مظاهر عناية الحكومة النازية بتعرف أحوال العرب ان كثرت بعوث الالمان الى البلاد العربية وهبط اليها كثير من الدعاة الالمان ، ووضع البارون فون اوبنهايم المستشرق الذى تصطفيه الدعاية الالمانية بالرغم من يهوديته كتابه عن أصول القبائل العربية فى العراق والشام والحجاز

مشاريع الالمان فى البلاد العربية

وقد اتخذت مطامع ألمانيا الاستعمارية في البلاد العربية صورة عملية فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن بسعيها الى تحقيق مشروع خط بغداد الحديدى • وكانت ألمانيا تعتمد فى تحقيقه على تمكن نفوذها من الدولة العثمانية • ولكنها لم توفق الى غايتها نظرا الى مساعى السياستين الانكليزية والروسية • وكان المقصود أن يمد الخط الحديدى الممتد من برلين الى استانبول ، الى بغداد والبصرة أو يحول الخط الحديدى الممتد من برلين ثم الى فينا وسلانيك الى طريق ألمانى استعمارى يمتد من برلين الى بغداد والبصرة وبذلك تربط العاصمة الالمانية مباشرة بالخليج الفارسى ويصبح وادى دجلة والفرات تحت النفوذ الالمانى • وكانت سياسة الاندفاع الاستعمارى نحو الجنوب الشرقى Drang Nach Süed Osten ضمن البواعث التى حملت ألمانيا على اثارة الحرب الكبرى • وكان البرنس فون بيلوف المستشار الالمانى ينصح قبيل نشوب الحرب الكبرى بضرورة استغلال بغداد كوسيلة لتزويد النفوذ الالمانى والمشاريع الالمانية بميدان جديد للعمل فيما بين البحر الابيض المتوسط والخليج الفارسى مشتملا على نهرى دجلة والفرات • وكانت ألمانيا تخفى وراء هذا المشروع أطماعا استعمارية واسعة ترمى الى افتتاح طريق جديد الى الهند يلغى أهمية قناة السويس ، والى السيطرة على مصر وسورية والعراق ثم فارس والهند • ولكن هذه الآمال انهارت كلها على أثر هزيمة ألمانيا فى الحرب الكبرى • ومنذ نهاية الحرب بذلت الجهود لاتمام المواصلة الحديدية بين بغداد وخط الشرق • وكان الخط الممتد من بغداد ينتهى شمالا حتى كيركوك ثم مد بعدئذ الى الموصل بعناية الحكومة العراقية وتعاونت الحكومات العراقية والسورية والتركية بعدئذ على اتمام ربطه بخط الشرق عن طريق نصيبين وحلب • وهكذا حقق مشروع خط بغداد فى ربط الخليج الفارسى بالعواصم الاوربية بالسكة الحديدية • ولكن بعيدا عن نفوذ ألمانيا وأطماعها

على ان مشاريع ألمانيا الامبراطورية تعود فتضطرم فى ظل الوطنية الاشتراكية • وللمرة الثانية فى أقل من ثلاثين عاما تضرم ألمانيا نار حرب أوربية جديدة فى سبيل هذه المطامع • ومن المحقق ان السيطرة على جنوب شرقى أوربا ثم بلاد الشرق الادنى أو البلاد العربية ما زالت فى مقدمة أمانى ألمانيا الاستعمارية ، وما زال مشروع خط بغداد برلين يحتفظ بأهميته القديمة لدى حكومة برلين • وربما كان احتلال القوات الالمانية

لرومانيا أول خطوة عملية فى الزحف الالمانى نحو الشرق الادنى ومحاولة الاتجاه صوب البلاد العربية والخليج الفارسى من جهة وصوب مصر وقناة السويس من جهة أخرى والسيطرة بذلك على آبار الزيت العراقية وضرب مواصلات الامبراطورية البريطانية فى صميمها

العالم العربى منطقة استعمارية

والخلاصة ان العالم العربى فى نظر الالمان ليس الا منطقة من مناطق التوسع والاستعمار التى كانت ألمانيا وما زالت تطمح الى الفوز بها • وليست الشعوب العربية فى نظر السياسة الهتلرية سوى مجموعة من الامم السامية المنحطة التى يجب أن تستعبد وتستثمر لمصلحة الجنس الآرى • واذا استثنينا الزنوج فان قليلا من الشعوب الشرقية تحظى بمثل ما تحظى به الشعوب العربية فى ألمانيا من الزراية وسوء الظن والتقدير • وكل عربى يعتقد فى حسن نية الالمان نحو العرب انما هو مخدوع واهم • أما هذه الدعايات العريضة التى تنظمها برلين فى اذاعتها باللغة العربية ، وتتملق فيها الامم العربية وتمنيها بتحريرها من نير الاستعمار الاجنبى ، ومعاونتها على نيل استقلالها التام ، فليست سوى آية من آيات الخديعة والنفاق التى امتازت بها السياسة الهتلرية والتى اعتادت أن تغدقها على الفرائس التى ترتب هلاكها

فعلى العرب جميعا أن يتدبروا أمرهم فى روية وتبصر وأن يفطنوا الى هذه الاطماع والدسائس المضطرمة التى تحاك من حولهم بذكاء وخبث • ويجب ألا تخدعهم تلك المظاهر والدعايات الكاذبة التى تنظم لاستمالتهم وتخدير أعصابهم وليعلموا علم اليقين ان كابوس الهتلرية المدمر يتربص بهم وبحرياتهم ومصائرهم

محمد عبد الله عنان



الامبراطورية العربيّة

هل يمكن أن تعود ؟

بقلم الاستاذ محمود تيمور

لا تعود الامبراطورية العربية على النحو الذى كانت عليه ؛ ومن الخير أن نعترف بذلك ، ولا نغالط ولا نتجاهل . وهناك أمر يسعنا أن نطمع فيه ، هو أن ينشأ بين الأمم العربية تعاون روحي واقتصادي

طالما تناقلت الاقلام كلمة « الامبراطورية العربية » فهى كلمة رنانة تبعث فى النفس أحلاما جميلة . فهل يتسنى أن تعود هذه الامبراطورية الذاهبة ؟ الحق ان ذلك لا يتوضح لنا الا بعد أن نفهم : ما هى تلك الامبراطورية ؟ وكيف تكونت ؟ فاذا عرفنا هذا وذلك ساغ لنا أن نطبق ما عرفناه على حالتنا الحاضرة ، واستطعنا أن نجيب عن السؤال الذى عنونا به هذه السطور

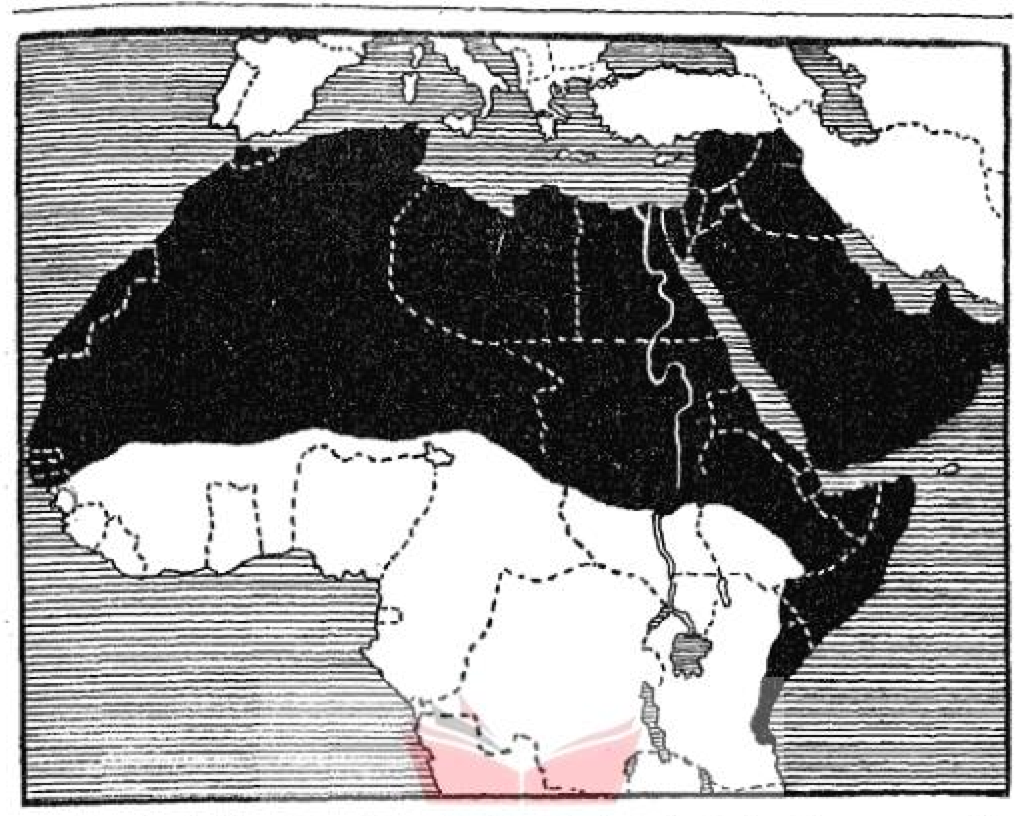
كيف تكونت الامبراطورية الذاهبة

لقد كان العمل العظيم الذى قام به محمد عليه الصلاة والسلام انه وحد الجزيرة العربية ، وأخضع أرجاءها وقبائلها لسلطان واحد . ثم توالى الخلفاء من بعده ، فابتدأ فى عهودهم تكوين الامبراطورية التى نعنيها ، وذلك بالفتح الضارب فى أنحاء الشرق والغرب . وقد سما صرح هذه الامبراطورية على أنقاض أمبراطوريتين عظيمتى الشأن ، هما : الامبراطورية الفارسية ، والامبراطورية الرومانية . فاجتمعت فى قبضة الخليفة العربى ممالك متباينة من جميع النواحى العنصرية واللغوية والجغرافية

عوامل هذا التكوين

فأما العوامل التى كان لها فضل تكوين هذه الامبراطورية ، فيمكن اجمالها فيما يأتى :

أولا : العامل الدينى . فلكل أمة فى الغالب عهد ذهبى تنضج فيه حيويتها ، ويبدأ ازدهارها ونماؤها ، وقد عرفت الامة العربية هذا العهد فى حياة محمد عليه السلام ، فالدين أكبر العوامل فى خلق هذه الامة . وعلى الرغم من العقبات التى اعترضت سبيل



لو تحققت الاحلام وتكونت الامبراطورية العربية من جميع الممالك والشعوب التى تتكلم العربية ، لامتدت حدود هذه الامبراطورية الواسعة من الخليج الفارسي شرقاً الى المحيط الاطلنطى غرباً ، ومن شواطىء البحر الأبيض المتوسط شمالا الى أواسط أفريقا جنوباً . فسوريا والعراق وفلسطين وشرق الأردن وشبه جزيرة العرب ومصر وليبيا وتونس ومراكش والسودان وارتريا والصومال وجزء من الحبشة والسنغال كل هذه الأقطار تتكلم العربية على اختلاف لهجاتها ، وهى المناطق السوداء فى هذه الخريطة

الرسالة المحمدية ، يتسنى لنا أن نقول ان هذه الرسالة صادفت قلوبا متهيئة ، وعقولا متطلعة ، اذ كان الفساد قد تطرق الى الديانات الاخرى ، وتغلغلت المنكرات فى الحياة الاجتماعية بين العرب . فما ان جاء الاسلام بتعاليمه القويمة ، حتى مالت اليه الافئدة ، واجتمعت حوله الافكار . ومما أعان على انتشاره فى الزمن القصير انه لم يفاجىء ذوى الديانات الاخرى بما يهدم دياناتهم أو يزيفها ، وانما شرع لهم مناهج من الاصلاح والتهذيب فيها تخليص للاديان مما علق بها من الشوائب ، وفيها تحديد لشتى العلاقات بين الناس . وقد بعث هذا الدين الجديد فى أنفس العرب قوى مكنونة لم يكن لهم بها عهد ، فكانت تلك القوى مبعث الانتصار المتوالى فى شتى الحروب والمعامع . وللروح قوى لا تحل جنبين الا أتت بالعجائب والمعجزات . وذلك ما كان فى جزيرة العرب ، فقد اكتسح العربى فى شملته مختلف الممالك التى حاربته ، وذلك على اشتغاله بالثورات الداخلية التى وقفت حينا بعد حين فى طريق الفتوح

ثانيا : العامل السياسي والاجتماعي • فقد كانت الدول المتاخمة لجزيرة العرب قد بدت عليها الشيوخة ، وسرى اليها الضعف في الادارة والحكم ، واستسلمت للانحلال الخلقي • ولهذا كله لم تستطع أن تصد هجمة الفاتح العربي ، بل ان بعضا من هذه الدول تلقاه بالعطف والترحاب ، مؤثرا أن يتولى هو تحريره مما يغشاه من استعباد ، فيستبدل به ذلك الدين الصالح الذي تمخض عنه الزمن • لذلك لم يعجز العربي عن أن يضع تحت عباءته الصحراوية هذه الامم المتباينة ، وأن يطبعها بطابعه الجديد ، دون عسف أو ارهاق • فخفق اللواء على وحدة لتلك الامم والممالك كان ذلك الفاتح العربي القوي عمادها المتين

ثالثا : العامل الاقتصادي ، فليس من المستبعد أن يكون فقر جزيرة العرب دافعا ظاهرا أو خفيا من الدوافع التي كان لنتائجها فضل من النجاح في الفتوح • ومما لا نكران به ان العربي قد أصابه من التركة الغنية التي استولى عليها نصيب موفور فيه من ألوان المتع ما لا يحلم به في شظف عيشه ، وخشونة حياته • ومن ثم أقبل على الميادين الحربية اقبال متعطش يرى ان الخير كل الخير في خوض الغمرات ، فان عاش استفاد ما يعود عليه من صنوف المتاع ، وان عصفت به ريح المنون في حومة الوغى لم يمض الا حميد الذكر ، مكفولا له الرضا من الله والناس • ومهما يكن من أمر فان كثيرا من الفتوح العربية ، هيأت للعرب أن يعودوا من حروبهم يتقلبون في أعطاف النعم ، ويتمتعون بنصيبهم في التركة الزاخرة • فلا يكون من وراء ذلك الا الاستجابة لداعي الحرب اذا دعا • وكذلك وجد القائد العربي على الدوام جيشا جرارا يمشي الى النصر بقلوب مستأسدة ، وعزائم ماضية

هل يمكن اعادة الامبراطورية العربية ؟

تلك هي العوامل الرئيسية الثلاثة التي تكونت بها الامبراطورية العربية ، فلننظر الآن في امكان حدوث هذه العوامل مرة أخرى ، لتتكون بمقتضاها الامبراطورية التي كانت في العهد الماضي ، فنرى الممالك العربية قد ضمها اتحاد ديني وسياسي واقتصادي

فأما العامل الاول ، وهو العامل الديني ، فمع ان الاسلام ما يزال يعمر قلوب أهل الشرق من أبناء العرب ، لا يسعنا اغفال ما كان للدين في جدته وميعته من قوة سببتها الاحوال والملابسات التي كانت قائمة في ذلك العهد ، ولا وجود لها الآن ، وقد ألمعنا اليها من قبل • ومن العسير أن تعود هذه القوة التي كانت للدين في نشأته الا بظهور زعيم ديني شديد العارضة بالغ التأثير واسع النفوذ ، ولم يظهر هذا الزعيم حتى اليوم ، والامل في ظهوره فيمابعد ضعيف للتغير الذي طرأ وما يزال يطرأ على الحالة الاجتماعية والمستوى العقلي

وأما العامل السياسى والاجتماعى ، فنحن نعلم ان معظم الممالك العربية واقع تحت سيطرة الدول الاجنبية ، فهى مسودة لا سائدة ، وهى فى حياطة دول قوية تحرص كل الحرص على أن تبقى كما هى • ويجب لكى تعمل هذه الممالك على أن تكون أعضاء فى الامبراطورية المرجوة ، أن يتم استقلالها فى مختلف النواحى ، وتنشأ فيها قابلية الاندماج ، والاشتراك فى وحدة شاملة • ونظرة واحدة نلقيها على العالم العربى تبدى لنا بوضوح انه أمم قد مر عليها فى تفرقها وقت طويل ، فتميز بعضها عن بعض • وهيهات ان ننسى ما أصبح لكل منها من وحدة خاصة بها ، ومميزات تختلف عن مميزات غيرها ، وليس بين تلك الممالك أمة قوية تستطيع أن تحل محل الامة العربية القديمة التى أنجبتها جزيرة العرب ، ودفعت بها فى أرجاء الدنيا تفتحها وهى مكتملة عناصر القوة • ولو كان بيننا الآن أمة يمكن أن تجتمع لها هذه الصفات ، لرجونا أن تعمل على ضم الممالك العربية وجمع شملها فى قبضة واحدة • وقد سجل التاريخ قيام الدولة العثمانية بما يماثل ذلك ، فانها قدرت بقوتها أن تعيد تأسيس أمبراطورية اسلامية واسعة النطاق • وربما سبق الى بعض الاذهان ان التقلبات السياسية الراهنة قد تتمخض عن انشاء الامبراطورية على هذا النحو ، وانا لنرى ذلك بعيد التحقيق كل البعد • على انه ان تحقق لن يكون للامبراطورية عمر مديد ما دامت مفتقرة الى العوامل الاساسية التى تحفظ كيانها ، وتسوغ قيامها

وأما العامل الاقتصادى فمما لا شك فيه ان الممالك العربية الحاضرة ليست فى حالة من شظف العيش تدعوها الى مهاجمة جارات ضعفت شوكتها ، وتضعضع سلطانها ، وانحل رباطها الاجتماعى • بل ان هذه الممالك تعيش فى شبه رخاء ويسر ، ان لم يدع الى الرضا لم يدع الى التذمر • وتلك جاراتها قوية بنظمها السياسية والاجتماعية لا يطمع فيها أحد

التعاون الروحى والاقتصادى

اذن لا تعود الامبراطورية على هذا النحو الذى كانت عليه ، ومن الخير أن نعترف بذلك لا نغالط ولا نتجاهل • وهناك أمر يسعنا ان نطمع فيه ، وأن نعمل له ، وذلك هو أن ينشأ بين الامم العربية تعاون روحى اقتصادى نحرص على انمائه وتثميره بشتى الوسائل ، فنكثر من عقد المؤتمرات الثقافية والرياضية والطبية وما اليها ، ونرفع الحواجز التى تعوق تبادل المنافع الاقتصادية • فاذا أنفذنا هذه الخطة بعناية واخلاص ، وأمكننا أن نقوى بين الجارات العربية ألوان المصالح المشتركة ، كان لنا أن ننتظر فى وقت من الاوقات نشوء حلف سياسى يثبت هذا التعاون الروحى ، ويقيم دعائمه على أساس وطيد

محمود تيمور

الجمجمة

شوهاء حائلة الألوان نكراء ... أبلى محاسنها دهر وآناء
غشّى معارفَها من طول ما حملت ... من الجنادل والأحقابِ إعياء
ناءت بعبء الثرى دهراً وناء بها ... مِن قبلِ ذاك لِهَمّ العيش أعباء
جوفاء مصفرةٌ من فطنةٍ وحجى ... جدباء خاوية الأركان ظلماء
فى العيش زاهدةٌ والخلقِ قاطبةً ... بها صدوف عن الدنيا وإغضاء
تُخال شاخصةَ الطرفين رانية ... وعينُها عن سَنى الأضواء عشواء
خرساء ليست تحير القول ساهمة ... لها مدى الدهر إنصات وإصغاء
إنى لأسمع منها وهى صامتة ... وعظاً من القول يدريه الألبّاء
نعم وأحسب أنى إذ أخاطبها ... تَعى خفىّ خطابى وهى صماء
تتلو على النفس من سامى مواعظها ... عجباء منخوبة الأنياب بكماء
قصت علىّ تليداً من مآربها ... أتى عليهن أصباح وأمساء
لعل ذا الرأسَ قِدْماً كان يَعمرُه ... سامى ذكاء تُنبى عنه سيماء
تحالت فى ثرى قبرٍ عناصره ... وأطفئت روعة منه ولألاء
وبُعثرت فى الثرى عليا مطامحه ... وكان من دونها بالأمس جوزاء
أو علّ ذا الرأسَ فى ماضى بشاشته ... تاهت به قامة فى الغيد هيفاء
كانت تروع النهى قِدْماً معارفُه ... وتُشتهى لفتة منه وإيماء
وكان هـذا الفم الممقوت منظره ... تبدو به بسمة للعين غراء
وكان ذا المحجَرُ المشنوء تسكنه ... دعجاء مرسلة الأهداب حوراء
وكان غائرُ هذا الأنفِ مُزدهياً ... تعلوه أرنبةٌ بالحسن شماء
يفر من قبحه ذعراً أحبته ... لو جاء ينظره اليوم الأحبّاء
لقد سلا وسلَوْا فى الترب وانشعبوا ... ولاذ بالصمت أحباب وأعداء
سلت شئونَ الورى فى الرمس جمجمةٌ ... قد بات يسفعها وبلٌ وأنواء
تخضرّ نامية مِن حولها دِمَن ... إذا تتابعَ وبل ، وهى صفراء
وليس يكرثُها فى العيش ما فَجأت ... به البريةَ سراء وضراء
قد أسكت الموتُ أصداء الحياة بها ... وللرياح بها إن نُحْنَ أصداء

[بعث بها الينا قبل وفاته رحمه الله]

فخرى أبو السعود

الاستعمار الايطالى

يهدد الشرق العربى فى قوميته وحياته الاقتصادية

للصحافى الانجليزى مارتن مور عن كتابه « الشاطىء الرابع »

ابتكر موسولينى أسلوبا فى الاستعمار جديدا فى وسائله وأوضاعه وأغراضه فلم يسبقه اليه أحد من الاباطرة الغابرين ولا من المستعمرين المعاصرين ، ومع ان هذا الاسلوب الذى اتخذه فى استعمار طرابلس ما يزال فى دور التجربة التى تحتمل التوفيق والاخفاق على السواء ، الا انه يكشف عما ينطوى عليه من أخطار داهمة تستهدف لها البلاد التى يقدر عليها أن تقع فريسة ايطاليا ، فتقوض كيانها القومى وتستبد بحياتها الاقتصادية ، وهذا المقال الذى نستخلصه من كتاب « الشاطىء الرابع » للصحافى الانجليزى « مارتن مور » يتحدث عما دفع بايطاليا الى اتخاذ هذا الاسلوب الاستعمارى ، ويشرح الوسائل التى طبق بها مشروعها الخطير

يفترق الاسلوب الذى جرى عليه استعمار أرجاء الامبراطورية البريطانية والقارة الاميركية بفارق فاصل عن النظام الذى أعدته ايطاليا لاستعمار أملاكها فى شمال افريقية . فتلك القارات والاقطار الفساح لم يستعمرها الا أفراد أو جماعات من المغامرين المخاطرين دفعهم اما السعى الى العيش فى مصادره البكر السخية واما روح المجازفة الذى لا تهدأ ثائرته ، الى الرحلة الى أقاصى الارض والكشف عن مجاهل الدنيا ، حيث ينتظرهم ماقدر لهم من النجاح أو الثراء أو يتوقعهم ما قدر عليهم من الفشل والعناء..أما استعمار طرابلس فلم يترك أمره الى الافراد والجماعات تؤاتيهم الفرصة تارة وتخطئهم أخرى ، بل تولته عنهم الحكومة المستعمرة ذاتها ، فوضعت له القواعد وأعدت له الوسائل وهيأت له المال والعتاد ، وأخذت على عاتقها تنفيذه اجتناء لثمار ألقت بذورها بأيديها

فالحكومة لا تكتفى بحمل المهاجر فى السفائن الى أرضه الجديدة ، ولا بايجاد عمل له فى المستعمرة يزاوله ويعيش من مورده ، تاركة اياه حرا فيما يأتى ويدع من الاعمال هدفا لاسباب النجاح والخيبة فيها . بل انها لتزود كل أسرة مهاجرة بمزرعة تستثمرها وبيت مؤثث تنزل فيه ، ثم انها لتأمر كل مهاجر بما يجب أن يلقى من البذور ويغرس من الاشجار ، وتمده بما تتطلبه الارض من الادوات وتقرضه ما تحتاج اليه زراعتها من

المال ، حتى اذا أثمر زرعه اشترت منه نتاج أرضه وتولت تصريفه أو صناعته ، وانها لتمكنه أخيرا من أن يشترى مزرعته هذه بأثمان زهيدة منجمة على سنين طويلة حتى يصير مالكا لجزء معين من الارض المستعمرة

وهى فى الوقت ذاته لا تسمح لابنائها المستعمرين بأن يتنافسوا فيما بينهم على استعمار هذه المناطق • فليس فيها ما فى سواها من مستعمرين قدماء أثرياء يستغلون حاجة المستعمرين الجدد الفقراء فيأجرونهم بأبخس الاثمان ، ولا مستعمرين وافدين يزاحمون المستعمرين السابقين فى مناحى أعمالهم ومصادر أرزاقهم ، بل تجتمع أيدى جميع المستعمرين الايطاليين يدا واحدة تعمل جاهدة على استغلال المستعمرة استغلالا محكما دقيقا فلا تبقى فى الارض ثمرة مرجوة الا أنبتها واجتناها

ويترتب على هذا المنهاج ألا تفتح أبواب الهجرة الى المستعمرات لكل من شاء ، بل تقصر على من ترى الحكومة انهم أكفاء لتنفيذ مشروعها الاستعمارى الدقيق • ذلك ان الحكومة لا تريد أن تترك مستعمراتها بين أيدى من لا يقدرون على استغلالها على خير الوجوه ، ولا تريد أن تدع فى هذه المستعمرات موردا سخيا لاهلها ما دامت تستطيع أن تصدر من أبنائها من يقدر على استثمار كل مورد فيها

الاستعمار الايطالى هو الاستيطان

ولا ترمى ايطاليا الى ايفاد جماعات من أبنائها يجمعون الثروات من هذه البلاد ثم يعودون الى بلادهم حيث يعيشون مترفين أثرياء كما هو شأن كثير من أبناء بريطانيا وفرنسا ، بل هى تريد أن يستقر ويستوطن أبناؤها هذه المستعمرات مدى الحياة وينسلوا فيها أبناء وأحفادا يخلفونهم فى أملاكهم أجيالا تلو أجيال ، على ان يظل ما بينهم وبين وطنهم من روابط الدين واللغة والثقافة حافظة معززة روحهم القومى دائما • ولهذا فانها جعلت الاسرة ــ لا الفرد ــ وحدة الاستعمار ، فهى لا ترحل الى أملاكها فى افريقية أفرادا بل أسرات • وذلك ليشعر المهاجر ان هذه الارض الجديدة ليست الا وطنا يقر فيه هو وزوجه وولده مدى الحياة ، فعليه أن يضع أساس حياته الحاضرة والقادمة فى هذه الارض كما يضعه فى وطنه الاصيل الذى لن يفارقه أبدا

فلم لا يطلق الفاشست اذا على مستعمرة ليبيا اسم « الشاطىء الرابع » وهم يعدونها جزءا لن يتجزأ من وطنهم ايطاليا ذات الشواطىء الثلاثة ، ثم أليس لهذا الاسم جرس استعمارى مدوى الصوت عميق الرنين يدعو الى الكفاح ويدفع الى المغامرة ، فلا عجب ان سرى هذا الاسم فى أسماع الايطاليين جماعات الفلاحين الذين أحسوا ان ليبيا « الدرادو » جديد تتفجر فيه ينابيع الذهب ، وان أدركوا انه تبر خليط بالترب والرمل فلا تستخلصه الا أيدى المجاهدين الصابرين

« بالبو » زعيم هذه الحركة

وقد أعد وتزعم هذه الحركة المبتكرة فى تاريخ الاستعمار بطل الطيران الايطالى « بالبو » ففى اكتوبر سنة ١٩٣٨ رحلت ست عشرة سفينة ايطالية تقل أول فوج من المستعمرين يتألف من ١٨٠٠ أسرة ايطالية الى ما أعدت لهم من بيوت ومن مزارع على ساحل البحر الافريقى • وكانت كل أسرة من زهاء ثمانية أفراد فبلغ مجموع أولئك المستعمرين الاوائل عشرين ألف نسمة ، يدفعهم الضيق فى وطنهم ويجذبهم الثراء فى مستعمرتهم وتختلج فيهم أطماع السيطرة والسيادة التى أوقدها موسولينى فى صدر الرجال والنساء على السواء •

وكانت كل أسرة من هذه الاسرات تتألف عادة من ثلاثة رجال أو شبان مارسوا الزراعة ، ومن امرأتين أو ثلاث نساء يساهمن فى أعمال المزرعة ، ومن طفلين أو ثلاثة أطفال ينشأون ويمرنون على ان يخلفوا آباءهم وأمهاتهم فى هـذه الاراضى • وكانت الحكومة تبدى ترحيبا ظاهرا بمن يصحب المهاجرين من الاطفال ، بل من الاجنة ، فكانت كل أسرة تمنح فيما تمنح من الاثاث أمهادا لاطفالها الموجودين والمرتقبين • وقد اذاعت الحكومة بين المهاجرين منشورا عما يجب عليهم ان يحملوه الى وطنهم الجديد ، وهو لا يتعدى ما يلزمهم من ملبس وغطاء وأدوات للطهى والنظافة ، على أن تكدس فى أحمال خفيفة يحملونها على ظهورهم الى بيوتهم الجديدة التى أعدت بما يلزمها من أثاث وفراش فضلا عما يجرى فيها من مياه وكهرباء

الاصلاح الزراعى والاستعمار

ولم تكن هذه الهجرة الاجماعية الى طرابلس الا جزءا من المشروع الخطير الذى أعده موسولينى منذ ان تولى زمام ايطاليا حلا لمعضلتها الكبرى ، أى ضيق أراضيها الزراعية ومواردها الاقتصادية بسكانها الذين يزداد عددهم زيادة مطردة بمعدل ٤٠٠,٠٠٠ نسمة فى كل عام • ولن ينى موسولينى عن تطبيق هذه السياسة الاستعمارية الخطرة على كل اقليم يقع فى يديه حلا لهذه المعضلة الخطيرة التى ما زالت تضج بها ايطاليا وتسعى فى كل سبيل الى الخلاص منها • فما هو هذا المشروع الذى أبلى موسولينى فى تنفيذه أحسن البلاء ، والذى يريد أن يضعه فى كفة الميزان مقابل ما فى الكفة الاخرى من قيود آسرة غل بها الحرية وصفد بها الاحرار ؟

هذا هو مشروع « الاصلاح الزراعى » الذى بدأه موسولينى فى سنة ١٩٢٨ واعتزم به فى خلال أربعة عشر عاما أن يستصلح للزراعة والانتاج ما فى ايطاليا من مناطق بائرة تكاد تبلغ نصف مساحتها بأسرها • وأعلن منذ البداءة ان هذا المشروع الذى يضيف أرضا مزروعة تزيد على عشرة ملايين من الافدنة يكلف الدولة سبعين مليونا من الجنيهات تنفق فى تهيئة وسائل الرى والصرف وفى تجفيف المستنقعات وتمهيد الاراضى وفى زراعة

الغابات وبناء مساكن الزراع وما الى ذلك من نواحي الاصلاح الزراعي في بلاد كانت تعاني ـ وما زالت تعاني الى حد ما ـ أزمة بل مجاعة نتيجة سوء توزيع الثروة الزراعية فيها • فثلثا أرضها المزروعة مقصورة على ٤٠/٠ من ملاكها ، بينما يتوزع الثلث الباقي بين الاغلبية الكبرى من الملاك توزيعا تختل به حياة ايطاليا الاقتصادية والاجتماعية ، فلم يكن يتجاوز عدد من يملكون مزارع تهيىء لهم ولاسرهم حياة ملائمة نصف مليون من الافراد ، بينما يملك الباقون تنفا من الارض لا تكاد تغنيهم شيئا ، وان كانوا أحسن حالا من سائر الشعب الذى كان يعيش دون مستوى الشعوب التى يزج بنفسه بينها غرورا وادعاء

ولكن تنفيذ هذا المشروع الضخم يتطلب من الاموال والجهود والسنين ما لا يتسع له ذرع ايطاليا • فليس لها للخلاص من معضلتها الكبرى التى تزداد خطورة على الايام الا ان تقذف بأبنائها الى أملاكها فى افريقية يستعمرونها هذا الاستعمار المنظم الدقيق الذى يستبدلهم بكل ما يسخو فيها من مصادر الرزق وأسباب الحياة • فهى تتجه اذا الى طرابلس التى اقتطعتها من تركيا قبل الحرب السابقة بسنين ، والتى كافحت طويلا فى استخلاصها من أبنائها العرب المجاهدين

الاسرات الايطالية فى طرابلس

فماذا فعل أولئك الذين أنزلتهم السفن الاولى الى أرض طرابلس منذ سنتين ؟ لقد وجدوا أمامهم أرضا خلوا من المعادن والوقود فلا سبيل الى اقامة الصناعة فيها ، ووجدوا أرضا لا تكاد تربطها بالعلم الحديث أسباب الاتصال التجارى الذى يجعل منها سوقا رائجة يعيشون فيها بالبيع والشراء فلا عمل لهم اذا الا الزراعة يحيون بها منذ حلوا فيها ويبنون عليها مستقبلهم أبدا • ولكن ليبيا ليست فى مجموعها الا صحراء قاحلة لا يجرى فيها نهر ولا يهطل عليها غيث اللهم الا منطقة ضيقة تمتد على شاطىء البحر يتوافر فيها الخصب والماء ، فضلا عن واحات قليلة تتناثر هنا وهناك تنفجر فيها العيون فتقوم حولها الاشجار وتنبسط الحقول • فأما هذه الواحات فمزدحمة بأهلها العرب كما ان العيش فيها شاق عسير ، فلا بأس من أن يتركها المستعمرون لاهليها ولمن يطردونهم اليها من سكان تلك المنطقة الساحلية التى اختصوا بها أنفسهم

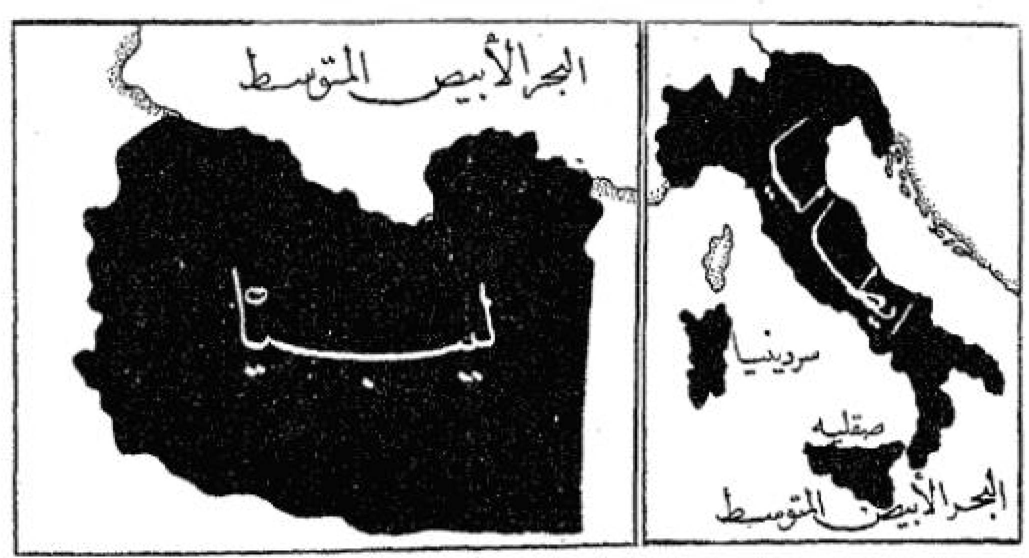
وقد فكرت ايطاليا بادىء الامر أن تشترى أرض العرب بالمال ، وعينت لذلك أثمانا وان تكن بخسة الا ان فيها عوضا لاصحابها ، ولكنها لم تلبث ان وجدت خزائنها خالية لا تفى بما يلزم لشراء هذه الاراضى ، فلم تجد حرجا فى أن تستولى عليها مقابل عوض لا يجدى أهلها المستضعفين شيئا • على ان ايطاليا قد استعمرت الى جانب ذلك أرضا قاحلة وقرى خالية وأخذت تعمل وتنفق لرى الارض وبناء القرى واعادة الحياة الى هـذه المناطق التى أقفرت من أسباب المدنية منذ قرون

وهكذا نشأت فى طرابلس مستعمرة كبرى أقيمت كلها على طراز واحد ، وتتألف من

مساكن متماثلة فى مساحتها وبنائها ولونها الابيض ، حتى لتبدو صورة هذا الاقليم كالرسم الهندسى الدقيق . ومهما يهيىء هذا النظام للمستعمرين من أسباب العمل والرخاء الا ان كثيرا منهم يحس ثقل هذه الحياة المتشابهة التى لا يفترق فيها أحد عن أحد فى كثير أو قليل . فالجميع يصحون وينامون فى ساعة واحدة ، والجميع يعملون فى أرض متماثلة وبأساليب واحدة ، والجميع يجهدون وينتجون والحكومة تستولى على ثمرة جهدهم وتاجهم على السواء . وقد أنفقت الحكومة الايطالية مبلغا كبيرا من المال فى سبيل ترحيل هؤلاء المهاجرين الاوائل واعدادهم لتنفيذ مشروعها الاستعمارى . فأنفقت فى تعبيد الاراضى وانشاء القرى أكثر من أربعة ملايين من الجنيهات ، وعاون الحكومة على أداء هذه النفقات هيئات خاصة قامت لتيسير أسباب الاستعمار أمام أبناء ايطاليا باقراضهم بعض المال وامدادهم بشيء من العتاد

ولكن هذا الاستعمار الاقتصادى تؤيده قوة أشد منه بأسا وأنفذ أثرا . وهو هذا الاستعمار الثقافى الذى يتمثل فى هذه المدارس والكنائس والجماعات التى تنبعث فى أرجاء طرابلس نشرا وتدعيما للثقافة الايطالية بين أبنائها أنفسهم ، ترمى بذلك الى اضعاف الروح القومى الذى ان بقى سليما خالصا كان كفيلا بخلق القوى فى نفوس المستضعفين يوما ما ، وتأليبهم حين تسنح الفرصة على سطوة الغاصبين الدخلاء

هذا هو النظام المحكم الدقيق الذى جرت عليه التجربة الايطالية الاولى فى الاستعمار تمهيدا لاتخاذه فى كل بلد يقع فى أيديها . وانه لاستعمار منظم القواعد معين الاغراض تتولى الحكومة المسيطرة تدبيره وتنفيذه بما لها من أموال وسلطات وجنود



ليست ليبيا بالمستعمرة الصغيرة فمساحتها تبلغ أكثر من ضعفى مساحة ايطاليا نفسها ، ولكن معظم أراضيها الشاسعة ليست إلا صحراء جرداء لا يصلح للزراعة منها إلا الجزء الضيق الذى يقوم على شواطىء البحر الأبيض المتوسط فضلا عن خلوها من المعادن والوقود

مكانة الأقطار العربية
فى الحرب الحاضرة

بقلم قائد بغداد الجنرال أمين بك العمرى

الوضع الجغرافى للبلاد العربية من شأنه ربط أوربا بآسيا وافريقيا ، ولهذا يقوم التنافس على هذه البلاد بين الدول الكبرى . ويجعل للشرق العربى مكانة خاصة فى هذه الحرب . وقد شرح الجنرال أمين بك العمرى فى هذا المقال مكانة كل قطر من الاقطار العربية ، وصلته ببريطانيا العظمى

تقوم معظم البلاد العربية المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط فى خطوط المواصلات البحرية والبرية والبحرية للامبراطورية البريطانية ، ولذلك تأثير عظيم على اقتصاديات هذه الامبراطورية ودفاعها

أما مصر فلأنها واقعة على طريق الهند الرئيسية وعلى مفرق الطرق البحرية والجوية للامبراطورية فلها منزلة عسكرية عظيمة كما لها منزلتها التجارية والجوية الخطيرة الشأن ، وبهذا الاعتبار ستكون مصر مطمح أنظار القوات العسكرية المتحاربة فى حوض البحر الأبيض المتوسط . وبالرغم من المناعة الدفاعية التى تهيئها صحراء سينا شرقاً وصحراء ليبيا غرباً للمملكة المصرية فان هذا القطر الشقيق سوف يصبح مسرحاً للحركات العسكرية الخطيرة براً وجواً وبحراً لأن تقدم القوات الجوية والآلية قرب المسافات الشاسعة بين مختلف الأقطار وذلل صعوبات الصحارى القفار . وكم كنت أتمنى من صميم قلبى أن أرى مصر التى تعد نحو ١٦ مليون نسمة والتى لها ميزانيتها الغنية مسلحة ومجهزة بجيش برى وجوى وبحرى قوى يلعب دوره الخطير فى حوض البحر الأبيض المتوسط . وبذلك تصبح بمثابة درع منيع للأقطار العربية الأخرى الواقعة فى آسيا وأفريقا ازاء استيلاء الأجانب عليها . ولو اشتغلت مصر — منذ عهد محمد علي الكبير — بتأليف قوات حربية على مختلف أنواعها ، لأصبح عندها اليوم ما لا يقل عن ٣٥ — ٤٠ فرقة وأسطول بحرى وجوى له الكلمة المسموعة فى مقدرات البلاد العربية كلها

وكلما اتضح لى أن مصر صرفت مبالغ ضخمة على أمور وشؤون ثانوية تعد من الكماليات بالنسبة الى شؤون الدفاع الحيوى ، وأهملت أسباب الدفاع الوطنى أتألم تألماً شديداً . وفى الحقيقة

أني لا أجهل وضع مصر السياسي ، وهو الذي كان يعوقها عن تأليف جيش قوي ، إلا أنني أظن أنه كان في الامكان خصوصاً في السنين الأخيرة الاهتمام بتكوين قوى الدفاع وزيادتها

أما فلسطين وشرق الأردن فقد أسستهما السياسة العليا ليكونا حاجزين بين الجزيرة العربية القفراء وعربانها وعشائرها وبين قناة السويس طريق الهند الرئيسية من جهة ، والمستعمرات الصهيونية المؤسسة والمنوى تأسيسها فيما بعد حوالى قاعدة حيفا البحرية وأطراف تل أبيب من الجهة الأخرى . ولم تنحصر وظيفة فلسطين في ذلك فحسب انما ستكون الحارس الأمين للطريق الجوية والبرية الامبراطورية المارة بالعراق ، والحارس الأمين لميناء حيفا ومعامل تكرير وتصفية النفط فيه ، كما أن مملكة شرق الأردن تقوم بواجب الحراسة على أنابيب النفط الواردة من العراق الى ميناء حيفا

أما العراق فانه بمثابة موضع ستار لبلاد الهند وللامارات العربية المحمية الواقعة على خليج فارس . وهو في ذات الوقت يقوم بواجب الحارس الأمين لطريق الهند ولطرق المواصلات الجوية والبحرية والبرية للامبراطورية البريطانية ، ويقوم بحراسة منابع النفط وأنابيب النفط التي تستثمرها الشركات البريطانية

وقد أصبح العراق عقدة اتصال الطرق البرية والجوية والبحرية للامبراطورية البريطانية كما أسلفنا . واذا فتحت طريق السيارات من الكويت أو من الشعيبة رأساً الى العقبة ، فسيمر هذا الطريق بقسم من الاراضي العراقية وقسم من أراضي المملكة السعودية وقسم من أراضي شرقي الأردن ، فجميع هذه البلاد والأمارات العربية سوف تشترك في حراسة الطريق المذكور الذي يقصر طريق الهند الى مصر براً وجواً ويخفف أعباء النقل للامبراطورية البريطانية ، وكذلك الحالة عند ما يتم طريق حيفا ـ بغداد فتقوم البلاد والأمارات العربية بحراسته مشتركة

ولما كانت أنابيب نفط إيران تصب بترولها في شط العرب فان لهذا الشط والخليج فارس وقناة الروكة أهميـة عظيمة من الوجهتين الاقتصادية وحشد الجيوش لكونهما جزءاً من خطوط المواصلات للامبراطورية البريطانية التي تصل المحيط الهندي بمنابع النفط وبأمارات خليج فارس وبايران أما المحيط الهندى فانه تحت السيطرة الانكليزية ولم يتأسس على ضفافه حتى الآن غير السيطرة البريطانية ، فطالما كانت انكلترا صاحبة باب المندب والسويس وسنغافورة فانها ستبقى سيدة في المحيط الهندي، ولكن في اليوم الذي تتأسس قواعد بحرية لدولة أجنبية في خليج فارس أو في المحيط الهندي فحينئذ تتضعضع سيطرة انكلترا على هذا البحر ، وهذا يشرح لنا أهميـة خليج فارس وشط العرب من الوجهة البحرية الانكليزية كما أن طريق الهند توضح لنا أسباب العداء والتنافس بين المانيا وانكلترا قبل الحرب العظمى الماضية

أما المملكة العربية السعودية وأمارات الخليج الاخرى فانها الحارس الأمين لضفاف خليج فارس وموانيه الغربية ـ الجنوبية ولمنابع النفط ولشواطىء البحر الأحمر وكل هذه تقع على طرق مواصلات الامبراطورية البريطانية . وخلاصة القول أن الوضع الجغرافى للبلاد العربية من شأنه ربط أوربا وآسيا وأفريقيا بعضها ببعض وتقوم بلادنا على مفرق طرق هذه القارات الثلاث فلها منزلة جغرافية وسياسية واقتصادية خطيرة بالنسبة الى انكلترا وفرنسا ولها خطورتها العظيمة من وجهة حشد الجيوش

أمين العمرى

رجل الشرطة

فى نظر الحجاج بن يوسف

قال الحجاج يوماً : « دلونى على رجل الشرطة » فقيل : « أى رجل تريد ؟ » فقال : « أريد رجلا دائم العبوس ، طويل الجلوس ، سمين الامانة ، أعجف الخيانة ، يهون عليه سباب الشريف فى الشفاعة » فقالوا : « عليك بعبد الرحمن التميمى » فارسل اليه ليستعمله ، فقال : « لست أعمل لك عملا الا أن تكفينى ولدك وأهل بيتك وعمالك وحاشيتك » فقال : « يا غلام ناد : فقد برئت منه الذمة » وقال أشجع بن عمرو السلمى يمدح فى هذا المعنى ابراهيم بن عثمان صاحب : شرطة الشهيد . وكان جباراً عنيداً

فى سيف ابراهيم خوف واقع ... لذوى النفاق وفيه أمن المسلم
فيبيت يكلأ والعيون هواجع ... مال المضيع ومهجة المستسلم
شد الخطام بأنف كل مخالف ... حتى استقام له الذى لم يخطم
لا يصلح السلطان إلا شدة ... تغشى البرىء بفضل ذنب المجرم
ومن الولاة مفخم لا يتقى ... والسيف تقطر شفرتاه من الدم
منعت مهابتك النفوس حديثها ... بالامر تكرهه وان لم تعلم

نصيب العرب من نصر الحلفاء
فى الحرب الكبرى الماضية

بقلم الاستاذ حبيب جاماتى

ثورة « الشريف » حسين وأثرها فى الجيوش التركية — اثر الثورة من الناحية السياسية — كيف استفاد الحلفاء من الثورة العربية — مجهود العرب فى مساعدة الحلفاء — أمثلة من فروسية العرب

انتهت الحرب العالمية الاخيرة فى سنة ١٩١٨ وجلس مندوبو الدول وممثلوها حول الموائد الخضراء لوضع شروط الصلح التى كانوا يعتقدون انها ستضمن السلم والطمأنينة للعالم أجيالا ٠ ولكنهم أخطأوا ، وهذه ويلات الحرب تنصب من جديد على الشعوب ٠ فهل تخرج من هذه المحنة كما خرجت من المحنة السابقة ، لكى تستعد للمجزرة القادمة ، أم تكون هذه الحرب آخر الحروب وخاتمتها ؟

سؤال لم تحن بعد الاجابة عليه ٠ ولكن ذلك السلم الدائم لن يصبح حقيقة ملموسة الا اذا ساد الانصاف ، وعلت العدالة على كل ما عداها

والعرب الذين يرقبون الآن صراع الجبابرة وهو يقترب منهم بخطوات سريعة واسعة ، هم أحد تلك الشعوب التى ساهمت فى الحرب العالمية الماضية ، وأخذت نصيبها من القتال ، ولكنها لم تأخذ من نتائجه وأسلابه غير جانب يسير ٠ فان للعرب فضلا كبيرا فى احراز الحلفاء ذلك النصر المبين الذى كلل كفاحهم فى سنة ١٩١٨

ثورة « الشريف » حسين وأثرها فى الجيوش التركية

فى ١٠ يونيه سنة ١٩١٦ ، رفع المغفور له الحسين بن على ، شريف مكة راية العصيان ، ودعا العرب فى الدولة العثمانية الى الثورة ، وقد اتهم العرب فى ذلك الوقت وفيما بعد بأنهم « خانوا » الدولة بانتقاضهم عليها ٠ وأكتفى هنا بنقل كلمات قالها لى الملك فيصل الاول رحمه الله ، ودونتها فى مذكرات نشرت فى حينها ، وهى تلخص شعور أولئك الذين أعلنوا الثورة العربية الكبرى وتحملوا مسؤوليتها وعواقبها

قال فيصل — وكان فى ذلك الوقت ، أى فى سنة ١٩١٧ لا يزال يدعى «الامير فيصل»

« لا بد من الفوز ما دامت عزيمتنا ثابتة ، وما دمنا قد وطدنا العزم على السير الى النهاية فى ثورتنا هذه لتحرير الاقطار العربية ممن أساءوا التصرف فيها • وقد حاولنا أن نأخذ حقنا بالحسنى ، ولكنهم أبوا الا أن يرغمونا على أخذه بالقوة ! »

فالعرب حاولوا اذن أن يصلوا الى تفاهم مشروع معقول مع الترك • ولكن الترك أبوا الا الاصرار على سياستهم القائمة على اذلال العرب وعدهم فى السلطنة عنصرا تابعا خاضعا للعنصر التركى المتبوع الحاكم • ولو أحسن قادة الترك السياسة وأجابوا العرب الى مطالبهم أو على الاقل الى بعضها ، لما حدث ذلك الانتقاض ، ولما قامت الثورة ولحارب العرب فى صفوف الترك بدل أن ينضموا الى الحلفاء ضدهم ، ولبقيت وحدة الدولة العثمانية قائمة تواجه الصدمات الحربية والسياسية والمعنوية ، ولما انهار صرح تلك الدولة العظيمة ، وتفككت أجزاؤها ، وتطايرت أشلاؤها .

فمن الوجهة الحربية فقد الجيش التركى أهم العناصر المقاتلة بعد العنصر التركى ، فأصبحت القيادة العليا لا تثق بالجنود العرب وأصبح أولئك الجنود فعلا غير موالين لها ، بعد أن بلغ مسامعهم اعلان الثورة فى الحجاز ، واعلان استقلال العرب فى وقت واحد • وجعل أولئك الجنود العرب يتحينون الفرص للفرار من الجيش التركى ، اما للالتحاق مباشرة برجال الثورة ، واما للتسليم الى جيوش الحلفاء • وهكذا كانت القيادة التركية ترى الجيوش التى تحاربها يزداد عددها جنديا كلما فقدت هى جنديا عربيا • واضطرت الحكومة التركية من ناحيتها الى الانهماك بمراقبة البلدان العربية التابعة لها خوفا من انتقاض سكانها أو من قيامهم بأعمال داخلية عدائية فزادت متاعبها ، وارتبكت آلة الادارة فيها ، وبدأ الانحلال يدب فى أعضاء ذلك الجسم الضخم شيئا فشيئا

أثر الثورة من الناحية السياسية

أما من الناحية السياسية ، فان اعلان الثورة العربية كان أيضا ضربة شديدة على الدولة العثمانية ، لانه حول مجرى السياسة ضدها فى كثير من البلدان ، وعلى الخصوص فى الاقطار التى كان مهاجرو العرب يقيمون فيها ، وفى الدول المستقلة أو المحكومة ، التى كان سكانها يعطفون على العرب أكثر من عطفهم على الترك

أما من الناحية المعنوية ، فقد ظهرت نتائج تلك الثورة فى داخل السلطنة وخارجها بسرعة وشدة • فقد خارت عزائم العنصر التركى عندما رأى نفسه محاطا بالاعداء من كل جانب ، ورأى أولئك الاعداء يعملون فى عقر الدار ، بينما عزائم العرب فى الداخل والخارج جعلت تشتد وتقوى يوما عن يوم • ولا يخفى ان الروح المعنوية فى الحروب شرط من شروط النصر

كيف استفاد الحلفاء من الثورة

رأينا الى هنا كيف ان اعلان الثورة العربية كان له ذلك التأثير فى الدولة العثمانية . فلننظر الآن فى تأثيره من الناحية الاخرى ، أى من ناحية الحلفاء

فان انضمام العرب الى أعداء الدولة العثمانية وضع فى يد أولئك الاعداء سلاحا ماضيا قابلوا به ذلك السلاح الذى كانت الحكومة التركية قد عمدت اليه ، وهو التذرع بفكرة الدين واستغلال مركز الخلافة ودعوة العالم الاسلامى الى الجهاد . فانتقاض شريف مكة على السلطان ، وثورة العرب المسلمين ، وانتقام الحكام الترك من السكان العرب فى الولايات التى لم تمتد اليها الثورة ، كل ذلك جعل السلاح التركى مفلولا ، ففقدت الحرب معناها الدينى ، ولبست معنى آخر ، معنى قوميا ووطنيا وعنصريا . وبهذا رجحت كفة الحلفاء على كفة خصومهم من الوجهة المعنوية

وكما ان الترك قد أصيبوا بضرر حربى وسياسى ومعنوى بسبب الثورة العربية ، فان ذلك الضرر الثلاثى قد استحال نفعا للحلفاء ، الذين تضخمت صفوفهم بالتحاق شعب محارب جديد بها ، وفتحت أمام سياستهم أبوابا كانت مغلقة ، وانضم اليهم فى أنحاء العالم أصدقاء ساعدوهم على بلوغ النصر

جهود العرب فى مساعدة الحلفاء

قلنا ان الشريف الحسين بن على أعلن الثورة فى ١٠ يونيه سنة ١٩١٦ . ونضيف الى ذلك ان العرب لبوا نداءه من كل فج وصوب . فتدفق المتطوعون بحماسة الى مقر قيادة الثورة فى الحجاز . وهرع العراقيون والسوريون فضلا عن الحجازيين الى الشريف يضعون أنفسهم تحت تصرفه . وقسم الحسين رجاله الى ثلاثة جيوش بقيادة أنجاله الامراء على وعبد الله وفيصل ، والتحق رابع أنجاله الامير زيد بأخيه فيصل . وعندما تنظم الجيش الشمالى بعد سقوط العقبة ، تولى القيادة العسكرية جعفر باشا العسكرى وصهره نورى بك السعيد

وقد يكون بين القراء من يجهل مصير هؤلاء الامراء والقواد الذين نظموا صفوف الثوار العرب ، فنقول : ان الشريف الحسين بن على تولى الملك فى الحجاز ثم تنازل عنه لنجله الاكبر الملك على ، ورحل الى قبرص ، ودفن بعد وفاته فى فناء المسجد الاقصى بالقدس . وأما الملك على ، فقد انتزع الملك ابن السعود الملك منه فرحل الى عمان فبغداد حيث توفى ، وابنه الامير عبد الاله هو الآن وصى على عرش العراق . وأما الامير عبد الله بن الحسين فهو الآن أمير شرق الاردن . وتاريخ الامير فيصل أشهر من أن يعرف ، فقد نادى به السوريون ملكا عليهم ، ولكن الفرنسيين احتلوا دمشق بعد معركة ميسلون سنة ١٩٢٠ ، فرحل فيصل عن سورية ، ونودى به بعد ذلك ملكا على العراق ،

ومات فى ظروف غامضة فى سويسرة ، ونقل جثمانه الى بغداد ، وخلفه نجله الملك غازى رحمه الله ، الذى قتل فى حادث اصطدام سيارته بشجرة ، وخلفه نجله الصغير فيصل الثانى • والامير زيد هو الوحيد بين أبناء الحسين الذى لم يجلس على عرش ، وقد دخل فى السلك السياسى • وأما القائدان جعفر باشا العسكرى ونورى بك السعيد ، فقد توليا مناصب الوزارة فى العراق ، وقتل الاول غدرا فى ابان الانقلاب العسكرى الذى أحدثه بكر صدقى باشا وحكمت بك سليمان ، وحفظ الله حياة الثانى ، وما زال نورى «باشا» السعيد علما خافقا من أعلام الوطنية العربية

وقد كان الثوار العرب ينقسمون الى فريقين : فريق يؤلف جيشا منظما ، وفريق يؤلف جيشا غير نظامى ، معظم رجاله من البدو • ومن أعمال الثوار فى الحرب العالمية ، انهم استولوا على مكة وجدة وطردوا الترك من الحجاز ولكنهم عجزوا عن الاستيلاء على المدينة• وساروا شمالا فانتزعوا العقبة من حاميتها التركية ، ثم واصلوا زحفهم نحو عمان فاستولوا على مواقع الترك فى الكويرة وأبى الأسل ومعان ، ودخلوا المدن الواقعة على الضفة الشرقية لنهر الشريعة ، فطردوا الحاميات التركية من الشوبك والكرك وعمان ، ودخلوا درعا ، وكللت أعمالهم الحربية بعد معارك دامية بدخولهم دمشق حيث حياهم الشعب السورى تحية حارة ، وقابل قائدهم الامير فيصل مقابلة المنقذ المحرر الظافر

أمثلة من فروسية العرب

ولا يتسع المجال لوصف هذا الزحف الحربى وصفا مسهبا ، واثبات ما عاناه الثوار العرب من مشقات وصعاب فى تلك المعارك التى خاضوا غمارها ، فكثيرا ما كان سلاحهم الوحيد السيف فقط ، مضافا اليه ايمانهم بعدالة القضية التى يحاربون من أجلها ، وكثيرا ما اندفعوا الى الميادين بعدد قليل من الرجال فتغلبوا على قوة تفوقهم عشر مرات

فان أعمال الفروسية والشجاعة والاقدام التى قام بها العرب فى ثورتهم الكبرى لجديرة بأن تدون بأحرف من نور فى جبهة التاريخ ، وأن تصاغ فى وصفها درر القصائد ولكن مؤرخى الافرنج لم يوفوا أولئك الابطال حقهم من الثناء ، ولم يقم بعد بين مؤرخى العرب من يخرج لقومه « الياذة » جديدة يصف فيها فضل أولئك الذين وضعوا الحجارة الاولى فى بناء الاوطان العربية

أتعلم يا رعاك الله ان الشريف ناصر بن على تغلب على عشرين حامية أو أكثر من حاميات الترك بعدد من الرجال لم يزد فى يوم من الايام عن مائتى فارس ؟

أتعلم ان شيخ الحويطات ، عودة أبو تايه ، استولى على « العقبة » وبدد معسكر الترك فيها على رأس قوةمؤلفة من خمسين فارسا فقط ؟

أتعلم ان العرب استولوا على « الطفيلة » ،وفتكوا بحاميتها فتكا ذريعا وكان عددها أضعاف

عددهم ، وان زيدا أخا فيصل كان يقود فى تلك المعركة قوة لا تزيد عن مائتى فارس ؟

أتعلم ان الشيخ طلالا ، شيخ طفس ، قد هاجم وحده جيشا تركيا ، وسقط عن جواده مصابا بمائة رصاصة ـ وان الكولونيل لورنس الشهير قد أفرد له فصلا خاصا فى مذكراته يصف فيه ذلك البطل المغوار

***

هذه أمثلة لفروسية العرب وجهودهم فى مساعدة الحلفاء فى الحرب الماضية ، وهى تدل على ان الثورة العربية فى سنة ١٩١٦ كانت للحلفاء عونا عظيما لادراك النصر ، وانه لولا العرب لطال أمد تلك الحرب الى ما يعلم الله

حبيب جاماتي

الحقوق القومية ومكارم الاخلاق

صن حقَّ قومك ، واحتفظ بولائهم   وامدُد لنُصرتهم اذا ظلموا يدا
واعكف على الصنع الجميل ، وكن فتى   يرضى الصنيعَ مغيبهُ والمشهدا
ودع الاساءة ، فالموفقُ من طوى   هذا الوجود فما أساء ولا اعتدى

آثر الادب فى أخلاق الشعوب

شمرتُ للشعر أبنيه ، وأرفعه   على عماد من الاخلاق منصوب
وإنما الشعرُ ما تجلى فرائدُهُ   على العذارى ويتلى فى المحاريب
القول يعمرُ أخلاق الشعوب اذا   عفَّ اليراعُ ويرميها بتخريب
لا تأمنُ الموت فى أخلاقها أممٌ   جم تقلبُها فى المنطقِ الوبى
لو كنتُ في زمن (الكندى) ماذهبت   منه الأوابدُ فى لهو وتشبيب
المرء يكتبُ والآثارُ باقية   فاذهب على أثر للمجدِ مكتوب
لم يُعطكَ اللهُ ما أعطاك من أدب   إلا لأمر جُسام منك مطلوب

طلال : شيخ طفس

مصرع بطل عربي كما يصفه الكولونيل لورانس

فيما يلي تعريب فصل من كتاب لوبل توماس عن الثورة العربية وفيه وصف مصرع البطل العربي الشيخ طلال بقلم الكولونيل لورانس نفسه

بينما كان جيش اللنبي يتقدم لاحتلال دمشق أخذ جيش لورانس العربي يقوم بمناوشات حملت الاتراك خساراً شديداً ، فقد كان لورانس يراقب فرق الاتراك المنتشرة على الطريق فلا يلبث أن يقضي عليها حتى لا يكون أمام جيش اللنبي عائق يحول بينه وبين زحفه . وفي أحد الأيام جاءت طائرة انكليزية تخبره بوجود فرقتين احداهما مؤلفة من ستة آلاف جندي آتية من درعا والأخرى مؤلفة من الفي جندي آتية من المزيريب . وكان على لورانس أن يترك الفرقة الأولى تمر من غير أن يتعرض لها لأن رجاله لا يبلغون الالف وقد تمكن من قطع الطريق على الفرقة الثانية بالقرب من طفس وأرسل فرقة الخيالة لتحيط بالاتراك من جهة حوران . وقد وصل الاتراك الى طفس قبل لورانس بوقت قليل وجعلوا عاليها سافلها

وقد وصل طلال شيخ طفس الذي رافق لورانس منذ بدء الحرب حتى النهاية وشاهد تلك المشاهد المؤلمة فثارت حماسته وحميته

ومضت على الحرب العامة عدة سنوات واذا بصديق للورانس يتزوج ، وقد اعتذر لورانس اليه لأنه لم يتمكن من أن يقدم اليه هدية تناسب المقام فطلب منه هذا الصديق بضع صفحات من مذكراته كهدية ليوم زواجه فاضطر لورانس أن يقدمها اليه ، وقد نشر هذا الصديق مذكرات لورانس في صحيفة أميركية فاذا بها حادثة مقتل طلال شيخ طفس . وهاك ما يقوله لورانس عن هذه الحادثة :

« لقد تركنا هناك عبد المعين والجثث الاخرى التي أصبحنا نراها بوضوح عند مطلع الشمس فاذا بها جثث رجال ونساء وأربعة أطفال كانت ملقاة على الطريق ، ثم تقدمنا من القرية الساكنة سكون الموت لنشهد مناظر تدل على ظلم الانسان لأخيه الانسان

لقد كان أول شيء تعرض لأنظارنا شيئاً أحمر يعلوه البياض ، وقد كان هذا الشيء جثة امرأة متدلية على حائط حظيرة للغنم تسمرها في الحائط حربة تظهر بين ساقيها العاريتين . لقد كانت

المرأة حبلى وكان يحيط بها عشرات الجثث لنساء ذبحن وكلهن مكشوفات عاريات بصورة تشمئز منها النفوس

وقد رن فى أذنى أمام هذا المنظر المؤلم ضحكة لا أنساها ولا أتمكن من وصفها ، فلم أملك نفسى ازاء ذلك فألويت عنان فرسى وصحت بالرجال ليتبعونى لمطاردة القتلة

وكان طلال واقفاً يشاهد ما حل بقومه فصاح كحيوان مذبوح ولم يلبث أن ولى الى مكان عال . وبقى هناك وقتاً طويلا يراقب الاتراك من مكانه فتحركت أريد التحدث اليه فأمسك بى عودة أبي تايه ومنعنى من ذلك . ولم يمض بضع دقائق حتى ملك طلال نفسه على ما يظهر فأسدل كوفيته على وجهه وأطلق عنان فرسه لينحدر بسرعة جنونية متجهاً نحو الاتراك

ولم يلبث طلال حتى وصل الى أسفل الربوة ولا يزال فرسه يركض بسرعته الجائلة وقد منعنا عن اطلاق النار كما امتنع الاتراك عن ذلك ، وكان الجميع ينظرون الى طلال وهو يطير بفرسه فى المساء القاتم بعيون ملؤها الدهشة وحينما أصبح على بعد قليل من الأتراك انتصب على صهوة الفرس وصاح بصوته المخيف الذى تعودنا سماعه عند هذه المعامع « طلال ، طلال » فصوب الاتراك اليه بنادقهم ورصاصهم ولم يلبث أن هوى أمام نيرانهم الدافقة

لقد كان الهواء بارداً قاتماً وكان عودة يردد ليغفر الله له سيدفعون الثمن غالياً وغالياً جداً ـ ثم سار ببطء يتبع الاتراك برجاله العطاش الى الدماء، ويقودهم للحاق بالفرقة المنهزمة وكان العرب يقاتلون بشجاعة فائقة وكان الغبار يعمى العيون ويمنعنا استنشاق الهواء . كما أن مراجل الحقد كانت تغلى فى صدورنا

وقد أخذ حب الانتقام ينزع منا كل روية ودراية ولأول مرة منذ ابتداء الحرب تركت الجيش يعمل كما يريد »

هذا ما كتبه لورانس عن موت طلال شيخ طفس ذلك الرجل الذى كان أحد أولئك الشجعان الذين برزوا فى الصحراء العربية وهو وصف وفاه لورانس حقه كأحسن الكتاب ، ولكن الالمان تمكنوا فى تلك المعركة من الدفاع والهرب بجمال باشا قائد الجيش التركى ، وأما الفرقة التركية فقد قضى عليها العرب عن بكرة أبيها فان مذبحة طفس نزعت كل شفقة كانت باقية فى قلوبهم



فن المسرح بعد الحرب الراهنة

فى الغرب و بلاد الشرق العربى

بقلم الاستاذ زكى طليمات

مفتش شئون التمثيل بوزارة المعارف

الحرب هزة عنيفة تختلجها الانسانية من حين الى آخر فتتفتح عروقها لتفصد ، وقد تنزف فترمى بالزائد والطفيلى والمتضخم والناشز ، وقد تنزف كثيرا حتى يعتورها هزال تنشر على أثره نشورا جديدا . وفى أثناء ذلك يقف المجتمع متطوحا على رءوس الحراب وأفواه المدافع ، وعين له فى الماضى،وعين له فى المستقبل،ليرى أوضاعا فيه تتقوض وتنهار ، ونظما تتطور أو تخرج عن محاورها ، وينبرى الفكر مراجعا متطلعا يعمل ويكد ، وهو يستقبل عناصر حياته الجديدة التى ينشىء عليها قيمه وأوضاعه المستحدثة ، وهو فى ذلك مسير لا مخير

تأثير الحرب فى المزاج العام

وان شئت فقل ان أثر الحرب فى تكييف المزاج العام فى المجتمع أمر مقطوع به ، وحقيقة سجلها تاريخ الاجتماع منذ الازمنة البعيدة . ولو تقصينا آثارها فى مختلف العهود لما فرغنا منها

والمزاج العام هو ، من ناحية صفحة من واعية الانسانية ، ومن ناحية أخرى ، هو صورة مما يحفل به المجتمع فى عهد من العهود ويروقه

ومن هذا المزاج العام تصدر الايحاءات التى تعمل على تغيير نظام المجتمع ، وتأتى الاتجاهات التى تبدل من مظاهر تفكيره ، فالمزاج العام ، والحالة هذه ، هو المعين الذى تخرج منه المؤثرات التى تطبع المجتمع بطابع خاص

أين يستقر المزاج العام

ولكن أين يستقر المزاج العام بعد أن تضع هذه الحرب أوزارها ، وما عسى أن ينزل بالفنون عامة ، وبفن التمثيل خاصة ، من تغييرات فى أوضاعها واتجاهاتها ؟

الحرب القائمة صراع عنيف بين عقيدتين تسودان أكثر ممالك العالم فى هذه الآونة ، وأعنى بهما الدكتاتورية والديمقراطية ، ولكل من هاتين العقيدتين فلسفتها التى تقوم عليها

ولا بد من أن تصرع احداهما الاخرى ، والذى يعنينا فى هذا ، أن نقرر ان العقيدة التى سيكتب لها الفوز فى النهاية سيكون لها أثرها فى تكييف ناحية من نواحى المزاج العام فتفرض عن طريقه ، طابعها على المجتمع فى نظمه وفى دساتيره وفى اتجاهاته الادبية والفنية

الاتجاه الاجتماعى للمسرحية

(١) المسرحية المقبلة ستعنى أول ما تعنى برسم المبادىء الفلسفية والاجتماعية للعقيدة التى يكتب لها النصر ، كما ستعمل فى الوقت نفسه على الانتقاص من قدر العقيدة المهزومة ، فمسرحية الغد ستكون فى أول أمرها بوقا لترويج مبادىء العقيدة المنتصرة ، لا سيما فى البلاد المغلوبة على أمرها • وستكابد هذه البلاد محنة من هذا التيار قد تطول ، وقد تقصر ، بقدر ما تستوعبه طاقتها القومية الاصيلة • وقد يعقب هذا رد فعل حينما تستعيد هذه الامم يقظتها

(٢) فمسرحية الغد ستكون فياضة بروح العقيدة المنتصرة كما ستجد الاشتراكية بعد الحرب حقلا خصبا فى الرواية التمثيلية واشتراكية بعد الحرب ستكون ذات طابع خاص يسمو على تطرف الشيوعية وجور النازية والفاشية

(٣) والى جانب هذا اللون من المسرحية سيقوم لون آخر فيه دعاية للسلم ولاقرار السلامة الاجتماعية دعامته ذم الحروب والسخرية منها ، وهدفها التصافى على أنقاض الحرب الماضية القريبة الملوثة بالدم

(٤) وسيكون للمسرحية التاريخية شأن فى الممالك المقهورة ، وهى الممالك التى سيقضى عليها سوء الطالع بأن تفقد كيانها اما باستقطاع مقاطعات منها أو باندماجها فى غيرها من الممالك الكبيرة المنتصرة

ستكون هذه المسرحيات التاريخية للامم بمثابة الغذاء القومى الذى تستمد منه الجلد على مواصلة كفاح مشروع ضمن الوسائل التى تملكها

وسيغلب العنصر الفكاهى على أكثرية المسرحيات ، فيكون ازدهار للمسرحية المضحكة ، وسيزداد عنصر المأساة ضعفا على ضعف فى المسرحيات ، ولكنه لن يبيد لانه أصيل فى النفس مركوز فى الطبع • ومأتى هذا الازدهار المقبل للمسرحية الفكاهية رد الفعل الذى تحدثه وستحدثه مآسى هذه الحرب وملحقاتها

المذهب الادبى للمسرحية

ولمآسى هذه الحرب وقسوتها سيكون أكبر الاثر فى عدم الاخذ (بالمذهب الواقعى) فى كتابة المسرحية ، وهو مذهب تسجيل الحياة الواقعية بتفاصيلها وذلك عن طريق النسخ والتحليل والتجزئة والتفصيل (analyse) ، وقبل هذه الحرب قطع الادب المسرحى ،

لدى أكثر مؤلفيه ، مابينه وبين (الواقعية) وذلك فى أوائل القرن الحاضر ، فكان أن اتجه المزاج العام الى أن يعالج ما يريد تسجيله بالقلم وبريشة المصور وبمرقم النقاش على أساس الاجمال والتركيز (synthèse) ، والايحاء ، والرمز ، والتلويح ، فكان أن قامت مذاهب أدبية منها : (الرمزية) و (الايحائية) و (التأثرية) و (التعبيرية) ولكل من هذه المذاهب وسائلها الخاصة فى التعبير الحسى والمعنوى عن الاشياء والعواطف

ولا شك فى ان مسرحية بعد الحرب ستنزع عن هذه المذاهب ريثما يعمل التخريج والتوليد عمله فى تكييف مذهب جديد ، أو تحوير بعض من هذه المذاهب على الوجه الذى يتفق وروح العصر المقبل ومزاجه العام ، وهو مزاج سيتأثر بالسرعة وبالتقدم الآلى وما يتبعهما فى تغيير وجهة النظر الى المرئيات

الصيغة الفنية للمسرحية

والاسلوب والسياقة والحبكة الفنية فى كتابة المسرحية ، كل هذه ستتأثر تأثيرا كبيرا بعامل السرعة والمفاجأة ، وهى العنصر الاول فى هذه الحرب ، وقبل ذلك ، أى عقب الحرب العظمى الماضية فرضت السرعة شرعتها على فنون التمثيل ، فكان أن صغر حجم المسرحية وقل كلامها مع تعدد فى مشاهدها وانسياقها فى ايقاع سريع

والسرعة فى هذه الحرب بلغت شأوا بعيدا لم تبلغه فى الحرب الماضية ، فمصير المسرحية من هذه الناحية لا يكاد يخفى عن المتأمل

وقد تسود الرواية ذات الفصل الواحد أكثر المسارح ، وهى رواية سيلاحظ فيها ايراد أكبر الاثر فى أقصر زمن ، وهكذا تكون المسرحية فى صياغتها خطوطا سريعة حاذقة لرسم حالة نفسية يريدها المؤلف ، وتأثير هذا فى الصياغة والاسلوب سيكون كبيرا ، اذ يعمد المؤلفون الى التركيز فى الاسلوب ما استطاعوا ، والى اعلاء الجوهر دن غير تمهيد أو تقديم ، والى اصابة الهدف بأسرع ما يمكن ، وعلى غير انتظار ، وبهذا تصبح الحبكة المسرحية معقدة معتسفة بزف المشوقات والمفاجآت فى نفس واحد ابتغاء هز الجمهور واثارة أعصابه عن طريق السرعة والمفاجأة ، وهذه حال ستضفى على المسرحيات الجديدة طابعا مما نسميه الآن حيف الصنعة ، اذا أخضعنا هذه المسرحيات للمقاييس والقيم الفنية التى تسود اليوم عالم التأليف المسرحى ، ولكن : هل تبقى هذه القيم والمقاييس بعيدة عن التحور والتغيير ؟ • لا — ستتحور ، ولكنها فى تحويرها لن تخرج عما تقضى به النفس البشرية ومخيلتها المبتدعة ، فتتألف ولا شك (فنية جديدة) لهذه الروايات

والى جانب هذه المسرحية القصيرة المعتسفة ذات الفصل الواحد ، سيقوم صنف آخر قوامه المشاهد القصيرة المتعددة التى تجرى فى سياقة سريعة ، وعرض منطلق ، مسجلا لمحات عابرة من ألوان الحياة ، ارادة مجاراة الروايات السينمائية فى تعدد مناظرها وانطلاق

مشاهدها . ولكن قيام هذا النوع ثم انتشاره ، رهين بوجهة النظر التى سيجرى عليها رجال المسرح فى انهاض فن التمثيل

وجهة النظر الجديدة فى إنهاض المسرح

فاذا اتجهت وجهة النظر مرة أخرى ، كما جرى ذلك فى السنوات التى تلت الحرب السابقة بغير نجاح كبير ، نحو منازلة السينما فى أرضها وذلك بمحاولة تقريب المسرحية الى الرواية السينمائية عن طريق تعدد المشاهد وتوالى المناظر ، واحياء الحركة السريعة التى هى عماد الفن السينمائى ، اذا اتجهت الآراء نحو الاخذ بهذه النظرية فلا شك فى ان المسرحية المتعددة المناظر سيكون لها شأن كبير

أما اذا أخذت وجهة النظر ناحية أخرى ، وهى منازلة الفن السينمائى عن طريق ارجاع فن التمثيل الى جوهره الاول الذى كفل له الازدهار السابق ، وذلك على أساس اعلاء عنصر الحوار والخيال والكلم المنمق ، فان المسرحية ذات المشاهد المتعددة لا يكون لها نصيب من الرواج

وسيكون هم رجال المسرح اذ ذاك تكييف المسرحية والمسرح على وجه يضفى عليهما طابعا لا يمت بشىء الى الفن السينمائى ، فالمنتظر والحالة هذه أن ينزل بالمسرحية وفنون المسرح انقلاب شبيه بما أنزله المصورون والرسامون بفنون التصوير والزخرفة فى السنوات الاخيرة حينما بلغت (الفوتوغرافية) مبلغا رائعا من التقدم استطاعت معه أن تورد لوحات ملونة تحاكى الطبيعة ، وذلك فى أقصر وقت ، وأزهد تكاليف ، وبهذا أصبح نتاج التصوير والزخرفة شيئا فيه طرافة لا تقدر العدسة المصورة على تسجيلها

آلية المسرح وحرفيته يتوقفان على الاتجاه الجديد

وعلى النظرية التى سيأخذ بها رجال المسرح تتوقف الناحية الحرفية والآلية والفنية لبناء المسرح وتجهيزه وانشاء المناظر ، وقطع الملابس الخ ..

ومن حيث ان التقدم الآلى سيبلغ شأوا بعيدا بعد هذه الحرب التى أساسها الآلة والميكانيكا ، ومن حيث ان تسخير القوى المحركة سيتم بأبسط الوسائل وأيسر التكاليف ، فلا شك فى ان رجال المسرح سيحاولون فى أول الامر مجاراة السينما ومنازلتها بوسائل آلية جديدة تفوق الوسائل السابقة ، هذه الوسائل التى مكنت رجال المسرح من انشاء (المسرح الدوار) و (المسرح المتحرك) و (المسرح ذو المصاعد) ، وهى مسارح يسرت للمخرجين أمر تقديم مناظر تمثيلية متتابعة مرة واحدة ومن غير ان يسدل الستار

مسرح ناطحة السحاب

أرى ان من مسارح بعد الحرب ما سيكون أشبه شىء باحدى ناطحات السحاب التى

تألف من مائة دور فما فوق ، وسيقسم هذا البناء الى ثلاثة أقسام رئيسية : جناحين ، وقسم متوسط ، ويكون القسم المتوسط متحركا ، له آلية مصعد كبير (ascenseur) ، وفيه يجلس جمهور النظارة بحيث تكون وجوههم شطر أحد الجانبين ، الايمن أو الايسر

أما الجناحان فيتألف كل منهما من مسارح (١) صغيرة الواحد فوق الآخر بعدد أدوار ناطحة السحاب

أما المصعد فيكون حجمه كبيرا بحيث يسع العدد المعهود الذى تسعه صالة احدى دور التمثيل ، وسيكون جانبا هذا المصعد ـ وذلك من الناحيتين اليمنى واليسرى ـ على آلية يستطاع معها تحريك هذين الجانبين ، بحيث يرتفع كل منهما على انفراد فينكشف الجانب الذى يطل على أحد جناحى ناطحة السحاب ، وفيه أنشئت المسارح (les scènes) الواحد فوق الآخر كما سبق الذكر ، وعليها يعمل الممثلون ويجرى التمثيل

وعلى النحو الآتى يجرى نظام العمل فى هذا المسرح : ـ

(١) يجهز من هذه المسارح الصغيرة العدد المطلوب لجميع المناظر التى تتضمنها الرواية ، فيكون كل مسرح فيها مؤثثا بالاستار والمهمات التى تتطبق والصبغة المحلية والفنية للمشهد التمثيلى ، ويكون كل واحد من هذه المسارح مكملا لسابقه من حيث سياق الرواية وترتيب مشاهدها

(٢) اذا ما استقر النظارة فى المصعد ، بحيث تكون وجوههم الى الجانب الايمن ، ارتفع هذا الجانب فيرى الجمهور واجهة المسرح رقم (١) بالدور الاول ، فاذا ما انتهى التمثيل فيه ، ارتفع المصعد الى الدور الثانى من الرواية ، وهكذا ، وعلى هذا النحو ، يرقى المصعد حتى الى الدور الذى يكون عدده موازيا لنصف عدد مناظر الرواية مثلا

(٣) واذ ذاك يهبط جانب المصعد الذى كان مطلا على مسارح (الجناح الايمن) من الناطحة ، ويرتفع الجانب الذى يقابله ، وهو الجانب الذى ينفتح على مسارح (الجناح الايسر) ليرى الجمهور ، والمصعد يهبط ، صفا جديدا من المسارح المتتابعة الواحد تحت الآخر

(٤) ويمكن معاودة الكرة مرة ثانية ، اذا لزم الامر ، وكانت الرواية على مناظر يتجاوز عددها عدد ضعف أدوار ناطحات السحاب

ويقضى هذا النظام بأن تكون مقاعد الجمهور ـ وذلك فى المصعد ، من نوع يدور بمجرد ارادة الجالس عليه ، وبذلك يمكن للجمهور أن يدير مقاعده الى الناحية التى يجرى فيها التمثيل من غير أن يترك مكانه

---

(١) المقصود بكلمة مسرح فى هذا الصدد هو المكان الذى يجرى فيه التمثيل ويظهر عليه الممثلون ، ويعبر عنه فى الفرنسية بكلمة (La scène) وهذا بخلاف كلمة (دار التمثيل) وهى تساوى كلمة (Théâtre) ، وتشتمل على المسرح وعلى الصالة التى يجلس فيها النظارة

وبناء دار للتمثيل على هذا النحو يكلف مبالغ كبيرة ولا شك ، ولكنه أمر مستطاع يحقق حلما جديدا لرجال المسرح ، ويمدهم بوسائل لم تكن فى الحسبان ، يستطيعون معها مجاراة الفن السينمائى فى ايراد عدد كبير من المناظر المتتابعة فى وقت قصير

المسرح الطائر ؟

ولماذا لا يكون هناك مسرح طائر ، وفن الطيران فى تقدم مستمر ؟

انى أتخيل طائرة جبارة ، أو بالونا ، مثبتا فى الجو يجلس فيه نظارة المسرح ليستقبلوا التمثيل ومناظر الرواية على ظهور طائرات أخرى ، تشتمل كل واحدة منها على منظر من مناظر الرواية ، وترتفع الى مستوى نظر الجالسين فى الطائرة الجبارة ، وعلى بعد ييسر لهم أمر الرؤيا والسمع ، فاذا انتهت كل طائرة من (تفريغ) تمثيلها أخلت مكانها للاخرى ويجرى تتابع هذه الطائرات المسرحية بحسب سياق المسرحية وتوالى مشاهدها . ويشترط فى هذه الطائرات أن تكون مجهزة بمكبرات للصوت ، وأن تكون على آلية تقضى على أزيز محركاتها ، وهذا أمر منتظر ، لان التقدم المرموق لفن الطيران سيحقق ، ضمن ما يحقق ، القضاء على الصوت الذى تحدثه عادة محركات الطائرة

المسرح الأصيل

انى ممن يعتقدون بأن رجال المسرح لن يطول أخذهم بنظرية مجاراة السينما ومنازلتها بوسائلها ، وانهم لا بد سيأخذون بنظرية انهاض المسرح عن طريق ارجاعه الى جوهره الاول ووسائله الاولى ، مع محاولة تقريبه الى روح العصر الحديث ، فيكون المسرح للمسرح وليس للسينما ، ويكون المسرح شيئا له طرافته التى يتعذر على السينما أمر اتيانها والتبرز فيها

بهذا يقضى المنطق السليم ، وعلى ضوء هذه النظرية يستقر الفن التمثيلى فى نصابه الاصيل ، فيصبح المسرح للكلم العالى ، وللحوار المنمق وللبساطة الفنية ، وللايحاء البليغ ، وللتوليح الذى يشحذ الذكاء ويثير المخيلة ، ويبعث المتعة الذهنية الخالصة ، وأخيرا للحياة التى يشع منها الدفء والتى تتسامى على أن تجعل من أهلها – وهم الممثلون والممثلات – تروسا وعجلات فى آلة ، اذا انقطع عنها تيار الكهرباء غدت صامتة كالحجارة !

وفى هذا المجال ستصبح البساطة دعامة أساسية فى فنون المسرح ، فتشمل بناء المسرح وتهيئته من حيث الاستار المسرحية والاثاث ، وسائر المهمات ، ويغدو التركيز والاجمال (la synthèse) (١) شرعة لا محيص عنها

---

(١) التركيز هو عكس التحليل

فن الممثل

وهو فن الأداء التمثيلي فسيكون للحركة والاشارة فيه المقام الاول ، وذلك بحكم ان الاصل المكتوب للمسرحية ـ كما سبق الذكر ـ مركز مضغوط ، أخذ التلميح فيه مكان التصريح ، فلا غنى للممثل عن الاستعانة بالحركة والاشارة ليكمل بهما مجرى العاطفة المرسومة فى عبارات مقتضبة ضيقة قد جفاها الاشباع اللفظى فى التعبير

وستسود السرعة القاء الممثل ليماشى الايقاع السريع الذى قامت عليه حوادث الرواية وسياقتها ، وليقيم الوحدة الفنية بين فن الالقاء وفن تأليف الرواية ، واذا سادت السرعة القاء الممثل ، تعذر عليه تلوين كل عبارة بكامل ألوانها وتفاريقها عن طريق النغمات الصوتية ، فيعمد بدوره الى التركيز فى التعبير ـ وذلك عن طريق ايراد هذه النغمات ـ والتركيز فى التعبير الصوتى أن يتجاوز الممثل عن الاهتمام بايراد تعبير كامل للعبارات الثانوية فى كلام دوره ، فيعبر بها عبرا ، ، حتى اذا انتهى الى العبارات الرئيسية نبه اليها وأكدها عن طريق الاشباع الصوتى فى التعبير

فى الشرق العربى

هذا فى أوربا وأمريكا ...

ومن أوربا تنساب عادة الى مصر خاصة والى بلاد الشرق العربى عامة التيارات الفكرية والاتجاهات الادبية والفنية ، وشأنها فى ذلك شأن الازياء

والاتجاهات الادبية والفنية ، ولا سيما الاخيرة منها ، وان وفدت مع غيرها ، فانها لا تلقى فى الشرق ما يوطد أركانا لها ويركز أصولا ، لانها من نتاج مزاج وذهن لا يتفقان تمام الاتفاق مع مزاجنا ومع الذهن المصرى ، كما ان الادب ، وان كان غذاء لدى صفوة الجمهور ، فان الفنون عامة ، وفن التمثيل خاصة ، ما زالت نوعا من الترف لا زيادة ولا نقصان ، والترف أمر ثانوى ، وان سهل التقليد فيه ، فليس فيه ما يستحث الناس على متابعة تطوراته لونا فلونا . فها نحن أولاء فى عام ١٩٤٠ وما برح المسرح المصرى يصدر فى الاكثرية الغالبة من نتاجه عن قيم وأوضاع قديمة ، أكثرها مما كان سائدا فى أوربا قبل الحرب العظمى الماضية ، وأقلها ما أتى بعد ذلك . وهذا القليل ما زال مضطربا سقيما . ودار الاوبرا الملكية ، وهى من عناوين الحركة المسرحية المصرية ، ما زالت خاضعة فى دولابية مسرحها ، وحرفية اضاءتها ، وانشاء مناظرها ، وقطع ملابسها، الى ما لفظته المسارح الاوربية الحديثة منذ ربع قرن ويزيد . فنحن والحالة هذه ، على ما بيننا وبين أوربا من الاتصال الوثيق ، لم تتطور فى مسرحنا التطور الواجب الذى يصح أن يماشى ما هو جار فى مسارح لندن وباريس وبرلين !

والمرجع الاول والاخير فى هذا ، ان فن التمثيل ليس أصيلا فى المجتمع المصرى .

وعلى الرغم من الجهود التي بذلها كتاب المسرحية العربية والمصرية ، لم يصبح التمثيل بعد شعبة من الادب العربي المستحدث ، ولم يحظ باقبال الجمهور الذي ينشد المتعة الذهنية الخالصة والغذاء الروحي الذي لا غنى عنه • فن التمثيل في مصر وفي بلاد الشرق العربي ، كما قلنا ، ترف ، وهو أيضا لون من التسلية

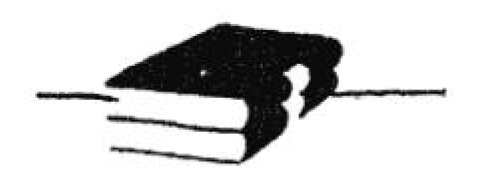
لهذا أرجح ان التيارات الخاصة بصناعات المسرح وفنونه ستفد متأخرة الينا • ولئن أفلت بعض منها ، بحكم الاتصال القائم بيننا وبين الشاطىء الآخر من البحر الابيض ، فلن نحسن تطبيقه ، وسنقنع منه باقتباس العناوين ، وشأننا في هذا شأننا في كثير مما أخذناه حديثا عن أوربا

أضف الى ما تقدم ان الفن السينمائي يخطو خطوات واسعة مفتتحا حقولا جديدة لنشاطه مجتذبا اليه قلوب السواد الاعظم من الناس ، لانه فن شعبي عام • وهذا الفن سيزاحم أكثر من ذي قبل الفن المسرحي في مصر منزلا به كسادا أمر مما يكابده الآن ولئن استطاع المسرح الاوربي أن يصمد أمام غزوات السينما ، فلان التمثيل هناك مستقر في الطبع مركوز في النفس ، يؤلف شعبة هامة من الادب القومي العام ، وفي مصر الامر على عكس ذلك كما قررنا

أما من جهة المسرحية العربية والمصرية فستتأثر ولا شك بخصائص العقيدة السياسية التي سيكتب لها النصر في هذه الحرب وستتطور المسرحية في صنعتها وفي أسلوبها بالكثير مما أشرنا اليه سابقا

وأرجح رواجا للغة العامية على حساب اللغة العربية في كتابة المسرحية ، لاسباب كثيرة أهمها ان الفترة التي تعقب الحروب تكون عادة فترة استرخاء تشوبها نزعة قوية الى الاستمتاع وتوخي اللذة الحسية • وفي مثل هذه الحال تميل النفس الى الاخذ بالسهل الهين الذي لا يجهدها ويكدها ، الى اجابة نداءات الغرائز والبدوات

زكي طليمات



من قصص الحرب والسياسة

قائد العصر الذهبي

بقلم الاستاذ طاهر الطناحي

وجلس المنصور - ثاني خلفاء بني العباس - على وسادة في مضربه بالرومية من «المدائن» ومعه وزيره أبو أيوب سليمان بن أبي سليمان ، وحوله بعض خاصته ، وقد سقط بين الاستبداد برأيه في قتل أبي مسلم الخراساني ، والمشورة فيه ، ثم قال لسالم بن قتيبة :

- ما ترى في أمر أبي مسلم ؟

- أرى أن يتجاوز له ويصفح عن ذنبه ، فهو قائد دولتك ، وزعيم دعوتك

- ولكنه سيف يخشى غدره ، ولا يؤمن جانبه

وأدرك سالم ما يريده المنصور ، فقال :

- نعم يا أمير المؤمنين ، ولا يصلح سيفان في غمد ، ولا الهان في أرض

- صدقت .. ثم ماذا ؟ ..

- ولو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ..!

- حسبك يا ابن قتيبة . لقد أودعتها أذنا واعية ، والله لا يكون فيها الا امام واحد ..!

ثم نظر المنصور الى كتاب ورد اليه من أبي مسلم يعاتبه فيه ، ويهدده بالخروج عليه ، ودفعه الى وزيره أبي أيوب ، وهو يقول :

- يمن علينا ابن الخبيثة بأنه أقام سلطاننا ، وعرفنا الى من جهلنا ، وجرد السيف في خدمتنا ، حتى استذل التوبة ، واستكر الرحمة ، وأبغض المعذرة ، وقتل ستمائة ألف صبرا . والله لو كانت مكانه أمة سوداء لفعلت مثلما فعل ، قتلني الله ان لم أقتله

وتناول أبو أيوب الكتاب وقرأه ، وتمتم بعبارة غير مفهومة ، ثم قال :

- انا لله وانا اليه راجعون . طلبت الكتابة حتى اذا بلغت غايتها ، فصرت كاتبا للخليفة ، وقع هذا بين الناس ..!

فقال المنصور :

- أوتنسى تأييده سرا لرأى أبي سلمة الخلال في مساعدة العلويين علينا ، وأخذهم الخلافة دوننا ، حتى كاد يستفحل أمرهم ، ويشتد خطبهم ، ثم ألا ترى كيف فتن الناس بنفسه وكادوا يعبدونه ، وظهرت في خراسان طائفة المسلمية تقول بخلافته ، وتؤمن امامته

ـ ولكننى أخشى يا أمير المؤمنين أن يثور عليك أصحابه ان قتلته

ـ لا تخف اذا آلت لنا الغلبة عليه ، فقديما عبد الناس الغالب ، وخدموا صاحب الجاه والمال

ـ ان أصحابه يؤثرونه على كل شىء سواه ...

ـ لا شىء يؤثره الناس غير المال .. سنوزعه عليهم ، ونكفى منه طمعهم ، ونشترى به أنفسهم ، فاحتل عليه حتى يأتى الينا

***

واحتال أبو أيوب على أبى مسلم حتى استقدمه ، وكان قد هم بالعودة الى خراسان بعد انتصاره على عبد الله بن على ، وأقبل على « الرومية » ومعه صحبه ورجاله ، فأسرع أبو أيوب الى أبى جعفر المنصور ، وقال له :

ـ هذا الرجل ، يدخل عليك العشية ، فماذا أنت صانع ؟

ـ أريد أن أقتله حين أراه ..!

ـ أنشدك الله ألا تفعل ، فانه يدخل ومعه الناس ، فان قتلته لم آمن البلاء ، ولكن اذا دخل عليك ، فأذن له أن ينصرف ليستريح ، فاذا غدا عليك رأيت رأيك فيه ، وأنزلت به ما تريد ...

فلما كانت العشية أذن لأبى مسلم بالدخول ، فرآه المنصور فنهض له من مجلسه وعانقه طويلا وأكرمه ، ورحب به وأجلسه ، وبعد حديث ودى قصير ، قال له :

ـ يا عبد الرحمن .. ان للحرب بلاء ، وللسفر عناء ، وللطريق مشقة ، فاذهب وأرح نفسك الليلة ، ثم اغد على فى الصباح

فانصرف أبو مسلم ، وانصرف الناس ، ولكن لم ينصرف عن المنصور حقده على أبى مسلم وما أضمره من الغدر به ، والفتك بنفسه . وشغلته هذه الحال طول الليل ، فلم يهدأ له فكر ، ولم يغمض له جفن ، ولم يطمئن به مضجع ، حتى اذا فنى الليل ، واحمر وجه الأفق وأطلت الشمس من المشرق ، جلس المنصور فى مضربه ، وبعث الى وزيره أبى أيوب فأقبل مسرعا ، وحياه ، فلم يرد التحية ، فأعادها عليه ، فلم يجبه ، فأوجس منه خيفة ، وسكت قليلا ثم قال :

ـ يحفظ الله الامير .. ما باله لا يجيب .. هل من أمر أهمه ، أو من حادث أغضبه ؟

فقال المنصور :

ـ وأى أمر أهمنى غير قتل أبى مسلم ، وأى حادث أغضبنى غير ما فعلته أمس .. فانك منعتنى من قتله ، وأسلمته للحياة . وما كنت آمن ما يحدث منه اذا بقى ساعة حيا ، فما بالك ، وقد تركته ليلة كاملة قائما على رجليه ..!

فسكت أبو أيوب ، وأعجزه الخوف عن الجواب .. وبعد هنيهة قال المنصور :

ـ يا أبا أيوب ادع لى عثمان بن نهيك رئيس الحرس

فدعاه له ، فلما حضر ، قال له :

ـ كيف بلاء أمير المؤمنين عندك يا عثمان ؟

ـ انما أنا عبدك يا أمير المؤمنين . والله ان أمرتني أن أتكيء على سيفي هذا حتى يخرج من ظهري لفعلت ..!

ـ وكيف أنت ان أمرتك بقتل أبي مسلم ؟..

فوجم عثمان ساعة لم يحر فيها جوابا ، ولم تتحرك منه شفة ، فقال المنصور في صوت رهيب :

ـ ما بالك يا عثمان لا تتكلم ، أجبني : كيف أنت ان أمرتك بقتل أبي مسلم ؟

ـ أقتله.. أقتله .. نعم أقتله لاجلك يا أمير المؤمنين ، ولو أمرتني بقتله ثلاث مرات لفعلت ..!

ـ انطلق اذن ، فجئني بأربعة أشداء من وجوه الحرس

فانصرف عثمان ، وبعد قليل عاد بأربعة من رجاله ، فقال لهم المنصور :

ـ كيف أنتم اذا أمرتكم بقتل أبي مسلم ؟ ..

فقال الجميع في صوت واحد :

ـ نقتله .. نقتل عدو الله ، وعدو أمير المؤمنين ...

فقال المنصور :

ـ قفوا خلف ستار المجلس ، فاذا دخل أبو مسلم عندي ، فارتفع صوتنا بالحديث ، فلا تخرجوا ، فاذا صفقت بيدي ، فاهرعوا اليه ، واقتلوه

فأجابوا :

ـ سمعا لامير المؤمنين وطاعة ..!

***

كان أبو مسلم الخراساني قائد الدولة ، وزعيم الدعوة العباسية ، اختاره ابراهيم لامام رئيسا للشيعة في خراسان ، وكان شابا يافعا ، قوي الشكيمة ، واسع الحيلة ، عظيم الدهاء ، وقد عقد له الامام الزعامة على لواء يدعى «الظل» وراية تدعى «السحاب» وخرج بمن معه الى خراسان فنزل في دار سليمان بن كثير أحد كبار الشيعة العباسية بقرية سفيذنج سنة ١٢٩ هـ فالتف حوله الناس ، وهزم « نصر بن سيار » عامل الأمويين ، وفتحت جيوشه بلاد الفرس والعراق ، وأقام أبا سلمة الخلال ـ حفص بن سليمان ـ واليا على الكوفة بعد فتحها ، فلما وصل اليها أبو العباس وأبو جعفر وآلهما فارين من وجه مروان بن محمد بعد قتله لاخيهم ابراهيم الامام ، أنزلهم دارا بالكوفة، وكتم أمرهم شهرين ، حتى اتهم بأنه يريد بذلك أن يبايع للعلويين دون العباسيين ، لانه يؤثرهم بالخلافة . وقد عرفها أبو العباس السفاح لأبي سلمة بعد فوزه بالخلافة ، فتربص به الدوائر وأراد قتله ، لكنه كان يخشى مكانته عند أبي مسلم وصداقته له ، اذ كان كاتبا

لابراهيم الامام ، وكان يدعى وزير آل محمد ، وهو الذى أشار على الامام باختيار أبى مسلم لزعامة الشيعة فى خراسان

وذات يوم جلس أبو العباس يسمر مع أخيه أبى جعفر وبعض رجاله ، فذكروا ما صنع أبو سلمة ، فقال رجل من الحاضرين :

ـ ما يدريكم ، لعل ما صنع أبو سلمة ، كان عن رأى أبى مسلم ..!

فقال أبو العباس :

ـ لئن كان ذلك ، فانا أمام بلاء الا ان يدفعه الله عنا ..!

وتفرق المجلس ، فدعا أبو العباس أخاه أبا جعفر ، وقال له : « ما ترى ؟ » فأجابه « الرأى رأى أمير المؤمنين »

فقال أبو العباس :

ـ ليس منا أحد أخص منك بأبى مسلم ، فاخرج اليه حتى تعلم ما رأيه ، فليس يخفى عليك لو لقيته فان كان يرى ما يراه أبو سلمة ، أخذنا لانفسنا ، وان لم يكن استرحنا من الشك فيه

وعلم أبو مسلم بخروج أبى جعفر الى خراسان ، اذ كان أبو الجهم بن عطية وزير أبى العباس جاسوسه عليه ، وكان يكاتبه سرا ، فلما كان أبو جعفر من « مرو » على بعد فرسخين تلقاه أبو مسلم فى الناس ماشيا ، وحياه ، فقبل يده وركب معه ، حتى دخل المدينة ، فمكث ثلاثة أيام لا يخاطبه فى شىء . وفى اليوم الرابع قال له :

ـ ما أقدمك يا أبا جعفر الى خراسان ؟

فتكلم بكلام فطن منه أبو مسلم ما يريده ، فتظاهر بالنقمة من أبى سلمة ، وقال :

ـ فعلها أبو سلمة ، وحقت عليه كلمة الامام ، فقد أوصانى بقوله : « وأيما غلام بلغ خمسة أشبار فاتهمته ، فاقتله » وسأكفيكموه ...

ودعا بأحد رجاله ، وأمره أن يذهب الى الكوفة ، وأن يقتل أبا سلمة حيث وجده ، فذهب الرجل ، واختبأ له ذات ليلة فى الطريق حتى اذا خرج من قصر أبى العباس بعد سمره قتله ، وفر فى الظلام ، وشاع فى الناس أن الخوارج قتلوه

فعل أبو مسلم هذه الفعلة لينفى عن نفسه التهمة التى اتهموه بها من ميله للعلويين بعد مقتل ابراهيم الامام ، ولكن الدسائس ضده كانت تعمل فى قصر الخليفة لهدمه هو وأنصاره الفارسيين ، وزاد فى ذلك حسد أبى جعفر له مذ كان واليا على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان فى عهد أخيه ، وليس حوله من الاشياع ما حول أبى مسلم فى خراسان وما جاورها . وكان يخشى استفحال أمره ، وتفاقم خطره ، فأخذ يتحرش به ، ويدس له عند شقيقه ، ويحرضه عليه :

ـ لست خليفة ، ولا أمرك بشىء ان تركت أبا مسلم . ولم تقتله

ـ وكيف ذلك ؟

ـ والله ما يعبأ بنا ، ولا يصنع الا ما يريد

ـ اسكت يا أبا جعفر ، واكتمها ...

***

وأراد أبو مسلم الخراساني أن يحج بالناس سنة ١٣٦ فبعث الى أبي العباس يستأذنه، فلما بلغه الكتاب أرسل الى أخيه أبي جعفر ان أبا مسلم كتب يستأذن في الحج ، فاكتب الى أنت تستأذن في الحج بالناس ، فانك اذا كنت بمكة لم يطمع أن يتقدمك ، فكتب أبو جعفر الى أخيه بما أراد ، فأذن له ، وعلم أبو مسلم انه سيخرج معه للحج ، فقال :

ـ أما وجد أبو جعفر عاما يحج فيه غير هذا العام .. ولكن صبرا ..!

وبلغت هذه العبارة أباجعفر ، فدخل الى الخليفة ، وقال له :

ـ أطعني واقتل أبا مسلم ، فوالله ان في رأسه لغدرة

ـ وما تقول في جهاده ، واقامته لدولتنا ، وقضائه على عدونا

ـ والله لو بعثت سنورا مكانه لبلغ مثلما بلغ

ـ وكيف نقتله ؟

ـ اذا دخل عليك أتيت أنا من خلفه ، فضربته ضربة آتي بها على حياته

ـ وكيف تصنع بأصحابه الذين يؤثرونه على كل شيء ، وهم عشرة آلاف قد جاءوا معه من خراسان ؟

ـ لا تخف .. لا تخف .. سيؤول ذلك الى خير ..!

ـ لا .. لا .. يا أخي انني أخشى شرا .. كف الآن عن هذا الأمر ...

وسمع أبو جعفر لرأى أخيه ، وسار للحج مع أبي مسلم الخراساني ، فلما كانا بمكة تقدمه بالناس ، وصار لا يبالي بأبي جعفر ونفر بعد موسم الحج قبله ، وفي هذا الحين جاء أبا جعفر كتاب بموت أبي العباس واستخلافه مكانه ، فلما بلغ أبا مسلم كتب اليه يعزيه بأمير المؤمنين ، ولم يهنئه بالخلافة ، ثم لم يذهب للحاق به،ومقابلته ، فاشتد حقد أبوجعفر عليه ، وقال لوزيره أبي أيوب « اكتب اليه كتابا غليظا » فلما أتاه هذا الكتاب ، عاد فبعث اليه بتهنئته ، ثم أقبل عليه في الانبار يعتذر له عما فرط منه

تظاهر أبو جعفر بالرضى عن أبي مسلم ، وقربه وأكرمه ، اذ كان يريده وقتئذ لمحاربة ابن عمه « عبد الله بن علي » الذي أراد البيعة لنفسه بعد أبي العباس ، فخرج اليه أبو مسلم في جيش كبير وانتصر عليه ، وأخذ خزائنه ومتاعه ، ولم يبعث بها لأبي جعفر المنصور ، فأرسل اليه يقطين بن موسى ليطالبه بها ، ويحصي غنائمه ، فغضب أبو مسلم ، وقال :

ـ أأمين على الدماء ، خائن في الأموال ..؟!

وتكلم بكلام شديد في أبي جعفر ، ثم أرسل اليه هذا الكتاب :

« أما بعد ، فاني اتخذت رجلا اماما ودليلا على ما افترضه الله على خلقه ، وكان في

محلة العلم نازلا ، وفى قرابته من رسول الله (ص) قريبا ، فاستجهلني بالقرآن ، وحرفه عن مواضعه طمعا فى قليل قد تعافاه الله الى خلقه ، فكان كالذى ولى بغرور . وأمرنى أن أجرد السيف وأرفع الرحمة ، ولا أقبل المعذرة ، ولا أقيل العثرة ، ففعلت توطيدا لسلطانكم حتى عرفكم الله الى من كان جهلكم ، ثم استنقذنى الله بالتوبة ، فان يعف ، فقديما عرف به ، ونسب اليه ، وان يعاقبنى فبما قدمت يداى . وما الله بظلام للعبيد »

أرسل أبو مسلم هذا الكتاب الى أبى جعفر ، وخرج قاصدا خراسان يريد الثورة ، وخرج المنصور من الانبار الى المدائن ونزل بالرومية ، فوصله الكتاب بها ، وغضب غضبا شديدا ، وأمر أبا أيوب أن يحتال عليه حتى لا يدعه يفر ، فأوفد اليه أبا حميد المروروزى وقال له :

ــ قل له ان أمير المؤمنين رافع قدره ، وصانع به ما لم يصنع بأحد ان هو صلح وراجع، فان أبى أن يرجع ، فقل له : يقول لك أمير المؤمنين لست للعباس ، وأنا برىء من محمد ان مضيت مشاقا ولم أطلبك ، ولم أقاتلك بنفسى ، ولو خضت البحر لخضته وراءك ، ولو اقتحمت النار لاقتحمتها حتى أقتلك ، أو أموت قبل ذلك

فذهب أبو حميد ، وأبلغه ، فسخر أبو مسلم من هذا التهديد ، فقال أبو حميد :

ــ انك لم تزل أمين آل محمد يعرفك بذلك الناس ، وما ذخر الله عنده من الاجر فى ذلك أعظم مما أنت فيه من دنياك ، فلا تحبط أجرك ، ولا يستهوينك الشيطان

فأجاب أبو مسلم :

ــ ومتى كنت تكلمنى بهذا الكلام يا أبا حميد ؟!..

ــ انك دعوتنا الى هذا ، والى طاعة بنى العباس ، وأمرتنا بقتال من خالفهم ، وأهبت بنا من أرضين متفرقة ، وأسباب مختلفة ، فجمعنا الله على طاعتهم ، وألف بين قلوبنا بدعوتهم ، وأعزنا بنصرنا لهم ، ولم نلق منهم رجلا الا بما قذف الله فى قلوبنا من حبهم ، حتى أتيناهم ببصائرنا طائعين مخلصين . أفتريد حين بلغنا غاية منانا ، ومنتهى أملنا أن تفسد أمرنا ، وتفرق كلمتنا . وقد قلت لنا من خالفكم ، فاقتلوه وان خالفتكم ، فاقتلونى !

فلما سمع أبو مسلم هذا القول ، خشى الفتنة ، وأسلم نفسه الى القدر

***

نجحت حيلة أبى أيوب ، وعاد أبو مسلم الى المنصور بالرومية ، وكانت سنة ١٣٧ هـ فأكرمه ورحب به ، وأخفى تدبير غدره ، وصرفه فى اليوم الاول للراحة من عناء الحرب ، ومشقة السفر ، كما أشار عليه وزيره ، ثم كان اليوم الثانى ، وقد أعد له عثمان ابن نهيك رئيس حرسه وأصحابه الاربعة خلف ستار المجلس

ودخل أبو مسلم على المنصور وبيده سيف ، وعليه قباء أسود ، وتحته ثياب خز ، فسلم وجلس على وسادة لم يكن بالمجلس غيرها ، ووراءه القوم بسيوفهم مختبئين ، وكان

المنصور عابس الوجه ، جامد النفس ، ومرت بينهما فترة من السكون الرهيب ، ثم نظر المنصور اليه ، وقال :

ـ أخبرنى عن نصلين أصبتهما فى متاع عبد الله بن على ؟!

هذا أحدهما معى يا أمير المؤمنين ...

ـ أرنيه ...

فانتضى أبو مسلم السيف ، وناوله أبا جعفر ، فهزه بيده ، وقال : « هذا سيف عباسى ، لا سيف مسلمى » ثم وضعه تحت وسادته ، وأقبل عليه يعنفه ، فقال :

ـ أخبرنى عن كتابك الى أبى العباس تنهاه عن الموات(١) أردت أن تعلمنا الدين ؟!

ـ لا بل ظننت ان أخذه لا يحل ، فكتب الى ، فلما أتانى كتابه علمت ان أمير المؤمنين وأهل بيته معدن العلم

ـ وما تقدمك اياى فى طريق الحج ؟..

ـ كرهت يا أمير المؤمنين اجتماعنا على الماء ، فيضرذلك بالناس ، فتقدمتك التماس المرفق

ـ ولماذا قتلت سليمان بن كثير مع أثره فى دعوتنا ، وهو شيخ نقبائنا قبل أن ندخلك فى شىء من هذا الامر ، وقد أنزلك بداره فى خراسان ؟

ـ أراد الخلاف ، وشككت فيه ، فقتلته

ـ فقولك حين أتاك الخبر بموت أبى العباس لمن أشار عليك أن تنصرف الى ، تقدم فنرى من رأينا ، ومضيت ، فلا أنت أقمت حتى نلحقك ، ولا أنت رجعت الينا

ـ منعنى من ذلك ما أخبرتك به من طلب المرفق بالناس ، فقلت نقدم الكوفة ، فليس عندى لامير المؤمنين خلاف

ـ وجارية عبد الله بن على ، أردت أن تتخذها لنفسك !..

ـ لا ، ولكنى خفت أن تضيع ، فحملتها فى قبة ، ووكلت بها من يحفظها

ـ وما رأيك فى مراغمتك وخروجك الى خراسان .. أتريد أن تفر من وجهى ؟

ـ ظننت ان أمير المؤمنين قد دخله شىء ، فقلت آتى خراسان ، فاكتب اليك بعذرى

ـ وما قولك فى أبى سلمة الخلال .. ألم يصدر عن رأيك فى تأييده للعلويين

ـ يا أمير المؤمنين لم يقال لى هذا بعد حسن بلائى فى دولتك ، وجهادى فى نصرة آلك ، وفتكى بجيوش أعدائك ؟

ـ يابن الخبيثة ، والله لو كانت مكانك أمة سوداء لفعلت مثلما فعلت . وانما بلغت الذى بلغته بجدنا وبريحنا . ولو كان ذلك اليك ما أتيت شيئا ولا أصبت فتيلا .. ألست الكاتب الى تبدأ بنفسك ، والكاتب تخطب أمينة بنت على ، وتزعم انك ابن سليط بن عبد الله بن عباس . لقد ارتقيت مرتقى صعبا

(١) الموات الارض الخالية من السكان ، التى لا ينتفع بها احد

ـ عفوا يا أمير المؤمنين ، ومعذرة

ـ لا عفو اليوم .. قتلنى الله ان لم أقتلك ...

فاقبل عليه أبو مسلم يعتذر ، وسقط على قدمه يقبلها ، فدفعه بها ، وهو يقول والله ما زدتنى الاغضبا ، ثم صفق بيديه

***

سمع عثمان بن نهيك وصحبه تصفيق ابى جعفر ، فخرجوا من خلف الستار كالذئاب شاهرين السيوف ، فنظر اليهم ابو مسلم ، وقال :

ـ واتعساه ..انا ابو مسلم ...

فقالوا :

ـ بل انت ابو مجرم ...

فصاح :

ـ العفو .. العفو .. يا امير المؤمنين انشدك الله

وتعلق به، واستجار بعطفه ، فدفعه المنصور ، وصرخ فى رجاله صرخة مرعبة :

ـ اضربوا ، قطع الله ايديكم ...

فضربه عثمان ضربة خفيفة قطعت نجاد سيفه ، وجمد اصحابه ، فصاح ابو مسلم :

ـ استبقنى لعدوك يا أمير المؤمنين !..

ـ لا أبقانى الله اذن . وأى عدو لى أعدى منك ؟!..

ـ رباه ألا قوة ، ألا مغث !..

وهم أبو مسلم ان يأخذ سيفه من تحت وسادة المنصور ليدافع به ، فصرخ مرة أخرى فى رجاله صرخة هائلة :

ـ اضربوا قطع الله ايديكم ...

فضربه أحدهم فقطع رجله ، واعتوره الباقون بالسيوف ضربا وطعنا حتى قتلوه وذبحوه وادرجوه فى البساط !..

***

وبعد قليل أذن لعيسى بن موسى ـ أحد الولاة ـ بالدخول على أمير المؤمنين ، وكان عيسى يعرف مكانة ابى مسلم ، ويقدر بلاءه فى سبيل الدعوة العباسية ، فلما دخل سأل عن ابى مسلم ، فقال المنصور :

ـ كان هاهنا آنفا ...

ـ يا أمير المؤمنين قد عرفت طاعة أبى مسلم لك ، ورأى الامام ابراهيم فيه ..

ـ يا أنوك ، والله ما أعلم فى الارض عدوا لى أعدى منه .. ها هو ذا فى البساط وفتحوه له ، فلما نظر عيسى الى جثته انخلع وارتاع ، وقال :

ـ انا لله ، وانا اليه راجعون ...

فقال المنصور :

ـ خلع الله قلبك ، وهل كان لكم رأى ، أو سلطان ، أو أمر ، أو نهى مع ابى مسلم!..

ثم دعا المنصور بجعفر بن حنظلة ، فدخل عليه ، فقال له :

ـ ما تقول فى ابى مسلم ؟

ـ ان كنت أخذت يا امير المؤمنين شعرة من رأسه ، فاقتل ، ثم اقتل ...

ـ وفقك الله...

وامره بالقيام ، والنظر الى ابى مسلم مقتولا ، فقال : « يا امير المؤمنين عد هذا اليوم اول يوم فى خلافتك » . ثم دعا المنصور اسماعيل بن على ، فدخل ، وقال :

ـ يا امير المؤمنين انى رأيت فى ليلتى هذه كأنك ذبحت كبشا ، واننى توطأته برجلى فضحك ابو جعفر ضحكة عالية ، وقال :

ـ نامت عينك يا ابا الحسن . هذا هو الكبش ، قم فصدق رؤياك ، فقد قتل الله الفاسق

فقام اسماعيل الى الموضع الذى كانت فيه الجثة وتوطأها برجله

ثم دعا المنصور ابا اسحاق رئيس حرس ابى مسلم ، فقال له :

ـ أأنت المتابع لعدو الله على ما كان اجمع ؟..

فسكت ، وأخذ يلتفت يمينا وشمالا حذرا وخوفا ، فقال المنصور :

ـ لا تخف تكلم بما تريد ، فقد قتل الله عدوه

وأمر باخراج جثته اليه ، فلما رآها خر ساجدا وأطال السجود ، فقال المنصور :

ـ ارفع رأسك وتكلم ...

فقال اسحاق :

ـ الحمد لله يا أمير المؤمنين ، فقد آمننا الله بك ، وما كنا لنأمن أبا مسلم يوما واحدا ، وما أجبته منذ صحبته ، ولا جئته مرة الا وقد أوصيت وتكفنت

فاجازه المنصور ، ودعا غيره من رجال ابى مسلم ، فتكلموا بكلام مثله ، فأمر بتوزيع الاموال عليهم وعلى جنودهم ، ففرحوا بها ، وأنساهم العطاء ، واجب الوفاء ، وخرجوا من عنده وهم يهتفون بفضله ، ويشيدون بعدله ، وقد باعوا قائدهم وزعيمهم بالدراهم

طاهر الطناحى

تخالف الناس والزمان فحيث كان الزمان كانوا

« ابن مقلة »

الادب بعد الحرب

للدكتور ابراهيم ناجى

لماذا تقوم الحروب . . . ؟

هناك رأيان في التاريخ : الأول أنها نتيجة لازمات روحية فى نفوس الزعماء السياسيين ، والثانى أنها نتيجة عوامل اقتصادية مرتبكة

والحقيقة أنه لا يمكن وضع حد فاصل بين السببين ، فليس من السهل فصل التاريخ السيكولوجي لرجل كهتلر ، أعنى من نشأته فقيراً مهملا الى الهدف الذى اختطه لنفسه ووصل به الى قمة المجد — من العوامل الاقتصادية الناشئة فى ألمانيا بعد الحرب . واذا أردنا تعريفاً لكلمة الحرب فليس أصدق من أنها « قلقلة اجتماعية » . وهذه القلقلة الاجتماعية تتناول كافة المناحى العامة فى أى شعب من الشعوب ، وبقدر ما تهزه سياسياً واقتصادياً تهزه أدبياً

والآن تتفرس هذه القلقلة فى محيط الفكر والادب . فمن جهة نجد أنها تتناول الاحم بذاتها التى تحدث بينها الحروب ، ومن جهة أخرى تتناول الصدى المترتب على تلك الصدمة ، أى أثر تلك الموجة فى الاقطار البعيدة . فهؤلاء الشباب الذين يخوضون غمار المعركة ويهبطون الى ذلك الجحيم المستعر هم زهرة الأمة وعمادها فاذا عصفت الحروب بأعمارهم فقد عصفت بالعقول التى بنيت عليها الآمال ، فاختفاؤهم من ميدان الفكر سيقلل حتما النتاج الأدبى بل يغير مقاييس الأدب تغييراً تاماً

وأما الذين يقدر لهم النجاة من ذلك الجحيم ، فهم كتاب « أدب ما بعد الحرب » ، وهم كتاب أعصاب . أجل ! أعصاب مضنية منهوكة ، أعصاب شهداء خارجين من الجحيم ، لا يرون الدنيا إلا أبالسة ونيراناً . أدب هستيرى ! يتناول الاخلاق المنحلة ، وتحليل الشر فى صميمه ، فما بالك بقوم يفيقون على صوت القنابل ويمسون على دوى المدافع ، لا ترى أعينهم غير الاشلاء والحطام . أى أدب ينتظر منهم غير ما تركته تلك المجازر البشرية البشعة فى عقولهم وفى أفكارهم ولنضرب المثل برواية « لا جديد فى الميدان الغربى » لمؤلفها اريك ماريا ، ورواية « الصلبان الخشبية » لرولان دورجليس ، ورواية « الرجل الذى قتلته » لموريس روستان ، ثم ان هناك أيضاً أشعار سيجفريد ساسون ، وأشعار أولئك العباقرة الحساسون ، المتقدو الشعور الذين نزلوا فى أتون الحرب ، فكلها تصور ألوان الحروب أبلغ تصوير وتدعو الشبان أو تزهدهم فى امتشاق الحسام

ولا ننسى الناحية الجنسية للحرب ، ويكفى أنه عقب الحرب يقل عدد الرجال قلة واضحة ، ويكثر عدد النساء ، ومن هاته النساء اللواتى فقدن أبناءهن وبعولتهن ، وهناك الشابة التى فقدت خطيبها أو حبيبها ، والتى أخذوا منها رجلها يوم عرسها ، هؤلاء النساء مريضات بالشكل ، هستيرات بالأعصاب ، فاذا كان هذا الوصف هو صورة المجتمع بعد الحرب فحسبك هذا ان ظل للادب الذى تتغذى منه أرواح الجماهير

وقد شاهدنا كيف تختل موازين الأدب بعد الحرب ، وتشيع المذاهب الأدبية الكسيحة ، كالسوريالزم والكوبيزم والسمبولزم الخ تلك المدارس المنتهية بمقطع « بزم » مما يدل دلالة واضحة على عدم الاستقرار والثبات ، وما تعدد الأحزاب فى الأمة المنقسمة إلا كتعدد المذاهب فى كتلة الأدب وفى محيط الفكر



النظام الجمهورى فى البلدان العربية

فى الشرق العربى بلدان اختارا النظام الجمهورى ، وهما سورية — ولبنان

وأول رئيس للجمهورية السورية كان المرحوم محمد على بك العابد . وخلفه هاشم بك الاتاسى الذى استقال عند ما رفض الفرنسيون التوقيع على المعاهدة الفرنسية السورية والفوا الوزارة . وسورية الآن جمهورية بلا رئيس

وأما لبنان فاول رئيس لجمهوريته كان المرحوم الاستاذ شارل دباس . وقد خلفه حبيب باشا السعد لمدة قصيرة . ثم خلف هذا الأخير الاستاذ أميل اده الرئيس الحالى الذى لايزال فى منصبه ولم يحذ حذو زميله السوري هاشم بك الاتاسى

الحلف العربي

واهميته للعرب بعد الحرب

بقلم الاستاذ نقولا الحداد

يجب أن تسرع جميع الامم العربية منذ الآن في تأليف حلف متين فيا بينها ، لكي تظهر كأمة واحدة في مملكة واحدة — هذا ما يدعو اليه الاستاذ نقولا حداد في هذا المقال، وهو يرى أن تأليف هذا الحلف ممكن على خلاف ما ذهب اليه الاستاذ محمود تيمور في مقاله « الامبراطورية العربية » في هذا العدد . ويسرنا أن ننشر لكل منهما وجهة نظره

يغلب أن يكون المصير بعد الحرب عالميا أي ان مصير جميع الامم ومصير معظمها سيكون واحدا على الارجح ، لان النزاع الآن انما هو بين نظامين : الديمقراطية التي تؤيد الحرية العامة ، والدكتاتورية التي تؤيد استبداد الاقوى بالاضعف

ولما كان المنتظر أن تنتصر الديمقراطية فلا بد اذن أن تكون الحرية حقا لجميع الامم الراقية . ولا ينتظر أن تنتهي الحرب التي تفوز بها الديمقراطية بسيادة أية أمة على أمة ، والا كانت الديمقراطية كاذبة بدعواها الجهاد لاجل الحرية ، ونحن نجلها عن الكذب

النظام المجهود

يحاول هتلر الآن أن يستميل عواطف العالم اليه بمشروع تنظيم أوربا في هذا الشهر أو ما يليه . وغرضه من الاسراع بهذا التنظيم قبل أن تنتهي الحرب ، وقبل أن يعقد صلحا مع الامم التي اجتاحها ، أن يغري هذه الامم بنظام يزينه سعيدا لها لكي يأمن ثوراتها ويضمن استكانتها ريثما ينتهي الحساب بينه وبين انكلترا وحلفائها

ومهما برع هتلر وأعوانه في تزويق هذا التنظيم الذي يعد العالم به فلا بد أن يعتوره ثلاثة عيوب جوهرية تقتله جنينا وتدفعه من رحمه سقطا :

أولا : لا يمكن أن يتنزه هذا التنظيم عن ظهور ألمانيا فيه سيدة أوربا على الاقل مهما تفنن المنظمون في تحاشي هذه المظنة . وأهل أوربا لا يمكن أن يستسلموا لنظام تسودهم فيه ألمانيا أو غير ألمانيا

ثانيا : ان سلوك هتلر ونازيته من أول أمرهما الى الآن لم يدع ذرة من الثقة بصدقه عند جميع الامم حتى المحالفة لهتلر

ثالثا : لا يمكن أن يولد هذا المشروع فى مؤتمر نازى أوربى فى حين ان دول أوربا تختنق حقدا وحنقا على غزاتها القساة العتاة

فالمشروع من طبعه عقيم ينطوى على أسباب فشله قبل تكوينه

وربما كان هتلر سليما من مرض الغرور ، ويعلم ان المشروع فاشل لا محالة . ولكنه يريد أن يشاغل أمم أوربا المنكوبة به تحاشيا لمناهضتها له ، وكيدها ضده . ولكن لهذه المشاغلة حداً غير بعيد

فهتلر مهما تنجح فى غزواته لا يستطيع أن يفرض على أوربا نظاما جديدا مهما كان قريبا للصواب ما دامت الدكتاتورية سندا له . والدكتاتورية الاستبدادية هى سجية هتلر وأعوانه ونازيته

النظام المقبول

وانما النظام الذى تقبله الامم الاوربية وغيرها أيضا هو النظام الذى تدعو اليه الديمقراطية بعد انتصارها والذى تشترك فيه جميع الامم على قاعدة الحرية والمساواة

ولايمكن أن يثبت نظام تستقل فى تنظيمه دولة أو بضع دول دون سائر الدول الاخرى ، لان الحرب الماضية والحالية أقنعتا جميع الامم بأن تحكم أمم بأمم كان السبب الاساسى لهذه الحرب التى تدفقت ويلاتها وغمرت سطح الكرة الارضية . فلم تعد أمة من الامم ترتاح الى النظام السابق الذى كانت فيه كل أمة منفردة بنفسها مستقلة بجميع شؤونها وبتحديد علائقها مع الامم الاخرى كأن كل أمة عالم قائم بنفسه على الرغم من اضطرارها للمعاملات الاقتصادية والسياسية مع غيرها

لذلك لا بد أن يكون النظام القادم نظاما أمميا عالميا International System تشترك فيه جميع الامم على قدم المساواة ، وتشترك فى وضعه جميعا ، أو تقبله بارتياح ، وان لم تشترك كلها فى وضعه

ان مشروع توحيد أوربا فى نظام ولايات أوربية متحدة United States of Europe أو ممالك متحدة كان يجول فى أذهان السواد الاعظم من أهل الرأى السديد ومن محبى السلام والوئام فى أوربا وأميركا بعد الحرب السابقة حتى قبل الحرب الحاضرة . وقد تألفت له جمعيات للدعوة اليه فى العالمين القديم والجديد . فجاءت ثورة النازى الهتلرية الجنونية وخنقته . ولكن لا بد أن يفيق من اغمائه بعد نهاية الحرب وتتحول جيوش القتال الى جيوش دعاوة « لاتحاد الامم » وترى الدول الديمقراطية المنتصرة والامم الهتلرية أنفسها أمام مشروع « للاتحاد الاممى » . وحينئذ ترى السلطات السياسية أنفسها أمام أمر واقع ، ولا تتردد فى تنظيم « حكومة الحكومات » و « أمة الامم »

ليس غير هذا النظام ما يضمن تدارك الفتن الدولية التى تسنى فيها للحمقى ان يدكوا سلام العالم ويرموا الامم فى حرب شعواء تنتهك فيها قواها

هذا ما يتراءى لنا ان يكون القاعدة التى يبنى عليها سلام العالم القادم • فماذا يكون شأن الامم العربية بل جميع أمم الشرق الادنى وشمالى افريقيا حينئذ ؟ وماذا يجب ان يكون سعيها وعملها ؟

ماذا كان شأن الامم العربية

الى ان شبت هذه الحرب الحالية كانت الامم العربية ولا تزال تعد ثانوية فى المجموعة الدولية ـ ثانوية فى ثلاثة أمور جوهرية : فى السياسة ، والاقتصاديات ، والاستعدادات الحربية

ففى السياسة لم تكن لتدعى للاشتراك فى مؤتمر دولى حتى ولو كان لها شأن فيه الا ما ندر • فكانت فى بعض الاحيان يقضى بشأنها من غير مشورتها • وكان يقضى بأى شأن دولى من غير مشورتها على الاطلاق • اذن كانت من هذه الناحية غير مستقلة الاستقلال التام • وبعضها أقل استقلالا من بعض ، وهكذا لم يكن يحسب لها حساب فى السياسة الدولية العامة

واما فى الاقتصاديات فلا تزال فى كثير من الاحوال تحت رحمة الاسواق الاجنبية • فلو اقفلت هذه الاسواق فى وجوهها بسبب من الاسباب لوقعت فى كارثة ، لانها لا تستطيع ان تنتج الا عددا قليلا جدا من لزوميات الحياة • والحالة الحاضرة قد كشفت لنا هذا القصور بوضوح

بقيت الاستعدادات الحربية • وهذه تكاد تكون عدما فى البلاد العربية بازاء الاستعدادات الضخمة التى شاهدناها فى أوربا

ففى حالة الحرب نحن تحت رحمة من يغلب فى اوربا • ومصيرنا ليس فى يدنا بل فى يد المنتصر • اذن لا ينبغى ان نخدع انفسنا بالاعتداد بانفسنا قبل ان نعجل بالتقدم الصناعى والتجارى وبالاستعداد الحربى لكى يكون لنا الشأن السياسى الذى نبتغيه ويضعنا فى صف الدول المتساومة فى تقرير مصيرها

وكلا هذين الامرين لا يمكن ان يحدث طفرة بل لا بد من استغراق وقت غير قصير للحصول عليهما • ولا بد من استنفاد كل جهودنا فى سبيل التسليح لكى يحسب لنا بعض الحساب

فاذا كان هذا شأننا من الضعف والقصور فمن مصلحتنا اذن أن نكون فى الصف الاول من الدعاة « للاممية العامة » Internationalism أعنى أن يكون نظام العالم الجديد « اتحاد الامم » جمعاء فى أمة انسانية واحدة تحت نظام حكم دولى واحد (شرحناه فى مقالات سابقة فى الهلال) فهذا النظام يغنينا عن بذل جهودنا فى استعدادات حربية تذهب سدى ، كما انه يسهل لنا الاسراع فى رقينا الاقتصادى • وكما انه يجعلنا بحكم النظام العالمى الجديد شركاء جميع الامم فى ادارة شؤون العالم السياسية والاقتصادية وغيرها ،

فلاجل هذا التنظيم الجديد يجب أن نسعى ويجب أن نعمل
فماذا يجب أن نعمل ؟

التيار القادم

سيكون هدم النظام الدولى Nationalism وانشاء النظام الاممى Internationalism الجديد على أنقاضه تيارا اجتماعيا عنيفا جدا يدك كثيرا من النظم وينقض كثيرا من العادات والتقاليد ويلغى كثيرا من الشرائع

أجل سيكون تيارا عاصفا . فاذا عارضناه أو وقفنا فيه ولم نجاره أغرقنا وسحقنا سحقا

لذلك يجب أن نستعد لمجاراة هذا التيار الهائل وأن نتخلى عن كثير من تقاليدنا اذا انتقضت وأن نرحب بالنظم الجديدة مهما كانت مباينة لمبادئنا . والا مشى العالم فى موكبه العظيم من غير أن يبالى بنا وتركنا مسحوقين تحت سنابكه

ولكى تحسن الأمم العربية وجاراتها من أندادها مجاراة هذا التيار يجب أن تحاذر من أن تتصرف كل منها مستقلة منفردة عن غيرها . هذا الانفراد ـ ان فعلته ـ كان قضاء على حياة كل منها الواحدة بعد الاخرى . لان الاتحاد الدولى المنشود القادم لا يشعر بوجود الامم الصغيرة الضعيفة لكى يدمجها فى نفسه . فتبقى كأمم ثانوية مستقلة أسوة بالامم المنحطة

الحلف العربى

اذن يجب أن تسرع جميع الأمم العربية منذ الآن بتأليف حلف متين فيما بينها ، لكى تظهر كأمة واحدة فى مملكة واحدة فان كان ما نسمعه الآن من الاشاعات عن تكوين هذا الحلف صادقا فنرحب به لانه السبيل الوحيد لجلوس مندوبى الامم العربية حول المائدة المستديرة بعد انتهاء هذه الحرب لاجل تنظيم العالم الجديد

وان كانت الاشاعة غير صادقة فنؤمل أن ينهض قراء هذا المقال لتحقيق هذا الحلف الذى لا نظن اثنين يختلفان فى ضرورة تكوينه للاعتبارات التى قدمناها آنفا

أما قول بعضهم : « ان الامم العربية متفاوتة فى درجات الاستقلال ، فبعضها مستقلة بعض الاستقلال وبعضها مستعبدة ، فليس لواحدة منها ارادة تستطيع تنفيذها »

فجوابنا على هذا القول ان هذا الحلف المنشود لا يراد منه الآن تحالفا حربيا هجوميا أو دفاعيا ولا تحالفا ثوريا أو تمرديا ولا لمناهضة دولة من الدول المحاربة ـ كلا البتة . لا يراد به شىء من هذا . وانما يراد به أمر واحد فقط وهو جمع كلمة العرب جميعا فى اتحاد عام وثيق متين ككتلة واحدة يظهر جميع العرب به أمة واحدة عظيمة تقدم به نفسها للمؤتمر القادم كأنها أمة واحدة فى مملكة واحدة ذات حق واحد : حق الاصطفاف مع سائر الامم فى تقرير مصيرها

حتى اذا ظهرت الامم العربية جمعاء فى هذا المظهر اضطرت الدول الكبرى أن تقدرها حق قدرها وأن تحسب حسابها فى التنظيم الجديد

ولكن اذا كانت كل مملكة عربية تقدم نفسها وحدها منفردة للمؤتمر الدولى العام بغية الاشتراك فيه أو المطالبة بحقوق منه فلا يعبأ بها الا بقدر ما لها من الشأن فى بعض السياسات الدولية الثانوية

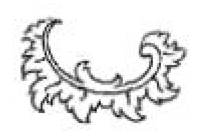
ثم ان علاقات الدول العربية مع بعض دول أوربا كالانتداب والاحتلال والاستعمار الخ تعتبر منذ الآن لاغية أو كأنها فى حكم اللاغية • فلا طوق لها على الحيلولة دون تكوين هذا الحلف العربى السلمى ولا يكون لها أى اعتبار يوم الحساب فى المؤتمر الذى تصفى به شؤون الحرب ويشرع بالتنظيم الجديد

فلكل أمة من الامم العربية أن تعتبر نفسها منذ الآن مستقلة فى التفكير بأمر مصيرها ومستقلة فى أمور مستقبلها ـ لها أن تجاهر بهذا الاستقلال • وأن تعتبر ان موقفها السياسى الحالى أصبح ، دوليا ، غير قانونى • وان مصيرها فى يدها • وان موقفها القانونى يتقرر فى المؤتمر العام القادم باشتراكها فيه وحينذاك تتقدم جميع الامم العربية كوحدة سياسية غير مفككة الى ذلك المؤتمر وتقاسم الدول جميعا حقوقها السياسية والاقتصادية وتشترك معها فى ضمانة النظام السلمى الجديد

واذا كانت الامم العربية تتوفق قبل نهاية الحرب الى تنظيم « مشروع ممالك عربية متحدة » على نمط « الولايات المتحدة الامركية » وتتقدم به الى ذلك المؤتمر لكى يقره ، فيكون نجاحها فى تقرير مصيرها السعيد المضمون

فحبذا ان يعلم الساعون بالحلف العربى الآن انهم اذا كانوا يجدون فى سعيهم ويبذلون كل مجهود فى هذا السبيل بلا ملل ولا وهن مهما قام أمامهم من العراقيل والعقبات ـ اذا كانوا يحققون هذا المشروع العظيم فليعلموا انهم يكونون قد خدموا الامم العربية خدمة لا تقدر بمقدار • خدمة مهما قلنا عن قيمتها فلا نستطيع ان نقدرها حق قدرها

نقولا الحداد



العالم العربي بين حربين

حرب ١٩١٤ وحرب ١٩٣٩

بقلم الاستاذ محمد محمد توفيق

قضى الشرق العربي فترة الحرب العظمى الماضية يجهد للاستقلال . وهو يقف في هذه الحرب يؤيد الديمقراطية ويحافظ على حريته ، ويعمل لاستكمال استقلال بلاده

الشرق العربي في هذه الحرب يختلف كل الاختلاف عن الشرق العربي في حرب عام ١٩١٤ - ١٩١٨

ولعل أبرز وجوه الخلاف هو الاستقلال بدرجاته المتفاوتة بين الاقطار العربية ، وما في هذا الاستقلال من تبعات جسام ، و « الشخصية » العربية التي لم يكن لها في مستهل الحرب العظمى الاولى وجود معترف به ولا كيان يحسب له حساب أو يرجى منه ثواب

وهذا الاستقلال ، وتلك الشخصية لهما حقوقهما التي لا جدال فيها • ولهما أيضا مظاهر جديدة عرفناها ولمسناها في السنوات الأخيرة • وعليهما واجبات وتبعات ما كان الشرق العربي يحلم بها في الحرب الماضية

بدأت الحرب العظمى الاولى والشرق العربي تابع للسلطنة العثمانية تبعية اسمية أو فعلية

فمصر كانت تابعة للسلطنة العثمانية تبعية اسمية • يحكمها خديو ولها بعض مظاهر الاستقلال ، ولكن تؤدي الجزية للسلطان وتأتيها الفرمانات السلطانية في شتى المناسبات ، وقاضي القضاة الشرعيين فيها يأتي من استانبول • وأرواح كثيرين من المصريين متعلقة بالباب العالي وما تكاد تحس بأن مصر قد خرجت عن طاعة أمير المؤمنين ، وان تكن السلطة الفعلية كالزئبق الرجراج ما بين حركة وطنية ناشئة واحتلال بريطاني عنيد

وبقية الاقطار العربية تابعة للسلطنة العثمانية تبعية فعلية أو تكاد • والارض المقدسة كانت مفاتيحها بيد السلطان والولاة العثمانيون ونواب الشرع كانت بأيديهم مقاليد الامور في كل مكان

فكأن الشرق العربي الاول لم يكن له في مجموعه كيان سياسي ولا شخصية دولية فهذا وتلك هضمتها معدة السلطنة القديمة فما بقي لهما وجود • وحتى ذكريات الاستقلال

والشخصية كانت قد تباعد بها الزمن المديد . فعصر محمد على الكبير كان قد زالت آثاره من أكثر من ثلثي قرن . وعصر على بك الكبير ما كاد يظهر حتى اختفى . ومن قبل هذين عصر فخر الدين بن معن فى لبنان لم يلبث الا قليلا . ومنذ مطالع القرن السادس عشر حتى عام ١٩١٤ لم يكن قد ظهر فى الشرق العربى الادنى غير ما ذكرنا من حركات استقلالية . وفى هذا الحكم المطلق المديد ضاع استقلال العرب وزال ، وتزايلت الشخصية العربية والمصرية بالضربة القاصمة التى وجهها اليها سليم الاول فما أفاقت منها بعد الا عادت الى ما كانت فيه من غيبوبة . فلما برزت حركات الوطنية فى مطالع هذا القرن كانت كالحلم الجميل يتراءى فى اليقظة ، وما تعدت دائرة الاحلام الا قليلا

وجاءت الحرب العظمى الاولى والشرق على ما وصفنا

فمصر وقفت حيرى بين سلطنة تدين لها روحيا بالحب وبقية من ولاء ، وعلاقة جبرية ببريطانيا العظمى بدأت باعلان الاحكام العرفية وقطع العلاقات كلها مع السلطنة العثمانية ، ثم أفضت شيئا فشيئا الى شىء من تبادل المنفعة والمساومة فى الاستقلال بعد أن تضع الحرب أوزارها . فكأن فترة الحرب كلها مرت ولما تتألف من عناصر الموقف المصرى سياسة ثابتة ولا هو تبلور فى شكل معروف يمكن وصفه اذ ذاك وتحديد مداه

وباقى أقطار الشرق العربى الادنى بدأت الحرب فى صف السلطنة العثمانية . وما نظن انها كانت تفكر فى الخلاص منها جديا ابان الحركات الاولى . ثم لعبت السياسة البريطانية دورها المعروف فشقت دول العرب عصا الطاعة على أمير المؤمنين الواحدة تلو الاخرى . فبدأ المغفور له الملك حسين بن على حركته الاستقلالية . وتطور الموقف فى صالح الحلفاء فاقتطعوا فلسطين وسورية والعراق من السلطنة العثمانية بمساعدة العرب الثائرين الذين نهضوا للمرة الاولى نهضة جدية وقاموا قومة رجل واحد لنيل الاستقلال الذى وعدوا به من كبرى دول الحلفاء وبذلك انقضت الحرب بين مسايرة للسلطنة العثمانية وحليفتها ألمانيا فى أول الحرب ، ومفاوضة مع الحلفاء فى أمر الاستقلال فى أواخرها وعمل على نيل هذا الاستقلال . فما تألفت من عناصر الموقف العربى سياسة ثابتة

وذلك لان كلا من مصر وسائر الاقطار العربية خرجت من الحرب بمجرد وعود بالاستقلال . فهى لم تستقل ولكن « وعدت » بأن تستقل . وهذه الوعود استغرق تحقيقها سنين عديدة وصاحبها التوفيق حينا والاخفاق حينا ، حتى استقامت الشعوب الشرقية فيما نسميه «استقلال المعاهدات» وبشروط وتحفظات معروفة ما كان من المستحيل تذليلها لو ان الظروف كانت أسعد مما كانت

فعقدت مصر مع بريطانيا العظمى معاهدة أغسطس سنة ١٩٣٦ وعقد العراق معاهدة مشابهة صادفها التوفيق فعدلت أكثر من مرة . وسارت العلاقات السورية الفرنسية فى سبيل الاتفاق لولا قيام الحرب الراهنة . وقامت فى الحجاز ونجد مملكة جديدة مستقلة

فالشرق العربى الادنى اذن أقام كيانه السياسى على قواعد جديدة . واستعاد شخصيته

ومظاهر كثيرة من استقلاله الغابر • ولو ان الحرب العظمى الثانية أجلت بضع سنوات أخرى مع بقاء حالة الخطر الشديد والتهديد والوعيد التى لمسنا آثارها قبيل اعلانها ، لنال الشرق العربى من حليفته أكثر مما نال ، ولغدا الاستقلال أقرب الى السيادة التامة والكمال

ولكن شاءت ارادة الشعوب الدكتاتورية أن توقد نار الحرب فى أواخر عام ١٩٣٩ • فوقف الامر بالشرق الادنى العربى عند هذا الحد الذى عرفناه • وهو لا بأس به عند الممارسة العملية ، ويعد من الناحية الفقهية والنظرية فوزا حقيقيا ونصرا كبيرا

والآن نرى فى عالم السياسة الدولية والحرب شرقا عربيا جديدا لا يمت الى السلطنة العثمانية فى شىء ، بل هو مجموعة من الدول المستقلة أو الوشيكة الاستقلال هى مصر والمملكة السعودية وفلسطين وسورية ولبنان والعراق • ولكل من هذه الدول كيانها ، واستقلالها أو وعدها القريب باستكمال الاستقلال • ولكل جيشها ، واستعدادها الحربى والميكانيكى الذى يتفاوت قوة وضعفا بحسب مقدرة كل منها على الانفاق • ومختلف الامم المحاربة تحسب لها حسابا وتضعها فى صف والحلفاء فى صف آخر ـ الى آخر هذه المظاهر الجديدة التى نسجلها مغتبطين

والشرق الادنى العربى الذى قضى فترة الحرب العظمى الماضية يمهد للاستقلال يقف فى هذه الحرب الثانية يؤيد الديمقراطية ، ويحافظ على حريته ، ويعمل لاستكمال استقلال بلاده

والسنين الاربعة الاولى التى فوتتها عليه الحركات الاستقلالية فى الحرب الماضية يقابلها عام قد انقضى وأعوام حرب منتظرة سوف لا تضيع ولن تفوت علينا تحقيق آمالنا الكبار ان شاء الله ، فنحن قد بدأنا الحرب مستقلين ، وعلينا أن نعالج مشاكلها ـ ولم لا نقول ويلاتها لا قدر الله ـ بما يعود على القضايا العربية المختلفة باستكمال ما نقص من الاستقلال وبالفوز بمغانم كثيرة

ولعل أول هذه المغانم ما لمسناه عن يقين من تنافس الشعوب المتحاربة على ارضاء الشرق العربى • ففى هذا « العرض » تعلو كفة الطلب ، وقد رأينا كيف استقامت علاقات الدول الشرقية مع بريطانيا العظمى فى أزمتها الراهنة ، وتبينا عن يقين ان الشرق العربى الذى أدلى بدلوه فى الدلاء وأعلن تأييده للديمقراطية فى أشكال متعددة قد فاز من بريطانيا العظمى بالشكر وعرفان الجميل ، وان المعاونات السخية التى قدمت الى الجيش البريطانى فى مصر وفلسطين والعراق بتيسير الاستفادة من طرق المواصلات والقواعد الحربية والموانىء والمطارات ومؤونة القوات المحاربة فى حرب هددت فيها وسائل التموين الخارجى قد أشعرت بريطانيا المحاربة بما تستشعره الحليفة من حليفتها ، وان استعداد الجيوش المصرية والعربية قد خفف ـ وسيخفف ـ عن كاهل بريطانيا العظمى فداحة ما يتطلبه الموقف الحربى من استعداد عسكرى • فاذا ما ختمت الحرب وفازت الديمقراطية فيها وجب على الحليفة الكبرى أن تجلس معها على مائدة الصلح الخضراء ممثلين لسائر الاقطار

العربية يدلون فى الموقف بآرائهم ويبسطون قضاياهم ويسجلون لبلادهم مغانم وفوائد جليلة . شأنهم فى ذلك شأن ممثلى مختلف الدول التى ساهمت فى الحرب أو ساعدت على الفوز فيها

هذا فى حالة النصر للديمقراطية

أما اذا فاز المعسكر الديكتاتورى ــ وهو أمر بعيد الاحتمال ودونه حرب مديدة وأهوال وتمزيق أوصال ، فما نحسب ان فوزه سيكون تاما لا قدر الله . فالمنتصر فى هذه الحرب الشاملة الدمار سيخرج منها كالمنهزم ــ الا من نتيجة اسمية هى كلمة الانتصار . وحتى هذه الكلمة سوف لا تعلن بصوت جهورى قوى . ان الحرب فيما نعتقد ستجر الى أتونها أمما جديدة ، وسوف تكون لها ميادين لا نحلم بها الآن . وسوف تعيش شعوب بأكملها فى جوف الارض فما تصل اليها قنابل الطائرات . وسوف ينفق فيها آخر شلن أو مارك أو ريال . وسوف تكون كلمة النصر فى ختامها خافتة ضعيفة تكاد تشبه حشرجة الموت . وما نحسب بريطانيا والذين سيحاربون معها سوف ينيلون المعسكر (الاسبرطى) ما يتمنى . ففى كلا الحالين يجب أن نعتز بكياننا وأن نضيف الى ما كسبنا الى الآن مكاسب جديدة . فالمنتصر فى هذه الحرب سيكون سعيدا بوضع علاقاته مع مختلف الامم الصغيرة على غير ما ألف التاريخ الحديث من استعمار واستغلال

ان هذه الحرب ما تزال فى مرحلتها التمهيدية الاولى . وغارات الطائرات وما اليها لا تعدو كونها من قبيل « جس النبض » والتيقن من طاقة الشعوب وقدرتها على المقاومة . وبعد جس النبض هذا قتال هائل يلعب فيه جبابرة العالم دورهم الرهيب

ان هذه الحرب الشاملة الدمار قد سقط ضحاياها صرعى . فضاعت النمسا وتشيكوسلوفاكيا وبولندا وهولندا والبلجيك وفرنسا .. وهو ثبت من الدول كبير

وقد تسقط شعوب أخرى فى هذا المعمعان المميت . وقد تكون ايطاليا احدى هذه الضحايا الدامية

ولكن ثمة أمتين صمدتا للحرب الشاملة الدمار فما تزعزعتا : بريطانيا العظمى وألمانيا

هاتان الامتان هما جبارتا العالم ولتبيدن احداهما الاخرى

ولتتذرع كل منهما بأقسى الوسائل وأرهبها للظفر بعدوتها

ولتقف طاقة ألمانيا المادية وطاقة بريطانيا العظمى وأميركا والشعوب وجها لوجه ، كل تمزق الاخرى وما تحسب للنتيجة أدنى حساب

واذا زعمت ألمانيا ان لديها جحافل تزول منها الجبال وتدك الشعوب دكا ، فان لدى بريطانيا العظمى أسطولا بحريا ثبت عن يقين انه سيد البحار

واذا كان لدى ألمانيا آلاف من الطائرات ، فلدى بريطانيا آلاف ولتقذفن المصانع الاميركية الضخمة فى الميدان بطائرات ما كنا نحلم بأحجامها ولا طاقتها فى التخريب والتدمير . طائرات أتخيلها معاقل ضخمة فى الهواء . تطير مسافات شاسعة بلا توقف . وبسرعة

هائلة ، وتحمل بين أطوائها أشد القنابل تدميرا ، فان آلة الحرب وعقل الانسان الجبار لا حد لما سيقدمانه طعاما للحرب من أدوات جهنمية شيطانية الفتك ماردية التخريب

ولعل الادراك السياسى بعد هذه الحرب ـ سيؤمن بأن سيادة العالم وهم وخيال ، وسيعود بعد طول الجحود والكفر الى الايمان بأن الملك لله الواحد القهار ، شاءت ارادته جل شأنه أن تعيش الامم الصغيرة الى جوار أخواتها الكبرى ، وأن تأكل مما تأكل ، وتدخر كما تدخر ، ويظل لها كيان معروف ومصون

ويظهر فى الدنيا دين جديد ، دين الانسانية بعد اليأس من مختلف الاساليب الهمجية

وكما أفضت الحالة الشاذة فى فرنسا الى ظهور مبادىء الحرية والعدالة والمساواة ، كذلك ستفضى هذه الحرب الى شىء جديد مثل ذلك ما ندرى حتى الآن ما هو ، والفرق بين الحالتين هو ان شذوذ الملكية فى فرنسا كان محدودا فأفضى الى مبادىء كان تطبيقها محدودا ، وهذه الحرب لا حد لشذوذها ولا لتدميرها وستفضى الى مبادىء لا حد لشمولها ولا لنصيبها من التخليد

وقد يقال ان الحرب الماضية كانت شديدة الفتك وما أفضت الى شىء ، ولكن كلا ، هنا خطأ جسيم في فهم الموقف ، فالحرب الماضية لم تختتم بهدنة عام ١٩١٨ ، ان الباحثين كلهم أجمعوا ـ وشواهد الحال تؤيدهم ـ على ان الحرب الماضية لم تختتم قط ، وان فترة السلام ما بينها وبين هذه الحرب هى امتداد حربى لها ، وهذه الحرب هى ختامها وستكون طويلة ، وسوف تنتهى هذه الحرب بتصفية شاملة للموقف

ان طاقة الانسانية هى التى ستختمها ، فهذه الطاقة ـ مهما تكن ـ لها حد ستقف عنده

والفرق بين الطاقتين ـ وان كان جزءا من الملليمتر ـ هو الذى ستوسم به تلك الدولة أو هذا الفريق بأنه منتصر ، وذاك بأنه منهزم

ثم يبحث المنتصر عن قوته فيجدها قد استهلكت ونضب معينها فى الحرب ، ويحاول التحرك من جديد اذا ألفى فى الموقف شيئا جديدا فما تملك طاقة الشعب التحرك ، أما المنهزم فيستسلم لرقدة أشبه بالموت ويرضى بما قسم له

عند ذاك تتطور الديمقراطية الى نظام أرحب مما عرف الى الآن ، نظام يكون أشد المستعمرين أول المبشرين به ، نظام يقوم فيه تبادل المنفعة مقام السيادة أو الاستعمار ، وتطمئن الشعوب كبيرها وصغيرها الى هذه النتيجة السعيدة زمنا مديدا

وفى هذه الدنيا الجديدة نرجو أن يكون للامم العربية مكانها العتيد ، فقد بدأت الحرب كما قلنا مستقلة ، وستستفيد من الحرب حتما باتحاد كلمة زعمائها عند تحرج الموقف ، وبشعورهم بفداحة المهمة الملقاة على كواهلهم ، وباستفادتهم من التجارب الكثيرة التى تقدمها شدائد الحرب

محمد محمد توفيق

سورية ولبنان

بعد تسليم فرنسا

ليس لأحد غير السوريين حق فى تقرير المصير الذي يرتضونه لأنفسهم ، والمستقبل الذى يريدونه لبلادهم . وقد أعلنوا مراراً قبل الحرب الحاضرة ، و بعد انهيار فرنسا أن أمنيتهم الوحيدة هى الاستقلال

أصبحت سورية ولبنان بعد انهيار فرنسا فى مركز دقيق ، فهما يقابلان الآن انقلابا فى تاريخهما الغاص بالحوادث الجسام . وقد تكون المرحلة العصيبة التى يجتازانها الآن كتلك التى مرت بهما فى أثناء الحرب العالمية الماضية

كانت البلدان العربية التابعة للسلطنة العثمانية تعلل النفس بتحقيق أمانيها القومية كاملة غير منقوصة بعد تلك الحرب . ولكن الدول الأوروبية فرضت عليها نظاماً أرادته لها ، ولم ترده تلك البلدان لنفسها ، وبعد تطورات وحوادث لا مجال الى سردها هنا ، تجد الشعوب العربية نفسها أمام ملحمة أوروبية أو شبه عالمية أخرى ، غير أن مركز كل قطر من الأقطار العربية قد تغير عما كان عليه عند ما التحمت القوات فى حرب ١٩١٤

فمصر تصافت مع بريطانيا العظمى وحالفتها بموجب معاهدة معروفة

والعراق عقد أيضاً مع بريطانيا العظمى معاهدة حلت محل نظام الانتداب

والحجاز استقل ثم اندمج فى المملكة العربية السعودية

واليمن لم يبق فيه أثر لسيادة أجنبية

وبقى الانتداب قائماً فى فلسطين وشرق الأردن وسورية ولبنان

أما فلسطين وشرق الأردن فان قضيتهما معقدة تزيدها تعقيداً المشكلة اليهودية ووعد بلفور وانشاء الوطن القومى الصهيونى ، وهذا التعقيد يمس أيضاً سورية ولبنان لأن شرق الأردن وفلسطين كانا جزءاً من سورية الكبرى

وأما الدولة السورية كما حددتها ارادة الدول الأوروبية فهى تشمل جزءاً فقط من الأراضى التى يعدها السوريون موطناً لهم . ولا يزال نظام الانتداب قائماً فيها

ولبنان الذي سلخ عن سورية وضمت اليه البقاع التى تتمم حدوده التاريخية خاضع لذلك النظام

وهذه فرنسا تنهار اليوم وتوشك أن تصبح خاضعة لمشيئة المانيا وايطاليا ، وقد يكون لهذا الموقف الجديد أثره البعيد فى سورية ولبنان

فايطاليا طامعة فيهما من زمن

والمانيا ترغب فى بسط نفوذها على هذه الجهة من حوض البحر الأبيض المتوسط للوصول منها الى المناطق التى تطمع فيها لنفسها فى الشرق الأدنى ، كالعراق والخليج الفارسى

وفى انتظار تحقيق هذا الحلم الألمانى الايطالى ، نرى دولتى المحور قد نشطتا الى محاولة استخدام سورية ولبنان كقاعدة لأعمال حربية ضد بريطانيا العظمى ، ومن أجل هذا ذهبت لجنة إيطالية الى بيروت للاشراف على تنفيذ شروط الهدنة التى أمضتها فرنسا ، فيايتعلق بالبلاد الخاضعة لانتدابها أي سورية ولبنان

ورفعت بريطانيا العظمى صوتها قائلة انها لن تسمح بأن تقع تلك البلاد فى قبضة دولة معادية . ووقفت السلطة الفرنسية من ناحيتها فى بيروت ودمشق موقفاً حازماً ، فلم تستطع اللجنة الايطالية فى بيروت أن تحقق برنامجها ، ولم تنل من الفرنسيين غير التافه اليسير من شروط ذلك البرنامج الواسع النطاق

ولكن الموقف لا يزال غامضاً . والغد يخبيء مفاجئات لا يعلم غير الله مداها

فالسوريون واللبنانيون قد تنبهوا الى الخطر المحدق بهم ، والى ما يراد ببلادهم ، فأجمعوا كلهم على استنكار كل ما يعمل أو يقرر بغير استشارتهم وارادتهم وموافقتهم ، ويلخص لسان حالهم فى كلمات قلائل : « ليست بلادنا سلعة تباع وتشترى . ولن نرضى بأن ينتقل هذا الوطن من يد الى أخرى كأنه ملك للغير لا ملك لنا »

ولكنهم لم يغتنموا فرصة اندحار فرنسا وانحلالها وما أصابها من بؤس وشقاء ودب اليها من ضعف لكى ينقضوا عليها ويتخلصوا من حكمها . كلا . بل انهم أظهروا فى هذه الظروف العصيبة التى تجتازها الدولة المنتدبة عطفا عليها وتضامنا معها ورغبة فى مساعدتها على الاحتفاظ بالبقية الباقية لها من قوة وسمعة حسنة ومكانة فى النفوس . وانه لموقف مشرف حقا ، ومشبع بالنبل والاخلاص — موقف الشرقي الأبى الذى لا يريد الاستفادة من ضعف خصمه فيضربه من الوراء

وجدير بفرنسا أن تعترف بهذه العاطفة النبيلة التى أظهرها السوريون واللبنانيون نحوها ، فتمتنع عن التفريط فى بلادهم وتمهيد السبيل لدولتي المحور للتصرف فى مقدراتهم حسب هواها

واذا أقدمت فرنسا على عمل من هذا النوع ، فانها تكون قد ارتكبت خيانتين : خيانة نحو السوريين واللبنانيين الذين كانوا لها أوفياء فى محنتها ، وخيانة نحو جمعية الأمم التى وضعت سورية ولبنان أمانة فى عنقها عند ما عهدت اليها فى مهمة الانتداب على هذين القطرين العربيين

فصك الانتداب لايخول فرنسا حق التصرف بالبلاد المنتدب عليها كمالك للدولة المنتدبة. فسورية ولبنان ليستا مستعمرتين ، ولا بلاداً محمية ، ولا قطرين فتحتهما جيوش فرنسا بالقوة واستولت عليهما بحق الغزو . فضلا عن أن السوريين واللبنانيين شعب له مكانته الثقافية الرفيعة ، وتاريخه المجيد ، ولا يحق فى حال من الأحوال أن يطبق عليه مبدأ من المبادىء القائلة بوجوب السيطرة على الشعوب المتأخرة ــ فضلا عن فساد تلك المبادىء من أساسها

ليس لفرنسا اذن أن تسلم سورية ولبنان لدولة أخرى بمحض ارادتها أو بفعل الضغط من جانب تلك الدولة

وليس لأحد غير السوريين واللبنانيين حق فى تقرير المصير الذى يرتضونه لأنفسهم ، والمستقبل الذى يريدونه لبلادهم

وقد أعلنوا مراراً وتكراراً ، قبل الحرب الحاضرة ، وبعد انهيار فرنسا ، ان أمنيتهم الوحيدة هى الاستقلال ــ أمنية كل أمة من الأمم العربية الأخرى

ج . . .



الدول العربية

فى بلاد العرب :

دولتان مستقلتان استقلالا تاما ناجزا هما المملكة العربية السعودية ومملكة اليمن

ودولتان مستقلتان استقلالا تاما تدعمه معاهدة مع بريطانيا العظمى وهما مصر والعراق

وبلاد خاضعة لنظام الانتداب هى سورية ولبنان (انتداب فرنسى) وفلسطين وشرق الأردن (انتداب انكليزي)

وبلاد تدير شؤونها بريطانيا العظمي بموجب معاهدات منها البحرين والكويت ومسقط وعمان وحضرموت

وبلد خاضع لنظام خاص مازال قيد البحث هو السودان

وبلد واحد ضمته فرنسا اليها وهو يعد الآن جزءا منها ونعنى به الجزائر

وبلاد حماية منها تونس وعدن

ومستعمرة ايطالية هى لوبيا

ومستعمرة أسبانية هى المغرب الاسبانى أو الريف

وسلطنة تدير شؤونها فرنسا بموجب معاهدة فرضت عليها فرضا هى المغرب الأقصى أو مراكش

أثر الحرب فى العلم

بقلم الدكتور على مصطفى مشرفة بك

عميد كلية العلوم بجامعة فؤاد الأول

قد يظهر لأول وهلة ان الحروب تقف حائلا فى سبيل تقدم العلوم وتعمل على ركودها إذ من منا يستطيع أن يتعمق فى دراسة مسألة علميـة بين دوى المدافع ، أو أن يفكر فى قوانين الطبيعة وسط غارة جوية ؟ والواقع أن هذا الرأى ينطوى على كثير من الصحة . ففى الحروب ينصرف الكثير من العلماء والباحثين عن أماكن الدرس ملبين داعى الوطن ، كما يهجر الشباب دور العلم إلى ميادين القتال ، وبذلك ينخفض الانتاج العلمى ، وتقل البحوث الاكاديمية . إلا أن هناك ناحية أخرى من نواحى البحث والابتكار تعمل الحروب على تنشيطها وانعاشها ، وهى الناحية التطبيقية ، أو الناحية العملية ، ففى الحروب تنشأ مسائل فنية كثيرة منها ما يرتبط بفنون الحرب ذاتها ، ومنها ما يرتبط بالصناعات الرئيسية فى البلاد ، ويكون من المهم أن تعالج هذه المسائل وأن تستنبط الوسائل الفعالة لحلها . ولأضرب مثلا : ففى الحروب العظمى الماضية انقطعت عن انجلترا الأصباغ محلياً ، وصناعة الأصباغ كما تعلمون هى احدى الصناعات الرئيسية المرتبطة بعملية تقطير الفحم . وكان من أثر ذلك أن نمت صناعة الاصباغ فى انجلترا والصناعات الاخرى المتصلة بها. فكان ذلك منشأ ثروة جديدة فى البـلاد كما أن فن الطيران قد تقدم فى الحرب العظمى الماضية بسرعة تفوق كثيراً ما كانت عليه فى وقت السلم ، وكذلك فن الجراحة ، فان ما كسبه الجراحون من الخبرة فى السنوات الاربع من سنة ١٩١٤ الى سنة ١٩١٨ ربما عادل ما يكسب عادة فى عشرات السنين فى وقت السلم . وهذا النمو الذى يحدث فى العلوم التطبيقية يكون له أثره فى العلوم البحتة فالتقدم فى صناعة الاصباغ يساعد على دراسة علم الكيمياء . والتقدم فى فن الطيران يقدم علم الميكانيكا . وهكذا

ليس العلم مجرد حقائق ونظريات ، بل العلم قبل كل شىء طريقة خاصة فى التفكير – هذه الطريقة هى ما نسميه العقلية العملية . ونحن أحوج ما نكون إلى هذه العقلية العملية فى ظرفنا الحاضر ، لكى تنظم شئوننا على أسس ثابتة من الحق والمنطق بعيدة عن زخرف القول ، سليمة من الزلل

[من محاضرة ألقيت بكلية العلوم]

أمبراطورية موسوليني

لا تنشأ الا على حساب الشرق العربى

بقلم الاستاذ عبد الحميد عبد الغني

تتفاوت شعوب أوربا فى شتى الامور : فى صحائفها الماضية وأوضاعها القائمة وأهدافها المقصودة ، وفى أساليب الحياة ودرجات الثقافة وملكات الكفاح والطموح ولكنها تلتقى كلها فى أمر واحد خطير : هو هذا الروح الاستعمارى الذى يدفعها جميعا الى أقاصى الارض ودوانيها تحارب أو تاجر ، تكتشف أو تمتلك ، تبشر أو تنذر ، ثم تحكم وتسود ، فليس على وجه أوربا شعب واحد لم تجتز نظرته الطامحة أرضه وحدودها ولم تعبر سفائنه البحار تحمل الجنود تارة والمستعمرين تارة أخرى ، اما لانه لا يجد فى أرضه ما يقيمه من الغذاء الوافى ، واما لانه فطر على النضال والطموح فلا تقر حياته ولا تهدأ ثائرته بين حدود مرسومة لا يتعداها

وليست ايطاليا بدعا من أوربا فتشذ عنها فى هذا الروح الاستعمارى ، وانما يضطرم أبناؤها بجذوة الاستعمار كما اضطرم من قبلهم أبناء اسبانيا والبرتغال وهولندة وبلجيكا وانجلترا وفرنسا فالاتجاه الاستعمارى الذى تتخذه ايطاليا الآن ليس أمرا جديدا ابتكرته الفاشستية وسعى اليه موسولينى ، وانما يبدأ منذ أجيال سابقة أخذت تنشىء ايطاليا فى أثنائها أمبراطورية ما • فمنذ أن وحد كافور أجزاء ايطاليا المشتتة المتناحرة ، ومنذ أن أخذ كيانها السياسى يستقر ويتبدى فى ميدان السياسة الدولية ، راحت تتأثر خطى الدول المستعمرة الاولى • فكان ثمة سياسيون أمثال « كريسبى » ، وثمة مكتشفون أمثال « دوق ابروزى » يطمحون الى بسط لواء ايطاليا فوق كثير من الاقاليم اما عن طريق الحرب والسياسة واما عن طريق الكشف والامتلاك

ولكن الامر لم يتعد نطاق الطموح الى دائرة التنفذ الا فى نواح ضيقة لم تتوفق فيها ايطاليا الا قليلا • فقد بدأت جهودها الاستعمارية بعد أن استنفدت دول أوربا الكبرى أكثر المناطق التى تصلح للاستعمار ، فلم تبق لها مجالا رحيبا توجه اليه جنودها أوتجارها أو مكتشفيها • ولم يكن طريق الاستعمار حين اتخذته ايطاليا سهلا ممهدا كما كان شأنه عندما بدأت انجلترا انشاء أمبراطوريتها ، فلم تستطع أن تمتلك طرابلس ، وما هى الا ساحل ضيق قاحل ، الا بعد حرب حملتها ما نامت به من خسائر وضحايا • هذا الى ان ايطاليا لم تبد صبرا على ما يقتضيه الاستعمار من كفاح جاهد ونضال عنيف ، ولم يثبت

أبناؤها قدرتهم على احتمال ما يستهدف له المستعمرون من أحداث الهزيمة ووقائع الاخفاق ، فلم يكد ينهزم الجيش الايطالى فى معركة « عدوة » حتى انتكست ايطاليا نكسة غريبة أخرجتها عن طور العقل والاتزان ، فلم تبل أن تلقى بصفير السخرية والازدراء فلول جيشها وهى ترنح فى شوارع نابلى آسفة كسيفة !

فموسولينى لم يخلق فى ايطاليا روح الفتح ولم يثر فيها حركة الاستعمار ، وانما وجد هذا الروح خافتا فألهبه وأذكاه ، وتلقى هذه الحركة مضطربة مشتتة فنظم طريقها وعين وجهتها . وقد وجد موسولينى من ورائه دافعين قويين يوجهانه وجهة الاستعمار ، أحدهما الدافع النفسى وثانيهما الدافع السياسى :

فالنظام الديكتاتورى لا يلقى الرضى والتوفيق الا اذا قام على أسس « سيكلوجية » تستغل عوامل القلق ونواحى النقص فى نفسية الشعوب فتقيمها أو تكملها ، وقد أدرك موسولينى ان كل ايطالى يتألم ويشكو ، ويكاد يضج ويثور ، من « عقدة نفسية » عنيفة نشأت أولا من تخلف ايطاليا عن أكثر الدول الاوربية فى مضمار السياسة بلا مبرر معقول ، ثم ازدادت عنفا اثر ما أصابها من الهزائم المنكرة فى أكثر المعارك التى خاضت غمارها فقام موسولينى يستغل هذه العقدة النفسية مناديا كل ايطالى : ان أنت الا ابن روما التى أذل سيفها البتار كل الرقاب ! ان أنت الا ابن قيصر الذى قهر الجيوش ودحر الشعوب ! . ثم أخذ يهتف به مغريا ومحرضا : ألا يضطرم قلبك بجذوة الفتوة ولهيب الشباب ، فلم لا تنتزع ما تريد من خيرات العالم من أيدى أولئك الانجليز والفرنسيين الذين أوهنتهم الاجيال وحطمتهم السنون ؟! ووجد الايطالى فى هذا النداء بل فى هذا الاغراء فرجة عن ضيقه النفسى ، فأسلم الشعب قياده لموسولينى يوجهه أنى شاء ، وسار وراءه كما يسير القطيع وراء راعيه ، يحاول أن يقهر ويفتح ويملك ويسود ...

هذا هو الدافع النفسى أما الدافع السياسى فهو شعور ايطاليا بأنها خدعت فى الحرب الماضية خدعة كبرى . فقد وعدتها بريطانيا وفرنسا فى معاهدة لندن السرية فى ٢٦ ابريل سنة ١٩١٥ ـ جزاء لها على تخليها عن ألمانيا وانضوائها تحت لوائهما ـ بأن تشترك معهما يوم النصر فى اقتسام أملاك ألمانيا فى افريقية على حد سواء . ولكن لم تكن هذه المعاهدة الا من قبيل تلك المواثيق الغامضة والتصاريح المبهمة التى وضعت على عجل وسط المعركة ، لامر واحد هو جمع كل من يتيسر من الانصار والحلفاء . فلم يتهيأ لهذه المعاهدة من الدراسة الكافية ما يضمن تنفيذها ، فلما أخذت الدول المنتصرة تقتسم الغنائم فى معاهدة فرساى نالت بريطانيا أكثر ما كان لالمانيا فى أرجاء افريقية من الاملاك ، واكتفت فرنسا باقليمى الالزاس واللورين وبعض مناطق قليلة خارج أوربا ، ولم تصب ايطاليا سوى أجزاء خالية عند بعض تخومها عدلت بها جزءا بسيطا من حدودها اذ أضافت اليها تريستا وفيومى . وقد كانت هذه القسمة من أسباب ظهور موسولينى وقيام الفاشستية ، ثم من دواعى اتجاه ايطاليا وجهة استعمارية ، شهرت لها الحروب تارة فى افريقية وتارة فى أوربا

يضاف الى هذا وذاك العامل المادى الذى تنشأ منه دائما مشكلة الاستعمار . فاذا استثنى سهل ايطاليا الخصيب لم تكن الا سلاسل من الجبال والقفار لا تكاد تنتج شيئا ، وليس فى باطنها من المعادن والوقود ما يهيء لها من الثروة الصناعية ما يغنيها عن الثروة الزراعية واذن فلا يستطيع شعبها أن يرتفع بمستوى حياته الى حيث تحيا الشعوب الراقية الا اذا أضاف اليها أملاكا أخرى يستمد منها ما يفتقر اليه من محاصيل ومعادن ويصرف فيها ما تضيق به سوقها من منتجات الزراعة والصناعة . ومما زاد فى حاجة ايطاليا الى هذه الاملاك فى السنين الاخيرة أن أقفلت فى وجوه أبنائها أكثر أبواب الهجرة ، وخصوصا الى أمريكا حيث كان يلتمس كثير منهم مصدرا سخيا للعمل والرزق ، فلم يكن بد لهذا الشعب اذن من أن يفكر جديا فى الاستعمار ، ولا سيما وقد بث فيه موسولينى روحا من الخيلاء والاعتداد

***

فأين يجد هذه المستعمرات، أين يجد مجاله الحيوى، أين ينشىء أمبراطوريته المرتجاة ؟

كانت الدول الاستعمارية تلقى بصرها أول ما تلقى الى المناطق الاستوائية حيث يسهل عليها امتلاك ما تشاء ، اذ لا يكلفها الامر سوى مبشر كلفنجستون أو مكتشف كستانلى أو حملة لا تكاد تقاتل شيئا ، فصارت هذه المناطق كلها فى أيدى دول أوربا الكبرى فلاسبيل اليها الا حرب لم تتهيأ لموسولينى فى بدء أمره أسبابها وقواتها . هذا الى ان التجارب أثبتت ان هذه المناطق لا تستحق من الناحية الاقتصادية اثارة الحروب الدولية واحتمال خسائرها الفادحة ، فقد قرر القسم الاقتصادى فى عصبة الامم ان مجموع ما تنتجه المستعمرات الاستوائية فى افريقية وفى أمريكا لا يتجاوز ٠٤/٠ من مجموع الانتاج العالمى ، فكيف يرضى ويجرؤ موسولينى على أن يحارب بلجيكا مثلا ، دع عنك بريطانيا ، لينال جزءا بسيطا من هذا الانتاج التافه ، ولا سيما اذ يرى هتلر ــ وشتان ما بين شعبيهما وقوتيهما ــ يعلن فى كتابه كفاحى ان فكرة استرداد مستعمرات ألمانيا الافريقية ليست الا « دسيسة يبثها اليهود ليفسدوا ما بين ألمانيا وبريطانيا » !؟ والواقع ان المناطق الاستوائية لم تعد المجال الحيوى الملائم لدولة ناشئة كايطاليا ، ولا سيما بعد أن استنفدت الدول الاخرى أكثر خيراتها ، كما ان امتلاك منطقة منها لن يتأتى الا عن طريق حرب تقف فيها ايطاليا الضعيفة تجاه الدول الكبرى التى تهيأ لها على مرور الزمن قوات وجيوش وتجارب لا قبل للايطاليين بها

وهذه مستعمرات ايطاليا فى افريقية لا تكاد تجديها نفعا ، فقد عجز الايطاليون عن أن يسكنوها ويستغلوها ، ولم يزد عددهم فى ليبيا وأرتريا والصومال ــ باستثناء الجنود ــ عن أربعين ألف فرد منذ عهد قريب ، ولم تتجاوز صادرات ايطاليا اليها جميعا سبعة ملايين من الجنيهات وواردات ايطاليا منها مليونين من الجنيهات !

يعترض على هذا بأن ايطاليا أثارت حربا وجردت جيشا لتحتل الحبشة وما هى الامنطقة

استوائية • ولكن لنذكر دائما ان ايطاليا فتحت الحبشة فى عهد موسولينى ، كما فتحت طرابلس من قبل ، لتتخذها فى أعمالها الحربية القادمة تنفيذا لخطتها الاستعمارية الكبرى ، ولم تكن مواردها الاقتصادية التى لا تستحق ما بذل فى سبيلها من دماء الجنود وما يبذل الآن من عرق العمال ، الا طعما يغرى به الايطاليون الذين يخشون الحرب ويفرقون من النضال ، والا ستارا تختفى وراءه ايطاليا أطماعها السياسية أمام خصومها وأرصادها

أتجد ايطاليا اذن مجالها الحيوى فى أوربا ؟ ما من شك فى ان مناطق البلقان هى مطمح أنظار موسولينى ، فهو يعدها أزوج سوق توزع فيها منتجات ايطاليا ، وأسخى مورد ينال منه ما يفتقر اليه من حبوب وبترول ومعادن • ولكن كيف له أن يملك هذا البلقان وكله شعوب أمضت حياتها فى ثورة وكفاح ، واعتدت جميعا بجيوش وقوات ، وتحالفت سويا للحرب والدفاع ، ومن ورائها روسيا وألمانيا وبريطانيا تحميها وترعاها حماية ورعاية لما لها فى أرجائها من المصالح الكبرى • وهل ينسى موسولينى انه وقف يخطب ذات مرة فى روما وأشار بيده مشرقا قائلا : « هنا يجب أن نتوسع » ، فما كان من أتاتورك الا أن استدعى سفير ايطاليا فى انقرة واستقبله فى لباسه العسكرى قائلا : قل لسيدك انى فى انتظاره !

اذا فمجال ايطاليا الحيوى محصور فى هذه المناطق التى تمتد حول البحر الابيض المتوسط من ناحية الشرق والجنوب • أى فى هذا الشرق العربى الذى يتحدث عنه الآن موسولينى حديثا ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب

وهذه هى المسألة الكبرى التى يجب أن يتركز حولها تفكير الشرق العربى فى هذه الآونة التى تركزت فيها حوله قوات ايطاليا الطامحة الى اتخاذه مجالا حيويا تنشىء فيه أمبراطوريتها • فما ينبغى أن تخدعه الدعاية التى تبثها الآن ايطاليا توهمه بها أن لا مطمح لها فى أراضيه ولا فى حرياته ، عن تلك الخطة التى أعدتها منذ عهد بعيد ودأبت عليها أمدا طويلا • فلم يخف موسولينى ودعاته يوما ما ـ اذا استثنينا هذه الشهور الاخيرة حين أرادوا أن يصرفوا الاذهان عما يريدون بالشرق العربى ـ ان روما يجب أن تعيد مجدها وملكها فى أرجاء البحر الابيض • فخطب موسولينى وصحف داعيته « جايدا » تردد من آن لآن ان « البحر الابيض بحرنا أو بحيرتنا ، وان حوض البحر الابيض مجالنا أو حياتنا »

***

والواقع انا حين نلقى النظر على الاساليب الغريبة التى كان يتخذها موسولينى الى ماقبل نشوب الحرب فى مصر وسورية أو تونس ، لرأيناها تماثل الاساليب البارعة التى اتخذها فى الحبشة واسبانيا وألبانيا قبل أن يسير اليها جيوشه ليجعل منها أملاكا يستعمرها أو مناطق نفوذ يسيطر عليها ، وحسبنا أن نشير الى الوسائل التى جرى عليها الايطاليون فى تلك البلاد التى وقعت فريسة أيديهم لنتبين انهم اتخذوا لها أمثالا كثيرة فى شتى أرجاء

الشرق العربى ليظفروا من بلاده بما ظفروا به من تلك الاقاليم التى جعلوها نواة أمبراطوريتهم

أولى هذه الوسائل الاستعمارية هى « الدعاية » التى أدرك موسولينى ، كما أدرك لينين من قبل وهتلر من بعد أثرها الخطير بما تذيعه من أسباب الثقافة وبما تهيئه من أسواق التجارة وبما تيسره من عوامل النفوذ السياسى • فموسولينى الذى أعلن أول ما قام بالحكم ان الفاشستية ليست بضاعة أعدت للتصدير الى الخارج بل هى نظام داخلى لا يتعدى حدود ايطاليا ، هو ذاته الذى أعد هذه الوسائل البارعة للدعاية للنظام الفاشستى فى أرجاء الشرق العربى • ففى أنحائه تنتشر المدارس الايطالية التى تفسح مقاعدها لابناء البلاد يتلقون فيها مبادىء الثقافة الايطالية مشفوعة بتمجيد ايطاليا وديكتاتورها وفاشستيتها ، وتقوم الى جانبها المدارس الليلية تجتذب الطلاب المتقدمين والشبان المتعلمين وتنشر بينهم الدعوة السياسية ملفوفة فى غلاف شفاف من الدعوة الثقافية ، ثم هناك المستشفيات الايطالية المنبثة هنا وهناك تقدم لمرضاها العلاج والدواء بينما هى تبشرهم بمجد روما ومستقبل موسولينى ، وهناك كذلك الرحلات والبعثات التى كانت تتيح لكثير من الطلاب والمتعلمين أن يزوروا ايطاليا ويشاهدوا مظاهر تقدمها فى ظل موسولينى ليعودوا الى بلادهم دعاة لها مأجورين أو مخدوعين • وهذا الاسلوب من الدعاية قد رآه أبناء الشرق العربى كما رآه من قبل أبناء اسبانيا وألبانيا والحبشة ، فلا تخفى عليهم غاياته ولا تبهم عليهم نياته وقد انحسر اللثام عنها فى كثير من البلاد

والى جانب هذه الدعاية المستورة تقوم دعاية أشد أثرا وخطرا هى الدعاية المباشرة التى كانت تبثها ايطاليا فى كثير من الصحف • فالصحافة فى البلاد الديمقراطية تستمتع بحرية واسعة لا شك فى مزاياها ولكن لا جدال فى سيئاتها ، فقد تجعل من الصحافة يوما ما أداة أذى بالغ وسوء فادح ، فهذه الصحافة الحرة التى تقوم على أسس تجارية قد يسهل اغراؤها بالرشى الكبيرة فاذا بها وسيلة طيعة للدعاية تبثها فى أذهان الجماهير هذا فضلا عن تلك الصحف التى يرى موجهوها ان من الخير لبلادهم أن يميلوا بها الى اتجاهات سياسية واجتماعية معينة دون أن يقصدوا عامدين الى خدمة دولة أجنبية على حساب دولتهم • وقد كانت هذه الدعاية الصحافية التى تبثها ايطاليا بارزة فى صحف اسبانيا قبل أن يثير موسولينى حربها الاهلية ، وكذلك كانت بوادرها بادية فى كثير من الصحف العربية التى لا نتجنى فنقول اشتراها ذهب موسولينى ، بل نقتصد ونقول خدعتها مظاهر النظام الفاشستى

وسيلة الدعاية هذه ، ما كان منها صريحا واضحا وما كان منها مبهما خفيا ، هى أولى الدرجات التى يرقاها موسولينى ليبسط نفوذه على ما يطمح اليه من البلاد • تليها أو تصحبها الوسيلة الثانية وهى « تنظيم الجالية الايطالية » فى كل بلد يرمقه موسولينى بعين الفتح فى يوم قريب أو بعيد • وقد وجدت ايطاليا هذه الوسيلة مهيأة ميسرة لها فى حوض البحر الابيض حيث ينتشر آلاف الايطاليين فى أرجائه ، ففى مراكش ١٢٠ر٠٠٠ ايطالى ،

وفي الجزائر ٤٠٠٠٠ وفي تونس قرابة ١٠٠٠٠٠ وفي مصر زهاء ٨٠٠٠٠ وكذلك الامر في سورية وتركيا واليونان وبلغاريا حيث يقيم عشرات الالوف من أبناء ايطاليا . وليست هذه الجاليات الايطالية من أكبر الجاليات الاجنبية عددا فحسب بل ومن أوفرها نشاطا وأخطرها تأثيرا . فالايطالي ، ككل لاتيني ، يسهل عليه الاندماج في أي وسط أجنبي ينزل فيه . فهو يتعلم لغة البلد التي يهاجر اليها أو يتاجر فيها ، وهو لا يعيش في وسط منعزل بل يؤثر الوسط المأهول حيث يمتزج بالناس ، وهو يعمل أينما وجد العمل لا يأنف من أي مصدر يجد فيه رزقه مهما كان زريا ، وهو الى هذا فقير عادة فلا يهابه الناس بل يألفونه ويخالطونه ، ولا سيما ان جميع أبناء حوض البحر الابيض يتشابهون عادة في طرائق الحياة الاولى . وهذا على نقيض الانجليز مثلا ، فهم يعيشون في المهاجر في أوساط خاصة بهم منعزلة عن الناس ، وقلما يتعلم أحدهم لغة البلد التي يرحل اليها مهما طالت بها اقامته ، وقلما ينزل أحدهم الى مزاحمة الناس في مصادر أرزاقهم بل يؤثر أعمالا خاصة تباعد بينه وبين جمهرة الناس . ولعل مرجع هذا الى ان الانجليزي لايتخذ من أي بلد أجنبي مهجرا يقيم فيه مدى حياته ، بل يجعل من هجرته شبه رحلة طويلة تنقضي يوما ما يعود فيه الى وطنه الاول ، على خلاف الايطالي الذي يتخذ من هذا المهجر وطنا أصيلا يركز فيه حياته وحياة أعقابه . وقد وجد موسوليني في هذه الجاليات الايطالية خير سبيل الى تمهيد طرائقه السياسية ، فنظم هيآتها ومنشآتها ، وأحكم الصلة بينها وبين ايطاليا ، كما وثق العلائق بين بعضها بعضا ، حتى غدت كأنها جزر منتشرة هنا وهناك وسط محيط ايطاليا الكبرى كما يقول . وهكذا لم يعد الايطالي المهاجر ، كاليوناني المهاجر ، لا يعرف الا مهجره حيث يعمل ويقيم ، بل راح يتجه بنظره الى هدف واحد هو روما يستلهمها ويستهديها في أعماله وأقواله . هذه الجاليات الايطالية المنظمة الناشطة التي أدت مهمتها على خير وجه في اسبانيا وألبانيا والحبشة ، هي التي أراد موسوليني أن تؤدي مهمتها في شتى أرجاء الشرق العربي في وقت غفلت فيه أعين انجلترا وفرنسا كما قد تغفل عين الاسد ساعة ما . وهل من مبرر لهذه الجهود الناصبة وهذه الاموال الجمة التي بذلها موسوليني في تنظيم جالياته في الشرق العربي تنظيما فاشستيا يثير فيها أطماع الفتح والغلبة ويخلق فيها روح السيادة والاستعمار ، لولا انه يقيم آماله فوق هذه الاراضي العربية ؟

اذا تتبعنا الجهود الايطالية في البلدين اللذين وقعا في قبضة ايطاليا وفي اسبانيا التي أراد موسوليني أن يزج بها في منطقة نفوذه ، ألفينا ان طرائقه في الدعاية السياسية وفي تنظيم الجالية الايطالية أعقبتها الوسيلة الثالثة ، وهي اثارة الفتنة الداخلية تمهيدا لاقامة حرب أهلية تفتح له ثغرة ينفذ منها الى الصميم . وهذه الوسيلة الثالثة تتألف من خطوات أولاها اصطناع رجل أو حزب بالرشى أو بالوعود لتشكيك الناس في النظام القائم في بلادهم وتأليبهم على السلطات القائمة بأمرهم ، ثم اعدادهم بالمال والسلاح لاثارة حرب أهلية

تتذرعها ايطاليا لتتدخل تدخلا حربيا ظاهرا أو مستورا . فرأينا فى الحبشة الرأس جوجسا وقبائله تتمرد على الحكومة وتثير القلاقل ، ورأينا فى اسبانيا الجنرال فرانكو وحزبه الوطنى يثير حربا أهلية كبرى ، ورأينا ايطاليا هنا وهناك ترسل جيوشها وتسير متطوعيها فيتم لها ما أرادت من نشر لوائها أو بث نفوذها

وقد شهد الشرق العربى بوادر حركات من هذا القبيل ، نعيذ من قاموا بها من انهم أرادوا بها الفتنة والثورة مدفوعين مأجورين ، وانما نحملها على ما كان من تغرير النظم الفاشستية بالشباب الذى يرى فيها عنصرا من الجدة والثورة يوائم شبابهم ونشاطهم ، فساروا فيه غير مقدرين ما يمكن أن تستهدف له أوطانهم من أذى الحالمين به والطامعين فيه . واذا كان الشرق العربى قد أنجته يقظته من هذه الفتنة الخطيرة قبل أن تصيب منه مقتلا ، فما يجوز له أن يغفل بعد الآن عن ان ايطاليا ما كانت تحجم عن اتخاذه مسرحا لخطوتها الثالثة ، للحرب الاهلية ، لو ظل أبناؤه غافلين أو مخدوعين عما تريده بهم من أطماع

***

وما لنا نفترض ونستنتج لنثبت ان ايطاليا تريد أن تفتح صفحة جديدة فى سجل الاستعمار وهذا موسولينى يقول : « هل ما كان حلالا لغيرنا فيما مضى صار حراما علينا الآن ، وهل ما أباح لبريطانيا أن تنشىء أمبراطوريتها يحرم على ايطاليا أن تفتح وتستعمر ما تحتاجه من البلاد » . وما لنا نفترض ونستنتج لنثبت ان هذه البلاد التى تريد ايطاليا أن تفتحها وتستعمرها ليست فى مناطق الغابات وليست فى بلاد البلقان ، وانما هى فى حوض البحر الابيض حيث تترامى بلاد الشرق العربى ، وهذا موسولينى يخطب قائلا : « ان مهمة ايطاليا هى نشر المدنية فى افريقية ، وان مركزنا فى البحر الابيض المتوسط يمنحنا هذا الحق بل يجعله فرضا علينا واجبا »

ولكن ايطاليا لم تختر الوقت الملائم لتنفيذ سياستها الاستعمارية ، فقد بدأتها فى وقت انطلق فيه أبناء العروبة من أصفاد الاستعمار وتنسموا فيه روح الحرية ، فلن تجد اليه طريقا الا على أجداث الاجناد والضحايا

عبد الحميد عبد الغنى



الذهب الأسود السيّال

هدف من الاهداف الحربية فى الشرق العربى

جوهران ثمينان تتنافس الدول فى اقتنائهما والتفرد بهما : الذهب الاصفر الصلب ، والذهب الاسود السيال .. النضار ، والبترول

فالذهب الاصفر غذاء الصرف على آلة الحرب . والذهب الاسود غذاء الآلات نفسها ووقودها ، والسائل الذى اذا انقطع وروده وقفت آلة القتال

أجل . فالطائرات ، والدبابات ، والسيارات المصفحة ، والقطع الميكانيكية المختلفة ، والبوارج ، والقطع البحرية بمختلف طرازاتها وحمولاتها ، كل أولئك وقودها البترول. ونارها البترول . وأزيزها البترول

وتسابق شعوب الارض على هذا الذهب الاسود السيال رسم خطى التاريخ الحديث منذ أفتى علماء طبقات الارض الروس بأن فى منطقة باكو وباطوم سائلا أسود منتنا لا قيمة له على الاطلاق .. ثم تبين للعالم ان هذا السائل المنتن هو أثمن ما أودع فى جوف الارض من كنوز

منذ ذاك الوقت اشتد الطلب على البترول . واتجه الاستعمار الغربى الى حيث ينبع وحيكت الدسائس والاحابيل ، واشتعلت نيران الحروب من أجل الوصول الى تلك الآبار ولعب التجسس والتهديد والمال كل دوره فى الروسيا والولايات المتحدة وفنزويلاوايران والهند الهولندية ورومانيا والمكسيك والارجنتين وسائر الاقطار التى وجدت فيها منابع للبترول . والشرق العربى كان له فى هذا التسابق الهائل نصيب اذ اتجهت الانظار اليه بقوة عندما تبين ان الذهب الاسود السيال ينبع فى بعض أقطاره

منابع البترول فى العراق

كان وجود البترول فى العراق معروفا قبل الحرب العظمى الماضية . ولكن حالة السلطنة العثمانية المعروفة اذ ذاك لم تمكنها من استثماره . أو لعلها خشيت أن تفتح أعين الغرب على هذه المنابع الجديدة للثروة فتواجه بسببها مشاكل كثيرة هى فى غنى عنها . ولكن أنظار الغرب ظلت متطلعة الى ما بين النهرين . حتى اذا ما هزمت تركيا فى الحرب العظمى أصبح العراق تحت النفوذ البريطانى . ثم كان بين انجلترا والحركة الكمالية تلك الازمة الحربية الخطيرة المعروفة التى أفضت الى تنازل الترك عن الموصل . ومن ثم نفضت تركيا يديها من العراق بأجمعه ، واتفقت بريطانيا العظمى مع المملكة العراقية الناشئة على



تبين هذه الخريطة منابع البترول فى الشرق العربى ، وهى فى العراق على مقربة من كركوك ، وفى جزيرة البحرين ، وفى مصر على شواطىء البحر الاحمر ، وفى الحجاز بمنطقة الدامان

استثمار حقول البترول في العراق • وافتتحت البئر الاولى في ١٤ اكتوبر سنة ١٩٢٧ بقوة عشرة آلاف طن في اليوم

وتقع آبار البترول العراقية حول كركوك بالقرب من الحدود الجنوبية الغربية لايران ، وقد مدت منها أنبوبتان ضخمتان لنقل البترول الى الشاطىء ، وهما تنحدران جنوبا بغرب حتى مدينة « حديثة » ، ثم تتجه احداهما غربا الى ميناء طرابلس ــ وهى التى تعرف بأنبوبة البترول الفرنسية ، وتتجه الاخرى جنوبا بغرب الى حيفا ــ وهى أنبوبة البترول البريطانية

ويأتى ترتيب العراق بين الدول المنتجة للبترول فى المقام الثامن من أكثر من ٢٣ دولة تنتجه

بترول البحرين

وجزيرة البحرين كما نعلم بقعة صحراوية واقعة فى منتصف الخليج الفارسى على بعد نحو ثلاثين ميلا من ساحل بلاد العرب الشرقى

فى هذه البقعة العربية النائية اكتشفت منابع البترول • ونال امتياز استخراجه شركة « ستاندرد أويل » الاميركية العالمية

ويرجع الفضل فى اكتشاف آبار بترول البحرين الى مغامر نيوزيلندى يدعى الماجور فرنك هولمز • هذا المغامر كان يطوف ببلاد العرب وجنوب ايران سعيا وراء البترول • فلما مر بالبحرين توقع ان فيها حقول بترول لقربها من حقول البترول الايرانية • فاتفق مع أمير البحرين اذ ذاك على أن يحفر له آبارا للماء فى مقابل منحه امتياز استنباط البترول فى بلاده • فتم الاتفاق على ذلك • ثم ذهب فرنك هولمز الى انجلترا وعرض امتيازه على مختلف المشتغلين بمسائل الزيت فما ألقوا اليه بالا ظنا منهم ان أرض البحرين لا تحوى بترولا على الاطلاق فاستأذن الحكومة البريطانية فى الاستعانة باحدى شركات البترول الاميركية فأذنت له • فاتفق مع شركة « ستاندرد أويل » الاميركية على استغلال آبار البحرين • وما تزال الشركة تعمل هناك وتستنبط من البترول كميات وافرة كل يوم

وامارة البحرين هى الدولة الرابعة عشرة بين الدول المنتجة للبترول

بترول الحجاز

ولعل ظهور آبار البترول فى البحرين والعراق هو الذى دعا جلالة الملك عبد العزيز آل سعود الى الاهتمام بأمر هذا المورد الجديد من موارد الثروة • فبعث بمندوب الى بريطانيا ليجس النبض هناك ويحمل احدى الشركات على استغلال بترول بلاده ، ولكن الخبراء البريطانيين كانوا قد اقتنعوا بأن أرض الحجاز لا تحوى بترولا قط ، وانه ان يكن فيها شىء منه فانه لا يوازى ما سينفق على استنباطه من مال كثير

على ان الاميركيين كانت لهم وجهة نظر أخرى • فما دامت أرض البحرين تحوى بترولا فلم لا يكون الساحل الشرقى للجزيرة العربية زاخرا بهذا الزيت أيضا ، وبخاصة اذا عرفنا ان المنطقة كلها من الناحية الجيولوجية تعتبر منطقة واحدة فصل بينها منخفض الخليج الفارسى فى عصر من العصور الجيولوجية السحيقة

فبدأوا يقومون بحفرياتهم فى عام ١٩٣٣ • ووفقوا فعلا الى استنباط منابع متعددة • ولكنهم لم يستغلوا البئر الاولى الا فى يونيه عام ١٩٣٦ فى المنطقة التى تعرف بمنطقة « الدامان » حيث استخرجت كمية من البترول تزيد على ٢٠٠ر٠٠٠ برميل

وبلغ مساحة المنطقة التى منح امتيازها للشركة الاميركية ١٦٥ر٠٠٠ ميل مربع فى الجهة الشرقية والشمالية الشرقية للملكة السعودية • وقد نظمت الشركة حتى سنة ١٩٣٩

استغلال ٤٣ ميلا فى هذه المنطقة من الدامان الى الخليج الفارسى

وقد شرف الملك بن سعود حفلة افتتاح أول بئر من آبار الزيت الجديدة فى أرض مملكته ، وأطلق بيده أول كمية من البترول استخرجت منها . ثم أذن للشركة فى استغلال ٩٠٫٠٠٠ ميل مربع أخرى من الارض السعودية نظير دفع مبلغ ١٫١٥٠٫٠٠٠ ريال مقدما ، و ١٦٥٫٠٠٠ ريال سنويا عن الارض التى لم تستغل بعد

بترول مصر

واستنباط البترول فى مصر قريب العهد أيضا . وهو يوجد بكثرة لا بأس بها فى الحقول التى اكتشفت أخيرا على امتداد ساحل البحر الاحمر من السويس الى الغردقة بما بينهما من حقول جديدة عثر عليها عند رأس غريب . واستخرج من البترول المصرى فى عام ١٩٣١ ما يقدر بـ ٢٢١٫٠٢٨ طنا ، ثم زاد الى ٢٨٥٫٠٠٠ طن فى عام ١٩٣٤ ، ثم نقص عن مائتى ألف طن فى أعوام ١٩٣٥ و ١٩٣٦ و ١٩٣٧ ، ثم عاد فارتفع فى عام ١٩٣٨ الى ٢٣٠٫٠٠٠ طن ، وقفز فى العام الماضى الى حوالى ٦٥٠٫٠٠٠ طن . ويتوقع الخبراء أن يعثروا على ينابيع أخرى كثيرة على ساحل البحر الاحمر سوف تكون مصدر ربح وفير للشركة القائمة على استنباطه

حرب البترول

فالشرق الادنى العربى اذن غنى بآبار البترول . وهذا الغنى يقضى بطبيعة الحال الى تفتح أعين الطامعين فيه . وهو الآن فى أيدى شركات بريطانية أو أميركية ، وبديهى ألا يقع بين بريطانيا وأميركا نزاع بشأن هذا البترول . أما باقى الدول الدكتاتورية الطامعة ، فلها مع بترول الشرق العربى شأن آخر

ولا عجب ، فالحلفاء فى الحرب العظمى الماضية « قد طفوا الى النصر فوق موجة من البترول » على حد قول اللورد كيرزون . ولويد جورج يقول غداة الحرب « لقد كان البترول سبب ظفرنا » . والنمر الفرنسى كليمانصو قال فى احدى رسائله الى ولسن فى عام ١٩١٧ : « ان كل قطرة من البترول توازى قطرة من الدم ! » ، وروزفلت فى عام ١٩٣٨ ينادى « بأن البترول قد غدا عصب الحرب »

وقد كان هم الالمان الاكبر فى محاولاتهم الكثيرة لضم الاقطار العربية الى صف الريخ قبل اعلان الحرب الحصول على امتيازات البترول بأية وسيلة ، ومهما كان الثمن . وجهود الدكتور جروبا وزير ألمانيا المفوض فى بغداد ، والذى سماه بعض الواقفين على نواحى نشاطه العجيب « لورانس العرب » كانت كلها متجهة نحو البترول العراقى والحجازى وحقول البحرين . ويروى بعض الواقفين على بواطن الامور حوادث أشبه بالروايات عما

(البقية على صفحة ١٥٢)

الصحافة العربية

فى مختلف الاقطار

للحرب الراهنة أثرها فى الصحافة العربية كما تأثرت بها سائر الحرف والفنون . فقد توقف بعض الصحف عن الصدور وقل عدد الصفحات وضؤلت الموارد وضاق مجال الانتشار . لذلك رأى الهلال أن يتحدث فى هذا العدد عن الصحافة العربية قبيل هذه الحرب راجياً أن تزول هذه الكارثة عما قريب فتعود الصحافة الى سيرها ويطرد تقدمها

يحق للصحافة العربية أن تباهى بما قطعته من مراحل فى سبيل الرقى والانتشار ، سواء أكان ذلك من حيث التحرير أو التنسيق أو الطبع . واذا قسنا مبلغ تقدم الصحافة العربية بمثله فى الأقطار الاخرى ، فانه يتبين لنا بجلاء ان الصحافة فى بعض الأقطار التى عرفت هذا الفن قبل مصر أو لبنان أو سورية لا تزال متأخرة كثيرا عما بلغته صحف هذه الأقطار العربية الثلاثة

وفضل الصحف العربية فى مختلف الأقطار يفوق فضل غيرها من الصحف فى مجابهة الصعاب والتغلب عليها . فان ما تعانيه الصحف العربية فى أوطانها لا تعانيه صحف أخرى فى الشرق أو فى الغرب . وكثيرا ما يحدث أن تجد الصحيفة العربية نفسها أمام سلطة أجنبية مسيطرة تحاربها ، وسلطة محلية غاشمة تطاردها ، وقراء قليلين لا يؤيدونها ولا يساعدونها اذا ما حلت بها نقمة احدى السلطتين أو السلطتين معا . وبالرغم من ذلك كله ، فقد قطعت الصحافة العربية فى قرن واحد شوطا بعيدا وارتفعت الى ذروة تحسدها عليه صحافة بلدان كثيرة تتمتع بحريات لا يعرفها الشرق العربى

ان أول جريدة عربية ظهرت فى العصر الحديث هى جريدة « التنبيه » التى أصدرها الجنرال بونابرت فى الاسكندرية سنة ١٨٠٠ على أثر الاحتلال الفرنسى . والجريدة العربية الثانية التى برزت من بعدها هى جريدة « الوقائع المصرية » التى صدر العدد الاول منها بقرار من محمد على باشا جد الأسرة المالكة فى ٣ ديسمبر سنة ١٨٢٨ ـ ومنذ ذلك الوقت الى أيامنا هذه بلغ عدد الصحف العربية التى ظهرت فى الشرق العربى وافريقيا الشمالية وبعض مدن أوربا وفى أميركا أكثر من ثلاثة آلاف جريدة

غير ان الجريدة الوحيدة التى شهدت بزوغ فجر الصحافة العربية فى العالم ولا تزال تشهد الى الآن تطوراتها ورقيها هى « الوقائع المصرية » ـ جريدة الحكومة الرسمية ـ فهى شيخة الصحف على الاطلاق

وكما ان مصر كانت أول قطر عربي ظهرت فيه الصحف العربية الاولى ، فانها لاتزال الى الآن أغنى الاقطار العربية وأرقاها في هذا المضمار . فأكبر الصحف حجما ، وأوفرها مادة ، وأوسعها انتشارا ، وأتقنها طبعا ، وأجملها تنسيقا ، هي بلا شك الصحف المصرية . وعدد الصحف التي صدرت في مصر منذ صدور أول جريدة عربية الى اليوم يوازي تقريبا مجموع الصحف العربية التي صدرت في مختلف الاقطار والامصار

***

ان لمصر فضلا ثلاثيا على الصحافة العربية . ففيها ظهرت أول جريدة عربية
وفيها يصدر الآن أكبر عدد من الصحف العربية
وفيها تصدر أكثر الصحف العربية اتقانا

وأول جريدة صدرت في مصر بعد « الوقائع المصرية » هي جريدة « وادي النيل » لمؤسسها عبد الله أبي السعود ، وذلك في سنة ١٨٦٦ . وتبعتها صحف أخرى في عهد سعيد باشا واسماعيل باشا وتوفيق باشا ثم استأنفت الصحف المصرية سيرها الى الامام بعد الحرب العظمى وانتقلت بطفرة واحدة الى مكانتها الحالية ، مجارية في ذلك النهضة الرائعة التي عمت جميع مواطن النشاط والعمل في مصر

وأقدم الصحف المصرية على قيد الحياة هي « الأهرام » التي أنشأها سليم بك وبشارة باشا تقلا في الاسكندرية سنة ١٨٧٦ ـ وتليها « المقطم » لصروف ونمر ومكاريوس ، وقد صدر العدد الاول منها في ١٤ فبراير سنة ١٨٨٩ بالقاهرة

وأقدم المجلات في مصر « المقتطف » التي أنشأها أصحاب المقطم في بيروت ثم نقلوها الى القاهرة . و « الهلال » لجرجي بك زيدان . وتعد مصر في مقدمة البلدان بعدد المجلات الاسبوعية التي صدرت فيها ولا يزال بعضها الى الآن رائجا . ونذكر منها مجلات دار الهلال ، والثقافة ، والرسالة ، وآخر ساعة ، وروزاليوسف ؛ وهناك طائفة كبيرة من الجرائد الاسبوعية يضيق المقام هنا عن ذكرها وكلها تساهم في نهضة الصحافة المصرية

***

ان المقام الثاني ـ بعد مصر ـ في ميدان الصحافة للبنان . وقد صدرت أول جريدة عربية في لبنان سنة ١٨٥٨ وهي « حديقة الاخبار » لخليل الخوري . وصدرت بعدها جريدة « نفير سورية » لبطرس البستاني . وبلغ عدد الصحف التي صدرت في لبنان من ذلك الوقت الى الآن نحو خمسمائة جريدة ومجلة . واليوم تحتل الصحافة اللبنانية المكان الثاني بعد الصحافة المصرية من حيث العدد والاتقان والانتشار . وفي مقدمة الصحف اللبنانية جرائد « النهار ـ والاحرار ـ والبشير ـ ولسان الحال ـ والاحوال ـ والحديث ـ والبيرق ـ وبيروت ـ والمساء ـ والاتحاد اللبناني ـ واليوم »

وفي بيروت مجلات أدبية تساهم في الحركة الفكرية مساهمة عظيمة ، نذكر منها مجلة

« المكشوف » ومجلة « ألف ليلة » ، وللآباء اليسوعيين مجلة علمية جليلة هى « المشرق » وفى معظم المدن اللبنانية طائفة أخرى من الجرائد والمجلات الزاهرة

وللبنانيين يرجع معظم الفضل فى انشاء الصحافة العربية فى المهاجر البعيدة وعلى الخصوص فى أميركا الشمالية والجنوبية

***

أما فى سورية فان الجريدة الاولى قد ظهرت فى سنة ١٨٦٥ وهى جريدة « سورية » الرسمية • وتلتها جريدة « دمشق » لاحمد عزت باشا العابد سنة ١٨٧٩ • وتوالت الصحف فى العاصمة السورية والمدن الكبرى • وبلغت درجة من الرقى كبيرة بعد الحرب العظمى • وتصدر الآن فى دمشق صحف عديدة منها : « فتى العرب ـ والقبس ـ والانشاء ـ وألف باء ـ والايام والكفاح ـ والاستقلال العربى ـ والعمل القومى ـ والنضال »

وتصدر فى فلسطين جرائد راقية أيضا منها جريدة « فلسطين » وجريدة « الدفاع » وجريدة « الصراط المستقيم » وجريدة « الكرمل » ومجلة « النفير »

***

وفى العراق نهضة صحافية مباركة ، تسير جنبا الى جنب مع النهضة السياسية والتقدم العمرانى • وعدد الصحف العربية فى العراق يزداد سنة بعد سنة • وأهم الصحف فى القطر العراقى : « البلاد ـ والعراق ـ والاستقلال ـ والعالم العربى ـ والرأى العام ـ وفتى العراق » وغيرها

وفى الحجاز الآن ثلاث جرائد هى : « أم القرى ـ والمدينة المنورة ـ وصوت الحجاز »

وفى اليمن جريدة واحدة هى « الايمان » التى يشرف على اصدارها جلالة الامام يحيى بنفسه

وفى الهند الانكليزية والهند الهولندية طائفة من الصحف العربية التى لا يعرف عنها قراء الاقطار العربية غير القليل

ولا شك فى ان الصحف التونسية هى أرقى الصحف فى افريقيا الشمالية فى حين ان الصحف الطرابلسية تعد أدناها رقيا • ففى تونس عدد كبير من الجرائد اليومية الزاهرة التى تكافح فى ميدان الجهاد وتقارع الصعاب وتتغلب عليها • وتأتى بعد الصحافة التونسية الصحافة الجزائرية ثم الصحافة المغربية فى مراكش الفرنسية ومنطقة الريف الاسبانية

***

وقد أصدر المهاجرون السوريون واللبنانيون عددا كبيرا من الصحف العربية فى الاقطار التى هاجروا اليها ، وعلى الخصوص فى أميركا • وبين البلدان التى صدرت فيها جرائد عربية بفضل أولئك المهاجرين : روسيا ـ وفرنسا ـ وانكلترا ـ وايطاليا

غير ان أرقى صحافة عربية خارج البلدان العربية نفسها هى الصحافة الاميركية • ففى الولايات المتحدة تصدر جرائد عربية توازى الجرائد الصادرة فى مصر أو غيرها فى الشرق

الادنى . نذكر منها « الهدى » لمنشئها نعوم مكرزل سنة ١٨٩٨ وهى أول جريدة عربية طبعت بواسطة « اللينوتيب » وجريدة « مرآة الغرب » لمنشئها نجيب دياب . وجرائد « السهام ــ والبيان ــ والسائح ــ والنسر »

وفى جمهورية البرازيل جرائد عربية راقية منها : «أبوالهول ــ والرابطة ــ والاحرار ــ والميزان ــ والوطن ــ وفتى لبنان »

وفى الجمهورية الفضية (الارجنتين) جرائد كثيرة منها : « السلام ــ والاتحاد اللبنانى ــ والجريدة السورية اللبنانية » وغيرها . كما ان المهاجرين السوريين واللبنانيين يصدرون جرائد عديدة فى معظم المدن التى تقيم فيها جالية منهم يكفى عددها لضمان الرزق لجريدة أو أكثر !

***

وقد أدت الصحافة العربية فى الشرق والغرب والعالم الجديد خدمات جليلة للاقطار العربية فى نهضتها الحاضرة . فهى التى أبلغت صوتها الى العالم شرقا وغربا . وهى التى قربت بين الامم العربية وساعدت على توثيق الروابط وتوحيد الثقافة واطلاع كل بلد عربى على ما يجرى فى البلدان الاخرى . وبفضل هذه الصحافة العربية المنتشرة الآن فى جميع أنحاء العالم ، يستطيع كل قطر من الاقطار العربية أن يعلن رأيا أو احتجاجا أو طلبا فتردده الصحف العربية فى كل قطر ومصر ، وتبلغه مسامع العالم ــ وهذا ما لايتيسر لشعوب كثيرة . فسلاح الصحافة الذى تجرده الامم العربية فى وجوه خصومها يقوم الآن مقام المدافع والدبابات والجيوش التى تفتقر اليها هذه الامم . وهو سلاح كثيرا ما يكون أبعد أثرا وأشد وقعا من معدات الدمار والهلاك

الذهب الاسود السيال

(بقية المنشور على صفحة ١٤٨)

يسمونه « الاستقتال فى الحصول على البترول » .. وهى حوادث يصعب علينا تصديقها وان تكن بواعثها صحيحة ومعقولة

هذه الحوادث بعضها رهيب ويدل على امعان عجيب فى الدس والتجسس . ومن بعض مظاهرها اثارة الفتن والقلاقل والانقلابات الدامية .. ولكنها ختمت أخيرا بموقف الشرق العربى المعروف من المعسكر الدكتاتورى ، وما أفضى اليه من قطع العلاقات السياسية وعدم التعامل مع رسل الدعايات الالمانية والايطالية

وفى الحوادث القادمة المنتظرة سيلعب بترول الاقطار العربية دوره الحاسم . فلننتظر .. ولنترقب المستقبل ..

م . م . ت

الدعاية والجاسوسية

فى البلدان العربية

أصبحت البلاد العربية من بضع سنوات وما زالت الى الآن مسرحا لدعايات أجنبية واسعة لم يسبق لها مثيل من قبل • وتختفى هذه الدعايات تحت ستارها اعمالا أخرى تدخل فى نطاق الجاسوسية • فكثير من الدعاة ليسوا الا جواسيس

ويمكن القول ان لمعظم الدول التى لها علاقة ببلدان الشرق العربى أو لها مصلحة فيها نظاما خاصا للقيام بالدعاية السياسية والاقتصادية المقرونة أحيانا بالجاسوسية • والبلدان العربية وحدها هى التى لا تقوم بدعاية لنفسها !

وتنفق الحكومات الاجنبية على أعمال الدعاية والتجسس بسخاء • وقد يكون ذلك الانفاق وراء ستار للتمويه والتضليل ، كما سيجىء البيان

واستخدمت الدول الاوربية فى السنوات الأخيرة الاذاعات اللاسلكية لتوسيع نطاق دعاياتها ، فأنشأت فى عواصمها محطات للاذاعة باللغة العربية وغيرها من اللغات الشرقية ، وقد أصبح أمر محطات برلين وبارى ولندن وباريس وغيرها معروفا مشهورا من هذا القبيل • غير انه لا بد من الاشارة هنا ، تسجيلا للواقع واعترافا بالحق ، الى ان محطة الاذاعة البريطانية فى لندن هى أقل المحطات اندفاعا فى دعاياتها وأبعدها عن تشويه الحقائق والالتجاء الى التعبيرات الجافة المبتذلة للنيل من خصومها

***

ان أشد الدعايات الاجنبية عنفا وأبعدها اتساعا فى البلاد العربية هى بلا شك الدعاية الالمانية الايطالية • وكانت كل واحدة من دولتى المحور تقوم بدعايتها الخاصة فى بادىء الامر • ولكن عندما عقدت الدولتان تحالفهما الفولاذى المعروف ، تم الاتفاق بينهما على التعاون الوثيق فى بث الدعاة والجواسيس فى الاقطار العربية

وترغب الدولتان فى خطب ود العرب ، فألمانيا تحارب انكلترا عن طريق استثارة العرب ضدها • وايطاليا تفعل ذلك أيضا وهى فوق ما تقدم طامعة فى بسط نفوذها على جزء من بلدان العرب علاوة على طرابلس وبرقة

وقد بدأت الدعاية الايطالية تعمل وتتسع قبل الحرب الحبشية • ثم بلغت فى السنوات الاخيرة شأوا بعيدا • ومما يذكر ان القاهرة كانت مركزا لتلك الدعاية التى كان لها أيضا فروع فى معظم الاقطار المجاورة • فقد وحدت الحكومة الايطالية جميع الشركات التلغرافية فى شركة واحدة تشرف عليها وكالة ستيفانى • وأنشىء فى القاهرة مكتب

مركزى كان يقوم بالدعاية فى الشرق الادنى • فأخباره كانت توزع مجانا • وكثيرا ما كانت الشركة تدفع أجرا على نشر بعض الاخبار • كما كانت من ناحية أخرى توزع الاموال يمينا ويسارا على الدعاة والمأجورين • وفى وقت واحد كان لفيف من الايطاليين الذين عهد اليهم فى موافاة حكومتهم بالمعلومات السياسية والعسكرية وغيرها يعملون حول هذه الشركة ويستخدمونها لاغراضهم • وأولئك هم الجواسيس

ومما يذكر ان الحكومة الايطالية كانت تنفق فى مصر المبالغ المقررة للاعلان عن المصايف ومدن المياه المعدنية فى ايطاليا والمصانع والمتاجر لخدمة الدعاية السياسية ، وكانت المحلات التجارية الايطالية فى مصر تضع تحت تصرفها ميزانية اعلاناتها لانفاقها أيضا بمعرفتها فى هذا السبيل

وكانت الحكومة الالمانية تفعل مثل ذلك ليس فى مصر فقط بل فى البلدان العربية المجاورة أيضا • ونذكر هنا على سبيل المثال ان حكومة برلين اتفقت فى وقت من الاوقات مع شركة الراديو الالمانية المعروفة باسم تلفونكن لكى توزع فى بلاد العرب عددا كبيرا من آلات الراديو مجانا أو بأسعار تافهة على سبيل الدعاية ، كما كانت تلك الشركة تضع تحت تصرف الدعاة الالمان ثمن ما تبيعه من آلات الراديو لانفاقه أيضا على الدعاية ـ أو التجسس

وكانت شركات ألمانية أخرى تفعل ما تفعله شركة تلفونكن أيضا • أما ايطاليا فكان اعتمادها خصوصا على شركات السيارات التى كانت تقدم لها ذات المساعدة التى تقدمها شركة الراديو الالمانية لحكومة بلادها

وكان الدعاة الالمان والايطاليون يحاولون قبل كل شىء استمالة الصحف • ثم استمالة الشخصيات المعروفة بعلاقاتها الواسعة فى الاوساط الوطنية • ثم بث الدعوة لسماع الاذاعات اللاسلكية من محطة روما وبارى وبرلين

ومن دهاء الدعاية الالمانية والايطالية انها كانت تخفى دائما مساعيها وراء المشروعات التجارية والاقتصادية أو وراء ستار الدعوة الى السياحة • فمكتب السياحة الالمانى فى مصر كان يدير دفة الدعاية والتجسس فى مصر • وكان يشرف على الدعاية والتجسس معا فى الشرق الادنى كله الدكتور جروبا المشهور وزير ألمانيا المفوض فى العراق والمملكة العربية السعودية ، وهو الذى يفاخر به الالمان ويسمونه « اللورنس الالمانى »

أما الانكليز فقد أهملوا دعايتهم اهمالا تاما ، ثم استفاقوا من غفوتهم عندما رأوا خصومهم يعملون ضدهم فى ميدان واسع ، فنظموا دعاية لم تكن بالنسبة الى الدعاية الالمانية الايطالية شيئا يذكر اذا قيست بما يذيعه الالمان والايطاليون من أنباء وأخبار وأحاديث وينشرونه من مقالات وكتب وينفقونه من أموال طائلة • ولكن الدعاية الانكليزية والحق يقال تمتاز بشىء واحد وهو انها تعنى بوضع الامور فى نصابها والرد على أكاذيب خصوم بريطانيا أكثر مما تعنى بالاشادة بنفسها

أما فرنسا فان دعايتها ظلت الى النهاية ضعيفة بل كانت فى بعض الاحيان معدومة لا وجود لها • وقد يعود ذلك الى حرص الفرنسيين على أموالهم وعدم رغبتهم فى انفاقها للدعاية لبلادهم أو لمحاربة الدعاية التى يقوم بها خصومهم ضدهم ، لاعتقادهم ان هذا النوع من الحرب الكلامية والنضال الخفى لا فائدة منه

ورأينا فى السنوات الثلاث الاخيرة دعاية جديدة تحتل مكانها بين الدعايات الاجنبية ، ألا وهى الدعاية الاسبانية • فان الجنرال فرانكو وخصومه اتخذوا البلاد العربية أيضا مسرحا لنشاطهم وبثوا دعاتهم فى هذه البلاد لاستمالة الرأى العام فيها اليهم • والغرض من هذه الدعاية الاسبانية بين ظاهر • فان اسبانيا « الفرنكية » مثل اسبانيا الجمهورية ترغب فى توسيع ممتلكاتها فى افريقيا الشمالية على حساب العرب ، كما ترغب ايطاليا أيضا • فالدولتان تسيران من هذا القبيل على خطة واحدة

والغريب فى هذه الدعايات كلها ، ان كل دولة من الدول التى تحتل قطرا عربيا تدعى ان هذا القطر أسعد البلدان العربية على الاطلاق وان جارتها تسىء التصرف مع العرب الذين تحتل بلادهم بخلافها هى فى البلاد التى تحتلها • فاذا صدقنا ما تقوله لنا كل دولة عن الشعوب العربية الخاضعة لها ، وراجعنا الخرائط ، لوجدنا ان العرب فى بلدانهم أسعد خلق الله واذا صدقنا ما تقوله لنا كل دولة عن الشعوب العربية الخاضعة لغيرها من الدول ، وراجعنا الخرائط لوجدنا ان العرب فى جميع بلدانهم أتعس خلق الله !

••• فيا ليت شعرى ، ما الصحيح !

***

الصحيح ان للعرب فى كل قطر من أقطارهم شكايات • وان لهم من الآمال والامانى ما لغيرهم من الشعوب المغلوبة على أمرها ، وان تلك الدعايات جميعا لا تفيد القائمين بها شيئا • فالعرب قد عركتهم التجارب وعلمتهم الحوادث • فهم الآن ينظرون الى الاعمال لا الى الاقوال ، ويحكمون على كل دولة بما تفعله فى اخوانهم وفى الشعوب التى تسيطر عليها ، ويتخذون ذلك كله أساسا لتكوين فكرة عن الدول الاجنبية ومبلغ الصدق أو الكذب فيما تدعيه

نعم ان العرب على وجه العموم رقيقو الاحساس وشعراء أكثر مما هم عمليون • ولكنهم فى آن واحد أبعد مكرا مما يظن الاوربيون ••

ولهذا ، فانهم كثيرا ما يخدعون (بفتح الياء) ولا يخدعون (بضمها) !

وقد يعتقدالاوربيون انهم يضحكون على عقول العرب بدعاياتهم ، ولكن الحقيقة ان العرب هم الذين يضحكون على عقول الدعاة !

زعماء الديمقراطية والاستقلال

فى امم الشرق العربى

بقلم الاستاذ أمين سعيد

عرف الشرق العربى طائفة من الزعماء عملوا على تحريره والنهوض به . وانه لمن العسير أن نحصر عدد هؤلاء الزعماء . فنكتفى بأن نذكر فيما يلى اثنى عشر زعيما عربياً مات منهم من مات ونفى من نفى ولا يزال الباقون يواصلون الكفاح

وهذه أسماؤهم :

احمد عرابى باشا	مصريون ـ (توفوا) وقد نفى أولهم وثالثهم
مصطفى كامل باشا	
سعد زغلول باشا	
السيد طالب النقيب	عراقي ـ توفى منفياً
الدكتور عبد الرحمن شهبندر	سورى ـ اغتيل أخيراً بدمشق
الحاج أمين الحسينى	فلسطينى ـ لجأ الى لبنان فالعراق
السيد عبد العزيز الثعالبى	تونسى ـ يقيم الآن فى تونس
السيد عبد الكريم الخطابى	مغاربة ـ (منفيون)
السيد محمد علال الفاسى	
السيد محمد الحسن الوزانى	
احمد الشريف السنوسى	طرابلسيان ـ مات الاول غريباً وأعدم الايطاليون الثانى شنقاً
السيد عمر المختار	

الزعماء المصريون

السيد أحمد عرابى الثائر المصرى المعروف هو أول من يستحق أن يلقب بلقب « الزعيم » فى الشرق العربى عامة وفى القطر المصري خاصة ، فهو أول من ثار فى هـذا الشرق على الاستبداد والعسف ، وطالب بالاصلاح الدستورى وبانقاذ الكرامة القومية وقد انتهكها الموظفون الترك والشراكسة

ويأتى بعده مصطفى كامل باشا ، فهو ثانى زعيم عرفته مصر وعرفه الشرق العربى ، ثار طلباً للاستقلال والحرية وقاوم الاحتلال ، ودعا الأمة فلبته واستجابت له وانقادت اليه

والزعيم المصرى الثالث هو المرحوم سعد باشا زغلول ، جاء فوجد الطريق ممهداً فسلكه ، فنالت الأمة على يده ما سعى زميلاه الى انالتها إياه ، والواقع ان مصر استفادت من الزعامة وجنت على أيدى زعمائها أفضل الثمار

الزعامة فى بلاد العرب الشرقية

نريد ببلاد العرب الشرقية ، البلاد العربية الواقعة فى شرق مصر وهى الشام بأجزائها الاربعة : « فلسطين وشرق الأردن وسورية ولبنان » والحجاز ونجد واليمن وخليج العرب

وتختلف الحالة فى هذه البلاد عن مصر ، لانها دونها علماً ومدنية وحضارة واحتكاكا بأوربا وتأثراً بنظمها ونهضتها ولأنها أيضاً أحدث عهداً بالاستعمار الأوربى

فلقد ظلت هذه الأقطار تابعة للسلطنة العثمانية خاضعة لها حتى ختام الحرب العظمى فى سنة ١٩١٨ فاستولى على بعضها الحلفاء واقتسموها : فاختص الفرنسيون بسورية ولبنان والانكليز بفلسطين وشرق الأردن والعراق . وبقى الحجاز ونجد واليمن فى نجوة عن الاحتلال

ولقد كان الشعب العراقى أسبق الشعوب العربية الى طلب الاستقلال بعد الحرب الكبرى وهو الاستقلال الذى وعدهم به الانكليز وجيب كتبهم ورسائلهم فنالوا ما أرادوه وفازوا بمعاهدة انجليزية عراقية تم بها إنشاء دولتهم الحاضرة

ورب سائل يسأل عن الزعامة فى العراق ويقول لماذا لم توجد زعامة وطنية تقود الثورة ؟ وفى الجواب على ذلك نقول إن قصر زمن الاحتلال الانجليزى هو الذى حال دون نشوء الزعيم الذى تلده الحاجة

وهنالك من يرى أن زعامة الثورة العراقية كانت مقسومة بين عناصر أربعة هى : (١) مجتهدو الشيعة فى كربلاء والنجف والكاظمية (٢) شيوخ القبائل العراقية فى الفرات (٣) أعيان بغداد (٤) بعض ضباط الجيش العراقى ، فقد كان للفتاوى الدينية التى أصدرها المجتهدون بوجوب قتال المحتلين واخراجهم من البلاد أعظم مفعول فى نفوس شيوخ القبائل فاندفعوا فى القتال على رأس رجالهم يشد أزرهم أعيان بغداد ويؤيدهم فريق من ضباط الجيش العراقى فى الشمال بقيادة السيد محمد جميل المدفعى الرئيس السابق للوزارة العراقية

ولا بد لنا من القول إنصافا للتاريخ أن « السيد طالب النقيب » وهو من أعيان البصرة وقد لقبه بعضهم بلقب الزعامة فى العهد العثمانى ـ حاول أن يمثل دوراً كبيراً فى تاريخ العراق السياسى

والقومى وأن يتولى زعامة الحركة الوطنية ويقودها ، فنفى من بغداد وأرسل الى سيلان ثم أطلق سراحه بعد ذلك

***

ويختلف تاريخ الشام بعد الحرب العظمى عن تاريخ العراق وتاريخ مصر والبلاد العربية الاخرى فقد انقسمت الى دول وحكومات أقيمت بينها الحواجز والسدود ، ففى سورية الداخلية حكومة خاضعة لفرنسا مستقلة كل الاستقلال عن حكومة لبنان المجاورة لها ، والخاضعة لفرنسا مثلها

واختص الانكليز بالجزء الجنوبى من بلاد الشام أى فلسطين فقسموه الى حكومتين ففى القدس حكومة انكليزية تمتد حدودها حتى نهر الاردن وفى عمان حكومة عربية برئاسة الامير عبد الله بن الحسين منفصلة عن حكومة القدس وكلتاهما خاضع للحماية الانكليزية مشمول بها

ولقد نهض السوريون يطالبون باعادة أقاليمهم الى ما كانت عليه وانشاء دولة متحدة تضم هذه الاقطار والتخلص من وطأة الصهيونية ووقف الهجرة اليهودية

ولقد ظهر فى خلال هذه الفترة الطويلة زعيمان فى الشام فالتفت الامة حولها وأيدتهما وهما : الدكتور عبد الرحمن شهبندر ، والحاج أمين الحسينى

انتهت زعامة الحركة الوطنية فى سورية الى الدكتور عبد الرحمن شهبندر سنة ١٩٢٤ فقد انتخب رئيسا وزعيما لحزب الشعب وهو أول حزب سياسى وطنى أنشىء فى سورية عقب نكبتها بسقوط دولتها وتقطيع أوصالها على يد الجنرال غورو سنة ١٩٢٠ وغايته تحريرها واستقلالها

ونشبت الثورة السورية سنة ١٩٢٥ فكان الدكتور شهبندر فى طليعتها وسار فى مقدمتها وظل مدة سنتين يكافح فى الميدان بالاشتراك مع أخيه وصنوه سلطان باشا الاطرش قائد الثورة العام وبطلها المغوار وكانوا يلقبون الدكتور فى ابان الثورة بلقب الزعيم السياسى تمييزاً له عن الزعيم العسكرى وهو سلطان باشا

ولجأ بعد الثورة الى مصر فأقام فيها عشر سنوات ممنوعا من دخول بلاده ، فلم يمنعه ذلك من متابعة الاهتمام بقضية وقف عليها حياته وعاد فى ربيع سنة ١٩٣٧ الى دمشق فاستقبل استقبال الملوك وأخذ يواصل العمل فى الميدان الوطنى وقد أعد برنامجا للاصلاح الاجتماعى واسع النطاق ورمى لتنفيذه ، لكنه ما لبث أن اغتيل بيد أثيمة رحمه الله

ويقيم الحاج أمين الحسينى منذ سنة وأشهر فى جونيه من أعمال جبل لبنان بعيداً عن وطنه فلسطين فقد اضطرته الظروف القاهرة الى مغادرته سراً

ولقد اقترن خروجه من فلسطين بالثورة

ولقد رافق الحاج أمين الحسينى القضية الفلسطينية من نشأتها وسار فى طليعتها وكان من أوائل العاملين على مقاومة الصهيونية

الزعامة فى بلاد العرب الغربية

نريد ببلاد العرب الغربية البلاد الواقعة فى غرب مصر وهى طرابلس ، وبرقة ، وتونس ، والجزائر ، ومراكش . ولقد كان حظ هذه الاقطار أسوأ من حظ زميلاتها الشرقيات فقد باكرها الاستعمار الأوربى بجيوشه فالتهمها قبل سواها

وسطت عليها الحكومات اللاتينية التى تجاورها وهى فرنسا وأسبانيا وايطاليا فاستولت عليها قطراً بعد قطر مع انه طالما خرجت منها الحملات ، وأبحرت منها الاساطيل تغزو البلاد الفرنسية ، والايطالية والأسبانية فاستولت عليها واستعمرتها والدنيا دول والدهر حول قلب

وقطر الجزائر العربى هو أول قطر عربى امتلكه الاستعمار الأوربى . فقد أغار الفرنسيون عليه فى سنة ١٨٢٧ وما زالوا به حتى امتلكوه ووطدوا أقدامهم فى ربوعه

والقطر العربى الثانى الذى ذهب فريسة الاستعمار الأوربى هو تونس فقد أنشب الفرنسيون فيه مخالبهم سنة ١٨٨١ أما المغرب فقد بسطوا حمايتهم عليه فى سنة ١٩١٢ واختصوا أسبانيا بمنطقة صغيرة منه مقابل سكوتها عن ابتلاعهم له

وأغارت ايطاليا على طرابلس — برقة سنة ١٩١١ فاستولت عليها وهكذا ذهبت هذه الاقطار العربية فريسة الاستعمار الأوربى اللاتينى

ولقد أنتجت هذه الغارات والغزوات ظهور عدد من الزعماء الوطنيين فظهر فى الجزائر « مولاى عبد القادر بن محيى الدين الجزائرى » فقاد اخوانه الجزائريين فى حرب فرنسا مدة ٢٠ سنة (١٨٢٨ — ١٨٤٧) وسلم بعد ما استنفد جهده وقواه فى النضال

وظهر فى تونس السيد عبد العزيز الثعالبى فأيقظ الافكار ونبه الأمة الى خطر الاحتلال وطالب بحقوق بلاده ، ولا يزال فى الميدان ، ولا يزال التونسيون يواصلون النضال ولم يفوزوا حتى الآن بمطلب من مطالبهم

وظهر فى المغرب السيد عبد الكريم الخطابى فقاتل الاسبان سنوات وفاز عليهم فى كثير من المعارك فانضم اليهم الفرنسويون وشدوا أزرهم ونزلوا الى الميدان لتأييدهم فحارب الدولتين فتغلبا عليه فسلم نفسه يوم ١٦ مايو سنة ١٩٢٦ للفرنسويين فأرسلوه الى جزر رونيون ولا يزال معتقلا فيها حتى الآن

وظهر فى طرابلس برقة عدد من الابطال قادوا حركة الجهاد والنضال ضد ايطاليا وفى مقدمة هؤلاء السيد أحمد الشريف السنوسى والسيد عمر المختار وتم للايطاليين بعد حروب استمرت نحو ربع قرن القضاء على حركة المقاومة وبسط نفوذهم السياسى والعسكرى على البلاد كلها ولم يكتفوا بذلك بل ضموها الى ايطاليا وأعلنوا انها صارت جزءاً من الوطن الايطالى

أمين سعيد

إبن سعود

بين بريطانيا والمانيا فى الحرب الكبرى الاولى

[استخلص اكثر هذا المقال من كتاب « سيد العربية »
Lord of Arabia للكاتب الانجليزى ارمستروج]

اتصل تاريخ ابن سعود منذ أدواره الاولى بهذا النزاع العنيف الذى بدأ يحتدم بين بريطانيا وألمانيا فى أواخر القرن الماضى ، حين أرادت كل منهما ان تتخذ من الجزيرة العربية طريقا الى ما ترجوه من أغراض سياسية واقتصادية فيما يترامى وراء تخوم الصحراء من الاقاليم

فقد رأت ألمانيا المزدحمة بأبنائها المضطرمة بنشاطها ان لها الحق ان تتجه الى آسيا وأفريقية حيث تنبح وتستعمر وتسود . ولكنها وجدت بريطانيا قد سبقتها الى انحاء القارتين ففرضت أيديها على كل أرض تطمح ألمانيا فى استعمارها او استغلالها . ورأت السفائن والكتائب البريطانية تسيطر على جميع الطرق الممتدة بين الشرق والغرب الا طريقا واحدا يمتد من تركيا الى الخليج الفارسى مجتازا ارض العراق . فأخذ قيصر ألمانيا يحالف سلطان تركيا الذى كانت له السيادة الاسمية على الاقاليم العربية ، وراح غليوم يعلن — كما يعلن الآن موسوليني — انه نصير العروبة وحامى الاسلام ، وكان قوام خطة ألمانيا انشاء خط حديدى يمتد من عاصمة حليفته استانبول وينتهى عند رأس الخليج الفارسى ، مجتازا اقليم العراق ومنطقة الكويت . اما بريطانيا فما كانت ترجو الا ان يبقى الامر مستقرا مستتبا فى انحاء الشرق الادنى والجزيرة العربية لتأمن على طريق امبراطوريتها

واذن فقد بدأت الرسل والوفود تترى من بريطانيا ومن ألمانيا الى قبائل العرب وامرائها تستميلها وتخطب ودها . وكان أول من اتجهت اليه هذه الوفود هو الشيخ مبارك أمير الكويت التى تقف على رأس طريق حيوى يهم بريطانيا حراسته وتتوق ألمانيا الى اجتيازه . وكان مبارك رجلا فطنا ماكرا درس الحياة وفهم الاحياء فى خلال الفترة التى أمضاها فى الهند طريدا من أخيه الكبير ، ولم يعد الى الكويت الا بعد أن صرع أخاه فى مكيدة دبرها ليخلو له وجه الحكم فى هذه الامارة . وقد أدرك هذا الرجل ان بريطانيا لا تطمع فى ملكه ولا فى حريته بل تريد ان تبقيه قويا غنيا ليحرس لها بابا من أبواب امبراطوريتها ، بينما رأى ألمانيا تسعى الى امتلاك بلاده لتتخذها قاعدة حربية تنطلق منها وتعود اليها عندما تناضل الانجليز عن أغنى وأثمن أملاكها وهى الهند وما وراءها . ولكنه لم يرد ان يظهر لرسل ألمانيا انه يخشى نفوذها ويرتاب فى أطماعها ، ولا لرسل بريطانيا انه يريد الانضواء تحت لوائها والاحتماء بقواتها ، بل استقبل هؤلاء وأولئك مرحبا ومرائيا ، باذلا لكل فريق من الوعود ما يرضيه . وأدرك الالمان انه يراوغهم ويماطلهم ريثما تقوى شوكته فيناصبهم العداء جهارا فأغرت به سلطان تركيا ان يرغمه بما له من حق السيادة على الكويت على اجابة ألمانيا الى ما تريد ، فأخذت تركيا تنظر اليه بعين حمراء تنذره بالعزل من هذه الولاية التى اغتصبها بعد أن قتل أخاه اثما . ورأى الشيخ مبارك ما يستهدف له من المكائد والاخطار ، ورأى أن لا خلاص له

الا يعقد آصرة التحالف مع بريطانيا ، فهي التي تمده بما يشاء من العتاد والمال دون ان تطمع من وراء ذلك في شيء من اقليمه أو سلطته . ورأى الترك ذلك فخشوا بأسه واحجموا عن مجابهته . ولكنهم راحوا يؤلبون عليه أعداءه ومنافسيه ، فوجدوا « ابن الرشيد » أقوى رجل في نجد وعدو مبارك اللدود ، فأخذوا يغرونه بالشيخ مبارك ويمدونه بالسلاح وبالمال وبالكويت اذا اغتصبها من أميرها . ولم تكن تركيا في هذه المكيدة وهذا الاغراء الا اداة طيعة في يد ألمانيا تحقق لها مآربها وتمهد لها طريق امبراطوريتها

وهكذا وقف في ركني الجزيرة العربية عدوان قويان : بريطانيا ممثلة في مبارك شيخ الكويت وألمانيا ممثلة في ابن الرشيد حاكم نجد

ورأى ابن سعود ان الفرصة بدأت تسنح لتحقيق هذه الآمال التي تضطرم في جوانبه كاللهيب . فقد كان حينذاك شابا دون العشرين يهيم على وجهه في الصحراء هو وأبوه عبد الرحمن متنقلين بين قبائلها وأمرائها ، وذلك منذ ان قهر ابن الرشيد آل سعود واغتصب منهم « الرياض » التي كان لهم حق الملك فيها عن جدهم الاكبر . وكانت النوى قد استقرت أخيرا بآل سعود في امارة الكويت حيث لاقوا في رحاب أهلها المتحضرين من كرم الوفادة ما ارتاحوا اليه بعد ان ضاقت بهم الحياة بين كثير من القبائل البادية الشرسة التي تضرب في فجاج الصحراء . وكان ابن سعود مقربا من مبارك يزوره ويحاوره دائما ، ويلقى في قصره من يفد اليه من رسل أوربا وتجارها ، فكان مبارك استاذا لابن سعود يلقنه دروس الحياة ، ويطلعه على سرائر الناس ، ويروضه على علاج ما يعترض الحكام من المشاكل

فلما نشبت الحرب بين أميرى الكويت ونجد وجد فيها ابن سعود فرصته السانحة للاخذ بالثأر من ابن الرشيد ، فيطرده من الرياض التي اغتصبها ويعيد أباه عبد الرحمن الى عرشها . فأخذ يضرب في بطاح الصحراء محرضا القبائل على مؤازرة مبارك ومعاداة ابن الرشيد ، فانضوى اليه كثير من القبائل بفضل ما أوتى من فصاحة ولباقة ، وما له من شخصية قوية آسرة ، وما يضفيه عليه حسبه الاصيل من محبة ومهابة . وبهذا استطاع مبارك ان يسير الى عدوه مائة ألف محارب يتصدر طليعتهم ابن سعود

ولكن ابن الرشيد كان أوفر من خصمه قوة وأكبر جيشا ، فلم يلبث ان انقض على عدوه وأصابه بضربة حاسمة حطمت قواه . فانتفض كثير من القبائل من حول مبارك ، وخانته قبائل أخرى فعادت الى ابن الرشيد تستغفره وتؤازره . وأخذت كتائب ابن الرشيد تجتاح قرى خصمها وواحاته . تدمر ما فيها من مبان وتجتث ما يعيش عليه أهلها من الاشجار ، وتنكل برؤساء القبائل تقتيلا وتذبيحا وتفرض على الناس مغارم فادحة . وتقدم هؤلاء المحاربون الى الكويت فحاصروها وكادت ان تقع فريسة ايديهم . . . وهنا أدرك الانجليز حليفهم مبارك وقد اشرف على الهزيمة المنكرة ، فتقدموا ينقذونه بسلاحهم ومالهم ، وانذروا ابن الرشيد بالحرب انلم يعد أدراجه ، وأرسلوا سفينة حربية الى شاطىء الكويت تتوعد عدوها بالشر المبين . فخشي ابن الرشيد بأس الانجليز ومغبة الامر ، فنكص على عقبيه متراجعا ، وبذلك نجت الكويت مما أحاط بها أو أوصد بابها في وجه المانيا بعد ان كادت تفتحه . . .

وهكذا اتصل ابن سعود ببريطانيا في أول مغامرة قام بها وما زال في بدء حياته ، فكان هذا تمهيدا لعلاقة وثيقة قامت بينه وبين بريطانيا في جميع أدوار حياته رغم ما كان يشوبها أحيانا من الفتور . . . غير ان ابن سعود لم يرضه في هذه المغامرة ان يقنع بالنجاة ، بل أراد فيها النصر بأى

ثمن تتقاضاه . فقد كان حينذاك شابا مضطرم المشاعر مشبوب الآمال يحلم بمجد آبائه ويتحرق حقدا على أعدائه ، وكانت الحياة الراكدة الخاملة قد أملته وأرهقته ست سنوات فى امارة الكويت ، بينما هو يرى فى الصحراء فرصة متاحة لكل قوى عنيد ، فلم يستطع صبرا على الهدوء والمسالمة ، وأبى الا أن يستأنف الحرب مع ابن الرشيد ، رغم ان مبارك قبل الهدنة وآثر السلامة ، ورغم ان الانجليز كفوا يد المساعدة بعد ان أمنوا على الكويت ، ورغم ان أهل ابن سعود نصحوه بالتريث والاناة وتخلفوا عن تأييده ومؤازرته ، ولكن كبرياءه وآماله أبت عليه الا ان يغامر ويجازف مستهدفا للردى أكثر منه آمالا فى الانتصار . فاتجه الى الرياض وليس معه سوى ثلاثين رجلا لكل منهم جمل وبندقية وحفنة من البلح والماء . وأخذت هذه القافلة الصغيرة تضرب وسط هجير الصحراء وقد نذروا أنفسهم لاحد الامرين : النصر أو القبر ، حتى وقفت على تخوم الرياض مختبئة وسط أجمة من النخيل . وأرسل ابن سعود عيونه تستطلع الطريق وتأتيه بالانباء ، حتى اذا اعتزم الهجوم سار فى ستة من رجاله الاشداء واستبقى الآخرين قائلا لهم : « ان لم تأتكم منى رسالة غدا فاسرعوا الى دياركم لاتذرين ، واعلموا أنا لقينا حتفنا ، ولا حول ولا قوة الا بالله » وتقدم فى دجى الليل الى الرياض فتسلق هو ورجاله ما يحيطها من الاسوار والسدود ، وانسلوا الى قصر حاكمها فى غسق الفجر حيث تربصوا به عند مقدمه من المسجد ، فتلقوه ومن معه من الحراس والرجال بالسيوف والنار ، فأودوا بهم واضطروهم الى الفرار . ثم ارسل ابن سعود رجاله ينادون فى ارجاء الرياض ان أبشروا فقد ذهب عنكم بأس آل الرشيد وعاد أمركم الى آل سعود ، واستقدم أهله من الكويت وأقامه أبوه حاكما على الرياض ، وأخذ يعد العدة لبسط نفوذه على نجد كلها ، فأخذ يؤلف حوله قبائلها التى وقفت حائرة فى أمرها ، أتنضم الى ابن سعود الذى بدأت تظهر بوادر نصره ونفوذه ، أم تبقى على ولائها لابن الرشيد وهى تعرف مقدار قوته وسطوته . ولكن ابن سعود الذى أثبت فى الحرب جرأة بالغة ، اثبت فى السلم دهاء فطريا يحيل العدو العنيد وليا حميما . فلما اتصلت الحرب بينه وبين ابن الرشيد مرة أخرى ، وجد من ورائه الامراء والقبائل تؤيده وتؤازره ، فآتاه النصر فيما نشب بينهما من الوقائع وتراجع امامه ابن الرشيد منهزما مدحورا ، وبذلك استتب له الامر فى نجد جميعا

وهنا تنصرف رسل ألمانيا وبريطانيا عن ابن الرشيد وتتجه الى ابن سعود

فأما ألمانيا فتعرف عن ابن سعود عظيم ثقته فى قوة بريطانيا وحسن رأيه فى سياستها ، اذ كان يعتقد أن لا مطمع لها فى أرض العرب ما داموا يعينونها على تأمين طرقها ومواصلاتها . فرأت فيه رجلا يخشى بأسه وتخاف سياسته فلا بد من تحطيم قوته وهدم ملكه باغراء تركيا بمقاومته ومحاربته. وكان عبد الحميد سلطان تركيا حينذاك رجلا طموحا يريد ان يحيى الامبراطورية العثمانية وان يعيد سطوة سلطانها فلا يقنع بما لها من السيادة الاسمية التى لا تجديها نفعا بل تقبض بيديها على زمام املاكها جميعا . وكانت تركيا لا تملك من أمر الجزيرة العربية شيئا بل هى فى قبضة جماعة من القبائل لا تنفك فى حرب سجال تتدخل فيها تركيا بما عهد فى سياستها حينذاك من مكائد ومؤامرات تؤلبها بعضا على بعض لتضعف شوكتها جميعا . ولكن عبد الحميد رأى انه لا يستطيع ان يقبض على زمام الجزيرة العربية اذا لم يسيطر على قلبها ، على نجد التى يتولى أمرها ابن سعود ، حتى لا تكون مثابة فتن ومقر مكائد تضعف النفوذ التركى فى شتى ما يحيط بها من الاقاليم ، أى فى العراق وسورية والحجاز واليمن والحساء والكويت . وأخذت ألمانيا تشجع عبد الحميد على انتهاج هذه السياسة الحازمة ، وشرعت فى انشاء الطريق الحديدى من بغداد الى رأس الخليج

الفارسى ، وراحت جماعات من مندوبيها وتجارها يرحلون الى الكويت استعدادا لما اعتزموه فى أمرها

ولكن تركيا لا تستطيع ان تحارب ابن سعود فى سواء الجزيرة العربية ، وانما حسبها ان تمد أعداءه بالمال والسلاح ، فعادت الى ابن الرشيد تغريه بابن سعود وتمده بما يريد من عدة وذهب . وتعده بأن يكون واليها على الجزيرة من أقصاها الى اقصاها . وهكذا استؤنفت الحرب فى نجد . وكان ابن رشيد فى هذه المرة مؤزرا بفصائل تركية جاءته من العراق مزودة بالمدافع ، ولكن الجندى التركى لم يألف الحرب فى مثل هذه الصحراء القاحلة اللافحة التى لا يجد فيها ما يقيمه من الغذاء ويقيه من اللباس ، فلم تلبث هذه الحرب ان انتهت بهزيمة ابن الرشيد ومصرعه وتشتيت رجاله وتنازع قبائله ، فاستقام الامر لابن سعود فى داخل الجزيرة العربية دون منازع قوى مرعوب . وبذلك فشلت ألمانيا متسترة وراء تركيا فى تحطيم ابن سعود . ولم تزده الا انتباها الى ما تريده من المآرب والاغراض ، والا امعانا فى مقاومة سياستها واتقاء أخطارها

واستمر الامر هكذا حتى بلغ النزاع بين بريطانيا وألمانيا أقصاه وبدأت الحرب توقد نارها وان ظلت تخفيها عن الاعين حفنة من الرماد . فاذا بالرسل تسرع ــ جهرا أو سرا ــ الى كل أمير فى الجزيرة العربية ، فيزدحم بهم قصر « الحسين » الذى يحكم الحجاز واليا من قبل تركيا بينما هو يتأهب للتألب عليها والانضمام الى عدوتها بريطانيا ، وتزدحم بهم خيام «آل الرشيد» الذين وان كانوا قد خسروا الحرب وأخرجوا من نجد الا ان قبيلتهم العظيمة ما تزال تسيطر على كثير من مناطق الجزيرة، وكذلك يزدحم بهم قصر «مبارك» الواقف على رأس الخليج الفارسى وقصر «ابن سعود» الذى ما كانت تجهل بريطانيا وألمانيا انه لن يقتنع بما ملك من بقاع وساد من قبائل بل يطمح الى بسط لوائه فوق الجزيرة العربية كلها

وها هو « شكسبير » قنصل بريطانيا فى الكويت يأتى الى ابن سعود ، وها هم عملاء ألمانيا يفدون اليه من المدينة والبصرة ، وها هو يرحب بهم ويستمع اليهم جميعا ، ولكن الامر جد خطير فلا يستطيع ان يفصل فيه سريعا . انه يعتقد ان الحرب لا بد ان تنشب عاجلا بين ألمانيا وبريطانيا ، وان تركيا لابد ان تنضم الى ألمانيا ، فالى أى الامبراطوريتين ينضوى ؟ أم يبقى على الحياد بعيدا عنهما ؟ انه يرجح ان سياسة الحياد أسلم عاقبة وأحسن مصيرا ،ولكنه مع هذا يخشى ان يبقى منعزلا منفردا بينما كل من حوله من الامراء قد اتخذ لنفسه حليفا يمده بالمال والسلاح . واذن فهو يتحدث الى كل من يأتيه عسى ان يستقر على رأى صائب وفكرة موفقة ، وها هم يقرأون له الصحف التى تأتى من القاهرة ودمشق وبغداد ، ولكن كل هذا لم ينر له الطريق المظلم الممتد أمامه أشواطا واشواطا

ان تركيا هى أقرب الدول اليه ، فهى ذات السيادة على الجزيرة العربية بما فيها الرياض ، وهى دولة اسلامية فهو يخشى بأس الوهابيين ــ ولهم ما لهم من قوة وسطوة ــ اذا هو حاربها مع من يحاربها من النصارى ، ووراء تركيا ألمانيا التى يعرف كثيرا عن قوتها ونفوذها ، وعن جيشها وأسلحتها . ولكن هل ينسى ان ألمانيا ناصبته العداء منذ كان يافعا ، فقد حالفت عدوه الاكبر ابن الرشيد ومدته بكل عون ليقضى على آل سعود قضاء مبرما ، وهل يجهل ان ألمانيا ما تزال تود لو أخرجته من نجد لتتقى بأس رجل خطير عنيد لن يحجم عن مجاهدتها ومناضلتها ان أرادت ان تقف على مقربة منه فى أرض الكويت

أما الانجليز فهم أصدقاؤه منذ عهد بعيد ، ناصروه على آل الرشيد عندما كان يحارب فى جيش مبارك ومن المرجح انه لولا معاونتهم الاولى ما تيسر له ما يملك الآن من أقاليم وما يحكم من

قبائل . وهم لا يريدون نجدا ولا يطمعون فيها . بل لعلهم يريدون ان يعترفوا به حاكما مستقلا يحالفونه ويؤيدونه ، وكل ما يرمون اليه ان يحفظوا طريقهم الى آسيا آمنا ويتركوا في فارس بعيدا عن أيدي الاعداء . ثم هو يسمع ثناء طيبا عن أسلوب الانجليز في حكم الهند ومصر حيث أطلقوا للناس حريتهم وأصلحوا لهم كثيرا من المرافق . هذا الى ان كثيرا من أمراء العرب ينضوون تحت لواء بريطانيا في مسقط وحضرموت وعمان وعدن . وهو يسمع ويعلم كثيرا عن اسطولهم الجبار وثروتهم العظيمة ونفوذهم السائد في شتى الارجاء . وقد رأى من قبل كيف ردوا قبائل الرشيد وفصائل الاتراك مدحورين ، ولم تجرؤ تركيا على مقاومتهم رغم ان الالمان من ورائها يدفعونها ويؤيدونها . ثم هو قد عرف ممثليها « كوكس » و « شكسبير » فأكبر فيهما اخلاقا نبيلة من الصراحة والشجاعة ومن التواضع والاناة . وفوق هذا كله فانه كان يستمع الى رأى ابيه كأنه كلام منزل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وكان هذا الشيخ يعتقد اعتقادا جازما ان الانجليز هم سادة العالم الذين لا يقهرون

ولكنه لا يستطيع ان ينسى ان تركيا وألمانيا تقفان قريبا منه في كثير من الانحاء . في البصرة وفي بغداد وعلى ساحل البحر الاحمر . اما الانجليز فعلى منأى منه اذ أقرب جيوشهم اليه هو هذا الذي يعسكر في الهند وبينها وبين نجد آماد وبحار ...

واذن فهو يتردد ويتريث وتأخذه الحيرة فلا يقر على قرار . أفهل يستشير استاذه القديم مبارك الذي يعهد فيه حسن الرأى وسديد التفكير ؟ لا بأس . ولا سيما ان هذه المشكلة تعنيهما على حد سواء ، فان نجاح ألمانيا في سياستها يقضي على استقلال نجد كما يقضي على استقلال الكويت . ولكن العلاقة بينه وبين مبارك لم تكن حينذاك على ما كانت عليه أولا من المودة والصفاء . فقد اثارت انتصارات ابن سعود شيئا من الحسد في قلب مبارك الذي بدأ يتوجس خيفة من آمال هذا الشاب القوى الموفق الطموح . وقد كان مبارك يريد ان تظل أجوازه نهبا بين قبائل متعادلة القوى ، لا ينتهي بينها النزاع والقتال حتى يأمن شرها . وكان يخشى ان تتحد القبائل التي تجاوره تحت امرة زعيم قوى كابن سعود لا تعرف أين تنتهي اطماعه . هذا الى ان مبارك قد عهد في ابن سعود حين كان شابا طريدا فقيرا ان يأخذ برأيه ، بل يستمع الى أمره دون نقاش . أما الآن فابن سعود قد صار حاكم نجد الذي ترى فيه القبائل العربية محاربا جسورا وزعيما مهيبا ، فهو لا ينتظر من مبارك ان ينصحه ويوجهه . ولكنه مع هذا لم ينس جميل مبارك فقال : « لقد كان أبا لي . سأذهب اليه وأعرض عليه متاعبي »

وتقابلا في قرية على حدود نجد والكويت وتحادثا في أمرهما الخطير . ونصحه مبارك ان يتجنب سياسة التحالف وان يتخذ خطة الحياد متعزلا عن بريطانيا وألمانيا على السواء . ولكن ابن سعود لم تخف عليه نية مبارك الذي كان يريد ان يبقيه محصورا داخل الصحراء محروما من عون خارجي . وافترقا كما تقابلا وعاد ابن سعود الى الرياض ولم ينته الى رأى ما . وأخذ ينتظر الاحداث القادمة عسى ان تهديه سبيلا ، وأخذ يساوم عملاء بريطانيا وألمانيا جميعا . وينال من كل منهم وعودا مسرفة في السخاء ، ويبيع لهم خيولا وجمالا بأسعار مسرفة في الغلاء

وبينما ابن سعود وسط الصحراء يفكر ويقدر ويفاوض ويساوم اذا بالواقعة تقع واذا بالحرب تندلع نارها . انه كان على ثقة من نشوبها يوما ما فقد رأى التناحر بين الدولتين على اشده في كل مكان . ولكنه لم يحسبها تفاجئه على حين غرة قبل ان يدبر أمره ويتأهب للقائها . وزاد في حيرته ان وجد امراء العرب البارزين قد عرفوا وجهتهم واتخذوها ، وراحوا يجمعون رجالهم ويعدون

عنادهم للحرب مع من حالفوا . اما هو فقد لقى نفسه حيث كان يخشى متعزلا محيرا . واوفد رسله الى شتى اجزاء العربية يدعو حكامها الى الائتمار والتشاور ، اذ كان على ثقة من انهم اذا وقفوا فى هذه الحرب يدا واحدة ظفروا منها باكثر مما يظفرون اذا تشتتوا أحزابا متناحرة وأشياعا متناضلة . ولكن دعوته لم تلق أى سميع ، ذلك ان القبائل العربية كصحرائها ليست الا رمالا وصخورا لا يمسك بعضها بعضا ، الا ان توضع فى قبضة قوية حازمة فلا تفلت ولا تتسرب منها . ونظر ابن سعود الى ما حوله ليرى ماذا يصنع الحسين والى الحجاز ومبارك امير الكويت

فأما الحسين الذى ولته تركيا أمر الحجاز فيدبر الامر للثورة على تركيا والانضمام الى بريطانيا وكان ابنه عبد الله فى مصر يضع شروط الاتفاق مع الانجليز ، فيعدونه بأكياس من الذهب وكميات وافرة من السلاح ، ويعدونه بتوحيد البلاد العربية كلها تحت امرة الحسين . واقتنع الرجل بهذه الوعود التى ستجعل منه حاكما للعرب وخليفة للمسلمين

وأما صديقه القديم ومنافسه الجديد مبارك فقد تحالف مع الانجليز لينقذ الكويت من اطماع الالمان . ولكن ها هو الجيش التركى فى العراق يدنو منه ويقف فى البصرة متأهبا لمهاجمته بينما يتباطأ حلفاؤه الانجليز عن نجدته وانقاذه . فهو يرسل الى ابن السعود مستنجدا ، ولكن هذا يتباطأ ويراوغ ويود لو يبقى بعيدا عن هذا العراك الذى لا يعرف نتائجه وآثاره

ورأى ابن سعود الفصائل الانجليزية تقترب من الجزيرة العربية وتعسكر على رأس الخليج الفارسى ، وتهزم الجيش التركى وترده مدحورا ، ثم تدخل البصرة وتتأهب للتقدم صوب بغداد . فلما ارسلت بريطانيا قنصلها « شكسبير » يدعوه الى محالفتها لتأمين جيشها الزاحف الى العراق على مؤخرته المعرضة للقبائل العربية ، واجه ابن سعود أكبر مشكلة سياسية اعترضت حياته . أيحالف انجلترا وهى تحالف وتؤيد الحسين ألد أعدائه ومبارك أقوى منافسيه ؟ أم يحالف تركيا وهذه بوادر هزيمتها تبدى يوما فيوما ، فضلا عما بينهما من تاريخ ملىء بالنزاع والقتال ، وفضلا عما يخشاه من أطماعها وأطماع حليفتها ألمانيا اذا قدر لهما الانتصار . وفكر وقدر ثم عرض على شكسبير ان يكون صديقا لبريطانيا يخلص لها الود والوفاء ، من غير ان يعقد معها محالفة قد تعرضه للاذى فى مستقبل الايام . ولكن بريطانيا لا تقتنع بهذه الصداقة بل تريد محالفة صريحة تضم اليها زعيما قويا ومحاربا مهيبا . وعاد ابن سعود الى تفكيره وتقديره فلم ير حرجا فى محالفة بريطانيا على ان تحدد موقفها فى الحاضر والمستقبل منه ومن اعدائه جميعا

وعقدت هذه المحالفة بعد قليل فى الحساء . ووافق فيها ابن سعود على ان يقف الى جانبها فى هذه الحرب ، فلا يحارب حلفاءها ولا يعين أعداءها ، ولا يتحالف مع اية دول اجنبية الا برضائها ، وفى مقابل ذلك تعترف به حاكما مستقلا فى انحاء نجد كلها ، وتتعهد بأن تمنع حلفاءها من مقاومته ومحاربته ، وفوق ذلك تمده فى كل شهر بخمسة آلاف من الجنيهات الذهبية

وظل ابن سعود حليفا لبريطانيا طوال سنى الحرب رغم ما اتخذه رسلها فى البلاد العربية من خطط متناقضة متعارضة ، كثيرا ما كان ابن سعود يحار فى ادراكها وتعليلها . فقد كان الانجليز يحالفون ويعاونون جميع اولئك الزعماء المتعادين المتناحرين : الحسين ومبارك وابن سعود ، وكان لورنس فى جيش الحسين وفيلبى فى قصر الرياض يتخذ كل منهما خططا ويبذل لكل منهما وعودا يناقض بعضها بعضا . ولكن ابن سعود لم يصرفه شىء من هذا عن ان يقف من بريطانيا موقف الحليف الصادق ، يفى لها بالعهد ويخلص لها العون ، رغم ما كان يتعرض له من الوهابيين الاقوياء ، ومن أهله وأبيه بالذات ، من نقد وتجريح ، بل من تألب وثورة

العلم والعالم

الحرب الحالية تخترع وسائل جديدة للدمار

تنهمك الآن جماعات العلماء والمهندسين والكيميائيين فى انشاء وسائل جديدة تؤجج بها نيران الحرب فى الهجوم والدفاع . وتنفق الآن ملايين من الجنيهات فى معامل البحث ودور الصناعة لتتفجر منها اقوى أدوات التقتيل ووسائل التدمير

فكان مما تفتقت عنه الاذهان أنواع من القنابل لا تخطىء أهدافها المقصودة . ذلك ان ما يتخذ حول المدن الكبرى والمصانع الحربية من وسائل الدفاع الدقيق ادى الى اخفاق طائرات الاعداء فى تسديد اكثر قذائفها . فابتكر احد المهندسين فى بريطانيا قنابل تتجه من تلقاء نفسها الى الهدف الملقاة عليه . ولو قذفت بعيدة عنه بثلاثة اميال واطلق على هذه القنابل اسم « الطوربيد الاحول » ذلك ان فى رأس كل قنبلة جناحين مثبتة عليهما مرآتان مقعرتان تشبه كل منهما العين الحولاء . وهذه المرايا شديدة الحاسية بما يصلها من الاشعة الحمراء المنبعثة من الافران التى تصنع فيها القنابل وتصب فيها المدافع . فاذا ما لمست هذه الاشعة اللاهبة احدى هذه المرايا الحساسة تحولت القنبلة توا وبطريقة « اتوماتيكية » الى حيث تنبعث الاشعة فتسقط فى سواء الافران وصميم المصانع

ولايعوق الضباب أو السحاب هذه القنابل عن اصابة اهدافها ، لان مراياها بلغت أدق درجة من الحساسية ، هذا الى انها لا تسقط عموديا بل تتأرجح هنا وهناك حتى تبلغ هدفها المقصود

ومما ظهر فى هذه الحرب من أدوات الدمار الجديد « سلة مولوتوف » ، وكان الفنلنديون أول من شهد هولها الرعيب عندما اجتاحت روسيا بلادهم فى الشتاء الماضى . وهى سلة مجوفة طولها ثمان اقدام وقطرها ثلاث أقدام ، تملأ بقدر كبير من القنابل المحرقة ، التى تتساقط بانتظام من جوانب السلة واحدة اثر واحدة وتنتشر على الارض فى نطاق فسيح فتأتى بأفدح الخسائر

ولم يقتصر الاختراع على حرب الجو بل تعداها الى حرب البحر والارض . فمن المؤكد ان العلماء الانجليز توفقوا اخيرا الى انواع من الالغام يمكن الاطمئنان اليها فى صد عادية الغواصات التى كان يخشى فى الفترة الاولى من الحرب ان تعوق السفائن البريطانية عن أداء مهمتها فى تأمين البحار والسيادة على مسالكها ومنافذها . على ان اهم ما وفق اليه الانجليز من اختراع حربى هو هذا المطاط الذى لا ينفذ فيه الرصاص ، فتغطى به عجلات السيارة فلا يخشى من بنادق العدو ان تعطلها عن المسير ، وكذلك تغطى بهذا المطاط عجلات الطائرات وسيكون له شأن خطير فى وقاية كثير من آلات القتال

ولا ينبغى ان تجهل ان الحرب فرصة سانحة تروج فيها الاقاصيص والاساطير عن شتى المخترعات ، والمبتكرات ، فطالما سمعنا عن انواع جديدة من الغازات تصنعها ألمانيا لتخدر وتنوم بها أهل انجلترا ، ومن هذه الاقاصيص ان مخترعا ألمانيا اسمه « جبريل اميريسن » ابتكر نوعا خطيرا من القنابل وأبى ان يبوح بسره للالمان وأطلق عليه اسم « الاختراع رقم ١٧ » فاختطفه جماعة من النازى وسجنوه ، ولكنه انتحر خشية ان يتغلبوا عليه ويعرفوا سر اختراعه

طعام المستقبل

يمكن ان يقال ان الدولة التي تحل مشكلة الطعام في اثناء الحرب تضمن لنفسها نصف النصر في معركة القتال . فليس اشق ولا أخطر من تموين الناس في البلاد التي تستورد اكثر غذائها عندما تشب الحرب التي تقطع سبل الاتصال وتقيم اسوار الحصار . ولهذا تلجأ كل الدول المتحاربة الى تقييد كمية الطعام التي يجوز للفرد استهلاكها كما تسعى الى زيادة الارض التي تزرعها بما تنتج من مواد الغذاء

وستظل مشكلة الطعام قائمة في السلم معقدة في الحرب ما دام الانسان يستهلك هذه الكمية الكبيرة من الطعام . ولهذا فكر العلماء في استخلاص الغذاء اللازم للجسم وتركيزه في كميات صغيرة يسهل نقلها ويكثر صنعها . فمنذ سنتين وضع اللورد بيركنهد كتابا عنوانه « العالم في سنة ٢٠٣٠ » تنبأ فيه بأن الناس سيكتفون حينذاك بخلاصة الغذاء دون ان يزحموا معداتهم بكميات ثقيلة من الطعام لا خير فيها . وقد قام كثير من الكيميائيين بتنفيذ هذه الفكرة فاستخرج العالم الالماني « كاسبار تسميت » من اساتذة جامعة « هالدبرج » غذاء وافيا من بذور القطن العادية ، وركزها في حبوب صغيرة تكفي اثنتان منها لامداد الانسان بالغذاء اليومي الكافي الذي يقتضيه الآن تناول ثلاث وجبات . وأعلن هذا العالم ان حبوبه هذه سوف يستعملها قريبا الجنود في اثناء المعارك ، والمكتشفون في رحلاتهم والطيارون خلال مسابقاتهم الطويلة ، وغيرهم ممن يجب ان يتخففوا من احمال الطعام الثقيلة .

وقد عرضت بعض هذه الحبوب منذ سنتين في المعرض الكيميائي الانجليزي ، حيث اعلن ان كل واحدة منها فيها من الغذاء ما في ربع رطل من اللحم وبرتقالتين وكوبة من اللبن ، كما أعلن انه يمكن اطعام الشعب بأسره بمثل هذه الحبوب مضافا اليها بعض الخبز والماء

حمام الزاجل في الحرب

ما زال حمام الزاجل يؤدي واجبه في نقل الرسائل في الحرب القائمة كما كان يؤديه في الحروب الغابرة . فلم تغن عنه ما ابتكر من سبل الاتصال الخاطف في اسلاك التلفون والتلغراف وعلى أمواج الأثير

وانجلترا تستخدم الآن عشرات الالوف من حمام الزاجل ملحقة بشتى قواتها الحربية بما فيها سلاح الطيران ذاته . وأقامت مدارس لتدريب هذا الحمام على ما يراد ان يؤديه من خوض المعارك الجوية والتحليق فوق ساحات الحرب البرية . فقد ثبت في الحرب الماضية ان هذا الطير كثيرا ما أدى خدمات جليلة نقذت أرواحا من الهلاك . وفي سجلات الحرب الرسمية قصص كبيرة عن بطولة حمام الزاجل . حتى لقد كرم بعض الحمائم بدفنها في « متحف الخدمات المتحدة » في هوايتهول

ومن ذلك ان احدى طائرات الاسطول اسقطتها طائرات الاعداء في منطقة نائية حيث اشرف طاروها على الهلاك بعد ان انقطعت بهم سبل الاتصال . فاطلقوا الحمامة الملحقة بطائرتهم الى حيث أبلغت من خف الى نجدتهم وانقاذهم . وثمة حمامة أخرى أسمها « الديك الاحمر » أطلقتها السفينة الحربية « نلسن » عندما هاجمتها غواصة ألمانية فخفت اليها سفن كثيرة وانقذت جمعا من بحارتها وعناك هذه الحمامة التي كلفت بتبليغ رسالة حربية ، ولكن رصاص العدو اسقطها في الطريق جريحة مهيضة ، فأمضت الليل في العراء تحت وابل من المطر والبرد ، ثم أخذت تتجلد وتتقوى واستأنفت السفر الى حيث أرسلت على بعد تسعة اميال . فبلغت هدفها وألقت رسالتها واسلمت روحها . .

ويستخدم الحمام في الحرب القائمة في الكشف والاطلاع ، فتثبت في صدورها آلات لتصوير ما تمر به من ساحات الحرب ومعدات القتال . وتعود بما تحمل من صور دون كلفة أو عناء أو تضحية

الحركة الفكرية

رئاسة الجمهورية الامريكية

للاستاذ هارولد لازكى

لم ينفرد الرأى العام الامريكى بهذا الانتخاب الخطير الذى جرى فى الولايات المتحدة منذ اسابيع قليلة ، بل ساهم معه الرأى العام العالمى بنصيب كبير فى هذا الحادث السياسى الذى ينتظر ان تترتب عليه آثار مهمة فى مجرى الحرب والسياسة خلال هذه الفترة الفاصلة من التاريخ . فمن المفيد ومن الممتع حقا ان يقرأ المرء فى هذه الايام هذا الكتاب النفيس الذى وضعه المفكر الانجليزى « هارولد لازكى » عن رئاسة الجمهورية الامريكية

ذلك أن مؤلف الكتاب لا يتصل من قريب أو بعيد بأحد ممن كانا يتنافسان سعيا الى هذه الرئاسة ، فليس فى بحثه كلمة واحدة يصح ان يلقى عليها ظل التشيع أو تحوم حولها شبهة الدعاية . وانما ينصرف الكتاب الى دراسة هذه الرئاسة دراسة تاريخية وسياسية تبين مدى ما لها من القوة والسطوة فى امريكا ، ومدى ما لها من القوة والتأثير خارج امريكا ، وتبين ما فى هذا المنصب من جوانب الصحة وعوامل النقص التى تمكن ، أو تمنع ، صاحبه من ان يؤدى واجبه وينفذ منهاجه على أكمل وجه يراه ، ثم تتناول ما ينبغى ان يدخل على دستور هذه الرئاسة من تنقيح حتى تبلغ المثل الاعلى للرئاسة المنتجة ، المتقدة ، الحازمة ، المطلقة للناس حرياتهم فى حدودها المعقولة

والاستاذ هارولد لازكى من أكبر الباحثين فى المشاكل السياسية والاقتصادية الكبرى . وقد اخرج فيها مكتبة حافلة منها « الحرية فى الدولة الحديثة » ومنها « التفكير السياسى فى انجلترا » ومنها « الشيوعية » . كما ان مقالاته الاسبوعية فى جريدة « الديلى هيرالد » تحدث فى الجماعات المثقفة ، وفى جمهرة الناس على السواء ، ضجة فكرية لها آثرها فى توجيه شطر من الرأى العام . ومن حسن حظنا ان كثيرا من شبابنا المثقفين الذين تلقوا علوم السياسة والاقتصاد فى جامعة لندن قد تتلمذوا على هذا الاستاذ الكبير الذى يمتاز بجرأة خطيرة وحرية مطلقة ، فيما يبديه من آراء غير مقيد باتجاه سياسى أو اجتماعى برغمه على تضحية ما يراه حقا

وقد جاء كتابه الاخير على ايجازه ــ اذ لا يتجاوز مائتين وخمسين صفحة ــ دراسة كاملة من شتى الجوانب ، ولا سيما وقد أمضى فترة من حياته فى امريكا اذ كان استاذا فى جامعة هارفارد منذ خمس وعشرين سنة ، ثم استاذا زائرا فى جامعة انديانا فى العام الماضى ، فاستطاع ان يدرس موضوعه دراسة جامعية مقرونة بالدراسة الاجتماعية التى تتبين منها هذه العوامل النفسية التى تربط الشعب برئيسه والتى لا ينكر أحد ما لها من تأثير كبير فى توجيه الشئون العامة

فمما يراه الاستاذ لازكى ان الرئاسة الامريكية فى وضعها الحالى خطوة أولى تمهد لخطوة ثانية هى الزعامة فى معناها الصحيح . فقد شهد الامريكى العادى يتحدث عن كثير من رجال الكونجرس حديث سخرية ودعابة لا تحرج فيهما ، ولكنه يأبى ان يتناول رئيس الجمهورية بمثل هذا الحديث بل يشعر نحوه بشعور من التهيب يجعل من هذا الرئيس شبه زعيم يحب وان كان لا يخشى . والشعب الامريكى من هذه الناحية على نقيض الشعب الفرنسى الذى يحب دائما ان يسخر من رئيسه الاعلى ، حتى لا تبالى مسارحه الهازلة

ان تعرض رئيس الدولة فى موضع السخرية ، كما لا تتحرج كثير من صحفه الكبرى من ان تتناوله بما لا ينبغى من الاساليب . ويقول لازكى : « ان رئيس الولايات المتحدة اكثر وامثل من ملك ، واكثر واقل من رئيس وزارة » ذلك انه يستمتع بما لا يستمتع به كثير من الملوك والرؤساء من المحبة والاجلال ، ولكنه مجرد من كثير مما يستمتعون به من النفوذ والسلطان

ومما يراه المؤلف ان الحكومة الامريكية فى وضعها الحاضر حكومة سلبية . ذلك ان تقسيم السلطات فيهـا أدى الى كثير من التنـاقض والاضطراب والتعطيل . ولهذا ينصح بتعديل الدستور تعديلا يجعل منها « حكومة ايجابية » تؤدى مهمتها على خير وجه ومن أقصر طريق . وقد حان الوقت لتجعل امريكا من رئاستها قوة فعالة لا يعوقها توزيع السلطات وتنازعها عن تنفيذ برامجها وتحمل مسؤوليتها

وقد اثبتت الانتخابات الاخيرة صحة ما رآه لازكى من أن رئاسة الجمهورية الامريكية لن تكون لاحد من رجال الاعمال ولعل هذا هو السبب فى خذلان « وندل ويلكى » فى الانتخاب ، فهو من رجال الاعمال اكثر من ان يكون من رجال السياسة . ومع ان رجال الاعمال قوة كبرى تقف دائما وراء منصب الرئاسة وتوجهه توجيها فعالا ، الا انه لم يحدث فى تاريخ أمريكا ولا ينتظر ان يحدث قريبا ، ان يتولى هذا المنصب أحد رجال الاعمال . وربما كان ذلك راجعا الى ما يحيط بهذا المنصب فى أمريكا من مهابة ووقار قلما تتوافر فيمن ينزلون الى ميـادين التجارة والمال ، وفيها ما فيها من ضروب التنافس التى كثيرا ما تخرج الناس عن الطريق المشروعة او الاساليب الوقورة

والخلاصة ان من يريد ان يدرس النظـام السياسى فى امريكا دراسة موضوعية لا تحزب فيها ولا تحامل ، سيجد فى كتاب الاستاذ لازكى البحث المتصل والمرجع الثبت

المعارك الفاصلة

وتأثيرها فى التاريخ والحضارة

« لا سبيل الى التفكير فى السلام ونشر لوائه على العالم جميعا الا اذا فهمنا الحرب ، مم تنشأ وكيف تقوم وأين تنتهى . كما لا سبيل الى وقاية المريض وعلاجه الا اذا فهمنا منشأ المرض ومجراه وآثاره . هذا ما يقوله الجنرال فولر فى كتابه عن المعارك الحاسمة فى التاريخ الذى أخرجه حديثا فى أكثر من ألف صفحة مطولة

يتناول هذا الكتاب سبعا وثلاثين معركة كبرى يرى انها رسمت خطوطا فاصلة فى صفحة التاريخ بدأها بمعارك الاسكندر المقدونى وختمها بمعارك فرانكو فى الحرب الاهلية الاسبانية . وتناول فى اثناء هذا التاريخ الطويل الحضارة الانسانية كلها ممثلة فيما نشب على الارض من الوقائع الحربية الكبرى

والذين يدرسون التاريخ الحربى يعـرفون كتابا مشهورا فى هذا الموضوع هو كتاب كريزى المسمى « المعارك الخمس عشرة الفاصلة » ولكن هذا الكتاب يقتصر على وصف المعارك من الناحية الحربية فحسب ، كيف رسمت خطتهـا واعدت معداتها وجرت وقائعها وانتهى أمرها . اما الجنرال فولر فيتخذ من الواقعة الحربية محورا لبحث سياسى واجتماعى مستفيض ، فانتهى الى نتائج فى فلسفة التاريخ يجب ان نذكرها جميعا

فهو يرى ان المعركة الحربية الكبيرة ليست الا فاصلا بين عهدين فى التاريخ ، عهد آذن ان ينتهى ويزول وعهد آذن ان يظهر ويقوم . فكل الشعوب القوية وكل الحضارات الـكبيرة انتهت عند معركة فاصلة أورثت ما كان لهـا من قوة وسلطان لشعوب وحضارات أخرى

وكل المعارك التاريخية الكبرى جاءت عقب فترة من السلام والرخاء والنعيم . أى فترة سادت فيها هذه العناصر التى لا يمكن ان تعيش أبد الآبدين . فقامت الحرب لتضع حدا لهذه

الفترة وتفتح الطريق لفترة أخرى

وثمة نظرية أخرى انتهى اليها الجنرال فولر وهي ان المعارك البحرية ليست فاصلة في أمر التاريخ ، وانما يفصل فيه ما يجرى على الارض لا ما يقع في البحر من الوقائع ولهذا لم يتحدث في كتابه عن شيء من المعارك البحرية حتى معركة الارمادا ومعركة الطرف الاغر أغفلهما . ولكن هذا يناقض اجماع المؤرخين الذين يرون ان القوة البحرية عماد القوة السياسية ، وانه ما من شعب اتيح له السيطرة على العالم الا بعد ان اتيحت له السيادة على البحار

ولم يتقيد المؤلف بالمعارك التي تضفى عليها كتب التاريخ الشهرة والصيت . فالعالم كله يعتقد ان معركة واترلو من أكبر المعارك الحاسمة اذ انتهى اليها أمر أعظم عبقرية حربية شهدها التاريخ . ولكن الجنرال فولر يرى ان معركة ليبزج التي سبقت واترلو هي المعركة الفاصلة في تاريخ نابليون ولهذا تحدث عنها وأغفل ذكر واترلو

والكتاب على الجملة دراسة حربية وتاريخية واجتماعية ينبغى ان تقرأ في هذه الايام التي تدور فيها معارك أوسع مدى وأخطر أثرا من كل ما شهدت هذه الارض من الوقائع

عبادة الهرة في مصر القديمة

« أعددنا هذا الكتاب ــ أنا وزوجى ــ وسط ما يزعجنا ويقلقنا من النيران التي يصبها علينا الاعداء » . هذه فقرة من مقدمة كتاب « الهرة في مصر القديمة » الذي اخرجه أخيرا مستر لانجتون وزوجه !

أمضى هذا العالم وهذه العالمة ثلاثين عاما في دراسة هذا الموضوع الدقيق الذي يقتضى استقصاء كل ما عرف الانسان في حياته الاولى من الاساطير والعقائد ، وجمع كل ما يتعلق بالثقافة الفكرية والدينية في مصر القديمة خلال عشرات القرون . ثم أخرجا هذا الكتاب فيما ينوف على ثلاثمائة صفحة أكثرها من صور ورسوم كانا قدعرضاها في المعرض الذي اقامته « جمعية كشف مصر » في سنة ١٩٣٦

بحث هذا الكتاب تاريخ عبادة الهرة وهي من أول انواع الحيوان التي اخذت من قلب الانسان البدائي مكانا ممتازا . ذلك ان هذا الحيوان يمتاز دون كثير من الحيوانات الاليفة بالميل الى العزلة والانفراد ، ويحب المكان المظلم المهجور ، مما يضفى عليها جوا من الغموض والخفاء ، يؤثر كثيرا في العقول الناشئة ، كعقول الاطفال وعقول البدائيين

ثم عرض الكتاب لتطور العباد في مختلف العصور حتى استقصاها في خلال ثلاثة آلاف من السنين . وقد بلغت عبادة الهرة أقصاها في معبد « بوباسطة » الذي وصفه هيرودوت في كتابه وصفا جميلا كاملا تحدث فيه عما كان يقام لهذا الحيوان من حفلات دينية باهرة . على ان هذه الالهة لم تنج مما كان يتعرض له الآلهة القدماء من مذلة وهوان اذا تقلبت عليهم الايام والصروف . فقد صادفت الهرة في عهد اخناتون اياما سوداء لقيت فيها كثيرا من العنت والهوان عندما أبطل هذا الفرعون عبادة الحيوان وهجر عاصمة هذه العبادة ، وانشأ دينه الجديد الذي يقوم على التوحيد وبنى عاصمة جديدة لتكون مقرا لهذه العبادة الجديدة . ومع هذا فقد استطاع بعض الهرة ان ينجو من هذا الاذى إذ وجدت من بعض الاشراف والاثرياء أصدقاء يؤوونها في قصورهم ويطعمونها من الجوع ويؤمنونها من الخوف

ان هذا الكتاب مرجع دقيق لمن يريد دراسة الحضارة المصرية القديمة من الوجهة الدينية والفكرية ، وان كان مؤلفاه يقولان انه ليس الا تمهيدا لعمل أوفى يقوم به مؤلف أحسن منهما حظا فيعرض هذه القصة الشائقة عرضا كاملا مفصلا

الكتب الجديدة

ابحاث علم النفس

فى التربية والتعليم

ألف هذا السفر الحافل خمسة وعشرون من اساتذة التربية والسيكلوجيا فى جامعات أمريكا الكبرى ، ونقله الى العربية الاستاذ ادمون عبد النور من رجال الجامعة الامريكية بالقاهرة

وصدره الدكتور أمير بقطر بمقدمة تعرفنا بالكتاب اوفى تعريف ، فهى دقيقة رصينة فى تعبيرها ، منصفة متزنة فى حكمها ، فقال :

« رجعت بالذاكرة الى كل ما نقل الى العربية أو صنع بها من كتب التربية وعلم النفس ، فلم أجد كتابا أغزر مادة واشد اتصالا بالطريقة العلمية وأوفر تنوعا فيما عولج فيها من الموضوعات الحديثة ، وأكثر نفعا للمشتغلين بالتربية وعلم النفس من هذا المجلد الثمين .. فهو بسط شامل لاهم مبادىء علم النفس المتصلة بالتربية ، وما يشاد عليها من اساليب فى التعليم ، وطرق فى الادارة المدرسية ، ودروس فى طبيعة الطفل ووجدانه وانفعالاته ، ووراثته وبيئته ، ومسلكه وتفكيره ، وذكائه ونموه ، وكفايته فى مواد الدراسة وعجزه واسبابهما ، وأثر الفروق الفردية والصحية العقلية وافرازات الغدد الصماء والشذوذ وغيرها فى تحصيل التلميذ وتحول مسالكه ووظيفة المعلم وجميع المهيمنين على شئون التربية حيال هذه العوامل كلها »

هذه كلمة رجل من رجال التربية الحديثة فى نقد هذا الكتاب الجليل الذى يمتاز الى جانب شموله شتى شئون التربية ومشاكل السيكلوجيا بأنه ليس مجرد مجموعة من الآراء والنظريات تطلق فى الفاظ وعبارات مبهمة يتعذر تحديدها وتطبيقها ، بل هو جملة من الحقائق والقواعد تدعمها التجارب العلمية وتحددها الارقام والاحصاءات، ساهم فى جمعها ودرسها وتحليلها كبار العلماء فى معاملهم وجامعاتهم ، وانفق فى سبيل ذلك المال الجم الذى يجود به أوصياء المعاهد العلمية فى أمريكا أمثال روكفلر وكرنيجى

جمع هذا الكتاب فى ثلاثمائة صفحة من البحوث ما لا يظفر به المرء الا اذا رجع الى مئات الاسفار والمجلات . وعرض فى اسلوب مبسط شائق دراسات لا يجدها المرء فى غيره من الكتب الا مغلفة بعبارات ومصطلحات غامضة مبهمة أوضائعة وسط معادلات رياضية وخطوط بيانية

ولا شك انه جهد جدير بالتقدير هذا الذى بذله المترجم فى نقل كتاب يبحث علوما ومسائل ما زلنا بعيدين وغريبين عنها الى حد كبير . وما تقدير هذا الجهد الا باستفادة كل معلم ومرب، وكل هيئة مشرفة على التعليم والتربية ، بما تضمنه من دراسات جديرة بأن تهدينا وسط هذا الاضطراب الذى ما نزال نشكو ونعانى منه فى توجيه التعليم والتربية فى الحياة المصرية توجيها مثمرا صالحا

حكايات من الهند

للاستاذ عبده حسن الزيات

يألف القارىء العربى هذا القصص الشائق الذى يحفل به الادب الهندى ، وذلك منذ ترجم منه ابن المقفع كتاب « كليلة ودمنه » الذى تلذ قراءته للعامة والخاصة على السواء، فهؤلاء يلتمسون فيه روحا ساريا من الحكمة الصافية والفضيلة العالية ، واولئك يستمتعون بما فيه من قصص شائق بسيط ابطاله أنواع من الحيوان والطيور . وهذه القصص القصيرة التى استخلصها الاستاذ عبده حسن الزيات من الادب الهندى قريبة فى

أسلوبها وفى مغزاها من قصص كتاب كليلة ودمنه ، اذ تقدم ألوانا من الفلسفة وجملة من النصائح مسوقة فى قصص بسيطة ساذجة تلذ قراءتها للناس جميعا

وقد انتخبت هذه القصص التى تنوف على المائة من مجموعة كبرى من القصص الهندية عرضها بالانجليزية الكاتب الهندى ا . س . ب . أيار . وقد نقد المترجم هذه القصص فى مقدمة الكتاب نقدا طريفا نسوق منه هذه الفقرات :

« ان هذه الحكايات ليست مجرد لهو خفيف يقرأ بعد الطعام ـ كما يقول المؤلف متواضعا ـ ولكنها بعيدة المغزى على قرب منالها ، عميقة القاع على هدوء سطحها ، قوية الايحاء على بساطة مظهرها أو هى كالطعنة السريعة المصحية فيها خفة الرشاقة وبلوغ الغاية ، وسرعة الاصابة ، والبعد عن ضجيج المدفع وقعقعة السلاح

« وفى هذه الحكايات فوق ذلك خصال أعجبتنى منها العناية بالايحاء الاجتماعى الطيب من ناحية وبالتحليل النفسى من ناحية أخرى : ففى هذه الحكايات جملة صالحة استطيع ان انعتها بانها حكايات اصلاحية ناجحة سيجد القارىء الشرقى انها تصلح لمخاطبة مجتمعه كما صلحت أو نشرت لمخاطبة المجتمع الهندى

« وفيها كذلك جملة أخرى وجدت عندها تحليلا أو عرضا سيكلوجيا ممتعا مبرءا من التقعر والادعاء ، وان هذا الشطر عينه ينتهى الى ان يكون اصلاحيا بما يعرف الانسان من نفسه ، فيراقب ويعالج على ضوئه سلوكه »

ويلمس القارىء فى هذه الفقرات اسلوب المترجم فى تقديم الكتاب ، وما يمتاز به من بساطة ووضوح يزينهما شىء من التأنق والرشاقة ، مما يحبب الى الناشئة والمثقفين على السواء قراءة هذه القصص التى تمثل نوعا طريفا من الادب الشرقى الذى نفتقر الى نقل كثير من آثاره التى تقترب من ذوقنا وحياتنا أكثر مما تقترب آثار الآداب الاخرى

والكتاب مقدم فى طبعة أنيقة وعدد صفحاته ١٧٥ صفحة متوسطة

تاريخ الحسين

للاستاذ عبد الله العلايلى

« كانت حياة الحسين بن على رضى الله عنه صلة بين ثلاثة عهود متفاوته فى مزاياها . عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وعهد الخلفاء الراشدين وعهد الدولة الاموية . وكانت ميزة الاول انه عهد التشريع وسن اللوائح ، وميزة الثانى انه عهد الاجراء والتطبيق ، وميزة الثالث انه عهد الانحراف بالاشكال الاجرائية انحرافا جاء فى بعض الاحيان كليا وكثيرا ما مس جوهر التشريع »

هذا ما يقوله الاستاذ عبد الله العلايلى فى كتابه الذى اخرجه حلقة ثابتة من سلسلة يؤلفها عن هذه الشخصية المحبوبة المشهورة . الحسين بن على . وما من شك فى ان حياة الحسين حافلة بألوان من التقى والورع ، ومن الوفاء والفداء ، ومن الايمان والتضحية ، فيلذ للقارىء ان يطالع فيها كتبا واسفارا

وقد وفق المؤلف فى تصوير هذه الحياة تصويرا ملونا بأزهى الالوان . ذلك انه شديد الحب للحسين والاكبار لشمائله السامية . وذلك لانه فرغ لدراسة هذه الحياة وما أحاط بها من ظروف وصروف فترة طويلة فاخرج فيها كتابين كبيرين ويريد ان يكملهما بكتاب او اكثر من كتاب . وذلك انه يجعل من حياة الحسين محورا لدراسة تاريخية واجتماعية مفصلة مسهبة ، نستخلص من اثنائها دروسا وعبرا تجمل بها التاريخ الاسلامى فى ادواره الاولى

وهذا الكتاب الذى يبلغ ثلاثمائة صفحة ينقسم قسمين : الاكبر منهما مقدمة فى فلسفة التاريخ بوجه عام ، تلمس فيها ثقافة واسعة وتقديرا دقيقا واطلاعا على أحدث الآراء فى دراسة التاريخ وكتابته ، والاصغر منهما فى اجمال حياة الحسين

منذ مولده الى يوم مصرعه مكتوبة بروح الاديب المعجب المكبر للخلق السامى وللفضيلة الكبرى، خلق التضحية وفضيلة الفداء

التشريع الاسلامى

للاستاذ جلال الحنفى

لو نظرنا الى الاسلام نظرة عقلية مجردة من العقيدة والعاطفة لما وسعنا الا أن نكبر ما أتى به من تشريع بلغ الغاية من الوفاء بكل ما تقتضيه حياة الانسان من تنظيم وتوجيه

وقد امتاز التشريع الاسلامى ببلاغته لاساليب الحياة الصحيحة فى جميع أطوارها وادوارها ، فكان منظما لحياة العرب الساذجة فى صحرائهم البادية كما كان منظما لحياة المسلمين عندما بلغوا أقصى مراتب الحضارة التى عرفت حينذاك

وليس من اليسير استقصاء نواحى التشريع الاسلامى فى كتاب واحد ، ولكن الاستاذ جلال الحنفى استخلص جوانبه الاساسية فى كتابه الاخير الذى لا يتجاوز مائة وثمانين صفحة ، فعرض فيها مقدمة مجملة عن فلسفة التشريع بوجه عام ، وما هى القواعد التى يقوم عليها وما هى الاغراض التى يرمى اليها ، ثم استدرج من هذا الى الحديث عن التشريع الاسلامى، فتحدث عن مزاياه ، ثم عن نشأته وأدواره ، ثم مقاصده وانظمته . فتقرأ فى هذا الكتاب فصولا مجملة ، ولكنها واضحة وافية ، عن النظام المالى فى الاسلام ، وعن الحرية والرق ، وعن الجنايات والعقوبات ، ثم ما عنى به الاسلام من تنظيم الحياة فى نواحيها الفنية والعلمية والانسانية والحربية . والمؤلف يعرض دائما احدث الآراء الفقهية التى ترمى الى الملاءمة بين الدين والعلم ، والتى تنفى عن الاسلام ما يتهم به من جمود تباعد بينه وبين الحضارة الحديثة . وما من شك فى ان المؤلف قد وفق فى نطاق بحثه الى ما يريده من عرض الموضوع عرضا كاملا ، ومن تدعيم وجهة نظره تدعيما صحيحا

ربع ساعة مع الاحداث

للقس لبيب مشرقى

ينبغى ان نرحب بكل كتاب يقدم للاطفال والاحداث ، الذين يجدون فى المكتبات الغربية آلافا وآلافا من الكتب والقصص التى يضعها كبار الادباء وثقات المربين ، وتخرجها المطابع فى أبهى الحلل واجمل الرسوم ، بينما لايجدون فى مكتبتنا ما لا يتجاوز عدد الاصابع من الكتب

وهذا الكتاب الذى يقدمه اليوم القس لبيب مشرقى هو الحلقة الثالثة من سلسلة طويلة من الاقاصيص يريد اخراجها لتهذيب الناشئة وتثقيفهم ولارضاعهم لبان الدين والادب من ثدى واحد . وفيه سبقه كتابان طريفان عنوانهما : خمس دقائق مع الاحداث ، وعشر دقائق مع الاحداث

وتمتاز هذه القصص الاربع والسبعين التى قدمها فى مائتين وخمسين صفحة بمميزات حسنة منها بساطة فى الاسلوب تيسر على الطفل قراءتها او استماعها ، وبساطة فى سرد الحوادث فلا تبهم على الحدث ولا تثير فيه مللا . ومنها هذا الروح الدينى السارى فى كل كلمة وعبارة مما يبث فى الطفل حبا لطريق الحياة السوى وعطفا على الخير والفضيلة ، وغير ذلك من الصفات السامية التي يجب ان ينشأ عليه الطفل منذ سنته الاولى. وليس غريبا ان يمتاز الكتاب بهذه المزايا الجميلة فمؤلفه قسيس وابن قسيس ، وواعظ وابن واعظ

ضاق نطاق هذا العدد عن ان يحوى التعليق على جميع ما وصلنا من كتب منذ أغسطس الماضى ، لذلك نرجو من اصحابها عذرا ، وموعدنا العدد القادم

الثقافة العربية والحرب

(بقية المنشور على صفحة ١٢)

على أن هناك موقفاً آخر للثقافة العربية من الحرب خليقاً بالعناية والتفكير لأنه أجل خطراً من موقف الشعر والنثر من حيث أنه أشد اتصالا بالنفوس من الشعر والنثر ، وما يوحى الى الشعراء والكتاب شعرهم ونثرهم وأريد به الفرع الثقافى الذى يتصل بالدين

فالدين الاسلامى كان وسيكون دائما أساس الحياة الخلقية للأمة الاسلامية ، وقد كان فى عصر طويل أساس الحياة السياسية والعملية لهذه الامة أيضاً . وهو الآن وسيكون دائما أساساً لهذه الحياة السياسية والعملية الى حد بعيد، فلموقفه من الحرب والسلم أثر ظاهر فى تقويم موقف الامم الاسلامية من الحرب والسلم . وموقف الاسلام من الحرب والسلم رائع حقاً . فبين اسمه و بين السلم صلة لا تخلو من مغزى والاسلام دين رحمة وبر ودين أمر بالمعروف وترغيب فيه ودعوة متصلة اليه . وهو كذلك دين عطف واحسان وهو كذلك دين يأخذ العفو و يأمر بالعرف وبالاعراض عن الجاهلين . وهو من كل هذه النواحى دين السلام الخالص . ولكن الاسلام فى الوقت نفسه دين كرامة وعزة فيه الاعتراف بالشخصية الانسانية، بشخصية الفرد وشخصية الجماعة . وفيه الاعتراف بأهم ما يقوم هذه الشخصية من الحرية فى الرأى والقول والعمل جميعاً . والله عز وجل يقول: « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم »

والاسلام قد أسرع كما ترى فى هذه الآية الكريمة الى رفض الاضطهاد فى الرأى ونبذ الاكراه فى الدين . ولكنه مع هذا أو من أجل هذا قد كره السلم التى تقوم على الذلة والصغار وكره الامن الذى يعتمد على الضعة والنزول عن الحرية مهما تكن الظروف وأبغض شىء الى الاسلام أن يفتن الناس فى دينهم أو فى رأيهم ، وأن يكره الناس على غير ما يحبون من الرأى والدين

وقد فتن المسلمون قبل الهجرة فصبروا وصابروا ثم هاجروا بدينهم و رأيهم الى الحبشة ثم الى المدينة . فلما أتاح الله لهم القوة أذن لهم فى أن يقاتلوا ، لا حباً فى القتال ولا رغبة فيه ، ولكن تأييداً لحرية الرأى والدين . والله عز وجل يقول : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين »

فيمكننا اذا تتبعنا الآيات الكريمة التى تعرضت للحرب من جهة وتتبعنا سنة النبى منذ فتن فى دينه الى أن أتم الله له النصر من جهة أخرى أن نحدد فى دقة موقف الاسلام من الحرب . فالحرب شىء بغيض لا يحبه الله ولا يأمر به ولا يدعو اليه ما استطاع المسلمون أن يجدوا عنه مندوحة وأن يحتفظوا بكرامتهم و بعزتهم و بحريتهم فى الدين والرأى وفى القول والعمل . فاذا تعرضت عزة المسلمين أو كرامتهم أو حريتهم للخطر فالحرب شر لا بد منه والواجب على المسلمين أن يقاتلوا حتى لا تكون فتنة وحتى يكون الدين كله لله وحتى يستمتع المسلمون فى أمن ودعة بما ينبغي للانسان من العزة والكرامة والحرية . وكذلك يلتقى هذان الفرعان من فروع الثقافة العربية أدب يصور مزاجاً عنيفاً هو الى الحرب أميل منه الى السلم ودين يلطف هذا المزاج العنيف ويرده الى الاعتدال والقصد ويأمره بالسلم ما استقامت أمور المسلمين على مايحبون ويأمره بالحرب حين يعرض العدو أمور المسلمين لخطر الانحراف عما يحبون . وربما كان موقف النبى « صلعم » وعمر بن الخطاب يوم الحديبية أصدق صورة ممكنة للمزاج العربى العنيف يلطفه الدين الحنيف . فقد كره عمر هدنة الحديبية ولم يتردد فى أن يقول للنبى : « لم نعط الدنية فى ديننا » ومضى النبى فى هذه الهدنة الى ما أمره الله ، وقال لعمر : « أنا رسول الله » ثم أمضيت الهدنة وتحدث القرآن الكريم عنها هذا الحديث الرائع فقال : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما »

طه حسين

البلدان العربية التى لها حكام أجانب

الجزائر ـ حاكم فرنسى	وفى فلسطين وشرق الاردن مندوب سام بريطانى
لوبيا ـ حاكم ايطالى	وفى سورية ولبنان مندوب سام فرنسى
السودان ـ حاكم انكليزى	
عدن ـ حاكم انكليزى	
وفى المغرب الاقصى مقيم عام فرنسى	وفى امارات الخليج الفارسى ممثلون لبريطانيا العظمى
وفى تونس أيضا	

الأيمان الوطنى

فى الشعب الانجليزى

بقلم حضرة صاحب المعالى الدكتور محمد حسين هيكل باشا

وزير المعارف العمومية

إيمان الانجليز بوطنهم هو سر عظمتهم وانتصارهم فى الحروب

يتطلع العالم من شتى نواحيه الى الشعب البريطانى فى الوقت الحاضر باعجاب أى إعجاب. ويزيد الناس إعجاباً أنهم منذ أشهر كانوا ينظرون الى انجلترا وكأنما قضت المقادير عليها بالزوال كمركز لأعظم امبراطورية فى العالم، بل قضت عليها بالزوال كأمة عزيزة الجانب بين أمم الأرض جميعاً . ألم يكن الكثيرون فى أواخر شهر يوليو الماضى يتناقلون ما نسب الى هتلر من أنه سيتناول الشاى فى لندن يوم ١٥ أغسطس ويظنون هذا الكلام أمراً لا مفر منه ؟! فأية معجزة هذه المعجزة التى جعلت انجلترا تصمد لكل الضربات التى وجهت لها ، وتخرج من موقف المدافع عن العرين الى موقف المهاجم يسير النصر فى ركابه ، وتجرى أمامه فرق الأسرى من الأعداء لا تبتغى غير النجاة من الموت !

وليس إعجاب العالم بانجلترا اليوم إلا صورة من إعجاب العالم بالشعب البريطانى فى مواقف ما أشبهها بموقفه فى الظروف الأخيرة . لقد تخطت انجلترا فى الحرب الكبرى الماضية ساعات بلغت غاية الدقة . وقد كان الناس فى سنوات ١٩١٦ الى ما بعد منتصف ١٩١٨ يحسبون أن النسر الالمانى قد انقض على الأسد البريطانى ، فلم يبق له فى الحياة مطمعاً ، مع ذلك صمدت بريطانيا حتى حالفها النصر ، ثم كان فى يدها تقرير مصائر الشعوب والدول ، وكانت وزارة الخارجية البريطانية هى التى توجه سياسة العالم الوجهة التى تراها

ومن قبل ذلك كان موقف انجلترا فى حروبها مع نابليون أشبه شىء بهذين الموقفين .

كان نابليون قد غزا كل دول أوربا بجيوشه وقد دانت له فى غير أوربا ممالك شتى ولم يبق عليه إلا أن يخضع انجلترا . وعلى الرغم من هذه القوة التى بهرت العالم ومن انتصارات الامبراطور على أوربا كلها أقامت انجلترا على عداوته وعلى حربه حتى انتهى به المصير الى الأسر فى سانت هيلانة

ما السر فى هذه المواقف التى وقفتها انجلترة ، وهل لغيرها من الدول وسيلة الى التأسى بها ؟ أما الأسوة فأمر أدع للقارىء أن يستنتجه مما سأذكره عن السر الذى يطوع لانجلترا أن تقف هذه المواقف . فأما هذا السر فيرجع الى طبيعة الخلق الانجليزى . هذا الخلق الذى صيغ من حياة الجزيرة البريطانية فى عزلتها وفى اضطرار أبنائها الى خوض غمار الموت فوق الماء غير مبالين ولا هيابين ، والى ايمانهم بأن مرجعهم الى هذه الجزيرة وان بعدوا عنها الى أقصى بقاع الأرض . هذا الايمان بأرض الوطن ، وهذه المغامرة التى تسترخص الحياة ولا تقيم لها كبير وزن هى التى تجعل الرجل الانجليزى محباً للمرح كحبه للعزلة ، شديد الثقة بنفسه ، شديد التضامن ، الى ذلك ، مع بنى وطنه ، قوى العقيدة فى أنه حيث وجد وجد هذا الوطن، ووجد على الأقل علم هذا الوطن

هذه الأمور التى أذكرها ليست ثمرة تفكير وصل اليه الانجليزى ، بل هى نتيجة هذه البيئة ، بيئة الجزيرة ، وهى لذلك غريزية فيه . لهذا كان لايستطيع أن يتصور لنفسه وجوداً الا بحرية الجزيرة ، ولا يتصور لنفسه رضاء إلا برضاء الجزيرة . هى عنده كبيت النمل ، لا يرتاب فى أن هدم هذا البيت قضاء على حياته ، ولا يفهم أن أرض الله واسعة اذا لم تكن سعتها لتنتهى الى هذا البيت والى رخائه وطمأنينته

هذا التصور الغريزى للحياة فى نفس الانجليزى يدعوه الى أن يبذل كل مجهود ، والى أن يبذل حياته وما هو أغلى من الحياة قبل أن يدور بخلده أن الجزيرة يمكن أن تصاب بسوء

إذا أمكن لشعب أن تتولد فيه غريزة كهذه الغريزة ، واذا أمكن لبيئة أن تنشىء مثل هذه الغريزة فى نفوس الذين يقيمون بها ، كان التأسى بالشعب البريطانى أمراً ميسوراً ، وكان من السهل إقامة الادب والثقافة اللذين يقويان هذه الغريزة . ولا إخالنى بحاجة الى الاجابة على مبلغ إمكان هذا الامر ، ففى مقدور كل إنسان أن يجيب عليه بشىء من التروى ومن الدرس

محمد حسين هيكل

الخلق الرياضى
فى الشعب الانجليزى

بقلم حضرة صاحب المعالى أحمد حسنين باشا
رئيس ديوان جلالة الملك

الاخلاق هى الاساس الاول لحياة الفرد ـ الالعاب الرياضية هى طريق رياضة النفس على الاخلاق الكاملة ـ العلم الرياضى الذى ابتكره الانجليز ـ دستور الالعاب الرياضية عندهم ـ شعورهم بتقديس الواجب وتقديرهم لقيمة التبعة ـ خطأ البلاد الاخرى فى فهم الالعاب الرياضية عند الانجليز

للانجليز فى الأخلاق رأى يكادون ينفردون به ، ومذهب يكاد يكون الطابع البين فى حياتهم ، المميز لهم بين سائر الأمم والشعوب . ذلك أن الاخلاق هى الأساس الأول لحياة الفرد ، ومن ثم هى الدعامة الكبرى لكيان المجتمع . ولعل هذه القضية النفسية هى الدين الاجتماعى الذى يؤمن به الانجليز جميعاً ، لا فارق لهم فيه بين ابن المدينة وابن الريف ، ولا خلاف عليه بين ساكن القصر وساكن الكوخ ، ولا تتشعب فيه مذاهب وآراء بين انجليزى وانجليزى ، فى أى زمان ولا فى أى مكان . ولذلك هم يحلون الأخلاق المحل الأول فى اعتباراتهم الخاصة والعامة . ثم يجىء بعد ذلك دور العلم والثقافة والمعارف . وانهم لشديدو التمسك بأهداب هذا الدين الاجتماعى ، حتى أنه ليقضى الموت الادبى الذى يستحيل البعث منه على كل من تسوء سمعته ويتلوث اسمه ويمنى بالانحطاط الخلقى لسبب من الأسباب .

وقد ساهم الانجليز مع غيرهم من أبناء الأمم الغربية المتمدينة ببذل نصيب موفور فى إنشاء الكتب التى تبحث فى أصول الأخلاق ، وتحدد مقاييسها ، وتتوسل السبل التى تؤدى إلى بثها فى النفوس وغرسها فى الصدور وتضمن لها التمكن والنمو حتى يتاح للانسانية ـ وهى

سائرة قدماً فى طريق الرقى - أن تزدهر فيها عوامل الخير وتضمحل عوامل الشر بفضل ما يشيع أبناؤها فى جوانبها من رسالات الأخلاق ويشترون من صفات رفيعة ومثل عليا . وقد يكون من السهل أن تضع كتابا فى فن من الفنون ، لكنه من الصعب أن تحقق ما جئت به من نظريات وآراء . ولعله من أصعب الأشياء استحداث الأساليب المجدية لتهذيب الطبائع ، والرياضة على الفضائل ، وتلقين أصول الأخلاق ، لأنها أعباء وفروض وتكاليف يثقل حملها على النفس ، والنفس مجبولة على الأخذ باللين السهل من الاسباب والأشياء

ولما كان الانجليز قوماً ذوى نظر ايجابى ، وفلسفة عملية ، فقد رأوا أن خير طريق وأنمرها يتمرن فيها النشء على التخلق بالاخلاق التى صورتها آدابهم التقليدية ، وأوصت بها مثلهم العليا ، وآمنوا بأنها هى الغذاء الروحى لتكوين الرجل الكامل ، الرجل الذى تودع بين يديه - فى المستقبل - أمانة مصيرها وتبعة وجودها ، الرجل الذى تناهى اليه أحلامها فى المجد والسيادة والعظمة . رأى الانجليز أن أجدى طريقة وأضمنها لرياضة النشء على الصفات الاخلاقية الكاملة هى « ميدان الألعاب الرياضية »

فى هذا الميدان يمرن الخلق ويصقل ، فى هذا الميدان يتعلم النشء جوانب الرجولة الحقة فى الرجل الكامل ، ويلقن الصفات الخلقية التى يجدر بأن تكون بعض مقومات الفرد القوى المحترم للامة القوية المحترمة ، فى هذا الميدان وما هو بميدان اللهو المبتذل ، كما لا يزال ينظر اليه كثير من الناس ، يتمرن النشء على ضبط النفس واستعمال الفكر واستخدام الحيلة الشريفة واتزان الاعصاب ومعرفة الطريقة العملية لتنمية قواه المعنوية وتوجيهها الوجهة المثلى ، وفى ميدان التهيؤ يروض النشء البرىء نفسه على كبح رغائبه ، والحد من مآزانه ، وتحديد غرضه ، والايمان بقيمة الصبر فى أثناء الكفاح والجلد على تحمل المشاق ، والتواضع حين ينتصر ، فلا يزهى بنفسه ولا يغتر . والاعتداد بهذه النفس حتى لا ييأس اذ يغلب ، وحتى يحلم ذلك الحلم الجميل الذهبى بالغد الذى ينتصر فيه ، وتلك هى الطريقة العملية لخلق الأمل وتمجيده . وان شبيبة تنشأ وفى نفوسها الكبيرة أمل كبير لا يمكن أن يعرف لها اليأس سبيلا يوما من الايام . والشباب الآمل عنوان الأمة المفلحة ، والشباب اليائس مظهر الامة الفاشلة . فى هذا الميدان - الشبيه بحقل تدريبى للنفوس والاخلاق - يتعلم النشء الطاعة والنظام والدقة التامة فى التفكير والتنفيذ على السواء ، والتماس النصر الشريف من الطريق الشريف . أجل ، فى هذا الميدان

الرياضي تتأثر النفوس بتلك الفضائل الخلقية جميعاً من غير دراسة مقررة ولا منهج معين فضلا عما يعود على الاجسام من فوائد ، فهى تصح بدناً ، وترشق مظهراً ، وتتناسب أعضاء ، وتستقيم عوداً ، وتتخذ شكلا محبباً مقبولا

اختار الانجليز إذن الألعاب الرياضية سبيلا عملياً لتلقين الاخلاق العالية والسمو بمستوى النشء الروحى والأدبى وجعلوا منها على مر الايام علماً جديداً ، ضمنوه الاصول والقواعد الاخلاقية الرفيعة التى تفعل فعلها السحرى فى نفس الناشىء الصغير ، ولا تزال تنمو بعد ذلك وتزدهر كلما شب وكبر ، حتى إذا صار رجلا ، ورأى نفسه يخوض غمار الحياة عرف كيف يعمل ليعيش محترماً شريفاً ، وكيف يعمل ليجعل من بيئته بيئة محترمة شريفة ، وكيف يعمل ليجعل من بلاده بلاداً محترمة شريفة . وانه لا مناص له عن أن يعمل لكل تلك المثل الرفيعة والغايات العليا . فان ما ألهمه فى ميدان اللعب وهو صغير من أنبل المشاعر وما لقنه من أطهر الصفات الكميل بأن يدفعه الى ذلك دفعاً باحساس غريزى ان لم يكن عن تفكير وتدبير . كشأنه فى ذلك أيام صباه حين كان يزاول اللعب فى ميادين الرياضة ، إذ كان ينفق ـ أولا ـ كل ما يملك من جهد وحيلة حتى ينتصر فريق فصله ، وكان ينفق ـ ثانياً ـ كل ما يملك من جهد وحيلة لكى ينتصر الفريق الذى يتضمن فصله ا وكان ينفق ـ ثالثاً ـ كل ما يملك من جهد وحيلة لكى ينتصر فريق مدرسته

ليس من عجب إذن اذا كان الانجليزى من أشد الناس إحساساً بقدسية الواجب وتقديراً لقيمة التبعة . فهذا الاحساس القوى والذى يملأ نفسه بواجبه وتبعته فى الظروف الحرجة والمواقف الجسام . كأن يختار مثلا ليمثل بلاده فى شأن حيوى ، أو سياسى هام ، أو ليدافع عن حقوقها ومصالحها ، كأنه جندى باسل أمين ، هذا الاحساس القوى المتسامى النبيل ليس جديداً عليه أو عارضاً له إذ أنه اعتاده منذ زمان . فهو هو بعينه الذى تعود عليه أيام صباه أيام كان يمثل كليته أو جامعته فى ملاعب الرياضة

والحق لقد وفق الانجليز فى ابتكار هذا « العلم الرياضى » ، كما أنهم وفقوا فى طريقة تلقينه أحسن توفيق، فهو علم سهل المأخذ ، محبب المظهر ، يميل اليه الصبى بفطرته ، وهو يدرك كل فوائده ومزاياه ، من طريق طبيعى لطيف بعيد عن جو الفصل المدرسى ، وما يشعر به التلميذ بين جدرانه من عنت الدرس وجهد التحصيل

يتلخص دستور الالعاب الرياضية عند الانجليز فى كلمتين اثنتين هما : "Fair Play" ولئن لم أخطىء فى ترجمتهما فهما «اللعب العادل» . وقد نستغرب هذا الاصطلاح لاننا لم نألف الاخذ بالمناهج الرياضية ، كما أخذوا هم منذ أجيال عدة ، تلك المناهج التى تؤدى الى التخلق بالاخلاق الفاضلة ، وأكاد أقرر أن حياة الانجليز العملية والاجتماعية إنما تقوم ـ من جميع نواحيها ـ على منطق هذا الاصطلاح الفنى ، و بوحى من معناه الاخلاقى السامى . فاللعب ـ كما هو معروف ـ حركة ، وأداء ، وعمل ، والصفات التى تكون اللاعب الكامل ، هى بعينها الصفات التى تكون الرجل الكامل ، فاللعب ينظم علاقة اللاعب بفريقه ، كما أنه ينظم علاقته بخصمه . وفى ميدان اللعب ينمحى الفرد أمام الفريق ، وينمحى الفريق أمام الغاية الكبرى من اللعب ، ولكن ليس معنى ذلك فناء الشخصيات اللاعبة بل أن معناه تحديد عمل هذه الشخصية ، وتنظيم خطاها ، وتعيين وظيفتها ، فاللعب المنظم يخلق أحسن الفرص ، ويهيىء أنسب الظروف لاظهار مقدرة اللاعب، ذلك لانه يجعل عمله ومجهوده مشتبكا اشتباكا وثيقاً مع عمل فريقه ومجهوده ، وفى هذا أيضاً تصوير دقيق لاصدق مظهر من مظاهر التعاون

ونحن فى هذه الحياة التى نسعى فى مناكبها متلمسين سبل العيش فيها على خير ما يكون انما نستخدم صفات اللاعب ، ونتبع طرائقه فى سبيل تحقيق أغراضه المتشعبة ، ومن هنا كان الانجليزى حين يبلغ أشده ، ويعتمد على ذراعه فى كسب عيشه فى معترك الحياة الصاخب أقرب الناس الى المثال الكامل للرجل الكامل ، لانه يرى نفسه إذ ذاك مزوداً بعدة مستكملة من الاخلاق القويمة عارفا طرق استعمالها حسب الظروف والاحوال لا يعوزه أن يتعلمها من جديد أو أن يلقن مبادئها مرة أخرى لانه سبق أن استقرت أصولها فى نفسه وهو صغير في ملعب المدرسة ومرن عليها ـ الى حد ما ـ مرانا عملياً وهو فى تلك السن المبكرة التى تصلح فيها النفس لتلقى كل درس ، والتأثر بكل عامل والتطبع بما يعرض لها من الصور والاشياء . وما ميادين الحياة إلا ملاعب للرجال . وما الرجال ـ فى الحق ـ الا لاعبون كبار

من أقوال الانجليز فى الدلالة على مدى تقديرهم للروح الرياضى على اعتبار أنها مبعث الاخلاق القويمة فى النفوس ـ وهو قول حق ـ ان معركة « ووترلو » ـ تلك المعركة التى كانت خاتمة حياة نابليون السياسية والحربية ـ قد خيض غمارها على ملاعب ايتون . وهم انما يقصدون بذلك ، الى أن الفضل الاكبر فيها كان للصفات الخلقية المتينة التى كونت

الضباط الانجليز الذين وقفوا فى وجه نابليون وقفة الابطال الشجعان . وهؤلاء الضباط كانوا يوماً من أبناء كلية « ايتون » الذين تلقوا فى ملاعبها وهم أحداث الصفات الاخلاقية العليا للرجل الكامل والاسرار النفسية للبطولة الحقة ، والذين وفقوا بعد أن وكلت اليهم مقاليد الجيش وأودع فى ذممهم شرف انجلترا فى ادراك نصر مظفر رفع من شأن بلادهم وأضفى على العلم الانجليزى عظمة وهيبة

ولقد أخطأت البلاد التى أخذت عن الانجليز حبهم للألعاب الرياضية ومزاولتهم لها على أنها طريقة آلية لتنمية الجسم وتقويته وصقله ، فلم تكن هذه غاية غايات الانجليز منها حين اعتبروها علماً مقدماً على كل علم ، وحين صارت ـ من بعد ـ تقليداً قومياً لها فى أنفس الشعب القيمة الرفيعة والحرمة العزيزة . فقد اصطلح العرف عند أولئك الانجليز على أن النجاح فى الالعاب الرياضية والوصول فيها الى حد البطولة انما يعوزه ركن من أهم الاركان ليكون ناجحاً معترفاً به ، وذلك هو الركن الاخلاقى . فاذا انتفى هذا العنصر ، أو ضعف فى البطل الرياضى الانجليزى المتفوق ، فقد قل مقياس نجاحه ، وضؤلت قيمته بل قد لا تكون لهذه القيمة شأن ولا خبر

ان طالب العلم فى جامعتى اكسفورد او كمبردج ليعتز جد الاعتزاز اذا ما اختارته جامعته لتمثلها فى لعبة من اللعب الرياضية . وليس من عجب أن يخالجه ـ وهو الذى يمثل نحواً من ثلاثة آلاف طالب أو يزيد ـ شعور خفى ببطولته الرياضية لتفوقه فى هذه اللعبة على أقرانه أجمعين ، لكن هذا الانتخاب الاجماعى لا يكفى لتمتع الطالب بشرف المباراة ، اذا أعوزه جانب ظاهر أو خفى من جوانب الرجولة الحقة ، ولا يتردد المسئولون عن الأمر عن التضحية به ، والتخلية بينه و بين النزول الى ميدان اللعب مهما كان تفوقه الرياضى والثقة التامة بانتصاره

ولعل من المناسب أن أورد هنا قصتين قصيرتين لتوضيح هذه المسألة و بيان خطرها وقيمتها عند القوم ، إحداهما خاصة بعداء عالمى ، والأخرى خاصة بى :

فقد حدث فى مباريات الألعاب الأولمبية بمدينة استكهولم فى سنة ١٩١٦ ، أن كان من بين أفراد فريق للألعاب الرياضية عداء ماهر ملأت شهرته الأسماع وأبهر الصحف لما أبدى فى فنه من تفوق بعد تفوق . وكان مزمعا بالطبع أن تشترك هذه الفرقة فى المباراة الدولية ،

وكان مقدراً كذلك أن يأتى هذا العداء بنتائج ترفع من ذكر فرقته وبلاده على السواء . وكان محتما على أعضاء هذا الفريق أن يكونوا فى مخادعهم فى تمام الساعة العاشرة ليلا ، ولكن اتفق أن تأخر هذا العداء فى إحدى الليالى نصف ساعة عن الموعد المقرر للنوم ، فما كان من رئيس الفرقة الا أن أعاده الى بلاده فوراً على ظهر أول باخرة أبحرت اليها

وقد اتفق أنى لما كنت ملتحقا بالفريق الثانى بكرة القدم بكليتى با كسفورد ، أن استقرت الكرة يوما بين قدمى وأنا قريب من المرمى ، فأوعز الىّ رئيس الفرقة ألا أمس الكرة وأن أدعها لزميلى الذى كان عن يمينى ، فلم أفعل ، وصوبتُ الكرة نحو المرمى ، ولكنها لم تصب الهدف ، وفى أثناء فترة الاستراحة أقبل رئيس الفرقة علىّ ، وأخبرنى بأنى أخطأت فى عدم الاستماع اليه ، ولفتنى الى ألا أخالف أمره مرة أخرى . واتفق - فى أثناء الشوط الثانى - أن استقرت الكرة ثانية بين قدمي فى اللحظة التى كنت أواجه فيها الهدف ، فأوعز الىّ الرئيس - كما فعل أول مرة - أن أتركها لزميل آخر ، فلم أستمع لرأيه وضربت الكرة ضربة موفقة ، فأصابت الهدف ، وفرحت أيما فرح ، وكنت اذ ذاك مرشحا لأن أنتقل من الفريق الثانى الى الفريق الأول للكلية ، وقدرت أنى لاشك مدرك هذه الترقية ، وخاصة بعد أن أصبت الهدف ونصرت فريقى ، ولكن شد ما كان تعجبي واندهاشي حين نادانى الرئيس بعد انتهاء اللعب ، وأخبرنى بأنه يأسف أولا لعدم اطاعتى للأمر فى كلتا الحالين ، ويأسف ثانيا لأن يرى نفسه مضطراً للاستغناء عنى حتى فى الفريق الثانى . فجادلته محتجا بأنى فى المرة الثانية أصبت المرمى ، وكنت السبب فى انتصار الفريق . فقال لى فى صوت هادىء متزن : « قد يكون الانتصار رغبتنا الشديدة فى اللعب ولكن قبل ذلك يجىء النظام »

وبعد ، فهذا بعض آثار الرياضة فى تكوين الخلق الانجليزى ، وصقل نفوس الانجليز ، وتغذية أعصابهم . ولهذا فليس من العجب أن تواجه انجلترا الحرب الحاضرة بمثل ما تواجهها به من ثبات وعزيمة وأمل وثيق فى النصر ، وما الى ذلك من مثل توحى بها أخلاق متسامية ، وتشعها أعصاب من حديد ، ليس من عجب أن تواجه انجلترا الحرب الحاضرة بمثل هذا الروح المبتسم القوى ، وفي نفس أبنائها التراث الأخلاقى الذى ورثته من ميادين الألعاب

أحمد حسنين



لأمير الشعراء أحمد شوقى بك

وصف المرحوم أمير الشعراء أحمد بك شوقى الانجليز وشاعرهم الخالد فى هذه القصيدة العصماء

أعلى الممالك ما كرسيه الماء ... وما دعامته (١) بالحق شماء
يا جيرة «المنش» حلاكم أبوتكم ... ما لم يطوق به الأبناء آباء
ملك يطاول ملك الشمس ، عزته ... فى الغرب باذخة فى الشرق قعساء (٢)
تأوى الحقيقة منه والحقوق الى ... ركن بناه من الأخلاق بناء
أعلاه بالنظر العالى ونطقه ... بحائط الرأى أشياخ أجلاء
وحاطه بالقنا فتيان مملكة ... فى السلم زهر وفى الروع أرزاء
يستصرخون ويرجى فضل نجدتهم ... كأنهم عرب فى الدهر عرباء (٣)
ودولة لا يراها الظن من سعة ... ولا وراء مداها فيه علياء
عصماء لا سبب الرحمن مطرح ... فيها ولا رحم الانسان قطعاء
تلك «الجزائر» كانت تحتهم ركنا ... وراءهن لباغى الصيد عنقاء (٤)
وكان ودهم الصافى ونصرتهم ... للمسلمين وراعيهم كما شاءوا

* * *

دستورهم عجب الدنيا وشاعرهم ... يد على خلقه لله بيضاء
ما أنجبت مثل «شكسبير» حاضرة ... ولا نمت من كريم الطير غناء (٥)
نالت به وحده «انكلترا» شرفا ... ما لم تنل بالنجوم الكثر جوزاء (٦)
لم تكشف النفس لولاه ولا بليت (٧) ... لها سوامر لا تحصى وأهواء
شعر من النسق الأعلى يؤيده ... من جانب الله إلهام وإيحاء

---

(١) الدعامة أو الدعام : عماد البيت (٢) قعساء : أى ثابتة (٣) العرباء من العرب : الصحراء الخلص
(٤) طائر معروف الاسم مجهول الجسم (٥) الروضة الكثيرة العشب (٦) الجوزاء : برج فى السماء
(٧) امتحنت

من كل بيت كآى الله تسكنه — حقيقة من خيال الشعر غراء (١)
وكل معنى كعيسى فى محاسنه — جاءت به من بنات الشعر عذراء
أو قصة ككتاب الدهر جامعة — كلاهما فيـــه إضحاك وإبكاء
مهما تمثـــل ترى الدنيا ممثلة — أو تتل فهى من الأنجيل أجزاء

***

يا صاحب العصر الخالى ألا خبر — عن عالم الموت يرويه الألباء (٢)
أما الحياة فأمر قد وصفت لنا — فهل لما بعد تمثيل وإدناء (٣)
بمن أماتك قل لى : كيف جمجمة — غبراء فى ظلمات الأرض جوفاء (٤)
كانت سماء بيان غير مقلعة (٥) — شؤبوبها (٦) عسل صاف وصهباء
فأصبحت كأصيص (٧) غير مفتقد — جفتـــه ريحانة للشعر فيحاء
وكيف بات لسان لم يدع غرضاً — ولم تفته من الباغين عوراء (٨)
عفا فأمسى ذُنابَى عقرب بَلِيت — وسُمها فى عروق الظلم مَشّاء
وما الذى صنعت أيدى البلى بيد — لها الى الغيب بالأقلام إيماء ؟
فى كل أنملة منها اذا انبجست (٩) — برق ورعد وأرواح وأنواء
أمست من الدود مثل الدود فى جدث — قفارها فيه حصباء (١٠) وبوغاء (١١)
وأين تحت الثرى قلب جوانبه — كأنهن لوادى الحق أرجاء ؟
تُصغى الى دقه أذن البيان كما — الى النواقيس للرهبان إصغاء
لئن تمشى البلى تحت التراب به — لا يؤكل الليث الا وهو أشلاء (١٢)

***

والناس صنفان موتى فى حياتهم — وآخرون ببطن الأرض أحياء
تأبى المواهب فالأحيـــاء بينهم — لا يستوون ولا الأموات أكفاء
يا واصف الدم يجري ههنا وهنا — قم انظر الدم فهو اليوم دأماء (١٣)
لاموك فى جعلك الانسان ذئبَ دم — واليوم تبدو لهم من ذاك أشياء
وقيل أكثرَ ذكرَ القتل ، ثم أتوا — ما لم تسعه خيالات وأنباء
كانوا الذئاب وكان الجهل داءهمو — واليوم علمهمُ الراقى هو الداء

(١) ناصعة (٢) الالباء : العقلاء جمع لبيب (٣) أدنى الشىء : قربه اليه (٤) جوفاء فارغة (٥) ذاهبة (٦) شؤبوبها : الشؤبوب الدفعه من المطر (٧) الأصيص : نصف الجرة يزرع فيها الرياحين (٨) العوراء : الكلمة أو الفعلة القبيحة (٩) انبجست أى انفجرت (١٠) الحصباء : الحصى ، الواحدة حصبة (١١) البوغاء : مايثور من الغبار ودقاق التراب (١٢) أشلاء : واحدها شلو : العضو والجسد من كل شىء (١٣) الدأماء : البحر

لؤم الحياة مشى فى الناس قاطبــة كما مشى آدم فيهم وحواء
قم أيد الحق فى الدنيا أليس له كتيبة منك تحت الأرض خرساء
وأين صوت تميد الراسيات له كما تمايد يوم النار سيناء (١)
وأين ماضية فى الظلم قاضيــة وأين نافذة فى البغى نجلاء
أيترك الأرض جانوها وليس لها صحيفة منك فى الجانين سوداء
تأوى اليها الأيامى (٢) فهى تعزية ويستريح اليتامى فهى تأساء (٣)

ليس عندى غير الدماء . !

« أريد أن اقول لمجلس العموم ــ كما قلت للذين اشتركوا فى هذه الحكومة ــ أن ليس عندى غير الدماء ، والاجهاد ، والعرق المتصبب ، والدموع .. فأمامنا تجربة من اخطر التجارب . وأمامنا شهور عديدة وأيام مديدة كلها كفاح وآلام . .

« ولقد تسألونى عن برنامجنا السياسى فأقول ان برنامجنا هو مواصلة الحرب فى البحر والبر والهواء ، بكل ما فينا من بسالة وبكل ما يهبنا الله من قوة . مواصلة الحرب ضد استبداد غشوم لاحد لطغيانه فى عالم الظلام ، وهو المثل الفجع للاجرام الانسانى .. هذا هو برنامجنا السياسى . .

« فاذا سألتم عن أغراضنا اجبتكم بكلمة واحدة انها النصر .. النصر بأى ثمن .. النصر برغم كل هذا الارهاب . . النصر مهما يطل طريقه وتكتنفه الصعاب . فبدون هذا النصر لا حياة لنا ولا بقاء .. نعم لا بقاء للامبراطورية البريطانية ، ولا لكل ما تقف الامبراطورية البريطانية رمزا له ومثالا ، ولا لوحى كل هذه القرون وندائها الازلى بأن الانسانية يجب ان تتابع سيرها نحو اهدافها . .

« ولقد تسلمت زمام الامر بكل انشراح وأمل ، وكلى ثقة بان قضيتنا لن تعدم نصيرا بين الناس ، وأحسبنى الآن محقا فى طلب المعونة منكم جميعا ، لذلك اهيب بكم أن هبوا الى الامام بقوتنا المتحدة ! »

ونستون تشرشل

(١) يريد النار التى ظهرت لموسى الكليم وهو سائر بأهله شطر طور سيناء (٢) أيامى : جمع أيم المرأة التى تفقد زوجها أو الرجل الذى يفقد امرأته (٣) تعزية وتسلية

الأنجليز في الشرق العربي

بقلم الاستاذ عباس محمود العقاد

الانجليز حلفاء طبيعيون للشرق العربي ،

لان الشرق العربي حليف طبيعي للانجليز

للشرق العربي غاية واحدة ينبغي أن تتجه اليها شعوبه جميعاً ، وهي الاستقلال في مظهره السياسي ، والاستقلال في مزاياه الاجتماعية والثقافية والاقتصادية

ومهما يكن من بأس الدولة المستقلة فهي لا تستغني عن حليف ، ولن تضمن استقلالها بمفردها في مضطرب المطامع الدولية

والحليف الطبيعي للدولة المستقلة هو الحليف الذي يستطيع أن يحقق مصالحه السياسية والحربية دون أن يضطر الى المساس باستقلالها والعدوان على حريتها

ولا يتوافر هذا الشرط في قوم كما يتوافر في الانجليز

فهم الحلفاء الطبيعيون لبلاد الشرق العربي بأسره ، لأسباب متعددة لا لسبب واحد

فمن تلك الأسباب انهم يؤمنون بالديمقراطية ومبادىء تقرير المصير خلافاً للدول التي تنكر الديمقراطية حتى على أبناء جنسها ، وتنكر حق الشعوب الصغيرة أو الشعوب العزلاء في تقرير مصيرها

ومن تلك الاسباب أن مصالحهم لا تضطرهم اضطراراً الى استعباد الامم العربية ، ولا توجب عليهم أن يسلبوا خيراتها ويقمعوا أبناءها

ومن تلك الاسباب انهم فضلا عن ايمانهم بالديمقراطية قد اختبروا في دولتهم الواسعة أساليب التعاون بين الشعوب الحرة على بعد ما يفصلها من فوارق المكان والجنس والعقيدة ، فأصبحوا أقدر من غيرهم على التعاون بينهم وبين الشعوب التي لا تدخل في نطاق تلك الدولة ولا تريد الدخول فيه

ومن تلك الأسباب أن مواصلات البحار فى أيديهم ، وأن سكك التجارة ترتبط بتلك المواصلات أيما ارتباط . ولا تتوافر هذه الأسباب كلها ـ وغيرها مما لا حاجة بنا إلى إحصائه ـ كما تتوافر فى الدولة الانجليزية

فالذين يخالفون هذا الرأى عليهم أن يثبتوا أحد شيئين : أولهما أن الشرق العربى يستغنى عن صداقة دولة قوية ، وثانيهما أن هناك صداقة للشرق العربى خيراً من الصداقة الانجليزية عند ما يقع النزاع بين الانجليز وخصومهم المناقضين لهم فى نظم الحكم والاجتماع

فأما أن الشرق العربى يستغنى عن الصداقة الدولية فهذا من لغو الكلام الذى لا يستحق الاطالة فى تفنيده ، لأن ثروة الشرق العربى كلها فى عشرين سنة لا تكفى لتزويده بالسلاح الذى يقف به منفردا فى معترك المطامع السياسية ، ولن تنام المطامع عنه خلال تلك السنين لو صح أنه يستوفى نصيبه من السلاح بعد انقضائها ، وهو مع ذلك فرض غير صحيح

وأما أن هناك صداقة للشرق العربى خيراً من الصداقة الانجليزية فالمفاضلة هنا تقوم بين الانجليز فى جانب ودولة من ثلاث دول فى الجانب الآخر ، وهى روسيا الشيوعية ، والمانيا النازية وايطاليا الفاشية ، وكل هاته الدول لا تترك الشرقيين أحراراً ولا تدارى نية التعرض لهم فى أصول الحكم وعقائد الدين وقواعد الاجتماع ، وهى عدا هذا متنازعة فيما بينها لا يأمن بعضها عادية بعض ولا تستقر هى ولا من يحالفها على حال

وقد يأتى اليوم الذى تهاجم فيه العراق أو ممالك البحر الأحمر أو مصر أو سورية فلا تبالى المانيا ـ مثلا ـ أن تتركها وشأنها ولا ترى ضرورة حيوية تلجئها الى الدفاع عنها ، وربما زادت على ذلك فأخذت أبناء تلك البلاد الى حيث يدفعون الخطر عن أماكن أخرى هى أولى فى نظر الالمان بالصيانة والدفاع ، ولو الى حين

فاذا كنا لا نقول ان الانجليز هم الحلفاء الوحيدون للشرق العربى فليس فى وسعنا أن نجهل أن شروط المحالفة الطبيعية لا تتوافر لأمة أخرى كما تتوافر لهم ، على حسب الأوضاع السياسية والجغرافية التى نشاهدها الآن

فهم فى الشرق العربى حلفاء طبيعيون

وضمان هذا التحالف أنهم يحتاجون الى الشرق العربى كما يحتاج الشرق العربى اليهم ، وأنهم يستفيدون فى هذا المضمار كما يفيدون

لما نشبت الحرب الحاضرة قال بعض الكتاب ان سورية والعراق ومصر تحمى الهند وهو قول صحيح ولكنه شق واحد من قولين صحيحين

أما القول الآخر فهو أن الهند كذلك تحمى تلك البلاد ، وأن الاستعداد لدفع الخطر عن الهند هو الذى أقام حول تلك البلاد قوة يخشاها الطامع المغير ، ولو لم تكن الهند وراء الشرق العربى لوقف الشرق العربى وحده فى وجه المطامع المحدقة بأقوامه ، ولا يقول أحد أنه حين ينفرد بنفسه يكون أقوى على الدفاع مما هو الآن

ويشمل قولنا هذا أمماً أخرى غير الأمم العربية فى الشرق الأدنى : يشمل الترك والفرس والأفغان ، لأنهم يستفيدون من موقع الهند وراءهم كما يفيدونها أو يفيدون معها بريطانيا العظمى ، وليس فى طاقتهم أن يواجهوا التهديد وحدهم اذا هددتهم روسيا أو المانيا ونظروا خلفهم فلم يجدوا هنالك من يحمي ظهورهم ويحرس طريقهم ويبادلهم معونة بمعونة وتشجيعاً بتشجيع

* * *

على أننا لا ننسى الهند ونحن شرقيون نرجوا لها الاستقلال والحرية الدستورية ولا نقصر هذا الرجاء على بلادنا العربية

فاذا سأل سائل : ما هو الحائل بين أهل الهند وبين الاستقلال والدستور فمن الواجب أن نستحضر فى أذهاننا العوامل الداخلية كما نستحضر العوامل الخارجية ، أو العوامل التى ترجع إلى وجود الانجليز فى تلك الاقطار

ففى الهند أمراء وطنيون يرفضون أن تخضع أماراتهم لنتيجة الانتخاب الذى يجرى فى الاقطار الهندية بأسرها

وفيها من أربعين الى ستين مليوناً منبوذين مجردين من الكرامة والرعاية لا يروقهم أن يسلموا زمامهم لمن يراهم بحكم عقيدته الدينية نجاسة يعافها ويتقى ملامستها

وفيهم ثمانون مليوناً مسلمون هم الكثرة فى بعض الأقاليم فلا يرضيهم أن يصبحوا قلة ضائعة فى جملة الأقاليم

وفيها أرجاء مترامية لا تربط بينها لغة ولا عقيدة ولا وحدة فى المصالح الزراعية أو الصناعية ، بحيث يجتمع مئات من الهنديين ولا يتفاهمون بلسان هندى واحد ، أو يثوبون الى

شريعة واحدة فى الزواج والمعاملات ، أو قانون واحد يتكفل بمصلحة أهل الجنوب كما يتكفل بمصلحة أهل الشمال

فليست العوامل الخارجية هى العقبة الأولى والأخيرة فى سبيل الاستقلال والدستور ، ولعلها فى أحوال كثيرة تكبح الشر الذى ينجم عن اصطدام العوامل الداخلية ولا تزال تكبحه حتى يزول أو يستقيم على سنن الوفاق والتوفيق

ولهذا وأشباهه أيقنا من اللحظة الأولى عند احتدام النزاع بين الدول أن الأمة الانجليزية هى الحليف الطبيعى للبلاد العربية وللبلاد الشرقية على التعميم

ويوم كانت المسألة قبل النزاع الدولى الحاضر خلافاً بين مصر وبريطانيا العظمى كنا بالبداهة الى جانب مصر حتى اللحظة الأخيرة ، ولم نكن لحظة واحدة الى جانب بريطانيا العظمى

ولكن الخلاف الآن بين بريطانيا العظمى وألمانيا ، أو بين بريطانيا العظمى وايطاليا ، أو بين بريطانيا العظمى وروسيا الحمراء . فمن الاساءة الى مصر والشرق العربى أن ننضوى الى النازيين أو الفاشيين أو الشيوعيين . ولم ؟ لم ينضوى الشرق الى تلك الجوانب إلا أن يكون من خدام النازية أو الفاشية أو الشيوعية وليس من خدام الأمم الشرقية ؟

فخصوم الانجليز لا ينشرون الحرية اذا تغلبوا ، ولا يكتمون حاجتهم الى خيرات البلاد الأخرى ، ولا تجمع بينهم وبين العرب مصلحة مشتركة ، ولا يعتبرون الخطر على بلاد العرب خطراً حيوياً على بلادهم ، ولا يعرفون من أساليب التعاون بين الشعوب الحرة ما عرفته الدولة التى يتعاون فيها الكنديون بأمريكا الشمالية ، والبوير بأفريقيا الجنوبية ، وشعوب أستراليا وزيلاندة الجديدة فى بحارهم السحيقة

ومن أجل ذلك يقع التفاضل بينهم وبين الأمة الانجليزية فلا يرجحهم أحد من أبناء الشرق العربى بمرجح صريح معقول ، لأن المرجحات الصريحة المعقولة كلها تناقض هذا الجانب أشد المناقضة

وانما القول الفصل فى هذا الأمر أن الانجليز حلفاء طبيعيون للشرق العربى لأن الشرق العربى حليف طبيعى للانجليز ، فهم يستفيدون من صداقته وهو يستفيد من صداقتهم ، واستقلال بلاده وغرضهم الجوهرى فى السياسة العالمية لا يتعارضان ، وهذا ضمان أوثق من كل ضمان

عباس محمود العقاد

أوجه الشبه وأوجه الخلاف
بين الانجليز والاميركان

بقلم الدكتور أمير بقطر

من المبادىء العلمية المسلم بها أن الناس لا يتكلمون عن أوجه الخلاف بين شيئين ما لم تكن أوجه الشبه بينهما أهم وأبرز ، أو بتعبير آخر ، مالم يكن الشيئان من نوع واحد . فمن الحمق مثلا ان تتكلم عن وجوه الشبه والخلاف بين سكان زنجبار ، وشعب اسوج ، فى حين انه يسوغ لنا البحث عن هذه الوجوه بين أمتى اسوج ونروج أو بين زنجبار وسومطرة . ومن الحمق أن نوازن بين حزب الوفد وجماعة الهلال الاحمر ، فى حين اننا نستطيع ان نوازن بين حزبى الوفد والاحرار الدستوريين ، أو بين جماعتى الهلال والصليب الاحمرين

والانجليز والاميركان مهما تعددت أوجه الخلاف بينهما ، وتباينت أساليب حياتهم الفكرية والثقافية والاجتماعية ، فانهم انجلوسكسون قبل كل شىء ، بالرغم ممن هاجر الى اميركا من مختلف السلالات والامم . فقد اندمجت هذه الامم دما ومبدأ وثقافة وحياة عامة بالانجلوسكسونية بطريقتين : احداهما بيولوجية وهى ما يسميه علماء الاحياء التمثيل (Assimilation) والاخرى صناعية وهى ما يسمونه هناك (Americanization) ، وذلك بوسائل علمية اجتماعية يسمونها الغلاية (Melting pot) وهو اسم على مسمى حقيقة ، فعلاوة على ان الانجليز والاميركان من سلالة واحدة أو من سلالات متقاربة قد هضمتها السلالة الاصلية فانهما ينطقان بلغة واحدة ، ويعتنقان مبادىء ديمقراطية واحدة ، ويحرصان على مثل عليا واحدة ، ويتغلغل فى دمائهما « البيوريتانزم » ذلك المبدأ الدينى الذى هو أساس الخلق الانجلوسكسونى ودعامة الاسرة والتربية ، حتى بين الذين لا دين لهم فى البلدين

وبالرغم من هذا التقارب الشديد ، فانهما يختلفان فى كثير من أساليب الحياة حتى يخيل الى من لا يعرفهما أن أوجه الشبه بينهما بعيدة أو معدومة . فلا يزال الانجليز يسمون الاميركان « أبناء عمنا الريفيين » ، ولا يزال الاميركان ينظرون الى الانجليز نظرة سيدة حديثة الزى الى سيدة أخرى جليلة القدر ترتدى فستانا يرجع الى عهد فكتوريا أو دكنز . وأحيانا يصعب على الواحد أن يفهم الآخر ، حتى قال ظريف : « ان الانجليز شعب غريب الاطوار يحاول الاميركان فهمه بغير جدوى ، وان الاميركان شعب غريب الاطوار لايحاول الانجليز فهمه بتاتا »

المرح والتفاؤل

وأول ما يبدو من أوجه الخلاف بين الشعبين ما يتصف به الاميركان من المرح والتفاؤل، ويعزى ذلك الى ان الاميركى حديث فى تاريخه ، شاب فى مزاجه ، فتى فى نفسه وروحه، كما ان أميركا فتاة فى تاريخها ونهضتها . وينتج من ذلك ان الاميركى أقل انتقادا للاشياء من الانجليزى . فالاول عند وقوع نظره على شىء جديد أو بلد أو منشآت لم يسبق له عهد بها ، يبحث عما فيها من حسن أو جمال فيمتدحه ، ويبالغ فى التحدث عنه والاعجاب به ، وهو يفعل ذلك عن اخلاص وحسن طوية . أما الثانى فأول ما يبحث عنه فى هذه الاشياء عيوبها ووجوه النقص فيها ، وهو أيضا يفعل ذلك عن اخلاص وحسن طوية . ولست أنسى فى كل مرة رحلت فيها الى أميركا عظم دهشة الاستاذ الذى كان يرافق الطلبة الاجانب فى زيارتهم لاهم المؤسسات الاميركية من ميل هؤلاء الطلبة الى التنقيب عن أتفه العيوب لنقدها أكثر منهم الى الاعجاب بأظهر محاسنها . ومن مظاهر هذه الروح الفتية عند الاميركى انه اذا ارتدى أحدهم زيا مبتكرا ، لا تمضى أيام حتى ترى المصانع قد أخرجت منه الملايين فأقبل الملايين على شرائه ، فى حين ان الانجليزى يبحث عن الزى الذى لم يهتد اليه سواه ، ويتجنب ما أصبح منه متاعا مشاعا بين الجماهير . ومن مظاهر هذه الروح المرحة الفتية ، ان الاميركى رغم انه كالانجليزى صريح يكره اللف والدوران، ويجنح الى التعبير عن رأيه بأسلوب مباشر لا غموض فيه ، فانه رقيق فى تعبيره وأسلوبه، بعكس الانجليزى فانه جاف متجاف ، وذلك لمبالغته فى الحرص على الصراحة وتأدية المعنى بأخصر طريق

وأذكر لذلك مثالين من مشاهداتى . فى آخر مرة كنت فيها فى أميركا بعثت الى أولى الشأن خطابا رجوت فيه مد الفترة التى سمح لى البقاء فيها هناك ستة أشهر أخرى ، فجاءنى كتاب رقيق بالايجاب ، وقد ختم بهذه العبارة .. « ونرجو لكم رغد العيش وطيب الاقامة فى خلال غربتكم القصيرة فى بلادنا .. » . وفى أوائل سنة ١٩٣٩ بعثت بمثل هذا الرجاء الى أولى الامر فى انجلترا فجاءنى الجواب المستقيم فى سطرين وهما حرفيا كالآتى : « ان وزير الدولة لا يرغب فى الاعتراض على مد أجل اقامتكم الخ » . وقد ذكرنى هذا الخطاب بخطاب كنت بعثت به الى ناظر مدرسة ثانوية منذ سنوات ، أسأله فيه عن درجات أحد الطلبة فجاءنى الرد التالى : « بالاشارة الى خطابكم .. نفيدكم ان الدرجات أرسلت لوالد الطالب المذكور .. » وليس ثمة من شك ان هذه الخشونة فى التعبير لا تنم عن سوء نية ، انما هى « بيروقراطية » أمينة مخلصة للتقاليد لا غير . والمثال الثانى ان الانجليز يقسون على الجمهور فى الحدائق العامة بقولهم « وكل من يقطف الزهور يقع تحت طائلة المحاكمة » فى حين ان الاميركان يتكلمون بلغة الزهور فيضعون لوحة وسط الزهور عليها هذه العبارة : « نريد أن نعيش أو نرجو أن تبقوا على حياتنا » .

وتجلى هذه الروح الفنية في القرى التى تنشأ حديثا ، حيث تقرأ فى طرق السيارات البديعة التى تؤدى إلى هذه القرى هذه العبارة « مرحى مرحى • أنظروا كيف تنمو » وعند خروج السيارات من القرية تقرأ هذه العبارة على اوحة كبيرة الحجم « كرروا الزيارة لبلدتنا »

التحدث عن البارزين

وهناك ظاهرة يتفق فيها الانجليز والاميركان بين عامة الشعب وحديثى النعمة منهم ، وهى الثرثرة (Gossip) أو التحدث عن البارزين من الرجال والنساء وحياتهم الاجتماعية، العامة والخاصة ، عن زواجهم وطلاقهم وغرامهم والجنايات التى تمت بصلة اليهم ، ويقرأون ذلك فى الصحف والمجلات ، وعلى الاخص « الصفراء »(١) أو نصف المحترمة منها ، كنيوز أوف ذى ورلد ، وديلى مرور فى انجلترا ، وديلى نيوز وبالى هو فى أميركا ، ففى هذه الصحف والمجلات وأمثالها يقبل عامة الشعب على كل ما يكتب عن الارستقراط من الفضائح ويلتهمونه التهاما ، كما يقبلون على الاخبار المتصلة بالمسائل الجنسية والحوادث النسائية • ولا شك ان هذه الظاهرة عامة فى جميع البلدان ، ومنها مصر فى السنوات الاخيرة ، اذ ان هذه نتيجة طبيعية للغرائز الاساسية التى لم تصقلها التربية بعد الا فى حدود ضيقة • على ان هذه الظاهرة أبرز منها فى انجلترا وأميركا منها فى أى بلد آخر ، حتى فى فرنسا ، اذ ان هذه الاخيرة لا تتمادى فى تتبع الحوادث الجارية بين كبار الرجال والنساء ، فى الصحف والمجلات ، ولكنها تعالج المسائل الجنسية معالجة غير علمية تثير الشهوات (Erotic) كموضوعات قائمة بذاتها ، لا اتصال لها بأشخاص معلومين

بيد ان هناك فرقا كبيرا بين الانجليز والاميركان فى هذا الشأن • فالاميركى يقرأ هذه الاشياء ، وينقلها الى أصدقائه كأنها دراما أو كوميديا أو حلم أو خيال • فقد تستمع سيدة أميركية الى خبر من هذه الاخبار يقصه عليها السائق ، ولا يعنى بصحته أو عدم صحته ، اذ ان كلا منهما متفرج لا غير • فحكاية الطلاق التى ترويها صحيفة « صفراء » عن أحد أصحاب الملايين الذى هام بكوكب من كواكب هوليود فتزوج منها ثم طلقها ، أو قتلها رميا بالرصاص لعلاقة بينها وبين المخرج ـ هذه الاحدوثة بجميع مفاجآتها عند الاميركى كأحدوثة جيش من المريخ يحتمل أن يغزو أميركا سواء بسواء • أما الانجليزى فينظر الى هذه الاخبار والاحاديث نظرة جدية ، ولكنه اذا قابل صاحب الفضيحة يتظاهر انه لم يسمع عنها شيئا ، وذلك على النقيض من الاميركى • وقد يدهش القارىء كيف ان أمة راقية يعنى أهلوها بمثل هذه السفاسف • والجواب بسيط جدا ، ما الذى يهم تلك الفتاة الشقراء التى تهرع الى صالون التجميل من تلك العناوين الضخمة التى تملأ

(١) الجرائد « الصفراء » فى عرف الانجليز والاميركان هى التى تعنى بالاجرام والحوادث الجنسية والتحدث بالتفصيل عن الطبقات الارستقراطية وحياتهم الخاصة ، ونبش الاحاديث المتصلة بالاعراض

الصحف المحترمة عن وصول أمبراطور كمبوديا الى بورت سعيد أو تحالف العراق مع ايران ، وهي لا تدرى ، ولا يهمها أن تدرى مواقع هذه البلاد على الخريطة ؟

الدين أساس المعاملات

ويتفق الاميركان والانجليز في جعل الدين أساسا لمعاملاتهم وحياتهم اليومية كما قلنا ، وان كانوا ممن لا تطأ أقدامهم كنيسة ، أو لا ينتمون الى أى مذهب من المذاهب . وفي هذا كله تناقض غريب أسوة بجميع البلدان في العالم . فالاميركي ديمقراطي ، ومع ذلك يبهره أن يتعرف الى أوربي يحمل لقب « دوق » أو « كونت » أو « أمير » . والمبادىء الدينية لا تتفق والتحدث عن المسائل الجنسية . ومن المعلوم ان الديمقراطية في انجلترا سياسية أكثر منها اجتماعية ، في حين انها في أميركا سياسية واجتماعية معا . فليس من الغرابة في شيء أن يكون للارستقراطية والالقاب الضخمة أهمية في انجلترا ، ولكن من المتناقضات أن يولع بها الاميركي . ففي كل عام يسافر الى انجلترا عدد يذكر من أغنياء أميركا خصوصا حديثي النعمة ويتوسلون بأموالهم الى سيدة كبيرة حتى تتمكن بناتهن العذارى بوساطة هذه السيدة من التشرف بمقابلة جلالة الملكة فيطلق عليهن اسم (١) (Debutante) وهو أخص ما تتمناه الفتاة في حياتها . وكثيرا ما تشير المجلات الثرثارة الى مثل هذه الحوادث في عبارات تهكمية مضحكة لاذعة . وقد قرأت من هذا القبيل مرة ان مستر فلان تاجر السمك الثرى المعروف ، أولم وليمة فاخرة دامت الى صباح اليوم التالى وتدفقت فيها الشمبانيا من زجاجاتها كأنها شلالات نياغرا ، ودعى اليها كبار رجال المفوضيات الدبلوماسية وفي مقدمتهم سفراء سيام وزنجبار وكوردوفان ونيام نيام وأتيوبيا، وأذكر رسما مضحكا لاحد القديسين يضع يده على ساق كونتيس عارية ، وأحد عامة الشعب يقول له غاضبا : « ابعد يدك عن ساق هذه الكونتيسة الجميلة » وقد أشير في هذا الرسم الى ثلاثة أشياء اشتهر بها العامة من الاميركان وهي الدين (في القديس) ، والالقاب (في الكونتيس) والمسائل الجنسية (...) . وقد اكتشف اللورد نورثكليف في انجلترا هذه الظاهرة فجعل كل جرائده لذوى العقول البسيطة ما عدا لندن تيمس ، وكذلك فعل هرست في أميركا وصحفه يقرؤها واحد من كل أربعة من السكان

المبالغة في النظام

ومن أوجه الخلاف بين الانجليز والاميركان ، المبالغة في الدقة فيما يتعلق بالنظام

(١) في يوم معلوم تحدده ملكة انجلترا تقدم اليها بنات الاشراف في سن الزواج (من ١٨ سنة) ويطلق على من تنال هذا الشرف العظيم اسم (Debutante) ولا تستطيع تقديمها الا سيدة سبق أن نالت هذا الشرف في صباها . وتتهافت الصحف والمجلات على رسم هؤلاء الفتيات بثيابهن الفاخرة كل عام

والتنظيم عند الاميركيين ، حتى اذا أقيمت حفلة أو وليمة استعدوا لها استعدادا كاملا ، وسبقوا فيها الحوادث فعنوا فيها بكل صغيرة وكبيرة ، بتعيين لجنة لها رئيس وأعضاء لتزيين المكان ، وأخرى لاعداد السندويتش والحلوى أو قائمة الطعام ، وأخرى لتذاكر الدعوة ، وغيرها للاستقبال ، الخ الخ بحيث لا يتركون شاردة أو واردة للصدفة ، فتسير الحفلة أو الوليمة سيرا ذاتيا « أوتوماتيك » تتجلى فيه روعة النظام والتنظيم • أما الانجليز فيعيبون ذلك الخلق أو هذه الخطة لانها لا تحسب حسابا للذكاء ، وتفرض ان البشر آلات مسخرة لا تسير الا بمحركات • وهذا ما يفسر لنا عدم الاستعداد للحرب وسبق الحوادث باعداد العدة لها ، اذ ان من مبادئهم المشهورة « لنعبر القنطرة عندما نأتى اليها » ، اعتمادا على ذكائهم ووثوقا بذواتهم ، نرى هذه الظاهرة جليا فى حفلات الفريقين وولائمهم ولانستطيع ايثار هذه على تلك ، اذ ان لكل منها محاسنها وعيوبها • ومن الحفلات الرائعة التى لن أنسى وصفها فى الصحف الاميركية ، وليمة أقيمت لولى عهد انجلترا (قبل أن يتولى الملك بقليل وهو الذى تنازل عن العرش لاخيه الملك الحالى) فى جزيرة جميكا المتصلة بنيويورك وقد بلغت نفقاتها مليون دولار وحضرها أكثر من عشرة آلاف ، ولكن الحوادث جرت فيها بسهولة كأن العدد لم يتجاوز العشرة ، وقد مثل فيها بطريقة فنية كهربائية شروق الشمس بعد نصف الليل فخيل الى الحاضرين ان الشمس أشرقت حقيقة• وبمناسبة هذه الوليمة أقول انه تأسس على أثرها ناد فى نيويورك أطلق عليه اسم « نادى الذين هزوا أيديهم بيد البرنس أوف ويلز » ولا يقبل فيه الا هؤلاء • وهذا دليل آخر على ما أشرت اليه سابقا من حب الالقاب

الامتزاج الاجتماعى

ومن أهم أوجه الخلاف المعروفة بين الانجليزى والاميركى ، ان الاول لا يسهل عليه الامتزاج بالناس اجتماعيا كالاميركى ومن الامثال المعروفة ان كل انجليزى جزيرة قائمة بذاتها كما ان بريطانيا جزيرة قائمة بذاتها • ولعل هذا هو السر فى ان الاميركى أكثر تفاؤلا من الانجليزى • فالطالب الاميركى اذا فشل فى الامتحان لا تجد على وجهه أثرا للكآبة أو الانفعال ، فالامتحان عنده كلعبة « البردج » أو كرة القدم ، اذا خسرها اليوم فلا بد أن يربحها غدا • وما يقال عن الطالب يقال عن التاجر الذى يخسر أو يفلس ، فانه يقابل ذلك بابتسامة عريضة لانه شديد التفاؤل والوثوق بالنفس بيد ان كلا من الانجليزى والاميركى مبذر ، مسرف ، مولع بالرياضة والرقص والسينما والمسرح الى درجة الجنون • ولكنه لا يفعل ذلك لمجرد اللهو أو قتل الوقت ، وانما لانه يجد فى الاولى تقوية للبدن وفى الثانية ضرورة اجتماعية وفى غير ذلك تهذيب وترويح للنفس • فتجد رجل العمل من كبار الاميركيين مثلا يحاسب الناس بكل دقيقة من وقته ، ويحرص على الزمن حرصه على المال ، ويركب القطار الارضى الذى يقف على يمين الرصيف لانه

سريع « اكسبريس » ثم ينزل منه بعد دقائق ويأخذ القطار الذى على اليسار وتسأله عن السبب فيقول لك انه بهذه العملية قد وفر دقيقة واحدة • ومع ذلك فانه وهو جالس فى مكتبه يملى الرسائل على سكرتيرة على اليمين وأخرى على اليسار ويتحدث بايجاز مخل وسرعة فائقة الى من يطلبه فى أجهزة التليفون الاربعة التى أمامه ، فانك تسمعه فجأة يقول لمحدثيه فى الجهة الاخرى من الخط : « جولف ، نعم لنلعب من ٤ الى ٧ مساء ولنتناول العشاء فى فندق « ولدورف » ولنرقص فى حفلة جونستون » ، وبذلك يوفر دقائقه ويشتغل كالمجنون ، ولكنه يبذر الساعات فى اللعب واللهو

أمن الغريب اذن أن نجد الرواية الواحدة تمثل سنوات فى أميركا وانجلترا ، وان يؤم السينما من الانجليز كل أسبوع فى لندن وحدها ستة ملايين ويؤم المسارح نصف مليون وأن يكون الحال كذلك فى نيويورك مضروبا فى رقم لا أذكره الآن بالضبط ؟

جنون السرعة

وجنون السرعة الذى أومأت اليه فى الفقرة السابقة ظاهرة يشاهدها السائح فى شمالى أوربا ، ولذا يدهش سكان تلك الانحاء من البطء فى مصر فى السير والبيع والشراء ، ويقولون ان المصرى حتى من الطبقة المثقفة يسير فى الشارع وهو يجر نفسه جرا فلا تدرى أهو يقصد مكانا معلوما أو يتلكأ على غير هدى للنزهة • الا ان السرعة فى اميركا يخيل الى من لا يعرف تلك البلاد انها جنون لا شك فيه • فسائق الترام (وهو الكمسارى فى الوقت عينه) تراه وهو منهمك فى وقف العربة وفتح الابواب « اتوماتيكيا » ، يراك تخرج ريالا من جيبك لتدفع قرشا ثمن التذكرة وانت واقف على الرصيف ، فيخرج من صندوقه الباقى بسرعة البرق ، فلا تكاد تطأ قدمك السلم حتى يكون الباقى فى يدك من غير انذار • واذا تأخرت لحظة كما فعلت أنا المرة الاولى ، دفعك الى الداخل ، اذ أن وراءك طابور يتأهب للركوب

وباعة الجرائد فى الشوارع يدفعون الجريدة تحت ابطك بينما تكون يدك اليمنى فى جيب السترة (شتاء) واليسرى تقذف الثمن قذفا ، وويل لك اذا لم تراع السرعة المعهودة

والانجليزى لا يقضى وقتا طويلا فى تناول طعام الغداء لانه يريد العودة الى عمله بسرعة ، الا ان الاميركى يفوقه فى ذلك بمراحل ، اذ يوجد بالمطاعم التى من نوع « الاميركان » كجروبى فى مصر وعليها لوحات بخط بارز بها « الاكلة فى دقيقة » • وكل هذا ناتج عن خوفهم من ضياع الزمن ، وحرص يقرب للهستريا • أضرب لذلك مثلا ، وهو اننى كنت ارافق زملائى فى الجامعة الى أحد هذه المطاعم الصغيرة للغداء ، وبعد ذلك نجد أنه لم يبق على المحاضرة سوى خمس دقائق ، كنت أوثر ان أجلس فى خلالها فى قاعة المحاضرة الى ان تفوت هذه الفترة القصيرة • غير أن الطلبة يهرعون الى المصعد الى الطبقة العاشرة فيأخذون كتابا من الرفوف المفتوحة ويجلسون لتصفح ما تيسر منها ثم

يعودون الى المصعد فيهبطون الى الطبقة التى بها غرفة المحاضرة ..

ودعيت مرة الى حفلة مسائية بالملابس الرسمية فوقفت فى طريقى الى هناك على باب « المكوجى » الذى كان يتعهد ملابسى بالغسل والكى ورجوته ان يكوى لى منديلا حريريا ابيض حالا ، فرفض ذلك رفضا باتا بدعوى ان الموظفين المختصين بكى المناديل قد انتهوا من العمل وخرجوا ، وعبثا حاولت ان يقوم بهذه المهمة الموظفون الباقون لانهم مختصون بكى القمصان فقط

أفعل التفضيل

والاميركى أشد شغفا بأفعل التفضيل من الانجليزى فهو يعنى بأن يكون فى اميركا أعلى ناطحة سحاب فى العالم ، وأوسع طريق للسيارات واطوله ، وأسرع طيارة ، وأغنى رجل ، وأكثر الكواكب شهرة ، وامتن قاطرة ، واكثر الاشياء فخامة . فالمعاهد العلمية الاميركية من المدارس الاولية الى الجامعة أكثر فخامة فى المعمار والاثاث ، وأكثر عددا فى المكتبات وعدد الكتب ، منها فى انجلترا . والصحف فى لندن تمتاز بالتواضع والبساطة فجميعها تقريبا فى فليت ستريت ومنعطفاتها ، وجميع البنايات فى هذا الشارع بعيدة عن الفخامة اذا استثنينا بناء « ديلى اكسبرس » أما التيمس فتوجد بالقرب من شارع فكتوريا . وفى غير الفخامة يمكن ان يقال ان أردأ صحيفة اميركية أشد رداءة من أردأ صحيفة انجليزية ، الا أن افضل صحيفة اميركية أحسن من أحسن صحيفة انجليزية . ومن الغريب ان لندن تيمس تشبه نيويورك تيمس كل الشبه تقريبا اذ ان كلا منهما مرآة الحكومة المركزية ، وكلا منهما تقرأ على مائدة الافطار ، على ان الاميركى يقرأ جريدته فى خلال الاكل حرصا على الزمن ، وصحيفة نيويورك تيمس تبلغ ١٤٠ صفحة فى اليوم العادى و٢٥٠ صفحة يوم الاحد

اللامركزية

ولعل الانجليزى أشد اختلافا عن الاميركى فيما هو أشد تشابها به ، وأعنى بهذا « اللامركزية » وتعدد القوانين بتعدد الولايات ، والحرية فى كل ولاية او مقاطعة . فهذه الحرية وتلك المركزية تحدها سلطة الحكومة المركزية بعض الشىء فى انجلترا ، ولكنها تكاد تكون مطلقة فى اميركا . فاذا كثرت العصابات المسلحة لسرقة البنوك فى نيويورك عجزت حكومة واشنطون عن التدخل فى امرها لان ولاية نيويورك ترجع فى شئونها الى مجلس تلك الولاية وحاكمها العام ومركزه فى عاصمة هذه الولاية وهى بلدة صغيرة اسمها (Albany) . والتعليم لا يمكن توحيده فى جميع الولايات التسع والاربعين فى اميركا ، لانه لا يوجد وزير للمعارف ولا وزارة ، ولذلك اذا سأل القارىء عن نظام التعليم هناك أجيب انه يوجد نحو ١٥ الف نظام ، وهذا عدد الوحدات الصغيرة التى تتألف منها

كل ولاية ومقاطعة . والتدخل الوحيد الذى للسلطة المركزية فى واشنطون الحق فيه (غير السياسة الخارجية) هو انه اذا صدر حكم نهائى فى قضية ما فى احدى الولايات وكان هذا الحكم مخالفا للدستور جاز عرضه على محكمة الاستئناف العليا فى واشنطون اذا طلب ذلك أحد الخصمين . وينتج عن ذلك ان الاميركان أشد ولعا بكثرة القوانين كما انهم أشد شغفا بكسرها ، ويرجع هذا الولع الى المبالغة فى التنظيم الذى سبق فأومأنا اليه ، مثال ذلك ان حكومة احدى المقاطعات تحدد طول الرقعة البيضاء التى تغطى بها الاسرة فى الفنادق ، وتضطر سائق السيارة ان يقف وقوفا تاما عند كل تقاطع للسكك الحديدية ينظر يمينا ثم يسارا ثم يحرك محرك السيارة ويستأنف السير ، وان كان موقنا انه لاتوجد قطارات فى تلك الساعة أو بعدها بساعات ، وعلى سائق السيارة ان يسير بسرعة معلومة فى ولاية ، على ان يغير هذه السرعة كلما مر بأخرى ، لان لكل ولاية قوانينها الخاصة

وقد بنى أحدهم مرة بطريق الصدفة منزلا فى زاوية بحيث تقع بعض النوافذ فيه على ولاية والبعض على ولاية ثانية وأخرى على ثالثة ، فكان كلما أرتكب أحد ابنائه مخالفة ، كالقاء أوراق أو صيد عصفور ، حوكم بمقتضى قوانين كل ولاية على حدتها ، ويحدث ان كل ولاية تدعى اختصاصها فيحدث تناقض فى الاحكام ، ويرفع النزاع الى المحكمة العليا حتى تقرر هذه اذا كانت المحكمة المختصة هى التى أطلق منها العيار ، أو التى وقع فيها العصفور . ومن القوانين المضحكة التى صدرت مرة فى احدى الولايات انه اذا التقى قطاران للسكة الحديدية ، وجب أن يقفا وقوفا تاما ، ولا يجوز لاحدهما أن يشرع فى القيام قبل قيام الثانى (ويرى القارىء ان الجزء الاخير مستحيل تنفيذه) . ومن أغرب قوانين ولاية كنزاس ان من يتسبب فى حادثة سيارة توضع صورته وصورة سيارته أمام السيارة المهشمة ومن قتل أو جرح فيها ثم توضع هذه الصور فى قاعة خاصة أقاموها لهذا الغرض اسمها قاعة الخزى « Hall of Shame »

التربية والتعليم

ولا يتسع المقام للكلام عن التربية والتعليم بتفصيل ، الا اننى استطيع ان اقول بايجاز ان وجه الاتفاق فى البلدين ان كلا منهما يضع التربية الخلقية فى مقدمة كل شىء . فالادارة المدرسية والبنايات والمناهج وأساليب التدريس وهيئات التدريس كلها ترمى الى هذه الغاية قبل كل شىء . على ان هذه العناية لا يقصد بها تدريس علم الاخلاق وحسب ، اذ ان الكثير من معاهد التعليم لا توجد بها مادة دراسية تسمى الاخلاق ، ولكن المقصود مراعاة المبادىء الاخلاقية من جميع النواحى المدرسية والادارية . والاساتذة هم عادة المثل التى يحتذى بها

أما وجوه الخلاف فكثيرة . منها انه لا يوجد فى اميركا نظام موحد كما ذكرنا بل آلاف من الانظمة ، وان كان لا ينقصها التجانس فى القواعد الاساسية . ومنها ان التعليم

الابتدائى والثانوى والعالى فى اميركا مفتوحة أبوابه لمن يريد ولمن تمكنه قدرته الذهنية فى حين ان فى انجلترا لا ينطبق هذا القول الا على التعليم الابتدائى ـ اذا استثنينا المنح العلمية التى يجعلها الانجليز فى متناول الفائقين من الطلبة • ففى اميركا يوجد ٥ ملايين طالب فى مرحلة التعليم الثانوى وحده ، أى ثلاثة امثال انجلترا بنسبة عدد السكان • وقد يدهش القارىء اذا علم ان هذا العدد يساوى مجموع طلبة المدارس الثانوية فى العالم بأسره • وكذا التعليم الجامعى فانه يوجد طالب جامعى لكل ١٢٥ فرد فى أميركا فى مقابل ١ الى ٦٠٠ فى انجلترا • وفى حين ان المدارس المخصصة للاشراف فى انجلترا كايتون وهرو هى فخر الانجليز ، فان مثلها فى أميركا عرضة لشديد النقد لانها لا تتفق ومبادىء الديمقراطية

وتعليم المرأة فى اميركا يكاد يعادل تعليم الرجل ، بل ان عدد البنات فى المدارس الثانوية يزيد على عدد البنين ، وقد كان عدد الاناث فى جامعة كلومبيا فى نيويورك ٢٥ الفا مقابل ٢٠ ألفا فقط من الذكور فى آخر سنة كنت بها • وهذا القول لا ينطبق على انجلترا أو أية بلاد أخرى الا فى مرحلة التعليم الابتدائى

ومن اوجه الخلاف ان المناهج فى اميركا مرنة فيستطيع الطالب ان يختار منها المواد او المجموعات التى تتفق وميوله وكفايته كما يراها الخبراء ولذا يقال ان المناهج فى انجلترا كالمطاعم التى تقدم للآكلين (Table d'hôte) فى حين انها فى أميركا كالتى تقدم (A la carte) ومنها ان الاميركيين مولعون بالتجارب والانظمة الجديدة والتغير فى الاساليب والمناهج ولذا يطلقون على المناهج الاميركية (Loose-leaf) اشارة الى الكراسة التى تستطيع ان تخرج منها ما تريد من الاوراق وتستعيضها بغيرها بدون اتلاف الكراسة • أما فى انجلترا فلا يؤخذ بنظام الا بعد ان يثبت نجاحه فى بلاد أخرى بعدة سنوات

والتعليم فى أميركا عملى كما يتضح مما يأتى : اذا أراد أحدهم التقدم لعمل أو وظيفة يسأل فى فرنسا : « ما هى شهاداتك ؟ » وفى المانيا : «ما هى معلوماتك ؟» وفى انجلترا : « ما هى الاخلاق والاوصاف التى تمتاز بها ؟ » وفى اميركا : « ماذا تستطيع ان تعمل ؟» وتظهر هذه الفروق فى الاعمال التجارية فاذا أراد « قومسيونجى » فى انجلترا ان يعلن عن نوع من الاحذية عند التجار بادر التاجر بقوله ان المصنع الذى يتولى اخراج هذا الحذاء تأسس منذ مئتى عام ، اما فى اميركا فى هذه الحالة فيخرج حذاء مقطوعا الى شطرين استدلالا على متانة المواد المصنوع منها

والاميركى يخالف الانجليزى فى انه ينظر الى الرياضة نظرة جدية فيهمه ان يتغلب على خصمه وعشرات الالوف من المتفرجين يهمهم ان يروا أحد الفريقين منتصرا • وحدث مرة ان الحكم قرر ان اللعب سجال فرموه بزجاجات الكازوزا • أما الانجليزى فينظر اليها كرياضة للجسم والنفس والاخلاق غالبا أو مغلوبا

امير بقطر

هذا بحث مفيد وطريف وهو يحلل أخلاق الأنجليز ومزاياهم وحياتهم الاجتماعية بطريقة مبتكرة ، فقد اخترنا طائفة من نوابغ المصريين الذين تثقفوا بالثقافة الانجليزية ، وخالطوا الانجليز في بلادهم ليتحدثوا عن حياة هذا الشعب الديمقراطي العريق ، وعما استفادوه منه . وفي كلمة كل منهم لون خاص من ألوان التحليل ، وأسلوب ممتاز جديد

ماذا أفدت من الأنجليز

للاساتذة : محمد كامل سليم بك ـ الدكتور احمد زكى بك ـ الدكتور ابراهيم رشاد بك ـ الاستاذ أمين كحيل بك ـ محمود تيمور بك

كلمة محمد كامل سليم بك

السكرتير العام لمجلس الوزراء

« .. حياتي في نواحيها الثلاث قد استفادت اعظم فائدة ، وتأثرت أبلغ التأثر بفضل الثقافة الانجليزية ومخالطة الانجليز في بلادهم وخارج بلادهم .. »

في طليعة ما أفدته من حياتي بين الانجليز ألا يتحدث الانسان عن نفسه ولا عن شؤونه الخاصة . ذلك لانه ان فعل وقع في أحد محظورين : اما أن يمدح نفسه ويعلى شأنه عن مستواه الحقيقي ، فيثقل ظله على السامعين . واما أن يقدح في نفسه ويكشف عيوبها ، فتهوى مكانته وهو يرجو النصفة والاحترام بين الناس أجمعين . والآن تطالبني مجلة الهلال بأن أجرى الحديث في هذه الدائرة المحرمة . فماذا عساني أن أفعل ؟ كانت الاستجابة الاولى من ناحيتي أدنى الى الاحجام والاعتذار منها الى الاقدام والقبول ، ولكني عدت الى نفسي أسائلها : ألا من سبيل ؟ أليس في طريقة العرض وأسلوبه ما قد يخفف وقعه في النفس فيسلم الكاتب من المحظورين ؟ بلى ، ولكل مجتهد نصيب . اذن فلأكتب وأمرى لله . فقد يكون في الكتابة بعض الفائدة لبعض القارئين

حياة الانسان ذات نواح شتى أهمها ثلاث : الناحية الجسمانية ، والناحية العقلية ، والناحية النفسية . اذا نمت هذه النواحي ونضجت وانتظمت جرت الامور فيها مجرى الطبيعة السليمة ، والفهم المستقيم ، والأداء الحسن ، وعاش صاحبها عيشة حافلة كاملة ، واذا اختلت احداها فلم تنضج ولم تنتظم اضطرب باقيها ، وتعثر صاحبها ، وكانت حياته عرجاء شوهاء ، لا متعة فيها ولا استقرار

نمو الجسم ونضجه : من شأن الطبيعة وفعل الايام والاعوام

ونمو العقل ونضجه : من شأن المعلم والمؤلف وفعل العلوم والآداب

ونمو العواطف ونضجها : من شأن البيئة والمربى وفعل الفنون والدراسات النفسية

ومظاهر نمو الجسم ونضجه ـ زوال طراوة الطفولة عند سن الرشد ، والقدرة على المقاومة ، وظهور القوة المثمرة وتدفق ينابيعها المحببة

ومظاهر نمو العقل ونضجه ـ القدرة على التفكير المستقل بعد ان استكمل العقل غذاءه ، من شتى العلوم والآداب وتجارب الحياة وهضم الغذاء ومثله تمثيلا . ثم الفهم الواضح لاغراض المرء من حياته وتحديد أهدافه والسعى اليها بلا ذبذبة ولا استسلام للمقادير تجرى فى أعنتها

ومظاهر نمو العواطف ونضجها ـ الاعتدال والاتزان والقدرة على احتمال النقد والاستفادة من كل ناصح أو ناقد من غير برم وانقباض . أو غضب وحقد وانتقام . ثم القدرة كذلك على احتمال المدح والثناء . من غير تيه ولا زهو ولا غرور ولا خيلاء

والآن وقد أوضحت المعالم كما أراها وعينت الحدود ، أنتقل من التعميم الى التخصيص خشية الاطالة والاملال، ولأعترف على الفور ومن غير تحفظ بأن حياتى فى نواحيها الثلاث قد استفادت أعظم فائدة وتأثرت أبلغ التأثر بفضل الثقافة الانجليزية ومخالطة الانجليز فى بلادهم . واتخذت طابعا خاصا لم تزده الايام الا ثباتا ووضوحا ، ونفعا لنفسى ولغيرى

فقد لقيت هؤلاء القوم بجسم نما فى غير قوة وازدهار ، ونضج ، أو كان من النضج قاب قوسين أو أدنى . وبعقل بلغ منتصف الطريق أو كاد . وعواطف ، كالعواصف ، لا سلطان لى عليها ، ولها على كل السلطان . فكانت حياة متخاذلة النواحى ، تصبح وتمسى فى غير نظام وانسجام ، وتسير من غير ضوابط ، فى قلق وطموح . فماذا كان من أثر الحياة بين الانجليز فى كل ناحية من هذه النواحى الثلاث ؟

فى الناحية الجسمانية : عاملان أثرا فيها تأثيرا بليغا :

الاول ـ الالعاب الرياضية فى الهواء الطلق . فقد أغرمت ببعضها وأقبلت عليه فى غبطة وبشر . فانتعش فى جسمى ما كان ذابلا ، ونشط منه ما كان خاملا ، واستيقظ ما كان راقدا ، وازدهر ما كان خامدا

الثانى نظرية العلاج عن طريق الطبيعة لا بواسطة العقاقير ، وهى نظرية نفعتنى وآمنت بنفعها ايمانا رسخ فى نفسى كأقوى ما يكون الايمان . وهى تقضى بأن أكثر الدواء المصنوع لا خير فيه ، ويجب تفاديه ، لانه فى الاغلب والاعم انما يعالج الاعراض ويزيلها . فيبقى المرض كامنا مختفيا الى حين . ثم يعود فيظهر بنفس الاعراض أو بأعراض أخرى . فالحذر كل الحذر من أكثر العقاقير المعروضة فى الاسواق كعلاجات مزعومة لطائفة كثيرة من الامراض ، وهى فى الواقع لا تشفى مريضا ، بل تمرض السليم لو تعاطاها . والخير كل الخير فى الاعتماد على الطبيعة وأفاعيلها ، ووسائلها : الحمية والراحة ثم التغذية الملائمة،

وقوامها الفواكه الناضجة والخضراوات • والامتناع التام عن اللحوم فى حالات المرض والتعب الشديد

وفى الامثال الانجليزية « ان أكثر الناس يحفرون قبورهم بأسنانهم » • وفى الحق ان الناس ليفرطون فى تناول الطعام فيمرضون ، فاذا مرضوا لم يمتنعوا بل استمروا سادرين فى الاكل المنوع وهما منهم بأن ذلك يعينهم على مقاومة الضعف والمرض • وهى خزعبلات وأوهام ، تنطوى على الموت الزؤام

وفى الناحية العقلية : وجدت للانجليز وجهات ونظرات تستحق العناية والاقتباس ، فاقتبستها وحرصت على اتباعها فنفعتنى نفعا عظيما وأثمرت أطيب الثمرات • فنظرتهم الى الحياة بصفة عامة نظرة عملية نافذة تدرك المصلحة الحقيقية وتقبل عليها • وتعنى بشؤون الحاضر والمستقبل ، والانتفاع بعبر الماضى القريب والبعيد ، وتدين بالنشاط والأمل والعمل ، ولا تعرف الركود واليأس والكسل : هى نظرة تحمل صاحبها على التفكير فى خير مايلائمه ويلائم الجماعة • فيعرف ما يريد ، ثم يرسم خطة الوصول الى ما يريد ، ثم ينفذ بالعزم الصادق هذه الخطة من غير تسخط أو تردد أو تململ ، فاذا ثبت بالتجربة ان العقبات أكبر من أن تذلل ، وان النجاح مستحيل معها ، عدلت خطة السير فى شجاعة وحزم ، وظل التمسك بالغاية المنشودة قويا لا يتزعزع

ثم نظرتهم الى الشؤون العامة نظرة وطنية صميمة يضحى فى سبيلها بالمصلحة الحزبية عن طيب خاطر ، ويضحى كذلك بالمصلحة الفردية عن طواعية ومن غير اكراه • وهم فى هذا مثل رائع فى الخضوع للنظام وفى القدرة على التنظيم وتعبئة القوى للمصلحة العامة • وبينما ترى المصرى يقول : « فعلت هذا ارضاء لضميرى ولكن النتيجة ما تكون » لن تسمع أبدا من انجليزى قولا كهذا • وانما تراه يتساءل : « ما هى الطريقة للوصول الى أحسن نتيجة ؟ » ذلك لان « الضمير » فى نظره كالرأى تماما قد يخطىء وقد يصيب • وأما النتيجة فهى وحدها المقياس الصحيح لقيمة الاعمال وأهميتها على أن تكون الوسيلة شريفة نزيهة

ثم ان طريقة الانجليز فى المناقشات طريقة جديرة بالاشادة والتنويه والاحتذاء لانها تتبع خططا من شأنها أن تحميها من الانحدار الى حمأة المهاترة العقيمة وويلات المخاصمة السوداء • اذ يعتقد الجميع ان أول مظهر من مظاهر الثقافة الصحيحة أن يكون العقل من المرونة بحيث يستطيع أن يهتم بوجهة نظر الطرف الآخر الذى يعارض أو يشاكس • وأن يتفهم بواعثه ومراميه ، فيسهل بعد ذلك اقناعه أو على الاقل مقابلته فى منتصف الطريق • وعلى هذا الاساس تحل المشاكل فيما بينهم ، وبينهم وبين غيرهم فى غير صعوبة وعسر • أما التعنت والعناد والمكابرة فهى فى نظرهم أدلة على السخف وضيق الافق ونقص الثقافة ، أكثر من دلالتها على رعاية المبادىء والكرامة وقوة الارادة

بقيت الآن الناحية النفسية : ناحية العواطف والاخلاق • وهى أعظم وأخطر من

باقى النواحى على الاطلاق . وهنا يجب أن أبرز حقيقتين من الخير ذكرهما وعدم نسيانهما : الاولى ان الانسان يعيش بعواطفه وأخلاقه أكثر مما يعيش بعلمه وعقله . والثانية ان نمو الجسم والعقل ونضجهما لا يستلزمان نمو العواطف ونضجها . وكثيرا ما تظل العواطف صبيانية غير ناضجة عند الكثيرين من المتعلمين ، والرجال العموميين . وتكون النتيجة شقاء لهم ، ووبالا على بيئاتهم وأوطانهم

ومظاهر العواطف الصبيانية كثيرة أخص بالذكر منها فى هذا المقام ما أرى له فى الحياة أثرا خطيرا ، وثمرا مرا : كالحياء الشديد والاستكانة والميل الى التملق أو التوقح ، والغطرسة والانانية الصارخة وحب الظهور ، والانقباض لخاطر طارىء أو لمكروه لم يقع بعد وربما لا يقع ، والحزن الشديد والفرح المستفيض لكلمة قيلت ذما أو مدحا ، والهلع عند الخيبة ، والميل الى الثرثرة والزهو والخيلاء عند ادراك حالة مستطابة لم تكن منتظرة ، والبكاء والعويل عند الصدمات ، وذهاب النفس حسرات ، على ما فات ومات

وان أكثر من يقولون لك « جرحت احساسى » أو أهنت كرامتى » انما يعيشون بعواطف صبيانية لم تنضج بعد

تلك كلها مظاهر لايزيلها نضج العقل وحده ما دامت العواطف لم تنم ولم تنضج ، وسر عظمة الانجليز فيما أعتقد (أو فيما أرانى أميل الى اعتقاده) انما هو فى نضج عواطفهم ومتانة أخلاقهم التى لولا ذلك النضج ما بلغت هذه المتانة . ولأذكر بايجاز أبرز ما عرفته فيهم وما أفدته منهم فى هذه الناحية :

الاول ـ ضبط النفس وهدوءها ، ويتجلى ذلك فى القدرة على الجام الاهواء بلجامين : من صبر واعتدال . واخفاء العواطف بلثامين ، من حرص وكتمان

الثانى ـ الخضوع للنظام عن رغبة أكيدة ، بل عن ميل وعقيدة مع حب التعاون والتآزر والقدرة على التنظيم

الثالث ـ الثقة بالنفس والثبات الذى لا يعرف اليأس وأوجه الموت كوالح

من هذه المزايا الكبرى تتفرع فضائل أخرى لولا خشية الاطالة لتحدثت عنها . وهى أظهر ما تكون فيهم فى أوقات الشدة منها فى أوقات الرخاء

ولقد أكبرت كل ذلك فيهم كل الاكبار . وجعلته موضوع نظرى ودرسى . ومصدر احتذائى واقتباسى . وعلى منواله أخذت أنسج أردية نفسى . وأسلك سبل الحياة مدرعا بما أفدت ، متحصنا بما كسبت . وأخيرا (وليس هذا أقل أهمية مما سلف) استفدت من الانجليز خصلة مريحة مسعدة ، اذ تعلمت كيف أجد فى كثير من نواحى الحياة ومظاهرها ما يدعو الى التسلية ويثير الضحك والابتسام من غير أن يكون فى ذلك شىء من لذع السخرية والازراء . ولا سعادة فى الحياة بغير القدرة على هذا النوع من الضحك والابتسام

محمد كامل سليم

كلمة الدكتور احمد زكى بك

مدير مصلحة الكيمياء

« .. تعلمت في انجلترا العمل وقدسيته ، العمل الكامل الشامل الذى يتجه اليه المرء بقلبه غذاً لقوته ، واداء لواجب حياته .. »

كنت فى القطار انتظر تحركه . وكان مقعدي فيه وثيرا ، ومس هوائه وجهى وبدى دافئا لذيذا . وزاد فى لذاذته تلك النظرات التى كنت ألقيها عبر النوافذ المغلقة لاستشرف ما وراءها فيحجبه عنى بخار متكاثف على زجاجها يحدث عما وراءه من برد قارس شديد . ومددت يدى امسح زجاجها فتبينت فى الضباب السائد اشباح الرائحين والغادين من رجال ونساء وعمال يسيرون في اختلاط وزئاط فى هذا الجو المعتم البليل ، وقد زاد البرد فى وزن ملابسهم كما زاد فى سرعة خطاهم . وكان الوقت ضحى ومع هذا أنارت المصابيح في سماء المحطة الفسيحة . وجاءت فتيات حسناوات فى ملابس واحدة تشق طريقها بين الناس ، وتجر أمامها عربات خفيفة عليها الفناجين البيضاء والفطائر ، وقد تصاعد بخار الشاى من أباريقه فسطعت نفحاته في العين بأحسن مما تسطع فى الانوف . وصفر الصافر فتحرك القطار فمشى دبيبا ، ثم خببا ، ثم انطلق مسرعا الى العراء الواسع فلم يبلغه الا بعد حين طويل . فقلت : الى اللقاء يا لندن ، لقاء غريب ما سلم حتى ودع . غريب أشعت فى نفسه الاجلال والاكبار لا الحب والهيام ، فحب المدن غير حب العذارى ، لا تقتل فيه النظرة العابرة الاولى

ومضت بنا فى القطار الساعة تلو الساعة ونحن نتجه شمالا الى الريف . وأخذت أبحث عن هذا الريف فيما انكشف من الافق فلم أجد شجرة قائمة أو عود نبت يهتز . ووجدت الطبيعة قد تعرت من كل شيء ، والارض قد نزلت عليها عناصر الاجواء القاسية كما ينزل الجراد فمسحتها مسحا من كل أخضر ، فتراءت واحدة اللون سوداء تتقسمها أسيجة كثيرة متلاقية كرقعة الشطرنج ، تقوم عليها لتحرس غير محروس وتخفر شيئا غير موجود . فكانت كأرض عاد وثمود . وانتصف النهار واكتهل ولم تظهر للشمس شعاعة . وخيم الظلام عصرا فحسبت بالساعة خللا . فقلت فى نفسى هذا بلد القحط والبرد والظلام لا يعيش فيه وخوم كسلان

وعشت فى هذا البلد ما يقرب من عقد من الزمان لم أر فيه مظهر الفاقة المدقعة أبدا لانى لم أر مظهر الكسل الفاحش أبدا . فالبيت تزوره فى الصباح فلا تجد فيه غير ربته ومن هم دون سن العمل وسن المدرسة من أطفالها اناثا وذكورا . وهكذا تجده بعد الظهر الى السادسة أو السابعة فالعمل يمتد هناك طويلا . ومن أجل هذا كانت وجبة الطعام الكبرى هى وجبة المساء

وقلما تجد فى البيت خادمة الا ان يكون البيت كبيرا أو صاحبه من ذوى الثراء ، لان

الخادمات أجورهن عالية ، فلو طبق عليهن « كدر » الحكومة المصرية لكن فى الدرجة الثامنة وكلفتهن أعلى ، فهن لا ينمن تحت المناضد ولا يأكلن الفضلات ، ولهن كرامات ، وساعات للعمل محدودات يملأنها بالعمل المتواصل • والمرأة التى تعمل فى نظافة منزلها فى الصباح هى التى تشترى الطعام من السوق ولو كانت لها خادمة وخادمات ، وهى التى تتزين فى المساء فتجد فى وجهها نضرة العمل وصبا النشاط ولو لم تكن بذات صباه • والنساء لم تترك الحركة لاجسامهن فرصة يتراكم الشحم فيها أطباقا ، فهن نحيفات تطبعا ثم طبعا • والمرأة تطلب العمل اذا بلغت سنه كما يطلبه الرجل ولو كانت فى غير حاجة لان العمل عندها بعض الحياة ، ولان مجالاته مدارس الحياة الاخرى والكبرى • ولان العمل له ثمن ، والمال يشترى به استقلال النفس وكرامتها ، والمرأة هناك تعلمت فيما تعلمت الاستقلال والانفة ، فهى لا يخطر لها ببال ان أخاها يعولها ، فكفاه بحياته حملا • وكما شاع العمل فى البيت ، شاع فى الحقل وفى المصنع وفى المصارف وفى الشركات وفى دور الحكومة • وشاع فوق الارض وتحتها فى المناجم ، وعلى اليابسة وفى الماء

فهذا ما تعلمته فى هذا البلد الكبير • بل هو أجل ما تعلمته : العمل وقدسيته • العمل الكامل الشامل الذى يتجه اليه المرء بقلبه ثمنا لقوته وأداء لواجب حياته • العمل الذى يستغرق اكثر ساعات النهار • العمل الذى لا يأذن فى العام الا باجازة تتراوح بين الاسبوعين والاربعة • العمل الذى يشترك فيه من السكان الجنسان،فيصبح به انتاج الامة انتاجين ، وثروتها ثروتين • العمل الذى لا يطلب الكفاف ، بل ما وراء الكفاف ليرتفع بالعيش عن مستوى البهائم • العمل الذى اساسه « ذل من قنع وعز من طمع » • العمل الذى يقوم به صاحبه دفاعا عن أسرته فى تنافس الاسر ، ودفاعا عن امته فى تنافس الامم• العمل الذى هو مطمح الرجولة والانوثة على السواء ، مطمع الانسان الذى يستكمل به كونه ويؤدى به رسالته فى هذا الوجود على انبهام الغاية واحتجاب الغيب

والعمل الكثير المتلاحق على هذه الصورة العامة لا بد له من النظام ، فتعلمنا الى جانب العمل النظام • تعلمناه فى المنزل ، متابعة لاهل المنزل فى قيامهم وقعودهم وطعامهم وخروجهم ودخولهم • وتعلمناه فى الجامعة ، مسايرة لاهل الجامعة فى الدرس والرياضة والحفلات • وفى الملاهى تعلمنا الوقوف على الابواب فى الطوابير ووقف فيها معنا الكبير والصغير • وتعلمنا وقوفها عند أعتاب الترامات ومواقف السيارات ونوافذ التذاكر فى المحطات • والبيئة المنتظمة ينتظم من يدخل فيها غصبا خشية أن تفوته القافلة ، ثم يصبح الغصب عادة سهلة • ومع النظام تعلمنا قراءة الساعات ، نقرأ عقاربها الكبرى بمثل ما نقرأ عقاربها الصغرى ، ونعنى بالدقائق عنايتنا بالساعات ، وذلك فى تقدير الزمن وانفاقه وفى تحديد المواعيد والبر بها

والعمل يقتضى حسن المعاملة ، فتعلمنا حسن المعاملة وآداب اللياقة • فالاحسان يشكر ولو جاء من خادم يؤجر • والاساءة يعتذر عنها ولو الى أفاق فقير • ولكل كتاب جواب

ولو الى مصلحة حكومية أو ادارة بوليسية . والنساء والاطفال تتقدم الرجال ، ولا يزحم رجل رجلا الا اعتذر . وشاعت الامانة نسبيا كأحسن ما تشيع فى أمة فسهلت المعاملات. ذهبت مرة الى البنك فاستبدلت شيكا بمال ، ولما انصرفت وجدت أنى أخذت دون ما استحققت ، فعدت الى الصراف وطلبت اليه عد ما لديه . فنظر الى يتفرس ثم اعطانى الفرق دون ان يعد وقال : « سأعد فى وقت أفرغ من هذا » . وفى الصباح التالى جاءنى خطاب يؤكد صحة دعواى ويتضمن اعتذارا . وبعد هذا بسنوات صرفت شيكا كبيرا فى مصرف لا أعرفه . وبعد شهرين لحقنى خطاب من هذا المصرف كان يتابعنى فى رحلتى ، وفيه ان الصراف أخطأ فأعطانى مائة جنيه وخمسة بدل المائة . فمما تعودته من أمانة القوم لم يخالجنى الشك دقيقة فى صدق الرجل ، الا أن يكون أخطأ على غير عمد . فارسلت له الخمسة الجنيهات ، وكل ما سألته ان يعيد التحقيق ويزيد التدقيق . فجاءنى منه الشكر والتوكيد . واغتبطت نفسى أشد اغتباط بأداء أمانة لرجل لم يكن له على فيها من سلطان

وساعد على حسن المعاملة تقارب ما بين الافهام فى بلد ديمقراطى عمه التعليم . والتعليم يعرف المرء قدر نفسه وقدر غيره ، فهو لا يبالغ فى تناسيها . والتعليم اذا عم واستمر الاحقاب ساوى بين الطبقات من الوجهات الاقتصادية تساويا كبيرا . وعلى هذا التساوى ، أو ان شئت التقارب فى الماديات ، والتقارب فى العقليات ، تقوم الديمقراطيات،والا فهى دكتاتوريات متشعبة الرؤوس تتزيى بزى الديمقراطية لانه زى جميل خداع يسهل على الطغاة قيادة الامور . ففى هذا البلد الذى نصف صغرت الطبقة الفقيرة الجاهلة التى ينعتونها بالدنيا صغرا نسبيا كبيرا،وصغرت الطبقة الغنية صغرا نسبيا كثيرا،وتضخمت الطبقات المتوسطة تضخما عظيما كما تتضخم نواة الخلية فتملؤها . فعلى هذه النواة الضخمة ، على هذه القاعدة العريضة قام صرح الحكم وصرح النظام وصرح الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فلم يكن من المستطاع الا أن يكون صرحا شعبيا دستوريا . وكان على ضخامته فيه اتزان لاتساع قاعدته ، فلم يخشوا عليه العوادى . وأمنوا عليه فلم يعنوا بوصفه وتحديده بألوف المواد ومئات القوانين،حتى القوانين التى تصفه اختاروا لها الثوب الفضفاض الذى يتسع لآراء كثيرة مما تحتمله الرؤوس العاقلة فى الظروف المتغيرة الكثيرة . وقد يجدون فى هذا الصرح الضخم على الزمن تصدعا فلا يرتاعون له ، وانما يجمعون له المعاول والفؤوس ليصلحوه فى تؤدة على أسلوب الزمان الجديد بما لا يتنافر كثيرا مع الاسلوب العام للبناء القديم . ويسهل عليهم اصلاحه لانهم هم بانوه

وأثرت هذه النظم الديمقراطية فى أساليب المعاش العادية مما يراه الغريب فيهم كل يوم . فبواب الجامعة يتقدم الى مدير الجامعة ويخاطبه كما يخاطب أخاه الا شيئا من التأدب يسيرا . وليس من الضرورى أن يقف له أو يلتفت اليه ان كان مشغولا . وليس من الضرورى أن يقرأ الساعة كل دقيقة يترقب حضوره . بل هو لا يدرى أحضر أم لم

يحضر . والشرطى فى الشارع يتحرك الى ضابطه على جانب الطريق فى تلك السرعة البطيئة الواثقة التى يتحرك بها الى أى غاية كانت ، ثم هما يتحادثان فى أدب متبادل فلا تكاد تدرى لولا الثياب فى أيهما تقع الرآسة . والوزراء ومن دون الوزراء يستخدمون أرجلهم فى المشى ، ويمشون بين الناس فى الطرقات حتى ولو لم تتعطل سياراتهم. ركبت مرة تراما تحت الارض ، فلما اتخذت مكانى وأخذت أقرأ صحيفتى على العادة لمحت أمامى رجلا ليس وجهه بغريب . فتفرست فيه فاذا به « رمزى مكدونالد » . ونظرت فى الركاب حولى متشوقا الى علم ما يصنعون برئيس وزرائهم ، فلم أجد فيهم من صنع شيئا ، الا نظرة واحدة يختلسها الراكب من وراء صحيفته ، ثم هو يستمر فى القراءة فلا يقطعها عليه قاطع . والرجل الكبير لم يظهر عليه انه فى موقف غريب ، بل لم يظهر عليه انه يحس ما حوله ، فقد كانت عيناه تنم عن تفكير بعيد . وتغلغلت الديمقراطية فيهم حتى دخلت الى قصورهم . كنا مرة فى الجامعة ، فى محاضرة ، فلم ندر الا فى آخرها ان الملكة كانت حاضرة ، دخلت اليها من الخلف فى سكون لم يشعر به أحد . وحيتها الوطنية الصارخة عند الانتهاء دقائق . ثم امتزجت بالطلبة امتزاجا كان فيه وقار الامومة وحب البنوة . وفى يوم من الايام كنت أسير فى بعض الريف ، ومعى ابنتى طفلة صغيرة ، ولم يكد يكون فى الطريق الهادىء غيرنا ، وبينما نحن فى حديث للدعابة خفيف ، صرخت الطفلة صرخة مدوية : « هذا الملك » ونظرت فاذا بالملك الشيخ قد بلغته الصرخة فخلع قبعته وحنى لها رأسه باسما

ان حديث هذه البلاد حديث طويل ، وما أفدته منها عديد كثير . وحسبى منها سنوات قاربت العشر قضيتها بين الحقيقة والخيال ، بين اليقظة والاحلام . وهى أحلام برئت منها على أثر دقة عنيفة دقها رجل على رأسى . جاءتنى هذه الدقة وأنا على الباخرة أهم بالنزول الى أرض بلدى . وجاءتنى من الوراء فتلفت خلفى ، فاذا بالدقة من صندوق عظيم يحمله حمال . ووجدت الحمال يزعق فى وجهى : « أأنت أعمى؟ أعيناك مفتوحة ؟ ألا ترى ؟ » . فقلت فى نفسى : « لا والله لم تكن مفتوحة ، ولكنها فتحت الآن » . ومضى الآن على عودتى سنوات وسنوات ، ولا أزال أحسب ان الصناديق لا تزال تدق رؤوس الرجال ، وتدقها من الخلف

احمد زكى

كلمة الدكتور ابراهيم رشاد بك

مدير مصلحة التعاون

« ..ولست أقدر أن أحدد ما افدته من اقامتى بين الانجليز، ويكفى ان أقول ان لها الاثر الاكبر فى تكوينى وتوجيهى . »

اقمت فى انجلترا عشر سنوات وأنا فى مقتبل العمر ، فكان لذلك اكبر الاثر فى تكوينى العلمى والخلقى وفيما اخترته لنفسى بعد ذلك من وجهة وعمل خصوصا أنى اثناء مقامى فى تلك البلاد كنت لا اقنع بالدراسة فى الجامعات ، بل اختلط بمختلف الاوساط ، وأعيش مع القوم كأنى واحد منهم ، وأهرع فى اجازاتى الى الريف الانجليزى ، لأنعم بجماله وهدوئه وأقف فيه على الخلق الانجليزى الصميم

ومن العسير على هنا أن احصى فى اسطر معدودة كل ما أفدته من مقامى تلك السنين الطوال فى انجلترا ، فان ذلك يستدعى كتابة بحوث طويلة عن الانجليز وطباعهم واخلاقهم وميزاتهم الاجتماعية ، ولكنى سأحاول قدر الامكان ان أشير الى ما استفدته منهم اشارات عامة موجزة .

من الوجهة العلمية

طريقة الانجليز فى البحث معروفة فانها تقوم على ان يستخدم الباحث فكره ، ويعتمد على ذكائه Common Sense فى كل ما يعرض له من مسائل فلا يتلقى نظرية كأنها قضية مسلمة ، بل يناقشها حتى يدرك وجه الصواب فيها . وفى الوقت نفسه لا يستهين برأى غيره لا لشىء سوى انه يخالف رأيه ، فلعله هو المخطىء ، وذلك الرأى المخالف هو كه الصواب

على انى أفدت الى جانب هذه القاعدة الاساسية فى البحث والنقد قواعد ارشدنى اليها استاذى البروفسور Fay وكان قد عهد الى فى أن أعد له الطبعة الجديدة لكتاب من كتبه الاقتصادية وتلك القواعد هى :

ا ــ الدقة والامانة فى البحث

ب ــ عدم كتابة عبارة الا اذا كانت واضحة اولا فى ذهن الكاتب

ج ــ جعل العبارة على قدر المعنى وعدم استخدام الفاظ تحتمل معنيين

د ــ جمع مادة البحث عن ثلاث طرق :

١ ــ الاطلاع على ما كتبه الباحثون فى الموضوع

٢ ــ مقابلة اصحاب الآراء فى هذا الموضوع ومناقشتهم فيه

٣ ــ دراسة أحوال الفئات التى يعنيها الموضوع والوقوف على حاجاتها

من الوجهة الخلقية

ان من يزور انجلترا يسترعى انتباهه اول وهلة كلمتان هما Thank you أى شكرا و Sorry أى آسف أو « عفوا » • ولهاتين الكلمتين معنى متأصل فى اعماق الخلق الانجليزى ، فالفرد منهم لا يتهاون فى اداء الشكر عند وجوبه ولا يتردد فى الاعتذار اذا هفا • وهكذا جبلوا على خلتين : الاعتراف بالفضل والرجوع عن الخطأ • وقد يسرت لهم هاتان الخلتان علاقاتهم مع بعضهم البعض ومع العالم الخارجى ، ولست ابالغ اذا قلت ان لهما أيضا أكبر الاثر فى تكوين تاريخ بلادهم وتأسيس امبراطوريتهم

ويتصل بذلك أيضا ما يلمسه فيهم ـ وما قد يأخذه عنهم ـ من يعاشرهم،من طول الاناة وسعة الصدر والمبادرة الى الصفح • فالانجليزى ليس سريع الغضب ، واذا غضب فلسبب وجيه ، على ان غضبه قل أن يخرجه عن طوره • وهو واسع الصدر يتقبل النقد ولو كان قاسيا • ولا يكن حقدا أو يضمر رغبة فى الانتقام ، بل يرتاح الى العفو وتطمئن به نفسه

ومن الامثلة التى يصح أن أوردها هنا على سعة الصدر عند الانجليز ما يتعلق بكتابى «مصرى فى ايرلندا» An Egyptian in Ireland الذى يعد من أقسى ما كتب ضدهم فقد كتبته فيما بين سنتى ١٩١٦ و١٩٢٩ وهما سنتان بارزتان فى تاريخ الجهاد الوطنى فى ايرلندا ومصر على التوالى • وقد بلغت فيهما السياسة الاستعمارية منتهاها ـ كما وصلت الحركة الوطنية فى البلدين الى ذروتها ، فكان طبيعيا ان يكون كتاب مصرى عاش برهة فى ايرلندا قاسيا على الانجليز

مرت الاعوام وانتهى الكفاح بين مصر وانجلترا ، وبدأ عهد جديد من التفاهم ، توجته معاهدة التحالف والصداقة بينهما • فكان أول ما فكرت فيه مع بعض رفاقى من المصريين والانجليز هو تأسيس « الاتحاد المصرى الانجليزى » ليقوم بدوره فى هذا المجال • ولما طلب الى بعض كبار الانجليز ان أهدى كتاب « مصرى فى ايرلندا » الى مكتبة الاتحاد اعتذرت قائلا أن آدابنا القومية لا تسمح بان اهدى الى الانجليز كتابا هاجمتهم فيه بعنف ، غير أنهم انذرونى بلطف أن يقدموا كتابى من لدنهم الى المكتبة اذا أنا لم أقدمه • وفى هذا دليل على مبلغ القوم من التسامح

اما ثبات الانجليز حيال الملمات ، واما مغالبتهم للصعاب والعقبات ، واما مثابرتهم على متابعة غاية يعتقدونها حقا وصوابا ، ومعالجتهم الحل بعد الحل وعدم يأسهم من النجاح قط ـ كل ذلك أصبح حقيقة شائعة فى الحرب الحاضرة على الخصوص • وقد آنسته كله حين عشت بين ظهرانيهم ، وآمل ان أكون قد اكتسبت ولو قليلا منه

من الوجهة الاجتماعية

أحب الاشياء الى الرجل الانجليزى شيئان : بيته ورياضته • فاما تعلقه ببيته فقد جعل الاسرة الانجليزية خلية سليمة لشعب سليم • واما تشبثه برياضة يمارسها فى وقت فراغه فان له أكبر الاثر فى صحته وتكوين خلقه الشخصى والاجتماعى • والواقع ان الحياة الشخصية القائمة على هاتين الدعامتين ـ الرياضة والبيت ـ تتضمن الاعداد الصحيح للحياة

والانجليزى معروف باعتداده بنفسه سواء أكان كبير المقام أم صغيره • ولعل هذا الخلق هو الذى حقق المساواة الصحيحة فى انجلترا ، وجعل منها أول دولة ديموقراطية فى العالم • ومهما يبلغ الانجليزى من علو المكانة أو من الارستقراطية الاثيلة ، فانه لا يتكبر على سواد الشعب ، بل يهبط الى مستواه لرفعه ونفعه • وترى السيدات الارستقراطيات يدخلن بيوت الفلاحات ويزرن المستشفيات ويواسين المرضى • كل ذلك دون ان يفقد الرجال أو النساء مزاياهم الارستقراطية • وقد عبر شاعرهم كبلنج عن ذلك احسن تعبير فى قصيدته « اذا » التى وضعها لنصح النشء الانجليزى اذ قال :

If you can talk with crowds and keep your virtue
Or walk with kings — nor lose the common touch,

وقد ترجم المرحوم عثمان الهمشرى هذين البيتين فيما يلى :

اذا انت خالطت الجماهير صائنا فضائلك العليا ولم تتلوث
اذا انت سايرت الملوك محافظا لطابعك الشعبى كالمتشبث

وهذا العطف المتأصل فى نفوس الاغنياء والكبراء على الطبقات الفقيرة هو الذى جعل انجلترا نموذجا للدول الاخرى فى قوانين الفقراء ، وفى اعانة المتعطلين وفى التأمين الاجتماعى بانواعه • وكذلك فى الهيئات والمنشآت الاهلية كالمستشفيات والمدارس والمعاهد التى تعيش من التبرعات والاكتتابات • وليس عجيبا أن تنشأ الحركة التعاونية كذلك فى تلك البلاد بفضل رائدها الاول روبرت اون Robert Owen ثم بفضل رواد روتشديل • وهذه الحركة اذا بدأت بعطف القوى على الضعفاء أو بر الغنى بالفقراء، فسرعان ما استقرت على أساس من اعتماد هؤلاء على انفسهم وهكذا ثبتت على خلق متين يعد ايضا من مزايا الانجليز

والحق يقال ان هذه الناحية من النواحى العامة فى انجلترا قد بهرتنى واخذت بمجامع لبى ، حتى اذا عدت الى مصر كرست حياتى للتعاون والدعوة اليه ونشره فى البلاد منذ سنة ١٩٢٠ الى اليوم والغد ان شاء الله .

ولقد كنت منذ نعومة اظفارى أحب الريف وارتاح الى الاقامة فيه • غير ان ذلك قد رسخ فى نفسى وزاد منذ شهدت تعلق الانجليز بالريف وحرصهم على الانتساب الى

(البقية على صفحة ٣٣٢)

تطور السياسة الداخلية فى بريطانيا منذ الحرب العظمى

بقلم الاستاذ محمد رفعت بك

المراقب العام للتعليم الثانوى

هناك تواريخ معينة يذكرها التاريخ كمعالم تدل على بدء نهضات جديدة أو حدوث تطورات خطيرة توشك أن تغير مجرى الحوادث أو تفتح للعالم عهدا جديدا وتطبع الاجيال القادمة بطابع يميزها عن غيرها بما تستحدثه من آراء ونظم وطرائق يمتد أثرها تدريجا حتى تعم العالم المتمدين . ولا يزال سقوط روما فى يد قبائل الالمان المتبربرة سنة ٤٧٦ م ، وفتح الاتراك للقسطنطينية فى سنة ١٤٥٣ ، أو كشف امريكا سنة ١٤٩٢ ، وقيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ ، من أمثلة هذه التواريخ التى تعتبر نهاية عصور آفلة طويت صفحاتها ومقدمة لعصور جديدة آذنت بالدخول

ومن هذه التواريخ سنة ١٩١٧ المتداخلة فى سنة ١٩١٨ التى بها انتهت الحرب العالمية الاولى . ففى تلك السنة كانت الحرب قد وصلت الى أقصى شدتها وعوامل الظلام واليأس تكاد تطغى على العالم وتصيب بالفشل صفوف الحلفاء الذين كانوا يحاربون فى أرض فرنسا من أجل الحرية والديمقراطية . وبينما الناس بعد قتال وتناحر دام ثلاث سنوات مبتئسون لسماع أخبار الثورة فى روسيا وانهزام ايطاليا فى « كابورتو » وارتداد الحلفاء أمام هجوم الالمان فى فرنسا ، اذا بشعاع من الامل ينبعث من العالم الجديد فيضىء الطريق أمام العالم القديم ويفتح آفاقا جديدة لانقاذ الانسانية ونصرة الحلفاء ، ففى ابريل سنة ١٩١٧ دخلت امريكا الحرب ضد ألمانيا ، وأخذت قواتها ومواردها الحربية والمالية تتدفق عبر الاطلنطيق معززة جانب الحلفاء . وفى مارس سنة ١٩١٨ توحدت القيادة فى الحرب بزعامة الجنرال فوش القائد الفرنسى ، وكانت هذه الوحدة من أهم الاسباب التى أدت الى النصر . وفى يناير سنة ١٩١٨ أعلن الرئيس ولسون نقطه الاربع عشرة التى طالع بها الحلفاء والاعداء والناس جميعا ، فكانت انجيلا وهدى للناس وفرقانا بين الحاضر المظلم بويلاته والمستقبل اللامع بما بشر به الرئيس من مبادىء تقرير المصير وحرية البحار والتجارة وخفض التسليح وتشاور الامم كبيرها وصغيرها وضمان السلامة للجميع

ثم سرعان ما قامت الثورة فى صفوف الالمان وتخاذلت قواتهم فأعلنت الهدنة فى الساعة الحادية عشرة من يوم الاثنين ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ ، وكأنه قد نفخ فى الصور ودقت

ساعة البعث والنشور فذهل الناس فى لندن ولم يصدقوا فى أول الامر ، ثم ما لبثوا أن انسلوا من بيوتهم وأعمالهم الى الشوارع شيبا وشبانا نساء ورجالا ألوفا مؤلفة متراصين مهللين وكأنهم أرادوا أن يعوضوا صمتهم وابتئاسهم طوال سنى الحرب فكانت صيحتهم للنصر مدوية متجاوبة . وعلى عكس ذلك كان الجنود فى الخنادق فى ذلك اليوم المشهود ، اذ تبدل فجأة قصف المدافع ودوى القنابل وأزيز الطيارات مما استسلموا له واستمسكوا به طوال السنين الاربع ، وغشيت ميادين القتال موجة من السكون والصمت لا عهد للمحاربين بهما من قبل ، فعرف الجميع ان طاحون الحرب قد وقفت رحاها وان السائمة التى كانت تعمل فى الطاحون ستنزاح عن عينيها الغمامة وتساق قريبا الى مذاودها ومنازلها. لذلك كان ابتهاج الجند المحاربين يوم الهدنة سلبيا صامتا لا يقل فى روعته عن صيحة لندن العالية

ومن ذلك التاريخ دخلت البلاد فى طور جديد له المظاهر الآتية :

١ - الديمقراطية الجديدة

ليس كالموت شيء الا الحرب يسوى بين الافراد ويزيل الفروق بين الطبقات ، وماذا عساه أن تكون نتيجة الحياة فى الخنادق شهورا بل سنين الا أن تصهر العناصر المختلفة التى تتكون منها طبقات الجنود المحاربة وتدمجها بعضها ببعض ، فلا تلبث ارستوقراطية المال والجاه أن تعفر بأديم الفقر والعوز وتنتظم فى الصفوف مع عامة الناس فوق صعيد واحد لا فارق ولا كلفة فيه حيث لا يعصمهم جميعا من نوازل الحرب لقب أو علم أو سلطان

فاذا ذكرنا ان الخدمة فى الجيش الانجليزى لم تكن اجبارية ، وان الجيش كان يتألف من المتطوعين من جميع الطبقات ، أدركنا أهمية هذا التحول وأدركنا أيضا فداحة الخسارة التى منيت بها بريطانيا من جراء الحرب اذ فقدت زهرة شبابها من أحسن العناصر وهم الذين كانت تدخرهم لمستقبل أيامها ، لانه لا يقبل على التطوع عادة الا كبار النفوس من الشبان ذوى الخلق المتين . وانا لنرى أثر هذه الخسارة فى صنف الرجال الذين اضطلعوا بالاعمال فى انجلترا بعد الحرب فكانوا جميعا من رجال العهد الماضى وندر بينهم نوابغ الشبان الاكفاء

وكانت نتيجة الخدمة العسكرية فى الجيش أن فطن العائدون من الحرب الى ما ينطوى عليه عنصر الجماعة من تضامن وقوة ، وانهم اذا أحسنوا استخدامها أمكنهم أن ينالوا من الحكام أو أصحاب رءوس الاموال ما يبتغون من غير حاجة الى تحمل ابطاء التشريع البرلمانى

هذا الى ان طول عهد الناس بالحرب وفقد مليون من الانفس عدا الجرحى والمنكوبين فى أجسامهم أو عقولهم قد أدى الى استهتار الناس بالحياة وجعلهم يستهينون بالموت ازاء ما اعتبروه ظلما وغمطا لحقوق الجماعة ومصلحتها

لذلك نرى من أهم مظاهر العهد الذى تلا الحرب زيادة أعضاء نقابات العمال فى انجلترا وارتفاع عددها من مليونين قبل الحرب الى ستة ملايين ونصف بعده ، ونرى اتساع نطاق الاضرابات فى مختلف الصناعات حتى وصل الى درجة تعطيل مصالح الناس الضرورية واعلان الاضراب العام فى ٢ مايو سنة ١٩٢٦

٢ ـ التطور الاقتصادى وأثره

عاش الناس أثناء الحرب جادين عاملين كل بحسب طاقته منتفعين بملايين الجنيهات التى كانت تنفقها الحكومة كل يوم لمواصلة الحرب ، فزال بذلك كل أثر للبطالة ، وطبيعى أن ترتفع الأسعار والاجور طوعا لكثرة النقود المتداولة ، فلما وقفت الحرب تعطلت معها المصانع التى كانت تعمل ليل نهار لتموين الجيوش لحاجاتها ، واضطرت الحكومة أن تقتصد فى النفقات لتفى بجزء مما تجمع عليها من ديون بلغت ٧٠٠٠ مليون من الجنيهات

ولما قلت النقود المتداولة انخفضت الأسعار واضطرت أصحاب رءوس الاموال الى تخفيض أجور العمال وتقليل عدد العاملين منهم ، فكثر المتعطلون ومعظمهم من الرجال الذين سرحتهم الحكومة من الجيش بعد الحرب . وتبرم القوم بالحكومات التى تسعد الناس فى أيام الحرب وتعجز عن اسعادهم فى أيام السلم

وفى مقدمة الصناعات التى تأثرت عقب الحرب ما كان منها مرتبطا بحاجات الجيوش ، كصناعة الصلب والحديد واستخراج الفحم ، وبناء السفن ، والاعمال الكيمائية ، أما الانتعاش الذى صادف الزراعة فى اثناء الحرب فقد تحول الى شبه افلاس بسبب فتح الاسواق للمحصولات والواردات من الخارج ، مما اضطر معه أصحاب الاراضى الى تركها أو بيعها

ويكفى للدلالة على ما وصلت اليه حالة العطل والانتاج فى البلاد ، ان مقدار ما صدرته انجلترا من الحديد فى سنة ١٩٢٧ بلغ ٢٧١ر٩٤٤ طنا مع انها كانت تصدر ٢٦٢ر٩٤٥ طنا فى سنة ١٩١٣ ، وانها صدرت من أثواب القطن فى سنة ١٩٢٧ ٤٠٠٠ مليون ياردة فى حين انها كانت تصدر فى سنة ١٩١٣ ٧٠٠٠ مليون ياردة تقريبا

وقد أدى هذا الكساد الشامل فى التجارة والصناعة والزراعة الى احداث تطور خطير فى السياسة العامة التى سارت عليها البلاد منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وهى سياسة حرية التجارة ؛ اذ أصبح من أيسر الحلول لانعاش الحالة أن توضع الضرائب الجمركية على الواردات . وبذلك ينفسح المجال أمام المحصولات والمصنوعات المحليه

وكانت الحرب قد ساعدت على اقامة مصنوعات وطنية جديدة ، كعمل السيارات والمصنوعات الكيمائية والكهربائية ، وصار لزاما على الحكومة أن تحميها من خطر المنافسة الخارجية والا تعرضت للضياع

زد الى ذلك ان الحرب قد علمت الدول درسا فى الاقتصاد الوطنى ودربتها على أن تكفى حاجاتها بنفسها حتى لا تقع تحت رحمة الغير • لذلك عملت جميع الدول على اقامة الحواجز الجمركية فى وجه التجارة الخارجية ، وأصبح التيار فى انجلترا جارفا نحو حماية التجارة والتحول نهائيا عن مبدأ حرية التجارة الذى كافح حزب الاحرار فى سبيلها كفاحا مجيدا فى القرن الماضى • وسنرى كيف أدى هذا التحول الى انحلال حزب الاحرار وتفوق حزب العمال

٣ ـ ظهور المرأة فى الميدان السياسى

ومن أهم مميزات الديمقراطية الجديدة ظهور المرأة فى الميدان السياسى بعد الحرب ، وكان طبيعيا أن تستجيب الحكومة والبلاد لمطالب النساء بعد أن لبين نداء الوطن منذ بدء الحرب ، فحولن مكاتب الدعاية السياسية الى مكاتب لتشغيل النساء فى الاعمال الخاصة بالحرب ، فتقدم منهن عشرات الالوف للعمل فى التمريض والمستشفيات وانتاج الذخائر ، وأخذن أماكن الرجال فى فلاحة الارض ومصانع الذخيرة وفى قيادة السيارات والمركبات ، وتألفت منهن كتائب للطيران وللعمل فى ميادين القتال مما أثار اعجاب الناس جميعا

لذلك لم يكن غريبا أن تعمل الحكومة على تحرير النساء سياسيا فأصدرت فى سنة ١٩١٨ قبل نهاية الحرب قانونا يمنح النساء حق الانتخاب بشروط مالية معينة

ولما انتهت الحرب نص ميثاق عصبة الامم ـ وكان جزءا من معاهدات الصلح جميعها ـ على ان جميع الوظائف فى السياسة مفتوحة للنساء مثل الرجال ، كما نص على ان النساء يتقاضين كالرجال أجورا متساوية ما دامت المرأة تقوم بأعمال متساوية فى القيمة كالرجل

وكانت الحرب قد علمت النساء دروسا مفيدة فى الاستقلال والاعتماد على النفس ، فبدأن يخرجن عن طوق المنزل وعن نطاق الاسرة ، وحطمن قيود الماضى وتقاليده فأقبلن بكثرة على التعليم العالى والتخصص للمهن الحرة ، واندمجن فى الحياة العامة بدرجة دعت الحكومة فى سنة ١٩٢٨ الى اصدار قانون مساواة النساء للرجال فصار لكل امرأة فى سن الحادية والعشرين حق التصويت والانتخاب للبرلمان

ولا شك ان اشتراك النساء فى الحياة السياسية العامة قد أكسب الديمقراطية الجديدة عنصرا نزيها فطر على الرحمة والصبر ومقت الظلم وأساليب العنف ، كما ان اندماجهن مع الناخبين من الرجال قد لطف من غلوائهم وكسر حدتهم فى وقت كان الشعور فيه بالغا أشده ضد الحكومات وأصحاب رءوس الاموال

٤ ـ تفوق حزب العمال

وبزيادة العناصر الديمقراطية بين الناخبين تقوى حزب العمال وأعلن صراحة برنامجه

السياسى ، الذى يقضى بأن تسيطر الدولة على موارد الانتاج ووسائل التبادل والتوزيع • وكانت الحكومة فى أثناء الحرب قد سيطرت على وسائل النقل مثل السكك الحديدية والبواخر التجارية وعلى انتاج الفحم وعلى التموين وبعض مواد الغذاء • وكان العمال ينتظرون استمرار هذه السياسة بعد الحرب حتى تقل البطالة بين العمال وتجرى الثروة فى أيدى الناس كما كانت فى أيام الحروب ، وكانوا ينتظرون أن تقوم الحكومة بانجاز وعودها للناس عامة بتحسين أحوال معاشهم وانشاء المساكن الصحية لهم وزيادة العناية بالاطفال والعجزة • ولكن الحكومة لم تف الا بجزء يسير من هذه الوعود

ولذلك جاهر حزب العمال بمبدأ تحويل موارد الثروة من أيدى الشركات وأصحاب رؤوس الاموال الى الدولة • ولما انقسم رجال حزب الاحرار على أنفسهم بسبب سياسة حماية التجارة ، انضم الموافقون منهم الى المحافظين ، وانضم المعارضون الى حزب المعارضة القوى وهو حزب العمال • وبذلك زاد عدد النواب من حزب العمال زيادة مطردة ، فبلغ عدد نوابه فى سنة ١٩٢٢ ١٤٢ عضوا ، ولم يكن له فى انتخاب سنة ١٩١٨ سوى ٦١ عضوا • وفى انتخاب سنة ١٩٢٣ صار له ١٩١ عضوا وبذا أصبح الطريق ممهدا لتولى الوزارة فى يناير سنة ١٩٢٤

وعلى ذلك عادت السياسة البرلمانية التقليدية الى مجراها القديم محصورة بين حزبين كبيرين يتناوبان الحكم ، حزب المحافظين وحزب العمال بدلا من حزبى « التورى » و « الهوج » أو المحافظين والاحرار

ويعتبر تولى العمال الحكم فى بريطانيا حادثا فذا فى تاريخها السياسى ، اذ رفع الى كراسى الحكم اناسا من صميم العمال ومن ابناء الطبقات الوسطى والفقيرة الذين كافحوا وجاهدوا بعرق جبينهم لكسب قوتهم وتثقيف عقولهم ، وما فتئوا يعملون وينهضون حتى أتتهم الوزارة مختارة ولم يكونوا فى نظر الناس يصلحون لها ، بل منهم من خشى ان يحدث العمال فى الادارة الحكومية وفى نظم الحكم انقلابا لا قبل بالبلاد به • حتى اذا تبوأ وزراء العمال مراكزهم وأحسوا بالتبعة تثقل كاهلهم وبالمسئولية تلقى على اكتافهم وباغلال التقاليد فى أيديهم ، وجدهم الناس سياسيين معقولين ومعتدلين كأكثر المحافظين بله الاحرار حذرا وتدبرا للامور

على انه يجب ان يقال ان العمال فى دورى حكمهم لم تكن لهم الاكثرية المطلقة فى البرلمان ، بل كان اعتمادهم على أصوات النواب الاحرار ولا يزال الحكم على سياسة العمال بيد المستقبل

٥ ـ جماعة الأمم البريطانية الحرة

والى جانب هذه التطورات فى الداخل تطورت العلاقات بين انجلترا وبين ممتلكاتها

المستقلة ، ففى اثناء الحرب ساهمت هذه الممتلكات بكل ما تستطيع من رجال ومال • وكان طبيعيا أن تعترف بريطانيا بهذا الجميل، فدعت فى يونيه سنة ١٩١٧ الجنرال سمطس Smuts رئيس وزارة جنوب افريقية ليكون عضوا فى وزارة الحرب • ولما انتهت الحرب جعلت لكل من كندا واستراليا ونيوزيلندا وجنوب افريقية والهند مكانا فى مؤتمر الصلح ، كما اقترحت قبولهم جميعا اعضاء فى الجمعية العمومية لعصبة الامم • واكتفت انجلترا بنفسها فى مجلس العصبة ممثلة للامبراطورية البريطانية

واجتمعت بعد ذلك مؤتمرات تمثل الامبراطورية البريطانية • وكان أهمها مؤتمر سنة ١٩٢٦ ، وفيه تكونت نواة جماعة الامم البريطانية الحرة التى اعترف بها رسميا فى قانون وستمنستر سنة ١٩٣١ • وبمقتضى هذا القانون أصبحت الأملاك المذكورة مستقلة وعلى قدم المساواة مع بريطانيا ، فصار لها حق التمثيل السياسى أمام الدول الاخرى ، وأصبحت برلماناتها لا البرلمان الانجليزى صاحبة السيادة، فوزاراتها وبرلماناتها هى التى تقرر الدخول فى الحرب ان شاءت أو التزام الحياد ، كما فعلت فى الحرب الحاضرة اذ قررت حكومة جنوب افريقية وايرلنده التزام الحياد • وبدت للناس مرونة النظم السياسية الانجليزية على الرغم من التناقض الظاهر فى بعض النواحى كأن يكون الملك فى انجلترا فى حرب مع المانيا بينما الملك فى ايرلنده او فى جنوب افريقية على الحياد مع نفسه !

وقد ظفرت ايرلنده فى سنة ١٩٣٧ بسلطات اوسع من نظام استقلال الأملاك ، اذ ليس بايرلنده حاكم عام ينوب فيها عن الملك كما فى الاملاك الاخرى بل بها رئيس منتخب يقوم مقام الملك

اتجاهات السياسة العامة

كان لويد جورج على رأس الحكومة الائتلافية عند انتهاء الحرب ، واليه يرجع معظم الفضل فى قيادة السفينة الى شاطىء السلام والنصر • فلما انتهت الحرب ـ وكان البرلمان قد ظل قائما منذ سنة ١٩١٠ ـ رأى لويد جورج ان يستغل الظرف فيدعو الشعب الى انتخابات عامة • وكان من أهم ما وعد به الناخبين محاكمة المسئولين عن الحرب ومطالبة الاعداء بدفع تعويضات كافية وتحسين حال العمال ومساكنهم بدرجة تليق « بالابطال الذين كسبوا الحرب » وما كادت الانتخابات تنتهى بفوز المؤتلفين بزعامة لويد جورج فوزا ساحقا حتى سافر الى مؤتمر الصلح فى باريس ومعه ثلاثة من أهم الوزراء ، وترك الحكومة فى انجلترا تعانى أزمات عدة كان فى مقدمتها ان حزب « السن فين » الايرلندى ـ وهو الحزب الجمهورى المتطرف ـ قد فاز بانتخاب ٧٣ عضوا فى الانتخابات الاخيرة ، غير أن الاعضاء بدلا من الجلوس فى مقاعدهم فى البرلمان الانجليزى اقسموا الا يذهبوا اليه وأنشأوا فى «دبلين» برلمانا جمهوريا • وبدأ نوع من حرب العصابات بين جنود «السن فين» والانجليز

ثم تورطت الحكومة مع الاغريق فساعدتهم ضد تركيا ، كما ساعدت الروس البيض ضد البلشفيك خوفا من انتشار مبادىء البلشفة . وكان نصيب هذا التدخل من جانب بريطانيا فشلا ذريعا أدى الى استقالة الوزارة فى سنة ١٩٢٢ ، واسفرت الانتخابات العامة فى تلك السنة عن فوز المحافظين بزعامة بونارلو أولا ثم بزعامة بلدوين من بعده

ولما شرعت الوزارة فى تنفيذ سياسة حماية التجارة لجأ بلدوين الى الشعب فى السنة التالية فنال المحافظون الاكثرية ، ولكنها لم تكن مطلقة كما كانت اولا ، فتمكن العمال مع الاحرار من هزيمة الحكومة فى اول انعقاد البرلمان وتألفت وزارة العمال فى يناير سنة ١٩٢٤ بزعامة رمزى مكدونلد فسارت فى سياستها الداخلية بحذر . اما فى سياستها الخارجية فجنحت نحو روسيا وكادت تتفق معها تجاريا وتعطيها سلفة لولا ان الناس كانوا لا يزالون متخوفين من الدعاية البلشفية ، فانهزمت الحكومة فى اكتوبر سنة ١٩٢٤

ووقعت الانتخابات العامة ــ وخشى بعضهم ان يعود العمال الى الحكم وتعود معهم العلاقات مع البلشفيك ، فأذاعوا قبل الانتخابات حكاية خطاب زينوفيفZinovievوفحواها ان هناك مؤامرة تدبرها روسيا مع ممثليها فى انجلترا لدعوة العمال فى بريطانيا الى احداث الشغب وقبول المبادىء البلشفية . وكانت النتيجة انتصار المحافظين انتصارا حاسما ، اذ نالوا ٤١٣ مقعدا مقابل ١٥١ للعمال و٤٠ للاحرار ، وبذلك عاد المحافظون الى الحكم بزعامة بلدوين ونفذوا سياسة الحماية

وكانت فترة الحكم بين سنتى ١٩٢٤ ، ١٩٢٩ من اكثر العهود استقرارا وأقلها اضطرابا ، ومن أجداها على الناس والانسانية عامة . ففى تلك الحقبة من الزمن انتشر استعمال السيارات وزاد اهتمام الناس بالحياة الريفية ، فاضطرت الحكومة الى العناية بالطرق العامة . واخترع اللاسلكى والاذاعة وتقدمت صناعة السينما وقل عدد المتعطلين نوعا ، وبدا للناس ان الامور قد استقرت بعد اضطرابها عقب الحرب وخاصة بعد دخول المانيا عصبة الأمم سنة ١٩٢٦

وكانت الانتخابات فى انجلترا فى سنة ١٩٢٩ قد اتت باكثرية غير مطلقة للعمال فتولوا الحكم لثانى مرة . ولما حلت الازمة المالية سنة ١٩٢٩ وواجهت البلاد مشكلة الجنيه الاسترلينى وهل تبقى انجلترا كما كانت محافظة على عيار الذهب لعملتها ، اضطر ماكدنلد رئيس وزارة العمال الى تأليف حكومة وطنية تمثل جميع الاحزاب فى سنة ١٩٣١ . وفى انتخابات سنة ١٩٣٥ اعاد الناخبون الحكومة الوطنية باغلبية كبيرة اذ نال المحافظون ٣٧٥ مقعدا والعمال ١٦٨ و٦٤ للاحزاب الاخرى ، فبقيت الحكومة وطنية يغلب عليها طابع المحافظين الى الآن

والحكومات الانجليزية مهما اختلفت أحزابها وتغيرت ألوانها السياسية تسير على نهج يراد به فى السياسة الداخلية نصرة الديمقراطية من غير تطرف أو عنف او ازعاج للتقاليد

وتقوية الاسطول بجميع اسلحته ، اذ يعتبرون القوة البحرية الدعامة الاولى لمناعة بريطانيا وحمايتها ولذلك نراهم حريصين على ان يكون لبريطانيا اقوى اسطول فى العالم ، ولا يتساهلون فى هذا المضمار الا للاملاك المستقلة وللولايات المتحدة . وقد اعترفت لها انجلترا سنة ١٩٣٥ بمساواتها لها فى حاجتها الى القوة البحرية

غير ان البحار والمحيطات التى تحصنت وراءها انجلترا فى الماضى لم تعد الآن فوق متناول الاختراعات الحديثة التى جعلت من بحر الظلمات نفسه خندقا مائيا يعبره الطائر فى نفس الزمن الذى كانوا يعبرون فيه القناة الانجليزية الضيقة بين انجلترا وفرنسا . لذلك اضطرت انجلترا أخيرا كما ستضطر امريكا الى ترك سياسة العزلة التى لم تعد منيعة كما كان يظن . وكما عالجت انجلترا مشكلاتها الداخلية بتأليف الحكومات الوطنية التى تضم جميع الاحزاب ، كذلك ستعالج المشكلات الدولية بتأليف حكومات او مجالس تضم جميع الدول وفى مقدمتها امريكا . وحينئذ تكون الحدود التى تفصل بين الدول اقوى من ان تنال منها الاساطيل او الدبابات او قاذفات القنابل . حينئذ تكون الحدود بينها هى حدود « القانون » وكفى به حارسا للامن والعدل والسلام

محمد رفعت



وداع الحرية

« قد يكون تناقضا ان تعلن هذه الحرب باسم الحرية وحقوق الانسان ، ثم تقتضينا حالة الحرب تسليم الكثير من حرياتنا العزيزة وحقوقنا لأجل معلوم . . فمجلس العموم قد وافق فى الايام الاخيرة على عشرات القوانين التى تسلم للسلطة التنفيذية أثمن حرياتنا التقليدية وأعزها علينا . على اننا مطمئنون الى ان هذه الحريات قد سلمت لأياد لن تعبث بها ، ولن تستغلها لاغراض حزبية ولا طائفية ، بل تحرسها وترعاها . ونحن نتطلع بأمل وعزم اكيد الى اليوم الذى ترد فيه الينا حريتنا وحقوقنا ، والذى نتقاسمها فيه مع الشعوب التى حرمت من مثل هذه النعمة »

ونستون تشرشل

نصيب المرأة الأنجليزية

من الحرب الحاضرة

بقلم الآنسة أسماء فهمى

وكيلة معهد التربية للمعلمات

المرأة الانجليزية ـ كالرجل الانجليزى ـ نشأت على محبة الحرية ، ودربت على الثبات على المبدا ، والثقة بالنفس ، وملئت نفسها بحرارة الوطنية وقدامة التضحية

قديما كان نصيب المرأة ضئيلا فى الحروب ، فكانت تكتفى فى أغلب الحالات باثارة حماسة الرجال للطعان باظهار تقديسها لاعمال البطولة والذود عن الاوطان ، كما كانت تقوم بتضميد الجراح فى بعض الاحيان • وبما ان المرأة بقيت بعيدة عن ميدان المخاطر الى حد كبير ، ولم يكن لها غير هذا الحظ اليسير من الحروب ، فقد اختص الرجل دون المرأة بصفات البطولة والتضحية والشجاعة والقوة • وعلى هذا الأساس حصل على حقوق وامتيازات اكدت سيادته على المرأة • وهكذا كانت الحرب قديما من أهم العوامل فى اضعاف مركز النساء فى أكثر الانحاء

ولكن الحروب الحديثة ، بخلاف الحروب قديما ، فتحت المجال لمساهمة المرأة فيها مساهمة جدية • وقد ظهر أثر هذا الانتقال فى الحرب الكبرى الماضية • وكان للمرأة الانجليزية بصفة خاصة أثر بعيد فيها ، فالمرأة الانجليزية تمتاز بالاقدام وتقدير المسئولية والروح الوطنية العالية • وقد أقبلت عشرات الالوف من النساء للتطوع فى ميادين العمل المختلفة المتصلة بالحرب • وقمن بأعمال كانت حتى ذاك الوقت مقصورة على الرجال • ولقد ادت تلك المساهمة الناجحة الى اضعاف الفروق بين الجنسين والى حصول النساء على حقوق جديدة ، اهمها حق التمثيل النيابى الذى حصلت عليه المرأة الانجليزية بعد الحرب مباشرة ، كما تخلصت من كثير من القيود والتقاليد البالية التى كانت تحد من حريتها وتحول دون مساواتها بالرجل

اما الحرب الحالية فقد فتحت بلا شك اكبر ميدان لمساهمة المرأة فى الشئون العامة ولاختبار قوة احتمالها ومدى استعدادها للتضحية . فلم تتعرض الامبراطورية البريطانية فى جميع مراحل تاريخها لحرب اشد هولا واعظم خطرا من الحرب الحاضرة ، ولم تشعر بريطانيا بحاجة اشد من حاجتها اليوم الى شحذ جميع الهمم واستخدام جهود جميع ابنائها رجالا ونساء لمنازلة عدو تناهى فى القوة وتفوق فى العدد والعدة

وهكذا وقع على عاتق المرأة الانجليزية فى هذه الحرب الطاحنة عبء لم تتحمل مثله من قبل ، كما اصبحت عرضة لملاقاة اشد المتاعب والاهوال مما يربو فى بعض الاحوال على متاعب الرجال . ولكن المرأة اقبلت بحماسة وهمة لا نظير لهما لاداء واجبها نحو وطنها ، فتقدم الوف من النساء للانتظام فى سلك الجندية كجنود احتياطيين للاشتراك فى المحافظة على الامن الداخلى وقت الحاجة ، وللقيام بأعمال الطبخ والنظافة والامور الادارية المرتبطة بالجيش فى الأحوال العادية . كما قد انضم الى القوات الجوية والبحرية فرق من النساء من بين سن ١٨ ــ ٤٣ سنة ، وكلهن يتلقين تدريبا كاملا ويرتدين الزى الحربى ، وان كانت أعمالهن تنحصر فى النواحى الكتابية وأمور التغذية والملابس والشئون الصحية . كما انضم عدد كبير من النساء الى فرق المطافىء ، فبلغ عدد من تطوعن فى لندن وحدها لهذا العمل ٥٠٠٠ امرأة ، الا انهن لا يقمن بعمليات الاطفاء بالذات . أما عدد النساء اللاتى يشتغلن بقيادة سيارات الاسعاف فى الغارات الجوية فلا يقل عن ٤٠٫٠٠٠ امرأة ، هذا بينما بلغ عدد المتقدمات للعمل فى الحقول والصناعات الزراعية ٢٠٫٠٠٠ امرأة ولقد بلغ عدد الاحتياطى من الممرضات المتطوعات ٩٥٫٠٠٠ ممرضة فوق العدد المسجل للخدمة بالفعل وهو لا يقل عن ٧٠٫٠٠٠ ممرضة . هذا بالاضافة الى ما يزيد على ٥٠٠٫٠٠٠ امرأة يشتغلن فى نواحى الاسعاف واعمال الوقاية ، وتنظيم نقل الاطفال الى الجهات البعيدة عن الخطر ، وعمل الملابس الصوفية للجنود ، وتوزيع الطعام فى المخابىء وانشاء أندية للامهات المهاجرات للريف ، الى غير ذلك من الاعمال الكثيرة الهامة التى لا يمكن حصرها فى هذه العجالة . اما عدد النساء المشتغلات فى نواحى العمل الاخرى التى لها اتصال بالانتاج الحربى والاقتصادى فلا يقل عن ٦٫٠٠٠٫٠٠٠ امرأة ، وينتظر ان يصل هذا الى ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ حتى يصل الانتاج الى الحد المطلوب لضمان التفوق البريطانى

ويبين لنا ذلك أهمية الدور الذى تلعبه المرأة الانجليزية فى الحرب الحاضرة وعظم العبء الذى تتحمله ، خصوصا اذا علمنا ان المرأة تؤدى كل ما يعهد اليها بكفاءة نادرة ، نظرا لما يدفعها من روح الوطنية الصادقة التى تمتاز بها المرأة الانجليزية ، ونتيجة للخبرة الواسعة التى اكتسبتها فى ميادين العمل المختلفة التى كانت تساهم فيها قبل الحرب الحاضرة . ولو لم تقبل المرأة على تلك الميادين ، وتشترك فى واجبات الدفاع والوقاية والانتاج والادارة والتنظيم بتلك الهمة الفريدة ، لتضاعفت المصاعب التى تواجه الامة البريطانية . فالمرأة التى لا تساهم فى شئون الدفاع والانتاج فى مثل تلك الظروف هى

عضو أشل ، فظروف الحرب ليست كأوقات السلم التى يكتفى فيها من المرأة بانجاب الاطفال والعناية بشئون الدار ، بل لا بد ان تكون على استعداد لان تجند فى صفوف المدافعين العاملين فوق وظيفتها الاصلية

على ان المرأة الانجليزية لا تساهم فحسب فى ميادين الخدمة العامة كما بينا ، وانما هى تتحمل فوق ذلك من الآلام وتواجه من المخاطر مثل ما يواجه الجندى فى الميدان فى حالات كثيرة • فقد قضت الغارات الجوية المروعة ان تفرق بين الطفل وامه ، فارسل الاطفال الى بلاد فى قارات تفصل بينها وبين القارة الاوربية المحيطات ومئات الاميال حتى يكونوا فى مأمن من تلك الاهوال أو الى جهات فى قلب الريف وبين الجبال • والام المسكينة تكون فى تلك الحالة بالضرورة بين نارين ، فهى لا تجرؤ على استبقاء اطفالها فى المدن بجانبها خوفا من قذائف الموت التى تمطرها بها الطائرات ليل نهار ، وهى ان ارسلت ابناءها بعيدا عن الاخطار تشقى لفراقهم وتخشى ان ينساها اطفالها بمرور الزمن فلا يعرفونها اذا قدر لهم اللقاء • هذا الى جانب ما تصاب به المرأة فى دارها ومصدر رزقها ، فكثير من النساء قد اصبحن بغير مأوى بعد ان دمرت القنابل دورهن الهادئة الجميلة كما دمرت المصانع والحوانيت التى كانت مورد رزق لكثير من النساء العاملات • ويزيد من متاعب المرأة فى اكثر انحاء الجزر البريطانية انها تضطر الى قضاء الليل بأكمله فى المخابىء العامة او الخاصة بل قد تضطر الى قضاء جزء كبير من النهار ايضا فى تلك الكهوف الباردة المعتمة حيث لا تتوافر بالضرورة اغلب وسائل الراحة • ثم لا تنس ايضا ما تلاقيه المرأة من صعوبات فى تنظيم معيشتها بعد ارتفاع الاسعار ارتفاعا كبيرا ، وتحديد كميات الطعام والوقود بحيث لا تكاد تسد الحاجات

والواقع ان الكثيرات من اولئك النسوة اصبحن يحسدن الجنود فى الميدان • فالجندى وان تعرض للمخاطر في كل وقت الا ان حياته مملوءة جدة ونشاطا ، ثم هو يمنى نفسه بالانقضاض على العدو فى اية لحظة ، فاما ان يحظى بأكاليل النصر ويذوق لذة الفوز ، واما ان يسقط فى ميدان الشرف فيموت مطمئنا ، لانه يعلم ان اسمه سيدون فى صفحة الخلود • اما المرأة فلا يلمع فى افق وحدتها أو جهادها بريق هذا المجد • وهى لا تطمع ان يكلل جبينها بغار الفوز والانتصار أو ان تحصل على أوسمة ونياشين اسوة بغيرها من المجاهدين من الرجال • ولكن المرأة بالرغم من ذلك ومن صعوبة العبء الذى تضطلع به لا تشكو ، بل هى تقابل متاعبها الجمة بانشراح واطمئنان • وان أخبار الحرب لتشير فى مناسبات كثيرة الى تلك الروح السامية ورباطة الجأش النادرة اللتين تمتاز بهما المرأة الانجليزية فى جهادها الطويل ، وان من يعرف الخلق الانجليزى والتربية الانجليزية ليضمن استمرار ذلك الاحتمال حتى تفوز الامة بالانتصار • فقد نشأت المرأة الانجليزية كالرجل الانجليزى على محبة الحرية ، ودربت على الثبات على المبدأ والثقة بالنفس ، وملئت نفسها

بحرارة الوطنية وقداسة التضحية • وبفضل هذه التربية اصبحت كالرجل الانجليزى لا تزيدها المخاطر الا عنادا وصلابة

ولقد كان للمرأة الانجليزية فى التاريخ صفحات من العظمة والبطولة • فهى كملكة اثارت حماسة الشجعان وجلبت المجد والفخار لبلادها حتى لقد سمى عهدان من أمجد عهود انجلترا باسمى ملكتين من ملكاتها هما اليصابات وفكتوريا ، وكزوجة أو كأم كان لها أثر كبير فى استعمار الجهات النائية الموحشة فقد سارت فى طليعة المستعمرين بقدم ثابتة وشجاعة فائقة • كل ذلك يفسر ثباتها وصلابتها فى اشد المواقف حرجا ويملأ النفس اطمئنانا الى مستقبلها • واذا جاز لنا ان نقيس على الماضى ونتنبأ بالمستقبل ، فان لدينا ما يحمل على القول بأن اشتراك المرأة الانجليزية فى الحرب الحالية وتحملها كل مخاطر الحرب بجلد وثبات سيجعلها أهلا للحصول على حقوق جديدة بعد أن تضع الحرب أوزارها ، ويفتح امامها باب الاشتراك بصفة جدية فى وضع اسس جديدة للسلم وبقائه وتنظيم العلاقات الودية بين الشعوب ، ولربما كانت المرأة اقدر من الرجل على تحقيق ذلك الامل الذى حاول الساسة طوال السنين دون جدوى تحقيقه ولكنهم فشلوا المرة بعد الاخرى ، لان الاثرة والميل الى التملك والسيطرة لديهم كانا أقوى من الميل الى تحقيق الالفة والوئام بين البلاد • فالمرأة أكثر استعدادا للتضحية وأقوى نزعة للعطف والرحمة والسلم ، فليس هناك أقدر على الرحمة والخير من الأم

أسماء فهمى

من كلام الانجليز

Look not mournfully into the past,
Wisely improve the present,
It comes not back again,
It is thine.
Go forth to meet the shadowy future,
Without fear, and with a manly heart.

وترجمتها :

لا تنظر باكتئاب الى الماضى ـ انه لن يعود
واحرص على تحسين حاضرك ـ فانه لك
وقابل المستقبل المجهول بنفس قوية وقلب شجاع

وهذه الحكمة تقابل البيت العربى المشهور :

ما مضى فات ، والمؤمل غيب ولك الساعة التى أنت فيها

الوطنية كما يفهمها الانجليز

بقلم الاستاذ سامى الجريدينى

كنت أسائل نفسى دائما ترى ما هو السر فى إقدام قوم على التضحية فى سبيل ما تواضعوا أن يدعوه وطناً وفى استهتار قوم بالأمر أو التلكؤ عنه ودع عنك هذه الجيوش النظمة التى تهلك دفاعاً عن أوطانها فانها يسيرها فى معظم الأحوال نظام عسكرى صارم يوجهها الى ما يختار من القبلات أو تستهويها زعامة تستغل شعوراً تتوارثه الاجيال وهو خليط من حب الأرض أو تعلق بأبوة أو بنوة أو عقيدة دينية

فالوطنية أو حب الأوطان ليس هذا بل قد تكون كل هذا وشىء آخر تزيد عليه

فما هى الوطنية ؟ . وما هو الوطن ؟

أأرض ذات حدود ومعالم تضم قوما من أبناء آدم فيدينون لها بالحب . ولماذا الحب ؟

وما بال القوم الذين تكون أرضهم تبعاً لدولة هى دولتهم اليوم ثم لدولة أخرى تكون دولتهم غداً

هل نعامل عاطفتهم — من حب ومن كره — معاملتنا شقة من الارض نقيم عليها فواصل الحدود ونرمز اليها بالأعلام والرايات

وقد يستسيغ المرء جامعة يقوم بناؤها على عقيدة دينية لأنها فى معظم الأحوال تنشأ عن ظن بأن القوم وقد اعتنقوا مذهباً واحداً موحى به من الله ، أصبحوا أبناء الله وأنه أقامهم وكلاء فى الأرض عنه وأنهم مكلفون بفضائه يدخلون الناس فى مذهبهم فتوحد هذه العاطفة بين أشتات المعتقدين بها وتبعدهم عن المخالفين لها فينشأ الكره لهؤلاء والحب للمتحالفين ، كأن العطف أو الحب بين بعض من أبناء آدم والبعض الآخر لا يكون على أتمه إلا اذا تناول مقتاً للآخرين الكافرين بما تدين به الجماعة الأخرى

والا كيف نعلل الحروب والاضطهاد والظلم الذى أثارته الاختلافات الدينية فى تاريخ الانسانية . على حين نرى الأديان تأمر بالمعروف وبالعدل وبالرحمة ؟

ثم انكمشت البشرية من جامعات فكرية الى جماعات تضمها أرض فظننوا ان جامعة الوطن أجدى وأنفع

فاستبدل القوم بالوطنية كل جامعة غيرها

فكانت الحروب والويلات التى نشأت عن حب الاوطان شراً من تلك التى أثارها حب الله

ذلك لأن ابن آدم يأبى أن يبرهن على مقدار حبه إلا باظهار مقدار كرهه فهو يؤثر بحبه من يرى فيه عائدة خير ويخص بكرهه من يرى فيه مشاركا أو منازعاً فى تلمس أسباب الخير

فلنأخذ الوطنية التى تواضع الناس عليها ولننظر اليها كما هى

وهل يدان لها بالولاء ظالمة أو مظلومة ؟

واذا كان الانجليز فى مقدمة الشعوب التى أدركت معنى الحياة فكيف يفهمون وطنيتهم إنها فى جوهرها قائمة على فكرة « العائلة » . فالبيت هو أول حجر يقام عليه الوطن وعلاقة الأبوين بالأبناء يجب أن تكون شعاراً ينسج الوطن على منواله

إن كثيراً من القواعد الذهبية التى يضعها الناس موضع الآيات المنزلة ليست فى الواقع إلا أدوات زينة تضعها فى بيتك موضع النظر أو موضعاً يسد فراغاً ولكنك لا تستطيع الاستمتاع بها فى الحياة العملية

أو هى من جوامع الكلم يخاطب بها المثل الأعلى فى ابن آدم فيسمع الخطاب فاذا جاء دور تنفيذه تقاعس لأن العائدة عليه فى حياته تناقض المبدأ فى ذاته . ومنطق الحكمة اذا اصطدم بمنطق الحياة اندحر وباء بالفشل فالحياة هى الآمرة الناهية مهما حاول النفاق فيها أو الدوران حولها

حق الأبوة على الأبناء واضح مقرر

وعلى الابن أن يكرم أباه ويحب أمه

فاذا كان الأبوان قاسيين مجردا من الرحمة والرفق بالابن واستعملاه لمآربهما دون فائدته ، فهل تجب عليه محبتهما أو البر بهما

إن أنت أوجبت الأمر حبراً على ورق أو قانوناً على لسان وشفة فانك لن تستطيع الوصول به الى القلب

إنه عند ما يجد الجد يترك الابن أبويه ويضرب بالمبدأ عرض الحائط لأن الرابطة الحقيقية قد انعدمت فانهدم الأساس

واذا ضم بلد قوماً شماميط فاستبد كبيرهم بصغيرهم واستأثرت الأكثرية بالأقلية وأساءت اليها وحرمتها مما تستمتع هى به فهل يجب على الأقلية حب هذا البلد ؟ وإن أوجبها اللفظ فهل تجد الى القلب سبيلا ؟

إن الوطن لبيت كبير

والوطنية علاقة وهمية لا يثبتها إلا العدل والمنفعة للجميع

فاذا آثر أب فى بيته أحد أبنائه على الأبناء الآخرين ، عقه الابن المفضول وهجر البيت الى لا رجعة

والمملكة التى لا ترعى أبناءها جميعهم رعاية واحدة لا يحق لها لقاء الاخلاص من الأبناء المهضومى العدل

والانجليز قوم فهموا الحياة وأخذوها ولبسوها كما هى لا كما يجب أن تكون

والحياة معقدة مركبة . فيها المادة وفيها الروح . وفيها الفضيلة ومثلها العليا وفيها الرذيلة ومساويها . فيها الشعر والخيال وفيها العلم الطبيعى والكيمياء . فيها القوة وفيها الضعف

فهنيئاً لمن يستطيع أن يجمع ما تناقض من الحياة فى كيانه إنه الرجل الكامل حقاً

وأما هذا الذى يتجرد عن أشياء ويتخصص بشىء واحد فانه الرجل الذى يثقل عليك ظله مهما سمت فضائله

لذلك آثر الناس شكسبير على كل شعراء الدنيا لأنه جمع «الحياة» فى أشخاصه وكان «إنساناً» إنه لم يحاول أن يكون ملاكا ، ولم يقنع أن يكون شيطاناً

والشعب الانجليزى فى نظرنا يحتل فى العالم مكاناً هو أقرب مكان الى ما أشرنا اليه . فهو لا يطمع بالكمال ولكنه يأخذ متاعه من الحياة كيفما يجىء وحسبما يستطيع

فهو ليس بالذكى الذى يحاول أن يسمو فيسىء الى نفسه ويسىء الى العالم

وهو ليس بالبليد يلتصق بالدنيا ولا ينظر الا الى المادة انما هو مزيج عادى من البشرية أدرك سر الحياة وأنها أدنى الى الانسان اذا فهم ما حوته من تناقض مما تكون اذا حاول أن يكيفها على عقله

وهذا هو سر نجاحهم حيث فشلت الشعوب الأخرى

الانجليزى يحب انجلترا طالما وجد فيها حريته وعيشه ولكنها لن تساوى عنده قلامة ظفر اذا ظلمته وأجاعته

ألا ترى أنه اضطهد فيما مضى وصودر فى عقيدته الدينية والسياسية أى فى حريته فهجر الجزيرة ويمم أميركا فأقام فيها مستعمرة انجليزية حتى اذا بدا للقوم فى انجلترا أن يمدوا اليه ظلمهم ويفرضوا عليه ضرائب لا يد له فيها أبى واستكبر وثار وكانت الولايات المتحدة الأميركية

وهو اذا رحل الى كندا أو أستراليا أو جنوب أفريقيا وأنشأ بيته وحكومته كان جل همه أن يعيش مستقلا عن أمه لا يقبل منها تدخلا فى شؤونه

فاذا مسها الضر هب الى نجدتها عن إيمان وعن نخوة .. وعن سعى وراء منفعته المادية . وعن دفاع عن ميراثه الأدبى المجيد

فوطنيته ليست خيالية . انها نفعية مادية وروحية . فهى اذاً صادقة لا رياء فيها

فهم لا يتغنون بالوطن ويزدهون بالوطن انما يعشقون بيوتهم ويؤثرونها على كل مقام آخر

فوطنيتهم ملموسة محسوسة بعيدة عن الخيال وعن الوهم . تترجمها أعمالهم وتنبو عنها

ألفاظهم . لأنها جزء من طبيعتهم فاذا خدموها لم يفتخروا ولم يطلبوا شكراً . لاعتبارهم ما يفعلون واجباً ولا شكر على واجب

ولقد أدرك القوم فى هذه الجزيرة المعتصمة بحبل الحرية أن الحياة لا تستقيم مع الاضطهاد ومع الاستئثار فجعلوا قاعدتهم المساواة فى تحمل الأعباء وتلق الحقوق فبعد أن كانوا قوماً متعصبين لدينهم اذا بهم يطلقون للكاثوليك ثم لليهود كل أسباب المتاع فى الوطن الانجليزى فوصلوا الى ما هم عليه الآن من قوة وتضامن

فلا يشعر البريطانى بفوارق تفضل بريطانياً عن آخر فى كل الأمور السياسية

وسوف ترى بعد هذه الحرب زوال الفوارق الاجتماعية التقليدية أيضاً

وليس ما وصلوا اليه من تقرير هذه الأسس القوية نتيجة بحوث فقهية أو مبادىء فلسفية انما هى فائدة عادت من بعد تجربة . انها تنفيذ لمبدأ الأخذ والعطاء بين الناس . فاذا أحببت أن تكسب يجب أن تغنى غيرك

حبذا لو فهم الناس حقيقة هذه المبادىء الوطنية اذن لجعلوها قاعدة الحياة العملية ونبذوا الألفاظ الجوفاء

على أن الاقلاع عن ظاهر الأمور والأخذ ببواطن الجد ليس بالشىء السهل المنال

فقرع الأسماع بالكلام عن الوطنية وادعاء احتكار الوطنية واتهام الغير بالمروق من الوطنية والتغنى فى الصباح والمساء بالوطنية واقامة فروضها من غناء وصياح وأعلام تنشر وخطب تلقى — كل هذا رخيص لا يقتضى صاحبه شيئاً من البذل

وأما الذود عن الوطنية بالسكوت وبالتضحية وبايثار المجموع على المنفعة الشخصية . وأما جعل الوطنية شيئاً طبيعياً يستنشق المرء شذاها كما يستنشق الهواء حتى يكاد لا يشعر بوجودها كما لا يشعر القوي الصحيح بوجود أعضاء جسمه الداخلية ، فهذا شىء يستدعى متانة فى الاخلاق وترفعاً عن الظاهر كمدك العون لأب لك أو لأخ فانك تستتر ولا تباهى وأما الى الغير فلا تجعله فى الخفاء إلا قليلا

حتى كدنا نحكم على الوطنية الصادقة من الكاذبة من هذه القشور التى تسد علينا الطريق . هل هى مقيمة لا تبرح أم يستطاع معها الوصول الى اللباب

فاذا قلنا إن الانجليز يضربون للناس أمثلة فيما يجب أن تكون عليه الوطنية فلا نقوله مدحا لهم أو حباً فيهم انما نقرر الأمر كما هو وكما يجب أن يكون ونزعم أن هؤلاء القوم أخذوا منه نصيبهم كاملا لم يجارهم فيه قوم آخرون

وقد لا يكونون هم أنفسهم قد بلغوا الغاية منه ولكنهم أبصروا الطريق وساروا عليها وليس فى ذلك بدع ، فهذه سليقتهم قد تكون أوجدتها جغرافية البلاد وقد يكون سببها

اختلاط الدم والعناصر في هذه الجزيرة أدى الى نشوء قوم هم ما نراه عليهم منذ أكثر من قرنين

فكما أن الفلسفة اليونانية القديمة شحذت الفكر الانساني ورفعته الى أعلى درجات التهذيب فجعلته خيالا أو سعياً وراء خيال بغية الوصول الى الكمال فلم توفق الى أن جاءت الفلسفة الانجليزية مع مؤسسها فرنسيس باكون فوضعت قواعد أخرى للحياة غير هذه الفلسفة المطلقة المقصور أمرها على الفكر ، وضعت أسس الفلسفة العلمية العملية الآخذة بنتائج الامور لا بمقدماتها فحسب

فالانجليزي إذا حاول إصلاح قضاء دب فيه الفساد بعوامل الرشوة مثلا لم يضع قانون ارشاد ومواعظ ومبادىء أدبية فقط بل تعدى الأمر فرفه على القاضي وأكثر له دخله فمنع عنه تسرب العامل الأصلي للفساد

وقس على ما ذكر جميع العوامل التي تجمع هذا التصور الذي ندعوه وطنية

فأدى التوسع في تنفيذ مبدأ منطق الحياة دون منطق الالفاظ أن جعل الوطن منزلا تستقر فيه الراحة المادية أولا ذريعة الى استقرار الشعور بالحب

فانه يبدأ الانسان أن يعيش ثم يخطر له أن يتفلسف بعد ذاك

وتفرع عن هذا أن حبوا البيت لجميع سكانه لا ينظر فيه الى اختلاف العنصر أو الدين أو وجود أكثرية أو أقلية الا ما كان عالقاً بالشئون السياسية الادارية

لذلك نرى في غير انجلترا مشكلات لا تحصى بعضها اضطهاد الاكثرية للاقلية أو حرمان الأقلية من حقوق الاكثرية ولو عقل الناس وراعوا الحقيقة دون النعرات العاطفية لآمنوا بان العطا أشرف من الأخذ وأن شريكك في الملك له ما لك لا يميزك عليه اعتبار

والا فكيف نطلب إخلاصاً من قوم لا يشعرون بالحب ؟ أو كيف نرجو تضامناً في الأعباء إذا كانت المنافع قد جار أهلها في توزيعها

لا أذود الطير عن شجر   قد بلوت المر من ثمره

انه عند ما يدرك الناس ان الوطنية وحب الوطن شيء مادي أساسه لقاء الخير والاستمتاع به في بقعة من فضاء الله وانه لهذا السبب يخلق في القلوب حباً وتعلقا وإيثاراً ، عند ذاك يزول مابين أهل الوطن الواحد من فوارق وعند ذاك يرتفع هذا الوطن الى السماكين لاجماع كل الأبناء على التضحية في سبيله

وأما أن نفرض الالفاظ على فريق ويستأثر فريق آخر بالمعاني ، فغير مؤد الى صراط الوطنية المستقيم

سامي الجريديني

أحكمي يا بريطانيا

للشاعر الانجليزى جمس تومسون

ألف هذا النشيد القومى المشهور الشاعر الانجليزى James Thomson
جمس تومسون أحد شعراء القرن الثامن عشر فى انجلترا

حينما قُمنا إلى هذا الوجود — نعمُرُ الأرضَ ونبني في القِفارْ
هتفتْ في الأوجِ أملاكُ السُّعودِ — بابتهاجٍ في البرايا وافتخارْ :
(أحكُمِي يا بريطانيا وسُودِي — واملأى الأرضَ جلالاً والبحارْ)
(إنّ أبناءكِ أبناءُ الأسُودِ — لهُمُ الحرّيةُ دِينٌ وفخارْ)
نحنُ للطّاغينَ قومٌ لا نلينْ — لا ، ولا للظُّلمِ نُدعى خاضعينْ
نعشقُ المجدَ ونعلو الآخرينْ — بنضالٍ وثباتٍ واقتدارْ

(أحكمي يا بريطانيا ...)

كلما اشتدّتْ تصاريفُ الزّمانْ — فبريطانيا صَبُورٌ كالزّمانْ
ثم تبدُو في ميادينِ الطّعانْ — بحماسٍ لا يُبارَى وانتصارْ

(أحكمي يا بريطانيا ...)

كلُّ طاغٍ مُستبدٍ في البلادْ — لم يجدْ فيكِ سوى قومٍ شِدادْ
قدْ أثارَ العزْمَ فيهم والجلادْ — وتردّى في البلايا والخسارْ

(أحكمى يا بريطانيا ...)

يا بريطانيا لكِ الريفُ الجميلْ — ولكِ المجدُ التّجاريُّ الأثيلْ
أنتِ قطبُ الأرضِ والدُّنيا تجُولْ — حوْلَ شطآنكِ يا كنزَ النُّضارْ

(أحكمى يا بريطانيا ...)

وعرُوسُ الشِّعرِ تهفُو للجمالْ — في حمى التّاميزِ يحميهِ الرجالْ
تاجُكِ المحبوبُ معدُومُ المثالْ — يا ابنةَ العليا ويا أمّ البحارْ

(أحكمى يا بريطانيا ...)

(عن الأصل الانجليزى) — طاهر الطناحى

جهود بريطانيا فى الحرب الحاضرة
فى البر والبحر والجو

بقلم الاستاذ محمد عبد الله عنان

قد تكون جهود انكلترا البرية فى هذه الحرب حتى الآن أقل من جهودها البحرية والجوية ، ولكن الذى لا شك فيه هو ان استعداد انكلترا البرى فى هذه الحرب لا يقل فى ضخامته وأهميته عن استعدادها فى البحر والجو ، وبينما دخلت انكلترا فى بداية الحرب الكبرى الى جانب فرنسا بجيش لا يزيد على مائة وخمسين ألفا ، ودون أن تكون الخدمة العسكرية قد تقررت فيها بعد ، اذا بها تواجه الحرب الحالية بجيش يربى على المليون وبقرار الخدمة العسكرية الاجبارية ، وقد وصل عدد الجيش البريطانى الآن فى الجزر البريطانية وحدها نحو مليونين ، وهذا الجيش الضخم الذى لم يسبق أن حشدت بريطانيا فى تاريخها جيشا فى ضخامته واستعداده ، يقف الآن متحفزا للدفاع عن بريطانيا العظمى ضد أى خطر محتمل من جانب جيوش الغزو الالمانية التى تواجهه فى الشاطىء الآخر من بحر الشمال ، واذا ذكرنا كيف تطورت فنون الحرب اليوم ، وغلبت عليها الصفة الميكانيكية ، وسرعة الحركة ، وأصبحت تتطلب من العتاد والسلاح والسيارات المدرعة أضعاف ما كانت تتطلبه فى الحرب الماضية ، أدركنا فداحة الجهود التى يقتضيها حشد مثل هذا العدد الضخم وتجهيزه وفق مطالب الحرب الحديثة

فى البر

وكانت فاتحة جهود انكلترا البرية فى هذه الحرب حملتها الى النرويج فى ابريل الماضى لمعاونة النرويجيين على مقاومة الغزو الالمانى ، وقد كانت حملة شاقة امتزجت فيها الحرب البرية بالحرب البحرية ، واقترنت بأخطار ومغامرات جمة . ومع ان الانكليز استطاعوا آخر الامر أن يحققوا بغيتهم بالاستيلاء على ثغر نارفيك ، وقطع طريق الالمان نحو الشمال ، فانهم آثروا الانسحاب من النرويج بعد أن اقتنعوا بعقم الجهود التى تبذل فى هذا الميدان

وبادرت انكلترا حينما تحولت المعارك الى هولندة والبلجيك فى أوائل مايو بارسال النجدات الى هذه الساحة ، كما تحركت جنودها المرابطة فى فرنسا والتى أرسلت اليها منذ بداية الحرب الى جانب الجنود الفرنسية لدفع الغزو الالمانى ، وقد بلغت الحملة البريطانية فى هذا الميدان زهاء نصف مليون جندى ، وأبلى البريطانيون فى معارك الفلاندر ، وفى

جبهة آراس خير بلاء ، ولما وقعت الكارثة وسلم الجيش البلجيكي وشطرت قوات الحلفاء، وحصر الانكليز في الفلاندر بين الالمان والبحر ، أبدى الانكليز ضروبا رائعة من البسالة واستطاعوا بعد جهود ومعارك هائلة أن يحققوا معجزة الانسحاب من دنكرك ، ومع ان الحملة الانكليزية فقدت في هذا الانسحاب معظم عتادها وسلاحها ، فانها لم تخسر من الرجال سوى خمسة وثلاثين ألفا • وبالرغم من تطور المعارك على هذا النحو السيء فان انكلترا حاولت أن تستمر على امداد فرنسا بالجند من ثغر الهافر وغيره ، ولم تكف عن هذه المحاولة الا حينما سقطت باريس • وانهارت خطط الدفاع الفرنسي في كل مكان

وقامت الجيوش البريطانية في ميادين الشرق الادنى بجهود موفقة لتحطيم العدوان الايطالي ، وكانت ايطاليا جريا على سياستها المأثورة من انتهاز الفرص ، قد دخلت الحرب في العاشر من يونيه ، حينما بدا انهيار فرنسا واضحا في الافق ، وهي تضطرم بأحلام أمبراطورية ضخمة ، وكانت مصر ووادي النيل كله مطمح أمانيها وأنظارها ، وكانت تؤمل أن يؤدي انهيار فرنسا وتخليها عن مؤازرة انكلترا في شمال افريقية وشرقيها الى انهيار خطط الدفاع البريطانية في هذه الميادين • وحينما انسحبت القوات البريطانية من كسلا ومن بربرة وزيلع في الصومال البريطاني ، اعتقد الايطاليون ان طلائع النصر قد بدت دانية القطوف ، واقتحم المارشال جراسياني الحدود المصرية ، وتوغل في الصحراء الغربية في منطقة تركت دون دفاع حتى سيدي براني ، وصور الدوتشي وصورت صحفه للشعب الايطالي هذا الزحف بأنه نصر باهر تم بعد معارك طاحنة • ثم كان اعتداء ايطاليا الاحمق على اليونان ، ومبادرة الانكليز الى معاونتها في البر والبحر والجو معاونة فعالة منتجة ، وهنا انكشفت قوات الدوتشي وبدا عجزها الفاضح ونكبت في البر والبحر ، وانقلبت من الهجوم الصاخب الى التراجع المزري • وظهرت حقيقة طالما نجحت الدعاية الايطالية في اخفائها ، وهي ان قوى الفاشستية لا يعتد بها ، ولا يخشى بأسها، وانتهزت القيادة البريطانية في الشرق الادنى هذه الفترة النفيسة الدقيقة التي انهارت فيها آمال ايطاليا وخبت قواها المعنوية ، فقامت القوات البريطانية بضربتها الباهرة في الصحراء الغربية ، وانتزعت سيدي براني من يد المارشال جراسياني ، واحتوت على جميع عتاده وسلاحه ومؤنه التي لبث يكدسها مدى ثلاثة أشهر ، ومزقت القوات الايطالية شر ممزق ووقع في الاسر منها عشرات الالوف فارتدت على عجل ، حتى طهرت منها الاراضي المصرية كلها ، وهي الآن تقف وراء الحدود اللوبية تدافع دفاع اليأس بعد أن كان يملؤها الغرور ، ويبسم لها الامل الخلب في الاحتواء على تراث الفراعنة والاستيلاء على وادي النيل

في البحر

تلك هي الجهود الحربية البرية التي استطاعت بريطانيا العظمى أن تبذلها حتى اليوم في مختلف ميادين القتال • بيد انه مهما كانت هذه الجهود من الاهمية والتأثير في سير الحرب،

فانها لا يمكن أن تضارع جهود انكلترا فى البحر . ذلك انه لم يسبق فى تاريخ انكلترا البحرى الحافل أن ألقى على عاتقها فى حرب من الحروب حتى ولا فى الحرب الكبرى ، مثل هذه الاعباء الفادحة والمهام الخطيرة التى تضطلع بها البحرية الانكليزية اليوم

لقد كان البحر دائما ميدان انكلترا الاول ، ومع انها لم تكن تحجم عن خوض المعارك البرية فان المعارك البحرية كانت سبيلها الى النصر فى معظم الاحداث والخطوب الكبيرة التى واجهتها ، فقد مهد انتصار نلسون فى موقعة أبى قير البحرية مثلا الى تحطيم مشاريع نابليون فى الشرق ومهد انتصاره فى معركة « طرف الغار » الى تحطيم قوى فرنسا البحرية وحبوط المحاولة التى قام بها نابليون لمحاصرة انكلترا . ولم تكن آثار هذه الانتصارات البحرية بعيدة عن التمهيد الى انتصار الانكليز فى واترلو . وقد كان لسيطرة انكلترا على طرق البحار فى الحرب الكبرى أعظم أثر فى تجويع ألمانيا وهزيمتها ، ومن المنتظر أن يكون لتفوق انكلترا البحرى مثل هذا الاثر فى الحرب الحاضرة

دخلت انكلترا الحرب ، وهى معتمدة على مساعدة الأسطول الفرنسى فى مواجهة عدوها الذى لا يرحم ولا يتأثر فى حربه بأى اعتبار من الاعتبارات الدولية أو الانسانية ولكنها اضطرت منذ انهيار فرنسا أن تحمل هذا العبء وحدها . فعلى الاسطول البريطانى وحده اليوم أن يحكم حلقات الحصار البحرى على ألمانيا والقارة ، وأن يكفل حرية المواصلات البحرية وسلامتها بين بريطانيا وأنحاء الامبراطورية وان يسهر على الدفاع عن الجزر البريطانية . وان يشترك فى الاعمال الحربية التى تتطلب معاونته فى سائر الميادين

بدأت انكلترا جهودها فى الحرب الحاضرة بفرض الحصار البحرى على ألمانيا ، وقطع مواصلاتها البحرية مع سائر العالم ، واستطاع الاسطول البريطانى بعد أشهر قلائل أن يطهر جميع البحار من السفن الالمانية اما بأسرها أو ارغامها على اغراق نفسها ، وأرغم الأسطول الالمانى على أن يلزم قواعده فى البلطيق. ولم تخرج منه سوى وحدات مفردة لتقوم الى جانب الغواصات الالمانية بالعمل على قطع طرق البحار بوسائل أقرب الى القرصنة منها الى الحرب البحرية المشروعة

وكانت أول معركة بحرية حقيقية وقعت بين الالمان والانكليز هى معركة لابلاتا التى اشتبكت فيها بعض الوحدات البريطانية الخفيفة مع البارجة الالمانية « جراف شبى » فى يوم ١٤ ديسمبر سنة ١٩٣٩ فى عرض الاطلانطيق أمام مياه أورجواى ، ومع ان البارجة الالمانية كانت متفوقة من حيث السرعة والتسليح فانها اضطرت الى الفرار بعد معركة حامية ، ولجأت الى ثغر مونتفديو فى مصب نهر لابلاتا فطاردتها الوحدات البريطانية ولبثت فى انتظارها بالمرصاد ، ولكنها لم تعد خيفة الهزيمة والاسر وآثرت أن تغرق نفسها حيث لجأت وانتحر قائدها الكابتن لانجسدورف بعد ذلك بأيام قلائل

وكانت هذه المعركة الاولى نذيرا لالمانيا بأنها لا تستطيع أن تؤمل نصرا بحريا ضد الاسطول الانكليزى فى معارك مكشوفة ، وان آمالها فى البحر يجب أن تبقى مركزة فى

حرب الغواصات الغادرة ، وقد تأيدت هذه الحقيقة مرة أخرى في ابريل سنة ١٩٤٠ فى مياه النرويج حيث حطمت الوحدات البحرية البريطانية عددا كبيرا من النسافات الالمانية فى مياه نارفيك بعد معركة عنيفة وأصيب الاسطول الالمانى من جراء ذلك ومن جراء ما فقده من وحداته الاخرى فى مياه النرويج الجنوبية بضربة شديدة قضت عليه بأن يلزم قواعده حتى اليوم

وسوف يذكر التاريخ دائما معركة دنكرك ، وما قامت به البحرية البريطانية فيها من جهود جبارة لنقل الجيش الانكليزى المنسحب الى الشواطىء الانكليزية وقد أنقذ الجيش الانكليزى من السحق وعار التسليم بهذه المعجزة البحرية بالرغم مما قام به سلاح الطيران الالمانى ليل نهار من اطلاق نيرانه المتواصلة على الجيش المنسحب وعلى السفن التى حشدت لحمله . وقد أثبتت معركة دنكرك حقيقة كان يحيق الشك بها ، وهى ان الاسطول لايزال محتفظا بمقدرته الدفاعية والهجومية بالرغم من تطور الحرب الجوية ، وان الخطر الذى يواجهه من الهجوم الجوى ليس عظيما بقدر ما يزعم الالمان

ولما انهارت قوى فرنسا وسلمت لعدوها الظافر ألقت انكلترا نفسها فى أشد المآزق فقد كان على الاسطول الفرنسى وفقا لشروط الهدنة أن يسير الى موانىء ألمانية أو ايطالية وكان مصيره غامضا ، ولم يك ثمة شك فى ان هتلر كان يتطلع الى الاستيلاء عليه ليستخدمه ضد انكلترا . وهنا اعتزمت انكلترا أمرها أمام الخطر الداهم وفى يوم ٤ يوليه قامت بضربتها البحرية الباهرة التى قضت على هذا الخطر فى مهده فاستولت على سفن الاسطول الفرنسى التى كانت راسية فى الموانىء الانكليزية وهاجم أسطولها فى البحر الابيض المتوسط الاسطول الفرنسى الراسى فى وهران وفيه أعظم الوحدات البحرية الفرنسية بعد انذار بالتسليم لم يقبل وأغرق عدة منها وعطل البعض الآخر ، ولم تنج منه سوى وحدات قليلة فرت الى طولون ، وفى نفس اليوم أنذرت السفن الحربية الفرنسية الراسية فى مياه الاسكندرية بمثل هذا الانذار ، فآثرت التسليم وانضمت الى الاسطول البريطانى وعطل الانكليز فى نفس الوقت بارجة فرنسية كبرى راسية فى ثغر داكار ، وأخرى كانت راسية فى جزيرة مارتنيك ، ولم يلحق الاسطول البريطانى فى جميع هذه العمليات البحرية الخطيرة خسارة ما

ولما زجت ايطاليا بنفسها الى غمار الحرب كان يظن ان الاسطول الايطالى الفتى بوحداته العديدة المحدثة وغواصاته الكثيرة ، قوة يخشى بأسها ولكن لم تمض أسابيع حتى ظهر عجزه المشين ، فقد كانت الوحدات الايطالية تولى الادبار كلما لاحت لها السفن البريطانية فى الافق ولم تثبت الوحدات الايطالية فى أى لقاء عرض لها ، بل أغرقت منها عدة فى معارك أبدى الاسطول الانكليزى فيها تفوقه الواضح ، ثم كانت ضربة تارانت التى قامت بها طائرات الاسطول البريطانى وعطلت بوارجه الكبرى فى مرافئها ، هذا عدا المعاونة القيمة التى أسداها الاسطول البريطانى للجيش اليونانى بضرب الموانىء الالبانية ،

وللقوات البريطانية فى مصر بضرب جميع القواعد الايطالية على الشاطئ ضربا شديدا

ولنا أن نتصور بعد ذلك كله ما يبذله الاسطول البريطانى من جهود جبارة لاحكام حلقات الحصار البحرى لالمانيا ، وحماية السفن التجارية البريطانية والمتحالفة فى عرض البحار ، ومقاومة عدوان الغواصات الالمانية وفتكها المتواصل بالسفن التجارية ، وما تبذله البحرية التجارية البريطانية فوق ذلك من جهود جبارة لنقل الجند والسلاح والذخائر والمؤن والمواد الاولية الى الجزر البريطانية بلا انقطاع ، ونقل موارد الامبراطورية من مختلف انحائها الى بريطانيا العظمى أو غيرها من ميادين القتال ، وما تبذله أخيرا لحمل الصادرات الانكليزية ومنتجات انكلترا الصناعية الى سائر الاقطار التى تتجر مع انجلترا فى القارات الخمس

فى الجو

يأتى بعد ذلك دور سلاح الطيران البريطانى • ولسلاح الطيران فى الحرب الحاضرة أعظم شأن • وقد ادركت المانيا هذه الحقيقة قبل نشوب الحرب بمدة طويلة ، وانشأت لها اسطولا جويا عظيما ، ولكن انكلترا دخلت الحرب وهى ابعد ما تكون عن استكمال اهبتها الجوية ، بيد انها استطاعت خلال العام الاول من الحرب بمضاعفة انتاجها الخاص وانتاج الامبراطورية وبما أتيح لها شراؤه من الطائرات الامريكية ان تنشىء لها قوة جوية عظيمة وهى ما زالت فى ذلك دون المانيا من الناحية العددية ولكن سلاح الطيران البريطانى بذل بالرغم من هذا النقص فى معركة فرنسا جهودا تدعو الى الاعجاب واستطاع ان يؤخر توغل الالمان وقتا ، وان يعاون فى تعطيل القوات الالمانية المصفحة • ولما بدأ الالمان غاراتهم الجوية الكبرى على انكلترا فى اغسطس ظهر سلاح الطيران البريطانى فى ذروة قوته وبراعته ، واستطاع فى المعارك الجوية الهائلة التى نشبت فى سماء بريطانيا خلال شهرى اغسطس وسبتمبر ان يسقط مئات الطائرات الالمانية ، وان ينزل بسلاح الطيران الالمانى ضربات شديدة ، وان يرغم الالمان على الاقلاع عن هذه الغارات الضخمة التى كلفتهم غاليا فى الطائرات والطيارين

وقد كان لثبات سلاح الطيران البريطانى وانتصاره فى معارك اغسطس وسبتمبر اثر عميق فى تطور مجرى الحرب ، فقد اثبت بصورة واضحة مناعة الدفاع الجوى عن انكلترا وان غزوها من الجو صعب بعد ان اثبت الاسطول بدوره ان غزوها من البحر محاولة مستحيلة وربما كانت هذه الحقيقة هى أعظم عامل فى فشل مشاريع الغزو الالمانية لانكلترا فى الوقت الحاضر على الاقل كذلك كانت لمناعة الدفاع الجوى البريطانى أعظم أثر فى امريكا حيث اقنع حكومتها وشعبها بان بريطانيا العظمى التى تعتبر خط الدفاع الاول عن امريكا ، تستطيع ان تصمد فى وجه العدوان الالمانى وانه يجب لذلك ان تضاعف امريكا جهودها فى معاونتها وامدادها بكل ما وسعت من المواد الاولية والسلاح ، وقد ظهرت

نتائج هذه السياسة فى عقد الاتفاق الامريكى البريطانى بتنسيق الدفاع المشترك عن شواطىء امريكا وتأجير بريطانيا لبعض قواعدها البحرية فى تلك المنطقة لامريكا وحصولها مقابل ذلك على خمسين مدمرة امريكية كانت عونا ذا شأن للاسطول البريطانى

ولا ننسى من جهة أخرى ما كان للغارات التى ينظمها سلاح الطيران البريطانى بلا انقطاع على قواعد المانيا الصناعية ومراكز انتاجها الحربى ، وعلى مطاراتها وعواصمها ثم على موانىء الغزو الالمانى من أثر قوى فى اضطراب انتاج المانيا الحربى ، وفى تحطيم مشاريع هتلر لغزو بريطانيا ، وفى اضعاف قوى الشعب الالمانى المعنوية

كذلك لا ننسى ما كان لسلاح الطيران البريطانى من أثر حاسم فى معاونة اليونان على رد الغزو الايطالى وهزيمة الايطاليين ، وكذلك ما كان له من اثر فى معارك الصحراء الغربية وتمزيق قوى المارشال جراسيانى وتحطيم معدات العدو وقواعده وحصونه

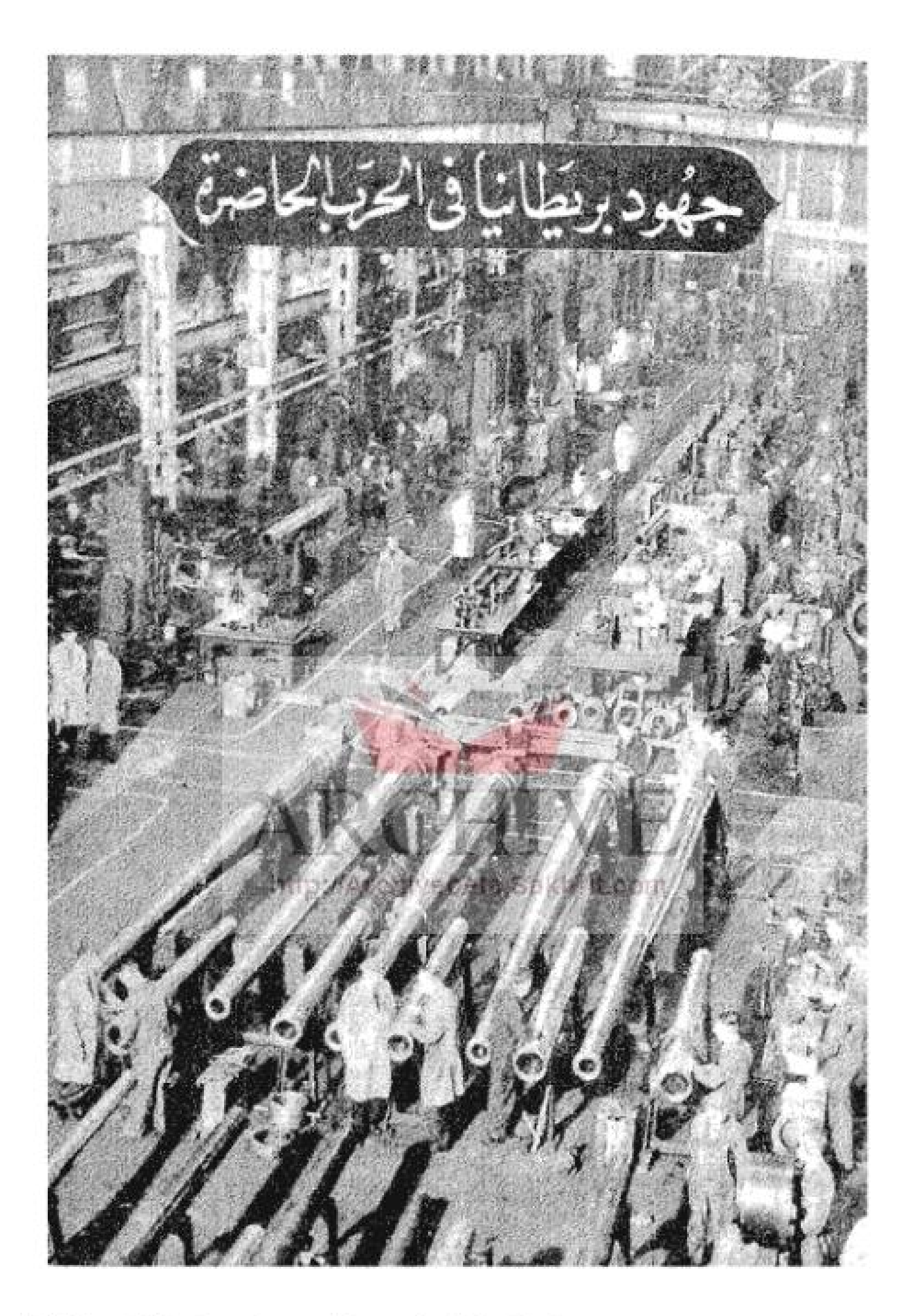
يضاف الى ذلك كله ما يبديه سلاح الطيران البريطانى فى جميع المعارك التى تشتبك فيها ، وجميع الغارات التى يقوم بها ، من البراعة الفنية ومن تفوق فى اصابة الاهداف ، وفى نوع الطائرات ومتانتها ، وقد ظهرت هذه المزايا جميعا فى جميع المعارك الجوية الكبرى التى اشتبك فيها مع الالمان والايطاليين وفى جميع الغارات التى نظمها على المانيا وايطاليا وذلك بالرغم من تفوق الاعداء عليه فى العدد

***

لقد ظهرت اهمية التعاون بين القوات البرية والبحرية والجوية فى جميع الاعمال الحربية الكبرى ، ومهما كانت قوى المانيا فى البر والجو فانه تنقصها القوى البحرية الملائمة ، ونقص هذا العنصر يحدث ثغرة بارزة فى قواها لم توفق حتى اليوم الى سدها ، وليس عمل الغواصات سوى عمل سلبى لا يقوم مقام العمل الايجابى اما انكلترا فهى بالعكس تجمع بين القوى الثلاث البرية والبحرية والجوية ، فى تناسق له خطره فى جميع المشاريع الهجومية والدفاعية

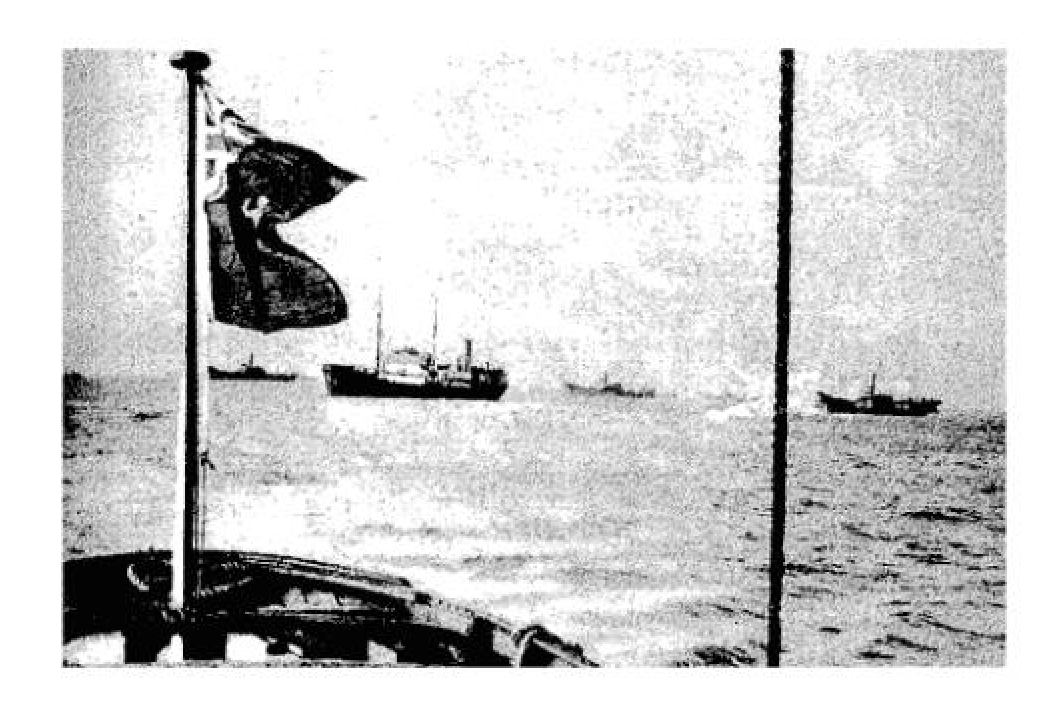
ان هتلر ما زال يعتد بقواه البرية المدرعة التى قضت على فرنسا . ولكن معارك اغسطس وسبتمبر الجوية كانت نذيرا بان ضربة فرنسا لم تكن اكثر من انتصار محلى وانه اذا أراد ان يكسب الحرب فعليه ان يكسب معركة بريطانيا قبل كل شىء ، وهذه أمنية يلوح تعذرها يوما بعد يوم خصوصا بعد ان انهارت قوى الفاشستية فى البر والبحر واصبح لزاما على المانيا بعد ان هزمت ايطاليا فى معركة الامبراطورية البريطانية ان تضطلع وحدها باعباء الحرب فى جميع الميادين التى ترى ان تناجز فيها بريطانيا العظمى

محمد عبد الله عنان



مضاعفة الانتاج الحربى

حبت المصانع البريطانية منذ نشوب الحرب تضاعف إنتاجها لتوفير ما تحتاج اليه الحرب الحديثة من عتاد وسلاح وسيارات مدرعة وطائرات . ولقد تطلب ذلك جهوداً جبارة احتملتها المصانع والصناع على السواء . وترى هنا جانباً من أحد مصانع السلاح الكبرى فى بريطانيا حيث تصنع المدافع الضخمة البعيدة المدى التى تلزم سفن الاسطول البريطانى . وفى أمثال هذه المصانع لا ينقطع العمل ليل نهار ، فهو مستمر طوال ساعات اليوم الأربع والعشرين

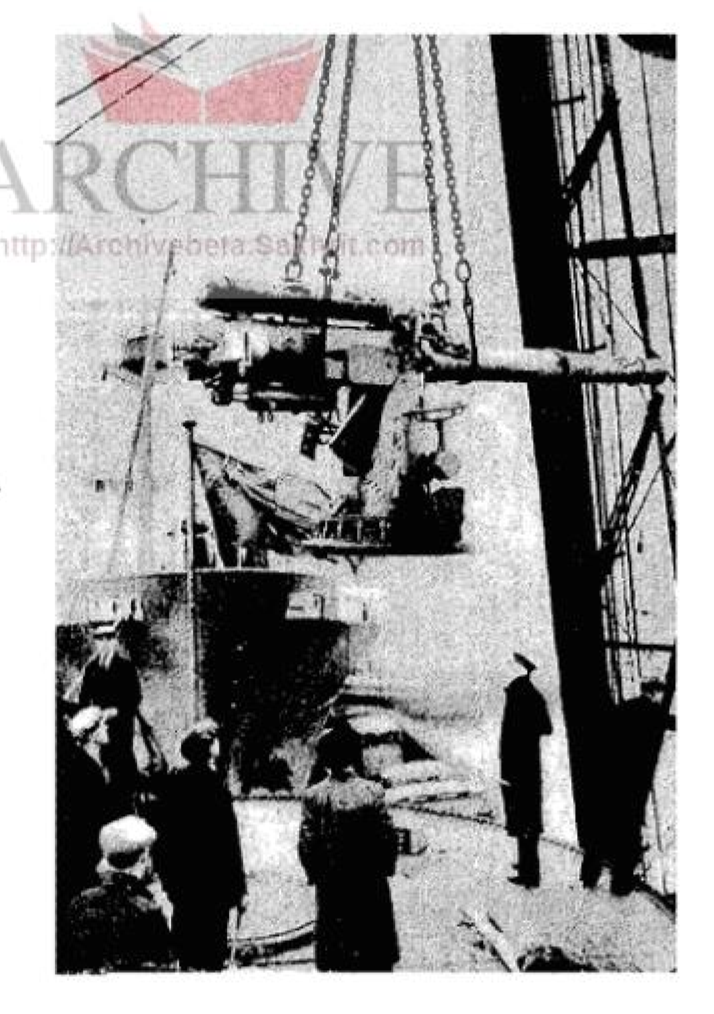


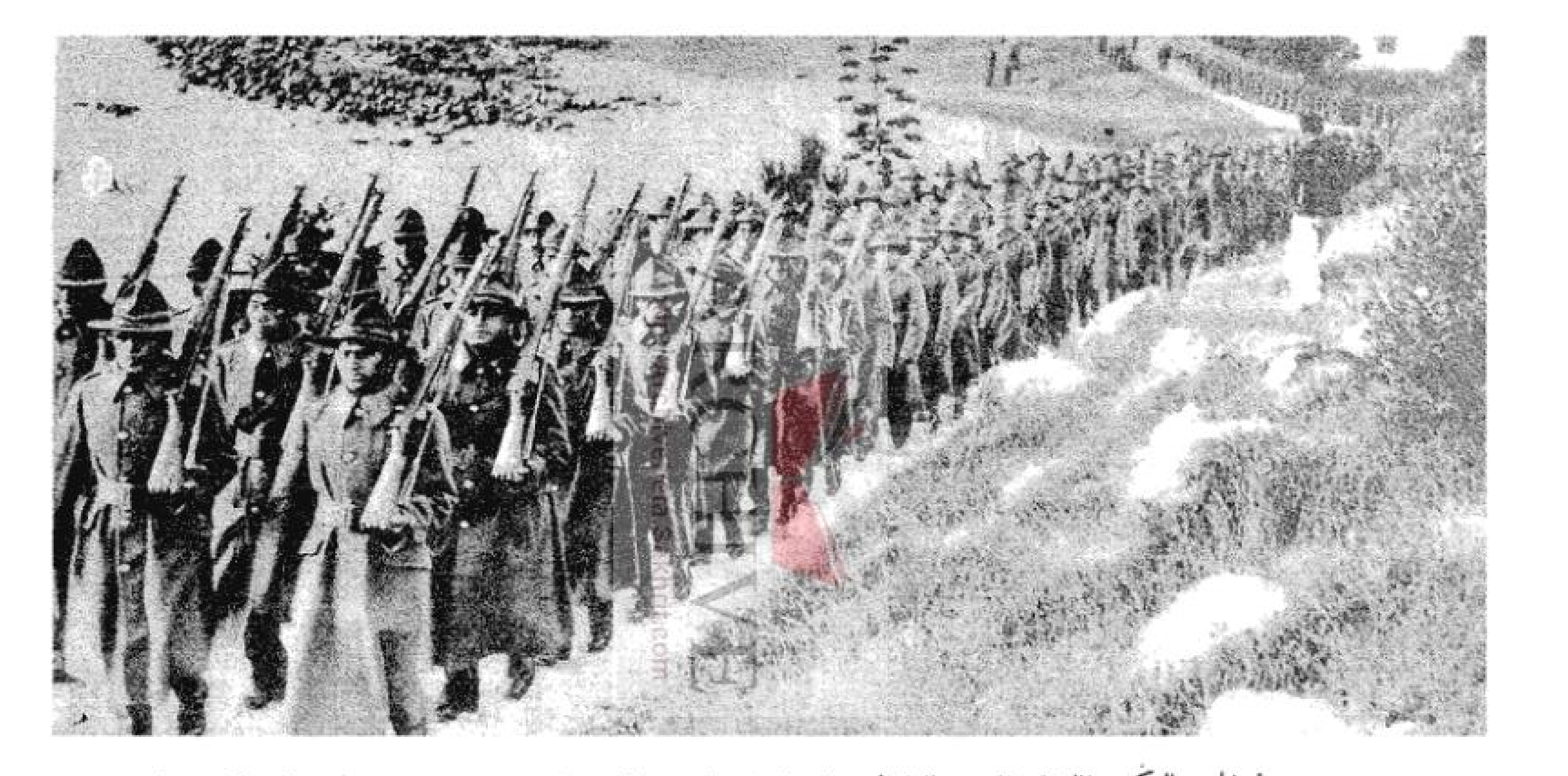
القوافل البحرية

اتبعت بريطانيا نظام القوافل البحرية منذ بداية الحرب للقضاء على خطر الغواصات وسفن الاسطول الالمانى التى قد تخرج منفردة الى البحار لاقتناص السفن التجارية. وها هى احدى القوافل تسير فى حراسة بعض سفن الاسطول

تسليح السفن التجارية

ما كادت الحرب تنشب حتى بادرت الغواصات الالمانية الى مهاجمة السفن التجارية محاولة قطع المواصلات بين بريطانيا ومختلف انحاء العالم . ولقد تولى الاسطول مقاومة الغواصات ، وزادت بريطانيا الى ذلك تسليح سفنها التجارية بالمدافع البحرية المتوسطة الحجم . وها هو ذا احد تلك المدافع فى اثناء انزاله الى مكانه من احدى السفن





مضاعفة الجيوش البرية في الحرب الكبرى الماضية دخلت بريطانيا الحرب إلى جانب فرنسا بجيش لا يزيد على ١٥٠٫٠٠٠ جندى ودون أن تكون الخدمة العسكرية الاجبارية قد تقررت فيها بعد. ولكنها واجهت الحرب الحالية منذ البداية بجيش يربو على المليون وبقرار الخدمة العسكرية الاجبارية. ولم يلبث هذا الجيش أن تضاعف بما انضم اليه من رجال الممتلكات الحرة والمستعمرات التى أسرعت تلبى النداء وتشترك فى الدفاع عن قضية الديموقراطية، فبلغ عدد الجنود فى بريطانيا وحدها نحو مليونين. وهذه فرقة من جنود « الماورى » النيوزيلنديين فى أثناء تدريبها بعد أن انضمت إلى قوات الامبراطورية البريطانية

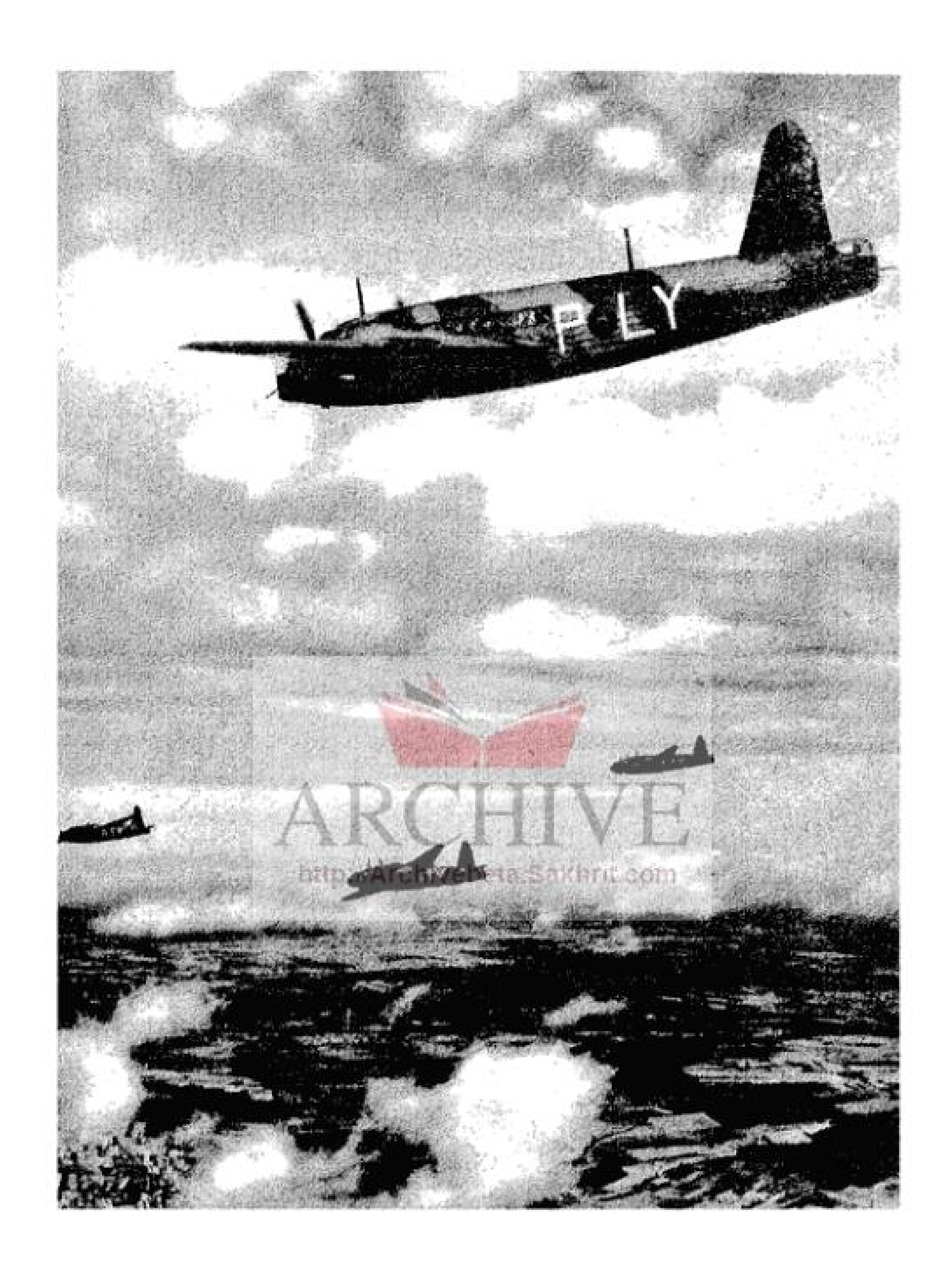


تطهير البحار من الغواصات

البحر دائما هو ميدان انجلترا الاول ، فمنذ اللحظة الاولى خاض الاسطول البريطاني الحرب الحاضرة بكل ما أوتي من قوة ففرض الحصار البحري على ألمانيا وقطع مواصلاتها البحرية مع سائر العالم ، وأرغم الاسطول الالماني على أن يلزم قواعده بعد ما أنزله به من خسائر ، وأخذ في تطهير البحار من الغواصات الالمانية — ثم الايطالية — حتى قضى على الجزء الاكبر من غواصات العدو . وترى في هذه الصورة إحدى المدمرات البريطانية — التي يرجع اليها أكبر الفضل في محاربة الغواصات والقضاء عليها — وهي تشق مياه المحيط بعد أن أسقطت فيها إحدى قذائف الاعماق لتقضي على غواصة ألمانية



زيادة وسائل الدفاع وبعد انهيار فرنسا راح هتلر يهدد بغزو الجزر البريطانية ، فما كان من بريطانيا إلا أن أسرعت بزيادة وسائل الدفاع عن الجزر فأعدت لكل احتمال عدته ، فتكونت فيها الفرق الكثيرة من الحرس الاهلي لصد الغزاة والقضاء على محاولات نزول الجنود بالباراشوت ، وأضافت إلى قوات الدفاع الساحلية عدداً وفيراً من المدافع الضخمة البعيدة المدى لترد سفن الغزاة وتغرقها إذا هي حاولت الاقتراب من الشواطىء البريطانية . وهذا أحد تلك المدافع المنتشرة على السواحل البريطانية وقد حلقت على مقربة منه إحدى الطائرات المائية الضخمة التابعة للدفاع الساحلي



استكمال قوة السلاح الجوى

دخلت بريطانيا الحرب الحاضرة وهى أبعد ما تكون عن استكمال أهبتها الجوية ، ولكنها استطاعت مضاعفة انتاجها الخاص وإنتاج الامبراطوريه واستيراد العدد الوفير من الطائرات من أمريكا ، وأخذت تسكيل الضربات الأليمة لألمانيا وايطاليا على السواء بغارات شديدة على الموانىء والأهداف العسكرية والمصانع وغيرها ، كما أظهر سلاح الطيران البريطانى قوته الجبارة فى الدفاع باسقاط مئات الطائرات الألمانية التى أغارت على الجزر البريطانية .

وهذه أربع من طائرات « ولنجتون » القاذفة للقنابل وهى تبدأ رحلتها البعيدة من انجلترا الى المانيا



الدفاع عن لندن

لما عجز الألمان عن غزو الجزائر البريطانية لكثرة ما أصيبوا به من خسائر على يد الأسطول البريطاني وسلاح الطيران الملكي ، أخذوا في إرسال الأفواج من طائراتهم لتدمير العاصمة الانجليزية وإزالتها من الوجود « على حد قولهم » . بيد أن لندن صمدت للغارات الجوية وأخذت المدفعية المضادة للطائرات ترسل ستراً من نيرانها تحول دون اقتراب الطائرات الألمانية أو إصابتها للأهداف بدقة ، بينما راحت طائرات المطاردة البريطانية تسقط المئات من الطائرات المغيرة . وقد التقطت هذه الصورة على مقربة من إحدى بطاريات المدافع المضادة للطائرات في منطقة لندن في أثناء إطلاقها نيرانها الحامية بانتظام على بعض الطائرات المغيرة



تحطيم العدوان الايطالى

وقد سكتت بريطانيا على العدوان الايطالى حينا ، فتركت القوات الايطالية تحتل الصومال البريطانى وبعض المراكز الامامية على حدود حبشة وكينيا حتى بات الايطاليون يعتقدون ان طلائع النصر قد بدت دانية القطوف فاقتحم الماريشال جراسيانى الحدود المصرية وتوغل فى الصحراء العربية فى منطقة تركت دون دفاع حتى سيدى برانى . وفجأة قامت القوات البريطانية بضربتها الباهرة فى الصحراء الغربية فانتزعت سيدى برانى وبقبق والسلوم ثم استمرت فى هجومها وراء الحدود المصرية فاستولت على حصن كابوتزو وميناء البردية وحاصرت ميناء طبرق . وهذا أحد مبانى البردية وقد هدمت بعض جدرانه القنابل البريطانية ووقف الى جانبه جندى بريطانى بعد سقوط المدينة فى أيدى البريطانيين

المدرسة الأنجليزية فى الفن

بقلم الاستاذ محمد حسن

مراقب الفنون الجميلة المساعد بوزارة المعارف
ومدير المدرسة العليا للفنون الجميلة بالقاهرة

الفن الانجليزى ، مرآة مجلوة صادقة تجلو لنا طبيعة القوم التى تجمع بين الارستقراطية ، والبساطة . وصحة البدن ، ورقة العاطفة ، والروح الرياضيـــة ، والروح الدينية

قبل ان نعرض للكلام على مذاهب الفن عند الانجليز وطرائق تعبيرهم ، أحب ان أسوق الى القراء واقعة لى ألبستنى حقيقة المدرسة الانجليزية فى لحظة ، وبالها لحظة رجتنى رجة عنيفـة لا أنساها مدى حياتى

هبطت انجلترا عام ١٩١٧ موفداً فى بعثة ، وكنت أول فرقتى بمدرسة الفنون الجميلة المصرية وكنت فوق ذلك قد اشتغلت بالتدريس ما يقرب من ستة أعوام ، فلا غرو إذا تقدمت الى مرسم الأستاذ الانجليزى وأنا معتد بنفسى مزهو بهذه المزايا . فلما مثلت أمامه بادرنى فى برود وجفوة

— ماذا تريد ؟

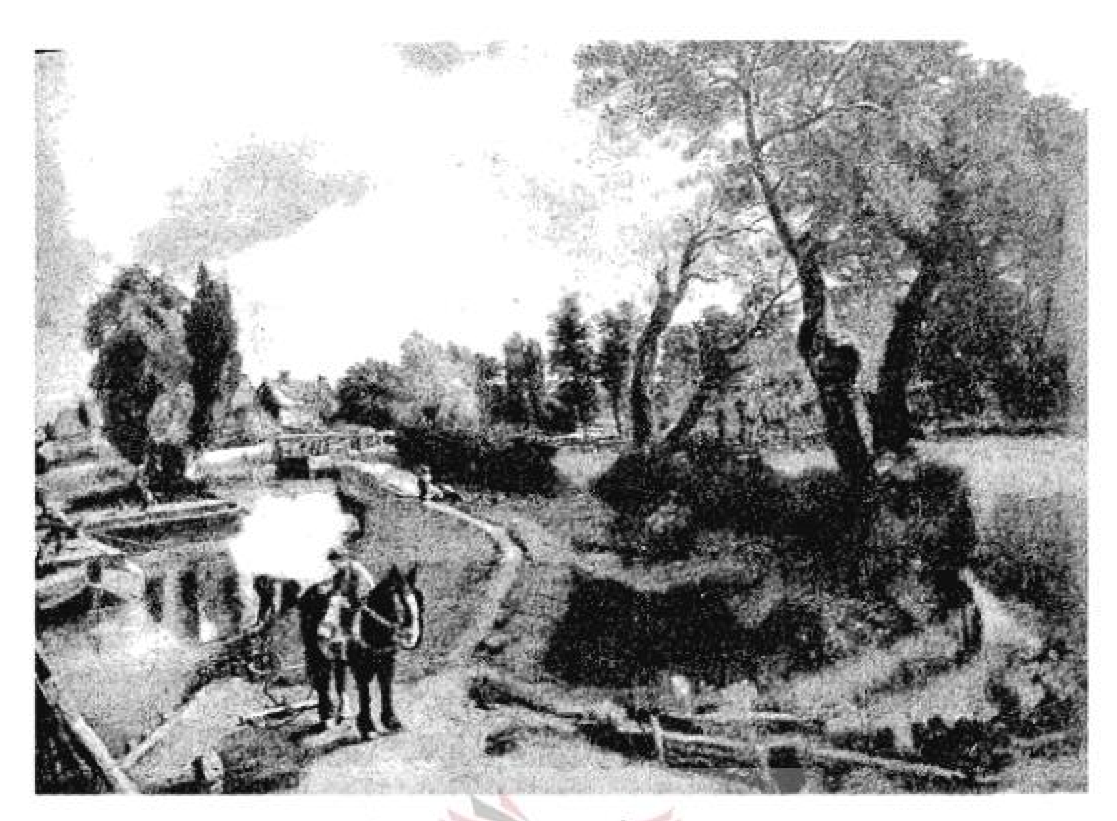
فقلت فى نفسى مدهوشاً ، أوليس فى هيئتى ما ينم عن مواهبي الفنية ، وهب الأمر كذلك ، أليس فيما أحمل من الأدوات ما ينبىء عن الغرض من مجيئي !

وتمالكت نفسى وأجبت :

— يا سيدى الاستاذ انى أقصدك لدراسة الطبيعة الحية ، وقد بلغت الى هذه الدراسة بعد أن تأسست وقطعت مراحل الدراسات التمهيدية

فلم يمهلنى ، وأخذ يناقشنى مناقشة عسيرة أشبه بالتحقيق الدقيق مع متهم . وأخيراً أظهر التساهل وأبدى استعداده لاختبارى ليطلع على مبلغ أهليتى للدراسة عليه

وغنى عن البيان أن هذا الاستقبال لم يعجبنى وأننى وجدت غضاضة فى طريقة كلامـــه



« فلاتفورد ميل » على نهر ستور – للرسام ج . كونستابل

ومناقشته . على أننى وطدت عزمى على سحق غطرسته واستنزاله من سماء كبريائه . فقررت تأدية الاختبار بكل ما أملك من اقتدار ، حتى يجد الأستاذ نفسه مضطراً الى الندم والاعتذار وتصبح تلمذتى له من دواعى الشرف والفخار ، وليعلم أنى اذا كنت قدمت لحضور الفن عليه فما ذلك إلا عملا بما ندبت له كعضو بعثة ، إذ أننى فى حقيقة الحال غنى عن الارشاد منه وممن على شاكلته

على هذه النية دخلت المرسم ، ووضعت أدواتى ونصبت لوحتى ، ثم أقبلت على العمل بحماسة عظيمة ، وقبل انقضاء ثلاث ساعات كنت قد انتهيت من رسم النموذج على أكمل وجه يرضينى ، فى حين كان طلبة الأستاذ لا يزالون فى البداية لم ينجزوا إلا الجزء اليسير ، وجعلت أنتظر عودة الأستاذ فارغ الصبر حتى خيل الىّ أنه تباطأ متعمداً ، وخطر لى أنه لابد قد علم من أحد الطلاب بآية الفن التى أتيت بها فى ساعات معدودات ، فمنعه الغل والخجل أن يطالعها الا آخر النهار وفى عجلة الانصراف . وأخيراً حضر ، ولمحته يتقدم إلى ناحيتى ، ولكنه كان فيما تفرسته يتكلف الهدوء ، فهذه هيئته ما برحت هى هى ، ووقف الأستاذ خلفى متأملا فى لوحتى – أو قل آيتى : فعولت إمعانا فى النكاية به وإخجاله ألا ألتفت اليه إلا بعد انقضاء وقت كاف يتحسر فيه على تسرعه فى الحكم علىّ وجفوة لقائه لى . وطالت وقفته خلفى وأنا أمد يدى من حين لآخر الى الصورة ثم أقبضها دون أن أمسها إعجاباً بها ، لأنها فى الحق ليست فى حاجة الى شىء . اللهم إلا زفة تحمل



بعد الزواج بقليل – للرسام ويليام هوجرث

فيها على الرؤس الى أحد المتاحف ، وانقضت لحظة بعد لحظة والموقف على حاله لم يتغير ، والاستاذ لا يزال يمعن النظر فى تحفتى ، وأنا غاض النظر عنه . لقد قفى الرجل أكثر مما يجب للاستمتاع بها فما باله ؟ إنه الخجل يعقد لسانه ، انه أدرك الآن مبلغ خطئه فى حق ، ولكن ، كفى . كل إنسان معرض للخطأ والعصمة لله . وشعرت من نفسى بالاشفاق عليه والرغبة فى مصافاته وتهوين الأمر ، فالتفت اليه مبتسما ابتسامة تجمع بين معنى الانتصار والصفح ولا تخلو فى الوقت نفسه من التنبيه إلى عدم الوقوع مرة أخرى فى مثل هذا الاستخفاف بأقدار الناس . وما كدت أفعل حتى زعق الاستاذ بصوت صريح قوى « Very bad » وهى أشبه بقولنا « زى الزفت »

صدمة شديدة لم أفق منها ، ومفاجأة قاسية حرت فى أمرها . أهو الاصرار والعناد المعروفان فى الخلق الانجليزى ؟ أهى الغيرة والحسد ؟ .. وتصبب العرق البارد من جبينى على إثر هذه الضربة القاضية التى يسميها هؤلاء الجفاة القساة فى لغة الملاكمة « Knock out » وكيف يمكن أن يحكم على مثلى أنا بلفظ « ردىء جداً » مع انى ما كنت لأرضى منه حتى بلفظ « not bad » « مش بطال »

ولأول مرة فى حياتى رأيت رجلا انجليزيا متهيجاً ، فان الاستاذ عمد الى لوحتى فى حركة عصبية جداً فنزعها وأدارها على الوجه الآخر وأخذ يخط عليها بقوة يميناً وشمالا وعلواً وسفلا خطوطا فوق خطوط حتى لم تعد العين تستبين منها شكلا وهو يغمغم فى أثنائها كلمات غريبة

متقطعة : « هكذا ترسم هنا ، دراسة التصوير ليست أمراً هيناً ، الفن للفن ، لا نسمح بالتهويش مطلقاً ، تعمق فى الدرس ، تأمل أكثر مما تعمل ، ابحث وراء الحركة . . . »

كلمات اعتبرتها مجرد كلمات جوفاء. أهذه هى المدرسة الانجليزية وهذا هو الفن الانجليزى ؟ ابحث عن الحركة ! ! وما لهؤلاء القوم والفن ؟ وهل يمكن أن يشعروا بالفن ويقدرونه فى مثل جو بلادهم المظلم . ثم ما يدرينى أن ما صدر عن الاستاذ ان هو الا التعصب على كل ما هو أجنبى

حملت عدتى وأدواتى، وخرجت لا ألوى على شىء ، مصمماً ألا أعود بعدها ، ناقماً على الانجليز وعلى مدرستهم وعلى جو بلادهم

وحل المساء فهدأت معه بعض الشىء ، وخيم الليل فكنت أكثر هدوءاً . وأقبلت على نفسى مفكراً وجعلت أقلب الأمور على وجوهها فى تعقل وروية . فاستقر رأيى فى آخر الأمر على العودة الى مرسم الاستاذ ، وذلك على الاقل تمضية لمدة البعثة ، واذا كنت لن أفيد منه شيئاً فانى لن أخسر شيئاً . على أن قرارى لم يمنع ترددى فى اليوم التالى حين اقتربت من المرسم . ولكننى غالبت نفسى ودخلت ، فاستقبلنى الاستاذ مصبحاً علىّ بلطف لم أتوقعه ، وتحدث معى طويلا واستطرد الكلام الى دراستى فقال إنه على يقين جازم بأن أستاذى الذى درست عليه فى مصر لا بد أن يكون من الايطاليين أو الفرنسيين . فامتعضت من استخفافه ولم أتمالك أن توجهت بنظرى الى جدران المرسم المزدانة بطائفة من التماثيل والصور لكبار الفنانين الاعلام من الطليان والفرنسيين وغيرهم . والظاهر أن التفاتى هذه لم تفته ، فانه أخذ يشرح لى على هذه النماذج عظمة الفن الايطالى والفرنسى قديماً ، ثم انثنى يحمل على بعض المشتغلين منهم بالفنون فى الوقت الحاضر وينتقدهم مر الانتقاد ويرميهم بأنهم لا يخلصون للفن حق الاخلاص ، فدراستهم له سطحية لا تعمق فيها ، يقنعون منها بالقسط اليسير ولا يلبثون أن يهجروا الدرس الى كسب الرزق . وهو يعتبر هذه الفئة خطرة شديدة الخطر لأن بضاعتها مزجاة رخيصة تروج لها بالدعاية والتهويش فتستهوى مع الاسف سواد الجمهور وأدعياء الفن

اضطررت بحكم الحال الى الصمت والامتثال ، ولو أنى فى دخيلة نفسى حكمت عليه بالتحامل غاية التحامل

ثم تهيأت لرسم لوحة جديدة

ولكن كيف أرسم ؟ أعلى طريقتى التى لم ترقه ؟ طبعاً لا . فان ما جرى فيه الكفاية وفوق الكفاية . اذن يجب أن أتبع طريقته . ولكن من أين لى ذلك وأنا أجهلها . وليس بالمطلب اليسير الانتقال من طريقة الى أخرى الا بعد تأمل طويل واستيعاب

وجعل الوقت يمر بى ثقيل الخطى ، وتراءت لى ذكرى المقابلة الاولى ماثلة أمامى قائمة . فلم



« الغلام الأزرق » جوناثان بوتول - للرسام جينسبورو

جرؤ أن أخط على اللوحة خطا واحداً . فخطر لى أن أرقب زملائى وهم يرسمون لعلى أجد في ذلك ما يعشق ، ولكن ارتباكى بقى كما هو. وأخيراً عولت على انتظار عودة الاستاذ والاصغاء الى انتقاداته على كل منهم . وكان ذلك مفيداً لى نوعا ما ، حتى وصل الاستاذ فى جولته الى واحد منهم ، فاذا به يحتد وينتقد عمله بشدة ، ثم جلس مكان الطالب وتناول القلم ، وفى ناحية من الورقة خط له خطوطا من قبيل الارشاد ، فحملقت مبهوتا ، واتجهت بكل حواسى أراقبه وهو يرسم ، وما كان أسعدنى بهذه اللحظة القيمة . خطوات مقدورة مدروسة ، يتبع بعضها البعض فى انسجام مدهش ، فلا تعدو الخطوة مكانها ولا تسبق وقتها . عندئذ حمدت الله أن عدت . وشعرت بطمأنينة لاحد لها وشرف كبير للتلمذة على أستاذ عظيم . وحاولت بكل ما أملك من قوة وإرادة متابعته والاخلاص له

وبعد أن قضيت في الدراسة على الاستاذ ما يقرب من ستة أشهر مشمولا بعطفه وعنايته ، وقف ذات يوم أمام احدى لوحاتى فترة طويلة يدقق النظر فيها وهو هادىء هدوءه فى أول مقابلة . فتوجست ، وخيل الىَّ أن المنظر الاليم سيتكرر بعينه . ثم التفت الى وجعل يحدق فى عينى بنظره الثاقب ، وفجأة مد يده الى . فرفعت يدى كمن يدفع الأذى ، ولكنه أمسك بها وشد عليها قائلا : « أهنئك » . . . وكنت لا أزال أرتجف ، فتمتم قلبي : « الله يسامحك » .

وأخيرا نطق لسانى فرحا : « أشكرك يا سيدى »

هذه التجربة بما فيها من فكاهة ومرار علتنى من أوجز طريق الطابع الذى يتميز به الانجليز فى خلقهم وفى فنهم . فهم جادون ، يؤثرون التعمق والتدقيق ، ولا يجرون وراء الشذوذ والاغراب . وهم محافظون ، يتطورون ولكنهم لا يثورون . وهم لا يأنفون الاستفادة من تجارب الاجنبى حتى اذا استوعبوها وجنوا خير ما فيها استغنوا عن غيرهم بأنفسهم

وفيما يلى تفصيل ذلك :

لم يظهر للانجليز مذهب فى فن التصوير قبل القرن الثامن عشر . وليس معنى هذا أنه لم تكن عندهم فنون ، وانما كانت آثارهم فى العمارة والتماثيل مأخوذة عن الفن الرومانى ثم الفن القوطى ثم خليطا بين الفنين . وكان الملوك والاشراف يستقدمون



الطفل صاموئيل — للرسام جوشوا رينولدز

من القارة الاوروبية أشهر المصورين وأدبهم صيتا أمثال هولبين Holbein وأنطونيو مورو Antonio Moro وروبنز Rubens وفانديك Van Dyck وغيرهم لتصويرهم وتصوير ذويهم وأحبابهم وتزيين قصورهم المنيفة ومغانيهم الفاخرة

وأما الفن الانجليزى من حيث هو تعبير عن نفس الامة الانجليزية وحياتها ونظرتها للاشياء وحكمها على الأمور فقد ظهر أول ما ظهر فى القرن الثامن عشر فى صور وليم هوجرت William Hogarth وهى صور أخلاقية ينتقد فيها آداب العصر ، وهى أشبه بمواعظ يعرضها فى سلسلة من الوقائع متتابعة تنتهى بفوز الاخيار أو على الاقل بعقاب الاشرار . وسواء أكانت هذه الصور ذات قيمة فنية عاليه أم غير عالية ، فانها لاقت عند الجمهور قبولا عظيما لأنها صادفت هواه وجاءت معبرة عن خلقه ، وأشهرها « زواج هذه الأيام « The Mariage à la mode » وهى مجموعة من ست لوحات . وله الى جانب هذه الاهاجى المصورة صور شاهدة بالبراعة والأستاذية فى التصوير فى مقدمتها بائعة الجمبرى « Shrimps-Girl »

وقد ظهر فى زمن صاحبنا الاخلاق مصوران يصغرانه فى السن ، ولكنهما أقرب الى التصوير بمعناه الصحيح وهما جوشوا رونولدز Joshua Reynolds وتوماس جينسبورو Thomas Gainsborough وليس بين المصورين من هم أشد منهما تشابها فى الظاهر واختلافا

في الصميم . فأحدهما وهو رينولد تلقى التصوير على أساتذته وقام برحلة دراسية فى ايطاليا ومر فى عودته بباريس ، وقد اجتمع له من ذلك سعة اطلاع وتحصيل تشهد بهما محاضراته التى ألقاها حين تولى منصب المدير للاكاديمية الملكية (وهو أول من تولى هذا المنصب) وسائر كتاباته ومختلف تعليقاته .

أما الثانى وهو جينسبورو فقد تلقى دروسه عن الطبيعة وعليها تتلمذ ، ولم يعرف معهداً فى صباه غير الحقول والغابات التى تكتنف قريته ، يفتح قلبه لمؤثراتها وتتشرب نفسه معانيها

والسير جوشوا رينولد يقبل على التصوير وفى ذهنه النماذج العليا والآيات الخالدة لأئمة المصورين السابقين ، ومن ثمة تذكرنا هذه اللمحة أو تلك فى صوره بلمحة فى هذا الاثر أو ذاك من آثار هؤلاء الاساتذة . وهو قدير على الاستفادة من استعاراته والتأليف بينها واخراجها فى وحدة هو صاحبها وذو الفضل فيها . وبالجملة فان نبوغه الفنى قد أفاده بارادته ، فهو قبل الشروع فى الصورة يدبر لها التدبيرات ويضع النظريات



لادى هاملتون – للرسام جورج رومنى

أما جينسبورو فان نبوغه الفنى مرجعه الاكبر الى السليقة ، كما تتفتح أكمام الزهرة وكما تستحيل الزهرة إلى ثمرة . وهو لا يدين للقواعد والنظريات على العكس من رينولد . ولقد أورد هذا فى إحدى محاضراته فى الاكاديمية نظرية عن اللون الازرق ذهب فيها إلى أن هـذا اللون لا يصلح أن يكون فى الصورة اللون الاساسى الغالب، كما أورد نظريته القائلة بأن الشيات القوية فى الالوان يجب أن تكون فى وسط الصورة دون أطرافها . فكان الجواب على هذا ان أخرج جينسبورو آيتــه المشهورة « الغلام الازرق » وهى فيما عدا البنيقة وحواشى الاكمام ملونة من أعلاها إلى أدناها باللون الأزرق كما أن اللون على أشده فى الاطراف دون الوسط

على أن للسير رينولد براعة فنانى البندقية في التلوين ، وقلما يوجد له نظير فى إبرازه النضارة الجثمانية فى صوره للغوانى الانجليزيات من طبقة العلية المنعمات . أما جنسبورو فانه يفرغ على نسائه ورجاله شيئاً من سحر العاطفة كما يفيض على مناظر الطبيعة مسحة من الشجو والأسى

وحسبنا أن نضيف الى هذين المصورين ثالثاً هو جورج رومنى George Romney . وقد عكف كالعابد معظم حياته على تصوير « إما هاملتون » ذات العلاقة المعروفة بالأميرال نلسون بطل

الطرف الأغر (ترفلجار) فأخرج اكثر من خمسين لوحة لها فى هيئة ربات الاغريق المأثورة فى أساطيرهم

فلما أن أظل القرن التاسع عشر طالعنا علمان من أعلام المناظر الطبيعية وهما كونستابل John Constable وجوزيف ترنر Joseph Turner

وكان كونستابل ممن لا يستعبدون أنفسهم للاوضاع والقواعد المصطلح عليها ، وانما يصدر عن طبعه . والفنانون من هذا النوع يلاقون أشد العنت فى شق طريقهم ، ويصح القول بأن كونستابل هو منشىء المدرسة الحديثة للمناظر الطبيعية وذلك أنه لم يجعل له إماماً غير الطبيعة متخذاً حقائقها الحرفية أساساً لآياته الفنية . وفن كونستابل فيه جزالة وغزارة وقوة عازمة وحدة إحساس . وكانت عناصر الطبيعة تهزه هزاً ويستهويه من الأشياء ما فيه من حياة

أما ترنر فكان همه الاكبر وحلمه الجرىء أن ينقل على اللوحة النور ، النور الذى اجتلاه فى رحلته إلى القارة الاوربية . فهو لا يفتأ يبحث عن هذا النور فى سماء الشمال ويتتبع جهاد الأشعة ومحاولاتها المتعددة الاشكال وراء ضباب لندن

ولقـــد قامت فى انجلترا فى أواخر القرن التاسع عشر حركة تناهض التصوير الذى تسوده الرخاوة والذى لا قوام له على الاطلاق ولا سند له من الواقع ، كما أنها تطالب من ناحية أخرى بحق فن التصوير فى إبراز المعانى الروحانية . وقد اتخذت هذه الحركة اسم « ما قبل رفاييل » « Preraphaelism » تمجيداً للفن الطبيعى الذى ظهر فى فجر النهضة فى لوحات فنانى النهضـة الاوائل قبل رفاييل . وكان القائم على هذه الحركة جبرائيل روسى Gabriel Rossetti وهو يتوخى إظهار العواطف أو صوراً دقيقة عن الحقيقة معروضة فى جو من الحلم والاحساس الشديد . وقد انضوى الى هذه الحركة ميليه Nillais ، بيرن Burne ، هنت Hunt ، وتس Watts وغيرهم . وطريقة هذه المدرسة الفنية الجديدة عظيمة الملاءمة لعرض الاساطير وكل ما فيه إشارة رمزية ومعنى صوفى . وإن المشاهد لآثار هذه المدرســة ليشعر أن هؤلاء الفنانين مستغرقون فى إحساس غامض جميل كاحساس المتدينة المتصوفين

وأخيراً طرأت فى أيامنا هذه حركات لا عداد لنزعاتها تدل على فردية جامحة ، ولا تعبر عن نفسية الامة . ونحن نضرب الآن صفحاً عن ذكرها ، ونقف هنا اكتفاء بما أوردناه ، لان المقام ليس مقام إفاضة وتفصيل ، وانما هو عرض وبيان لما يتميز به الفن الانجليزى . ويتضح مما أسلفنا أن الفن الانجليزى مرآة مجلوة صادقة تجلو لنا طبيعة القوم التى تجمع بين الارستقراطية والبساطة ، وصحة البدن ورقة العاطفة ، والروح الرياضية ، والروح الدينية

محمد حسن

لندن : بنك العالم

بقلم الأستاذ على الجريتلى

مدرس ادارة الاعمال بكلية التجارة

موقع لندن الجغرافى وأهميته فى الناحية المالية – لندن مركز التموين التجارى الدولى – بنك انجلترا بنك مركزى – بنوك لندن الكبرى – سياسة البنوك الانجليزية فى القروض – بيوت القبول وبنوك الخصم

منذ ألف والتر باجوت كتابه المشهور « لومبارد ستريت » الذى وصف فيه النظام المصرفى الانجليزى بالتفصيل ، كتب الكثير من الاقتصاديين مشيدين بذكر الخدمات التى تؤديها « الستى » – أى حى المال فى لندن – للتجارة الدولية والاستثمار العالمى ، وقد حاولت بعض البلاد الاخرى منافسة لندن واجلائها عن مركزها الممتاز كبنك العالم ، بحجة ان الوقت الحاضر يتطلب أنظمة جديدة تختلف عن الانظمة الموجودة فى لندن ، الا ان هذه المساعى لم تكن ناجحة ، اذ برهنت « الستى » على قابلية كبيرة للتطور ، ومجاراة الظروف المتغيرة ، وهذه المرونة التى تتمتع بها معظم الانظمة الانجليزية الاخرى هى التى مكنت البنوك من اجتياز فترة الذعر المالى التى حلت بالعالم بعد سنة ١٩٣٠ ، دون أن يتوقف بنك واحد عن دفع ودائعه أو أداء تعهداته بالكامل ، بينما أفلس عدد من البيوت المالية الاوربية والامريكية مما اضطر الحكومات الى التدخل وفرض رقابة دقيقة على النظم المصرفية وضمان ودائع الجمهور أو التأمين عليها – وسنأتى فى هذا المقال على وصف موجز « للستى » ذاكرين الخواص التى أدت الى عظمتها والعيوب التى يأخذها عليها النقاد

موقع لندن وأهميته فى الناحية المالية

ولكى نفهم سر عظمة لندن المالية فى التطور الحديث يجب أن نذكر ما لمركزها الجغرافى من الاهمية ، كمركز طبيعى هام لتصريف منتجات أوربا وكسوق لمبادلتها بحاصلات الشرق والامريكتين – وتعد لندن من أكبر موانىء العالم ، ولذا نجد بها عددا كبيرا من بورصات البضائع التى تتجر فى المحاصيل الزراعية والمعادن . كما انها مركز كبير لشركات الملاحة البحرية التى تملك أسطولا تجاريا تبلغ حمولته ثلث مجموع

حمولة السفن التي تمخر عباب البحار ، وتدر على انجلترا دخلا سنويا يتراوح بين ٩٠ و١٠٠ مليون جنيه . فضلا عن ان بها شركات التامين البحرى المشهورة « لويدز » التى تؤمن جانبا كبيرا من سفن العالم وتجارته الخارجية

وفى الفترة التى اصطلح المؤرخون على تسميتها « بالانقلاب الصناعى » ، وخصوصا حوالى منتصف القرن التاسع عشر زادت ثروة الجزر البريطانية زيادة كبرى بسبب زيادة الانتاج بعد استخدام الآلات والقوى المحركة على نطاق واسع . هذا التوسع الهائل الذى جعل انجلترا مصنع العالم ساعد على توفر رؤوس الاموال فيها ، وكان لتفاوت توزيع الثروة وتركزها في أيد قليلة أثر كبير فى ازدياد الادخار ، اذ من المعروف ان نسبة ادخار الشخص تزداد باطراد كلما ازداد دخله عن حد معين . ونظرا لان المقدرة الشرائية للجماهير كانت منخفضة نوعا ما ، وخصوصا قبل الاصلاح المالى وفرض الضرائب التصاعدية على الدخل والتركات ، تدفقت رؤوس الاموال للاستثمار فى الخارج وخصوصا فى بلاد الامبراطورية والامريكتين . فكانت لندن فى القرن التاسع عشر كعبة يقصدها رجال الاعمال للحصول على الاموال اللازمة للاستثمار فى البلاد الجديدة ، ولم يتردد المستثمرون فى مواجهة الاخطار رغم بعد المسافة

وبمقارنة تاريخ الاستثمار الخارجى الانجليزى بالاستثمار الفرنسى ، نجد ان المدخرين الفرنسيين كانوا يفضلون الاستثمار فى أوربا واذا ما جازفوا بعيدا منها كانوا حذرين وقصروا اهتمامهم على المشاريع الزراعية أو التى تمت الى الارض بصلة ، كالتسليف والرهن العقارى ، ففى مصر مثلا نجد ان بنوك التسليف العقارى الكبرى معظمها مؤسس برؤوس أموال فرنسية ، فى حين ان الانجليز كانوا يستثمرون فى التعدين والصناعة ومشاريع النقل والتسليف التجارى . وقد أفادت انجلترا من هذه الحركة فائدة كبرى ، اذ ان معظم القروض كان يصرف فى شراء البضائع والآلات الانجليزية ، كما ان تقدم الزراعة فى البلاد الجديدة عاد بالخير على شركات الاستثمار وضمن لانجلترا الحصول على المواد الخام اللازمة لصناعتها النامية وعلى المواد الغذائية اللازمة لاطعام سكانها الذين قصروا اهتمامهم على الانتاج الصناعى والتجارة ـ وقد بلغت قيمة رؤوس الاموال المستثمرة فى الخارج ٤٠٠٠ مليون جنيه فى سنة ١٩١٤ ، ولم تتغير قيمتها كثيرا بعد ذلك بسبب اضطراب الحالة الدولية وانعدام الثقة التى هى اساس التعامل المالى . ونصف هذا المبلغ مستثمر فى الامبراطورية ، والنصف الآخر مستثمر فى أوربا والامريكتين . وتجنى انجلترا من هذه المبالغ فائدة سنوية تربو على ٢٠٠ مليون جنيه ، تساعد على دفع قيمة الواردات من المواد الخام والمواد الغذائية ـ كما ان الاوراق المالية التى تمثل هذه المبالغ تعتبر سلاحا مفيدا فى حالة الحرب ، اذ تستطيع الحكومة البريطانية بيعها عند الاقتضاء فى الاسواق العالمية واستعمال العملة الاجنبية التى تحصل عليها فى دفع المشتريات من أسلحة وغيرها

لندن مركز التمويل التجارى الدولى

ونظرا لان انجلترا كانت مصنع العالم وسوقا من أكبر أسواقه ، وخصوصا فى تجارة الترانسيت ، فقد كان من الطبيعى أن تصبح عاصمتها مركزا هاما لتمويل التجارة الدولية. وساعد على ذلك ان انجلترا كانت أولى الدول التى اتخذت الذهب أساسا للعملة ، ولذا اكتسب الاسترلينى شهرة عالمية واقترن اسمه بالذهب فى كل مكان ـ كما ان عددا من الدول كاستراليا والهند ودول اسكندناوة ، التى تربطها بانجلترا روابط اقتصادية وثيقة كانت تسير على سياسة نقدية ترمى الى تثبيت سعر عملتها على أساس الاسترلينى ، فكانت بنوكها المركزية تحتفظ بجانب من أموالها فى لندن وتتعهد بشراء وبيع الاسترلينى بسعر ثابت ، كما انها تستعمل سندات الخزينة البريطانية كضمان للعملة . والجنيه المصرى مرتبط بالاسترلينى منذ سنة ١٩١٦ حين تعذر استيراد الذهب وصرحت الحكومة للبنك الاهلى باستبدال الذهب بسندات الحكومة الانجليزية كضمان للنقد المصرى ، وبذا كسبت الحكومة فوائد سنوية على هذه السندات الا انها تحملت بعض الخسائر حين انخفض سعر الاسترلينى عقب خروج انجلترا عن عيار الذهب سنة ١٩٣١

بنك انجلترا

وبنك انجلترا الذى يشرف على النظام النقدى فى انجلترا بنك مركزى بمعنى الكلمة فهو بنك الدولة تودع فيه ايراد الضرائب ، وتعهد اليه بالاشراف على شئون الدين العام كدفع الكوبونات والاقساط السنوية واصدار السندات الجديدة ، كما انها تقترض منه أحيانا ـ وللبنك احتكار اصدار البنكنوت ، وتطلب اليه الحكومة الاحتفاظ باحتياطى من الذهب عن كل الاوراق المالية التى يصدرها باستثناء مبلغ معين تجوز تغطيته بسندات حكومية ـ وهو المسئول عن سلامة العملة من التقلبات الفجائية التى توقع الاقتصاد الاهلى فى أزمات عنيفة ، وتقضى على سمعة العملة فى البلاد الاجنبية . ولهذا الغرض كان البنك يراقب باهتمام حركة تصدير واستيراد الذهب ، وقت أن كانت انجلترا لا تزال تربط عملتها بالمعدن النفيس . ومنذ سنة ١٩٣١ ، حين تركت انجلترا عيار الذهب ، يقوم البنك بشراء الاسترلينى وبيعه رغبة منه فى منع التقلبات العنيفة التى قد تعترى سعره نتيجة للمضاربة أو لاقبال الاجانب على ايداع أموالهم فى انجلترا ثم سحبها بعد برهة ـ كما ان البنك على اتصال وثيق ببنك فرنسا وبالبنك المركزى الامريكى بقصد التعاون عند الملمات

وتحتفظ البنوك الانجليزية بجانب من ودائعها لدى البنك المركزى . ونظرا لانه يسهر على مصلحة الدولة ولا يهتم كثيرا باعتبارات الربح ، التى تلعب دورا هاما فى

المشروعات الرأسمالية ، فهو يحتفظ بمقدار كبير من الذهب والاوراق المالية والبنكنوت لكي يستطيع مساعدة البنوك التي ترتبك أو ينضب معين مواردها عند حلول الازمات ـ ويقدم البنك نصائح من وقت لآخر للمشرفين على السوق المالية بقصر التوسع في سياسة الاقراض أو تضييقها حسب الظروف ، أو لمنع الاقراض للدول التي لاتنتمي للامبراطورية اذا ما أحس بخطر يهدد مركز العملة • فاذا ما رأى ان حالة الرواج الاقتصادي قد بلغت حدا خطيرا ، عمد الى رفع سعر الاقراض وتتبعه البنوك الاخرى لانها تحدد سعر الاقراض على أساس ما يتقاضاه البنك المركزي • وهذه السياسة تؤدي الى منع الرواج من أن يتخذ شكلا خطيرا بسبب الاقبال على المضاربة ـ وبمقارنة بنك انجلترا ببنك فرنسا تظهر فائدة التعاون الوثيق بين البنك المركزي وبنوك الودائع • ففي فرنسا يقوم البنك المركزي بأعمال البنوك كافة ، وذلك يمنع التعاون الوثيق بينه وبين البنوك الاخرى التي تحجم عن ايداع مبالغ طائلة ، خوفا من أن يستغلها لحسابه الخاص ـ كما ان البنك المركزي قد يسرف في الاقراض وخصم الاوراق التجارية في وقت الرواج ، حتى اذا وقعت الكارثة المالية لم يكن في مقدوره مد يد المساعدة للبنوك العادية ، كما ان اضطراب مالية الحكومة الفرنسية أوقع بنك فرنسا في أزمات عديدة

وليس للاهواء السياسية دخل في تعيين محافظ البنك ومديريه • ولا يخفى ما لمنع استخدام السياسة المالية لخدمة مصالح الاحزاب من أثر حسن ، ففي بعض البلاد التي تتدخل فيها الحكومة في سياسة البنك المركزي تدخلا محسوسا نجد انها قد ترغم البنك على اقراضها مبالغ طائلة قد لا يكون في وسعه تقديمها في الحال ـ أو قد تغري البنك على زيادة المصدر من البنكنوت مما قد يؤدي الى ارتفاع الاسعار وهبوط قيمة العملة في الداخل والخارج

وفي لندن خمسة مصارف كبرى تملك آلافا من الفروع في الداخل والخارج ، وقد بلغ رأسمالها واحتياطيها سنة ١٩٣٤ ١١٥ مليونا من الجنيهات ، وقيمة الودائع ١٨٠٠ مليون جنيه • وهذه البنوك الضخمة نتيجة لانضمام المئات من البنوك الاقليمية الصغيرة مع بنوك لندن ، اذ ثبت ان الوحدات الانتاجية الكبرى التي ظهرت في القرن التاسع عشر كانت تحتاج الى قروض كبيرة لا تتمكن البنوك الصغيرة من تقديمها • وهذه البنوك لا تخضع لاية رقابة حكومية ، كما هو الحال في بعض الدول التي يحدد القانون فيها نسبة معينة بين الارصدة النقدية وما في حكمها وبين الودائع ويلزم البنوك بحفظ رصيد كبير لدى البنك المركزي كاحتياطي للطوارىء • بل جرى العرف في انجلترا على ان تكون النسبة ١ : ١٠ ، وقد ثبتت كفايتها نظرا لشيوع عادة استعمال الشيكات ، ولان الجمهور بطيء التأثر بالاشاعات الصحيحة أو الوهمية فلا يهرع لسحب ودائعه من البنوك كلما تلبد الجو السياسي الداخلي او العالمي

سياسة البنوك الانجليزية فى القروض

ومعظم القروض التى تمنحها البنوك الكبرى قصيرة الاجل وتستعمل فى تمويل التجارة الداخلية والخارجية ، وفى تزويد الصناعة بجانب من الاموال التى تلزمها لشراء المواد الخام ودفع الاجور والمهايا • وتستثمر البنوك جانبا من ودائعها فى اقراض بنوك الخصم التى تتجر فى الاوراق التجارية قروضا قصيرة المدى • وهى لا تشجع المضاربين فى البورصة بمنحهم قروضا كبيرة كما هو الحال فى بنوك نيويورك التى عانت كثيرا من جراء تلك السياسة بسبب تدهور اسعار القراطيس المالية ، مما يضعف مركز المضاربين ويضيع على البنوك جانبا من أموالها — وتعلل المصارف الانجليزية سياستها بأن الجانب الاكبر من ودائعها يتخذ شكل الحساب الجارى ، وللمودعين الحق فى سحبها عند الطلب،ولذا تستهدف البنوك لاخطار عديدة اذا ما اقرضت رجال الاعمال سلفيات طويلة المدى تستثمر فى انشاء المصانع الجديدة أو فى توسيع المصانع الحالية كما هو العرف السائد فى ألمانيا وفرنسا حيث تقوم بنوك الاعمال بالاكتتاب فى اسهم الشركات الصناعية وسنداتها ، بل وتشترك أحيانا فى الادارة • وقد ظهرت أفضلية الطريقة الانجليزية سنة ١٩٣١ حين أفلس عدد من البنوك الالمانية التى كانت على ارتباط وثيق بالشركات عندما فوجئت باقبال الجمهور على سحب ودائعه ، فى حين ان جانبا كبيرا من هذه الودائع كان مستثمرا فى الشركات الصناعية الكبرى وكان من العسير بيع السندات التى فى حوزة البنوك بسبب تدهور الاسعار واعراض الجمهور عن الشراء — الا انه فى السنين الاخيرة حادت البنوك قليلا عن خطتها السابقة بسبب حاجة الصناعات الانجليزية القديمة ، كالقطن وبناء السفن والصناعات المعدنية ، الى مبالغ طائلة لتنظيمها وتزويدها بأحدث الآلات حتى تستطيع منافسة المصانع الالمانية والامريكية

بيوت القبول وبنوك الخصم

ومن أهم البيوت المالية فى « الستى » وأكثرها اتصالا بالعالم الخارجى ، هى تلك التى تقوم بتمويل التجارة الخارجية ، وتسمى بيوت القبول وبنوك الخصم • فالاولى تبحث الكمبيالات المقدمة لها من العملاء فى الداخل والخارج حتى اذا ما اقتنعت بسلامة مركز الساحب والمجيلين وضعت امضاءها عليها — وهذا الضمان يزيد من قيمة الكمبيالة فى التداول ، ويسمح لبنوك الخصم بشرائها فى مقابل عمولة صغيرة • وتتوسط هذه البنوك أيضا فى المبادلات التجارية الخارجية التى ليس لانجلترا بها صلة مباشرة • فلنفرض ان تاجرا فى اليابان اشترى مقدارا من القطن المصرى ، فانه يذهب لمصرفه ويطلب اليه الاتصال بأحد بيوت القبول فى لندن — وليكن « هامبرو » — لفتح اعتماد بالاسترلينى لحساب المصدر المصرى ، واذا ما وافق هامبرو فانه يطلب الى عميله بالاسكندرية — وليكن باركليز بنك

دفع قيمة الكمبيالة التى يسحبها المصدر المصرى بقيمة القطن مقابل استلام بوالس الشحن والتأمين • وبعد ذلك يرسل بنك باركليز مستندات الشحن الى البنك اليابانى ويرسل الكمبيالة الى بنك هامبرو للقبول • وبعد ذلك تباع الكمبيالة لاحد بيوت الخصم وعند الاستحقاق يرسل البنك اليابانى قيمة الكمبيالة الى هامبرو الذى يدفعها عند تقديمها اليه

وتقوم بيوت القبول المشهورة ، مثل روتشيلد وبارنج وهامبرو واوبنهيم وجوشن ، باصدار سندات الحكومات والشركات الاجنبية فى سوق لندن ، وقد لعب بعضها دورا هاما فى التاريخ السياسى والاقتصادى للقرن التاسع عشر

فمثلا تقدر قيمة القروض التى عقدها بيت روتشيلد حتى أول القرن الحالى بما يربو على ١٢٥٠ مليون جنيه ، نذكر منها العملية التى بمقتضاها تمكن دزرائيلى من ابتياع حصة مصر فى قناة السويس ، كما ان الحكومة المصرية اقترضت من معظم هذه البنوك مبالغ طائلة كان عجزها عن دفع الفوائد عليها سببا فى بسط المراقبة الثنائية على المالية المصرية

***

فى السنين الاخيرة كان مستقبل « الستى » مدار البحث المستمر فى انجلترا ، وخصوصا فى دوائر أحزاب اليسار ، فيدعى الاشتراكيون ان فشلهم فى تنفيذ سياستهم الاقتصادية والاجتماعية عندما تولوا مقاليد الحكم راجع الى أن رجال المال كانوا يضعون العراقيل فى سبيلهم ويثيرون الشكوك فى نواياهم ، وهم يقترحون تملك الحكومة للبنك المركزى وفرض رقابة شاملة على سوق النقد المحلى والعالمى وعلى المعاملات الخارجية حتى يمكن ازالة أسباب الازمات الدورية ، غير أن الدوائر المالية ومعظم رجال الاقتصاد رفضوا قبول هذه الاقتراحات مفضلين ترك السوق حرة مع اتخاذ التدابير اللازمة لزيادة التعاون بين البنك المركزى ووزارة المالية لتشجيع الاستثمار فى وقت الكساد بقصد تخفيف مشكلة العطل

على الجريتلى



المكتشفون الأثريون الأنجليز في مصر

بقلم الاستاذ محرم كمال

مفتش آثار منطقة المنيا

ظلت مصر فترة طويلة من الزمن مجالا واسعا وأرضا مباحة للباحثين عن الآثار .فمصر بحكم موقعها وتاريخها كانت صاحبة أكبر حضارة قديمة ظهرت فى حوض البحر الابيض المتوسط ، فكان من الطبيعى ان يكون لهذه الحضارة من الآثار القائمة والمستورة مايدهش كل من زار مصر فى عهدها القديم والحديث . حتى عندما بدأت حضارة اليونان فى الظهور فان كثيرين من فلاسفة اليونان وغيرها من الامم المتحضرة التى ظهرت بعد ذلك قد وفدوا على مصر وتتلمذوا فى جامعاتها ودرسوا علومها وفنونها ثم نقلوها بعد ذلك الى بلادهم . ومن ثم انتشرت فى انحاء العالم أخبار عديدة عما فى مصر من روائع الآثار ، فهيرودوت المؤرخ اليونانى القديم الذى زار مصر حوالى عام ٤٥٠ ق . م وغيره ممن جاءوا بعده من المؤرخين والزائرين حاروا فى أمرهم : أيعجبون من الاهرام وجلالها ، أو من المعابد الفخمة ذات الابهاء المتلألئة بما على جدرانها من ألوان زاهية ، أو من المقابر وقد حوت سجلا فخما من الصور التى تبين أدق التفاصيل عن حياة المصريين القدماء وصناعاتهم ومدافق حضارتهم أو من تلك التماثيل العظيمة التى تمثل ملوكهم وآلهتهم ومشاهير رجالاتهم ، تتفق فى عظمتها مع عظمة تلك الحضارة الزاهية . فلا عجب اذن اذا كانت روائع الفن التى انتشر خبرها فى جميع أرجاء العالم من قديم وحديث قد اجتذبت سيلا لا ينقطع وروده من الرجال يفدون على مصر يضربون فى أرجائها باحثين منقبين علهم يجدون فى أرضها من النفائس ما يملأون به وطابهم ويعد لهم ثروة ومورد رزق لاينضبان

هكذا كانت الحال قبل انشاء مصلحة الآثار المصرية ، يفد على مصر كل من هب ودب فيبحث فى أرضها ويستخرج منها ما شاء وشاء له جلده وصبره فى العمل ، ويعود بما عثر عليه الى بلاده فيتصرف فيه كيف شاء وشاء له ضميره

هذه الفترة من تاريخ التنقيب عن الآثار يصح ان نطلق عليها اسم الفترة الحرة الطليقة التى لم يكن فيها رابط لا من القانون ولا من نظام البلاد

وقد تلت هذه الفترة فترة أخرى عمل فيها بعض المنقبين على أساس علمي ، دون أن يكونوا مقيدين من قبل الدولة بقيود منظمة معينة • وهذه الفترة وما يليها هي التي تهمنا وهي التي نقصر البحث فيها عن نصيب المكتشفين الانكليز منها

الأستاذ فلندرز بترى

ولعل أكبر شخصية تبرز لنا واضحة ظاهرة في هذا العصر هي شخصية العالم الانكليزى المعروف الاستاذ فلندرز بترى Flinders Petrie استاذ علم الآثار المصرية بجامعة لندن والمكتشف الاثرى الطائر الصيت

فهذا الرجل قد وفد على مصر وظل ينقب فيها بهمة لا تعرف الكلل أكسبته خبرة في عمله قدرها جميع الذين عملوا معه وشاركوه في حفائرهم ، وان الانسان ليعجب كيف أمكن هذا الرجل في حياة محدودة بالسنوات لا بالاجيال ولا بالقرون أن يقوم بكل هذا العمل الضخم الذى قام به ، وكيف عاونه صبره وجلده على احتمال اعباء هذا العمل المضنى في صحراء مصر وجبالها ومناطقها الاثرية دون أن يعتريه الملل أو يقف بهمته عائق أو حائل

واذا نحن تكلمنا بصفة عامة فاننا نستطيع ان نقول ان هذا العالم بدأ حياة التنقيب عن الآثار حوالى عام ١٨٨٠ • فادار حفائر ناجحة في تانيس (وهى المنطقة التى يقوم بالحفر فيها الآن العالم الفرنسى مونتيه حيث عثر فيها في العام الماضى على آثار رائعة للملك ششنق وبسوسنس وغيرهما من الملوك) أظهر عنها مؤلفا من جزأين (في عامى ١٨٨٥ و١٨٨٨) وكذلك في نقراطس ومؤلفه عنها معروف (عام ١٨٨٦) • أما في الفيوم فان نطاق أعماله قد اتسع في منطقة شملت هواره واللاهون وكوم غراب وبيهمو وأرسنوى (ومكان الاخيرة الآن كيمان فارس) ، ونشر عن حفائره تلك ثلاثة مؤلفات قيمة أولها عنوانه هواره وبياهمو وأرسنوى عام ١٨٨٩ ، وثانيهما اللاهون وكاهون وغراب (وهى الحفائر التى قام بها في عامى ١٨٨٩ و١٨٩٠) ، وثالثهما كاهون (١) وغراب وهوارة وقد ظهر هذا المؤلف الاخير عام ١٨٩٠ • أما في عام ١٨٩١ فقد أظهر هذا العالم مؤلفا آخر عن الحفائر التى قام بها في تل الحيسى (لاشيسن) • وأعقب ذلك بحفائر ناجحة في ميدوم أظهر عنها مؤلفا قيما في عام ١٨٩٢ • ثم استمر نشاطه يزيد ويقوى فانتقل الى تل العمارنة ، وأخذ ينقب في هذه المنطقة الغنية بآثار الملك الشاب أخناتون • وأخناتون على ما يعلم الجميع هو الملك المجدد الذى اكتسب بثورته الدينية ومذهبه الجديد شهرة ذائعة

---

(١) كاهون هو الاسم الذى اطلقه السير بترى على آثار مدينة قديمة تقع على مسافة ميل وربع تقريبا شمالى هرم اللاهون واسم المدينة القديم هو حتب سنوسرت لان الملك سنوسرت الثانى (الاسرة الثانية عشرة) هو الذى انشأها • وقد عثر فيها بترى عام ١٨٨٩ على أدوات وأوان منزلية بين خرائب منازلها ودورها

وأهمية خاصة • فهذا الملك كان يبشر بالسلام وبدين جديد هو عبادة قرص الشمس (أتون) • وهذا الدين لم يرض كهنة أمون فى طيبة (مقر الملك) بطبيعة الحال ، لان فى انتشاره هدما لسلطتهم وسلطة آلههم آمون العظيم ، فأخذوا يضعون العراقيل أمام الملك حتى اضطروه الى أن يهجر العاصمة طيبة (الاقصر الحالية) ويؤسس عاصمة جديدة لملكه هى تل العمارنة التى كانت تمتد على شاطىء النيل وبنى لنفسه فيها معابد لقرص الشمس وقصورا ملكية له ولاتباعه ودارا للمحفوظات وجامعة وثكنات للبوليس والحرس ومقابر فخمة منقورة فى الجبل الى غير ذلك مما تستلزمه عاصمة جديدة عظيمة الشأن

ومن هذا ندرك مقدار أهمية منطقة تل العمارنة التى اتجهت انظار عالمنا الاثرى الانكليزى فلندرز بترى الى التنقيب فى أرجائها • ومن حسن الحظ ان حفائره قد أتت بنتائج باهرة دعته لان ينشر مؤلفا علميا جليل الشأن عنها عنوانه « تل العمارنة » وذلك فى عام ١٨٩٤

وكما يقولون فى الامثال انه ليس أجلب للنجاح من النجاح فان هذه الاعمال الموفقة كانت دائما تحفز همته لعمل جديد ، فانتقل الى قفط وأخذ يعمل وينقب وتوصل الى نتائج هامة دون تفصيلاتها فى مؤلف له عنوانه « كبتوس » ظهر عام ١٨٩٦ • ولا يفوتنا فى هذا المقام ان نذكر حفائره الناجحة فى دشاشة والبهنسا وما أظهره عنهما من مؤلفات أولهما « كتالوج الآثار المستخرجة من دشاشة والبهنسا والكاب » الذى ظهر عام ١٨٩٧• و « دشاشة » الذى ظهر عام ١٨٩٨ • ولم تكن هذه الحفائر كلها لتشبع نهمه أو تحد من نشاطه ، فقد اجتذبته دندرة الى ناحيتها فذهب اليها عام ١٨٩٨ وأعمل فيها معاوله وظل يبحث وينقب حتى امتلأ وطابه بالاسانيد والنفائس الكافية لنشر مؤلف عنها من جزأين عنوانه « دندرة » ظهر عام ١٩٠٠ • على ان الحفائر التى يعرفها كل مبتدىء فى الآثار المصرية عن هذا العالم هى الحفائر التى قام بها فى ابيدوس (العرابة المدفونة) ووجد فيها كمية من الفخار نظمها وبوبها ورتبها فى درجات أتخذت اساسا لنظام تتابع التواريخ • وهو نظام معترف به الى الآن • ولا يزال مؤلفه المشهور عن حفائره بابيدوس الذى ظهر فى عامى ١٩٠٢ و١٩٠٣ عمدة لعلماء الآثار وعلى الاخص فيما يختص بالاوانى الفخارية وترتيبها • ولم يقتصر نشاط هذا العالم الانكليزى على هذه المناطق ـ على كثرتها ـ وانما تعداه الى مناطق أخرى نذكر منها اهناسية التى قام بحفائره فيها عام ١٩٠٤ واخرج مؤلفا عنها فى عام ١٩٠٥ ، ثم شبه جزيرة سيناء التى قام بابحاثه فيها ونشر مؤلفا عنها عنوانه « ابحاث بشبه جزيرة سيناء » عام ١٩٠٦ ، ثم الجيزة ومؤلفه عنها معروف ظهر عام ١٩٠٧ ، ثم تل أتريب الذى قام فيه بحفائر نشر عنها مؤلفا عام ١٩٠٨ ، ثم منفيس ومؤلفه عنها ظهر عام ١٩٠٩، ثم حفائره التى أجراها فى جهة طوخان بمديرية الجيزة عام ١٩١٣ ومؤلفه عنها معروف

تلامذة بترى

ومما يجدر ذكره ان معظم العلماء والمنقبين الاثريين الانكليز الذين اشتغلوا فى مصر بعد ذلك قد تتلمذوا على الاستاذ فلندرز بترى فترة من الزمن واشتركوا معه فى حفائره اشتراكا فعليا اكسبتهم خبرة ومرانا فى حياتهم الاثرية. فالعالم الانكليزى كويبل « Quibell » اشترك معه فى حفائره بنقادة وبلاص وأظهرا معا مؤلفا عنها سنة ١٨٩٥ ، وكذا ماكاى « Mackay » اشترك مع الاستاذ بترى فى حفائره بعين شمس وغيرها وأظهرا معا مؤلفا بنتائج الحفائر عنوانه « هليوبوليس وكفر عمار والشرفا » ظهر عام ١٩١٥ . وكذا العالم وانريت « Wainwright » الذى اشتغل زمنا كبيرا لمفتشى آثار مصر الوسطى عمل زمنا مع الاستاذ بترى فى حفائره بميدوم ومنفيس وأظهرا مؤلفا اشترك فيه ماكاى أيضا عنوانه « ميدوم ومنفيس » ظهر عام ١٩١٠ . أما المستر برنتون الذى يعمل الآن أمينا بالمتحف المصرى فقد عمل تحت ادارة الاستاذ بترى فى حفائر بسدمنت أظهرا عنها مؤلفا من جزأين عام ١٩٢٤ . وكذا فى حفائر باللاهون أظهرا عنها مؤلفا اشتركت فيه السيدة مرجريت مرى العالمة الانكليزية وعنوانه « اللاهون » (الجزء الثانى) ظهر عام ١٩٢٣ . ولا ننسى أيضا فضل الاستاذ بترى على العالم الانكليزى انجلباك كبير امناء المتحف المصرى الآن ، فقد اشتغل هذا معه فترة كبيرة فى الفيوم وغيرها من الجهات كانت اساس خبرته فى الآثار

فى غضون هذه الفترة الثانية أخذ المصريون يتنبهون الى انهم ملاك للارض التى يحفر فيها هؤلاء العلماء ، وأن هذه الآثار هى آثارهم وان لهم عليها وعلى المنقبين حقوقا طبيعية شرعية يجب أن تحدد وتوضع لها روابط وقواعد ثابتة ، فصدر قانون الآثار عام ١٩١٢ وهو المعروف بالقانون رقم ١٤ الخاص بالآثار وصدر بعده قرار من (نظارة) الاشغال العمومية بتاريخ ٨ ديسمبر سنة ١٩١٢ رقم ٥٢ يختص بأعمال الحفر للبحث عن الآثار التاريخية ، بين كلاهما هذه الحدود على قدر المستطاع فصار يعطى ترخيص الحفر بموافقة لجنة الآثار العليا للعلماء أو لمن توصى بهم الحكومات والجامعات أو المجامع العلمية أو جمعيات معارف رسمية أو لافراد من الثراة بشرط ان يعتمدوا فى ادارة العمل على عالم أو علماء مشهورين لهم الخبرة الاثرية المطلوبة . ثم صارت عقود الامتياز تنص على أن المكتشف ملزم بتسجيل نتائج حفائره واظهار مؤلف علمى عنها وان من حق مصلحة الآثار أن تشرف على الحفائر وان ما يعثر عليه يكون من نصيب الدولة المصرية أصلا على أن تقتسم الحكومة معه ما يكون ثانوى الاهمية من الآثار

طبقا لهذه الشروط أخذت تسير الحفائر من هذا التاريخ ولكن لكى نحيط بقصة الحفائر ونصيب الانكليز منها يجدر بنا أن نرجع خطوة الى الوراء

كانت الحكومة المصرية وقد أصبح لها مصلحة للآثار قد احتفظت لنفسها بحق الحفر

فى مناطق معينة اختصت بها نفسها • ومن بين هذه المناطق منطقة وادى الملوك بطيبة (الاقصر) • وقد قامت المصلحة بالفعل بحفائر فى السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر أدت الى اكتشاف مقابر الملوك تحتمس الاول وتحتمس الثالث وامحتب الثانى وغيرهم

الأستاذ هوارد كارتر ومستر تيودور ديفز

وشاء المصادفة أن يقوم ثرى عجوز يدعى مستر تيودوز ديفس Theodore Davis برحلة فى النيل وأن يعجب بجو الوجه القبلى اعجابا شديدا دعاه لان يشترى (ذهبية) قرر أن يقضى فيها شتاء كل عام الى جوار طيبة (الاقصر) • وتشاء المصادفة نفسها أن تكون اعتمادات مصلحة الآثار فى هذه السنة (١٩٠٣) قليلة لا تقوى على الحفر ونفقاته فعرض هذا الثرى على المصلحة أن يعطى مبلغا من المال لمستر هوارد كارتر (الاثرى المعروف الذى اكتشف فيما بعد مقبرة الملك توت عنخ آمون) وقد كان كبيرا لمفتشى الآثار فى هذا الوقت ، لكى يقوم باستئناف الحفائر فى وادى الملوك • وغنى عن البيان ان المصلحة قد رحبت بهذه الهبة على أساس أن يعتبر المستر دافيز نفسه كممول يقوم بالصرف على الحفائر بدلا من المتحف المصرى دون أن يعطيه هذا الاعتبار أية حقوق بامتياز ما

بدأت الحفائر اذن عام ١٩٠٢ ولم يأت عام ١٩٠٣ الا وكانت مقبرة الملك تحتمس الرابع قد اكتشفت وفى السنة نفسها اكتشف المستر كارتر مقبرة الملكة حتشبسوت وتولى الصرف فى كل هذا مستر دافيز الذى أصبح ممولا للحفائر التى تقوم بها الحكومة فى هذه المنطقة التى اختصت نفسها بها فى الاصل

وفى عام ١٩٠٤ حل العالم الانكليزى مستر كوبيل « Quibell » مكان كارتر كبيرا لمفتشى الآثار بالاقصر واستأنف الحفائر بالشروط عينها وفى السنة التالية (١٩٠٥) عين ويجال « Weigall » كبيرا للمفتشين فاشترك مع كوبيل فى الحفائر فاكتشفا معا مقبرة يويا وتويا والدى الملكة تى • وفى نهاية هذا الموسم غادر كوبيل الاقصر ، وفى الموسم التالى لم يستطع ويجال الذى كان مثقلا بأعباء وظيفته الرسمية الاستمرار فى الحفائر فاتفقت مصلحة الآثار مع مستر دافيز الذى يمول الحفائر على أن يختار مستر ارتون « Ayrton » واستمرت الحفائر فى السنوات التالية فاكتشفت مقبرة الملكة تى والملك أخناتون وحرمحب وسيتاح وغيرهم • وكان العمل يدور تحت اشراف كبير مفتشى مصلحة الآثار بالاقصر وما يعثر عليه كانت تتولى الحكومة نفقات نقله وشحنه وارساله الى المتحف المصرى بالقاهرة اذ كان واجب مستر دافيز يقف عند حد الصرف على الحفائر نفسها ، أى على العمال الذين يقومون بالحفر وما يلزمهم من أدوات

ومما تجدر الاشارة اليه ان مستر دافيز لم يكن يعتبر نفسه فى وقت ما محسنا يتصدق بأمواله على عمل ما • وانما كان الامر لا يتعدى الرغبة منه فى وضع مبلغ من المال —

كانت الحكومة ولا شك تستطيع أن تدبره بنفسها لاجراء حفائرها - وتخصيصه سنويا لهذه الحفائر فى مقابل ما يستمتع به من لذة ومفاجأة وأمل فى العثور على كشف جديد • ولم يكن مستر دافيز هو الثرى الوحيد الذى اجتذبته هذه الطريقة الرائعة لتمضية الوقت فى فصل الشتاء • فان الاقصر بحكم موقعها كانت مشتى بديعا يجتمع فيه الزوار والسائحون حيث يعيشون حياة ناعمة مترفة فى فنادق فخمة أو فى (ذهبيات) أو بواخر فاخرة ، وفى هذا الجو الوديع لم يكن هنالك ما هو أروع لقضاء الوقت من اجراء حفائر يقوم بالعمل الفعلى فيها أشخاص آخرون • فكان كل ما يلزم الثرى أن يستأجر عالما أثريا يقوم بالعمل الفنى وعددا من العمال يعملون فى الحفر ، وكل هذا لا يكلف الثرى سوى بضع مئات من الجنيهات • وفى مقابل هذا يجد الثرى لنفسه هدفا معينا يذهب اليه كل يوم فى نزهة لطيفة ويجد مجالا لاكلة شهية يأكلها فى نزهته هذه وسط حفائره ويستمتع فوق هذا وذاك بالامل الواسع يسبح فى وديانه وبخيالات فيما ينتظره من النفائس التى ستكشف عنها الحفائر تتراءى له فى أحلامه

وهكذا كان اللورد نورثمبتون « Lord Northampton » يحفر فى جزء آخر من جبانة طيبة (الاقصر) وكانت اللادى ويلم سيسل « Lady William Cecil » تستمتع بقضاء شتاء بديع على هذا الشكل بين مقابر اسوان ، كما كانت السيدتان مس بنسون ومس جورلى تكشفان عن جزء من معبد موت بالكرنك ، كل واحد من هؤلاء مستعينا بعالم أثرى يقوم بادارة الاعمال بطبيعة الحال

اللورد كارنارفون والأستاذ كارتر

وبهذه الطريقة عينها ابتدأ اللورد كارنارفون « Lord Carnarvon » حياته كحفار ، فقد اجتذبه جو الاقصر البديع ورغبته الملحة فى ايجاد عمل يقضى فيه وقته ، فاتفق مع المستر كارتر ، الذى كان قد استقال من خدمة الحكومة المصرية على العمل وابتدأ حفائرهما فى جهات عديدة من جبانة طيبة وكانت الجهات التى اختارها اللورد لحفائره غير داخلة فى المناطق التى حجزتها الحكومة لنفسها ولذلك سمح له بأخذ نصف الآثار التى يكتشفها، على حين ان مستر دافيز الذى كان يعمل فى وادى الملوك لم يستطع أن يأخذ شيئا مما يكتشفه • وبفضل ما خص اللورد كارنارفون من نصيبه فى الحفائر كون مجموعة قيمة عرفت باسمه ليس هنا مقام التحدث عنها

وفى أواخر عام ١٩١٢ مات مستر دافيز فانتهز كارتر الفرصة ورجا اللورد كارنارفون أن يتفق مع الحكومة على منحه ترخيصا بالحفر فى المنطقة التى كان يحفر فيها دافيز أى فى وادى الملوك • وقد تمكن اللورد من الحصول على هذا الترخيص واستئناف أعمال المرحوم دافيز ولم يمض وقت طويل على هذا حتى قامت الحرب الكبرى فاضطر اللورد ومدير أعماله الفنى كارتر الى وقف الاعمال حتى انتهاء الحرب

وفي أواخر عام ١٩١٨ استأنفا الحفر فى هذه المنطقة وظل العمل يجرى عاما بعد عام ، وموسما يليه موسم حتى أشرفا على عام ١٩٢٢ دون أن يتوصلا الى نتيجة ما حتى فكر الاثنان في ترك العمل أو البحث عن منطقة أخرى يكون العمل فيها أجدى وأكثر نفعا

ولكن المصادفة وحدها يحدوها الحظ الحسن دعت أحدهما (كارتر) الى أن يحفر في منطقة تقع بجوار مقبرة رمسيس السادس كانت مشغولة فى هذا الوقت بمبان هشة للعمال القدماء ... كانت محض فكرة طارئة يريح كارتر بها ضميره قبل أن يطلق العمل في هذه الجهة التى لم تورثه حتى هذا الوقت الا التعب والجهد والالم

ولكن يا للحظ السعيد ويا للتوفيق الباهر اذ لم يكد كارتر فى هذا اليوم التاريخى يقترب من العمال حتى سمع بينهم هرجا ومرجا ، فأخذ يهرول فى سيره حتى شارفهم فاذا هم فى فرح ومرح شديدين ، واذا هم يعلنون اليه نبأ العثور على درجة منقوشة فى الصخر . فحصها كارتر فعلت وجهه موجة من الفرح وأمر عماله بالاستمرار فى العمل ولم يكتمل يوم ٤ نوفمبر سنة ١٩٢٢ حتى اكتحلت عيناه بمرأى سلم يحتوى على ست عشرة درجة ويليها باب مغلق عليه أختام فأبرق الى اللورد كارنارفون الذى كان بانكلترة فى هذا الوقت ينهى اليه الخبر السعيد الذى واتاه فرد عليه اللورد برقيا بأنه سيستقل أول باخرة يحضر بها الى مصر . فأوقف كارتر العمل وردم الحفرة حتى يحضر سيده فيتمتع بثمرة أعماله ، واكتفى كارتر بالاحلام تداعبه عن ماهية كشفه الجديد

حضر اللورد كارنارفون وفتح كارتر الحفرة ثانية وكشف عن الست عشرة درجة حتى وصل الى الباب المغلق فاذا به مختوم تعلوه أختام الجبانة الملكية (جبانة طيبة) وتحتها أختام تتضمن اسم الملك توت عنخ آمون

اذن فهم أمام كشف عظيم ، مقبرة ملكية كاملة بكل جلالها وابهتها وهنا لم يسعهما الا فتح الباب المغلق فاذا هما فى حجرة مستعرضة كدست بأثاث ومحتويات يأخذ بريقها بالابصار . كان كل ما فى الحجرة يتوهج تحت نور المصباح القوى ، فقد كان الأثاث مغطى بصفائح من الذهب الخالص تتألق تألق الشمس فى رابعة النهار

أصبح كارنارفون هو وكارتر بين عشية وضحاها من مشاهير الرجال ، وسارعت الشركات البرقية والسينمائية ومندوبو الصحف ومندوبو مجلات الازياء الى الأقصر لتقل أخبار الاكتشاف العظيم . ولا نرى داعيا للاستمرار فى سرد باقى القصة فهى لا تزال عالقة بأفكار القراء لحداثة عهدها وانما نكتفى بأن نقول ان هذا الاكتشاف قد وجه انظار العالم كله الى مصر وتوج أعمال كارنارفون وكارتر بما لا يستطيع انسان ان يطمح فى أكثر منه من مجد وشهرة . ولا شك فى أن هذا الاكتشاف كان ولم يزل أهم اكتشاف ظهر فى العهد الاخير

محرم كمال

الحق ما شهدت به الأعداء

الأنجليز

بقلم ادولف هتلر

ليس هذا مقالا عن الانجليز كتبه هتلر ولكنه مقتطفات من كتابه «ماين كامف» درس فيها دكتاتور المانيا اخلاق الانجليز وتقاليدهم ومكامن القوة فى الامبراطورية البريطانية دراسة استاذ وخبير . وسيرى القارىء بعد قراءة هذه المقتطفات ان هتلر لم يقع فى الغلطة التى وقع فيها زميله وحليفه موسولينى اذ زعم ان بريطانيا قد شاخت ونخر فى عظامها السوس ، بل عرف لها قدرها وشهد لها بالقوة والجدارة بالسيادة والبقاء ، واعتبرها اثمن حليف لالمانيا لولا ما بين الشعبين من تناحر يحتم بقاء واحد منهما وزوال الآخر

كل من يقرأ كتاب «ماين كامف» لهتلر يشهد له بالحرارة والاخلاص لافكاره ووطنيته ان لم يشهد له بالتعمق فى درس مختلف المسائل التى تعرض لها بالنقد أو التحليل

وهذه الحرارة ، وهذا الاخلاص الذى يكاد يجعل من الكتاب خطبة حماسية طويلة ، توافرت فيهما عناصر الصدق فى اظهار الشعور والتعبير عن كوامن النفس . لذلك جاءت اقواله فى الانجليز والامبراطورية البريطانية من اروع ما كتب عن هذا الشعب المجيد ، ومن ابرع الكتابات الدبلوماسية فى العصر الحديث

وهتلر كزعيم ــ والزعيم كما نعلم يستعين بالخيال كثيرا ليحقق به ما لا يمكن تحقيقه فى عالمنا الحقيقى ، يحلم بصداقة الانجليز ، وتأييد الانجليز ، واقتسام العالم معهم ، ويكاد يصرح بان ذلك هو الحل المعقول لمشكلة تعدد الشعوب وكثرة مناطق النفوذ

ثم هو ــ ككل زعيم يحب شعبه ــ يريد ان يعطى لابناء وطنه صورة حية لبريطانيا القوية الجبارة التى لا تقهر ، ليزيد الشعب فى استعداده ويضاعفه علما بانه امام خصم قوى عنيد

ولما كانت اقواله فى الانجليز موزعة على مختلف فصول كتابه الضخم ولا تجرى على نهج البحث المستقل المسلسل ، فقد آثرنا ان نعرضها كما هى ، مترجمين اقواله فى كل ناحية من نواحى عظمة الانجليز ترجمة حرفية دقيقة :

البرلمان الانجليزى

كنت دائما امقت البرلمان (يقصد البرلمان النمسوى) ولكنى لم امقت النظام البرلمانى

نفسه . فاني كرجل يسعى لتحقيق المثل الاعلى فى الحرية السياسية لا استطيع ان اتصور شكلا للحكومة غير الشكل البرلمانى . وقد ساعد على تكوين هذه العقيدة ما كنت استشعره من الاعجاب بالبرلمان الانجليزى . فلقد ملك على هذا الاعجاب نفسى قبل أن اتنبه لتأثيره من مطالعة الصحف وانا صغير . ثم لم أقدر على نبذ هذا الاعجاب بسرعة. ان الجلال الذى كان البرلمان الانجليزى ينجز به اعماله أثر فى تأثيرا عظيما ـ زادته العبارات الرنانة التى كانت الصحف النمسوية تعرض بها اعماله جلالا على جلاله . ولطالما كنت اسائل نفسى : هل فى نظم الحكم نظام أنبل من حكم الشعب ؟

محالفة الانجليز

ان اختيار شعب من الشعوب كحليف لا يتوقف على ما لديه من آكام العتاد والسلاح ، ولكن على حضور ما فى خلقه من ارادة بقاء الجنس والوطن ، والبسالة الخارقة التى تدفع الى الجهاد حتى النفس الاخير ، لان المحالفات لا تعقد مع الاسلحة ولكن تعقد مع الرجال لذلك يعد الشعب البريطانى احسن حليف لنا فى العالم طالما ظل على ما به من تماسك فى حكومته وشعبه . هذا التماسك الذى يمكنه من متابعة أى صراع يقدم عليه حتى النصر ، مهما يطل أمد هذا الصراع ومهما تكن تضحياته ووسائله ..

عدم فهم الانجليز دفع الالمان ثمنا غاليا

وقال بصدد اتجاه الامبراطورية الالمانية قبل الحرب العظمى الماضية الى التوسع عن طريق التجارة :

« لعل التشدق بسيادة العالم بالوسائل السلمية عن طريق التجارة كان فكرة تافهة رفعت الى المقام السامى فى سياسة الدولة الالمانية . وهذا التفكير التافه زادت بلاهته عندما اشار المفكرون الالمان الى انجلترا كمثال لامكان تطبيق هـذا المبدأ . ان نظرتنا الى التاريخ ومعلوماتنا العملية فى هذا الميدان التجارى الجديد قد اضرت بنا ضررا بليغا وقدمت لنا مثلا حيا لخطورة درس الناس للتاريخ دون فهمه

« ان انجلترا يجب ان تعد مثالا يثبت انه لا يمكن تحقيق سيادة العالم عن طريق التجارة والوسائل السلمية . فليس بين الشعوب شعب كالانجليز استعمل سيفه فى التمهيد لفتوحه التجارية . وليس بينها شعب دافع عن مجاله التجارى بمثل الشدة التى دافع بها الانجليز عن مجالهم التجارى . أفليس من خصائص الدولة البريطانية ان تستعمل القوة الحربية للكسب الاقتصادى ، ثم لتحيل هذا الكسب الى قوة سياسية دائمة ؟ واية غلطة فاحشة ارتكبناها عندما حسبنا ان انجلترا ستجبن عن سفك دمها ذودا عن توسعها الاقتصادى !

« ثم ان عدم وجود جيش انجليزى كبير لم يفدنا شيئا . فليس المعول على الكيان الحربى القائم فى التو والساعة ، ولكن على الارادة والتصميم على استعمال كل قوة حربية مواتية

« ثبت كل ذلك فى الوقت الذى كانت فيه المدارس والصحافة والمجلات الفكاهية فى المانيا تحملنا على تكوين فكرة عن الخلق الانجليزى افضت بنا آخر الامر الى اسوأ حالات الانخداع والتغرير بالنفس • وافضى هذا الحكم المعكوس شيئا فشيئا الى شبه عقيدة متأصلة في كل ركن من اركان الحياة الالمانية • وكانت النتيجة مبالغة فى الحط من قدر الانجليز دفعنا ثمنها غاليا جدا • أجل •• فقد بلغ التغرير بنا حدا اصبحنا معه ننظر الى الانجليزى كرجل اعمال عجيب الاطوار ، جبان لدرجة لا يتصورها أحد

« ومن سوء الحظ أن مؤرخينا العظام لم ينبئوا تلاميذهم بان بناء مثل هذه الامبراطورية الضخمة لا يتم بمجرد النصب والاحتيال •• والقليلون منهم الذين لفتوا الانظار الى هذه الحقيقة تجاهلناهم أو ألزمناهم الصمت ، وكم يؤلمنى ان استعيد ذكرى نظرات زملائى المحاربين عندما وقفوا وجها لوجه فى الفلاندر لاول مرة مع الجنود الاسكتلنديين •• لقد إذهلهم هذا المنظر •• وتبينوا بعد قتال بضعة ايام ان هؤلاء الجنود لا يشبهون اولئك الذين صورتهم المجلات الفكاهية فى لوحاتها الكاريكاتورية (١)

« ومن هذه اللحظة كونت فكرتى الاولى عن قيمة الدعاية فى مختلف اشكالها »

الامبراطورية البريطانية لاتنهار بسرعة

فى هذه الفقرة يعرض هتلر للرأى الذى أخذ يتكون بعد الحرب العظمى الاولى ومؤداه ان الشعوب التى يحكمها الانجليز والامم التى أخذت تناضل فى سبيل استقلالها قد شرعت تهدم كيان الامبراطورية البريطانية بثوراتها ونضالها :

« انى أذكر جيدا الآمال الصبيانية التى بدت فى الاوساط الالمانية الوطنية فجأة فى عامى ١٩٢٠ و١٩٢١ ، ومؤداها ان انجلترا توشك أن تتداعى على صخرة الهند • وقد برز جماعة من الوطنيين الاسيويين بين ظهرانينا ووصفوا انفسهم بانهم « ابطال الحرية الهندية » وشرعوا يجوبون اوربا للدعاية لانفسهم ، فنجحوا فى جعل فريق من مفكرى الغرب يؤمنون بأن الامبراطورية البريطانية التى يتركز محورها فى الهند ستنهار هناك • وما دروا أن رغباتهم وآمالهم هى التى ايقظت هذه الآمال • وما فكروا لحظة فى تفاهة ما كانوا يزعمون ، مع انهم ـ وهم الذين زعموا أن بريطانيا ستنهار فى الهند ـ يوقنون أن بريطانيا تعلق على الهند أكبر قسط من الاهمية • وفى ذلك دليل على انهم لم يتعلموا شيئا من الحرب العظمى ، ولا هم فهموا ولا أدركوا شيئا من تصميم الانجليز وقوة

(١) عرض ناشرو الطبعة الانجليزية لماين كامف التى نقلنا عنها هذه الفقرات طائفة من هذه اللوحات الكاريكاتورية • وتمثل احداها بعض الجنود الاسكتلنديين فى ثياب مهلهلة وقد برزت من خلالها اعضاؤهم كالعظام المتحجرة وظهر احدهم واقفا وكأنه يوشك ان ينهار •• وفى لوحة أخرى ترى ضابطين بريطانيين جالسين على مقعدين وثيرين فى حجرة استقبال فاخرة وقد لبسا ثيابا مختصرة ظاهرة التبرج وراح احدهما ينظر فى بلاهة الى دخان غليونه بينما انهمك الآخر فى شغل الابرة !

ارادتهم ، عندما تخيلوا ان انجلترا تفقد الهند قبل ان تضع فى ميزان الحرب آخر رطل من قواها

« ويدلنا ذلك أيضا على مبلغ جهل الالمان للروح التى يدير بها الانجليز امبراطوريتهم فان انجلترا لن تفقد الهند حتى تسمح بانفصال شعوبها بعضها عن بعض ـ الامر الذى لا دليل يقوم على وجوده الآن ـ أو حتى تنهزم هناك بسيف عدو قوى • اما الثورات الهندية فلن تضر الانجليز شيئا • وقد عركنا نحن الالمان الانجليز بما فيه الكفاية ، ومارسنا صعوبة ارغامهم على عمل شىء • وعلاوة على كل ذلك فانى انا ـ كألمانى ـ أوثر ان أرى الهند محكومة ببريطانيا على ان أراها ترسف تحت نير اية دولة أخرى »

قوة الامبراطورية البريطانية

وكان من رأى هتلر ان تقوم الامبراطورية الالمانية الناشئة على التوسع فى أوربا نفسها وعلى حساب الروسيا بدلا من محاولة الاستعمار فيما وراء البحار ، الامر الذى يوقظ عداوة الانجليز ويفضى الى القتال معهم • فضلا عما فى التوسع فيما وراء البحار من ضعف يدلل عليه بالفقرة التالية :

« ان معظم الدول الاوربية المعاصرة تشبه الاهرام المثبتة على رؤوسها • فمساحاتها فى أوربا فى منتهى الضآلة بالنسبة للثقل العظيم لمستعمراتها وتجارتها الخارجية • ويمكننا ان نقول بشىء من التشبيه أن رؤوس اهرامها فقط هى المثبتة فى أوربا ، بينما قواعد الاهرام تحيط بالعالم أجمع • فهى بذلك تختلف عن الولايات المتحدة الاميركية التى ثبتت قاعدتها فى القارة الاميركية نفسها وابرزت فى علاقاتها الخارجية مع بقية العالم رأس اهرامها فقط • ومن هنا ظهرت القوة الاميركية العظيمة الكامنة فيها ، وظهر الضعف والوهن على بقية الدول المستعمرة

« ولا تقوم الامبراطورية البريطانية دليلا على خطأ هذه النظرية • فنظرة واحدة الى الخارطة ترينا عالما انجلوسكسونيا لا حد له ، ومجتمعا متوحد اللغة والثقافة يشمل الولايات المتحدة الاميركية نفسها »

« كان يجب علينا شراء صداقة الانجليز بأى ثمن »

« فاذا كنا سنمتلك ارضا جديدة فى أوربا ، فقد وجب ان يكون ذلك على حساب الروسيا • وبذلك تسلك الامبراطورية الجرمانية الجديدة نفس الطريق التى سلكها من قبل فرسان التيوتون • وفى هذه المرة يكون الباعث على الزحف الجرمانى امتلاك ارض جديدة بالسيف الجرمانى ليشقها المحراث الجرمانى ، وبذلك نضمن للشعب خبزه اليومى

« ولتنفيذ هذه الخطة ما كان لنا الا حليف واحد فى اوربا ـ هو انجلترا

« وبمحالفة الانجليز وحدهم كنا نحمى ظهر هذه الحرب الصليبية الالمانية الجديدة التى

تبررها ظروفنا الحالية اكثر مما بررتها ظروف اجدادنا التيوتون • وما كان أحد من دعاة السلام فينا يرفض أكل الخبز الذى ينبت قمحه فى الشرق (شرق أوربا)• وكان يجب ان يعلموا ان المحراث الاول لحقول القمح الشرقية هو السيف !

« وكان يجب علينا ألا نعد أية تضحية - مهما عظمت - كثيرة على شراء صداقة الانجليز فالمطامع الاستعمارية والبحرية كلها كان يجب نبذها • كما كان يجب نبذ اية سياسة ترمى الى منافسة الانجليز فى مجالهم الصناعى الحيوى

« وكان فى استطاعتنا الوصول الى هذه الغاية برسم سياسة سليمة ومحدودة • ومثل هذه السياسة كانت تقضى بترك محاولة غزو الاسواق العالمية ونبذ كل محاولة للسيادة البحرية والاستعمار ، وتركيز الجهود كلها فى تكوين قوة برية عظيمة

« ومثل هذه السياسة معناها انكار الذات لمدة معينة ، فى سبيل الوصول الى هدف عظيم ومستقبل خطير

« ولقد مرت بنا سنين كانت انجلترا خلالها مستعدة لمفاوضتنا على اساس مثل هذه السياسة • فانجلترا كانت ستدرك ولا بد ان تدرك ان النمو المطرد فى عدد سكاننا يفرض على المانيا ان تفكر فى حل لهذه المشكلة ، اما فى أوربا نفسها بمساعدة الحكومة البريطانية، واما فى غير أوربا بدون هذه المساعدة

« وهذا كله يفسر تقرب انجلترا من المانيا فى أواخر القرن الماضى • ولكن ظهر فى المانيا اتجاه جديد افضى آخر الامر الى نهاية محزنة • فقد حسب الالمانيون اذ ذاك ان التقرب من الانجليز مضاد لخدمة اغراضهم الخفية • كأن المحالفات فوائد فقط وليست أخذا وعطاء وربحا وخسارة

« ودعنا نتصور اننا فى سنة ١٩٠٤ لعبنا نفس الدور الذى لعبته اليابان (يقصد الحرب اليابانية الروسية) فأية فائدة عظمى كنا نجنيها اذ ذاك !

« اننا بذلك كنا نتفادى الحرب العظمى • والدم الذى سنسفكه ما كان يبلغ عشر ما سفكناه بين عامى ١٩١٤ و١٩١٨ • واية مكانة عظمى كانت تصبح لالمانيا الآن ! »



"الانجليزى"

The Englishman

للسياسى الكبير ايرل بولدوين

الانجليزى ابن جزيرة - تقديسه الخلق والواجب - حبه للمصالحة والتسامح - أخذه بالتجارب دون النظريات - صفة الاعتدال فيه - الفردية والتعاون - الانجليزى والحرب

انه فى غفلة وغباء ، ولكنه ذو دهاء وتقدير . انه منافق مراء ، ولكنه أهل لكل ثقة وتصديق . انه فردى مسرف فى اعتزاله ، غير انه رجل تعاون واتحاد . انه غليظ القلب جاف الخلق ، ومع هذا فهو أرق الناس قلبا وأرهفهم شعورا . انه يكره الافكار ويعجز عن التفكير ، وفى الوقت نفسه أضاف شيئا عظيما الى فروع الثقافة جميعها

هذا هو الانجليزى الذى يصفه كثير من النقاد الانجليز والاجانب ، فهو مجموعة من النقائض التى أريد أن أنظمها معا فى وحدة متسقة الاجزاء

ابن جزيرة

مهما يكن شأن الانجليزى الحالى ، ومهما طالت عصور تطوره الماضى ، فما ينبغى ان ننسى انه يعيش فى جزيرة لم تر خلال تسعة قرون طوال أجنبيا يغزوها ، وانه لم يخض حربا تتيح لعدوه ان يجتاح وطنه ويهدم مدائنه . فاستطاع خلال هذه القرون ان يكون حياته السياسية غير متعجل أمرا ، غير متخلف تجاه عقبة دخيلة . واتيحت له فسحة من الوقت طويلة يجرب فيها ويحاول ، فيرفض ما يأباه ، ويقبل ما يرضاه . واتسع امامه المدى لاجراء ما يشاء من التجارب فيخطىء ويصيب ، ويضل ويهدى ، ويدخر فى اثناء ذلك كله رصيدا من التجارب السياسية ، ينفرد به دون الناس جميعا ، ويفيد منه فائدة يتعذر تقديرها

واذ يفكر الانجليزى فى نتيجة هذا العمل الذى نبت فى بطء ونما فى وناء ، كأنه شجرة من أشجار انجلترا الباسقة ، يرتاب وينصرف عن تلك المبادىء والاوضاع التى تبتكر دفعة واحدة أو التى تظهر فجأة فى الايام الراهنة ، برغم انها قد تكون ملائمة للعصر الحديث متفقة مع ظروفه القائمة

وهذا البحر الذى عاشت انجلترا وسطه آمنة من الغزو الاجنبى وما يعقبه من قدوم عناصر دخيلة ، أتاح لها فرصة فريدة لتكوين شعبها خلال الاجيال تكوينا موحد القوى مسبوك الاجزاء ، وأتاح لها أن تنجب من عناصر قليلة أصيلة هذا الانجليزى الصميم الذى يجرى فيه تيار من الدم متماثل العناصر . وأقام لها حاجزا منيعا وسط عالم تهدمت فيه السدود والاسوار منذ أن اجتاح البرابرة الامبراطورية الرومانية ، فهيأ هذا الحاجز للانجليزى أن يشعر بالامان والسلام هذا الشعور الذى ولد فيه شيئا من عوامل الرضا ومظاهر البهجة ، وأباح له أن يحس شيئا من السمو والتفوق على غيره من الشعوب التى لا يعصمها عاصم من عداتها الاشداء اذا هموا باجتياحها

الخلق والواجب

ما من تهمة ترمى على الانجليزى فى توكيد والحاح ، وما من تهمة تلقى من التصديق والموافقة ، وما من تهمة أكثر ذيوعا وأوسع انتشارا ... من تهمة النفاق !

وقبل أن أصدر حكما فى أمر هذه التهمة أحب أن أقول كلمة صريحة أحمى بها نفسى ممن يريد أن يهاجمنى ، وهى انى لا أريد بطريق مباشر أو غير مباشر أن أقول اننا خير من الشعوب الاخرى . فلسنا كذلك . ولكننا نختلف عن سائر الشعوب ، ولا نريد من الناس الا أن يفهموا ما بيننا وبينهم من الفوارق ، وأن يتيحوا لنا أن نختلف عنهم حين يدعو الامر الى شىء من الاختلاف ، ذلك ان هذه الصفات التى تميز الافراد والشعوب يجب أن يعترف بها ، ففى هذا الاعتراف سبب لتوثيق العلائق والتجاوز عن الهفوات

دعنا الآن ننظر فى عقل الانجليزى مهلا لنرى كيف يؤدى عمله وكيف يصرف أموره . وسنرى حينئذ انه اذا كان ثمة كلمتان يمكن أن تصور حياة الانجليزى تصويرا شاملا وافيا فهما : « الخلق والواجب » فمنذ أدرك الانجليزى انه يعتمد فى كل أمره على ارادة الخالق أدرك أهمية « الخلق » فى صلته بالله وصلته بالانسان ، ومن هنا نشأ احساسه « بالواجب » . واذا بلغ المرء هذه الدرجة من ادراك أهمية الخلق وقيمة الواجب ، فانه لا ينى يسائل نفسه ويمتحنها فى كل شأن تافه أو جليل : أهو يوائم الخلق ؟ أهو يتسق مع الواجب ؟ ولن يهدأ ولن يقر حتى يلقى جوابا عن هذه الاسئلة فيعرف أسائر هو فى طريق الحق والهدى أم فى طريق الباطل والضلال

هاتان الصفتان الاوليان فى الخلق الانجليزى ، الخلق والواجب ، نلمسهما فى كل فرد بقدر ما ، سواء فى ذلك ابن العامة وابن الخاصة ، وسواء فى ذلك الطبقة المثقفة المهذبة والطبقة التى كتب عنها « بنيان » قصته « رحلة الحاج » التى تعد فى انجلترا انجيلا ثانيا

فكل انجليزى يحاول أن يوفق بين الخلق والواجب ، فلا يستطيع أن يفكر فى أمر أو يقدم على عمل ، سواء أكان ذلك فى أمر خاص أو فى شأن من شئون وطنه أو فى مسألة تهم

العالم جميعا ، الا بعد أن يقتنع بأنها توائم الخلق من ناحية وان فيها أداء لواجب من ناحية أخرى . وليس التوفيق بين هذا وذاك هينا فى حياتنا الراهنة ، ولهذا فكثيرا ما يقلق ويضطرب ، كثيرا ما يحار ويتردد ، كثيرا ما يبدو عاجزا عن التفكير والاقدام ، فيخيل للعقل المنطقى ان أمره لا يعدو أحد اثنين : غباء مطلق أو دهاء خبيث . ولكنى أعتقد انه لا هذا ولا ذاك ، وانما الامر حيرة بين الخلق والواجب

فهذا النفاق الذى يلقى على الانجليزى جزافا ليس الا نتيجة لهذا الشعور المتأصل فيه بأن أسمى ما فى الحياة أداء الواجب اذا كان متفقا مع الخلق . والادب الانجليزى يتدفق فيه تيار واحد،ينبعث منه صوت واحد يسيطر عليه روح واحد،هو تقدير الخلق والواجب معا . اقرأ الآثار الادبية فى أية فترة من فترات التاريخ الانجليزى تجد الصوت الغالب فيما أنشأ الشعراء وقص الرواة وأبدع الكتاب ، صوت الخلق والواجب الذى يصيح فى أذن الانجليزى ان هذا هو ما فرض عليك عمله فيجب أن تؤديه ، وهذا هو الطريق الذى يقره الخلق فلاتحد عنه قليلا ولا كثيرا . قد يخفت هذا الصوت آنا فكأنه الهمس الخفيف، وقد يعلو هذا الصوت آنا فكأنه النداء المدوى،ولكنه موجود على كل حال يلفت الانجليزى الى حيث الخلق والواجب فيسعى اليهما معا ولو قاده الامر الى أبواب الجحيم !

المصالحة والتسامح

لنرجع الى أحداث التاريخ ، كما نرجع دائما الى عوامل البيئة ، حين ندرس ونفسر شعبا من الشعوب . فنجد فى انجلترا ان حربها الاهلية أقامت وأعقبت أحداثا خطيرة كان لها آثار كبرى فى الخلق الانجليزى . فمن هذه الاحداث قتل الملك بفأس فصلت الرأس من الجسد ، وعداء قاس وقتال عنيف بين المذاهب الدينية ، وقيام حكومة مطلقة السلطة وديكتاتور فى يده كل الامور ، ثم عودة الى النظام الملكى بعد أن أباح للشعب ما أراده من الحقوق

وفى وسط هذا الكفاح الدينى وهذا النضال السياسى نشأ الساسة الذين تقلدوا زمام انجلترا فى النصف الثانى من القرن السابع عشر ، فوجهوا جهودهم الى المحافظة على ما أفاد الشعب خلال هذه السنين الدامية ، والى الوقوف فى وجه الاسراف والمغالاة من قبل الشعب ومن قبل الملك على السواء . وبذلك هيأوا « تسوية » سياسية ودينية تضمن الامن والهدوء للشعب الذى حطمه النزاع ومزقته الحروب . وهكذا حملت مبادىء الحرية المتطرفة التى ثرنا وحاربنا فى سبيلها بذور المهادنة والمصالحة فى طياتها ، فتعلمنا من ذلك كيف نوفق بين النقيضين ، وكيف نجعل التسامح مبدأ نسير عليه فى كل أمورنا

وقد أدت الحرية التى أتيحت للانجليز فى تفسير عقائدهم الدينية واتخاذ ما يرضون من المذاهب ، الى انقسام كنيستهم ألفا من الاقسام . ولكن هذه الاقسام أخذت تتقارب وتتآلف معا على مر الايام ، ليحتفظ الشعب بوحدته وتأمن الدولة على سلامتها ، فزاد

هذا التقارب والتآلف فى روح المصالحة والتسامح الذى فطر عليه الانجليزى الصميم . ويقول فرنسى فكه ذكى ان لانجلترا مائة مذهب دينى ولها طبق واحد من الطعام . وهذا ان دل من ناحية على ان أجدادنا كانوا يعنون بأرواحهم أكثر مما يعنون بمآكلهم ، فانه يدل من ناحية أخرى على هذا التسامح الذى غدا فى الانجليزى طبعا أصيلا . ومن شأن التسامح أن يولد روح السخر اللاذع ومزاج الفكاهة البارعة ، ولكن من شأنه كذلك أن يدخر فى النفس قوة حادة مكبوتة تظهر وقت الشدة على أعنفها وأعتاها . فالانجليزى يبدو فى وقت الرخاء نائما حالما مستهترا ، ولكن اذا جد الجد تفجرت منه روح « المجاهد الدينى » سواء أكان ذلك فى أمر الدين أم السياسة أم الاصلاح ، وما من حركة من حركات الاصلاح فى انجلترا الا تمثل فيها هذا « الجهاد الدينى » الصادق العنيف

والفارق بين حياتنا الوادعة الاليفة وقت الرخاء ، وانفجارنا المفاجىء العنيف ساعة الشدة ، ظاهرة خلقية غريبة يحار الانجليزى نفسه فى تعليلها ، فما لنا لا نعذر الاجنبى الذى لا يستطيع أن يفهمها ، فيحيلها على انها لون من ألوان الدهاء والخديعة والنفاق ؟

النظريات والتجارب

ثمة تهمة أخرى تلقى علينا جزافا هى قلة الذكاء فيقال : نحن لا نستطيع أن نفكر ولا نستلذ العمل العقلى ، ومع هذا فانا نسير فى طريقنا غير آبهين لهذا النقص الكبير ، بل نحن راضون عن أنفسنا برغم ما بها من غفلة وغباء ...

ولكن أرد هذه التهمة قائلا اننا لو اقتصرنا على القرن الماضى وحده دون سائر قرون تاريخنا ، لوجدنا انجلترا غير متخلفة عن غيرها من الشعوب فى انجاب جماعات المفكرين العالميين فى شتى فروع الآداب والعلوم . وحسبى أن أستشهد بما أوتى الانجليزى من موهبة « الخيال الغنائى » التى أغنت الشعر الانجليزى بثروة كفيلة بأن تضعنا فى مقدمة العالم عمقا فى التفكير ونماء فى الخيال

فمن أين جاءت هذه التهمة ؟ أنظر قليلا الى تفكير الانجليزى العادى فى السياسة ، تجد انه لا يلذ له كثيرا أن يأخذ بالنظريات السياسية ، وانما يكتفى بسؤال واحد اذا عرضت عليه أية فكرة جديدة ، هو هذا السؤال الذى يلقيه عندما يجرب آلة جديدة فى مصنعه : أهى تعمل ؟ أهى تدور ؟ وانه ليستطيع بغريزته الغريبة التى أنمتها الاجيال الطوال أن يدرك ما اذا كانت هذه الفكرة السياسية تؤدى عملها أم لا . ومن هنا نستطيع أن نقول ان الانجليزى بوجه عام يائس من هذه المبادىء السياسية التى تصنع فى موسكو وبرلين وما اليهما ، لانه اذ يشعر فى دخيلة نفسه انها لا تقوم بالعمل الذى يريده فانه ينصرف عنها معرضا منكرا . وهو لهذا يعد من ضياع الوقت أن يستمع الى هذه الحجج المسهبة التى يرمى بها من لا يرى لهم خبرة عملية فى الشئون السياسية دفاعا عن بعض الانظمة والمبادىء السياسية . ولكن فى الوقت ذاته لا يحجم عن اتخاذ الجزء الذى « يعمل

ويدور » من أي برنامج سياسي حتى ولو كان يجهل الفكرة الاولى التي يقوم عليها سائر هذا البرنامج • مثال ذلك ان الانجليزي العادي لا تجتذبه صورة الدولة الاشتراكية على أوفى ما تكون الاشتراكية ، ولكن هذا لم يمنعه من أن يتخذ لفائدته أجزاء من البرنامج الاشتراكي حين وجدها منتجة مثمرة

وهو لا يثق في علم السياسة ونظرياته ، ولا في المنطق وما يسفر عنه من آراء ومبادىء ، ولا في كل مايسمى « نظريا وعلميا » ، وانما السؤال الذي يختلج به ذهنه ويدور على لسانه هو : أهذا الامر يعمل أم لا ؟ أهو يؤدي الى معاونة ـ أو عرقلة ـ انشاء انجلترا جديدة خيرا من انجلترا الحالية ؟ وهو ما يزال يفضل الطريقة القديمة التي اتخذها أسلافه في تكوين حياتهم السياسية والاجتماعية ، طريقة المحاولة والتجربة ، طريقة الرفض والقبول ، طريقة التوفيق والمصالحة • وقلما يصدق هذه النظم التي صنعت وأعدت في الخارج ، اذ يخشى أن تعترض المبدأين اللذين استقرا في دخيلته استقرار العقيدة ، مبدأ الخلق ومبدأ الواجب

فاذا أضفت الى هذا التكوين العقلي جهل ابن الجزيرة بما يجري في الاقطار الاجنبية ، تبينت بطأه في ادراك التغييرات التي حدثت في العهود الاخيرة • ولكنه بدأ يتنبه الى نقصه هذا ، فهو يسعى الى معرفة الانباء الصحيحة عما يجري خارج وطنه من الامور ، وهو شبق الى الانباء المحايدة التي لا تهضم حقا ولا تفترى كذبا • وسيكون لهذا الاتجاه أثره الخطير ، فالانجليزي صديق يحب الصداقة ويحترمها ، وحلمه الدائم اخاء يربط الناس جميعا ، وهو ـ كالطفل ـ يعتقد ان الحلم قد يصدق يوما من الايام !

الاعتدال

عشت بين شعبي مدى حياتي • واختلطت بطبقاتهم جميعا في العمل وفي اللعب • وأمضيت أكثر سني عملي في مجلس العموم الذي مهما تكن أخطاؤه ونقائصه فهو صورة دقيقة للشعب الانجليزي • فأنا أعرف هذا الشعب بفضائله ورذائله ، وأعتقد انى أفهمه على أكمل الوجوه ، فأنا واحد من أبنائه يعمر قلبي بحسناته وتعاني نفسي من سيئاته • واذا فأنا أتحدث عنه حديث التجربة والاختبار ، فأضع في مقدمة فضائله فضيلة «الاعتدال» التي تحمل المرء على تقدير رأي الغير واحترام شعوره

يرى الانجليزي للمسألة أكثر من الوجه الذي يشير اليه ويدافع عنه • ويعترف بأن من المحتمل أن يكون الوجه الآخر هو الوجه الصحيح السليم • وتؤدي به هذه الحالة غالبا الى التردد والاحجام ، الى عجزه عن أن يصدر أمرا حاسما ، الى توزع الفكر بين عوامل القلق والحيرة • واذ كان هذا الامر شائعا بين الانجليز جميعا لا تختص به طبقة دون طبقة ، ولا ثقافة دون ثقافة ، فقد أدى الى قلقهم في شأن السياسة الخارجية ، اذ لم يستطيعوا أن يقروا منذ اللحظة الاولى على قرار حاسم فاصل يعملون وفق ما يمليه • ومن

الصعب أن تحمل الانجليزى على العمل الا اذا اعتقد ، وهذا الاعتقاد لا يأتيه الا بعد عملية طويلة معقدة يشترك فيها عقله وشعوره ، وروحه كذلك • وقد سرنى أن وجدت ناقدا دقيقا بارعا هو « هارولد نيكلسون » يصور أطوار هذه العملية تجاه الحرب القائمة فى كتابه الوجيز « لماذا تحارب بريطانيا » فيبين فيه انا لم نبلغ الدرجة الاخيرة فى درج هذه الحرب الا بعد أن أكملت سرائرنا « عملية الاعتقاد »هذه فهدتنا الى الحق المفروض علينا حمايته والواجب المحتوم علينا أداؤه ، فأقدمنا على العمل ونحن نهتف بكلمة لا ظل فيها من خديعة ولا ذرة من نفاق وهى : « بعون الله سنحمى الحق ونؤدى الواجب »

وهذا الاعتدال وقرينه التسامح يؤديان الى توفير الحرية الكاملة لكل فرد وكل جماعة فى ابداء الرأى والتعبير عنه بشتى الوسائل • ولا ريب فى أن هذه الحسنة ليست خالصة من السيئة ، بل تنطوى على شىء من الاذى ، ولكنه فيما يعتقد الانجليزى أقل عند اطلاق الحرية منه عند تقييدها • وهو لهذا لا يحجم ساعة الشدة والازمة عن قبول ما يفرض على هذه الحرية من القيود معتقدا انه عندما تنجلى الشدة تنفك معها هذه الاصفاد

ولعل أكبر ما يعين الانجليزى على هذا الاعتدال روح الفكاهة التى تملأ سرائره • فالرجل الذى حرم روح الفكاهة معرض لان يفقد حاسة التقدير والاتزان ، فيتراءى له كل شىء حينئذ قاتما مزعجا مخيفا • نعم ، ان النكتة هبة نادرة فى الانجليز ، اما الفكاهة فقل ان يخلو منها قلب انجليزى • وأظن انى أصبت فى التفرقة بينهما حين قلت فى كندا فى الربيع الماضى « النكتة من خلق الذكاء والفكاهة من نتاج القلب • فقد نعطف على الانسانية ونحنو ، وقد نكره الانسانية ونجفو ، ولكن الفكاهة تنجينا من ان نؤذى ونقسو ، اذ هى لا توجد الا حيث يكون الحب والعطف ، ذلك ان وراء الضحكات التى نصدرها عبرات كثيرا ما نسفحها » • فافهم الفكاهة الانجليزية تجد نفسك فهمت من الانجليزى كل ما يسر ويخفى ••

الفردية والتعاون

ان احتجاز الناس فى جزيرتهم المنعزلة ، وجهلهم بطرائق الحياة وأساليب التفكير فى الشعوب الاخرى ، وحريتهم فى أمر دينهم حرية تشعر المرء بشخصيته المستقلة ــ كل هذا من شأنه ان يجعل الفردية فى الخلق الانجليزى واضحة بارزة ، ولازمة مقدسة • ومن بذرة هذه الفردية ينمو الجذع الذى تقوم عليه وتتفرع منه « الديموقراطية » الصحيحة الراسخة • نعم ، انجلترا غنية بهذه الفوارق فى أخلاق أفرادها ، وهذا الغنى هو القوة التى تعتز بها ، وهى الصفة التى تميزها من كثير من الشعوب

ولكن هذا الفرد الغريب الذى يعيش منعزلا فى بيته كأنما يعتصم فى قلعة منيعة ، الذى يكره التدخل فى أمور الناس ويدعهم فى طرائقهم دون تطلع اليهم أو تساؤل ، الذى لا يلقى أى بال الى ما يقول الاجنبى البعيد ولا يعنى كثيرا بما يقول جاره القريب ــ

هذا الفرد الغريب هو الذى ابتكر نظام التعاون ، وراد الناس جميعا فى طريق الغيرية ، هو الذى علم الناس كيف يجتمعون معا ليعملوا يدا واحدة فى رفع مستوى حياتهم

اتخذ هذا الاسلوب التعاونى فى انجلترا ثلاثة أشكال ، بلغ كل منها أقصى درجات الرقى والقوة ، وهى نقابات العمال وجمعيات التعاون وجمعيات الصداقة • وقد أدى كل منها مهمته فى اصلاح أمور الطبقة العاملة فى المصانع والحقول ، وترقية شئون الاسرة والطفولة والشباب ، وانقاذ الطبقات الفقيرة مما تستهدف له من قسوة العيش وأذى الحياة ، وجمعت الشعب كله على رأى واحد فى كثير من ضروب الاصلاح الاجتماعى

هذا جانب من جوانب التناقض حين تنظر الى المظاهر ، ومن جوانب التوافق حين تنفذ الى الصميم • فالشخصية الفردية لا تناقض الروح التعاونى ، بل هى تبعثه وتنميه وتؤيده بما توحيه للمرء من الثقة بالغير قدر الثقة بالنفس ، وبما تتيحه للمرء من حسن المعاملة وسداد التوجيه ، وما الى ذلك من الصفات التي تؤهله للتعاون مع سواه على أساس متين

الحرب

هذا الروح التعاونى لا يعطف الانجليزى الى أهله فحسب ، بل الى الناس جميعا على السواء ، فهو يحلم دائما بأولئك الذين يعيشون وراء البحر فى أقطار قريبة أو نائية ، ويود لو يتاح له ان يضع يده فى ايديهم ليعملوا صفا واحدا على تحسين شئون الحياة فى أفسح ما يكون من البقاع • ذلك انه يعتقد ان من الخير له ان يستمتع الناس كلهم بنصيب من الرخاء المادى الذى تنتجه المدنية الانسانية

وهو من ناحية أخرى لا يفكر فى الحرب تفكيرا جديا ما دام يهنأ بحياة السلام •• بل هو لا يصدق فى وقت السلم ان ثمة ناسا يفكرون فى الحرب ويعدون العدة لايقادها • وعنده ان تفكير زعيم من الزعماء فى ان يقدم لشعبه « مدافع بدلا من الزبد » ضرب من الخبل والجنون • وانه ليس هناك أحد خارج البيمارستان يقر هذا التفكير المنحرف ويقبل هذا العرض الغريب • وهو على الجملة رجل وادع أليف ما دامت الحياة سائرة فى طريقها المألوف ، فلا يتدخل فى شأنه جاره الدانى ولا شعب أجنبى عنه

ولكن اذا انحسر اللثام ، فرأى ناسا يعتدون للحرب ويوقدونها ، ورأى ناسا يتدخلون فى أمره ويقلقونه ، عندئذ تراه ينقلب على حين غرة من أقصى الوداعة الى أقصى الشراسة ومن أقصى المهادنة الى أقصى النضال ، عندئذ تثور فيه غريزة الحرب كأعنف واعتى ماتكون وان ظل يكبحها زمام من التعقل والاتزان

ومن الصعب ان تقرر ما اذا كان الانجليزى رجل سلم أو رجل حرب • فهو فى السلم يحيا أوفى وأكمل ما تكون الحياة ، وهو فى الحرب يناضل أعنف وأقوى ما يكون النضال • ولكن لا ريب فى انه صنع للازمات وجبل للشدائد ، وان صفاته الاصيلة لا تبدى ولا تتجلى الا حين تلم به الصروف والخطوب ، فتبديه صامدا ، مخلصا ، مكرسا

نفسه للكفاح . انه يظهر فى السلم مستسلما مستهترا ، لا يستمع لنصح ولا يصيخ لنذير ، تاركا الامر فى عنانه كيف شاء دون تأهب وبغير عتاد ، ولكن ما ان يأزمه الامر ويبدأ العمل حتى ينتفض من رقدته وينطلق من أساره ، فلا يصدجماحه الا أحد الامرين : الموت والنصر . وهذه هى الصفات التى خلقت الانجليزى ، وخلقت له انجلترا ، وخلقت لانجلترا امبراطوريتها

وهذه الحوادث تترى فى خلال الاعوام الماضية فتكتب صفحة جديدة فى ثبت التاريخ مدادها دم وحروفها لهيب . فماذا كان تأثير هذه الاحداث فى الانجليزى ؟ انه ما كان يخطر بباله قبل ذلك ان هذه الشدائد يمكن ان تقع وهذه النيران يمكن ان تثور ، بل ظلت آماله تغالب الوقائع عسى ان تجد فيها بريقا من نور السلام . ولكن الظلمة اشتدت والواقعة ألمت . فاذا بهذا السطح الهادىء الراكد ينفجر عن روح يضطرم اضطرام اللهيب واذا بهذا الانسان الوادع الاليف ما زال يخفى فى طياته رجلا كاسرا عنيدا جسورا

وطاش حلم الذين ظنوا ان الترف اوهنه وأضناه . وطاش حلم الذين ظنوا ان استهتاره وقت السلم دليل الاشفاق والاحجام . وكانت هذه هى الهفوة الكبرى التى وقع فيها اولئك الذين لا يرون الا ما يتمنون ، اما الواقع فقد ضربت بينه وبين بصيرتهم غشاوة قاتمة . فلم يروا الانجليز من جميع الطبقات يتدفقون ليساهموا فى تجارتهم الجديدة ، تجارة الحرب فى ساحات الارض وانحاء البحار وأطباق الهواء

وأذكى فى الانجليزى غريزة الحرب والنضال ان رأى كل شىء يحبه ويقدسه يحطم ويهدم . رأى الضربات القاصمة تنزل بالمواثيق والعهود ، وبالاهل والصحب ، وبالبيوت التى يعدها أشبه بالمعابد والمحاريب ، بل بحياته ، لا تلك التى تجرى فى جسمه فحسب ، بل تلك التى تتمثل فى ثقافته وعقيدته كذلك . ورأى اجتياح الدول قهرا وغدرا ، فمنها دول منيعة تهاوت تحت الاقدام ذليلة خاضعة ، ومنها دول مجيدة اسلمت نفسها للعداة خوفا وفرقا . رأى كل تلك الخطوب الفادحة والنكبات الفاجعة ، فخيل اليه ان قوى الشر التى كبتت دهرا لتنمو وتذكو ويشتد أزرها تنطلق الآن من أسارها كما ينطلق الوحش الكاسر من اصفاده ، فيريق الدماء اينما سار ، ويزهق الانفاس أنى اتجه ، وينشر الألم والشر فى كل مكان . ثم رأى الحاجز الطبيعى الذى يحميه قد انتهكت حرب الجو حرمته وقداسته ، فغدا هدفا لاخطار بالغة لم يفكر اسلافه يوما ما ان يمتد اليهم شرها الرهيب

ولكن كل هذا لم يزده الا حزما وعزما ، الا صلابة وصرامة ، الا نذرا للنفس ان تموت ان لم تنتصر ، وللولد ان يقتل ان لم يفتد

فهل يدهشك أمر هذا الانجليزى ؟ أترى من العسير ان تفهمه وتفسره ؟ لقد أردت ان أشرحه لك ، فلعلى وفقت ، ليكون أهلا لعطفك ولحبك

(أستخلص هذا المقال من رسالة السياسى الانجليزى ايرل بولدوين « الانجليز The English Man » ومن مقاله « انجلترا England »)

ح . غ .



ونستون تشرشل

زعيم مؤقت لا « فوهرر »

بقلم الأستاذ محمد محمد توفيق

يعيب المعسكر الدكتاتورى على بريطانيا اشياء هى فى الحقيقة من مظاهر عظمتها . ويتغنى باشياء عنده هى من مظاهر ضعفه . ولا يتاح له فهم حقيقى للخلق البريطانى ، ولو انه فهمه لوفر على نفسه وعلى الانسانية ويلات كثيرة

ولقد خيل الينا ونحن نقرأ كتاب هتلر « Mein Kampf » (جهادى) ان فوهرر المانيا قد فهم الخلق البريطانى وتأهب له . فهو يقول ان بريطانيا تبدو ضعيفة فى اول الحرب ، ثم تمدها شرايين امبراطوريتها بنبضات قوة بطيئة ــ ولكن منتظمة ــ ومجموع هذه النبضات فى آخر الامر يبلغ رقما خياليا هائلا تتوفر فيه قوة جبارة لا تغلب .. هذا مضمون اقواله وفيه من الفهم قسط كبير . ولكن يظهر ان ادراك الدكتاتوريين ناقص فى مجموعه وضعيف فى بعض جوانبه ــ شأنهم فى ذلك شأن كل انسان . فهتلر لم يفهم من بريطانيا الا هذه القوة التى تتجمع فى آخر الحرب . وقد أعد لها نظرية معقولة هى الحرب الخاطفة السريعة التدمير لكيلا يتيح لها التجمع والتكدس . ولكن فاتته اشياء أخرى كثيرة ليته فهمها ــ أو ليت ريبنتروب وجورنج والآخرين فهموها ــ اذن لانتفت فكرة الحرب عندهم اطلاقا ووقف الامر عند الاستعداد المسلح والتهديد لنيل مطالب معقولة والاكتفاء بها دون كل هذه الويلات والاهوال

ومن الغريب ان هذه الاشياء التى غابت على المعسكر الدكتاتورى هى من البديهيات بالنسبة لبريطانيا العظمى ، ولكن يظهر ان العقل البشرى يرفض الاصغاء الى بديهيات الامور ويحاول معالجة كل معقد مشكل منها كقرص الشمس ــ على حد قول تولستوى ــ لا يكاد أحد يفكر فى التحديق فيه مع انه يملأ الكون كله حرارة وضياء !

فقد حسب خصوم بريطانيا انها ستتفكك من الضربة الاولى . فلما عالجوها بالضربات المتواليات بقسوة لا يتصورها العقل اذا هى كالكرة من المطاط لا تنكسر لانها أولا كرة ولانها ثانيا من المطاط !

وحسبوا انها لا تصلح الا للدبلوماسية ذات الوجهين ، وانها مهد الدبلوماسى الذى لا يقول « لا » وحسب ، ولا «نعم» وحسب ، ولكن يقول « لا » و «نعم» فى نفس الوقت فلا يكاد يعنى شيئا محدودا .. وظنوا ان هذا الاسلوب « اللانعمى » ان يكن يصلح مع

الشعوب المتأخرة التي تحكمها بريطانيا لا يصلح قط مع الشعوب الراقية ، ويفشل فشلا ذريعا جدا في الحروب • فاذا بريطانيا تقول « لا » وحسب ، واذا هي تضع على رأس حكومتها ونستون تشرشل الذي لا يقول الا « لا » !

وحسبوا أيضا أن بريطانيا في ثوبها الديموقراطي المهلهل سوف تتحرك فيها عناصر الفوضى والفتن كما تحركت في فرنسا مثلا ، وان الاحزاب والافكار الحزبية المختلفة ستمزقها شر ممزق • فاذا هي في ساعة الخطر تبتدع لنظمها الديموقراطية لونا جديدا واحدا هو اللون الاحمر ، ووحدة جديدة في الاحزاب والافكار ، ورجلا واحدا فردا لا نقول انه « فوهرر » ولكن نقول انه زعيم بالمعنى البريطاني الذي سنحدده

فبريطانيا اذن قد اثبتت انها مرنة • والمرونة لا تتكسر ولكن التصلب هو الذي ينكسر والمرونة اذا ضغطتها انكمشت حتى يزول الضغط فتعود سيرتها الاولى • والتصلب اذا ضغطته تحطم فما يبقى منه شيء

وهذه المرونة لا تتصلب الا في كلمة « لا » التي حسب الدكتاتوريون انها لا تنتظر من بريطانيا اذا ما رأت الدنيا كلها تتألب عليها

وبريطانيا ــ بعد ــ قد انتخبت لها زعيما بمحض ارادتها وبرضاها التام • وهذا الزعيم مؤقت • وهو أول من يعرف انه سيزول بمجرد زوال الخطر ، وانه لن يبقى في دست الزعامة دقيقة واحدة بعد زوال حالة الخطورة ، لتعود بريطانيا كما كانت مرنة ، تقول « لا » وتقول « نعم » في نفس الوقت ، وما يظهر من بين رجالاتها رجل حتى يختفي ويزول ، فاذا قاوم واصر على البقاء ازيل ولو كان ملكا من ملوكهم وفي خلعه خطر تفكك الامبراطورية كلها !

***

فونستون تشرشل اذن ليس شخصية وحده ، ولكن شخصيته هي شخصية الامبراطورية البريطانية • وكل محاولة لدراسته من الناحية الشخصية تعد فاشلة • وهذ ايضا نلمس ناحية من نواحي العظمة البريطانية عندما نقارنها بالمحور وبالمعسكر الدكتاتوري حيث الشخصيات تدرس على حدة دون الشعوب

وكل ما يمكن ان يوسم به تشرشل هو انه رجل صريح ، وجريء لدرجة التهور ، وخطيب حار واسع مدى الخيال وكلماته تلعب على اوتار القلوب وتهز الجماهير هزا

وهذه الصراحة والجرأة والخطابة والحرارة ليست غريبة على هذا « الجهاز العصبي » الدقيق الذي يسمى بالامبراطورية البريطانية • فلكل صفة من هذه الصفات مكانها العتيد في هذا الجهاز • والجهاز كله يمكن ان يدار « بصراحة » و « بجرأة » و « بخطابة » و «بحرارة» بدل المراوغة والتردد والخرس والبرود • ولكنه لا يدار على هذا الوجه الا عندما تتحرج الامور وتبلغ الخطورة منتهاها

فقبيل الحرب ، وفي مستهلها ، كانت الصراحة والجرأة والخطابة والحرارة في جعبة

تشرشل ، والمراوغة والتردد والخرس والبرود فى جعبة بلدوين وتشمبرلين والآخرين . وكلما اشار تشرشل بادارة الجهاز الامبراطورى على شاكلته هو ، اشارت الامبراطورية بان ساعة الخطر الشديد لم تحن بعد فلا محل له ولا أحد يستمع اليه . وكثيرا ما كان يقف فى مجلس العموم بخطابته المجلجلة المدوية متحدثا عن المانيا بكلام رهيب مخيف ، فما كان أحد يحفل به ، الامر الذى اثلج صدور الفوهرر والآخرين ، فقد حسبوا أن « البيون » فى غفلة عما يدبرون . وما كانت « البيون » فى غفلة عما يدبرون ولكنها كانت معنية بتحريك جهازها الضخم باشعال النار فى المحركات الباردة وبتكديس جانب من « نبض القوة » يكفى لاعلان الحرب على الاقل . وعلى ذلك ظلت مراوغة، مترددة ، خرساء بلهاء باردة ، ولبس تشمبرلين مسوح الرهبان والقديسين ليؤخر خطر الحرب ريثما تسخن محركات الآلات ويدور الجهاز الامبراطورى ، فسافر ــ وهو الشيخ العجوز ــ الى برخستجادن و « توسل » الى هتلر وموسوليني ان يكفا عن « الشر » ، فنجح نجاحا جزئيا واكتسب لامبراطوريته عطف العالم وألبس المحور جريرة الشروع فى العدوان فسجل التاريخ هذه الجريرة على هتلر وموسوليني ــ وهو كسب للامبراطورية كبير

وأعلنت انجلترا الحرب فعلا فعاد تشرشل يطالب بادارة الجهاز الامبراطورى على شاكلته هو ، وعاد الى خطابته المجلجلة المدوية من فوق منبر مجلس العموم ، فما أصاخت الامبراطورية السمع وما تعدت كلماته الضخمة حدود أنفه العريض .. ان الساعة لم تحن بعد .. والقوة بدأ ينبض بها قلب الامبراطورية ولكنها لم تتكدس . والحرب ما تزال فى أوربا ولم تتعد نطاق القارة الى الجزر البريطانية ولا الى ما وراء البحار . والشعوب التى كانت تتساقط اذ ذاك كأوراق الخريف الجافة تحت زحمة الزمهرير كان مقدرا لها أن تتساقط وما كان فى المقدور انقاذها . وفرنسا ما تزال موفورة القوة . فلتظل بريطانيا اذن مراوغة مترددة خرساء بلهاء باردة فى انتظار ساعة الخطر الرهيبة

فلما بلغت الحرب الاوربية مداها وآذنت فرنسا (قلعة بريطانيا الاوربية) بالسقوط ، وبدأت محركات الفوهرر تئز فى سماء بريطانيا والقنابل تنهمر من فوقها والخطر الشديد يحدق بالديموقراطية وينذر بالهزيمة والفناء . ولما بلغت جحافل هتلر أوج عظمتها الحربية وبدأ العالم يشك فى قدرة بريطانيا على المقاومة وحدها بعد ضياع فرنسا المتداعية ، وشرع المتشائمون ينادون بأن « البيون العجوز » قد تمددت على فراش موتها وبجانب الفراش قسيسها البروتستانتى (الأب) نيفل تشمبرلين يتلو على رأسها صلوات الموت واستقبال الآخرة ، لم تنتظر الامبراطورية البريطانية أن ينبهها تشرشل الى ان ساعة الخطر الشديد قد حانت بل تلقفته من معتزله وسلمت اليه مقاليد أمورها ومنحته سلطة الحكم المطلق فى نطاق ديمقراطى محدود ــ أو بعبارة أخرى ولته زعامتها المطلقة ، وأمرته أن يدير الجهاز الامبراطورى بصراحة وجرأة وبخطابة وبحرارة بدل المراوغة والتردد والخرس والبله والبرود ! وهكذا بريطانيا العظمى على طول الخط ..

والنكتة الانجليزية فى كل ذلك هى ان تشرشل الزعيم لا يختلف عن تشرشل المهمل الا فى انه الآن يخطب ويجلجل فيستمع اليه الانجليز ، وما فى قوله شىء جديد عليهم ، انما الجديد هوتوليته الزعامة بشروطهم وتنفيذا لرغبة الدبلوماسية البريطانية نفسها !

ولم يختاروا تشرشل لذاته فالذاتية لا وجود لها فى بريطانيا . انما اختاروا رجلا من رجالاتهم تتوفر فيه عناصر الصراحة والجرأة والخطابة والحرارة ، وكان تشرشل أحد ممثلى هذا النوع من أنواع الرجالات الانجليز ..

وتشرشل الآن زعيم كالفوهرر فى الظاهر . وهو فى الحقيقة « أحد » رجال انجلترا اختير لظرف معين

وتشرشل الآن يطاع كالفوهرر . ولكن أوامره ليست كأوامر الفوهرر ، بل رغبات ينادى بها الجميع فلا محل للطاعة ولا للقبول

وتشرشل فى صراحة الفوهرر . وفى جرأته . وفى مقدرته الخطابية . وفى حرارته . فلا محل لتغنى الالمان « بفوهررهم » فها هو ذا رجل آخر بريطانى يلعب نفس الدور وبحرارة قد تكون أشدمن حرارة غريمه الجرمانى

وهنا « نكتة » أخرى : ان يتصف انجليزى بالحرارة بعد البرود .. وفى ذلك صفاء خلقى وكمال استعداد ، كالصحراء التى تهبط الى ما تحت الصفر شتاء وتبلغ أقصى درجات الحرارة صيفا ، فهى موصل جيد للحرارة والبرودة

***

فالمسألة كلها اذن مسألة دولاب آلى يدور وفق خطط موضوعة وتصميم لا يحيد عنه أحد . ومسألة شخصيات متعددة رابوها تربية معينة لظروف معينة ولخدمات محددة موضوعة، فهذا للسياسة المحافظة ، وذاك للسياسة الكريمة المتسامحة ، والسياسى المتسامح يتظاهر بنقض سياسة الرجل المحافظ ، والمحافظ يتظاهر باسقاط المتسامح ولومه أو عقابه . ثم هذا للسلام وذاك للحرب . ورجل السلام يزول فى وقت الحرب ، ورجل الحرب يزول ابان السلام .. وهكذا تستخدم الامبراطورية رجالاتها وهم فى خدمتها كالحجارة فى البناء لا أكثر ولا أقل . وبذلك تقف بريطانيا العظمى رمزا لاسمى مظاهر الديموقراطية

ونستون تشرشل يلعب دوره كزعيم مطلق فيخيل الى الناس انه حقيقة زعيم مطلق . كالممثل الذى يتقن دوره فينقل النظارة من الخيال الى الحقيقة

ونستون تشرشل يعلن عن آرائه الامبراطورية بصراحة سافرة . فينبهر الرأى العام الذى لم يألف من بريطانيا العظمى الا المراوغة والغموض ، ويمنحها كل تأييده

وهو يسير أساطيله وطائراته وجحافله فى ميادين الحرب بجرأة واندفاع جنونى ، فقد آذنت ساعة المقامرة بكل شىء ، فاما نصر واما هزيمة وفناء

وهو يقف فوق منبر الخطابة كلما جاءته أنباء سارة ، فيخلب الالباب بفصاحته وبيانه ، ويصور الاهوال أفظع تصوير ، والصبر والجلد والاستبسال بكلمات نارية ، ويصف

الانتصار المرقوب وسط كل هذه الكوارث فيكون كالذى يصف الجنة لسكان الجحيم ـ ومن هنا تأثيره البالغ فى النفوس

وبكل هذه الالوان الصارخة يحيل تشرشل لوحة الامبراطورية القاتمة الى لوحة زاهية فيها كل عناصر القوة والتضحية والبسالة والتعاليم الاسبرطية التى حسب الدكتاتوريون انهم قد انفردوا بها .. فبأى شىء أصبحوا يمتازون على ألبيون ؟

ان بريطانيا العظمى لم تترك لهم شيئا يتباهون به . وحتى « الفوهرر » و « الدوتشى » نافسوهم فيهما بالزعيم . وخطابات روما وحانة البيرة فى ميونيخ نافستها خطابات لندن التى تظفر بعدد من المستمعين أكبر . وصوت الدوتشى الرنان وصلصلة هتلر ، طغى عليهما زئير الاسد البريطانى

ان كل ربح تربحه انجلترا بعد الآن وكل نصر تسجله سيكون له أثره العميق فى النفوس . أما المعسكر الآخر فقد ربح وانتصر فى أول الحرب ، وما نحسب انه سيسجل بعد الآن انتصارات كبيرة . فقد بلغ أوجه باندحار فرنسا وما نظن انه سيجد فرنسا أخرى ليدحرها

والمعسكر الدكتاتورى قد أنفق واستعد . أما تشرشل فيقول لنا انه سينفق وسيستعد..

والمعسكر الدكتاتورى يقول انه سينظم أوربا من جديد فكأنما يشير الى انتهاء مهمته فى الحرب ، وونستون تشرشل ينادى بأن الحرب تبدأ من جديد !

فمهمة تشرشل هى أن يعلن ان ما وقع الى الآن قد أصبح فى خبر كان ، وان المعول على ما سيأتى به المستقبل .. ولك أن تتصور أثر هذا التصريح فى المعسكر الدكتاتورى الذى حسب انه قد حارب وانتهى وأوشك أن يجنى ثمار نصره . وأن تتدبر أثر ذلك فى أعصاب الدكتاتوريين التى وتروها قبل الحرب بسنين وشدوها طوال أيام الحرب وما فى طوقهم توتيرها أكثر من ذلك

ومهمة تشرشل أخيرا هى أن يثبت للعالم ـ ولاميركا على وجه التخصيص ـ ان بريطانيا العظمى قد استعادت شبابها . وان لندن التى خربوها والمدن التى دمروها لم توهن قوى الامبراطورية ولا هى عطلت جهازها الضخم . فعلى أميركا أن تتقدم فى غير ما خوف ولا تهيب ، فبضربات متواليات تخور قوى الاعداء الذين سيفزعهم هذا « البعث الجديد »

أجل .. البعث .. هذه هى الكلمة التى نبحث عنها .. فقد أثبت تشرشل ان بريطانيا العظمى قد بعثت من جديد . واستعان ببلاغته على تصوير هذا البعث فى أروع صورة ، بينا أخذت صورة جرمانيا قاهرة فرنسا فى المغيب فى لجج من فوهات تشرشل ومدافع تشرشل وأساطيل تشرشل وطائراته

ويكاد المتأمل فى كل ذلك ينسى ان الامر كله لا يعدو دورا بارعا يمثله دبلوماسى داهية على مسرح بريطانيا العجيب

محمد محمد توفيق

العقلية الانجليزية والعقلية الألمانية

بقلم الاستاذ على ادهم

الانجليزى انسان نضجت شخصيته واستوت ملكاته واستتم تكوينه – اما الالمانى ، فهو امشاج لم تستوف تكوينها ، وعقلية مضطربة ، ونفس مهتاجة قلقة لم تحقق وجودها

بين العقلية الألمانية والعقلية الانجليزية الكثير من وجوه الخلاف والتناقض، ويمكن أن نجمل تلك الفروق فى قولنا أن العقلية الانجليزية عقلية سليمة متزنة ، والعقلية الألمانية عقلية قلقة متعبة لا تريح ولا تستريح ، والعلة فى ذلك أن الانجليز أمة قد وجدت نفسها وتم تكوينها وتقرر وجودها ، أما المانيا فانها أمة لا تزال تنشد ضالتها وتبحث عن نفسها ، وهى فى دور خلق مستمر وتكوين دائم ، وفلاسفة الألمان يكثرون من التحدث عن « الوجود » و « الصيرورة » فاذا استعرنا منهم هذا التعبير قلنا أن الانجليز أمة لها « وجود » وأما الألمان فانهم أمة فى «صيرورة» ، ولكن لماذا كان الأمر كذلك ؟ هذا ما سأحاول بيانه وتفسيره فى هذا المقال

المانيا ليست أمة واحدة

يرى بعض الباحثين الاجتماعيين أن ليس هناك ما يصح أن يسمى « أمة المانية » لأن الشعب الالمانى مكوّن من خليط متنافر من الأفراد والشعوب والاجناس، وبينها من الاختلاف والتناقض ما يجعل استكشاف الوحدة التى تربطها من أشق الأمور ، والاختلاف والتنويع هما سمة الخلق الالمانى ، والأمة الالمانية مع ذلك ليست مجرد مجموعة من الافراد والقبائل وانما هى شىء أكثر من ذلك ، فهى أمة لها طابعها الخاص وسماتها الممتازة ، وقد طرأت عليها تغييرات شتى ولكن فى تكوينها رغم ذلك عناصر ثابتة تبدو فى مختلف أدوار تاريخها وشق اتجاهاتها ، وتظهر فى إنتاجها الادبى والفلسفى والعلمى ، وفى سلوكها السياسى ، وموقفها الاخلاقى ، ونظرتها إلى الوجود ، أو ما يسمى عند الالمان « فلسفة الحياة » . ولكن ما الذى جعل لالمانيا مظهراً مختلفاً عن سائر الدول الاوربية الصغيرة والكبيرة على السواء واستوجب أن يشك الباحثون فى وحدتها واندماج شعوبها ؟

السبب فى ذلك أن ألمانيا ليست لها عوامل جغرافية تعين على خلق الوحدة وتعمل لاتمام مزج الشعوب المختلفة وخلط العناصر المتباينة ، فليس لالمانيا سلسلة من الجبال تحمى حدودها وترسمها مثل سويسرة وفرنسا وليست لها صحراء ترد الغزاة مثل مصر وليس حولها بحر يرد عنها غائلة المغيرين مثل بلاد الانجليز ، والحدود الالمانية لا تنى تتغير من الحين الى الحين ، وقد جعل ذلك المانيا مستهدفة للغزو وميدانا للصراع ، وأرغم الشعب الالمانى على مداومة التأهب للدفاع عن النفس ، ودفع غارة الاعداء ، وهذا الشك الدائم ، والترقب المستمر ، وتوقع هجوم الاعداء ، وغدر الجيران ، وسهولة الهجوم على بلادهم ، واجتياح أرضهم ، كان له تأثير كبير فى تكوين الشعب ، وإيحاء القلق والتوجس الى نفسه

ويرى بعض الباحثين ان موقع المانيا الجغرافى فى وسط أوربا كان له أثر فى جعل الالمان مزيجاً غريباً وخليطا من شعوب متنافرة ، والمعروف عن الالمان انهم منذ أول نشأتهم اختلطوا بالرومان وتزوجوا منهم ، وامتزجوا كذلك بالسلاف والتوانيين والفينيين وغيرهم من الشعوب الاوربية ، وقد لاحظ نيتشه انهذه الامتزاجات كان لها تأثير بعيد فى تكوين المزاج الالمانى وخلق الجوانب المتعددة ، والمظاهر المختلفة المعهودة فى الشعب الالمانى ، ولكن المانيا برغم ذلك شعب لم يتم تكوينه ولم يتقرر وجوده فهى لم تنته بعد الى صورة من صور الحكم تطمئن اليها ، وذلك على نقيض الانجليز فانهم منذ أوائل القرن الثالث عشر قد وجدوا أنفسهم وشعروا بكيانهم الوطنى وحددوا نظامهم السياسى وأقاموا أسسه وتكونت لغتهم وأدبهم وظهرت بواكير تقاليدهم الاجتماعية ونظمهم السياسية وأساليبهم الثقافية مثل مجلس النواب وجامعة اكسفورد

ولقد هاجمت القبائل الألمانية الامبراطورية الرومانية وانتقصت أطرافها وكانت من أقوى أسباب انهيارها وذهاب ريحها ، ولكن الألمان كانوا برابرة وليس لهم سابقة فى الحضارة فهزمتهم الحضارة الرومانية وأرغمتهم على اقتباسها والخضوع لتأثيرها ، وظلت اللغة اللاتينية لمدة ألف سنة لغة الدراسات العليا وظل الشعر اللاتينى نموذجاً يحتذى ومثلا يترسم ، واتبع الألمان القانون الرومانى ، بل لقد تسمت الدولة الالمانية بالامبراطورية الرومانية للشعب الالمانى . وظلت ألمانيا خلال العصور المختلفة هدفاً للتأثر بمختلف الدول التى يسمو شأنها مثل أسبانيا وفرنسا وهولندة وسويسرة وايطاليا وانجلترا ، وقد تكون الخلق الالمانى وترعرعت العقلية الالمانية تحت تأثير الدول من ناحية وتحت مقاومة هذا التأثير من ناحية أخرى . وقد كان رد الفعل قوياً وكان الضغط شديداً ، وبرينا ذلك عنف المعركة وهول الخضوع والمقاومة . وقد أسفر عن جعل الشعب الالمانى أكثر قبولا للتغير والتحول من سائر الشعوب ، وشدة شعوره بتعرضه لهذا التحول الدائم جعله شديد الشعور بالحاجة الى النظام الصارم والتدريب القاسى ، ومن ثم انتشار الروح الحربية فى ألمانيا وتأصلها واستعلائها على كل شىء . وكل عنصر من عناصر تكوين الالمان

له صلة شديدة وعلاقة قريبة ماسة بالجندية والحرب والكفاح ، ولرجال الجيش شأن فى ألمانيا أسمى وأبعد أثراً من شأنهم فى مختلف الدول ومتفرق العصور . ومن الطبيعى أن تلجأ ألمانيا الى خلق مجتمع عسكرى صناعى عند ما أعجزتها الظروف عن إيجاد مجتمع مدنى طبيعى

تقلب صور الحكم فى ألمانيا

ولم يوفق الالمان كذلك فى ابتكار صور دائمة للحكم وقد ظلت ألمانيا خلال تاريخها تجري وراء صور الحكم المختلفة ، فوجدت فيها البلديات الصغيرة والمدن الحرة والملكية المطلقة والملكية الحرة والجمهورية والديكتاتورية النازية . ومن الاسباب التى مهدت السبيل لظهور الديكتاتورية فى ألمانيا أن الشعب الالمانى يشعر على الدوام شعوراً خفياً بأنه لم تتكون بعد وحدته ولم تتبلور أخلاقه ولم يتم تكوين نظمه ولم يحسن امتزاجه وتأتلف عناصره . فهم كما قال شاعرهم هلدرلين : « نحن الالمان ليس لنا وجود حقيقى وانما نحن نتطلع اليه ونبحث عنه » ، وألمانيا تتعلق بالديكتاتور وتنقاد له لأنه يوهمها أن وحدتها قد تمت وأن كيانها قد كمل بناؤه واستقرت أسسه

غلبة الخيال على الالمان دون الانجليز

وعجز الالمان عن تحقيق وجودهم والعثور على أنفسهم جعل حياتهم حافلة بالمحتملات زاخرة بالاوهام والاحلام . ولكنهم رغم مقدرتهم على التحليق فى أجواء الوهم والانطلاق مع الخيال يتعثرون فى عالم الواقع ويفرون منه . ومن ثم عجزهم عن فهم نفسية غيرهم من الشعوب لأنهم مشغولون بالبحث عن أنفسهم وتزيين أحلامهم . وهم فى ذلك على خلاف الانجليز ، فالانجليزى يجد راحته وأمنه وسروره فى دنيا الواقع ولا يرضى السكنى فى عالم الخيال والاقامة فى قصور الاوهام ، وادراك الواقع فى يسر وسهولة من مزايا الانجليز ، والتجافى عن معرفة الواقع ومجانبته من خصائص الالمان ، ومن ثم يجد الالمان صعوبة فى التعبير عن أنفسهم وتوضيح أفكارهم لشدة تناقض ما بين الواقع والممكن ، ولا يصادف الانجليز مثل هذه الصعوبة . والالمانى لكراهته الواقع يساوره الشك فيه فلا يقبل الدنيا على علاتها ولا يصدق أنها تمثل الحقيقة وتعبر عن الوجود ويعمل على استخراج متناقضاتها ، ومن ثم شكه فى نفسه وقلق خواطره وكثرة ثوراته الداخلية . واطمئنان الانجليز للواقع ووثوقهم به يشد من عزائمهم ويقوى ثقتهم بأنفسهم . والالمانى يكلف بالفكرة ويعمل من أجلها . والانجليزى يتجه الى الواقع مباشرة ويقيم على أساسه خططه وتدبيراته ولا يحاول أن يفرض على الواقع عجيب خيالاته وبعيد تصوراته وذهبى أحلامه

وامعان الالمانى فى عالم الفكرة وابتعاده عن عالم الواقع من أسباب ميله الى مذاهب ما وراء الطبيعة ، وبراعة الالمان فى هذا المجال معروفة عند قراء الفلسفة ودارسى مذاهب ما وراء

الطبيعة ، وهى كذلك من أسباب ولوعه بالموسيقى وغلبة العاطفة فيه على الفكرة وسيطرة الدوافع على الاعمال . والارادة الالمانية ارادة غير مقررة وليست لها حدود ولا موازين ، وهى نزاعة الى غير المحدود مترامية الى المستحيلات بل هى دافع وثاب أكثر منها ارادة مصممة ، وهى لاتقنع بشيء ولا تقف عند حد ولا تقبل صورة من الصور ولا تطيق قيداً من القيود ، والالمانى اذا نزلت له عن شيء سألك غيره وطلب المزيد ، وهو يحاول أن يكبح هذه النزعة بافراطه فى تحرى النظام ، والعناية بالتفصيلات ، والالتفات الى الدقائق والصغائر . ومحاولة التخصص فى الدراسات والمشروعات ، واظهار البراعة فى ابتكار الآلات الضابطة والمقاييس الدقيقة

وغلبة الخيال فى نفس الالمان على الواقع جعلت الالمانى لا يرى الواقع على حقيقته ، وانما يرى ما يريد أن يراه ولا يتغلغل الى نفسية غيره من الامم ، ولايفهم دوافعها ، وهذا هو سبب سرعة انخداعه بأساليب الدعاية . وتكثر فى تاريخ الالمان الخيانة والغدر ونكث العهود لضعف ثقتهم بأنفسهم وعدم متانة أخلاقهم وقلة استقرار شخصيتهم

اضطراب النفسية الالمانية وثبات النفسية الانجليزية

واضطراب النفسية الالمانية وفقدان الاتزان العقلى والثبات الاخلاقى جعلت الالمانى شديد الشعور بحاجته الى التوازن الصناعى والنظام الخارجى ، وهذا هو علة إفراط الالمان في تمجيد عظمائهم وسهولة انقيادهم لزعمائهم . ويشعر الالمانى بالغبطة إذا وجد من يحمل عنه عبء التفكير ، والفصل فى الامور ، لانه يجد الحياة إذ ذاك أسلس وأشهى وأنأى عن العقبات المعترضة والمتاعب المتوقعة ، وقد حاول الالمان أن يحققوا نفوسهم ويبرزوا شخصيتهم فى العوالم المثالية كعالم الفن وعالم العلم وعالم الدين ولكن هذا اللون من تأكيد الذات ، والتعبير عن الشخصية لم يرو غليلهم ، ولم يشبع نهمتهم ، وزادهم رغبة فى تحقيق أنفسهم بعالم الواقع ، والخاصة البارزة فى الالمان هى أنهم شعب مضطرب العقل قلق النفس قليل التبلور ناقص التكوين ، أما الانجليز فقد حددوا موقفهم من الحياة فى هذا العالم الفانى وهم يقفون على قدمين ثابتتين فوق الارض ، وقد صحبت الكثيرين من كبار مفكرى الالمان وفلاسفتهم فراعنى عمق تفكيرهم وسعة أفقهم وشدة توقهم الى استجلاء أسرار الاشياء والانتهاء إلى حقائقها واسترسالهم مع منطق تفكيرهم الى أقصى الحدود وأبعد النتائج ، ولكنى مع ذلك كنت ألمح فى مزاجهم نوعا من الانحراف وفى تفكيرهم لونا من الاسراف ينبو عنه الذوق وينحدر فى بعض الاحيان الى السخف والهراء . وقد تعجب بمفكر مثل هجل وتهولك قدرته الفائقة فى بناء مذهبه العلمى وتنسيق منطقه وسياق حججه ، ولكنك مع ذلك تشعر بعجزك عن مسايرته فى تأليه الدولة وذهابه الى أن الفرد لا يتحقق وجوده ولا تتم شخصيته إلا إذا اندمج فى أثناء الدولة وفنى فى شخصيتها

ولكن ما سبب ثبات الخلق الانجليزى الذى يناقض قلق الخلق الالمانى واتزان العقلية الانجليزية الذى يخالف اضطراب العقل الالمانى ؟

يعلل ذلك الكاتب الانجليزى الكبير جون جالزورثى بعاملين هامين ، وهما البحر وجو بلاد الانجليز ، فبلاد الانجليز جزيرة يضربها البحر من جميع النواحى ، وقد أنمى ذلك فى الانجليز حب المخاطرة والصلابة والقدرة على السياحة والاغتراب والاعتماد على النفس والاكتفاء بها فى الاقاليم النائية والمواقف الحرجة ، وجو بلاد الانجليز ولو أنه صحى وليس بالجو المتطرف القاسى ولكنه مع ذلك من الاجواء التى لا يعتمد عليها ولا يوثق بها لكثرة تقلبه ولانه من أكثر الاجواء تشبعاً بالرطوبة ، والذين يطول تعرضهم لمثل هذا الجو تنمو فيهم صفات مناقضة له مثل الفلسفة الجافة والفكاهة المتحدية . والانجليزى مثل جوه لا يسرف ولا يتطرف ، وهو يتقى رطوبة جوه وتغيره المستمر بالارتداء برداء الخشونة والجفاء

استقرار السياسة الأنجليزية

وبلاد الانجليز — كما رأى جالزورثى بحق — من أقدم الدول استقراراً من الوجهة السياسية ، ومنذ حوالى تسعة قرون لم تعرف انجلترا تهديداً خطيراً من الخارج ، ولمدة مائتى سنة لم تعرف اضطرابا سياسياً داخلياً ذا بال ، وهذا من ناحية بسبب عزلتها ، ومن ناحية أخرى ثمرة نظامها السياسى المستقر المتين ، وقد كان لهذا الاستقرار السياسى تأثير بالغ فى تكوين المزاج الانجليزى وجعل حاسة التثقيف جزءاً من كيانه وطبيعة ملازمة له لا حلية خارجية أو قشرة بادية تزول عند احتكاكه بأية عقبة

وهناك عامل هام فى تكوين الخلق الانجليزى لجميع الطبقات ، وهذا العامل هو الجامعات الانجليزية ، فقد ظلت هذه الجامعات زمناً طويلا تخرج شباناً من أرقى الطبقات وأعزها جاهاً وأضخمها ثروة وتطبعهم بطابع ثقافى خاص وتأخذهم بعادات ونظم واحدة وتلقنهم فلسفة خاصة للحياة ونظرة الى الدنيا . وهؤلاء الشبان تسند اليهم أكبر المناصب ويتولون أخطر الاعمال ، واختلاطهم بشتى الطبقات وممارستهم لمختلف الأعمال واضطلاعهم بأثقل الأعباء يخلق منهم قدوة صالحة وأمثلة يأخذ الناس بها . وقد لا يخلو هذا النظام من العيوب ، فهو بلا ريب يساعد على خلق طبقة رفيعة خاصة ويعمل على محو الملامح الشخصية والصفات الذاتية ، ولكنه من ناحية أخرى يدرأ الفساد عن الأخلاق ، ويحفظ على الأمة قوتها وحيويتها ، ويقصيها عن التطرف ، ويعودها القدرة على الاحتمال ، وكظم العواطف ، واخفاء الانفعالات ، واحترام القواعد والأصول ، ويضاف الى ذلك دمقراطية الدولة ، وتوفر حرية النشر وحرية القول ، وهذا كان ثمرة الاستقرار السياسى والنضج العملى

وهذا الاستقرار الدائم قد جعل الانجليزى شخصية خداعة المظهر عسيرة الفهم ، فهو يملك حرية نقد حكومته والتذمر من أعمالها ، ولكنه مع نقده الدائم لها يعرف أنها خير حكومات الدنيا . ولكن الغريب قد يخطيء فهمه ويخال ذلك النقد بطر رجل أفسدته الحرية وأنه غير مستعد لبذل التضحية فى الدفاع عنها وأنه سيخذلها فى يوم الروع وساعة الخطر ، ولكن اذا ألمت ببلاده ملمة ظهرت قوته المكنونة وقدرته على التكيف وفق الحوادث ، وتجلت عبقريته العملية فى أبهر مجاليها ، وتبدى تصميمه الذى لا يتراجع . وقد كان بعض خصومهم قبل هذه الحرب الناشبة ينعون عليهم انحطاطهم وتدهورهم ، وها هو العالم يشهد من ثباتهم وصبرهم وقوة احتمالهم ما لم يكن يخطر لخصومهم ببال . والاستبداد يفنى حيوية الأمم ، ويغيض منابع الفكاهة فى نفوس أفرادها ، ويفقدهم المرونة ، ولكن الانجليز قد نشأوا فى جو الحرية فهم أهل فكاهة ومرح ، وهم يؤدون الواجب بباعث الاقتناع الداخلى لا بدافع الارغام . وشتان بين من يعمل مسوقا مرغما مرعوبا خائفا ومن يعمل عن اقتناع وايمان وفى لذة وارتياح

والانجليزى — على نقيض الألمانى — رجل حقائق لا رجل خيال . فهو يعيش فى حاضره ويدري ما حوله ، ونقص خياله من ناحية وكرهه للاسراف من ناحية أخرى جعله محتفظا بقوته معرضا عن الانغماس فى عالم الأفكار والانهماك فى التحليل

والانجليزى يبدأ فى بطء وتراخ ولكنه ينتهى بقوة وعنف ، وفيه من الكفاية ما يمكنه من تناول أى عمل من الأعمال واتقانه ، فهو من ثم لا يبذل جهده دفعة واحدة ولا يفنى قواه . وهذه الأمة العظيمة التى تحاول جهدها اخفاء مشاعرها وستر مظاهر انسانيتها قد أخرجت للناس أعظم شعراء العالم وأنتجت أروع مجموعة من الشعر

والذين يجهلون الانجليز يرمونهم بالجمود والفتور . ولكن الانجليزى رجل كثير الاحتجاز جم الحياء عامر القلب مشبوب العاطفة لا يبتذل عواطفه ولا يسخو برخيص الود ، ولا يحسن تصنع العطف ، وقد جعله موقع جزيرته واستخراج الفحم والحديد من مناجم بلاده صانعاً بارعاً وتاجراً ماهراً ، ولكنه مع ذلك يحرص على المغامرة والمخاطرة أكثر مما يحرص على جمع الثروة ، واحتجان المال ، ولذا لم يعرف بالبخل ولا بالضن على بلاده بالمساعدة عند ما تستدعى الظروف البذل والعطاء ، وهو محتفظ بسلامة أعصابه لنفوره من التطرف ومدخر لقوته وليس هو صلباً فيكسر ولا لينا فيعصر وخلاصة القول أن الانجليزى انسان قد نضجت شخصيته واستوت ملكاته واستتم تكوينه أما الالمانى فهو أمشاج لم تستوف تكوينها وعقلية مضطربة ونفس مهتاجة قلقة لم يتحقق بعد وجودها ، ولم تتأكد شخصيتها ولا تزال على حد تعبير فلاسفتها فى دور «الصيرورة»

على أدهم

لمحة من ..

المسرح الأنجليزى

للأستاذ زكى طليمات

مفتش شؤون التمثيل بالمعارف

المسرح الانجليزي ، على كونه مظهرا من مظاهر العظمة البريطانية وداعياً من دعاة أدبها الرفيع ، فانه يؤلف ناحية كبيرة من تراث الانسانية ونتاج ذهنها فى نسقه العالى واذا جاء يوم تنكمش فيه الامبراطورية البريطانية ، فانه تبقى لها شمس لا تغيب عن الكون ، هى شمس شكسبير

إن المستقصى مدارج المسرح الأنجليزى الى نشأته الأولى ، لابد أن يصعد فى التاريخ إلى القرون الوسطى ، ولا مندوحة له عن معالجة علاقة فن المسرح بالدين . وهذه شقة طويلة متشعبة المسالك منبسطة الأطراف، لا يمكن أن يُلم بها إلمامة مستفيضة فى هذا البحث الاجمالى

فن التمثيل والدين

نقول أولا إن المسرح الأنجليزى لم يشذ فى نشأته الأولى عن سائر مسارح الأمم الغربية . . انحدر فى أول أمره من عتبات الكنائس الى الساحات العامة ، ليعالج شئون الدنيا والناس بعد أن عالج شئون الدين والآخرة

بل هو فى نشأته ومدارجه وفى استكمال عناصره لم ينحرف عن سنن المسرح الأغريقي وغيره من مسارح الأمم الوثنية ذات المدنيات البائدة . ونستطيع أن نؤكد أن ما من مسرح أصيل كامل إلا كان بكليته فى أول الأمر مسخراً لشئون الدين قبل شئون الدنيا

والعلة فى ذلك أن الانسان الأول شغلته شئون الآخرة قبل شئون الدنيا ، فعنى بشئون العقيدة قبل أن يعنى بوضع أصول الاجتماع وسنن التعاشر

وقد كان المسرح الانكليزى فيما يلى قيام المسيحية ، وفى القرون الوسطى ــ وهى القرون التى استبدت فيها شئون الدين بتفكير أهل أوربا وسخرت نتاج أذهانهم من فنون وعلوم لخدمة الكنيسة وتدعيم أصولها ــ لا يصور غير ما يخامر قلوب الناس من تعاليم المسيحية ، وما يلابس عقولهم من أخبار الكرامات والخوارق التى أتاها القديسون ، فكانت المسرحية نوعا من مشاهد تمثيلية مقصورة على تفسير بعض نواحى النصرانية الخاصة بمولد السيد المسيح وآلامه ويعرف هذا

النوع باسم (الميستير Mystère) . ثم جاء نوع آخر بعد ذلك يمثل نتفا من حياة الحواريين والقديسين والشهداء ويعرف باسم (المعجزة Miracle)

وفى هذا النوع الأخير كانت تبسط أطراف الحوار على بعض شئون الدنيا وسلوك الناس . وسلوك الناس لا يخلو من الفكاهة والضحك ، فكان أن برز عنصر الفكاهة إلى جانب عنصر الدين ، إلا أن الفكاهة وجدت مجالها فى نوع آخر من المسرحيات يعرف باسم (Interlude) ، وكان يقدم للترفيـــه عن الجماهير التى كانت تشهد المسرحيات الدينية وقد لابسها الورع وخوف الآخرة . والفكاهة فى هذا النوع من المسرحيات لم تكن خالصة ولمجرد إثارة الضحك ، بل كان يخالطها شىء يردها إلى المسائل التى تتصل بالدين عن طريق غير مباشر

أما تمثيل هذه الروايات فكان يجرى فى أول الأمر على عتبات الكنائس وبواسطة رجال الدين، ثم انتقل إلى الميادين العامة وتولى أمره أشخاص من عامة الناس ، لم يكن هناك دور للتمثيل بالمعنى المتعارف عليه الآن ، وانما كانت المسارح تقام ارتجالا فى الميادين ثم تقوض بعد انتهاء التمثيل وكان لكل بلدة مسرحيتها وممثلوها

دور التمهيد

وقد ازدهر هذا النوع الناقص من المسرحيات مدى ما يقرب من خمسة قرون ، أى من القرن الحادى عشر إلى عام ١٥٨٠ ، تطورت أثناءها المسرحية الدينية ـ وذلك فى حكم الملك إدوارد الثالث ـ وانشعب منها نوع آخر يعرف باسم الرواية الوعظية (Morality) . ويحفظ تاريخ الأدب الانجليزى بعض أسماء لهذه المسرحيات أمثال : (الارادة) ، (الثبات) ، (الفهم)، (الانسانية) ، ومن هذه الأسماء يستدل على الموضوعات التى تعالجها . . .

أما الشخصيات فى كل مسرحية من هذه المسرحيات فكان يرمز بعضها الى ألوان من الفضائل والرذائل ، ويكنى البعض الآخر عن العناصر المكملة لموضوع المسرحية . هذه الأخلاط كلها تشملها حادثة دنيوية ما هى قوام الرواية ، يبرزها الكاتب فى سياقة جماعها الحذق والابداع . وفى تلاحق بعيد ما بينه وبين الواقع ومنطق الأشياء ، وتنتهى الرواية دائما بنصرة الخير على الشر

كذلك تطورت المشاهد الفكاهية (الـ Interlude) بأن أفلتت من محيطها الضيق الذى تفتعل فيه الفكاهة لخدمة المبادىء الدينية ، إلى محيط واسع المدى تشمل فيه الفكاهة كل شىء تقع عليه العين ويحتويه الحس ، فكان أن ظهرت (الفارس Farce) أو (المهزلة) ، وأصبحت شخوص المسرحية تحمل الأسماء التى يتسمى بها الناس

المرحلة الاولى للمسرحية الانجليزية الحقة

والمجال لا يتسع لتقصى المراحل الأخرى التى اجتازتها المسرحية الانجليزية لاستكمال عناصرها

وذلك فى عهد الملكة اليصابات ، إلا أنه تجمل الاشارة الى أن الكتاب أخذوا يعالجون الشئون الاجتماعية المحلية على غرار المسرحيات الاغريقية أى إخضاع حوادث الرواية لوحدة الزمان والمكان

وبعد أن كانت المسرحيات تمثل فى الجامعات العلمية وفى ردهات الفنادق والقصور أصبحت تمثل فى دور التمثيل ــ وذلك بعد عام ١٥٧٦ ــ كما تألفت فرق من محترفى التمثيل ، ثم أخذ الشعر المرسل مكان النثر أو النظم فى بعض الروايات

والى الكاتب (كريستوفر مارلو) أولا ، ثم الى الكاتبين جرين وبيل Greene and Peele يرجع الفضل فى إقرار هذا الأسلوب فى المسرحية الانجليزية

المرحلتان الثانية والثالثة

هؤلاء الكتاب الثلاثة هم أبرز مؤلفى هاتين المرحلتين (١٥٨٠ ــ ١٥٩٦)

والى (مارلو) ترجع الاسبقية فى كتابة المسرحيات بالشعر المرسل ، والى جون ليلى John Lyly يرجع إقرار الأسلوب النثرى ، وهو أسلوب بلغ كماله على يد (وليم شا كسبير) بعد ذلك . وفى مسرحيات (مارلو) و (ليلى) نجد أصلا لأعمال شا كسبير من حيث الأسلوب الكتابى

بل إن (مارلو) (١) ليعتبر بحق واضع الأسلوب الشعرى للمسرحية الانجليزية ، وما مسرحياته غير باب الصرح الخالد الذى تؤلفه أعمال شكسبير ، الا أن استبطان (مارلو) دخائل النفس البشرية لم يكن عميقاً واسع المدى

وتؤلف مسرحيات (مارلو) مع مسرحيات بن جونسون Ben Jonson المرحلة الثالثة من مراحل تطور المسرحية الانجليزية ، وهى المرحلة التى سبقت عصر شا كسبير

شا كسبير (١٦٥٤ ــ ١٦١٦)

فى مدى ثمانية وعشرين عاماً استطاع هذا العبقرى (وليم شا كسبير) أن يجعل المسرحية الانجليزية تحيط بالحياة البشرية إحاطة شاملة . فمسرحياته بمآسيها وفكاهاتها ومهازلها ، هى سفر القلب الانسانى الذى لم يتغير ولن يتغير ، وهى أيضاً صورة العصر الذى عاش فيه ، تركزت فيها معالم التيارات الفكرية والاجتماعية والدينية التى كانت تسود انجلترا فى عصرها الذهبى الأول

فى مسرحياته التاريخية أصداء مدوية من النزعة القومية التى كانت تعصف بالقلب الانجليزى

وفى مسرحياته التى تقع حوادثها فى بعض المدن الايطالية والتى لبعضها أصل قصصى فيما كتبه بعض أدباء عصر النهضة ، نلمس مبلغ تأثر الذهنية الانجليزية بأدب عصر النهضة

فى مآسيه المعروفة (يوليوس قيصر) ، (هملت) ، (عطيل) ، (مكبث) ، (الملك لير) ،

(١) أشهر مسرحياته هى (تامبورلين) و (دكتور فوست) و (يهودى مالطا)

(أنطونيو وكليوباترة) ، (كليولانس) ، (تيمون الاثيمى) سجل آثام الكائن الانسانى وخطاياه ، ورسم مسير القدر القاسى وهو يهدف الى غرضه . صور مصارع الجرعة والخيانة ، الطمع والترف والكبرياء ، غليان الحسد وثورة الغيرة ، يقظة الضمير وعذابه ، الجحود ولؤمه ، الضعف ومحنته ، جلائل العظماء وتفاهات المغمورين

وحدة الزمان والمكان

وفى كل هذا كان شاكسبير مبتدعاً لا متبعاً لا سيما فى القالب والصياغة والنظام الذي يجرى عليه تتابع المشاهد وتطور الحوادث . خرج شاكسبير على قاعدة وحدة الزمان والمكان فى الصياغة ، فسجل حدثاً فى تاريخ بناء المسرحية ، ويقضى اتباع هذه القاعدة بأن تجرى حوادث الرواية وتتتابع مشاهدها فى نهار واحد وفى مكان واحد . ووحدة الزمان والمكان هى دعامة الفن الاتباعى (١) فى صياغة المسرحية ، ابتدعها الذهن الاغريقى ، وعن قالبها المقيد صدرت نفائس المسرحيات الاغريقية (٢) ثم الرومانية ، ولم ينحرف عن هذه الخطة كتاب المسرحية فى فرنسا وفى ايطاليا ، فيما بين القرن السادس عشر والربع الاول من القرن التاسع عشر (٣) ، وهم كتاب أشربوا تعاليم الثقافة الاغريقية ، وتأثروا بها

كانت المسرحية فى هذا النظام المقيد بتلك الوحدة لا تسع غير تقديم عقدة الموضوع وجوهره وقد مُهد له بمشاهد قليلة تركزت فيها العناصر التى يتألف منها الجوهر ، وسرعان ما تأتى الفترة الأخيرة التي يجب أن يقضى فيها بحل أو نهاية . تقدم المسرحية هذه الحالة من غير أن ترسم بالحوادث المراحل التى هيئت لها والظروف التي لابستها وعملت على تكوينها ، ومن غير أن تجعل للزمن ـ وهو مكيف الحوادث ـ المجال الطبعى المألوف الذى تنضج على مروره عناصر المأساة أو المهزلة ، فكان المسرح والحالة هذه منتقل الألوان النفسية وقد غمرتها أشعة شمس واحدة تجرى فى حالة جوية واحدة

وبوفاة شاكسبير فى عام ١٦١٦ بدأ انحطاط المسرحية ، لأن من عاصره من الكتاب ، ومن جاء بعده حتى نهاية القرن السابع عشر أخفقوا بمسرحياتهم فى أن يأتوا بصورة جامعة للطبيعة الانسانية وقد بدا فيها الطبع البشرى مستقيما على مقدور غرائزه محوطاً بشباك الحوادث ومغريات الحياة ، وما أسماء (بن جونسون) ، و (بومان) و (فلنشر) و (ماسنجار) و (فورد) و (جيمس شيرلى) وغيرهم ، غير مجموعة من الكتاب يكادون يستقرون فى صعيد واحد ،

---

(١) الأدب الاتباعى يناظرها فى الفرنسية Classique

(٢) وهي مسرحيات سوفكل وأشيل وايرويبد وأريستوفان

(٣) فيكتور هوجو هو أول من نحا نحو شكسبير فى الخروج على وحدة الزمان والمكان فى كتابة مسرحياته للمسرح الفرنسى ، ولكنه لم يبلغ الشأو الذى بلغه شكسبير

أوتوا الحلابة فى العرض والأسلوب ، ولكن مواهبهم لم تتجاوز تصوير بعض من مظاهر الانسانية ، ولم تسجل غير الخلق السائد فى عصرهم فحسب ، فمسرحياتهم والحالة هذه جانب صغير من الانسانية انحرفت المسرحية الى تناول الشئون السياسية فكانت بوقاً للدعاية ينزل بها كل حزب سياسى لاذاعة مبادئه وانتقاص قدر معارضيه

ويسجل تاريخ الأدب الانجليزى فى نهاية القرن السابع عشر - وذلك فى عصر الملك شارل الثانى - أحداثاً هامة : فقد طغى الادب الفرنسى على الادب الانجليزى بعد أن ترجمت مسرحيات (كورني) ، (وراسين) ، (وموليير) وهم مؤلفون نابهون لم يخرجوا على وحدة الزمان والمكان ولم يكتبوا مسرحياتهم بالشعر المرسل ، كما فعل شا كسبير ، فكان أن اعتنق الكتاب الانجليز ، الى وقت ما ، مبادئهم ونسجوا على منوالهم حتى ان أبرز هؤلاء الكتاب وهو (دريدين) تأثر بهذه الموجة الوافدة من فرنسا مدى أربعة عشر عاماً ، ثم استطاع بعد ذلك أن يتخلص منها لينسج على منوال شا كسبير

كذلك تؤرخ بذلك العهد استعمال المناظر والاستار المسرحية وقيام السيدات والاوانس بالادوار النسائية التى كان يمثلها فيما مضى الشبان والرجال ، وظهرت المجموعات الراقصة (البالية)

القرن الثامن عشر

ويمتاز بازدهار المسرحيات الفكاهية والهازل الانتقادية والعابثة والعاطفية . وهى مسرحيات يخالطها الكثير من المرح والجرأة والصراحة ، ويعتبر (أستيل Steele) بروايته (المحب الكذوب Lying Lover) السابق الأول إلى إقرار المسرحية الفكاهية العاطفية التى تهدف إلى تحقيق غرض خلق كريم ، ويبرز اسم الكاتب (أديسون) بمأساته (كاتو) التى تعتبر نهاية العهد فى الأدب الانجليزى بنوع المأساة الطريفة التى يعلى فيها شأن الأسلوب الأدبى القديم على حساب إخفاض جوهر الطبيعة وخلجات النفس

وفى النصف الأخير من ذلك القرن ازدهر النثر واتسم بالوضوح والاشراق والسلاسة ، وهى صفات دخلت عليه من جراء تأثر الكتاب الانجليز بمؤلفات كبار كتاب فرنسا (فولتير ورسو خاصة) فهب الروائيون الانجليز تحت هـذا التأثير إلى إعلاء شأن الطبيعة بمظاهرها الواضحة واختلاجاتها الصادقة ، والى إخفاض شأن السفسطة اللغوية ، والبيان المزخرف ، وكل ما هو بهرج زائف فى رسم العواطف . وتعتبر مسرحيات (جولد سميث) (١) و (شريدان) (٢) نموذجا لخصائص الأدب المسرحى فى ذلك العهـد ، كما تمتاز بالفكاهة المتوبلة بتلك النكات التى يستولدها الذهن المتوقد وقد أطلق للملاحظة والمراجعة ابتغاء السخرية الباسمة

(١) أشهر رواياته (تمسكنت فتمكنت) . (الرجل الحسن الطويه)

(٢) من أشهر رواياته (مدرسة النميمة) ، (المتنافسون)

القرن التاسع عشر

وأبين ظاهرة نسجلها لتطور المسرحية الانجليزية أنها تأثرت من جديد ، من حيث الموضوع والحبكة المسرحية ، بتيارين أجنبيين أولهما جاء من النرويج عن طريق مسرحيات (هنريك أبسن) ، والثانى عن طريق المدرسة الفرنسية التى ازدهرت فى القسم الثانى من هذا القرن على أيدى (دماس الصغير) و (أوجييه) و (ساردو) ، فامتدت أطراف المسرحية الانجليزية إلى معالجة المسائل الاجتماعية بحرية واسعة وبصيرة نافذة ، وجنحت الى المغالاة فى الحبكة المسرحية وسياقة المشوقات والخدع . وقد أحسن هذا الاقتباس على وجه لا يخل كثيراً بشرائط الفن الرفيعة الكاتب (بينرو) (١) و (أوسكار وايلد) (٢) ثم (جلبرت موراى) . وينفرد (أوسكار وايلد) بذلك الطابع المنفرد الذى وسم به المسرحية الانجليزية ، وهو طابع واضح المعالم والحدود أظهر ما فيه إطلاق الحس حتى الاباحة ، وتقديس الجمال حتى العبادة . وبهذا أخضع (وايلد) المسرحية لخدمة الفن أولا وأخيراً ، وتعالى أن يسخرها لخدمة المبادىء الخلقية والنظريات الاجتماعية والعرف السائد

بهذه الجرأة وهذه السخرية شق (وايلد) أفقاً جديداً فى حرية الرأى فأنزل بالتحفظ الانجليزى العريق هزة عنيفة ، وبذلك مهد طريق إعلاء الحرية الذهنية والمجون اللاذع للكاتب (برنارد شو) فى هذا العصر

المسرح الانجليزى الحاضر

ومن أبرز كتابه (برنارد شو) (٣) و (جون جالسورثى) (٤) و (سومرست موجان) (٥) وكلهم للمسرحية الاجتماعية وللمبادىء الجريئة وللنقد اللاذع

ويعتبر (برنارد شو) أعظم مؤلفى المسرحية فى هذا العصر ، وفى مسرحياته عرض دقيق وتحليل صادق لبعض سيئات باطنة فى دخيلة المجتمع ، وفيها كشف واضح عن بعض النائه الغامض فى حنايا النفس ، يسجل هذا وما هو أبعد من هذا فى أسلوب ظريف العبارة رشيق النكات ، يفيض حماسة بالتهكم المر والسخرية اللاذعة المختارة . والحوار فى هذه المسرحيات هو موطن الجمال والخلابة ، بل هو كل شىء فيها ، إذ يسمو ويخلب الى حد أن تتغاضى العين مختارة عن تسقط نواحى الضعف فى بناء المسرحية من حيث حركتها وحبكة حوادثها . و (شو) فى اختيار موضوعات مسرحياته مغرم بالمعارضة ، مفتون بمهاجمة كل شىء قائم

زكى طليمات

---

(١) من أشهر رواياته بيزارو (٢) من أشهر رواياته (سالومة) و (مروحة لادى ويندرميل)
(٣) من أشهر رواياته (بيجماليون) و (تلميذ الشيطان) و (عربة التفاح) و (القديسة جان)
(٤) من أشهر رواياته (العدالة) و (الولاء)
(٥) من أشهر رواياته (الشعلة المقدسة) و (نهاية اليوم)

الامبراطورية البريطانية

إستعمارٌ أم اتحاد ؟

بقلم الاستاذ عبد الحميد عبد الغنى

العالم كالاسرة : تتفاوت شعوبه كما تتفاوت أفرادها • فمن أبناء الاسرة من يكبر اخوته عمرا أو يربو عليهم مالا ، ومن شعوب العالم من أوتى أكثر من سواه سعة فى العلم والثروة أو بسطة فى العدد والقوة • واذ كان مفروضا على الاخ الاكبر والايسر أن يعول الاخوة القصر الصغار حتى يبلغوا مبلغه من الرشد والرجولة ، فعلى الشعب الارقى أن يتولى أمر الشعوب المبتدئة أو المضطربة حتى يشتد أزرها ويستقيم سبيلها • وهذا هو الاستعمار المثالى : واجب تفرضه الاخوة العالمية على الشعوب الكبرى لتأخذ بيد الشعوب الصغيرة ريثما يواتيها من القوة والحضارة ما يمكنها من تولى شأنها وحدها • فما هو الا رعاية وتوجيه مجردين من أغراض السيادة والاستغلال • ولكن كثيرا ما يأثم الاخ فى حق أخيه فيأكل ماله ويسىء تنشئته ، وكذلك الشعب القوى كثيرا ما يأثم فى حق الشعب الضعيف ، فيستبد بأمره بدافع السطوة ، ويستأثر بخيره بدافع الجشع ، ويمنعه من أسباب الرقى مبيتا له نية السوء ليبقى أبدا كسيرا حائرا خاضعا •••

فالاستعمار لا ينكر ولا يكره اذا أخذه المستعمر أخذ الراعى المصلح لا أخذ المستبد المستغل ، فأهمه أن ترقى المستعمرة الى درجة من الحضارة يمكن عندها أن تريحه وتعفيه من عبء رعايتها وتوجيهها • ولكنه صار ممقوتا تجب حربه وكفاحه منذ خرج به المستعمر عن الوضع الصحيح ، فجعله سبيلا الى فرض سيادته وملء خزائنه وراحة أبنائه

فكرة الاستعمار البريطانى

فمن أى قبيل هذا الاستعمار الذى قامت عليه الامبراطورية البريطانية : أهو نشأ على الغزو والفتح ، واتجه الى السيادة والسيطرة ، ووجه كل همه الى تسخير المستعمرة واستغلالها ؟ أو هو عمد الى المستعمرة يعمر أرضها الخالية ويستثمر مرافقها المهملة ليصيب أهلها من الثروة والرخاء ما يهيئهم للحضارة وما لها من حقوق ؟

كان المستعمرون الاوائل دعاة سطوة ونفوذ ، اندفعوا فى أرجاء العالم النائمة يفتحونها بالرحالة والتجار ، أو يقهرونها بالغزاة والجيوش • أما أخلافهم المعاصرون فقد علمتهم احدى التجارب القاسية ان هذا الاسلوب الاستعمارى ولى بلا رجوع ، فما ان تؤخذ به

المستعمرة حتى تثور لحقها وحريتها وتتألب على الغاصب وتناضله فلا تلبث أن تتحرر من من اساره ، قبل أن يفيد منها ما كان يهوى وقبل أن تفيد منه ما ترقى به وتقوى

هذه التجربة القاسية التى أقامت حاجزا فاصلا فى تاريخ الامبراطورية البريطانية فحولتها من مجرى الاستعمار القائم على السيطرة والاستغلال الى مجرى الاتحاد القائم على التعاون والمساواة ، وقعت فى يوم ٣ سبتمبر سنة ١٧٨٣ حين عقدت معاهدة فرساى التى أعلنت استقلال الولايات الامريكية الثائرة بالحكم الانجليزى تحت امرة واشنجتون . فى هذا اليوم الفاصل فقدت انجلترا أهم الاجزاء التى استعمرها أبناؤها منذ أن وفدت أفواجهم فى بدء القرن السابع عشر الى الارض الجديدة فرارا من الاضطهاد الدينى فى أوطانهم أو سعيا الى مرافق الرزق الفسيحة فى هذه الآفاق السخية ، وتراءى للعالم حينئذ ان الامبراطورية البريطانية التى أنشأها الانجليز مكتشفين ومهاجرين ومحاربين فى زهاء قرنين من الزمان (١٦٠٦ - ١٧٨٣) قد لحقت بأخواتها الغابرات . ولكن الانجليزى - فردا وشعبا ودولة - يدرك ان التجربة أثمن ما يفيده المرء من الحياة ، فلم يطو هذا اليوم صفحة فى سجل الاستعمار الانجليزى الا لينشر صفحة أخرى قامت عليها أمبراطورية جديدة عظيمة : عظيمة فى اتساع آفاقها وضخامة سكانها وتنوع أجناسها وأديانها ولغاتها ، عظيمة فى سداد الفكرة التى تقوم عليها موحدة القوى موطدة الدعائم

رجع الانجليزى بصره الى الامبراطورية الاولى التى بناها فى أجيال وضيعها فى شهور ، وتساءل عما دعاها الى الثورة والنضال فأخذه العجب حين وجد الداعى تافها يسيرا ، فان رئيس الوزارة « جرانفيل » وجد حاصل الضرائب المفروضة على الولايات الامريكية لا يوازى ما ينفق فى جبايتها ، فأراد أن يزيدها برغم أنف الناس ، فكانت الثورة فالحرب فالهزيمة فانهيار الامبراطورية ... فآلى على نفسه أن يتخذ من هذه التجربة عظة وعبرة ، فلما بنى أمبراطوريته الجديدة لم يلق بالا الى أن يجعل أهلها أتباعا ورعايا ، وأرضها هدفا للضرائب ونهبا للاقوياء ، بل فكر فى أن يستعمر وفق « الطريقة المثلى » على قدر ما تتيحه له أطماع السياسة

هذا الى أن بريطانيا وجدت ان الاستعمار المثالى ميسر لها - الى حد ما - بحكم تكوين أمبراطوريتها . فالجزء الاكبر من مساحة مستعمراتها تسكنه شعوب بريطانية . وما زال أبناء هذه المناطق يعدون انجلترا وطنهم الاصيل ، أما بلادهم فمهجر عارض فالكندى الذى لم ير أحد من أسلافه المهاجرين أرض انجلترا اذا سئل وهو مسافر اليها أين أنت ذاهب قال : « انى عائد الى وطنى الى الارض الوالدة "Motherland"

فبين بريطانيا واكثر امبراطوريتها رابطة وثيقة من الاصل واللغة والدين يتعذر معها ان يعلو أحد الطرفين سيدا حاكما ويهبط الطرف الآخر عبدا خاضعا ، بل تقضى بأن يطبق على افراد الاسرة الواحدة نظام واحد لا يفرق بينهم الا بقدر ما يستدعيه التفاوت بينهم فى القوة والحضارة

تطور الاستعمار البريطاني

على أن ثمة ثلاثة أمور تجب ملاحظتها :

الاول ـ ان بريطانيا لم تغير طريقتها الاستعمارية الاولى بين عشية وضحاها ، بل حورتها وكيفتها على مر الاجيال وفق ما توالى عليها من الامور . فتارة كانت تمنح بعض مستعمراتها حكما ذاتيا يطلق حريتها فى ادارة شئونها الداخلية على ان تظل سياستها الخارجية فى يد بريطانيا توجهها الى حيث ترى مصلحة الامبراطورية كلها ، وتارة تتوسع فى اطلاق هذه الحرية حتى تشمل السياسة الداخلية والخارجية على السواء ، ما دامت لا تؤدى الى ايذاء الامبراطورية فى شأن من شئون السياسة والحرب والاقتصاد

والثاني ـ انها لم تطبق نظامها الجديد على أرجاء الامبراطورية على السواء ، بل قسمتها أقساما وفق درجات حضارتها وخصت كل قسم منها بنظام معين يلائم اسلوب حياته ودرجة تقدمه . فهناك الممتلكات المستقلة ، وهي كندا ، وجنوب افريقا ، واستراليا ، ونيوزيلندة ، وايرلندة ، وهذه لا تنقص عن بريطانيا فى شيء ما من الحقوق والحريات . وهناك المستعمرات واكثرها أقاليم منبثة فى أواسط أفريقا وجزر متناثرة فى البحار ، وهذه ما يزال نصيبها من الحضارة يفقرها الى رعاية بريطانيا وارشادها حتى يحق لها ان ترقى الى مستوى الممتلكات المستقلة . وهناك الهند التي وان لم يستقر دستورها حتى الآن على قرار وطيد الا انها وسط بين هذه وتلك تمشيا مع قدرتها على الانفراد بحكم نفسها حكما صالحا ودفع عادية الطامعين فيها ، هذا عدا المناطق الواقعة تحت الحماية او تحت الانتداب ولكل منها نظام يلائم مستواه المادي والادبي

الثالث ـ أن بريطانيا لم تقف بأى شعب من شعوب امبراطوريتها عند نظام معين من هذه النظم لا يتعداه أبدا ، بل منحت كل شعب نظاما أوسع حرية وأكثر ملاءمة كلما ازداد نصيبه من الرقي المادي والمعنوى . وامامنا مثالان على هذا : فالجزء الجنوبي من روديسيا أصاب من الرخاء والحضارة نصيبا كبيرا حمل بريطانيا على ان تشرع فى منحه حقوق الممتلكات المستقلة بكافة شئونها استقلالا تاما ، وهذه نيوفوندلاند كانت احدى الممتلكات المستقلة ولكنها عجزت عن ادارة شئونها الداخلية مما أدى الى ارتباك حياتها الاقتصادية واستهدافها لازمات خطيرة ، فدعا برلمانها فى سنة ١٩٣٤ الحكومة البريطانية الى استئناف ادارة نيوفوندلاند ريثما تعالج ازمتها الاقتصادية وتصلح اداتها الحكومية ، وهكذا تخلت عن بعض حريتها بمحض رغبتها وبدافع منفعتها لانها لا ترى فى حكم بريطانيا استبدادا ولا استغلالا ، بل لا تجد الا رعاية واصلاحا

الاتحاد البريطاني

فالامبراطورية البريطانية فى تطور مستمر يلائم بين ما تبلغه وحداتها من درجات

الحضارة وبين ما ترسمه لها من الانهاج الدستورية • وآخر درجات هذا التطور هي تلك التي حددها « قانون وستمنستر في سنة ١٩٣١ » والذى انتهى به الدور الثانى فى تاريخ الامبراطورية (١٧٨٣-١٩٣١) وبدأت به الامبراطورية الثالثة بعد ان اتخذت اسما جديدا يلائمها وهو «الاتحاد البريطانى "British Common Wealth" •فلم تعد ثمة امبراطورية تستمد حياتها من هيئة حاكمة وتركز حكومتها فى عاصمة واحدة وتجعل بعض أهلها حكاما وبعضهم محكومين ، بل غدت مجموعة من الدول المستقلة فى كافة شئونها ، مجتمعة معا فى وحدة سياسية وحربية واقتصادية ، ومشتركة معا فى ملك واحد يقف منها جميعا موقف الوالد من ابنائه لا موقف الحاكم من أتباعه • « فقانون وستمنستر » هذا يوضح الفرق بين الاتحاد البريطانى القائم وبين الامبراطوريات المعاصرة والغابرة ، وهو المثل الاعلى الذى تسعى اليه كثير من الشعوب البريطانية ليرقى بها الى مستوى الدول المستقلة ، فلا يبقى ثم فارق بينها وبين أية دولة ذات سيادة الا انها تشارك دولا أخرى ملكا واحدا ••

فلنلخص أصول هذا القانون لنتبين ان بريطانيا لم تتخذ كلمة « اتحاد » بدلا من كلمة « امبراطورية » من قبيل خداع الالفاظ وتغريرها ، بل من وجهة التعبير الصحيح عن المعنى باللفظ الدقيق :

فمن ناحية السياسة الخارجية نجد ان لكل من الممتلكات الخمس مندوبا فى عصبة الامم كما أن لبريطانيا وسائر أملاكها مندوبا سادسا ، ولكل من هؤلاء المندوبين ان يبدى رأيه ويعطى صوته كيف شاء ولو ناقض آراء الآخرين وأصواتهم ، ذلك انه مسئول أمام حكومته وحدها ولا شأن له بالحكومة البريطانية • ولكل من هذه الممتلكات ان تفوض الوزراء وترسل المندوبين الى الدول الاجنبية وان كان لها الحق فى ان تستعين بعضها ببعض فى أمر التمثيل السياسى كما هو شأنها فى مصر • فلكندا مفوضيات فى واشنجتون وباريس وطوكيو ، ولايرلنده مفوضية فى برلين وأخرى فى روما • وهذه الممتلكات مستقلة فى سياستها الخارجية استقلالا تاما الا ان عليها الا تتفاوض مع دولة أجنبية الا بعد ان تخطر سائر أعضاء الاتحاد البريطانى ، وان تلقى بالا الى مصالح زميلاتها فلا تعقد اتفاقا يضر وحدات الاتحاد سياسيا أو اقتصاديا • ولها فضلا عن هذا ان ترفض الموافقة على أى اتفاق تعقده بريطانيا وان تتخذ موقفا يخالف موقف بريطانيا فى السياسة الخارجية • فهذه حكومة جنوب أفريقية أرادت ان تقف على الحياد فى أول هذه الحرب ولكن برلمانها أسقطها وأقام حكومة جديدة أجابت رغبة الشعب فى المساهمة فى الحرب ، وهذه ايرلندة ما زالت على الحياد قائمة الصلات بألمانيا وايطاليا

وفى مسألة الدفاع تتولى كل وحدة من الممتلكات تعين القوات اللازمة للدفاع عنها ولا تتدخل الحكومة البريطانية فى هذا الشأن الا اذا دعتها الممتلكات • ولكل وحدة الحرية الكاملة فى ألا تقدم لبريطانيا أى شيء من المعونة الحربية فى حال اشتباكها فى القتال ، وليس لحكومتها ان تقدم هذه المعونة الا بعد موافقة برلمانها • فأسطول استراليا مثلا خاضع

لحكومتها خضوعا تاما على انها تستشير وزارة البحرية البريطانية فى أمر اعداده وتدريب بحارته ليلائم الاسطول البريطانى عندما يشتركان معا فى القتال • وقد تعهدت الحكومة البريطانية بأن تقدم الى أية ممتلكة يعتدى عليها أقصى ما تستطيع من المعونة الحربية ، فكان طبيعيا ان تسير هذه الوحدات ـ برغم ان القانون يعفيها ـ أفواج جنودها واسراب طياراتها وسفائن أساطيلها الى كل ساحة تشتبك فيها بريطانيا مع اعدائها • وهذه الكتائب والاسراب التى تدفقت على ساحات أوربا والشرق فى هذه الحرب دليل على سداد سياسة بريطانيا التى رأت ان « الاتحاد » أقوى بناء وأشد تماسكا من « الامبراطورية »

ويتمثل استقلال هذه الممتلكات فى انظمة حكوماتها • فلكل منها برلمان ووزارة لهما الفصل فى جميع الشئون • ولا يجوز تغيير نصوص الدستور فى اية ممتلكة الا بموافقة البرلمان أو باستفتاء الرأى العام • ولبريطانيا حاكم عام فى كل من هذه الممتلكات مهمته أن يمثل ملك بريطانيا لا أن يمثل الحكومة البريطانية • ومعنى هذا ان صلته بحكومة الممتلكة كصلة ملك بريطانيا بحكومتها ، وهى مقصورة على الارشاد والتوجيه مع قيام الحكومة بتحمل المسئولية كلها • أما ما بين اجزاء الاتحاد البريطانى من المصالح التجارية والصلات السياسية فتترك رعايتها الى مندوبين سامين توفدهم الممتلكات الى بريطانيا كما توفد هذه أمثالهم الى ممتلكاتها • ولكن هذه الرعاية محدودة جدا فمثلا فى مسألة الهجرة تجد اكثر الممتلكات ترفض قبول ابناء بريطانيا فى حين ان هذه قلما ترفض هجرة أحد من ابناء امبراطوريتها

ولندرك مدى استقلال الممتلكات البريطانية استقلالا لا يمكن ان يفهمه أى عقل سياسى الا أن يكون على طراز العقل الانجليزى الذى لا يأبه للنصوص وانما تعنيه الوقائع ، حسبنا أن نذكر أن برلمان أية ممتلكة له الحق الكامل فى أن يقرر انفصالها من الامبراطورية البريطانية فلا يحل لبريطانيا ان تعترض على هذا القرار ولا يسعها الا أن تقبل انفصال كندا أو استراليا منها بمجرد موافقة برلمانها !

روابط الاتحاد البريطانى

هذه بعض قواعد قانون وستمنستر الذى تحولت به الامبراطورية « اتحادا » تربطه صلات الاصل واللغة ، وصلات السياسة والتجارة، برباط أوثق من رباط الحكم والسطوة• ومتى كانت صلة الشعب بالحاكم العاتى أحكم من صلة الولد بالام الرؤوم ؟ فهذه استراليا الفسيحة الخصيبة ترمقها عين اليابان الطامحة الى التوسع والاستعمار ، ولكنها لا تخشى بأسا فقد تكفل الاسطول البريطانى بتأمينها ، دون ان ترهق الملايين القليلة التى تسكنها ببناء أسطول خاص بها يرد عنها عادية اليابان • وكذلك افريقية الجنوبية كفت نفسها مؤونة بناء الاساطيل وحشد الجيوش بأن جعلت من سيمونستون قاعدة للاسطول البريطانى وتعهدت بأن ترد أى مغير عليها يأتى من داخل القارة • ثم أليس هذا الاتحاد البريطانى

كفيلا بأن يتيح لوحداته ما لا يتاح لاية دولة من المزايا الاقتصادية ، ويهيىء لها ما قل أن يتهيأ لغيرها من الاستقرار المالى • فهذه كندا لا تختلف كثيرا عن الولايات المتحدة من الوجهة الاقتصادية ، ولكن لما وقعت أزمة سنة ١٩٣٢ لم يفلس بنك واحد من بنوك كندا بينما أفلس فى جارتها ثمانية آلاف من البيوت المالية وفقد ملايين من الناس ودائعهم ومدخراتهم • ثم ان هذا الاتحاد البريطانى يهيىء ـ بفضل ما قرره مؤتمر أوتاوه منذ ثمان سنين ـ لاجزائه المتفرقة فى أقطار العالم الاربعة أسواقا رائجة تصرف فيها كل منتجاتها الزراعية والصناعية ، فصوف استراليا وجبن نيوزيلنده وفواكه افريقية وغلال كندا ، تنقل على السفن البريطانية بأسعار مخفضة وتمنح فى اسواق الاتحاد الكثير من المزايا التجارية ، ليس أهمها تخفيض الرسوم الجمركية ، مما يسهل تصريفها ورواجها

فهل من ينكر اذا رأى غاندى حين يجعل الهدف الذى ترمى اليه الهند فى جهادها أن ترقى من مستوى المستعمرات الى مستوى الممتلكات دون ان تنفصل من رابطة الاتحاد البريطانى التى تكفل بأن تدفع عنها عادية الحالمين بها والطامعين فيها ، وتتكفل بأن تضمن لها استقرارا اقتصاديا يزكى زراعتها وينمى صناعتها ويروج سوقها ، على ان يتاح لها من الاستقلال الداخلى ما يمكنها من اصلاح حياتها الاجتماعية والثقافية التى لا ينكر الكتاب الانجليز انفسهم ان بريطانيا غفلت عن بعض نواحيها ؟ هذا وقد شرعت بريطانيا تطلق للهند كثيرا من حقوق الممتلكات وان ظل مركزها مضطربا لا يقر على قرار ، ذلك ان الخلاف بين حكومة بريطانيا وزعماء الهند ينحصر فى سؤال واحد : هل بلغت الهند المستوى الادبى الذى يؤهلها لان تستقل بادارتها الداخلية وسياستها الخارجية ، فالمسألة بين الفريقين لم تعد اكثر من مسألة وقت وتقدير وليست قضية تجن واستبداد

وثمة ما هو أهم وأجدى من هذه المزايا السياسية والمنافع التجارية التى يتيحها الاتحاد البريطانى للاجزاء المنضوية تحت لوائه ، هو هذا الروح الطيب الذى يسرى فيما بين بريطانيا وممتلكاتها من الصلات • ليس من ينكر ان بريطانيا أخطأت فى حق بعض الشعوب أخطاء كبيرة ولكنها فى الغالب أخطاء أفراد من حكامها أخذتهم العزة بالحكم والقوة وليست اخطاء سياسة عامة تعمد البغى والسطوة • ذلك ان السياسة البريطانية تمتاز بما يمتاز به الفرد الانجليزى من صفة التسامح التى مكنت بريطانيا من أن تؤلف حولها القلوب ومن ان تحقق من وراء ذلك مآربها • وهل من دولة تتخذ مع عدوها ما اتخذت بريطانيا مع البوير فى جنوب افريقية ؟ فبعد حرب دامية نشبت بين الفريقين ثلاث سنين طوال انتصرت بريطانيا بعد أن ضحت بآلاف من الرجال وأكداس من المال ، ولكنها فى المعاهدة التى عقدتها مع غريمها المهزوم أبت ان تفرض عليه غرامة حربية ، لا بل تعهدت بأن تدفع له كل ما انفقه فى القتال ، لا بل زادت على ذلك أن منحت ولايتى البوير ، الترنسفال والاورانج ، الحكومة الذاتية التى حاربتا وهزمتا فى سبيل اقامتها منذ سنين قلائل ! فماذا كانت النتيجة الا أن يقوم البوير تحت امرة قائدهم الذى دوخ الانجليز طويلا ، الجنرال

بوثا ، قومة الدفاع عن بريطانيا حين شبت الحرب الماضية ، ووقع آلاف منهم صرعى فى ساحات افريقية وهم يقاتلون ألمانيا التى حالفتهم وعاونتهم بالمال والسلاح عندما كانوا يحاربون بريطانيا !

فأخلاق الانجليزى تتمثل واضحة فى تكوين امبراطوريته ، فكما تجرى الصلة بين الرجل الانجليزى وجاره تقوم العلاقة بين بريطانيا وشريكاتها فى الاتحاد . ومن أبرز وأقوى الصفات الانجليزية صفة « الفردية » التى تتيح لكل امرء ان يتخذ من الافكار والعقائد ما يشاء وان يصرف حياته وفق ما يريد ، دون ان تضعف هذه الخلة من خلة أخرى ليست أقل منها قوة وبروزا هى « التعاون » الذى يجمع الانجليز صفا واحدا فى الملعب والنادى ، أو فى النقابة والجمعية ، أو فى السياسة والحرب . فاذا أجلت البصر فى انحاء الاتحاد البريطانى وجدت هذا التعاون وهذه الفردية على أوفى ما يكونا من الوضوح والتأثير ، فكل شعب من شعوب الاتحاد يستغل مميزاته القومية استغلالا لاتشوبه اية شائبة من ضغط ظاهر أو مستور ، فله ان يعبد الله وفق ما يرى وان ينطق لسانه كما يريد وان يتخذ ما يشاء من العادات ويحفظ ما يؤثر من التقاليد . بل ان كل وحدة من وحدات هذا الاتحاد لتجد المعونة من زميلاتها للمحافظة على خصائصها القومية التى تمكن كلا منها من أن يقوم ويختص بناحية من نواحى النشاط الانسانى المتعددة ، فهذه الوحدة للزراعة ، وتلك للصناعة والثالثة للرعى ، وهكذا تتجمع من جهودها كتلة كاملة من مختلف الاعمال تغنى الاتحاد عن الاستعانة بغيره من الشعوب . فكما ان الفردية الواضحة فى الفرد الانجليزى لا تعوق ، بل هى تعزز ، روح التعاون فى كتلة الشعب ، فكذلك القومية المتأصلة فى وحدات الامبراطورية لا تعطل ، بل تؤكد ، روح التآزر والاتحاد بين اجزائها المتماسكة . فمن الخطأ ان نحسب الانجليز يحافظون على قومية الشعوب المرتبطة بهم من قبيل التملق والتغرير ، وصرفا لها عما تريده بها من تحكم واستغلال ، وانما هم يقيمون سياستهم على اساس من اخلاقهم ، فكما تعنيهم الفردية فى الآحاد تعنيهم القومية فى الشعوب ، وكما أمنوا على روح التعاون فى كتلة الشعب فهم آمنون على روح الاتحاد بين أجزاء الامبراطورية

هكذا يقوم الاتحاد البريطانى على دعائم راسخة : منها ما يتيحه لاعضائه من الضمان السياسى والحربى دون أن يحملها أعباء التجنيد والقتال ، ومنها ما يهيئه لوحداته المختلفة من اسواق التجارة ومن أرصاد المال المحفوظة لنجدتها وقت الازمات ، ومنها روح التسامح التى تسود ما بينها من العلاقات فتؤلفها حول تاج واحد يرعاها جميعا على السواء ، ومنها خلق المحافظة على القوميات وتعزيزها مما يؤمن الافراد والجماعات على القوى المعنوية التى تعتز وتفاخر بها

عبد الحميد عبد الغنى

الأدب الانجليزى : أدبٌ عالمى

بقلم الاستاذ لويس عوض
مدرس الادب الانجليزى بكلية الآداب

ليس الأدب الانجليزى ادباً محلياً ، انما هو أدب انسانى ، شأنه فى ذلك شأن الادبين الاغريقى والفرنسى . هو أدب يعبر عن عواطف الجنس البشرى ، لا عن عواطف الانجليز وحدهم

من أقوال النقاد فى مقومات شخصيات الامم ان نبوغ الايطاليين يتمثل فى نحتهم والفرنسيين فى رسمهم ، والالمان فى موسيقاهم ، والانجليز فى شعرهم . وأصحاب هذا التعميم يريدون به تلخيص صفات الشعوب لا تحديد ملكاتها . فلو انك أقررت مثل هذا التعريف على سذاجته لألفيته أقرب الى الصحة عندما نعرض للانجليز دون الآخرين . ذلك لان للفرنسيين أدبا وموسيقى ، وللايطاليين رسما وغناء ، وللالمان حظا وسطا من الادب والرسم . أما الانجليز فخصائصهم الواضحة ثلاث : شعرهم ، وسياستهم ، وأخلاقهم ، وهى جميعا متصلة فيما أرى . أما بقية الفنون فنصيبهم منها محدود . ولقد يحدثك الانجليزى عن جمال العمارة القوطية المتجلى فى كنيسة كلية الملك بكامبريدج ، أو روعة الفن النورماندى كما يراه هو فى كاتدرائية ايلى ، أو عبقرية الطراز الكلاسيكى المجسدة فى كاتدرائية سانت بول ، ولقد يحدثك عن ألحان بيرسيل وهاندل ، ولوحات رينولدز وجينز بورو وتيرنر ، فتستمع اليه ثم تبتسم ولسان حالك قائل : كل هذا جميل ، لكنه فن مستعار ، ومن رأى عمائر باريس ورينس وشارتر وفلورنسا فما حاجته الى عمائر لندن وكامبريدج وكانتربرى ويورك ؟.. اذن فنبوغ الشعب الانجليزى متمثل فى أدبه . فلنبحث عن أساس هذا الادب ولنحلل روحه تحليلا

للانجليز شعر ومسرح وقصة وملاحم ونقد أدبى . والنظر فى أنواع الادب هذه مجتمعة يقتضينا أن نبحث فى صلات الادب الانجليزى بغيره من الآداب الاوربية ، كما يقتضينا أن نلم بما أضافه الانجليز الى التراث الادبى الذى تداولته أمم الغرب الى يومنا هذا فلو أننا أضفنا الى كل ذلك تفصيلا للافكار الرئيسية فى الادب الانجليزى لخرجنا بصورة مجملة عن أدب الانجليز

– ١ –

ينبغى اذن أن يكون البحث فى ثقافات دول أوربا مقارنا . عبث أن يتحدث متحدث عن الادب الانجليزى كأنما هو نبات جاء نماؤه واثماره فى تربة انجلترا دون سواها ، لان الانجليز ، كالفرنسيين والايطاليين والاسبان، استمدوا غذاءهم الاولى من اليونان والرومان، ثم انهم اعتمدوا على الشعوب الاخرى فى انشاء أدبهم اعتمادا كبيرا . فاذا أنت أردت أن تقف على مدى أثر الثقافات القديمة والاجنبية فى الادب الانجليزى فانى ألخص لك الموقف فيما يلى :

أولا : النقد الانجليزى من يوم ظهوره فى القرن السادس عشر الى سنة ١٨٠٠ ، أى بين روجر آسكام ووليم ورذورث ، معتمد كليا على نقد الاقدمين ونقد الفرنسيين ففى عصر اليزابث كان النقاد الانجليز ينسخون فى لغتهم ما قاله أرسطو فى أصول المسرح والشعر والبلاغة ، ويلخصون ما كتبه جواشان دى بيليه وهنرى اتيين الفرنسيان عن نضوج اللغة الفرنسية محاولين تطبيق نظرياتهم على اللسان الانجليزى . فلما أن انقضى عصر النهضة تحول النقاد من أرسطو الى هوراس وشيشرون وكوينتليان ، وهم أئمة النقد عند الرومان . وبعبارة أخرى يمكن الجزم بأنه ليس هنالك ما يمكن أن نسميه نقدا « انجليزيا » قبل ورذورث

ثانيا : يدين الانجليز للاقدمين بأشكال أدبهم وبعروضهم . فلقد أخذوا عن الاغريق فن الدراما وفن الملحمة ، وهما أهم فنون الانتاج الادبى جميعا ، وبهما تحققت عظمة شكسبير وبن جونسون وسبنسر وملتون ودرايدن ولورد بيرون وغيرهم . كذلك أخذ كاولى ومقلدوه عن بندار الاغريقى بعض أوزانه . كذلك نقل الكساندر بوب وأتباعه عن هوراس فن الشعر التعليمى والهجاء وفن الرسائل . كذلك انتقل القالب الشعرى المعروف بالسونيتة من ايطاليا الى انجلترا ، وما وزن القافية المزدوجة التى يرتكز عليها الشعر الانجليزى فى القرن الثامن عشر الا وزن نقله تشوسر ، أبو الشعر الانجليزى ، عن الفرنسية ، وهكذا دواليك

ثالثا : اذا أنت تأملت حال الشعر الانجليزى فى مختلف عصوره استرعى انتباهك اشتداد الشبه بينه وبين مصادره فى القارة الاوربية . فتشوسر كان يقتات على جثة بوكاشيو اقتياتا ، وما « حكايات كانتربرى » و « قصة الوردة » سوى أساطير غزلها الايطاليون والفرنسيون. كان لودج يترجم ما كتبه فيليب ديبورت الفرنسى ترجمة حرفية ثم ينسبه الى شخصه . كذلك كان يفعل دانيل وجون سيلفستر . كذلك كانت تفعل الكثرة المطلقة من صغار الشعراء فى عصر اليزابيث ، حتى لقد أصبحت السرقة والاقتباس من أهم أركان فن التأليف . وأحسب ان اعتماد شكسبير العظيم على فلوطرخس وسواه غنى عن التنويه . أما ملتون فلا سبيل الى فهم ملحمته « الفردوس المفقود » فهما صحيحا الا بالرجوع الى العهد القديم من الكتاب المقدس واستيعاب « انيادة » فرجيل . أما شعراء

القرن الثامن عشر جميعا فقد كانوا يترجمون هجائيات هوراس وجوفنال وينهبون نهبا فرجيل وأوفيد وغيرهم من شعراء اللاتين : نهبوهم علنا وبترخيص من النقاد

بهذا القدر القليل أوجز الكلام عن الرابطة القوية بين الادب الانجليزى وسائر الآداب الاوربية . لكن الحديث فى الروابط لا يهم الا المختصين فى دراسة تسلسل الثقافات . وهو وان أفاد الراغبين فى معرفة تاريخ الادب الانجليزى ، الا انه قد يصرفنا عن البحث فى قيمة الادب الانجليزى والافكار الاساسية فيه

- ٢ -

ليس الادب الانجليزى أدبا محليا كبعض الآداب الاخرى ، انما هو أدب انسانى شأنه شأن الادبين الاغريقى والفرنسى . هو أدب يعبر عن عواطف الجنس البشرى كله لا عن عواطف الانجليز وحدهم . هو أدب تقف فيه على تطور القيم للانسانية الحقيقية ، كما ان صلته بالمجتمع وقيمه واضحة ودائمة . وبالجملة فهو أدب حى ينمو نماء عضويا ، ودليلك على ذلك أن توازن بين المشاكل الدينية والسياسية التى كانت تشغل تفكير ملتون فى القرن السابع عشر والمسائل الاقتصادية والاجتماعية التى تملأ مسرحيات برنارد شو فى القرن العشرين . الدراما الانجليزية مستودع العواطف والآلام الانسانية ، والشعر الانجليزى سجل لتطور الفكر من أيام هوميروس الى يومنا هذا

- ٣ -

الافكار الاساسية فى الشعر الانجليزى اثنان : الدين والطبيعة

ذكر الاب بريمون فى كتابه عن « الشعر الخالص » ان ناظم الشعر صوفى يتعبد الى الله لكنه ينحرف عن قبلته فى أدق مرحلة من مراحل العبادة . وحاول مستر مدلتون مرى أن يثبت قياسا على هذا ان شكسبير شاعر متدين ، وكلامه صحيح الى حد بعيد . كلام مستر مرى صحيح لو انك جعلت مدلول الدين محاولة الآدمى أن يتصل بشعوره بالمجهول . فشكسبير لم يكن مسيحيا فى شىء بل كان وثنيا ، والوثنية دين . كان شكسبير متدينا لان مسرحياته تملؤها مشكلات الحياة والموت والاخلاق . تقرأ « الكوميديا الالهية » فتقول ان دانتى شاعر مسيحى . وتقرأ « فاوست » فتحكم بأن جيتى شاعر شديد التدين، لكن ادراكه لذات الله وحلوله فى الطبيعة أبعد ما يكون عن المسيحية . وتقرأ « هاملت » فيدهك ان شكسبير انسان لا دين له يجتهد فى كشف الحجب كما اجتهد أن يكشفها أول « انسان » فكر فى الدين . تقرأ « الفردوس المفقود » فتشعر بأن ملتون مسلم قوى الاسلام فى كثير من نواحيه: تراه متطهرا لا يؤمن بالقسيس ووساطته بين الخالق والمخلوق ، تراه شديد الاحساس بقيمة الحياة الدنيا محبا لها ، تراه يفسر الكتاب المقدس تفسيرا شخصيا عمليا ، فيبيح الطلاق وتعدد الزوجات ، تراه يجعل الرجل صراحة قواما على المرأة ، فالرجل عنده ظل الله والمرأة ظل الرجل ، تراه يمقت الطقوس الكنسية وينكر تزيين

بيوت الله بالصور والتماثيل ، وبالجملة تراه يستقى آراءه وخواطره من « التوراة » لا من « الانجيل » • لهذا قلت ان ملتون لم يكن مسيحيا بل كان مسلما متدينا • تقرأ «المقدمة» فلا تجد فيها غير دين خالص جميل ، ليس هو دين المسيح بل دين وردزورث ، أو على الاصح دين سبينوزا وسنانكور وجيتى : هذا الدين هو اندماج الله فى الطبيعة ، وهو دين علمى متفائل خالص من الاساطير ، يضع الانسان فى موضعه الحقيقى من الكون ويسوى بينه وبين الزهرة والجبل والغابة والبحيرة وسائر الاحياء ، لانهم جميعا « أجزاء » من الطبيعة • طرد شلى من اكسفورد بتهمة الالحاد ، لكن شلى ، شأنه شأن روسو ، مسيحى كالمسيح دون أن يعلم : أركان دينه الحب والرحمة والمساواة والسلام ، تقرأ هذا فى قصته « بروميثوس طليقا » وفى كتاباته السياسية وفى أغلب شعره الغنائى • أما كيتس فقد كانت آلهته أبولو وفينوس وباخوس وكان دينه الجمال • ألم تسمعه يقول ان الجمال والحق شىء واحد ، فمن عرف هذه الحقيقة أغنته عن علم الارض والسماء ؟ تقرأ ماثيو أرنولد فاذا به يكاد أن يكون دينا قراحا ، وفكرته الدينية لا ريب مشتقة من أفكار الطبيعيين أمثال سبينوزا وسنانكور وجيتى وورزورث • لم يكن أرنولد شديد الكلف بالمسيحية ، ولذا آثر أن يصف غاية الشعراء بأنها « نقد للحياة » • لكن شعره برغم كل ذلك شعر متدين ، بل شعر صوفى تجرد للتأمل فى الطبيعة وفى المجتمع

هذه هى روح الادب الانجليزى والفكرة الاساسية فيه • ترى من كل هذا انى أعرضت عمدا عن الخوض فى أدباء الانجليز المتخصصين فى الدين والفلسفة • فهناك مدرسة من الصوفيين المحترفين نشأت فى القرن السابع عشر وأئمتها جون دن وجورج هربرت وريتشارد كراشو وهنرى فون وتراهيرن وروبرت هريك ، ويطلق عليهم لقب « المدرسة الميتافيزيقية » لكثرة شعرهم المسيحى • كذلك نشأت فى القرن الثامن عشر مدرسة الشعر التعليمى وزعيمها ألكساندر بوب ، اختصت فى بسط نظريات الفلسفة والاخلاق شعرا • ولهؤلاء جميعا نظائر فى عامة الآداب ، فانتسابهم الى الادب الانجليزى عرض لا خاصة

الدين والطبيعة هما موضوع الادب الانجليزى اذا أجزت التعميم • أما الاساس الشكلى لهذا الادب فهو مبدأ الحرية ، واليك كيف دخل مبدأ الحرية فى تشكيل الادب الانجليزى

— ٤ —

يقول الفرنسى للانجليزى : « أنتم أشد محافظة منا • انظر كيف يلبس قضاتكم الشعر المستعار ، ويصر أساتذتكم على ارتداء الروب الجامعى • انظر الى تقاليدكم البالية كيف تخول للملك ان يبيع الاسطول الانجليزى وتحرم عليه أن يدخن سيجارة فى الحفلات الرسمية • انظر الى قوانينكم كيف تستمدونها من احكام القضاة فيما سلف من القرون لا من فكرة منظمة عن العدالة • انظر الى تيارات الفكر لديكم كيف تجيئكم خمسين عاما بعد انتشارها فى القارة الاوربية • أنظر الى التلفون الاوتوماتيكى كيف تتمهلون فى تعميمه بلندن حتى يتبين لكم نجاحه بنيويورك • انظر اليكم تحتفظون بمدفأة الفحم والعالم كله

يستدفىء بأنابيب المياه الساخنة » • فيجيب الانجليزى فى تهكمه المعروف : « بل أنتم المحافظون الجامدون • ألم تنضج قبلكم سياسيا بقرن وبعض قرن ؟ ألم نعدم شارل الاول سنة ١٦٤٩ ، وأعدمتم لويس السادس عشر سنة ١٧٨٩ ؟ ألم نعط نساءنا حق التصويت سنة ١٩١٩ ، ونساؤكم لا زلن ينتظرن ؟ ألم نقرر مبدأ المساواة المدنية بين الزوج والزوجة ، وأزواجكم لا زالوا يصادرون مال زوجاتهم بأمر القانون ثم يحلونهن المحل الثانى فى بناء الاسرة ؟ أليست حدائق التريانون مثلكم الاعلى فى فن البساتين ومثلنا غابة وندسور ؟ ثم ، فوق هذا وذاك ، أليس نبوغنا يتمثل فى فن شكسبير ونبوغكم فى فن راسين ؟ »

الواقع أن كل ما تقدم عن الانجليز والفرنسيين صحيح • فان لهم جميعا مواقف تؤيد انهم أشد شعوب الارض تقدما كما أن بهم من الصفات الحقيقية ما يؤكد انهم فى مؤخرة أمم الارض جمودا ورفضا لمبدأ التطور • لكن من أراد ان يلمس الفارق بين الانجليز والفرنسيين فليقف على الفارق بين أدب شكسبير وأدب راسين وبين حال اللغة الانجليزية وحال اللغة الفرنسية

تجد الفرنسى مثلا يقيم وزنا كبيرا لاحكام « الاكاديمى فرانسيز » بينا أن الانجليزى لا يفكر لحظة واحدة أن يسلم ذوقه لمجمع أو لمدرسة • كان من هنا ان نمت اللغة الانجليزية نموا طبيعيا فى جو من الحرية ، واللغة الفرنسية بعض نموها صناعى • الاساس فى اللغة والادب الانجليزيين فكرة الحرية : الحرية فى المادة والحرية فى القالب • أما الاساس فى اللغة والادب الفرنسيين فمبدأ الصقل واللياقة ، وهى ما يعرف عند الفرنسيين بكلمة Bienséance

من خصائص اللغة الانجليزية انها خليط من عنصرين : العنصر السكسونى والعنصر اللاتينى • وطبيعة اللغة الانجليزية هذه من مسببات عظمة الشعر الانجليزى ، وآيات ذلك ثلاث :

اولا : تألف اللغة الانجليزية من عناصر مختلفة أكسبها نضجا كثيرا • فهى غنية بالمفردات ، لا تكاد تجد معنى ليس له لفظ يؤديه ، وهى فى هذا الباب قد لا تقل ثروة عن اللغة الفرنسية

ثانيا : مرونة اللغة الانجليزية من أهم ما أثره الدارسون عنها ، وهى تفوق مرونة اللغة الفرنسية • يسمعك الفرنسى تلحن فى لغته فيضحك سخرية وربما تولاه الغضب • ويسمعك الانجليزى تلحن فى لغته فيبتسم عجبا وتشجيعا • لان اللحن فى لغة راسين من الخطايا السبع التى لا تغتفر ، واللحن فى لغة شكسبير ، مع المبالغة القليلة ، هو القاعدة والاساس • فان أردت ان تفهم الفارق بين اللغتين فلتفهم أولا سر أدب شكسبير وراسين • شكسبير يمثل الحرية وراسين يمثل القيود • لا تقرأ كتاب ستندال عن هذين الرجلين ، لان ستندال كتب فى عصر محموم هو عصر الثورة الفرنسية ، عندما كانت المحافظة فى

الفن كالمحافظة في السياسة والدين وغيرهما من المبادىء تقترن في ذهن الفرنسي بفظائع الباستيل . ان تمجيد ستندال لشكسبير وايثاره اياه على راسين لا يمثل رأى الفرنسيين . كذلك لا تقرأ مقالة درايدن « في الشعر المسرحي » ، التي اعتذر فيها عن طريقة شكسبير في التأليف ، لان درايدن كتب بعد عودة الملكية في انجلترا عام ١٦٦٠ عندما غادر شارل الثاني ورجال بلاطه منفاهم الجميل في فرنسا ، مزمعين ان يستحدثوا ببلادهم ما بهرهم من مآثر لويس الرابع عشر . ألقى مسيو فوشوا ، أيام الحرب الكبرى ، سلسلة من المحاضرات عن راسين في مسرح الاوديون بباريس ، وكانت له أقوال شديدة القسوة على راسين ، فنجم عن ذلك أن ثارت ثائرة المستمعين ، وكانت فيهم قلة تؤيد أدب فكتور هوجو ، فنشبت بين الفريقين معركة حامية ، واختل النظام فتدخل رجال الامن وحوصر الاوديون وتعذر على المحاضر اكمال سلسلته حتى ضرب نطاق من الشرطة يبعد المشاغبين . هذا الحادث على ضآلته يثبت أن راسين في فرنسا مؤسسة لا تقل رسوخا عن الحكم النيابي في انجلترا . أما الانجليز فشعب فردي يبغض القيود ، تلحظ هذا في أدبه ولغته ونظام الحكم لديه .

ثالثا : الالفاظ السكسونية ألفاظ قصيرة خشنة ، والالفاظ اللاتينية ألفاظ طويلة ناعمة سائلة ، واجتماع هذين العنصرين في اللغة الانجليزية أكسبها قوة ورقة وموسيقى لفظية لم تحظ بها لغة أخرى فيما أعلم .

الفرق بين اللغة الانجليزية واللغة الفرنسية ناشىء عن اختلاف عقلية الانجليز والفرنسيين فالفرنسي بطبعه رجل منطق وفكر واضح ونكتة قوية ، والانجليزي بفطرته رجل خيال شديد ونظر غامض وفكاهة دقيقة . تلمح هذا في سياسة الفرنسيين المدروسة وسياسة الانجليز المرتجلة . تلمحه في سرعة البت المشاهدة في الفرنسيين وعلتها صفاء القريحة وترتيب الافكار ، وتلمحه في تسويف الانجليز وشدة حذرهم ، وسرهما الايمان القوى بوحي الوجدان . هما بالجملة لونان من الذكاء مختلفان اختلاف سهول فرنسا المشرقة عن تلول انجلترا تتناوبها الغيوم والسهول والثلوج وأضاحي الربيع الفاتنة . لذا وجدت لغة الفرنسيين لغة منطق وفكر واضح ونكتة قوية ، ولغة الانجليز لغة شعر عنيف ونظر غامض وفكاهة دقيقة . لذا كان للفرنسيين حول سنة ١٥٥٠ نثر ناضج كنثر جواشان دى بيليه وهنرى اتيين ، والنثر الانجليزي لم ينضجه غير درايدن بعد سنة ١٦٦٠ . اللغة الانجليزية لغة شعر لانها لغة غامضة على ثرائها ، وهي لا زالت لغة غامضة ، لان الانجليز يرفضون أن « يتحضروا » كما تحضر الفرنسيون : أعني أن يقبلوا المدنية ومقتضياتها كأساس للحياة .

لويس عوض

أخطاء بريطانيا بين حربين

وموقفها من وعود هتلر

بقلم الاستاذ نقولا الحداد

يتناول هذا المقال الاخطاء التي وقعت فيها بريطانيا بين الحرب الكبرى الماضية والحرب الحاضرة . وهي أخطاء طالما اختلف فيها الساسة والباحثون . وقد تناولها الاستاذ نقولا الحداد ، وأبان فيها وجهة النظر البريطانية والاسباب التي أدت الى هذه الأخطاء

لا يظهر الخطأ للناقد إلا بعد حدوثه . فاذا ذكرنا أخطاء انكلترا بعد الحرب الكبرى الماضية فلسنا نعني ان أساطين ساستها كانوا قصار النظر أو انهم جهلاء في فن السياسة ، وانما نعني انهم ككل انسان يقيسون حكمهم للمستقبل على حوادث الماضي . وللمستقبل ظروف وأحوال تضاف الى مجرى الاحوال الماضية فتغير المصير الذي كانت تتوجه اليه حوادث الماضي . فلما نظروا الى المستقبل بعين الغابر لم يكونوا يعلمون أن عهود المانيا ستوضع في يد زعيم لا يقيم للعهد وزنا . فلهذا كانت سياسة انكلترا في كثير من حوادث الاحتكاك مع المانيا فاشلة ، لأنها كانت تقبل كلمة المانيا بسلامة نية ، فلا تلبث أن تكتشف أنها كانت مخدوعة

يقولون إن أول حلقة في سلسلة الأغلاط هي معاهدة فرساي ، والغالب أنها كذلك . ولكن المتقولين مختلفون فيها . فبعضهم يقولون إنها كانت جائرة فتركت في قلوب الألمان حقداً أحمى من وطيس . ربما كانت جائرة ، ولكن البلاغ الذي أذاعه السير ادورد جراي وزير الخارجية حينئذ أظهر أن المانيا تعمدت الحرب وأثارتها على الرغم من جميع الوسائل التي اتخذتها دول الحلفاء لمنع حدوثها . فاذا تراءت معاهدة فرساي جائرة فلأن ذنب المانيا كان عظيما

ليس الخطأ في نص معاهدة فرساي وانما كان الخطأ في تنفيذه ، فقد خرقت المعاهدة عدة خروق متوالية

تمخضت المؤتمرات المتوالية بعد الهدنة عن جنين جمعية الامم « سقطا » غير كامل الأعضاء . فظهرت الجمعية « جمعية أمم » لا « جمعية الامم » كما اقترحها الدكتور ويلسون رئيس الولايات المتحدة الأميركية الذي لم يزج أمته في تلك الحرب إلا لأجل تحقيق هذه الأمنية العظمى . ولكن للاسف لم تتحقق

وكان في رأي بعض الناقدين ، ومنهم جول كمبون ، ان من أهم الاخطاء تسريح جيوش

الحلفاء قبل أن يضمن تنفيذ المعاهدة من ناحية المانيا ، أو أن الجيوش التى بقيت تحت السلاح لم تكن كافية لاقناع المانيا بأن تلزم حدودها وتقوم بتعهداتها

وما وقف الامر عند هذا الحد بل أن انكلترا اقترحت تخفيض السلاح عند جميع الدول إلى حد معين لكى يخف عبؤه عن كواهل الامم . فتقرر فى سنة ١٩٣٠ عقد مؤتمر لهذا الغرض وأعدت برنامجه لجنة خاصة . فسرّت المانيا من هذا الاقتراح لأنها تذرعت به إلى التسلح لتكون على قدم المساواة مع سائر الدول ، فأنكرت الدول عليها هذا الحق

وبقى المشروع معلقاً فى الهواء تتقاذفه الرياح إلى أن جاء هتلر الى الميدان فعرض على انكلترا وفرنسا سلماً لمدة ٢٥ سنة فى مقابل السماح له بتجنيد ٣٠٠ الف جندى . أما انكلترا فرأت أنها فرصة مناسبة لتقييد المانيا بعهد كهذا . ولكن فرنسا كانت أشد حذراً وأقل ثقة . فترددت فى قبول الاقتراح . وكانت تتهم انكلترا بأنها كانت تود دائماً التساهل مع المانيا

لذلك عقد رجال الأحزاب ورجال الجمهورية الفرنسية مؤتمراً للبحث فى الامر. فقرر المؤتمر رفض الاقتراح لأن قبوله يستلزم عقد معاهدة جديدة مع المانيا لأجل ضمان السلام فى أوربا . فالتزمت انكلترا أن توافق على الرفض لكيلا تعد مناوئة لفرنسا

فكانت النتيجة أن هتلر شرع من اليوم التالى يجند جنوداً خفية ، بل كان التجنيد سراً جارياً منذ زمان . وكان بعد ذلك أن انكلترا كانت تعتب على فرنسا كلما بدا شىء من شكاسة المانيا بقولها : لو كنتم أيها الفرنسيس قد وافقتم على طلب هتلر لما كنا الآن نتحمل عبء هذا السباق فى التسليح الذى تنوء به أوربا ، ولا كنتم الآن تتقابلون مع مليونى جندي المانى

ترى هل كان السماح لهتلر بتجنيد ٣٠٠ الف يضمن السلام ؟ أو هل رفض الاقتراح كان يضمنه ؟ لا هذا ولا ذاك كان يضمن سلماً تجاه هتلر . فهو يتسلح على كل حال ، أذنوا له أم لم يأذنوا

المفاجأة المدهشة – « ضربة المعلم »

فى ٦ مارس سنة ١٩٣٦ أبلغ هتلر القائد فون بلومبرج أنه عازم على احتلال الرين من غير إنذار أو مفاوضة . وفيما كان يشرح مشروعه هذا اعترض الجنرال فون فرتش بأن مجلس أركان الحرب ، لا يجسر أن يتخذ مسئولية هذا الاعتداء لان الجيش الالمانى لم يزل غير مستعد للحرب وفى إمكان الجيش الفرنسى أن يصل إلى حدود المانيا قبل أن تصل طلائع الالمان إلى كولونيا

فأجابه هتلر : آسف أن معلوماتك خطأ ، واذا كنت تعتقد ان الجيش الفرنسى يقاوم فأنت مخطىء . فرنسا لا تتحرك خطوة واحدة . فيمكنك أن تهاجم غير خائف . وليس عليك أن تمون جيشك أو ان تجهزه بذخيرة ، لانه لا يضطر أن يطلق طلقة واحدة » . فأجابه القائد : « هب ان الفرنسيين قاوموا » . فقال هتلر : « حينئذ أنا أنتحر وأنت تأمر الجيش بالانسحاب »

فى ظهر اليوم التالى دخلت طلائع الجيش الالمانى الى أرض الرين ، الخالية من الجنود بحكم معاهدة لوكارنو ، من غير ضجة ولا صخب ومن غير أن يعترضها أحد . دخلت بسرعة وبلا نظام ، ولم تكن مهماتها معها ، ولا مع المشاة قنبلة واحدة ، حتى سلاح الطيران لم يكن مجهزاً بمدافعه ولا بذخيرته . الأمر الذى يدل على الاسراع فى تنفيذ قرار هتلر فى ليلة واحدة

وجعلت القوات الالمانية تتدفق من غير أن تصطدم بقوة معادية لأن معاهدة لوكارنو كانت قد جردتها من كل قوة حربية كشقة حرام

كيف حدثت هذه الضربة المفاجئة المدهشة كأن قوة فرنسا الحربية مشلولة ؟ أين حليفات فرنسا ؟ أين الدول الموقعة على معاهدة لوكارنو ؟

هنا تعلم الاختراع السياسى الغريب العجيب الذى اخترعه هتلر نخالف به أخلاق جميع ساسة التاريخ . فبما كان هتلر ينسج أحابيل هذه العملية الماكرة كانت القوات الالمانية تتجمع على مقربة من الحدود وتنذر الكاتب الافرنسى الفطن شديد حاسة الشم بأن خطراً قادماً على الحدود . وكانت فرنسا تجس نبض انكلترا فماذا يكون سلوكها اذا كانت القوات الالمانية تتجاوز الحدود الى الرين ؟ فكان جواب انكلترا ان هتلر لا يجسر لأنه يعلم اننا مصرون على تنفيذ المعاهدة

وكان السفير الالمانى فى ذلك الحين يؤكد لوزير خارجية انكلترا أن المانيا لن تحتل الرين . وكان هذا السفير نفسه منذ عدة أشهر يذيع ان انكلترا لن تحرك ساكناً إذا احتلت الجنود الألمانية الرين . وقبيل هذا الاحتلال بعث هتلر جواسيسه من الساسة الالمان الى جميع سفراء الدول يدسون لهم فى الاحاديث المدبرة ان المانيا لا يمكن أن تحتل الرين

وفى تلك الليلة التى صمم فيها هتلر أن يضرب « ضربة المعلم » ، كان جو السياسة الاوربية مكفهراً تمزقه البروق الخاطفة . وكان الساسة ورجال الحرب فى فرنسا يتشاورون ويتعارضون ويتناقضون ولا يقر لهم قرار . وكان فى انكلترا مثل هذا الاضطراب أيضاً . ولما أبلغتها فرنسا أنها تقرر الدفاع بالقوة ، نصحت لها انكلترا أن تتريث الى أن يجتمع الموقعون على معاهدة لوكارنو

تم احتلال الرين وأصحاب معاهدة لوكارنو ، لم يتفقوا على شىء ، وتواترت الشكاوى والانتقادات فمنهم من زعم أن الممانعة الفرنسية الروسية كانت سبب هذه الضربة . ومنهم من قال إن انكلترا لو خيرت بين ستالين وهتلر لاختارت هتلر لكى يكون عفريت البلشفية . وقال آخرون ان هذا جزاء تساهل فرنسا مع موسولينى يوم قررت جمعية الامم الحصر الاقتصادى على إيطاليا بسبب غزو الحبشة . ومعلوم أن فرنسا أقرضت ايطاليا حينئذ ٢٠ مليون جنيه

ليس غريباً ان هذا الفوز ينفخ صدر هتلر زهواً وغروراً . ولماذا لا يشمخر ويشمخ ؟

الضربتان الثانية والثالثة

ما انقضى عامان حتى فاجأ هتلر العالم بضربته الثانية . احتل النمسا من غير مقاومة كما احتل

الرين . وكان على إيطاليا أن تقف فى سبيله تنفيذاً للمعاهدة الموجبة عليها أن تساعد النمسا فى المحافظة على سلامتها . ولكن موسولينى الذى نبذ صداقة انكلترا لكى يرمى نفسه فى أحضان هتلر هرب الى الجبال لكيلا يسأل عن واجبه بازاء هذه المفاجأة

بعد ذلك كان هتلر لا يدع فرصة من غير أن يصرح للعالم أن زمن المفاجآت قد انتهى ، وانه لا مطمع له فى تشيكوسلوفاكيا ولا فى بولندا

وفى ١٤ مارس حمل المستر تشمبرلن الى مجلس العموم الانكليزى بشارة (ويا للاسف كانت مزيفة) وهى أن جورنج وزير الدفاع الالمانى أكد له ان المانيا لن تتعرض لتشيكوسلوفاكيا ولا للبولندا

ولا ندرى ماذا كان يقول المستر تشمبرلن عن سذاجته هذه فى تصديق تأكيد جورنج حين علم أن الجيوش الالمانية كانت فى سنة ١٩٣٨ تتجمع لدى تشيكوسلوفاكيا وحين كان ربنتروب (؟) فى لندن يمهد لاحتلال هذه الجمهورية باعتبار ان السوديت من عنصر المانى وانهم يقاسون اضطهاد التشيك الذين هم أصدقاء البلشفيك السفاحين السفاكين ، الى غير ذلك من هذا القذع الذى كان يريد به أن يسترضى انكلترا . وكان اللورد رنسمان صديق تشمبرلن فى براغ يفاوض هنلين مندوب هتلر المنشىء النازية فى بلاد السوديت إلى ان اتفقا على الخطة التى توافق مطالب هتلر

وفى ذلك الحين نشرت التيمس لسان حال حزب المحافظين مقالا يحبذ تسليم تشيكوسلوفاكيا تلك المنطقة السوديتية لالمانيا لانها لها بحكم الطبيعة ، فشجع هذا المقال هتلر على ان يغالى فى مطالبه . وأصبح احتلال تشيكوسلوفاكيا قاب قوسين . فهرع تشمبرلن الى برشتجادن على أمل ان يقنع هتلر بأن يخفف من غلوائه ، فقابله هتلر ببلاغ نهائى فحواه انه إذا لم تسلم تشيكوسلوفاكيا جميع بلاد السوديت وجميع الحصون والاستحكامات والمرافق الخ أخذتها المانيا بالقوة

فرجع المستر تشمبرلن حزيناً جداً لانه اصطدم صدمة لم يكن يتوقعها . وطلب إلى وزارة فرنسا الموافقة على عقد مؤتمر . وكانت هذه قد صرحت بأنها تقابل الاعتداء بالقوة

ولكن على الرغم من هذا التهويل كان قرار ذلك المؤتمر ان على تشيكوسلوفاكيا أن تسلم لالمانيا كل البلاد التى فيها على الاقل ٥٠ فى المائة من العنصر الالمانى . وقبل أن يصدر هذا القرار كانت القوات الالمانية تنفذ أكثر منه

لقاء هذا الحادث أسرع تشمبرلن ومعه صديقه هوراس ويلسن المستشار الصناعى فى الحكومة لمقابلة هتلر فى بادجودسبرج . ففوجىء بأمر غير منتظر إذ كان يعتقد ان هتلر يشكر له إقناع التشك بأن يسلموا له بما طلب . واذا به يقول له : ان المشروع « الانجلو فرنسى » جاء متأخراً (يعنى لا بد من غزو تشيكوسلوفاكيا) . فعاد تشمبرلن فاشلا وعقد مجلس الوزراء ، ورأى المجلس أنه ليس فى طوق حكومة مستقلة أن تسلم بمطالب هتلر التى تسلبها استقلالها . وبناء عليه أرسل تشمبرلن صديقه هوراس ويلسن بنص قرار المجلس الى هتلر

قال هارلود نكلسن الذى نلخص هذا الحادث من كتابه (لماذا انكلترا تحارب) : « انه فيما كان هوراس ويلسن يقرأ على هتلر ترجمة الرسالة كان هتلر يضطرب وينظر تارة الى السقف وأخرى إلى الجدران والى كل ما حوله إلى أن صاح به « اخرس Shut up » . على أن ويلسن بقى برزانته الانكليزية يقرأ إلى ان انتهى بين صخب هتلر ونوبة جنونه . وأخيراً قال هتلر : « سأمزق تشيكوسلوفاكيا إرباً إرباً »

وكان بعد ذلك أن تشمبرلن اضطر أن يذيع فى الراديو للأمة الانكليزية أن انكلترا غير مضطرة أن تحارب لأجل أمة بعيدة عنها . وأكد أن الخطة الانكليزية الفرنسية الأخيرة كافية لوقف مطامع ألمانيا عند ذلك الحد الذى انتهت به مفاجآت هتلر

وبعد زيارة هوراس ويلسن انعقد المؤتمر من الدول المختصة لدرس الحالة . وكان من الأخطاء الخطيرة ألا تدعى روسيا اليه مع أنها حليفة فرنسا وشريكتها فى ضمان استقلال التشك

الضربة الاخيرة

فى ٢٨ سبتمبر ١٩٣٨ كان تشمبرلن يلقى بياناً فى مجلس العموم عن مجمل الحالة حينئذ وعما جرى من المفاوضات والمفاجآت . ومما ذكر : « أنه بذل كل جهده لمنع الحرب لأن الشعب الانكليزى يود الابتعاد عنها » . وفى أثناء كلامه دست فى يده ورقة فتوقف عن الكلام وقرأها ثم قال : « هنا شىء يجب أن أعلنه لكم . هذا بلاغ من هتلر يدعونى لمقابلته فى مونيخ غداً . وقد دعا موسولينى ودالاديه أيضاً »

ذهب تشمبرلن الى مونيخ وفي يقينه أن مجلس العموم يريد السلام بأى ثمن . وانعقد مجلس الأربعة من غير أن تدعى روسيا اليه ومن غير أن يؤذن لوفد تشكوسلوفاكيا بحضوره . وتم الاتفاق على خمسة بنود كانت قاضية بتعرية تشكوسلوفاكيا من جميع مواردها وقواتها واستحكاماتها الخ واحتلال الجنود الألمانية ماقرر هتلر احتلاله — تقرر ذلك ثمناً للسلام العام . وكان سلاماً زائفاً

عاد تشمبرلن بعد تسليم تشكوسلوفاكيا يحمل غصن الزيتون . وكان بالأسف غصناً يابساً . وأذاع على مجلس الأمة : « هذا هو السلام فى زماننا . وليست هذه بالمرة الأولى التى عاد فيها الوزير البريطانى جالباً معه — السلام والشرف » . وكان على الأثر أن قدم وزير البحرية دف كوبر استعفاءه وخرج الكثيرون يتذمرون والآخرون يعذرون . تشمبرلن لأنه كان مضطراً أن « يلعب بالوقت » أى أن يسوف الحرب ما أمكن التسويف لأخذ الوقت اللازم للاستعداد لها

وفى أول يناير ١٩٣٩ مثل هتلر فى تشكوسلوفاكيا نفس الدور الذى مثله فى النمسا . فأملى على المسيو هاشا رئيس وزارتها مثل النص الذى أملاه قبلا على الدكتور شوشنغ رئيس وزارة النمسا — شوشنغ انسجن . وهاشا أغمى عليه فى حضرة هتلر

فصل الخطاب مع روسيا

بقيت بولندا ، المرحلة الأخيرة فى المفاجآت . واقتنع أخيراً تشمبرلن وغيره أن هتلر لا يقف فى مطامعه عند حد ، ولا يفى بوعد أو عهد . أصبحت الحرب قاب قوسين . فاتجهت الأنظار الى روسيا التى طالما لعنها هتلر . ودارت المفاوضات معها . . وطالت . ثم أرسلت انكلترا بعثة لها الى موسكو ، ولكن ليس من كبار الساسة بل من الثانويين من موظفي وزارة الخارجية . فكظمت روسيا هذا الاستهتار بها ، كما كظمت قبله إهمالها فى المؤتمرات السابقة . ورغبت فى الاتفاق مع الدول الديموقراطية . وبعد حين اقترحت مؤتمراً حربياً من الدول الثلاث . فجاءتها البعثتان الحربيتان بعد ١٢ يوماً ، كأننا لسنا فى عصر طيارات !

دامت المفاوضات فى موسكو نحو ثلاثة أشهر حتى عيل صبر روسيا . وفى ٩ مارس اقترحت انكلترا أنها وروسيا وفرنسا وبولندا تشترك فى بلاغ ضد أي اعتداء من جهة ألمانيا . فوافقت روسيا ـ ولكن لم يعلن هذا البلاغ

ولما رأت روسيا عقم هذه المفاوضات التى كانت هى فيها صريحة وكانت انكلترا على قول الروس مساومة على الطريقة الشرقية ، أدارت وجهها نحو ألمانيا . وفى ليلة وضحاها عقد الميثاق بينهما . وصرفت روسيا الوفد الانكليزى الفرنسى المساوم

وكانت وجهة نظر السوفيات أن الخطر الألماني جنب البلقان والبلطيق . وأن قوة النازى المتفاقمة أرعبت الروس . وكان فى الامكان أن تتفق روسيا مع الدول الغربية على درء هذا الخطر ، ولكن رغائبها خابت ووفودها قوبلت باستخفاف . واذا كانت انكلترا وفرنسا قد سمحتا بسقوط تشكوسلوفاكيا من غير أن تضربا ضربة واحدة ، واذا كانت أرض الرين قد أصبحت حصناً منيعاً لألمانيا ، فما يمنع روسيا أن تفكر بموالاة عدوها الذى طالما قدح بها وبلشفيتها فى كتابه وخطبه ، اذا كان قد أصبح بهذه المكانة من القوة

هذه نهاية سلسلة الاغلاط . . . ولما حدث الهجوم على بولندا لم يبق بد من نزول انكلترا وفرنسا الى الميدان الذى كان المراد تجنبه . فوقع على الرغم من تلك المحاورات السياسية . وكان وقوعه عظيماً لأنه جاء متأخراً بعد استيفاء ألمانيا استعداداتها العظيمة

لايفل الحديد الا الحديد . ولا يمنع الحرب الا الاستعداد للحرب ، على قول روزفلت القديم .

لو هوجمت ألمانيا يوم ضرب هتلر ضربته الأولى فى الرين لكان درء خطرها أسهل

الغلطة الاولى أفضت الى الغلطة الثانية . والثانية الى الثالثة الخ من قبيل مداراة الخطأ بالخطأ . وأما الآن وقد أصبح « السيف أصدق أنباء من الكتب » فالأمل أن وعود هتلر الكاذبة لم تعد نصف سلاحه كما كانت

نقولا الحداد

الأنجليز المستشرقون والأنجليز المسلمون

بقلم الاستاذ محمد أمين حسونة

▭ أعلام الانجليز يخدمون اللغة العربية والادب العربى

▭ وخمسة آلاف انجليزى وانجليزية يعتنقون الاسلام

تلوح اليوم فى أفق البحث العلمى ظاهرة جديرة باهتمام أبناء الناطقين بالضاد ، ذلك أن مجرى بحوث المستعربين وعلماء المشرقيات من الانجليز بدأ يتحول رويداً رويداً من دراسة الادب العربى القديم إلى الادب العربى الحديث ، وهم من حيث دراستهم لهذا النوع من الأدب ، نراهم يقومون بنفس الخدمات التى رصدوا عليها جهودهم من قبل ، وهى إذاعة كنوز الآداب العربية وتعريف الغرب بشىء من أفكارنا وثقافتنا ، وتصويرنا كأمة حية تنشد نصيبها فى الحياة الادبية

والواقع أن أعجب ظاهرة بارزة فى جهود المستشرقين الانجليز خدمتهم اللغة العربية وهم ليسوا من أبنائها ، فمنذ عهود الحروب الصليبية اتصلوا بالشرق اتصالا وثيقاً ، وكان لهم فضل التقدم فى الاستشراق ونهضته وتنظيمه وفق الأصول الصحيحة ، فأسسوا فى كل جامعة من جامعاتهم منبراً للعلوم الشرقية ، واستقدموا معلمين من العرب يساعدون على تدريس اللغة العربية ، وأنشأوا مطابع عربية فى بعض جامعاتهم كاكسفورد ، فأحيوا بذلك معالم حضارات ونهضات فكرية كادت تطمس لو لم يتصدوا لها ويتولوها بعنايتهم واهتمامهم ، فهناك ألوف المخطوطات التى بعثوها من قبورها ، ونفضوا عنها غبار الأجيال ، وأفردوا لها الفهارس والمساردالتى تسهل على الباحث وعلى القارىء طرق الدراسة ، وبذلك وسموا الدراسات العربية بميسمهم الخاص وهو أدب التمحيص والترجمة . ولهم فضل على فن التاريخ الأدبى بدراسة المؤثرات الدينية والفلسفية والسياسية والاقتصادية وطبائع الشعوب

وليس المجال هنا مجال سرد لجهود المستشرقين الانجليز من الذين كان لهم القدح المعلى فى خدمة الأدب العربى ، إنما نكتفى بذكر طائفة من المعاصرين منهم

فى مقدمة هؤلاء المستشرقين المرحوم البروفسور مارجليوث الذى توفى فى غضون العام الماضى ، وكان يشغل منصب أستاذ الأدب العربى فى جامعة اكسفورد ، إذ كان من فحول علماء المشرقيات ، وحاز فى ميدان العلوم الشرقية معظم الجوائز التى خصصت لهذه المادة ، ونالت أبحاثه

فى عالم الأدب التقدير الذى هى قمينة به ، وفى مقدمتها : إشرافه على طبع معجم الادباء لياقوت الحموى وتصحيحه ، وتعليقه على آراء ارسطاطاليس ، وشرح الديانات القديمة ، ووضعه كتاب « محمد ونشوء الاسلام » وكتاب « العقيدة المحمدية » و « المعجم السريانى » الذى قضى فى تصنيفه نحو ربع قرن بالاشتراك مع دين بان سميث . وقد مكن قراء الانجليزية من التعرف الى شخصيات عربية فذة كأبى العلاء المعرى ، والتعاويذى ، والبحترى ، كما ترجم قسما كبيراً من كتاب التمدن الاسلامى للمرحوم جورجى زيدان بك

وللاستاذ نيكلسون ، أستاذ الأدب العربى فى جامعة كمبردج ، عدة أبحاث ودراسات فى التصوف ، ولآرائه قيمة كبيرة فى دوائر الاستشراق ، وهو مؤلف كتاب «تاريخ العرب الادبى» فى العصرين الجاهلى والاسلامى ، وناشر عدة كتب منها : ترجمان الاشواق ، واللمع ، وحياة ابن الفارض

وكان الدكتور الفرد بتلر فى شبابه أستاذاً للخديو السابق عباس حلمى ، ويعد المتحف القبطى فى القاهرة تذكاراً دائما لجهوده الموفقة فى صيانة الآثار والتحف القديمة ، إذ ظل يعمل فى فترة خدمته بقصر عابدين على إنشاء هذا المتحف . وله فى هذا الموضوع كتاب قد لعله الاول من نوعه ، وعنوانه «الكنائس القبطية القديمة فى مصر وآثارها» ، كما أنه صاحب مؤلفات تاريخية مشهورة عن مصر منها : « فتح العرب لمصر » الذى نقله الى العربية الاستاذ محمد فريد ابو حديد ، و « حياة البلاط فى مصر » ، و « معاهدة مصر فى الطبرى » و « صناعة الخزف فى الاسلام » . وكان أعظم ما وفق اليه من الاكتشافات التاريخية ، إماطته اللثام عن شخصية المقوقس الذى لم يكن فى الواقع سوى قيرس البطريق الملكانى للاسكندرية والذى كان قابضاً على زمام السلطتين الدينية والدنيوية

والدكتور مارماديوك بكتول مستشرق نابه تعرفه مصر كما تعرفه سورية وتركيا ، قضى سنى حياته فى الشرق مختلطا بسكانه ، واعتنق الاسلام وهو فى الهند وتسمى باسم محمد المهدى ، وتولى التدريس فى الجامعة العثمانية التى أنشأها سمو نظام حيدر أباد . ورياسة تحرير مجلة « الثقافة الاسلامية » ، وترجم « معانى القرآن الكريم » ونشره فى انجلترا . وله ثروة طائلة من القصص والروايات الاسلامية ، من أشهرها : « بيت الاسلام » ، و « عنيد » ، و « حكايات عن الارض المقدسة » و « أبناء النيل » و «النساء المحجبات» و « الاتراك فى الحرب » و « فرسان عرابى » ثم رواية « سعيد الصياد »

ولا ريب فى أن المستشرقة السيدة جرترود بل من بين الذين لعبوا دوراً هاما فى عالم السياسة وعالم الأدب . فقد تلقت علومها فى قسم اللغات الشرقية بجامعة اكسفورد ، وكانت تجيد التكلم بجميع اللهجات العربية والبدوية ، فكانت فى أوربا المرأة الوحيدة التى تتخاطب بلهجات البدو دون خطأ يذكر ، وكان لها مقام رفيع فى بلاد العرب ، فعرفت باسم « ملكة العراق غير

المتوجة » كما كان لورانس يعرف باسم « ملك العرب غير المتوج » . وقد طوفت بالجزيرة والأناضول وبادية الشام ، ونزلت بين قبائل العرب والترك ، ودرست آثار البلاد الدينية والمدنية وفنونها ، ووصفت ذلك فى تآليف من أشهرها : « الكنائس والديورة فى الشام » و « الحضر والمدر » ، ثم « آثار العراق »

وكانت تعاصرها مستشرقة انجليزية أخرى هى السيدة أجنس سميث لويس ، التى تخرجت فى جامعة كمبردج وتجشمت الأسفار فى صحراوات مصر وطور سينا وفلسطين والجزيرة مع أختها السيدة جبسون . وكتبت أنباء رحلتها الى قبرص وطور سينا حيث اكتشفت فى مكتبتها عدة مخطوطات قديمة سريانية وعربية ويونانية ، من بينها نسخة سريانية قديمة من انجيل مار متى

ومن بين المستشرقين الذين أظهروا اهتماما باحياء معالم الأدب العربى الحديث واذاعته فى البيئات العلمية بأوربا ، البروفسور جب أستاذ الأدب العربى بجامعة اكسفورد وعضو المجمع اللغوى بالقاهرة . فقد أرصد جهوده على دراسة هذا الأدب ، وأخرج عدة أبحاث وآراء نفيسة بالانجليزية عن الأدب العربى فى القرن التاسع عشر تدل على تفهمه أصول هذا الأدب ووقوفه على الكثير من خصائصه . فمن هذه الدراسات بحثه عن « المجددين فى الأدب العربى » اقتصر فيها على دراسة الجوانب الظاهرة لآثار خمسة من الكتاب المصريين عينهم بالذات ، ورسالته عن « القصة والأقصوصة فى الأدب المصرى » حيث برهن فيها على كفاءة ممتازة وحسن تقدير ، ورسالته عن « المنفلوطى وأثره فى الأدب العربى » . وقد اشترك فى وضع كتابى « تراث الاسلام » و « وجهة الاسلام » وفى تحرير مجلة الدراسات الشرقية بلندن وبعض مواد دائرة المعارف الاسلامية

ونشر الكاتب الفاضل نيفل باربر الذى يتولى الآن الاشراف على القسم العربى بمحطة الاذاعة بلندن دراسات وافية عن الأدب المعاصر ، منها رسالته عن « المسرح العربى فى مصر ـ نشأته وتاريخه » و « الأدب المسرحى المصرى » و « مصر وحركة بعث الثقافة العربية » ثم دراسته الممتعة عن المنفلوطى حيث حلل فيها باسهاب حياته الأدبية ، ونوه بجهوده فى تطويع اللغة الفصحى لخدمة الفن الروائى ، وترجم معها مختارات للمنفلوطى ، كما نقل من سنوات رواية عودة الروح للأستاذ توفيق الحكيم الى اللغة الانجليزية وهى الآن قيد الطبع

وقد ترجم الى الانجليزية أيضاً الأستاذ باكستون الذى كان مدرساً بكلية الآداب بالجامعة المصرية كتاب الأيام للدكتور طه حسين ، ونشر منتخبات من الأقاصيص المصرية وكتاب الأذكياء لابن الجوزى ، وهو يعاون الآن فى قسم الاذاعة العربية بمحطة لندن

ويقوم بتدريس اللغة العربية ولغات الشرق الأدنى فى معهد الدراسات الشرقية بلندن ، مستشرق اشتهر بدراساته عن الأدب العربى الحديث وتنقيبه عن الكتب والمخطوطات النادرة ونشرها ، هو الأستاذ جيمس هيورث دن الذى اعتنق الاسلام من سنوات واتخذ لنفسه اسم

« جمال الدين » ، فوضع كتاباً نفيساً عن تاريخ التعليم فى مصر الحديثة ، واشتغل باحياء طائفة من الكتب العربية نذكر منها على سبيل المثال ثلاثة أجزاء من كتاب الأوراق لابن الصولى

* * *

وفى الجزر البريطانية الآن نحو ثلاثين ألف مسلم ، من بينهم خمسة آلاف انجليزى وانجليزية . ويقيم أكثر المسلمين فى ليفربول وبوث شيلدس ومنشستر التى تضم عدداً وافراً من تجار الأقمشة المسلمين وعدد آخر من البحارة الشرقيين الذين استوطنوا بها وافتتحوا فيها متاجر وفنادق للمسلمين ، ثم مدينة كرديف التى تمتاز بمسجدها وإمامه اليمنى

وأقدم المساجد الموجودة فى انجلترا هو مسجد ووكنج على بعد ٢٤ ميلا من لندن ، وصاحب الفكرة فى تأسيسه طالب يهودى ألمانى اسمه ليتنر كان يدرس اللغات الشرقية بلندن ، فقد اهتدى هذا الطالب الى الاسلام ، وتمكن من جمع هبات لبناء المسجد ، فتبرع شاه جيهان بألوف الجنيهات وحذت حذوه ملكة بهوبال ، ومن هذه التبرعات شيد المسجد عام ١٨٩٥ على الطراز الهندى وألحقت به دار للضيافة وتكية ومطبعة حروف عربية ومكتبة

وأكثر الذين يؤمون هذا المسجد من طائفة الأحمدية ، وقد اختلف معهم الهنود الذين يقيمون فى لندن ويبلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف شخص ، فأسسوا جمعية إسلامية واستأجروا صالة وعينوا إماماً خاصاً بهم ، وهو سورى اسمه الحاج محمد سالم . وفى هذه الصالة يقيمون الصلوات ويحيون الأعياد وسيشرعون فى بناء مسجد خاص بهم تبرع له نظام حيدر آباد بأربعين ألف جنيه

ولطائفة الأحمدية القاديانية منزل فى حى Putney خصصوه للصلاة وأطلقوا عليه اسم « مسجد لندن » ، كما أن لهم منبراً خاصاً للدعاية فى حديقة هايد بارك

ومن الحوادث البارزة التى لفتت أنظار الانجليز الى الاسلام ، إقدام المرحوم اللورد هدلى على اعتناق الاسلام . فقد كان هذا اللورد من عظماء الانجليز المشهود لهم بأصالة الرأى ورجاحة العقل ، وكان اسمه كثيراً ما يتردد على صفحات الصحف فى مناسبات كثيرة ، فلما اعتنق الاسلام كان للحادث أثره البارز فى الأوساط السكسونية

ومنهم السير عمر رانكن وأصله من نبلاء الاسكتلنديين ، وله عدة مزارع ومؤلفات واسعة الشهرة ، وهو مسلم مخلص لدينه، ومن مؤسسى المعهد الاسلامى مع الدكتور ابراهيم حسن الموجى. وكان للأستاذ عبد الله كويليم المحامى بليفربول فضل يذكر إذ تمكن من أن يهدى الى الاسلام أكثر من خمسمائة انجليزى وانجليزية ، وقد شيد فى ليفربول زاوية ومؤسسة إسلامية ، وكانت له صلات طيبة مع المسلمين الأتراك ، وفى أخريات أيامه شغل منصب أستاذ بالجامعة . وكذلك مستر أوين زاتر مؤلف كتاب « الحج الى بيت الله » فهو يعد من أكبر الدعاة الى الاسلام فى

الجزر البريطانية وهو معروف فى الأوساط الاسلامية باسم « داود شال »

ومن النبيلات الانجليزيات اللواتى اعتنقن الاسلام السيدة إيفلين كوبولد التى عرفت باسم زينب ، فقد أدت فريضة الحج ووضعت كتاباً نفيساً عنوانه « الحج الى مكة » صدرته بالحكمة البليغة التى قالها الكاتب الانجليزى المشهور كارليل حينما سأله الفيلسوف جيته : إذا كان هذا هو الاسلام ، ألسنا كلنا مسلمين ؟ فكان جواب كارليل : « إن من يحيا بالروح انما يحيا على الاسلام » . وقد اقتدت بها طائفة من الانجليزيات المثقفات كالنبيلة أمينة ليفلنج التى ترددت مراراً على مصر فى طريقها إلى مكة ، وألقت فى المرة الاخيرة محاضرة بدار جماعة الاخوان المسلمين بالقاهرة عن الاسلام ومزاياه

ومن الحوادث البارزة التى لفتت أنظار الانجليز الى الاسلام أيضاً مسألة ترجمة القرآن ترجمة حديثة خالية من الاغلاط ، وقد نشرت فى بريطانيا العظمى ترجمتان من هذا النوع أولاهما قام بها مولانا محمد على الهندى ، والثانية المستشرق مارمدوك بكثول

وبفضل الجهود التى قام بها الانجليزى المسلم الدكتور خالد شلدريك تمكن من تخصيص جانب من أحد مستشفيات لندن لمعالجة فقراء المسلمين ، وتشييد مقبرة لدفن موتاهم فى ناحية بروكوود وتعيين أئمة لاقامة الشعائر الاسلامية لا سيما ما يتعلق منها بغسل الموتى وتكفينهم ودفنهم

وفى سنة ١٩٣٥ تأسست جمعيتان إسلاميتان عظيمتان بانجلترا : أولاهما جمعية « الاخوان المسلمين ببريطانيا العظمى » التى اتخذت لها مكاناً فى مواجهة دار المتحف البريطانى ، والثانية « المعهد الاسلامى » الذى أسسه الدكتور الموجى بقصد تنوير أذهان الانجليز عن الاسلام ، والرد على المطاعن التى توجه اليه ، ومركز المعهد قاعة خاصة بدار النادى المصرى بلندن أما ادارته فتقع فى حى مايفير

وللمعهد منبر خاص فى حديقة هايد بارك للدعوة الى الاسلام ، وقد تبرع له الأمراء المسلمون بمبلغ من المال لنشر الدعاية فى الاوساط الانجليزية وإحياء الحفلات الدينية ، وكان من نتيجة مساعيه أن تبرعت الحكومة الانجليزية بقطعة من الارض فى قلب لندن ليشيد عليها مسجداً ، وبمبلغ مائة ألف جنيه مساهمة منها فى بناء هذا المسجد

وسيكون المسجد بمثابة نقطة ارتكاز يهرع اليه القاصدون الذين يعنيهم أن يظلوا على اتصال بالثقافة الاسلامية ، ومكانا للمسلمين يؤدون فيه شعائر دينهم بانتظام لا سيما الطلبة منهم ، وسيتيح لكل انجليزى مثقف الفرصة لدراسة المسائل الاسلامية على حقيقتها ، ونقل أصول الدين الحنيف الى اللغة الانجليزية لتكون مرجعاً يعتمد عليه طلاب الحقيقة من الانجليز بدلا من الكتب الممسوخة التى شوهت الدين الاسلامى فى نظرهم

محمد أمين حسونة

مدارس الزعماء

كيف تنشىء انجلترا والمانيا قادة المستقبل

الزعماء الانجليز هم الصلة بين الشعب والحكومة وبين الرأى العام وأداة التنفيذ . ولهذا تعد لهم المدارس التى تطالع من الحرية الفكرية ما يؤهلهم لمقابلة الآراء ومقارنة المبادىء ، وكسب الانصار وقهر الخصوم

الزعامة الكبرى - زعامة الشعوب - ما تزال من نتاج مدرسة الحياة ووليدة من تجارب الايام • أما الزعامة الصغرى - زعامة الجماعات - فغدت من خلق مدرسة التعليم ومن وحى الكتب والاساتذة

هتلر وتشرشل أنجبتهما الحياة التى فطرتهما على القيادة وأعدتهما لتوجيه الشعوب • فأولهما لم يتلق فى المعاهد الا نزرا يسيرا لا يؤهله وحده لان يقنع فردا مثقفا بله أن يقود شعبا كبيرا • وثانيهما لم تكن تكفيه الخطب على بلاغتها ولا الكتب على غناها ليتولى زعامة نخبة من الشعوب الكبرى لو لم يؤت موهبة القيادة الكاملة • أما أتباعهما الذين يتولون نيابة عنهم قيادة الجماعات الصغيرة فى ميدان السياسة وميدان الاجتماع ، فأولئك يتلقون الزعامة دروسا ومحاضرات فى المعاهد أو الجامعات ، حيث يعرفون الفلسفة التى ينادى بها ويتجه اليها الزعيم الكبير ، وحيث يتعلمون كيف يدعون اليها بين الافراد بعد تبسيطها

ففى انجلترا وألمانيا مدارس أعدت لانجاب زعماء صغار على غرار الزعماء الكبار • ولا فارق بين هؤلاء وهؤلاء الا ان الزعيم الكبير رجل موهوب خلقته الحياة ليقود الشعب ثم تبوأ مكان الزعماء ، والزعيم الصغير رجل مثقف علمه الزعيم آراءه ومبادئه وأمره بأن يبلغها الى نفر من الناس قليل • وكانت انجلترا أسبق الدول الى مدارس تمرين الزعماء واعداد الساسة ، ولكن ألمانيا النازية أخذت عنها هذه الفكرة فنظمت أسلوبها ووسعت نطاقها • وعلى قدر ما تختلف الدولتان فى نظامهما السياسى بين الديموقراطية الصحيحة والديكتاتورية المسرفة تختلف هذه المدارس فى أنظمتها وبرامجها والاهداف التى توجه اليها خريجيها

المدارس الالمانية

أراد هتلر أن ينشىء جماعة من الزعماء يلقنون ألمانيا السياسة التى ينادى بها ويوجهونها الى الاغراض التى يرمى اليها ، فقد تبين ان الجيل الحاضر نشأ على آراء ومبادىء لا تلائم مبدأ النازى وفلسفته ، فلا يصلح لتزعم الجيل الناشىء الذى تعده ألمانيا لحياتها الجديدة

فأقام فى كل من مقاطعات ألمانيا — وعددها اثنتان وثلاثون مقاطعة — مدرسة لتدريب الصبية والشباب على مهمة الزعامة ، ويلحق بهذه المدارس فى كل عام أربعة آلاف صبى من أبناء رجال الحزب النازى المعروفين باخلاصهم ، وينتخبون جميعا وهم فى سن الثانية عشرة ويظلون فى مدارسهم هذه ست سنوات يدفع لهم الحزب فى أثنائها نفقات التعليم والمعيشة. ويتوزع يوم الدراسة فيها بين الرياضة والدروس . فيقضى التلميذ ساعات من كل يوم فى بناء قوته العضلية وساعات أخرى فى استماع المحاضرات والمناقشة فيها . ومن الموضوعات التى يدرسها التلميذ : الوراثة ، الاجناس ، الشعب ، اليهود والماسون ، فلسفة التاريخ ، مشاكل العصر الحديث

ويستمد الاساتذة آراءهم فى هذه الامور من كتب الفلسفة النازية ، ومن خطب زعمائها ومقالات صحفها ، فعندما يتحدثون عن الاجناس يقولون : ان العالم مقسم الى شعوب لكل منها مميزات خاصة به ، وهذه المميزات مغروسة فى كل فرد سواء رضيها أو كرهها ولا يستطيع منها خلاصا مهما جهد فى انكارها ومقاومتها ، فلا بد له من أن يعمل وفق ما تمليه عليه قوتها . والشعب الالمانى من الجنس « النوردى » فهو لا يفكر ولا يتجه — حتى لو أراد — كما يفكر ويتجه الشعب الفرنسى أو الروسى ، واذ كان هذا الجنس غير ديمقراطى فمن العبث اقامة هذا النظام بين أبنائه فلن يستطيعوا تصريف حياتهم وفق أوضاعه

ولا ريب ان دراسة العلوم حسب الغايات السياسية من شأنه أن يباعد ويناقض بينها وبين الحقائق المجردة ، ولكن هذه المدارس لم تنشأ للبحث العلمى الصادق ، وانما لتثبيت آراء سياسية معينة فى أذهان الناشئة ثم فى عقول الجماهير ، ففى التاريخ مثلا يتلقى التلاميذ أقوالا لا يعرفها التاريخ أبدا ، منها ان الزعماء « النورديين » القدماء دفعتهم قوة عنصرهم العاتية الى أن يتجهوا جنوبا فيعبروا جبال الألب ويستقروا فى روما ، فينشئوا امبراطورية كبرى ويجعلوا من أنفسهم أباطرة عظاما ، ولكنهم منذ غادروا بيئتهم « النوردية » بدأوا يفقدون مواهب عنصرهم العظيم ، فلم تلبث هذه الامبراطورية ان انحلت وزالت عندما تحيفتها شعوب جديدة قوية وهذا درس يجب أن يتعلمه الالمان المعاصرون مما جرى لاسلافهم الاولين ، فلا يجوز لهم أن يعيشوا فيما وراء الالب بتاتا ، واذا كانوا يطلبون مستعمرات فى تلك المناطق النائية فليستمدوا منها حاجات الحياة دون أن يغادروا أرض ألمانيا التى تخلق فيهم وتوحى اليهم الروح الجرمانى الاصيل !

ولهم فى الدين آراء ليست أقل من هذه طرافة وغرابة ، فالمسيح رجل عظيم ولكن لم

يكن فى عهده « ستنوجرافر » لاثبات الانجيل كما نطق به لسانه بل كتبه حواريوه وهم من العبريين ، فكانت ديانته من نتاج الروح اليهودى الذى لا يتفق فى كثير أو قليل مع الروح النوردى • هذا ولا ينبغى للالمانى أن يعتقد فى ولادة العذراء بغير رجل ، لان هذا يوحى الى كل شاب وكل فتاة ان فى التقائهما معا شيئا من الدنس أو الخطيئة ، بينما الواجب أن يشجع هذا الالتقاء ويحمى بكل وسيلة • والالمانى الحديث على كل حال يجب أن يكون «رجل حياة» فلايصح له أن يحتمل الشقاء فى الدنيا ارتقابا للجزاء فى الآخرة ، بل عليه أن يركز ذهنه وقلبه فى هذه الحياة فلا يتسامح فى أى حق له فيها

ويختار أساتذة هذه المدارس من النازيين المتقدين حماسة واخلاصا ، ولكن مدى ثقافتهم محدود اذ هو محصور فيما كتبه زعماء النازى وما تنشره صحفهم من الآراء • ومراجعهم الاولى هى : كتاب هتلر « كفاحى » وهو حافل بالآراء التى جمعها من هنا وهناك عن تفاوت الاجناس واخفاق الديموقراطية ، وكتاب فيلسوف النازية روزنبرج عن « خرافة القرن العشرين » الذى سفه فيه مبادىء الثورة الفرنسية عن الحرية والمساواة وما توالد عنها من اشتراكية وبولشفية ، وآراء «هوستون تشمبرلان» الفيلسوف الانجليزى الذى عاش فى ألمانيا واتخذ جنسيتها ومجد الجنس الجرمانى وأهله للسيادة على العالم جميعا • والى جانب هذه الآراء يلقى الاساتذة دروسا فى مشاكل العصر الحديث ، وأولها حاجة ألمانيا الى أملاك ومستعمرات تستمد منها موارد الصناعة والطعام وتصرف فيها منتجات المصانع ، ومنها ان ألمانيا لم تخسر الحرب الماضية فى ساحة القتال ولكن خسرتها فى الداخل حيث ضاق سكانها ذرعا بالحصار المضروب عليهم وحيث أدى اليهود مهمتهم فى ترويج دعاية الحلفاء

ويقضى التلميذ فى هذه المدارس ست سنوات يخرج منها وقد امتلأ ذهنه بمثل هذه الآراء الغريبة ولم يعد فى وسعه أن يقبل أو يناقش أية آراء أخرى مهما تكن صحتها ، فينتمى بعد ذلك الى أحد معسكرات العمل حيث يمضى ستة أشهر ثم يرقى الى كتائب الجيش فيقضى فيها عامين ، فتنمى فيه هذه الآراء والمبادىء ويعلم كيف يطبقها على ما يعترضه من أمور الحياة • وبعد ذلك يمضى فترة فى تعلم مهنة ما يكسب منها ما يلزم لحياته فيما بقى له من سنى الدراسة • فاذا بلغ هؤلاء الطلاب سن الخامسة والعشرين وسط هذا التدريب الرياضى والاعداد الذهنى اتضحت فيهم الامارات التى تؤهلهم للزعامة، فانتخب منهم ألف فى كل عام لاتمام هذا التدريب والاعداد كى يتفرغوا لمهمة الزعامة مدى الحياة ، ويلحق هؤلاء الطلاب بقلاع النظام وعددها أربع يقضى الطالب فى كل منها سنة واحدة ، أى يتخرج فيها الطالب وقد بلغ التاسعة والعشرين فيسند اليه عمل من أعمال الحزب أو الحكومة حيث يتولى توجيه الجماعة التى يوكل اليه أمرها

بنيت كل قلعة من هذه القلاع فى جهة من جهات ألمانيا الاربع ، تمثل كل منها ناحية خاصة من نواحى الحياة فيها، ليتخرج فيها الطلاب ملمين بشتى وجهات التفكير فى بلادهم،

وأنشئت وأسست كل قلعة من المادة التى يكثر انتاجها فى بيئتها ، فمدرسة الشمال من أخشاب الغابات ، ومدرسة الشرق من الحجر الصلد وهكذا . وأقيمت كلها فوق سفوح الجبال ووسط الآجام الكثيفة فى جو يوحى بالرهبة والروعة ويشعر المرء بأنه انفصل من هذه الحضارة الحديثة الرخوة وارتد الى حياة القبائل البدائية . والغاية من الحياة فى هذه القلاع رياضة النفس على العنف والمشقة وأخذها بالخشونة والحرمان . فيتزوج طلابها قبل التحاقهم بها ثم يفصلون من زوجاتهم فلا يرونهن الا فى فترات الاعياد ، ومع هذا يخضعون لنظام خلقى وصحى دقيق يمنعهم مما تدفع اليه نزوات الشباب الممتلىء قوة ونشاطا . وجميع هؤلاء الطلاب متساوون فى طول القوام وعرض الصدور ، وبينهم كثير من التماثل فى السمات « النوردية » . وهم يمرنون على الالعاب الرياضية العنيفة كالمصارعة والملاكمة وقيادة الطائرات والهبوط منها بالمظلات الواقية « البراشوت » . فاذا اشفق أحدهم من القاء نفسه من الطائرة لم يرغم على ذلك ، بل أرسل الى بيته حيث تعرف زوجه وهى فتاة نازية متحمسة ، كيف ترغمه !

ويستأنف الطلاب فى هذه القلاع دراسة المبادىء النازية على نطاق أوسع وأوفى . فمما يدرسون مادة سموها « المسيحية السياسية » تدور حول نقد المذاهب المسيحية وتسفيه عقائدها وتمجيد الروح الوثنى القديم الذى يدعون له الصدق والطهر والقوة . ومما يدرسون مادة « الدعاية » وما تتطلبه من تفهم الرأى العام وتبين وجهاته وأطواره ، ليلقوا فيه ما يريدون من الآراء والانباء . وكذلك يعنى فى هذه المدارس بالموسيقى ـ موسيقى واجنر ـ التى قال عنها هتلر ان من يريد ان يفهم مبادىء الاشتراكية الوطنية يجب ان يفهم اولا ما ابدع هذا الفنان الذى صور فى أوبراته العنيفة العاتية حياة الابطال المجاهدين فى الآجام والغزاة الزاحفين الى الفتوح . وهكذا يتخرج الطالب من هذه القلاع على ثلاث دعائم :

١ ـ جسم متين اعتاد الجهد والعنف والحرمان الجنسى المسرف

٢ ـ ايمان بان الانسانية موزعة على عدة درجات يتربع الالمان أعلاها ويقبع اليهود فى أدناها ، وبينهما درجات تتراوح فيها سائر الشعوب

٣ ـ مقدرة على حل ما يعرض له من مشاكل السياسة والاجتماع بشعوره لا بتفكيره ، ذلك ان الزعيم يجب أن يعد « بصيرة » تحل فيه محل العقل الذى يتخذه الفرد العادى

والغاية من هذه المدارس خلق جيل يؤمن بمبادىء الوطنية الاشتراكية التى تقوم على اخضاع الفرد واستغلاله لمصلحة الشعب وخدمة الدولة ، فلا يسعى الى تكوين شخصية فردية مستقلة ، بل يجب أن يندمج فى المجتمع ليصير حجرا فى بنائه أو فردا من « القطيع » على حد تعبير نيتشه . ذلك ان الحرية الفردية فى نظر النازى هى مبعث الفوضى ومصدر الاضطراب فى الشعب والحكومة على السواء ، وينبغى ان تخضع هذه وذاك « للحزب » فهو الذى يتولى ادارتهما وتوجيههما ، وهو الذى يشرف على تنشئة أبناء الدولة واعدادهم ،

وهو وحده الذى يعرف ما تقتضيه حاجتها وتتطلبه مصلحتها ، فيؤلف من عشرات الملايين الالمان كيانا موحد الاصل والجنس لا فارق بين فرد وفرد مهما اختلف فى النشأة أو المال والتعليم ، وكأنما الدولة « خلية نحل » يتساوى الجميع فى التضحية لها والافادة منها

المدارس الانجليزية

اما المدارس الانجليزية التى أعدت لتخريج زعماء سياسيين واجتماعيين ، فتقوم على اساليب ومناهج تتمثل فيها الديمقراطية على أكملها وأوفاها . فالحكومة لا تنشىء هذه المدارس وانما تنشئها الاحزاب ، ذلك ان توجيه الشعب في جميع ساحات النشاط ليس من أمر الحكومة بل من هم البرلمان المؤلف من رجال الاحزاب . وليست الدراسة فى هذه المعاهد الانجليزية مجرد بذر آراء وعقائد فى الاذهان اللينة ، بل هى دراسة علمية تتوافر فيها حرية البحث والمناقشة والاعتراض كما تتوافر فى أرقى الجامعات . ولا يدخل الطلاب فى هذه المدارس وما زالوا صغارا يسهل تكييف عقولهم الرخوة والسيطرة على مشاعرهم المرهفة ، بل يدخلونها وقد أصابوا نصيبا من الثقافة والنضوج يمكنهم من مقابلة ما يعرض عليهم من الآراء واستخلاص ما يريدون منها وفق تفكيرهم الخاص . وهكذا لا يتخرج طلابها على غرار واحد ـ كما هو الشأن فى المانيا حيث لا فارق بين الواحد والواحد سوى اسمه ووجهه ـ بل لكل منهم شخصيته الفردية واتجاهه المستقل وآراؤه التى تكونت وفق ما هداه اليه التفكير

كان دزرائيلى أول من فكر فى انتخاب طائفة من الشباب لتدريبهم على شئون السياسة والزعامة . فانشأ فى اكسفورد منذ أكثر من ستين سنة جماعتين تضم كل منهما زهاء عشرين طالبا ، ويتلقى أفراد كل جماعة درسا فى الاسبوع فى بيت أحد الاعضاء حيث يتخذون مضيفهم رئيسا ، وبذلك يتقون ما يؤدى اليه التنافس بين الاقران فى سبيل الرئاسة من الشقاق . ويقرأ أحد الاعضاء فى كل اجتماع الموضوع الذى كلفته الجماعة بدراسته ، وهو عادة عن شأن من الشئون السياسية التى تهم الرأى العام ، ثم يتناقش الاعضاء فى هذا الموضوع فيدى كل منهم رأيه مؤيدا أو مفندا ، فيتدرب هؤلاء الشبان المثقفون على دراسة السياسة دراسة منظمة وعلى تعلم « المناقشة » تعلما يؤهلهم للدخول فى غمار الحزب والبرلمان . وقد أدت الجماعتان مهمتهما على خير الوجوه ، بدليل ان وزارة بولدوين فى سنة ١٩٢٤ كان فيها ثمانية وزراء من أعضاء هاتين الجماعتين . وكان كبار الزعماء والساسة يحضرون هذه الاجتماعات ليدلوا الى الاعضاء بآرائهم فىالسياسة ويطلعوهم على مجرى الحوادث الكبرى

وانتشرت امثال هذه الهيئات فى الجامعات الانجليزية ، فكانت منبتا لجميع الزعماء والساسة الانجليز اذا استثنينا نفرا من زعماء حزبى العمال والاحرار ممن نشأوا فىغمار الناس بعيدا من الوسط الجامعى الانجليزى الذى يكاد يقتصر على الطبقات الثرية او

الميسورة . ولو مر المرء بمقاعد ايتون وهارو ، ومقاعد اوكسفورد وكمبردج ، لرأى منقوشا عليها اسماء اكثر هؤلاء السياسيين الذين أقاموا انجلترا العظيمة وانشأوا امبراطوريتها الفسيحة ووجهوا سياستها وجهة السيادة والنفوذ

وقد بدأت الاحزاب الانجليزية في العهد الاخير تتطلع الى ما يجرى فى انحاء القارة الاوربية من عوامل النشاط السياسى وتتأثرها قدر ما تتيح لها تقاليدها الراسخة ، وقدر ما يسمح لها به نظامها الديموقراطي . فانشأت هيئات لتدرب الشباب على العمل السياسى وفق مبادئها ، وكان حزب المحافظين اسبق الاحزاب فى هذا السبيل ، فأنشأ « عصبة الشباب الامبراطورى » لتمرين عدد منتخب من الشباب والفتيات على شئون السياسة والدعاية . ولهذه العصبة فرع فى كل دائرة انتخابية ولها صحيفة شهرية يكتب فيها زعماء المحافظين . ويجتمع أعضاؤها من آن لآن للمناقشة فى أمور السياسة وللمباراة فى ساحات الرياضة . فتتضح كفاءاتهم للمهمة التى يراد منهم أداؤها ، وعندئذ يختار أوفرهم نشاطا واستعدادا للدراسة فى كلية سياسية أعدها حزب المحافظين لتقرير مبادئه وتوضيح سياسته وهى كلية « يونادلو » فى اشريدج

ورغم ان الحزب أقام هذه الكلية وتولى الانفاق عليها الا ان التعليم فيها ليس مجانا بل يدفع الطلاب الموسرون نفقاته أو تدفعها لهم الدوائر الانتخابية التى أوفدتهم . ولايشترط فى الطالب الا ان يثبت انه يدين بمبادىء المحافظين ولكن كثيرا ما يدخلها طلاب لا يؤيدون هذه المبادىء بل يعارضونها ويقاومونها . وليس فى هذا شيء من الغرابة اذا نظرنا الى الامر نظرة ديموقراطية صحيحة ، فان حزب المحافظين لا يتولى ادارة هذه الكلية بل يكلها الى هيئة مستقلة فى وضع ما تشاء من المناهج واختيار ما تريد من الاساتذة . ولهذا يتخرج فيها الطلاب احرارا فى تفكيرهم حرية تقودهم احيانا الى التألب على الحزب والانضواء الى خصومه . وهذا أروع مثل للحرية الفكرية التى تأبى عليها انجلترا أى قيد من القيود ، واثقة من ان هذه الحرية هى سر قوتها ومنبع حيويتها وطريقها الى اظهار جميع الملكات والافادة من كافة الجهود

والحياة فى هذه الكلية على غرار الحياة فى سائر الكليات . فهى تطلق للعقل حريته فى أوسع مدى ولكن تفرض على الطالب بعضا من القيود تعلمه بها النظام . فواجب عليه ان يحضر الصلاة ، وعلى الطلاب ان يأكلوا معا ، على الا يجلس أحدهم فى مكان معين ولا الى جانب افراد معينين، بل يختلط الطلاب كلهم اختلاطا يدربهم على طرق المعاملة الحسنة وأساليب التأثير النافذ . ويتلقى الطلاب كل يوم محاضرات عدة ويقضون سائر الوقت بين مكتبة الكلية وملعب الرياضة . وتبحث المحاضرات لمشكلات السياسة والاقتصاد والاجتماع فى بريطانيا ، وكذلك تدرس المذاهب الجديدة التىغمرت العالم فىالعهد الاخير مع توضيح وجهة نظر المحافظين وتأييدها ، ومع ترك الطالب ـ وهو حينئذ فى سن متقدمة ـ ليبدى كل ما يعن له من الآراء

ومن المألوف ان يختار حزب المحافظين عندما يتولى الحكم كثيرا من موظفيه ومن دعاته من خريجي كلية « بونارلو » هذه • وقد بدأ الحزب فى سنيه الاخيرة يستمع الى آراء طلاب الكلية فى شئون السياسة ويشركهم فى توجيه بعض الامور ، وان كان الانجليزى – والمحافظ بوجه خاص – يأبى ان يكل أمر السياسة الا لمن خبرها السنين الطوال

وللعمال كلية يتخرج فيها من يقومون بالخدمة الاجتماعية فى نقابات العمال وأنديتهم وفى جماعات التعاون وشركاته وفى المجالس المحلية والهيئات النيابية المختلفة • هذه كلية « رسكن » بجامعة أوكسفورد المنشأة فى سنة ١٨٩٩ لتعليم نخبة من العمال الاذكياء الذين أصابوا قسطا من التعليم والذين أبدوا جهدا ما فى ميدان الخدمة الاجتماعية • وتتولى الانفاق عليهم النقابات أو الجمعيات التى انتخبتهم وأوفدتهم وقلما يدفع الطالب شيئا من ماله الخاص • ومدة الدراسة فى هذه الكلية تتفاوت بين بضعة شهور وسنتين كاملتين • ونفقات التعليم مائة جنيه فى السنة لمن يقضى المدة كلها وخمسة عشر جنيها فى الشهر لمن يقتصر على فترة وجيزة • ويضاف الى ذلك ثلاثون أو أربعون جنيها فى العام مقابل الكتب والاندية والرحلات وما الى ذلك من نواحى الحياة الجامعية

وينصرف الطالب الى دراسة الاقتصاد والسياسة فيبحث مبادئهما ومشاكلهما سواء فى الحياة الانجليزية أو فى البلاد الاجنبية • ويدرس الى جانب ذلك علم الاجتماع وعلم النفس ويتدرب على الوسائل التى تمكنه من البروز فى ميدان الخدمة الاجتماعية وشئون الطبقة العاملة والخطابة والصحافة وما اليهما من أساليب الدعاية

ويمكن تلقى منهاج هذه الكلية بالمراسلة ، فترسل الى الطلاب أو الجمعيات الملتحقة بها المؤلفات والمحاضرات ، وتتلقى ما يوجهونه من الاسئلة وما يعن لهم من الآراء • وتعقد لهم امتحانات تخولهم اجازاتها التى لا يحمل سواها عدد من رجال البرلمان الانجليزى بل ومن كبار العاملين فى وزارتى العمال سنتى ١٩٢٤ و ١٩٢٩ • فضلا عن ان أكثر زعماء حركات العمال والتعاون فى انجلترا من خريجى هذه الكلية التى تعد أبناءها للقيادة فى ميادين الخدمات الاجتماعية ، ويتولى ادارة هذه الكلية مجلس مؤلف من مندوبى نقابات العمال وجمعيات التعاون والهيئات المختلفة المعنية بوجوه الاصلاح الاجتماعى • وحرية الدراسة والتفكير مكفولة فيها لا بحكم نظامها الرسمى فحسب بل بحكم الطبع الانجليزى الذى لا يعدل بالحرية الفكرية شيئا

والغاية التى نستخلصها ان ألمانيا لا تعد زعماء وساسة بالمعنى الصحيح ، لانها ليست فى حاجة الى زعامة وسياسة بعد ان حصرتهما فى يد واحدة هى التى تأمر وتنهى وهى التى توجه وتسود • اما انجلترا ففى حاجة الى هؤلاء الزعماء والسياسيين فهم الصلة بين الشعب والحكومة ، بين الرأى العام وأداة التنفيذ ، ولهذا تعد لهم المدارس التى تطلق لهم من الحرية الفكرية ما يؤهلهم لمقابلة الآراء ومقارنة المبادىء ، وكسب الانصار وقهر الخصوم ، وما الى ذلك من مظاهر الحزبية الصحيحة والديموقراطية السليمة

ماذا أفدت من الانجليز

(بقية المنشور على صفحة ٢١٦)

قراهم التى انحدروا منها وشعور الكبراء منهم بأن مجدهم الموروث ماثل فى قصورهم الريفية فلا يفتأ الواحد منهم يقصد الى قصره الريفى فى نهاية الاسبوع .Week-end أو فى الاجازة الصيفية فيملأ الناحية بشخصه ويعمرها بمدعويه من الكبراء والكتاب والفنانين . وكم من بقعة فى ريف انجلترا خلد جمالها فى قصيدة شاعر أو فى لوحة رسام من ضيوف تلك القصور !

قلت ان الانجليزى معتد بنفسه وان هذا أصل الديموقراطية فى انجلترا . وهذا الخلق ذاته هو الذى يجعل الفرد الانجليزى لا يطيق أن يتكبر عليه أحد أو يتعالى عليه بأى مظهر . واذكر ان البرنس اوف ويلز لما دخل الجامعة دخلها كأى طالب آخر وسرعان ما اطلق عليه رفاقه اسما من عندهم صاروا ينادونه به ..

وحدث ان التحق ابن راجا هندى بجامعة كنت فيها ، وقد جاء اليها بكل ما يملك من مظاهر العظمة ، وصار يتعالى على الطلاب ويمشى بخيلاء . فما كان منهم الا ان انتهزوا فرصة غيابه ذات مساء عن غرفه بالجامعة ، وقلبوا أثاثها الفاخر رأسا على عقب ، ولم يتركوا شيئا فى موضعه . ولما شكا الى العميد لم يظهر أى اكتراث لشكواه . واخيرا لم يجد ذلك الامير الهندى مناصا من ترك كبريائه والتمس مودة رفاقه كواحد منهم لا يمتاز عنهم بشىء

هذه وغيرها ذكريات من اقامتى فى انجلترا تلك السنين الطوال ، ولست أقدر ان احدد ما افدته من تلك الاقامة ويكفى ان اقول ان لها الاثر الاكبر فى تكوينى وتوجيهى الوجهة التى أنا موليها الآن فى حياتى الخاصة والعامة

ابراهيم رشاد

كلمة الاستاذ امين كحيل بك

كبير مفتشى العلوم الطبيعية بوزارة المعارف

« .. تعلمت من الانجليز كيف أتحكم فى عاطفتى ، وكيف اخفى شعورى بما يتناسب والرجولة والكمال والعرف . . »

للانجليز فى تربية أبنائهم طرق تختلف عن أمثالها عند الشعوب الاخرى ، وهم يتعودون الخلق الكريم لا فى معاهد التعليم والمدارس وانما فى البيت وملاعب الرياضة ، ولن أتعرض هنا الى ما يتوخونه من الاساليب المتبعة فى ذلك سواء فى المنزل أم فى المدرسة أم فى الجامعة ،

وهي الاساليب التى عمادها الاستقلال فى الرأى والتمسك بالصدق ومواجهة الحقيقة وتقديس العدل والاعتماد على النفس ، أى الصفات التى امتاز بها الشعب البريطانى ، فهذه تحتاج الى صفحات • ولكنى أجتزىء هنا بحادثين وقعا فعلا أمامى ، يرتبط الاول منهما بما ذكرت ، والثانى بتحكم الانجليز فى عواطفهم تحكما أساسه العقل والمنطق والرزانة واحترام النفس ، ضنا منهم أن يساء تفسير العاطفة بالضعف أو ببعث اطلاقها حرة على السخرية

ولقد وقع الحادثان أمامى ، فى أعقاب الحرب العظمى ، وكنت أساكن أسرة متوسطة الحال بمدينة بريستول ، عرف ربها التعليم العالى ونشأ فى بيت مثقف ، فأبوه قسيس ، وقساوستهم ينالون من التعليم أوفر قسط

أما الحادث الاول فكان بعد الهدنة مباشرة ، وكان الطعام لايزال شحيحا ينال منه كل فرد بمقدار معلوم ، وقد عزت مادة «السكر» فلم يكن يفوز الشخص الا بدراهم قليلة أسبوعيا ، وكان الوقت شتاء والبرد قارسا ، وأحضر طعام الافطار فاذا قوامه «البوريدج» ـ وهذا اللون لا يستساغ طعمه الا اذا مزج باللبن والسكر وكلاهما كان عزيزا نادرا ـ فكنا نصلح طعمه باضافة الملح اليه ، وكان لرب البيت فتى وحيد رغب عن تناول طعامه هذا بأن دفع طبقه بيده قائلا : « لا أحب هذا القرف ! » فأصر والداه على ضرورة تناوله وأصر الولد على عدم تناوله • وكانت النتيجة أن مضى الى المدرسة من دون افطار • وجاء وقت الغداء فاذا بالطبق ذاته يوضع أمام الصبى ويحرم مما سواه الا اذا تناول ما فيه ، فعاند وحرم من غدائه ، وجاء وقت الاصيل وجلسنا حول مائدة الشاى فاذا بالطبق المغضوب عليه يظهر لثالث مرة ، واذا بالفتى لفرط جوعه لا يستطيع الاستمرار فى عناده ، فتناول شيئا منه وهو يزدرده كرها ، فلما أتم وجبته كانت الدموع تسيل على خديه !

وانفردت بوالديه بعد ذلك ، وكنت أحسب ان الأم قد لان تصلبها قبل الاوان وراحت فى غفلة من أبيه تطعمه ما يشتهى ، وهذا هو ما يحدث فى بيوتنا المصرية غالبا فى مثل هذه الاحوال ، ويضيع بذلك حنان الأم وعطفها ما قصد اليه الاب من تقويم وتهذيب • ولكنها كانت انجليزية ، وكانت تعرف واجبها كاملا فى تربية ولدها وتنشئه ليكون رجلا ، فقالت : « ولم لا يأكل وقد صنعته بيدى وقدمته له بنفسى ، أيظن اننى أفعل ذلك لو لم تكن فيه فائدته وصلاحه ؟ » وقال الاب : « اننى رجل فقير أرجو أن أتمكن من أن أعيش حتى يبلغ ولدى أشده ، ولكننى سأدفع به الى الحياة خالى الجيب من المال ، فيجب أن يكون مستعدا للكفاح فى أركان الارض جميعا ، وانا لا ندرى أين يستقر به المقام ، أفى برارى كندا أم فى أدغال افريقا ، أم فى صحارى استراليا ، ولن يضمن أن يجد الطعام الذى يشتهيه ويستسيغه فى واحدة من تلك الاصقاع ، فيجب أن يتعود منذ الصغر تناول ما يقدم اليه ما دام نظيفا ، شهيا ، صحيا ، ولا نقدم اليه هنا غير ذلك »

أما الحادث الثانى فيرتبط بما يسميه نقاد الانجليز « ببرودهم » وهو تعبير غير مستساغ

باللغة العربية ، والحقيقة هي ان النقاد انما يقصدون بالبرود التحكم التام في العاطفة واخضاعها للمقبول عرفا وعقلا ، ويتفرع منها الثبات عند حلول الكارثة أو في مواطن الخطر ، ومجابهة الصعاب بجنان متزن ، ولقد وقعت أمامي حوادث عدة أذكر منها من باب المثال لقاء والدة لولدها بعد غيبة متصلة بلغت ثماني عشرة سنة

كنت أعيش وسط أسرة أخرى على شيء من التربية والتهذيب ، وعدت من الجامعة ذات يوم ، فاذا بي أحس كأن شيئا غير عادي قد حدث • وطلب الى واحد من الاسرة الموافقة على تأجيل الغداء فترة قصيرة حتى يصل شقيق صاحب المنزل وهو جندي عائد من ميدان القتال سرح بعد انتهاء مدة خدمته العسكرية ، فجلست مع أفراد الاسرة ، وكانت الأم من بينهم ، أنتظر عودة الجندي الظافر ولقاء أمه له خاصة ، وقد علمت انه نزح عن بلاده وهو شاب في العشرين الى الولايات المتحدة ولم يره أحد منهم حتى يومنا ذاك • وأعددت نفسي وأنا الشرقي المتقد العاطفة ، البعيد عن وطني وأمي ، أتصور مبلغ هذا اللقاء ، ولو كنت مكان القادم لكدت أبكي من فرط التأثر النفساني الخيالي • وبعد برهة وصل الضيف وهبت أمه للقائه وانتظرت لأرى كيف تضمه الى صدرها وتغمره بالقبل وتغسل وجهه بدموع الفرح الى غير ذلك من المألوف عندنا في مثل هذه المواقف ، ولكن كل ما قالته : « يا الهي ! لقد عدت الى رجلا كاملا • وأنا مسرورة برؤياك، فرحة بلقائك ! » وردد هو هزة اليد وابتسامة الشوق وأجاب : « وسروري أعظم بلقياك يا أماه » • وبعد أن حيانا جميعا بما لا يخرج عما فات جلسوا يتسامرون ويتذاكرون الماضي وما صادفه في غربته وفي غضون الحرب من أيام حلوة وكريهة، وانتهى طعام الغداء وخرج بعضهم للنزهة وألفيت نفسي منفردا مع الأم فلم أطق كتمان ما أصاب خيالي من صدمة فبادرت بسؤالها : هل كان بينها وبين ابنها ما أغضبها منه قبل سفره حتى قابلته بما لا يخرج في نظري عن الجفاء • فأجابت : « كلا ! وأنا أحبه من أعماق قلبي ، كما تحب كل أم ابنها ، وانما نحن الانجليزيات لا نحمل قلوبنا في أكمامنا فنجعلها عرضة لكل من أراد النظر •• ان سروري بلقياه عظيم ، وتأثري من أن يعود الى بعد هذه الغيبة الطويلة هز نفسي طربا ، ولكن ما الفائدة من أن أعرض هذا على أعين الملأ ؟ ولا اخال الا انه يشاركني نفس هذا الشعور »

من هذا الحادث وأمثاله تعلمت كيف أتحكم في عاطفتي • وكيف أخفي شعوري بما يتناسب والرجولة أو الكمال أو العرف مهما كان الموقف ، وهذا هو أهم ما أفدته من حياتي بين الانجليز

امين كميل

كلمة محمود تيمور بك

الأديب والقصصي المعروف

هؤلاء الاربعة ، أحفظ لهم خصائصهم التي امتازوا بها ، ولا أنسى أثرها في نفسي

اخترت أربعة من الانجليز ، كانت صلتي بهم وثيقة في فترات مختلفة . ومبعث اختياري لهؤلاء الاربعة أن لكل منهم ميزة من ميزات الشعب الانجليزي ، فاذا ما تحدثت عنهم ، فكأني أصور بعض ما لهذه الامة العريقة في الحضارة من خصائص :

أولهم : « المستر جنكنز » أستاذي في الانجليزية ، اثناء الحرب الماضية . وعلى الرغم من انقطاع أخباره عني عشرين عاما أو تزيد ، فاني ما زلت أرعى له جميل ما أفادنيه من خلق الى جانب ما لقنني اياه من علم .. كان آنئذ في ميعة الشباب ، فارع القامة ، عريض المنكبين ، بارز الصدر ، يروعك منه وجه يتلألأ صحة ونشاطا . فكان في نظري مظهرا لذلك الروح الرياضي الذي عرف به أبناء التاميز ، ولهذا لم أعجب لحديثه المستفيض خلال جلوسي اليه في شئون الرياضة ، وبخاصة ما تعلق منها بحفظ الصحة وسلامة البدن . وطالما قوي حماسه وهو يتحدث ، فنهض يؤدي بعض التمرينات على الوجه الذي تقتضيه من تمدد أو تمايل ، في غير مبالاة ولا تكلف : شأن الانجليزي في كل شيء ، لا يقيم وزنا للمظاهر الكاذبة ، والاحتشام الزائف .. وقد تبينت أثر هذه الرياضة واضحا في خلق متين برأ من النقائص ، وجسم سليم يهزأ بالعلل . فحداني ذلك الاستاذ على الايمان بفضل الروح الرياضي في توفير دواعي السعادة للانسان

الثاني : « الاستاذ جب » المستشرق المعروف ، اتصلت به في زياراته لمصر التي توالت في مدى السنوات العشر الماضية ، وقضيت معه أوقاتا طيبة يسرت لي أن أعهد فيه صفة نادرة ، فلقد كان ، وهو يتحدث ، ينطلق في سلاسة وعذوبة ، يكشف عن دقائق علمية أو أدبية عويصة ، فيحيل جفاءها الى ايناس ينسي ما في البحث الدقيق من جفاف . فأنت اذا جلست معه تستوعب الآراء في موضوع متشعب ، أو تستكنه الحقيقة في مشكلة غامضة ، ترى الوقت يمضي وأنت مغتبط مقبل ، دون أن تجد فيما استوعبت من وعورة العلم أي ضيق .. وتلك هي شخصية العالم البحاثة المحبب ، يرغب الانسان في الاقبال على البحث والمضي في التزود من العلم . وأعتقد أن « الاستاذ جب » يمثل في هذه الناحية العالم الانجليزي الذي يقدم اليك ثمرات علمه دون أن يقطع بك طريقا مفروشا بالصخر !

الثالث : « المستر بكستون » المستشرق ، مترجم « الايام » لاستاذنا الدكتور طه حسين بك ، والاستاذ السابق بالجامعة المصرية .. هذا الصديق عنوان الكياسة والظرف الانجليزي ، بجانب ما له من سعة العلم والمعرفة . فهو شاب أنيق الملبس ، نبيل الشارة ، أنيس المحضر ، تجمعت فيه الرقة بلا تبذل ، والترفع بلا كبرياء .. يشعرك وأنت معه

بغبطة هادئة تشيع فى نفسك ، والنكتة التى يرسلها تخلب لبك فتبعثك على الابتسام ، ولكنها لا تضطرك الى القهقهة . والحديث الذى يسامرك به يهز فيك ألفة تصلك بروحه ، وتجعل منكما صديقين يعمر قلبيهما الصفاء والاخلاص . وانى كلما شهدت صورة للمستر ايدن فى صحيفة أو مجلة ، حضرتنى على الفور صورة المستر بكستون ، «الرجل الظريف الكيس » فهل ثمة صفات مشتركة بينهما يدل عليها هذا الشبه ؟!

الرابع : « المستر باربر » المستشرق الرحالة المشهور . زار مصر واستقر بها بضعة أعوام ، ثم غادرها الى فلسطين ، ومكث فيها كذلك سنين . وكان قبل وفوده على مصر قصد المغرب الأقصى والعجم الى ممالك أخرى فى الشرق والغرب ، وقضى فى كل مملكة منها أعواما بأكملها .. وهو اذا هبط بلدا لم يتركه الا وقد تقصى أخباره ، وعاشر ناسه ، ودرس معارفه ، واختلط بدخائل الحياة فيه ، فاذا بلغ من ذلك كله مأربه ، حل بلدا آخر يستأنف الدرس والاستيعاب . ولذلك عرفته معلمة للبقاع التى رحل اليها ، وبخاصة ممالك الشرق ، فهو يحدثك عنها حديث عالم متمكن خبير . وانه لجدير بنا أن نلقبه بالسندباد الحديث ، والدليل على جدارته بهذا اللقب ، أن له مؤلفات عن أغلب البلاد التى نزل بها ، وقد وقعت فى يدى طبعة من رواية اسبانية ترجمها الى الانجليزية حين اقامته فى اسبانيا . فاما الاعوام التى قضاها فى مصر فقد وجه فيها عنايته الى الادب الحديث عامة ، والمسرح خاصة ، وله بحث مستفيض شائق درس فيه نشأة المسرح وتطوره حتى عام مغادرته وادى النيل ، ونشره بالانجليزية ، وله كذلك ترجمة « عودة الروح » لصديقنا الاستاذ توفيق الحكيم . وأما المدة التى أقامها فى فلسطين ، فقد أنجبت بحوثا متواصلة عن القضية العربية هناك ، حاول فيها التوفيق بين وجهتى النظر المختلفتين .. وانى لاذكر الجلسات التى التقيت فيها بالمستر باربر أيام وجوده فى مصر ، فيتمثل لى طابع المغامر الانجليزى ، ذلك الذى يلتقى فيه هدوء الطبع ولين العريكة ولطف الحديث ، مضافا الى حب المغامرة وقوة العزم

***

فهؤلاء الاربعة ، أحفظ لهم خصائصهم التى امتازوا بها ، ولا أنسى أثرها فى نفسى . ومجموع هذه الخصائص يصور بعض نواح ظاهرة فى حياة الشعب الانجليزى وهى :

أولا : فضل الرياضة على الجسم والخلق فى الامة الانجليزية

ثانيا : دقة البحث ، مع خلوه من التعقيد ، فى العالم الانجليزى

ثالثا : الكياسة والظرف غير المتكلف ولا المبتذل ، فى الانجليزى « الجنتلمان »

رابعا : قوة العزيمة وحب التطلع ، مع الحرص على الاستيعاب والتقصى ، فى الانجليزى المغامر الجواب ...

محمود تيمور

العرش الانجليزى

تأصل الملكية البريطانية فى الشعب ـ أثر الملكة فكتوريا فى توطيد العرش ـ العرش الانجليزى والطبقة العاملة ـ حب الشعب لملوكه ـ ديمقراطية العرش الانجليزى ـ السياسة والعرش الانجليزى

الحياة الانجليزية حافلة بالنقائض ، يستوى فى ذلك الفرد والمجتمع ويتماثل فيه القانون والسياسة ، حتى ليدهش المرء أن يتيسر للانجليز هذا المجد وتتهيأ لهم هذه السيادة ، بينما هم لا يأخذون أمرا من أمورهم وفق « المنطق » البين المنظم . ولكن متى كان المنطق يغنى عن الواقع ، ومتى كان العقل أنفذ وأصدق من البصيرة ؟ فلم نعجب للانجليزى يدبر حياته فى ضوء الوقائع بدلا من النظريات ، ويتخذ طريقه وفق ما يهدى اليه الحس المرهف وان خالف الذهن المفكر ؟!

والعرش الانجليزى ـ ككل شىء فى انجلترا ـ يمثل هذا التناقض اذا نظرنا اليه كما نظر اليه ذلك الفرنسى « المنطقى » فقال : « عجبا للانجليز ! لملكهم الحق فى أن يبيع الاسطول البريطانى ، وليس له الحق فى أن يدخن سيجارة فى حفل رسمى ! » . والواقع ان العرش الانجليزى مصدر حيرة لنا اذا فكرنا فيما يحيطه به « الدستور » من النقائض ، وان كان الانجليز أنفسهم لا يرون فى الامر أية حيرة استنادا الى « العرف » الذى يعلونه ويغلبونه على كل قانون

فملك انجلترا حاكم مطلق لا يدانيه أى حاكم فيما غبر من التاريخ ولا فيما يعاصرنا من الدول ، اذا قدرنا ما يقرره له الدستور من السلطات والحقوق . ولكنه فى الوقت ذاته يملك ولا يحكم منذ أخذ البرلمان بيده زمام الامور بعد ثورة قتلت الملك وهدمت العرش حينا ما . واذن فيمكن أن نقول انه زعيم وثق به الشعب فخوله الحق فى أن يفعل ما يشاء ووثق هو بالشعب فأباح له من الحرية ما يريد ... ومصدر هذه الزعامة ان العرش الانجليزى أثبت قدرته فى كل الاوقات على أن يتكيف ويتحور وفق رغائب الشعب وحاجاته ، فكان ممثلا ومستجيبا له فى الحياة الاجتماعية والشئون السياسية على السواء منذ الادوار الاولى فى تاريخ انجلترا

تأصل الملكية البريطانية فى الشعب

والواقع ان العرش الانجليزى ، سواء أكان مالكا للسلطة أم مجردا منها ، مغروس

فى قلب كل انجليزى ، وجذوره متأصلة فى القومية الانجليزية • ومرجع هذا ان الشعب شهد منذ بدء تاريخه جماعة الاشراف لاتنفك عن النزاع والقتال فى سبيل الغلبة والسلطة، فرأى أن يقوى شوكة الملك ليعلو أمره فوق أمور هؤلاء الاشراف ، فيمنعهم من الشقاق والنضال ويقى الناس ما يصيبهم من جراء هذا من حرب وبلاء • ولهذا اتجه الشعب منذ بداءة الامر الى تأييد العرش وتقوية نفوذه ، ناظرا الى الملك نظره للزعيم الذى ينقذه من المشاق ويدرأ عنه ما يستهدف له من الاخطار • ثم استطاع العرش أن يزيد قوته بنفسه ، لا باخضاع خصومه ولا بتملق الجماهير ، ولكن بتقدم الشعب عندما يتعرض له العدو ، وبمشاطرة الشعب ما يلم به من المحن • وليس أدل على ذلك من هذه الكلمة التى قالتها الملكة اليصابات عندما أرسل فيليب الثانى أسطوله الارمادا يغزو به انجلترا ويقهرها : « اما أن أعيش معكم واما أن أموت أمامكم • انى أهب دمى فى سبيل الهى ووطنى وشعبى، نعم انى امرأة ضعيفة الجسم ، ولكنى أحمل فى صدرى قلب ملك ـ ملك انجلترا ! » .

وليس غريبا اذن أن نرى هذا الشعب الذى أيد العرش عندما أخلص صاحبه لقومه فأصلح أمورهم ودفع أعداءهم ، يتألب على هذا العرش ويقوضه فى ثورة دامية أقامها كرومويل عندما صار ملوكه منصرفين الى أهوائهم التى ترهق الناس بالضرائب وتزهدهم فى نظام يخدمونه بغير مقابل ويستغلهم دون جدوى • ولكن جذور الملكية متأصلة غائرة فى القلب الانجليزى ، فلم يلبث بعد أن ثار وتخلص من العرش أن عاد الى اقامة النظام الملكى ، على نقيض سائر الشعوب التى لم تفكر فى أن تعيد الملكية بعد أن خلصت منها • فما ان مات زعيم الجمهورية كرومويل حتى أرجع الانجليز شارل الثانى واستأنفت انجلترا حياتها على المنوال الذى نسجته منذ القدم ، والذى أثبتت لها الايام انه خير نسيج • فتلك الجمهورية وان حققت للانجليز ما تطمح اليه الشعوب من الحريات ودفعتهم الى كثير من النجاح فى ميدان السياسة الدولية ، الا انها أثبتت لهم انها لا تلائم طباعهم ولا تسير أمورهم ، فقد شهدوا فى أثنائها ألوانا من العسف والاضطهاد ، وعانوا فيها قسوة فى جمع الضرائب فضلا عما أصابهم فى أثنائها من الازمات • ولهذا يمكن أن يقال ان الثورة التى أضرمت لهدم العرش كانت خير وسيلة الى تثبيته وتدعيمه

أثر الملكة فيكتوريا فى توطيد العرش

على ان الفضل الاكبر فى تثبيت دعائم العرش الانجليزى يرجع الى تلك الفتاة التى تربعت عليه فى صدر حياتها ، الملكة فيكتوريا • فقد تولت العرش عقب طائفة من الملوك لم يتعظوا بثورة كرومويل من ناحية ، ولم تكن لهم كفاءة ممتازة من ناحية أخرى ، فانصرفوا الى أهوائهم وانغمسوا فيها دون أن يفيد منهم الشعب مقابل ذلك فائدة ما • فأخذت فكرة الجمهورية تنمو مرة ثانية ، خصوصا بين جماعة المفكرين والعلماء الذين أخذوا يتحدثون عن تلك الجمهوريات المثالية التى عرفتها أثينا وروما قديما ، وتلك التى

بدأت تؤتى ثمرها فى فرنسا وأمريكا حينذاك . وراحت فكرة الثورة تسرى فى الجمهور حتى غدا يعتقد ان العرش الانجليزى قد بت فيه ، وألا خلاف الا على مدى ما بقى له من الحياة ، ولكن فيكتوريا وفقت على حداثة سنها وعلى ما صادفها من عقبات الى أن تنقذ الملكية من كل ما حف بها من الاخطار ، بفضل ما أوتيت من أخلاق متينة وملكات عظيمة

فمن الكلمات الشائعة فى الانجليزية الحديثة كلمة « الروح الفيكتورى » يعبرون بها عن روح الاخلاص والتفانى فى أداء الواجب ، روح الصرامة والخشونة فى أخذ الحياة ، روح النبل والوفاء فى الصلة بالناس ، أى هذا الروح الذى اتخذته الملكة فيكتوريا فى حياتها الخاصة وفى سيرتها العامة ، وبثته فى الشعب جميعا من الساسة والزعماء الى العامة والجمهور ، هذا الروح الذى حقق لانجلترا ما توافر لها من المهابة والكرامة فى ميدان السياسة الدولية وفى أرجاء الامبراطورية البريطانية كلها

وكانت خطة الملكة فيكتوريا أن تثبت للناس ان الملكية ليست زينة يزهو الشعب بقصورها الباذخة ويتحدث عن حفلاتها المسرفة ، وان الملك ليس زعيما للعصابة الارستوقراطية العاطلة التى تستغل الشعب دون أن تؤدى عملا ... لا ، ولكنها رمز الشعب الصميم المؤلف من هذا الفلاح الذى يضرب الارض بيديه فى الريف المهجور ، وهذا الملاح الذى يهيم فى البحر النائى سعيا وراء صيد السمك ، وهذه المرأة التى تنزوى فى بيتها منذرة نفسها لزوجها وولدها . فلا عجب أن اتخذ الشعب الانجليزى مليكته نموذجا فى حياته الخاصة ، وحرص كل فرد فيه على أن ينشىء حياة بيتية سعيدة كتلك التى استمتعت بها فيكتوريا مع زوجها الامير ألبرت

هذا هو التأثير الاجتماعى للملكة فيكتوريا التى كتبت صفحة جديدة فى تاريخ انجلترا ، والى جانبه تأثير سياسى تمثل فى انتقال السلطة فى بدء عصرها من الطبقة الارستوقراطية الى الطبقة الوسطى ، وبذلك كان عهدها فتحا عظيما فى الديموقراطية الانجليزية التى لم تجد حاجة الى الثورات الدامية اكتفاء بتطورها الوئيد . وقد قيل ان انجلترا لم تقم بثورة كبرى لانها تقوم كل يوم بثورة صغرى ، أى انها تتخذ من سياسة التطور غنى عن فورة الطفرة ، وأبرز مظاهر هذا التطور انسياق العرش مع الشعب فى تحقيق رغائبه ، بل كان العرش فى كثير من الوقت أسرع من الشعب تبينا لهذه الرغائب وأسبق منه الى اجابتها . فلما تبينت الملكة فيكتوريا قوة الطبقة الوسطى التى اتاحت لها الثورة الصناعية والتقدم التجارى الثراء الوافر ، لم تتوان فى اصدار « قانون الاصلاح » الذى نقل الى هذه الطبقة ما كان مقصورا من الحقوق على الطبقة العليا

وكذلك قوت فيكتوريا الديموقراطية الانجليزية من ناحية أخرى ، هى التخلى عن كثير من حقوق العرش للوزارة والبرلمان ، فيقول مؤرخوها انها كثيرا ما كانت تكتب لرئيس الوزارة انها لا يمكن ان توافق على هذا أو ذاك المشروع ، ولكن توقيعها كان معدا دائما للموافقة على ما يراه . ولم يكن ذلك عن ضعف أو عجز ، بل كان عن بعد

نظر وسداد رأى ، فلم يقع فى عهدها شىء من النزاع أو الصدام بين العرش والحكومة ، بل تعاونا على تثبيت الديموقراطية وتمجيد الدولة فى آن واحد . ومما ساعد فكتوريا على التوفيق بين العرش والحكومة انها كانت أوسع من أكثر وزرائها خبرة بشئون السياسة ، بفضل ما جمعت من التجارب فى اثناء عمرها الطويل ، فكانت فى آخر حياتها تذكر لهم سوابق شهدتها بنفسها قبل ان يولدوا ، واذ كان الانجليز يعتدون بالسوابق ويقدرونها فما كان يسع هؤلاء الوزراء الا ان ينزلوا عند رأى ملكتهم الكبيرة

العرش الانجليزى والطبقة العاملة

وظل العرش بعد ذلك على خطته فى الاستجابة الى حاجات الشعب والسير فى طريق تطوره الاجتماعى . فلما قويت شوكة الطبقة العاملة ، اثر تركزها فى المدن تركزا أبرز ما يحيطها من مشاق ومساوىء ووحد فى الوقت ذاته قواتها وجهودها ، لم يتأخر العرش عن أن يحول السلطة من الطبقة الوسطى الى الطبقة الدنيا . وهكذا زاد ادوارد السابع فى تنمية الروح الديموقراطى بالقدر الذى زادت به من قبل والدته الملكة فيكتوريا . ولكن ثمة نقطة هامة فى هذه الناحية هى ان العرش الانجليزى لم يكن فى يوم من الايام متملقا للشعب ولا مشجعا لجانب الاسفاف فيه ، بل قصر تأييده وعطفه على أنبل صفاته واسمى اتجاهاته . وهذه هى الملكية المثلى التى ترتفع بالشعب الى العرش ولا تهبط بالعرش الى الشعب . وهذه هى الملكية الانجليزية التى حدت بالرعية ان تتخذ مليكها نموذجا ومثالا ، لا أن يتخذ الراعى من الجمهرة أداة للتغرير والخداع والاستغلال

حب الشعب للملوك

ليس غريبا اذن أن يقوم العرش على دعائم ثابتة فى القلب الانجليزى حتى ليغدو حب الملك فى انجلترا طبعا أصيلا . وقد تمثل هذا الحب فى ظروف جمة كان أبرزها وأقواها حين حفت قلوب الشعب البريطانى بفراش جورج الخامس عندما مرض منذ سنوات ، وحين اتجهت الامبراطورية كلها الى قصر بكنجهام راجية داعية ، فشهد العالم أجمع أن الملكية الانجليزية ثبت أصلها ورسخت دعامتها بحكم الطبع والعرف لا بما يقرره نص القانون

على ان هذه العاطفة التى تربط الشعب بالعرش بأوثق رباط لم تصرف الشعب عن افتداء الدستور اذا استهدف للاذى بأى ثمن ولو كان مليك العرش ذاته . فهذا ادوارد الثامن اخلصت له الشعوب التى يرعاها قلوبها الحافلة بالحب والولاء ، منذ كان وليا للعهد يختلط بجمهرة الشعب ويطوف بأرجاء الملك ، ولكن حين تعارض أمر زواجه بعرف الدستور لم يسع الشعب ان يتنحى عن الحق الذى ناضل فى سبيله وضحى ، ولم يسع الملك أن يصادم الشعب ممثلا فى دستوره ، بل تخلى عن العرش قائلا بأن ليس فى

وسعه ان يؤدى واجبه على الوجه الاكمل بعيدا عن المرأة التى يحبها. نعم ، ان هذه الازمة صدمت الشعوب البريطانية التى لم يخطر ببالها ان يفتدى مليكهم قلبه بالعرش ، ولكنها انجلت بعد أن زادت العرش البريطانى مهابة ووقارا وزادت الدستور الانجليزى منعة ورسوخا

ديمقراطية العرش الانجليزى

ومما يلاحظ فى أمر الملكية الانجليزية انه كلما كان العرش « شعبيا مألوفا » كان أعظم أثرا وأقوى نفوذا . فقد عمد كثير من ملوك انجلترا الى التجرد أمام الشعب من رهبة الملك وسطوة العرش ، والتظاهر بانهم أفراد تربطهم بسائر الناس رابطة من الآمال والآلام ، فكان هذا الروح الشعبى سحرا نفذ بالعرش الى صميم القلب حين اتخذ منه الدعامة التى لا تهن ولا تنهار . وفيكتوريا العظيمة هى التى ابتكرت فى انجلترا هذا الروح الشعبى حين جعلت من سيرتها الخاصة مثلا يحتذيه كل انجليزى وكل بريطانى ، فكان كل فرد فى ارجاء امبراطوريتها يسعى ليقيم فى بيته المتواضع ، بل فى كوخه المنزوى ، حياة سعيدة على غرار تلك الحياة التى يزدهى بها قصر بكنجهام ، وكان كل فرد من رعيتها سواء كان سيدا حاكما أو كان عاملا جاهدا يتمثل ويتأثر مليكته فى اخلاصها للعمل وتفانيها فى سبيل الواجب . ولم تتخل فكتوريا عن هذا التجاوب بينها وبين شعبها الا فى تلك الفترة التى اعتزلت فيها الناس جميعا عقب وفاة زوجها الامير البرت ، فأحست حينذاك أن هذه العزلة تكاد ان تصير جفوة بينها وبين الناس ، فعادت فى شيخوختها تختلط بحياة شعبها ، وأخذت تنشىء أولادها على هذه السيرة الحميدة ، فكان أولادها وأحفادها سباقين الى كل ناحية يتجه اليها الشعب مندفعين الى الخلطة بطبقات الناس جميعا . وهذا حفيدها جورج السادس يبرز فيه هذا الميل على أكمله وأسماه عندما قال : « اننى فرد عادى جدا كلما أبيح لى أن أكون ذلك » . ولما كانت الحياة تجرى فى طريقها الآمن كان الملك والملكة ، وكلاهما سواء فى هذا الروح الشعبى ، يطوفان فى انحاء المملكة مختلفين الى شتى الطبقات فى دور أعمالهم واندية ملاهيهم . فلما كانت الحرب اللاهبة وألمت الخطوب الفادحة ، غدت هذه الصلة بين العرش والشعب حبا خالصا يحمل الملكين من ناحية على أن يخرجا تحت وابل من النيران الهابطة من السماء ليهونا قسوة الخطوب ويثيرا قبسا من الآمال ، وأثار فى الشعب من ناحية أخرى روح الفداء كلما أصاب العدو شيئا من القصور الملكية التى يكاد يعدها الانجليزى من قبيل الكنائس والمعابد

السياسة والعرش الانجليزى

هذا هو الجانب الاجتماعى للملكية فى انجلترا التى جعلت من الاسرة المالكة قدوة ومثالا للشعب فى حياته الخاصة . اما جانبها السياسى فهو موضوع نقاش بين الفقهاء والمشرعين

الذين اختلفوا في مدى ما للملك من الحق في توجيه السياسة العامة • فرغم ثورة كرمويل وما فرضت على الملك من قيود وما أباحت للشعب من حقوق ، ظل عرش انجلترا مطلق الارادة في شأن الحكم وتوجيه الدولة • فكان وليم الثالث يقود الجيوش ويعلن الحروب وينشىء الصلات بين انجلترا والدول الاجنبية حسبما يرى دون الرجوع الى البرلمان وكانت الملكة آن تحضر جلسات مجلس الوزراء ، وتشهد مناقشات مجلس اللوردات ، وترى لنفسها الحق في تعيين من تشاء من الوزراء وتختارهم من أى حزب كما ترى • ولم يتردد جورج الثالث ووليم الرابع في اقالة الحكومات التى لم ترضخ لارادتهما رغم تأييد البرلمان لها • ولكن لما جاءت فيكتوريا العظيمة أبت على العرش أن يتدخل تدخلا مباشرا في شئون الحكم والسياسة ، رغم ان شخصيتها الفذة أباحت لها ان توجه السياسة الداخلية ، بل ان تشرف على السياسة الدولية • فما من وثيقة سياسية الا كان لفيكتوريا الرأى الراجح في شأنها ، وما من حدث دولى خطير الا كان لها ضلع في توجيهه والافادة منه • ذلك أن خبرتها واخلاصها ونفوذها حملت الساسة والزعماء على أن يأخذوا برأيها ويسيروا وفق نصيحتها ، كما ان صلة القرابة بينها وبين كثير من الاسر المالكة في انحاء أوربا يسرت لبريطانيا اسباب النفوذ والسيادة التى تهيأت لها في ذلك العصر الزاهر كاملة وافرة

ومع هذا فالدستور الانجليزى ما يزال يخول الملك حقوقا واسعة جدا لا يمكن ان توجد في أكثر الدول الاوتوقراطية فما بالك بمنشئة الديموقراطية وزعيمتها ؟ فيقول « باجيهوت » — في كتابه عن الدستور الانجليزى — ما يلى عن حقوق الملكة فيكتوريا التى انتقلت كما هى الى حفيدها الملك جورج السادس :

« ان الدهشة تستولى على الناس اذا عرفوا الاعمال التى تستطيع الملكة ان تقوم بها وحدها دون استشارة البرلمان • وقد دهشوا فعلا عندما ألغت الملكة وحدها وبرغم معارضة مجلس اللوردات نظام الجنود المرتزقة في الجيش • ولكن هذا العمل لا يقاس الى جانب ما تستطيع الملكة بحكم القانون أن تعمله دون الرجوع الى البرلمان • فهى تستطيع أن تسرح الجيش بأسره (ذلك ان القانون يحتم ألا يزيد عدد الجيش على عدد معين ولكنه يبيح للملكة الا تجند أحدا ما) • وفى وسعها ان تطرد جميع ضباط الجيش كبارا وصغارا ، وكذلك تستطيع أن تسرح جميع البحارة ، بل انها تستطيع ان تبيع كل سفننا الحربية وكل مخازننا البحرية • ولها الحق في أن تعقد هدنة حربية ولو ضحت في سبيلها بمقاطعة كورنول ، ولها ان تعلن الحرب وحدها ما دام الغرض منها فتح مقاطعة بريتانى في فرنسا (ذلك ان كورنول ملك خاص بالعرش وبريتانى كانت ملكا لانجلترا فيما مضى) • وتستطيع ان تنعم على كل فرد في المملكة المتحدة ، ذكرا كان أو انثى ، بلقب الامارة Peerage • وتستطيع أن تحول كل معبد في المملكة المتحدة جامعة علمية • وتستطيع ان تفصل أكثر موظفى الحكومة كما لها الحق في ان تفتح أبواب السجون وتطلق سراح

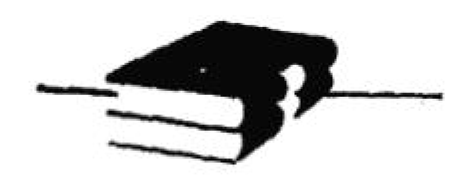
كل من فيها . أى ان الملكة تستطيع فى كلمة موجزة ان تعطل كل ما تجريه الحكومة من الاعمال ، وان تعلن الحرب أو تقرر السلم ضد ارادة الشعب وشرفه ومصلحته ، وان تجعلنا هدفا لكل الاعداء الاجانب بتسريح جيشنا وبيع اسطولنا » !

هذه الحقوق المطلقة يخولها الدستور للملك . أما الواقع فيقرر ان العرش يملك ولا يحكم . والوزارة هى التى تحمل وحدها عبء الحكم وتسأل عنه أمام البرلمان وحدها . ومع هذا يظل ملك انجلترا رمزا للشعب ، يحتذيه كل فرد فى حياته الخاصة ويتأثره كل سياسى فى سيرته العامة ، ويأخذ الجميع برأيه حين تأتى الاحداث وتلم الصروف . والفارق الفاصل فى أمر الدستور بين الوجهة النظرية والجانب العملى هو « شخصية » الملك التى تمكنه من ان يقرر رأيه بالخبرة والحسنى بدلا من ان يفرضه عنوة وقسرا

أما الملكية الانجليزية فتتسع ـ لانقول حقوقها بل مسئولياتها ـ من عهد الى عهد تبعا لتطور نظام الامبراطورية البريطانية . فقد كان التاج رمز الامبراطورية وأقوى صلة بين اجزائها منذ نشأتها ، ولكن تحول أكثرها من مستعمرات الى ممالك مستقلة جعل هذا التاج الصلة الوحيدة التى تربطها معا ، فصار نطاق عمله أفسح وغدا عبء مسئوليته أثقل

ومن عجب انه كلما اتجهت الشعوب وجهة ديموقراطية نقصت حقوق العروش وقيدت سلطات ملوكها ، أما العرش البريطانى فكلما زادت أمبراطوريته أخذا بالمبادىء الديموقراطية التى تباعد بينها وبين الروح الاستعمارى القديم ، زادت حقوق عرشها وكثرت مسئولياته . وقد كانت حفلات تتويج جورج السادس ، التى استقبلت لندن فى أثنائها أفواج الامراء والاعيان ، والساسة والقواد ، والكتاب والدعاة من أرجاء العالم جميعا ، دليلا على ان المتربع على العرش البريطانى لم يعد ملكا على انجلترا وحدها بل على الامبراطورية بأسرها ، تتمثل فيه وحدتها وقوتها ، وتتجه اليه بولائها ووفائها ، وتلقى عليه عبء جهادها فى سبيل الحضارة الانسانية

ح . غ .



تقاليد البرلمان الانجليزى

عن كتاب « الانجليز » بقلم الكاتب الفرنسى الكبير اندريه موروا

كتاب « الانجليز » لاندريه موروا من اعظم ما كتب عن الشعب الانجليزى فى العصر الحديث . وهو يحلل الشخصية الانجليزية بقلم الاديب البارع والمؤرخ الكبير ، ويتناول مختلف النظم الانجليزية ومن بينها النظام البرلمانى الذى نلخص ما اورده عنه فى المقال التالى [المحرر]

بريطانيا العظمى فى نظر اندريه موروا تشبه قصرا من القصور التاريخية العتيقة التى طال عليها القدم وهى ما تزال صامدة للدهر صمود الراسيات • وحول القصر أشجار باسقات، وورود متسلقات ، وأزهار أفضت ببذورها مئات المرات لعشرات الاجيال من ساكنى القصر وسدنته • والقصر نفسه حوى من آثار الماضى كل قديم وثمين من الاثاث والرياش • وكل جديد مستطرف من طيبات المدنية الحديثة ومبتدعات العصر الجديد • وعلى جدران القصر العتيق ترى نقوش الزمن الغابر وقد امتدت من خلالها الاسلاك الكهربائية الحديثة • ومع وجود الدرج القديم الذى يصعد الى الطابق الاعلى بشكل ثعبانى حلزونى عجيب ترى المصعد الكهربائى الحديث • وفى الابهاء والحجرات ترى مئات اللوحات الزيتية ، بعضها بارع التصوير باهره وبعضها بشع تأنف العين من رؤيته

ولقد يكون منزل صغير أصلح للسكنى من مثل هذا القصر ، ولكنه لا يكون « منزلا انجليزيا » ولا يمثل أطوار الانجليز وأهواءهم ، ويفقد فى نظرهم هذا السحر الذى يستهويهم به قصرهم ذو الشرفات والابراج ••

وانجلترا فى نظره قد نمت وارتقت معارج العظمة ببطء وهوادة • فالخطأ والصواب ، والهزائم والانتصارات ، والسلام والاستقرار ثم الحروب والثورات ، كل أولئك فى تاريخ انجلترا مسطور وله تقليد مصون ومقدس • وفى أسماء أيامهم اسمان لالهين من آلهتهم أيام الوثنية هما « ثور » و «فريا» ليومى الخميس والجمعة مع انهم من أشد الشعوب تدينا ومسيحية • وقد ورثوا عن ملوكهم النورمانديين الطاعة مع الحرية • وتوصلوا الى أرفع نظم الحكم وليس لهم دستور مكتوب غير العرف المصطلح عليه

وعلى هذا النهج من التطور الحر المطلق من كل القيود مع التناقض فى كثير من الاحيان تدرج النظام البرلمانى فى انجلترا من مجلس استشارى من النبلاء الى ما نراه الآن من نظام برلمانى يعد أقدم وأنبل نظام فى العالم كله

وفيما يلى عرض لهذا النظام كما شرحه اندريه موروا فى كتابه :

تمتعت بريطانيا العظمى منذ القرون الوسطى بمجلسين،أحدهما انتخابى ــ وهو مجلس العموم ، والآخر ــ وهو مجلس اللوردات يتألف معظمه من اللوردات ويضم اليهم طائفة من رجال الدين والقضاة

ومجلس العموم لم يكد يعترضه شىء من العقبات منذ قيد الانجليز ملوكهم وأودعوا ما انتزعوه منهم من سلطات فى مجلسهم العتيد•أما مجلس اللوردات فهدد أكثر من مرة : عندما عارض فى اصلاح نظام الانتخابات فى سنة ١٨٣٢ ، وعندما وقف فى وجه لويد جورج فى سنة ١٩٠٩ معارضا فى ميزانيته فطالب الراديكاليون بالغائه • ولكن المرونة المتوافرة فى خلق الانجليز انتشلته من ورطاته وحافظت على كيانه وتوقيره ، هذا الى ان للملك حق اجراء حركة تعيينات تمكنه عند الازمات من تحويل أكثرية مجلس اللوردات الى السياسة المطلوبة

ومجلس اللوردات كما هو معروف ليس له حق رفض القوانين • وكل ما يملك من نفوذ هو اعاقة تنفيذ بعض القوانين فترة من الزمن

وعلاقة المجلسين على وجه العموم حسنة • وفى اليوم الذى يحدده المرسوم الملكى لبدء الدورة البرلمانية يجتمع أعضاء كل مجلس فى قاعتهم • ثم يسمع على باب مجلس العموم وهو مغلق طرق عنيف من أحد السعاة ، ويعلن للنواب قدوم « الصولجان الاسود » « Black rod » ــ وهو مندوب مجلس اللوردات ــ لدعوة النواب للانتقال الى قاعة المجلس الآخر • وهناك ينبئهم حامل الاختام الملكية بأن جلالة الملك الامبراطور يرجو منهم أن ينتخبوا من بينهم رئيسا « Speaker » • وهذا الرئيس عندما ينتخب يلبس الروب والشعر الابيض المستعار ــ رمز الجلال والوقار

ثم تنعقد الجلسات تباعا وتفتتح دائما بالصلوات للملك ، والملكة وولى أو ولية العهد ، والبرلمان نفسه ••

وتطبق فى جلسات مجلس العموم قواعد وآداب بالغة منتهى الدقة • منها انه لايسمح لأى نائب بتلاوة خطبته من ورقة مكتوبة • ولا التدخل بين الرئيس وأحد الخطباء • وعلى النائب الذى يتكلم من الصف الامامى ألا يتعدى حدود البساط الضيق المفروش تحت قدميه ، وسبب ذلك ان النواب كانوا قديما يجتمعون حاملين سيوفهم ومسلحين ، فكان من التحوط ألا يسمح لهم بالتقدم الى منصة الرياسة خوفا من وقوع ما لا تحمد عقباه • وكذلك لا يصح تسمية أحد النواب باسمه ، بل يكفى أن يقال « حضرة النائب المحترم »•• فاذا كان النائب محاميا قيل « حضرة الجنتلمان المحترم العلامة » • فاذا كان من رجال الجيش قيل « حضرة الجنتلمان المحترم الباسل » • أما اذا كان وزيرا فيقال له « حضرة الجنتلمان الوافر الاحترام » • واذا أخل أحد بهذه القواعد وآداب السلوك تصايح النواب من كل ناحية : « النظام النظام ! » ••

وعلى كل نائب أن يصوت بنفسه وحال حضوره . والمصوتون حال التصويت ينقسمون الى فريقين ويقفون فى ممرين ضيقين أحدهما لنعم والآخر لـ « لا » . وهناك يحصى كل فريق موظفون مختصون ، ومن ثم لا يمكن التصويت بالوكالة . وقد جرى العرف بأن يتفاهم الحزبان المتعارضان على تخلف عضو من أحدهما اذا ما عول عضو من الحزب الآخر على الغياب ، وبذلك يخسر كل منهما صوتا واحدا فيستمر التعادل بينهما

ولعل من لطائف مجلس العموم البريطاني انه كلما أعلن الرئيس انتهاء احدى الجلسات فى المساء تصايح سعاة المجلس : « من العائدون الى منازلهم ؟ » ، وردد رجال البوليس فى جميع غرف المجلس هذا النداء . وما من حاجة الى ذلك الآن ولكنه تراث توارثه المجلس عن الزمان القديم حينما كانت عودة أحد الاعضاء وحده محفوفة بالاخطار من اعتداءات اللصوص أو مؤامرات الاعداء ، وكان الغرض من النداء تأليف جماعات تمشى فى حراسة البوليس فيحجم اللصوص أو المتآمرون عن مهاجمتها

وليس لعضو البرلمان أن يستقيل من النيابة . فقد كانت النيابة قديما تعد وظيفة اجبارية وما دام العضو قد قبل النيابة فلا مندوحة عنها . وليس معنى ذلك ان النواب لا يملكون التملص من نيابتهم ، فان النظم البريطانية العجيبة قد أوجدت لهم من مأزقهم مخرجا : فكل عضو فى البرلمان اذا التحق باحدى وظائف التاج يجب أن يتنازل عن نيابته . وبذلك يتمكن النواب دائما من التخلى عن نيابتهم بالتحاقهم — ولو مؤقتا — بأية وظيفة ثانوية . وقد اخترعوا وظيفة لهذه الحالة وحدها ، وهى ما أطلقوا عليها اسم « Stewardship of the Chiltern Hundreds » وهى ليست فى الحقيقة احدى الوظائف ، وما لها من حقوق ولا عليها من واجبات ، وانما هى « وظيفة » وهمية يطلب الالتحاق بها كل عضو يرغب فى الاستقالة من المجلس » وهى دائما تمنح على وجه السهولة ، وبذلك يستطيع النائب أن يترك المجلس بوسيلة غير « الاستقالة » التى حرمها العرف على النواب ، وفى ذلك محافظة على تقليد انجليزى عتيق من التقاليد التى يحبها الانجليز ويحرصون على بقائها حرصا شديدا

وقاعة الاجتماعات فى البرلمان الانجليزى هى مستطيل صفت على جانبيه المقاعد للنواب ، وفى الصدر كرسى الرياسة المرتفع ، تقوم أمامه مائدة ضخمة تفصل بين مقاعد الوزراء ومقاعد زعماء المعارضة . وهذه المائدة هى التى راح غلادستون يضربها بقبضة يده بعنف أطار الاوراق التى كانت فوقها ، فقام دزرائيلى لجمع ما تناثر منها بابتسامة صفراء تنبىء عن الدهاء والتشفى

ومن الغريب ان قاعة مجلس العموم لا تتسع لكل النواب لو حضروا احدى الجلسات جميعا . لذلك لا يندر أن يرى المتفرج جماعة من النواب وقد تكدسوا فى مكان ضيق ، أو مكان النائب الواحد يحتله ثلاثة نواب .. وهم يؤثرون هذه المضايقات على تغيير ماجاهم به تاريخهم البرلمانى المجيد من تراث عتيق

***

وعندما تتم موافقة المجلسين على أحد القوانين يرفع الى الاعتاب الملكية للموافقة عليه • ومن الغريب ان توقيعات ملوك الانجليز على القوانين بالموافقة أو الرفض لم تخرج عما جرت به أقلام ملوكهم القدامى فى عهد النورماندين • فالقوانين المالية مثلا تصدر بالتوقيع الملكي التالى : « الملك يشكر رعاياه الطيبين ويتقبل عملهم الخيرى،ومن ثم صدر هذا الامر الملكى بالموافقة والقبول » • واذا تقدمت الحكومة بقانون عادى صدر عليه التوقيع التالى : « صدر الامر الملكى بالموافقة والقبول » • فاذا قدم قانون بناء على اقتراح أحد النواب قيل : « يجرى العمل بما رآه » • أما فى حالة عدم الموافقة فتصدر الارادة الملكية منبئة عن ان جلالته سينظر فى الامر

ومما هو جدير بالملاحظة ان البرلمان الانجليزى ليس فيه منصة للخطباء ، ومن ثم يتكلم النواب والوزراء أو يخطبون من مقاعدهم ، وفى ذلك تقليل متعمد من شأن الخطب والخطباء وتضييع لسحر البلاغة والبيان حال الانفراد بمنصة عالية والصولان والجولان فيها والتحمس أو ضرب المائدة باليد أو ما شاكل ذلك مما لا بد منه لرفع حرارة الخطب والهيمنة على عواطف السامعين

وجميع الخطب البرلمانية الانجليزية تتوفر فيها البساطة والبعد عن التهويل و «الخطابة» ومن نوادر الانجليز البديعة ما يروى من ان جوزيف تشمبرلين ألقى مرة خطبة برلمانية « رنانة » •• فبادره أحد النواب القدماء بقوله : « انها خطبة بديعة جدا يا مستر تشمبرلين• ولكن المجلس يكون ممتنا لو انكم ترددتم قليلا أو تلعثم منكم اللسان •• »

وغضب أحد النواب ذات مرة من الضوضاء التى أحدثها زملاؤه وهو يلقى خطابا ، واحتج لدى الرئيس على ذلك قائلا ان من حقه أن يستمع النواب اليه •• فأجابه الرئيس على الفور : « لا يا سيدى ان لك الحق فى الكلام •• ولكن للمجلس أيضا الحق فى أن يقرر الاستماع اليك أو عدم الاستماع ! »

ولا شك فى ان البرلمان الانجليزى يدير دفة الشئون البريطانية ببراعة لا تتوافر فى أى برلمان آخر •ولعل ذلك راجع الى وجود الاحزاب الكبيرة والمنظمة أدق تنظيم لايمكن أى عضو من مناهضة حزبه أو محاولة التمرد عليه ، والا فقد مقعده البرلمانى فى الحال • لذلك تقبل أية حكومة على دست الحكم وهى مطمئنة الى ان أمامها أربعة أعوام أو خمسة ما لم تقع أحداث خطيرة أو تبدلات داخلية على أعظم جانب من الاهمية • أضف الى ذلك ان لرئيس مجلس الوزراء الحق فى تعطيل الدورة البرلمانية واجراء انتخابات جديدة تنبىء عن شعور الناخبين الحقيقى ازاء سياسته وحق التعطيل هذا كثيرا ما يعوق أحزاب المعارضة من خلق الازمات أو توريط الحكومات فى المآزق الحرجة

***

ويرجع بعض الباحثين سهولة تألف أحزاب انجليزية كبيرة فى انجلترا — بعكس أحزاب فرنسا الصغيرة المتعددة مثلا — الى وضع قاعة وستمنستر وشكلها المستطيل ،

فالمكان المستطيل يستلزم صفين اثنين من المقاعد ، ومن ثم حزبين كبيرين .. بعكس قاعة البرلمان الفرنسى التى يسهل معها تأليف أحزاب صغيرة لتملأ مختلف الاركان .. ولكن لهذه الظاهرة وجها آخر أعمق من مجرد أوضاع القاعات ، فالانجليزى أطوع من الفرنسى وأسلس انقيادا للقانون . وعنصر الفردية فيه أقل ظهورا منه عند الفرنسى ، ومن ثم يسهل اندماج عدد كبير ممن يملكون حق التصويت فى حزب واحد وانقيادهم لمبادىء واحدة وزعيم واحد . هذا الى ان كل مرشح فى الانتخابات يدفع تأمينا كبيرا . وهو يخسر هذا التأمين اذا لم يحصل على نسبة معينة من الاصوات . وهذا لا يشجع على ظهور الاحزاب الصغيرة ، لان خزائنها لا تتحمل خسائر التأمينات

وصفوة القول فى النظام البرلمانى الانجليزى ان البرلمان يملك كثيرا من الحقوق التشريعية ، والحكومة أيضا تملك كثيرا من الحقوق التنفيذية . ولو ان هاتين القوتين وجدتا بهذا التوازن وتساوى القوى تقريبا فى شعب آخر لافضت الحال الى كثير من المصادمات وتنازع الاختصاص . ولكن انجلترا ـ بلد احترام العرف وقدسية التقاليد ـ تسوق نظمها الدستورية وترعاها بعصا سحرية فما يصطدم فيها نظام بنظام ، ولا سلطة بسلطة ، بل تسير مختلف السلطات على نهج سلمى بديع وبانسجام وتآلف

***

« المحرر » نضيف الى ما تقدم ان مجلس اللوردات يتألف من نحو ٧٠٠ نبيل من نبلاء انجلترا يحضر الجلسات ثلثهم تقريبا . والسيدات النبيلات يرثن اللقب ولكن لا يجلسن فى المجلس ، يضاف الى ذلك رئيس أساقفة كانتوبرى ويورك ، وأساقفة لندن وونشستر ودرهام وواحد وعشرون اسقفا آخرون يختارون بالاقدمية ، وستة عشر نبيلا اسكتلنديا يختارهم مجلس النبلاء الاسكتلندى للجلوس فى مجلس اللوردات طوال الدورة البرلمانية وهى خمس سنوات ، وثمانية وعشرون نبيلا ايرلنديا يجلسون فى المجلس مدى الحياة ، وستة من كبار القضاة هم قضاة الاستئناف يجلسون مدى الحياة أيضا . ويرأس المجلس رئيس قضاة انجلترا وهو فى نفس الوقت حامل الاختام الملكية Lord Chancellor وهو يجلس على كيس كبير من الصوف يرمز الى عظمة انجلترا الصناعية والتجارية فى القرون الوسطى

أما مجلس العموم فيتألف من ٦٤٥ عضوا منهم ٥٢٨ من انجلترا نفسها وبلاد الغال « Wales » و ٧٤ عن دوائر اسكتلندة ، و ١٣ عن دوائر شمال ايرلندة

ويصلح لعضوية البرلمان جميع رعايا المملكة سواء أكانوا من مواليد انجلترا أو من مواليد المستعمرات بشرط أن يكونوا مقيمين فى انجلترا أيام الانتخابات . ويتمتع بهذا الحق الذكور والاناث على حد سواء . ولا يحرم من عضوية البرلمان الا القاصر أو المعتوه أو المفلس أو الذى صدر ضده حكم لخيانة عظمى أو جريمة حكم فيها بالسجن لمدة تجاوزت العام ـ وان يكن من الجائز التمتع بالحقوق البرلمانية بعد انقضاء مدة السجن أو

صدور حكم بالعفو قبل موعد الانتخابات • ويحرم كذلك من تقدم للانتخابات ثم صدر ضده حكم فى قضية رشوة للناخبين • والحرمان هنا أبدى عن الدائرة نفسها ولمدة سبع سنوات عن أية دائرة أخرى • كما يشمل الحرمان جميع رجال الكنيسة الانجليزية والاسكتلندية والكاثوليكية وجميع نبلاء انجلترا واسكتلندة ـ أما نبلاء ايرلندا فيسمح لهم بعضوية البرلمان اذا ثبت ان ليست لهم علاقة بالنبلاء المعينين فى مجلس اللوردات عن بلادهم • ويحرم أيضا جميع موظفى الحكومة ما داموا فى وظائفهم ، والقضاة ، ورجال الجيش والبحرية ـ وهناك استثناء واحد لكل هؤلاء ـ وهو الوزير ••

هذا ونضيف الى ما ذكره اندريه موروا عن الوظيفة الوهمية التى يتخلص بها النائب من نيابته بدل الاستقالة ان النائب الراغب فى ترك مجلس العموم يمكنه أن يطلب من الحكومة أيضا تعيينه حارسا قضائيا على مزرعة « نورث ستيد » ، وهى مزرعة وهمية ليس لها وجود !

ويتقاضى النائب فى مجلس العموم ما لا يزيد على ٤٠٠ جنيه سنويا • أما فى عهد الملكية الاستوارتية وما قبل ذلك فكان العضو يتقاضى أجرا يوميا عن كل جلسة يحضرها• وآخر عضو كان يتمتع بهذه اليومية هو « اندرو مارفل » عن دائرة كنجستون أوز هل ، وكان يتقاضى عن كل جلسة ستة شلنات وثمانية بنسات

استدراك

نشرنا على صفحة ٢٦٣ من هذا العدد مقال « المكتشفون الاثريون الانجليز فى مصر » للاستاذ محرم كمال ، وذكرنا وظيفته على انها « مفتش آثار منطقة المنيا » فى حين انها « كبير مفتشى آثار مصر الوسطى »

هذا وقد وردت فى هذا المقال بعض اخطاء مطبعية هى : فى صفحة ٢٦٤ وفى السطر الرابع والعشرين اسم (لاشيسن) وصحته (لاشيش) • وفى صفحة ٢٦٥ وفى السطر الثلاثين (فى جهة طوخان) وصحتها (فى جهة طرخان) • وفى صفحة ٢٦٧ السطر الثالث اسم (امحتب) وصحته (امنحتب) والسطر الثامن (١٩٠٣) وصحتها (١٩٠٢) ، وفى السطر السادس والعشرين (سيتاح) وصحته (سيبتاح) • وفى صفحة ٢٦٩ السطر الاول (عام ١٩١٨) وصحته (عام ١٩١٧) ، وفى السطر الحادى والعشرين (فاذا هما فى حجرة) والصحيح (فاذا هما فى ردهة تؤدى الى حجرة



الزعيم محمد محمود

بقلم حضرة صاحب المعالى مصطفى باشا عبد الرازق

وزير الأوقاف

لئن مات محمد محمود وهو زعيم سياسى ، فان فى زعامته نوعاً من الأبوة التى كانت لأبيه فى الجيل الماضى

كان المغفور له محمود باشا سليمان والد المرحوم محمد باشا محمود رجلا وجيهاً فى قومه جمع بين جلال السن وجلال المجد القديم والغنى الموروث ، من بيت حكام إداريين فى إقليم الصعيد فى ذلك العهد الذى لم يكن يصل فيه الى مناصب الحكم من المصريين إلا قليل . وكان محمود سليمان رجلا ذكى الفؤاد موفور التجارب واسع السياسة واسع الصدر قوى الارادة قوى الشكيمة فى رزانة وحلم وتدين

كل تلك الخلال جمعت من أبى سليمان زعيما وأبا لكل أعيان عصره منذ أواخر القرن الماضى

ونشأ فقيد البلاد المرحوم محمد باشا محمود ممتازاً فى أهله ممتلىء النفس بما لوالده من مقام وجيه وذكر نبيه ، فطبع على غراره فى كثير من نواحيه

وان الذين شهدوا فقيد اليوم فى صبره على الداء يلتهم حياته أقسى التهام ويقلبه على مهاد من السقم والآلام طوال عام وأكثر من عام لتعود بهم الذاكرة الى محمود باشا سليمان الذى عاش أكثر من أربعين سنة مريضاً محروماً من شهى الطعام وبارد الشراب وهو متجلد صبور ناهض بعبئه فى الحياة أكمل نهوض

ورث محمد محمود كثيراً من صفات أبيه فكانت تلوح عليه فى صباه مخايل زعامة تكبر عن سنه فتظهر فى مظهر الترفع والتعالى

وقد أتم مراحل التعليم الأولى فى أسيوط . وأسيوط يومئذ مدينة ممتازة بحركة تعليمية تتنافس فيها المدارس الحكومية مع ما أنشأته هناك الجاليات الأجنبية من معاهد . وأتم التعليم الثانوى فى المدرسة التوفيقية وهى يومئذ فى أزهى عصورها

ولما نال شهادة البكالوريا أوفده والده الى انجلترا مزوداً بفطرة سليمة وتربية قويمة وأساس علمى متين ، وقد تيسر له فى أثناء دراسته بجامعة أكسفورد ما لم يتيسر لغيره من الاتصال بالأوساط الارستقراطية الانجليزية التى وجدت فيه من شيم النبل ومخايل الجسد ووجاهة الثروة ما يقربه اليها ووجد فيها من الخلال العالية ما يلائم طبيعته . وكانت بريطانيا العظمى حين ذاك تهيىء للعمل فى إدارة امبراطوريتها شباناً متخيرين من أرقى الطبقات مثقفين فى أرقى الجامعات فعرفهم محمد محمود وعرفوه أتراباً فى معاهد التعليم وفى الحفلات الاجتماعية .

وعاد محمد محمود الى مصر وقد ازدهرت مواهبه الوراثية وأفادته الرحلة والثقافة العالية وعرف الكثير من شئون الحياة الانجليزية وأدرك الكثير من أسرارها وتأثرت نفسه بكثير من الصفات الانجليزية التى كان مستعداً لأن يتأثر بها

جاء الى مصر والانجليز أشد الناس بغضاً إلى المصريين والسياسة الانجليزية فى دور من العنف لا يدع للتفاهم مجالا . وكان الشاب العائد من اكسفورد يحب بلاده فوق كل حب ويريد لأهل بلاده العزة والكرامة والسيادة ، ثم كان يرى أن الانجليز هم أنبل شعوب أوربا خلقاً وأكرمهم سياسة حين يحصل التفاهم معهم على أساس من الصراحة والاخلاص والثقة

لذلك جعل همه أن يكون الانجليز أهلا لمحبة المصريين والتعاون معهم وأن يكون المصريون موضعاً للاحترام والثقة من الانجليز . كل ذلك لمصلحة مصر وفى سبيل هذه المصلحة لقي عنتاً كبيراً وشوهت فى بعض الأحايين كل التشويه مساعيه التى كللت بالفوز فى النهاية

نجح محمد محمود أعظم نجاح فى الوظائف الادارية التى وليها وتبينت فيها مقدرته الادارية الوراثية كما تبينت منازعه الاصلاحية القائمة على أساس النزاهة والرقى التدريجى والعناية بشأن الفلاح الذى ظل محمد محمود حياته كلها معتزاً بالانتساب اليه حريصاً على أن يتحدث بلهجته الريفية فى كل المجامع

واشتغل بعد ذلك محمد محمود بالسياسة ، وقد أحكمته السن وأحكمته التجارب فصار سياسياً كاملاً تمت له كل أدوات السياسى الكامل من الحكمة والدهاء والالهام السياسى .

وزاحم بالمناكب عظماء السياسة في البلاد وكلهم حين ذلك أكبر منه سناً وأعلى في الوظائف رتبة وأظهر بين الجمهور اسماً . أما نجاحه في حياته السياسية فليس أدل عليه من وقع نعيه في البلاد ومن مشهده الذي كان حافلاً بجميع الطبقات وكلهم آسف عليه حزين وكلهم مثن على ما قدم لبلاده من الصالحات

ولئن مات محمد محمود وهو زعيم سياسي ، فان في زعامته نوعاً من الأبوة التي كانت لأبيه في الجيل الماضي

وصلتي السياسية بالمرحوم محمد باشا محمود قريبة العهد لأنني كنت بعيداً عن السياسة حتى دفعتني حوادث الزمن اليها دفعاً ، على أن صلتي به في الأخوة والود قديمة جداً

ولقد فجعنا بفقده زعيما صالحاً مصلحاً . وفجعنا بفقده أخاً عزيزاً كان ملء القلوب والابصار

شهدت محمد محمود باكياً في مآتم اخوتي الذين ثووا قبله في صحراء الامام ، وسرت في جنازته فلم أكن أجدني إلا مشيعاً لبعض تلك المآتم

سلام الله ورحمته عليهم جميعاً

مصطفى عبد الرازق

الطلاق والزواج

« ان الطلاق وجد في العالم مع الزواج في زمن واحد تقريباً غير انى أظن ان الزواج أقدم ببضعة أسابيع . بمعنى ان الرجل ناقش زوجته بعد أسبوعين من زواجه ، ثم ضربها بعد ثلاثة أسابيع ، ثم فارقها بعد ستة أسابيع » (فولتير)

الانتصار البريطاني
وأثره في الشرق العربي

بقلم الاستاذ عباس محمود العقاد

للانتصار البريطاني أثر عظيم في البلاد العربية من جهة السياسة، وجهة الاقتصاد أو تدبير الثروة، ومن جهة الاجتماع وهي أهم هذه الوجهات الثلاث. وعليها يتوقف مصير الامور

الانتصار البريطانى الماثل أمامنا الآن هو انتصار الجيش البريطانى على الجيش الايطالى فى الميادين الليبية، وأثره عظيم فى البلاد العربية لأنه قد أبعد عنها الخطر المباشر الذى كان يهددها من جانب القوة العسكرية الايطاليـة أولا ثم من جانب المذهب الفاشى الذى كان وشيكا أن يغمرها وينتشر فيها، وهو على ما نعتقد أخطر من بلاء الفتح العسكرى وحده على شدته وسوء عقباه. واقتران النصر البريطانى فى الميادين الليبية بالنصر البريطانى فى ميادين أفريقيا الشرقية خليق أن يزيد الخطر الفاشى بعداً على بعد وأن يزيد البلاد العربية أمانا على أمان، لأن قيام دولة شعارها الاعتداء والتوسع فى الاستعمار على شواطىء البحرين الأبيض والأحمر معناه خنق البلاد العربية والقضاء على آمالها فى الحرية وعلى ما عندها من ثروة مستقلة ترجو لها النماء وتحاول أن تلقي عليها اعتمادها شيئاً فشيئاً فى مقبل الأيام

ومن أثر الانتصار البريطانى أن تخفت أصوات الدعوة النازية والدعوة الفاشية بين أمم العرب، بعد أن ارتفع لها صوت ممقوت على ألسنة أناس من الخونة والجهلاء وأصحاب المآرب التى لا تستريح الى حرية الشعوب ولا يهدأ حنينها الى عهود الظلم والاستبداد

وفى اعتقادنا أن النظام الذى سيوضع لبرقة وطرابلس بعد خلاصهما من الحكم الفاشى سينشىء فيهما نموذجاً من الحكم الديمقراطى لا يسهل على الحاكمين أن يتجاهلوه فى البلاد المشابهة لهما والتى تقع فى جوارهما كتونس والجزائر ومراكش الفرنسية والاسبانية، وربما ساعد هذا

النظام الجديد على تخفيف الضغط عن فلسطين من ناحية المشكلة الصهيونية ، لأن توزيع هذه المشكلة يساعد على تدبير حل لها قد يستعصى مع تركيزها وانحصارها فى بقعة واحدة

أما إذا أردنا الانتصار البريطانى الشامل على ألمانيا وإيطاليا معاً وهو الانتصار الذى يعد كسباً للحرب الحاضرة وفصلا بين الديمقراطية والدكتاتورية فذلك انتصار بعيد المدى بعيد القرار لا تنحصر آثاره فى جانب واحد من جوانب الحياة العالمية ولا الحياة القومية بيننا نحن أبناء الشرق العربى ولا بين سائر البقاع والشعوب

ولكننا نلخص آثاره بيننا من وجهة السياسة ومن وجهة الاقتصاد أو تدبير الثروة ، ومن وجهة الاجتماع وهى أهم هذه الوجهات الثلاث وعليها يتوقف مصير الأمور فى المسائل السياسية والمسائل الاقتصادية على السواء

فأما آثار الانتصار البريطانى بين أمم الشرق العربى من وجهة السياسة فهى الآثار المعقولة التى يسفر عنها تحقيق مبادىء الديمقراطية ، ولا انفصال بين هذه المبادىء وبين حقوق تقرير المصير وإقامة العلاقات بين الأمم كافة على أساس التعاقد الحر والتحالف الذى تلاحظ فيه مصالح جميع المتحالفين

وجملة ما يقال فى هذا الباب أن نصيب الأمم الشرقية من الحرية سيزداد ولا ينقص ، وأنها ستصبح وزناً محسوباً فى ميزان الشئون الدولية لاتصالها بالقارات الثلاث واستحالة الاتفاق على نظام عالمى دون الاكتراث الى البقاع التى تتوسط بين هذه القارات ، أو دون الاكتراث الى الشعوب التى تقيم فيها ولا مناص من ارضائها ورعاية حقوقها

وأما آثار الانتصار البريطانى من الوجهة الاقتصادية فالمرجو أن تكون الحالة بعد الحرب الحاضرة خيراً من الحالة التى عهدناها بعد الحرب الماضية . لان الامم لم تفكر قط أثناء تلك الحرب فى مصير العلاقات الاقتصادية بعد القاء السلاح ، فما هو الا أن عقدت الهدنة وبدىء فى تحويل المعامل الى الصناعات السلمية حتى اندفع الزراع يزرعون والصناع يصنعون والتجار يصدرون ويوردون بغير حساب ، وكان من جراء ذلك اضطراب شديد فى حياة الأمم قاطبة نمثل له بما حدث فى مصر من هجوم على زراعة القطن لاعتقاد الناس أن القنطار منه سيباع ولا يزال يباع بعشرات الجنيهات

فاليوم نسمع ونقرأ أن العناية بمصير المعاملات الاقتصادية بعد الحرب الحاضرة هى منذ الساعة موضوع دراسات وتحقيقات يشرف عليها الخبراء والمختصون ويرتبط بحثهم فيها ببراجع

الحكومات ومصادر التقدير والتدبير ، فلا تصنع السلعة الا على قدر ، ولا تستورد الخامات الا بحساب ، ولا ينطلق التنافس بين طلاب الربح بعيداً من سيطرة الحكومات أو بعيداً من خطط التفاهم الرشيد بين جميع المعنيين بالصناعة من أصحاب مال وعمال ومصدرين وموردين

ولهذا نرجو أن تلقى الامم الشرقية دلوها فى الدلاء وأن تفتح منذ الساعة باب البحث فيما تحتاج هى اليه وفيما يحتاج العالم اليه من مواردها وخيراتها ، ولا ينتظم هـذا البحث الا على اتصال بين بعض هذه الأمم وبعض ثم بينها متفرقات أو متجمعات وبين بريطانيا العظمى ومن يتبونون فيها دراسة هذه الشئون

أما أثر الانتصار البريطانى من الوجهة الاجتماعية فهو الأثر الاكبر الذى تتوقف عليه الآثار السياسية والآثار الاقتصادية كما أسلفنا

فالمذاهب التى يقع بينها التنازع الآن على تنظيم المجتمع العالمى أو على إنشاء نظام اجتماعى شامل للعالم بأسره هى كما يعلم القراء ثلاثة مذاهب

أحدها المذهب الشيوعى ، وثانيها نظام هتلر الذى يسميه نظام أوربا الجديدة والعالم بأسره من ورائها ، وثالثها هو المذهب الديمقراطى كما يتمثل فى شعوب بريطانيا العظمى

والمذهب الشيوعي قد زعم أصحابه أنهم عالجوا آفات رأس المال فما زادوا بعد انفرادهم بالأمر فى الروسيا كلها زهاء ربع قرن على أن وضعوا رأس مال فى مكان رأس مال آخر . فان الدولة عندهم هى التى تسخر العمال وتحتكر التجارة وتملك المرافق وتجعل العمال بهذه المثابة فى مقام العبيد الذين يحرم عليهم الاحتجاج والاضراب لأنهم فى هذه الحالة يعاملون معاملة الخونة الخارجين على الدولة ، ثم هى ترهقهم بالعمل المضاعف باسم الغيرة على المذهب كما كان الطامعون المستغلون قديماً يرهقونهم بأشباه هذه الغيرة وأمثال هذه العلالات

وليس من المستطاع مع هذا تعميم النظام الشيوعى فى الدنيا بأسرها وحكم الشعوب كافة على النمط الذى تحكم به البلاد الروسية ، سواء توحدت شعوبه أو تعددت على حسب الاقاليم والاجناس والمصالح ومراتب الحضارة والارتقاء

ونظام هتلر ليس فى حقيقته نظاماً عالمياً ولا نظاماً أوربياً تلاحظ فيه مصالح الامم الكبيرة أو الصغيرة ، وانما هو « حيلة شخصية » لخلاص هتلر من ورطته التى أوقعه فيها سوء تدبيره وفساد حسابه فهو اذا فشل ذهب وذهب معه نظامه فى ألمانيا نفسها فضلا عن الامم الاوربية الاخرى وهو اذا بلغ ما يريد ـ وذلك عندنا مستحيل ـ تلقته الورطة الكبرى التى تعيى حيلة

المختال ، لأنه جعل ألمانيا من أقصاها الى أقصاها معسكراً واحداً ليس فيه الا الجنود ومن يخدمون الجنود ومن يصنعون السلاح والذخيرة لأولئك الجنود . فهل فى استطاعته أن يبقى هذا المعسكر الكبير على هذا النمط بعد إنهاء السلاح ؟ وهل فى استطاعته أن يبقى أولئك الملايين بغير عمل وهو آمن من ثورتهم وانتقاضهم ؟ . هذا وذاك كلاهما مستحيل

ولأجل الاحتيال على هذه المستحيلات وأشباهها يجب أن تخلو أوربا والعالم قاطبة من الصناعات الهامة وأن تصبح ألمانيا وحدها مصنع القارة الاوربية وغيرها من القارات التى تعول عليها ، وبهذه الوسيلة يستطاع تدبير العمل للملايين من الجنود وصناع السلاح والذخيرة ، وينجو هتلر من « ورطته الشخصية » التى قاده اليها سوء تدبيره وفساد حسابه

ولكن القوانين الكونية التى تسوس أمور الناس أعظم وأضخم من أن تنقلب فى هذا الزمان ألعوبة لعقل مريض يخلص بها من ورطات العقول المراض

فلم يبق الا الاسلوب الذى يجرون عليه فى بريطانيا العظمى لاصلاح عيوب المجتمع كما تصلح عيوب البنية الحية بغير قتل ولا ازهاق ، وخلاصة ذلك أنه إصلاح بغير انقلاب يقوم على التضامن بين الطبقات وعلى اتخاذ الضرائب وسيلة للانصاف فى توزيع الثروة ولكفالة المحتاجين الى كفالة المجتمع من الضعفاء والمظلومين . وقد رأينا كيف أصبح العمال معدودين فى مصانعهم موظفين من قبل الدولة لا يفصلون بغير اذنها فى ظروف الحرب الحاضرة ، وعلى هذا الاساس يتم التوفيق بين حق الملكية وبين قومية المرافق العامة عند الضرورة

وهذه الطريقة البريطانية خير من طريقة الشيوعيين وطريقة الهتلريين ، لأنها تصون الحرية وتصون المنفعة الفردية وتصون المنفعة القومية وتصون بنية المجتمع من زعازع الانقلاب ، واذا هى بعد ذلك لم تحقق كل ما يراد فلن يوجد فى الدنيا أبداً شىء يحقق كل ما يراد ، ولن تقاس المصائب التى تتخلف من علاج آفات المجتمع على هذا النحو بالمصائب التى تصبها على الامم مذاهب الفوضى والدمار والمجازفة على غير أساس وطيد

والتوفيق بين النقائض هو لباب العبقرية الانجليزية فى جميع مطالب الحياة ، فاذا استعد الشرق العربى لعلاج مشاكله الاجتماعية على هذا النحو فقد اعتصم من بلايا الشيوعية وبلايا الوساوس الهتلرية ، وكان هذا الاثر أكبر الآثار التى يجنيها من الانتصار البريطانى فى الحرب الحاضرة

عباس محمود العقاد

جغرافية بريطانيا توجه سياستها

بقلم الدكتور محمد عوض محمد

وكيل كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

المخترعات الحديثة جعلت بريطانيا أشد التصاقاً بأوربا اليوم مما كانت عليه ، بحكم موقعها الجغرافى ، وبات هذا الالتصاق من الشدة بحيث نتوقع بعد الحرب ان نرى بريطانيا تقترب اقتراباً شديداً الى أوربا ، وتعنى عناية خاصة بشئون تلك القارة

يقول المثل المعروف إن « العبرة بالسكان لا بالمكان » ، ولكن الدراسة الجغرافية لا ترضى بأن تغض البصر عن أحد العنصرين الجليلين فى تكوين الامة ، ولكل منهما خطره الذى لا يجحد ، وأثره الذى لا ينكر ، فالقطر وساكنه عنصران ممتزجان ، مؤتلفان متلابسان ، آخذ كل منهما بذراع صاحبه ، ويأبى العدل والعقل أن نولى أحدهما عنايتنا ونتجاهل الآخر

لهذا لم يكن بد لمن أراد دراسة أمة من الامم أن يذكر ، وهو يدرس تاريخها ونظمها وسياستها ، أن لطبيعة الاقليم التى تعيش فيه تلك الامم أثراً عميقاً فى توجيهها نحو السبيل الذى سلكته ، والطريق الذى سارت فيه

ونحن حين نقرر هذا بعيدون كل البعد عن أن نغض من شأن الشعب الذى سكن ذلك القطر ، وبذل جهداً هائلا فى استغلاله ، والانتفاع بالفرص العظيمة التى أتاحتها له طبيعة الاقليم . فمن الجلى الواضح أن الاقليم قد يكون واسع الثروة ، عظيم الموارد ، يقطنه شعب همجى أو خامل ، أو لاه ، لا يستطيع أو لا يريد أن ينتفع بما أغدقته الطبيعة من الخير والنعمة ، مجتزئاً بعيش الكفاف وحياة الخمول . . وحسبك ــ إن أردت الدليل الواضح ــ أن تفكر فى أمريكا قبل أن يحتلها سكانها الحاليون ، وبعد أن نزحت اليها الشعوب الاوربية . وكيف أمست فى طليعة الدول ثروة وقوة . بفضل المجهود الجبار الذى بذله المهاجرون

ويهمنا فى طليعة هذا المقال أن نذكر مرة واحدة أن بريطانيا ما كانت لتسلك الطريق التى سلكت ، أو تصل فى الحضارة والسياسة الى ما وصلت لو لم يقم شعبها بمجهود قوى مستمر على مدى قرون عديدة ، دون أن تخمد له همة أو يعتريه إعياء ووهن . ولو أن تربة بريطانيا أخصب مما هى اليوم ألف مرة ، وموقعها الجغرافى أكثر امتيازاً ومنعة مما هو ، وثروتها المعدنية أضعاف ما هى اليوم ، وكان يسكنها شعب لا يعنى باستغلال موارده ، ولا بانتهاز الفرص السانحة له ، فانها

ماكانت لتبلغ من الحضارة ما بلغت ، ولما كان لها ميزة تميزها على سواها من الدول

والآن ـ وقد قررنا هذه الحقيقة ـ نستطيع أن ننتقل إلى الموضوع الذى نعالجه اليوم ، وهو دراسة العوامل الجغرافية الخاصة التى رسمت للسياسة البريطانية طريقها ، ووجهت الشعب البريطانى نحو السبيل الذى سار فيه

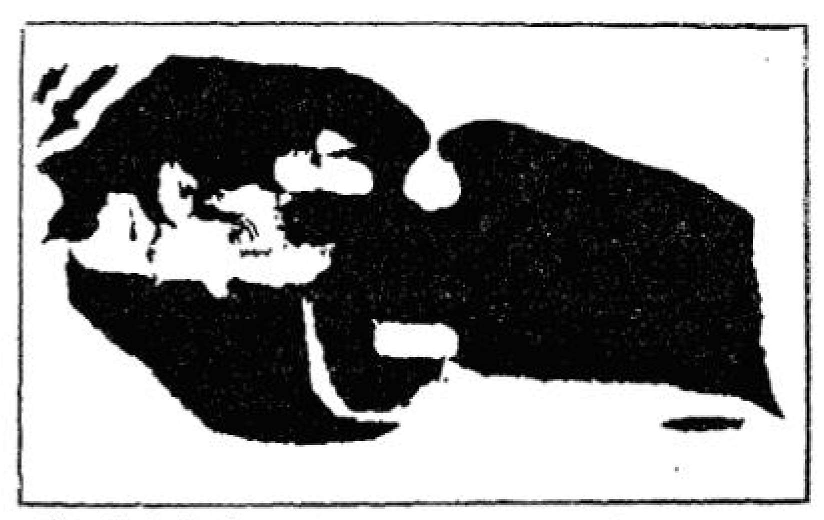
ونرجو ألا ينسى القارىء ما قدمناه من أن هذه العوامل ماكانت لتحدث أثرها لو لم يكن هنالك شعب استطاع أن يستغل هذه الظروف المؤاتية

العوامل الجغرافية فى النهضة البريطانية

إن أول حقيقة نلحظها أن بريطانيا لم تنهض إلا فى العصور الحديثة ، أى فى عهد الاستكشاف وعهد النهضة العامة فى أوربا . وقد سبقها فى مدارج التقدم بعض دول بحر الشمال مثل هولندة ، وبعض دول البحر البلطى ، كما سبقتها المدن الايطالية ، وفرنسا نفسها ، هذا بقطع النظر عن حضارة الدول القديمة ودول البحر المتوسط ، التى سبقت نهضة شمال أوربا بقرون عديدة

لم يكن هذا التخلف راجعاً الى طبيعة التربة والهواء ، لان تربة بريطانيا خصبة وهواءها معتدل البرودة فى الشتاء . معتدل الحرارة فى الصيف ، وجزرها خضراء يانعة الشجر ، نضرة العشب ، وبحارها دافئة لا تتجمد

إنما يرجع هذا التخلف الى أن بريطانيا واقعة فى نهاية العالم القديم ، فى وقت كان فيه العالم متباعدة أطرافه بعضها عن بعض ، لا ينتقل الناس من قطر الى قطر أو من بحر الى بحر الا بشق الأنفس . وتبدو لنا هذه الحقيقة واضحة اذا نظرنا الى خريطة للعالم القديم ، ويحسن أن تكون من رسم بعض الجغرافيين القدماء ، كخريطة إراطستين التى نوردها هنا



خريطة إراطستين للعالم القديم ويتبين منها وقوع بريطانيا على الحافة الشمالية القريبة للمعمور

فنرى فى هذه الخريطة وأمثالها أن بريطانيا واقعة على طرف الحافة الشمالية الغربية للعالم القديم ، بعيدة كل البعد عن مصادر الحضارة الاولى ، بل بعيدة حتى عن مصادر السكان أنفسهم ، بحيث لم تأخذ فى الازدحام بالسكان إلا بعد الفتح النورمندى فى القرن الحادى عشر الميلادى

وفى العهود القديمة ، بل وفى العصور الوسطى ، كان البحر الابيض المتوسط هو قلب العالم النابض ، تتدفق منه ينابيع الحضارة ، وتنتشر من سواحله الى الاقطار التى تحيط به . وكانت بريطانيا بمعزل عن كل هذا ، حتى انها فى عهد الدولة الرومانية لم يكن حظها من الاعمال والحوادث الجسيمة التي امتاز بها تاريخ روما سوى الشيء اليسير . وليس هذا خيراً كله ولاشراً كله . فلئن كان بعد بريطانيا وعزلتها مانعاً لها من الاشتراك الجدى فى أعمال الدولة الرومانية ، فلقد وقتها عزلتها شر اغارة الشعوب البربرية التى عانت بسببها روما ويلا كثيراً وعذاباً أليماً

بريطانيا فى عهد الكشف

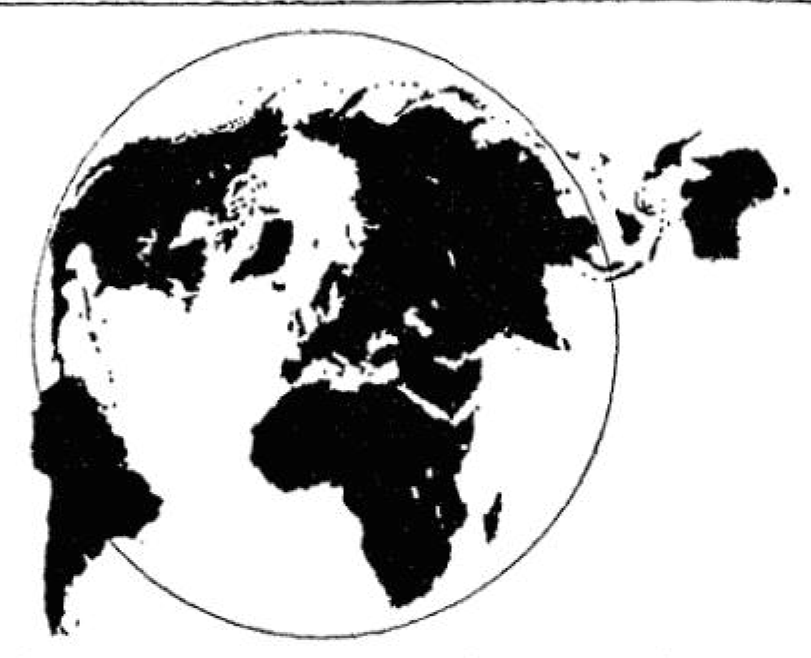
لا نريد أن نطيل الحديث عن هذه الفترة الاولى من تاريخ بريطانيا ، التى تسمى عادة عهد التكوين ، الذى تكون فيه الشعب البريطانى من العناصر القديمة التى كانت تسكن الجزر ، مضافاً اليها جماعات المهاجرين من السكسون والاسكندناويين ، وقد امتزجت هذه العناصر ، وتألف منها الشعب البريطانى

ثم جاء عهد الكشف ، وقد ظهر أن العالم يتألف من قارات أخرى سوى القارات القديمة . ثم رسمت خريطة جديدة للعالم . فاذا بريطانيا التى كانت على حافة العالم القديم ، أصبحت فى قلب العالم الجديد

ان طلاب الجغرافيا يعلمون أن فى وسعنا أن نقسم الكرة الارضية الى قسمين متساويين فى أولهما تزدحم القارات ، وفى النصف الآخر يكثر الماء ويقل اليابس : فاذا نظرنا الى نصف الكرة القارى كما هو موضح فى الرسم نرى بريطانيا تحتل منه مكاناً وسطا . وقد صادف هذا الطور الجديد الوقت الذى تم فيه تكوين الشعب البريطانى واتحاده ، والتفافه حول عرش واحد وحكومة واحدة

لم يكن بد ــ وقد تغير موقع بريطانيا بالنسبة الى العالم ــ أن نشاهد أثر هذا التغير فى تاريخ تلك الجزر وفى السياسة التى أخذت تسير فيها عن عمد ، أو عن اطاعة للظروف التى يمليها الموقع الجغرافى . لقد أخذ محور النشاط البشرى يتحول ــ ولو الى حين ــ عن محوره القديم وهو البحر المتوسط ، الى محور جديد وهو المحيط الاطلسى . وفى هذا التحول يتيح الموقع الجغرافى للجزر البريطانية فرصا جديدة فيبادر الشعب البريطانى بانتهازها

ولا بد لنا أن نشير هنا الى أن الجزر البريطانية بكثرة بحارها الدافئة التى لا يتجمد ماؤها فى الشتاء ، وكثرة خلجانها وموانئها الطبيعية ، ووفرة غاباتها لصناعة السفن ، وتنوع الرياح التى



خريطة ترينا نصف الكرة الارضية الذى يكثر فيه اليابس . وترى فيه بريطانيا تحتل موقعاً متوسطا

تهب عليها ، من كل هذا تتألف البيئة المؤاتية والمهد الصالح لتربية شعب بحرى يعرف كيف يمارس الملاحة ويتحمل أخطارها وشدائدها

ولكن هذه المواهب «الملاحية» الفائقة وهذه البراعة فى قيادة السفن ما كانت لتتخذ مظهراً قويا عالميا ، لو أن بريطانيا ظلت قائمة فى ذلك الركن السحيق عن العالم القديم . فأما وقد انكشف العالم الجديد ، فقد ظهر ذلك الميدان الواسع الذى تستطيع فيه تلك المواهب أن تنمو وتشتد ، وفى العالم الجديد ثروة واسعة تغرى بالتجارة ، والاستعمار ، فاندفع البريطانيون فى هذه السبيل ، ولم يلبثوا أن ظهروا على منافسيهم فى هذا الميدان من الاسبان والبرتغال ،والهولنديين والفرنسيين

ولقد كان لهذه الدول جميعا من ملاءمة فى الموقع الجغرافى ما لبريطانيا . ومع ذلك استطاعت أن تبزهم جميعا فى الميدانين التجارى والاستعمارى . وأن تصبح الدولة البحرية الاولى . ولم يكن هذا التفوق راجعا الى تفوق السكان فان فرنسا كانت فى كثير من العهود الدولة الاوربية الاولى فى العلوم والفنون

واذا أردت أن تلمس السبب الذى من أجله فازت بريطانيا فى ذلك الميدان الخاص . فمن السهل علينا أن نجد هذا اذا تأملنا عن كثب موقع بريطانيا الجغرافى : إن الجزر البريطانية جزء من أوربا ولكنها منفصلة عنها ، وهى لقربها من أوربا تستفيد فائدة كبرى ، إنها تساهم فى كل ما ينال القارة من تقدم ورقى وتشترك اشتراكا قويا فى كل حركة فكرية فتفوز بسهم وافر من كل عنصر من عناصر الثقافة ، ومن كل ابتكار أو كشف فى العلم والفن . أما اذا طغت

الفوضى على أوربا ، وانتشرت الثورة ، وهاجت الاحن والأضغان ، وثارت الحروب الطاحنة ، فان بريطانيا جزر منعزلة ، لا يصل اليها شواظ تلك النار ، فى زمن لم تكن تعرف فيه الطائرات والغواصات

وهكذا كانت الحروب تجتاح أوربا فلا يصل بريطانيا إلا صداها ، بل أخطر من هذا انها كثيراً ما تتدخل لترجيح كفة على كفة ، لكى تأمن ألا يتغلب على أوربا عات جبار يسخر القارة لارادته . فيكون خطراً على كيان بريطانيا ، ولكن لا يلبث التوازن أن يعود حتى تنطوى بريطانيا على نفسها مرة أخرى ، وتسلك سياستها الخاصة التى تدفعها الى التجارة وجمع المال وتأسيس المستعمرات فيما وراء البحار

مضيق دوفر وأثره فى توجيه السياسة البريطانية

إن هذا المضيق الصغير : بوغاز دوفر : الذى لا يتجاوز اتساعه العشرين ميلا قد كان ذا أثر عميق فى توجيه السياسة البريطانية ، والسير بها فى الطريق الذى سلكته ، ولعله أقوى وأظهر العوامل الطبيعية جميعا وأبعدها أثراً

ولقد كانت فرنسا تتجه أحياناً وجهة الاستعمار ، والسعى فى طلب الثروة وراء البحار ، وتقطع فى هذا السبيل شوطاً بعيداً ، وتصادف نجاحاً وتوفيقا ليس بالقليل ، ولكنها لا تلبث أن تلهيها حرب مع أسبانيا أو مع النمسا أو مع بروسيا ، فيشغلها هذا عن التجارة ، ويصرفها عن الاستعمار ، أما بريطانيا التى لم تشتغل بسياسة أوربا إلا بمقدار ما عليه مصلحتها العاجلة فقد انطلقت تؤسس المستعمرات فى المحيطات جميعها وتستولى على المواضع الهامة التى تؤمن طريقها الى مستعمراتها ، وهى فى أثناء هذا كله تجمع الثروة من أطراف العالم . وتوفر لديها المال اللازم لنهضتها الصناعية . فاستطاعت أن تسبق سائر الدول فى ميدان الصناعة كما سبقتهم فى ميدان التجارة . وأصبحت لندن هى السوق المالية الكبرى للعالم ، وأكبر سوق للتجارة ، وللنقل البحرى . وبات الاسطول التجارى البريطانى متفوقا تفوقا هائلا على سائر الاساطيل ، كما أصبحت سفنها الحربية أكبر عدداً وأجل خطراً من الاساطيل الحربية لسائر الدول

ولقد كان هذا كله سببا فى إملاء سياستين خطيرتين : الاولى سياسة بريطانيا الحربية ، والثانية سياستها فى العلاقات الدولية

فأما السياسة الحربية فانها كانت تعتمد رأسا على قوة الاسطول وتفوقه ، والاقلال من أهمية القوات البرية . ولهذا لم يكن لبريطانيا فى يوم من الايام جيش كبير فى وقت السلم ، ويقال فى الدفاع عن هذه السياسة ان بريطانيا قلما تشتبك مع عدو فى حرب برية تبرر إقامة جيش جرار وقت السلم ، وفى وجود مثل هذا الجيش ضرر خطير فانه يعرض البلاد لأن يتولى سياستها ويدير

شئونها رجال الجيش شأن كثير من بلاد أوربا . وفى هذا من الخطر ما فيه

وبالرغم من ان بريطانيا قد اضطرت فى الحرب الماضية الى تجنيد الملايين من أبنائها فانها لم تلبث بعد الحرب أن سرحت جنودها ، ولم تحتفظ إلا بجيش صغير ، ولكن عنايتها بأسطولها لم تنقص . وظلت قواتها البحرية فى حالتها الأولى من التفوق

وقد استتبع إهمال القوات البرية قلة العناية بالقوات الجوية أيضا ، فلم تشأ بريطانيا أن تنشىء أسطولا جوياً متفوقا ، حتى بعد أن أظهرت الحرب الاخيرة ما للسلاح الجوى من الخطر الجليل

ولقد كان من حسن الحظ أن تطورات الحروب الحديثة لم تنقص من خطر الأسطول والتفوق البحرى . ولهذا استطاعت بريطانيا أن تثبت وقت المحنة ، وأن تدفع الخطر الداهم، وأن تمهد لنفسها فترة تستطيع فيها أن تنشىء ما تحتاج اليه من القوات الحربية والجوية

سياسة بريطانيا فى علاقاتها الدولية

أما سياسة بريطانيا فى علاقاتها الدولية ، فكانت نزعتها دائماً الى قلة الارتباط بمعاهدات أو محالفات قد تضطرها لأن تخوض غمار حرب أوربية لا تعنيها ، وأن تنفق دماء أبنائها من أجل حزازات بين الدول الأوربية المختلفة ، وما أكثر ما بينها من حزازات واختلافات . هذه السياسة التى تنزع الى العزلة والابتعاد عن مشاكل أوربا جهد الطاقة ، والتى أملتها طبيعة القطر وموقعه الجغرافى ، كانت مغروسة فى النفوس البريطانية ، حتى ان تغيرها لم يكن من الأمور السهلة . وقد استطاع رجال السياسة ببعد نظرهم أن يدركوا أن المخترعات الحديثة قد أقلت من عزلة بريطانيا ، ونادى أحد الوزراء البريطانيين أن حدود بريطانيا الحربية الآن واقعة على نهر الرين ، وذلك منذ نحو ستة عشر عاماً

ولكن الكثرة العظمى من سكان بريطانيا لم تستطع أن تجارى بعض ساستها فيما ذهبوا اليه ، وظلت السياسة السائدة هى سياسة الاقلال من الارتباط بعهود ومواثيق ، قدر الطاقة . والقد استطاع رئيس وزارة بريطانيا الحالى أن يكون أبعد نظراً وأعمق إدراكا للحقيقة من أى سياسى آخر ، فعرض فى يونيه الماضى على فرنسا أن تتحد اتحاداً سياسياً مع بريطانيا ، فتصبح الدولتان دولة واحدة . استطاع المستر تشرشل أن ينادى بهذا فى وقت حرج فى تاريخ الدولتين . ومن الصعب أن نتصور أنه يتمكن من عرض مثل هـذا الرأى وقت السلم والهدوء ، رغم اقتناعه بصوابه . إن سياسة بريطانيا الدولية التى أملتها البيئة الطبيعية ، لا تتغير الا ببطء شديد، لان مضى القرون قد أكسبها رسوخاً ومتانة ، فلن تتحول إلا بتدرج كثير

* * *

وبعد فان من الواضح أن بريطانيا أصبحت أشد التصاقا بأوربا اليوم مما كانت عليه فى أى

يوم مضى . وقد بات هذا الالتصاق من الشدة والعنف بحيث أحسه كل ساكن فى الجزر البريطانية . وان لنا الحق أن نتوقع بعد أن تضع الحرب أوزارها أن نرى بريطانيا تقترب اقترابا شديداً الى أوربا ، وتعنى عناية خاصة بشئون تلك القارة

ومن حسن التوفيق أن عزلة الجزر البريطانية ، لا تزال ذات أثر حميد فى سير هذه الحرب . فبفضلها استطاعت بريطانيا أن تمتنع من العدو المغير ، وأن تدفع العدوان ، وأن تأخذ أهبتها للحرب ، وتستكمل عدتها . وأن تتحدى قوى الطغيان أن تغير عليها بل تدنو منها . ان هذه العزلة لا تزال عاملا حربيا جليل الخطر . ولكنها لم تعد عاملا سياسيا ذا شأن . ولا بد للسياسة البريطانية أن يعتريها فى المستقبل شىء كثير من التبدل ، وأن تعنى عناية خاصة بالشئون الاوربية بحيث تضمن ـ بمقدار ما تستطيع الطاقة البشرية أن تضمن ـ ألا تتعرض لما تتعرض له اليوم من المحن والويلات

محمد عوض محمد

من ذكريات الصبا

الدمع أقربُ من نوالك موردا   وأبر منك ومن خيالك موعدا
أمدَى الصدود جعلت دهرك كله ؟   الدهر أضيق من صدودك ، والمدى
ما تنعمين بموعد يلد المنى   إلا جعلت الشكل منها المولدا
هل كان ما تعدين إلا وقفة   تشفي من البرحاء قلباً مكمدا ؟
حشد الوشاة جموعهم ، وحشدته   جنداً من الحسن البديع مجندا
وغزوت (احمد) من هواك بباسل   سلب الحشاشة ، واستباح المرقدا
لم أدر حين غشيتُ دارك باللوى   أغشيتُ بعدك منزلا أم معبدا ؟
خشع الفؤاد ، فخلت أنى ناسك   وافى المصلى موهناً فتهجدا

* * *

يا سرحةَ الوادى ، تذكرنى الهوى   أيام تجمع سربه المتبددا
سلبتنى الدنيا ظلالك ، والصبى   وهوى الأحبةَ والزمان الأغيدا
هل تذكرين لنا مواسم لذة   تحيي بذكراها القلوب الهمَّدا ؟
كانت مَشارع صبوة فارقتها   فعلمت أن الرى داعية الصدى
وصرفت عن مثوى الهوى ومحله   نفساً أكلفها المحل الأبعدا

احمد محرم

طلبنا الى معالى الدكتور على ابراهيم باشا وزير الصحة أن يدلى برأيه فى الحفاء وأعطانا هذا البحث مطريا صاحبه العلامة قائلا : « لقد حلت مشكلة الحفاء وما يستتبعها من الناحية الصحية بهذه المقترحات المبنية على أساس علمى عملى »

الحفاء : مساوئه الصحية ومكافحته

للدكتور محمد خليل عبد الخالق بك

أستاذ علم الطفيليات بكلية الطب ومدير معهد الأبحاث
ومدير أقسام الامراض المتوطنة بوزارة الصحة

موضوع الحفاء الذى بدأت الحملة لمقاومته فى المملكة المصرية ، تنفيذاً للرغبة الملكية الكريمة يجب درسه من نواح متعددة : احداها ناحية الوقاية من الامراض ، وهى وحدها التى ستعالج فى هذه العجالة ، على أساس أقل ما يجب توفره فى لباس القدم ليكون واقيا من الامراض

وبالطبع ، اذا رئى ان هذا النوع لا يفى بالمظهر اللائق أو الكرامة ، فأنواع النعال الراقية تؤدى الغرض الصحى أيضاً ، ولا يقف فى سبيلها سوى النفقات ومقدرة الفلاح على الاستمرار فى تجديدها كلما بليت ، على أن يراعى ملاءمتها لأعمال الفلاح الزراعية وتكون قدميه

الحفاء وعدوى الامراض

الانكلستوما والبلهارسيا ، مرضان منتشران في مصر انتشاراً كبيراً ، تسببهما ديدان تدخل يرقاتها الى الجسم بواسطة القدم العارية ، وهذا يكاد يكون الطريق العادى لعدوى الانكلستوما ، وهو احدى طرق العدوى بالبلهارسيا ، وإن لم يكن أهمها . وتصيب الانكلستوما حوالى ٥٠٪ من المصريين وتسبب المرض المشهور بـ « فقر الدم المصرى » ، وتصيب البلهارسيا حوالى ٧٥٪ وتسبب البول الدموى ونوعا من أنواع الدوسنطاريا

وتعيش ديدان الانكلستوما فى أمعاء الانسان حيث تضع بويضاتها . وهذه البويضات تخرج من الجسم فى البراز ، وتجد المكان الملائم لنموها فى الأراضى الرطبة فى طرقات القرى وزرائب المواشى وفى الارض الفضاء حول القرية وبالقرب من الماء على شاطىء النيل أو الترع أو المساقى

القريبة من القرية حيث يذهب الكثيرون لجلب الماء للاستعمال المنزلى أو الشرب

وعند ما تفقس البويضات ، تخرج منها صغار ديدان الانكلستوما التى تتطور سريعاً ـ بعد غذائها على المواد البرازية ونحوها ـ الى الدور الذى يخترق قدم الانسان اذا ما لامسه عارياً ، وتنفذ الى الدم وتستقر نهائيا فى الأمعاء ، حيث تعيش على الغشاء المخاطى للامعاء وتمتص الدم وتفرز فيه سماً من غدد فى جسمها ، وتسبب فقر الدم والضعف والهزال ، وتعوق نمو الاطفال بدنياً وعقلياً ، وتجعلهم أكثر استهدافا للامراض وأقل مقاومة لها ، وتحط من انتاج الأفراد الى حد ذريع

أثر النعال فى الوقاية من عدوى الانكلستوما

أجمع الباحثون فى مرض الانكلستوما على أن أى لباس للقدم يحول بينه وبين تربة الارض ، له أثر كبير فى مقاومة العدوى بالانكلستوما واليك نبذاً مما قيل فى هذا الصدد :

(١) قارن « سميلى » فى البرازيل عدوى الانكلستوما بين ٢٩ فرداً من الفلاحين الذين اعتادوا لبس الأحذية بالعدوى وبين ١٤٨ فلاحاً يعملون معهم حفاة . وكانت الأحذية ضخمة وثقيلة ومصنوعة من جلد لم يحسن دبغه ، وتكثر فيها الخروق (أى فى الأحذية) فكان متوسط عدد الديدان فى الفرد من الذين يلبسون الأحذية ٢٧ ، بينما يأوى الفرد من الحفاة فى المتوسط ٢٥١ دودة

(٢) وقد لاحظ شاندلر سنة ١٩٢٩ ان سكان مقاطعة « شان » فى « بورما » يلبسون الصنادل ويخلعونها عند قيامهم بالعمل فى الحقول أو عندما يدخلون منازلهم ، وقد عزا قلة الاصابة بالانكلستوما بينهم الى هذه العادة ، وكان عدد الديدان فى المصابين منهم قليلا جداً الى حد يجعل الاصابة ، بالانكلستوما فى هذه المقاطعة تافهة لا تستحق الاهتمام

(٣) ويعزو مجاو سنة ١٩٢٠ قلة الأصابة بالانكلستوما بين المسلمين فى المديريات المتحدة فى الهند عنها بين الهنود ، الى انتشار لبس الأحذية بين المسلمين

(٤) وقد قرر دافنيس سنة ١٩٢٥ فى جنوب البرازيل : أن علاقة لبس الأحذية فى فئات العمر المختلفة بعدوى الانكلستوما للذكور والاناث ، لا تدع مجالا للشك فى أن لبس الاحذية هو أهم عامل فى الوقاية من عدوى الانكلستوما فى المنطقة التى فحصها

(٥) وقد شوهد فى الأقاليم الجنوبية من الولايات المتحدة الامريكية ، وكذلك فى أستراليا ، أن الاطفال يسيرون حفاة الى أن يبلغوا سن الرابعة عشرة ، ثم يلبسون الأحذية بعد ذلك ، وأن عدوى الانكلستوما تنتشر بين الأطفال الى سن السادسة عشرة ، ثم تقل جداً بعد ذلك ، كما نلاحظ من الاحصاء التالى :

السن				عدد ديدان الانكلستوما فى كل فرد فى المتوسط
٧ سنوات				٦ر٦
٨ «				٩١
١٠ «				١٣٨
١٢ سنة				١٤٤
١٤ «	بعد لبس الاحذية			١٨٠
١٦ «	«	«		١٩٨
١٨ «	«	«		٩٤
٢٠ «	«	«		٢٤
٢٢ «	«	«		٨

والديدان تعمر عدة سنوات فى أمعاء الانسان ، ولذلك لايظهر أثر لبس الأحذية الا بعد عدة سنوات من انقطاع أو قلة العدوى الجديدة

وفى البيئات التى لا تلبس الأحذية ، لا تلاحظ أى قلة فى عدد ديدان الانكلستوما التى يأويها الفرد حتى يبلغ الخمسين من عمره

الأعمال الزراعية وعدوى الانكلستوما ولبس النعال

يصعب العمل على لابس الأحذية أو غيرها من أنواع النعال فى الأراضى الزراعيـــة المروية حديثاً ، خصوصاً فى الأرض السوداء الثقيلة والخفيفة والارض الصفراء . وقبل بلوغ التربة درجة الجفاف التام تصير بعض الاراضى لزجة جداً بحيث يلصق الحذاء العادى بالارض ويخرج القدم منه عارياً

وقد دعا هذا سكان بعض المناطق الزراعية خصوصاً فى « بورما » حيث يكاد يكون لبس الصنادل عاماً ، أن ينزع الفلاحون هذه الصنادل عند قيامهم بالاعمال الزراعية

وهذه ستكون الحال فى مصر فمن العسير القيام بالاعمال الزراعية فى حالة الانتعال، إلا اذا كانت الارض جافة . ولكن ليس فى هذا ضرر من وجهة العدوى بالانكلستوما ، كما دلت المشاهدات فى بورما : فان خطر العدوى مصدره السير بالقدم العارية في الاماكن الملوثة حول القرى وفى طرقها ، أما فى الغيط ولو أن التبرز يحصل فيه ، الا أنه قليل جداً بالنسبة لمساحته ، والفرصة أن يضع فرد قدمه فى المكان الذى تبرز فيه شخص مصاب قبله بمدة لا تقل عن خمسة أيام ولا تزيد عن ثمانية أسابيع ، قليلة ونادرة

أما وقت حرث الارض وهى جافة ، فالفلاحون مضطرون فى الوقت الحالى الى لبس نوع من النعال اسمه «الحدوة» لوقاية أقدامهم من الحصا وقطع الطين المتجمدة التى قد تصيب أقدامهم بأذى.

والحدوة تصنع عادة من جلد الجمل ، فتؤخذ قطعة واحدة مسطحة على قدر باطن القدم ، وتربط بأسفل الساق بقطعة من الدوبارة

وقد عمد بعضهم أخيراً الى صنع « الحدوة » من الكاوتشوك الذى يأخذونه من الاطارات القديمة التى يستغنى عنها أصحاب السيارات . ويتكلف النعل منها قرشاً واحداً . وهو من جهة اتقاء عدوى الانكلستوما وسهولة العمل فى الحقول الجافة ، كاف واف بالغرض

(٦) قال شاندلر فى كتابه عن مرض الانكلستوما سنة ١٩٢٩ نتيجة خبرته الطويلة فى الهند : « إننا حين نفكر فى لباس للقدم ، ينحصر تفكيرنا فى الاحذية المصنوعة من الجلد ، ونجد صعوبة فى التفكير فى أى نوع آخر . وفى الحقيقة أن كل ما يلزم لسكان البلاد الحارة ، قطعة من الخشب تحت القدم ، وهذه فى نظرنا نحن الذين تعودنا على لبس الاحذية تعتبر طريقة وحشية وغير مريحة ولا يمكن أن تطاق ، ولكن سكان البلاد الحارة يقتنعون بها ويفضلونها على حصر أقدامهم فى أحذية من الجلد نعتبرها نحن ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها

(٧) ولاحظ « سميلى » فى البرازيل سنة ١٩٣٢ ، أن أرخص أنواع الاحذية المصنوعة من الجلد تساوى فى الثمن ما يكسبه الفرد من عمله فى أسبوعين أو ثلاثة أسابيع . وهذه عقبة كبيرة فى انتشار عادة لبس الاحذية هناك . وعلاوة على ذلك ، فالحذاء يعوق الفلاح عن عمله بتراكم الطين اللزج على الحذاء أثناء العمل فى الغيط

(٨) وقد لوحظ فى الهند أن لبس القباقيب المصنوعة من الخشب والتى تعلق بالقدم بواسطة سير من الجلد أو بواسطة أكرة تعلق بين أصابع القدم ، يقى الى حد كبير من عدوى الانكلستوما

وقاية الاطفال خاصة من الانكلستوما

الاطفال أكثر استهدافا لعدوى الانكلستوما من البالغين . وهى تؤثر عليهم تأثيراً سيئاً : فهى تعوق نموهم البدنى والعقلى ، وقد يبلغ مقدار ذلك فى العدوى المتوسطة ٢½ سنة فى طفل عمره ١١ سنة : أى أنه يساوى فى ذكائه طفلا فى الثامنة والنصف من عمره حسب مقاييس الذكاء

وقد شوهد فى أكثر البلاد الحارة ، وفى مصر أيضاً ، أن متوسطى الحال من الفلاحين ، بل وبعض كبارهم أيضاً ممن يلبسون الاحذية ، لا يجدون حرجاً فى ترك أطفالهم حفاة

ونقترح أن يكون لبس الاحذية أو النعال إجبارياً فى جميع سنى العمر ، ويعتبر الحفاء مخالفة يعاقب عليها البالغ والمسئول عن القاصر

مرض البلهارسيا

يخترق مذنب ديدان البلهارسيا (أحد أطوار حياة هذه الدودة) القدم أو أى جزء من

الجسم العارى الذى يلامس المياه التى توجد بها القواقع التى تعيش فيها البلهارسيا

وهذه القواقع تكثر فى مجارى الرى الصغيرة وتقل جداً فى النيل والترع الكبيرة خصوصاً تلك التى تجرى بها المياه على شىء من السرعة ، ويقل نمو الحشائش بجوانبها

وعلى ذلك ، فكل عمل يؤدى الى غمر أى جزء من الجسم فى المياه المذكورة ، يؤدى الى العدوى . ولا شك فى أن القدم والساق الى الركبة ، أكثر تعرضاً من باقى الجسم أثناء عمليات الرى ، خصوصاً استعمال الطنبور أو تحويل المياه أثناء الرى أو تنقية حشائش

وللوقاية من هذه الديدان ، يوجد طرق عديدة هى الآن على وشك التنفيذ فى مديرية الفيوم ، وهى حملة تؤيدها وزارة الصحة والحكومة والبرلمان ، ومفتوح لها اعتماد قدره ٥٠ ألف جنيه فى السنة المالية الحالية

على أن وقاية القدم والساق من عدوى البلهارسيا بتغطيتهما بنوع من الاحذية لا تعتبر طريقة عملية للأسباب التالية :

(١) أنها تتطلب نوعاً خاصاً من الاحذية ليس فيها مسام ينفذ منها الماء ، وتكون طويلة الرقبة حتى تبلغ الركبة . وهى النوع المسمى Jack Boots

(٢) وجد بالتجربة أن هذا النوع من الاحذية يعوق لابسه كثيراً فى قيامه بأعماله فى الماء ويؤدى الى التزحلق والوقوع فى الغيط

(٣) يستدعى ذلك استعمال نوعين من الاحذية لكل فلاح : أحدهما للمشى والآخر للاشتغال فى الماء ، مع ملاحظة أن وقاية الأرجل الى الركبتين لا يمنع العدوى ، فانها قد تحدث بالاستحمام أو غسل اليدين أو الشرب

(٤) ثمن هذه الاحذية مرتفع جداً وليس فى مقدور عامة الفلاحين مطلقا دفعه

(٥) علاوة على ذلك تبقى الايدى معرضة للعدوى ويجب تغطيتها بقفازات من الجلد ليست بها مسام

وعلى ذلك لم يتقدم أى باحث له إلمام بأحوال المملكة المصرية على اقتراح هذا النوع من الحذاء لمقاومة البلهارسيا ، ولو أنه مذكور فى بعض المراجع كطريقة نظرية للوقاية ، مقصورة فقط على العلماء الباحثين الذين يضطرهم عملهم الى فحص الاماكن الموبوءة بأنفسهم

دكتور محمد خليل عبد الخالق

خطرات ذاهب

لشاعر الاقطار العربية الاستاذ خليل مطران

هذه خطرات نفيسة جادت بها قريحة شاعر الاقطار العربية الاستاذ خليل مطران فى ساعة من ساعات التأمل والتفكير فى الحياة والناس . وقد وصف فيها نفسه تمام الوصف ، كما أبدع فى تحليل حياته تحليلا صادقا ، فيه أدب وفيه فلسفة وفيه عاطفة فياضة بالخير والتضحية وإيثار المثل الاعلى ، وهى أخص ما فى حياة شاعرنا الكبير

ماذا يُريدُ الشعرُ منى   أَخنى عليهِ علوُّ سنى
هلْ كانَ ما ذهبتْ به   الأيامُ منْ أدبي وفنى
أحسنتُ ظنى والليا   لي لم توافقْ حسنَ ظني
ورجعتُ من سوقٍ عرضـ   ـتُ بضاعتى فيها بغبنِ
أفكانَ ذلكَ ذنبها   أمْ كانَ ذنبي لا تسلني
خمدتْ بيَ النارُ التي   رفعتْ بعينِ العصرِ شأني
هى شعلةٌ كانتْ تُنيرُ   قريحتي وتنيرُ ذهني
أيامَ لى طربٌ وقلبى   موقعُ السهمِ المرنّ
لا تندبني للعظائم   بعدها لا تندبني
يا منْ يحمّلني تكا   ليفَ الشبابِ ارفقْ بوهني
زمني تولّى والأولى   عمّروهُ من صحبي فدعني

وَلّى الرَّبيعُ وَجَفَّ عو ... دِي وانقضى عَهدُ التغنّي
وَعدِمتُ لذّاتِ الرّؤى ... وَعدِمتُ لذّاتِ التمنّي
إني خَتمتُ العَيشَ في ... وادِي المخيلةِ أو كأنّي
فإذا بدَتْ لكَ هِمّةٌ ... مِنْ دائبٍ يَشقى وَيبني
فعذيرُهُ خوفُ التشبهِ ... بالرّحى مِنْ غَيرِ طحنِ
وَيكدُّ كدَّ النَّحلِ ... وَهي لغيرِها تَسعى وَتجني
أرضى بأنْ تُقضى منّي ... للآخرينَ وإنْ عذبْني
أخلي مكاني للذي ... يَسمو اليهِ بغيرِ حزنِ
وَلقدْ أهشُّ لمنْ يُطاوِلني ... وإنْ يَكُ تحتَ رِضبني
إنّ الحقيقةَ حينَ نَبلغُها ... لتكفينا وَتُغني
فيها الجلالُ بكلِّ مَعناهُ ... وَفيها كلُّ حسنِ
تَتَشابهُ الدَّركاتُ في ... أنّا نُعدُّ لها وَنُفنى
فإذا تولينا فَهَلْ ... أسماؤنا منّا ستُغني
إنْ تبقَ والأرواحُ قدْ ... ذَهَبتْ فما الأسماءُ تَعني
لو لم يكنْ في الذكرِ للأ ... عقابِ نَفعٌ لم يَشُقني
أمّا الجزاءُ فانّني استَو ... فيتُ منهُ فوقَ وَزني
وبحاضري استَسلفتُ ما ... سيقولُهُ التالونَ عنّي

خليل مطران

أمبراطورية إيطاليا الاستعمارية
كيف قامت ، ولم انهارت ؟

بقلم الاستاذ محمد عبد الله عنان

قامت امبراطورية ايطاليا الاستعمارية منذ البداية على أساس العدوان المنظم والغدر وانتهاز الفرص . وفى قصة قيامها بالذات تبدو العوامل التى تؤدى اليوم الى انهيارها

تلقى ايطاليا الفاشستية فى الآونة الحاضرة جزاءها الحق ، فهى تلقى الضربة تلو الضربة فى مختلف الميادين التى زج بها اليها جشعها وغرورها وتفقد تباعا اجزاء امبراطوريتها التى اقامتها على العدوان والبغى ، لكى تستمد منها ألوانا من القوة والعظمة ليست لها ، ولكى تنهب مواردها وتستصفى ارزاقها لتطعم جموع المستعمرين الذين عجزت عن اطعامهم بغير السلب والنهب . واذا كانت العدالة الالهية قد قضت بان نشهد بداية المأساة منذ اشهر قلائل انهارت فيها صروح الاغتصاب فى برقة وجنوبى الباانيا ، فان سير الحوادث يدل دلالة واضحة على اننا سوف نشهد خاتمة المأساة وانهيار الامبراطورية الايطالية كلها فى وقت قريب

قبل أواخر القرن الماضى لم يكن لايطاليا املاك فيما وراء البحار ، وكانت ايطاليا نفسها حديثة عهد بالوحدة والحرية والاستقلال ، غير انها لم تنس وهي فتية ناشئة ، ان تتشبه بالدول الاستعمارية الكبرى ، وان تسارع الى الاستيلاء على نصيبها من تراث القارة الافريقية ، وكان ذلك فى عهد الملك همبرت (امبرتو) الاول الذى تولى العرش فى سنة ١٨٧٨ ، وكان وزيره الشهير كرسبى Crispi من غلاة القومية الايطالية ودعاة الاستعمار ، وكان يميل فى سياسته الخارجية الى التطرف والعنف ، وكانت ايطاليا ترتبط يومئذ مع المانيا والنمسا والمجر بمعاهدة الحلف الثلاثى التى خرقتها فيما بعد فى الحرب الكبرى ، وتستمد منها القوة لسياستها الخارجية . وبدأت ايطاليا تنفيذ برنامجها الاستعمارى منذ سنة ١٨٨٠ حيث بدأت باحتلال الصومال ، واستمرت فى احتلاله تباعا حتى سنة ١٨٩٠ وفى سنة ١٨٨٢ احتلت بقعة فى ارتريا ، وانشأت بها مستعمرة ايطالية ، واخذت تتوسع

فى احتلالها تباعا بالافتئات على الاراضى الحبشية ، ثم أخذت تطمح الى احتلال الحبشة ذاتها ، وجاهرت بادعاء حق الحماية عليها ، ولكن منليك الثانى امبراطور الحبشة دحض هذا الزعم بأباء وآثر ان يلتقى بالمعتدين فى موقعة « عدوه » الشهيرة (سنة ١٨٩٥) وفيها سحق الجيش الايطالى باسره ، وألقى على المغيرين العابثين بحريات الامم درس من أروع الدروس ، وارغمت ايطاليا على أن ترد الى الحبشة ما أخذته من أراضيها وان تعترف بوحدتها واستقلالها بمقتضى معاهدة اديس ابابا (سنة ١٨٩٦) وحطمت هذه الهزيمة سياسة كرسبى الاستعمارية وأدت الى اسقاطه واختتام حياته السياسية

ولما أعلنت فرنسا حمايتها على مراكش فى سنة ١٩٠٦ ، كانت ايطاليا تؤيدها وتعضدها مقابل تأييد فرنسا لها وتعضيد مطامعها فى طرابلس الغرب وكانت يومئذ من املاك الدولة العثمانية

وفى سنة ١٩١١ ، اعلنت ايطاليا الحرب على تركيا بحجة اعتدائها على حقوق الرعايا الايطاليين فى طرابلس ، وأعلنت ضم برقة وطرابلس اليها بعد حرب قصيرة الامد ، واضطرت تركيا ان تصادق على هذا الضم فى اكتوبر سنة ١٩١٢ بمقتضى معاهدة اوشى ، لانها كانت تواجه فى ذلك الحين خطر اعتداء الدول البلقانية عليها

***

تلك هى المرحلة الاولى فى قيام امبراطورية ايطاليا الاستعمارية • أما المرحلة الثانية فقد بدأت فى الحرب الكبرى ، وكانت ايطاليا عند قيام هذه الحرب ترتبط بدولتى الوسط (المانيا والنمسا) بمعاهدة التحالف الثلاثى ، ولكنها لما رأت انها لا تستطيع ان تجنى من هذا التحالف ما طمحت اليه من المغانم اتجهت نحو الحلفاء تطالب بثمن انضمامها اليهم ، وانتهت المفاوضات بينها وبينهم بعقد معاهدة لندن السرية فى ابريل سنة ١٩١٥ ، وفيها اعترف الحلفاء لايطاليا بحق ضم الاراضى التى تطمح الى ضمها من النمسا والحصول على بعض التعويضات الاستعمارية واعطيت فى الحال « قرضا » قدره خمسون مليون جنيه ، وفى مايو سنة ١٩١٥ اعلنت ايطاليا الحرب على حليفتيها السابقتين المانيا والنمسا ، بعد ان اطمأنت الى الثمن الذى تقاضته مقابل نكثها • وبر الحلفاء بوعودهم ، واستولت ايطاليا على بقاع عديدة من النمسا واعطيت حق الحماية على البانيا فى مؤتمر سان ريمو ، وسمح لها بتوسيع حدود طرابلس من ناحية مصر وناحية السودان الفرنسى ، هذا عدا ما تقاضته من التعويضات الالمانية أسوة بباقى دول الحلفاء

ثم كان قيام الفاشستية فى ايطاليا ودعايتها المستمرة بأن ايطاليا لم تنل فى معاهدة الصلح حقها كاملا ، وما بثته فى الشعب الايطالى من بواعث الكبرياء والغرور • وعادت سياسة ايطاليا الخارجية فى ظل الفاشستية الى عنفها القديم ايام كرسبى وعادت الى طريقها المأثور من الدس وانتهاز الفرص ، وملأت الاحلام الامبراطورية المغرقة أذهان زعماء ايطاليا الجدد • واتجهت ابصارهم الى تدعيم سياسة ايطاليا الاستعمارية ودفعها الى مغامرات جديدة

فعملوا على سحق العرب في لوبية واغتصاب أراضيهم واستلاب اقواتهم بأشنع الاساليب الهمجية ، وأمعنوا في قتل المعارضين وتشريدهم بأفظع الوسائل ، ويكفى ان نعود في ذلك بالذاكرة الى ما فعله جراسياني بزعماء القبائل المعارضة من القائهم من الطائرات على ارتفاع عظيم ليهلكوا بهذه الطريقة الوحشية التي لم يسمع بمثلها ، ثم عملوا بعد ذلك على استدراج الحبشة وتوثيق الصلات بينها وبين ايطاليا بالمعاهدات والوعود المعسولة تطمينا لها وتخديرا لاعصابها ، وهم يدبرون ضربتهم للقضاء عليها ، فلما رأوا ان الفرصة قد حانت لم يتورعوا عن انتهاك العهود المقطوعة . وكان غزو ايطاليا للحبشة في سنة ١٩٣٥ اشنع مثل للغدر الدنيء ، والنكث المشين الذي اصبح ظاهرة للسياسة الايطالية ، ولو لم يلجأ الايطاليون الى استعمال الطائرات والغاز الخانق للقضاء على مقاومة الحبشة لاصابهم ما اصاب اسلافهم في موقعة « عدوه » من هزيمة ساحقة ، ولولا اختلاف انكلترا وفرنسا يومئذ تجاه السياسة الايطالية وتردد انكلترا في مقاومة المطامع الفاشستية لما اتيح للغزاة مثل هذا النصر الذي اتخذوه أساسا لانشاء الامبراطورية الايطالية

ومن ذلك الحين ألقت ايطاليا الفاشستية بنفسها في احضان المانيا النازية وأخذت الدولتان تأتمران بحريات الدول الاوربية الصغرى . ولما وضعت ألمانيا يدها على تشيكوسلوفاكيا في مارس سنة ١٩٣٩ رأت ايطاليا من جانبها ان تضع يدها على البانيا في ابريل من نفس العام ، وان تعلن ضمها الى التاج الايطالي ، وبذلك انتهت المرحلة الثالثة والاخيرة في قيام امبراطورية ايطاليا الاستعمارية

***

وهكذا قامت أمبراطورية ايطاليا الاستعمارية منذ البداية على أسس العدوان المنظم والغدر وانتهاز الفرص ، وفي قصة قيامها بالذات تبدو العوامل التي تؤدي اليوم الى انهيارها

فايطاليا التي لم تنل حريتها ووحدتها واستقلالها الا في أواخر القرن الماضي كانت تتعجل الحوادث وهي تطمح الى منافسة الدول العظمى في حلبة الاستعمار ، ولم يكن نزولها الى هذا الميدان مقرونا بشيء من الغزو السلمي ، أو الاقتصادي أو الثقافي الذي امتازت به السياسة الاستعمارية الاوربية في القرن التاسع عشر الى جانب وسائلها العنيفة ، وكان جل اعتمادها على العنف المقرون بأساليب الغدر دون سواه

وايطاليا لم تفز بامبراطوريتها الاستعمارية لانها أبدت عبقرية خاصة عسكرية أوسياسية في افتتاح هذه الاراضي ، ولكنها كانت في كل مشروع استعماري جديد تنتهز بعض الظروف الطارئة ، وتستند الى معاونة دولة أو اكثر من الدول العظمى ، وحتى الحبشة لم تستطع فتحها الا بمعاونة السياسة الفرنسية وذهب فرنسا ، وكان كل غنم جديد تحصل عليه ثمنا لخيانة أو نكث ترتكبه حسبما بينا

وقد أبدت ايطاليا في سياستها الاستعمارية قصر نظر شنيع ولم تفهم من الاستعمار الا انه وسيلة لنهب موارد البلاد المفتوحة وتجريد أهلها من املاكهم واموالهم واعطائها

للمستعمرين الايطاليين ، وارسال العاطلين الجياع من ايطاليا الى الاراضى الجديدة فى جموع عظيمة لا تطيقها موارد هذه البلاد . هذا فضلا عن فقر ايطاليا فى رؤوس الاموال وعدم استطاعتها ان تستثمر موارد مستعمراتها بطريقة اقتصادية منظمة تجنى منها الارباح المشروعة بتوظيف الاموال وتنظيم الاعمال والمشاريع العمرانية النافعة واعتمادها فى هذا الاستغلال على سياسة السلب المنظم وحدها

وظنت ايطاليا الفاشستية مذ وضعت يدها على الحبشة والبانيا انها تستطيع بممالأة المانيا ان تتابع تحقيق أحلامها الامبراطورية بسرعة ، وزادت كبرياء وغرورا وانقلبت السياسة الايطالية على طول الخط سياسة وعيد وتحدى نحو فرنسا التى تطمح ايطاليا الى مشاطرتها امبراطوريتها الاستعمارية فى افريقية ، ونحو انكلترا التى تحلم ايطاليا بسحق سيادتها فى البحر الابيض المتوسط والاستيلاء على وادى النيل الذى تسهر على حراسته . ولم تحجم ايطاليا عن ان تدبر الاعتداء على مصر والسودان وان تغزو الاراضى المصرية بالفعل طامحة الى اقتناص هذه الدرة الخضراء ، وكان من أثر غرورها الاعمى انها لم تحسب حسابا لقوة بريطانيا العظمى ولم تقدرها قدرها الحقيقى ، فلما دفعتها شهوة العدوان والمغامرة الى اجتياح اليونان ولقيت درسها الاول فى مفاوز البانيا ، ثم توالت الضربات السريعة القاضية على قواتها فى الصحراء الغربية ولوبيه ، أدركت بعد فوات الوقت انها كانت سيئة التدبير قصيرة النظر وأخذت تجنى عاقبة اثمها وبغيها وتشهد عاجزة متحسرة انهيار صرح امبراطوريتها حجرا بعد حجر

ولا ريب ان خاتمة المأساة لن تتأخر طويلا فجنود الامبراطورية البريطانية توغل بسرعة فى اريتريا والحبشة والصومال . وحينما يتم القضاء على انقاض الجيوش الايطالية فى لوبيه وشرقى افريقية ينتهى حلم الامبراطورية الايطالية ويقف الشعب الايطالى على حقيقة المصير المحزن الذى ساقتهم اليه الفاشستية وموسولينى

ان الامبراطوريات الاستعمارية لا تقوم على القوة الغاشمة وحدها ، وقد لجأت ايطاليا فى انشاء امبراطوريتها الى الخيانة والعنف والعدوان والبغى وحدها ، ولم تفطن الى العوامل الادبية التى هى سياج كل سياسة استعمارية مستنيرة ، وهى تلقى اليوم جزاءها العادل

محمد عبد الله عنان



أنت وأنا

الانسان وليد المصادفة

بقلم الدكتور امير بقطر

في هذا البحث العلمي الدقيق يتناول الدكتور امير بقطر مسألة الوراثة فيشرح في وضوح النقط التالية :

١ – الانسان وليد المصادفة مثل ورقة اليانصيب الرابحة
٢ – معنى الوراثة
٣ – ما يورث وما لا يورث
٤ – لم يكون المولود ذكراً أو أنثى ؟
٥ – لم تعمر المرأة أكثر من الرجل ؟

١ – ورقة يا نصيب

غريب جداً أن تكون أنت أنت ، وأن أكون أنا أنا . غريب أن تكون أنت مديد القامة ، ممتلىء البدن ، أسود الشعر كثيفه ، روماني الأنف ، متسع الحدقة ، قمحي اللون ، حاد الذكاء ، وغريب أن أكون أنا متوسط القامة ، نحيف البدن ، أشقر الشعر خفيفه ، مستقيم الأنف . منحرف العينين ، أبيض اللون ، ضعيف الذكاء . غريب ألا تكون أنت أنا وألا أكون أنا أنت

غريب أن تكون ابناً لأمك ، وقد كان يمكن أن تكون لواحدة من بضع مئات الملايين من غيرها من نساء العالم . وغريب أن تكون ابنا لأبيك . وقد كان يمكن أن تكون لواحد من بضع مئات الملايين من غيره من رجال العالم

غريب أن يتزاحم مئات الملايين من « الكائنات » الحية الدقيقة التي لا ترى بالعين المجردة ، على « بذرة » حية دقيقة لا ترى بالعين المجردة ، فلا يفوز بودها غير كائن واحد ، يلج بابها فتأنس اليه فتلابسه ، وتعتزل تلك الملايين غيره وتنقبض عنهم ، ثم تنسج حولها شبكة متينة ، مبالغة في الحرص ، حتي لا ينفذ الى دارها سوى ذلك الكائن الحسن الحظ ، وما هي إلا ثوان معدودات حتى يمتزج الضيف وربة البيت لحما ودما ، ويصبحا مخلوقا واحداً ، وبعد تسعة أشهر يشق ذلك المخلوق طريقه الى هذا العالم فيصبح أنت (أو أنا) . غريب أن يفوز ذلك الكائن الحي الصغير على أولئك الملايين ، فتصبح أنت أنت ، وكان يمكن أن يفوز آخر من هؤلاء الملايين فكنت تكون غيرك لا أنت

ولكن الأحدوثة لا تقف عند هذا الحد ، فالمسألة أشد غرابة من هذا بكثير . ذلك الكائن الحي الدقيق (الحيوان المنوى للذكر) يحمل في ذراته في الاصل ٤٨ قطعة في شكل قضبان

(أصبعيات (Chromosomes)) مرتبة أزواجا يختلف كل زوج منها عن الآخر رسما وحجما . وتحمل كذلك تلك البذرة الدقيقة (بويضة الأنثى) فى نواتها ٤٨ قطعة مرتبة أزواجا . على ان الحيوان المنوى للذكر قبل تلقيح بويضة الأنثى لا يتنازل لها إلا عن ٢٤ قطعة أى واحدة من كل نوع من الأزواج الأربعة والعشرين ، وكذلك البويضة قبل اتحادها بالحيوان المنوى لا تتنازل إلا عن ٢٤ قطعة أى واحدة من كل نوع من الأزواج الأربعة والعشرين . واذا علمت ان هذه القطع أو القضبان أو الأصبعيات هى التى تحمل عوامل الوراثة (genes) ، اتضح لك ان الفرد يأخذ عن أبيه النصف وعن أمه النصف الآخر ، وان مجموع هذه القطع أو القضبان ـ وهى فى الجنين (والمولود أو الفرد فيما بعد) ٤٨ مرتبة أزواجا كل زوج منها يختلف عن الآخر

ربما فاتك أن تزواج هـذه الأصبعيات كان يمكن أن يتخذ أشكالا لا حد لها . وأن يكون مجموعات لا حد لها . فهناك من ناحية الأب ٢٤ قطعة ومن ناحية الأم ٢٤ قطعة ، والمسألة المطلوبة هى بكم طريقة يمكن تكوين مجموعات تتألف من أزواج أصبعية من الأب بأخرى من الأم . هذه عملية جبرية فى التوافيق أو التباديل (لا أذكر) . وقد قدر أحد علماء التوالد ان عدد هـذه الطرق هو ١٦٫٧٧٧٫٢١٦ ، على ان هذا ليس كل شىء . فنحن نفرض فى هذه الحالة أن كائنا واحداً حيا لقح بذرة واحدة ، فى حين ان هذا الكائن واحد من ملايين كثيرة من الكائنات الحية التى كان يحتمل أن تلقح هـذه البذرة ، وعلى هذا يقفز العدد التقديرى الى حوالى ٣٠٠ مليون مليون ، أى أن وجودك فى الحياة على هذه الصورة مصادفة لا يقع إلا مرة فى كل ٣٠٠ مليون مليون مرة على الأقل . وأقول على الأقل لأن هناك عوامل أخرى اذا ذكرت ، قفز هذا العدد الى ما يفوق التصور البشرى بمراحل . من ملايين الملايين من أوراق خاسرة

٢ ـ معنى الوراثة

هى ما ينتقل من الأوصاف البدنية والعقلية من الوالدين الى الذرية . ولكن كيف ؟ ومتى ؟ أما عن متى ففى اللحظة التي يتحد فيها الحيوان المنوي بالبويضة ، لا قبل ذلك ولا بعده ، ولا فى أثناء الحمل . أما عن كيف فلنعد بالقارىء الى تلك الأصبعيات (Chromosomes) التى توجد فى البويضة والحيوان المنوى عند اتحادهما ، وعددها كما قلنا ٤٨ أو ٢٤ زوجا نصفها من الأب والنصف الآخر من الأم . أى انها ٢٤ نوعا فيما يتعلق بالحجم والشكل ، نصف كل زوج منها من أحد الوالدين . وتشمل كل من هذه القضبان الدقيقة سلسلة من الخرز مشتبكة حلقاتها . يطلق على كل من هذه الحلقات الاسم الحديث (genes) وقد وضع لها المجمع اللغوى الملكى (المصرى) كلمة عامل الوراثة ، وهو الاسم القديم (factor) الذى أطلقه عليها العالم « مندل » وهذه العوامل هى وحدها التى تحمل الأوصاف من الوالدين الى الذرية ، ولكل عامل منها وظيفة فى تكوين الفرد .

والبويضة الملقحة خلية حية . وهي الخلية الاولى . فاذا ما بدأت الخلية في النمو انقسمت الى نصفين، ثم انقسم كل نصف الى نصفين آخرين ، وهكذا دواليك ، ثم تتخصص كل من هذه الأقسام لتكوين أجزاء الجسم المختلفة ، وتبقى كل خلية منها محتفظة بعدد الأصبعيات (الـ ٢٤ زوجا) ونوعها كما كانت الخلية الاولى

ومنعا لكل إبهام نقول ان الرجل يولد مزوداً بأنسجة [١] خاصة تتولد منها الحيوانات المنوية منذ البلوغ فصاعداً . كذلك المرأة تولد مزودة بأنسجة تنمو فيها البويضات التي سبقت الاشارة اليها . والفرق بين الحيوانات المنوية والبويضات ان الأولى لا حد لعددها [٢] ، وان الثانية محدودة العدد . ونكرر القول إن هذه توجد منذ أن يتكون الجنين ، فلا زيادة فيها ولا نقصان بعد ذلك . وكل ما يحدث عند البلوغ هو أن تنضج الحيوانات المنوية وتكبر البويضات حجماً . من ذلك يتبين أن عوامل الوراثة تخلق بتكوين الجنين ، ولا يتغير ما تحمله في جنباتها من الصفات البدنية والعقلية ، بعد ذلك الحين . وقد أكد ذلك أحد العلماء بقوله : هب ان مثالا صنع لك تمثالا من المرمر ، هو صورة منك طبق الاصل ، وقد أخفى في جوفه عدة تماثيل صغيرة ، هي أيضا صورة منك طبق الاصل . وهبك بعد عشرين عاما أو أكثر أصلحت التمثال فقصرت من أنفه ، وجملت من ملامحه ، وضيقت من فمه ، أو هبك على النقيض من ذلك ، شوهت وجهه أو عضلاته ، فهل يؤثر ذلك في التماثيل الصغيرة الدقيقة في جوفه

وعلى هذا الأساس إذا تزوج جاهل وأنجب طفلا ، ثم شرع في نيل أكبر قسط من الثقافة والتربية ، وأتيح له بأعجوبة أن يفوز بدرجة جامعية ، ثم أنجب طفلا بعد ذلك ، فان هذا الطفل لن يكون من الناحية الوراثية أصلح من شقيقه الاكبر . ولو كان ذلك ممكناً لاتبع الواحد قبل زواجه دراسة ليلية أو بالمراسلة تحسيناً لنسله . كذلك إذا كانت المرأة جميلة في طفولتها ، ثم حدث لها حادث شوه ملامحها ، فان ذلك لن يكون له أثر في الوراثة . والرجل الذي يستطيع أن ينجب ولداً في سن التسعين من عمره ، لن يكون ابنه أقل شأناً وراثياً من ابن آخر ولد له وهو شاب في سن العشرين . وطالما كان رحم المرأة سليما من المرض ، فولدها من ناحية الوراثة وهي في سن الخمسين لا يقل شأناً عمن أنجبت في سن الثامنة عشرة . أو بعبارة موجزة في اللحظة التي تتلقح فيها البيضة ، يكتب للمولود جميع الصفات والخواص الوراثية البدنية والعقلية منها ، من عيون خضر مثلا وشعر أسود ، وأصابع ستة ، وعمى لوني ، وقابلية للبول السكري ، واتجاه الى التعمير طويلا الخ . وعلى ذكر الصفة الأخيرة نقول إن ما يقوله العامة من أن العمر « مقدر » قبل الولادة على كثير من الصحة من الناحية « الوراثية » . فالانسان كالسيارة يخرجها المصنع فيقدر لطرازها

---

(١) Spermatogenous Cells (٢) ولا صحة لما يزعمه الكثيرون من أن هذه الحيوانات ينضب معينها بسبب الافراط فيها ، ما لم يبلغ الافراط درجة يضعف فيه الجسم ضعفاً عاما .

عمراً معلوماً ، بشرط استعمالها استعمالا معتدلا ، ولا يدخل فى ذلك حوادث الاصطدام أو الحريق وغيرهما . . وعوامل الوراثة كذلك تقرر سلفاً عمر الانسان بشرط ألا يصاب الا بما يصاب به الشخص العادى من أمراض وحوادث بسيطة

٣ – ما يورث وما لا يورث

ينبغى أن نعلم قبل كل شىء أن التشابه التام بين فردين مستحيل ، ولا يستثنى من ذلك إلا التوائم المتماثلة ، أى التى تولد من بيضة واحدة ، أما غير المتشابهة أى التى تولد معاً ولكن من بويضات مختلفة ، فان حكمها حكم الأخوة العاديين . ومع التشابه الذى يكاد يكون تاما بين التوائم المتماثلة (فى لون الشعر والعينين والقامة والوزن وبصمة الأصابع واتجاه خصل الشعر والذكاء الخ . .) ، فان هذا التشابه لا يمكن أن يقال انه تام ، ولا غرابة فى ذلك فالتشابه بين النصف اليمين والنصف الشمال للشخص الواحد ، ليس تاماً كذلك .. وسبب اختلاف الاخوة عن أشقائهم والأولاد عن والديهم يرجع إلى المصادفة التى تجمع الأصبعيات أزواجا كما سبقت الاشارة ، إذ أن هذه الاصبعيات هى التى تحمل عوامل الوراثة

ولا شك أن المرأة الحامل اذا مرضت أو ساءت تغذيتها ، أو أصابتها صدمة وجدانية ، فان هذا يؤثر فى الجنين ، غير أن هذا الأثر بيئى لا وراثى . كذلك يكون الحال اذا أدمنت المرأة الخمر أو التدخين فان الكحول والنيكوتين اذا بلغا حداً عظيما أضرا بالجنين ضرراً بليغاً ، ولكن هذا لا دخل له بالوراثة على الاطلاق . أما اذا كانت الحامل تتعاطى المخدرات كالمورفين والأفيون الى حد تشبعت به أنسجتها ، فان الولد يشب مدمناً . وكذلك لا يعد الادمان فى هذه الحالة وراثياً . ومثل هذه الأحوال كمثل جراثيم التيفوئيد والدفتريا والكوليرا والجدرى والانفلونزا والحمى القرمزية والحمرة وذات الرئة والملاريا ومرض النوم – كل هذه قد تصل الى الجنين من الأم وفى كثير من الأحيان يموت الجنين . ولكن الوراثة هنا لا ناقة فى الموضوع لها ولا جمل

وهناك خواص وراثية بحتة (أى تحملها أصبعيات الرجل والمرأة عند التلقيح) كألوان العينين والشعر (ونوع الشعر) والبشرة ، وشكل الأنف والعين وغيرها من أعضاء الجسم والملامح ، والذكاء الخ .. ولا يتسع المقام لذكر القوانين الوراثية التى تخضع لها هذه الخواص . فليس الصلع مثلا مرضاً الا فى النادر ولكنه فى أغلب الاحوال وراثى ، وفى هذه الحالة لا ينتقل الصلع التام الا الى الذكور ، على أن المرأة تحمل هذه الخاصة وتورثها لأبنائها (الذكور) . ومثل الصلع النزيف الخبيث الذى يعرف باسم (hemophilia) فانه خاص بالذكور وتحمله الاناث وتورثه للذكور من ذريتها دون الاناث . وكذلك الحال فى العمى اللونى

أما القامة فوراثية وان كانت قليلة التأثر بالبيئة ، وقد ذكر « بواس » – وهو من أشهر

علماء الانثروبولوجيا المعاصرين ـ أن مهاجرى اليابانيين واليهود في أميركا زاد متوسط قامات أبنائهم عنهم بمقدار خمسة سنتيمترات . واذا كان كل من الزوج والزوجة طويل القامة أو قصيرها يشب المولود كذلك ، على أنه يرجح أن ينجب زوجان قصيرا القامة أطفالا طوال القامة عن أن ينجب زوجان طويلا القامة أطفالا قصار القامة . وذلك لأن قصير القامة علاوة على وجود عامل وراثى قصير فيه ، فانه يحمل كذلك عاملا وراثياً خفياً طويلا . وقد حاولت « كاترين دى مديتشى » أن تربى ذرية من الأقزام فزوجت الكثيرين منهم ولكن التجربة لم تنجح لأنهم لم يخلفوا نسلا . كما أن « فريدريك الأكبر » أراد أن يربى نسلا من الجنود الجبابرة فمات قبل ظهور النتيجة . على أن الوزن أكثر تأثراً بالبيئة من الطول ، ولكنه وراثى كذلك . أما شكل الجمجمة فكالطول والوزن يتوقف على العوامل الوراثية ، ولكن العلماء متفقون على أنه خاضع للبيئة كذلك ، أى أن الانسان يتغير شكل رأسه كثيراً أو قليلا تبعاً للبيئة . وكثيراً ما يكون شكل الرأس للمولود خاضعاً لشكل الحوض فى الأم . أما العيوب الجسمانية كما فى الآذان والأسنان والسلسلة الفقرية والأصابع الزائدة فانها وراثية تنتقل من جيل الى جيل ولا سبيل الى إزالتها

ولا يورث الادمان فى تعاطى المسكرات أو غيرها من العادات السيئة كما يزعم الكثيرون ، غير أن هذا لا يمنع أن يكتسبها الفرد عن والديه بفعل البيئة . وكذلك لا يتأثر المولود وراثياً لمجرد كونه ابن زنا أو لغير أبيه إذ أن الطبيعة لا يهمها عقود الزواج . ولا دخل للوراثة فى وجود الجنين فى رحم امرأة ، إذ أن هذا الرحم جهاز للتفريخ ، كما أنه لا صحة للزعم بأن الجنين يتأثر بدم أمه ، إذ أنه لا يوجد اتصال مباشر بين دم الأم ودم الجنين ، ولا توجد خيوط عصبية توصل بينهما . فبين الحامل والحمل حائط يصل اليه الدم من بعض الأوعية المفتوحة ، بيد أن دم الأم لا يصل الى الطفل بتاتاً ، ولا يوجد بينهما نقطة دم مشتركة واحدة . وكل ما يحدث أن المواد الغذائية فى دم الأم (وعلى الأخص الدهن والسكر والبروتين) تتسرب كما يتسرب ماء الرشح وتضغط على ذلك الحائط ومنه تصل الى الجنين بوساطة حبل الوريد . ومن هذا يبطل الزعم القائل إن هناك فرقاً بين الطفل المتبنى والطفل الأصيل عند الأم ، سوى ما يجسمه الوهم والخيال . أما ما يقال عن علامات « الوحم » وأثرها فى الطفل وكون المرأة الحامل التى تطيل النظر فى الصور الجميلة والاستماع الى الألحان العذبة تحسن نسلها . . . كل ذلك خرافات وأباطيل

وهناك خرافة الزهرى المشهورة . إن جرثومة الزهرى لا تورث ولم تورث فى الماضى ولن تورث فى المستقبل . وما يقال عن « ميكروب » الزهري يقال عن ميكروب السيلان وكل مرض آخر معروف . فقول الناس إن الزهرى فى ذلك الشخص وراثى خطأ أو تساهل فى التعبير إذ كل ما يحدث أن المرأة قد تكون مصابة بعدوى الزهرى فينتقل الى الجنين قبل ولادته أو بعدها

ومهما كان مرض الزهرى مستفحلا فى الرجل فانه لا يمكن بتاتاً أن ينتقل منه مباشرة بوساطة الحيوان المنوى عند التلقيح . فالحيوان المنوى لا يمكن أن يؤدى وظيفته وهو يحمل جرثومة الزهرى أو أية جرثومة أخرى لمرض معروف . على أنه يمكن أن يكون السائل المنوى ملوثاً ، فيجد الميكروب طريقه الى الجنين بعد تكوينه ، وفى هذه الحالة يكون المرض مكتسباً لا موروثاً ويولد الطفل أعمى أو أطرش أو بغيرهما من العاهات . أما اذا انتقل المرض للجنين قبل الولادة بقليل أو أثنائها مثلا فلا يظهر المرض الا متأخراً . يفهم من هذا أن هناك فرقا كبيراً بين المرض الموروث (الذى ينتقل بوساطة عوامل الوراثة Genes من البويضة أو الحيوان المنوى) والمكتسب أثناء الحمل أو وقت الولادة (Congenital) . والفرق بين الحالتين أن فى حالة المرض المكتسب اذا عولج الطفل وشفى (كالزهرى وهو قابل للشفاء الآن) فانه لا ينقل المرض الى ذريته . أما الخواص الوراثية (كالنزيف والصلع والعيوب الجسمانية والعمى اللونى) فانه يكاد يكون من المؤكد أن تنتقل منه الى ذريته جيلا بعد جيل . فالكساح مثلا يشاهد منتشراً فى أسر دون غيرها ، ولكنه ليس وراثياً إذ يرجع للفقر وما ينتج عنه من سوء التغذية . ومعنى سوء التغذية نقص أو عدم توازن فى المواد الغذائية وقد يتعرض لها الأغنياء الذين يجهلون المبادىء الأولية فى التغذية

أما الجنون وضعف العقل فقد يكون بعضه وراثيا وبعضه مكتسبا بالمرض والحوادث ولا يتسع المقام هنا للتفصيل . وحسبنا أن نشير هنا الى أثر الغدد . فقد يتسبب عن نقص فى افراز الغدة الدرقية البله المعروف باسم (cretinism) عند الأطفال و (myxedema) عند الكبار ، كما أن أحط نوع من ضعف العقل قد يتسبب عن أمراض الرحم أثناء وجود الجنين فيه

وهنا نأتى الى الامراض التى يقال عنها وراثية . ومن المعلوم أن أشد الامراض فتكا بالانسان مرتبة حسب شدتها هى، أمراض القلب ، السرطان ، ذات الرئة ، أمراض الكلى (نفريتس) . نزيف المخ ، السل ، الانفلونزا ، البول السكرى ، الاعور . . فمن هذه وما يليها من الامراض لا يحتمل أن يورث إلا البول السكرى ونوع من أمراض القلب . أما السل مثلا فلا يورث مباشرة، وانما قد يضعف النسل فى ناحية من النواحى كجهاز التنفس الذى قد يجعل صاحبه عرضة لميكروب السل . ويعتقد بعض الثقات أن للسرطان أثراً وراثياً ، ولكن هذا الاعتقاد لم يؤيده الواقع بعد ، تأييداً قاطعاً

وقد أطلق بعضهم على العوامل الوراثية التى تحمل صفات غير مرغوب فيها « العوامل السوداء » . وذلك لأن المولود قد يرث من والده أو جده أو جد جده أو ما هو أعلى من ذلك عامل الصلع ، أو سواد البشرة ، أو القابلية لمرض القلب ، أو ضعف العقل ، أو الجنون ، أو الظهر المحدودب ، أو العمى اللونى ، أو العيون المنغولية ، أو الأصابع الزائدة . كل هذه يطلق عليها بحق اسم العوامل السوداء . وكلما بعد الجد عن ذريته ، قلّ ظهور احتمال العامل الأسود

(أو الأبيض) فى هذه الذرية ، ومن ذلك يتضح لنا فساد ما يفاخر به بعض الناس من أنهم ينتمون لعظيم ، أو دم ملكي « أزرق » يرجع عهده الى شرلمان أو رمسيس الثانى ، أو نابليون بونابارت ، إذ أنه علاوة على بعد ذلك الجد بعداً لا يحتمل أن يورث به ذريته إلا مرة فى كل مئات المرات ـ علاوة على ذلك فمن يدرى أن ذلك العامل الوراثى الذى ينتقل الى الوارث من ذلك الجد النبيل لا يكون عاملا أسود ؟ ألم يكن جد وليم الفاتح ولداً غير شرعى ضعيف العقل غير مرغوب فيه ؟ وهل يولد الناس متساوين كما جاء فى وثيقة الاستقلال الاميركية ؟

٤ ـ لم يكون المولود ذكراً أو أنثى ؟

الفرق يرجع الى اختلاف زوج واحد لا غير من أزواج الأصبعيات الأربع والعشرين التى يتكون منها الجنين عند تلقيح البيضة . والمسئول عن هذا الفرق الرجل لا المرأة . وذلك أن بويضة الأنثى عند تأهبها للتلقيح يكون لديها ٢٤ من الأصبعيات كاملة العدد . وذلك بغير استثناء سواء أكان المولود ذكراً أم أنثى . أما الحيوان المنوى للذكر ، فاما أن يكون من النوع الذى يحمل قبيل التلقيح ٢٤ من هذه الأصبعيات أو من ذاك الذى يحمل ٢٣ فقط . فاذا كان الأول اتحدت هذه الأصبعيات أزواجاً نصف كل زوج من الرجل والنصف الآخر من المرأة وكان الجنين أنثى . أما فى الحالة الثانية فيبقى الزوج الأخير ناقصاً (١) ولذا يكون الجنين ذكراً . وقد نشط علماء التوالد أخيراً فى محاولة التحكم فى هذه الحيوانات المنوية ، وعزل ما يحمل منها ٢٤ زوجاً من الأصبعيات (الكروموزوم) ، من التى تحمل أحد هذه الأزواج ناقصاً ، حتى يتوصلوا الى نتيجة تستطيع الأسرة بها أن توصى على ذكر أو أنثى بحسب الطلب . وتدل الدلائل على أنهم شديدو التفاؤل بالنجاح ،حتى انهم يقولون إنه يخشى أن تكون أكثر المواليد من الذكور فى بادىء الأمر ، وتقل الاناث ، ولكن سرعان ما تتعادل النسبة وتسير الأمور سيراً طبيعياً

٥ ـ لم تعمر المرأة أكثر من الرجل ؟

نجد الجواب فى مسألة الزوج الناقص من الأصبعيات ، المشار اليها فى الفقرة السابقة . وذلك أن بعض العوامل الوراثية السوداء تنتقل من الوالدين الى الذكر عن طريق هذا الزوج الناقص . فاذا كان المولود أنثى فقلما يحدث أن يتكون زوج من الأصبعيات يحمل العامل الأسود فى كل من شقيه ، لذلك لا تصاب الأنثى ، إذ أن الشق الآخر يكون بمثابة العجلة الاحتياطية للسيارة ، فيما اذا أصيبت إحدى العجلات بعطب . أما الذكر فان هذا الزوج الناقص لا توجد به إلا شقة

(١) يعبرون عن هذا الزوج الاخير بـ (س س) فى حالة ما اذا كان المولود أنثى و (س ص) فى حالة ما اذا كان المولود ذكراً وص رمز الى أن الأصبعيات تنقصها واحدة ، أو توجد ولكنها صغيرة جداً فلا يمكن أن تؤدى وظيفتها

واحدة ، فاذا كانت مصابة بعامل وراثي أسود ، فلا توجد هناك الشقة السليمة الاحتياطية التي يمكن أن تؤدي وظيفتها . مثال ذلك نزيف الدم الذي لا يتجمد المسمى (hemophilia) فان المرأة لا ترثه الا اذا كان عامله الأسود في كل من الأب والأم وهذا محتمل نظرياً ، ولكن لا تعرف حالة من هذا القبيل ، لأن الجنين في هذه الحالة يموت قبل ولادته . ومن الغريب أن هذا المرض سبب مصادفة الثورة الروسية ، وذلك لأن إصابة نجل قيصر روسيا به هو الذي حدا بالقيصر والقيصرة الساذجين أن يتصلا بالراهب الداهية راسبوتين ، وما نتج عنه من تطرق الفساد في الأسرة المالكة وما تبعه من قيام الثورة . وترجع المسألة الى فكتوريا ملكة الانجليز . فقد كانت تحمل هذا العامل الأسود ، فلم تورثه لابنها ادوارد ولا ذريته ، ولكنها ورثته لحفيدتيها ، ملكة اسبانيا ، وقيصرة روسيا . فورثت ملكة اسبانيا الداء لابنها فمات في حادثة سيارة سنة ١٩٣٨ في ميامي (فلوريدا) بأميركا بسبب نزيف لا يجمد ، وورثت القيصرة المرض أحد أبنائها كما ذكرنا

ونختم مقالنا بالحقائق الآتية عن المواليد الذكور والاناث ونصيب كل منهما في الحياة :

١ ـ حمل الذكور يزيد عن حمل الاناث بمقدار اختلف العلماء في تقديره (من ٢٠ الى ٥٠ ./.) والسبب كما يستنتج أن عدد الحيوانات المنوية التي تحمل ٢٣ من الاصبعيات (كرموزوم) بدلا من ٢٤ أكثر احتمالا لتلقيح البويضة من تلك التي تحمل العدد كاملا (٢٤)

٢ ـ يبلغ عدد الأجنة التي تولد ميتة ٢٥ ./. من مجموع الأجنة الحية منها والميتة

٣ ـ يزيد ما يموت من الأجنة الذكور على الاناث بمقدار ٥٠ ./.

٤ ـ كثيراً ما يقال إن امرأة حامل ، وبعد أسابيع يكذب النبأ . ويعتقد علماء التوالد أن في كثير من هذه الحالات يكون الحمل قد تم فعلا ، ولكن البويضة ماتت . ولعل هذه حيلة تلجأ اليها الطبيعة للابقاء على الاصلح فقط

٥ ـ تبلغ الأجنة التي تموت في الشهر الثالث نسبة ٤ للذكور و١ للاناث ، وفي الشهر الرابع ٢:١ ، وفي الخامس ٤٥:١٠٠ ، ويولد من الذكور ١٠٥ مقابل كل ١٠٠ أنثى

٦ ـ يزيد عدد الذكور بين الأطفال الذين يموتون في خلال السنة الأولى من أعمارهم عن الاناث بمقدار ٣٠ ./.

٧ ـ في سن المراهقة يتساوى عدد الذكور والاناث

٨ ـ في سن النضوج يزيد النساء على الرجال بمقدار ١٥ ./.

٩ ـ فوق الستين يكون الاحياء من النساء ضعف الرجال . ولا صحة لما يقال من أن الحروب والتعرض للاخطار هي وحدها سبب زيادة النساء على الرجال . إذ أن جميع الدلائل تتجه الى أن المرأة أقوى بنية من الرجل ولعل الطبيعة أرادتها أن تكون كذلك للحمل وتربية النسل

أمير بقطر

الفراعنة وبريطانيا

بحث تاريخي طبي

بقلم الاستاذ حسن كمال

وكيل تفتيش صحة القاهرة

صلة الفراعنة بأوربا فى العهد التاريخى وقبله — اتحاد المصريين والبريطانيين قبل العهد التاريخى — العنصر المصرى القديم والعنصر البريطانى — توافق العادات والعقائد والميزات الجسمية بين المصريين والبريطانيين القدماء — تأثر الجزر البريطانية بالحضارة الفرعونية

للحضارة الفرعونية عصران : عصر التكوين وهو خارج عن موضوع اليوم ، وعصر الانتشار وهو الذى توقف فيه عرى الاتصال بين مصر والامم الاخرى • ومنها غرب أوربا موضوع مقالنا هذا • والى الفينيقيين يرجع الفضل فى نشر حضارة الفراعنة وتهذيبها بحضارة بابل

وفينيقيا مشتق من كلمة (Poivos) ومعناها أحمر اطلقه الرومان على الفينيقيين بسبب لون جلدهم • وهم قوم رجل من اصل فارسى استوطنوا الشاطىء الشرقى للبحر الابيض المتوسط وبرعوا فى فنى البحر والتجارة بعد ان تعلموا الفلك من المصريين • وقد اسسوا لتجارتهم مدنا عظيمة مثل صيدا وبيروت وعكا وسماروا

بدأ الفينيقيون عملهم منذ ٣٠٠٠ سنة ق• م• وأخذوا عن المصريين العلوم والفنون والصناعة مثل صناعة المعادن ونسج الكتان والزجاج والكتابة • وحوروا الكتابة المصرية القديمة الى ما يطابق لغتهم السامية

وظهر مع الفينيقيين قوم آخرون فى القرن الثلاثين قبل الميلاد • موطنهم جزيرة كريت اطلق عليهم قدماء المصريين اسم (خفتيو) أو (كفتيو) اتصلوا بالمصريين منذ عهد بناء الاهرام وتعلموا منهم الصناعات المعدنية والاوانى الخزفية • وكان ازهى عهدهم ايام ملوك

(كنوسوس) ذلك العهد الذى كان مطبوعا بالطابع المصرى الواضح ، وأهم ما أخذه أهل كريت عن مصر صناعة النحاس والكتابة • وكان الكريتيون اسلاف اليونان فى الحضارة التى نشأت من غزو برابرة اليونان لكريت واعقبتها الحضارة اليونانية

هذه اول خطوة فى العهد التاريخى (أى التالى لعهد مينا) لانتقال الحضارة المصرية الى جنوب أوربا • وهى كما يرى القارىء نتيجة التجارة والحروب

وفى القرن السادس قبل الميلاد بدأ النفوذ اليونانى يغزو مصر ، ويأخذ عنها الحضارة والعلوم وينقلها الى تساليا وايطاليا وصقلية وبلاد الغول (فرنسا) • وقد وافق ذلك ظهور نفوذ الفينيقيين الذين اسسوا مدينة (قرطاجنة) ونقلوا المدنية والمصرية والعلوم المصرية الى تونس فجبل طارق • وهناك نافسوا (روما) فأخذت منهم روما علوم وحضارة مصر • وفى أواخر القرن الاول قبل الميلاد انتزعت (روما) السلطان من (قرطاجنة) واسست أكبر امبراطورية عرفها التاريخ ضمت بريطانيا ومصر معا

ولم تتأثر أوربا عامة وبريطانيا خاصة بالحضارة المصرية من حيث العلوم والآداب والاجتماعيات فقط بل تعدت ذلك الى اللغة أيضا • قال الاستاذ فيرمان (Fairman) فى محاضرة حديثة بالجامعة الامريكية بالقاهرة ان بعض الكلمات المصرية القديمة ما تزال مستعملة فى اللغة الانكليزية مثل ليبيا (Libya) وواحة (Oasis) وابنوس (Ebony) واسد (Lion) والنطرون (Natron) والبازلت (Basalt) • وان هناك الفاظا فرعونية ادخلت حديثا فى اللغة الانكليزية مثل (Adobe) التى تعنى طوبة ادخلها الامريكيون فى اللغة الانكليزية بعدما أخذوها عن اسبانيى امريكا الذين أخذوها عن مواطنى اسبانيا الذين أخذوها عن العرب (طوبة) الذين أخذوها عن القبط (طوبى) • وهناك تعابير انكليزية مثل (Splitting Headache) ـ أى ألم الرأس المفلق ـ وهى فى الحقيقة ترجمة حرفية لتعابير مماثلة لها فى المصرية القديمة • ويقال ان بعض الاسماء مثل (Mary) مارى ـ أصلها (مريت) باللغة المصرية القديمة أى (المحبوبة) ، و (Humphrey) وهو اسم علم دارج بالانكليزية اصله مصرى قديم ومعناه (خادم الشمس) • اما لفظ (Egypt) فأصله بالهيرغليفية (حاكبتاح) اسم منف القديم

وبلغ من تأثر الرومان بالديانة المصرية ان اقام الامبراطور (كاركلا) معبدا للمعبود المصرى (سرابيس) وهو عبارة عن امتزاج المعبودين (ازوريس) و (ابيس) • واقام الامبراطور (هدريان) مسلة فى (روما) نقشها بالخط الهيرغليفى • وما أكثر تماثيل ازيس التى كان يجدها السائح على ضفاف نهرى (الرين) و (الدانوب) لا على انها مصرية ، بل على انها من مواطنى تلك البلاد • قال بعض الاثريين ان أهم ما تعلمه الرومان من مصر هو نظام الحكم والمعاملات

الصلة قبل العهد التاريخي

كل هذه حقائق تاريخية حديثة لا جدال فيها • انما الغريب ان المصريين لم يهتموا كثيرا بفضل الحضارة المصرية قبل العهد التاريخي على الامم الغربية الراقية والبعيدة عن القطر المصري • ولعل السبب الاكبر لذلك هو وفرة ما خلفه لنا الفراعنة من آثار استحوذت على اذهان الباحثين ، فلم يكن لديهم متسع من الوقت للبحث عن كيفية تسرب المدنية الى بلاد العالم النائية ، ولا كيفية تأثر تلك البلاد البعيدة بالحضارة النيلية • وكان أول ما لفت الانظار تأثير المدنية المصرية في آسيا ، ونجم عن ذلك أن استكملت معلوماتنا عن مصر جزءا كبيرا مما نقصته معلوماتنا عن الامم الاسيوية المجاورة • والغريب ان المعترف به الى عهد قريب هو انه طغى على اوربا قوم من آسيا قبل العهد التاريخي جلبوا معهم حضارتهم ومعلوماتهم ، لذلك لم يفكر أحد بمجهود مصر ولا بفضل مصر على تلك القارة الغربية التي تتزعم الآن مدنية عصرنا الحاضر • والمعروف انه في أواخر العصر الحجري لما ظهر في اوربا هؤلاء الاسيويون العريضو الجماجم ذو السجايا الجسمانية الخاصة والمختلفون تمام الاختلاف عن الاوربيين المعاصرين لهم حينذاك — لوحظ ان هؤلاء الاسيويين انتشروا في جبال (الالب) وفي الوديان والسهول على حد سواء • على الشاطىء الجنوبي الدافىء وعلى الشاطىء الشمالي الغربي البارد حيث تقع الجزر البريطانية (١) • وقد وجدت آثار هؤلاء الاقوام بالجزر البريطانية نفسها كما وجدت في جزر البحر الابيض المتوسط وعلى شاطىء افريقيا الشمالية من مصر الى مراكش وبجزر الخالدات • ان مثل هذا الانتشار الشاسع لهؤلاء الاقوام الاسيويين لا تقصره البيئة ، لان الجهات المتباينة التي انتشروا فيها تختلف كثيرا من حيث الحرارة والبرودة والرطوبة والجفاف والعلو والانخفاض

اما تأثير المدنية المصرية على قارة اوربا فحصل قبل الغزو الاسيوي ، لان الطابع الاسيوي لما دخل اوربا كان غريبا متباينا • ودلنا البحث الطبي الحديث لجماجم وعظام الآدميين الاقدمين ان ساكني القطر المصري قبل العهد التاريخي وقبل الغزو الاسيوي المعروفين باسم (Proto-Egyptians) كانوا من نفس العنصر الذي استوطن شمال افريقا وجنوب اوربا في العصر الحجري • وهذه الاستنتاجات أتت من بحوث علمية هامة قام بها الاستاذ سرجي (Seégi) والاستاذ اليوت سميث • ولما كانت مصر هي الدولة الوحيدة التي قامت بنهضتها وخلصت نفسها من المدنية الحجرية فقد تزعمت تلك المدنية التي أنشأتها بأيديها وبمجهودها بابتدائها بالعهد النحاسي وما يليه من عهود كالعهد البرنزي

وبالبحث في عادات هؤلاء الاقوام وعقائدهم — وهم السابقون للغزو الاسيوي لاوربا — اتضح انهم بدأوا رحلتهم من القطر المصري غربا • وقد امكن الاهتداء الى ظهور عادات جديدة مختلفة تماما بين اهالي المناطق المذكورة • وذلك على الآثار الحجرية مما يثبت

(١) The Ancient Egyptians, by Elliott Smith, Chapter II.

بدون شك وجود عامل مشترك وقتئذ بين جميع هذه الشعوب • من هنا علمنا ان المدنية المصرية لما بلغت اوربا فى الازمنة الحجرية تأثرت كثيرا بالطابع الاوربى بعدئذ • لكن مصر بقيت حافظة لزعامتها المدنية • وكلما تقدمت مصر خطوة فى الحضارة انتشرت تلك الخطوات الى ما جاورها من البلدان حتى القارة الاوربية • وهكذا امكننا ان نلخص تأثير الحضارة الفرعونية فى اوربا بانها ترجع اولا الى انتشار العنصر المصرى فيها قبل العنصر الاسيوى وذلك فى العهد الحجرى ، وثانيا الى سرعة تأثر العنصر المصرى الجديد فى البلدان الاوربية بالتقدم العلمى والحضارة التى اسسها اجدادنا بوطنهم الاصلى وهو مصر • وهذا أمر مشاهد فى كل الظروف المماثلة • فان افراد العائلة اذا انتشروا فى جهات متباينة وكانت رئاسة هذه العائلة فى تقدم ورقى فاننا نلاحظ ان سائر افرع هذه العائلة يتأثرون بسرعة بهذا التقدم متبعين خطوات رؤسائهم نحو الرقى

ولعل اقدم العادات الدالة على أصل الانسان طريقة دفنه • وقد دلتنا المباحث على ان طرق الدفن فى مصر قبل العهد التاريخى هى هى بنفسها التى كانت متبعة فى اوربا فى أواخر العصر الحجرى • ولما كانت الاخيرة مأخوذة حتما من الاولى فان هذا دليل على ان سكان اوربا وقتئذ كانوا مصريين • وتتلخص هذه العادة فى دفن الموتى على الجانب الايسر مثنية الافخاذ والارجل • لكن فى عصر الاسرتين الرابعة والسادسة (عهد الاهرام) بدأ المصريون يدفنون موتاهم مفرودى الاعضاء • واكتشف الاستاذ اورزى (Orsi) ان هذا التغيير فى الدفن ظهر ايضا بجنوب اوربا وصقلية حوالى ٢٨٠٠ ق • م• وهذا مثال ناطق لطريقة نشر العقائد والعادات المصرية فى أوربا مما يدل على علاقة قديمة متينة تجارية ودموية بين سكان مصر واوربا وقتئذ • لان المعروف ان العادات الدينية كدفن الموتى من أشد العادات مراعاة واصعبها تغييرا • ومنه يستدل على شدة نفوذ المصريين وقتئذ ، ذلك النفوذ الذى مكنهم من السيطرة على عقائد اهالى اوربا فى ذلك الحين • وجعلهم يتكيفون بعقائد اجدادنا الجديدة • وما يقال عن العصر الحجرى يقال عن العصر المعدنى ذلك العصر الذى انتقل بمدنيته وعاداته وعقائده من مصر الى اوربا كى ينفذ بنفس الطرق التى نفذ بها فى الوطن الاصلى وهو مصر

ولم يقتصر الامر على هذا بل تعداه الى سبب الغزو الاسيوى لاوربا ، ويرجع الفضل فى هذا الغزو الى مصر لان الاسيويين تغلبوا على اوربا بالآلات المعدنية التى ابتكرها المصريون • فالمدنية المصرية انتقلت الى آسيا حيث تعلم الاسيويون العلوم المصرية ثم حاربوا بها اوربا ، فتكون حينئذ الحضارة المصرية قد غزت اوربا بطريقين : طريق مباشر من الجنوب ، وطريق غير مباشر (عن طريق آسيا) من الشرق • وهكذا انفردت مصر بانها صاحبة اليد الطولى على مدنية اوربا • ولم تقتصر اهمية مصر على ابتكار الحضارة ونقلها الى اوربا بل على المحافظة على طريق ابتكار هذه الحضارة وتعليمها للغير • ولاتزال

الآثار المصرية ولا يزال الخط المصرى القديم شاهدين على مجهود مصر منذ آلاف السنين العديدة فى العلوم والفنون بمصر واوربا

ومما ساعد على ذلك كثيرا مركز مصر الجغرافى الممتاز بين اوربا وآسيا وافريقا ، وكذا جفاف طقس القطر المصرى الذى حفظ آثار اجدادنا آلاف السنين وحفظ جثثهم من التعفن فكان سببا فى تحفزهم لابتكار طرق التحنيط وايجاد فكرة الخلود للاموات والبعث بعد الوفاة . كل هذا ساعد على تكبير القبور وجعلها كافية لاحتواء الموميا وادواتها المنزلية والغذائية الخ . فكان سببا لحفظ الجزء الاكبر من العاديات الفرعونية بل جثث الفراعنة انفسهم . لقد خلف لنا اجدادنا كنوزا علمية كثيرة اهمها نقوشهم وتماثيلهم التى اظهرت لنا ميزات المصريين فى تلك العصور وميزات الاجانب الذين تغلب عليهم اجدادنا ، فاستطعنا ان نستنتج الكثير من علاقة العنصر المصرى بالبلدان المجاورة ، كما أمكننا الرجوع الى العظام التى وجدت بمقابر الفراعنة ان نصل الى نتائج تاريخية قيمة عن علاقة المصريين بغيرهم

وبحكم موقع مصر بين ثلاث قارات ، وبحكم كونها مبعث المدنية والحضارة ومنشأ العلم والفن ، وبحكم احاطتها بالصحارى والبحار ، كانت بعيدة عن التأثر بالبلاد المجاورة كما جعلها تهيمن وتشرف على مدنية وحضارة البلاد الاخرى الخارجية كغرب اوربا . هذه العوامل هى التى جعلت (دنون) Denon يعتقد عام ١٧١٠ م . ان العنصر الاوربى من أصل مصرى

هذا باختصار وصف لطريقة انتشار مدنيتنا المصرية فى العصور التى قبل التاريخ وبعده الى القارة الاوربية والجزر البريطانية

وصف المصريين قبل العهد التاريخى

ان الباحث فى التاريخ الطبيعى للانواع البشرية يجد بالقطر المصرى كثيرا من المواد المفيدة الهامة . فحرارة الطقس وجفافه ورملية الارض حفظت جثث وعظام سكان القطر المصرى منذ ستة آلاف سنة . وهذه العوامل ايضا كانت سببا فى حفظ العظام والجلود والشعور والعضلات بل بعض اجزاء الاجسام الرخوة كالمخ والاعصاب وبلورات العين مما سهل لنا بحث جثث اجدادنا قبل العهد التاريخى

وقد امكن الدكتور اليوت سميث (كتابه فى أصل المصريين الاقدمين فصل ٤ ص ٤٨) ان يستنتج من امعاء ومعدة المصريين قبل العهد التاريخى بعض الاغذية التى أكلت قبل الوفاة بقليل . واستنتج بمعونة الدكتور فريتز نيتولتزكى ان غالبية هذه المواد من الشعير كما ان بعضها من الدخن (Millet) الذى انقرض الآن والمعروف باسم (ColonumPanicum) وهذا الدخن كثير الشبه بالدخن المزروع الآن بجزر الهند الشرقية . كما وجد ايضا حب العزيز (Cyperus esculentus) مما يدل على قدم هذا النبات بمصر . وقد عثر بالقرب

من هذه الجثث على سنانير لصيد السمك وهي اقدم الادوات المعدنية التي ابتكرها اجدادنا في العالم • كما عثر في الامعاء على عظام السمك المعروف بالبلطي (Tilapia Nilotica) واستدل من وجود عظام من ذوات الثديين بامعاء هؤلاء الاقوام على انهم كانوا من آكلي اللحوم والنبات معا وعلى انهم استأنسوا الضأن والماعز والابقار • ووجد ايضا بامعاء الاطفال بقايا الفيران مما يدل على ان هؤلاء القوم كانوا يعالجون اطفالهم بهذه الحيوانات وهي عقيدة انتشرت كثيرا حتى بلغت بلاد اوربا وما تزال موجودة بمديرية قنا •

وقد قسم العهد السابق لحكم الاسر الى حديث واوسط وقديم ، على النمط الذي قسم به العهد التاريخي واطلق اسم (Proto-Egyptians) على سكان مصر قبل حكم الاسر اي قبل العهد التاريخي • وترجع معلوماتنا عن اجسام مصريي ذلك الوقت الى الجثث التي عثر عليها الاستاذ (ريزنر) بنجع الدير التي تبعد ١٠٠ ميل شمال طيبة ، والدكتور (ماك ايفر) في العمرة بالقرب من العرابة المدفونة ، وايضا الجثث التي عثر عليها في النوبة • واتضح من بحث هذه الجثث انها كانت مدفونة بمقابر بيضاوية الشكل او مربعة يتراوح طولها بين ٨٠ سنتيمترا و٢١٠ سنتيمترات وعمقها بين ٨٠ و١٢٠ سنتيمترا واخذ اتجاه طول المدفن يأخذ تدريجا وصفا موازيا لمجرى النيل • اما الجثث فكانت تدفن على جانبها الايسر منثنية الذراعين والرجلين بحيث تكون اليدان بين الركبتين والوجه • وتوضع الرأس عادة متجهة نحو الجنوب بما يتفق مع سير النيل ، وتوضع حصيرة تحت الجثة وفوقها ، وتلف الجثة بقطعة من الكتان او جلد الماعز مما يدل على مهارة هؤلاء الاقدمين في نسج الانسجة الكتانية • واعتاد القوم ان يدفنوا وقتئذ مع موتاهم بعض الاواني الخزفية والحجرية والالواح الاردوازية والتماثيل العاجية والخرز وبعض الادوات الذهبية والنحاسية والمديات والاسلحة الحجرية ، ويبلغ طول هؤلاء القوم حوالي ١٦٥ سنتيمترا للرجال و١٥٠ سنتيمترا للنساء ، وكانوا نحيفي القوام قويي العضلات كما يستدل على ذلك من بروز العظام • وهذه الصفات عينها موجودة في سكان اوربا الذين عاصروا المصريين قبل العهد التاريخي

أما شعور اجدادنا السابقين للعهد التاريخي فكثيرة الشبه بشعور سكان جنوب اوربا الحاليين وسكان اسبانيا ، وذلك من حيث كونها شديدة السواد مسبلة عادة مجعدة احيانا لا شبه فيها لشعور الزنوج • واعتاد القوم وقتئذ ان يرسلوا شعر الذقن دون اللحية جميعها وهي عادة كانت متبعة بين سكان خليج بسكاي (١) • ولم نعثر للآن على الوشم أو ثقب حلمات الاذنين للبس الاقراط

قال الاستاذ (جسبي سرجي) في كتابه (Mediterranean Race) ان الشبه عظيم جدا بين سكان بريطانيا قبل العهد التاريخي وبين سكان البحر الابيض المتوسط ومصر والصومال • ومن رأيي انه لما كانت علاقة مصر بالصومال قديمة جدا كعلاقتها بسائر

(١) Prof. Westermarch : History of Human Marriage.

بلدان البحر الابيض المتوسط فان هذا الاستنتاج لا يمكن الا ان يعني ان العنصر المصري قبل العهد التاريخي كان منتشرا في العالم من الصومال الى بريطانيا العظمى

وتمتاز جماجم سكان كل هذه البلدان التى ترجع الى ما قبل العهد التاريخي بانها طويلة الحجور رفيعة ، بيضاوية الشكل ، قليلة البروز في أعلى العينين ، قصيرة الجبهة أملسة مع بروز واضح في مؤخر الجمجمة ، تجاويفها البصرية مستديرة ، وعظام الوجنتين مبسوطتان . اما الانف فمتوسط الحجم عريض نوعا . وتمتاز الذقن بانها مدببة والفك بانه صغير الحجم والوجه عموما بانه قصير بيضاوي الشكل . أما الاسنان فصغيرة . كل هذه الصفات وغيرها مما سبق ذكره وجد في سكان العهد السابق للتاريخ في القطر المصري وشبه جزيرة اسبانيا وفرنسا الغربية والجزر البريطانية ، مما يثبت وجود صلة دموية كبيرة بين هذه الشعوب قديما . ومن المؤكد ان هؤلاء الاقوام كانوا ذرية أم واحدة . قال الاستاذ اليوت سميث (ص ٦٧ من كتابه عن قدماء المصريين) : « اننا اذا أردنا ان نتتبع وطن هذه الام في شمال البحر الابيض المتوسط وجنوبه فان الابحاث التاريخية وعلم العاديات يتحدان معا في ان هذا الوطن هو ساحل افريقا الشمالى ـ وهذا الساحل كان مركزا في مصر اولا واخيرا »

المصريون والبريطانيون قبل العهد التاريخي

ورد بكتاب الاستاذ اليوت عن قدماء المصريين في الباب التاسع ما تعريبه : « ان الرأى الغالب الآن هو ان اقواما من ارمينيا غزوا اوربا عن طريق شمال وجنوب البحر الاسود واستوطنوا بها وانجبوا أهالي الالب والعنصر السلافي . وان هذا الغزو الكبير سبقته رحلات كثيرة غير مصحوبة بغزوات مماثلة . وهذا الغزو وهذه الرحلات كانت خاتمة العهد الحجري . ومن اهم ما ادخله هذا العنصر الارمني في اوربا عادة حرق الجثث بعد الوفاة ـ وهي عادة تختلف تماما عن آراء وعقائد سكان العهد الحجري الاوربي ، وهي في الوقت نفسه برهان قاطع على ادخال العنصر الاجنبي في اوربا في مبدأ العهد المعدني

وقال الاستاذ ريلى في كتابه The Races of Europe ان العنصر الارمني أتى من هضبة بامير شمال الهندوكوش فلما غزا أوربا طغى عليها بشكل واضح الا بريطانيا لانها بانعزالها عن القارة كانت اقل البلاد الاوربية تأثرا بهذا الغزو شأنها في ذلك شأن القطر المصري المنعزل عن آسيا بصحراء طور سيناء والبحر الاحمر . لذا نجد في العهد البرنزي ان مقابر البريطانيين حافظت على نفس النمط المتبع في مصر وقتئذ (ص ١٦٦ كتاب قدماء المصريين للاستاذ اليوت سميث) . وهكذا نجد ان العنصرين المصري والبريطاني كانا كثيري الشبه من حيث العزلة التاريخية ومن حيث استمرار المزايا العظيمة فيهما الخاصة باصحاب الجماجم الطويلة (dolichosephalic) . ومما يدل على اتحاد الاخلاق بين المصريين والبريطانيين

قبل العهد التاريخي ان كلا الشعبين لم يتأثرا بعادات العنصر الاسيوى الغازى كحرق الجثث بعد الوفاة

الابحاث الدموية

ان ما سبق ذكره يعطي القارىء فكرة عامة عن طريقة بحث موضوع مقالنا وعن مقدار الصعوبة التى تعترض هذا البحث • كما انه يقنعه بان العنصر المصرى القديم والعنصر البريطانى كانا على الارجح من اصل واحد لتوافق العادات والعقائد القديمة بينهما وتوفر الميزات الجسمية والعظمية وغير ذلك • لكن هناك ناحية أخرى حديثة هامة نرجو ان يكون لها فضل كبير فى اظهار حقائق هذا الموضوع تلك ناحية الروابط الدموية • فالمعلوم ان دماء الآدميين اربعة فصائل وان هذا التباين يستعمل حديثا لاثبات البنوة فى الطب الشرعى فالبحث الذى يقوم عماده على هذه الناحية سيكون عظيم الاثر فى استجلاء مسائل تاريخية هامة • خصوصا اذا لاحظنا ان اساس تقسيم الدماء وجود مواد بها غير قابلة للتغير على مرور الزمن

جاء بمجلة Chronique d'Egypte, (عدد ٢٣ سنة ١٩٣٧ ص ٤١) بحث فى هذا الموضوع يتلخص فى ان الدكتور كانديلا الاستاذ ببروكلين بامريكاوجد طريقة لاستخراج بقايا الدماء القديمة داخل عظام يرجع تاريخها الى ٣٣٠٠ سنة ، وامكنه فحصها لمعرفة الفصيلة التى تنتمى اليها • وهكذا امكننا معرفة نوع الدماء التى كانت تجرى فى عروق هؤلاء القدماء • وقد قام الدكتور كانديلا بمباحثه على عظام سيدات مصريات يرجع تاريخهن الى سنة ١٥٠٠ ق• م ايام حكم الاسرة الثامنة عشرة موجودة بدار تحف بروكلين • واصبح متيسرا معرفة العناصر الآدمية المختلفة فى انحاء العالم المنتمية الى فصيلة دموية واحدة • فقد اتضح مثلا ان هنود امريكا واهالى الباسكة (شمال اسبانيا) والكلت هم من الفصيلة الدموية الثانية • كما اتضح ان سكان الهندوس وقبائل الامازون بامريكا الجنوبية من فصيلة الدم الثالثة • كل هذه أمور هامة لها تأثيرها الخطير فى تاريخ الانسان القديم لدقتها وصحتها • وقد اثبت البحث الحديث امكان فحص دماء قدماء المصريين بطرق فنية تتلخص فى استخراج بقايا الدماء من عظامهم الجافة التى يرجع تاريخها الى مبادىء العصر الحجرى !

وطبق هذا البحث اخيرا على عضلات المومیات واعضاء اجسامها الباقية بنجاح • لان المادتين المرقوم لهما بالحرفين (ا) و (ب) اللذين يترتب على وجودهما تقسيم الدماء الآدمية الى اربعة فصائل قليلة التأثر بمرور الزمن (١و٢) • وقد بحث بهذه الطريقة مائة وثلاثون

(١) Boyd & Boyd : An attempt to determine the bld groups in Mummies in Proc. Soc. Exp. Biology & Med. 31, 671, 1934.

(٢) Boyd & Boyd : Blood Grouping by means preserved muscles; Science; 78-578-1933. Groups Specificity of dried muscle and saliva; Journal of Immunology 26,489-1934.

موميا مصرية قديمة • واثبت البحث وجود المادتين (ا) و (ب) في جثث المصريين الاقدمين، وكانت احدى هذه الجثث من قبل العهد التاريخي الذي يرجع زمنه الى اكثر من خمسة آلاف سنة من عهدنا الحاضر

واثبتت المباحث الحديثة ان المادة (ا) توجد بدماء اهالي القاهرة الحاليين بنسبة ٣٧ ٠/٠ واهالي اسيوط بنسبة ٣٤ ٠/٠ اما المادة (ب) فتوجد بدماء سكان القاهرة الحاليين بنسبة ٢٥ ٠/٠ واهالي اسيوط بنسبة ٣٠ ٠/٠ وهذه النسب تنطبق الى حد بعيد على النسب التي كانت موجودة في العصور القديمة بقدر ما سمحت بها المباحث الحديثة على الموميات (Chronique d'Egypte) — يناير ١٩٣٧ — ٤٤)

ان البحث في فصائل الدماء الآدمية لا يبعد ان يكون بعيد الاثر في جهات التاريخ المتعددة • خذ مثلا موميا مصرية مجهولة الصاحب وجدت بين موميات معروفة اصحابها، فان بحث دماء هذه الموميات قد يرشد الى العلاقة الدموية بين الموميا المجهولة والموميات المعروفة

كذلك اذا عثر على عضو من اعضاء موميا ، كما يحصل ذلك كثيرا اثناء الحفر عن الآثار ، ووجدت بعد ذلك قطع موميا بنفس المكان ، امكننا ببحث دماء هذه القطع ان نردها الى صاحب واحد •وغير ذلك من الامثلة العديدة

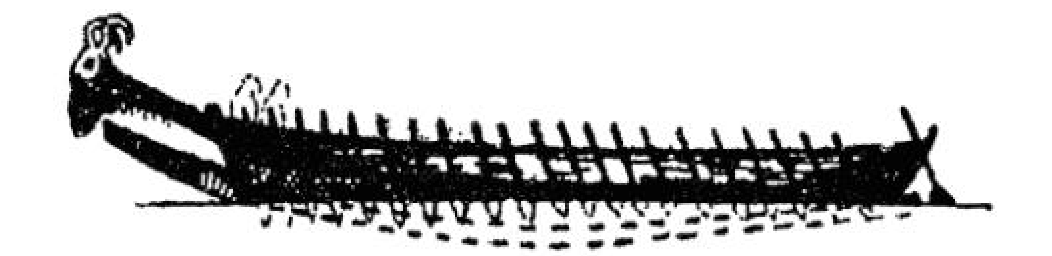
ونرجو ان يمتد هذا البحث فيشمل فحص دماء عدد كبير من موميات قدماء المصريين كي تتبين مدى انتشار فصائل الدم بينهم فنقارن نتائج ذلك بامثالها ببريطانيا

تأثر الجزر البريطانية بالحضارة الفرعونية

معلوم ان الحضارة المصرية بدأت من الناحية الزراعية ثم تشعبت بعد ذلك فشملت نواحي المجتمع المتعددة

ولعل اول خطوة في تقدم بريطانيا هو ما تعلمته من مصر من صناعة النحاس وعمل الاسلحة وما تبع ذلك من قطع الاحجار لبناء المباني الشامخة والنقش على الاحجار وذلك عن طريق شبه جزيرة اسبانيا وفرنسا (اليوت سميث — قدماء المصريين ص ١٩٢) • اما صناعة البرنز فلا يزال الشك دائرا حول موطن ابتكارها • والرأي الغالب انها نشأت في خراسان بآسيا

واورد الاستاذ اليوت سميث في كتابه المذكور ايضا (ص ١٩٧) رسوما لسفن منقوشة على صخور شواطىء اسكانداوة تبين السفن التي اقلت سكانها الاقدمين الى تلك البلاد السحيقة • وبفحص هذه الرسوم اتضحت انها صورة طبق الاصل للسفن المصرية القديمة التي كانت مستعملة في مصر ايام الامبراطورية الحديثة (حوالى ١٥٠٠ ق٠م٠) والتي اصبحت الآن السبب الاول والاخير في سيادة بريطانيا العظمى على العالم







تتشابه هذه السفن الثلاث برغم تباين العهد والمواطن التي استعملت فيها . فالعليا تمثل نوع السفن المستعملة الآن بشرق افريقا ، والوسطى تمثل سفينة فرعونية ، والسفلى وجدت صورتها منقوشة على صخور اسكاندناوة في العهد البرنزي (مأخوذة من الأستاذ اليوت سميث)

والى مصر وحدها يرجع الفضل فى ابتكار طريقة رى الحياض وحفر الترع المستعملة الآن فى سائر بلاد العالم ومنها بريطانيا العظمى ، لانها توافق طبيعة اراضى تلك البلاد لتباين ارتفاعها وغزارة امطارها . وقد انتشرت هذه الطريقة الزراعية بآسيا وامريكا الشمالية والجنوبية ومدغشقر ، مما يدل على ان مصر لم تكن صاحبة الفكرة فى الحضارة فقط بل كانت العامل النشيط الدائم فى رقى العالم (راجع كتاب الاستاذ برى Perry المسمى (The Children of the Sun))

وهناك – الى ذلك – صناعة نسج الكتان والنجارة وقياس الزمن والخط ونظم الحكم وغيرها مما نشأ فى مصر وعم العالم ووصل الى الجزر البريطانية فى الوقت المناسب

حسين كامل

الذهب الهارب

المانيا تجهد فى الوصول الى ذهب البلاد المحتلة ، والذهب يفلت من بين أيديها !

كان الذهب على الدوام فى مقدمة الهاربين من الحرب ، فلا تكاد نذر الحرب تبدو فى الأفق حتى يجد الذهب طريقه الى خارج البلاد المهددة بالخطر ، أما اذا تلكأ الذهب برغم تلك النذر، فانه لا يعدم من ينقذه فى أحرج الاوقات . وقد أفلت الذهب البولونى والفرنسى قبل أن تصل اليه أيدى الالمان ، واستطاع ذهب الدانمرك وهولندا سبق الخطر والوصول الى شواطىء الامان ، أما فى النرويج فقد هرب الذهب تحت سمع الألمان وبصرهم

ولنعد إلى ما قبل الحرب بمدة ، فنرى أوربا قد أودعت سبائكها خزائن مصفحة بالحديد فى غرف بنيت من الاسمنت المسلح داخل دهاليز فى باطن الأرض ، لا تصل اليها أيدى الطامعين ولا يؤثر فيها انفجار القنابل

ودقت طبول الحرب فجأة ، بعد أن تلبد أفق السياسة الدولية حيناً بالغيوم ، فماذا حدث ؟

الذهب البولونى

جحافل الالمان تتقدم بسرعة ، والذهب البولونى مهدد بالوقوع فى قبضة الغزاة . .

لقد تطوع عشرة رجال - بل قل عشرة غلمان من الجنود والكتبة والميكانيكيين - لانقاذ الذهب الاحتياطى وقدره ٢١ مليونا من الجنيهات .. ولكن كيف ينقلون هذا القدر من سبائك الذهب وقد وضع الجيش يده على جميع سيارات النقل ، واستولت لجان ترحيل السكان على جميع سيارات الركاب ؟

جد هؤلاء العشرة فى البحث حتى وقعوا على خمس سيارات عتيقة أبت لجان ترحيل السكان والسلطات العسكرية استخدامها لأنها غير صالحة للعمل ، وحتى هذه السيارات الخمس لم تكن تكفى الا لنقل ما يعادل مليون جنيه من سبائك الذهب

قاد هذه الشرذمة من الشبان اليافعين الكولونيل انياس ماتوسيفسكى - وزير المالية السابق فى عهد بيلسودسكى - فجلس الى عجلة القيادة فى السيارة الأولى تتبعه السيارات الاربع الأخرى فى طرق قلبت سطحها قذائف الالمان . كانوا يسيرون ليلا ويحصلون على ما يلزمهم من

وقود من خزانات الآلات الزراعية المتروكة فى المزارع والحقول ، ويضطرون نهاراً الى الاختباء وتغطية السيارات بفروع الأشجار لاخفائها عن أعين الطيارين الألمان

استمرت القافلة فى طريقها تقصد برست ليتوفسك ، فلم تكد تقترب منها حتى افتضح أمرها وأذاع الراديو سرها وطريق سيرها ، وعمل رجال الجستابو على اقتفاء أثرها ونسف الطرق والقناطر التى تقع فى طريقها

وحاول ماتوسيفسكى أن يستشير ولاة الأمور فى وارسو ، ولكن أسلاك التليفون والبرق كانت قد قطعت ، ففكر فى العودة إلى وارسو طائراً فلم يجد طائرة تحمله اليها

وأخيراً استطاع أحد الميكانيكيين من المتطوعين اصلاح طائرة معطوبة كانت قد نزلت بالجهة التى وصلت اليها القافلة ، بعد أن سرق ما يلزمها من قطع وأدوات من مدرسة الطيران فى تلك الجهة ، وفى هذه الطائرة رجع أحد المتطوعين الى وارسو ، فلم يجلب العون والمدد وانما أقفل راجعاً يحمل الأمر بعودة القافلة .

واستغرقت الرحلة يومين ، وما أن وصل المتطوعون بقافلتهم الى وارسو حتى وجدوا سيارات أخرى حملت بقية الذهب ، وقد وضعت خطة السير الى الجنوب ودبر أمر الوقود

وفى هذه المرة أيضاً اكتشف الالمان سر قافلة الذهب فلغموا طريقها الى الجنوب وصبت عليه الطائرات الألمانية وابلا من قنابلها ولم تكف عن التحليق فوقه ومراقبته ، بيد أن سيارات الذهب تركت الطريق العام وراحت تشق طريقها فى الحقول مفضلة بطء السير ووعورة المسالك على أخطار المسير فى طريق اكتشفه الالمان ، وعلى مقربة من الحدود الرومانية نقل الذهب الى قطار كان فى الانتظار ، وتحرك ذلك القطار قبل الموعد المحدد له بساعة فعبر الحدود بسبائك الذهب البولونى . ولو أن هذا القطار تحرك فى موعده لما نجا الذهب البولونى من الوقوع فى أيدى الالمان ، فقد كان فى طريقه الى الحدود قنطرة نسفت بعد اجتيازه لها بنصف ساعة

وفى أحد موانىء البحر الاسود نقل الذهب مرة ثانية الى ظهر سفينة أمريكية ، ولكنها لم تقلع فى موعدها اذ غادرها بحارتها وقد رشاهم الالمان ، وراح البولونيون يبحثون هنا وهناك حتى استطاعوا جمع نفر جديد من البحارة . وأقلعت السفينة متجهة إلى روسيا

فى ذلك الوقت أعلن أن روسيا قد غزت بولونيا من الشرق فغيرت السفينة طريقها واتجهت الى تركيا حيث طلب من البولونيين مبلغ ٦٠٠٠ جنيه نقداً أجراً لقطار خاص

ولقد رفض ماتوسيفسكى أن يبيع جزءاً من الذهب ليدفع نفقات القطار ، محتجاً بأنه لا يملك حق التصرف فى هذا الذهب ، فظل الذهب فى مكانه حتى تقدمت احدى شركات البترول الامريكية وعرضت إقراض ماتوسيفسكى نفقات القطار الخاص

ورحل الذهب البولونى بعد ذلك الى سوريا ومنها نقل الى فرنسا فى حراسة طرادتين فرنسيتين

ذهب البلاد المغزوة

فى غضون ذلك الوقت كانت هولندا قد أدركت ما يهددها من خطر ، فأرسلت نصف ذهبها واحتياطيها من النقد الخارجى - وهو مبلغ ١٦٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه - إلى أمريكا ، بينما أخذت تهرب النصف الثانى الى عدة دول محايدة . أما فى الدانمرك فقد نقلت سبائك قدرها ١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه فى سيارات نقل الأثاثات الى الموانىء ومنها إلى أمريكا

ولقد كان هتلر يأمل أن يجد فى أوسلو كنزاً من الذهب ، ولكن الذهب النرويجى - وقدره ٣٣٫٠٠٠٫٠٠٠ من الجنيهات - أفلت فى آخر لحظة وراح يتنقل من قرية إلى قرية متقدماً القوات الألمانية الزاحفة الى أن بلغ نهاية وادى جود براندز ، ومن هناك نقل هذا الذهب تحت سمع الألمان وبصرهم

كانت خدعة عجيبة قام بها أطفال النرويج فنقلوا سبائك الذهب فى صناديق صغيرة ثبت كل واحد منها على زحافة صغيرة من النوع الذى يلعب به الأطفال . ولقد شك الالمان بادىء الأمر فى تلك الزحافات الحاملة للصناديق ، ولكن الزحافات الأولى كانت تحمل صناديق فارغة فاقتنع الالمان بأن أطفال النرويج اعتادوا اللعب بزحافات تعلوها صناديق صغيرة

ولقد دامت هذه العملية ستة أسابيع متوالية ، كان الاطفال ينقلون فيها السبائك بالتتابع ، فينقل الطفل محتويات صندوقه مسافة ٢٢٠ ميلا ويسلمها الى طفل من القرية التالية لينقلها بدوره مسافة أخرى إلى طفل ثالث . وهكذا تم نقل الذهب الى مقربة من الشواطىء فتسلمته النساء ونقلنه ليلا فى طرق وعرة المسالك خطيرة الانحدارات الى السفينة «بوما» التى عنى باخفائها تحت كميات كبيرة من فروع الأشجار فى أحد الخلجان الصغيرة المنعزلة

وفى ليلة غاب فيها القمر خرجت « بوما » تحت ستر الظلام الى عرض البحر ، فوصلت نيويورك فى صباح يوم مشرق جميل

وحتى السويد المحايدة حرصت على ألا يفاجئها الخطر ، وأرسلت ٧٤٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه من ذهبها الى الخارج

أما فى فرنسا ، فقد كانت عملية نقل الذهب من سراديب بنك فرنسا ما تزال مستمرة والالمان يدخلون باريس ، والمعتقد أن ما يزيد على ١٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه نقل من فرنسا على الطرادة الامريكية « فانسين »

واليوم فى أمريكا نحو ٨٠ ./. من ذهب العالم ، وهو فى أمان داخل خزائن « فورت نوكس » المنيعة التى يحرسها الرجال والمدافع والدبابات

[عن مقال لسكاتب وبستر فوسيت]

عواطف !

بقلم الأستاذ عبد العزيز البشرى

لم أعثر فى معجمات اللغة ، ولا فيما وقع لى من تعبيرات المتقدمين ، أنهم كانوا يطلقون كلمة (عاطفة ـ عواطف) على مايطلقها عليه أهل هذا العصر الحديث ، وأعنى هذا الاطلاق العريض . فأصل (العطف) ، على وجه عام ، الالتفات . ومنه : عطف إليه : مال . وعطف الشيء : أماله وحناه . وتعطف عليه : رق له وبره . وعطفت الناقة على ولدها : حنت ودر لبنها . ومن هذا المعنى ، فيما أظن ، جعلت هذه اللفظة تتسع فى إطلاقها حتى أصبحت تدل على نوازع النفس وأهواء القلب جميعاً . وكذلك تتطور الألفاظ ، مع اطراد الزمان ، حتى تكاد تلابس ، فى كل عصر ، معنى جديداً

وإذا كانت لفظة (العواطف) تدل اليوم أكثر ما تدل على خوالج القلوب ولواعج الكبود من هوى وصبابة ، ووله لاحق ، وغمز على الحشا من عشق وتبريح غرام ـ فان هذه (العواطف) كثيراً ما يكون لها مثوى آخر غير القلوب وغير الكبود !

نعم لقد يكون لها مثوى آخر ، وإن كانت جمهرة الناس لم تأبه له ولم تلتفت إليه ، على أن من هذه (العواطف) ما هو أشد وأعنف ، ومنها ما هو أطغى وأجرف ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون !

لقد يروعك مرأى عاشق أدنفه الحب ، وبرحت به الصبابة . وقد هجره المحبوب قلى أو تجنياً ، فبات المسكين يساهر النجم ، ولايغمض جفنه عن تصفح وجه البدر ، لعله يصيب فيه بعض الغناء عن وجه الحبيب . ولعمرى ما هو بمغن عنه شيئاً ، وإلا فما هذه الأنفاس الحرّى كأنما يتفرج بها من الحشا سعير بركان !

تشهد هذا المشهد ، فيخيل إليك أن هذا العاشق المسكين لا يرى الوردة وقد تخرجت من كمها ، والنرجسة وقد حنت على ثدى أمها ، والنسيم وقد تلطف ، والجدول فى الروض وقد تعطف ، والأرج وقد شاع في الجو وتردد ، والهزار وقد شدا على الأيك وتغرد ـ اللهم إنه لا يشهد شيئاً من ذلك إلا ذكر به الحبيب . بل إنه ليرى هذا كله من بهاء الحبيب . ولولا

أنه أعار الطبيعة كلها بعض جماله ما سطع فيها بدر ، ولا تأرج زهر ، ولا ضحكت الورود على الأغصان ، ولا صدحت الفواخت على الأفنان . كلا ! بل لشاه كل جميل ، ولاستحال دبوراً هذا النسيم العليل ! بل إنه لا يرى الحياة كلها إلا جحيما لا يطاق فيه العذاب ، ولا يرجى ، على الدهر ، منه ثواب

لقد يروعك الأمر ، إذ تشهد هذه العواطف ، ويتعاظمك . وسرعان ما ترثى للقلب وترثى للكبد ، أو سرعان ما تغبط القلب والكبد ، إذ استأثرا من دون سائر الجوارح بجولان هذه العواطف التي تشقى المرء كل هذا الشقاء ، وتسعده أحياناً بجميع ذلك الهناء !

وإنني أؤكد أن من ظن هذا فقد ضل ضلالا بعيداً !

ولقد أسلفت عليك أن هناك ألواناً من العواطف تثوى الى غير الكبود وغير القلوب . وأن منها ماهو أشد وأعنف ، ومنها ما هو أطغى على المرء وأجرَف . وإني ملم اليوم منها بثلاث فحسب : أولها عواطف البطن ، وثانيتها عواطف الغرام (بالدرجة) ، وهذه مقصورة علينا نحن معشر الموظفين الحكوميين دون سائر العالمين . أما ثالثتها لحب الشهرة وذهاب الصيت

ولعلك تظن بي القصد الى المزاح حين أزعم لك أن للبطن و (الدرجة) والشهرة عواطف تجيش وتترقرق . بل إني لأزيد أنها قد تبلغ من بعض الناس ما لم يبلغ غرام قيس بن الملوح بليلاه ، ولا هيام قيس بن ذريح فى لبناه !

وأرجو ألا تظن ان هذا العاشق المهجور الذى طوي ليله وهو يساهر النجم ، ويتصفح صفحة البدر ، يذكر به الحبيب ، ويتمنى عليه اللقاء القريب ، بأشد حرقة ، ولا أعظم لوعة من هذا الذى يتشهى الاكلة الشهية ، ويتمنى الوجبة الجنية . وإنه ليتمثل صينية (البطاطس) وقد ديفت بالطماطم والبصـــل ، ورصعت بالثوم ترصيعاً . أما ما جلات به من مزَع اللحم السمين ، فجدير أن يزدرَد بالشمال وباليمين !

ولا تنس هذا الطاجن الذى حشى رزّاً معالجاً بالزبد ، وقد دفن الحمام السمين فيه دفناً ، وظل فى الفرن الهادىء ساعات ، حتى نضجت قشرته ، واحمرت بشرته !

وأما صفحة (الكنافة) فما أروع دلالها ، وأحلى وصالها ، خصوصاً إذا فاضت سمناً وسكراً ، وحشيت زبيباً وفستقاً وصنوبراً ، وغشى وجهها بالقشدة الخالصـــة . وما شاء الله ! وسبحان من أحسن وتفضل ، والشكر لمن أنعم وتطول

اللهم إن هذا العاشق الصب ليقضى ليله الأطول فى تمثل هذا وتمنيه ، وله من شدة اللوعة زفير ، أحمى من نار السعير

ولقد يعمد فى هيامه الى باب (الحاتى) وكبرى المطاعم ، فيجد ما يسطع من ريح القتار ، أزكى مما تجد أنت من النسيم جاز بالروضة المعطار !

أفليس هذا وأمثاله محبين عاشقين ، بل محبين والهين . لا يفتأون يشكون لوعة البطون ، كما يشكو غيرهم لوعة الكبود ؟

أما حب (الدرجة) وما أدراك ما (الدرجة) ! الله أكبر ! هل سمعت بالسيل الجارف لا يصده حدّ ، ولا يثبت بين يديه سدّ ؟ وهل سمعت بالريح الصرصر العاتية ، تدمدم رائحة أو غادية ، فتمتلخ فى مغارسها الاشجار ، وتقتلع من مبانيها الاحجار ، وتأتى على كل قائم بالخراب والدمار !

هو كل شغل القلب ، أستغفر الله ! بل إنه لحب قد استولى على كل نوازع النفس ، وملك جميع أقطار الحس ، حتى لقد تقول للصب المتيم : لقد اشتد البرد يا (فلان) فى هذه الايام ، فيجيبك من فوره : يشاع أن « لجنة الترقيات » ستعقد فى صدر الاسبوع المقبل !..

ولقد تقول لمتيم آخر : ما أهول هذه الحرب وما أروع فظائعها . فلا يكون جوابه إلا : أيجوز أن يرقى فلان الى الدرجة الرابعة ولما يعض عليه أكثر من خمس سنين فى الخامسة ، فى حين أننى سلخت فيها ثمانياً ؟

ولقد تقول لأحد هؤلاء المتيمين الوالهين على (الدرجة) : إن (فلانا) رجل فكه حاضر البديهة حسن الحديث . فيكون رده : لقد رقى الى (الدرجة) الثالثة فى العام الماضى . وهكذا ! . . .

وماله لا تكون (الدرجة) كل شغله ، وماله لا يجعل فى (الدرجة) حديثه أجمعه . أليست (الدرجة) هى عينه التى بها ينظر ، وأذنه التى بها يسمع ، ورجله التى بها يسعى ، ويده التى يعالج بها ما تعالج أيدى الناس ؟

ولقد يكون العاشق المدنف من أصحاب القلم ، أو من المنتحلين لصناعة القلم . فلا يستحيى ، اذا لاح له شبح (الدرجات) ، من أن يكتب للناس : هل أدلكم على أكبر أديب وأعلم عالم ؟ إنه والله للوزير القائم . ولقد عقدت له إمارة البيان ، فأضحى ولا يتعلق بغباره فيها إنس ولا جان . وأما من يليه فى هذه الامارة ، فهو ، ولا ريب ، سعادة وكيل الوزارة ! وهكذا كما

انصرف وزير ووكيل ، وخلفهما وزير ووكيل ، ولو تصرم الجيل بعد الجيل !

ولعمري ، لو قد ذكر الله تعالى أحدُ هؤلاء بعض ذكره (للدرجة) ، لرقى فى الآخرة الى (درجة) الصديقين ، وتبوأ مجلسه معهم فى أعلى عليين !

* * *

وأما غرام الشهرة فشأنه أعجب وأغرب . وإن من هؤلاء المتيمين بالشهرة وذهاب الصيت لمن يرجو أن تعيد الحكومة شنق المجرمين فى الميادين العامة ، حتى إذا عدم الوسيلة الى بعد الصيت ، وسيرورة الذكر ادّعى على نفسه جرماً لم يقترفه ، وقتلا عمداً لم يجترحه ، ليحظى بالشنق على أعين الآلاف المؤلفة من الرجال والنساء والأطفال

ولهذا غرام الشهرة مذاهبُ وفنون لا يتسع للتصرف فيها هذا المقال . ولعل من أبدع وأروع ما قد رأينا فى الماضى القريب ، أن خلقا من الخلق مغرمون متيمون بأن يشتهروا بالعلم والأدب ، فى حين ليست لهم وسيلة الى شهرة فى العلم والأدب ، ولا ينعتهم أحد بعلم ولا أدب . إذاً فليزجو الى الصحف المقال بعد المقال لا يضمن شيئاً إلا تزكية أنفسهم ، والاشادة بفضلهم ، والهتاف بتفردهم بالأدب والبيان ، وبراعتهم فى هذا كل إنسان !

على أنه أيضاً لم تظهر لهم شهرة ، ولم يسر لهم ذكر ، ولم ينعتهم بشىء منه أحد

إذاً فكيف الحيلة ، يا ناس ، فى إطفاء هذه اللوعة وإبراد هذا الغرام ؟

لم يبق من سبيل الى هواه الا أن يهدم كل من يظن ، أنهم بسابقتهم وموضعهم من أهل الفضل والأدب ، يحولون بينه و بين مناه ، حتى يصبح و إياهم بدرجة سواء

ولكن أنى له ذلك كذلك ، وليست له ساق يقوم عليها لهدم ولا لبناء ؟

يا سبحان الله ! وهل لا بد للتطاول من قدم وساق ؟ اللهم إن له فى النباتات المتسلقة (كاللوف واللبلاب) لمثلا جليلا ، و إذاً فليتساق على كل مرتفع عال من الناس . فاذا عدم الهدم ، لخذلان يده ، لم يعدم أن يؤذّن بعلمه وفضله ، وأدبه و بيانه ، من هذا المرتفع السامق !

* * *

أصدقت ، يا سيدى القارىء ، أن هناك عواطف ليس جماعها القلوب ولا الكبود . وأن هناك غراماً غير ما يعهد الناس من الغرام ، له سعير أحمى من كل سعير وضرام ألذع من كل ضرام ؟

عبد العزيز البشرى

الانقلاب الاجتماعى

فى أوربا بعد الحرب

بقلم الاستاذ سامى الجريدينى

لا شك أن الحرب العالمية التى اضطرمت نيرانها من سنة ١٩١٤ الى سنة ١٩١٨ لم تكن حربا مجدية ، نعنى أنها لم تكن ذات عائدة خير على العالم . فقد يروى التاريخ حديث جميع الحروب التى اجتازها العالم ويستخلص من كل حرب نفعاً قام على أنقاضها شملت فائدته الغالب والمغلوب

ولا يسمح المقام بضرب الامثال فهذه حقيقة يعرفها قراء كتب التاريخ جميعهم

وقد حاولنا أن نرى للحرب العالمية الماضية أثر خير شمل العالم فأعيتنا المحاولة ، حتى عهد جامعة الامم وهو خير ما أنتجته قرائح واضعى قواعد الصلح لم يكن بالجديد ولم توضع مبادئه موضع التنفيذ منذ ظهوره حتى وأده القوم منذ عهد قريب

على أننا نذهب الى أبعد من هذا الذى ونزعم أن الحرب الماضية أولدت جرثومة هذه الحرب وأنه اذا كان الخير قد يأتى من الشر فسيكون عقبى هذه الحرب خيرا للعالم يشمل جميع أهله

ولماذا ؟

اننا نلاحظ بادىء الأمر أن المتحاربين كلهم اليوم يقولون بنظام جديد سيضعونه للعالم عندما تضع الحرب أوزارها

هذا شىء لا نزاع فيه . فما هو هذا النظام وكيف يكون ؟

اننا نفرض فوز الديموقراطيات . فاذا فازت هل يكون نظام العالم خيراً مما هو الآن ؟

هذا هو محور البحث

ولا نعلق أهمية ما على الألفاظ فالديمقراطية سواء أكان أصحابها صادقين أم كاذبين ستكون هى نفسها موضع تغيير كبير . والحاكمون بأمرهم مهما تستقم لهم الأمور فلا مندوحة لهم عن الأخذ بما يرضى الشعوب ويضمن لهم بحبوحة العيش لان بقاء نظامهم رهن بذلك

١ ــ النظام الاقتصادى قبل هذه الحرب

لا نحاول أن نشرح النظم الاقتصادية وتفضيل أحدها على الآخر فهذا أمر يطول شرحه والمفروض أن القراء المثقفين واقفون على أهم المبادىء الاقتصادية التى تسيطر على الكيان العالمى

ولا شك أن العالم - وخصوصاً العالم الانجلو أميركي والفرنسي - كانت تسيطر عليه مبادىء الرأسماليين أي أن طبقات كثيرة العدد هي الاكثرية في كل بلد ، كانت تتمتع بحرية سياسية لا شك فيها ولكنها كانت حرية سياسية فقط لم تكن لتتناول تعديل النظام الاقتصادي لمصلحة هذه الاكثريات

وليس هذا هو المقصود من نظام يريد الخير للجميع . فالطبقة الوسطى - وهي أصحاب المصارف والمصانع والسفن وما اليها من موارد الثروة - كانت بحكم النظام السياسي المفروض تتمتع بالوسيلة لابقاء النظام الاقتصادي كما هو أي في مصلحتها . ودع عنك ما يسمونه الطبقة العليا أو الارستوقراطية فهذه لا وجود فعلي لها الآن انما وجودها اسمي لا غير

ومعنى ما تقدم هو أنه كان في العالم قبيل الحرب فئة تتمتع بحياة هنيئة مادية وأدبية وكان في يدها الأداة السياسية التي تسيطر على نعيمها الاقتصادي أن يخرج من يدها

وكانت هناك أكثرية ساحقة - هي كل الطبقات المحرومة من الملك ومن ضمان أسباب العيش في البطالة وفي المرض وفي الشيخوخة - تسعى الى تحسين مقامها بالوسائل السلمية متخذين نقاباتهم وجمعياتهم سلماً الى البرلمان ثم أخذ هذا ذريعة الى تغيير التشريع القائم

ولا ننكر أن الأمر في الروسيا لم يكن متخذاً هذا الاسلوب فالقوم المحتاجون في روسيا أضرموا ثورة ١٩١٧ ووسعوها وأثاروا حرب الطبقات بغية تسلمهم زمام الأمور

وليس الأمر كذلك في الديموقراطيات الغربية ، وفي انجلترا على التخصيص . فانهم في هذا البلد الحكيم يريدون تحسين الحياة الاجتماعية بوسائل سلمية تأتي من باب الاقناع لا من باب الارهاب والثورة . فالذي يريد الخير للانسانية يريده في متناول الجميع لا وقفاً على هيئة دون أخرى . فاذا كان العالم يشكو من الظلم يأتيه من فوق فليس معناه انه يرضى بظلم يأتيه من تحت

٢ - الحال عند وقوع الحرب

وكانت الديموقراطية تتوقع حرباً تثيرها النازية والفاشية ولكنها كانت تحاول أن توجهها وجهة غير ذات خطر على نعيمها الاقتصادي

فالقوم الذين كانت بيدهم مقاليد الأمور في انجلترا وفرنسا كانوا يؤثرون بقاء العالم على ما كان عليه وكانوا على استعداد أن يضحوا بشيء غير قليل من الكرامة في هذا السبيل

وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم اسم أصحاب سياسة التهدئة . فقد كان الابقاء على الأمور كما هي مبدأ سياستهم وأمنية حياتهم . وكانوا على كرههم للحرب يؤثرون اتفاقاً مع هتلر ومع موسوليني على تغيير في نظام اقتصادي تسوده المبادىء الاشتراكية

ولم تكن سياسة مونيخ الا مظهراً بارزاً لهذه الأمنية . فكم كانت تحلو لرجال مونيخ سياسة

تقذف بالمطامع الألمانية ناحية الروسيا وكم كانت تلذ لهم أن يضحوا بتشكوسلوفاكيا لو وثقوا من أن هتلر وزمرته يقفون عند هذا الحد أو يقفون حقيقة فى وجه المطامع الاشتراكية الروسية .

لذلك كان الحزب الاشتراكى فى انجلترا (وهو حزب العمال) يأبى التعاون مع تشمبرلن لأنه كان يعلم أن ميوله وميول الطبقة التى يمثلها وهى الطبقة التى كانت تتولى زمام الأمور فى انجلترا لم تكن بميول ترمى الى انهاض حزب العمال أو الأخذ بمبادئه

وكان كتاب هذا الحزب يرمون الطبقة التشمبرلينية بشتى التهم

فكانوا يزعمون أنها آثرت الأخذ بيد موسولينى على الحبشة سنة ١٩٣٥ حباً بالمبادىء التى يمثلها الفاشيون . وأنها سكتت عن التدخل الألمانى والايطالى فى أسبانيا تنفيذاً لهذه الرغبة أيضا وأنهم يلينون للنازية وللفاشية لأنها تعبر عما يخالج أفكارهم من المبادىء

ولم تكن الفاشية (وهى مثل النازية) إلا نظاماً استبدادياً قام على اضطهاد العمال وعلى مناصرة أصحاب الأموال وأرباب الصناعات الكبيرة

وليس على القارىء الا الرجوع الى تاريخ موسولينى وهتلر منذ قيامهما الى أخذهما السلطة كاملة فى أيديهما حتى يثق بصحة ما تقدم

ولم ينقلب الكثير من أصحاب الأموال والصناعات على هتلر بألمانيا الا لما علموا بأنه خانهم لأنه عند ما انفرد بالسلطان دونهم لم ينفذ رغائبهم ولم ينفذ رغائب أعدائهم العمال بل قام بحكومة هو وأتباعه الكل فى الكل فيها يضعون ما يشاءون من النظم الاقتصادية بله الاستئثار بالسياسة وبالادارة وبالحرب

٣ ـ التغير الذى حصل

وبقى حزب العمال فى انجلترا بعد الحرب واقفاً وقفة من قعد فى جفن الردى وهو نائم

فانهم ـ أى أهل اليسار فى انجلترا ـ كانوا عالمين علماً لا يتسرب اليه الشك بأن فوز النازية سحق لمبادىء الديموقراطية كما يفهمونها وعفاء على الحرية بكل مظاهرها وبأسمى معانيها . وكان علم جهادهم مرفوعاً لسحق النازية وسحق كل ما تمثله من تعاليم ومبادىء

ولكنهم كانوا يعتقدون من ناحية أخرى أن الحكم فى انجلترا لحكومة قائمة على مصالح الطبقات المتمتعة بالامتياز ـ الامتياز السياسى والامتياز الاقتصادى

وكانت وطنيتهم تأبى المجاهرة بالعداء لعلمهم أن الانقسام فيما بينهم وبين مواطنيهم يؤدى الى انتصار الأعداء فظلوا على أحر من جمر

الى أن كانت الحملة الخائبة على النرويج

فقامت انجلترا على بكرة أبيها مفتحة الأعين ترى أنها إن ظل زمام أمورها فى يد الفئة الممتازة

خسرت الحرب وأضاعت الامبراطورية . وكان حوض صبرهم قد جفت مياهه بما لاقوه من الانخذال فى كل غرب أوربا منذ بولونيا حتى النرويج

فعصفت الزوبعة بتشمبرلين وبطبقته . . وجاء تشرشل

وقد أدرك هذا العبقرى سر الأمور وعلم أن القوة الانجليزية لا تكون على أتمها الا اذا قام بها الشعب ، وأدرك بثاقب نبوغه أن العالم الآن وبعد الحرب ليس بالعالم الذى مات بموت سياسة مونيخ

فكان أن ألقى مقاليد الأمور فى الامبراطورية للمبادىء الاشتراكية ، وقام على نصرة تشرشل أعظم زعماء الاشتراكية الانجليزية

وكان القرار الذى اتخذه البرلمان البريطانى فى ذلك اليوم أعظم قرار اتخذته السياسة الانجليزية منذ ما أجبروا ملكا لهم بتوقيع عهد (الماجنا كارتا)

٤ ـ لماذا تم هذا

فهذه الحرب التى دخلت الامبراطورية البريطانية ميدانها لا يستطاع الفوز فيها الا بعزم الأمة الجامع الحديد . وباجماع الأمة على ذلك

وظاهر أن الأمة مجمعة حازمة أمرها ، وظاهر من مبادىء العدل التى يدين بها الانجليز أن الغرم بالغنم وأنه اذا تساوى القوم بتحمل الأعباء فلا مندوحة عن التساوى بنوال الجزاء

فكان لا بد من توزيع الجهد على الجميع بجعل الأشخاص نفوسهم وأموالهم ملكا مشاعاً للأمة تتصرف فيها الحكومة كيفما تشاء ابتغاء النصر

وكيف يتم النصر وما هى أدواته ؟

الجواب على ذلك يقرأ بحروف كبيرة واضحة

ليست الحرب الآن حرب جيش يتخصص أفراده وقواده لمهنة الحرب كما كان الأمر فى الماضى إنه لو كان كذلك لسهل على الطبقة الممتازة احتكار قيادته وتسييره وابقائه فى خدمتها منفصلا عن مجموع الأمة الباقى

ولكن الحرب اليوم حرب أمة كلها ، فانك لا تدرى كيف توزع العبء فيها

هل يحمله الجنود النظاميون

وهل يستأثر به الطيارون

وهل يقوم به الأسطول

أم هل هو نصيب المدنيين بما يلاقون من أهوال تذهب بأرواحهم وأموالهم ! ومن نصيب العمال فى المصانع على اختلاف أنواعها

أم من نصيب المتطوعين لأعمال الوقاية وما اليها

وهل يقوم العبء على كاهل الرجال أم النساء . الشيوخ أم الشبان . ويشاركهم فى ذلك الأطفال ؟

وليس على السائل الا أن يقرأ الألف والياء فى هذه الحرب حتى يدرك أنها حرب الجميع

٥ ـ الفائدة للجميع

فاذا كان الأمر كذلك ـ وهو واضح لا يحتاج الى تدليل ـ كانت عقبى هذه الحرب خيراً سيتناول الجميع

لأن الجميع بذلوا وضحوا لحق للجميع الجزاء

وأول هـذا الجزاء وخيره هو المساواة فى المرافق الاقتصادية فـنرى المبادىء الاشتراكية الصحيحة مسيطرة على النظام البريطانى

فاذا سار عليه العالم البريطانى سار الناس خلفهم

فما هي هذه النظم

اننا لا نحاول أن نضع الآن تفصيلا وافياً عن المبادىء التى يطالب حزب العمال وضعها موضع التنفيذ . وانما نـكتفى بذكر المبدأ الاساسي وهو فى جوهره ضمان للـكافة بأن يتمكنوا من العمل وضمان بأجر يرفع مستوى المعيشة ، وضمان للعجوز والمريض وللطفل ، وفرصة مؤاتية تتاح للجميع للتمتع ببركة التعليم بعد بركة الغذاء الـكافى الوافى

وهو فى جوهره أيضاً مزيل الفقر لا يجعله ضربة لازب على فئة يلازمها من الميلاد حتى الوفاة هادم لثروات تؤخذ من دم العامة لمتاع خاصة لا تتجاوز النسبة المئوية فيها واحداً فى أمة تعد بالملايين

***

على هذه المبادىء سيقوم نظام العالم بعد الحرب ولا رجعة فى ذلك لان القائمين بالحرب الآن فى انجلترا القابضين على زعامة الجهاد يدينون بها ووضعوها موضع التنفيذ فى أثناء القتال فهل ترى يرضى الذين نالوا الحظ منها أن يعودوا الى النظام العتيق البالى

ليس هذا بالامكان مهما جهد الذين تحجرت عقولهم وقلوبهم

فالانقلاب الاجتماعى فى أوربا بعد الحرب آت لا شك فيه وانه آت على الطريق التى رسمناها رسماً اجمالياً فيما تقدم ، وانه انقلاب سيكون خيراً على الشعوب كلها فى أوربا وفى غير أوربا

ومن يعش يره

سامى الجريديني

الألفاظ المصرية القديمة

الباقية فى لغتنا العامية

بقلم الاستاذ محرم كمال

كبير مفتشى آثار مصر الوسطى

يظن كثير من الناس أن اللغة المصرية القديمة ، سواء أكانت الهيروغليفية أو القبطية ، قد اندثرت تماماً وذهبت دون أن تترك لها أثراً ، ولكننا نقول لهؤلاء السادة كلا ثم كلا ، فكما أثبتنا لمثل هذا الفريق من الناس فى كتاباتنا السابقة ان كثيراً من العادات المصرية القديمة لا تزال باقية فى مصر للآن ، سنحاول فى هـذا المقال أن نثبت أن مئات الالفاظ بل جملا كاملة ما تزال مستعملة كل يوم فى لغتنا العامية أصلها مصرى قديم . وهذه الجمل والألفاظ والتعبيرات المصرية القديمة قد استمرت ، شأنها فى ذلك شأن العادات القديمة ، منبثة بيننا يتناقلها الخلف عن السلف من جيل الى جيل ، حتى وصلت الينا تراثا قديماً يذكرنا بأجدادنا العظام

ما يكاد المولود لدينا يرى نور الحياة حتى يسمع أمه تخاطبه بلغة غريبة عنه ، ولكنها فى الوقت نفسه أقرب ما تكون الى حسه وفهمه ، فهو اذا جاع قالت له أمه (مم) واذا عطش قالت له (امبو) فهل تصور أحدكم أن هاتين الكلمتين قبطيتان أخذتا بدورهما عن اللغة المصرية القديمة، فكلمة (مم) مأخوذة عن القبطية (موم) والهيروغليفية (أونم) بمعنى كل ، و (امبو) عن كلمة (امبمو) القبطية بمعنى اشرب ، فاذا أحس الطفل بألم سألته أمه فى حنان وعطف عن مكان الوجع فقالت (واوا) فكلمة واوا هى بجميع حروفها هيروغليفية معناها ألم أو وجع أو ورم ، وإذا سألته عن الحشرة التى تعضه وتوجعه قالت له (بيبه) ومعناها برغوث ، واذا أرادت أن تنهره عن فعل شىء كريه قالت له (كخه) أو (كخ) ، و (كخ) كلمة قديمة معناها قذارة . فاذا أصاب الطفل برد أو زكام قلبت الأم بيتها رأساً على عقب بحثاً عن (شايه) له تقيه برودة الجو وتشع فى جسم طفلها دفئاً لذيذاً ، فكلمة (شايه) هى أيضاً مصرية قديمة معناها قميص . أما اذا اشتد الطفل ونما وأرادت أن تعلم « اسم النبى بحارسه » طفلها المشى فانها تقول له (تاتا تاتا خطى العتبة) ، فما هى كلمة تاتا ؟ هي أيضاً الكلمة الهيروغليفية (تاتا) ومعناها امشى

فاذا أرادت الأم تخويف طفلها قالت له « أجيب لك البعبع ياكلك » . فكلمة (بعبع) هذه هى الكلمة القبطية (بوبو) وهو اسم عفريت مصرى استعمل فى العزائم السحرية واتخذوه

لتخويف الأطفال وصوروه بهيئة بشعة ومخيفة جداً . أما اذا أكثر الطفل من البكاء فان صبر الأم ينفذ وتقول له فى جزع ونفاد صبر « يا واد أنت تملى تأوأ كده » ومعناها « انت تملى تعاكس كده » إذ أن كلمة (تأوأ) أصلها القبطى (أوييه) أى يعاكس . فاذا استمر الطفل فى عناده وزاد فى بكائه وعويله فان الأم ترمى آخر سهم فى كنانتها بأن تلجأ الى التهديد فتقول له « انت حانكت والا أجيب لك البيخ » فتفعل هذه الجملة فى نفس الطفل فعل السحر وينقطع عن النحيب والبكاء ، فما هو هذا (البيخ) الذى كان له ذلك التأثير السحرى على الطفل ؟ هو كلمة قبطية (بيخ) ومعناها عفريت أو شيطان

فلا غرابة إذا رأينا هذا الطفل ـ وأطفالنا كلهم هذا الطفل ـ اذا كبر متمسكا بالألفاظ والتعبيرات والعادات التى درج على سماعها والتى رأى الناس يزاولونها أباً عن جد . فالولد اذا خرج الى الطريق سواء أكان (حارة) أو (زقاقا) وجد الأولاد يلعبون الكرة ، ونحن لا نقصد هنا كرة القدم فان الاشياء الحديثة والمودرن لا تهمنا هنا قط فهى مستحدثة علينا ، وانما نقصد تلك الكرة الصغيرة التى يصنعونها من الجوارب القديمة البالية والتى نشأت وربت وترعرعت فى بلادنا منذ أقدم العصور ـ نقول اذا رأى الولد زملاءه يلعبونها انضم الى زمرتهم وبدأ يلعب بجد ونشاط فيقول (سنو) (كحكو) (شكا) . . . الخ فهذه الالفاظ جميعها هيروغليفية : (سنو) معناها اثنان و (كحكو) هى كلمة (كحك) الهيروغليفية ومعناها ينحني و (شكا) ومعناها يضرب . . . الخ . وفى أثناء لعبهم اذا اختلف الاولاد قال أحدهم للآخر « يا أخى انت بتحمرأ عليّ » أو « بلاش حمرأة » فكلمة « حمرأ » هى الكلمة القبطية (حمرق) ومعناها تغيير الكلام فى اللعب أو خلافه

ولكن وا أسفاه ما يكاد الاولاد يستمتعون بلعبتهم المفضلة حتى يداهمهم المطر فيملأ الأزقة والحارات ويكون فيها بركا وأنهاراً فينقطعون عن لعب الكرة ويستبدلونها باللعب فى مياه الأمطار والبرك ويطلبون المزيد صارخين بأعلى صوتهم « يا نطرة رخيها رخيها خلى البط يعوم فيها » ، فما من ولد فيهم فكر فى معنى كلمة (رخ) والواقع انها كلمة قديمة ومعناها نزل أو سقط فيكون معنى ندائهم « يا نطرة انزليها انزليها وكونى بركا يتمكن البط من أن يعوم فيها » فاذا انتهى الأطفال من لعبهم عادوا الى منازلهم فقابلتهم أمهاتهم بوجوه كالحة وأوسعنهم ضربا موجعاً ، فاذا سألتهن لماذا ؟ أجبنك على الفور « لأن السخمين سخموا هدومهم وحلة وسخموا روسهم طين » فهل فكرت الام انها لا تتكلم العربية حين تستعمل كلمة (سخم) التى هي كلمة قبطية بمعنى نجس أو لوث أو غطى بالوحل

نسمع كل يوم الباعة الجوالة وهم ينادون بأعلى أصواتهم على ما لديهم من سلع فهل فكر أحدكم فى ان كثيراً منهم ينادون بألفاظ كثيرة قديمة واليكم المثال :

ينبعث صوت رقيق ينادى (حالوم يا جبنه) أما الجبنه فكلنا يعرفها ولكن من منكم يعرف معنى

كلة (حالوم) ؟ الواقع ان (حالوم) هى كلمة قبطية ومعناها جبنة فكأن البائعة تنادى على ما عندها بكلمتين إحداها قبطية قديمة والأخرى ترجمة الكلمة تماماً باللغة العربية

ولا تكاد تمر دقائق معدودة حتى نسمع صوتاً أجش يقول (الشلبة يا عاوزين الشلبة) ، فاذا لم يأبه به أحد نادي « يا بساريه بحرى بحرى » فالشلبة والبسارية هما نوعان من السمك الصغير اسمهما الحالى مأخوذ من اللفظتين القديمتين (شلفاو) و (بسارى) . فاذا انتظرنا لحظة سمعنا رجلا ينادى « الشراق العال الشراق » ، و (الشراق) أو (الاشراق) هو خشب ذو مادة دهنية يستعمل فى إيقاد النار والفحم وما شاكل ذلك ونفس الكلمة مأخوذة عن كلمة (شرقة) ومعناها خشب (شى) و (رقه) الحريق

أما فى أطعمتنا الوطنية المصنوعة من الفول فما يزال على الأقل صنفان منها محتفظين باسمهما القديم أولهما (المدمس) ومعناها الفول المستوى فى الفرن بواسطة دفنه أو طمره فى التراب واسمه القديم (مثمس) والثانى (البيصارة) واسمها القديم (بيصورو) ومعناها الفول المطبوخ

ويقول عامتنا حين يتحدثون « داشيء ياما » ، فلفظة « ياما » هى الكلمة المصرية (آما) ومعناها كثير . والأغرب من هذا أننا نترجمها حرفياً فى لغتنا العامية فنقول أحياناً « وياما من ده كتير » فكأننا قد ذكرنا اللفظة العربية ومعها أصلها القديم أيضاً . واذا حدثك أحد العامة عن رجل أعجب بقوته ودهائه قال عنه « دا راجل يغلب العنتيل » وكلمة (عنتيل) أصلها (انتورى) ومعناها القوى الشديد . واذا خاطبك رجل من الصعيد قال لك « عاوز آش » ونحن فى مصر نستعمل كلمة (إش) أيضاً انما بشكل أرق فنقول « وانت إش لك فى كده » ، فلفظة (إش) أو (آش) هى القبطية (آش) وأصلها الهيروغليفى (آخ) وهى حرف استفهام بمعنى ماذا

يستعمل العامة عندنا كلمة (باش) فى قولهم « العيش باش خلاص » ، فكلمة (باش) ليست عربية وانما هى قبطية نقلت عن أصل هيروغليفى ومعنى الكلمة لان وطرى . ومن مشتقات هذه الكلمة لفظة « بشبش » بمعنى « يبلل » فى قولهم « الله يبشبش الطوبة اللى تحت راسه » أو قولهم « شوف الواد بشبش هدومه مايه وغرق روحه خالص » ، فالكلمة مرادفة تماماً للفظة « يبلل » العامية وأصلها القديم هو (بشبش) . أما كلمة (بك) فى قولهم « ضربته لما بك الدم من عينه » فهى كلمة (بك) القبطية ومعناها نزل . وقع . سقط . تدحرج فيكون معنى الجملة أنه ضربه « لما نزل الدم من عينه »

ونسمع كثيراً كلمة (بوش) فيقول الرجل اذا اعتراه اليأس « يا خسارة تعبى كله طلع بوش » فلفظة (بوش) هذه قبطية معناها أصلا سلب . نهب . عرى واستعملت منذ العصور القديمة مجازاً بمعنى فارغ . خالى . معدوم

يقول الفلاح لزميله اذا رآه جالساً فى تكاسل « قوم كده وانت قاعد زى التليس » ، و « تليس » كلمة قديمة معناها زكيبة فكأنه يقول لزميله « قوم كده وانت قاعد زى الزكيبه » أما اذا قال له « قوم ياواد علم الطاش » فانه يستعمل كلمة قديمة هى (طاش) بمعنى حد أو فاصل ولذا يقول الفلاحون أيضاً « احنا النهارده طوشنا الغيط كله » أى وضعنا حدوده وأبنا معالمه

يضيق الحال بفلاحنا اثر عاصفة اجتاحت أرضه أو أضرت بمحصوله فيعتصم بالصبر ويقول « ان شاء الله بكره يطلع طياب » فكلمة « طياب » هى اللفظة القديمة لهواء أو ريح يأتى من الشمال . ومما يدخل في هذا الباب كلمة « ماريس » فى قولهم « ياهوا يامريسى نشفلى قميصى » ، و (ماريس) لفظة قديمة معناها قبلى أو جنوبى أو آت من جهة الصعيد فيكون معنى الجملة « ياهوا قبلى نشفلى قميصى »

واذا زارت سيدة صديقة لها فى منزلها ووجدتها مشغولة قالت لها « انت يااختى مالك مطهومة كده طهمة كبيرة » ، كلمة (طهمة) قديمة ومعناها عزومة وقد احتفظنا بالمعنى فى أقرب نواحيه فى قولنا « هل بت قربت طهمة الفرح » أى عزومة أو لمة الفرح

ونسمع من الكثيرين كلمة (كوش) فيقولون « الراجل ده كوش على كل حاجه ولافاتشى شيء أبداً » والكلمة قديمة ومعناها تركه لا يملك شيئاً أو تركه عريان

أما العبارة المألوفة « آه يا كاسى منك » ففيها كلمة « كاس » قديمة ومعناها فى اللغة القبطية تعب أو وجع أو ألم . فيكون معنى العبارة « آه ياعذابى منك » أو « آه يا ألمى منك » الخ

ولعل من اللذيذ حقاً أن تعرف أصل عبارة « كانى . . . مانى » التى نستعملها كل يوم فى مختلف المناسبات فنحن نقول مثلا « وبعدين ياسيدى قعد يقوللى كانى ومانى ودكان الزلبانى » فلفظتا كانى ومانى ليستا عربيتين وانما أصلهما قبطى ومعناهما سمن وعسل أما كلمة دكان الزلبانى فهى اضافة تفسر معنى « كانى ومانى » إذ يوجد فى مثل هذا الدكان السمن والعسل وماشا كلهما من الفطائر التى يدخل فى صناعتها السمن والعسل

ويطلب الموظف الصغير من زميله أن يعيره نصف جنيه لأول الشهر لأن « شهر العيد كان طويل عليه والماهية خلصت عن آخرها » فيجيبه زميله فى أسى وحسرة « والله فلوسى أنا كان الشهر ده على القيط خالص » فترى ما هو هذا القيط ؟ « القيط » أيضا لفظة قديمة قبطية وهيروغليفية معناها « المطلوب أو اللازم أو الكفاية أو التمام » فيكون معنى العبارة « ان فلوسه هى أيضا على التمام أو على قدر المطلوب بدون زيادة ولا نقصان ويادوب تكفيه »

أما اذا حل أول الشهر وتسلم الموظف المسكين ماهيتـه فانه ينتقم لنفسه من الضنك الذى أصابه فى الايام الاخيرة من الشهر و « يدور يمهيص فى الدنيا » فما معنى (يمهيص) اذن ؟ هي كلمة عامية ، ولكن أصلها قديم فهى تتكون من كلمتين (مه) ملأ أو أتقد ومن (يص) السرعة أو

العجلة أو النط ، فيكون معنى العبارة انه يدور ممتلئاً بالرغبة فى النط والقفز

تسمع العامة يقولون وقد فقدوا كل حياء ولياقة « جاك أوا يلعلك النوا كل عشرة سوا » فاذا سألتهم ما هو هذا (الأوا) حاروا جواباً ، والواقع انها لفظة قديمة (أوى) معناها الويل أو لحسرة أو تباً لك . واذا أنت جلست الى امرأة عجوز فأكرمت وفادتها ونفحتها « باللى فيه القسمة » من نقود دعت لك فقالت « الله يخليك ويراشيك ويطرح البركة فيك » فكلامها كله مفهوم ما عدا لفظة « يراشى » لأنها ليست من أصل عربى اذ هى فى الواقع قبطيـة (روش) ترجع الى أصل هيروغليفي ومعناها يعتنى وهذا ما يجعلنا نستعملها تماما مرادفا للفظة يعتني فنقول للخادم « خد يا محمد الولد معاك بس ابق راشيه » أى اعتنى به و « خد بالك منه »

أما اذا تشرف المنزل العامر فى يوم ما بزوار ظرفاء فاننا نستبقيهم للغداء وعندما ينتهون فاننا لانسمح لهم بالخروج لأن الدنيا «صهد» أو لان « النهار ده صهد يسلخ العينين » ونرجوهم ألا يخرجوا «فى عز النقرة » وانما « لما تطري الطراوة » ، وهنا نكون قد استعملنا كلمتين هما « صهد » و « نقرة » من أصل قديم الاولى (صهد) ومعناها نار أو لهيب والثانية نقرة (نجره) وهى مكونة من كلمتين (نج) شديد أو قوى و (ره) ومعناها شمس أى الشمس القوية أو الشديدة

وتسمعون كثيراً كلمة « شأشأ » فى قولهم « ولما الفجر شأشأ » أو « لما يشأشأ النور » الخ فهل فكر أحدكم فى ان الكلمة قبطية تنطق (شاهشا) ومعناها سطع أو التهب أو أنار ؟

وكم من مرة سمعنا امرأة تشكو وتقول « شبار على إيه كدا دى حالتى بقت عبرة يستعجب منها العدو والحبيب » فكلمة « شبار » قديمة أيضا ومعناها عجيب أو عجب أو غريب فيكون معنى « شبار على » ان حالى عجيب أو مذهل يستحق الاشفاق . أما كلمة (هبأ) فى قولهم « انت كنت فين النهار ده كله هابىء وطافش من البيت » فهى الكلمة القديمة (هبق) ومعناها كثير المشى أو الاكثار من المسير

يقول الرجل وقد أعياه الفقر « أنا خلاص ما عنديش حاجه أبداً زى ما انت شايفنى حاتا باتا على البلاط وايش ها ياخد الريح من البلاط » فلفظتا « حاتا باتا » هنا قديمتان إذ تعنى (حات) فى القبطية والهيروغليفية قلب ومجازاً جلد و (بات) ومعناها ضلوع أو عظم ، فيكون المعنى ان الجلد على العظم كناية عن شدة الفقر ورقة الحال

محرم كمال

كبير مفتشى آثار مصر الوسطى

أثر الإسلام

فى تقدم الفنون الجميلة

بقلم الاستاذ محمد عبد العزيز
الأمين المساعد بدار الآثار العربية

تشريف القرآن للقلم أدى الى ابتداع فن الخط ـ تحريم التصوير أثمر ابتداع أسلوب زخرفى رائع ـ الاساس النفسانى الذى تقوم عليه الأرابسك ـ تحريم استعمال الحرير والذهب أدى الى ابتكار طرق جديدة فى الفن الجميل ـ تحريم الربا دفع المسلمين الى استخدام الفائض من أموالهم فى اقتناء التحف وتشجيع الفنانين ـ نظام الحسبة والنقابات فى الاسلام أدى الى تحسين المنتجات الفنيـة

أوجد الاسلام ، ببعض توجيهاته ونواهيه ، أثراً واضحاً فى الفنون الجميلة عامة . فلقد خلق عناصر زخرفية ، وأوجد مبادىء جديدة أثمرت نوعا من الزخرف طريفاً ، وأبدع طرقا صناعية لم تكن معروفة من قبل ، وبث فيها بتعاليمه روحاً قوية ساعدتها على الرقي والتطور ، وحماها بنظمه ، وأوسع لها من صدره فنمت فى ظله وأينعت ، وآتت أكلها ثماراً شهية تملأ أقطار العين جمالا ، وتشيع فى النفس سحراً حلالا

أقسم الله فى القرآن الكريم بالقلم وما يسطر : « ن والقلم وما يسطرون » . ويمكن القول ان هذه الآية قد شرفت فن الخط وعظمته ، الأمر الذى دفع بالفنان المسلم الى ابتداع فن جميل لم يستوح فيه فناً من فنون الأمم السابقة عليه ، بل ابتكره بوحى من الاسلام فأجاد وأحسن الابتكار

لفتت نظره الحروف العربيـة برءوسها وسيقانها ، وأقواسها ومداتها ، فخلق منها طرازاً زخرفياً تجلت فيه صور من الجمال شتى : بعضها يجيش بالقوة والجلال ، وبعضها يفيض بالرقة والاناقة . ولقد أرضى فى هذا السبيل الفن الجميل على حساب قواعد الخط ، فضحى بالكثير من هذه القواعد ، وراح يصعد ببعض الحروف أو برءوسها أو بنهاياتها الى أعلى لتكون على مستوى

واحد مع الحروف القائمة ، كما أخذ يرسم أقواساً تحت الحروف التي لا أقواس لها حتى تكون متقابلة مع الحروف ذوات الأقواس . وهكذا سار الخط العربي في سبيل التطور شوطا بعيداً حتى انتهى آخر الأمر الى أن يصبح مجرد زخرفة يقصد بها وجه الفن فحسب

على أن سمو مكانة القرآن في النفوس قد شحذت همم الفنانين الى تجويد الخط عند نسخه ، فضلا عن الاستعانة بالتذهيب والزخرفة ثم التجليد ، فلبست المصاحف حلة من الجمال سائغة حتى صارت تحفاً فنية تعتز بها المتاحف في عصرنا الحاضر ويتنافس الأغنياء في اقتنائها

ولئن كان تشريف الاسلام للقلم وما يسطر قد أنتج فن الخط الجميل ، فان تحريم التصوير قد أثمر ابتداع أسلوب رائع من الزخرفة كان لها في الفنون الجميلة أبعد الأثر

حقيقة ان القرآن لم يتعرض لهذا الفن بشيء ، ولكن كتب السنة المختلفة قد تناولته بشيء من التفصيل إذ ورد بها أحاديث عدة معظمها ينص على التحريم ويوجه الفنانين الى سبيل آخر يسلكونه في فنهم . فلقد روى « عن سعيد بن أبي الحسن قال : كنت عند ابن عباس رضى الله عنهما إذ أتاه رجل فقال يا أبا عباس : « اني انسان انما معيشتي من صنعة يدي واني أصنع هذه التصاوير » . فقال ابن عباس : « لا أحدثك الا ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، سمعته يقول من صوّر صورة فان الله معذبه حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ فيها أبداً » . فربا الرجل ربوة شديدة واصفر وجهه . فقال : « ويحك ان أبيت الا أن تصنع فعليك بهذا الشجر وكل شيء ليس فيه روح » (١)

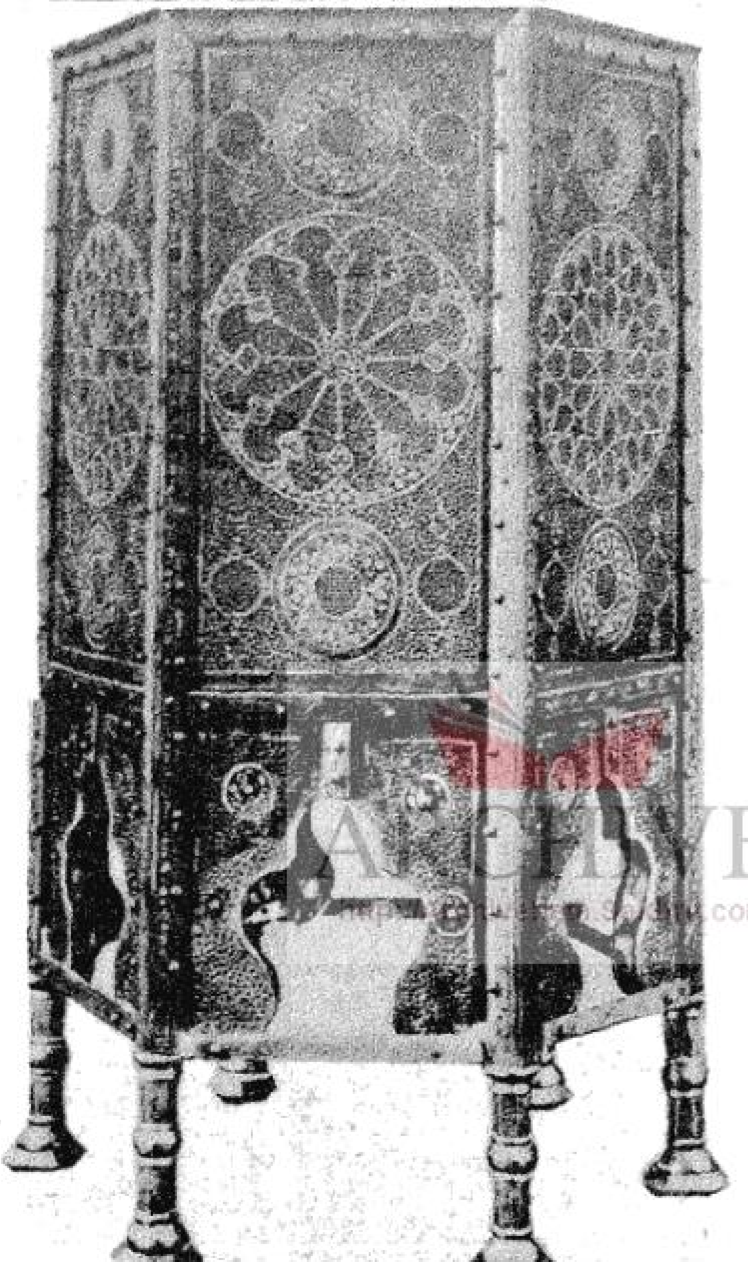
واذا أضفنا الى هذا الحديث قوله تعالى : « كل شيء هالك إلا وجهه » ، « كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » ، استطعنا أن نفسر الأساس النفساني الذي تقوم عليه الزخرفة الاسلامية المعروفة باسم « الأرابسك » Arabesque (٢)

ذلك أن المسلمين جميعاً يعتقدون أن البقاء لله وحده ، وأن العالم بمن فيه وما فيه مآله الى الزوال كما تعبر عن ذلك الآيتان سالفتا الذكر . وقد انعكست هذه العقيدة في فنهم الجميل بأوضح صورة . إذ كان الفنان المسلم يرى أنه ليس من اللائق أن يخلد بفنه شيئاً من هذا العالم الذي كتب الله عليه الفناء ، فليست به حاجة الى تخليد جمال الطبيعة بالنقل عنها نقلا صحيحاً صادقاً ما دامت سائرة الى الزوال

لذلك كان يأخذ من عناصر الطبيعة ما يريد ، ثم يهذب فيها ما شاءت له ميوله ومواهبه ، ثم يكوّن من هذه العناصر المهذبة زخرفة لا تمت الى الطبيعة بصلة ، قوامها أغصان نباتية متشابكة ،

(١) صحيح البخاري كتاب البيوع ص ٨٢ ج ٣ طبعة بولاق سنة ١٣١٤

(٢) لا يمكن أن تترجم هذه الكلمة بالزخرفة الاسلامية لأن هذا التعبير عام ينصرف عند اطلاقه الى كل الزخارف الاسلامية بينما كلمة الارابسك تعني نوعاً خاصاً من الزخرفة هو الذي بيناه فيما بعد


كرسي نحاسي مكفت بالفضة ، من القرن الرابع عشر يتجلى فيه جمال الزخرفة الهندسية الاسلامية

يتفرع بعضها من بعض ، وأوراق أشجار مختلفة يخرج بعضها من بعض ، وأزهار وفواكه وحيوانات منسقة قد تتخلل الأغصان وقد لا تتخللها

وكان يكرر هذه العناصر ، ويغمرها بالتفاصيل الدقيقة حتى تبدو زخرفته أمام الرائى وقدصارت خليطالايستقر النظر فيها على شيء ، ولا ينطبع منها فى الذهن صورة واضحة محدودة لأمر معين ، تحتل بؤرة الشعور . فهى بذلك لا تبعث فى الفنان الغرور بنفسه ، ولا تجعل الناظر اليها يستغرق فى جمالها ، وينسى فى إعجابه بهامبدع الكائنات بل يشغل فكره بالتنقل من غصن ملتف على نفسه الى ورقة نابتة من ذلك الغصن ، الى زهرة متصلة بتلك الورقة ، الى طائر جاثم بين الأغصان وهكذا . على أن هناك عقيدة دينية أخرى من الجائز أن تكون قد أثرت كذلك فى الزخرفة الاسلامية ، مؤداها أن الثبات وعدم التغير من صفات الحق وحده دون مخلوقاته التى من شأنها التغير . قال الله فى حق ابراهيم عليه السلام : « فلما جن عليه الليل رأى



قطعة من النسيج من بلاد إيران ترجع الى القرن الثانى عشر الميلادى ، عليها ...

كوكباً قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون . انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين »

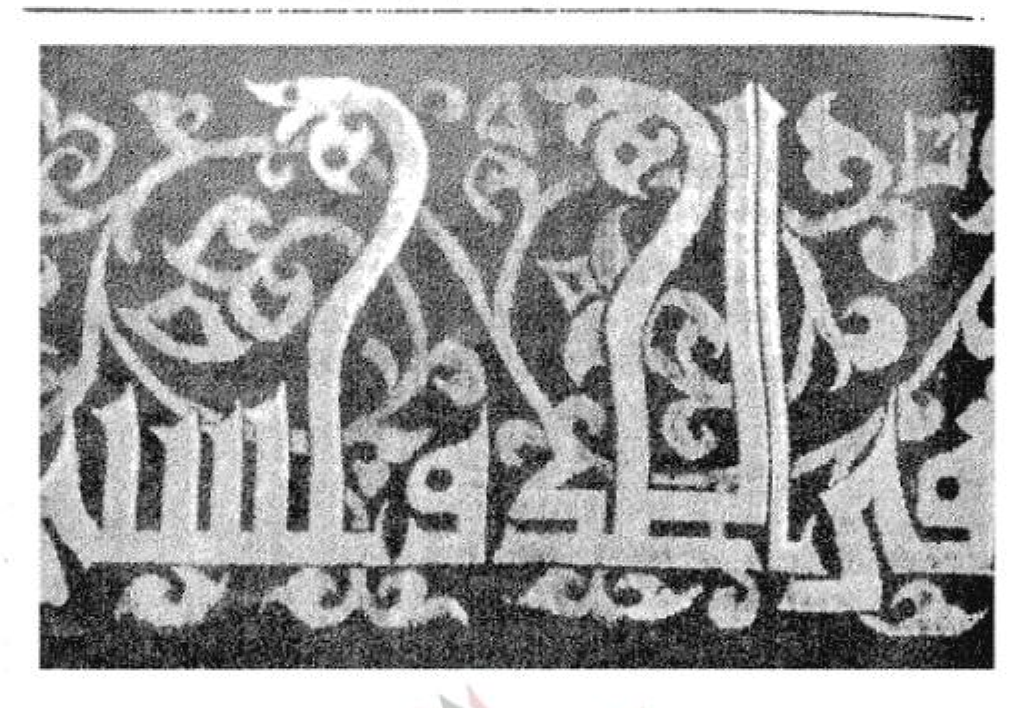
ولقد ترجم الفنان المسلم عن هذه العقيدة فى فنه أحسن ترجمة ، فكثيراً ما نرى زخرفاً مكوناً من طائر له رأس آدمية وينتهى ذيله بفرع نباتى مما يصح اعتباره دالا على ظاهرة التغير التى هى من طبيعة المخلوقات والتى هى من أهم ما يلفت النظر فى الفن الاسلامى . فالمخلوقات تتغير من حالة الى حالة ، وجميعها لديه سواء ، يستوى عنده الحيوان والانسان ، والنبات والجماد ، باعتبار أنها مظاهر لصفات الحق وليس لها الا وجود زائل سائر الى الفناء (١)

وما كانت الزخارف سالفة الذكر وحدها هي التى نتجت عن تلك الافكار الدينية التى أشرنا اليها ، ولكن الفنان المسلم قد اتجه الى الزخرفة الهندسية ، وأقبل عليها يفتن فيها ويبدع ، حتى ليصح لنا أن نقول فى اطمئنان انه بعث فى الزخرفة روحاً من لدنه فبدت فى ثوب من الجمال قشيب لم يكن لها قبل الاسلام . تفنن فى استخدام الاشكال الهندسية المختلفة ، وبرع فى تلك

---

(١) أنظر :

1. Louis Massignon: Les Méthodes de Réalisation Artistique des peuples de l'Islam.
2. Carl Johan Lamm : The Spirit of Moslem Art.



... و وق القبر وحدتي وق اللحد وحشتي » وهي تدل على تطور الكتابة العربية

الزخارف النجمية المتعددة الاضلاع ، وبالغ فى التقسيم والتحليل ، وتأنق فى توزيع الالوان فأتى فى ذلك بالمعجب المدهش

وبرغم تحريم التصوير فى الاسلام واتجاه الفنانين الى تلك العناصر الزخرفية فقد وجدت طائفة منهم ترخصوا فى هذا الامر ، وتسامحوا فيه ، فزاولوا تصوير الاحياء ، وعملوا بعض التماثيل . وقد شمل نشاطهم جميع فروع الفن الاسلامى وجميع العصور تقريبا من القرن الثامن الميلادى الى القرن الرابع عشر (١)

أثر تحريم استعمال الحرير والذهب

ولقد وردت فى السنة أحاديث عدة تنظم استعمال الحرير والذهب والفضة . وما كانت هذه النظم لتصرف الصناع والفنانين عن العمل أو تحد من نشاطهم ، بل بالعكس دفعت بهم الى تهذيب الطرق الصناعية المألوفة لديهم وابتكار طرق جديدة أرضوا بها الفن الجميل ووقفوا عند حدود الدين

أما الحرير فقد حرم لبسه على الرجال إلا لضرورة ، وأبيح للنساء إطلاقا من غير قيد ولا شرط . وقد كان فى هذا التحريم وفى تلك الاباحة غنم كبير للحياة الفنية . ففى ظل التحريم ازدهرت طريقة التابسترى أى الزخرفة المنسوجة من الحرير فى ثوب من الكتان أو الصوف .

(١) موضوع التصوير فى الاسلام من الموضوعات التى اتسع فيها نطاق البحث وتحدث فيه علماء الدين من القدماء والمحدثين ، وتناوله علماء الآثار والمؤرخون من الغربيين والشرقيين وسنفرد له بحثا على حدة

وقد عمت هذه الطريقة مع ما أقره الفقه الاسلامى من جواز اشتمال الثوب على قدر أصبعين أو ثلاثة من الحرير ، فكنت ترى الثوب وقد نسج فيه شريط من الحرير المختلف الالوان ، يتضمن زخرفة مدهشة تدل دلالة قاطعة على مدى ما بلغه المسلمون من الخبرة الواسعة بالاوضاع الزخرفية ، والاساليب الفنية ، والمقدرة الفائقة على اختيار الالوان ، حتى اننا ونحن نشاهد هذه المنسوجات لا ندرى أموضع السحر فيها جمال الزخرفة ، أم التناسق بين الالوان

أما فى ظل الاباحة للنساء فقد تقدمت صناعة نسج الحرير وراجت رواجاً كبيراً ، ولم يمض زمن طويل حتى تسلم المسلمون زعامة تجارته فى العصور الوسطى

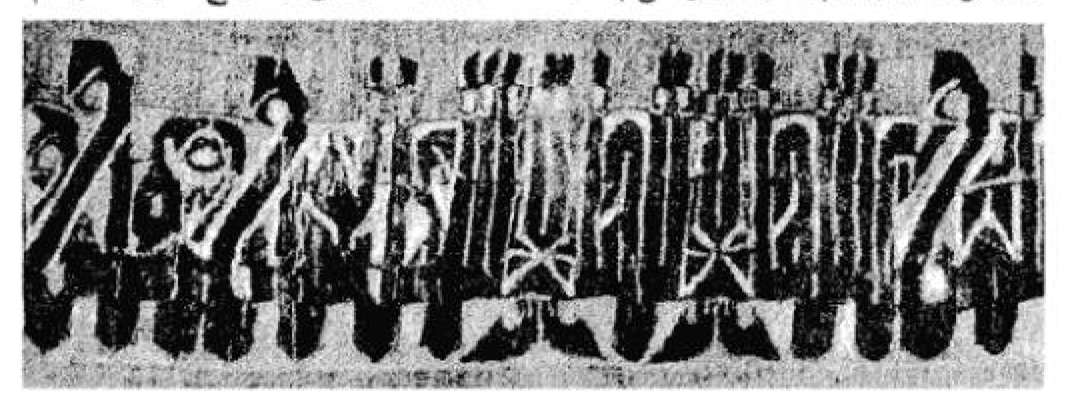
وقد دفع تحريم الصحاف والاوانى الذهبية والفضيـة الصناع الى ابتكار الخزف ذى البريق المعدنى ، كما أثمر فن التكفيت أى تطعيم التحف النحاسية بالذهب أو الفضة أو بهما معاً . وقد امتزجت فى هذه المصنوعات عبقرية الفنان بدقة الصانع فأبدعا تحفا فنية تفصح عن الجمال الفنى والذوق السامى

أثر تحريم الربا

ولقد عاون تحريم الربا فى الاسلام على تقدم الفن ونضوجه وازدهاره وانتشاره اذ دفع بالمسلمين الى استخدام الفائض من أموالهم فى توفير وسائل الترف فى حياتهم . وكان المال الذى توفر لديهم حافزاً لهم على اقتناء التحف ، والسخاء العظيم فى بذل الثمن لها ، مما بعث فى الفنانين روح المنافسة ، فأخذوا يتبارون فى إتقان مصنوعاتهم ويغالون فى زخرفتها

أثر نظام الوقف

وكما عاون تحريم الربا على تقدم الفن فقد ضمن نظام الوقف ــ وهو نظام أوجده الاسلام ــ استمرار الفنانين والصناع والمهندسين ، كما ضمن اطراد حركة التطور فى الفنون المختلفة لا سيما تلك التى تتصل بالمساجد والمدارس من بناء وصناعة وزخرفة . ونحن فى الواقع ندين له بمعظم



قطعة من الكتان عليها كتابة نصها « الحاكم بامر الله لا اله الا الله أكبر معين » وهى تدل على تطور الكتابة العربية



حشـ[illegible] الخشب قد يكون اصلها من احد ابواب القصور الفاطمية تفصح زخرفتها المكونة من رقبة حصان وفروع نباتية (متكررة) عن ظاهرتى التكرر والتغير فى الفن الاسلامى

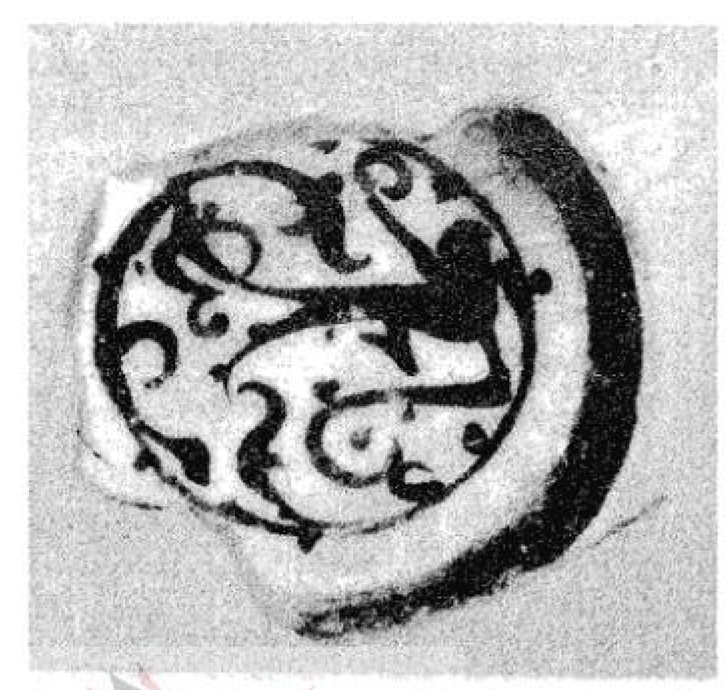
ماوصل الينا من روائع التحف والآثار الاسلامية . هـذا فضلا عن أن فى الوقفيات التى حبست فيها الأعيان المختلفة معيناً لا ينضب من الاصطلاحات الفنية التى تنير للباحث فى الآثار الاسلامية سبيل دراسته

أثر نظام الحسبة ونظام النقابات

ولقد كان لنظام الحسبة ونظام النقابات الاسلامية أثر بعيد فى الفنون الجميلة

أما الحسبة فنظام دينى قوامه الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه ، والنهى عن المنكر اذا ظهر فعله ، والاصلاح بين الناس. وقد كانت أهم أعمال المحتسب مشارفة الأسواق ، والنظر فى المكاييل ، ومنع الغش والتدليس فيما يباع ويشرى من مأكول ومصنوع وغير ذلك من الوظائف التى تقوم بها وزارات الداخلية والصحة والشئون الاجتماعية فى نظامنا الحديث

أما النقابات الاسلامية فسواء أكانت ترجع فى أصلها



قطعة من الخزف من القرن الثالث عشر تفصح زخرفتها المكونة من طائر وفروع نباتية عن ظاهرة التغير فى الفن الاسلامى

قطعة من الخزف من القرن الرابع عشر عليها صورة سمكة قد غيرها الفنان الى زخرفة نباتيه ، وهذا يفصح كذلك عن ظاهرة التغير

الى النقابات البيزنطية التى كانت موجودة قبل الاسلام، أو كانت من ابتداع الفرق الدينية الاسلامية كالاسماعيلية وغيرها فانه نظام ازدهر وارتقى فى ظل الاسلام، وساهم بأوفر نصيب فى تقدم الصناعة، إذ كان لكل صناعة نقابة خاصة يرأسها شيخ الصنعة ويليه النقيب ثم الأساتذة ثم الأسطوات ثم المبتدئون. وكانت أسرار الصناعة تدرس عمليا فى هذه النقابات. وكان لكل منها قانون يدور حول حماية المستهلك والمنتج على السواء. فيضمن للاول جودة المصنوع واتقان الصناعة، ويضرب بيد من حديد على الغش والتدليس. ويضمن للثانى سهولة الحصول على المواد الخام اللازمة لصناعته، ويمنع الاحتكار الذى يضر بالعمل، ويسعى لرفع مستواه الاجتماعى. ولقد قضى على هذا النظام بعد أن تغيرت الأسس الاقتصادية التى تسير عليها الأمم الاسلامية فى الوقت الحاضر. على انه لم تزل له مظاهر تذكرنا به أهمها سير نقابات الحرف المختلفة فى موكب اثبات رؤية هلال رمضان



حشوة من الخشب قد يكون اصلها من احد ابواب القصور الفاطمية تبدو زخرفتها من نوع الارابسك (من القرن الثانى عشر)

وأما الأثر الذى أحدثه هذان النظامان فيكاد ينحصر فى تحسين المنتجات الصناعية والعمل على رفع مستواها، والعناية باخراجها فى أحسن صورة ممكنة. فى ظل النقابات واشراف المحتسب خطت الصناعات الاسلامية خطوات واسعة فى سبيل الرقي حتى بلغت الغاية القصوى وعندئذ سمت عن دائرة الصناعة المألوفة الى مستوى الفن الجميل

الى اليمين : قطعة من الخزف ذى البريق المعدنى من القرن الثانى عشر ، عليها زخرفة مكونة من طائر له رأس آدمية وينتهى ذيله بفروع نباتية . وهى تفصح عن ظاهرة التغير



تمثال من البرونز من القرن الرابع عشر يمثل ضاربة على الدف جالسة متربعة يعلو رأسها تاج مرصع عثر عليه فى اطلال الفسطاط . وهو يدل على ان بعض المسلمين تسامحوا فى صناعة التماثيل

يضاف الى كل ما تقدم ما عرف عن الاسلام من التسامح فى كل ما يتصل بمباهج الحياة ما دامت لا تتعارض مع أصوله فى شىء ، وما دامت لا تخرج عن دائرة الاعتدال . فلقد شحذ فى الانسان قوة الملاحظة وهى من أسس الفنون الجميلة ، وبصره بما فى الوجود من زينة وحببها اليه : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » . فأقبل المسلمون على الفنون الجميلة زاولوها بنفس راضية مطمئنة ، وأخرجوا ذلك الفن الرائع الذى ترك فى فنون أوربا أثراً اعترف به الغربيون قبل أن يفكر الشرقيون فى دراسة الفن الاسلامي

فالحروف العربية ، والزخارف الاسلامية نباتية كانت أو هندسية قد لعبت جميعها فى فنون أوربا دوراً هاما . والمصنوعات الاسلامية من خزف وزجاج ، ومعادن وعاج ، ومنسوجات وسجاد ، كلها كانت مثلا تحتذى فى بلاد الغرب

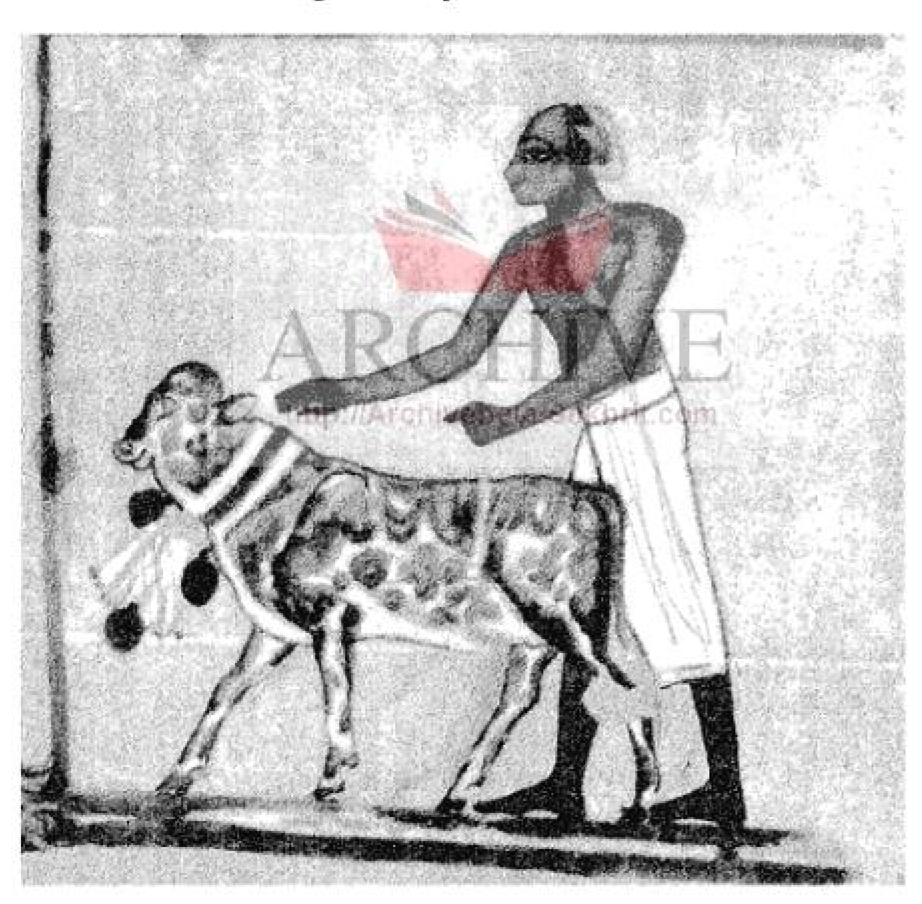
كما أن مشهورى المصورين فى عصر النهضة الأوربية أمثال روفائيل وهلبين وغيرهما اعما يدينون للسجاد الشرقى فيما وصلوا اليه من الابداع فى تلوين الكثير من لوحاتهم الخالدة

محمد عبد العزيز

مشاهد من الحياة العامة عند قدماء المصريين

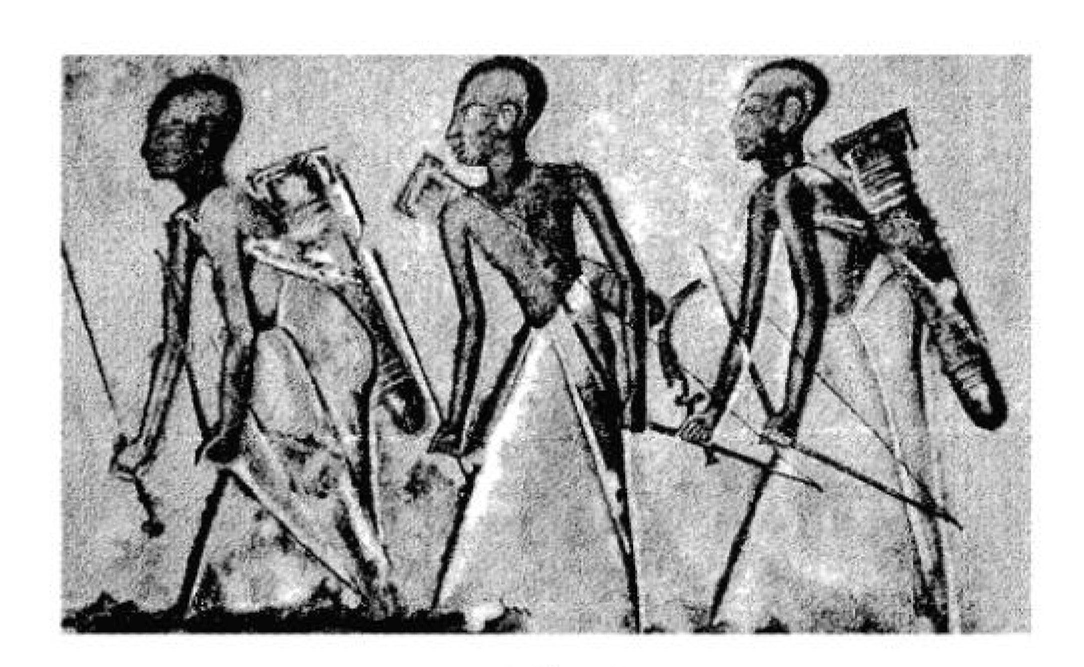
توارثها الاحفاد عن الاجداد فى مدى ثلاثين قرنا

تزدان آثار أجدادنا قدماء المصريين ، من معابد ومقابر وغيرها ، بكثير من مناظر الحياة العامة فى تلك العصور الغابرة التى تفصل بينها و بيننا آلاف السنين . وقد جمعنا على هذه الصفحات بعض المشاهد المنقولة من آثار عصر الامبراطورية الحديثة الفرعونية (منذ حوالى ٣٠٠٠ سنة) وهى من محتويات القسم الفرعونى فى متحف فؤاد الأول الزراعى . ومن عجب أن معظم هذه المشاهد شبيه بمظاهر من حياتنا العامة فى هذا العصر ، بل منها ما ورثناه عن أجدادنا دون كثير من التحوير أو التبديل



ثور الضحية

فلاح يسوق ثوراً من النوع المبرقش العديم القرون وقد زين عنقه بزهر اللوتس وثمار الرمان دليلا على التضحية ، وهذا الرسم من إحدى مقابر الأقصر حوالى سنة ١٤٠٠ ق . م . ولقد كانت الثيران تفضل فى التضحية فى المواسم والحفلات الدينية على غيرها من الماشية



الجند شاكو السلاح

جند الملك رمسيس الثالث (١١٩٨ ـ ١١٦٧ ق . م) كاملو العدة يحملون الأقواس والسهام والخناجر

قاطفو العنب وصيادو الطيور

هذان رسمان يرجع تاريخهما الى ١٤٢٠ سنة قبل الميلاد . فأولهما يمثل قطف العنب وعصره وتخزينه ، ويلاحظ أن العنب كان ينمو على « مكعبات » كما ينمو اليوم . أما الثانى فيمثل صيد الطيور بالشباك وتنظيفها وتعليقها ، ولا تزال الشباك عماد الكثيرين من صيادى الطيور فى مصر خصوصا فى صيد السمان

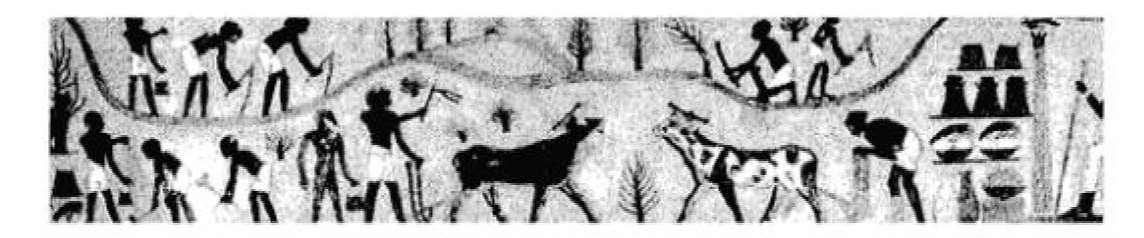


التعاون الزوجي

تعاون الفلاحة المصرية المعاصرة زوجها معاونة فعلية فى جميع انواع عمله ، ولم تكن الفلاحة المصرية القديمة أقل معاونة لزوجها الفلاح من حفيدتها ، فهذه زوجة حصاد قد أتت اليه فى الحقل تحمل اليه الماء ليروى ظمأه وحلت كيسا لتجمع فيه ما يحصده من سنابل القمح الناضجة (من احدى مقابر طيبة من عصر الدولة الحديثة حوالى ١٤٠٠ ق . م)

« بعجر بعجر »

هذان راقصان مصريان من القدماء يرقصان على طريقة « بعجر بعجر » التي ما زال بعض العامة يرقصونها في بعض أنحاء مصر . ويلاحظ انه قد تدلى من غطاء رأس الراقصين كرتان تدوران حولهما اثناء رقصهما (من مقابر الاقصر من عصر الدولة الحديثة)



العمل في الحقل

الشريف ناخت في مظلته يراقب الحرث والبذر في الحقل حيث يقوم الفلاحون بقطع وتقليع الحشائش وتكسير سطح التربة بالفوس (من احدى مقابر طيبه حوالى ١٤٢٥ ق . م) ، وما أشبه هذا المنظر بمنظر صاحب الزراعة المعاصر أو ناظر العزبة وهو يشرف على زراعة الارض



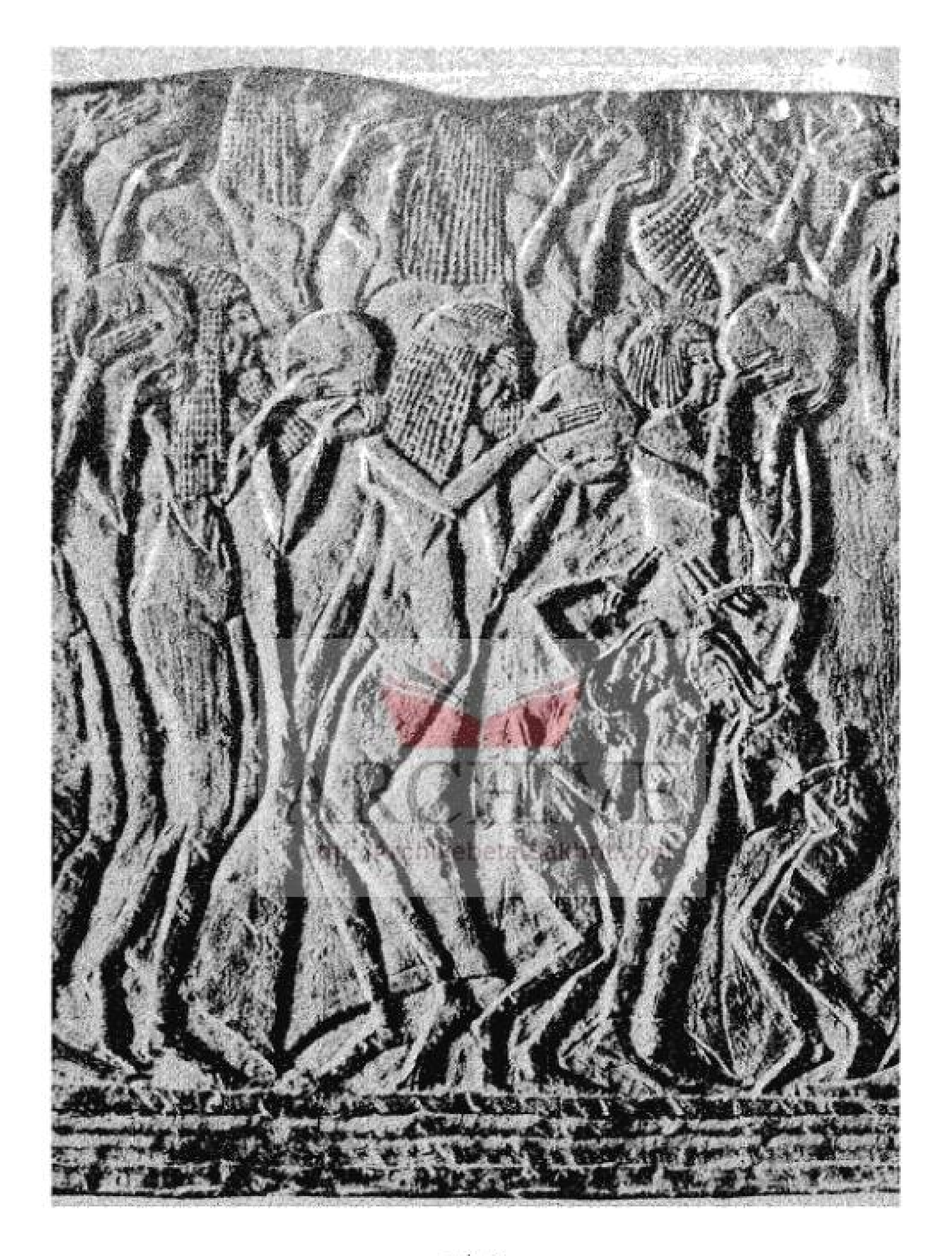
الملك يفتتح موسم الحصاد

يفتتح الملوك والزعماء المعاصرون مواسم الحصاد السنوية فى بعض الدول الزراعية . ولقد سبق قدماء المصريين المعاصرين الى هذا التقليد ، فى هذا الرسم ترى الى اليمين الملك رمسيس الثالث (١١٩٨ — ١١٦٧ ق . م) يفتتح موسم حصاد القمح وقد أمسك المنجل بيمناه مفتخراً بحصد أول قبضة من القمح الناضج ، والى اليسار تراه يتعبد الى إله النيل شاكراً له فيضه الذى أنتج الحب ووفر القوت لسكان أرض مصر



الري بالشادوف

وهذا فلاح من قدماء المصريين يروى حديقة معبد بالشادوف وحوله أشجار الرمان والزيتون واللوتس والبردى والعنبر . فهذه الطريقة التي كان يمارسها المصريون حوالى سنة ١٣٠٠ قبل الميلاد ما تزال شائعة معروفة في جميع جهات القطر المصري



نادبات

نساء ثكالى ، ينتحبن ويثبن حزناً وأسى ، ويندبن وقد أمسكن في أيديهن بالطار كما تفعل « الندابات » الآن

الركن الاسلامي

في حياة كمال أتاتورك

بقلم الاستاذ محمد محمد توفيق



وضع الاستاذ محمد محمد توفيق مؤلفاً نشرته دار الهلال عن سيرة كمال أتاتورك ولقي من الرواج والاعجاب من مختلف الاقطار الشرقية ما يستحقه . وترجم الى اللغة الايرانية ونشر في إيران فراج رواجاً كبيرا . وهو يحدث القراء الآن عن جانب لم ينشر من حياة بطل تركيا الأوحد ومنقذها العظيم

كانت حياة كمال اتاتورك رحمه الله مثلا خالدا من مثل البطولة والتضحية ، وكانت سياسته القومية لانقاذ تركيا ورفعها الى مصاف الدول المستقلة ذوات السيادة والقوة والمنعة من اسمى السياسات في مختلف العصور

وليس في حياة كمال اتاتورك من مطعن الا الناحية الدينية • فقد كان العالم الاسلامي يود أن يتوج الدين تلك النهضة المباركة ويرعاها ويضفي عليها الخير والبركة • وما درى المنتقدون أن تركيا الحديثة لها ناحيتها الدينية التي لا تخفى على الدارس المنزه عن التعصب والتحيز

وبدهي ان الغاء الخلافة التركية لا يعد خروجا على الدين • وليس ثمة ما يمنع من قيامها في أي قطر اسلامي آخر اذا توافرت فيه القوة والسيادة الدنيوية

وبدهي أيضا أن الحكومة العلمانية لا تعني حكومة لا دينية ، وانما هو تعبير قانوني دولي عن الدولة التي لا تتحيز لدين من الاديان طالما أن الشعب الذي تتألف منه يدين بأكثر من دين سماوي • وكل هذا الثوب الحديث ليس الا لونا جديدا تغطى به تركيا الجمهورية ماضيها القديم الذي قام على القوة والفتح فلما اضمحلت القوة وزالت الفتوحات لم يعد بقاؤه ممكنا ولا في الطوق الحفاظ عليه

انما المهم هو هذه الشعلة الدينية المقدسة التي تتجسم في هتاف الجيش التركي عند الحرب : الله •• الله !

هو هذه المساجد العامرة بالمصلين من الشعب والشباب ، وقد رأينا ذلك ورآه غيرنا ممن

كتبوا فى هذا الموضوع . والصلاة مع الشعور بالعزة والقوة والكرامة اعمق وابلغ من صلاة الخائف أو الذليل

هو توقير الزى الدينى بتحريمه على غير المشتغلين بالدين

هو تنزيه الدين عن الشوائب بقصر تعليمه على معهد عال يدخل ضمن كليات الجامعة

هو ابعاد الدجالين امثال ابى الهدى ، والنصابين والكسالى من القابعين فى التكايا

هو غير هذا وذاك مما اعجب به اشد الغيورين على الدين من الشرقيين

ولست أود ان اسهب فى كل ذلك وانما هى عجالة ادخل بها فى صميم الموضوع الذى اخترته للهلال واحب ان يتفضل بنشره مشكورا

ايمان اتاتورك

لم يكن كمال اتاتورك كافرا والعياذ بالله ، بل كان مؤمنا ، والله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء

وأول مظاهر ايمانه الاعتداد بالقوة ، وان لا بقاء لشعب ضعيف ، ومن ثم لا دين له ورمز القوة عند كمال سيفان أهديا اليه من العالم الاسلامى يتوسطهما مصحف شريف . وهذا الرمز كان ـ وما يزال ـ معلقا فى قاعة مكتبته التى كان يجلس اليها حال الكتابة والعمل رحمه الله

وفى هذا الرمز ابلغ معانى الايمان : فالدين والدنيا ، العبادة والجهاد هما رمز الاسلام وشعار العالم الاسلامى عندما كان الدين قويا عزيزا منيعا فى عهد الصحابة والخلفاء الاربعة ومن تبعهم من الائمة والفاتحين

وهذا الرمز نفذ مغزاه عمليا ولم يعلق على الجدار فوق رأس اتاتورك رياء ولا نفاقا . وكم من رموز تعلق نفاقا ، وكم من مظاهر دينية يتظاهر بها الناس نفاقا . والنفاق اخبث عناصر الشر فى بنى الانسان

وقد جاء اتاتورك يطبق مبادىء العزة والقوة وهو رجل حرب . ولم يتح له تطبيق قواعد الدين لسببين : أولهما ان الشعب نفسه متدين ، والسبب الثانى انه ليس رجل دين فى زمن خرجت فيه ظروف المسلمين عن مجراها القديم واصبح المسلم اما ان يصبح رجل دنيا واما ان يكون رجل دين ، ولم تسر الثقافة الحديثة ولا عملت الحكومات على الجمع بين الدين والدنيا فى جميع افراد الدين الواحد . ولم نسمع عن عصر الصحابة الذهبى ان فلانا كان رجل دين وعلانا كان رجل دنيا ، انما كان الصحابة جميعا مجتهدين فى الدين ، ومحاربين ، ورجال دولة وسياسة وزراعة وتجارة وصناعة فى الوقت نفسه

فأتاتورك انقذ وطنه من الكوارث والدمار ورفعه الى مصاف الدول الكبرى بقوة استوحاها من الرمز الذى نصبه لنفسه وبهتاف « الله .. الله .. » عند القتال .. وما حارب شعائر الاسلام معاذ الله ، ولكن حارب الدجالين والمخادعين واصحاب العمائم الخضر والحمر

والسود ممن يتكسبون ببيع البدع للبسطاء • وصان وقار رجال الدين بقصر ازيائهم ووظائفهم على ذوى الاجازات العلمية منهم • وتوسل ببضع كلمات تخط على ورقة الدستور للتملص من ايذاء الاجانب وادعاءاتهم الباطلة للابقاء على امتيازاتهم • وهذه الكلمات لاقيمة عملية لها كما نعرف عن يقين • ففى الوقت الذى تقول فيه المادة الاولى من الدستور ان الدولة علمانية ، نرى المجلس الوطنى الكبير يخرج احد الاتراك من الجنسية التركية لانه ترك الدين الاسلامى • وفى الوقت الذى يباح فيه زواج المسلمة من غير المسلم ، نرى ان هذه المسلمة اذا ما تزوجت اجنبيا خرجت من الجنسية التركية • اما زواجها من غير مسلم من رعايا الحكومة التركية فلا يسمح به بحال من الاحوال • وفى الوقت الذى تقول فيه الحكومة انها علمانية نراها تضحى باضاح حكومية فى عيد الاضحى • الى غير ذلك مما يعرفه الخاص والعام • انما هى حكمة ووسيلة مشروعة ـ وقد اجاز الدين للمسلم اخفاء شعائره عند الخوف من عدو قوى ـ نقول انها وسيلة مشروعة للتخلص من اغلال امتيازات جائرة وغير مشروعة بنقل خلاصة القوانين الاوربية الى تركيا لئلا يكون لدولة اجنبية حجة على الترك عند محاكمة رعاياها امام المحاكم التركية

اتاتورك يتداوى بالقرآن

وأى دليل على ايمان اتاتورك ابلغ من انه كان رحمه الله يتداوى بآى الذكر الحكيم قال الله تعالى : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين »

وكان كمال اذا اصيب بمرض أو نوبة شديدة يتداوى بما فى القرآن الكريم من شفاء ورحمة

وكان الداء العضال او النوبة الشديدة تزيلهما باذن الله تلاوة القرآن من شيخ تركى وقور كان اتاتورك يتوسم فيه الصلاح والتقوى ويتبرك به

ولست أذكر اسم هذا الشيخ الصالح • ولكننى أعرف عن يقين ان كمالا كان يزوره كثيرا ليتلقى دعواته الصالحات • وسمعت ممن أثق فى اقوالهم انه اصيب مرة بنوبة شديدة كادت تودى بحياته • واشيع فى انقرة فعلا ان اتاتورك مات • وكان ذلك فى عشية يوم احتجب فيه الزعيم • فما كان من كمال الا ان طلب استدعاء شيخه الصالح فى منتصف الليل ليداويه بتلاوة القرآن •• فاندهش الاطباء وظنوه يهذى • ولكنه اصر على استدعاء الشيخ ـ وكان يقيم فى بلد بعيدة عن انقرة ـ فأمر ضابط تركى طيار بالتوجه بطائرته الى بلدة الشيخ والعودة به على جناح السرعة •• وقد كان • وطار الضابط الى بلد الشيخ وذهب الى منزله وايقظه من نومه وقص عليه النبأ •• فاستمهله الشيخ الى الصباح ولكن الضابط لم يمهله • وحمله حملا الى الطائرة والشيخ لم يركب الطائرة فى عمره ، وبدهى ان يتردد فى ركوبها ، ويخشى اخطارها واهوالها •• ولكن الضابط اقنعه بان الرحلة ستكون ممتعة وسليمة من الاخطار ••

وبعد مدة وجيزة كان الشيخ الصالح على سرير اتاتورك المريض .. فتلا آيات من القرآن الكريم ونفخ من زفيره حوله ، ودعا له بالحياة والصحة ..

وبقوة الايمان وحدها قام اتاتورك من فراش مرضه - بل من فراش موته .. قام صحيحا قويا وذئبا اغبر اللون متألق العينين على عهد الناس به .. وفى صبيحة اليوم التالى هبط من عرينه على زابية « تشان قايا » الى انقرة ، وتوجه الى المجلس الوطنى الكبير ، وخطب فيه اكثر من ساعتين بصوته العميق السحار وسط دهشة النواب الذين لم يصدقوا أعينهم فقد ترامى اليهم نبأ موته ، فكان كالذى يبعث من الموت !

خطبة الخلافة الدينية

والذى يقرأ خطبة كمال اتاتورك فى المجلس الوطنى الكبير عند الغاء السلطنة والخلافة يندهش من المامه الواسع بسيرة المصطفى صلوات الله عليه ، واخلاصه وحرارته فى خطبته

كان اتاتورك فى هذه الخطبة يروى جوهر الدين الاسلامى بحرارة المؤمن القوى الايمان . ويتحدث عن الرسول صلى الله عليه وسلم حديثا كله قوة وسحر . ويثبت ان الخلافة لم تعد بعد الخلفاء الراشدين ذات معنى دينى وانما غدت ملكا عضودا . ويعرض لتنقلها بين الشرق والغرب ، وبين دول اسلامية شتى ، والتلاعب بها وسط عواصف سياسية وتيارات حربية جارفة ، ثم انتقالها الى تركيا بعد فتح السلطان سليم لمصر وقد غدت شبحا هزيلا يتلاعب به الحاكم ولا يخرجه الا فى المواكب الصوفية ، فيجمع بين ايمان المسلم ودقة المؤرخ الاسلامى مما لم نقرأه فى أى مقال أو كتاب عن الخلافة الاسلامية .

فهو اذن مؤمن بان الخلافة لم تعد من الدين فى شىء .. وهو اذ يلغى الخلافة لا يمس الدين بضر والعياذ بالله ، انما يمحو آثار تراث خرج عن جوهره وغدا شكلا وهميا لا عبرة به وما له من خطر . وهو لا يلغيه الا لضعف تركيا عن تحمل اعبائه وما يوحيه فى الدول الغربية من التعصب والحقد والعمل على زوال هذا الكابوس الذى قد يهددها يوما ما .

وما دامت الخلافة قد انتقلت الى تركيا من غيرها ، فلم لا ينقلها قطر اسلامى آخر اليه اذا توفرت فيه القوة والسيادة .. اما هو فقد رأى أن تركيا لم يعد فى طوقها تحمل اعباء الخلافة اكثر مما تحملتها

يشرع فى وضع كتاب فى السيرة

وكأن اتاتورك شعر بأن بعض المسلمين يتشككون فى عقيدته ، فهم فى أواخر ايام حياته بوضع كتاب فى السيرة المحمدية ..

نعم .. كمال اتاتورك الذى درس السيرة فى مصادرها المختلفة ، هم بوضع كتاب فيها يتكلم فيه عن سيدنا محمد البطل ، القائد ، المحارب ، الثورى ..

وقد يكون كتب فصولا من هذا الكتاب قد تظهر فى المستقبل . ولكن يكفى انه انتوى

وضع هذا الكتاب عن نبينا الكريم دون غيره ـ وان يكون هذا الكتاب مؤلفه الوحيد فى حياته ـ لندرك ناحية من نواحي ايمانه القوى واسلامه المكين

وكأنه ايضا رأى غلبة البدع على جوهر الدين عند عامة المسلمين ، فأحب ان يصدر لشعبه كتابا فيما كان عليه الاسلام فى عصر الرسول ، ليقول ان الاسلام ليس عبادة وحسب انما هو عبادة وجهاد ، ونصر ومجد أو استشهاد ، واختار من سيرة الرسول الناحية الثورية والحربية ليحمل شعبه على الثورة على كل ما ليس من جوهر الدين ، والاستمساك بعقيدة البقاء مع القوة فى عصر يزول فيه الشعب الضعيف وتدوسه الاقدام

وقصة الاخوين اللذين كان احدهما يتعبد والآخر يعمل ، وان الذى كان يعمل ثبت انه أعبد من أخيه ، مشهورة ومعروفة ..

ولو كان اتاتورك مجتهدا من مجتهدى الدين الى جانب عبقريته الحربية والسياسية لكان له فى الشرق الاسلامى شأن آخر . ولكن يكفى انه كان مؤمنا . وانه لم يثر ولم ينبذ الا ما ثبت انه ليس من الدين ، وانه صان جوهر الدين بما اشرت اليه فى اول هذا المقال من عمل على توقير العلوم الدينية والعلماء

نعم هو لم يسق المسلمين الى الصلاة بالسياط كما كان يفعل عمر بن الخطاب . ولكن اين هو عمر ، واين هو ابو بكر ؟ ان بيننا وبينهما ثلاثة عشر قرنا أو تزيد انحط فيها المسلمون وضعف الايمان فى قلوبهم

ولكن يكفى انه صاغ شعبا جديدا . ودولة قوية بهتاف الحرب « الله .. الله.. »

ويكفى انه محا البدع وحارب الجهل والخرافات التى ليست من الدين وواجب على رجال الدين انفسهم ان يحاربوها

وسياسته بعد ذلك كانت اطلاق الحرية لمختلف العبادات

وبقى عبء النهضة الدينية على هذا الاساس الجديد على كواهل علماء الترك دون غيرهم من رجال الدولة

واحسب انه من الجور ان نطالب كمالا برسالة دينية مع رسالته الحربية والسياسية ، فكل ميسر لما خلق له

محمد محمد توفيق



أعداء انجلترا الخمسة

بقلم سر تشارلز بيتري

التاريخ يعيد نفسه ، هذا ما أثبتته الحرب القائمة مرة أخرى ، فما يحاول هتلر اليوم الا ما حاوله من قبل فيليب الثانى ولويس الرابع عشر ونابليون الأول وغليوم الثانى ، أولئك الذين أرادوا أن يبسطوا سيادتهم على أوربا كلها ومن ورائها العالم جميعاً ، وتجاه كل رجل من هؤلاء الخمسة وقفت بريطانيا تعترض طريقه وتجابه إرادته ، فتطفىء جذوته بعد أن احتدم لهيبها ، وتطوى آماله بعد ان شارفت ذروتها.

فيليب الثانى ملك اسبانيا (١٥٤٧ ـ ٩٨)

أخلص هؤلاء الرجال أمراً وأصدقهم قولا . وقد أتاه من الفرص السانحة أكثر مما آتى الآخرين ، فكانت انجلترا فى عهده واهنة القوى مفككة النواحى، بينما كان عدوها يسيطر على أرجاء أوربا وعلى آفاق أمريكا بأسرها



فيليب الثانى

كانت أخلاقه مزيجاً غريباً من الكبرياء والتواضع . فقلما نجد على العروش من يماثله فى أبهة الملك وسطوة الحكم وقسوة القلب التى تلغ فى الدم وتقارف الجريمة . ولكن عند ما كان يقيم قصره الباذخ « الاسكوريال » كان لايتحرج من أن يخالط العمال يمازحهم ويجاريهم ، ويقصد معهم يوم الاحد الى قسيس القرية يتلمس منه البركة والرضى . وكان يرعى الفنون الجميلة رعاية كريمة باذخة ، ويحب الاطفال ويداعبهم ، ويعشق الزهور ويزهو بزينتها ، وكما اعتقد لينين أن رسالته هى اتخاذ روسيا وسيلة يشيع بها الشيوعية فى العالم جميعاً . كان فيليب يشعر أن واجبه هو حشد كل قوى أسبانيا لتعزيز الكاثوليكية والقضاء على جميع الكافرين بها

كان متعصباً الى حد لم يتردد عنده من أن يسفح الدم فى سبيل غايته . ولكن هذا التعصب

كان يجمح به الى وسائل تضحك منه وتزرى به ، فمن ذلك أنه جاء الى انجلترا يخطب يد ماري تيودور ، فأخذ يشرب البيرة وسط الناس حتى يثمل ويترنح ويعربد عسى أن يؤلف قلوب الناس ويحظى بمودة الجماهير !

ولكنه أخفق فى تحقيق غاياته لأنه اصطدم بعرش انجلترا حين تربعت عليه اليزابث التى كانت تماثله حزماً صارماً وارادة عنيفة ، وتتفوق عليه فى الذكاء والخديعة والحيلة ، فاستطاعت هى ووزيرها برجلى أن يلعبا بفيليب أمداً طويلا ريثما تعتد انجلترا بما يلزمها من وسائل الدفاع حتى تلقاه آمنة خطره صامدة لأذاه

وكان رأى هذا الملك الاسبانى فى الشعب الانجليزى رأيا طائشاً ، إذ حسب انه لن يؤيد مليكته فى دفع عاديته حين يغزو بلاده ، هذا الى أنه كان يجهل كثيراً من أمر الحرب فى البحر وعدتها وخطتها

ورغم أن أسطوله الأرمادا كان أعظم قوة عرفها العالم فى ذلك الحين ، إذ كان مكونا من ١٣٢ سفينة حربية تحمل أكثر من ثلاثين الف بحار عدا عدد عظيم من القسس والرهبان يزكون نار الحماسة فى القلوب صائحين بالليل والنهار « فلتقم أيها الرب ولتثأر من أعدائك » — رغم ذلك ارتد فيليب الثانى مدحوراً بعد أن غابت الأرمادا فى جوف المحيط ، وذلك عند ما لقيه الشعب الانجليزى تحت إمرة اليزابث التى هبت الى المعركة وهى تقول : « إما أن أعيش وسط شعبى واما أن أموت فى طليعته . فى سبيل الهى ووطنى وشعبى أهب دمى . انى امرأة ضعيفة الجسم ، ولكنى أحمل قلب ملك — ملك انجلترا »

لويس الرابع عشر (١٦٣٨ ــ ١٧١٥)

هو العدو الثانى وكان من طراز آخر فلم يكن الرجل الغارق فى اللذائذ المنصرف الى الاهواء كما يصوره بعض القصص والمؤرخين ، فهو وان أسرف فى ارضاء نفسه واظهار بذخه فى عهد الشباب الا أنه لم يهمل يوما ماواجبه قبل فرنسا . ولكنه وقع فى الهفوة الكبرى حين ظن أن لا سبيل الى ضمان سلامة وطنه الا بأن يتحدى جيرانه ، فخرج به من منطقة الدفاع الى دائرة الهجوم ، وجر عليه بذلك شر الجرائر


لويس الرابع عشر

ومن أهم الأخطار التى تنجم عن الحكم المطلق والسيطرة التامة اغراء الحاشية والجمهور بالملق والنفاق . فاذا أحيط المرء بكل ما أحيط به لويس من الزيف والفتنة والخداع ، صار

عسيراً عليه أن يحتفظ بالرأى الصادق والحكم السديد ، فأدى به هذا الى طريق سار بين أشواكه وأخطاره شوطاً طويلا دون أن يتنبه الى مصيره القاتم ، حيث ينقلب عليه القدر فيفوق اليه السهم السام

ومع هذا فقد كان لويس عظيما فى ساعة هزيمته أكثر مما كان عظيما فى ذروة سطوته . فى سنى حكمه الاخيرة عندما كانت فرنسا تترنح تحت الضربات التى هوت عليها من قبضة القائد الانجليزى مارلبورو كان لويس الشيخ يمثل وطنه المتألم العانى ، فاستطاع ببراعته السياسية أن ينقذ فرنسا من الهزيمة المنكرة ووخيم عاقبتها

ولم يمقت لويس يوما خصومه الانجليز كما مقتهم نابليون أو هتلر ، ولكنه ظل دهراً يقلل من شأنهم ويزدريهم . وكان على حق فى هذا فانه كان يأجر مليكهم شارلز الثانى ـ الذى عاش فى رحابه أثناء نفيه من انجلترا فى عهد كرومويل ـ بمعاش من المال ، مع انه لم يكن بالرجل الذى يوثق به ويعتمد عليه ، وكذلك كان ثمة عشرات من رجال البرلمان الانجليزى يقبلون على أنفسهم الرشى الفرنسية ، ولم يستطع لويس أن يدرك إلا بعد فوات الأوان أن هذا الملك وهؤلاء الساسة ليسوا هم « انجلترا » ، فلما أراد أن يفرض على عرشها شخصا معينا ، انتفض الشعب الانجليزي رجلا واحداً يقاومه ويحاربه ويهزمه

نابليون (١٧٦٩ ـ ١٨٢١)


نابليون

هو ثالث أعداء انجلترا من حيث الترتيب التاريخى وأولهم جميعا من حيث ما أحدث من الفزع والألم فى النفس الانجليزية . وقد قال عنه قاهره ولنجتون هذه الكلمة الصائبة : « انه لم يكن جنتلمان » . وهذا حق بدليل هاتين الحادثتين ، فانهما تؤكدان رأى القائد الانجليزى : فقد سير ذات مرة كتيبة من جنوده الى الموت ، وهو على بينة من مصيرها الفاجع لتشهد احدى خليلاته كيف يكون هجوم الجيوش ، كما أعلن انه يمنح مكافأة كبرى لمن يغتال خصمه ولنجتون . وكذلك كان يرى فيه وزيره تاليران رأى خصمه الانجليزى ، فقال لقيصر روسيا : « ان نابليون ليس رجلا متمدينا » . وكذلك وصفه مؤرخ انجليزى حديث بأنه : « أمبراطور ذو وجهين : وجه رجل ووجه وحش »

ولكن اذا كان نابليون الرجل لا يستحق أن يذكر كثيراً فان نابليون الجندى يستحق أن

يطرى دائماً . فالناس يتكلمون الآن كثيراً عن شىء اسمه « حرب الاعصاب » ، ولكن أجدادنا عرفوا هذه الحرب العنيفة فى عهد نابليون . فقبل أن يغرق نلسون أسطول العدو فى الطرف الأغر ، كان الانجليز فى فزع دائم من أن يتمكن الجيش الفرنسى على حين غرة من أن يعبر اليهم البحر ويستقر فى أرض انجلترا ، وكان يقال إن ثمة ريحا معاكسة قد تحمل اليهم وتلق بينهم أعظم جندى عرفه التاريخ

وهكذا كانت حرب هذا « الكورسيكى » حرب أعصاب . فكم جمعت الحكومة البريطانية حولها من حلفاء كان يرجى منهم النصر والغلبة ، ولكنهم لم يلبثوا أن سقطوا صرعى تحت مطرقة نابليون العاتية ، ووقفت انجلترا أمام عدوها الرهيب عزلاء من الانصار

وكان نابليون يعرف ان انجلترا تعيش بتجارتها ، ولكنه لم يتبين أبداً أنه ما دامت تسيطر على البحر المحيط بها فلن يكون حصارها نافذاً مجدياً . نعم ، إن النظام القارى المشهور الذى أعده لمنع التجارة مع الجزر البريطانية فيموت أهلها فقراً وجوعا قد أدى الى تحميل هذه الجزر خسائر جسيمة ، ولكنه أدى كذلك الى تحميل شعوب أوربا الصغيرة خسائر أفدح وأقسى

ولا شك ان نابليون كان يتوقع أن تغني التجارة المتبادلة داخل القارة الأوربية بين فرنسا وما يحالفها ويخضع لها من الشعوب عن التجارة الخارجية التى كانت ترد الى أوربا وتصدر منها عبر البحار . ولكن لم يلبث أن تبين خطل رأيه وخيبة أمله ، ولم تلبث أن ثارت به وتألبت عليه الشعوب التى تحالفه ، وفى مقدمتها روسيا والسويد ، وذلك عند ما تبين لها أنها تستطيع الثورة والانتقاض ...

يقال إن صحته أخذت فى آخر سنى حكمه تعتل وتسوء ، ولكن سقوطه لا يمكن أن يعزى الى ما أصاب جسمه من وهن أو مرض ، وإنما دفعه الزهو المسرف الى أن يوسع نطاق أعماله ومسئولياته بينما قلل من كفاءته ومقدرته على أدائها واحتمالها ، وقد ظل يسير فى الحرب والسياسة على الخطة التى حققت له النصر فى أول الأمر ، ناسياً أن الظروف تغيرت وأن خصومه تأهبوا للقائه ومقاومته وتحديه ، فلما يكن ثمة بد من أن يقضى السنين الأخيرة من حياته أسير جزيرة مغمورة فى البحار

غليوم الثانى

وليس من السهل أن يعرف موقع غليوم الثانى فى هذه الشرذمة من الطامعين فى السيادة العالمية . فكل الدلائل تشير الى أنه قبل أن تنتهى — وربما قبل أن تنشب — حرب السنوات الأربع الماضية لم يكن هذا الرجل الذى يبدو لشعبه ويبدو للعالم حاكما بأمره وحده قابضاً على الأزمة كلها — لم يكن الا ألعوبة فى أيدي قواد الجيش الألمانى ترقص كلما جذبوها أو دفعوها


غليوم الثانى

لقد أسرف الناس فى اطراء غليوم عندما كان على العرش اسرافهم فى التنديد به بعد أن توارى فى المنفى . فهو لم يكن كما يتهمه الكثيرون جباناً رعديداً ، فان هروبه الى هولندة والمعركة دائرة الرحى لم يكن من رأيه وتدبيره ، وانما يسأل عن ذلك بعض القادة والزعماء وفى مقدمتهم هندنبرج . أما كبرياؤه وعناده وميله الى الزهو والظهور فى الماضى ، فمرجعه من غير شك الى ما أحيط به وهو أمير شاب من مظاهر التذلل والخضوع البيزنطية

ومن الواضح أنه لم يكن الروح الذى أثار وأدار الحرب الماضية ، كما كان الأمر فى الحروب التى شنها فيليب ولويس ونابليون . ولكن سياسته الطائشة وأخلاقه المتهورة كانت تنبئ بأنه يسوق بلاده الى النكبة الكبرى . فان صلابته المجردة من كل حيلة أو براعة شلت كثيراً من وزرائه ، بينما أودى به « مركب النقص » المتأصل فى قرارته الى الشعور بالحقد والخوف كلما كان يتصل فى أمر ما بخاله ادوارد السابع ملك انجلترا ، فانتهى الأمر الى تسميم العلاقة بين ألمانيا وانجلترا بسم زعاف

ومن المحتمل أن القدر أساء اليه وقسا عليه إذ جعله امبراطوراً ، وكان الأوفق له والأجدى عليه أن يكون عيناً من أعيان الريف النبلاء

ادولف هتلر


أدولف هتلر

وأخيراً يأتى أدولف هتلر الذى سيضطرب ويتناقض المؤرخون دهراً طويلا حين يتحدثون عن أخلاقه ودوافعه ونزعاته . فهو لا يشارك زملاءه الأربعة فى كثير من الأمر الا طموحه المسرف وجموحه العنيف . فليس فيه تعصب فيليب والا لتعذر عليه أن يحالف روسيا التى أمضى حياته يحقرها ويلعنها ، فان تحالفاً يعقده هتلر مع ستالين لا يختلف عن تحالف كان يعقده فيليب مع سلطان تركيا المسلم ضد ملكة انجلترا المسيحية مثلا . . وليس فيه شىء من خلق الجنتلمان العظيم لويس الرابع عشر ، ولا من عبقرية الجندى الأكبر نابليون . أما زهو غليوم الثانى فيزخر به صدر هتلر ويموج

ومهما يرد الانسان أن يكون عادلا منصفاً فان من العسير أن يجد شيئاً يمدح به الفوهرر ويعليه . فأولئك الذين أسرفوا فى الكتابة عنه متلمسين له الأعذار عدداً من السنين ، سواء

فيهم الكتاب الانجليز والأجانب ، لم يستطيعوا أن يسجلوا له عملا واحداً يدل على الكرم والنبل الصادق

وحياته العامة سلسلة متصلة من أعمال البطش والقسوة والانتقام ، ولا شك أن أبشع جرائم التاريخ الحديث هى معاملة هتلر لشوشنج مستشار النمسا ، التى ما تزال تصرخ للسماء تطالب الثأر لها والنصفة

ولم يأن الوقت للكلام عن تفكيره وتدبيره . ولكن أليس من الغريب على الأقل أن هذا الرجل لم يحاول مطلقاً أن يتعلم لغة أجنبية مثلا . وليس له أى نصيب من الثقافة المنظمة . وقد تعمد أن يحيط نفسه بشرذمة من البرابرة الغلاظ ، لم يسبق أن سيطر مثلها على أية دولة أوربية راقية

[مقال لسير تشارلز بيترى فى تشامبرز جورنال التى تصدر فى ادنبرة باسكوتلندة]

أمثال انجليزية

— الصانع الردىء يتشاجر مع أدواته
— الضرير لن يشكرك على إهدائه مرآة
.. الشمعة تضيء للغير وتحرق نفسها
— رفض برقة خير من منح بخشونة
— اليد النظيفة لا تحتاج الى غسل
— عدو شجاع خير من صديق جبان
— العصا المعوجة ظلها معوج
— الجسم المشوه قد يحوى نفساً جميلة
— لن يصيح الكلب إذا ضربته بعظمة
— العطف المغتصب لا يستحق الشكر
— الصديق الذى تشتريه ، يشترى منك
— كلب حى خير من أسد ميت
— سريع الوعد سريع النسيان

— الرجل يعرف بأصدقائه
— رب عثرة تمنع سقطة
— ساعة فى الصباح تساوى اثنتين فى المساء
— ساعة ألم تعادل يوم مسرة
— الفرصة الضائعة لا يمكن تعويضها
— الزوجة المطيعة تحكم زوجها
— غضب الرجل الطيب يزول سريعاً
— الباب المفتوح قد يغرى القديس
— كهنة السوء يجلبون الشياطين الى الكنيسة
— لا تكن خبازاً إذا كان رأسك من زبد
— اليأس يخلق الشجاعة في الجبان
— قوة المرأة فى لسانها
— البداية الحسنة تقود إلى نهاية حسنة

الديمقراطية : ضمان الرقى الأنسانى

بقلم المرحوم فخرى ابو السعود

[بعث الينا بهذا المقال المرحوم فخرى ابو السعود قبل وفاته بقليل . وهو مقارنة قيمة بين الديمقراطية والديكتاتورية]

لم يظهر الحكم الديمقراطى في الدول القديمة الا نادراً ، فعرفته مدن الاغريق وروما فى بعض عهودها ، ولم يظهر فى العصور الحديثة الا أخيراً ، اذ تتابعت الحركات الوطنية فى بلاد أوربا والعالم المتمدين جميعاً مطالبة بالدستور مصرة على حكم نفسها بنفسها مقتبسة النظام البرلمانى الانجليزى . وهذه الندرة وهذا التأخر فى ظهور النظم الديمقراطية دليلان على أنها نبت عزيز لا يزكو فى كل البقاع والظروف ولابد لنموه من توفر صفات خاصة فى الشعب ووصوله الى حد معلوم من الرقى والتنور والنضج . فالشعب الحائز لهذه الصفات هو الذى يصر على حكم نفسه بنفسه ويستطيع القيام بذلك . أما الشعب الذى لم يسر التنور والنضج السياسى بين أفراده فيستسلم للحكم المطلق

الديمقراطية وخصومها

على أن الديمقراطية لم تعدم خصوماً منذ القديم ، لا من الطغاة المستبدين الراغبين فى استعباد الشعوب وحدهم ، بل من كبار المفكرين أحرار الفكر الذين يسوءهم ما يرون فى الديمقراطية من مكانة للعامة وحفاوة بالدهماء لا يستحقونها ، فيدفعهم حبهم للتسامي عن كل ما هو سوقى ومبتذل وطموحهم الى المثل الأعلى الى النقمة على الديمقراطية والمناداة بالارستقراطية الذهنية أو الى تفضيل المستبد العادل ظالمين الديمقراطية فى ذلك وآخذيها بغيرجريرتها ، وحاكمين عليها بشرارها ، وانما يجب أن يحكم على الديمقراطية بالمبدأ الجليل الذى تقوم عليه ، وهو أن يحكم الشعب نفسه . وليس الشعب كله سوقة جهالا . والديمقراطية هى نظام الحكم الوحيد الذى ينتهى الى تحسين حال أولئك العامة وتنورها ورفع مستواهم حتى يعودوا مواطنين صالحين كغيرهم

فقد صور أفلاطون الديمقراطية صورة زرية : فلا نظام هناك ولا مسئولية ، وكل فرد يهمل عمله ويتدخل فى شئون غيره ، والمهرجون يستثيرون العامة فيكثر اللغط ولا ينفذ عمل . وفى العصر الحديث سدد سهام النقد الى الديمقراطية مفكران عظيمان مجددان ينتميان الى مهد

الديمقراطية الحديثة ويعدان فيها من رواد الحرية وطلائع الاشتراكية ، وهما برنارد شو ، وولز ، فالأول يرى أن البرلمانات تتكلم بدل أن تعمل ، والوزراء يضيعون وقتهم فى الرد على السفسطة بدل أن يحكموا ولا يتساءلون حين يقدمون على عمل : « هل هذا ما يتطلبه الموقف ؟ هل هذا صواب ؟ » وانما يسألون أنفسهم : « هل هذا يحوز الرضى ؟ هل هذا يثير معارضة ؟ » وتغدو صفات البراعة الجدلية والمقدرة الخطابية أهم لديهم من صفات الحكمة والحزم والنظر البعيد ، وتحرم البلاد خدمات الساسة الذين يترفعون عن تمليق العامة فيزهدون فى الحكم

ويرى شو كذلك أن الفرد العادى لا رغبة له فى الاشتراك فى الحكم ، ولا يحب أن يفكر فى وسائله . وانما يؤثر أن يتولى ذلك عنه آمر يأمره فيأتمر ، ويلقنه فيعتقد ، وأن نزعة الانقياد هذه الكائنة فى نفس الفرد العادى هى التى جعلت الكنيسة والجيش فى مختلف العصور أحب الأنظمة الى نفسه وأعلاها مكانة لديه . ويرى شو أن الفرق بين الديمقراطية والدكتاتورية أن الدكتاتور يحكم بأمره دون تردد ، بينما الحاكم الديمقراطى يتملق الشعب ويخادعه ليفهمه أنه انما ينفذ مشيئته ويحكم على هواه ، وفى كتابه « يوتوبيا حديثة » دعا شو الى حكومة من المفكرين الخبراء

أجل من المفكرين الخبراء : فمن الآراء الشائعة اليوم أن الخبراء فى الاقتصاد خاصة هم وحدهم الذين يستطيعون أن يحكموا الدولة الحديثة بعد ما عظم حجم هذه الدولة وتشعبت شئونها وتعقدت مصالحها ، وبعد أن ارتدت العوامل الاقتصادية التى تسود العالم الآن هائلة معقدة مترامية التأثير من جراء التقدم العلمى والصناعى الحديث ، ومن جراء رقى وسائل المواصلات الذي رد العالم أجمع وحدة اقتصادية يتأثر قاصيه بدانيه ، فى مثل هذا العالم لم تعد الديمقراطية فى نظر أولئك المفكرين نظاماً للحكم صالحاً ، لم يعد رجل الشارع مرجعاً يهتدي برأيه فى تسيير أمور الدولة ، وانما مرجع ذلك الخبير العالم

فهذا عيب من عيوب النظام الديمقراطى فى نظر خصومه . وهو جهل الفرد العادى الذى هو مرجع قيام الحكومات وتعيين سياستها بشئون العالم الحديث المعقدة

والعيب الثاني بطء النظام الديمقراطى وتعثر خطواته فى عصر السرعة المندفعة ، ولا سيما فى أوقات الأزمات والحروب . ثم هناك عيوب أخرى فى نظر ناقدى الديمقراطية ، منها أن النظام الحزبي بطبيعته مفسد للسياسة معرقل لأعمال الحكومة ، فالمعارضة تعارض لمجرد الرغبة فى النقد والتجريح . واذا ما تولت الحكم بعد خصومها نكثت فتلهم وعفت على أعمالهم وبدلت سياسة بسياسة . وبذلك تحرم البلاد الاستقرار والاطراد اللازمين لكل رقى ونجاح

يرى نقاد الديمقراطية أن هذه العيوب تجعل الديمقراطية شكلا للحكم غير صالح للعصر الحديث ويرون أن هذا سبب تقلصها من كثير من الدول حيث حل الحكم المطلق محلها فجارى عصر السرعة والتقدم العلمى والتوسع الاقتصادى وقام بجلائل الأعمال

الديمقراطية والتطور العلمي الآلي

والحق أن الرقي العلمي الحديث ، والانقلاب الصناعي ، وتتابع المخترعات ، ورقي سبل المواصلات ، وتعقد عوامل الاقتصاد ، وصيرورة العالم وحدة اقتصادية يتأثر أدناها بأقصاها ، قد أظهر في النظم الديمقراطية مناحي من النقص تحتاج الى اصلاح . فتلك النظم بطيئة حقاً لا تماشي حاجات العصر . ولا عجب في ذلك اذا عرفنا أن النظام البرلماني حين نشأ في انجلترا لأول مرة لم ينشأ للتشريع وان سمي مجلساه اليوم بالهيئة التشريعية ، وانما نشأ ليكون هيئة تناقش فيها شؤون الشعب وتفحص ظلاماته وتراقب أعمال الحكومة فلا تخرج عن الجادة ولا تستغل الحكم لمصلحتها بدل مصلحة الشعب

وصحيح كذلك أن الفرد العادي عاجز عن الاحاطة بالعوامل الاقتصادية التي تتنازع الدولة بل تتنازع الدول جميعا ، بل صحيح ان كبار الساسة أنفسهم يعجزون عن الاحاطة بالكثير منها ويقصرون دون السيطرة عليها ، ثم صحيح ان الأحزاب والساسة ربما أساءوا استعمال الحرية والنظم الديمقراطية ، وجعلوا الشعب واستجلاب رضاه نصب أعينهم دون المصلحة الحقيقية للدولة . كل هذا صحيح ولكنه لا يغض من قيمة الديمقراطية ولا يهدم المبدأ القائمة عليه ولا يفضل غيرها من نظم الحكم عليها . ولا يدعو الى الاستغناء عنها . وليس العيب في كثير من تلك الأمور راجعا اليها ، وانما هو تطور الزمن قد أبلى بعض نظمها ووسائلها . وما زال مبدؤها سليما وجوهرها صحيحا ولن يزال صحيحا . فالشعب يجب أن يحكم نفسه ، أما الوسائل التي يستعين بها من أجل ذلك فتتبدل وتصلح من آن لآن كي تماشي العصر — وهذا ما حدث مراراً في تاريخ الديمقراطية

لقد سبق أن شعر أبناء الأمم الديمقراطية كانجلترا وفرنسا والولايات المتحدة في خلال القرن الماضي بأثر التقدم الصناعي والانقلاب الاقتصادي وتخلف النظم البرلمانية عن ذلك التقدم ، فلم يحتج الأمر الى أكثر من اصدار تشريعات لتعديل تلك النظم . وعلى هذا النحو منح أبناء الطبقة الوسطى وطبقة العمال تدريجا حقوقا سياسية لم تكن لهم ومنحت النساء حق التصويت والنيابة ، واقتبست الدولة كثيراً من مبادىء الاشتراكية الناهضة ، فليس يعيي الديمقراطية أن تواصل تلك السنة من التجديد ومماشاة كل حال تجد

والقول بأن المواطن العادي أجهل اليوم بتدبير شؤون الحكم مما كان في القديم قول عجيب : إذ المعروف أن التعليم انما سرى بين طبقات الشعب في العصور الحديثة ، ولم تمنح طبقة من الطبقات حقوقها السياسية الا حين دفعها تنورها الى المطالبة بها ، وعلاوة على انتشار التعليم الالزامي في الأمم الديمقراطية الراقية ، فان وسائل نشر الثقافة في صفوف الشعب تتعدد بفضل

رقي العلم والصناعة ثمن رخص الكتب والصحف الى الراديو الى السينما . واذا كان المواطن العادى عاجزاً عن الاحاطة بالعوامل الاقتصادية الماثلة التى تتحكم فى الدولة والعالم ، فان الساسة كما تقدم القول عاجزون عن ذلك مثل عجزه ، بل الخبراء الذين ينادي بهم نقاد الديمقراطية عاجزون كذلك فى أكثر الأحوال وقد مرت بالعالم أزمات اقتصادية كبيرة كان باع الاقتصاديين الخبراء فيها قليلا

ان العوامل الاقتصادية فى العصر الحديث من التعقد والتشعب والضخامة بحيث لا يحيط بها فرد ولا أفراد ، ولا سبيل الى السيطرة عليها لرجل سياسيا كان أو مواطنا عاديا أو خبيراً ولا لحكومة ديمقراطية كانت أو مستبدة مطلقة ، وانما جهد الحكومة أن تعالج تلك العوامل الاقتصادية العالمية وتخفف عن الشعب مغباتها وتتغلب على ما يمكن من صعابها . وقد قبضت الحكومات المستبدة على ناصية الأمور فى دول ، واعدة بتنظيم الحالة الاقتصادية ومحاربة البطالة ، فعالجت ما عالجت من ذلك بوسائل تعسفية لم تأت بالمقصود ، وكان الفرق الوحيد بينها وبين الحكومات الديمقراطية أن هذه تقبل النقد فعيوبها معروفة لشعوبها وللعالم أجمع ، بينما الدكتاتورية بسيطرتها على سبل الدعاية وتقييدها الأفكار تخفى اخفاقها وتشغل شعوبها عنه بالحديث فى شؤون القومية والمطامع الوطنية والحرب والغزو

لقد راع أكثر المفكرين سرعة تقدم العلم الحديث وتطبيقه فى عالم الصناعة وتأثيره فى حياة الناس . وقد كانت له آثار حسنة كثيرة ، منها توفير وسائل الراحة ومزج الشعوب ونشر التنور وروح النقد والنزعة العلمية والقضاء على الخرافات وكثير من أسباب التعصب . ولكن رقى العلم وتطبيقه العملى كان لهما بجانب ذلك آثار وخيمة كثيرة لم يهتد العالم بعد الى كيفية معالجتها ، من اضطراب الأحوال الاقتصادية بحيث يعاني الكثيرون البطالة والجوع على حين يعج العالم بالخيرات ، الى سيطرة الآلات على حياة الناس وتغلغل المادية فى نفوسهم ، وجنوح الحياة البشرية الى التماثل من جراء ما تخرج المصانع من آلات ومصنوعات متماثلة وما تهيئه الصناعة من وسائل متماثلة فى الأعمال ووسائل تزجية الفراغ .

عبر المفكرون عن تلك النزعة الحديثة وعن توجسهم من نتائجها على صور شتى : كتب كارل كابك مسرحية مشهورة تتناول ذلك الموضوع ، وألف أولداس هكسلى قصة خيالية تتصور ما ينتهى اليه العالم اذا استمر هذا التطور العلمى الصناعى الآلى ، وصاغ الممثل الفنان شارلى شابلن قصة سينمائية فى هذا الصدد سماها « العصر الحديث » ، وتنبأ برتراند رسل بمجتمع علمى تستغل فيه جميع موارد علم الحياة وعلم النفس حكومات لا يزعها وازع فى سبيل اخراج أفراد آليين متماثلين كل التماثل ، واستعاذ الدكتور انج كبير أساقفة لندن من مجتمع كهذا قال : « ان مجتمعا تسود فيه الآلات سيادة تامة هو مجتمع تختنق فيه كل حياة روحية وعقلية ، وأكمل مثال لهذا

النوع من المجتمعات يتجلى فى خلية النحل أو جحر النمال »

هذا التطور العلمى الآلى الحديث ، هو الذى أدخل الاضطراب فى حياة الناس الاقتصادية والاجتماعية ، حتى تبرم منهم من تبرم بالنظم السياسية القائمة لتخلفها عن مسايرة هذا التطور وقصورها عن حل مشكلات القوم وتوفير مطالبهم . وهذا جعلهم يقبلون فى بعض الدول النظام المطلق المستبد ، إذ استغل الدكتاتوريون هذه الظروف القلقلة واستغلوا أتم استغلال وسائل الدعاية التى وفرها العلم الحديث كالراديو وغيره ، وساعدهم ذلك الاستغلال على الوصول الى الحكم ثم ساعدهم على الاحتفاظ به والبطش بمعارضيهم ، ولكن الاستعاضة عن الديمقراطية بالدكتاتورية ليس هو الحل المعقول لمشكلات الدولة الحديثة ، انما الحل المعقول تعديل بعض نظم الديمقراطية ووسائلها لكى تساير التطور وتعالج الأحوال الجديدة

الديكتاتورية نظام شاذ

إن الدكتاتورية أو الحكم المطلق بطبيعته نظام شاذ ، إذ يستبد فرد بالسيطرة على مصاير أمة فلا يقوم هذا النظام إلا فى شعب لم يبلغ بعد حد النضج السياسى والثقة بنفسه ، أو شعب فقد تلك الثقة بعد أن كان حائزاً لها وأسلم مقاليده الى فرد ارتقى الى قمة الحكم فى أعقاب انقلاب . ولشذوذ الدكتاتورية فى منشئها تظل دائماً أبداً شاذة فى وسائلها : يرتقى الدكتاتور الى الحكم للتغلب على أزمة أو حالة طارئة ، ولكنه بعد انحسار تلك الأزمة يأبى التخلى عن الحكم ، إما استمراء له أو مخافة انتقام معارضيه . ولشعوره بوجود أولئك المعارضين يلجأ الى وسائل الارهاق والمصادرة وخنق الحريات . وقد عرف من قديم أن ليس شيء يفسد الخلق الانسانى مثل حيازة السلطة المطلقة ، ومن ثم فان الدكتاتور الذى يستولى على الحكم وملء نفسه رغبة الاصلاح كثيراً ما يرتد شريراً ويمعن فى الفساد

وحتى حين يظل الحاكم المطلق خيراً طيب النوايا تجاه شعبه ، كثيراً ما يشقى به ويحكمه الشعب ، لأن الحاكم يشرع للشعب ولا يخضع لتشريعاته تلك ولا يستطيع أن يضع نفسه موضع شعبه ، وواجب ألا يسن القانون إلا من يخضع له ويحس بأثره ، وقد رأينا ان الدكتاتورية لا تنجح فوق نجاح الديمقراطية فى معالجة شؤون الاقتصاد وعوامله الهائلة التى يخبط فيها العالم ، وانما الدكتاتورية لتخفى حبوطها وتخمد المعارضة وتبرر وجودها وتدعو الشعب الى معاضدتها والوقوف بجانبها ، ما تزال تعنى بالمظاهرات والاستعراضات وإقامة الحفلات والأعياد القومية ، وتغالى فى تمجيد القوة الحربية والاشادة بالأماني القومية والدعوة الى الثأر والتغلب والاعلان انها تحكم لتدفع خطراً أو تحمى الدولة أو تفتح أمبراطورية أو تحمى المدنية ، وما تزال فى خطبها الرنانة وحماستها المفتعلة حتى تنساق الى الحرب راغبة أو مكرهة

فالحكم الدكتاتورى لا ينجح كما يتبجح به فى السيطرة على العوامل الاقتصادية العالمية التى تتأبى على السيطرة ، وهى تشغل الشعب عن سوء حالته بسفاف الامور وتهيج فيه غرائز وعواطف ليست هى بخير ما فى البشرية من غرائز وعواطف وقد تسوقه هذه الانفعالات الى الحرب ثم ان الدكتاتورية فوق هذا وذاك تخمد النشاط الفكرى فى بلادها أيما إخماد ، فهى لا تطيق النقد ولا تقوى على احتمال المعارضة وهى لذلك تشرد كل ذى رأى وتسجن أو تعدم كل معارض ، وهى تحل الجماعات والنقابات الحرة وتستغنى عنها بالجماعات الرسمية التى تشرف عليها الحكومة وهى تحجر على الصحافة والأدب والفن والعلم لا تنطق هذه كلها إلا بما تشاء الدكتاتورية وإن جانف الحقيقة ، وهى تستأثر بوسائل الدعاية من كتابة وخطابة وصحافة وراديو وسينما وتقيم للدعاية وزارة خاصة تحاول السيطرة على عقول الناس وهى بعد ذلك تسيطر على التعليم وتوجهه

تتحكم الدكتاتورية فى مناهج التعليم وكتبه وأغراضه ، فلا يلقن النشء الا ما تريد أن يلقنوه ، وينشأون على تمجيدها والايمان بها . لا تحاول تنمية عقولهم بل تنمية استعدادهم لقبول ما يلقنون من آراء الآخرين . ولا تعمل على إبراز شخصياتهم مختلفة متباينة ، بل تسعى لصبهم فى قالب واحد معلوم ، واخراجهم متماثلين فكرة واتجاهاً وعقيدة ، ليكونوا لها جنداً منصاعين . فالدكتاتورية تضيق ذرعاً بالفردية والشخصية المتميزة ، والعلاقة بين الدولة والشعب فى هذا الصدد متبادلة : كلما تماثل أفراد الشعب واتحدت عقلياتهم كلما ساعدوا على قيام الدكتاتورية وتوطدها ، وكلما بقيت الدكتاتورية وتوطدت عملت على توحيد العقليات ومحو التميز والاختلاف

ان الحكم الدكتاتورى يقف تقدم الانسانية ويرجع بها الى الوراء لأنه مضاد للحرية والحرية أساس كل نشاط انسانى ، محارب للحقيقة وبغيرها لا يكون تقدم ولا هداية، مخمد للنقد وهو سبيل كل إصلاح ، مقيد للعقل وهو أساس الحضارة . فالفرق بين مجتمع متحضر ومجتمع متوحش أن الأول يسود فيه العقل والثانى تتحكم الغريزة والعاطفة والخرافة والوهم ، ومن ثم تنتكس القيم فى الأمة المبتلاة بحكم الفرد المستبد ، ومن ثم تضمحل العلوم والفنون فى ظل الحكم المطلق على حين تزدهر فى كنف الديمقراطية . فقد ازدهرت العلوم والفنون فى بلاد اليونان الديمقراطية ولم ينبغ فرد واحد فى علم ولا فن فى بلاد مقدونيا الملكية المطلقة ، وظهر الشعراء والخطباء فى روما الجمهورية وانحدرت الخطابة والشعر والفنون عامة فى ظل الامبراطورية

وازن حالة الارهاب وخنق الحريات واضطهاد الآراء فى ظل الحكم المطلق ، بما يسود فى فىء الديمقراطية من تسامح وحرية ورحابة صدر بالنقد وترحيب بالجديد من الأفكار وحرص على توخى الحقيقة : قال الفايكاونت مورلى : « ان من يعبث بالحقيقة لأى غرض كان يعبث بالقوة الحيوية الدافعة للرقى الانسانى » ، وقال جون ستيوارت مل : « لا يجوز للبشر أن يحدوا من

حرية فرد منهم فى العمل الا لغرض واحد هو حماية أنفسهم » ، وقال أيضاً : « لو كان البشر أجمعون إلا واحداً على رأى ورجل واحد على نقيضه لما جاز للبشر مجتمعين أن يسكتوا ذلك الفرد ، أكثر مما يجوز له هو لو أوتى القوة أن يسكت البشر » ، وما ذلك الا لايقان أولئك المفكرين أن توخى الحقيقة هو سبيل الهداية والرقى وأن التسامح الفكرى والتعاون العقلى لازمان للاهتداء الى الحقيقة

ليس الحكم المطلق اذن هو وسيلة علاج ما يعانيه المجتمع من متاعب ، وليس نجاح ذلك الحكم فى توطيد أقدامه فى بعض الدول دليلا على صلاحيته وأفضليته على النظام الديمقراطى ، بل هو ثمرة حالة قلاقل اجتماعية واقتصادية أدى اليها التطور الصناعى وزادتها الحرب الماضية تفاقماً ، واستغلها الدكتاتوريون الذين لا تخلو منهم حقبة . وليس النزوع عن الديمقراطية الى حكم الفرد الاستبدادى تقدماً للمجتمع البشرى بل هو نكسة الى عهود الجهل والخمول ، ولن ينجح الحكم المطلق فى معالجة متاعب المجتمع بل سيزيدها بلاء بشذوذ أساليبه وافتعال وسائله ومجانبته للحق والحرية

انما وسيلة خلاص العالم من متاعبه الاقتصادية وسبيل رقيه المطرد فى حاضره ومستقبله أن يتشبث بالديمقراطية لا يبغى عنها حولا ويدافع عن الحرية التى نالها بجهاد طويل فى متتالى العصور فان الحرية لا تكتسب مرة واحدة ينام بعدها صاحبها ملء جفنيه ، بل يجب أن يظل حياته يدافع عنها . قال جون ستيوارت مل : « إن ثمن استبقاء الحرية هو اليقظة الدائمة » ، وقال دانيل وبستر : « إن الله لا يمنح الحرية الا أولئك الذين يحبونها والذين هم على استعداد دائم للدفاع عنها » ، ولن تأمن الحرية يوماً ما سطوات المغيرين عليها ، وأكبر أعدائها دوام تطور المجتمع البشرى الذى يستدعى تعديل نظم الحكم من آن الى آن ، فاذا قصرت الديمقراطية فى مماشاة العصر على هذا النحو كانت النتيجة اضطرابات اجتماعية واقتصادية يستغلها المتشرئبون الى الاستبداد

وواجب أبناء الديمقراطيات لذلك تعديل بعض النظم القديمة التى ثبت بطؤها وتخلفها عن حركة العصر ، ومن الآراء القيمة فى هذا الباب أن يرجع البرلمان الى وظيفته الأولى التى كان مقتصراً عليها فى أول أمره : وهى وظيفة الاشراف على شؤون الحكومة وأمور الشعب اشرافا عاما متخليا عن وظيفة التشريع لهيئة خاصة تنهض بذلك ، ثم ان على الديمقراطية أن تنشط فى تنظيم الحالة الاقتصادية أكثر مما نشطت الى الآن ، وفى موازنتها وتخفيف آثار مضاعفتها عن الشعب العاجز عن السيطرة على عواملها المترامية ، فانه ما دامت الحالة الاقتصادية مضطربة فستظل الحالة السياسية كذلك وسيظل الباب مفتوحا للمذاهب المتطرفة وللمغامرين من ذوي المطامع

ان الديمقراطية هى شكل الحكم الطبعى المعقول المحالف للعلم والرقى بينما الحكم المطلق يتعسف ويتحدى العلم والتاريخ ويساير الغريزة والعاطفة العمياء فتغتدى الدولة فى ظل الدكتاتورية غاية فى ذاتها ويعتقد الطغاة أن الفرد خلق لخدمة الدولة ولم تخلق الدولة كما يدل المنطق ويشهد التاريخ لخدمة الفرد ، ومتى كانت الدولة غاية فى نفسها فى نظرهم كان بدهيا أنها خالدة ، وان كان التاريخ يشهد بأنها حلقة فى سلسلة رقى تنقل فيها المجتمع الانسانى من الأسرة الى القبيلة الى الدولة ، وكان المعقول أن يطرد ذلك الرقى فتأتلف الدول جميعا مكونة الدولة العالمية وقد صار تحقق الدولة العالمية بعد أن تقاربت الأمم وتوثقت علاقاتها وغدت وحدة اقتصادية أمراً ضروريا لا محيص عنه اذا قدر للمدنية البقاء

والديمقراطية هى التى تمهد السبيل لتحقق الدولة العالمية ، بما تنشره بين الناس من مبادىء الحرية والاخاء والمساواة ، وبازدهار العلم فى ظلها ازدهاراً ينشر النزعة العالمية بين المثقفين شيئاً فشيئا ، ويشعرهم بوحدتهم فى الانسانية وبغرور أسباب التعصب والتنابذ . فاذا قدر للدولة العالمية التحقق يوما فلن يكون تحققها على أيدى الغزاة الفاتحين أمثال الاسكندر وقيصر ونابليون وأضرابهم من المحدثين ، انما ستحقق بالوسائل السلمية ، بانتشار النظرة الانسانية الشاملة وتضاؤل التعصب القومى كما تضاءل التعصب الدينى الذى لقيت منه الانسانية صنوف البلاء فى سالف العصور . وفى سبيل هذه النزعة السلمية العالمية قد خطت الديمقراطية الى اليوم خطوات واسعة

فخرى أبو السعود

من أقوال العظماء

أحق الناس بالشفقة أناس يطمحون بأبصارهم الى السحب وهم غارقون فى الوحول (جبران)

الحياة أحلام تنتهى برقاد الموت (شكسبير)

لا شىء أجدى من البحث عن الصديق ولا شىء أحلى من تجربته وأفيد من حفظه (أوغسطينوس)

من شكا مصيبة نزلت به فكأنما شكا ربه (الفضل بن عياض)

أغنى الناس المقتصد وأفقرهم البخيل (شامفور)

كل يحسب أنه يستطيع الصبر على مصائب غيره (لاروشفوكو)

هل يمكن الاستغناء عن الذهب ؟

بقلم الاستاذ على الجريتلى

مدرس ادارة الاعمال بكلية التجارة

يجتاز العالم الآن مرحلة من أدق المراحل فى تاريخ البشرية . فالحرب الدائرة الرحى بين النظم الفاشية والنظم الديموقراطية لم تصل بعد الى نتيجة حاسمة ولا تزال تجر على المحاربين وغير المحاربين ألواناً من الشقاء والحرمان والخوف لم يرها العالم من قبل . ولا شك انه سيصحب انتهاء الاعمال الحربية ظهور مشاكل اجتماعية واقتصادية تفوق فى خطرها المشاكل التى انتابت العالم بعد الحرب العظمى الماضية ، فنطاق التخريب لا يقتصر على الفلاندر كما كان الحال عندئذ بل يشمل الموانىء والمدن الصناعية والطرق التى دمرتها الطائرات ، كما أن التحول من انتاج المواد الحربية الى الانتاج السلمى سيكون أكثر صعوبة فى هذه المرة لأن معظم موارد الدول المتحاربة موقوف على انتاج وسائل التدمير التى تتطلبها الحرب الآلية الحديثة ، ومن المرجح ان الدول التى ستخرج من هذه الحرب منهوكة القوى ستجد صعوبة فى إيجاد الموارد اللازمة لأعادة العمران الى مدنها والتوازن الى اقتصادها القومى ، ولدفع التعويضات الطائلة لعائلات القتلى والجرحى خصوصاً ان أعباء الميزانيات ستزداد زيادة كبيرة نظراً لاضطرار الحكومات الى عقد قروض كبيرة لتمويل الحرب

ويدور البحث من الآن فى تلك المشاكل وأشباهها حتى لا تؤخذ الحكومات على غرة ، كما ان المفكرين فى الدول الديموقراطية يوالون الدرس بغية تعرف عيوب النظام السياسى والاقتصادى الحالى والوصول الى حل يكفل اجتناب أسباب الشقاق بين الشعوب حتى لا ينكب العالم بحرب عالمية أخرى فى المستقبل القريب ، ويرى البعض فى تكوين ولايات متحدة أوربية ضماناً للسلام إذ توحد السياسات الاقتصادية والمالية ويعهد بها الى هيئة دولية ، تضع خطط الانتاج والاستثمار فى أوربا وتقوم بادارة المستعمرات ومناطق الانتداب حتى لا يثير النزاع على المجال الحيوى والمواد الخام صعوبات جديدة . ومن رأى البعض الآخر الاحتفاظ بالتقسيم السياسى العالمى على حاله مع تعديل مبدأ السيادة بحيث تؤخذ من اختصاص الحكومات تلك المسائل السياسية والاقتصادية التى لها صبغة دولية ، ويعهد بها الى لجنة فنية تكون قراراتها نافذة على الحكومات المختلفة مثلما تسرى قرارات حكومة واشنجتون على الولايات المتحدة الامريكية فى المسائل التى تهم الولايات جميعا

السياسات النقدية والحرب

وتعتبر السياسات النقدية والمالية من أخطر المسائل التى يتطلب حلها عناية كبيرة من الباحثين، إذ أن اتباع كل دولة لسياسة خاصة دون النظر الى مصالح العالم قاطبة يؤدى الى الاضطراب العام ويتضح ذلك بجلاء من دراسة تاريخ العالم فى العشرين السنة الأخيرة فسياسة الاكتفاء الذاتى - أى عزل الاقتصاد الأهلى عن الاقتصاد العالمى وتعميم اشراف الدولة على نواحى النشاط الاقتصادى الفردى - قد جعلت من العسير التعاون على مكافحة الكساد العظيم الذى حل بالعالم سنة ١٩٣٠ ، كما أنها بما تستلزمه من تقييد انتاج السلع الاستهلاكية وتوسيع الصناعات التى تمت الى الحرب بصلة لا تصلح أساساً لسياسة دائمة يقصد من ورائها توفير الخيرات للملايين الذين ما زالوا يعيشون فى ظل الفاقة ، فضلا عن أن عدم الاستقرار النقدى فى السنوات الأخيرة وكثرة تغير قيمة النقود فى الداخل والخارج بفعل السياسات النقدية المتضاربة قضى على استقرار الأسعار وزاد مشكلة تعطل العمال سوءاً . ولا يخفى ما لتبدل قيمة النقد من أثر على العلائق بين الطبقات المختلفة للدولة . فان تدهور قيمة العملة وارتفاع الأسعار ارتفاعاً كبيراً يعودان بالضرر على الأفراد من ذوى الدخل الثابت ، وقد يؤدى استمرار هبوط قيمة العملة الى القضاء على مدخرات الأفراد الذين يستثمرون الفائض من دخلهم فى سندات حكومية أو يودعون فى البنوك وصناديق الادخار - ففى سنى التضخم المالى الألمانى قبل سنة ١٩٢٤ انخفضت قيمة النقود انخفاضاً مروعاً وأصبحت السندات الحكومية عديمة القيمة ، وكان ضياع مدخرات الطبقة المتوسطة سبباً فى زعزعة ايمانها بالنظام الديموقراطى وفى تمهيد الطريق لنجاح الحزب الاشتراكى الوطنى

ثم أن اضطراب أسعار الصرف « الكامبيو » أوقع بالتجارة الدولية والاقراض العالمى اضراراً كبيرة ، لأن التجارة فى وقتنا هذا تعتمد على الائتمان فالبائع يمنح المشترى مهلة تتراوح بين شهر وعدة سنوات والمقرض لدولة أجنبية يحصل على قيمة دينه بعد فترة تقصر أو تطول . ومن هنا ضرورة ثبات سعر الصرف حتى يطمئن البائع أو المقرض الى امكان تحويل العملة الأجنبية التى يحصل عليها عند الاستحقاق الى عملته الوطنية بسعر ملائم ، ولذا نجد أن العشرين السنة الأخيرة تمتاز عن الفترة التى سبقتها باستمرار النقص فى قيمة التجارة الدولية ويقدر بنك التسويات الدولى أن إنتاج العالم الصناعى زاد فى سنة ١٩٣٦ ٢٠٪ عما كان عليه سنة ١٩٢٩ فى حين نقصت كمية التجارة الدولية سنة ١٩٣٦ بمقدار ١٠٪ عما كانت عليه سنة ١٩٢٩ ، كما ان الاقراض الدولى الذى كان ظاهرة هامة فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين قد اختفى تماما بعد الحرب العظمى ، اذا ما استثنينا القروض الامريكية لألمانيا وفرنسا والقروض التى منحتها انجلترا وفرنسا لبعض الدول بقصد مساعدتها على التسلح

وعلاج هذه الحالة هو فى الرجوع الى نظام الحرية الاقتصادية ، وإيجاد عملة ثابتة القيمة نسبياً تكون أساساً للتبادل ومقياساً للقيم ، حتى يصبح العالم وحدة اقتصادية تتحقق فيها مزايا تقسيم العمل والتخصص فى الانتاج ، تلك المزايا التى جعلت القرن التاسع عشر عصراً من عصور التقدم الاقتصادى المنقطع النظير . فى نظام الحرية الاقتصادية تتخصص الدول فى إنتاج السلع التى تؤهلها مواردها الطبيعية لاتقانها أكثر من غيرها ، وتصدر الفائض عن حاجتها فى نظير استيراد السلع التى تحتاج اليها من الخارج – وتقوم الدول الغنية برؤوس الأموال باقراض الفائض عن حاجتها للدول الأخرى التى لا تستطيع استغلال مواردها الطبيعية بدون الحصول على قروض طويلة الأجل . فوجود عملة دولية يسهل التجارة والاستعمار بين الدول ، كما يحقق وجود عملة واحدة سهولة التبادل داخل القطر الواحد . غير أن هناك اختلافاً فى الرأى بين الخبراء على نوع العملة الذى يحقق الاستقرار المنشود ، فهل يرجع العالم الى عيار الذهب المعروف أم يستعاض عنه بعملات ورقية مستقلة لا ترتبط بالذهب بتاتاً

الرجوع الى عيار الذهب

يقول أنصار الرجوع الى عيار الذهب إنه نظام معروف سبقت تجربته بنجاح كبير ، فى فترة نصف القرن التى سبقت الحرب العظمى أو يزيد كانت الدول تصدر نقوداً ذهبية من فئات متعددة ، كما أن القوانين المالية كانت تحدد قيمة العملة الورقية التى يسمح للبنوك المركزية باصدارها بقيمة وزن معين من الذهب ، كما كانت هذه البنوك تتعهد بصرف قيمة البنكنوت ذهباً – ولضمان الاستبدال كان القانون يضع حداً أقصى للنقد غير المضمون ، أو يقرر نسبة معينة بين قيمة البنكنوت المصدر والاحتياطي الذهبي . ونظراً لأن بنوك الايداع كانت تحتفظ بنسبة معينة بين البنكنوت المودع لديها والقروض والاعتمادات التى تمنحها ، فانه يمكن القول بأن كمية النقود المتداولة – بما فيها الودائع المصرفية – كانت تتوقف على مقدار الذهب الموجود لدى البنك المركزى ، تزداد بازدياد المستورد من الذهب ، وتقل اذا ما اختل الميزان التجارى وبدأ الذهب فى التسرب الى الخارج . وباتباع معظم الدول لعيار الذهب أصبح المعدن النفيس عملة دولية بالمعنى الصحيح . ومع أن اتباع عيار الذهب لا يمنع الاضطرابات المالية بتاتاً ، فان الثبات النسبي لقيمته يجعل تلك التقلبات قليلة الخطر ويضع حداً للاسراف فى إصدار العملة الورقية وتذبذب الأسعار

غيرت الحرب السابقة كل هذا – ففى أثنائها حرم تداول الذهب فى معظم الدول ، وأعفيت البنوك من التزام صرف قيمة البنكنوت ذهباً ، وأصبحت العملة الورقية عملة قانونية لها قوة مطلقة على إبراء الديون – وبسبب مغالاة الحكومات فى الاقتراض وإصدار النقد لمقابلة مصاريف الحرب انتابت الدول بعد الحرب موجة شديدة من الاضطراب المالى . ففى الروسيا وبولندة

والنمسا وألمانيا انحطت قيمة العملة وارتفعت الأرقام القياسية للأسعار ملايين المرات بالقياس الى ما كانت عليه قبل الحرب ولم تنج فرنسا وانجلترا من داء التضخم المالى إلا أن مشا كلهما لم تتخذ شكلا خطيراً كما كان الحال فى الدول التى خسرت الحرب . وما أتت سنة ١٩٢٥ حتى فكرت الحكومة الانجليزية فى العودة الى عيار الذهب ، اعتماداً على أن عظمة سوق لندن المالى كفيلة باغراء الأسواق المالية الأخرى على الاقتداء بها . وبذا يعود العالم الى استعمال الذهب والى الاستقرار النسبي الذى يصحب اتباع تلك السياسة اذا ما تعاونت البنوك المركزية والحكومات على حسن ادارته طبقاً للقواعد الفنية . وبالفعل رجعت الدول الى الذهب واحدة تلو الأخرى ، إلا أنه استغنى فى النظام الجديد عن استعمال الذهب في التداول الداخلى واقتصر الدور الذى يلعبه على ضمان العملة ، وعلى سداد الديون الخارجية التى تنشأ عن عدم كفاية الصادرات لسداد قيمة الواردات . ورجال الاقتصاد مجمعون على أن العودة الى عيار الذهب كانت سابقة لأوانها ولم تستند الى دراسة دقيقة ، إذ حدد بعض الدول قيمة للعملة لم تتناسب مع مقدرتها الشرائية فى الداخل والخارج ، فنتج عن ذلك اختلال فى التوازن التجارى العالمي زاده من جديد تعقد مشكلة ديون الحرب والتعويضات وكثرة العراقيل التى وضعتها الحكومات في سبيل التجارة الدولية — وفى سنة ١٩٣١ تركت انجلترا عيار الذهب وتبعتها الدول الأخرى

الذهب فى أزمة سنة ١٩٣٠

وابان الأزمة العالمية التى اجتاحت العالم من ١٩٣٠ الى ١٩٣٤ ادعى الكثيرون بأن الذهب هو أصل مشا كل العالم ، وبأن الخضوع لسيطرته هو العقبة الوحيدة التى تحول دون ارتفاع الأسعار من المستوى السحيق الذى هبطت اليه . فالانتاج السنوى من المعدن النفيس فى رأيهم ، يقل عن حاجة العالم المطردة الى النقود ، كما أن توزيع الذهب لا يتناسب وحاجة الدول المختلفة إذ أن بنك فرنسا وبنوك الاتحاد الأمريكى تستحوذ على الجانب الأكبر من الذهب مما يوقع الدول الأخرى فى ارتباكات عنيفة

وحمل بعض الاقتصاديين المحترفين بزعامة مستر كينز حملة شعواء على عيار الذهب ، بحجة أن الدول قد تضطر الى تضحية الرفاهية الداخلية فى سبيل المحافظة على سلامة العملة ، إذ بمجرد تسرب الذهب الى خارج القطر بمقادير كبيرة يستولى الرعب على قلوب مديرى البنك المركزى فيرفعون سعر الفائدة بقصد وقف التوسع وتخفيض الدخل الأهلى والأسعار حتى تأخذ العلاقة بين الأسعار الداخلية ومستوى الأسعار العالمى مجراها العادى . كما ندد كينز بسخافة السياسة الحالية التي تضطر العالم الى صرف مبالغ باهظة ، وتسخير ألوف العمال لاستخراج الذهب من باطن الأرض لا لغرض سوى تكديسه فى سراديب البنوك المركزية الكبرى

وقد استغلت البروباجندا الألمانية « أزمة الذهب » ودعت الى التخلص من العقلية المسيطرة على الدول البلوتوقراطية والتى تجعل النشاط الاقتصادى العالمى معلقاً على إنتاج الذهب . وتسمع نفس النغمة فى خطبة هتلر الأخيرة التى أنكر فيها إمكان انتصار الذهب

ولقد كان لنجاح الروسيا والمانيا فى إدخال تعديلات هامة على الصرح الاقتصادي القومى ، وفى خلق رواج كبيردون التقيد بالتقاليد المالية المألوفة أثر كبير فى تدعيم الرأى القائل بامكان الاستغناء عن الذهب . فنى كلتا الدولتين مضت الحكومة فى التوسع الصناعى والتجارى الداخلى دون أن تضع نصب عينيها الاحتفاظ بنسبة معينة بين الاحتياطى الذهبي وبين المتداول من النقود والودائع المصرفية . وليس للذهب أثر يذكر فى الحياة الاقتصادية فى الروسيا ، فالبنوك تفتح الاعتمادات للصناعات المختلفة وللتسليف الزراعى تبعاً للخطط الموضوعة فى مشروع الخمس السنوات . وبالرغم من أن البنك المركزى يحتفظ باحتياطى ذهبي ، الا أنه لا يتقيد فيه فى سياسته وهو يستعمله فى دفع قيمة الواردات اذا لم تكن لديه عملة أجنبية كافية

وليس هناك خطر على سلامة العملة طالما أن الرقابة الداخلية على الاسعار ناجحة ، وطالما أن الحكومة هى التى تتولى كافة عمليات التجارة الخارجية

الاستغناء عن الذهب فى المانيا

أما فى المانيا فيرجع الاستغناء عن الذهب الى سنة ١٩٢٣ حين نجح الدكتور شاخت فى إنقاذ المانيا من الاضطراب المالى العنيف ، فقد وقف العمل بالمارك القديم وأصدر عملة جديدة — الرنتمارك Rentenmark — بضمان الأراضى الزراعية والصناعة والتجارة الالمانية

وفى السنوات التالية لتثبيت المارك عمد البنك المركزى الى تكوين احتياطى كبير من الذهب والعملة الأجنبية بلغت قيمته ٢٤٠٠ مليون مارك سنة ١٩٢٨ ، الا أن الصعوبات الناجمة عن الكساد الفظيع الذى حل بألمانيا بعد ذلك أدت الى تناقص هذا الاحتياطي حتى بلغ ٨٠٠ مليون من الماركات قبل انتقال مقاليد الأمور الى يد النازيين . وبرغم إحداق الخطر بالمارك رفضت الحكومات المتعاقبة فصله عن الذهب أو تخفيض قيمته لأن مثل هذا التصرف يلقى الرعب فى قلوب الألمان لأنه يذكرهم بكارثة التضخم . ولم تقف قلة الذهب حائلا بين حكومة هتلر وبين سياسة التوسع التى وضعتها لتشغيل الملايين من العمال العاطلين . فالخبراء الاقتصاديون من رجال النازى يؤمنون بأن العمل والانتاج هما أساس الثروة ، وأن كمية النقود يجب أن تزداد بازدياد الانتاج . وخوفاً من أن يؤدى ازدياد الدخل الأهلى الذى يصحب فترات الرواج الى ارتفاع الأسعار ، حددت الحكومة استهلاك بعض السلع ، ووضعت حداً أقصى للاسعار ، وفرضت الضرائب على الدخل والاجور ، وعمدت بشتى وسائل الدعاية الى حث الأفراد على استثمار الفائض من دخلهم

فى شراء السندات الحكومية ، كما أنها ضيقت نطاق الصرف على الكماليات . وتشرف الحكومة على سوق النقد الخارجى بطرق شتى ، بقصد الاقلال من الطلب على العملة الأجنبية . فالمصدر يجب عليه أن يسلم الى البنك المركزى كل العملة الاجنبية التى يحصل عليها ، كما أن امتلاك العملة الأجنبية ممنوع منعاً باتاً ، والمستورد لا يحصل على العملة الاجنبية اللازمة لسداد قيمة مشترياته الا اذا كان قد حصل على ترخيص بالاستيراد من الغرفة التجارية التى ينتمى اليها ، كما أن دفع الديون التى على رعايا الريخ معلق على وجود عملة أجنبية كافية ، فالمدين الألمانى يدفع دينه فى حساب خاص لدى البنك المركزى ، ويعتبر ذلك كافياً لابراء ذمته . والدائن الاجنبى الذى يود الحصول على قيمة دينه يضطر الى قبول مبالغ تقل كثيراً عن دينه الأصلى

وبهذه الطريقة استولت الحكومة على مبالغ طائلة استعملتها فى دفع اعانة للصادرات لكي تحصل على العملة الاجنبية التى تحتاج اليها لشراء المواد الخام والسلع اللازمة لانجاز مشروع التسلح. فديون المانيا القصيرة الاجل التي كانت ١٢ مليارمارك سنة ١٩٣١ هبطت فى سنة ١٩٣٩ الى مليار واحد . وقد أدت تلك الحيل الى امتناع التجار الاجانب عن بيع بضائع لألمانيا إلا إذا حصلوا على ضمانات تكفل دفع ديونهم بعملتهم . فالمصدر السويدى أو الانجليزى الى المانيا يخطر بنكه المركزى بقيمة دينه ، كما أن المستورد فى تلك البلاد يدفع ثمن البضائع الالمانية التى يشتريها فى حساب خاص لدى البنك المركزى ، وبهذه الطريقة تجرى المقاصة بين السويد والمانيا ويقبض المصدر السويدى قيمة دينه من ذلك الحساب

ثم ان الرغبة فى توفير العملة الاجنبية أدت الى الرجوع الى استعمال المقايضة ، فتصدر المانيا الى مصر مثلا كميات من السماد مقابل استيراد كمية مساوية لها فى القيمة من القطن المصرى ، دون حاجة الى استعمال العملة . ولا يخفى ما لهذه العمليات من أثر سيء على التجارة ورجوع بها الى الطرق البدائية ، الا أن الالمان يعتذرون عن ذلك بفقرهم فى العملة الخارجية

هل يتغلب الورق على الذهب

وقد يبدو لأول وهلة ان الوقت قد حان للاستغناء عن الذهب بتاتا ، وليس من شك فى إمكان تحقيق ذلك ، فانه من المعقول نظريا أن تنجح الدول فى إصدار عملة ورقية تحقق الاستقرار الداخلى . كما أن اتفاق الحكومات على تحديد سعر ثابت للتبادل بين العملات الرئيسية كفيل بتحقيق معظم الفوائد التي تنتج عن ربط العملات المختلفة بالذهب . الا أن التاريخ الاقتصادى للعالم يبين لنا أنه ما من عملة ورقية استطاعت أن تصمد مدة طويلة دون أن تهبط قيمتها نتيجة للافراط فى إصدارها أو لسوء إدارتها . واتباع نظام العملة الحرة يغرى الحكومات على تحديد القيمة الخارجية للعملة بحيث تعطي المنتجين المحليين ميزة فى المنافسة الدولية . فخروج

انجلترا عن عيار الذهب سنة ١٩٣١ أعطى المصدرين الانجليز ميزة وقتية ، إلا أن الدول الاخرى شعرت بالغبن الواقع على منتجيها فعمدت هى الاخرى، إما الى ترك عيار الذهب ، أو التلاعب بالقيمة الخارجية للعملة ، أو بفرض ضرائب جمركية حامية أو مانعة لمقابلة ذلك التخفيض . وعندنا فى مصر ضريبة اسمها ضريبة فرق العملة تفرض على واردات البلاد التى تقوم بمثل هذا التخفيض ، وخصوصاً على اليابان التي برعت فى تنفيذ تلك السياسة براعة فائقة ، وليس من السهل الحكم على التجارب الروسية والالمانية فالروسيا تتبع نظاماً اقتصاديا وسياسياً لم يلق لدى العالم الخارجى قبولا ، كما أن الاشراف الحكومى على نشاط الأفراد الاقتصادى وعلى عمليات التجارة الخارجية فى المانيا يؤدى الى عرقلة التجارة ويقابله رجال المال والاعمال بالسخط الشديد نظراً لشدة تعقيده، علاوة على أنه يكلف الدولة نفقات باهظة ، وقد وصف الدكتور شاخت تدخل الحكومة فى هذا الصدد بأنه نظام قبيح لا يطاق وأنه ينتظر أول فرصة لتعديله

المستقبل للذهب

نخلص من ذلك الى ترجيح الرأى القائل بالعودة الى اتخاذ الذهب أساساً للعملة ، لان التجارب قد دلت على ان مضار عيار الذهب أقل بكثير من مضار نظام العملات الحرة فضلا عن ان الجماهير لا تزال ترى فى استعمال الذهب مدعاة للثقة ، ولا يخفى ما لهذا العامل النفسانى من الأهمية وخصوصا فى بلاد الشرق ، ولكن يشترط لضمان حسن سير الأمور أن تكون العودة تدريجية وأن تسبق التثبيت القانونى فترة من التثبيت الفعلى ، كما يستحسن جعل النظام أكثر مرونة مما كان عليه فى الماضى ، بمعنى انه اذا نقص انتاج الذهب فى العالم لسبب من الاسباب لوجب تخفيض النسب القانونية بين الاحتياطى الذهبي وكمية النقود حتى لا يتأثر الاقتصاد الاهلى بندرة الذهب . وأخيراً يجب العمل على زيادة التعاون بين البنوك المركزية الكبرى وبين بنك التسويات الدولى الذى أنشىء فى سويسرا بعد الحرب الماضية ، ويقتضى ذلك زيادة رأس المال المدفوع لهذا البنك زيادة كبيرة ومنحه سلطات واسعة لمراقبة أسعار الصرف ولاجراء المقاصة بين عمليات البنوك المركزية توفيراً للذهب ، كما يقوم لهذه البنوك بنفس الخدمات التي يقوم بها البنك المركزى فى انجلترا لبنوك الودائع فيساعد من يقع منها فى صعوبات طارئة ويراقب الحالة العامة لسوق النقد فى الدول المختلفة ، حتى لا يؤول اضطراب الحال فى بلد ما الى سريان عدوى الأزمة الى الأسواق المالية الاخرى

على الجريتلى

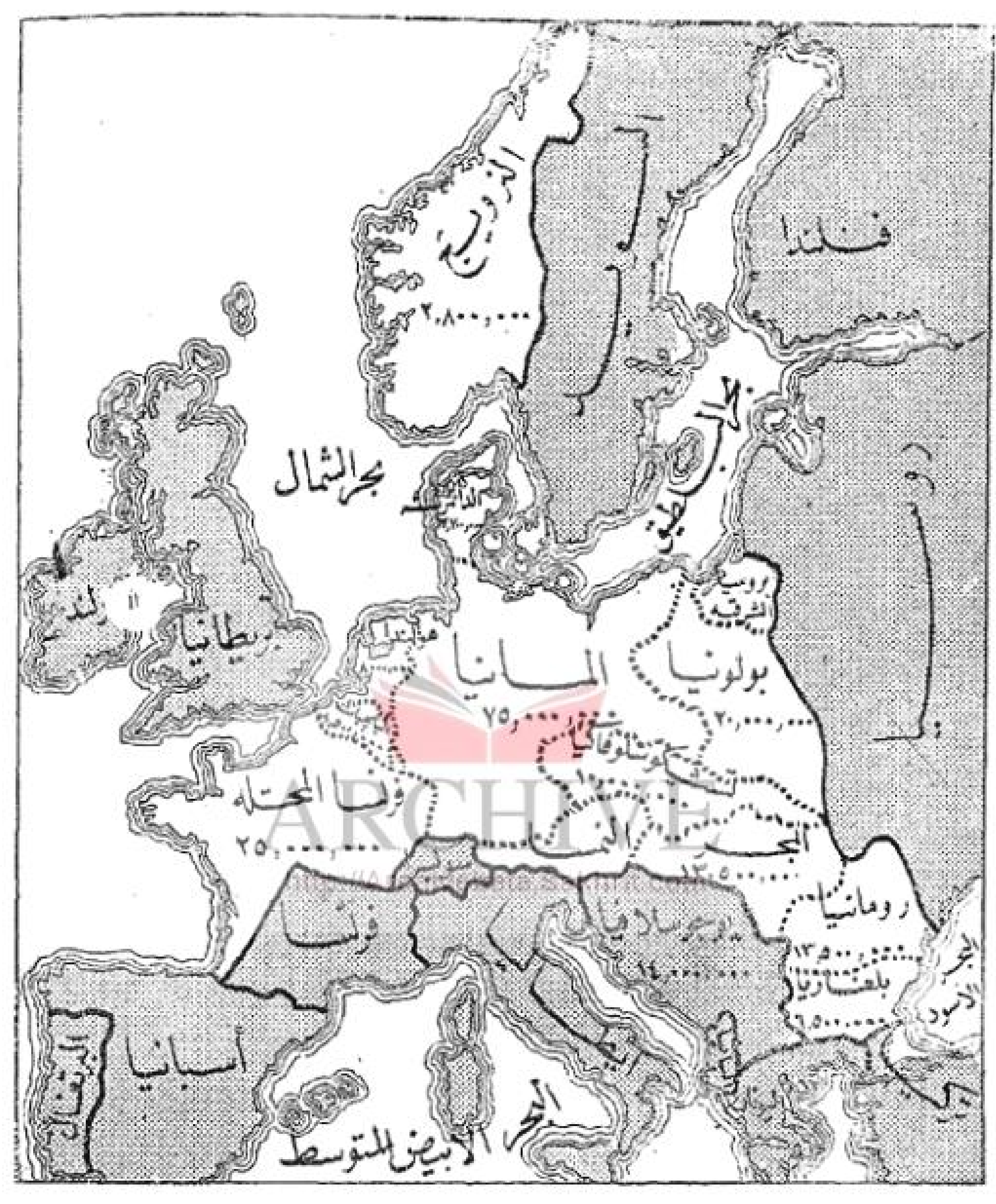
نظام هتلر الجديد فى أوربا

من الوجهتين السياسية والاقتصادية

١ - من الوجهة السياسية

تنبأ هتلر بأنه سينشىء المانيا كبرى عدد أفرادها مائتان وخمسون مليونا ، وليس معنى هذه النبوءة ان تترامى أرجاء الريخ دفعة واحدة فوق هذه الملايين العديدة عقب ظفره في المعركة القائمة ، بل يريد بها هتلر أن ينشىء فى أوربا نظاما سياسيا واقتصاديا يؤدى الى بسط لواء الجنسية الالمانية فوق مائتين وخمسين مليون أوربى فى خلال خمسين عاما . وتتأتى هذه السيادة عن طريقين : أولهما ، أن يؤدى ما يتاح للشعب الالمانى من السيادة السياسية ومن الرخاء الاقتصادى الى نمائه نموا سريعا فتزداد نسبة المواليد فيه حتى يرتفع متوسط عدد الاطفال فى الاسرة الالمانية من طفلين ونصف طفل الى اكثر من أربعة أطفال .. وثانيهما ، أن تحمل السيادة الالمانية أفواجا من شعوب أوربا المترامية على حدود ألمانيا على اتخاذ جنسيتها سعيا وراء ما تتيحه لاصحابها من الفرص والحقوق

ان الحرب ما تزال دائرة الرحى لاهبة اللظى ، وليس النصر بأقرب الى هتلر فى هذا اليوم عما كان يوم أوقد نارها ، ولكن الالمان يسيطرون الآن سيطرة مباشرة على آفاق تضم مائة وثمانية وخمسين مليونا من الافراد ، أى ان ٧٥ مليونا من « الشعب السيد » يقررون مصير ٢٠ مليونا من البولنديين و٨ ملايين من التشيك ومليونين من السلوفاك ، هذا فى الشرق عدا من فى الشمال وهم ٢٫٨٠٠٫٠٠٠ من النرويجيين و٣٫٧٠٠٫٠٠٠ من الدنمركيين ، وعدا من فى غرب أوربا وهم ٨ ملايين من الهولنديين و٨٫٥٠٠٫٠٠٠ من البلجيكيين و٢٥ مليونا من الفرنسيين . أضف الى ذلك الآفاق التى يفرضون عليها بطريق غير مباشر من السيادة والنفوذ ما يقررون به مصير اكثر من سبعة وأربعين مليونا من الانفس المتناثرة فى حوض الدانوب وأرجاء البلقان ، أى فى رومانيا التى بقى فيها بعد ما تناثر من اشلائها ١٣٫٥ مليونا من الافراد ، وفى هنغاريا التى تضم بعدما أضيف اليها من جاراتها ١٣٫٥ مليونا ، وفى بلغاريا وعدد سكانها ٦٫٥٠٠٫٠٠٠ بعدما ضمت اليها دوبرجة الجنوبية



تبين هذه الخريطة البلاد التى يسيطر عليها الألمان الآن سيطرة مباشرة (وهى البيضاء فى الخريطة) . وتضم هذه البلاد ١٥٨ مليونا من الأفراد . ويلاحظ أن يوجوسلافيا خارجة عن هذه البلاد

كيف يقرر هتلر مصير هذه الشعوب التى هوت فريسة جيوشه أو دعاته ، وكيف يقرر مصير كل شعب يقع تحت سطوته غدا ؟ لنرجع الى الماضى القريب نستقرئه شرحا للمستقبل الآتى :

تعهد هتلر فى ميونيخ الا يمس استقلال تشيكوسلوفاكيا بعد أن اقتطع منها منطقة

السوديت ، ثم لم يلبث ان استدعى رئيسها « هاشا » وأملاه أمرا باستدعاء الجيش الالمانى لاجتياحها ، وبينما كان الشيخ المسكين ملقى مغمى عليه بين يدى هتلر كان الغزاة الالمان يقتحمونها خاضعة ذليلة • ولكنه تعهد مرة أخرى بأن يحترم استقلال التشيك السياسى والثقافى داخل نطاق الحماية التى فرضها ، غير ان هذا التعهد لم يكن الا من قبيل سلسلة وعوده المنكوثة ، اذ لم يلبث أن أعد نظاما يفنى هذا الشعب فى خلال فترة لا تتجاوز على الاكثر خمسة وعشرين عاما ، فلم تعد تشيكوسلوفاكيا منذ ذلك اليوم سوى مستعمرة ألمانية يحكمها وزير المانى له مطلق السيادة على رئيس جمهوريتها «تيسو» ورئيس وزارتها « توكا »••

كذلك كان الامر فى بولندة ، فلم تستقر قدمه فيها بعد هزيمتها بأيام حتى أصدر فى ١٢ اكتوبر سنة ١٩٣٩ قرارا يضم الى الريخ ولايات بولندة الغربية وعدد سكانها ١٠ر٢٥٠ر٠٠٠ نسمة مع أن نسبة الالمان فيهم لا تزيد عن ٦ ٠/٠ فحسب • اما ما بقى من بولندة وعدد أهله ١١ر٨٦٣ر٠٠٠ فرد ـ عدا ما نزل عنه لستالين ـ فأقام فيه حكومة بولندية ، ولكن ادارتها لم تسند الى بولندى بل الى ألمانى هو وزير الدولة «هانز فرانك» وكان هذا الوزير يؤمل ان يجد من البولنديين من يعينونه على اقامة حكومة بولندية تسير تحت امرته ، ولكنه لم يلق فيهم أمثال هؤلاء الناس حتى بعد تلك الضربة القاصمة التى نزلت بهم يوم ان هوت فرنسا تحت أقدام ألمانيا • فأصدر هتلر فى ٢٥ اغسطس سنة ١٩٤٠ أمره الى هانز فرانك ان يكون حاكما عاما مطلق الامر فى بولندة ، فلم يعد لها أى وجود سياسى بل غدت ـ على حد تعبير الالمان ـ وطنا قوميا للبولنديين تحت السيادة والادارة الالمانية

أما فى شمال أوربا وغربها فما زال هتلر يصرف الامر على حذر وفى روية فلما يحرص عليهما فى تصريف الامر فى شرق أوربا وجنوبها الشرقى • وذلك لامرين : أولهما ، ان هتلر ما زال يزعم ويعلن ان من المحتمل أو فى الامكان ان يصالح بريطانيا فلا يريد ان تتخذ خطوته فى الغرب الطريق الذى لا صلح فيه ولا سلام ، وثانيهما ، فرقه من ان يطول أمد الحرب ويتسع نطاقها فلا يريد ان يمهد للدبلوماسية البريطانية الطريق الى ما ترجوه من الثورة فى اسكندنافيا ـ والاراضى الواطئة ، وفى فرنسا على الاخص

ففى اسكندنافيا نجد السويد التى يبلغ سكانها ٦ر٣٠٠ر٠٠٠ فرد ما تزال مستقلة ومحايدة من وجهة القانون ، ولكنها فى واقع الامر منفصلة من سائر العالم بالحاجز الالمانى من جانب والحاجز الروسى من جانب ، فلم يعد مركزها الاقتصادى يختلف عن مركز سائر الدول التى احتلتها ألمانيا • واذا لم يكن فى ستوكهلم « حاكم ألمانى عام » فذلك يرجع الى أن هتلر وستالين تفاهما ، صراحة أو ضمنا ، على ان يرجأ الى ما بعد الحرب احتلال ألمانيا للسويد واحتلال روسيا لفنلندة

واذ كانت دنمرك قد أسلمت أمرها الى ألمانيا بغير قتال أو كفاح فقد ظل الحكم في الظاهر للملك كريستيان وحكومته ، اما الواقع فالحكم لوزير ألمانيا المفوض والحاكم الالماني العسكري

وأبت النرويج أن تسلم فظلت في حرب مع ألمانيا . ولهذا حصرت السلطة في يد حاكمها العام المنتدب من قبل الريخ وحاكمها العسكري المعين من قبل الجيش الفاتح

فألمانيا تتخذ في اسكندنافيا في هذه الآونة خطة التهدئة والمسالمة ، أما اغراضها النهائية فظاهرة واضحة . واذا قدر لها النصر في هذه الحرب فلن يكون الامر الا ان تضم دنمرك الى الريخ الالماني ، وان تفرض على السويد والنرويج الحماية الالمانية . وذلك تنفيذا للغاية النازية التي أجملها فيلسوفها روزنبرج في كلمة ألقاها منذ سنوات وهي : « علاقة الدم النوردية »

أما في أوربا الغربية فنجد هولندة ، كبولندة والنرويج ، ما تزال في حالة حرب مع ألمانيا ، ولهذا وضعت تحت امرة الحاكمين الالمانيين : مندوب الريخ والحاكم العسكري . ومع ان مندوب الريخ أعلن ان هتلر يحترم حرية الشعب الهولندي وارادته ، ولكنه قد تقرر في برلين ضم هذا الشعب الى الريخ حالما يخرج من الحرب ظافرا . ذلك ان تعاليم « الوطنية الاشتراكية » تقرر ان ليس هناك شعب هولندي ، بل قبيلة ألمانية فصلت من أمها في خلال الحروب الدينية التي اضطرمت في أوربا في عهد الاصلاح الديني باغراء بعض الدول التي تسعى منذ القدم لحطم الوحدة الالمانية

ولیس لبلجيكا من أمل في الخلاص الا ان تنتصر بريطانيا وتنهزم ألمانيا . فنظرية النازي الجنسية لا تعترف بوجود شعب بلجيكي ولا بد ان يؤدي انتصار ألمانيا الى القضاء على بلجيكا كدولة مستقلة . وليس يخفى ان ألمانيا كانت تسعى في الحرب الماضية الى تفكيك الشعب البلجيكي ، فكانت تمول وتشجع الحركة القومية بين جماعات « الفلمنك » ليستقلوا بأمرهم عن الدولة البلجيكية ، وكان عميلهم النشيط حينذاك هو الدكتور بورمز الذي يقيم الآن في انتورب حيث يستأنف جهاده عسى ان يوفق الى انشاء «دولة الفلاندرز الكبرى » التي تترامى حدودها بين نهر السوم وبين شواطىء بلجيكا وفرنسا ، وبذلك تضمن ألمانيا السيطرة على الجزء الاهم من سواحل أوربا الغربية . ولم يكن عبثا أو عفوا ان يمد هتلر سلطان حاكمه في بلجيكا فيتعدى حدودها الى أرض فرنسا فيضم اليه الجزء الشمالي منها على طول ساحلها الغربي ، وانما يفعل ذلك تمهيدا لما يريده عقب الحرب من جعل هذه المناطق دولة واحدة خاضعة لامره منفذة لخطته فيما يريده لاوربا من نظام جديد

أما فرنسا فيريد هتلر أن يبت يد ايطاليا الطامحة الى كثير من أراضيها واملاكها ، فهي لا تقنع من أرضها بأقل من شامبري وجرينوبل ومارسيليا ومن املاكها بأقل من كورسيكا

وتونس • ومن المؤكد أن ألمانيا الظافرة لا بد ان تنزل بفرنسا الى مستوى الدول المفروض عليها حمايتها وسيادتها ، بعد أن تقص اجنحتها وتحيف اطرافها ، فتأخذ من شمالها المناطق التى تضمها الى « دولة الفلاندرز » التى تريد تأليفها ، وتفصل من غربها مقاطعة « بريتون » وتبقيها تحت حمايتها المباشرة لتطل منها دائما على ساحل انجلترا ، وتنزل عن بعض المناطق فى جنوبها منحة لزميلتها اسبانيا

هذه هى الصورة المجملة التى تريد ألمانيا ان ترسمها لاوربا اذا هى خرجت بالنصر من المعركة الدائرة • ولهذه الصورة جانب نظرى وآخر عملى • فأما الاول فلا تنفرد فيه ألمانيا بالسيطرة على القارة الاوربية دون زميلاتها وحليفاتها روسيا وايطاليا واسبانيا • واما الثانى فيهيىء لالمانيا من السيادة والنفوذ ما لا يجعل لها فى أوربا كفءا ولا شريكا يتحداها

ولم يبتكر هتلر هذه السياسة التى ترمى الى فرض السيادة الالمانية على شعوب أوربا جميعا • وانما هو ينفذ فكرة الوحدة الالمانية التى وضعها ودعا اليها وأعد العدة لتنفيذها جمع من مفكرى ألمانيا ومؤرخيها وساستها فى خلال القرن التاسع عشر وعلى الاخص بعد غلبهم على فرنسا فى سنة ١٨٧٠ • وكان يقصد بالوحدة الالمانية فى بادىء الامر توحيد الجنس الالمانى فى نطاق دولة كبرى ، ولكنها لم تلبث ان تجاوزت هذا الاتحاد القومى واخذت تسعى الى هدف ابعد وأكبر هو « الامبراطورية الالمانية » • وقد بلغت هذه الحركة ذروتها فى عهد غليوم الثانى حين أخذت ألمانيا تطالب بالوحدة السياسية والاقتصادية بينها وبين النمسا وهنغاريا ودول البلقان وتركيا لتطويها جميعا تحت لواء سيادتها • وكان ذلك الخط الحديدى المزمع انشاؤه بين همبورج فى ألمانيا والبصرة فى العراق محور هذه الحركة السياسية الكبرى التى أرادت ألمانيا تنفيذها باثارة الحرب الكبرى الاولى • وقد بعث هتلر هذه الحركة واستأنف السعى الى تنفيذها فأثار الحرب الكبرى الثانية ليخلص منها الى اقامة الامبراطورية الالمانية المنشودة

ولكن هل من الممكن تحقيق الحلم الالمانى وانشاء هذه الامبراطورية ؟ بلى ، من الممكن ولكن على انقاض الامبراطورية البريطانية

ومع هذا فانا ان فرضنا انتصار ألمانيا وهزيمة بريطانيا فى هذه الحرب لقينا أمامنا سؤالا آخر : هل يمكن لهذه الامبراطورية الالمانية ان تبقى وتعيش ؟ كلا ، ذلك ان الشعب الالمانى مجرد كل التجرد من الروح الذى يمكنه من الاستعمار الموفق • فهو أقل شعوب العالم الكبرى ألفة وعرفا وحسنى ، وقد يكون الفرد الالمانى مقبولا مألوفا اما الشعب الالمانى فلا يظفر بشىء من الرضى والقبول • لقد حاول الالمان ان يترجموا حكمة الانجليز الخالدة « عش ودعنى أعيش » ويتخذونها شعارا ، ولكن الالفاظ لا تغنيهم شيئا ما داموا مجردين من هذه الصفات الخلقية التى تمكنهم من تنفيذ هذا الشعار فى حياتهم وسياستهم

ان حلم هتلر حلم عظيم ، ولكن لا سبيل اليه ، لان الروح الالمانى روح ضئيل

٢ - من الوجهة الاقتصادية

يبدو من الآراء والانظمة النازية ان نظام أوربا الجديد من الوجهة الاقتصادية هو على هذه الصورة المجملة :

تؤلف أقطار أوربا جميعا ، باستثناء روسيا وايطاليا ، وحدة اقتصادية لا تضم فحسب ألمانيا الكبرى والدول الخاضعة لحمايتها وهي بوهيميا وبولندة ودنمرك والنرويج وهولنده وبلجيكا ، بل تمتد كذلك فتشمل الدول المستقلة استقلالا اسميا وهي فرنسا وهنغاريا ورومانيا • وليس لاى قطر من هذه الاقطار ان يتخذ سياسة اقتصادية مستقلة ينفرد بها من سائر اجزاء الوحدة العامة • وستكون برلين مركز هذه الوحدة الكبرى فتضع وتدبر الخطط التي يجرى عليها اقتصاد القارة الاوربية بأسرها

فما هي المبادىء التي يقوم عليها هذا النظام الاقتصادى ؟ انه يمكن اجمالها في هذه القواعد العامة :

١ - تتربع ألمانيا في المركز الرئيسي في هذا النظام • فرخاؤها وقوتها وعظمتها هي الاهداف الرئيسية التي توجه اليها كل القوى وتتخذ لها كل الوسائل • فجميع الدول الواقعة في هذا النظام تدخل في نطاق « مجال ألمانيا الحيوى » فمقدر عليها ان تلبى مطالب سيدتها ولو أدى بها الامر الى تضحية مطلبها

٢ - يخضع نظام الانتاج في أقطار هذه الوحدة الاقتصادية لخطة التخصص بأدق معانيها • فتبني هذه الاقطار بناء اقتصاديا جديدا يضع في يد ألمانيا كل الصناعات الرئيسية - وعلى الاخص الصناعات الحربية - بينما تختص الاقطار الاخرى بانتاج المواد الخام ومواد الطعام • وعلى جميع هذه الاقطار ان تهيىء للصناعة الالمانية أسواقا تصرف فيها ما ترسله اليها من المنتجات

ولا داعي للقول بأن هذه الخطة لا يقصد بها الا أن تشق ألمانيا طريق الاستعمار السياسي بعد أن تمهده بالاستعمار الاقتصادى • ذلك ان تنفيذها لا بد ان يؤدى الى هذه النتائج :

« ا » سيادة ألمانيا الحربية ما دامت قد اختصت واحتكرت صناعة السلاح والذخيرة وما اليها من الانتاج الحربي

«ب» سيادة ألمانيا الاقتصادية لان الصناعة تنتج من الارباح اكثر مما تنتج الزراعة والتعدين

« ج » زعامة ألمانيا الفكرية لان نموها الصناعي يؤدى - ويفتقر - الى تقدم العلم والتعليم فيها

وهكذا تنزل كل الشعوب الاخرى المفروض عليها هذا النظام الاقتصادى الى مرتبة الخدم والعبيد

٣ ـ يقوم التوزيع الجغرافى لنواحى الانتاج فى أرجاء هذا « المجال الحيوى » الذى تريد المانيا انشاءه على أساس فكرة اقتصادية وضعها بعض العلماء الالمان منذ قرن من الزمان • ومؤداها ان تكون كل وحدة اقتصادية مستقلة بأمرها معزولة عن العالم جميعا ، وفى وسطها مدينة كبرى هى مركز الاستهلاك فيها ، وتحيط بها سلسلة من المراكز الصغيرة تقوم بانتاج المواد اللازمة لهذه المدينة الرئيسية ، فأقرب المراكز اليها ينتج الخضروات والالبان ، وما يليها تنمو فيه الغابات والحدائق ، وما بعدها ينتج الغلال ، وبعد ذلك تترامى مناطق رعى الماشية وآفاق الصيد والقنص

ويبدو ان هذا النظام الاقتصادى الجديد الذى ينشئه هتلر يقوم على هذا الاساس • فألمانيا هى « المدينة » التى تتركز فيها عملية استهلاك ما تنتجه الاقطار التى تترامى حول جوانبها ، وهذه تتوزع فيها حركة انتاج مواد الصناعة ومواد الطعام وفق بيئتها الطبيعية المختلفة • وتتكفل ألمانيا باعداد الوسائل التى يطرد بها الانتاج المخصص لكل قطر من أقطار أوربا ، ومن هذه الوسائل القضاء على اى انتاج آخر فى هذا القطر والقضاء على أية مزاحمة تقوم بها الاقطار الاخرى

٤ ـ لا تتبع هذه الوحدة الاقتصادية نظام التخصص فى الانتاج وحده بل تتعداه الى نظام التوزيع كذلك • أى ان أوربا الجديدة لن تعرف مبدأ « الاقتصاد الحر » الذى يقوم على اساس حرية العرض والطلب ، وحرية تقدير الثمن والربح ، وحرية تقدير أجر العامل وسعر الفائدة • كلا ، وانما تخضع أوربا الجديدة « للاقتصاد المسير » الذى تحدده الدولة ـ وهى المانيا ـ بالاوامر والارقام ، فتعين الاسعار والاجور والارباح • ولا شك ان هذه السيطرة المطلقة على عمليتى الانتاج والتوزيع من شأنها ان تمكن رجال المانيا القائمين على أمر الشعوب الاوربية المقهورة من استغلالها أقصى استغلال لا يتيسر لهم اذا ما تركتها حرة فى حياتها الاقتصادية

ان مستوى الاجور والاثمان وسعر الفائدة والربح كل هذا سيقدر وفق المستوى الذى يمكن ألمانيا أن تفيد من أوربا أعظم ما يسعها من الفائدة • فمن ذلك أن يخفض أجر العمل فى انتاج المواد الخام ومواد الطعام ، بينما يرفع أجر العمل فى الصناعة واثمان المواد المصنوعة • وبذلك يفيد الالمانى فائدة مزدوجة : يشترى طعامه رخيصا بينما هو يتقاضى أجرا عاليا ، ويشترى المادة الخام بثمن بخس ويبيعها بعد صناعتها بثمن باهظ • ولا تقتصر فائدة الالمان على ما يجنونه من هذه الفروق الكبيرة التى يفرضونها بين اسعار ما يشترون واسعار ما يبيعون ، بل يفيدون كذلك من هذه الفوارق التى قد يحدثونها بين اسعار النقود المتداولة فى أرجاء أوربا • وذلك اذا فرضنا انه سيسمح لغير « المارك الالمانى » ان يتداول فى أوربا الجديدة • وكذلك يفيدون « سعر الفائدة » المرتفع الذى سيفرض حتما لرؤوس الاموال الالمانية التى تستثمر فى اقطار اوربا الخاضعة للسيادة الالمانية

ولكن هل يمكن ان يقوم على هذا النظام الاقتصادى بناء مدعم وطيد ؟ وهل يمكن ان

يؤدي هذا النظام الى الثبات والاستقرار ؟ وهل يمكن ان يقام على هذا الاساس سلام أوربي وعالمي طويل المدى ؟ ليس لكل سؤال من هذه الاسئلة الا جواب واحد هو : لا

ان هذا النظام لايكون قليل النفقة عظيم الجدوى الا اذا اتسع نطاق المنطقة التي يحكمها وكثر أهلوها • ذلك ان الغاية التي أقيم لها ووجه نحوها هي استغلال الشعوب الخاضعة لمصلحة الشعب المسيطر عليها • واذن فمن الطبيعي ان يدأب هذا الشعب على الاكثار من هذه الشعوب كلما واتته القوة أو الفرصة • أي ان هذا النظام يؤدي بطبيعة تكوينه الى نزاع دائم بين الشعب المسيطر وما حوله من الشعوب

ولو اقيم في القارة الاوربية مثل هذا النظام لقامت بطبيعة الحال نظم عالمية مماثلة مراكزها روسيا وبريطانيا وامريكا واليابان • وهكذا تنشب حرب اقتصادية دائمة بين هذه القوى الاقتصادية الكبرى ، سعيا وراء مصادر المواد الخام ووراء اسواق التجارة • ومن شأن هذه الحرب أن تثير من الاطماع السياسية والدواعي الاقتصادية ما يحيلها من آن لآن حربا عسكرية • وهكذا ينتفي السلام العالمي كما انتفى السلام الاوربي

هذا هو النظام الاقتصادي الذي يراد فرضه على أوربا بقوة السياسة والسلاح • ولا سبيل الى خلاص أوربا من سطوته وعاقبته الا اذا تصدت لالمانيا قوة اكبر منها وأعني لا من الوجهة الحربية فحسب بل من الوجهة الادبية كذلك • أي قوة تضع للمستقبل نظاما اقتصاديا يماثل النظام النازي من حيث وضوح اغراضه ودقة تفاصيله ، ولكنه أرقى واسمى منه من قبل ما يرمي اليه من المقاصد وما يريد تحقيقه من النتائج • فهلا نجد هذا النظام الذي لا يريد سيادة دولة على هامات غيرها من دول ، ورخاء شعب على حساب سائر الشعوب ؟

(عن مقال في جريدة أوربا الحرة Free Europe الجزء الاول بقلم كازمير سموجورزوسكي • والجزء الثاني بقلم فرديناند زفايج)

صفات وفضائل عربية !

الوفاء ـ الشهامة ـ الفروسية ـ الضيافة ـ المساواة ـ إباء الضيم

ولن يستعيد العرب مجدهم الغابر الا اذا نمت فيهم هذه الصفات من جديد

هنری برجسون

الفيلسوف الذى زعزع عرش دارون

بقلم الدكتور ابراهيم ناجى

ولد هنرى برجسون فى ١٨ أكتوبر سنة ١٨٥٩ فى باريس . وهو منحدر من عائلة محترمة من يهود بولندا . تعهدته والدته بعناية كبيرة وعلمته بنفسها ، وقد كانت دراسته الاولى للرياضيات ، فنبغ بها وأخذ جائزة . وفى مدرسة النورمال التقى بأستاذه رفيسون ووقع تحت تأثيره — وقد قال عنه برجسون إنه « يحمل روح فنان وشاعر ، وكان يخضع الفلسفة لقلبه وذكائه معاً »

وقد عين برجسون فيما بعد مدرسا فى النورمال ، ثم فى الكوليج دى فرانس ، ثم عضواً فى المعهد ، ثم عضواً فى الاكاديمية . وقد كان لتعليمه شهرة عالمية . فكان الناس يفدون اليه من جميع الاقطار رجالا ونساء ويتناقشون فى فلسفته فى الصالونات وعلى موائد الطعام

وقد وصفه « سلوسون » بقوله : « إنه كان ساحراً » وكان مريدوه يسمونه « الكروان » لأنه كلما علا وصعد ، أحسن الغناء . وكان شأنه شأن جون ديوى فى أميريكا . . كلاهما اشتق طريقا للفلسفة والتفكير بحب الناس له وبتأثيره الشخصى . وكانت عزلته الفلسفية يقطعها دائما زيارة الاصدقاء والمعجبين . وحينما كان فى أمريكا دعاها « أرض الاحاديث المتقطعة » وأضاف « انى هنا (فى أميريكا) ما أكاد أعثر بشخص يستحق الاهتمام ، حتى يقطع علينا الحديث آخر يستحق الالتفات كذلك »

أما من جهة فلسفته فقد بدأ من فلاسفة المادة ، وكان من عشاق الميكانيكا ، وكان له ميل لقوانينها وتطبيق تلك القوانين

ولكنه لما أخذ فى تطبيقها مفسراً بها ظواهر الكون وجدها ناقصة ، إذ أنها لا تفسر له حقيقة الزمن ، فثار على تلك الفلسفة المادية وترك مذهب الجبرية . وتوضيحا لذلك كتب مؤلفيه الزمن والارادة الحرة ، والذاكرة والمادة

ثم أخذ يفصل المادة عن العقل ، وانتقل الى دراسة الشخصية والحواس والغرائز والذكاء فى كتابه « التطور الخالق » . ومع أن وليم جيمس الفيلسوف الشهير كان معارضا لفلسفته فانه

ساعد مترجم ذلك الكتاب الى الانجليزية مساعدة قيمة

وقد شرح الفرق بين فلسفتي جيمس وبرجسون كثيرون . منهم ماير كالين ، ووضح أن فلسفة برجسون تقوم على تتبعه الفلسفات من قديمها لحديثها ، وأنه قال إن المادة هى الحقيقة « النازلة » ولا يمكن لها بقاء إلا بالقوة « الصاعدة » ، وتلك هى الحياة والوعى . وسر فلسفته اذن أنه وصلها « بالحياة » وجعلها سهلة واضحة مفهومة لا تعقيد فيها ولا غموض ، ومن العجيب أنه طبق « الحياة » على حياته هو ، فقد كان برغم عزلته يشترك فى كل ما هو « حياة » فى فرنسا فى الادب والعلم والاجتماع والاقتصاد

وبينما يكتب فى صميم الفلسفة كان يؤلف رسالات « فرعية » قريبة من الفلسفة ، كرسالته عن الاحلام والضحك . ومما قاله عن الاحلام إن ذكرياتنا تختزن تحت ضغط كبير لا منفذ له غير الاحلام . ويقول إن الاحلام تسري كأشباح غير منظورة ، غير أنها قد تتخذ لها بعض الاحيان ثيابا براقة ملونة . . . وتتخذ مظهراً من المادة

أما عن كتابه « الضحك » فهو كتاب جدير بالقراءة ومفسر لكثير مما غمض من فلسفة ذلك الرجل النابغ

يقول برجسون ان الضحك انسانى أصيل . ولا يمكن لشيء غير انسانى أن يضحك . ويقول ان العاطفة عدوة الضحك ، والضحك الحقيق لا يصحبه انفعال عميق ، والذكاء «صدى الضحك» ويقول ان الضحك « اشارة اجتماعية » والضحك « مصلح لأمورنا » ، وبهذا يبين كيف تستعمل الطبيعة ما هو غير نافع فتجعله صالحاً مفيداً . ومن هذا يتبين صفة ذلك الفيلسوف الواضحة وهى « السرور فى المعرفة »

على ان برجسون بالرغم من شهرته التى طبقت الآفاق لم يعدم ناقدين ومعارضين أهمهم سانتيانا الفيلسوف المشهور . قال عن برجسون ان عمله « أسطورة ، خرافة ، عمل الشاعر النفساني المؤثر » ، وعده من طراز بسكال الذى كان يخيفه كل شيء غير انسانى هائل فانه يفهمه ولكنه يرتعد أمامه . وأضاف سانتايانا « سيظل فى التاريخ كفيلم رائع مليء بالسيكولوجية الصادقة »

والآن ما هى فلسفته الحقيقية ؟ انه زعزع عرش داروين ، وهزم تشاؤم تين ورينان ، وهو صاحب فكرة « الدوام » ، ان المادة خلقتها الحياة بل استخدمتها وهي تخلق أشكالا جديدة كانت المادة بدورها عائقا فى سبيل حريتها وانطلاقها ، وان خلف ستار التطور قوة دائبة فى التغير . وليست هاته القوة مادية بل هى النسيج الذى منه تفكيرنا ووعينا

ان أشد حالاتنا الداخلية ثباتاً لشيء شديد التغير ، ان حالتنا الفكرية وهى تطرد فى سبيل الزمن تكتر بما يتجمع لها من ذلك الزمن وان رغائبنا واحساساتنا تتبع ذلك التغير ، وهذا التغير هو سر البقاء

وهذا « الدوام » لا يقاس ولا يقسم لأننا لا نقيس الا الثابت الذى لا يتغير

والدوام مقرون بالذاكرة ، والذاكرة أن يكون المخلوق شاعراً بذاته ومعنى أن يكون شاعراً بها ، هو أن يكون له حرية الاختيار . وهذه مسألة المسائل فى الفلسفة قديمها وحديثها

غير أننا كلما خطر لنا « العقل » خطر لنا بجانبه « المخ » و « المادة »

والواقع أن ما نسميه بالذكاء وُجد فى سلسلة التطور ليتصل بالمادة لتنظيم علاقتنا بالاشياء الخارجية وتحديدها ، وهو يفهم فى الجوامد ، فى الاشياء الثابتة ، ولا يستطيع أن يحيط بالزمن الذى هو روح الحياة والاشياء . وعلى ذلك كلما أدمنا التفكير عسر علينا فهم الحياة لان الحياة زمن لا فراغ ، تغيير لا جمود ، صفة لا كمية ، سيال دافق وخلق مستمر

ما فائدة العقل إذن ؟ ان الذكاء الانسانى وظيفته الاولى أن يعمل قبل أن يتفهم ، ولكى يعمل لابد له من تجزئة العمل ، ولابد له أن يعمل فى شىء محدود ولابد له أن يتصوره كوحدة ، وعلى ذلك لن يحيط الذكاء بسبيل الاشياء الا قليلا . ولا يحيط بالسبيل الابدى مطلقا

الواقع أن برجسون أتهم بأنه ضد العلم ، ما دام العلم ضد العقل

ولكنه يقول كلا « ان العلم يعودنا الدقة والاقتناع بالبرهان ويعودنا أن نفرق بين ما هو محتمل وما هو محقق »

لكن الفلسفة تبتدىء حيث يقف العلم . وهى تستعمل لغرضها طريقة مختلفة تماماً لطريقة العلم ، وهى « البصيرة » intuition التى لا تحتاج لتكلمات ولا الترجمة ولا للرموز

دكتور ابراهيم ناجى

طريق النجاح

« أقرر بكل اخلاص ان المال عندى لم يكن إلا غرضا ثانوياً ، ولم أعلق بالحصول عليه ذهنى طويلا

« وكل ما كنت أعتقده وأعول عليه أن من يؤدى عملا متقنا لا بد أن يكافأ عليه ويثاب

« سر فى طريقك وأد العمل الذى يطلب منك على أحسن وجه . وهذا وحده هو طريق النجاح » (هنرى فورد)

امبراطور يستعيد عرشه :

ملك الملوك هيلاسيلاسي

الذي قاتل في سبيل التاج أربع مرات

دوخه منليك قبل الاعتراف بوراثته للامارة التي ورثها عن أبيه . . وعزله الدج ياسو من حكم هرر . . فلما ظفر به وجلس على عرش أثيوبيا ثار عليه الرأس جوكسا وكاد يخلعه من العرش . . فلما انتصر على ثورة الرأس جوكسا حرمه الايطاليون من عرشه . . وها هو ذا الآن يجاهد في سبيل التاج من جديد

يندر بين الملوك أن تجد ملكا قاتل في سبيل التاج أكثر من مرة . فالملوك إما أن يرثوا التاج وإما أن يقاتلوا في سبيله مرة هي الاولى والاخيرة

ولكن ملك الملوك هيلاسيلاسي الذي يقود جيشه المظفر الآن في أحراش الحبشة مبتدئا بمقاطعة جوجام هو ملك فقد كرسي إمارته مرتين ، وفقد عرشه مرة ، وقاتل من أجله أربع مرات . . وفي كل مرة كانت الهزيمة أدنى من الانتصار . ولكنه كان دائما أبدا ينتصر أخيرا . وهو في المرة الاولى والثانية لم يفقد عرش الحبشة فهو لم يكن تربع عليه بعد . انما فقد عرش « هرر » . وهرر كانت امارة من الامارات الحبشية يحكمها « رأس » كان أيضاً يقال له « نجوس » أي ملك . أما عاهل الحبشة الاكبر فهو « نجوس نجاشي » ـ أي ملك الملوك ـ أو امبراطور بالاصطلاح الغربي

منليك يحرمه إمارة أبيه

والرأس تفري (الامبراطور هيلاسلاسي) هو ابن الرأس ماكونن بن الدجازماتش ولد ميخائيل من زوجته كريمة النجاشي سهلي سيلاسي من نسل منايك الاول الذي يقول الاحباش انه من نسل سليمان الحكيم وملكة سبأ

تربى الرأس ماكونن والد الرأس تفري في بلاط منليك عاهل الحبشة المعروف . وفي الخامسة والثلاثين من عمره عين حاكما لمقاطعة هرر التي فتحها بنفسه . وفي سنة ١٨٩١ أنعم عليه منليك بلقب رأس

وولد للرأس ماكونن عشرة أبناء لم يعش واحد منهم ، فلما رزق بابنه «تفري» في ١٦ يوليه

سنة ١٨٨٢ دعا الله أن يبقيه له وأن يكون وارثه فى حكم الولاية . وعنى بتنشئته أوفر عناية ليكون أول « رأس » مثقف بين رءوس الحبشة الذين لم يكونوا يعنون الا بالقتال والغزو

فعهد الى أحد رجال الدين فى تعليمه العلوم الدينية . وتصادف وجود أحد رجال الارساليات الفرنسية فى عاصمة ولايته فعهد اليه فى تعليمه اللغة الفرنسية وآدابها وبعض العلوم الحديثة

وفى الرابعة عشرة من عمره جمع مجلساً حافلا من أعيان الولاية وحكامها ونادى بابنه تفرى ولياً لعهده ووريثاً لامارته بعد وفاته

ولما توفى الرأس ما كونن فى ١٣ مارس سنة ١٩٠٦ كان المنتظر أن يرث ولى عهده كرسى الامارة ، فهو أولا فى الرابعة والعشرين من عمره . وهو ثانياً متعلم مثقف . ثم انه قد تمهر فى شئون الحكم تحت اشراف أبيه الذى نادى به ولياً للعهد قبل وفاته بعشر سنين

ولكن منليك الذى علمته تجاربه القاسية أن بقاء حكم احدى الامارات فى بيت واحد معناه الثورة والفتنة والقلاقل ، أبى أن يوافق على تعيين تفرى فى المكان الذى خلا بوفاة أبيه ، واستدعاه الى اديس ابابا بحجة رغبته فى أن يتم الامير الشاب علومه فى المدرسة التى أنشأها فى العاصمة . . ولما تململ تفرى من هذا الحرمان عينه حاكما اسمياً لمقاطعة « سلاليه » وأناب عنه من يتولى الحكم الفعلى فى الولاية . ثم جعله حاكما اسمياً لمقاطعة « باسو » ، ثم لمقاطعة « سيدامو » دون أن يسمح له بمغادرة العاصمة . فلما اطمأن الى اخلاصه وعدم احتمال قيامه بثورة ما فى مقاطعة أبيه عاد فى سنة ١٩١٠ فمنحه حكم هرر ـ وكان ذلك فى أواخر حكم منليك ـ بعد مادوخه بالحكومات الاسمية أربع سنين وأشعره بأن بقاء حكمه وزواله مرهون باشارة منه

والمرة الثانية يحرمه اللدج ياسو من إمارته

عاد الرأس تفرى الى امارة أبيه وظل يحكمها حتى قامت الحرب الكبرى فى سنة ١٩١٤ وكان منليك اذ ذاك قد توفى من غير وارث ، فأجلس رءوس الحبشة على العرش ابن كريمته من أحد رءوس الحبشة : اللدج ياسو

واللدج ياسو هذا كان أبوه مسلما ، فلما حاربه منليك وظفر به حمله على اعتناق الدين المسيحى . فقبل اعتناقها فى الظاهر ولكنه ظل على اسلامه سراً . وزوجه منليك لقاء ذلك احدى كريماته . فأنجبت منه هذا الامير الذى تربع على عرش جده بعد وفاته

كان اللدج ياسو فى عنفوان شبابه ، مديد القامة ، ممتلىء الجسم ، جبار القسمات ، نارى النظرات ، تعشق الفروسية من نعومة أظفاره فأصبح يعد من مغاوير الحبشة

هوايته الفروسية وسير فرسان المسلمين . ودرايته بأصائل الخيل لا تبارى . ويهوى الصيد والقنص فيخرج اليه مع طائفة من أتباعه الرءوس ، فيصطاد الاسود والفيلة وأفراس النهر ،

ويزور مختلف المقاطعات الحبشية زيارات مفاجئة فيطرب الرءوس لكلماته الحماسية وخطبه النارية وبراعته فى الفروسية والبسالة التى تتجلى لهم فى مغامرات صيده وسط أحراش الحبشة وغاباتها

وقبيل اعلان الحرب الكبرى أوفدت السلطنة العثمانية رجلين من أذكى رجالها هما المرحوم مظهر بك سفير تركيا فى اديس ابابا . ووالد كاتب هذا المقال الشيخ محمد توفيق رحمه الله مبعوث السلطنة لضم الحبشة الى الجامعة الاسلامية التى كانت تعمل من أجلها السلطنة اذ ذاك

وقامت الحرب وتركيا كما نعرف فى صف ألمانيا ، فوقعت فى الحبشة حادثات هائلة لم يحن الوقت بعد لافشاء أسرارها - وربما كتبت عنها مؤلفاً عند ما تسمح الظروف - وتمخضت تلك الحادثات باسلام اللدج ياسو سراً ، وبميله إلى الألمان حلفاء الترك . وكانت النية متجهة الى تجهيز حملتين من الحبشة إحداهما تنجد الجيش التركى المحارب فى الجزيرة العربية والأخرى لانجاد الجيش الالمانى الذى كان يقاتل جيش الجنرال سمطس على حدود كينيا تحت قيادة الجنرال فون ليتوفوربيك

لم يتحقق شىء من هذه الآمال كما نعلم . فان اللدج ياسو لم يلبث أن اختفى من فوق مسرح الحبشه بالسرعة التى ظهر بها وعظم أمره . وانهزم الجنرال فون ليتوفوربيك واندحر الألمان فى مستعمراتهم الأفريقية . وظل الترك فى الجزيرة العربية يقاتلون وحدهم حتى أفضت ويلات الحرب إلى جلائهم عن بلاد العرب وسوريا قبيل اعلان الهدنة

فما السبب فى هذا التغيير المفاجىء فى مجرى الحادثات ؟

السبب هو الرأس تفرى بمساعدة الحلفاء الذين لمسوا تغلغل النفوذ التركى والألمانى فى الحبشة فعملوا على إحباطه

فان اللدج ياسو لاحظ على الرأس تفرى أنه لم يعد يوثق باخلاصه برغم تودده اليه وماكان يظهره لجلالته من الصداقة . فاستدعاه الى أديس أبابا وخلعه من حكم ولاية هرر

وترامت الاشاعات إبان ذلك بأن الامبراطور قد أسلم .. فوطد الرأس تفرى العزم على الانتقام والقيام بثورة على مليكه الذى نبذ دين أجداده وقامت الثورة فعلا واتخذت شكل حرب أهلية شعواء بين ملك وامبراطور يؤيده المسلمون ، وأمير مسيحى يؤيده المسيحيون

واتصل الرأس تفرى بنيافة الانبا كيرلس مطران الحبشة لطائفة الأقباط الأرثوذكس وبدعاة الحلفاء فى الحبشة ، وعقد من بعض الأعيان النصارى ورجال الجيش برياسة المطران مجلساً فى ١٧ سبتمبر سنة ١٩١٦ تقرر فيه خلع الامبراطور اللدج ياسو وتجريده من القابه وحقوقه هو وأسرته فى العرش ، وإجلاس الاميرة زاوديتو كريمة منليك على عرش أثيوبيا

ولكن هذا التجريد من حقوق العرش لم يكن فى مبدأ الامر الا قراراً نظرياً . فكل الشواهد كانت تدل على أن ثورة الرأس تفرى ستقمع بسهولة

ولكن جيش تفرى أخذ يقوى ويشتد شيئا فشيئا ، والحرب اتخذت شكلا رهيباً ، وظلت

المعارك سجالا بين الخصمين حتى انتهت فى سنة ١٩١٧ بهزيمة جيش اللدج ياسو وانتصار جيش تفرى

ولقد هم الرأس تفرى بقتل غريمه ولكن الرأس كاسا حماه وتعهد لتفرى بأن يسجنه ويحرسه ولا يدعه يفر من الأسر .. فاضطر الرأس تفري للاعتراف بهذه الحماية . وظل اللدج ياسو سجيناً فى قصره مغلولا بسلسلة ذهبية وحول قصره نطاق من حراس الرأس كاسا ، يليه نطاق من جنود الرأس تفرى

ولم يعد الرأس تفرى لولاية هرر بعد ذلك ، فقد كانت له مطامع أعظم من مجرد حكم ولاية حبشية .. وقد تحققت مطامعه عند ما اضطرت الامبراطورة زاوديتو الى الاعتراف به وليا للعهد ووصياً على العرش غداة انتصاره . . فعمل من ذاك الحين على جمع القوة كلها فى يديه واستمال الرؤوس بدهائه وجمع حوله أقطاب أثيوبيا فما بقى منهم الا أمير واحد سرعان ما ساقه الى ميادين الحرب من جديد

أما رجلا تركيا فمات أولهما وهو مظهر بك فى هرر بعد مرض قصير . وغادر ثانيهما وهو المرحوم والدى الحبشة سراً حتى لا يبطش به عاهل الحبشة الظافر

ثورة تكاد تذهب بعرش تفرى

وظل نفوذ الرأس تفرى يقوى على مر الأيام

وكلما أضاف لنفسه حقاً جديداً أو سلطة لم تكن فى يديه ، توترت العلاقات بينه وبين الامبراطورة زاوديتو ابنة منليك

وكان التوتر يزداد حدة كلما تذكرت أن رؤوس الحبشة اضطروها الى تطليق زوجها الحبيب الرأس جوكسا عند ما عرضوا عليها تاج أثيوبيا بحجة أنه لا تجرى فى عروقه الدماء الامبراطورية ومن ثم لا يحق له الجلوس على عرش أسد يهوذا . وكان أول مطالب بهذا الطلاق الرأس تفرى الذى اتخذه وسيلة لابعاد الرأس جوكسا ولانفراده هو بالحكم الى جوار الامبراطورة المطلقة

وبلغ التوتر أقصاه عند ما فاجأها الرأس تفرى فى اكتوبر سنة ١٩٢٨ باعلان نفسه ملكا لمملكة « شوا » أعرق الامارات الحبشية فى تقاليد الملك

عند ذاك لم تطق زاوديتو صبراً على هذه الحال واعتزمت المقاومة الجدية ، فاتصلت بزوجها السابق الرأس جوكسا ـ أو على الاقل هذا ما أذاعه الرأس تفرى نفسه ـ وطلبت منه القيام بحركة ثورية .. فأعلن الرأس جوكسا العصيان والثورة . وأصدر منشوراً نادى فيه بوجوب خلع الرأس تفرى واعادة الامبراطور السابق اللدج ياسو الى عرشه

عندئذ أحس الرأس تفرى أن عرش أثيوبيا يتزايل من تحت قدميه .. ولا عجب فها هو ذا

أضخم رؤوس الحبشة يسير الى العاصمة فى جيش كثيف ينادي بخلعه واجلاس غريمه المسلم على العرش

فحاول أولا إغراء الرأس جوكسا بشتى الوعود والمواثيق . ولكن غريمه ظل على عناده ومطالبه ، وأبى أن يعود

فشرع الرأس تفرى عندئذ يجيش جيوشه فى مقاطعة تيجرى فى شمال غربى العاصمة أديس أبابا حتى بلغ عددها مائتى ألف مقاتل . وعين لقيادتها وزير حربية الدجازماتش موللاتشيتا

وسرعان ما زحف عليه جيش الرأس جوكسا من معقله فى إمارة جوندار . . والتقى الجمعان عند بلدة « زبرازبيت » شرق بحيرة تانا

الطائرات فى سماء الحبشة لأول مرة فى التاريخ

كان ذلك فى آخر شهر مارس سنة ١٩٢٩ . وهو يوم مشهود فى تاريخ هيلا سيلاسى المليء بالحروب والكوارث والمفاجآت

فها هو ذا فى قصره فى أديس أبابا يتلهف على أنباء المعركة التى توشك أن تدور رحاها عند بحيرة تانا . والامبراطورة زاوديتو فى قصرها أيضا تدعو الله أن ينصر زوجها الحبيب فيعود اللدج ياسو الى العرش . . اللدج ياسو ابن أختها الذى لم يثبت لديها اسلامه يقينا فهى ما تزال تحسب ان قصة اسلامه من نسج تفرى وحده

وهناك على كثب من « زبرا زبيت » اصطف الجيشان للقتال : أحدهما يقوده وزير حربية الحبشة نائبا عن النجاشى تفرى ، والآخر يقود الرأس جوكسا

والرأس جوكسا واقف فى قلب جيشه وحوله جناحان من أبرع فرسان الحبشة . . وقد أعد للمعركة عشاً بديعاً للمدافع الرشاشه ليحصد به قوات غريمه حصداً . .

ولكن النجاشى تفرى كان قد أعد للمعركة سلاحاً جديداً لم يكد الحبشان يسمعون به أو يرونه . .

أعد لها ثلاث طائرات مطاردة اشتراها من الحكومة الفرنسية سراً واستقدم لها ثلاثة من الطيارين الفرنسيين بقيادة الطيار الفرنسى أندريه ميليه . .

ولم تكد المعركة تدور رحاها حتى حلقت الطائرات في الجو ، ثم غطست على قوات الرأس جوكسا من ارتفاع ثلاثة آلاف قدم ، ملقية قنابلها على جناحى الجيش وقلبه ، وبمدافعها الرشاشة راحت تحصد الفرسان من السماء حصداً . .

ذعر الرأس جوكسا لهذه المفاجأة التى لم تكن منتظرة . . ولم يلبث أن أصيب بقذيفة من مدفع رشاش فسقط فى الميدان صريعا . . ولما رأى فرسانه مصرعه وشاهدوا انقضاض الطائرات

عليهم كالصواعق داخلهم الرعب ودب فى قلوبهم الهلع وهموا بالفرار . .

فانتهزها الدجازماتش موللاتشينا فرصة سانحة للهجوم . . وفى جولة أو جولتين كان العدو قد انهزم وراح يمعن فى الفرار تاركا خلفه عشرة آلاف قتيل . .

ولم يخسر جيش تفرى إلا ثلثمائة مقاتل

وبعد ما انجلت المعركة عن هذه الهزيمة الشنيعة للجيش الثائر ومصرع قائده ، فصل الدجازماتش مولاتشيتى رأس غريمه عن جسدها وسلمها لقائد السرب الفرنسى الذى طار بها بدوره الى أديس أبابا حيث سلمها للنجاشى تفرى فى جمع حاشد من أعيان أديس أبابا ومختلف رءوس الحبشة فاطمأن تفرى وهدأ باله بزوال آخر رأس من أتباع اللدج ياسو والامبراطورة زاوديتو

ومن أغرب المصادفات ان الامبراطورة المسكينة أذيع نبأ وفاتها فى اليوم التالى لهذه المعركة التى أودت بحياة زوجها . . فخلا الجو لتفرى الذى راح يستعد ليتوج ملكا للملوك . وتوج فعلا على ما يذكر القراء فى سلسلة من الحفلات الفخمة حضرها مندوبون من معظم الدول الغربية والشرقية . .

أما اللدج ياسو الذى نادى به الرأس جوكسا أمبراطوراً للحبشة فان هيلاسلاسى قبض عليه من جديد وسجنه فى معتقل بالقرب من هرر ووضعه تحت حراسة طائفة من أخلص جنوده له ، وظل سجيناً حتى هم الايطاليون بغزو الحبشة ، فخشى هيلاسلاسى أن يفك الايطاليون أسره ويضعوه على رأس حملتهم بدعوى انه أمبراطور الحبشة الشرعى . ويزحفوا به على العاصمة فيضمنوا تأييد أنصاره له . فأخرجه من معتقله وأشيع بعد ذلك انه مات

***

وما وقع بعد ذلك من الحادثات ما نزال نذكره جميعاً . فان الايطاليين غزوا الحبشة وألجأوا الامبراطور هيلاسيلاسى الى الفرار ، فضاع من يده العرش الذى جاهد من أجله طوال تلك السنين . .

وها هو ذا الآن يعود الى الحبشة على رأس جيش من الوطنيين تؤيده فصائل من الجيش الانجليزى ليستعيد عرشه من جديد !

م . م . توفيق

المسئول عن هذه الحرب :

بروسيا

لا هتلر ولا المانيا

ليست بروسيا الا ولاية من ولايات ألمانيا الكبرى ، ولكنها تفرض روحها على الشعب الالماني جميعا ، برغم ان الروح البروسي يناقض الروح الالماني في تطورهما التاريخي وفي اتجاههما الحالي

فالشعب البروسي شعب صقلبي انحدر من فيافي آسيا السحيقة ، فان زالت عنه بشرته الرقيقة من الحضارة الغربية تبدى مغوليا عاتيا . وظل هذا الشعب دائبا على وثنيته الاولى أجيالا طويلة الى أن أخذت المسيحية تنفذ اليه في القرن الثالث عشر رويدا ، ولكن ما زالت تعتريه النكسة من دهر لدهر فيتوق الى وثنيته التي عاش في حماها هائما في حياة الكفاح سارحا في خيال البطولة

اما الشعب الالماني فمن هذه القبائل التي طواها الرومان في أطراف امبراطوريتهم ، فأقام حضارته كما أقامها شعوب أوربا الغربية على أساس الحضارة الاغريقية والرومانية ، واتفق مع الفرنجة في مملكة واحدة ترامت انحاؤها بين يدي الامبراطور شرلمان ، وخضع خضوع أوربا بأسرها لسيادة روما واستمد منها مثله الدينية أجيالا

واذ كان الشعب البروسي أسيوي النشأة وثني العقيدة في باديء أمره فان قوميته تبدت واتضحت في عهد لم تتبين فيه شعوب أوربا معنى القومية . أما الشعب الالماني فلم يكن له من الخصائص ما يميزه من سائر الشعوب التي تعيش في غرب أوربا وجنوبها مندمجة في ملك واحد ودين واحد متماثلة في اللغة والحضارة . ولهذا أبت ــ أو عجزت ــ بروسيا عن ان تتخذ الحضارة الاوربية كما اتخذتها ألمانيا التي أشربت حينا ما الروح الاسباني في عهد أسرة هبسبرج وهي من أرومة اسبانية ، وطبعت حينا آخر بالطابع الايطالي عندما كان فن العمارة والمثالة في ايطاليا يعمر قصور أوربا وهياكلها ، وتمثلت حينا ثالثا بالحضارة الفرنسية عندما كان كل أمير أوربي يتأثر لويس الرابع عشر في حياته الباذخة وتنقل مجتمعات أوربا عن بلاط فرساي العظيم

فالفارق بين بروسيا وألمانيا هو الفارق بين آسيا وأوربا . فارق نشأ من الاصل والبيئة ونما على مر التاريخ . فكان لكل منهما فلسفة للحياة خاصة به وطراز من الحضارة يخالف

طراز الاخرى • فالالماني ـ كالفرنسي أو الانجليزي ـ يريد ان يحيا حياة هادئة ينصرف فيها الى الارض يزرعها ويأكل منها ، ويتوق الى البيت الوادع والاسرة المستقرة ، ويحب أن يجمل نفسه بالكتاب يطالعه وبالموسيقى يستمعها وبالصديق يحادثه ويزامله ، عازفا عن النضال والنزاع نافرا من القسوة والسطوة ، ما دامت الحياة تجرى آمنة رضية • اما البروسى ـ هذا المغولى التترى ـ فالحياة المثلى التى ينشدها هى حياته الاولى وسط الآجام والادغال وعلى العقائد الوثنية البدائية ، هى حياة « الملاحم » التى تمجد العنف والقسوة وتعيش فى جو الرعب والرهبة وتستسلم لقوى الكفاح والاستماتة • ذلك ان عقيدته ان المرء خلق للكفاح والنضال ، فدعة السلم تناقض فطرة الحياة وتفسد طبيعة الانسان ، أما وقدة الحرب فتذكى جذوة الحياة وتنمى قوى أبنائها • واذن فليس للوجود من معنى ووجهة الا سيادة قوم وهوان أقوام ، وفى سبيل هذا يستباح الدم المسفوح وتستحل السهام والنيران

هذا الروح البروسى العنيف العاتى ، الطامح الجامح ، هو الذى يثير الحرب فى أوربا من حين الى حين

لم تستطع بروسيا بادىء الامر ان تلتئم مع ألمانيا فى وحدة كبرى عندما أخذت أوربا تنقسم شعوبا متنافسة متناحرة • فأدى هذا الى أن ينشأ بينهما من النزاع والنضال ما أوقد نار الحرب بين أمرائهما دهرا طويلا كانت فيه بروسيا غالبا فى موقف المهاجم وألمانيا فى موقف المدافع • ثم توفق الفرسان الالمان فى القرن الثالث عشر الى غزو بروسيا وبسط سيادتهم عليها ، فأبدلوا وثنيتها بالدين المسيحى وأخذوا يشربونها قهرا الحضارة الاوربية • ولكن بروسيا التى خلقت للسطوة وللكفاح أبت ان تذعن لهذا المصير فترضى بأن تكون ولاية مجردة من السيادة والنفوذ ، بل أخذت تعد نفسها بالجيش والسلاح حتى غدت فى عهد فردريك الاكبر أقوى الامارات الالمانية وأحقها بالسيطرة عليها جميعا • وقد تحقق لها ذلك على يد بطلها العظيم بسمارك الذى اتخذ من الحديد والدم وسيلة الى بسط كلمة بروسيا على أرجاء ألمانيا كلها

ومن يقرأ آراء بسمارك ويعرض تاريخ سياسته يتبين هذا الروح البروسى واضحا • فالشعب عنده لا يستطيع ان يبنى مجدا أو يصيب هدفا وانما الملك العظيم أو الزعيم الكبير هو الذى يشيد الامجاد ويرفع الرؤوس • أما هذه الدساتير والمجالس النيابية فعبث يدل على جنوح الامم الى الدعة والتراخى اذ تتوهم ان فى سفسطة الخطباء والفقهاء ما يجديها نفعا أو يبلغها أملا • وهو يتساءل : « أهذه المشاكل العظيمة التى تعرض للشعوب تحلها الخطب البليغة وأغلبية الاصوات اذا نحن جردنا انفسنا من الحديد وضننا بالدماء ؟ وهل ثمة مبادىء وأخلاق يصح ان نبقيها قائمة اذ هى عاقت طريقنا الى المجد والسيادة والنفوذ ؟ »

ولهذا خاض هذا البروسى العبقرى ـ بسمارك ـ حربا اثر حرب حتى حقق لبروسيا

ما ارادته منذ عهد بعيد من السيطرة على الشعب الالمانى • وكان تحقيق هذه الارادة ـ لقسوة القدر ! ـ فى قصر فرساى بفرنسا التى دحرت أمام جيوشه الجارفة ، فجمع فيه أمراء ألمانيا وقوادها فى ١٨ يناير سنة ١٨٧١ وأعلن الوحدة الالمانية تحت امرة بروسيا

ومنذ أن سيطرت بروسيا على ألمانيا لم تنفك الحروب تثور فى أوربا حينا بعد حين ، ذلك ان رغبة هذا الشعب القوى المناضل لا تقف عند حد من حدود الامم والشعوب ، فلا يكفيه ان يسيطر على امارات ألمانيا كما كان أمره فى عهد فردريك الاكبر ، بل يطمح الى ان يسود شعوب أوربا كلها كما فكر فى ذلك فى عهد بسمارك ثم سعى اليه فى عهد غليوم الثانى ، وقد يجمح به الامر ـ كما يبدو فى عهد هتلر ـ فيتوق الى أن يحقق سلطانه ويبث نفوذه على ربوع العالم جميعا • والقوة الفعالة فى جميع هذه العهود ليست قوة الملوك والزعماء والقواد ، وانما قوة الشعب البروسى الذى ركز همه فى جميع أدوار تاريخه فى الجيش والحرب وفى الفتح والسيطرة

لقد عاش الشعب البروسى فى أوربا منذ عهد سحيق ، ودان بالمسيحية منذ سبعة قرون ، ولكنه ما زال يحن حتى اليوم الى العودة الى حياته البادية الفطرية وديانته الوثنية الاولى • فكان ثمة حركات فكرية شتى ترمى الى انقاذ ألمانيا ـ أو بروسيا على الاصح ـ مما تستهدف له من أخطار الحضارة الاوربية • وقد ساهم فى هذه الحركة جماعة البارزين من فلاسفتها وفنانيها ، حتى بلغت أقصاها فى كتب نيتشة وموسيقى واجنر • ففلسفة نيتشة تقوم على تسفيه الدين المسيحى والحضارة الاوربية وتنادى بشريعة القوة والكفاح والسيادة ، وفن واجنر يتلخص فى تمجيد الحياة البروسية الاولى ، حياة الآلهة المتحاربين والابطال المتناضلين والمردة الجبابرة والشياطين الاشداء !••

وتتلخص الفلسفة التى سيطرت على التفكير البروسى ووجهة السياسية البروسية فى نقطتين بارزتين : تمجيد الحرب وتمجيد الدولة

سأل امبراطور روما « جوليان » زعيم هذه القبائل التيتونية التى انحدر منها الشعب البروسى عما يدعوهم دائما الى التأهب للحرب واثارتها فأجابه : « انا نرى فى الحرب أقصى سعادة فى الحياة » • وفردريك الاكبر يقول : « ان الحرب هى الحرفة القومية فى بروسيا » وذكر فولتير ان فردريك قال له مفاخرا : « ان الحرب ثارت فى عهده مرة كل عشر سنوات ، وانه يعتقد انها ستظل تنشب هكذا أبدا » والقائد فون مولتكة يقول : « ان الحرب احدى عوامل الخطة الالهية لتنظيم العالم ، فلولاها لغرق البشر فى المادية الآثمة » ومن أقوال بسمارك الحافلة بكلمات الدم والنار والحديد قوله : « ان لم تكن المطرقة التى تهوى بالضربات فلا بد أن تكون السندان الذى يتلقى الضربات » ، وقوله : « ان الحروب ليست الا أوراقا حديدية تتساقط من يد الاله الذى يحب ابناءه» وليست هذه الاوراق الا السيوف والنيران • وكان اذا انتهى من سماع خطيب أو قراءة كتاب يقول : « الرصاص خير من اللسان والقلم »

وهتلر يتحدث عن « خطر الحرب ومرحها » وكيف يمتزجان معا فيجعلان لحياة المرء قيمة ولمكانة الشعب رفعة • ولكن ما بال هذا الرجل يتحدث هكذا وهو نمسوى لا بروسى؟ ذلك انه يعبر عن الشعب البروسى القابض على زمام الحياة الالمانية ، الموجه لتيار التفكير الالمانى ، فلا بد له من ان يمجد الحرب وينكر السلم ، ومن أن يسرف فى هذا أسراف الدخيل الذى يتعصب ويغلو ، ليثبت انه ليس بأقل من الاصيل اخلاصا وايمانا • وهو لهذا يقول : « ان الحرب أبدية ، فكانت نارها موقدة منذ الابد ، وستظل نارها مشبوبة منذ الابد ، الحرب هى الحياة ، هى منشأ كل شىء فى الوجود »

وهكذا يتركز التفكير البروسى فى الحرب ، وهكذا يمجد الشعب البروسى روح الحرب • نعم ، ان البروسى يدين بالمسيحية التى قال رسولها محذرا : « من يمتشق السيف مقاتلا سيهلك بالسيف » ولكنه يدين كذلك بدين آخر خلاصته أن أقصى مايريده المرء من الشرف ان تنتهى حياته على نصل السيف ، ذلك ان الحرب هى التى تفصل فى أمر الفرد وأمر الشعب ، فتقضى على أحدهما بالفناء وتكتب لاحدهما الحياة المجيدة

ان الحرب عند البروسى ليست مجرد صراع بين الشعوب وصدام بين الجيوش ، بل هى حركة دائمة لا تقف رحاها ولا تخمد نارها أبدا ، سواء فى وقت السلم أو وقت القتال وانما تتخذ الحرب صورا شتى وفق مختلف الظروف ، فهى تتخذ حينا ما صورة «السياسة» التى يسندها الجنود ويؤيدها السلاح ، وتتخذ حينا آخر صورة « القتال » الذى تتعارك فيه الجيوش وتراق فيه الدماء • ولهذا أنصف الناس حين سموا سياسة ألمانيا ــ أو بروسيا على الاصح ــ « بالسياسة المسلحة » ذلك انها ليست الا حربا تعبأ فيها القوى وتصف فيها الجيوش ، ولكنها تقف ساكنة متربصة حتى ينتهى الساسة من مهمتهم فيتولاها عنهم الجنود فى ميدان القتال ! ولهذا يقول أحد مفكرى ألمانيا ــ كلوزفيتز ــ ان الحرب ليست الا تكملة للسياسة • ولهذا كانت سياسة بروسيا قائمة على الاسس التى تقوم عليها الحرب ، فالبروسى لا يستبيح « الخدعة » فى الحرب وحدها شأن سائر الشعوب بل ينفرد بتطبيقها فى السياسة كذلك ، ووقت السلم عنده لا يختلف عن وقت الحرب من حيث استخدام « الدعاية » التى تحطم قوى أعدائه وتفكك وحدة خصومه

هذا عن تمجيد الحرب، أما عن تمجيد الدولة فيمكن ان نستخلصه من أقوال زعماء بروسيا ومفكريها • فمنذ القدم قال منتخبها الاعظم فردريك : « ان الحرب تكون خيرة صالحة اذا اثيرت لتزيد من هيبة الدول وتحقق غرضها » • ومع ان هذا الرجل وضع كتابا ينكر فيه آراء مكيافيلى ويسفه وسائله الا انه اعتدى على سيليسيا على حين غرة وضمها الى أملاكه قائلا : انه يفعل ذلك لانه « يضيف به شيئا جديدا الى مكانة بروسيا وقوتها » • والقائد فون تريتشكه يقول : « انه لرجل احمق وانه لشعب زرى ذلك الذى يملك من القوة ما يضرب به عدوه ويقهره ثم يحجم عن ذلك لان الحق يمنعه او الخلق يصده » • وهذا شبيه بما قاله هتلر لرئيس مجلس الشيوخ فى دانزج من انه « لا يسمح لضميره ان

يصده عن نقض ما تعهد به وتنفيذ ما قر عليه رأيه » والفيلسوف فيخته يقول : « ليس بين الدول ما اسمه الحق والباطل ، وانما بينها فاصل واحد هو القوة والضعف » • وبسمارك يقول : « الاساس الوطيد الراسخ للدول العظيمة ليست المثل الخيالية وانما الانانية القومية» • والبروسيون على كل رذائلهم ومساوئهم يمتازون بفضيلة الصراحة التى تبلغ بهم مبلغ الحمق والتوقح ، كما يبدو من هذه الكلمة التى ألقاها المستشار فون بيلو فى سنة ١٩٠٠ فى الريشستاغ وهى : « لست أرانى متحرجا من أن أعلن على ملأ العالم جميعا أن ألمانيا لا تريد أن تتخذ الحق حكما عليها وان تجعل منه عاملا نافذا فى حياتها »

والخلاصة ان بروسيا ـ لا ألمانيا ـ هى التى ترغب فى السيطرة والسيادة وتجنح الى السطوة والعدوان ، وهى التى لا تنفك تفترى الباطل على خصومها وتنكث الوعود مع حلفائها ، وهى التى لا تتحرج من اعلان كراهتها للسلم وانكارها للحرية ورغبتها فى الحرب ورضاها بالحاكم العاتى • وانما جريرة ألمانيا انها ألقت زمامها الى بروسيا عنوة أو عن رضى ، فمن الحق والنصفة ان يوجه الساسة همهم الى هذا الشعب البروسى فيخلصون ألمانيا من بين نواجذه ويعيدونها بذلك الى ساحة الحضارة الغربية التى أتخذتها منذ القدم واضافت اليها شيئا عظيما • وهذه هى الغاية التى أخفقت الحرب الكبرى الاولى فى اصابتها اذ لم يوفق الساسة الذين وضعوا الهدنة فى ان يفرقوا بين بروسيا وألمانيا ، فأخذوا الثانية بجريرة الاولى ، فهل يفوت الساسة المعاصرين عندما تضع هذه الحرب وزرها ان يقصروا همهم على اطفاء الجذوة التى توقد نار الحرب فى أوربا حينا بعد حين ، وما هذه الجذوة الا بروسيا التى تعد ألمانيا ذاتها احدى ضحاياها !..

ع . غ

إذا شئت أن تحيا سليما

إذا شئت أن تحيا سليما من الأذى ... وحظك موفور وعرضك صين

لسانك لا تذكر به عورة امرىء ... فكلك عورات وللناس ألسن

وعينك إن أبدت اليك معايباً ... فصنها وقل يا عين للناس أعين

وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى ... وفارق ولكن بالتى هى أحسن

هتاف الفنـــاء

قصة مصرية

بقلم الاستاذ محمود تيمور بك

لا أدرى لماذا عملت بنصيحة هؤلاء الاطباء الاغبياء ، وجئت الى هنا فى الريف • كنت أحسن حالا حينما كنت فى مصر • لقد أكدوا لى أن بضعة أيام أقضيها فى الضيعة كافية لان تعيد الى صحتى • فالذى أشكو منه ليس الا ضعفا عصبيا نتيجة للحمى الشديدة التى انتابتنى وكادت تقضى على • فالراحة والرياضة البسيطة فى الشمس والهواء الطلق والغذاء الصحى هو علاجى الوحيد • هذيان ! هذيان ! من أين لى بالراحة وهذه البومة تنعق بجوار نافذتى ؟ لم أسمع للبومة قبل اليوم صوتا فى هذه الساعة • انى أرتجف عند سماعى لها وهى تلح فى نعيقها كأنها تعلن للناس خبر كارثة على وشك الوقوع • عملت المستحيل لانحيها بعيدا عن مسمعى فلم أفلح • انها رابضة فوق رأسى ربوض الفناء فوق رأس المحتضر ! والهواء الطلق ، أين هو ؟ لقد مررت ــ وأنا آت بالعربة من المحطة الى الدار ــ على مستنقعات ملأى بالجيف المنتفخة تتصاعد منها أبخرة حارة كريهة • لن أنسى مطلقا منظر احداها • كانت جثة طافية على سطح الماء ، أتكون حقا جثة لحيوان ؟ انها شديدة الشبه بامرأة حبلى منتفخة السيقان • امرأة بلا رأس • أشعر بضيق تنفسى • يخيل لى ان حول الدار جيفا شبيهة بتلك متراصة بعضها فوق بعض تحيط به وتحاصره • ما أقبح رائحتها ! نبضى مائة فى الدقيقة •• سأحاول تهدئة نفسى •• ولكن النبض يتزايد ، وأخشى ان يقف قلبى دفعة واحدة • لقد حدثونى حينما كنت صغيرا ان أبى مات فجأة وهو يصلى • كنت اذ ذاك فى الرابعة من عمرى • ولا أذكره الا فى ساعته الاخيرة • رأيته محمولا ، وكان وجهه ممتقعا وأمى خلفه تبكى وتصرخ • فما ان وقع بصرى على هذا المنظر حتى هربت • جريت وأنا أرتعش وارتميت فى أحضان مرضعتى وأنا أخفى وجهى فى صدرها وأشهق ••• البومة ما زالت تنعق فى اصرار عجيب ! انها تقطع على سلسلة أفكارى • ألا يوجد فى الدار بندقية تقضى على ما بقى لحياة هذه البومة من أيام ؟

***

الايام مجدة فى السير ، وحالتى تزداد سوءا • أصبحت أخلاقى لا تطاق وتصرفاتى عجيبة الى درجة الشذوذ • بهذا سمعتهم يهمسون • لا أنكر أنى أكلف زوجتى بعض

الاحيان بأمور مرهقة • أقول بعض الاحيان لا على الدوام ، ولكن علام التذمر • انها زوجتي ويجب ان تشاطرني آلامي • أتريد مني ان أقضي الليل وحيدا أتقلب على فراشي وليس بجانبي أحد يسهر على راحتي • اني أكره الظلام ولا أستطيع النوم والمصباح مطفأ • أريدها دائما بجواري فاذا شعرت بالوحدة مددت يدي أتحسسها •• أنا لست خائفا ، انه لشيء مضحك ومخجل ان أفكر في هذا • مم أخاف ؟ لا يوجد شيء في العالم يخيفني ، ومع ذلك فأنا أرتعش

لم يغمض جفني بعد • المكان هادىء ولكنه هدوء يقلقني • أتوجد أنفاس أخرى تتردد في الغرفة غير أنفاسي وأنفاس زوجتي ؟ هذا ما لا أستطيع ان أجزم به •• أحس أن هناك أصواتا كالهمس كفحيح الثعابين ، لا يبعد ان يكون في الحجرة ثعابين في هذا الوقت •• أم هناك كائنات غير منظورة تسبح في جو المكان ••؟ كائنات لها أجنحة كالخفافيش ••

لقد هززت زوجتي هزا عنيفا حتى استيقظت ، كم كانت بليدة في نومها • وقضينا وقتا طويلا ونحن نبحث تحت السرير والمقاعد وفي جميع الاركان • لقد قلبنا الاثاث كله رأسا على عقب • ثم ارتأت زوجتي ان تطلق البخور لتطرد الارواح الشريرة ، فضحكت من فعلتها وأنا أعيرها بالجهل •••

***

كيف يجوز للشعراء المجانين ان يتغنوا بجمال الريف • أين هذا الجمال ؟ اني أبحث عن جزء ضئيل منه منذ قدومي الى هذا المكان فلا أجد شيئا ••• الخراب يحيط بي من كل جانب • صار لي الآن مايقرب من الساعة وأنا ممدد في الشرفة • ان ضوء الشمس لا يطاق • أشعر كأن بصري يفقد من قوته ، فأضطر الى اغماض جفني • أسمع منذ لحظة طائرا يصفق بجناحيه ولكني لا أراه •• أثمة طائر محبوس يحاول الخروج فلا يقدر • تصفيق أجنحته مستمر ، أشعر بمحاولاته العقيمة للفرار من محبسه • انه يثير أعصابي بهذه الحركة الدائبة

الخادم يؤكد لي انه ليس ثمة طائر محبوس في المنزل • الكل يؤكدون لي ذلك أيضا ، ولكني ما زلت أسمع أجنحته تصفق ••• يا لله ! أكاد أختنق ••• يخيل لي أن الطائر قريب مني جدا ••• أيكون مختبئا في ملابسي • ان جزء جلبابي الذي فوق صدري يتحرك حركة غير عادية ••• قلبي ••• قلبي ••• ينبض ١٣٠ في الدقيقة ••• وظهرت البومة في هذه اللحظة ووقفت على حاجز الشرفة • انها لجرأة غريبة منها ••• لقد بدأت تصوت وهي ترمقني بنظرها الثابت الحاد • ان نظراتها أشد قسوة من صوتها • أشعر كأنها تخترق شغاف قلبي وتكشف عن أسراري • وهذه الابتسامة الكريهة المرتسمة على منقارها الاعقف ••• انها تسخر مني • أف ••• لم أكره في حياتي شيئا كرهي لهذه البومة ، لقد أخذت حجرا كان في متناول يدي وسرعان ما قذفتها به ، ولكني أخطأت المرمى فطارت الى شجرة ليست بعيدة عني وعادت الى تحديقها الساخر ونعيقها المفزع •••

لا يمكنني احتمال هذا. سآتي ببندقية ولو كلفني ثمنها أن أنزل عن كل ما معي ... ان نبضي يكاد يكون عاديا. لقد هبط من ١٣٠ الى ٨٠ !

***

أتراني قد ظلمت هذه السيدة التي أدعوها زوجتي باحضارها معي الى الريف . ليس لها أي متعة في هذا المكان الخرب الموحش. انها لا تتذمر ولكن وجهها ينطق بالشكاية الصامتة ومع ذلك تراها مستسلمة ، وتبالغ في تدليلي وتمريضي. مسكينة هذه المخلوقة. ربما صارت أرملة عن قريب !.. أرملة ؟ لا أدري لماذا نطقت بهذه الكلمة . وأي وحي أوحاها لي... ولكن لم تكون مسكينة وهي أرملة ؟ أليس في موتي راحة وسعادة لها ؟!

ما أكبر الانقلاب الذي اعتراها. ما زلت أذكر يوم رأيتها أول مرة . كانت أمام دارها تتحدث وتتماجن مع رفقة من صويحباتها . ولم تكن قد تعدت السادسة عشرة . وكنت قد أتيت في زيارة لابيها. وتقدمت الى وابتسامة الشباب المملوءة حياة وآمالا تلتمع على وجهها. وذهبت بي حيث كان والدها وتبادلت معها بعض الكلمات ــ كلمات غاية في السخافة ، ولكنها كانت بديعة رائعة عندي جعلت أستعيدها طول اليوم ... وبعد عامين من هذا التاريخ زفت هذه الفتاة الى... وها قد مضت عشرة أعوام على زواجي منها . عشرة أعوام عشتها كبقية الناس أو بالاحرى كبقية هذه الدواب الآدمية التي تسير في القطيع مطأطئة الرأس ذليلة . والآن أتلفت حولي فأجد زهرة الامس اليانعة المشرقة أصبحت عودا جافا مشققا يتهشم على مهل . يا للاصفرار الذي يعلو الآن وجنتيها ! ويا لهذه الابتسامة الفظيعة التي تلفظها شفتاها ! انها ابتسامة كريهة لا أستطيع النظر اليها . أتكفي عشرة أعوام لتحويل هذه الصبية النضرة الى عجوز ينتظرها القبر بفارغ الصبر ؟ أأكون أنا المسئول عن كل هذا ؟ يا الهي اني لاشعر بعطف عظيم نحوها . اني أحبها في تمجيد وتعظيم كبطلة من أبطال الانسانية ... ولكن لم كل هذا ؟ وأنا.. ألست أستحق من نفسي قبل كل شيء هذا العطف وهذا التمجيد ؟ أنا الذي احتملت هذه الحياة السخيفة المضنية في هذه الدنيا الموبوءة المجدبة

***

انها ليلة كريهة. لا أستطيع أن أغمض فيها عيني لحظة. لقد أمضيت قبلها ثلاث ليال متواليات وأنا قلق. أتقلب على فراشي والنوم بعيد عني. وفي مصر ، قضيت أيضا ليالي بأسرها وعيناي مفتوحتان أدور بهما في الظلام أطلب الهدوء لروحي والراحة لجسمي. ولكن هيهات ! أما هذه الليلة فيخيل لي أنها أشد ليالي هولا. نور المصباح ضعيف وزجاجه كدر . لا بد من استبدال آخر به ، أكبر وأنظف.. بدأت البومة تنعق. ولكن الحقير نفذ ارادتي فعاجلها بطلقة أردتها قتيلة. أشعر بشيء من الراحة... لقد مرت ساعتان على قتلها فازداد الليل صمتا وكآبة !.. أشعر بحنين غريب لسماع صوتها ! وكلما فكرت فيها وهي الآن ملقاة تحت نافذتي وعيناها مفتوحتان أحس ببرودة في بدني. متى يلقونها

بعيدا عن المنزل. لقد اضطررت الى ان أضيف لحافا آخر فوق غطائى . أأكون محموما أم بدأ طقس الليل يبرد

قضيت اليوم كله وأنا منتظر ما فعله الخادم بالبومة ... ها قد حضر . لقد صدع بما طلبته منه. أحضرها لى محنطة وقد وقفها على حاجز الشرفة وثبتها عليه . لم يفقدها الموت شيئا. يخيل لى أنها على وشك الصياح... سأعمل لها صندوقا من الزجاج وسأحتفظ بها دائما عندى. لقد أمرت الخادم أن يأخذها ويعنى بلفها فى خرق نظيفة ويضعها فى مكان مأمون . لا أريد أن تأكلها القطط أو تشوهها الفيران

الليل بدأ يسحب رداءه الثقيل على القرية . أسمع أصوات بعض الفلاحين وهم يتشاحنون . ثم أذان المغرب. ثم كان صمت.صمت.صمت. أكاد أجن من هذا السكون. ألا توجد ضفادع أو صراصير تبعث فى هذا الجو الميت شيئا من الحركة ؟

فظيع أن يقضى الانسان الحى أيامه فى غياهب هذا المكان كما تقضى الجثة الهامدة أيامها فى غياهب القبر

لقد طلبت البومة فأحضروها لى. ووضعوها فى ركن من أركان الغرفة. انها مستقرة بهدوء فى خرقها كطفل نائم مستقر فى لفائفه يحلم أحلامه الذهبية... زوجتى تقول ان رائحتها لا تطاق ، ولكننى على العكس أستطيب هذه الرائحة . أشعر بهدوء غريب يشملنى ورغبة ملحة فى النوم

أستطيع أن أقرر أننى أهدأ حالا من قبل. قضيت الساعات الطوال صامتا أفكر . فى أى شىء ؟ فى مصائر الناس وأحوال هذا الوجود العجيب. أهناك فرق كبير بين أعظم رجل فى العالم وبين هذه البومة المكفنة فى لفائفها !.. منذ أيام أردت أن أصلى ، وما ان بدأت قراءة الفاتحة حتى مرت بخاطرى صورة أبى وهو مطروح بلا حراك على سجادة الصلاة ، فلم أستطع اتمام صلاتى ، واليوم صليت صلاة طويلة والطمأنينة تغمر نفسى . واشعر بأنى قد اتصلت بالله وقد استغفرته كثيرا من خطاياى

***

اليوم وأنا أقلب أشيائى عثرت على « الزجاجة الصفراء الصغيرة » . كيف ؟! من وضعها فى الحقيبة قبل سفرى الى هنا . انها ملفوفة فى عناية غريبة ... لا يستطيع أحد أن يلف القوارير هذا اللف المحكم غيرى ... اننى أطيل فيها النظر... هرعت الى زوجتى. أريد أن أسألها عمن وضع هذه الزجاجة فى حقيبتى ، ولكننى ما كدت أفتح فمى حتى أطبقته ثانيا وعدت أدراجى الى حجرتى وأنا صامت أفكر

أحكمت اقفال الباب، ووضعت الزجاجة على المائدة بالقرب من البومة المحنطة.واعتمدت برأسى على يدى وأطلقت العنان لافكارى ...

لقد أكلت الظهر بشهية أدهشت زوجتى . وكنت فرحا أحدثها بمختلف الاحاديث

وأماجنها بفكاهات ونوادر • يحق لها ان تعجب من كل هذاء انها تستبشر وتقول : ان صحتي تتقدم في اطراد

وقبل المغرب بقليل حمل الى الخادم « الكلب » الذى أوصيته باحضاره • كلب قد أنهكته الشيخوخة وطحنه المرض • جسمه متآكل كأنه مصاب بجرب ولا شعر يغطى جلده المشقق

أف لهذه الجيفة المتحركة ! انه مطروح أمامى يتنفس فى جهد ولكنه يرفع رأسه ويشم الهواء ويحاول ان يبصبص بذنبه • وعيناه الكدرتان النصف المقفلتين تستجديان شيئا ، ما هو ؟ أيكون طعاما يشبع معدته الخاوية ؟ أم دواء يخفف من آلامه المبرحة • اذا قدر لهذا الحيوان أن ينطق فماذا يجيب لو سألته عن الموت • وهل يفضله على حياته هذه ؟!

كنت أريد أن أوثق أقدامه ، ولكنه من الضعف بحيث لا يستطيع المقاومة • فضلا عن انه مطمئن لوجودى ينظر الى دائما بهاتين العينين المستجديتين • صبرا يا صديقى• ولكن لا تعبنى بهذا الاستجداء الممض • انى أكره الشحاذين• لقد فتحت الزجاجة الصفراء فتصاعدت منها رائحة قوية كرائحة السوائل الكاوية • ان صديقى الصيدلى الذى سرقت منه هذا السائل لم يحدثنى كثيرا عنه • لا يهم• انى أذكر تماما قوله لى ان نقطتين تكفيان لدك أكبر صرح حى فى الوجود •••

لقد سكبت على لسانه نقطة واحدة• واحدة فقط ، فاذا بذلك اللسان الباهت يحتقن ثم تعلوه طبقة كالغمام أو كالأبخرة ، كأنه يحترق • لقد أطبق الحيوان فمه أو بالاحرى ساعدته على اطباقه• ثم وضع رأسه على الارض • تنفسه يبطىء بالتدريج ويضعف ولا شكاية من ألم ولا أنين • انه يفنى فى هدوء غريب• وفى سهولة لم أكن أتوقعها• يخيل لى انه يبتسم

***

لماذا لا يبيحون للانسان ان يتصرف فى حياته كما يشتهى • ولماذا لا يساعدونه على ذلك ؟ أليس من العدل مثلا أن تقام أندية فخمة تخصص للانتحار • أندية تحوى الغرف الوثيرة الرياش ذات الالوان المختلفة • يقصدها من يرغب فى القضاء على نفسه بالوسائل التى يختارها وفى الجو الذى يطلبه • ولم لا تمنح الحكومات الجوائز العالية الضخمة للمكتشفين الذين يقدمون لها الاجهزة والعقاقير التى تعمل على اطلاق الارواح من محابسها •••

اليوم وأنا جالس فى الشرفة ـ وغير بعيدة عنى البومة المحنطة ـ لاحظت أن يدى ترتعش• لم يكن ذلك وهما• ان قدح القهوة كاد يقع• منى وكادت القهوة ان تندلق على ثيابى• هذه ظاهرة جديدة لم احسها من قبل

بى رغبة ملحة فى الصمت وفى التفكير• لقد أمرتهم الا يقربونى• وأمضيت اليوم كله وأنا كالتمثال أحدق فى الافق البعيد • وأناجى من وقت لآخر بومتى المحنطة ، وأستلهم

منها وحي أفكاري. ولما بدأ الليل يرخي ستاره قامت بي رغبة مستعرة لان أزور المستنقعات . هنالك وقفت طويلا أمام الجيف المبعثرة. ان الكلاب تتألب عليها وتفنيها في سرعة غريبة. ولكن لا يصبح الصباح حتى يأتي الجديد منها. هناك حركة مستمرة على ضفاف هذه المستنقعات . حركة نشيطة حقا

***

أي دنيا هذه التي نعيش فيها ؟! انها لشديدة الشبه بهذه المستنقعات الملأى بالجيف والكلاب

والعجب أني أرى أناسا يتكالبون عليها. يا للمساكين !

لقد خلا المنزل من جميع قاطنيه ولم يبق فيه سواي وبومتي المحنطة انها مثبتة على المائدة تحدق في بعيونها الفارغة . انها فارغة ولكنها عميقة ملأى بالاسرار

الجميع ذهبوا لحضور عرس ابنة العمدة . ولقد شجعت زوجتي على الذهاب. لقد أصبحت مطمئنة علي. المكان ساكن سكونا رائعا ، والليل الذي تتوالى هجماته على في عنف لا يسمع فيه غير أصوات بعيدة . بعيدة جدا عني بجوار البومة . أريد ان أحس الظلام يلفني بعباءته السحرية أريد أن أحس روحه تنفذ الى شغاف قلبي . الظلام ! الظلام ! انه القوة الحقيقية المسيطرة على هذا الوجود ، ولكن أي شيء يسكن خلف هذا الظلام ؟ هناك عوالم أخرى مجهولة تتطلب دائما روادا ليكتشفوها

نقطتان فقط ، لا أكثر من نقطتين. هكذا. أريد أن أتمدد على الفراش بحيث يكون وجهي مقابلا لوجه البومة . انها آخر شيء أرغب أن يقع عليه نظري

تلك هي أول نقطة أضعها على لساني . طعمه ليس كريها هذا السائل ! كالخمر المعتقة ، بل أقوى من الخمر المعتقة ، أشعر بجسمي كأن النار قد بدأت تشب فيه . تلك هي النقطة الثانية ، اني لأرى الابخرة التي كانت تتصاعد من لسان الكلب الاجرب تتصاعد من جسمي كله ، كأني سابح وسط الغمام ، اني أحترق ولكن في هدوء غريب ، هدوء لذيذ، ما زلت أرى البومة ، أو بالاحرى عينيها الفارغتين فقط ، ها قد أصبحت يا صديقتي رائدا من جملة الرواد العظماء . الدنيا الجديدة تنتظر قدومي . الدنيا الجديدة بكنوزها العظيمة. نبضي يضعف.. الغيوم تتكاثف !...

محمود تيمور

الاستعمار : ماله وما عليه

أثر القومية فى الاستعمار وأثر الاستعمار فى القومية

يتساءل نفر من المفكرين : هل يجب أن ينكر الاستعمار ويكافح ، أم هل ثمة من الخير ما يسوغه ويبرره ؟ ويبدو فى هذا السؤال من الشمول والغموض ما لا تبين معه جميع الوجوه ، فلا بد من أن نتناول الامر من بدايته لا من نهايته لنرى لماذا يستعمر شعب شعبا ، وكيف تجرى هذه الصلة بينهما ، وماذا يجنى كل منهما من النفع أو الأذى ، راجعين الى كل ما يواتينا من الوقائع ففيها فصل الخطاب

القومية منشأ الاستعمار

الاستعمار وليد القومية . فما أن تنشىء الجماعة وحدتها وتتميز من سواها بقومية ما ، سواء أكان منشأ هذه الوحدة أرض الوطن أم صلة الجنس أم رابطة الدين واللغة ، حتى يغدو كل عداء ينشأ بينها وبين أية جماعة أخرى عداء يرمى الى لون من ألوان الاستعمار . فما من قومية ظهرت فى التاريخ إلا أثارت — أو احتملت — من العداء بينها وبين غيرها من القوميات ما تريد به تأييد كلمتها وسيادتها أو تسعى به الى دفع الأذى عن حقها وحماها . وما ثارت الحرب بين القبائل والأمراء فى العهود الغابرة ، وما نشبت الحروب والنزاع بين الاديان والمذاهب ، إلا لأن كل قبيلة وأميرها أو كل دين واتباعه كانوا يمثلون « قومية » لها سماتها ونظمها ومصالحها . ولكن الاستعمار لم تتضح معالمه وتتبين مقاصده إلا عندما نشأت القومية الحديثة التى أقامت بين الجماعات حدوداً قاطعة فاصلة ، إلا عندما انقسمت الدنيا أوطاناً تعينها الحدود ويهم كل فرد أن ينتمى الى واحد منها ، هنا كانت القومية الواضحة الاكيدة فكان الاستعمار البين العنيف . وإذ كان القرن الثامن عشر فترة تعزيز القوميات وإبرازها ، فلا جرم أن يكون القرن الذى يليه فترة النضال بين هذه القوميات سعيا الى الاستعمار . ولا غرابة فى أن تؤدى القومية الى الاستعمار ، فالشعب — على رأى ميكيافيللى — إما أن يملك ويستعمر وإما أن تهن قواه ، هذا الى ان الشعب يجد فيما تهيئه له القومية من الوحدة والمناعة والقوى ما يثير فيه أطماع السيادة والسيطرة

وهكذا يتجه الشعب ويسعى الى الاستعمار ليصيب من أسباب القوة والثروة ما يمكنه من أن يحيا وسط هذا العالم الذى لا تنفك وحداته عن العداء والنضال ، ولا سبيل الى أن يحفظ الشعب وحدته وحريته وحياته إلا ان يملك من الآفاق ويحكم من الشعوب ما يمكنه من حرب أعدائه وكفاحهم . أى ان الدافع المادى واضح كل الوضوح فى الاستعمار الحديث ، فلم يعد ثمة « جنكيز

خان » ينطلق فى الآفاق يقهر المدائن والمعاقل ويذل الملوك والامراء ويقتل الرجال ويسبي النساء ، ثم يندفع فى طريقه اندفاع العاصفة العاتية فى فجاج الصحراء دون ان يعمر او يفيد شيئا ، بل غدا المستعمر « تاجراً » لا يقدم ولا يحجم إلا بعد ان يوازن بين ما يدفع من الجند والمال وما يقبض من أسباب القوة او الثروة او المناعة . ولا ريب فى ان بعض حركات الاستعمار كانت خلواً من هذا التقدير ، بل جاءت عفو الصدفة او المغامرة

وإذ من المؤكد ان العالم كان منذ بدء التاريخ ، وسيظل الى آخره ، مؤلفا من شعوب غير متكافئة فى القوة والحضارة ونظم الحياة ، فلا بد من ان يلازم الاستعمار الانسانية سواء في وضعه الحالى او فى أى وضع أسمى منه او أدنى . وهذا ما يوضحه ألدوس هكسلى فى مقاله عن «الوطنية» فيقول :

« ان الجماعة الانسانية تتطور على نمط واحد ، تكون فى بادىء امرها قبائل مفرقة متناضلة ، ثم تجمع كل طائفة منها رابطة القومية ، ثم تتطرف القومية فتصبح توسعا واستعماراً . أى ان القبيلة اصل الوطن ، والوطن منشأ الامبراطورية ، ثم يأتى الوقت الذى تتمزق فيه هذه الامبراطورية لأنها واجهت قوى أكبر منها خطمتها ، او لأنه نشأ فيها من العوامل الفكرية او الخلقية ما أدى الى تفككها وانحلالها

« وهناك ما يدل على أن الشعوب الكبرى تخفف الآن من شهوة الاستعمار وتتجه وجهة التعاون والاتحاد . فهل يدل هذا على أن الأمن والهدوء سيسود العالم قريباً ؟ كلا . فان دلائل الأمر تبين أن الهند والصين وشعوب أفريقيا الحديثة بدأت تدخل فى هذا الطور من الوطنية العنيفة المتطرفة التى عرفتها أوربا بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر ، والتى تؤدى حتما عند ما تتجمع قواها الى طور الاستعمار

« فعند ما يفتر الروح الوطنى بين شعوب أوربا وأمريكا يبلغ هذا الروح فى آسيا وأفريقيا أشده من العنف والقوة ، فيدفع شعوبهما الى الفتح والسيطرة كما دفع روما الى غزو بريطانيا وبريطانيا الى فتح أفريقيا . أى عند ما يبدأ الغرب ينظر الى الأمر نظرة دولية تؤثر السلم على الحرب ، يكون الشرق متجهاً الى الحرب متلهفاً على السيادة

« فلئن أدى تفاوت الشعوب فى الحضارة الى بعض الخير والفائدة ، إلا أنه يتقاضى الانسان ثمناً فادحاً »

تبرير الاستعمار

ماذا تجنى الانسانية من هذا الاستعمار الذى يلازمها فى جميع مراحلها ؟ أتجنى منه شراً يؤيد رأى من ينكرونه ويكافحونه ، أم خيراً يبرر خطة من يقرونه ويدافعون عنه ؟

لننظر اليه أولا النظرة المادية لنرى أهم نواحيه . فنجد أن العالم يزيد فى هذا العصر زيادة خطيرة تدفع بعض شعوبه الى السعى فى أرجاء الأرض . ففي الدقيقة التى كتبت فيها الجملة السابقة زاد العالم عشرين فرداً بينما لم تزد ثروته بما يكفل مطالب الحياة لأكثر من خمسة أو ستة أفراد . فهل يجوز أن يترك على سطح الأرض من الآفاق وتحت رجامها من الكنوز ما يمكن أن يزود بعض الناس بشيء من ضرورات العيش أو كمالياته ، لأن الذين يهيمون فى هذه الآفاق ويضربون بأرجلهم فوق هذه الكنوز يجهلون طرائق استغلالها واستخراجها فيتركونها مهجورة أو مطمورة لا يفيدون منها شيئاً ؟ ؟ كلا ، وان هذا الأوربى أو الأمريكى الذى يرى « الخيرات » تذهب بدداً فى آفاق أمريكا وأفريقيا لأن زنوجها يجهلونها ، ليلام اذا هو لم يمد اليها يداً تستثمرها فيأخذ من ثمرها نصيباً ويبقى لأهلها نصيباً

ظل العالم عصوراً يجهل أمريكا ، وظل أهلها طول هذه العصور يجهلون ثمارها وكنوزها ، فما أن نشأت العلاقة بينهما بفضل المغامرين والمهاجرين حتى فاضت ينابيعها بالخيرات تغمر العالم الجديد والقديم على السواء . وكذلك عاشت اليابان دهوراً طوالا مقطوعة السبل موصدة الأبواب فلما قامت الصلة بينها وبين العالم الخارجى أفادت وأفادت الدنيا خيراً عظيما . وما عمل المستعمر بوجه عام الا ايجاد الصلة بين ما فى العالم من المناطق المتحضرة والمناطق المجهولة ، وما يؤدى ذلك إلا لخير العالم جميعا ، على شرط أن تقوم هذه الصلة على دعامة طيبة نجدها حينا وان كنا نفتقدها فى أكثر الأحيان

والنتائج المادية التى أسفر عنها الاستعمار الحديث واضحة مشهودة . فقد ارتقى مستوى الحياة فى الدول المستعمرة رقيا كفل لأهلها أسباب الحضارة بما هيأه لهم من الثروة والرخاء ، ومكنها من أن ترقى بالجزء الغالب من أهلها الى الطبقة الوسطى بعد أن كانوا فى مستوى الطبقة الدنيا ، ويسر لها أن تحث سيرها فى طريق التقدم بما أتاحه لبعض أفرادها من وسائل الحياة الفكرية . فهذه الحضارة الانجليزية التى نعدها مثلا عاليا لما بلغته الحضارة الانسانية الى يومنا ، حين نجد من بين آثارها عاملا يستمتع بكثير مما يستمتع به الانسان الراقى من الحقوق والمزايا ، أو نجد أسرة يتوافر لأهلها من الرخاء والفراغ ما يشعرهم بلون من ألوان الحياة المنتجة البهيجة ، أو نجد عالما يلقى من المال والوقت ما يمكنه من أن يفرغ للبحث والكشف وإنماء كمية الحضارة — هذه الحضارة الانجليزية ما كانت تتحقق — على الأرجح — فى هذه الصورة الجميلة الكاملة لو لم تكن الامبراطورية البريطانية التى تترامى فى قارات الدنيا وبحارها جميعا

ماذا تجني المستعمرة

أحسب الآن أن القارىء يستنكر متسائلا : وهل ثمة من يجهل أن الدول المستعمرة تفيد

أعظم الفائدة من الاستعمار ، وإنما الذى أريد أن أتبينه هو ما تجنيه المستعمرات ذاتها فما أحسبه إلا الشر والأذى ؟

ولكن اذا كانت الفكرة العامة فى الاستعمار سيطرة الشعوب القوية أو اشرافها على الشعوب الضعيفة ، فمن الطبيعي أن تحمل هذه الصلة فى طياتها شيئاً عظيما أو ضئيلا من الحضارة . وهذه هى النتيجة التى أدى اليها الاستعمار فى جميع عصور التاريخ ، فروما احتلت بريطانيا قبل الميلاد عند ما كان أهلها همجاً يذبحون الانسان قربانا للآلهة ويبقرون بطنه ليستدلوا على المستقبل من شكل أحشائه ووضعها ، فما أن استقر فيها الرومان حتى نفضت عن نفسها تراب الهمجية وتطلعت إلى أفق الحضارة فأخذت تدنو منه شيئاً فشيئاً حتى بلغته على مر الأجيال ، وكذلك احتلت بريطانيا فيافى أفريقيا الوسطى بعد ذلك بعشرين قرنا لأن أهلها لم يتعلموا من المسيحية سوى صلب الناس ورفعهم ضحايا للآلهة ، فأخذ ينفذ اليهم قبس خافت من المدنية قد يصير بعد أجيال وقرون ضوءاً يهديهم الطريق التى اتخذتها الشعوب الراقية . وكانت فكرة السيادة والاستقلال موجودة فى روما كما هى موجودة فى بريطانيا ولكن هذا لم يمنع المستعمرة الرومانية من أن ترق كما لا يمنع المستعمرة البريطانية من أن تتحضر ، وان كان لملكات الشعوب وخصائصها ، ولظروف التاريخ وأحداثه ، آثارها فى تقدير ما بين الشعب والحضارة من الآماد

ان الاستعمار لم يقض على شرور الشعوب البدائية كل القضاء ، ولكنه حاربها وكافحها وأنقذ الانسان من كثير مما يعانى فى تلك الفيافى السحيقة . نعم ان احدى الدول المستعمرة — ونعنى أسبانيا حين استعمرت فى أمريكا — قارفت من الآثام المنكرة ما يشيب له الاطفال ، ولكن هذا الشعب الشاذ عن سائر الشعوب لا يصح أن يتخذ مقياساً فانه لم يألف الرحمة بين أبنائه فلا يرجى منه أن يعرفها مع الأعداء . ولا ننسى أن نذكر أن أكثر الدول سخرت أبناء المستعمرات الذين عاشوا مدى التاريخ فى خمود وبلادة فى أعمال مرهقة عنيفة ، وسلطوا عليهم ضروبا من القسوة ليس أقلها جلد السياط وقيد الحديد ، على أن هذه السورة التي كان مبعثها أطماع أصحاب الأموال قد خفت حدتها وكسرت شوكتها بفضل الحكومات المستعمرة ذاتها

وهذا يلفتنا الى نقطة أخرى تبرر الاستعمار فالفارق العظيم بين قوة الرجل المتحضر وقوة الرجل الهمجى الى درجة تماثل الفارق بين المدفع والعصا ، يمكن الأول من أن يقهر الثانى ويخضعه لسيادته ، ثم يسترقه رقا لا رحمة فيه ولا خلاص منه . وهذا ما حدث ، فقد مكنته الحضارة من أن يفتح كثيراً من الاقاليم ويسيطر على ما فيها من قبائل ويسخرها بقسوة يندى لها جبين الحضارة حقاً ، فكان حقاً على الدول أن ترد عادية هذا الغالب العاتى عن ذلك الهمجى المغلوب ، كان حقاً عليها أن تتولى أمر هذه البلاد لتنظم فيها العلاقة بين البيض الأقوياء والملونين الضعفاء . فهذه نيوزيلندة هاجرت اليها أفواج من الأوربيين المشردين فعودوا أهلها إدمان الخمر المعتقة

وأغرقوهم فى دنانها ، وأهدوهم بغير مقابل البنادق ليغير بعضهم على بعض تقتيلا وتدميراً ، فتخلو منهم الأرض ويملكها أولئك المهاجرون ، فكان لزاما على بريطانيا أن تسرع إلى انقاذ أهلها من عادية الدخيل . وهذه شركة الهند الشرقية أساءت الامر فى الهند بما أرهقت به الناس من المكوس والضرائب ، وبما كان يقارفه رجالها من قبول الرشى وهضم الحقوق ومجافاة القانون ، فلم يكن بد من أن تتدخل الحكومة البريطانية لتنظيم العلاقة بين الشركة والناس وكان هذا بدءاً لاستعمار الهند

سيئات الاستعمار

هذه المزايا التى يهيئها الاستعمار يقابلها كثير من السيئات التى يعانيها المستعمر والمستعمرة

أولى هذه السيئات ما يؤدى اليه الاستعمار من العداء والقتال ، فمنذ نشأت الوطنيات الحديثة وتبعتها حركات الاستعمار لم ينج العالم عهداً ما من حروب ومعارك تنشب إما بين القوميات الكبرى التى يناضل بعضها بعضاً عما تملك ــ أو عما تبغى ــ من الآفاق ، وإما بين الشعوب القوية والضعيفة التي صار النزاع بينها من مميزات التاريخ الحديث

والسيئة الثانية هو الثمن الفادح الذى يتقاضاه الاستعمار من الأجناد والأموال ، دع ما يبذله المستعمر من أبنائه وموارده فى سبيل الفتح والغزو والاستقرار . فهذا السياسى الانجليزى جون برايت الذى دعا انجلترا طول حياته الى التخلى عن جميع أملاكها يقول فى خطاب له سنة ١٨٥٥ « إذا استثنينا أستراليا لم نجد مستعمرة انجليزية واحدة لا تعد عبئاً ثقيلا على هذا الشعب ، خسارة فادحة يتحملها هذا الاقليم ، إذا نحن قدرنا ما نبذله فى سبيل فتحها وحمايتها . أما فتح الأسواق وتعمير المجاهل فأعذار تافهة حمقاء تعيسة نبرر بها الحروب »

وثمة سيئة ثالثة لا يتبينها الناس إلا بعد أن يفوت وقت تلافيها وتدنو كارثتها . هى روح الترف الذى يغمر الشعوب المستعمرة نتيجة ما يتهيأ لها من الثراء والرخاء ومن الراحة والفراغ ومن النفوذ والسيادة

على أن أكبر سيئة يقارفها الاستعمار تأتى حين يلقى نفسه على شعب له حظ وافر من التاريخ والثقافة وله وجهة معينة الى الرقى والحضارة . انه يوقف حينئذ حركة دائرة ويخفت صوتا منبعثا ويعيد الى القيد يداً انطلقت من إسارها . انه يلقى ماء يطفىء الجذوة التى كاد أن يشب لهيبها ، ويهيل التراب على النبع الذى كاد أن يتدفق نهراً جاريا . وهذا هو الاستعمار الذى ليس ثمة ما يقره ويبرره ، والذى تجب حربه وكفاحه

قومية المستعمرة

أطلقنا ما ذكرنا من سيئات الاستعمار وحسناته على وجه الشمول دون أن نعرض لناحية

« قومية المستعمرة » ففيها يتخذ المستعمرون أوضاعا وأساليب شتى ، أهمها فيما نرى ما تتخذه فرنسا ، وما تفكر فيه ألمانيا ، وما تطبقه بريطانيا

فأما فرنسا فترى أن تنقل قوميتها الى ما يقع تحت يدها من الشعوب . فاللغة الفرنسية هي اللغة السائدة في حكومة المستعمرة الدائمة على ألسنة المتعلمين والمتحضرين من أبنائها ، والثقافة الفرنسية تحل محل الثقافة القومية فيما يشبه الكره والعنوة وبما يفرض من القانون ، ونظم الحياة اليومية في فرنسا تسري الى المستعمرة حتى يتغير وجهها في سنين قلائل تغيراً يقضي على مظاهر قوميتها . ومرجع هذا الى جاليات فرنسا الكبيرة التي تنتقل الى أملاكها والتي يسهل على أفرادها ـ شأن أبناء البحر المتوسط جميعا ـ أن يألفوا ويعاشروا الأجنبي ، فلا تلبث أن تسرى منهم الى أبناء المستعمرة القومية الفرنسية بحسناتها وسيئاتها . وتسير ايطاليا على نهج فرنسا

وأما المانيا فلها أسلوب استعماري وإن لم تكن لها مستعمرات . وطبقت هذا الأسلوب فيما كان لها من الاملاك في الحرب الماضية ونتبينه مما كتبه الكاتب الالماني فون جيرلاش في معرض المقارنة بين نيجيريا المستعمرة الانجليزية والكمرون أيام كانت مستعمرة المانية فقال : « للتعصب الجنسي نتائج خطيرة في المستعمرات الألمانية . ففي نيجيريا وجدت الاهالي على صلة تامة بالسلطات الانجليزية أما في الكمرون فان البيض يسومون السود ، حتى المتعلمين منهم ، صنوف الذل والارهاق . وفي مجلس نيجيريا التشريعي لا فرق من الوجهة السياسية بين الابيض والاسود ، بينما جرد السود في الكمرون من حق الاشتراك في أي عمل اداري . وفي مدينة لاجوس عاصمة نيجيريا أربعة عشر محاميا تلقوا العلم في انجلترا . أما أهالي الكمرون فحرم عليهم السفر الى المانيا خشية ان يتعرفوا الى مبادىء الحرية والمساواة . وقد خول الزنجي في نيجيريا حق الشهادة أمام المحكمة في حين ان الالمان حرموه هذا الحق ، وفي لاجوس يعيش البيض والسود جنبا الى جنب ، أما في دوالا فأملاك البيض في جانب لأن الرجل الابيض لا يطيق رائحة الرجل الاسود . وينظر الى الجلد بالسياط في مستعمرة الكمرون كوسيلة لاغنى عنها بينما حرمت في نيجيريا جميع العقوبات البدنية ». وألمانيا الآن أكثر اسرافا في هذا التعصب الجنسي منذ اذكى فيها هتلر روح الآرية حتى غدا الامر ـ بلا مبالغة ـ ضربا من الهوس والجنون . أما نظامها لاستعمار أوربا الجديدة اذا قدر عليها هذا القضاء ، فهو أن تختص المانيا بالصناعة وسائر أوربا بالزراعة ، وبذلك تعتمد المانيا بالسلاح الذي ترهب به العزل فتستبد بأمرهم وتستأثر بخيرهم ، فكيف يكون شأنها اذاً لو استعمرت في آسيا وافريقيا ؟ ،

وأما بريطانيا فقد مرت أمبراطوريتها بأطوار طويلة متباينة فتعلمت في أثنائها من الدروس والتجارب ما كاد ان يتحول بها من الاستعمار الى الاتحاد ، فصارت في صورتها العامة مجموعة من الدول مستقلة في جميع شؤونها مجتمعة في وحدة سياسية وحربية واقتصادية

فولتير وفريدريك الاكبر

(بقية المنشور على صفحة ٣٦٨)

الاراضي البلجيكية ، وقد دهش فولتير لما رأى الملك يرتدي بذلة عسكرية ، وينام على سرير من أسرة الميدان ، وسرعان ما علمت أوربا جميعها بعد ذلك ان مؤلف كتاب « ضد مكيافلي » قبل التتويج سيكون اكثر ملوك أوربا مكيافلية ، واشدهم رغبة في اثارة الحروب وسرعان ما عرف فولتير نفسه ان فردريك شخصية اجل خطرا واكثر تعقيدا وابعث على الحذر مما قدر

والتقى الصديقان بعد ذلك ثلاث مرات ، وكان يعقب كل لقاء فتور من ناحية فردريك فقد بدأ يتهم فولتير باطلاع الناس على رسائله الخاصة زاعما انه اوصاه بان لا يطلع عليها أحدا ، وعاب على فولتير بخله وحرصه • ولكن انتقاصه لاخلاق فولتير لم يقلل مع ذلك من اعجابه به ، وتقديره العالي لمواهبه ، وذلك لانه بعد تسنمه العرش اضطر الى هجر البحوث الفلسفية ، ولكن حبه للشعر لم يفتر ، وكان يعتقد ان فولتير سيد شعراء عصره ، وطالما ناجته نفسه باغراء فولتير بالاقامة في برلين ليكون حلية البلاط وزينة الحاشية ، وليصبح طوع يده ورهن اشارته ، فينقح له شعره ويصقله ويسرى عنه ببارع احاديثه ويمتعه

وفي خريف سنة ١٧٤٣ بدا ان رغبته الاكيدة قاربت ان تتحقق ، فقد حضر فولتير الى بلاط فردريك ، واحسن الملك لقاءه ، واكرم وفادته ، وبالغ في التحفي به ، وقدمه الى شقيقاته الاميرات ، وشنف اسماعه بالعزف على قيثارته الملكية • ولم تكن زيارة فولتير لفردريك في هذه المرة زيارة بريئة ، فقد كان البلاط الفرنسي يريد ان يجس نبض فردريك ، ويعرف مدى ما يستطيع تقديمه لفرنسا اذا ما اشتبكت في حرب مع النمسا من ناحية ومع انجلترا من ناحية أخرى ، ورأى رجال البلاط ان يعهدوا الى فولتير في القيام بهذه المهمة • وظن فولتير انه يستطيع ان يستغل صداقة فردريك ليصير سياسيا ورجل عمل ، ولكن فردريك كان بعيد الدهاء وشيطانا من الشياطين فلم يغب عن عقله النفاذ قصد فولتير ولم يقع في الشبكة• وقد اراد فولتير ان يبالغ في التكتم واخفاء الغرض السياسي لزيارته ، فادعى لفردريك انه هجا الاسقف ميربوا ، وان هذا الاسقف القوى النفوذ يطارده ، ويحاول التنكيل به ، وقد اضطره ذلك الى الابتعاد عن فرنسا ليأمن كيد الاسقف ويتقى شره • ولم يكن فردريك واقفا على تفصيلات المؤامرة ولكنه ادرك ان زيارة فولتير لبلاطه انما هي زيارة عين من عيون الحكومة الفرنسية ورأى ان الفرصة سانحة لنيل امنيته

واراد فردريك من ناحيته ان يكيد لفولتير ، فجمع الرسائل التي ارسلها اليه فولتير

وهاجم فيها الاب ميربوا وبعث بها الى ميربوا، وكان يرمى بهذه الخيانة الى غرضين ، فاما ان الاسقف يثور ويغضب ويشكو فولتير الى البلاط ويضطره الى التخلى عن فولتير فيرغم على البقاء فى بروسيا ويظفر الملك حينذاك بمستشار عبقرى يصلح له كتابته ، ويثقف لغته ، ويصقل شعره ، واما ان الاسقف لا يغضب ولا يشكو ويكون ذلك دليلا بينا على خيانة فولتير ، وتواطئه مع الاسقف . وكان الرأى الاخير هو الاصوب والارجح ، ولكن خطة فردريك فشلت ، فقد افضى ميربوا الى فولتير بما حدث ، فغضب فولتير غضبا شديدا ، فقد كان يعرف انه سيقيم فى برلين بمحض ارادته ، ولكنه علم ان مضيفه يحاول بالخيانة والدسيسة ان يرغمه على البقاء . وعاد فولتير الى فرنسا ناقما على فردريك ، ولكن فردريك كان راغبا فى مسالمته ومهادنته وكان لا يزال طامعا فى الاستحواذ عليه واستخلاصه لنفسه واخذ فى رسائله الى فولتير يكثر من استرضائه وتملقه

وفى سنة ١٧٤٩ تغير موقف فولتير ، فقد ماتت مدام دى شاتليه ، وتحرج مركزه فى فرساى ، ولم تنفعه صداقة مدام دى بومبادور . وانتهى ذلك الى مسامع فردريك فدعاه الى برلين ، ولبى فولتير الدعوة فى هذه المرة، وحاول جعلها صفقة رابحة واضطر فردريك الى ان يدفع له نفقات رحلته . ولما ورد برلين فى يوليو سنة ١٧٥٠ خصص له فردريك جناحا فى قصر برلين وجناحا آخر فى قصر بوتسدام وانعم عليه بنيشان الجدارة ، وجعل له مرتبا سنويا قدره ثمانمائة جنيه ، وفقد فردريك بعد ذلك البقية الباقية من احترامه لفولتير وصار يعتقد انه نذل خسيس ، وكان ينكر اخلاقه ويعجب بعبقريته ، ولكن كان فى حاجة الى من يهذب له شعره ، ومثل فولتير هو خير من يقوم بذلك وماذا يضيره سوء اخلاقه وضعة نفسه ؟ وكان يعتقد فضلا عن ذلك انه يستطيع ان يأمن شره ، ويلزمه حدود الادب ، ويهز له السوط بان يتكلف الفتور فى لقائه ويشير الى انقاص مرتبه ، وكان فردريك مخطئا فى حسبانه ، ففولتير لم يكن قردا يخوف بالسوط ، وانما كان شيطانا مريدا وربما كان ملكا فمن الصعب ان نجزم فى ذلك

وكان المنظور ان تنتهى زيارة برلين بضجة مدوية وثورة عنيفة ، فقد كانت عناصر الموقف لا تحتمل سوى هذه الخاتمة ، وهكذا الحال اذا التقى رجلان شديدا الاثرة مثل فردريك وفولتير ، فقد تبعثهما المصلحة فى بادىء الامر على التعاون ولكن سرعان ما تؤكد الطبيعة البشرية نفسها وتسير سيرتها المعهودة . وكان يزيد هذا الخلاف احتداما تفاوت الموقف ، فقد كان فولتير الخادم وفردريك السيد ، ويروى ان فردريك قال لبعض خاصته لما سأله الى متى تحتمل نزوات فولتير قال : « بعد عصر البرتقالة يرمى الانسان بالقشرة » وعلم فردريك كذلك ان فولتير قال بعد ان تلقى مقطوعات شعرية من نظم الملك ليهذبها : « اينتظر منى هذا الرجل ان اظل الى الابد اغسل له ملابسه القذرة ؟ »

وهكذا بعد حضور فولتير باسابيع معدودة بدأ يدب الخلاف بينهما وتتجمع السحب فى سماء صداقتهما ، وتوالت نوبات الغضب ، وكان فولتير يقول عنه لمدام دينس — وهى

احدى قريباته : « انه يفتح الرسائل الواردة لنا » ، وكان فردريك يقول عنه : « القرد الذى يطلع اصدقاءه على رسائلى الخاصة »

وقد كان حب فولتير الشديد للمال هو سبب اثارة الخلاف ، فبعد ثلاثة اشهر من اقامته ببرلين اشترك مع احد اليهود فى مسألة مالية مريبة ، ثم تشاجرا واحتكما الى القضاء ، وتراميا بالتهم المستفظعة ، وخسر اليهودى القضية ، ولكن علقت بسمعة فولتير اشياء كشف عنها تحقيق القضية • واغضب ذلك فردريك حتى هم بعزله ، ولكنه لم يجد سبيلا الى الاستغناء عنه فعاد الى الصفح عنه ورعايته • وكان فولتير اثناء اقامته فى برلين محوطا بعناية الاميرات والاشراف ومحفوفا باعجاب الناس من مختلف الطبقات

ولكن فولتير لم يكن الفرنسى الوحيد المقيم عند فردريك ، فقد جمع فردريك حوله طائفة مختارة من الاشخاص اكثرهم من الاجانب ليتلقى عنهم ما ينقصه من المعرفة ويستعين بهم ، وقد اختار بعض هؤلاء الناس ليتملقه ويترضاه عندما تضيق اخلاقه ويتعكر مزاجه ويسليه عندما يعتريه الملل وينال منه الهم • وكان فردريك يقضى ساعات فراغه وراحته مع هذه الحاشية ، يبادلهم الافكار والنكات

وكان بين افراد هذه العصبة الشاذة رجل واحد جدير بالاحترام وهو « موبرتياس » الذى وضعه فردريك على رأس اكاديمية العلوم فى برلين منذ سنة ١٧٤٥ • وكان رجلا طموحا راغبا فى الشهرة ، وافر العلم جم النشاط امينا مخلصا ، وكان على جانب من الذكاء وحدة الخاطر ، وطالما تناول اضرابه ومنافسيه من العلماء بالتهكم المر والنكات اللاذعة ، فكان ذلك يزيد فردريك اعجابا به وتقديرا له ، وكان لا ينقطع عن حضور عشاء الملك ، وكان وجوده يقض مضجع فولتير ويضايقه ، وقد عرف كل منهما الآخر واعجب به ايما اعجاب ، ولكن صاحبنا الشاعر المزهو الشديد الحساسية المتشكك فى اخلاص الملك الشديد الغيرة من المنافسين كان يعتقد ان له فى البلاط اعداء خفيين يدبرون له الدسائس ويوغرون صدر الملك عليه وان موبرتياس منهم ، وكانت رؤية موبرتياس فى خلال العشاء مشرقا هادىء البال ناعما فى ظلال عطف فردريك تثير حقد فولتير ، فأخذ يجهد فكره ويتعب رويته فى مراقبة الرجل ويفحص اقواله واعماله علّه يقع على عيب او يعثر على نقيصة • ولم يحسن موبرتياس التصرف فبدلا من ان يسترضى فولتير عمل على توسيع شقة الخلاف بينهما ، وكان من الطبيعى ان يثور غضبه ويفقد توازنه ، فقد كان قبل مجىء فولتير الكوكب اللامع فى المدار الملكى ولكنه بعد مجىء فولتير فقد مركزه الممتاز ، فمن ذا الذى يعير حديثه التفاتا اذا تحدث فولتير ؟

ولاحت بعد ذلك الفرصة ليهاجمه فولتير وينال منه ، فقد كان هذا الرجل قد اذاع قانونا رياضيا ادعى انه اكتشفه ، وعارضه فى ذلك فريق من العلماء والباحثين وناقشوه واستندوا فى نقاشهم الى رسالة من رسائل الفيلسوف ليبنتز ، فبدلا من ان يجادلهم موبرتياس ويفند حججهم ادعى ان هذه الرسالة مزورة ، وايده فى هذا الرأى الملك فردريك

فاستغل فولتير الفرصة ، واحكم تدبير امره ، وجمع امواله فى برلين ونقلها سرا الى خارج بروسيا ، وفى ١٨ سبتمبر سنة ١٧٥٢ ظهرت فى الصحف مقالة قصيرة كان فيها تفنيد شديد لاذع لما ذهب اليه موبرتياس ، وعرف كاتبها لان مثل هذا المقال لم يكن ليصدر عن غير فولتير ، ونالت هذه المقالة من موبرتياس واغضبت الملك ، فلاذ فردريك بمكتبه وكتب رسالة غاضبة حشاها بالمبالغات فى الثناء على موبرتياس وملأها بالشتائم الموجهة الى فولتير

وعرف فولتير ان الملك قد دخل حومة المعركة فلم يثن ذلك عزمه ، وصمم على ان يحطم كل شيء قبل ان يبارح برلين ، وظل ذلك الخلاف خافيا عن الانظار حتى ظهرت مجموعة رسائل لموبرتياس ، فانقض عليه فولتير انقضاض الباشق ، وكتب رسالته المشهورة «الدكتور اكاكيا » وفيها احصى اخطاء موبرتياس واوهامه وسلط عليها سخريته اللاذعة ، ونقده الهادم ، وجعل الرجل سخرية الاجيال ، واضحوكة لا تنسى . ولم تكن رسالة فولتير مجرد سخرية وتجن ، وانما كانت حافلة بالملاحظات الصائبة ، والنقدات الصادقة ، ولكن يشوب ذلك التهكم القاسى المر ، واطلع فردريك على الاصل وضحك حتى دمعت عيناه وسالت عبراته على وجنتيه ، ولكنه أمر فولتير بعدم طبعها والا عرض نفسه للعقوبة . وتظاهر فولتير بالطاعة ، ولكن لم تلبث الرسالة ان ظهرت مطبوعة ، وذاع امرها واستفاضت شهرتها ، فاشتد غضب الملك وامر بجمع نسخها وابادتها ، وعنف فولتير تعنيفا شديدا ، ولم يمض على ذلك شهر حتى كانت المانيا مملوءة بنسخ من تلك الرسالة فقد طبعت آلاف النسخ فى هولندة وتسربت الى المانيا

ولا يسع الانسان فى هذا الموقف الا الاعجاب بهذا الرجل الذى تحدى ارادة رئيس حكومة قوية اعتمادا على ذكائه . وقال فردريك لفولتير بعد ان علم ان اوربا باجمعها كانت تضج بالسخرية من الرجل الذى اظله برعايته واختاره رئيسا لاكاديمية برلين : « ان قحتك تذهلنى » وامر بحرق ما تيسر جمعه من رسالة « الدكتور اكاكيا » فى شوارع برلين ، فغضب لذلك فولتير واعاد الى الملك الوسام ومفتاحه الذهبى ومرتبه ، وعز على الملك فراق فولتير فحاول ان يستبقيه وكتب اليه معتذرا . ولكن الشاعر لم يلن ، وعقد عزمه على الرحيل وفى ٢٦ مارس سنة ١٧٥٣ افترق الرجلان فراقا ابديا

على أدهم

العلم والعالم

الرجال والمال : اعصاب الحرب

الحرب الحديثة جهاز عصبي مؤلف من الرجال والمال . وكل عصب منها يمكن ان يقدر بالارقام التي تبين الى حد بعيد مجرى الحرب ومصيرها

فعندما يقول روزفلت ان عنده من الدلائل الوثيقة ما يطمئنه على ان بريطانيا ستقهر المانيا ، فانه لا يلقى هذا القول من قبيل توجيه الرأى العام الامريكي ولا على سبيل الدعاية للقضية الديموقراطية ، وانما هو يدلى بالرأى الذى دلته عليه الارقام التى لا تكذب ولا تخادع

فاما عن الرجال فلا يقصد بهم اولئك الذين يمارسون الحرب فى ساحات الارض وآفاق البحر واطباق الهواء ، بل اولئك الذين يقفون وراء الجنود فى المصانع يمدونهم بالسلاح والذخيرة والطعام . وقد كان وراء كل جندى فى سنة ١٩١٨ ثلاثة رجال يعملون فى المصانع ، أما الآن فوراء كل جندى ستة او سبعة عمال .

والمانيا لم تهزم فى الحرب الماضية لان جيشها اندحر كما يريد قواد الحلفاء ان يقولوا ، ولا لان اليهود والشيوعيين ألبوا الشعب وفتنوه بالدعاية الكاذبة كما يريد النازى ان يقول ، بل لان الالمان قابلوا اعداء يفوقونهم عددا، وكان وراء كل جندى من الحلفاء عدد من العمال والصناع أكبر من العدد الذى يسند الجندى الالمانى ، اى كان لكل جندى فى جيوش الحلفاء من المدافع أوالقنابل أو الدبابات أو الطائرات اكثر مما للجندى الالمانى

ومع ان ألمانيا تفوق بريطانيا فى عدد السكان وذلك بعدما اجتاحته من الدول حتى غدا هتلر يسخر ١١٠ مليون نسمة ، الا ان بريطانيا تستطيع ان تخصص من ابنائها للاعمال الحربية ، أى للقتال فى ساحاته المختلفة ولانتاج السلاح والبرة، عددا أكبر من عدد الرجال الذين تستطيع ان تخصصهم ألمانيا . ذلك ان اعتماد هذه على ارضها ورجالها فى انتاج الجزء الاكبر مما يلزمها من الطعام يضطرها الى ان تسخر فى الزراعة وما اليها من وسائل انتاج مواد الغذاء عددا كبيرا من عمالها، يبلغ زهاء عشرة ملايين نسمة بمعدل ١٤ ونصف رجل لاطعام كل مائة رجل . اما بريطانيا التى تستورد اكثر طعامها فلا يعمل فى زراعتها اكثر من ثلاثة ملايين من الرجال بمعدل ٦ ٢/٣ رجل من الزراع مقابل كل مائة رجل من المستهلكين. وبذلك يكون عدد الرجال الباقين للعمل فى الجيش أو فى مصانع السلاح والذخيرة أكبر فى بريطانيا منه فى ألمانيا . وليست هذه الزيادة ضئيلة لا تؤثر فى مجرى الحرب اذ هى بمعدل عشرة جنود فى كل مائة نسمة

ومعنى هذا انه اذا كان عدد الالمان المجندين أكبر من عدد البريطانيين المجندين ، الا ان عدد الرجال الذين يساهمون فى جميع نواحى القتال أى الجيش وما يمونه من المصانع ، أكبر فى بريطانيا منه فى ألمانيا ، وهذا هو الموقف الذى أدى فى الحرب الماضية الى هزيمة الالمان رغم ضخامة جيشهم ونصر الحلفاء رغم قلة جيوشهم نسبيا

وأما العصب الآخر ــ المال ــ فتفوق بريطانيا فيه على المانيا لا يتطلب اكثر من سرد الارقام فالدخل الاهلى ــ الذى تقدر به ثروة الدولة ــ كان متقاربا فى كل من الدولتين فى سنة ١٩٣٧

حين كان الدخل البريطاني ٥٫٢٠٠ مليون من الجنيهات ، والدخل الالماني ٧١٫٠٠٠ مليون من الريخمارك ، أى حوالي ٤٫٥٠٠ مليون من الجنيهات وفق اسخى التقديرات (ذلك ان من العسير تقدير قيمة الريخمارك ذهبا نظرا للاساليب الاقتصادية الجديدة التى تجرى عليها ألمانيا النازية) . وقد زاد الآن كل من المدخلين بنسبة ٥٠ ٪ تقريبا ، وذلك بما ضمته ألمانيا اليها من الدول المحتلة ، وبما يتدفق على بريطانيا من انحاء امبراطوريتها التى تجلى تماسكها المالى بصورة اقوى وأجدى من تماسكها العسكرى ذاته

ولكن عدد سكان ألمانيا يزيد عن عدد سكان بريطانيا بعشرين مليون نسمة ، أى اذا أراد الالمانى ان يكون نصيبه من الدخل مثل نصيب البريطانى ، وجب ان تجرد ألمانيا عشرين مليونا من ابنائها من جميع اسباب الحياة بما فيها الاكل واللباس ذاتهما . وبمعنى آخر نقول ان فى بريطانيا عشرين مليون نسمة يمكن تخصيص دخلهم كله للاعمال الحربية اذا قبل البريطانى ان ينزل الى مستوى حياة الالمانى . فاذا عرفنا ان بريطانيا تأخذ الآن نفسها بكل ما تستطيع من وسائل الاقتصاد الذى يبلغ أحيانا درجة الحرمان لتجمع فى يد الحكومة اكبر كمية من المال تضمن لها ادارة الجهاز الحربى ادارة تؤدى الى الانتصار ، استطعنا ان نقدر مدى الثروة التى خصصتها بريطانيا للحرب القائمة

وهذه الثروة بالارقام تتراوح بين ٤٠٠٠ ، ٥٠٠٠ مليون من الجنيهات فى كل عام ، تنفقها بريطانيا على الجيش وما وراءه من اسلحة وذخائر دون ان يؤدى ذلك الى التضييق على الشعب تضييقا يؤدى الى انقاص قوته الانتاجية أو التأثير فى قوته المعنوية ، ذلك ان باقى الدخل الاهلى المخصص للشعب يزيد عن ٣٠٠٠ مليون من الجنيهات ، ولا سبيل الآن الى تقدير ماتستطيع ان تنفقه ألمانيا على الاعمال الحربية من الاموال ، ولكن على اساس دخلها فى وقت السلم ، وعلى اساس خلو خزائنها من الذهب، يستطيع الباحث ان يعرف ان تخلف ألمانيا عن بريطانيا فى عدد الرجال القائمين بادارة عجلة الحرب لا يقاس الى جانب تخلفها فى كمية المال اللازمة لاطالة امد الحرب الى الغاية التى يمكن ان تتراءى عنها صورة الانتصار

الشؤون الاجتماعية فى بريطانيا

يختمر التفكير الاجتماعى فى مصر الآن اختمارا لا بد ان يؤتى نتيجته فى القريب العاجل عندما تنجلى عن العالم غمرة الحرب القائمة التى وقفت وبلبلت الافكار . وبوادر هذا التفكير وزارة قائمة لدراسة الشئون الاجتماعية ومحاولة اصلاح المجتمع المصرى ، وجمعيات كثيرة يساهم فيها نفر كبير من رجال البلد وشبابه ، ومقالات ومحاضرات نقرأها ونسمعها كل يوم فنلمس فيها تهيؤ الفكر المصرى للتغيير الاجتماعى القادم . ولكن من الواجب ان تقوم دراسة المجتمع المصرى واصلاحه على اسس علمية نهتدى فيها بآثار من سبقونا فى هذه الميادين

وتكاد تكون بريطانيا أولى دول العالم فى هذا المضمار ، فهى تنفق على الشئون الاجتماعية هذا المبلغ العظيم : ٤٥٤٫٦٨٤٫٠٠٠ جنيه فى سنة ١٩٣٧ . ويتوزع هذا المبلغ على التعليم وعلى اعانة العمال العاطلين ، وعلى الارامل والايتام والمسنين ، وعلى المستشفيات ، والمساكن ، وعلى اعانة الفقراء . وقد خطت بريطانيا فى هذا الطريق بخطى فسيحة ، بدليل انها لم تكن تنفق فى بدء هذا القرن اكثر من ٣٦ مليونا من الجنيهات أكثرها على التعليم وبعضها على المستشفيات ولاعانة الفقراء

فمجموع الاجور التى يدفعها تلاميذ المدارس فى بريطانيا يبلغ ٩٫٢٠٠٫٠٠٠ جنيه ، أما ما ينفق على التعليم فيبلغ ١١٦٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه . وايراد المستشفيات والمصحات العام ٣٫١٠٠٫٠٠٠

جنيه اما نفقاتها فهى ٢٧٫٢٠٠٫٠٠٠ جنيه . والحكومة ترى ان من واجبها تهيئة مساكن صحية لافراد الشعب ، وتبذل فى ذلك من المال مثل ما تبذل فى سبيل التعليم والامن والجيش مثلا ، ولهذا فقد أقامت أحياء ومدنا لايواء العمال فى بيوت ينفذ اليها الضوء ويتجدد فيها الهواء ويحافظ فيها على الصحة والخلق معا ، وتبلغ نفقات هذه المساكن سنويا ٤٤٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه اما حاصل ايجارها فلا يتجاوز ٢٣٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه

والخلاصة ان بريطانيا تنفق ٣٢ ٠/٠ من ميزانية الحكومة أو ١٠ ٠/٠ من مجموع الدخل الاهلى على الشئون الاجتماعية . وبهذا يستطيع نصف سكان بريطانيا ــ أى الطبقة الدنيا والجزء الغالب من الطبقة الوسطى ــ مما تنفقه الحكومة من المال ان يحيوا حياة مريحة منتجة . ونذكر على سبيل المثال ان كل طفل يولد فى انجلترا وويلز تزوره « زائرة صحية » من قبل المستشفيات العامة لترعى أمه وترشدها الى ما فيه سلامة وصحة وليدها . وفى بريطانيا ٨٫٠٠٠٫٠٠٠ صبى وصبية بين الخامسة والخامسة عشرة يتعلمون فى المدارس مجانا ويعالجون علاجا صحيحا ــ لا صوريا ــ على نفقة مدارسهم . وجميع عمال بريطانيا مؤمن عليهم تأمينا اجتماعيا يكفل علاجهم اذا مرضوا أو اصيبوا بحادث ما ، والانفاق عليهم وعلى أسرهم اذا انقطعوا عن العمل ومنحهم معاشات بعد ان تتقدم بهم السن . ويبلغ هذا العدد فى الظروف العادية ٨٫٠٠٠٫٠٠٠ عامل وهناك ١٫٠٠٠٫٠٠٠ ارملة تتقاضى معاشا و ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ من المسنين يعيشون عيشة مريحة بما تدفعه لهم الحكومة من المعاشات

وبديهى ان الحكومة لا تستطيع ان تنفق هذه الملايين العديدة من الجنيهات الا لانها لا تتوانى عن فرض الضرائب المتعددة التى تمكنها من الحصول على هذه الاموال ، وهى تسرف احيانا فى هذه الضرائب ولكن الشعب لا يتذمر ولا يتهرب منها وذلك انها تفرض بنسب مختلفة تضع العبء الاكبر على الغنى وتعفى الفقير منها وان الاموال المجموعة لا تنفق عبثا بل فيما يعود بالخير الصحيح على اكبر عدد ممكن من الناس هذا الى ان روح التبرع تكاد تصير طبعا انجليزيا متأصلا فى اغنيائهم وفقرائهم على السواء ، واذ كان الناس يندهشون عندما يسمعون بانباء ملايين الجنيهات التى يسخو بها الاثرياء هناك ، فعلهم من باب اولى ان يعجبوا للفقراء الذين يجتزئون من قوتهم ما يجودون به لاعمال الخير العام

للشعب المصرى ان يطالب حكومته بأن تتمثل الحكومة البريطانية الى حد ما فى أمر الشئون الاجتماعية ، ولكن عليه قبل ذلك ان يشعر كل فرد فيه ــ غنيا وفقيرا ومثقفا وجاهلا ــ ان واجب الاصلاح الاجتماعى مفروض اولا على الافراد انفسهم

قناطر محمد على

قامت القناطر الخيرية فى مدى سبعة وسبعين عاما بمهمتها خير قيام ، فكفت من عدوان النيل وكفلت لشمال الوادى الرى والخصب والاثمار فى كل عام . وهيأت ارضه للزروع الصيفية واخصها القطن الذى ما برح عمدة الثروة فى هذه البلاد . وكان بناء القناطر ــ كما يقول معالى وزير الاشغال ــ أول عمل صناعى على النيل من هذا الطراز ، كما كان فى الوقت نفسه من أكبر أعمال الرى الصناعى فى العالم كله مدة القرن التاسع عشر

ولكن الصعاب التى صادفت بناء هذه القناطر كان لها تأثيرها فى ضعف اساساتها ضعفا دعا الى استعمال الحذر فى تحميلها ضغط الماء ، والالتجاء الى قاعدة خاصة فى الحجز عليها من شأنها الاضطرار الى تصريف مقادير كبيرة من الماء خلفها بفرعى النهر تبلغ ملايين الامتار المكعبة

حيث تذهب هباء الى البحر فى وقت نكون فى اشد الحاجة فيه الى كل قطرة منها

ولما اكتملت اعمال الخزن فى السنين الاخيرة بتعلية خزان اسوان مرتين متتاليتين ، وببناء خزان جبل الاولياء ، وذلك لسد حاجة التوسع الزراعى بالقدر الذى يلائم الزيادة المستمرة فى عدد السكان وضرورة الفسح لهم فى المجال الزراعى ، كان لا بد من امداد اراضى الوجه البحرى بنصيبها من تلك الزيادة فى الموارد المائية بزيادة الحجز على القناطر الخيرية بقدر لم تكن لتحمله وهى بحالتها الراهنة . ولهذا رئى انشاء قناطر جديدة ، هى قناطر محمد على ، لتحل محل القناطر الخيرية فى أداء واجباتها المستقبلة بعد ان وثق كبار المهندسين من ان تقوية القناطر الحالية غير مأمونة العاقبة

وقد استغرق بناء قناطر محمد على ثلاث سنوات (من ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٣٦ الى ١٥ ديسمبر سنة ١٩٣٩) . وتفضل صاحب الجلالة الملك بافتتاحها فى حفل عظيم فى ديسمبر الماضى . وبلغت جملة نفقات انشائها ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه وعدد العمال الذين اشتغلوا فيها ١٣٫٠٠٠ عامل وقامت بانشائها « شركة مكدونالد وجبس وشركاهم » . وهذه القناطر مؤلفة من قنطرتين تتحمل كل منهما حجزا قدره ٣٫٨٠٠ مليون متر مكعب ، احداهما على فرع رشيد وتتكون من ٤٦ فتحة عرض الواحدة منها ثمانية امتار ومنسوب عتبها ١١ مترا . والاخرى على فرع دمياط وتتكون من ٣٤ فتحة عرض كل منها ثمانية امتار ومنسوب عتبها ١٢ مترا . ويضاف الى ذلك « هويس » طوله ٨٠ مترا وعرضه ١٢ مترا

ويلحق بهذه القناطر اعمال اضافية منها قنطرة جديدة على فم رياح البحيرة ومثلها على ترعة النجايل ، ومنها بعض الكبارى والجسور والطرق ، وكذلك معمل للابحاث المائية بالجهة الغربية بفرع دمياط

قرية تاريخية

تكشف آثارها فى القطب الشمالى

فى الآفاق الشمالية من الاسكا بأمريكا ، وعلى مدى مائة ميل من شمال الدائرة التى اصطلح الجغرافيون على ان يحددوا بها المنطقة القطبية ، كشفت أخيرا قرية مطمورة وسط اطباق الجليد ولكنها كانت منذ اكثر من ألفى سنة تموج بالحياة وبالناس

تدل الآثار الواضحة التى عثر عليها المكتشف ورئيس بعثة المتحف الامريكى للتاريخ الطبيعى - وهو الدكتور راينى من اساتذة جامعة الاسكا - على ان هذه القرية كانت تشتمل على ٦٢٥ منزلا ، وان مساكنها كانت قائمة حوالى خمسة ميادين منظمة فسيحة . اى ان هذه الصحراء الجليدية الملقاة فى أقصى الارض كانت تعرف من فن العمارة فى أقدم العصور ما لا يقل عما عرفه الاغريق فى أزهى عصورهم

وكان الاسكيمو يتناقلون عن اسلافهم الاولين قصصا عن وجود أقوام يعيشون فى الآفاق الواقعة شمال مناطقهم ، وكانوا يتوجسون خيفة من هؤلاء الاقوام ويروون عنهم من الاساطير المفزعة ما هو مألوف فى جميع الشعوب البدائية . فلما ذهبت اليهم بعثة المتحف الامريكى للتاريخ الطبيعى دلها احدهم واسمه موسى - وهذا الاسم يدل على ان الدين اليهودى قد بلغ هذه المناطق السحيقة ووجد وسط صحارى الجليد من يعتنقه - على آثار هذه القرية ، فقد تقدم الى الشمال ذات مرة فوجد نفسه وسط ركام من العظام البشرية المطمورة ومن الادوات التى تدل على وجود الانسان فى هذه البقاع

وقد استأجرت هذه البعثة أهل قرية بأسرها لكشف تلك الآثار ، واعطت كل من يكتشف قبرا يشتمل على شىء من العظام البشرية أجرا قدره ثلاثة دولارات . فقام اربعون شخصا ما بين رجل وامرأة وطفل بالتنقيب تحت طبقات الجليد

ومن اغرب ما كشف من هذه الآثار جمجمة انسان كاملة وفي محجريها عينان صناعيتان بلغتا من الدقة درجة كبيرة . فبياضهما لامع براق وفي وسطهما « بلميذان » اسودان . ووجدت جماجم أخرى فيها عيون من العاج ، وأنف عاجية تشبه منقار الطائر . ووجد طاقم الاسنان في احدى الجماجم مغطى بطبقة من العاج واذ كان العاج من سن الفيل الذي لا يعيش في تلك المناطق فان وجوده يدل على ان سكان هذه القرية النائية كانوا على اتصال وثيق وتجارة نامية بينهم وبين سكان امريكا

ويقول المكتشف ان الشعب الذي كان يقيم في هذه القرية لم يكن من الاسكيمو الامريكيين بل يرجح انه أتى من شمال الصين حيث بلغ هناك درجة عالية من الحضارة ، ذلك ان الادوات التي عثر عليها في آثاره لها اشباه فيما كشف من آثار الصين القديمة . ولم يستطع هذا الشعب ان يعيش وسط الجليد فانقرض وباد قبل ان يتصل بجيرانه وينقل اليهم حضارته

كلما كبرت أعمارنا

« السيكلوجيا الاجتماعية » اسم كتاب أصدره حديثا الباحث الامريكي « تشارلز بيرد » استاذ علم النفس بجامعة مينسوتا . وقد أفرد فيه فصلا عن الشيخوخة أجمل فيه تجاربه الممتعة وما أدت اليه من نتائج طريفة . فقال : « ان الرجال يموتون كما تموت الاشجار فرؤوسهم لا أبدانهم هي التي تذبل وتموت أولا » أي ان قوة الفكر تضعف وتذوى وتموت وما زال الجسم ناميا منتجا

درس هذا العالم تاريخ خمسمائة من ابرز رجال التاريخ فوجد انه في خلال العشرين عاما الاخيرة من حياتهم توقفت قواهم الفكرية عن الانتاج العبقري العظيم . وهو يستخلص هذه النتيجة مما تدل عليه أغلبية الحالات اما الشواذ فيتجاوز عنها لعدم اطرادها . ومن رأيه ان الانسان يبلغ ذروة الانتاج عندما تتعادل فيه قوة الحماسة وقوة التجربة . والاولى من خصائص الشباب والثانية من خصائص الشيخوخة . فهما لا يتعادلان الا بين هذا وذاك أي في سن الرجولة وهذا ما دلت عليه تجارب « بيرد » فأخصب عهد في الانتاج هو هذه السنين الثلاث ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ . وبعد ذلك تتضاءل الحماسة وتنمو التجربة فيقل الانتاج قلته في العهد الذي كانت فيه الحماسة اضعف من التجربة . صحيح ان بعض النوابغ انتجوا وهم بين العشرين والثلاثين منهم الفيلسوف ديكارت والقصصي ديكنز والوزير وليم بت ومن الموسيقيين من أبدع وما زال في سن العاشرة . وصحيح ان بعض المسنين انتجوا خير نتاجهم ومنهم جوتيه وعوجو في الشعر والحكمة ودزرائيلي وجفرسون في السياسة وجاليلو العالم وكانت الفيلسوف وميخائيل انجلو الفنان وهاندل وفردى الموسيقيان . ولكن كل هذا لا ينقض القاعدة العامة وهي ان أجدى وأخصب سني الحياة ما بين الثمانية والثلاثين والاربعين

يقول بيرد « ان ٧٥ ٪ من عمل الدنيا قام به اناس ولما يبلغوا سن الخامسة والاربعين و ٨٠ ٪ من هذا العمل أداه أناس لم يجاوزوا الخمسين من اعمارهم . وخير خمسة عشر عاما في تاريخ الانسان هي ما بين الثلاثين والخامسة والاربعين »

على ان الناس مختلفون في هذا الامر باختلاف أعمالهم . فالرياضيون يبلغون ذروة انتاجهم في سن الخامسة والثلاثين ، وعلماء الطبيعة فيما بين الثلاثين والرابعة والثلاثين ، والفلكيون فيما بين الاربعين والاربعة والاربعين ، ومخترعو أهم المخترعات قاموا بعملهم هذا وهم فوق الثلاثين ودون الخامسة والثلاثين . واحسن القصص الصغيرة انتجها ادباء سنهم بين الثلاثين والاربعة والثلاثين ، أما الاعمال الادبية الكبيرة الرفيعة فقد انشأها اصحابها وهم بين الاربعين والرابعة والاربعين

الحركة الفكرية

ويلز يفلسف السلم والحرب

لم يكن الكاتب الانجليزى الكبير ويلز من أولئك المفكرين الحالمين الذين خدعتهم فترة السلم عما تخفيه تحتها من النيران ، بل كان يتتبع مجرى السياسة والاقتصاد فى العالم فيجزم بان الحرب لا بد ان تتقد فى يوم قريب ، بل لقد تخيل فى احدى قصصه منذ سنين ان الحرب ستبدأ اثر مشادة بين يهودى وألمانى فى مدينة دانزيج أو فى الممر البولندى !

ولكن هذه الحرب التى كان يتوقعها صدمه تشوبها صدمة عنيفة ألهبت ذهنه وأذكت شعوره فراح يخرج كتابا اثر كتاب ، ليفهم الناس الاسباب التى أقامت هذه الحروب الضروس ، والوسائل الى اطفاء هذه النار التى تكاد تأتى على العالم جميعا ، والطريق التى يجب ان تتخذها الانسانية لتتجنب فى المستقبل مثل هذا الصراع والخراب

وآخر كتبه هو « الحرب والسلم : اما ثورة العالم واما استمرار الحرب » وهو رسالة وجيزة لا تبلغ مائة وعشرين صفحة ، ولكنها وضعت فى اسلوب عنيف أخاذ يشب فيه لهيب الحماسة ونار الصراحة . فهو يعالج المشكلة الكبرى علاجا موضوعيا ، لا يتقيد بوجهة نظر قومية فتخشى منه التحزب أو التحامل ، بل يتحدث حديث المفكر الانسانى الذى يعنيه العالم كله وتهمه الانسانية طرا . وهو لا يتقيد بشىء من اعتبارات التاريخ الماضى والعرف الفكرى السائد بل ينطلق من هذه القيود فلا يبالى ان يأتى بأشد الافكار تطرفا واسرافا

وهذا الكتاب تكملة لكتابه السابق «حقوق الانسان » الذى لخصه الاستاذ محمد محمد توفيق فى هلال مايو الماضى ، فقد اقتصر فى كتابه الاول على بيان ما تبيحه الحياة الجديدة للانسان من حقوق أوسع نطاقا وأدق نظاما من تلك الحقوق التى قررتها له الثورة الفرنسية منذ أكثر من قرن ونصف قرن . اما هذا الكتاب فيتحدث عن الطريق التى يجب اتخاذها للانتقال بهذه الحقوق من نطاق التفكير الى دائرة التنفيذ ، أى الوسيلة التى تقرر للانسان الحديث ما يستأهله من حقوق ما زالت الطبقات الغالبة وما زالت التقاليد الموروثة تحرمه منها

بدأ الكتاب بفصل عنوانه «الرجال الراشدون ليسوا فى حاجة الى زعماء» . ذلك انه لا يخرج هذه الكتب ليقف من الناس موقف الزعيم يتصدرهم ويقودهم ، ولا ليكسب لنفسه كسبا ما يرفعه ويعليه ، بل هو — ككل مفكر مخلص — يحمل هموم الناس كما يحمل المرء همومه الخاصة . ولكن الناس الراشدين وان لم يحتاجوا الى زعيم يقودهم او يسوقهم الا انهم فى حاجة الى رجل خبير بمشاكل الحياة ليدلهم على الطريق السوى . فكما يستشير الرجل طبيبا او محاميا أو طاهيا دون ان يتخذه زعيما ، فكذلك عليه ان يقبل مشورة المفكر فيما يتعرض له من مشاكل السياسة دون أن يتخذ هذا المفكر زعيما

ثم يتحدث ويلز عما تشبث الحرب له ، أهى حرب على أحد المبدأين : الديموقراطية والديكتاتورية؟ انه لا يعتقد وجود نظام نازى أو فاشى او بولشفى بل يعتقد ان الامر يقتصر على عصابات من الحكام تسيطر الآن على ألمانيا وايطاليا وروسيا . فالحرب القائمة ليست حربا معلنة على نظم ومبادىء بل على أفراد وأحزاب ، يجب ان يتخلص منهم العالم لتسوده العدالة ويحكمه النظام

فليس اذن ثمة ما يمنع الالمانى الذى يريد

الحربة ويؤمن بالعدالة من ان يساهم معالانجليزى الذى يشاركه هذه الارادة وهذا الايمان ، ليتغلبا سويا على هذه الحرب التى لم تشن على النظم والمبادىء وانما على الاشخاص والاحزاب . أى ان هذه الحرب لا تخمد نارها الا بثورة عالمية يحمل لواءها الاحرار والسلميون فى شتى ارجاء الدنيا . ثم يشرح المؤلف معنى هذه الثورة واسلوبها ، فيقول انها ثورة كبرى حاسمة الا انها لا تخيف ولا تروع . فهى مبرأة من المذابح والمقاصل ومن التمرد والفوضى . انها ثورة هادئة لا تريق دما ولا تفتح سجنا . بل فى وسع البرلمانات ان يوقدوا نارها ، اذ انالنظام الديموقراطى الصحيح يوجد معارضة فى وسعها ان تؤدى واجبها حقا

وقد أعاد المؤلف فى هذا الكتاب ذكر حقوق الانسان منقحة مجملة ، مطالبا المفكرين فى انحاء العالم ان يهبوا لاعلانها وتنفيذها ، انقاذا للانسانية من هذا الوباء الذى استشرى فى كل مكان

الأدب اليونانى الحديث

الثقافة الاغريقية القديمة من شعر وقصص وفلسفة وفنون هى المورد الاول للثروة الفكرية التى عرفها الانسان فى شتى أدوار التاريخ ، وهى المنبع الذى استمدت منه الحضارة الحديثة أصول فلسفتها وآدابها وفنونها . فهل استنفدت هذه الثقافة العظيمة قوى العقل الاغريقى جميعها فغدا فى هذه الآونة عاجزا عن ان يساهم فى الانتاج الفكرى الثمين ؟ كلا ، فان من يعرض الادب اليونانى الحديث يتبين ان العقل اليونانى ما زال قادرا على الانتاج القيم الجميل ، قدرة الشعب اليونانى على النضال فى سبيل حريته كما كان يناضل آباؤه الاوائل

فاليونان الحديثة ليست مجرد متحف يضم آثار اليونان القدماء ، بل انها تساهم فى الحضارة الفكرية الحديثة بقسط غير ضئيل ، فان روح العبقرية الاغريقية ما تزال تنبض فى أدبائها المعاصرين ، الذين وفقوا الى انتاج أدب قومى واضح المميزات والخصائص

أولى هذه الخصائص « روح البحر » التى تسيطر على الادب اليونانى الحديث سيطرتها على مجرى الحياة اليونانية كلها . فاليونان أشبه بجزيرة يعبر ابناؤها البحر المنبسط حولها جيئة وذهابا بينها وبين ما يجاورها من الاقطار . وقلما تجد يونانيا أمضى حياته كلها فى وطنه دون أن يركب السفينة الى بلد دان أو قاص يتلمس فيه مصادر الحياة . ولهذا كان البحر ــ البحر الابيض ــ محورا يدور عليه أكثر القصص اليونانى الذى يمثل حياة رحبة الآفاق تشبه حياة اليونانى الذى يضرب فى آفاق الدنياساعيا كادحا مغامرا

تقرأ أية قصة من قصص الشعوب البلقانية فلا تراها تتعدى محيط قرية أو مدينة ، ذلك انها شعوب محصورة بسدود من الجبال والوديان . فهى تعيش منطوية على نفسها عازفة عن العالم الخارجى ، على نقيض الشعب اليونانى الذى تجد أفراده على قول كرومر ــ كلما قلبت حجرا وسط الصحراء ، ولهذا كانت الصبغة الغالبة على قصصه صبغة الاسفار والرحلات ووصف شتى الاقطار والشعوب

تتبين روح البحر هذا واضحا فى رواية القصصى اليونانى « كوستى باستياس » المسماة « قرصان بحر ايجه » التى تمثل حياة يونانى هجر قريته وعمل بحارا وأخذ يجازف فى آفاق المياه ، فى خلال تلك الفترة العصيبة التى ساد فيها الترك اليونان وساموها العذاب ، ثم انتهت حياته ــ كما يحدث غالبا ــ فى دير يكفر فيه عن مغامراته الآثمة . وفى رواية « الحقل » للقصصى لوكيس أكريتاس تتبين ما طبع عليه اليونانى من حب الهجرة والمجازفة ، اذ نرى أسرة ريفية عادية ينشب بين الجيل القديم والجيل الحديث فيها من الخلاف فى الرأى والخلق والسيرة

ما يحمل أحد شبانها على مغادرة بلده وسفره الى استراليا ، حيث جمع ما شاء من الثروة . ثم عاد الى وطنه ليمضى فيه سائر حياته

ومن الواضح ان مثل هذا الادب يتميز بروح اليسر والبساطة التى تكاد تبلغ درجة السذاجة على ان ثمة ناحية أخرى يطرقها أكثر كتاب القصة فى اليونان وهى حياة الطبقة المتوسطة من سكان المدن الذين يمارسون أعمال التدريس أو المحاماة أو الطب أو الصحافة أو التجارة . وأفراد هذه الطبقة التى تعد محور الحياة فى اليونان متماثلون فى نواحى تفكيرهم ومظاهر حياتهم ، فهم اذا انتهوا من أعمالهم اجتمعوا فى المساء فى مقاهى المدن حيث يتناقشون فى سياسة الاحزاب والحكومات مناقشة عنيفة قد تنشب فيها المعارك ، وهم لهذا مصدر هذه الحياة القلقة التى كانت تعانيها اليونان فى سياستها الى ان تولى أمرها متكساس الذى كان يطلب الى الناس بالحاح الا يتحدثوا فى السياسة . ومن أحسن القصص التى تمثل هذه الطبقة رواية جيورجوس تيوتوكاس وسماها «الى واليوتو» و «بوريس بنتوزالس»

ومن الغريب ان الادب اليونانى الحديث أكثر تأثرا بالادب الاوربى المعاصر منه بالادب الاغريقى القديم . فأدباؤهم يتتلمذون ويتأثرون جوتيه أو تولستوى ، وقل منهم من يأخذ عن سوفوكل أو يوريبدس . ولهذا كانت حركة الترجمة فى اليونان نشيطة منتجة ، ويساهم فيها جمع من كبار الادباء وأوساطهم

وعلى الجملة فالادب اليونانى يمثل حياة قومية فيها كثير من الطرافة والمغامرة ، وان كانت آثاره لا تعد من حيث تكوينها وخيالها وفكرتها بأكثر من القصص العادى الذى يغمر الآداب الانجليزية والفرنسية ، ويمكن ان يقال ان اليونان الآن فى طور النمو والنضوج الذى يسبق طور انتاج الادب العظيم

الثورة

سلاح بريطانيا فى الحرب

ما سبيل بريطانيا الى قهر ألمانيا ؟ سؤال يخامر الساسة والقادة كما يخالج جمهرة الناس على السواء ، ويلقى كثيرا من الاجابات المختلفة وان كان لكل جواب منها ما يؤيده من المبادىء والوقائع . وممن أجاب عن هذا السؤال الكاتب الانجليزى « فرانسيس ويليامز » فى مؤلفه الحديث « الحرب بالثورة » الذى أحدث تأثيرا قويا فى الرأى العام الانجليزى . ذلك انه يرى ان أجدى وأيسر خطة تتبعها بريطانيا ليست أسطولها الجبار وطائراتها العاتية ، وليست مناورات السياسة من تحالف وتهادن ومساومة ، وانما هى اقامة الثورة فى شعوب أوربا التى فرضت عليها ألمانيا سيادتها . أما الوسائل التى تؤدى الى هذه الثورة فمتعددة شرحها الكاتب فى تفصيل ووضوح

أولى هذه الوسائل ان تضع الدول الديموقراطية — لا ألمانيا وحدها — نظاما يسير عليه العالم فى حياته السياسية والاقتصادية أفضل من النظام الذى وضعته ألمانيا لاوربا الجديدة . فالنظام الهتلرى وان كان يرمى الى سيادة ألمانيا على أوربا من جميع الوجوه ، الا انه يحقق شيئا مما ترجوه الشعوب والافراد فى أوربا من الاغراض فينبغى على الديمقراطية ان تضع نظاما يكفل لهذه الشعوب ولافرادها من المزايا ما يصرفهم عن نظام ألمانيا ويعطفهم على بريطانيا عطفا صادقا صريحا . أى يجب ان تؤمن الشعوب بأن الديموقراطية لا تخادع ولا تنافق حين تتحدث عن حق كل فرد فى الحياة والحرية ، فتضع من النظم ما يضمن للافراد وللامم كل ممكن من الرخاء والسلام

والوسيلة الثانية هى « الدعاية » التى تستغل ما فى شعوب أوربا من مشاكل وخلافات فى سبيل تأليبها واثارتها . ومن الواجب على

الديموقراطية ان تتلقى على ألمانيا دروس الدعاية النافذة التى يوفق بها رجال النازى الى فرض انفسهم على الشعب الالمانى وحطم كل قوة تناصبهم العداء . ولكن ينبغى ان تسرع الديموقراطية الى بث هذه الدعاية قبل ان تثبت اقدام النازى فى ارجاء أوربا ثباتا لا تجدى فيه المقاومة حين يستطيع جوبيلز الداعية ان يستأثر بأفكار الشعوب وعواطفها . وطريق الدعاية ممهد فى أوربا التى تضطرم بالخلاف بين شعوبها وطبقاتها وطوائفها خلافا يتناول شئون الاقتصاد والدين والجنس والنظام الاجتماعى . فلماذا لا تستغل الديموقراطية كل جفوة بين الحكام والمحكومين ، وكل خلاف بين العمال وأصحاب العمل والمال ، وكل نزاع بين الطوائف الدينية وبين الاجناس المختلفة ، فتحدث فى أوربا من الفتن والثورات ما يزعزع قواعد ألمانيا ويقوض ما تشيده عليها من البناء ؟

ومن هذه الوسائل ان تعد الحرب القائمة « حربا أهلية » . فهى ليست بين بريطانيا وألمانيا ، بل بين الديموقراطية والديكتاتورية ، فيجب ان يساهم فيها الالمانى الذى ينقم على الديكتاتورية ورذائلها وسيئاتها بكل ما يساهم به البريطانى ذاته من القوة والاخلاص ، ذلك انها ترمى الى تخليصهما معا من عدوهما المشترك وهو الديكتاتورية . أما ان كانت حربا بين شعبين فلن تجد ألمانيا يثور على هتلر مهما امتلأ قلبه غيظا منه وحقدا عليه ، لان الثورة اذا هى الخيانة الوطنية التى ان قبل الالمانى ان يقارفها فلن يقبل البريطانى ان يتخذه عونا وقرينا

والطبقة التى يجب ان تبدأ هذه الثورة الكبرى هى طبقة العمال التى لا يمكن مراقبتها واخضاعها فى جميع ارجاء أوربا ، فهذه الآلاف المؤلفة التى تمقت النظام الديكتاتورى تستطيع ان تقيم حركات الاضراب فى مئات المصانع والمنشآت دفعة واحدة وبذلك تعطل الجهاز الالمانى الحربى تعطيلا لن تستطيعه أسراب الطائرات البريطانية مهما ألقت من قنابل ونيران

ان الثورات الشعبية قلما تنجح فى هذه الايام التى صارت فيها الطائرات والمدافع الكبرى أهم وسائل القتال . ذلك ان هذه المعدات لا تتيسر للجماهير وانما هى فى قبضة الحكومات القائمة. ولكن الثورة التى تريد الديموقراطية ان تحدثها فى شعوب أوربا ليست ثورة شعبية يقوم بها الافراد والجماعات ، بل تؤيدها وتمونها بالمال والسلاح مصانع بريطانيا وامريكا . فيعتد الثوار بما يلقون به جيش الحكومة وبما يكفل لهم الغلبة عليه

ففى أوربا الآن آلاف مؤلفة من الافراد الذين ينقمون على النظام الديكتاتورى ويودون نصرة القضية الديموقراطية ، وهم على أهبة التمرد والثورة اذا وحدت قواهم ومدوا بما ينقصهم من العتاد والسلاح ، فيجب على الديموقراطية ان تستغل هذا الموقف سريعا ، فان الحلفاء كسبوا الحرب الكبرى الاولى عندما ثار الشعب الالمانى برغم صمود الجيش ، وان الديموقراطية ستكسب الحرب الكبرى الثانية عندما تثير شعوب أوربا . ولن يجدى هتلر حينذاك ان تنتصر جيوشه فى كل الميادين ، فالشعب أقوى من الجيش ، وثورة الجمهور أنكى من هزيمة الجنود

بسمات الحظ

للاديب المؤرخ ستيفان زفايج

« اذا أدى التاريخ عملا كاملا . اذا أنجب شخصية وافية ، لم يعد على الكاتب الا أن يروى قصة هذا العمل ، الا أن يسرد حياة هذه الشخصية دون داع الى التخيل أو التجميل »

هذا رأى الأديب المؤرخ « ستيفان زفايج » أبداه فى مقدمة كتابه الحديث « بسمات الحظ » الذى روى فيه قصة اثنتى عشرة شخصية اختارها من شتى العهود والشعوب ، دون ان يكون بينها جامعة من مجرى حياتها أو مما خلفته من الآثار

وان كان ثمة تشابه بينهم فى انهم أدوا أهم أعمالهم فجأة فى فرصة هيأتها لهم ظروف الحياة . اى ان الكاتب اختار بعض « الساعات الخطرة » وأدار الحديث حولها متخذا من أحد الرجال محورا يقص روايته فى بلاغة تسمو بآثار « زفايج » عن مستوى البحث التاريخى وتضعها فى مرتبة الادب الرفيع

أول هؤلاء الرجال هو « شيشرون » فى الفترة الاخيرة من حياته التى أمضاها عانيا مضطهدا حتى لقى الموت الفاجع الأليم ، دفاعا عن الحرية والكرامة ، حتى لتصح ان تكون مأساته سلوى لهؤلاء المفكرين الاحرار الذين يلقون الآن كل عنت وقسوة فى الدول التى ألفت الحرية وسخرت القلم تمجيدا لزعامتها ودعاية لسياستها . ولا شك ان « زفايج » أبدع فى رواية هذه الحياة ففى فقرات منها كان يتحدث عن نفسه ، ذلك انه أحد الادباء والمفكرين الذين نفوا من أرضهم وشردوا ، لا لامر الا ان الله أجرى فيه الدم السامى « الملوث » لا الدم « الآرى » المطهر

ويلى ذلك السلطان محمد الفاتح ، قاهر القسطنطينية ومحطم البيزنطية ، وأول من اتخذ المدفع فى فتح المدن الكبرى . وهذه القصة ان خلت من الجانب الانسانى الا ان فيها من روح المغامرة والابتكار ما يحبب فى قراءتها . ويقرب منها قصة الرجل الثالث « بالبوا » وهو زعيم من زعماء العصابات الامريكية له من صفات النبل والمروءة ما جعله يتخذ حياة المغامرة فى سبيل نجدة الضعيف ونصفة المهضوم ، وكان هذا الرجل أول « أبيض » رمى ببصره فى آفاق المحيط الهادى وفكر فى استغلالها والاقامة فيها

ثم عقد فصلا عن الموسيقى هاندل بعنوان « الله ينطق بكلمة » . ومن هذه العبارة تدرك الروح الذى رويت به قصة هذا الفنان الذى يتبين من يسمع قطعته عن « المسيح » ان القداسة ليست قصرا على من يلبسون مسوح القديسين بل قد تملأ قلوب من ينشئون الشعر ويؤلفون الموسيقى

أما « عبقرية ليلة » فهى قصة هذا الشاعر الفرنسى المجهول « روجيه دى ليل » الذى انشأ أروع واشهر نشيد شعبى وهو « المارسيليز » فى ليلة تهيأت له فيها عرائس الوحى والشعر ثم عاد بعد ذلك الى غمرته خاملا مجهولا . ولعل قراء « الهلال » يذكرون انهم قرأوا فيه هذه القصة الساحرة التى يتبينون منها فن زفايج فى ترجمة الحياة ورواية القصة وبلاغة العبارة

و « الساعة الحاسمة فى واترلو » هى قصة القائد الفرنسى « جروشى » الذى أدى طاعته التامة وتنفيذه الدقيق لاوامر نابليون الى اندحار الجيش الفرنسى وأفول نجم سيده . والكاتب يسوقها دليلا على ان القائد الانجليزى ولنجتون ــ كأكثر عظماء التاريخ ــ انتصر لان القدر وحده أراد له هذا الانتصار ، فهيأ له فرصته وأعد له اسبابه

يروى زفايج بعد ذلك قصة فيكتور هوجو حين خطرت له فكرة قصته العظيمة « البؤساء » وحين وضع هيكلها ثم كساها من بلاغته الباذخة الآسرة ، ثم قصة جوتيه حين جاوز سن السبعين وأخذ يكتب « مرثية مارينباد » التى ركز فيها حكمته وفلسفته واجمل فيه حياة الشباب والشيخوخة

ثم يعود زفايج الى قصص المغامرة فيروى حكاية « جون سوتر » المجازف السويسرى الذى كشف مناجم الذهب فى كليفورنيا فغدا أغنى رجل فى الدنيا كلها ، ثم أمضى الثلاثين عاما الاخيرة من حياته فقيرا جائعا مخبولا حتى لقى حتفه فى الطريق ثم قصة « سيرس فيلد » أول من خطرت له فكرة اللاسلكى فحاول ان يرسل الكلمة الاولى عبر المحيط الاطلسى . وتليها قصة الرحالة الانجليزى سكوت فى آفاق القطب الجنوبى حيث راح يسابق امندسون سباقا رهيبا انتهى بحياته الى خاتمة فاجعة مجيدة ، حين لقى حتفه وسط الجلود بعد ان تهدمت آماله حين سبقه غريمه الى كشف هذه البقاع

وينتهى الكتاب بقصة رجلين من زعماء الشعوب

فى القرن العشرين ، هما لينين وكيف هرب من سويسرا الى روسيا عن طريق المانيا فى سنة ١٩١٧ ليقيم اعظم ثورة اجتماعية فى التاريخ وويلسون هذا الرجل الذى حسب نفسه وحسبه الناس نبيا جديدا فاذا برسالته تتحطم على صخرة الاطماع والدسائس والاخطاء

هؤلاء هم الرجال الذين تحدث عنهم «زفايج» الذى ابتكر فنا « للترجمة » يمتاز ببلاغة تضفى على رجاله ، سواء منهم الزعيم والشاعر والمغامر ، ثوب البطولة التى لا تجعل منهم أصدقاء نصاحبهم ونجلهم كما هو الشأن فى رجال اميل لودفيج ، بل مثلا عليا نترسم خطوها ونتأثر حياتها

عدن

محاضرة فريا ستارك

ألقت الآنسة فريا ستارك ــ المستشرقة الرحالة الانجليزية ــ محاضرة عن « عدن » فى القاعة الشرقية بدار الجامعة الامريكية بالقاهرة ، وهى احدى المحاضرات التى نظمها معهد الدراسات الشرقية بالجامعة ليعرف الناطقين باللغة الانجليزية فى مصر بانحاء العالم العربى

عرضت المحاضرة تاريخ عدن منذ القدم حين كانت أغنى وأرقى اقطار الجزيرة العربية لموقعها على طريق التجارة الهندية ، ثم جاء الرومان فتركزت الحضارة والتجارة فى حوض البحر الابيض فأصاب عدن ما يصيب سائر الجزيرة من الفقر والشدة ، فلما قامت الدولة العربية عاد الرخاء الى هذا الركن القاصى وأخذت عدن تستأنف حضارتها التى ازدهرت عندما نشطت التجارة بين الشرق والغرب عن طريق البحر الاحمر ، الى ان سيطر الاتراك وقرصانهم على آفاق الشرق الاوسط وبحاره فاضطرت أوربا ان تسير سفنها فى طرق أخرى ، وكشفت طريق رأس الرجاء الصالح ، فعانت عدن ما عانت البلاد الاسلامية كلها من الكساد والضيق .

ثم انتقلت الى العصر الحديث فأبانت أثر فتح قناة السويس فى اعادة الرخاء الى عدن ، وقالت ان السيارة والطيارة هما اللتان تحددان مستقبل هذا الاقليم ، وقد بدأتا تصلان فيافيها بالعالم الخارجى فتنقلان اليها اسباب الحضارة التى تنعذ لى أهلها الآن سريعا وتغير اسلوب حياتهم تغيرا واضحا عاجلا

وتكلمت عن علاقة عدن ببريطانيا فقالت انها تنحصر فى اتخاذها محطة لتموين السفن بالفحم . ففى بدء القرن التاسع عشر ارسلت الحكومة الهندية الكابتن « هينز » ليبحث فى ساحل الجزيرة العربية الجنوبى عن محطة ترسو اليها السفن لتزود منها بالوقود ، فوجد المكان الملائم فى عدن وأخذ يفاوض سلطانها على شرائها وماطل السلطان وراوغ الى ان وقع حادث اعتداء على سفينة بريطانية فاضطرت شركة الهند الشرقية ان تؤمن سفنها وبحارتها باحتلال عدن وكان هينز أول انجليزى يقيم هناك . وأخذت عدن منذ ذلك تزداد سكانا وثراء ، فكانت قرية عدد أهلها ٥٠٠ نسمة فغدت الآن تضم ٤٦٫٠٠٠ فرد ، ثم كان لكشف آبار البترول فيها أثر خطير فى زيادة ثروتها ، وصارت الآن تعد من حيث أهميتها فى مقدمة موانىء العالم الكبرى

ووضعت عهود بين بريطانيا وقبائل عدن الغيت بها تجارة الرقيق ، ومنعت بها أعمال القرصنة ، وبنيت المنائر . وظلت القبائل تهاجم الميناء وتخربها الى أن ظهرت الطائرات فجعلت حراسة هذه المنطقة ميسورة . وقد أخذت بعض الدول الاوربية ــ ايطاليا على الاخص ــ ترمق عدن بعين الطمع ، فبثت فيها دعاتها وعيونها وارسلت اليها والى اليمن نفرا من ابنائها ، ولكن الحرب الماضية والحرب القائمة اثبتت ان سكان عدن يدركون المزايا العظيمة التى تعود عليهم من الحماية البريطانية ، فهم يعيشون فى رخاء تحسدهم عليه اكثر الشعوب ، وهم يقبلون الآن على الحضارة

الاوربية اقبالا سريعا ، وبين أهلها ونزلائهـا الانجليز علائق وثيقة من العرف والمودة بفضل حاكمها سير برتا زوزيلى الذى اقام فيها ٣٦ سنة حتى غدا أبا وزعيما لسكانها من العرب والهنود والاوربيين

الكتيب بدلا من الكتاب

تنشط سوق الكتيب كلما كسدت سوق الصحافة . فعندما كانت الجريدة قليلة التأثير فى الرأى العام لم يفكر الكتاب فى اتخاذها طريقا الى نشر آرائهم ، بل لجأوا الى « الكتيب » يضمنونه أقوالهم ويذيعونه بين الناس . ولم يكن « الكتاب » وسيلتهم الى اذاعة آرائهم بين الجمهرة والعامة ، لان كبر حجمه وغلو ثمنه يجعله مقصورا على الخاصة من المثقفين والميسورين . فظهر فى ذلك العهد عدد من الكتيبات تعد حتى الآن فى مقدمة الآثار الادبية الرفيعة . فأجمل ماخلف ملتون من النثر هو رسالته الصغيرة التى هاجم فيها البرلمان الانجليزى ، ولم يكن قصده من كتابتها ان يخلق أثرا أدبيا بل ان يذيع رأيا سياسيا معينا . وأحسن آثار الاديب الفكه سويفت هى الرسائل الوجيزة التى نشرها تهكما على بعض الرجال والمنشئات فى أيامه . وهذا ينطبق على بوب ودرايدن وأديسون وهازلت وغيرهم من كبار الادباء الذين لم ينزلوا الى سوق الصحافة ولم يعنوا بأخراج الاسفار ، بل اكتفوا بالرسائل المجملة يدافعون بها عن آرائهم ويسفهون فيها خصومهم

فلما انتشرت الصحف وكبرت أحجامها وجد الكتاب فيها مجالا لبسط اقوالهم ووجدوا فيها خير وسيلة لاذاعتها بين القراء . ولكن الصحافة لم تقض على الكتاب فقد صار اخراجه واقتناؤه ميسورا بفضل انتشار المطابع ورخص الورق ومهارة الناشرين . وانما ركد سوق « الكتيب » حتى صار الكاتب يأنف من اصداره ، فأخذ يجمع كل طائفة من مقالاته أو قصصه فى مجموعة واحدة ليخرج منها كتابا ضخما بدلا من ان يخرجها فى رسائل عديدة

أما فى هذه الايام التى قصت فيها اجنحة الصحف فلم تعد تتسع لاكثر من سرد الانباء والتعليق الوجيز عليها فقد عادت سوق الكتيب الى الرواج . وزاد فى رواجه ان اصدار الكتاب غدا عسيرا ، لا لغلاء الورق فحسب ، بل لان كتابته واعداده واخراجه يستغرق من الوقت الطويل مما قد تتغير فى اثنائه أحداث هذه الايام الخطيرة تغيرا يجعل موضوع الكتاب غير ملائم لليوم الذى يصدر فيه . لقد نشرت احدى المجلات نكتة جميلة ، هى ان تلميذا ذهب ليشترى خريطة لاوربا فلما قدمها له البائع نظر فيها التلميذ وردها قائلا : « لا ، هذه خريطة اوربا فى الاسبوع الماضى وأنا اريد خريطتها فى هذا الاسبوع » وهذا مع المبالغة ينطبق على الكتب ، فما يكتبه المؤلف الآن قد يناقض الواقع كل المناقضة حين ينتهى من تأليفه واخراجه ، ولهذا أحجم أكثر الناشرين عن اصدار الكتب الكبيرة واكتفوا بالرسائل الوجيزة التى أخذت تغمر السوق

فكبار كتاب أوربا يذيعون الآن آراءهم فى رسائل وجيزة ، وقد أخذ ويلز وآنجل ونيكلسون وسواهم من النقاد السياسيين يركزون أقوالهم فى صفحات قلائل يبيعونها للجماهير بثمن زهيد . وجاراهم فى ذلك أساتذة الجامعات الكبرى وفى مقدمتهم جامعة أوكسفورد التى تصدر سلسلة متصلة عن « شئون العالم » تعالج سياسته واقتصاده وتاريخه فى اسلوب مركز واضح سهل التناول . وسيكون لهذه الحركة أثرها الخطير فى تثقيف الرأى العام بثقافة قيمة ممتازة . سوف تهيىء اذهان العامة للثورة الاجتماعية الخطيرة التى لا بد أن تحدثها جماهير أوربا كلها عقب ان تضع الحرب وزرها

الكتب الجديدة

الجيش المصرى البرى والبحرى

لصاحب السمو الامير عمر طوسون

صفحاته ٢٧٠ – طبع بمطبعة دار الكتب المصرية

الامير الجليل عمر طوسون باحث تاريخى محقق ، تخصص فى كتابة تاريخ مصر الحديث ، وتاريخ الجيش المصرى فى مصر والسودان بنوع خاص . وقد اصدر أخيرا هذا الكتاب الضخم الذى يتناول الجيش المصرى البرى والبحرى فى عهد محمد على باشا الكبير

وقد تحدث سموه فيه عن نشأة الجيش البرى وتكوينه ، وعن أهم رجاله ، وعن معاهد جنوده ونظم تدريبهم ، وعن مصانع السلاح والذخيرة ، وعن البعثات الحربية ، وعن كبار الضباط وأهم المعارك الحربية التى خاضها ، وعن عدد قوات الجيش وقدر نفقاته . ثم تناول الحديث عن الاسطول وكيف أنشىء وأعد ، وعن المعارك الموفقة التى خاضها فى حرب المورة وحرب الشام ، وعن دار الصناعة بالاسكندرية حيث كانت تبنى السفن الحربية

وقد جمع فى هذا الكتاب خلاصة ما قاله المؤرخون المصريون والغربيون عن ذلك كله ، فهو مرجع كبير قيم لتاريخ الجيش المصرى فى عهد مؤسسه العظيم . وقد جاء اصداره فى هذه الآونة التى تحققت فيها بعض أمانى مصر كما قال سموه فى مقدمة الكتاب ، ودبت الحياة فى جيشها وهى جادة فى استكماله واحلاله المكان اللائق به ، وظهر من اقبال المصريين على الجندية والرغبة فيها والاندماج فى سلكها ما لا مزيد عليه . وسينتشر هذا الروح الطيب فى هذه الامة الفتية الناهضة ، فيقضى على روح التذمر الذى كان متفشيا فيها قضاء مبرما ، ويحل محله الارتياح والابتهاج الى فداء الوطن

وقد تحدث سمو الامير عمر طوسون فى هذا الكتاب عن الاستعداد العسكرى عند المصريين فقال : « لعل المصريين من اكثر الناس صلاحا واستعدادا لان يصيروا جنودا ممتازين ، فهم على وجه العموم أشداء أقوياء البنية ، متصفون بالقناعة والجلادة على احتمال المشاق والخضوع والطاعة والخلود الى الصبر عند عثور الجد والاقدام على الخطر واقتحام النيران بلا خوف ولا وجل . وقد صدرت عنهم اثناء الحروب حوادث بارزة تعلى قدرهم وترفع شأنهم »

وقال عن البحرية المصرية : « وقد ادهشت هذه البحرية المصرية العجيبة بعد زمن يسير من انشائها كل مشاهير علماء البحرية فى العالم ، واعجبوا بكل ما بدا منها من دقيق الحركات وسديد المناورات ، وجمال الاشكال ودربة الرجال ، وحسن الهندام وكمال النظام. وبذلك ظهر المصريون وهم شعب جم الفضائل ، كثير المناقب ، كأنهم فطروا على مزاولة الملاحة، وخلقوا على الاستعداد لها أكثر من غيرهم »

والكتاب مزين بالصور والرسوم العسكرية ومطبوع طبعا متقنا . وهو أحد ثلاثة مجلدات اعتزم سمو الامير اصدارها عن تاريخ الجيش المصرى اولها هذا الكتاب. اما الثانى فسيخصصه وحده للجيش البرى والثالث سيكون تاريخا عاما للجيش فى عهود ولاة مصر منذ محمد على الى سنة ١٨٨٢ من عهد الخديو توفيق . ولاريب ان سمو الامير عمر طوسون يضيف بمؤلفاته القيمة ثروة نفيسة الى تاريخ مصر الحديث

تاريخ القوقاز

تأليف اللواء حسن عزت باشا
ترجمة عبد الحميد غالب بك

صفحاته ٢٥٦ – طبع بمطبعة الحلبى

القوقاز هو هذا الاقليم الشرقى الجميل الذى قيل انه مصدر الجنس الابيض وعرف بأنه مثوى الجمال البشرى الباهر ، والذى كان حلقة الاتصال بين آسيا واوربا تتبادلان فى رحابه حضارتهما وتجارتهما ، وقد ظل دهرا طويلا درعا للاسلام يرد عن معقليه تركيا وايران عادية روسيا وهجماتها

وقد قام المرحوم حسن عزت باشا الجركسى بتأليف كتاب عن تاريخ هذا الاقليم . وهو من قواد الجيش التركى الذين ابلوا احسن البلاء الى جانب أتاتورك فى حرب الاستقلال، ثم ترجمه الى العربية المرحوم عبد الحميد غالب بك باسلوب جزل يدل على تمكن من اللغة العربية

والكتاب يعرض عرضا وافيا تاريخ القوقاز قديما وحديثا ، ويتحدث حديثا جامعا عن أهم أحوالها السياسية والاجتماعية وعن تقاليدها القومية . وقد استقاه المؤلف من أوثق المصادر وأوفاها فى اللغات الروسية والانجليزية والفرنسية والتركية ، وتوخى فى دراسته تقرير الحقائق وتمحيص الوقائع والاستدلال بالاسانيد التاريخية واللغوية

وقد وفق المؤلف الى نتائج تاريخية حفل لها علماء الآثار والانساب فى أوربا ، فهو صاحب النظرية التاريخية القائلة بان الحبشيين القدماء هم أجداد الجراكسة ، بدليل ما أورده من الاسانيد الاثرية والانتروبولوجية

و « جمعية الاخاء الجركسية » التى نشرت هذا الكتاب القيم جديرة بالشكر ، فقد أتاحت لقراء العربية ان يدرسوا مدنية حافلة بالمفاخر وان يقفوا على مزايا الشعب الجركسى ، ومواهبه وتضحياته الوطنية فى سبيل الحرية والكرامة

والكتاب مطبوع طبعا رشيقا ومزين بالصور التى تمثل بعض ابطال القوقاز وبعض مظاهر حياتهم

علم الامراض الباطنة

أمراض جهاز الهضم
للدكتور حسنى سبح

صفحاته ١٠٤٤ – طبع بمطبعة الجامعة السورية

كانت المكتبة العربية الى عهد قريب مقصورة على الادباء دون العلماء ، فكان طلابنا يلقون العلم من مصادره الاجنبية ويحرم من دراستها من لا يجيد لغة أو أكثر من لغات هذه المصادر . ولكن أخذ علماؤنا فى العهد الاخير يساهمون فى حركة التأليف بنصيب – ان يكن اليوم ضئيلا – الا انه قوام حركة علمية عربية يرجى نماؤها ونشاطها وانتاجها الوفير . وفى طليعة هؤلاء العلماء الاجلاء الدكتور حسنى سبح رئيس المعهد الطبى العربى ، فقد وضع موسوعة شاملة فى علم الامراض الباطنة تتألف من سبعة اسفار كبيرة ، اصدر منها أربعة تعالج على التوالى : أمراض المجموعة العصبية ، والامراض الانتانية والطفيلية ، وأمراض جهاز التنفس ، وأمراض جهاز الهضم

وهذه الحلقة الاخيرة التى تجاوز ألف صفحة تتناول أخطر ناحية فى الامراض الباطنة وهى الامراض التى تصيب الجهاز الهضمى ، وهى عديدة متشعبة تلتبس أعراضها وتشق معالجتها « ولا سيما بعد ان أصبح المعول فى تشخيص امراض انبوب الهضم وتوابعه على الوسائل المخبرية المختلفة وصارت علاماتها السند الصحيح فيها وكان دونها ما يستطلعه الطبيب بالاستقصاء السريرى » ولهذا عنى المؤلف الكبير بالفحص الشعاعى واكثر من اثبات الصور الشعاعية التى تيسر الشرح والايضاح

وتناول المؤلف فى سفره الضخم جميع أمراض جهاز الهضم تناولا كاملا أورد فيه كل ما انتهى

اليه الاطباء والعلماء من الحقائق والبحوث ، وضمنه ما اسفرت عنه الدراسات الحديثة من نتائج ما زال يغضى عنها معظم الاطباء ، وكذلك ما انتهت اليه بحوثه الخاصة فى بعض هذه الامراض . ثم لم يشأ المؤلف ان يقصر الفائدة من كتابه على الاطباء وطلاب الطب ، بل يسرها لكل قارىء بما أورده فى موضوع الغذاء الذى تنشأ منه أمراض الجهاز الهضمى أو تقوم عليه صحته وسلامته

ولغة المؤلف سهلة يسيرة ، وقد احسن كثيرا بايراد الالفاظ والمصطلحات الطبية فى فهرس فى ذيل الكتاب مبينا ما يقابلها فى المؤلفات الفرنسية منعا للبس والابهام الى ان يوفق علماؤنا فى مؤتمراتهم العلمية ومجامعهم اللغوية الى وضع ألفاظ ومصطلحات مقررة لا يختلفون فى فهمها وتفسيرها

الفيزيقيا الحديثة

للاستاذ احمد فهمى ابو الخير

صفحاته ١٧٢ — طبع بمطبعة المقتطف

خطى علم الطبيعة فى العهد الاخير خطى واسعة أثرت فى العالم المادى كل التأثير ، توجب أن يصور العالم تصويرا جديدا على اساس هذه الكشوف الحديثة

وهذا ما أراده المؤلف فى عشرين فصلا يتألف منها كتابه النافع الشائق . فتحدث فى صدره عن « حاضر الفيزيقيا » أى عن هذه « الدنيا الجديدة » التى اسفر عنها البحث العلمى الحديث فصور العالم بأرضه وهوائه ومائه وترابه صورة علمية ليس فيها تعقيد ولا غموض ، ولكنها وافية دقيقة ، بما أجمله وأوضحه عن ذرات الكهربائية والموجات الاثيرية ، والراديو ، واشعة اكس والضوء فوق البنفسجي ، والبلورات ، والطاقة ، والجاذبية والنسبية الخ

وتحدث فى جزئه الثانى عن « مستقبل الفيزيقيا » حديثا يريد به ان يفسر المادة والحياة والفعل تفسيرا علميا . وقد خرج من هذا الحديث الى ان الفيزيقيا والبيولوجيا والسيكلوجيا تتلاقى كلها عند مسألة الحياة . ودرس كذلك مسألة الزمن على ضوء علمى الطبيعة والفلك مرتئيا ان العلم اذا نجح فى تفسير هذه المسألة وتطبيقها تطبيقا فيزيقيا خالصا أدى الى ظهور نوع جديد من العلم ، هو « العلم العام » الجامع الشامل

وقراء الهلال يعرفون الاستاذ المؤلف بما طالعوه من بحوثه فى عالم الارواح . ونعتقد انه فى هذا الكتاب وفى بوعده فى قوله : « أعد قرائى الا أزج بهم فى خضم النظريات وخصوصا الرياضى منها ، ولكنى سأطلعهم على الاعماق وهم وقوف على الشاطىء » . وقد احسنت زميلتنا مجلة « المقتطف » القراء باهداء قرائها هذا الكتاب النفيس

أبو العلاء المعرى

للمرحوم احمد تيمور باشا

كان المؤرخ الباحث واللغوى المحقق احمد تيمور باشا قد شرع فى تأليف سفر واف عن ابى العلاء المعرى يتناول حياته وأدبه وفلسفته ومعتقده وغير ذلك من نواحى هذه الشخصية الحافلة المركبة الكبرى . . ولكنه لم يتم من هذا السفر الا اجزاء نشرت فى هذا الكتاب الممتع الشائق الذى يتناول ثلاثة أمور :

نسبه ، وشعره ، وعقيدته

فتحدث فى الجزء الاول عن منبته واسرته ، وعن مولده ونشأته ، وعن تلاميذه ومؤلفاته ، وعن مبلغ علمه وذكائه ، وعما شاكل كل ذلك من الاخبار المتصلة بأبى العلاء . وتناول فى الجزء الثانى الجانب الشعرى فتحدث عن المكرر فى معانيه ، ثم عن سرقاته ، ثم عن مآخذ الشعراء من شعره ، ثم انتهى بمقارنة بعض معانيه بمعانى غيره . وخص الجزء الثالث بمعتقد ابى العلاء ، واختلاف الناس فى أمر عقيدته فى الله تعالى وفى رسله الكرام

ويمتاز هذا الكتاب بميزات،منها دقة ووضوح في التعبير مع الايجاز ، والمام بشتى نواحي الموضوع دون اطالة واستطراد ، ومنها اناة واتزان في الحكم مع ميل الى الانصاف والتقدير، حتى ليشعر القارىء ان المؤلف يريد ان يدافع عن المعرى من غير ان يجاوز وجه الحقيقة . وخير ما في الكتاب هذا التبويب والتفصيل الذى يجعل منه مرجعا ثبتا سهل التناول

وهذا الكتاب ـ كسائر مؤلفات المغفور له تيمور باشا ـ يمتاز بدقة في البحث والتحقيق ، وشمول في العرض والدراسة ، ومراجعة دقيقة لكثير مما لا تتناوله الايدى من الاسانيد الخطية التي جهد المؤلف رحمه الله في جمعها من شتى الانحاء والاطراف ، فترك ذخيرة ثمينة يعتز بها ويعتمد عليها كل من يعنيه الادب العربي والتاريخ الاسلامي

ديوان ابن الساعاتي

حققه ونشره الاستاذ انيس المقدسي

صفحاته ٤١٢ ـ طبع بالمطبعة الامريكية ببيروت

تضم الجامعة الامريكية ببيروت نخبة من المؤرخين المحققين توفروا على دراسة الادب العربي والتاريخ الاسلامي دراسة جامعية مستمدة من الاسانيد والوثائق التي ينقبون عنها في المكاتب والمتاحف ، ويبذلون الجهد الناصب في تحقيقها ومراجعتها ونشرها على الناس

وفي مقدمة هؤلاء الباحثين المحققين الاستاذ انيس المقدسي استاذ الادب العربي في جامعة بيروت . وقد ساهم في اخراج هذه السلسلة بعدة اسفار منها جزآن كبيران يضمان ديوان ابن الساعاتي الذى عاش في النصف الثاني من القرن السادس الهجرى (١١٥٩ ـ ١٢٠٩ م) وهذا السفر الذى بين أيدينا هو الجزء الثاني من الديوان وهو يقع في نيف واربعمائة صفحة طبعت طبعا أنيقا دقيقا ، وقد قام الاستاذ بتشكيل كثير من حروف الكلمات ، كما شرح ما فيه من الالفاظ الغامضة شرحا موجزا وافيا

وهذا السفر مأخوذ عن نسخ خطية يرجع بعضها الى عهد الشاعر ، وأهم ما اعتمد عليه الاستاذ المحقق نسخة فريدة محفوظة في مكتبة جامعة بيروت . والذى يتأمل احدى صفحات هذه النسخة الخطية التي نشر رسمها في صدر الكتاب يدرك الجهد العظيم الذى بذل في تحقيق ألفاظ هذا الديوان الذى عفى عليه الدهر الطويل فابهمت بعض ألفاظه وتأكلت ألفاظ أخرى ، وصار الامر في حاجة الى مراجعة طويلة وتفكير كثير

وديوان ابن الساعاتي يمثل حقبة من تاريخ المشرق حافلة بلون من الحضارة والسياسة ينبغي لدارسها ان يرجع الى كتب الادب والشعر فهي خير مصور وأبلغ معبر ، كما يمثل لونا من الشعر فيه ضروب من الصناعة البيانية ونواح من طرق التفكير يلذ لدارس البلاغة ان يطالعها

أنا وهتلر

تأليف أوتو شتراسر

ترجمة الاستاذ عبد الحليم سليمان كساب

صفحاته ٢٣٢ ـ طبع بمطبعة المستقبل

اوتو شتراسر أحد أقطاب الحركة النازية الاوائل ، وأحد خصوم هتلر الالداء في الوقت الحاضر . لانه اشتراكي مخلص . أما هتلر فاتخذ الاشتراكية خديعة غرر بها الناس حتى أسلموه القياد ، ولانه أراد ان يسير بألمانيا وبالعالم سيرة السلام ، فأبى هتلر الا ان يقذف بشعبه وبالعالم كله في الحمم والنار

وفي هذا الكتاب يعرض شتراسر تاريخ علاقته بهتلر عرضا قصصيا يميط اللثام عن أسرار الحركة النازية وخفاياها . ومهما يكن ارتياب المرء فيما أورده المؤلف من الوقائع الا انه سيخرج بصورة واضحة عن هتلر وأعوانه الذين تلوثت ايديهم بكثير من دماء الابرياء ، وسيتبين

من خلاله اخلاق هؤلاء النفر الذين يديمون لانسانية صنوف العناء والعذاب

وقد صدر المترجم كتابه بكلمة وجيزة عن المؤلف، وعرضه عرضا انيقا في لغة سهلة واضحة

مسند عمر بن الخطاب

للامام يعقوب بن شيبة

درسه ونشره الدكتور سامي حداد

صفحاته ٢٣٨ ـ طبع بالمطبعة الاميركانية ببيروت

تحفة أثرية فى الحديث الشريف يرجع عهدها الى القرن الرابع الهجرى ، كتبت فى العراق وانتقلت الى الحجاز ومنه الى الشام ، ومرت على أيدى كبار الروة والحفاظ ، الى ان عثر عليها العالم الباحث الدكتور سامي حداد استاذ الجراحة بجامعة بيروت الامريكية ، فاشتراها حرصا عليها من الضياع وحملها الى مصر فأخذت لها دار الكتب صورة فوتوستاتية، ثم رأى تعميما لفائدتها بين علماء الحديث وطلابه ان ينشرها بعد ان درسها وبوبها وفهرسها مستعينا بنخبة من علماء المغرب ومصر والشام

هذه التحفة هى الجزء الذى أبقى عليه الزمن من المسند النفيس الذى ألفه المحدث البغدادى ابو يوسف يعقوب بن شيبة بن الصلت . وهو كتاب يعرف علماء الحديث قيمته الكبرى لان مؤلفه اتخذ ـ كما يقول الدكتور حداد فى ترجمته الدقيقة ـ « خطة خاصة فى مسنده لم يسبقه اليها أحد من علماء الحديث ، فانه رتبه على الاسانيد والعلل والبلدان وأفاض فى جرح الرجال وتعديلهم واستطرد لذكر ترجمة كل منهم واورد النوادر عنه وما انفرد به من الاحاديث وأورد الحديث الواحد بعدة متون »

وكما كان الامام ابن شيبة دقيقا فى تأليف كتابه. كان الدكتور سامي حداد مخلصا فى درسه ونشره ، بدليل هذه المقدمات الثمينة الوافية التى وصف فى الاولى منها المخطوطة الاثرية وترجم فى الثانية حياة المؤلف وخطة مسنده ، وترجم فى الثالثة حفيد المؤلف الذى روى الكتاب وأسلوب روايته ، وشرح فى الرابعة خطته فى تحرير النسخة وهى خطة علمية سديدة لانه أبقى الاصل المخطوط على ما فيه من الاغلاط الاملائية والنحوية دون التعرض الى تصحيحها فى الحاشية مع اثباتها مصححة فى جدول خاص بها فى آخر الكتاب

وأهم ما يشهد للدكتور حداد بالفضل الصادق هذه الفهارس الدقيقة التى ملأت مئة وعشرين صفحة ترجم فيها من ورد فى الكتاب من الرجال والنساء ترجمة وجيزة وافية ، وشرح فيها الالفاظ الغريبة ، وأورد فيها اسماء الاماكن والبلدان ، وبين فيها الاخطاء النحوية والصرفية والاملائية الواردة فى النسخة الخطية . ثم ذيلها بفهرس بالمراجع التى اعتمدها فى تحرير الكتاب

ومما يزيد من قيمة هذا الكتاب انه طبع طبعا انيقا على ورق صقيل . وقد قدمه صاحبا الفضيلة الشيخ محمد توفيق خالد مفتى لبنان والشيخ محمد أمين عز الدين قاضى البقاع . وانه لحرى بطلاب الحديث الشريف وعلمائه ان يطالعوا ويتفصوا هذا الكتاب النفيس

تشرشل

للاستاذ فؤاد صروف

عدد صفحاته ١٤٤ ـ مطبعة دار المستقبل

اذا أدى التاريخ عملا عظيما ، اذا انجب شخصية كاملة ، لم يعد على الكاتب الا ان يروى القصة ويسرد الوقائع مجردة من التخيل والتجميل فيأتى مقاله أو كتابه وافيا ممتعا مؤثرا

وهذه هى الخطة التى سار عليها الاستاذ فؤاد صروف فى ترجمة تشرشل ، فقد وجد أمامه بطلا من أبطال التاريخ : رجلا هتف باسمه جيلان من الرجال جيل الحرب الكبرى الاولى وجيل الحرب الكبرى القائمة ، رجلا اجتمعت له موهبة الزعامة

والسياسة الى جانب تفوق الفكر وتدفق البيان، رجلا يتولى أمر أخطر قضية فى حربها وكفاحها أرهب قوى الشر والعدوان ، فلم يجد المؤلف ان عليه أكثر من ان يقص تاريخ هذا الرجل منذ نشأته الى يومنا هذا دون ان يتكلف شيئا من التصوير والتهويل ، فاذا بكتابه نابض بالروح فى كل سطر من سطوره ، حافل بالحياة فى كل عبارة من عباراته

فهذه قصة تشرشل الجندى الشاب الذى خاض اربع حروب قبل ان يبلغ السادسة والعشرين . وهذه قصة تشرشل السياسى الذى لا يداور ولا يراوغ بل يحارب جهارا بالرأى الثاقب والخطبة العنيفة فينتصر وينهزم ولكن وطنه الاعلى يكسب المعركة دائما ، وهذه قصة تشرشل المؤلف الذى يصف الحروب والمعارك ويترجم القواد والساسة ويعالج مشاكل السياسة برأى يفيض صراحة وجرأة ، وهذه قصة تشرشل الاديب والخطيب الذى تعد عبارته البليغة من أروع آثار النثر فى الادب الانجليزى الحديث ، ثم هذه قصة تشرشل بطل بريطانيا ورجل الديموقراطية الذى يرى الاعداء أمامه ينقضون كالصواعق والحلفاء يتهاوون تحت المطارق فلا يساوره اليأس ابدا بل يقول : خطتى هى الحرب وهدفى هو النصر ، وليس عندى ما أقدمه اليوم الا الدم والعمل والعرق والدموع ...

ان كتاب الاستاذ صروف قصة فترة من أحفل فترات التاريخ ، محورها رجل مفرغ فى قالب الابطال ، فلنقرأ فيه قصة الزعامة الملهمة والشعوب المكافحة والجهد فى سبيل المبادىء والحريات

مكتوب على الجبين

للاستاذ محمود تيمور

صفحاته ٢٣٢ ـ طبع بمطبعة المعارف

أبرز ما يتميز به قصص الاستاذ محمود تيمور ويتضح على أوفاه فى هذه المجموعة الاخيرة ، ثلاث ميزات :

ان منطق الحياة يبدو فيما تسوقه من الوقائع وترسم من الاشخاص . فالقارىء لا يصطدم فى اثناء القصة بشىء غير مألوف ينبو عنه المنطق أو الذوق . ولا يتأتى هذا ـ اذا أراد الكاتب ان يرسم الصورة كاملة دقيقة ـ الا اذا كان بارعا فى تصوير نوازع النفس وضمائرها . فيغنيه تتبع خلجاتها وافكارها عن تكلف المواقف والابطال

وان القارىء يتهيأ له فى اثناء القصة وفى نهايتها مراد فسيح للتخيل والتفكير . فليست القصة مشروحة مكشوفة فلا تبقى أى داع لفطنة القارىء ، بل فيها كثير من الجوانب المتروكة لخيال القارىء يرتادها ويكتشفها ويستشعر من ذلك كثيرا من المتاع . ولهذا لا نظن ان قصص الاستاذ تيمور تلذ لاوساط القراء ممن لا يحبون من القصص ان يكلفهم ويرهقهم بشىء من التخيل والتفكير ، فضلا عن خلوها من العقد والمواقف المثيرة . وانما يحب هذا اللون من القصص من كان على حظ من الثقافة يحب ان يستغله فى تكملة جوانب القصة وادراك ما ترمى اليه من معان . لا يذكرها الكاتب صراحة بل يشير اليها تلميحا

والميزة الثالثة هى اسلوب الاستاذ تيمور ، فهو سهل واضح ، مشرق الديباجة انيق العبارة وهذا من خير ما يؤدى للغة العربية التى عزف عنها أكثر قصصيينا بدعوى انها لا تسعفهم ولا تريحهم ، فاذا خرج الاستاذ تيمور بهذه القصص الحافلة بألوان التحليل النفسى وألوان التصوير للظواهر وللسمات ، كان ذلك خير دفاع عن العربية

وهذه الميزات الثلاث بارزة فى مجموعته الاخيرة التى تضم اربع عشرة قصة طالع قراء « الهلال » بعضا منها . وقد صدر الكتاب بمحاضرة القاها المؤلف عن «فن كتابة القصة» شرح فيها الخطوط الرئيسية التى يجب ان يعرفها ويدرسها ويسير عليها من يريد كتابة القصة أو الرواية

بين الهلال وقرائه

يأجوج ومأجوج

(القاهرة) عزيز خانكى بك

هل يسمح لى الاستاذ الفاضل ان استفتيه فى أمر ذى القرنين وفى أمر يأجوج ومأجوج الوارد ذكرهم فى سورة الكهف ؟ ان الوصف الذى ورد فى سورة الكهف لا ينطبق ابدا على الاسكندر المقدونى . فمن هو اذن ذو القرنين ؟ وقد بحثت فى كتب التاريخ القديم فلم اعثر على قوم يأجوج ومأجوج ، فمن هم ؟ واين كانوا ؟ وما الاسم الحالى لبلادهم ؟

(الهلال) موضوع قوم يأجوج ومأجوج شغل الاذهان من قديم الزمان ، وكل ما بين الاسكندر المقدونى وذى القرنين الوارد ذكره فى سورة الكهف من التشابه هو ما روته الكتب التاريخية من ان الاسكندر لما فتح مصر اراد ان يتقرب الى المصريين وان ينهج نهج ملوكهم فى زعمهم الانحدار من اصلاب الآلهة أو اتخاذ مظاهر القدسية الربانية ، فوطد العزم على ان يستعين ببعض الكهنة فى انتسابه الى الاله امون رع — وكان له معبد كبير فى واحة سيوه لاتزال انقاضه باقية الى الآن . وسافر فعلا الى هذه الواحة مع طائفة من عسكره وقواده ، ودخل المعبد واستنطق سادنه ، فنطق السادن بان الاسكندر هو من نسل امون رع . ومن ثم اتخذ الابن شعار « ابيه » وهما القرنان الذهبيان

ويقف بحث المؤرخين عند هذا الحد . فما ثبت تاريخيا ان الاسكندر المقدونى قد بنى سورا ليحول به بين قوم يأجوج ومأجوج ، وتاريخه كما رواه معاصروه يكاد لا يترك كبيرة ولاصغيرة الا أوردها كأننا نقرأ حادثا وقع بالامس

ولعل الاستاذ يوافقنا على ان الابحاث التاريخية — وبخاصة القديمة منها — لم تستكمل بعد ، وكل ما توصل العلماء اليه حتى الآن لا يعدو بعض الحلقات التى جلتها الحفريات الاثرية ، ولا شك ان موالاة البحث ستجلو كثيرا من غوامض العصور القديمة . ولمؤسس الهلال المرحوم جرجى بك زيدان بحث فى هذا الموضوع تجده فى المجلد الثانى بصفحة ٦٨٨ وفى المجلد السابع بصفحة ٥٢١ من الهلال

ونعتقد نحن ان مثل هذا الموضوع يقتضينا اولا البحث عن آثار هذا السور العظيم . ثم تاريخ القوم الذين عاصروه ، وسير ملوكهم ان كان هذا مستطاعا بما بين ايدينا من وسائل محدودة

ونحب ان نشير هنا الى ان فريقا من علماء التاريخ القديم لا يقرون النظرية التى تقول بان المدنية المصرية هى اقدم المدنيات ، فقد اتجهت الحفريات اخيرا الى بلاد الشرق الادنى وبخاصة ما بين النهرين واثبتت وجود مدنيات هناك سابقة لمدنية قدماء المصريين . واذا صحت النظرية القائلة بان مهد الانسانية الاولى كان فى غرب آسيا ، فلا يبعد ان بلادا كالصين كانت لها ايضا مدنيات عريقة فى القدم . ولا يبعد ابدا ان يكون سور الصين العظيم بشكله الراهن قد بنى على آثار سور اقدم منه هو الذى ورد ذكره فى سورة الكهف . ولعل فى قواميس اللغة الصينية أو غيرها من اللغات الاسيوية نبأ عن معنى كلمتى يأجوج ومأجوج ، او لعل علماء الاجناس البشرية يهتدون بابحاثهم الى جنسين من الاجناس الاسيوية عرفا بهذين الاسمين

معنى « افندى »

(القاهرة) يوسف حسنى

ما معنى كلمة « افندى » ؟ وهل هى عربية أم تركية ؟

(الهلال) « افندى » كلمة رومية الاصل دخلت فى اللغة التركية من عهد قديم . ومعناها المولى أو السيد أو الخوجه أو رب العلم والقلم . وقد شاع استعمالها مع لقب « اغا » فالاغا هو السيد وهو الرئيس ولا يشترط فيه أن يكون من العلماء او القارئين . أما « الافندى » فيشترط فيه العلم أو القراءة والكتابة . والمصدر المشتق من كلمة « افندى » وهو « افنديلك » فيه كل معانى اللطف والاحسان والكرم . وقد جاء وقت على السلطنة العثمانية كان ولى العهد فيه يحمل لقب « افندى »

(ومنه أيضا)

الدبابة : هل عرفها العرب ؟

هل حقيقة عرف العرب الدبابة فى حروبهم القديمة ؟

(الهلال) نعم عرف العرب فى حروبهم ما كانوا يسمونه « دبابة » وان تكن دبابتهم من نوع آخر طبعا . ولعل الفكرة فى اختراع الدبابة العربية القديمة هى التى املت اختراع الدبابة الحديثة . فالغرض من الدبابة حماية الجنود ليصلوا الى خطوط العدو دون التعرض للحصد من جانبهم . فكما اخترعت الدبابة الحديثة بحيث تحمى الجنود فيما يشبه القلاع من الحديد المصفح ، اخترع العرب غطاء كبيرا من الجلد السميك أو غيره من المواد الصلبة يضعونه فوق رؤوس الجنود عند مهاجمة اسوار الحصون تفاديا من سهام العدو او نيرانه التى يلقيها عليهم . وتحت هذا الغطاء « يدب » الجنود حتى يبلغوا جدار الحصن ويشرعوا فى هدمه أو محاولة تسلقه . ويجد القارئ انباء عن هذه « الدبابات » فى كتب السيرة ونخص بالذكر منها الجزء الثالث من السيرة الحلبية تأليف على بن برهان الدين الحلبى عند الكلام عن فتح الطائف . كما يجد نماذج للدبابة القديمة فى المتحف الحربى بالقاهرة

هل عادت بنا الحرب الى عهد الهمجية !

(القاهرة) م . س .

هل عادت الانسانية بهذه الحرب المدمرة الى عهد الهمجية الاولى ؟

(الهلال) نحن لا نميل الى كلمة « همجية » فالمسألة مسألة تنازع البقاء بين الشعوب ويقظة الغرائز التى يعبر عنها هربرت سبنسر بانها من مستلزمات الحياة . وبان الانسان لكى يحافظ على كيانه يجب ان يكون « حيوانا كامل صفات الحيوانية »

ولقد عادت بنا هذه الحرب الى العصور القديمة بتلك الظاهرة التى يعبرون عنها بالحرب الشاملة La guerre totale فالحروب فى عالم البداوة كانت شاملة بهذا المعنى الحديث . فكان جميع افراد القبيلة يشتركون فى القتال — حتى النساء والاطفال — وكان الانهزام معناه القتل العام أو الاستعباد وسبى النساء والاولاد . وكان كل فرد فى القبيلة يشعر دائما بانه مهدد . وقد انتفت هذه الظاهرة فى القرون الوسطى ومطالع العصر الحديث بالجيوش المرتزقة او النظامية التى عهد اليها فى الدفاع وظل سائر المدنيين فى مأمن من العدوان والتدمير وانحصرت الحروب فى خطوط القتال . فلما جاءت هذه الحرب لم تعد ثمة خطوط قتال بل اصبح العالم باسره ميدانا لها . والمدنيون اصيبوا بويلاتها كالمحاربين . وشعر كل فرد بانه مهدد فى منزله ، فى محل عمله ، فى حقله ، وفى كل مكان . ومن ثم عدنا الى عهد البداوة الاولى بهذا المعنى الذى شرحناه . وجاءت آلات الحرب الميكانيكية ضغثا على ابالة ، وان تكن وسائل الدفاع مما يخفف من ويلاتها

لماذا غير هتلر رأيه ؟

(القاهرة . محمد حسن)

قرأت في عدد الهلال الخاص « الانجليز » مقالا عن رأى هتلر فى الشعب الانجليزى وادهشني ان يقول فيهم ما قال ، وبخاصة رأيه فى وجوب التقرب الى الانجليز والعمل على تجنب كل ما من شأنه الاصطدام بهم فى مجالهم الحيوى فيما وراء البحار ، والتوسع فى القارة الاوربية على حساب الروسيا . والشيء الذى حيرني هو : لماذا كتب هتلر رأيه هذا ثم عدل عنه فى حربه الراهنة ؟ واذا كان عدل عن رأيه قبيل الحرب فلماذا لم يسجل عدوله هذا فى الطبعات الاخيرة من كتابه « ماين كامف » ؟

(الهلال) الواقع ان رأى هتلر فى الشعب البريطانى كان من اروع ما كتب عنه فى العصر الحديث . وقد كتبه هتلر بكل صراحة فاثنى على مواهب الانجليز وامتدح اخلاقهم وبين نواحى القوة والضعف فيهم بقلم الدارس الخبير . وقد ترجمناه عن نسخة انجليزية ترجمت بدورها عن آخر طبعة المانية لكتاب « ماين كامف »

اما لماذا عدل هتلر عن رأيه فى حربه مع الانجليز فهذا ما قد تسفرعنه الدراسات التاريخية بعد الحرب العالمية الراهنة . فقد يثبت عند ذاك ان هتلر تعمد ان يذكر ما ذكره بقصد التمويه وصرف انظار الانجليز عن استعداداته الحربية واتجاهات نشاطه الدبلوماسى والحربى . وقد يظهر انه كان يعتقد بصواب نظريته ولكن مجريات الحوادث غيرت من اتجاه افكاره ، أو ان هيئة اركان الحرب البروسية هى التى فرضت وجهة نظرها الحربية على حزب النازى واقنعته ان لاقيمة لاى نصر فى القارة الاوربية ما لم يقهر العدو الاكبر ، وهو بريطانيا

ويجب الا ننسى ان هتلر أتم تأليف كتابه فى سنة ١٩٢٤ — أى قبل وصوله الى الحكم فى ألمانيا بحوالى عشر سنوات . فيجب ان ننظر اليه ككتاب وضع قبل تجارب الحكم وفى ظروف خاصة لم تكن المانيا تحلم فيها بما بلغته من القوة بعد ذلك . ولم يثبت ان هتلر عدل اقواله فى الطبعات التالية من « ماين كامف » لانه يعد كتابه بمثابة البرنامج السياسى والحربى الذى كافح من أجله وتربع على دست الحكم لتنفيذ ما يقدر على تنفيذه

طبقة الاغنياء

(أم درمان . السودان) عليش محمدعبدالماجد

١ — لماذا كانت طبقة الاغنياء اقلية فى كل العصور ازاء طبقة الفقراء ؟

٢ — هل تعرف قلوب الاسماك الحب كما يعرفه سائر الحيوانات ؟

(الهلال) عن السؤال الاول : يرجع الاقتصاديون هذه القلة الى اسباب متعددة اهمها نظام الرأسمالية بعيوبه الكثيرة وانانيته واستئثاره بعناصر الثروة الاساسية فى مختلف العصور

والثروة — اذا بحثناها من ركن آخر غير الركن الاقتصادى — ليست الا علامة من علامات الامتياز والتفوق . لذلك كان الاغنياء قلة . كما ان العلماء والزعماء والمستكشفين ومن اليهم من النوابغ والافذاذ قلة ايضا

وعن السؤال الثانى : ما نظن ان الاسماك وسائر الحيوانات تعرف الحب بمعناه الانسانى الذى يتخذ فيه الذوق الفنى مكانا الى جوار العاطفة والشعور . أو لعل العاطفة ليست الا مزيجا مركبا من كل اولئك مع غريزة البقاء والتناسل . انما نرجح ان ما عند الحيوانات مما قد نسميه اصطلاحا بالحب ليس الا تلبية لغريزة البقاء فحسب . والمعروف عن معظم الحيوانات انها لا تأتلف الا فى مواسم تلبية النداء الجنسى .

فاذا كان هذا شأن الحيوانات — وجلها تعرف اولادها وتربيها وتحدب عليها حتى تكبر وتشتد، فكيف تكون حال الاسماك التى تضع بيضها ثم لا تعرف مصيره بعد

جوبلز

(اسيوط) م. ن.

ارجو ان تذكروا كلمة وجيزة عن داعية الالمان الدكتور جوبلز

(الهلال) الدكتور جوزيف جوبلز هو وزير الدعاية الالمانية ، المسيطر كل السيطرة على كل ما فى ألمانيا من وسائل النشر والدعاية ، وهى الصحافة والاذاعة والسينما والتمثيل الخ. وهو فى الخامسة والاربعين من عمره ، وقد بدأ حياته صحفيا أديبا ولكنه لم يوفق لا فى الادب ولا فى الصحافة ، رغم انه يحمل درجات علمية راقية نالها فى مطلع شبابه

ثم انضم الى هتلر فى بدء حركة النازى ، ولكن لم تسند له مهمة الدعاية الا بعد ان نضجت الحركة وذاع صيتها ، اما فى بدء الامر فقد اختص هتلر نفسه بالدعاية التى يعد أكبر اساتذتها حقا ، كما يتضح من الفصل الدقيق الذى كتبه عنها فى « كفاحى » وهو من غير شك أدق وأوفى فصول الكتاب

وقد أغدقت ألمانيا الاموال الجمة على الدعاية لانها ادركت أثرها الخطير فى الحرب الماضية حين حطمت دعاية الحلفاء روح الشعب والجيش على السواء . فتبلغ الآن ميزانية وزارة الدعاية الالمانية عشرين مليونا من الجنيهات ينفق اكثرها خارج ألمانيا حيث ينبث دعاتها فى شتى الاقاليم ، ولا سيما فى دول أوربا والشرق الادنى وامريكا الجنوبية والشمالية

ويرجع الى جوبلز فضل كبير فى نجاح النازية فى ألمانيا . فقد بذل مجهودا جبارا فى انتخابات سنة ١٩٣٣ التى اولت هتلر زمام الحكم . وهو يسيطر الآن على العقلية الالمانية الناشئة سيطرة مطلقة ويوجهها الى حيث يريد ببراعة غريبة وقد عرض تاريخه وجهوده ومهمته فى كتاب شائق اسمه « نصيبى فى كفاح ألمانيا » وفيه يقول تلخيصا لاسلوبه : « ان الدعاية لا تبحث الحق المطلق وانما عن الحق الذى تراه »

ويرى كثير من الكتاب السياسيين انه الرأس المفكر وراء هتلر ، وانه اخطر رجل فى أوربا بما يبثه من دعايات مغرضة ومما يشنه من حروب الاعصاب

هواية التصوير الشمسى

(الاسكندرية — عبد المنعم العطار)

هل فى مصر جمعية لهواة التصوير الشمسى ، وما عنوانها ، وهل تقيم معرضاً سنويا ؟

(الهلال) توجد جمعية لهواة التصوير الشمسى فى القاهرة ومركزها مبنى جمعية محبى الفنون الجميلة ٢٤ شارع الحوياتى (سراى البستان) بمتحف الفن الحديث . وهى تقيم معرضا سنويا للصور المنتقاة من تصوير اعضائها من هواة التصوير الشمسى . وقد عرضت معروضاتها بمتحف الفن الجميل فى أواخر يناير المنصرم فاتصلوا بها بعنوانها المذكور

خنافس مضيئة

(بيروت — جوزيف ابراهيم فياض)

عندنا فى لبنان خنافس صغيرة تدعى « الحباحب » تظهر من نيسان (ابريل) الى حزيران (يونية) وتضىء فى الليل . فما هو السبب الذى يجعلها تضىء ؟

(الهلال) هذا النوع من الخنافس كطائفة أخرى من الحشرات تضىء ليلا ، لان على حراشيف جلدها طبقة من الفسفور الذى يتألق فى الظلام فتبدو الحشرة فى الليل كأنها قبس من النار

لماذا كان البدوى شاعراً

(ومنه ايضا)

هذا البدوى الذى تفتحت عيناه للوجود لم ير سوى الرمال المحرقة والعبس تمد اعناقها من نشوة الحداء . . ما هذه القوة التى اوحت اليه ان يأتينا بتلك الاشعار الرقيقة الصافية ؟

(الهلال) ان هذا الذي وصفت هو سبب هذه الرقة ومصدر ذلك الصفاء . فالشعر من الشعور ، صفاء النفس يعبر عنه الانسان الشاعر بكلام موزون مقفى اذا ما انطبعت صورة جميلة أو لمحة خاطفة أو عاطفة من العواطف على مرآة النفس الصافية . وكلما كان المحيط صافيا حسن الشعر وصفا وسما الى درجة اعلى من الكلام العادي . والمعيشة الصحراوية كما تعلم تمتاز بالصفاء والبساطة ورفع الحجب بين الناس وجمال الطبيعة

الفصول المناخية والحيوانية والنباتية

(ومنه ايضا)

من الحيوانات ما يلد في اوقات معينة من السنة ومنها ما يلد في كل وقت . وكذلك الاشجار كل نوع منها يثمر في فصول من السنة لا يثمر في سواها . فبماذا تعللون ذلك ؟

(الهلال) الواقع ان دورة فصول السنة لا تقف عند حد الربيع والصيف والخريف والشتاء ، بل ان للمملكتين الحيوانية والنباتية فصولها ايضا . والمتأمل في حكمة خالق الاكوان ينبهر من تتابع هذه الفصول وارتباط بعضها ببعض فما يشذ منها فرع عن اصله وما تتأخر زهرة عن الانبثاق في موعدها يوما واحدا ولا ساعة ولا دقيقة ..

وحكمة توالد بعض الحيوانات في اوقات معينة هي فيما تهيئه لها الفصول المناخية والنباتية من مقومات الحياة ، كالدفء حتى لا يموت الحيوان أو يمرض ، وانبات الاعشاب لتتوافر في الاثداء الالبان ، الى غير ذلك مما يجعل التوالد في فصول معينة أمرا معقولا . اما الحيوانات التي لا تتقيد بفصل معين في التوالد فلا بد أن لديها مقومات الحياة في مختلف فصول السنة أو ان فيها مناعة طبيعية ضد البرد القارس أو القيظ الشديد

وفي المملكة النباتية تورق الاشجار وتثمر في اوقاتها تبعا لانتظام الدورة المناخية وتطورها من برد الى حر ومن جفاف الى رطوبة في اوقات معينة كذلك

القرمطة والشيء المقرمط

(بغداد — العراق) مشترك

ما معنى القرمطة في اللغة ؟

وماذا يقصد بقولهم « شيء مقرمط » ؟

(الهلال) رجعنا الى لسان العرب وتاج العروس وجمهرة اللغة لابن دريد فاذا القرمطة مداناة الخطو ومقاربته . ومنه قرمطة الكتاب . والقرمطة في الخط مقاربة السطور أو دقة حروف الكتابة . وقرمط الكاتب اذا قارب بين كتابته فاصبح من المتعذر قراءتها . ويقال مشي مقرمط وخط مقرمط . ومن ثم ظهر نوع من الخطوط العربية يسمى « الخط المقرمط » وهو خط متعدد الزوايا يميل الى الاشكال الرسمية الهندسية . وقد قيل لذلك انه مشتق من الخط الكوفي . وكان يستعمل في التحرير في عصر الامويين واوائل العصر العباسي . وانتقل الى المغرب والاندلس وكان له هناك طور جديد ازداد فيه الميل الى الزخرفة ظهورا . ولعل اسم القرامطة أو قبيلة قرمط أو قرية قرمط في العراق ظهر من صفة « القرمطة » التي لا يبعد اتصاف زعيم هذه الحركة بها، فقد قرأنا ان مشيه كان «مقرمطا» أي متقارب الخطو ..

***

جاءنا من « قارىء » بدمشق ان حضرته لاحظ اغفالنا ذكر بعض اسماء الصحف والمجلات العربية في مقال « الصحافة العربية في مختلف الاقطار » الذي نشرناه في عدد الهلال الخاص « العالم العربي والحرب » . ونحن نشكر لحضرته اهتمامه ونذكر اننا في هذا المقال لم نقصد حصر جميع الصحف العربية وانما اتينا ببعض اسمائها على سبيل المثال

الدبلوماسية الانجليزية

ونشاطها في هذه الحرب

بقلم الاستاذ عباس محمود العقاد

إن نشاط الديبلوماسية البريطانية فى الحرب الحاضرة لهو نشاط محكوم بقوانين وحقائق تساعده كما تحد منه وتثنيه وليست وظيفته تغيير تلك القوانين والحقائق بالدعوة أو الارهاب بل وظيفته الاولى إبراز تلك القوانين والحقائق والانتفاع ببروزها لمن يعنيهم أن يفهموها

تقوم الدبلوماسية الانجليزية على قاعدتين لا تتغيران بتغير الحكام ولا بتغير الأحوال . وهما « أولا » ضرورة المحافظة على المواصلات الامبراطورية ولا سيما مواصلات البحار ، و « ثانياً » ضرورة الوقوف فى وجه كل طغيان يسيطر على القارة الاوربية

ومن أجل القاعدة الاولى وهى المحافظة على المواصلات الامبراطورية أو المواصلات العالمية على وجه التعميم لزمت بريطانيا العظمى سياسة بحرية لم تعدل عنها الا فى الزمن الأخير ، وهى سياسة الاستعداد بأسطول حربى يساوى أكبر أسطولين فى العالم مجتمعين . ثم دعاها الى العدول عن هذه السياسة أنها أوشكت أن توقع النزاع بينها وبين الدول الاخرى التى تطمح الى المزيد من القوة البحرية ، ومنها الولايات المتحدة التى يضطرها امتداد شواطئها الى تكبير أسطولها ، والتى لا يخشى من تكبير أسطولها خطر قريب على الدولة البريطانية

ولم يكن هذا كل السبب فى العدول الاخير عن تلك السياسة . بل كان الى جانبه سبب آخر هو امتياز الدولة البريطانية بالقواعد البحرية المبثوثة فى أرجاء العالم ، وهى مزية من مزايا الرجحان لا تتيسر لدولة أخرى كائناً ما كان أسطولها من الضخامة وكثرة الاجزاء

والقاعدة الثانية التى تقوم عليها الدبلوماسية البريطانية ولا تتغير فى عهد من المعهود هى

مقاومة كل طغيان يتغلب على القارة الاوربية ويخل بالتوازن الذى لا بد منه لاستقرار السياسة العالمية ، ومن أجل هذه القاعدة وقفت بريطانيا العظمى موقف الحذر من أسبانيا وفرنسا وألمانيا على التعاقب ، وستقف هذا الموقف بعينه مع كل دولة تفرض مشيئتها فرضاً على أوربا بأسرها وعلى العالم من ورائها ، ولا تصادف من المقاومة ما يثنيها عن الجموح والاستعلاء

أما فيما عدا هاتين القاعدتين فالدبلوماسية البريطانية تتغير على حسب الاحوال والازمان ، وتتوخى الانتظار على الاغلب الاعم ولا تحب أن تسبق الحوادث أو تجرى مع الظنون . ويهيء لها أسباب الانتظار والتأنى أمران قد أفاداها حتى الساعة فى جميع الازمات والتقلبات ، وهما موقع الجزر البريطانية الذى لا يهدده هجوم عاجل ولا يمنع الحكومة القائمة أن تستعد فى الوقت الملائم ، ثم الامر الآخر الجدير بالتوكيد هو اتفاق المصالح بين بريطانيا العظمى وبين طائفة كبيرة من الدول العظام والدول الصغار فى إبان الحروب والقلاقل التى تنذر العالم بخطر جسيم

ففى أيام السلم يحدث الخلاف بين كل دولة من دول العالم وبين بريطانيا العظمى كما يختلف المتعاملون فى كل مجال ، بل يحدث من بعض الدول أن تفضل من ينافسون بريطانيا العظمى بعض التفضيل مادامت المسألة لا تتناول الخطر الاكبر ولا تنتهى الى المرحلة الاخيرة . أما اذا وقعت الواقعة فالمشاهد حتى الساعة أن اتفاق المصالح البريطانية والمصالح العالمية أقرب كثيراً من اتفاق منافسيها فيما بينهم أو من الاتفاق بين هؤلاء المنافسين جملة وسائر الدول المتصلة بموضوع النزاع

وهذه الحقيقة هى أكبر أعوان الدبلوماسية البريطانية وان تأخرت فى اغتنام الفرص أو آثرت الصبر والانتظار

خذ مثلا لذلك دولتين إحداهما كبيرة تضارع انجلترا فى قوتها ومواردها وهى الولايات المتحدة ، والاخرى صغيرة لا تستطيع القيام على قدميها بغير معونة : وهى يوغوسلافيا

فقد بدأت الحرب الحاضرة وكل أمريكى يحذر الدنو منها ويود الابتعاد عنها . وينبغى أن نعلم أن الامريكى حين يحذر الحرب فانما يحذر الحرب فى صف الدولة البريطانية وحلفائها ، لأن دخول الحرب فى صف الالمان تقدير لا يخطر لأحد على بال ولو كان من غلاة النازيين فالأمريكيون على هذا الاعتبار كانوا على حذر من الدبلوماسية البريطانية ولم يكونوا على

حذر من الدبلوماسية النازية أو الفاشية ، وكانت هناك عوامل شتى تضاعف هذا الحذر بالاساليب المصطنعة والدعايات الخفية . ومنها كثرة الامريكيين المنحدرين من السلالة الجرمانية وكثرة الشركات التى يساهم فيها هؤلاء الامريكيون الجرمانيون

فاذا اتجهت حكومة الولايات المتحدة واتجه الجمهور الأمريكى معها بعد ذلك الى مساعدة بريطانيا العظمى وحلفائها فهذا فوز عظيم فى وجه عقبات عظام وليس بالفوز السهل المتروك للمصادفات ، وانما الفضل فيه لحقيقة لا شك فيها : وهى اتفاق المصالح البريطانية والمصالح العالمية فيما يرجع الى الولايات المتحدة على التخصيص والى الامم الأمريكية كافةً على التعميم ، ثم للحقيقة الأخرى التى لا شك فيها كذلك وهي كياسة الدبلوماسية البريطانية فى علاج المسألة كلها بين الأمريكيين . فقد نجحت هذه الدبلوماسية فى التزام الحيدة والوقار حتى أبعدت عنها الشبهات والظنون وخيلت الى المراقبين للاحوال هنالك أن الدبلوماسية البريطانية غائبة عن معترك السياسة ومضطرب التيارات المتعارضة فى الولايات المتحدة ، وانقلب نشاط النازيين فى ميدان أمريكا بأسرها وبالا عليهم وموجباً لسوء الظن بهم والنفور منهم ، وضاع عليهم ما بذلوه من جهود وأموال

والمثل فى شأن يوغوسلافيا أوضح وأقرب الى الدلالة على ما تستفيده الدبلوماسية من اتفاق المصالح بينها و بين الامم البعيدة والقريبة

فيوغوسلافيا أشبه بجزيرة محورية لاحاطة الألمان والطليان وصنائعهم بها من أكثر الجهات ، وتجارتها مع الالمان والبلاد التابعة لهم أكبر من تجارتها مع سائر البلاد مجتمعات ، لأنها بلاد ملاصقة لها ميسرة الملاحة النهرية فى تخومها ، وهى فوق هذا وذاك عسكرية النزعة يميل العسكريون فيها الى العسكريين بحكم الزمالة واتفاق المزاج . وعندها من الشواغل الداخلية ما يضطرها الى مسالمة الاقوياء الرابضين على أكتافها والاستجابة الى ما يطلبونه منها ولو جاوز الطاقة وبلغ مبلغ الاعنات

ومع هذا فشلت الدبلوماسية النازية فيها ولجأت الى السلاح الذى كان فى وسعها أن تلجأ اليه بغير سفراء و بغير وزراء

وليس أدل من هذا المثل على مقدار ما تستفيده الدبلوماسية التى تعتمد على اتفاق المصالح وان عاكستها العوامل القوية و وقفت فى سبيلها مرجحات الخصوم موقفاً يحسب له كل حساب

هدد النازيون وزيراً رومانياً يعارضهم فى سياسته فقالوا له ان انجلترا لا تسعفكم فى

الحرب فماذا ينفعكم من صداقتها ؟ فكان جواب الوزير الرومانى : « نعم إنها كذلك ، ولكنها تنفع فى مؤتمرات الصلح وأوقات السلام »

وهذه الحقيقة أكبر أعوان الدبلوماسية البريطانية وأكبر كافل لها بتصحيح أخطائها واستدراك سهواتها ، ولا تحتاج معها الى عمل أكبر من المراقبة والتوجيه ومن الكياسة فى الظهور بمقدار والاحتجاب بمقدار ، وقد ينقدها الناقدون كثيراً وهي ولا شك عرضة لضروب شتى من الانتقاد ، ولكنها لو نهجت غير هذا النهج لما سلمت من النقد ولا ظفرت بنجاح أنفس مما تظفر به الآن !

فليس فى وسع أحد أن يزعم أن نجاح النازيين ــ ذلك النجاح الحربى ــ انما كان استفادة من أخطاء الدبلوماسية البريطانية فى مسائل القارة الأوربية ، فان كل عمل كانت تعمله بريطانيا العظمى فى بولونيا أو الدنمرك أو بلجيكا أو البلقان لم يكن ليحول بين الجيوش النازية وما أصابته من نجاح ، ويتساوى فى هذه العاقبة ما يزعمه الناقدون خطأ وما يقررون اليوم انه لباب الصواب

ان نشاط الدبلوماسية البريطانية فى الحرب الحاضرة لهو نشاط محكوم بقوانين وحقائق تساعده كما تحد منه وتثنيه ، وليست وظيفته تغيير تلك القوانين والحقائق بالدعوة أو الارهاب ، بل وظيفته الأولى إبراز تلك القوانين والحقائق والانتفاع ببروزها لمن يفهموها ، ولولا اتفاق المصالح لما وصلت الدبلوماسية البريطانية الى شيء يستحق العناء . فهى تنشط بمقدار ما تحفزها الى النشاط ضرورة المراقبة والتوجيه ، وهى لو جهدت فوق هذا الجهد لما وثقت من نجاح أكبر من نجاحها اليوم ، وان جاز أن تخدمها بعض المصادفات فقد يجوز كذلك أن تأتى المصادفات بما ليس فى الحسبان

عباس محمود العقاد

التعليم الجامعي

بقلم الاستاذ محمد شفيق غربال

الوكيل المساعد بوزارة المعارف

الغرض الاصلي من انشاء الجامعات ـ كيف نشأت الجامعات ـ

نشأة الدراسات الجامعية ـ الجامعات والحياة الفكرية ـ

الثورة الفرنسية والجامعات ـ نابليون والتعليم الجامعي ـ

الجامعة والمدارس العالية ـ التعليم الجامعي في مصر

يظن الكثير من الناس أن التعليم الجامعى الصورة الوحيدة لتنظيم التعليم العالى ، والواقع أن الأمر ليس كذلك ولم يكن يوماً ما كذلك ، ويظنون أيضاً أن الجامعة معهد يعلم فيه المعلمون جميع فروع المعرفة التى يطلبها الناس فى زمن ما ، وهذا أيضاً وهم لعل أصله ما يفهمه الناس من الكلمة الافرنجية التى اصطلحنا على تأديتها « بالجامعة » والكلمة الافرنجية كما سنرى استخدمت أولا للتعبير عن مدلول لم تكن له فى أول الأمر علاقة محتومة بالعلم ولا بالمتعلمين . ويتوهم كثير من الناس أن الجامعة قامت فى الأصل لتنهض بالدراسات العليا لذواتها ، وهذا أيضاً لا يطابق الواقع . فقد أنشئت الجامعات لتمد الملوك والكنيسة والحكومات والأمم برجال الدين والتعليم والقانون والطب . ويميل الناس الى الاعتقاد بأن الجامعة معقل الثورة على القديم ، ويحبها بناء على ذلك قوم ويكرهها آخرون . وتاريخ الجامعات لا يدل على شىء من ذلك ، بل هو على نقيض ذلك يدل على كونها كانت أكبر ميلا الى المحافظة منها الى التجديد . وحقيقة الأمر فى هذا وفى غيره من شئون التعليم الجامعى أن بين الجامعة والمحيط الذى نعيش فيه ارتباطاً وثيقاً ، فهى تزدهر بازدهاره ، وتجمد بجموده ، بل قل إن خلق الجامعة نفسه يحدث تبعاً لمقتضيات الحياة الاجتماعية لقوم من الناس وان تطور الجامعة يجرى طبقاً لتطور حياة القوم

كيف نشأت الجامعات

والجامعة كما نعرفها اليوم من انشاء العصور الوسطى فى المجتمع الأوربى والمجتمع الاسلامى ،

وهى مما خلفته لنا بغداد والقاهرة وقرطبة وبولونيا وباريس واكسفورد لا مما ورثناه عن أثينا والاسكندرية وروما ، وقد يبدو غريباً أن اليونان والرومان بالرغم مما بلغوه فى الفلسفة والقانون لم ينظموا تعليمهم العالى تنظيما جامعياً ، بل اقتصر الامر عندهم على التفاف الطلاب حول أستاذ ذائع الصيت ، أو على إنشاء معاهد للابحاث العلمية قد يؤمها الطلاب ، دون أن يكون الغرض الأول من المعاهد تعليمهم . ولنا أن نتصور حواراً سقراطياً ممتعاً يدور ــ مثلا ــ على الاجازات الجامعية وعلى ما ينبغى أن تكسب أصحابها من حقوق !

لم يخلق الرومان واليونان الجامعات لأن حياتهم الاجتماعية لم تقتض عيشة الفرد فى كنف الجماعات الصغرى ، بل كان سلطان الدولة شاملا نافذاً ، أقوى من أن ينمو فى ظله أى سلطان مصغر ، وهو كفيل بحماية الجميع . أما العصور الوسطى فى الغرب والشرق على السواء فانها كانت زمن شدة وعنف ، اندثرت فيها المعالم وانطمست الرسوم ، وكان لا بد للأفراد من التماس القوة والأمن والطمأنينة فى حياة الجماعات ، فألفوها فى ذلك الزمان لشتى الأغراض ، ومن هذه الأغراض طلب العلم . وما « الجامعة » فى الاصل إلا مطلق « الجماعة » ، تنتظم فيها الطائفة من الناس ، من الحلاقين أو النجارين أو طلبة العلم أو المعلمين ، وكانوا ان أرادوا قصرها على الجامعة بالمعنى المألوف أضافوا اليها أنها اجتماع المعلمين والتلاميذ Universitas Societas magistrorum discipulorumque

نشأة الدراسات الجامعية

وفى التاريخ أن أول من انتظم فى جامعة كانوا طلبة العلم بمدينة بولونيا ، أحسوا بضرورة الاتحاد ليتقوا جشع أهل المدينة واشتطاطهم فى أجور المساكن وأثمان الحاجات وأمام إجماع الطلاب وتهديدهم بمغادرة المدينة لم يجد أهلها بداً من الاذعان والتزام المعقول فى المعاملة ، قلنا مغادرة المدينة ولم يكن ذلك عسيراً فلم يكن هناك بناء جامعى ولا أى شىء آخر يربط طلب العلم بمكان بعينه ، فكانت الدروس تلقى حيثما اتفق ، وتنشأ الجامعة حيث يستقر المعلمون والطلاب ، هكذا نشأت اكسفورد وهكذا نشأت كامبردج . انتصر طلبة بولونيا على أهل المدينة بفضل كونهم أعضاء فى « جامعة » ، واستخدم الطلبة نفس الاتحاد ونفس « الجامعة » فى تحديد علاقاتهم « بعملائهم » الآخرين : الأساتذة . وكان سلاحهم فى هذا « مقاطعة » المعلم ، والمقاطعة سلاح ماض . فالاستاذ يعيش مما يجبيه من تلامذته ، فكان لا بد من الاذعان ، وكان لا بد له من أن يعطى ميثاقه بأن لا ينقطع عن درسه إلا باذن التلاميذ ولا أن يغادر المدينة بدون ضامن يضمن عودته ، وألا ينقص عدد سامعيه عن خمسة فان نقصوا غرم مالا . وأن يبدأ درسه عند دق الجرس وألا ينتهى الا بعد دق الجرس المؤذن بالانتهاء وألا يتجنب المسائل العويصة وأن يقسم أجزاء الموضوع تقسيما حسناً بين فصول السنة الدراسية

وقد واجه المعلمون تلاميذهم بنفس النظام ، فألفوا هم أيضاً جامعتهم ، وكانت جامعة باريس - في الأصل - وعلى عكس بولونيا - جامعة من الاساتذة

وكانت الجامعة - سواء أ كانت مكونة من الطلاب أم من المعلمين أم من الفريقين - تكتسب كيانها القانونى بموجب عهود تصدر عن الملوك أو من البابوات تبين واجباتها وحقوقها ، وأخص هذه الحقوق إجازة الطلاب

هذا وقد تمت بداخل الجامعة أنظمة أخرى ، منها ما نشأ فى الاصل لايواء الفقراء من الطلاب وهى الأروقة أو المدارس الجامعية (collèges) وقد بلغ من شأنها فى اكسفورد وكامبردج على الأخص انها تمركزت فيها الحياة الجامعية بكامل نواحيها تمركزاً يكاد يكون تاماً وكادت ألاتترك للجامعتين إلا عقد الامتحانات ومنح الاجازات ، ومنها ما نشأ لتنظيم الدراسات وتنسيقها وهى الكليات (facultés)

وكانت الدراسات فى نشأة الجامعات مقصورة على مجموعتين : الثلاثية (trivium) وتتكون من النحو والبلاغة والمنطق والرباعية (quadrivium) وتتكون من الحساب والفلك والهندسة والموسيقى . ثم نظمت الدراسات فى كليات أربع : الآداب والقانون والطب والالهيات . وكانت كلية الآداب إذ ذاك بمثابة كلية إعدادية للكليات الأخرى ، ولا بدع فى ذلك فقد كانت إذ ذاك تقوم بما يتولاه الآن التعليم الثانوى ولم يكن له وجود فى تلك الايام

الجامعات والحياة الفكرية

ولا يتسع المجال هنا لتحديد مكان الجامعة فى الحياة الفكرية فى تلك العصور ، فيكفى أن نذكر انها كانت عصور « الايمان » ، « والايمان - كما قال انسلم (Anselm) - يسبق العلم ويعين حدوده ويقرر شروطه . فأنا أومن لكى أستطيع أن أعرف » . وفى وحدة الايمان كان سر قوة الجامعة كما كان فيه سر ضعفها . إذ جعل الجامعة عادة فى صف السلطان وان هى لم تعدم التفكير الجرىء : عاونها على هذا ما اتخذته من منهج الحوار والمناظرة في تكوين الطلاب وشحذ أذهانهم وألسنتهم

وبالجملة فقد حرمت جامعة العصور الوسطى على نفسها الابتعاد عن المتون ، كما فرضت على نفسها السعى لتحقيق غايات عملية محدودة ، وبينما هى واثقة كل الوثوق بصحة ما تقرر إذ هى كثيرة الجدل واللجاج ، وقد أهملت تربية الذوق السليم وقيدت الخيال ..ولكنها وفت بحاجات العصر وحفظت فى دراساتها القانونية وفى فلسفة اكويناس ومدرسته تراثاً ثميناً للانسانية

الثورة الفرنسية والجامعات

وقد بلغ عدد ما أنشىء من الجامعات فى ممالك أوربا الغربية ما يقرب من الثمانين . منها ما لم

يعمر طويلا ومنها ما ظل قائما حتى الآن كباريس ومونبلييه فى فرنسا وبولونيا وبادوا بايطاليا واكسفورد وكامبردج بانجلترا وفينا بالنمسا وليبزج بألمانيا وسالا مانكا بأسبانيا ولوفان ببلجيكا وكراكوف ببولونيا وبراج أو براها ببلاد التشك (بوهيميا) وغيرها . ولكن هذه الجامعات آثرت إغفال مجاراة التطور الفكرى فى العصور التالية للنهضة الاوربية ، بل قاومته أحيانا بالقدر الذى تستطيع ، فوقفت موقفا عدائيا من فلسفة ديكارت ، ولم تفسح مجالا للحركة العلمية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر فنمت هذه الحركة مستقلة عن الجامعات . ووصلت أوربا لنهاية القرن الثامن عشر : لعصر الثورة الزمنية والثورة الاقتصادية والجامعات جامدة فى مكانها ، ولكن العاصفة ما لبثت حتى هزمتها . أما فى فرنسا فانها عصفت بها وأحلت مكانها حتى قرب نهاية القرن التاسع عشر المدارس العالية والكليات (الصورة الاخرى لتنظيم التعليم العالى) مجتمعة وقتا ما فى جامعة واحدة ، وأما فى انجلترا فانها أيقظتها وأقامت بجانبها جامعات حديثة فوصلت انجلترا بذلك ـ كما يفعل الانجليز ـ حاضرها بماضيها

ولم يكن قضاء رجال الثورة الفرنسية على جامعات فرنسا الاثنتين والعشرين كرها منهم للتعليم العالى ، وانما كان يأساً من إمكان إصلاح الجامعات وتمشياً مع فكرة أساسية من أفكار الثورة هى ألا تعرف الدولة الا أفراد الأمة فقط وأن تنعكس الوحدة القومية فى وحدة الدولة فلا مكان إذن للجماعات ولا مكان للجامعات

وأقامت الثورة مكان الجامعات المدارس العالية

نابليون والتعليم الجامعى

ولم يرض نابليون فيما بعد عن تنظيم التعليم العالى على هذا النحو . فجمع معاهد التعليم على اختلاف أمكنتها ودرجاتها فيما سماه « جامعة فرنسا » ، وجامعة فرنسا ـ كالامبراطورية ـ إذن وحدة غير قابلة للتجزئة . والفكرة النابليونية فى تركيز التعليم على هذه الصورة واضحة ، هى أن تكون الدولة الرعية على النمط الذى ترتضيه ، فلا يجوز لأحد أن يعلم إلا باذن الجامعة وتحت إشرافها ، ولا يجوز لمدرسة أن تنحرف عن البرنامج الذى ارتضته الدولة بواسطة الجامعة للتعليم ، وفى حديث لنابليون « لن يكون استقرار سياسى إلا بتحديد أغراض التعليم تحديداً لا شك فيه ، فحيث لا يعرف الناس ان كان التعليم يرمى إلى أن يخلق منهم جمهوريين أو ملوكيين ، نصارى أو كافرين لا توجد أمة جديرة بهذا الاسم » . فلا مجال فى جامعة فرنسا لحرية الفكر ، لا مجال للدراسات السياسية والاجتماعية ولم ير فيها نابليون الا خمراً يتمشى فى عقول المفوهين من الخطباء والبارعين من الكتاب ويسبب اختلال التفكير والتطلع لما لا يعنى الناس . ولم ير فى الدراسة التاريخية التى لا تجرى كما يرسم الحاكم الا وبالا ، ولم ير بأساً فى دراسة الرياضيات ، أما الطب

فلابد منه . ودراسة العلوم الطبيعية يجب تشجيعها لأقصى حد ممكن ، فالتفوق فيها يبنى للامبراطورية مجداً ، والكشف عن أسرار الطبيعة له ناحية تطبيقية تزيد فى الثروة والرفاهية

وقد دامت هذه الجامعة الامبراطورية قانونا حتى سنة ١٨٥٠ . ولكن كان شأنها خاملا بالقياس للكليات المختلفة المنبثة فى أرجاء فرنسا والقائمة بالتعليم العالى للآداب والعلوم والقانون والطب الى أن تحولت فى سنة ١٨٩٦ الى الجامعات الفرنسية الحالية

الجامعة والمدارس العالية

ولو كان الأمر مقصوراً على تحصيل علم معين ، أو على إعداد الشبان ليكونوا أطباء أو مهندسين لما دعا الحال الى تحويل كليات فرنسا فى سنة ١٨٩٦ الى جامعات ، فهذه كانت تقوم بمهمتها قياماً مرضياً . ولكن للجامعة مهمة تسمو على ذلك . انها مجتمع له وجوده الخاص ، يحيا أعضاؤه حياة كاملة . يحصلون العلم معاً ويعبدون الله معاً ويلهون لهو الشباب معاً . وما الاجازات الجامعية الا قبول الفرد من الشبان قبولا نهائياً فى المجتمع الجامعى ، واعتباره أهلا لحمل رسالة ذلك المجتمع للامة . فليست إذن كما يفهمها العامة شهادة العتق ! وليست مما يجوز منحه لمن لم يعش فى ذلك المجتمع بل حضر مادة الدروس وأدى فيها الامتحان

والجامعة تبعد عن المدرسة العالية بعد الياذة هوميروس عن دائرة المعارف أو بعد لعبة من المكعبات عن خلية النحل ! ولا أدل على طبيعتها وعلى نوع رسالتها من كون المشرفين على التربية فى الروسيا البلشفية قد قللوا من خطر الجامعات وأكثروا من المدارس الفنية العالية ! فالتعليم الجامعى أقوى مقوم للشخصية المستقلة

كيف تؤدى الجامعة رسالتها

والدراسة الجامعية ـ مهما تفرعت ـ أشبه ما تكون بالنفس الانسانية : واحدة متعددة

ولكى تكون الجامعة كذلك ، ولكى تؤدى رسالتها ، يجب أن تكون حرة ، وليست الحرية مقصورة على الاستقلال عن الحكومة ، لا . فان التدخل الحكومى ربما كان أقل أعداء حرية الجامعة شأناً . انما المقصود التحرر من ضغط المنافع ، من ضغط الجماعات المختلفة والأفراد ، فهم هذا الانجليز تماما . فحرروا جامعاتهم القديمة والجديدة تحرراً تاما ، وعاونوا الجامعتين القديمتين على إصلاح شؤونهما بنفسيهما ، وتركوا أمر إنشاء الجامعات الجديدة للافراد والجماعات ، وعندما التزمت الحكومة باعانة الجامعات مالياً لم تقتض ثمن ذلك خضوعا

التعليم الجامعى فى مصر

وقد عرفت مصر التعليم الجامعى كما رسمته الحضارة الاسلامية دهراً طويلا ، كما أنها عرفت

التعليم العالى المنظم فى المدارس الفنية العالية منذ النهضة المحمدية العلوية . ولما أرادت استكمال أسباب الثقافة العالية الشاملة قامت بانشاء الجامعة المصرية . وقد يلوح للناظر ابتعاد معاهد الدراسة العالية (الاسلامية والفنية العالية والجامعية الحديثة) بعضها عن البعض الآخر ، ولكن هذا الابتعاد كان فى الواقع خارجياً فقط ، والثابت أن المعاهد المختلفة تبادلت التأثير والنفوذ بطرق دقيقة خفية وظاهرة ، وعلى كل فلم يصب المصريين ذلك اللون الممقوت من ألوان الاستبداد الذى يأبى إلا أن يصب حياة الأمة الروحية فى قالب واحد ، وبقوا أحراراً يتجهون نحو ما يرتضون لأنفسهم من شتى المثل العليا وبقيت لهم ثقافة غنية بتباين أصولها وتنوع عناصرها

وقد دفع إنشاء الجامعة المصرية الحكومة نحو التفكير فى تحويل معاهدها العالية الى جامعة ، فألفت لجنة درست الموضوع دراسة تفصيلية فى تقرير مطبوع . ثم قامت بتحقيق ذلك فى سنة ١٩٢٥ دون أن تنظر فى تقرير لجنة الجامعة ، وهذا مما يؤسف له فنى ذلك التقرير محاولة جديرة بالعناية نحو تنسيق الدراسات الجامعية على أساس مفهوم ، كما أن فيه حلا جديراً بالنظر لتنظيم الوصل بين التعليم الثانوى والتعليم الجامعى ، وفيه أخيراً طريقة مرضية لتعيين مكان الدراسات العلمية والدراسات البيداجوجية في إعداد المعلم . وهذه المسائل الثلاث من المسائل التى تواجه الباحثين

والتعليم الجامعى فى مصر جديد قديم ، جديد من حيث سنة المولد ومن حيث أن بعض الدراسات وبعض مناهج البحث لم تعرفها بلادنا قبل ولادة الجامعة ، وقديم اذا اعتبرنا أثر العصور الخوالى فى المحيط الذى لا مفر للجامعة من أن تعيش فيه . ومن شروط الحياة الملاءمة بين الكائن وبين ما يعيش فيه . قلنا الملاءمة ، وهى لا تفيد الاستسلام ، وهى ليست سلبية

وقد خلقت مصر الجامعة لتكون لها إماماً ولكنها لن تكون لمصر إماماً إلا إن قبلت الأمة شروطاً أربعة ، وقبول الأمة لهذه الشروط أهم فى النهاية من قبول الطائفة من الناس تتولى الحكم زمناً ما

أولها : تقدير حرية الجامعة حق قدرها ، بأن لا تحدد لها دائرة المعرفة وألا ترسم لها مناهج البحث . والتسليم للجامعة بهذه الحرية يستلزم أن يترك لها أمر تنظيمها وأن تكون الحكم فى كل ما يتعلق بكيفية استعمال أعضائها من المعلمين والطلاب لهذا الحق

وحق الحرية هذا يفيد أيضاً حق الجامعة المطلق فى تخير طلابها وأساتذتها وفى وضع ما تراه من المقاييس لتنظيم الاجازات الجامعية ، ولا تعارض فى الحقيقة بين الاعتراف بحق الجامعة فى اختيار طلابها طبقاً لما تراه محققاً لأغراض التعليم الجامعى وبين حق المساواة المقرر لجميع المصريين ما دام اختيار الجامعة لا يجرى تبعاً للهوى أو لارضاء بعض الطوائف أو الافراد وما دامت الجامعة تقوم من ناحيتها بمعاونة الدولة الديموقراطية فى سعيها المستمر لازالة العقبات التى تعترض تحقيق فكرة المساواة

ثانيها : أن تكفل للجامعة الوسائل المادية التي تمكنها من القيام برسالتها على الوجه الأكمل ، وهذه الرسالة لها نواح ثلاث : أولاها تكوين الشباب عقلا وروحاً وبدناً ، وثانيتها المحافظة على تراث الانسانية العلمي في كلياته وجزئياته ، وثالثتها البحث العلمي . ولكل ناحية من هذه النواحي خطرها ، وينبغي أن تمكن الجامعة من أدائها كلها

ثالثها : أن تكفل الادارة التعليمية للجامعة التلاميذ الذين يستطيعون حقا الانتفاع بالتعليم الجامعي . ويستلزم هذا اشراك الجامعة في الاشراف على إعدادهم ، كما أنه يستلزم إيجاد هيئة ترسم سياسة التعليم عامة وتنظم ما ينبغي أن يوجد بين درجاته الابتدائية والثانوية والجامعية من صلات ، ومجلس التعليم الأعلى خير أداة لتحقيق ذلك

رابعها : أن تكفل للشبان الذين كونتهم الجامعة العمل الذي يحسنونه في فروع الخدمة القومية والمهن الفنية والصناعة والزراعة والتجارة

وان قبول المجتمع المصري لهذه الشروط الإساسية ليلقى على الجامعة أخطر التبعات ، والجامعة - بحسب ما رأينا ونرى - قمينة بالاضطلاع بها

شفيق غربال



الوطن

وا أسفاه ! إنا لا نستطيع أن نموت في سبيل أوطاننا سوى مرة واحدة

« أديسون »

هل تساوى بضعة أيام في الحياة نعيم الموت في سبيل الوطن

« نابليون »

روزفلت : الأمريكي الأول

يتزعم الشعب الامريكي لأنه يمثل كل امريكي
في خلقه وتفكيره وشعوره وحياته الخاصة

البيت الأبيض

تتمثل الديموقراطية ، التي تتزعمها اليوم أمريكا وتناضل عنها عداتها ، في البيت الأبيض حيث يقيم الرئيس روزفلت . فان أمريكا التي لم ترق قطرة من الدم في سبيل إصدار دستور وإقامة برلمان ، تفهم الديموقراطية خيراً مما تفهمها الشعوب التي غمرت الارض بالدماء لتحقيق ما تسميه « حقوق الشعب » ، ففرنسا وروسيا هدمتا العروش وقتلتا الملوك ، ومع هذا ظلت فرساي وظل الكرملين يمثلان « عقلية القصور » بترفها الباذخ ومظهرها الخلاب ، أما البيت الأبيض الذي يقيم فيه رؤساء الجمهورية الامريكية الكبرى فلا تكاد تفرقه من بيوت الاعمال المنشأة على الطراز الحديث : فعلى بابه جنديان اثنان في ملابسهما العادية ، ولا ترى في غرفه سوى الموظفين في مكاتبهم البسيطة الهادئة ، ولا تسمع في أرجائه إلا صوت الآلات الكاتبة يتخلله أحياناً ضحكات طائفة من الموظفين والصحفيين ، ومكتب الرجل الذي يرأس أغنى وأرقى شعوب العالم لا تحرسه الجند والحجاب ، فليس فيه سوى كتب وأوراق وتقارير وأنابير ، ومسكن الرئيس في طرف وادع من البيت الأبيض لا يختلف عن مسكن أي أمريكي متوسط ، فلا تحف ولا جواهر ولا مظاهر ترهق المرء جهداً وعسراً ، بل حسبه أولا وآخراً ما يهيء له الراحة ويوفر له أسباب النشاط

أسرة روزفلت

يمثل روزفلت في أسرته هذا الامريكي الذي يفهم معنى العلاقة العائلية فهماً حديثاً يلائم حياته القائمة فلا ينغصها بآراء قديمة قد تكون صحيحة ولكن لا سبيل اليها ، ويمثل هذا الأمريكي الذي يقدس العمل ويرقى به الى مرتبة البطولة فيفرضه على الرجل والمرأة معاً ويقيس به وحده قيم الناس وأقدارهم ، ويمثل هذا الامريكي الذي يفهم « الحكومة » فهماً حديثاً فلا يجعلها غنماً للاقوياء يستنزفونه لأنفسهم وأهليهم ، بل هي للجميع على السواء لا تظلم وتتجنى ولا تحابي وترضى . . .

كل فرد من أسرة روزفلت يملأ يومه وحياته بالعمل الخصب المثمر

فزوجه اليانور روزفلت سيدة أمريكا الأولى ، تمارس الكتابة فى الصحف والاذاعة فى الراديو ، ولها كتب فى الاجتماع تدل على الثقافة والتفكير ، وهى تربح من هذا العمل مالا جماً . وقد استطاعت بفضل مظهرها الكامل وقوامها الفارع ونشاطها الوافر من أن تعين زوجها فى كثير من أعماله منذ اقترنت به فى سنة ١٩٠٣ ، فهى تنوب عنه فى كثير من الحفلات والولائم ، وهى تبحث له كثيراً من التقارير والمشاكل ، وتقوم له فى أيام الانتخاب بدور مهم عملى

وكبرى بناته « آنا » فى الثانية والثلاثين . وقد طلقت من زوجها الاول وتعيش الآن مع زوجها الصحفى ، وتساهم معه فى تحرير وإصدار صحيفته الذائعة بين النساء والفتيات بفضلما تنشره فيها . وكانت « آنا » تعمل فى الصحافة قبل زواجها ، حين كانت تشارك أمها فى تحرير مجلة « الاطفال الكاملين » التى كانت تصدرها للصبية

ويصغر آنا بسنة واحدة أخوها « جيمس » ضيف مصر الآن . بدأ هذا الشاب عمله وسيطا — سمساراً — لشركات التأمين ، ومع أن أباه يأبى أن يتدخل فى شؤون أبنائه متى بلغوا الحادية والعشرين وصاروا « رجالا أحراراً » إلا أنه ذاع أن دوائر الاعمال تتهامس بأن نجاح ابنه « جيمس » فى أعمال التأمين انما يرجع الى مركز أبيه فى رئاسة الجمهورية ، فاضطره الى ترك هذا العمل الذى كان يدر عليه أرباحا كبيرة ووكل اليه ادارة مزارع أسرته حينا ما . ويثق روزفلت فى ابنه هذا ثقة خاصة ولهذا اضطر الى أن يتخذه بعد ذلك سكرتيراً خاصا بمرتب لا يعد كبيراً جداً فى أمريكا وان كان يبلغ ٢٥٠٠ جنيه فى السنة ، ولكنه لقى فى ذلك نقداً شديداً اضطر الشاب الى أن يترك منصبه ويعود الى العمل الحر ، فساهم مع « امبراطور » هوليود « صمويل جولدوين » فى ادارة أعماله السينمائية لقاء مرتب أكبر كثيراً من مرتبه فى الحكومة

وأسرة روزفلت تمثل الحياة الامريكية حتى فى الطلاق . فجيمس هذا طلق زوجته الاولى واقترن بزوجة أخرى تركها فى أمريكا حين استدعاه أبوه حديثا الى العمل فى الحكومة مرة أخرى ، وأوفده فى مهمة رسمية الى بلاد الشرق الاوسط حيث يعمل الآن « مراقبا جويا » ، مهمته توثيق العلاقات الحربية بين الديموقراطيتين الكبيرتين ، أمريكا وبريطانيا ، فى هذه المنطقة التى قد تكون موضع الضربة الفاصلة فى الحرب القائمة

وكذلك أخوه « اليوت » الذى يبلغ ثلاثين عاما ، تزوج مرتين وطلق زوجته الأولى . وهو يعمل مذيعا لاسلكيا بفضل وضوح صوته ولباقة القائه ، وطالما أذاع على الناس ما يوجه الى سياسة أبيه من انتقاد خصومه ومعارضيه

ويليه فرانكلين وهو فى الخامسة والعشرين وما زال طالبا فى جامعة فرجينيا حيث يدرس القانون . وقد وصل بزواجه أسرة روزفلت العريقة فى السياسة بأسرة دى بونت التى تعد

أقوى أسرة صناعية فى أمريكا ، فهي تملك عدداً وافراً من مصانع الآلات والسيارات والاسلحة والذخائر

وأصغر أولاده هو « جون روزفلت » الذى تقرر أمه أنه أوتى خير الصفات والملكات التى عهدت فى آبائه الذين اشتهروا فى ميدان السياسة والعمل منذ أجيال

وثمة شخصية خطيرة فى أسرة روزفلت ، هى والدته السيدة العجوز «سارة ديلانوروزفلت» التى ما زالت رغم بلوغها الخامسة والثمانين تجد نشاطا على مشاهدة المسارح وحضور الحفلات ، وكثيراً ما تنوب فى بعضها عن ابنها روزفلت الذى لم ترزق بسواه ، وقد نابت عنه منذ أيام فى حفلة تكريم الكاتبة الامريكية المشهورة « دوروثى طومسون »

ثقافة روزفلت

درس روزفلت القانون فى جامعة هارفارد ، وامتهن المحاماة سنين فربح منها مالا جما ، ثم هجرها الى السياسة منذ انتخب فى سنة ١٩١٠ شيخا فى الكونجرس

ولا يرقى روزفلت الى طبقة المفكرين الممتازين من الساسة والزعماء رغم قراءته الواسعة فى التاريخ والسياسة . ولكن حديثه حافل بالآراء النافذة والنقدات البارعة التي تدل على توقد الذهن وسرعة التفكير . ويزيد فى طلاوة حديثه وتأثيره ما يضفيه عليه من الفكاهة الواضحة الضاحكة . وله مقدرة على أن يلخص ويركز ويوضح ما يقرأه فى الكتب والصحف وما يسمعه من أعوانه وأصدقائه ، وهذا شأن الزعماء الموهوبين الذين لا ينتجون ولا يبتكرون أفكاراً جديدة ، بل يقتبسون ويشرحون أفكار غيرهم وينفذون بها الى قلوب الجماهير . وهو لهذا يختار أصدقاءه المقربين ممن يمتازون بالثقافة الواسعة المتشعبة ، وممن يحفل حديثهم بالآراء الطريفة الصائبة ، وممن يجيدون فن الحديث والفكاهة ، فيأخذ ويقتبس منهم كثيراً . وحين يريد القاء خطبة أو كتابة مقالة يكلف أربعة أو خمسة من صحبه المثقفين باعدادها ، ثم يأخذ من كل منهم خير ما فكر وأحسن ما كتب ، فيضيفه الى ما سطره بيده أولا

ورغم ايمانه بالنظام الرأسمالى وما يحققه من الخير لجميع الطبقات وللحضارة الانسانية ، الا أنه قرأ وفهم جيداً آراء كارل ماركس ولينين وكثيراً ما يتحدث فى نقدها وتفسيرها

وجدران مكتبه فى البيت الأبيض مغطاة بأكداس الكتب فى السياسة والقانون . وفيها ركن خاص يعنى به وينصرف اليه كثيراً ، وهو المخصص للكتب المتعلقة بالشئون البحرية ، التى تعلق بدراستها منذ كان وزيراً للبحرية فى سنة ١٩١٥ . وكان روزفلت فى شبابه بحارا وظل يهوى حياة البحارة الى أن قعد به الشلل عن هذا العمل العنيف . وما زال يحن اليه فيستقل كل يوم قارباً صغيرا ويدفع « مجاديفه » بساعديه القويين فينساب به ساعة على سطح الماء

وخطبه صورة من حياته وثقافته . قلما تنبض فيها هذه الحماسة الدافقة من أمثال هتلر وتشرشل ، وقلما تنضج بالحجج والأفكار كما كانت تنضج خطب لينين وتروتسكي ، بل هى هادئة بسيطة لا تكاد تتميز من خطبة رجل من رجال الأعمال الا بما تثيره من الضحك والانتباه ، فهو لا يعد خطيباً شعبياً لا فى صوته ولا فى أسلوبه ، ولم يحاول ـ برغم طول عهده وتجربته فى السياسة ـ أن يروض نفسه على هذه الخطابة الشعبية ، مكتفياً بما تتركه شخصيته القوية وكلماته الواضحة من التأثير النافذ فى سامعيه ، وهو اذ يتكلم ينتصب على قدميه فارعا بديناً ، ويتحدث فى صوت واضح رنان ، مشيراً بيديه من آن لآن ، وان كان شلل ساقيه يمنعه من الحركة العنيفة التى تلازم الخطباء وتزيد في تأثيرهم

المرح : سر العبقرية الامريكية

أبرز صفة يتسم بها الأمريكى أنه : رجل دنيا ، تطالبه الحياة بالعمل فينزل الى ساحته مكافحاً صبوراً مثابراً ، دافق القوة واسع الآمال ، متأهباً للنصر والهزيمة على السواء . فان فاز بما أراد برّ نفسه بمتع الحياة ومباهجها ، وان أخفق دون ما تمنى اعتد بالجلد واستأنف النضال آخذا نفسه فى أية حال بروح المرح الذى يبث الأمل ويدفع اليأس ويشعر المرء بقيمة الحياة ومعناها

هذه الصفة الأمريكية تتمثل فى روزفلت واضحة وافية . فالضحكة التى تنفرج لها جميع الاسارير ويدوى بها صوته الرنان ، لا تكاد تفارقه مهما اشتدت الأمور وتفاقمت خطوبها

يفيض نهر الأوهيو مثلا فتغمر سيوله القرى وتهدد الناس بالردى ، فترى النور منبعثاً من البيت الأبيض طول الليل إذ الرئيس ساهرين رجاله يدرس الخرائط ويقرأ التقارير ويتصل بالولاة ويدبر لهم الوسائل فى حزم ونفاذ ، حتى اذا أصبح الصباح لقى الصحفيين مرحا ضاحكا نشيطاً ، كأنما نام الليل الطويل نوم الطفل الوديع ، لم يجهد ولم يأرق ولم يلق نصباً . وهذه أخطار الحرب تتناثر فى أرجاء العالم كما تتناثر حمم البركان ، وتخشى أمريكا أن تمتد اليها لهب النار وتصليها شرا مستطيرا ، فاذا بروزفلت عند الفجر فى فراشه ومن حوله كوردل هل وسمنر ويلز وغيرهما من الاعوان ، يدرسون ويتباحثون ويتناقشون ، ويتصلون بهذا وذاك من السفراء والخبراء ، ويقرون آراءهم ويتأهبون لعرضها على الكونجرس ، واذا بكل من حوله قد أخذ منهم الجهد ونال منهم الاعياء ، الا هو ما يزال مشرق الوجه ، صافى الضحكة ، متحفز القوى

هذا المرح الدافق فى روزفلت هو سر نجاحه ، لأنه سر نجاح أمريكا بأسرها ، فليس ثمة من الشعوب من يغرق فى العمل الجاهد للنتج السريع كما يغرق الشعب الامريكى ، ومع هذا فليس ثمة من يجاريه أخذا بمباهج الحياة ، وجلدا على صعابها ، وشعورا بأن فيها كثيرا يستحق المرح والعمل والرجاء

عزم يتغلب على الشلل

غالباً ما يكون روح المرح مصدرا لقوة البأس ، والرجل المكتئب المهموم هو عادة الواهن العزم والارادة

وحياة روزفلت تدل على ارادة كالحجر الصلد قوة ومناعة . فقد أصيب بالشلل بعد الحرب الماضية ، فعوفى منه وانتفض من فراشه بعد شهور ، لأن للعزم الشديد - والطب يعترف بهذا الرأى - أثره فى البرء من هذا المرض المتعلق بالاعصاب . ومنذ شفى من المرض لم يسمح لنفسه ، ولا لأحد ، أن يتحدث عن الشلل فتناساه حتى لا يكاد يشعر به الآن ، رغم أن ساقيه بقيتا عاطلتين لا يستطيع أن ينهض عليهما طويلا ، الا متكئاً على عصوين ومستعيناً بجهاز من المطاط تحت ملابسه ليشد ساقيه

ومع هذا الشلل فان أمريكا لم تشهد رئيساً تجول فى أرجائها - أيام انتخابه وأثناء رئاسته - كما تجول هذا الرجل الذى كانت أكبر حجة فى يد خصومه ومنافسيه أنه مريض مشلول

وهو فيما عدا ساقيه وافر الصحة ، سليم البنية ، بدين القوام ، ويبلغ وزنه الآن مائة وتسعين رطلا . وقلما كان ينجو من الصداع والزكام والاعياء أحد من الأعوان والصحفيين الذين يرافقونه فى أثناء رحلاته الانتخابية الطويلة ، أما هو الذى ينفرد دونهم بالقاء الخطب والاحاديث ولقاء الوفود والافراد ، فما كان يحس تعباً ما ، وهو الى هذا يأكل كل ما يطيب له فى نهم واسراف ، ويشرب الخمر فى اعتدال ، وقلما احتاج الى طبيب البيت الابيض فى أمر ما

تنظيم الوقت

الحكمة التى تقول ان « الوقت من ذهب » لا تنطبق على رجل كما تنطبق على الامريكى . فلكل ساعة من يومه أمر يؤدى فيها ، ولا يجوز أن تضيع منه ساعة واحدة فى خمول لا هو بالعمل ولا هو بالراحة . وروزفلت - ككل أمريكي - يسير على هذه القاعدة

فهو يبدأ يومه العادى فى الساعة التاسعة صباحا ، ويتناول إفطاره فى فراشه ، حيث يوافيه بعض سكرتيريه وأعوانه ليبدأ معهم العمل مبكراً . ثم تعاونه احدى الآنسات على ارتداء ملابسه ، ويعتلى مقعده المتحرك فيدفع به أحد الخدم الى مكتبه فى طرف البيت الابيض . وتبدأ مقابلاته مع رجال الوزارة ، والجيش ، والكونجرس ، والاعمال ، والصحافة من الساعة العاشرة وتستمر غالباً الى الخامسة أو السادسة . ولا ينقطع عن العمل طول هذه المدة بتاتاً ، حتى الغداء يؤتى به الى مكتبه فيتناوله ، وهو يحادث وزيراً أو يطالع تقريراً

(البقية على صفحة ٦٦٤)

جزر البحر الأبيض المتوسط
وأهميتها العسكرية في هذه الحرب

بقلم الدكتور محمد عوض محمد
وكيل كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

ان حوادث التاريخ البشرية جعلت لبعض الجزر في البحر الابيض المتوسط مكاناً ممتازاً ، وخطراً عظيما أجل مما يدل عليه حجمها ، أو غلاتها وثروتها

للبحر المتوسط في تاريخ الحضارة البشرية شأن جليل ، كثيرا ما كان موضع دراسه وبحث في صفحات هذه المجلة • والحديث عن هذا البحر ، الذي كان في عصور عديدة مديدة ، ملتقى الانظار ، ومحور الحوادث العظام ، والقطب الذي تدور حوله الخطوب والآمال • وترتبط بأحداثه مصائر الامم والحضارة البشرية جميعا ، ان الحديث عن هذا البحر لا ينفد ولا يمكن أن ينفد ، فهو اليوم ـ كما كان منذ آلاف السنين ـ ذلك المسرح الخطير ، الذي تمثل فيه رواية بشرية هائلة ، يخفق لفصولها ومناظرها قلب العالم ، وتتبعها الابصار قلقة مشفقة ، من جميع انحاء الارض

على هذا المسرح العظيم تتناحر اليوم قوى الطغيان والحرية ، ولقد طالما شهدت سواحل هذا البحر معارك من هذا الطراز • ولكن سواحله كانت دائما هي المصدر الذي تنبعث عنه قوى الحرية والايمان والدين ، والحكمة والفن ، ومن نوره استضاء العالم ، وبهديه اهتدى • فلعل هذه الغمة أن تنجلي عنه قريبا ، كما انكشفت عنه من قبل غمم وكروب

في وسط هذه الاحداث العظام تبدو جزر البحر الابيض المتوسط ، ولكل منها خطر وشأن بحيث تستحق أن نعنى بها عناية خاصة • وأن نمعن النظر فيما لكل منها من وظيفة تؤديها في هذا الصراع الهائل ، الذي اشتركت فيه دول البحر المتوسط ، ودول أخرى خارجة عنه • لان البحر المتوسط لم يعد اليوم ـ ولعله لم يكن في يوم من الايام ـ ملكا لاهله وحدهم ، بل للعالم أجمع ، فهو ملتقى ثقافة العالم وتجارته ، وشريانه المتدفق ، وقلبه النابض ، ولا بد له أن يظل حرا طليقا ، بعيدا عن استبداد الطغاة وعدوان المعتدين

ذراع المحيط

يمتد البحر الابيض المتوسط ــ في صورة ذراع مستطيل للمحيط الاطلسي ، بحيث « يتوسط » قارة أوربا وافريقية ، ويلاصق قارة آسيا • ويبلغ طول هذا الذراع من الغرب الى الشرق زهاء ألفين من الاميال ، بحيث تحتاج السفينة السريعة الى سبعة أيام كاملة لكي تقطع المسافة من جبل طارق الى ميناء بيروت

وما دمنا قد وصفنا البحر المتوسط بأنه ذراع للمحيط الاطلسي ، فلا بد لنا ان نشير الى أن هنالك ذراعا آخر آتيا من المحيط الهندي ــ وهو البحر الاحمر ــ ممتدا الى الشمال كأنه يريد أن يصل المحيطين ويجمع البحرين : وهذا مما زاد البحر الابيض المتوسط خطرا ، ومكنه من أن يؤثر في قارة آسيا الجنوبية ، وان يتأثر بها

على أن البحر الابيض المتوسط ، وان كان « ذراعا » للمحيط الاطلسي ، فانه ذراع غريب الشكل ، فهو في أوله ضيق جدا ، حتى لا يزيد اتساعه على العشرة الاميال الا قليلا ثم لا يزال يتسع ويمعن في الاتساع حتى تبلغ سعته بضع مئات من الاميال ، ثم يضيق مرة أخرى بالقرب من ايطاليا ، وجزيرة صقلية ، بحيث يخيل اليك ان أوربا تريد ان تتصل بافريقية اتصالا ماديا لا مجرد اتصال روحي • وفي الحق لقد كان بوغاز صقلية في وقت يعده الجيولوجيون عصرا حديثا ، برزخا يعبر بواسطته الناس من قارة الى قارة ، من بعد ذلك يتسع البحر مرة أخرى ولا يزال يتسع حتى يبلغ سواحل سوريا وفلسطين

وهكذا ينقسم البحر المتوسط بطبيعته الى شطرين : شرقي وغربي • ونقطة التقسيم هي مضيق صقلية هذا الذي لا يزيد اتساعه على المائة ميل

وفي هذا البحر العظيم جزر منثورة في مختلف أرجائه ، ليست متشابهة في الحجم ولا في الشكل • أكثرها واقع في الجهات الشمالية من البحر ، فهي أدنى الى السواحل الاوربية منها الى السواحل الافريقية ، وبعضها مثل جزيرة قبرص شديد الاتصال بآسيا • وأكثر هذه الجزر ملاصق للسواحل ، ولكن بعضها منعزل منفرد • وبعضها يحتل مكانا ممتازا ، أو قل ان الانسان ، وحوادث التاريخ ، والمسرحية البشرية التي تمثل على صفحات هذا البحر جعلت لبعض الجزر مكانا ممتازا وخطرا عظيما •• أجل مما يدل عليه حجمها أو غلاتها وثروتها • وحسبنا مثالا لهذا ان نذكر ان جزيرة مالطة وما حولها من الجزر على فقرها وصغرها ، أجل خطرا ــ من حيث الاعتبارات العسكرية ذات الشأن العظيم ــ من جزيرة عظيمة مثل سردينيا أو قبرص

مالطة أهم جزر البحر الابيض

وليس من الاسراف في شيء أن نقول ان مالطة أهم جزر البحر الابيض المتوسط جميعا • وليس هنالك موقع يضارع موقعها خطرا سوى سواحل بوغاز جبل طارق



تبين هذه الخريطة نقطة تقسيم البحر الابيض المتوسط الى قسمين : شرقى وغربى ، وهذه النقطة هي مضيق صقلية . وفى هذا المضيق تقع عدة جزر أهمها جزيرة مالطة التى تقع جنوبي صقلية

نفسه . ففي منتصف البحر المتوسط حيث يضيق البحر ، وتقترب أوربا من افريقية ، تقع عدة جزر يتوسط كل منها بوغاز صقلية ، وبذلك يستطيع ان يكون له شأن خطير فى طرق الملاحة التى تجتاز البحر من شرقه الى غربه ، وليست جزر مالطة واقعة وسط البوغاز تماما ، ولكنها ـ على ضآلتها ـ أهم وأخطر الجزر جميعا . وهى تتألف من جزيرة مالطة الرئيسية التى لا تزيد مساحتها على التسعين ميلا مربعا ، وجزيرة جوزو ومساحتها عشرون ميلا ، وعدد كبير من الجزر الصغيرة ، أكثرها خال من السكان . ويفصل مالطة عن صقلية مساحة تتجاوز الستين ميلا ، وبينها وبين افريقية ثلاثة أمثال تلك المسافة .. والى جانب موقعها الخطير ، تمتاز مالطة بمرفأ طبيعى للسفن ، قد جهز بأحدث الآلات والاحواض الصالحة لايواء السفن الضخمة . وسكان مالطة من أصل فونيقى قديم ، ولهجتهم التى يتحدثون بها لهجة سامية تشبه الفونيقية ، وليس من سكانها من يتكلم الايطالية سوى نحو السدس ، وعدد السكان فى جميع الجزر لا يتجاوز ربع مليون من الانفس

وموقع مالطة بالقرب من صقلية يجعلها صالحة لان تقوم منها الطائرات قاصدة مدن صقلية أو ايطاليا ، ولكن وظيفة مالطة الرئيسية هى قبل كل شيء حراسة طريق الملاحة الحيوى بين الشرق والغرب ، وحماية السفن ممن يغير عليها من الجو أو من فوق سطح الماء أو من تحت لجج البحر .. وفى وسع هذه السفن أن تجد فى مرفأ « فاليتا » ما تحتاجه من زاد أو وقود أو اصلاح لما يصيبها من عطب . وفى الحرب التى تدور رحاها اليوم ، كان فى وسع ايطاليا التى تمتد أرضها من الشمال الى الجنوب ، وتقترب من افريقية اقترابا شديدا ، وتشطر البحر المتوسط شطرين .. كان فى وسع ايطاليا ان تسيطر على ملاحة هذا البحر ، وأن تهدد السفن التى تجتازه بالطائرات والغواصات ، لولا جزيرة مالطة ، التى يسرت لسفن بريطانيا وطائراتها قاعدة عظيمة للدفاع ـ ولم يكن بد من أن يكون لهذا المركز الممتاز لهذه الجزر تكاليفه الباهظة ، فلا تمضى بضع ليال حتى تغير عليها الطائرات ، وتنثر عليها الحمم والقنابل . وليس فى البحر المتوسط كله ـ اذا استثنينا ميادين القتال البرى ـ مكان عانى من الغارات الجوية ما عانته هذه الجزر

ليست مالطة بالجزر الوحيدة الواقعة فى بوغاز صقلية . بل هناك جزر أخرى صغيرة واقعة فى البوغاز ، أشهرها من غير شك جزيرة بانتيلريا التابعة لايطاليا ، وهى جزيرة صخرية بركانية تبعد عن صقلية ستين ميلا ! وليس لها سوى مرفأ ضيق لا يصلح الا للزوارق الصغيرة . ولهذا نراها ـ برغم موقعها الجغرافى الممتاز ـ لم تفد منها ايطاليا فائدة تذكر . مع انها قد عنيت بتحصينها . والحقيقة ان الدولة التى تمتلك صقلية ليست فى حاجة الى بانتلريا . وهذا يفسر لنا كيف لم نسمع بأى عمل خطير قامت به هذه الجزيرة ذات الموقع الممتاز والحجم التافه الضئيل . وما يقال عن بانتيلريا ينصرف أيضا الى لاميدوزا ولينوسا ، وهما اصغر حجما ، وأقل خطرا

جزر النصف الغربى من البحر المتوسط

ننظر الآن فى الجزر الواقعة فى النصف الغربى من البحر المتوسط ، وهى فى الوقت الحاضر ـ اذا استثنينا جزيرة صقلية ـ ليست بذات شأن خطير فى النزاع الذى تدور رحاه اليوم . ونستطيع ان نقسم هذه الجزر قسمين الاول الجزر الملاصقة لسواحل ايطاليا مثل جزيرة البا الشهيرة ، وجزيرة كابرى الجميلة وجزر ليبارى ذات البراكين الثائرة . وهذه الجزر جميعا هى جزء من ايطاليا ، لا يفصلها عنها سوى مساحة صغيرة من المياه الضحلة . وهى بعيدة نوعا عن ميادين الحرب وطرق الملاحة الرئيسية ، ولذلك قلما نسمع أحدا يذكرها فى هذه الايام

أما القسم الثانى من جزر البحر الغربى ، فهى جزر بعيدة عن السواحل ، ذات حجم كبير ولها قيمة اقتصادية عظيمة ، وهنالك مجموعتان من هذه الجزر الاولى جزيرة كورسيكا وسردينيا والاخرى جزر البليار

ونستطيع ان نقف قليلا عند جزيرة سردنيا التابعة لايطاليا ، وان نحاول ان نفهم السر فى أن هذه الجزيرة لم تقم فى هذه الحرب بعمل يتفق مع موقعها الممتاز ، ومساحتها العظيمة ....

تبلغ مساحة سردنيا نحو عشرة آلاف من الاميال المربعة ، يسكنها نحو مليون من الناس ولا تبعد سواحلها الجنوبية عن افريقية بأكثر من ١٢٠ ميلا • وكان من الجائز أن تقوم بعمل خطير فى مراقبة طريق الملاحة ، ومهاجمة السفن فيه • وان تكون فيها قواعد عظيمة للطائرات ، لمهاجمة السفن أو غير ذلك من الاعمال الحربية • ولكن هنالك اسبابا جعلت سردنيا قليلة الخطر فى هذه الحرب : وأهم هذه الاسباب بعد هذه الجزيرة عن ايطاليا ، وبينهما نحو مائة وخمسين ميلا ، وبعدها عن المواقع ذات الاهمية الحربية مثل جزيرة مالطة ، وميدان الحرب فى ليبيا ، وربما أضفنا الى هذا انها موبوءة بالملاريا ، وحالتها الصحية العامة لا تبعث على الرضى

وتفوقها جزيرة صقلية فى جميع هذه الاعتبارات ، فهى ملاصقة لايطاليا لا يفصلها عنها سوى بوغاز مسينا الضيق ، الذى لا يزيد اتساعه على ميلين اثنين • وهى قريبة من مالطة ، ومن ليبية ، وتضارع سردينيا فى المساحة وسكانها اربعة امثال سكان سردينيا ، ولها مرافىء عديدة للسفن • فهى بحكم موقعها الممتاز تهيىء لدولة ايطاليا وحليفتها قاعدة خطيرة للاغارة على السفن ، وللوثوب الى ليبية أو تونس ، ولشن الغارات الجوية على جزيرة مالطة والسواحل الأفريقية الشمالية • وهى قاعدة يسهل تموينها من ايطاليا وألمانيا ، بما تحتاجه من البترول أو العدة الحربية المختلفة

وهناك فى الشطر الغربى من البحر الابيض المتوسط مجموعة أخرى من الجزر الشهيرة وهى جزر البليار • ولسنا بحاجة لان نطيل الحديث عنها • فهى برغم جمالها الساحر ، ومواردها الغنية ، وموقعها الجغرافى ، ليست بذات خطر فى الحرب الحاضرة ، لانها تابعة لدولة محايدة ، وهى اسبانيا ، ولا يصبح لها خطر عظيم ، الا اذا خرجت اسبانيا عن حيادها ، وفى هذه الحال فان جزر البليار تظل ذات مكان ثانوى اذا قورنت الى أرض اسبانيا نفسها ، وسواحل بوغاز جبل طارق ، وافريقية الاسبانية • فجميع هذه الجهات أشد التصاقا واكثر اشرافا على طرق الملاحة من جزر البليار

جزر النصف الشرقى من البحر المتوسط

اذا انتقلنا بعد ذلك الى النصف الشرقى للبحر الابيض المتوسط شاهدنا فى توزيع جزره ظاهرة غريبة ، ذلك ان جميع الجزر واقعة فى الاطراف الشمالية من البحر ، وان هنالك مساحة عظيمة جنوبية مقابلة لسواحل ليبيا ومصر وفلسطين وسوريا ، خالية من الجزر خلوا تاما • هذه المساحة الواسعة تستطيع ان تمضى السفن فيها من مالطة الى قناة السويس ، أو الى الموانىء الشرقية • دون أن تقترب من جزيرة تهددها ، أو تدنو منها دنوا خطرا ،



تبين هذه الخريطة جزر أرخبيل بحر اليونان ، وجزر الدوديكانيز وجزيرة كريد

كما هى الحال فى جزر صقلية ومالطة وبانتيلريا • كذلك نرى سواحل أوربا بعيدة عن سواحل افريقية ، وليس هنالك موضع مثل بوغاز صقلية تتقارب عنده القارات

فالبحر المتوسط اذن فقير الجزر فى مساحة واسعة تمتد من سواحل مصر وبرقة الى نحو ثلثمائة أو اربعمائة من الكيلومترات ، ولكن هذا الفقر الشديد فى الجنوب ينقلب الى غنى مفرط فى الشمال • فهنالك الجزر تتكاثر ، وتزدحم ازدحاما شديدا ، حتى ليتعذر علينا ان نعدها أو نحصيها • وهنالك سواحل فى دلماسيا ، والاناضول ، وبلاد اليونان لا تستطيع السفن أن تصل اليها الا بعد ان تلف وتدور حول طائفة من الجزر

واذا استثنينا الجزر الملاصقة لساحل دلماسيا ـ واكثر سكانها من السلاف والطليان •

فان سائر الجزر فى هذا النصف الشرقى من البحر المتوسط ، قد اتخذها اليونان وطنا لهم واستعمروها منذ زمن قديم ، ولا تزال الكثرة العظمى من سكانها الى اليوم من اليونان ولا يستثنى من هذا سوى جزيرة قبرص التابعة لبريطانيا ورودس التابعة لايطاليا ، ففى كل منهما عدد غير قليل من الاتراك المسلمين ، بقية من الزمن الذى كانت فيه هذه الجزر جميعا جزءا من الدولة العثمانية • وهنالك جزيرتان تابعتان للجمهورية التركية، وسكانهما من الترك وهما جزيرة امبروس وتنيدوس ، نجحت تركيا فى الاحتفاظ بهما فى معاهدة لوزان ، لمقابلتهما لطريق الدردنيل ••

أهمية جزيرتي قبرص وكريد

اذا أردنا ان ندرك أهمية هذه الجزر العديدة فى النزاع القائم ، فلنبدأ باستبعاد جزر البحر الادرياتى ، التى لا تقدم كثيرا ولا تؤخر ، ولا تجنى منها فائدة حربية خاصة ، مع وجود السواحل الايطالية

فاذا نظرنا الى الجزر الاخرى ألفينا هنالك جزيرتين عظيمتين لابد لنا أن ننظر فى أمرهما قبل سواهما وهما جزيرتا قبرص وكريت

تجيء جزيرتا قبرص وكريد من حيث المساحة والسكان بعد جزيرتى صقلية وسردنيا، وهما متساويتان تقريبا من حيث المساحة وعدد السكان ، فكل من الجزيرتين مساحته نحو ٣٤٠٠ ميل مربع وسكانه نحو ثلثمائة ألف نسمة ، وقبرص أكبر قليلا من كريد

والآن فلننظر فيما لكل منهما من الخطر فى الموقف الدولى الحالى ، بقطع النظر عما امتازت به كل من الجزيرتين من جمال الموقع ، وغزارة الشجر والماء والمرعى

فأما جزيرة قبرص فهى فى عزلة تامة عن باقى جزر أوربا ، واقعة فى الركن الشمالى الشرقى من البحر الابيض المتوسط ، على بعد أربعة واربعين ميلا من سواحل الاناضول وسوريا على السواء • وبرغم تبعيتها لبريطانيا العظمى ، فانها قليلة الفائدة كقاعدة للطائرات أو السفن ، لبعدها عن ميادين الحرب • وسيصبح لهذه الجزيرة شأن اعظم اذا قدر لتركيا ان تلعب دورا ايجابيا فى النزاع القائم

أما جزيرة كريد فذات خطر عظيم ، ولم يكن متاحا لبريطانيا ان تنتفع بهذه الجزيرة العظيمة ذات الموقع الممتاز ، حتى اعتدت ايطاليا على اليونان ، فبادرت بريطانيا بمساعدة حليفتها الصغيرة ، فكان من أول ما عملته ان استخدمت كريد كميدان للطائرات وقاعدة للسفن والغواصات ، تتحكم منها على الطرق المؤدية الى بحر اليونان أو البحر الادرياتى • وتستطيع الطائرات ان تغير منها على جميع انحاء ايطاليا ، وبهذا تؤدى وظيفة متممة لما تقوم به جزيرة مالطة فى الغرب ، وتمتاز كريد بانها أوسع مساحة واكثر منعة من مالطة • واليوم وقد التجأت حكومة اليونان الشرعية الى هذه الجزيرة فقد ازدادت بذلك شأنا ، وليس بمستبعد عليها أن تكون اليوم وسيلة لانقاذ بلاد اليونان مما هى فيه من

محنة ، كما قامت فى العهد القديم بانقاذها من ظلام الجهل والوحشية

وهنالك ميزة خاصة للموقع الجغرافى لجزيرة كريد خلاف ما تقدم ذكره ، وذلك انها تهدد طرق المواصلات بين ايطاليا ، وبين مجموعة الجزر الشرقية التى تسلكها ايطاليا ، واشهرها جزيرة رودس ، فان جزيرة كريد تعترض الطريق الذى يصل ايطاليا بمستلكاتها ويجعل من المتعذر عليها ان تمدها بما تحتاجه من الذخيرة والعتاد الحربى

استولت ايطاليا على جزر الدوديكانيز وجزيرة رودس بعد الحرب العالمية الماضية ، وكانت تطمع فى اكثر من هذا ، بل كانت تريد الاستيلاء على قسم عظيم من الاناضول ، فلما حيل بينها وبين ما تشتهى اكتفت بهذه الجزر ، لكى تكون نقطة تثب منها فى المستقبل الى ما تريد امتلاكه فى شرق البحر المتوسط ، وجزيرة رودس لا تبعد عن تركيا بأكثر من عشرة أميال ، ولقد كان هذا التهديد الايطالى من أقوى الاسباب فى نفور تركيا من المحور وسياسته ، وميلها الى سياسة الدول الديمقراطية ، ولم تستطع الحكومة الفاشستية ان تخفى أن لها أطماعا فى الجانب الشرقى من البحر المتوسط

***

أما باقى الجزر فى البحر المتوسط الشرقى ، فانها تكون أرخبيلا عظيما ، بعضها يتوسط بحر اليونان والبعض ملاحق لسواحله الشرقية أو الغربية واليوم وقد بسطت ألمانيا سلطانها على بلاد اليونان ، فقد استطاعت أيضا أن تستولى على الكثير من هذه الجزر ، ولا شك فى أن هذا قد اكسبها ميزة خاصة وهى أن طريق بحر اليونان الى الدردنيل والبسفور لم يعد طريقا مأمونا للسفن البريطانية

ولكن ألمانيا لن تفيد من هذه الجزر الكثيرة فائدة عظيمة الا اذا أتيح لها اسطول حربى ذو شأن ، وليس هذا بمتاح لها بعد ، وكذلك تستطيع ألمانيا ان تفيد من هذه الجزر اذا أرادت ان تتخذ نحو تركيا خطة العدوان . فتهاجمها فى صميم بلاد الاناضول ، مستخدمة الجزر الكبيرة مثل خيوس ومدللى كقواعد للهجوم . وهى خطة لا تخلو من مشقة وتحتاج أيضا الى مدد من السفن ، والحوادث وحدها ترينا اذا كان نجاحها أمرا ميسورا

محمد عوض محمد



العدو الأكبر للسعادة

بقلم محمد كامل سليم بك

السكرتير العام لمجلس الوزراء *

لا تيأس اذا المرض أصابك ، واذا الحزن دهمك ، واذا الاخفاق صدمك ، واذا الصديق خدعك . واذا العدو غلبك ، واذا الحظ نكبك ، إذ مهما اضطربت الامور وأظلم الجو ، فانك بالصبر والعمل والشجاعة منتصر لا محالة

في يوم من الايام زارني صديق وفاجأني بقوله انه سئم الحياة وصمم على الانتحار . ظننته اول الامر مازحا ، ولكني ما كدت اتفرس في وجهه قليلا حتى وجدت عينيه زائغتين ، وملامحه طافحة بسيل من الكآبة والبؤس ، ولونه قاتما يميل الى الصفرة ، فزال من نفسي كل شك في أمره ، واستولت على دهشة اليقين من عزمه وقلت له في جد أليم : « أمثلك أنت يفكر في ارتكاب هذه الفعلة الشنعاء ؟ هل أنت مصاب بمرض غير قابل للشفاء ؟ » فأجاب بالنفي . قلت له : « هل أفلست فأصبحت لا تملك شيئا ؟ أم ارتكبت جريمة افتضح أمرك فيها ، أو أخذ ضميرك يوبخك عليها ؟ » قال لا هذا ولا ذاك ، ولا ترهقني بالسؤال فما حضرتك الا لأوصيك بأولادي الصغار ، ثم سكت وسكت في جو رهيب . وكانت فترة السكوت فرصة للتفكير ، من ناحيتي على الاقل

صديقي هذا رجل لن يرى الثلاثين من عمره مرة ثانية لانه تجاوزها من زمان طويل وزحف الى حدود الاربعين فبلغها أو زاد . وهو باعترافه في صحة ويسر ، أو على الاقل في غير مرض أو عسر ، وهو في أمن من عقاب القانون وتوبيخ الضمير ، وهو باعتراف الناس رجل مثقف مهذب عظيم النشاط والذكاء ، وهو باعترافي رجل شديد الحياء سيء الظن بالناس جميعا

فما الذي دهاه أخيرا حتى حمله على التفكير في الانتحار ، وارتكاب العار الذي ليس بعده عار ؟ هذا ما عقدت حبل العزيمة على كشفه ، والاهتداء الى سره الدفين . فقلت له : « يا عجبا . انني سألت ذات يوم خمسة من اصدقائي عن رأيهم في السعادة ، فقال أحدهم ان السعادة هي الصحة ، وقال الثاني انها المال ، وقال الثالث انها العلم ، وقال الرابع انها الشهرة وحسن السمعة ، وقال الخامس انها خلاصة الصحة والمال والعلم والشهرة معا . على هذا الاساس كان يجب أن تكون سعيدا لان عندك من هذه العناصر نصيبا

---

* ألقيت هذه المحاضرة النفيسة بمحطة الاذاعة اللاسلكية بالقاهرة

موفورا ، فلماذا انت شقي كل هذا الشقاء ؟ » فابتسم صاحبي ونظر الى وقد لاذ جانبه وتدفق بالشكوى مما يلقاه من همه الثقيل ، واطلعني على كل التفصيل . واذا خلاصة ذلك كله خلافات حادة على ميراث ، ثم مخاوف عدة تملأ صدره من الحاضر والمستقبل ، فهو يخاف على نفسه من الامراض عندما تعبث به السن ، ويخاف من اخطار الحرب وويلات الغارات الجوية التي قد تمتد الى مصر في يوم من الايام . خلافات ومخاوف هي كل ما هنالك . ولو كنت مكانه ما كان لها في نفسي كبير وزن . ولكن صاحبي قد شقي بها وأصبح حزينا يائسا : حزينا لانه طمع في أمور لم يحصل عليها ، ظنها تغنيه وقد تضنيه ، وظنها تسعده وقد تشقيه ، وكان يائسا لانه امتلأ خوفا ورعبا . فهو محروم من راحة البال ، محروم من الشعور بالامن والطمأنينة وهذا وذاك في الواقع سر السعادة ولبابها . فما زلت به اناقشه حتى استطعت ان أردهما اليه بعد ان وفقت بالتحليل والتعليل ان اكشف له عن نواحي الخطأ والشطط في استجاباته للمؤثرات التي سببت حزنه ويأسه . وأخيرا اتفقنا على اتباع سياسة جديدة اعتدلت بها النظرات ، واستقامت بها التقديرات ، وقلنا هي تجربة جديدة تستحق على كل حال ان تجرب ، وانه ليسعدني الآن ان أصرح بان التجربة قد نجحت بعد ان مضى عليها عام وصاحبي اليوم حي يرزق ، انعم ما يكون بالا ، وأسعد ما يكون حالا

سيداتي ، سادتي

لقد سقت هذا الحديث ولي من ورائه قصد واحد، هو استخراج ما عسى ان يكون فيه من عبرة . فما ينبغي ان تمر الاحداث من غير ان يستفيد الانسان من دروسها وعبرها

العبرة الاولى : هي ان الحزين اليائس يستطيع ان يعيش ويسعد اذا وجد في الوقت المناسب من يرشده ويهديه ، ويعالج اسباب همه وما يعانيه ، ولكن الحزين اليائس لسوء الحظ لا يدرك هذا ولا يتصوره ، ويسرع الى ارتكاب جريمته الشنعاء ونفسه ثائرة ثورانا عظيما يختل معه كل توازن ، ولا يعود يرى الامور على حقيقتها . فالخير في نظره يتضاءل حتى يفنى ، والشر يتضاعف حتى يطغى ، فيبالغ في مصائبه ومتاعبه الحاضرة ، ويجزع ويهلع من مصائب موهومة تنتظره في المستقبل ، ويحاول الفرار منها كما يفر الجبان المذعور . وان قلبي ليذوب أسى وأسفا كلما سمعت أو قرأت ان طالبا انتحر لانه سقط في الامتحان ، وان امرأة انتحرت لان زوجها تركها الى غيرها ، وأن شابا انتحر لسبب رآه خطيرا لا يحتمل ، ويراه الناس تافها سخيفا . هؤلاء جميعا كانوا اليوم يعيشون وينعمون بالحياة ، كما يعيش صاحبي اليوم وينعم ، لو انهم لجأوا الى الناصح الهادىء الرشيد قبل ان يتعجلوا الفناء . فالحذر الحذر من اليأس والقنوط والحذر الحذر من التفكير في الانتحار لاى سبب من الاسباب . فلهذا وذاك علاج وشفاء ، يحمي من الشقاء والفناء

ونصيحتي التي ابعث بها الى كل حزين بائس ، وكل قانط يائس ، هي « لا تيأس : اذا المرض أصابك ، واذا الحزن دهمك ، واذا الاخفاق صدمك ، واذا الصديق خدعك ،

واذا العدو غلبك ، واذا الحظ نكبك . اذ مهما اضطربت الامور وأظلم الجو ، فانك بالصبر والعمل والشجاعة منتصر لا محالة .

واما العبرة الثانية التى يمكن استنباطها فهى أن الانسان لا يسعد بالماديات بقدر مايسعد بالمعنويات ، أو قد يشقى بالمعانى والاوهام رغم توافر اسباب النعيم المادى حوله . فلو أن السعادة تتوقف على صحة الجسم وسلامة الاعضاء ، لكان صاحبى سعيدا لا بائسا ، ولو أن السعادة تتوقف على العلم أو المال أو الشهرة ، ما كان صاحبى شقيا ، وكثيرا ما وجدت بين الانقياء من المرضى من هم أكثر رضا وقناعة وسعادة من الاصحاء ، ووجدت بين الجهلاء والفقراء والمغمورين من هم أكثر هناءة وسعادة من المتعلمين والاغنياء والمشهورين

فالسعادة اذن لا تنال بالصحة ، ولا تشترى بالمال ، ولا تكتسب بالعلم أو الشهرة ، وان كان لهذه العوامل كلها نصيب محدود فى تحصيلها . انما تتوقف السعادة على الحالة النفسية ، أى حالة العواطف ثم على نظرة الانسان الى الحياة واستجاباته لمؤثراتها . فاذا كانت النظرة خاطئة والنفس مضطربة فلا سعادة ولا سلام مهما كان عند الانسان من متع الحياة . وان خير الوسائل وانجعها للحصول على السعادة هى ان يكون الانسان مفيدا للمجتمع ثم يعمل فى الوقت عينه على اسعاد من حوله فى الدائرة التى يعيش فيها سواء أكان ذلك فى بيته أم فى دائرة عمله ، فان سعادتهم ترتد اليه ، فيسعد كما يسعدون

سيداتى وسادتى

ان للسعادة اعداء كثيرة تعمل على اتلافها ، فهل تعلمون اكبرها واخطرها ، واكثرها شيوعا ؟

هل تعلمون العدو الاكبر الذى ينغص الحياة ويقوض السعادة ، بل يمحوها محوا ولو كان الانسان أغنى الاغنياء واعظم الناس صحة وعلما وجمالا وكمالا . اذا كنتم لا تعرفونه فاعرفوه لتتجنبوه ، أو قاوموه لتقهروه . ذلك العدو هو « الجبن أو الخوف الشديد » وللخوف صور وألوان ، تصاحبه فى كثير من الاحيان ، وهى القلق والاضطراب والهلع والجزع والذعر واليأس . ومحال ان تعيش السعادة فى مثل هذا الجو المسموم . وهنا يعرض سؤال يحتاج الى جواب وايضاح وهو : « هل الخوف كله عيب فى الطبيعة ونقص فى الفطرة ومرض يحتاج الى المقاومة والعلاج ؟ » والجواب عن ذلك بلا ونعم . فهناك خوف وخوف . خوف صحى طبيعى ، وخوف مريض شاذ . والخوف فى أصله عاطفة غريزية أودعت فى الانسان للمحافظة على كيانه وحياته . ولا يوجد انسان فى الدنيا يستطيع ان يزعم ان الخوف لا يعرف الى قلبه سبيلا الا اذا كان يستطيع ان يدعى انه لا يحب ولا يكره ولا يجوع ولا ينام

على أن هناك فرقا هائلا بين خوف الشجاع وخوف الجبان . فالشجاع حين يخاف يعرف كيف يضبط خوفه فى حدود بفضل ما عنده من العزم والفهم أو المبادىء العالية ثم هو يستفيد من خوفه فلا يتهور ، وانما يفكر فى دقة لتلافى الخطر ثم يعمل فى حذر واتقان

واما الجبان حين يخاف فانه يضطرب ويطيش ، ويهلع ويجزع ، وقد يصرخ ويبكي ولا يعرف غير الهرب والفرار

الخوف الاول صحي وطبيعي ولا بد منه ، وهو مصدر الدقة والحذر والاتقان . والثاني الخوف المريض الشاذ الذي يشف عن مرض في النفس وشذوذ في الطبيعة ، أو جهل لا يليق بالانسان . ومن شأنه ان ينغص الحياة ويضاعف الآلام كما نغص حياة صاحبي وضاعف آلامه . وهذا النوع من الخوف هو ما اعتبره العدو الاكبر للسعادة . وله مظاهر تثير الضحك لولا انها تثير العطف والرثاء . فمن الناس من يخافون من المكروبات في كل ما يأكلون أو يشربون أو يلمسون ، ومنهم من يخافون مجرد المرور على الكباري خشية ان تنهدم ، ويخافون ركوب الطائرات خشية أن تسقط ، ويخافون ركوب البواخر خشية أن تغرق ، ويخافون ركوب القطار ليلا خشية ان يصطدم أو ينقلب ، ويخافون من الظلام ومن السير في الميادين الواسعة اذا خلت من الناس والسيارات ، ويفزعون لسماع صفارة الانذار من الغارات الجوية فزعا شديدا ، ويصور لهم الخوف أن القنابل ستسقط عليهم . فاذا انطلقت الصفارات مؤذنة بزوال الخطر وعودة الأمن ظلوا خائفين من الخطر متشككين في الامن . هؤلاء جميعا يعيشون وكأن كابوسا يجثم على صدورهم ، ويقضون ايامهم وأعوامهم في اضطراب نفسي لا يعرفون معه الاستقرار والاطمئنان والسعادة . هذه أمثلة للخوف المريض الشاذ في أشد حالاته . ولكن لهذا الخوف مظاهر أخرى أقل حدة وشدة تبدو في الحياة العادية اليومية فتنغصها وتحرم الانسان من الطمأنينة وراحة البال

فالخجل أو الحياء الشديد يربك صاحبه في المجتمعات ويمنعه من الخطابة اذا أراد بل من مجرد الحديث وابداء الرأي . وكم من آنسة مصرية منعها الحياء الشديد من اظهار مواهبها ومقدرتها على الغناء والعزف على البيانو حتى امام صديقاتها والمعجبين بها . والتردد يربك صاحبه ويمنعه من البت بقرار حاسم في شؤونه الخاصة ويتركه كالريشة في مهب الريح لا تستقر على حال . والتشاؤم يشقي صاحبه ويلبسه منظارا اسود فلا يرى الا الظلام ويصبح كل هاجس أو خاطر سببا للازعاج والتألم من امور لم تقع بعد وربما لا تقع . هذه الحالات وما اليها تنبعث عن هذا الخوف الكريه الذي اعتبره العدو الاكبر للسعادة .

ولقد اثبت علم النفس ان هذا النوع من الخوف انما تبذر بذوره الخبيثة في زمن الطفولة أو في مطلع الشباب . وما يزرع في هذه السن المبكرة يكون افتك أثرا ، واشد خطرا ، وأطول عمرا وأصعب علاجا من أي خوف آخر

فالطفل الذي يضرب في قسوة وجفاء ، أو يعير لنقص في خلقته ، ويهدد بالعقاب والتعذيب بمناسبة وبغير مناسبة أو يتعرض لسخرية المدرس وايلامه امام زملائه التلاميذ يعيش حياته كلها في خوف من الناس وذعر من الاجتماعات ، واذا قابل في مستقبل ايامه من هو أكبر منه قوة واعظم نفوذا وسلطانا ، شعر بالاضطراب والانزعاج في حضرته ، ولم يستطع ان يحصر افكاره في الحديث ، ولا ان يظهر كفايته على حقيقتها ، ثم هو في

الوقت عينه يشعر بالرغبة الشديدة فى ارضاء هذا الكبير أو الرئيس اذ يعاوره له الخوف والهلع انه ان لم يفعل تعرض لسخطه واضطهاده وعقابه الشديد . والام التى تضرب ابنتها لسبب تافه ثم تعود فتصالحها وتدللها انما تضع لها اساسا فاسدا من اضطراب الاعصاب والشعور بعدم الامان . ومن الامهات والمربيات من يشعرن بالفزع من الرعد اذا قصف ، والظلام اذا حلك ، والكلب اذا هجم . وهذا الخوف المنوع يشقيهن كثيرا . واذا بحثنا عن تاريخه وأصله وجدناه قد زرع فى نفوسهن منذ كن اطفالا فلا حيلة لهن فيه . ولكن عليهن الا يظهرن هذا الخوف أو الفزع امام اطفالهن والا انتقل الى نفوسهم الصغيرة واتلف أعصابهم ولازمهم طوال حياتهم . ولهذا كانت مسؤولية الآباء والامهات والمربين والمدرسين فى تنشئة الاطفال مسؤولية جسيمة ليس اعظم منها ولا اخطر على الصحة والسعادة فى مستقبل الايام

وعلاج الخوف فى الكبر عسير جدا ، ولكنه مجهود يجب ان يبذل على كل حال والا استحالت الحياة جحيما . وما على المرأة التى اعتادت الخوف والرعب والرجل الذى تعود الخوف والذعر ، الا أن يسائل كل منهما نفسه ويحاسبها على الوجه الآتى فى كل موقف يدعو الى الخوف الشديد :

لماذا أنا خائف الآن ؟ وما الفائدة العملية التى اكسبها من وراء هذا الخوف ؟ وما الضرر الذى يصيبنى اذا كنت لا أشعر بالخوف ، وما هو الخطر على اذا كنت اشعر شعورا طبيعيا الآن ؟ هذا التساؤل اذا تكرر المرة بعد المرة فى مواقف الخوف فانه يخفف من حدته ، وقد يزيله بالتدريج ، فتعود النفس الى حالتها الطبيعية على مرور الزمن . فاذا كان الخوف مع ذلك متأصلا تأصلا عميقا فى اغوار النفس بحيث لا يجدى معه هذا التساؤل وهذه المحاسبة ، فعلى الخائف المذعور ان يحدد الظروف ويعين المواقف التى يشتد خوفه فيها . وليتناقش فيها مع اصدقائه ، أو يقرأ قصص الشجعان ومواقفهم ، وليراقب سير الشجعان من ابناء وطنه ، وليحاول احتذاء مثالهم فى اقوالهم وافعالهم . وهو واجد من غير شك نتيجة طيبة من وراء هذه الدراسات

وانه ليسرنى فى هذا المقام ان أصف منظرا بديعا رأيته فى أحد الفنادق الكبرى منذ سنوات عدة ، وهو مع ذلك حافظ لجدته وروعته فى نفسى كأنه وقع أمس . فقد كنت جالسا أتناول الشاى وعلى مقربة منى أسرة انجليزية مؤلفة من رجل وزوجته وولدهما الذى لم يتجاوز الخامسة أو السادسة من عمره . أشار الرجل الى الخادم فحضر ، وطلب منه ويسكى بالصودا لنفسه ، وطلب لزوجته شايا كاملا بالفطائر والشطائر (الجاتو والسندوتش) ، ولولده كوبا من عصير البرتقال . عاد الخادم بعد قليل حاملا صينية كبيرة وضعها امامهم وعليها هذه الاصناف . وما هى الا فترة وجيزة حتى انحنى الطفل لينتشل منديله الذى سقط على الارض . وبينما هو يهم بالاعتدال صدم رأسه الصينية

(البقية على صفحة ٦٤٨)

يدافع الاميركيون اليوم عن قضية الديمقراطية ، ويقفون الى جانب الحلفاء فى الدفاع عنها ، والعمل لنصرتها ، ويمدونهم بالمساعدات الحربية العظيمة ، فكيف يفهم الاميركيون الديمقراطية وكيف يعيشون فيها ـ هذا ما يتناوله الكاتب الكبير امير بقطر رئيس قسم التربية بالجامعة الاميركية بالقاهرة فى هذا المقال النفيس

الديمقراطية كما يفهمها الأميركان

بقلم الدكتور أمير بقطر

١ ـ ما هي ؟

الديموقراطية كما يفهمها الاميركان آلة اجتماعية تقوم بخدمة الأغراض الانسانيـة ، وحل مسائل الأفراد والجماعات . وهي وسيلة لا غاية في ذاتها . وبين السطور تقرأ في هـذا التعريف الاشارة الى مبادىء وعناصر ، قلما تعنى بها الديموقراطية خارج أميركا . ألا ترى ان هذه الآلة اجتماعية ، قبل أن تكون سياسية أو حكومية ؟ وانها انسانية عالمية ، قبل أن تكون قومية ؟ وانها أشد تقديساً للفرد منها للجماعة ؟ أولا تراها خارج أميركا على النقيض من ذلك سياسية حكومية أكثر منها اجتماعية ؟ قومية تكاد تكون متطرفة ، أو على الاكثر وطنية أكثر منها إنسانية عالمية ؟ أشد تقديساً للجماعة منها للفرد ؟

لا يسع الغريب فى أميركا إلا أن يتلمس الديموقراطية فى كل ما يقع عليه حسه . يتنفسها فى الهواء ، ويتذوقها فى الطعام والشراب ، ويقرؤها فى الصحف والمجلات ، ويسمعها فى الخطب والمحاضرات ، ويشاهدها فى المطاعم وأماكن اللهو ودور التعليم . واذا ما غادر أميركا ، وواصل علاقاته بأهلها وكتبها ومؤلفاتها ، كادت تصبح « الديمقراطية » فى نظره اسماً مبتذلا لما ينالها من كثير الذكر والتكرار ، ولكن الاميركان لا يملون سماع هذا الأسم ، ولا يسأمون التكرار ، لأن الديمقراطية فى نظرهم « عقيدة ، وإيمان ، ورجاء ، وبروجرام » كما يقول الفيلسوف المربى، وليم كلبترك ، فى مؤلفه الاخير « تربية الجماعة للديمقراطية »

« يولد الناس جميعهم متساوين (All men are born equal) بهـذه العبارة استهل الاميركان وثيقة الاستقلال المشهورة . ويقصد بالمساواة هنا المساواة فى الفرص . ومن الاقوال المأثورة التى تلوكها الألسن فى أميركا ان « لكل رجل الحق أن يكون رئيس الجمهورية » ففضلا عن الحريات

والمساواة فى الحقوق والواجبات المعروفة فى جميع الديمقراطيات ، فان النظام التعليمى والاجتماعى فى أميركا يزيل كل حائل يعترض نجاح الفرد ، وكاد يهدم نظام الطبقات الاجتماعية هدما تاماً . فمن المناظر المألوفة هناك أن ترى رجلا من كبار الماليين أو السياسيين يأكل فى مطعم عام وبجانبه عامل بملابسه الزرقاء الملوثة . ولا يستغرب أحد اذا سمع سيدة راقية تقول ان ابنها الاكبر جراح شهير والاصغر يعمل نجاراً فى مصنع . وفى تاريخ أميركا فترات نادى فيها البعض بايجاد زعامة ارستقراطية مستنيرة تحكم الجماهير ، أمثال الكسندر هملتون ، وجون آدمز ، وهنرى جيمز ، بيد ان أشد هؤلاء تطرفا ، لم يخطر بباله يوماً أن يمس جوهر المبادىء الديمقراطية بسوء

٢ — ما نعنى به الديمقراطية فى أميركا

عنيت مصر الفرعونية بالزراعة والرياضة وأصول الكتابة ، وعنيت اليونان بالفن والفلسفة ، وعنيت روما بالقانون والتشريع ، وعنى الشرق بالدين والروحيات ، وعنيت المدنية الغربية بالعلم والصناعة ، ولكن الديمقراطية فى أميركا فذت فى ذلك سائر الأمم الغربية ، فتغلغل العلم والصناعة فى حياة أهلها الى أبعد حد . ويعزى ذلك الى أسباب رئيسية أربعة :

أولا — لأن نهضتها الصناعية جاءت فى زمن أينع فيه العلم وازدهر

وثانياً — لانعزالها عن سائر القارات خصوصاً فى ذلك الزمن ، فقد كانت هذه العزلة أشد حافز لها على العمل والاعتماد على النفس

وثالثاً — لالتجائها الى الطريقة العلمية (١) فى حل معضلاتها الاقتصادية والاجتماعية

ورابعاً — لوفرة موارد الثروة فيها . وكما أن الدين فى روسيا القديمة كان أفيون الشعب ، والأفيون فى الصين دين العامة ، فكذلك العلم فى أميركا دين الأمة

وقد ترتب على هذا أن انصرف هم الديمقراطية فى أميركا الى جعل طيبات الحياة ووسائل الراحة فى متناول الجمهور . فقطع الأثاث الجميل الفنى يخرج منها المصنع الواحد الملايين بأبخس الأثمان وبالتقسيط ، حتى يتسنى للفقير أن يرى بيته غنياً بالفراش والمقاعد والمكاتب وأدوات الزينة والبيانو والحاكى والمذياع والتليفون والحمام والماء الساخن والبارد ، فضلا عن وسائل التدفئة والمصعد الكهربائى والسيارة ، ومعاهد العلم المجانية من مدارس الحضانة ورياض الأطفال الى الجامعة . والأزياء البديعة التى يحتكرها الأثرياء فى أوروبا ، يبتاعها مصنع أميركى بأثمان باهظة ، ثم يخرج منها الملايين ، ويبيعها الى المحال التجارية ، فتشترى السيدة الأميركية منها فستاناً أنيقاً

(١) وتتلخص هذه الطريقة فى جمع المعلومات قبل الشروع فى حل المسألة ، وترتيبها ودرسها ، وإعداد عدة فروض احتمالية على ضوئها ، وتجربة كل فرض Hypothesis ثم اختباره واستثمار النتائج لوضع الأصول والقوانين ، مع الاستعانة فى كل ذلك بالطريقتين الاستنتاجية والاستقرائية وبالقياس الكمى

حديث الزى ويتعهد صاحب المحل باصلاحه ، ولا يكلفها كل هذا سوى ريالين ، ولا يضيرها أن ترى فى اليوم التالى مثله على أجسام الملايين من بنات جنسها ، ويتسنى لها كذلك أن تشتري جوراباً جيلا بخمسة قروش ، وحقيبة يد بخمسة عشر قرشاً ، وحزمة ورق لكتابة الرسائل بغلافاتها ببضعة قروش - كل هذه يدفع فى شرائها أضعاف أضعاف أضعافها خارج أميركا

بجانب هذا قد يبلغ الترف حد الأحلام ، فيدفع الرجل فى معطف من الفرو ألف جنيه مصري ، ويستأجر أحد سكان الضواحى « شقة » غير مفروشة فى بارك ستريت فى نيويورك ، يختلف اليها مع أسرته وأصدقائه من حين لحين ، بستمائة جنيه مصري فى الشهر الواحد . . . ولكن المدهش أن هذا الترف لا يأبه به أحد ، وسيان فى نظر الجمهور أن تنفق قليلا أو كثيراً

ومن الأمثلة على سهر الديمقراطية فى أميركا على راحة الجماهير ، أنه فى سنة ١٩٣٠ أنفقت الولايات على الطرق العامة للسيارات ٢٥٠ مليونا من الجنيهات المصرية ، حينما رأت أن السيارات رتفع عددها فبلغ سيارة لكل أربعة من السكان

وتعنى أميركا أن تكون ديمقراطيتها عالمية قبل أن تكون قومية . ولكن الكثير من الأمم الأخرى يعلل هذه الظاهرة بقوله أنها ضرب من حب الذات ، وأنها ترمى الى أغراض أنانية الا إنسانية . فاذا ما خاضت الحرب بجانب فريق من المتحاربين أو مدت لهم يد العون ، قيل إنها تفعل ذلك إبقاء لكيانها ، وإذا ما أنشأت مؤسسة روكفلر أو كرنيجى مراكز علمية للبحث فى انجلترا والصين واليابان ومصر وسائر أنحاء العالم ، قالوا انها دعاية أميركية . وإذا ما انتشرت رسالاتها فى بلدان العالم وأسست المدارس والملاجىء والمستشفيات ، قالوا ان لها أغراضاً دينية . وهذا الزعم قد أشار اليه الفلاسفة من عهد الاغريق الى يومنا هذا . فالكثير من الناس يزعم إن ذلك المحسن الذى يطعم الجائع ويكسو الفقير ، انما يفعل ذلك طمعاً فى السعادة فى الحياة الأخرى ، أو لأنه يخشى ان يكون مصيره أو مصير المقربين اليه كذلك الفقير الجائع العارى . على أن هذا النوع من التفكير والتعليل يعزى الى عقول مريضة ونفوس مسمومة . قد يكون الدافع الى الاحسان الأنانية وحب الشهرة أحيانا ، ولكن من الخطأ ان نظنه كذلك فى كل حين

وان كان للديمقراطية الاميركية نزعة دينية فى الظاهر ، فانما السبب فى ذلك تاريخى محض . أولم تكن الأفواج الأولى التى نزحت الى أميركا من أوروبا ، من الذين هاجروا من بلادهم فراراً من الاضطهاد الدينى ؟ أو لا يطلق عليهم اسم الحجاج ؟ أولا يكتبون على العملة الاميركية جملة « عليك نعتمد » كما يكتب الحجازيون على علم البلاد « لا إله إلا الله محمد رسول الله » لأسباب تاريخية كذلك ؟

ومن الغريب أن لأميركا فى نظرتها للدين روحا رياضية (Sport) تدعو للدهشة . فهم يمتنعون عن تدريس الدين فى المدارس العامة الابتدائية والثانوية خشية أن يصطدم التلاميذ بآراء تخالف

مذاهبهم . وفى الرواية الشهيرة « المراعى الخضراء » التى دام تمثيلها عدة سنوات مرتين كل يوم بغير انقطاع ، جعلوا فيها بطل الرواية « الله » وصوروه للنظارة كواحد من الناس يشبه مستر ابرهام ، وجعلوا كل الممثلين من الزنوج ، واتخذ « الله » فى الرواية طبيعة الانسان . يحس ويغضب ويتألم ويشعل سيجارة يقدمها اليه الملاك جبرائيل . ويهدد بالاستقالة لأن وظيفته « ليست فراشاً من الورد » ، ولأن بنى آدم زاغوا وفسدوا ، ويندم لأنه خلقهم على صورته . وبعد رواج الرواية الى هذا الحد سافرت فرقتها التمثيلية الى انجلترا فطردهم الانجليز وأبى الناس هناك أن يروا الله زنجياً والمسيح زنجياً والانبياء والملائكة عبيداً سوداً

٣ – عيوب الديمقراطية كما يراها الاميركان

يشكو الاميركان أولا بطء الأداة الحكومية الديمقراطية، مثال ذلك انهم قضوا أربعة عشر عاما يتألمون من قانون تحريم المسكرات ، ومع ذلك فقد ثبت القانون ضد ارادة الأمة ذلك الزمن الطويل ، لأن تعديل الدستور يجب أن يوافق عليه ٣٦ ولاية على الاقل (ثلاثة أرباع الولايات) وثلثا أعضاء الكونغرس . وقد كان ذلك التعديل الثامن عشر ويريد الأميركان أن يكون الدستور مرنا قابلا للتعديل بسهولة وبسرعة

ويشكون ثانياً تعدد الموظفين ، والوحدات اللامركزية ، وما يترتب عليها من النفقات والضرائب . مثال ذلك أن فى ولاية نيويورك وحدها يوجد ١١٦١١ وحدة حكومية ، منها ٩٦٠٠ منطقة للتعليم (مصر تشكو من ٨ مناطق) . وقد بلغت النفقات فى هذه الولايات وحدها فى سنة ١٩٣٠ ، ٢٨٥ مليون جنيه مصرى . وبلغ عدد الهيئات التشريعية فى جميع الولايات ١٠٠ر٠٠٠ هيئة ، والقوانين المعمول بها ، بما فى ذلك الأوامر ، نيفاً ومليونين

ويشكون ثالثاً من أن الرقابة معقدة الى حد لا يصح السكوت عليه . فكل من مجلسى النواب والشيوخ رقيب على الآخر ، وكل منهما رقيب على رئيس الجمهورية ، ورئيس الجمهورية رقيب على كل من المجلسين . وفضلا عن ذلك فان محكمة الاستئناف العليا فى واشنطون رقيبة على التشريع المحلى فى جميع الولايات وفى الكونجرس كذلك . كما أن كل ولاية رقيبة على محكمة الاستئناف العليا بطريقة غير مباشرة ، وذلك لأن تعديل الدستور لا يتم كما قلنا الا بموافقة ثلاثة أرباع الولايات على الأقل

ويشكون رابعاً من أن السلطة القضائية تطغى على السلطة التنفيذية ، ويعزى هذا الى السلطة الكبيرة الممنوحة لمحكمة الاستئناف العليا فى واشنطون ، فى بحر المائة والخمسين السنة الماضية لم تقتصر وظيفتها على تفسير القوانين وحسب ، وانما تعدتها الى الحكم بابطال القوانين التى تصدرها الولايات والحكومة المركزية ، بدعوى أن هذه القوانين مخالفة لنصوص الدستور . وعدد أعضاء هذه المحكمة تسعة غير قابلين للعزل

ويشكون أخيراً من عدم توزيع الثروة توزيعاً عادلا ، بالرغم من أن الأرقام تدل على أن متوسط دخل الفرد ٣٤٦ جنيهاً مصريا فى العام وهى أكثر من ضعف أعلى مستوى فى جميع بلدان العالم

٤ – تطور الديمقراطية

لم تعد الحريات المعروفة (الكلام والصحافة والدين والانتقال الخ) وحدها كافية للتعبير عن حقوق الفرد فى الديمقراطية . الديمقراطية كما يفهمها الاميركان اليوم تشمل حق الفرد فى العمل ، وحقه فى تقاضى مرتب أو أجر ، وحقه فى العلاج مجانا ، وحقه فى التأمين الاجتماعى والاقتصادى، وحقه في التربية مجانا .

وقد كان حق التمثيل فى المجالس النيابية بنسبة الأغلبية والمناطق ، ولكن الأميركان أخذت عقيدتهم تتزعزع فى هذا المبدأ ، وشرعوا يفكرون فى التمثيل العملى (functional) الذى يتخذ النوع لا الكم مقياساً للتمثيل . وقد كانت العدالة مبدأ مطلقاً جامداً لا يتأثر بتأثر الأحوال ، فأصبحت فى نظرهم اليوم رهينة للملابسات والظروف والوقائع (pragmatic) . وقد كانت الملكية والأرباح والعقود والمنافسة كلها ينظر اليها من ناحية الفرد ، فأصبحوا اليوم ينظرون اليها من ناحية الجماعة . وكذلك أخذت المسائل الاقتصادية تخضع لخطط عامة موضوعة (planning) بدلا من أن تكون فردية ، وأخذت القومية تخضع فى نظر الأميركان للعلائق الدولية الأممية ، لا للوطنية الأنانية المتطرفة . وتدل الشواهد على أن عصر الحرية الفردية (laissez-faire) قد ولى وأخذ عصر الجمعية (collectivism) فى الظهور . على أن الكثيرين لا يوافقون على أن تغييراً كهذا قد حدث فعلا . فعصر الرئيس هوفر يدل على الفكرة الاولى ، على أن عصر الرئيس روزفلت يكاد يكون أشد ميلا الى الثانية

وقد نشأ عن الميل لفكرة الجمعية وضع قيود للحرية كما يتضح من الامثلة الآتية :

هذه ولاية تنيسى ، يعتقد أبناؤها أن لهم الحق فى منع تدريس نظرية دروِن فى مدارسهم . ويعتقد الكثيرون من أعضاء الكونغرس أن كلمة « الشيوعية » ينبغى أن يمتنع الدرسون والاساتذة فى واشنطون من الاشارة اليها أو التلفظ بها . وتحرم ولاية ماساشوستس على المعلم أن يزاول مهنته قبل أن يقسم يمين الولاء للولاية والدستور . وتحرم محكمة الاستئناف العليا على أستاذ فى جامعة ييل بأن يتمتع بالرعوية الاميركية ، لأنه يرفض بتاتاً أن يتعهد بأن يتطوع فى حرب أياً كانت ، وإن كانت أميركا هى المعتدي عليها . وفى كثير من الولايات يحرم استعمال كتب دراسية تشمل تعاليم ونظما اجتماعية لا تتفق وميول أبنائها . وهناك كليات ومعاهد أنشئت بأموال خاصة، وأوقفت عليها عقارات خاصة ، بشرط ألا يقبل بها إلا من يعتقد بالآراء والمعتقدات التى أنشئت

لأجلها . وهناك من يعتقد أن التعليم الجامعي ينبغي أن توصد أبوابه في وجوه الطلبة الذين لم يبلغوا درجة عالية معينة من الذكاء والاستعداد . وهناك من يعتقد أن الحكومة ينبغي أن تضرب بيد من حديد على الفاشية أو النازية مثلا لأنها هدامة للديمقراطية ، في حين أنها تتغاضى عن إدخال دين جديد كالبهائية لأنه لا يتنافى والديمقراطية

٥ — ما نؤاخذ عليه الديمقراطية الاميركية

تعيب أوروبا (وسائر البلدان) أميركا ، لأنها أسرفت في آرائها وفلسفاتها الديمقراطية ، حتى أصبح الجميع يرمونها بالمادية من جهة ، والاغراق في الحرية من جهة أخرى . على أن أميركا تجيب عن هذا بقولها إنها لا تجد جواً أصلح لنمو الذكاء الانسانى ، وإسعاد البشر خيراً من جو الحرية ، ولا تفهم المادية بالمعنى الذي يفهمها سواهم . فاذا كان يقصد بالمادية تقدم الصناعة الى أبعد مدى ، فان الصناعة في نظرهم وسيلة لا غاية

سافر صديق لي منذ سنوات قليلة في بعثة من الحكومة المصرية لحضور مؤتمر في جامعة هرفرد وعاد يقول إن أميركا «كلها هندسة، وإنها تسير كآلة حديدية لا كأداة يديرها عقل بشرى»

ولا شك أن الاميركى اذا طلب منه دفع هذه التهمة يجيب على الفور « فلتكن أميركا كلها هندسة ، ولكنها كذلك لتهيء أحدث وسائل الراحة والعيش لأفقر السكان »

ويعاب الاميركان لأنهم شديدو الولع بالتغيير، حتى تغيير الدستور . ويدفعون هذه التهمة بقولهم إن كل شيء في الحياة الحديثة خاضع للعلم ، كما كان كل شيء في القرون الخالية حتى الذوق السليم خاضعاً لرجال الكنيسة والدين . ولما كان العلم في تغير مستمر ، فلا مندوحة من أن تكون الآراء، المادية منها والمعنوية ، في تغير مستمر. وما العيب في الحركة ، وانما العيب كل العيب في الجمود

ويعاب الأميركان بأن شدة إيمانهم بالعلم حولت أنظارهم عن الفلسفة والفن . وهنا يهزون أكتافهم استخفافا وعجباً فيقولون : وكيف تعيش أمة عظيمة بغير فلسفة ، والفلسفة هي التي تدير دفة الحياة ؟ أليست فلسفة الحياة في أميركا أن يكون الفن جزءاً لا يتجزأ من الحياة اليومية ؟ كثيراً ما تجد الفن في البلدان الأخرى سجيناً في دور التحف والآثار والمعارض الفنية ، ولكنك تجده في أميركا في الشارع ، وناطحة السحاب ، والمطبخ ، وأزياء العامة ، وأثاث الفقراء ، وحمام الكوخ . الفن في أوربا وآسيا وقف على الطبقات الارستقراطية ، في حين أنه في أميركا متاع مشاع . الفن عند الكثيرين يوجد في التحف القديمة النادرة ، ولكن هذا في نظر الأميركيين انما هو فرار من وجه الحقيقة وهرب من الحياة اليومية العملية . في أوربا يتحدثون عن الفن لذاته ولكن الديمقراطية الاميركية تأبى أن تطلق الفن من الحياة اليومية

يقول الاميركان إن الجمال والمنفعة (beauty and utility) لا تصادم بينهما ، فالقنطرة والباخرة

والسيارة وناطحة السحاب والطريق العام، كلها قد تجمع بين الجمال والمنفعة. الفن طريق من طرق الحياة (way of life) وكل فن يدل على حياة صاحبه، ففي عصر الاغريق كان يغلب عليه التعبير عن الجمال، وفي العصور الوسطى التعبير عن الدين، وفي أميركا اليوم التعبير عن العلم والحياة الصناعية. ويقول فيلسوفهم جون ديوي شرحاً لهذه الفكرة: «من السذاجة أن نتحدث للجمهور عن الفن والجمال ونعرض عليهم صور الفن والجمال في حين أن السواد الأعظم منه يعيش في بيئة قبيحة قذرة لا جمال فيها، إذ أنه يخرج من مصنع قبيح المنظر، الى أزقة قبيحة المنظر، ثم يأوي الى كوخ قبيح المنظر، ويعيش في أحياء تنبعث منها الروائح الكريهة»

أمير بقطر

* * *

قيل للمسيح عليه السلام: «لم لا تدعو ربك أن يرزقك حماراً يريحك من مشقة السير راجلا؟»

فأجاب: «أنا أكرم على الله من أن يجعلني خادم حمار!»

يؤسفني أن مؤرخي انجلترا غفلوا عن ذكر العمل الوحيد الذي يحق لحكومتها أن تفخر به: وهي أنها أرسلت مائة جنيه هدية لبيتهوفن وهو على فراش الموت (برنارد شو)

تبدأ المرأة تتأهب للحب وما زالت رضيعة في مهدها (هوراس)

إن الصخرة الضخمة التي تعترض طريق الخامل الضعيف فتصده وتقعد به بعيداً عن غايته، هي الصخرة التي يلقي بها المجد القوي في حفر الطريق ووهداته كي يجعله ممهداً سوياً (كارليل)

ماذا بعد الحرب

للصحفى الانجليزى الكبير ويكهام ستيد

لا يصح أن تصرفنا ضربات الحرب القاصمة وأدوار القتال الخاطفة عن التفكير في اسباب نشوب هذه المعارك الرهيبة وفيما أثيرت له من الاغراض والنتائج

وما من شيء يمكن أن يخفى أو يشوه وجه الحق البين ، وهو ان هذه الحرب قامت حول الحرية الانسانية ، ودفاعا عنها أو عدوانا عليها ، ولكن اذا كنا لا نتبين معنى «الحرية» واضحا ، الا أنا نعرف جيدا ما هى « العبودية » التى تعد الهتلرية والفاشستية من بين صورها وانهاجها

واذا كنا لا نعرف الآن ما هى النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى تسفر عنها المعركة الدائرة ، الا أنا ندرك تماما ان قلوب الرجال الاحرار لن تهدأ ثائرتها حتى تقوض هذه الاوضاع والمبادىء التى تستذل أرواح الناس كما تسترق أجسادهم

وهذا ما يدعو كثيرا من الناس ، فى كثير من الشعوب ، الى ان يتخيلوا أن الصراع المحتدم فى فجاج الارض وأطباق السماء يجب ان يخلق عالما أصح بناء واجمل مظهرا من عالمنا . وهذا بدوره يحتم علينا أن نقرر منذ الآن فى وضوح واخلاص الاغراض التى ترمى اليها الحرب والاهداف التى نريد ان نبلغها حين تنتهى الحرب بنصرنا . وانما يحتم علينا تقرير نتائج هذه الحرب ايماننا بأن هذا الشعب الذى يحارب ويعانى ، الذى يصبر على التضحية والفداء ، تأييدا للحرية ، لن يحجم عن التضحية مرة أخرى ليحمى هذه الحرية من كل خطر يهددها فى المستقبل ويصيبها

ولا شك ان بريطانيا أقوى فى الحرب القائمة ـ بقواها الحربية وبروحهـا المعنوى وبمركزها السياسى ـ مما كانت فى اثناء الحرب الماضية . فيجب عليها ـ وقد ألقت على نفسها عبء الدفاع عن الحقوق والحريات ـ أن تتهيأ منذ الآن لتحقيق هذه الاغراض عندما تنجلى غمرة الحرب ويثوب العالم الى تنظيم نفسه تنظيما صالحا مثمرا . واذن فلن تكون سياستها القادمة عودة الى سياستها الماضية بما فيها من توازن القوى فى قارة أوربا، وتعيين الاوطان واقامة الحدود بينها ، وانشاء عصبة من الامم أو الشعوب .. بل يجب ان يكون غرضها القادم أعظم من ذلك واسمى ، فهو اقامة نظام عالمى سليم البنية وطيد القاعدة ، اساسه تكوين مجموعة كبيرة من الشعوب الحرة تتغلب فيها مصلحتها العامة على المصلحة الخاصة بكل شعب منها

ان من أعظم المعاني التي أسفرت عنها الحرب هذا الاقتراح العظيم بانشاء اتحاد بين بريطانيا وامبراطوريتها وبين فرنسا وامبراطوريتها ، يجمع الدولتين الكبيرتين وما تخللان من الشعوب الكثيرة في وحدة سياسية حربية وقت الحرب والسلم على السواء . واذا كانت حكومة بوردو قد اضطرت الى رفض هذا الاقتراح الذي قدم اليها حين أخذت تترنح تحت ضربات هتلر من الامام وطعنات موسوليني من الوراء ، الا انه ما زال قائما نافذا بين الحكومة البريطانية والجنرال ديجول زعيم الفرنسيين الاحرار . وكذلك لا يصح ان تقتصر مزايا هذا المشروع الجليل على الشعب الفرنسي وحده ، بل يجب ان تتيسر لكل من يشاء من حلفائنا وانصارنا ، ولكل شعب يرغب في أن يساهم في مجموعة الشعوب الحرة التي لا بد من تأليفها يوم نخرج من هذه الحرب ظافرين

يرى فريق من الناس انه لم يئن لبريطانيا ان تربك نفسها ـ وسط المعركة الدائرة في ربوعها وتحت النار المندلعة من سمائها ـ بالتفكير في العالم القادم الذي تريد انشاءه بعد ما تصيب من النصر الحاسم ما ينقذها من لعنة الهتلرية . ولكن نظرة هذا الفريق تخطىء الهدف وتطيش عن المرمى اذ يغيب عنها ان للناحية المعنوية في هذه الحرب قوة قاهرة حاسمة قد تفصل في الامر اكثر مما تفصل قوة الحديد والنار . فاذا فهمنا هذه القوة فهما بينا ، واذا أحسنا توجيهها واستثمارها ، عاونتنا على بلوغ النصر العاجل والسلام الوطيد

ولا شك اننا نقدم للعالم خيرا عظيما باتخاذنا مبدأ الاتحاد مع الشعوب الحرة ، هذا المبدأ الذي يخول لنا حق التوجيه والقيادة ويمنحنا نفوذا سياسيا جبارا يقوى عزائم الحلفاء، ويلقى اليأس في روع الاعداء ، ويتجه بالشعوب القلقة المضطربة وجهة سديدة تخولها حق الانضمام الى جماعة الشعوب الحرة بعد أن تضع الحرب أوزارها

***

وهنا يساورنا سؤال خطير عن مستقبل الشعب الالماني والشعب الايطالي . هل يحق لهما ان يكونا في زمرة الشعوب الحرة ، أم يحق عليهما نفيهما من هذه الجماعة وحرمانهما من حقوقها ؟ لا ريب ان مثل هذه الشعوب يجب ان تؤمن منذ الآن بأن رضاها بالخضوع لنظم دأبها البغي وخطتها العدوان يجعلها غير أهل للمشاركة في جماعة الشعوب الحرة على قدم المساواة مع الشعوب التي ضحت وعانت في سبيل اقرار الحرية والحفاظ على السلام . فلا يصح اذن ان تنجو ألمانيا اويطاليا وما اليهما من الامم من النتائج المترتبة على رضاها بنظم عسكرية عدائية دفعت بالعالم في هوة الكفاح والدمار . ولكن لا يجوز ان نأخذها بالعقاب بل بالارشاد ، فيذاع فيها اسلوب جديد من التعليم والتثقيف من شأنه ان يوجهها في الطريق السوي الذي تسلكه الشعوب الاخرى ، طريق السعي الصالح في الحياة بغير بغي ولا عداء ، على أن يكون مدى هذا التعليم الجديد وجيزا جدا لان هذه الشعوب ستنهض يوما ما لتحرر نفسها وتشق لها طريقا للخلاص والنجاة ، بعد ان تقذف بطغاتها العداة الذين وضعوها تحت رحمة غيرها من الشعوب . ويجب ان نذكر دائما أن لا سبيل الى اقامة

سلام أوربى ولا سلام عالمى وطيد الاساس مكين البناء ، اذا لم يساهم ابناء ألمانيا وايطاليا مساهمة غيرهم من ابناء الدول الكبرى الاخرى فى اقامة الصرح السياسى والاقتصادى الجديد فى ربوع أوربا وفى تدعيم نفوذ الحضارة الاوربية فى أرجاء العالم جميعها

ولكن هذا العمل الانسانى العظيم يتطلب عقولا جديدة تنهج فى تفكيرها نهجا جديدا. وأول خطوة فى هذا السبيل هو تحقيق الرخاء الاقتصادى عن طريق تحديد سلاح الدول الكبرى • أى ان « الزبدة » يجب ان تصير فى عرف الناس جميعا أهم من « المدفع » بعد أن طغى هذا على حقها عهدا طويلا عانى فيه العالم صنوفا من العسر والنكال • والسبيل الى تحقيق ذلك هو انشاء قوة جوية دولية توضع فى قبضة جماعة الشعوب الحرة ويوكل اليها العمل لالغاء الفكرة الراسخة فى عقول نفر من الساسة وفريق من الشعوب بأن «الحرب» دعامة السياسة القومية • وخميرة هذه القوة الدولية هى قوة الحلفاء الجوية التى تحارب الآن تحت امرة السلاح الجوى البريطانى • ويجب ان يكون هذا السلاح من القوة الفاصلة الى درجة خطيرة تنتهى عندها كل سياسة عدائية بالفشل والهزيمة

***

والى جانب هذه القوة الجوية تقوم سلطة اقتصادية دولية مؤيدة « باعتمادات مالية » عظيمة لاصلاح كل ما افسدته الحرب واعادة النشاط الى كل ما ركد فى فترة القتال وتنظيم أوربا تنظيما اقتصاديا يغمر جميع وحداتها بالحركة والرخاء

وكذلك تتطلب التجارة الدولية ــ وهى على جانب عظيم من الاهمية ــ بحثا دقيقا وعلاجا ناجعا ، فمن الواجب ومن النافع ان تفتح الابواب فى أفسح مساحة من أرض العالم للتجارة الحرة ، ولكن لا سبيل الى اطلاق هذه الحرية التجارية الا بعد ان توفق هذه الحرب الى القضاء على اتخاذ السلاح دعامة للسياسة القومية كما هو شأنه اليوم فى كثير من الشعوب • أما اذا ظل فريق من ابناء هذا العالم يعدون الحرب أداة مشروعة وطريقا لازمة لتحقيق أطماعهم فلا بد من أن تعمد الشعوب الى حماية انتاجها وصناعتها ، محافظة على قوتها الداخلية وتأمينا لسلامتها القومية • فان الحرب هى التى تبرر ما تلجأ اليه الدول من فرض الضرائب الباهظة فى وجه التجارة الخارجية ومن ارهاق ابنائها بالضرائب التى تغدق منها على صادراتها ما يمكنها من اغراق الاسواق ومزاحمة المنافسين ، ومن اتخاذ كل وسيلة تمكنها من الاكتفاء الذاتى فى حياتها الاقتصادية فتعيش بمعزل من العالم لا تفيد منه ولا يفيد منها شيئا

واتقاء هذه الاوضاع الاقتصادية العقيمة يتطلب تضامنا اقتصاديا وثيقا بين الدول الكبرى التى تسيطر على أكثر موارد الانتاج • هذا الى أن ما حاق بأوربا من الفقر والدمار فى هذه الحرب يقتضى ان تعبأ وتنظم القوى الاقتصادية والصناعية أعواما متصلة طويلة حتى يعمر فى خلالها ما خربته الحرب • وقد نفذنا منذ الآن الخطوة الاولى فى هذا العمل الانشائى العظيم ، فلم يعد ثمة وجود للمشاريع الاقتصادية التى لا تخضع لاى قيد من قيود

رقابة الحكومة ومصلحة الجماعة ، وبذلك شرعنا نبتكر ونطبق مبادىء اشتراكية جديدة اسمى وأجدى من تلك المبادىء التى تقوم عليها الشيوعية أو تسير عليها النازية والفاشستية. واشتراكيتنا المبتكرة يمكن ان تسمى « الحرية الاشتراكية » لانها تتميز عن مثيلاتها فى روسيا والمانيا وايطاليا بأنها تحتفظ على الحرية الفردية وجودها ومعناها ، فهى وان كانت تجمع فى يد الدولة أهم ينابيع الثروة ووسائل الانتاج خدمة للصالح العام ، الا انها تؤمن بأن من الخير الابقاء على حق الفرد فى الملكية وعلى اشاعته بين أكبر عدد ممكن من الافراد ، ذلك أن هذا الحق هو خير ما يضمن للفرد حريته وأهم ما يحفزه الى العمل

***

ومن النواحى التى يجب أن نوليها من همنا جانبا كبيرا أن من اسوأ سمات النازية والفاشستية « شهوة القوة » التى تسرى فيهما وتسودهما . فيجب ان نذكر انه اذا كان نصف العالم يكافح ويعانى فى سبيل « حق الحرية » فان نصفه الآخر يناضل ويقاسى فى سبيل « شهوة القوة » ، واذا كان الفريق الاول يريد الحرية ليصيب ما تتيحه من الامن واليسر والرخاء ، الا ان الفريق الآخر يريد القوة لذاتها ولو أدت به الى العسر والعناء.

ان جماعة النازى لا تريد القوة لما تؤدى اليه من الثراء أو من الراحة ، لا ، بل لترضى فى نفسها « حاسة » الاستمتاع بالسيادة والسيطرة على الآخرين ، ولو لم تفد فى هذا السبيل شيئا من الكسب المادى أو المعنوى . والواقع ان هذه الجماعة لا تلقى بالا الى الراحة والهناء وما اليهما من اسباب المتاع الانسانى ، بل انها لا ترى فى الحرمان منها شيئا من التضحية أو العناء ، وانما التضحية التى لا ترضاها والعناء الذى لا تصبر عليه فهو ان تحرم من القوة ومن السيادة

فعلينا اذن أن نقضى على هذا الروح الذى يلتذ اخضاع الناس واذلالهم ، ولا يكون ذلك الا بأن نعد الحرية بأمرين : مبادىء خلقية رفيعة وقوة حربية عاتية . وكثيرا ما يؤدى العنف الى النبل وكثيرا ما تضع القوة اساس الفضيلة . واذن فمن أهم نقط منهاجنا الآن وفى المستقبل ، أن نعتد بالقوة الظافرة العتيدة لاجتناء كل ما يمكن من أطيب الثمار ، على أن نتيح لكل من هذه الثمار نصيبا يقنعه ويرضيه . وان الضمير العام ليزداد فى هذه الآونة نضوجا ونماء فى انتظار نتيجة هذا الصراع الرهيب ، راجيا ان تكون هذه النتيجة خير جواب على هذا السؤال الذى يختلج فى طوايا نفسه ويلح عليه بالليل وبالنهار :

« كيف يمكن ان نضمن الآن أن نصرنا فى المعركة الدائرة سيسفر عن سلام قائم على أسس راسخة باقية من النبل والكرامة ، ومن الصحة والعدالة ، ومن الجدوى والانتاج ، جدير بما بذل فى سبيله من ضحايا ليس أعظمها شأنا ما أريق من الدماء الطامية وما بيع من الآلاف المؤلفة من الارواح بيع السماح ؟ »

(خلاصة مقال للصحفى الانجليزى المشهور ويكهام ستيد فى صحيفة The Contemporary Review)

بطل بولندى

من ابطال الحرية والاستقلال

بقلم الاستاذ على ادهم

« كوسفسبوشكو » اعظم رجل عرفته بولنده فى اواخر القرن الثامن عشر، وأشهر ابطالها الخالدين ورجالها البارزين وقف حياته على انقاذ بلاده ومدافعة اعدائها، ونصرة قضيتها. وكان شعاره الموت او النصر

الأمة البولندية من الأمم التى امتحنتها الأيام وصهرتها الخطوب، ومصير هذه الامة الصبور المجاهدة منذ ذلك الحادث الفظيع المعروف فى تاريخ أوربا الحديث باسم تقسيم بولندة الأول طالما أثار العطف عليها والمرثية لما أصابها، وقد ثبتت بولندة لنوازل الخطوب، ولم تستطع القضاء على حيويتها الحروب المبيدة والثورات الدامية، وقد احتملت عسف الروسيين وعنجهيتهم وسوء نيتهم، وغشم البروسيين وغلظتهم وجشعهم، وتخلت عنها أوربا فى أشد أيام محنتها، ولم تتقدم أية أمة من الأمم للأخذ بيدها فى أكثر مراحل جهادها الشاق الطويل فى سبيل الاستقلال والحرية

وعلقت بولندة قديماً أملها فى الخلاص على الجبار الكورسيكى نابليون وأخلصت له الولاء وشدت أزره فلم يف لها، وضحى بها فى سبيل مطامعه، وقد ثار البولنديون بظالميهم ثورات عدة كانت تخمد بقسوة رهيبة وبعد مجهود عنيف، منها ثورة سنة ١٨٣٠ وثورة سنة ١٨٦٣، ولست أنكر أن للبولنديين - كما لسائر الأمم - عيوبهم الخاصة التى جرت عليهم الأهوال واستوجبت صارم العقاب، ولكن ما حل بهم من فوادح الملمات لا يعادل أخطاءهم ولا يوازن نقائصهم، فقد لقى هذا الشعب الباسل من حماقات الروس وفظاعات الألمان الشىء الكثير، وكل أمة لها ماض مأثور فى الجهاد لنيل الحرية لا بد أن تزدان صفحات تاريخها بسير الكثيرين من أبطال الوطنية وقادة الحركات الثورية، وتاريخ بولندة من هذه الناحية مفعم بجلائل الاعمال ونبيل المواقف وحوادث البطولة، وتلتقى فيه بطائفة من أصحاب النفوس الكبيرة الأبية المطبوعة على البذل والفداء والاستشهاد

مطامع الروس فى بولندة

وقد أخذ الضعف يدب فى بولندة منذ عهد ملكها الشجاع جون سوبيسكى الذى أجلى الاتراك عن أسوار فينا ورد غائلتهم عن النمسا فى سنة ١٦٨٣ وكان سوبيسكى جندياً بارعاً وبطلا مقداماً، ولكنه لم يكن ملكا عظيما ولا سياسياً قصى النظر فلم يستطع استئصال عوامل الضعف والفساد، وبواعث الفوضى وتشعب الآراء، وجلس على عرش بولندة بعده ملكان من أصل المانى كانا لا يعبآن بشئون الدولة ولا ينهضان بأعبائها مما ضاعف العلة وزاد فى الارتباك، فأخذت الجيوش الأجنبية تكتسح بولندة وتغزوها وتتدخل فى نظام حكومتها وتوجيه سياستها وتعيث فى أرضها فساداً، وكان نبلاؤها في شقاق دائم، وكانت فى حاجة الى يد حازمة تتركز فيها القوة وتكبح جماح عوادي الاهواء، وكان جيران بولندة الثلاثة وهم الروسيا والنمسا وبروسيا يعملون على تعكير جوها وإقلاق راحتها ويأتمرون بها ويبيتون لها الشر، وأخذ المفكرون من أبنائها المخلصين يلمحون الهلاك المحقق المقبل ويرون نذر الشر والسوء

وفى سنة ١٧٦٤ تسنم عرش بولندة بمساعدة القيصرة كاترين الثانيـة نبيل بولندى اسمه «ستانسلاوس بونياتوسكى» . وكان هذا الرجل أحد عشاقها الكثيرين، وكانت القيصرة كاترين ملكة بعيدة المطامع شديدة الدهاء واسعة الحيلة، وقد سولت لها مطامعها الاستيلاء على بولندة برمتها، فأخذت تتحين الفرص لبلوغ غرضها، وقد أعانت ستانسلاوس على اعتلاء العرش لأنها كانت تعرف لين عريكته وسهولة انقياده، وكان ستانسلاوس مولعا بالفن مقبلا على الادب دمث الاخلاق ملماً بآداب المجتمع، فشيـد قصراً على الطراز الفرنسى فى وارسو تحف به الحدائق الغلب وأقام به مسرحاً فى الهواء الطلق تترقرق الى جانبه بحيرة، وأنشأ مدرسة حربية لابناء الاشراف عنى بها وأشرف عليها بنفسه، وكان من الذين تربوا بها وتخرجوا منها البطل البولندى كوستيوشكو، ولكن ملك بولندة فى تلك الفترة الدقيقة من حياتها وهى فى مهاب المطامع ومعترك الشهوات كان فى حاجة الى صفات أخلاقية أسمى من الشمائل الرقيقة والذوق المهذب المصقول، كان فى حاجة الى الايمان القوى والارادة الماضية والعزم الصلب، وكان ستانسلاوس فى يد امرأة من طراز كاترين مثل الشمعة طواعية وليناً

واستغلت كاترين الفرصة وأرسلت مندوبا من قبلها اسمه ربنن (Repnin) وكان رجلا مزهواً قاسياً تسنده قوة روسيا، وكان البولنديون يعجزون عن مقاومتـه حتى أصبح الحاكم الحقيقى لبولندة، وقد حاول هذا الرجل ارغام مجلس النواب البولندى على إقرار وثيقة تمتهن حرية الشعب وتنزل به الى مرتبة الرق والعبودية، واعتقل النواب الذين امتنعوا عن اقرارها وأرسلهم الى روسيا، فلم يسع النواب الباقين الا الاذعان

وقد نجم عن ذلك حركة ثورية انضوى تحت لوائها ألوف من البولنديين ولم يكن للقائمين بهذه الحركة يدان بمقاومة الجيوش الروسية الجرارة فتوالت هزائمهم ، فعمدوا الى حرب العصابات وعجز الروسيون عن سحقهم وحدهم ، فاشتركت معهم الجيوش البروسية والجيوش النمساوية وبذلك أخمدت الحركة

وتبع ذلك تقسيم بولندة بين الروسيا والنمسا وبروسيا ، وأرادت كاترين أن تظهر ذلك التقسيم الجائر فى الثوب الشرعى ، فأمرت صنيعتها الملك ستانزلاوس أن يجمع مجلس النواب البولندى ويأمر الأعضاء باقرار ذلك التقسيم وهددته بالعزل اذا تلكأ أو أقام العقبات فى سبيل انجاز هذه الخطة فلم يجترىء على مخالفتها وشمر لاجابة طلبها فقد كان الرجل حريصاً على عرشه مستميتاً فى الاحتفاظ به

ظهور البطل كوستسيوشكو

وانحدرت بولندة الى درك البؤس والشقاء وسوء الحال ، كان شبانها اليافعون قتلى فى ميادين الجهاد وكانت بلادها قد انتهبت وخربت ، ولم يكن لها جيش يصون كرامتها ويرد عنها الغوائل ، وقد أنشب فيها الروسيون والبروسيون والنمساويون أظفارهم ، وكان لكل منهم جيش نظامي ضخم ، ولكن كل ذلك لم يلن من عزم البولنديين واتخذت مقاومتهم أسلوباً سلبياً ، وقد تم ذلك التقسيم المنحوس سنة ١٧٧٥ ، وقد انتقص هذا التقسيم من أطراف بولندة ولكنه لم يفت فى عضدها ، وحاول البولنديون إصلاح شأنهم فى الجزء الباقى لهم من بلادهم وجروا فى ذلك شوطاً بعيداً فنهضوا بالأدب والفن وأنشأوا المصانع وأصلحوا نظم التعليم وجعلوا الملكية نظاماً وراثياً وأبطلوا طريقة الانتخاب لأنها كانت تمهد السبيل للفوضى والدسائس الاجنبية وحسنت حالة المزارعين وارتقى مستوى معيشتهم ، وفى سنة ١٧٩١ أصبح النظام الجديد نظاماً متبعاً وسنة مرعية ، ولم ترق الروسيين هذه الحركة الاصلاحية الشاملة ففى سنة ١٧٩٢ غزت بولندة جموع روسيا ، وتبع ذلك مقاومة باهرة ودفاع مجيد من جانب البولنديين ، وكان يقود الجيش رجلان بولنديان . أحدهما أمير صغير هو « الأمير جوزيف بونياتوسكى » ابن أخى الملك ستانسلاوس والآخر « كوستسيوشكو » ابن أحد المزارعين وأعظم رجل عرفته بولندة فى أواخر القرن الثامن عشر ، ومن أشهر أبطالها الخالدين ورجالها البارزين

وقد ولد تاديز كوستسيوشكو فى ناحية هادئة من نواحى لتوانيا وسجل له التاريخ أنه البطل الذى وقف حياته على إنقاذ بلاده ومدافعة أعدائها و نصرة قضيتها ، وقل أن تفتح كتاباً فى تاريخ بولندة دون أن يطالعك محياه المستوحش الغريب الذى يذكرنا بقول أبى تمام :

غربته العلى على كثرة الأهـ ـل فأضحى فى الأقربين جنيباً

وقد نشأ فى جو من البساطة والتقوى وعاش عيشة الريف الصحية الوديعة فى منزل من الخشب ذي طابق واحد سقفه من القش والبوص وأروقته ممتدة مستطيلة . ومات أبوه وهو طفل فجاهدت أمه جهاداً متصلا لترد عن المنزل عوادى الخراب وتنشئه نشأة صالحة . وكان يبدو أن تاديز سيعيش ويموت خامل الذكر خفى الشأن فى ظلال ريف ليتوانيا ، ولكن القدر كان يدخر له شيئاً آخر ، فقد رآه أحد النبلاء وكان يعرف والده فلمح فيه مخايل النجابة ولوائح الهمة والاقدام فأرسله الى المدرسة الحربية التى أنشأها الملك ستانسلاوس وكان يشرف عليها بنفسه ، وكانوا يربون الطلبة فى هذه المدرسة تربية قومية تجعل فيها خدمة بلادهم صوب نظرهم ، وكان طلبة هذه المدرسة يوضعون تحت الاختبار مدة سنة قبل أن يسمح لهم بحمل السيف ، فاذا أثبتوا أنهم جديرون بتقلده أقيم لهم احتفال يقسمون فيه بشرفهم على أن لا يشهروا السيف إلا فى سبيل الدفاع عن بلادهم ، وقد زادت هذه النشأة النيران المتأججة فى نفس تاديز وقد طالما وصفه أنداده فى الدراسة بأنه أشدهم عناداً وأكثرهم صبراً على العمل وبذل الجهد وأن له نظرة آمرة وشخصية ساحرة

وبعد تخرجه فى المدرسة الحربية رحل الى فرنسا وانقطع خمس سنوات لدراسة الهندسة وعاد الى بلاده وكان ذلك عقب التقسيم الأول فوجد باب العمل لانقاذ بلاده مرتجاً ، وكانت أمريكا فى ذلك الوقت تجاهد الانجليز ، فأبحر هذا البولندى الصغير الى العالم الجديد ليحارب فى سبيل الحرية

وظل فى الميدان ست سنوات ، وساهم فى إقامة الحصون على نهر الهدسن وصحب القائد جرين الذى كان يحارب فى الجنوب فى نواحي كارولينا واشترك فى إنشاء الزوارق التى كان يعبر عليها الجنود فوق ثوائر الأمواج ، وأنشأ فى وست بوينت لنفسه حديقة صغيرة كان يمضى فيها سويعات فراغه مفكراً فى بولندة ومصيرها ولا تزال آثار تلك الحديقة موجودة ومسماة باسم « حديقة كوستسيوشكو »

ولما وضعت الحرب الأمريكية أوزارها وتحققت آمال الأمريكيين عرفوا له فضله وحسن بلائه فسربلوه الشرف وخصوه بالرعاية والتقدير ، ولكن لم يكن هناك ما يستدعى بعده عن بلاده ، فعاد اليها وعاش فى ضيعته الصغيرة ، وأنشأ حديقة صغيرة كانت موضع عنايته وغرس فيها الأشجار بيده ، وكان يخالط المزارعين ويواسيهم ويجبر بكرمه وصفاء نفسه قلوبهم الكسيرة ، ويزور جيرانه ويخص صغارهم بسابغ عنايته وفائض بشاشته

كوستسيوشكو يقود أمته

وتدفقت الحوادث فى مجراها تدفقاً سريعاً ولم تمكن كوستسيوشكو من أن يظل ناعماً فى

هدوء الريف ، فى سنة ١٧٩٢ هاجمت الجيوش الروسية بولندة فاستصرخته أمته ليقود الجيش مع الأمير جوزيف بونياتوسكى ، وبعد انقضاء شهرين على هذه الحرب التى أظهر فيها البولنديون الكثير من ضروب الشجاعة وتجلت فيها بطولة كوستسيوشكو أفسد الملك على الأمة البولندية أمرها باستسلامه للروسيين والتقى كوستسيوشكو هذا الجندى الصلب المتين البناء الشديد الأسر بالملك ستانسلاوس الرقيق الحاشية السرى الهيئة فدافع عن بلاده دفاعاً مجيداً وحاول عبثاً أن يرد الملك الى صوابه ويبصره عواقب الامعان فى الاستسلام ولكنه كان يضرب فى حديد بارد ، وحاول الملك أن يغريه ويجتذبه الى صفه ، ولم يكن أمامه اذا أراد أن يسلم شرفه ويصون سمعته إلا أن يعرض عن الملك ويتنازل عن رتبته وثروته وأن يوطن النفس على احتمال آلام النفى والفقر والحرمان ، فأغمد سيفه واجتاز حدود بلاده المحبوبة ودعا الله أن يمكنه من العودة الى حمل السيف دفاعاً عن وطنه ، وسرعان ماحانت الفرصة ، فقد اتفق بعد انسحاب كوستسيوشكو مع طائفة من أحرار البولنديين أن روسيا وبروسيا قامتا بتقسيم بولندة بينهما مرة ثانية ، فأثار ذلك ثائرة الشعب البولندى وجعل البولنديين يصممون على الاحتفاظ بالجزء الباقى لهم ويعملون على استرداد الأجزاء التى اغتصبها أعداؤهم بحد السيف ، وعقدت اجتماعات فى جنح الليل وعلقت منشورات فى الشوارع تدعو الناس الى الثورة ولم تستطع الشرطة معرفة كاتبيها ، واتجهت بولندة جميعها الى رجل واحد تطمئن اليه وتثق به وهو كوستسيوشكو ، فدعوه ليتولى القيادة فقبل الدعوة وعاد الى كراكاو

الموت أو النصر

واجتمع تحت لوائه الكثيرون من الرجال والنساء ، وقدموا أنفس ما يملكون من خيل ومال وجواهر كريمة ، وكان العمال والمزارعون وأصحاب المهن يجودون عن طيبة خاطر بما ادخروه من مال قليل ، وقد استطاع هذا الجيش الذى كان قوامه المزارعين أن يبدى براعة فائقة وأن يقوم بحركات حربية بديعة ، وكان يهيب بهم كوستسيوشكو فى حومة الوغى فيلبوا دعوته ويستجيبوا لندائه ويحصدوا الروسيين حصداً ، وكان شعار الجميع « الموت أو النصر »

ولم يكن إقبال الناس على التطوع فى هذا الجيش بدافع الوطنية وحدها ، وانما كان لشخصية كوستسيوشكو الجذابة المحبوبة أثر كبير فى ذلك ، وكان يواصل عمله ليلا ونهاراً ويضن على نفسه بالراحة القليلة ويظل ينظم الحركات ويضع الخطط ويكتب الكلمات المثيرة يستنهض بها العزائم ويستثير الحمية ويرسل الرسائل الى مختلف الدول ليسترعى نظرها ويكتسب عطفها ، وسرعان ما اشتبك جيشه الصغير القليل المعدات فى معارك طاحنة مع الجيش الروسى الجرار والجيش البروسى المنظم الكامل الأهبة ، وكثرت الخسائر وتوالت الهزائم ولكن كوستسيوشكو كان رجلا ركينا

لا يزدهيه النصر ولا تطير بلبه الهزيمة وكان فى خلال تلك الحركة هو حاكم بولندة المطلق فلم يغير هذا المركز الرفيع من أخلاقه وظل على بساطته المعهودة وتواضعه المحبوب ، وكان يعيش فى احدى خيم المعسكر ويأكل الخبز الاسود مثل سائر جنوده ويحتسى الجعة وقد سأله أمير بولندى عالك مالا وضياعا « لم لا تشرب النبيذ المعتق » فأجابه كوستسيوشكو « انك تستطيع ذلك لأنك غنى بعيد النفوذ ولكننى خادم بولندة المضطهدة ولا يجمل بى أن أنفق نقودها على مطالبى الخاصة » وكان رجاله يعتبرونه أخاً لهم ، وكان يلبس ملابسهم ويؤمهم فى الصلاة واستمر جيشه يجاهد من شهر مارس الى شهر يوليو ويلق الانتصارات والهزائم

وكان سكان وارسو قد ثاروا بالروسيين حينما انتهت الى أسماعهم أنباء الثورة التى تزعمها كوستسيوشكو وطردوا الجيش الروسى من مدينتهم ، ولكن فى أوائل يوليو كان الجيش الروسى والجيش البروسى يتقدمان نحو وارسو فأسرع كوستسيوشكو لانقاذها ، وبدأت حينذاك أعظم مخاطرة قام بها كوستسيوشكو وقد أثار حضور كوستسيوشكو الحماسة فى نفوس المدافعين عن وارسو ، وكان الجميع يحتذون مثاله ويسيرون سيرته ويتلقون وحى تفكيره ، وبعد مضى ثمانية أسابيع طويلة حافلة نظر البولنديون من أسوار المدينة فرأوا العدو ينسحب ويقوض خيامه ورفع الحصار وأنقذت المدينة

وعم السرور والابتهاج ، ولكن لم يطل أمد ذلك فقد كانت القيصرة كاترين الثانية تستعد لتقسيم بولندة الثالث ، وأرسلت الى وارسو جيشاً ضخماً بقوده سواروف أعظم قوادها ، وعاد الجيش البروسى الى محاصرة المدينة ، وخشى النمساويون أن يضيع نصيبهم من الغنيمة فبادروا إلى إرسال جيش ليشترك فى الحصار واقتحام المدينة ، وصمم كوستسيوشكو على أن يخرج الى أحد المعسكرات خارج المدينة ليهزم أحد الجيوش الروسية قبل قدوم سواروف ، وتحرك الجيش البولندى لمنازلة الروسيين ودارت أرحاء معركة شديدة بدأت من الصباح واستمرت طوال النهار وحارب البولنديون حرباً شديدة بشجاعتهم المعهودة بل فاقوا أنفسهم وأتوا بالخوارق فى ذلك اليوم المأثور ولكن عدد الروسيين كان يفوقهم الى حد كبير ، وكانت نيران المدافع الروسية تتساقط عليهم كالأمطار ونفدت ذخيرتهم ونال منهم الكلال فاخترق الروسيون صفوفهم وطوقوا الجيش البولندى ، وكثرت جراح كوستسيوشكو حتى سقط فى الميدان فاقد الوعى وأسره ثلاثة من الضباط الروسيين ، وعاد الجيش الروسى الى بطرسبرج ومعه كوستسيوشكو وغيره من الاسرى البولنديين ، وظل كوستسيوشكو فى السجن عامين ، وفى سنة ١٧٩٦ ماتت القيصرة كاترين ، وبعد موتها بأيام كان كوستسيوشكو مستلقياً فى سريره لأنه كان لا يقوى على الوقوف ولا على المشى فأدهشه أن يرى نفراً من الناس يدخلون حجرته ، وكان بينهم القيصر بولس الأول الذى كانت تنتابه من الحين الى الحين المشاعر النبيلة وابنه الاسكندر الذى ارتقى عرش روسيا بعده

وخادمه ، وعانق الاسكندر كوستيوشكو وقال له القيصر بولس : «لقد جئت لأطلق سراحك» وكانت مفاجأة شديدة الوقع فلم يدر كوستيوشكو كيف يجيب ، ثم جلس القيصر وتحدث الى كوستيوشكو حديثاً طويلا ، ولم يكن هناك ما ينسى كوستيوشكو أمر بولندة فدافع عنها دفاعا حاراً فى حضرة عاهل الروس

وبعد إطلاق سراحه زار السويد وانجلترا وأمريكا وفرنسا وكان أينما حل يقابل بالترحاب ويلقى الرعاية من أعظم الرجال وأجمل النساء وتقدم له الهدايا ، ولم يكن الرجل يعنى بشىء من هذا فقد كانت حالة بلاده لا تبرح مخيلته ، وقضى أيامه الأخيرة فى سويسرة ؛ وكان جميع الفقراء فى الأقاليم المجاورة لمكان إقامته أصدقاء له فقد كان يحمل اليهم الصدقات من دخله القليل وكان يعيش فى عزلة تامة وبعد موته حملت بقاياه الى مدينة كراكاو وأقام له مواطنوه نصباً تذكارياً فى ظاهر المدينة ولا تزال ذكراه ناضرة فى نفوس مواطنيه الى اليوم وستبقى كذلك ما بقى اسم بولندة

على أدهم

الطفل والفيلسوف

سئل هربرت سبنسر : ماذا كنت تود أن تصير لو لم تكن فيلسوفا ؟
فأجاب : كنت أود أن يكون لى عقل فيلسوف وروح طفل !

سياسة أمريكا فى المحيطين

بقلم الاستاذ سامى الجريديني

عند ما هدأت ثائرة الحرب العظمى الأولى ووضعت أوزارها فى سنة ١٩١٨ كان الرئيس ولسن قد نادي بانجيل سياسته ووضع فصوله قاعدة للصلح وبشر به المتحاربين جميعاً فقالوا كلهم آمنا واستبقوا باب رضاه

وكان عهد جامعة الأمم أشرف فصول عقد الصلح

ولكن بذرته الطيبة لم تقع على أرض صالحة

ودع عنك أن الشعوب الأوربية لم تكن تتلق العهد باخلاص مسيرة بماضيها وتقاليدها فان الشعب الاميركى خذل رئيسه وهنا كانت الطامة الكبرى

فبالحق لقد كان موقف الرئيس ولسن من قومه موقف المسيح من اليهود

فان الكثرة الاميركية كانت لا تزال خارجة من عقبى حرب جعلت فقيرهم مثرياً وعاملهم ذا حسب ونسب حديث وغنيهم لا تكاد تسعه الارض افتخاراً بكسبه الحرب وجمعه الكنوز

وكان الحزب الجمهوري غالباً على أمره وهو يضم أصحاب المصانع والمصارف وطرق المواصلات ويقيم الحواجز الجمركية فى وجه العالم وكانت الثورة الروسية فى بدء عهدها يظن بها الاميركيون الظنون ويسيئون تأويل كل تغيير يطرأ على الروسيا أو تعديل

ذلك انهم كانوا لا يزالون أبناء القرن التاسع عشر مشبعين بالاكتفاء بعزلتهم متبرمين بالسياسة الدولية الأوربية آخذين بنظريات الذين وضعوا لهم قواعد الدستور الاميركى نابذين تطبيق هذه النظريات

الخطوات الاميركية الى تكوين أمة أميركية

ولا يسع المنصف إلا إقرار المبادىء الاميركية فى جملتها وتحبيذ أعمال القائمين بأمرها

لأنه لا يخفى أن هذه الجمهورية العظيمة بدأت بقوم انجليز على الاكثر وقبائل من الشعوب الأوربية تركوا بلادهم فراراً من استبداد سياسى أو اضطهاد دينى وجاءوا بلداً بكراً يتمتعون فيه بالحرية بكل معانيها من حرية فى القول والتفكير والكتابة الى حرية فى المعاملات الصناعية والزراعية والتجارية على أتمها

ورأوا الخير . ورأوا أوربا لا تزال فى قيود تقاليدها ترتطم بحرب بعد أخرى وبتعصب بعد آخر فقالوا مالنا ولها . بعداً عنها

وكان لباب السياسة الأميركية من عهد مؤسسيها يرمى إلى تكوين أمة أميركية ذات «شخصية» تميزها عن جميع الأمم الأخرى لا حباً بالتميز بل رغبة فى بلوغ الرشد

فكانت أولى خطواتهم فى هذا السبيل حربهم على أمهم انجلترا إذ أرادت أن تفرض عليهم ضريبة أبوها فرفعوا راية العصيان فالثورة فالاستقلال

والغريب فى هذا الاستقلال المأخوذ من انجلترا انه كانت تؤيده العناصر الرشيدة الانجليزية كلها وكانوا أشد الناس اغتباطاً عند ما أعلن هذا الاستقلال

وكان درساً تلقته انجلترا فلم تقسر أبناءها الانجليز المهاجرين بعد ذلك وتركتهم أحراراً فى الأملاك لا يرتبطون بها إلا اذا شاءوا مما أدى الى ما نراه من وحدة امبراطوريتها

فلما اشتد الساعد الأميركى بعض الشيء قامت الولايات الجنوبية تناوىء الشمالية وتريد الانفصال عنها

واحتجوا بالمبادىء الدستورية وبقواعد الحرية وتقرير المصير

ولكن الروح الاميركية نظرت الى أبعد من هذا ورأت فى السماح للولايات أن ينشق بعضها عن البعض الآخر مجالا واسعاً لانهيار الأمة الأميركية

فأبوا على الجنوب أن ينفصل عن الشمال وأثاروها حرباً كانت عقباها جمع الولايات كلها جمعاً ضمه دستور واحد

فكانت الخطوة الثانية فى سبيل تكوين الأمة

وظهرت حكمة دعاة الوحدة مقاومى الانفصال فيما لاقته الولايات كلها بعد ذلك من نجاح مادى وأدبى ومن انضمام ولايات أخرى فى الجنوب وفى أقصى الغرب الى الاتحاد

وكانت المطامع الاستعمارية الأوربية فى ذلك الحين فى إبانها فكنت ترى دولة بعد أخرى تستبق البلاد النائية عن أوربا تستقر فيها اقتصادياً وسياسياً

وحدث أنه عقب سقوط نابوليون وتأليف ما سموه « الاتحاد المقدس » أن رمى رجال السياسة فى أوربا الى إرضاء أسبانيا باعادة سلطانها على بعض بلدان القارة الأميركية الجنوبية فأوجست فى نفسها خيفة من ذلك الولايات المتحدة ومدت لها انجلترا فى عونها لأن سياستها كانت ترمى بعد سقوط نابليون الى تقوية الولايات المتحدة وإبقاء الحالة الأوربية كما هى لا تقوى دولة منها قوة تهددها

فظهرت رسالة الرئيس مونرو وكان ذلك فى سنة ١٨٢٣

وأعلن أن الولايات المتحدة لا تقبل استعمار أى جزء من أميركا الجنوبية أو نقل أى ملكية فى ذلك المحيط الى سلطان أجنبي

وأيدت انجلترا المبدأ بقوة فسكتت أسبانيا على مضض وصمت « الاتحاد المقدس » ثم تفككت عراه

فأصبحت سياسة أميركا بعد أن تم لها اعلان رشدها السياسي سياسة أميركية أولا أى عزلة عن أوربا وابتعاد عن مشاكلها والاكتفاء بقارتيها والذود عنهما وسياسة « باسيفيكية » ثانياً وسياسة أوربية ثالثاً

الثروة المادية وظهور الخطر اليابانى

وظلت السياسة الأميركية أنانية لا تكترث لشيء غير أميركى حتى أول القرن العشرين أو ما حول ذلك التاريخ ، فان النجاح المادى الذى أصابه الاميركيون فى بلادهم فاق كل ما تصوره عقل الذين أسسوا هذه الجمهورية فى البدء

وكانت ثروة هائلة ليس فى الماديات فحسب بل شملت المعنويات

فالروح الأميركية صارت مضرب الأمثال للنشاط والتوليد والتوجيه الجديد واستغلت ثروة الارض والهواء والبحار استغلالا أغدق الغنى على الشعب

فارتفع مستوى المعيشة عند الطبقات كلها لدرجة لم يحلم بها أوربى فى قارته والعصر عصر الصناعة

وبدأت اليابان فى الظهور فى عالم الصناعة والحرب

وكثر مهاجروها الى الولايات الغربية الأميركية ثم كسرت روسيا القياصرة وعمت مصنوعاتها الأسواق الأميركية فزاحمتها مزاحمة شديدة تمكنت منها بفضل انحطاط مستوى العيش عندهم

فبدأ الأميركيون يفكرون فى هذا الخطر الجديد وصارت سياستهم التى دعوناها « باسيفيكية » ترمى الى تأمين شواطئها الغربية أولا ثم تأمين طرق مواصلاتها مع الشرق ــ ومع الصين على وجه التخصيص ــ لتضمن باباً مفتوحاً لتجارتها

وكانت تنقم على انجلترا محالفتها هذه الدولة الناشئة . وقام الكثيرون من الرؤساء الذين تولوا أمر الجمهورية بتنشيط الدعاوة لتقوية الأسطول الأميركى فى المحيط الهادى ، أو بانشاء أسطولين واحد لذلك المحيط وآخر للاطلسى

ولكن الشعب الاميركي الغارق فى البحبوحة من العيش البعيد عن العالم كله تفكيراً واتصالا مادياً لم يكن يشعر بالأمر شعوراً دائما انما كانت تنتابه نوبات فجائية تستغلها الحكومة فتقوى الأسطول

ولعل كره الأميركيين الطبيعي للشعوب الملونة ـ السوداء أو الصفراء ـ كان أقوى دعامة فى يد الاداة الحكومية تستند عليها لتجعله ينظر بعينيها الى الخطر على مستقبله الصناعي والتجارى من مزاحمة الصفر

فان اليابان بعد خروجها من الحرب العالمية أصبحت ذات مكانة عالية فى مجامع الامم السياسية وازدادت قوتها الصناعية والحربية ونما عدد سكانها نمواً ضاقت به اليابان الاصلية وما ضموا اليها فى حروبهم الماضية

ولكنها كانت تخشى أمراً أساسياً يهدد كل ما جمعت من أهبة فى الماضى

فقد كان خوفها المقض لمضاجع رجال سياستها أن تجمع الصين وحدتها تحت تأثير التعاليم الغربية ـ والاميركية على التخصيص ـ وتلم شعثها أمة واحدة وترفع فى وجه اليابان حواجزها الجمركية

فتصبح اليابان كأفقر ما يكون ، فهى فى حاجة ماسة الى مواد أولية تجدها فى الصين والى أسواق تنفق فيها مصنوعاتها فاذا أغلقت هذه فى وجهها ضاقت بها الارض واختنقت

لذلك كانت ترقب السياسة الأوربية بعين لا تنام حتى إذا أنست تفككا فى فرنسا وسباتا فى انجلترا وثورة فى المانيا وايطاليا حزمت أمرها وخرجت على عهد جامعة الامم وأثارتها حرباً على الصين لا تزال مشتعلة الأوار حتى الآن

فاليابان تريد الصين دويلات منقسمة على نفسها

أما أميركا فتريدها وحدة قوية صديقة لها

وكلا الدولتين يرمى الى التيسير لتجارته هناك . أما أميركا فلابقاء مستوى المعيشة مرتفعاً فى شعبها ولا سبيل الى ذلك إلا بالاكثار من التبادل التجارى وأما اليابان فلتضمن لنفسها بقاء فى الأول ثم توسعاً عظيما بعد ذلك

ولا يسع المرء عند نظره نظرة شاملة عادلة الى هذا النزاع العالمى بين الدول إلا أن يعطف بعض العطف على المطالب اليابانية . واننا نعتقد أن الشعب الأميركى نفسه لم يكن ليجزع من الامتداد اليابانى لولا النزعة الاقتصادية العسكرية التى يصبغون بها تقدمهم . فاليابانيون مستأثرون اذا ما أخضعوا بلاداً لسلطانهم يروجون لتجارتهم بالقوة حيناً وبالرخص أحياناً . وهذا الرخص آت من الاعانات التى تمد بها حكومتهم المعامل ومن انحطاط المستوى العيشى عند العمال . وهما أمران لا يتفقان مع المبادىء الأميركية

لذلك ترى الأميركيين ينفرون من ذكر حرب أو استعمار إلا إذا ذكرت اليابان فانهم يحرقون الأرم ويتوعدون . ذلك لأن التناقض فى الأسس الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بيّن فى الشعبين لا يجمعه جامع

فكانت السياسة الأميركية ترمى دائماً الى تقوية الأسطول لوقف اليابان عند حدها اذا جد الجد

وقد ظهرت هذه السياسة بوضوح عقب الحرب العالمية الأولى إذ رأت السياسة الانجليزية أن التقرب من الولايات المتحدة شرط جوهرى فى الإبقاء على الامبراطورية ففصمت عرى المحالفة مع اليابان وسار العنصر الانجليزى الاسان منذ ذلك الحين سيراً بطيئاً ثابتاً فى سبيل التفاهم

فان مؤتمر وشنطون الذى انعقد فى سنة ١٩٢٢ ساوى بين القوتين البحريتين الانجليزية والأميركية وبذلك أصبح التفوق والانفراد بهذا التفوق الذى كان حليف انجلترا منذ أيام كرومويل فى خبر كان

وصارت القوة الانجليزية وحدها غير كافية لربط الامبراطورية من جهة والوقوف فى وجه الأعداء من جهة أخرى

وصار هم رجال السياسة فى الجمهورية العظيمة وفى الامبراطورية البريطانية أن يقربوا بين الفريقين ويربطوا مصائر هذه بمصائر تلك

وعندنا أن الزيارة الملكية فى سنة ١٩٣٩ لرئيس الولايات المتحدة كانت نذيراً لمن أراد بالامبراطورية سوءاً وبشيراً للساعين الى وضع العالم على أساس صالح من السلام والهناء

الاندماج الانجليزى الأميركى

وقد يستبطىء الناس ظهور آثار السياسة الأميركية ويقف معظمهم حيارى لا يستطيعون تأويلها

ولكنهم تهون عليهم الأمور وتقرب الى أذهانهم متى علموا أن سكان الولايات المتحدة ١٣٠ مليوناً وأن البيض أبناء البيض فيهم لا يكادون يزيدون عن ٦٠ مليونا وأن ١٣ مليونا منهم ليسوا من مواليد الولايات المتحدة وأن ٢٠ مليونا منهم شماميط وأن الهنود الحمر يعدون عشرة ملايين وأن بضعة ملايين فيهم لا يتكلمون الانجليزية ولا يفهمونها . اذا علم الناس هذا سهل عليهم تفسير التؤدة التى يسير عليها الزعماء فى أميركا حتى يتمكنوا من جمع الأمة جمعا واحداً فى سياسة واحدة

ولا تظهر السياسة الأميركية على حقيقتها إلا فى الأزمات العالمية

فها هى الآن لا تقبل جدلا ولا أخذاً أو عطاء

انها كشفت النقاب فظهر الوجه انجليزيا أميركيا لا غش فيه . ذلك لأن الخطر يظهر الصديق والعدو ويعود بالمرء الى سليقة أصله وغريزة كيانه فتتغلب عليه قوة الغريزة الأولى وهى الدفاع عن البقاء ثم الغريزة الثانية وهى الاعتصام بحبل الدم والقربى ووحدة المصلحة

فاذا كان الدم لا ينقلب ماء كما يقول أصحاب اللسان الانجليزي فاحر بهذا الدم أن ينقلب ناراً تتأجج وتدفع الاجساد التي تحترق فيها الى الذود عن أحواضهم وعن حرياتهم الآتية من ميراث واحد من اللغة والقانون وتفهم الحياة

وقد اعتاد الناس أن ينظروا الى التغير الذي يطرأ على العالم نظرة ظفر حربي على ظفر أو ثورة اجتماعية على نظام اجتماعي أو تحكم فئة بفئة أخرى

وعذرهم في هذا واضح فتاريخ البشرية كان فيما مضى يسير على هذه الوتيرة لا يكاد يحيد عنها ولم يتهيأ له أن يعرف غير هذه الطريق إلا عند بلوغ الروح الانجليزية أسمى المطامح . فلعل كتابهم كانوا أبلغ من قال باندماج انجليزي أميركي أو بشركة تتساوى فيها الحقوق والواجبات أو بعائلة يعرف كل فرد فيها ما له وما عليه أو بجمعية تضم أعضاء كراما يتقيدون بشرفهم وبكلمة تخرج من أفواههم ولا يتقيدون بالعهود والمواثيق

فاذا قلنا إن العالم مقبل على اتحاد أنجلوأميركي لم نعن تغلب فريق في هذا الاتحاد على آخر وانما نعني هذا العالم الذي ينتظم الولايات المتحدة والامبراطورية البريطانية فتراه مبعثراً في البحار متجمعا على نقطة هي أميركية شمالية أكثر منها أوربية تضع للعالم نموذجا مما يجب أن يكون عليه عهد جامعة الأمم العتيد . وهنا تظهر السياسة الأميركية في المحيط الأطلسي على أوضح ما يجب أن تكون

فانه اذا كانت السياسة « الباسيفيكية » يعتورها شيء من الحذر ومن التأهب الحربي في البحر فان سياسة الأطلسي قائمة على صداقة انجلترا وعلى نجدة الجزر في كل الازمات

فانه لم يطرأ على الصداقة الانجليزية الاميركية أي طارىء يعكر صفو أيامها منذ أن وضعت شريعة مونرو بالاتفاق بين الامتين

وانه اذا كان هناك من شيء مهد للنمو الاميركي وسهل عليهم الاستمتاع المادي والادبي زمنا هذا مقداره فالفضل في ذلك عائد الى القوة البحرية البريطانية التي ضمنت حدود أميركا في المحيط الاطلسي ضمانا قويا

وأكثر الناس علما بالأمر هم الأميركيون

فانجلترا حصنهم في المحيط الأطلسي

فعند ما اشتدت وطأة الحرب العالمية الاولى وخيف على انجلترا أن يحاط بها هبت الولايات المتحدة الى النجدة

وها هي الايام تعود سيرتها الاولى

ان الدفاع عن انجلترا لدفاع عن الكيان الاميركي كما يفهمه وكما عرفه الاميركيون

فهم لا يستبدلون بنظام جديد نظامهم الذي ألفوه ورأوا الخير على وجهه . انهم يبذلون

نفسهم ونفيسهم فى سبيل الذود عنه . وليس فى سياسة أميركا الاطلسية مواربة فهى تجاهر بأن الخطر اذا حاق بانجلترا كان من حقنا على أنفسنا أن ندفع عنها غائلته خوفا من أن يصل الشر الى أبواب دورنا

فاذا أراد المرء أن يجعل لنفسه صورة صحيحة من هذا النزاع العالمى الدائر الآن فليتصوره بين فريقين — فريق الناطقين بالانجليزية ومن اليهم من أنصار وفريق يجمع ما بقى من العالم

وليتصوره نزاعا بين أسلوبين من أساليب الحياة واحد قائم على الحرية — حرية القول والكتابة والتفكير — وآخر لن يقوم على الحرية لأنه يرمى الى بسط مبادىء جديدة وتعاليم جديدة لم يألفها العالم فلا مندوحة عن إرغامه عليها

وليتصوره ثورة بين رجلين هذا شبعان يأخذ ويعطى فلا يسلب الناس أشياءهم وذاك جائع عار حاقد على النظام وأهله خارج على الجماعة متبرم بالقانون فاذا فاز الاول بقيت للناس حرياتهم وأشياءهم واذا انتصر الثانى ساد ذو الجيش واستمتع بالخيرات وظل ما بقى من البشرية عبداً يتناول الفتات

وليست المسألة القاء الكلام على عواهنه ولكنها مستمدة من تاريخ الفريقين وفلسفتهم فى الحياة

فالشعوب الانجلوأميركية — وهى غير خالية من العيب وهى لم تتصف بالكمال — عريقة فى إيمانها بالحرية ممتلئة لا تنقصها مقومات التهذيب الخلقى والشعوب التى يترأسها الجرمانيون (قل بل والجرمانيون أنفسهم) شرعة الاخلاق لها نظام كتبه تاريخ بروسيا ولا يزال انجيلهم حتى الساعة قوامه الاخذ بالقوة والاستعلاء على الشعوب التى لا تمت اليهم بنسب . حتى أصبحنا والعالم بين شق يطلب السلام وما فى السلام من رغد وطمأنينة وشق آخر يعيش والسيف فى يمينه ولم يكتب للعالم أن يخضع للقوة وأن يظل عائشا عبداً للجبروت

والنتيجة

فأنت ترى أن الاميركيين فى سياستهم الاطلسية يرمون الى ابقاء الامبراطورية البريطانية قوية تدفع عنهم مبادىء لا يدينون بها وترد عن حوضهم وهو حوض انجليزى فى جوهره وأما سياستهم « الهادئة » فترمى الى تأمين القارتين الاميركيتين والابقاء على وحدة الصين والوقوف موقف الدفاع فى وجه اليابان حتى لا تحدثها نفسها أن تقلب نظام الشرق الأقصى رأسا على عقب

وهى فى السياستين تروم السلام وتأنف من الاخذ بالقوة . فاذا رأيتها امتشقت الحسام فقل ان ما تؤمن به وما تعمل له قد مسه الخطر فهبت لدرئه بما لها من موارد لا تنضب ومن صبر على الايام لا تجزع لها حتى تعود الى استقرارها

سامى الجريدينى

أهداف هتلر فى العالم الجديد

بقلم الاستاذ محمد عبد الله عنان

ليس غريباً أن نتحدث عن أهداف هتلر والنازية فى العالم الجديد ، وقد كان الكلام عن ذلك قبل أعوام يعتبر ضرباً من التأملات المغرقة ، فالعالم الجديد يفصله عن أوربا القديمة ، ويحميه المحيط الاطلانطى فى بسيط من الموج الخضم يمتد بينهما نحو ثلاثة آلاف ميل ، ولكن تطور المواصلات السريعة هذا التطور المدهش ، واقتحام الطائرة لأبعد المسافات فى أقل الأوقات ، وتطور الحرب الجوية ، وتقدم السلاح الجوى ، وكونه قد أصبح اليوم أداة صاعقة مروعة للتدمير ، كل هذه تقلل اليوم من شأن هذه الحماية الطبيعية للعالم الجديد

وقد أثبتت حوادث الحرب الحاضرة ، التى نشبت لأسباب غامضة تتعلق بمعاهدة فرساى والأقليات العنصرية ، أن بواعثها الحقيقية أعظم وأبعد بكثير مما ظن فى البداية ، وان هذه البواعث تتلخص بالنسبة لألمانيا الهتلرية فى عبارة واحدة هى « إحراز السيادة العالمية » بكل ما تحمل هذه السيادة من المعانى . وقد استطاعت ألمانيا فى العامين الأخيرين أن تفرض هذه السيادة على أوربا كلها ما عدا روسيا السوفيتية ، وذلك أولا بطريق الغزو السياسى المبيت ، وثانياً بطريق الغزو العسكرى الكاسح الذى ما زالت تضطلع به حتى اليوم

زحفت الفرق النازية نحو الغرب بسرعة مدهشة وفرضت سيادتها على جميع شواطىء أوربا الغربية من شمال النرويج حتى خليج بسكونيه ، ولم يقف فى سبيل هذا الاندفاع نحو الغرب سوى بريطانيا العظمى ، فهى التي وقفت فى وجه الغزاة كالسد المنيع تحول بقواتها البحرية والجوية وعزيمتها الرائعة دون تحقيق أحلام النازية المتوثبة ، وشعرت أمريكا من جانبها شعوراً حقيقياً بالخطر الذى تتعرض اليه اذا انهار هذا الحاجز المنيع ، بريطانيا العظمى ، وفتح طريق المحيط أمام الغزاة ، ولم يخف الرئيس روزفلت عن مواطنيه أن المحيط لم يعد كافياً لحماية أمريكا من خطر الغزو ، ولم يتردد فى أن يعتبر بريطانيا العظمى خط الدفاع الأول عن أمريكا ، وفى أن يقرر برنامجه العظيم لشد أزر المقاومة البريطانية ، ومعاونة بريطانيا بكل ما تحتاج اليه من السلاح والعتاد والمواد الأولية والسفن والطائرات وغيرها ، وأن يقرر فى نفس الوقت برنامجاً هائلا للدفاع الامريكى ولا سيما فيما يتعلق بالقوات البحرية والجوية

وقد لخص الرئيس روزفلت فى خطابه التاريخي الذى القاه فى منتصف مارس الماضى أغراض

النازية فى تلك الكلمات القوية « فالقوى النازية تعمل على تعديل خرائط المستعمرات وحدود أوربا الصغرى ، وتسعى جهاراً الى تدمير جميع النظم الاختيارية للحكومات فى كل قارة ومنها قارتنا ، والى إنشاء نظم حكومية على تأسيس تقسيم جميع المخلوقات الانسانية وادارتها بيد حفنة من الحكام الفرديين الذين اغتصبوا السلطة بالقوة فهؤلاء الرجال وأتباعهم الذين سلبت إرادتهم يسمون هذا النظام بالنظام الجديد »

***

والحقيقة أن للنازية غايات وأهدافاً فى العالم الجديد ، قررت قبل نشوب الحرب الحالية ، وبذلت الدبلوماسية الالمانية والدعاية النازية جهوداً عظيمة للتمهيد الى تحقيقها متى حلت الفرصة الملائمة . وقد ألقى روشننج فى كتابه الشهير عن « أحاديث هتلر » ضوءا على هذه الغايات والاهداف بما نقله الينا من آراء هتلر وأحاديثه فى هذا الشأن . فقد كان هتلر يتوقع دائماً أن تحدث ثورة عظيمة فى الولايات المتحدة ، ويرى ان النظم الديمقراطية تجوز فى أمريكا كما تجوز فى غيرها مرحلة احتضار ، وأنها غدت بما انطوت عليه من ضروب الفساد والرشوة وصمة فى ماضى الشعب الامريكي ، وأن هذا الشعب ينحدر منذ الحرب الاهلية الامريكية الى نوع من الانحلال السياسى والجنسى ، وأنه متى تم القضاء على الامبراطورية البريطانية ، فان هتلر يؤمل أن يقضى على نفوذ الانجلوسكسونيين فى أمريكا الشمالية ، ثم يعمل على استبداله باللغة الالمانية والثقافة الالمانية كخطوة أولى فى سبيل ضم الولايات المتحدة الى الامبراطورية النازية العالمية

ويرى هتلر أن يتخذ من الالمان الامريكيين نواة لاحداث هذا الانقلاب ففى الولايات المتحدة عدة ملايين من الرعايا الامريكيين المنحدرين من أصل ألمانى ، وهؤلاء يكونون كتلة عنصرية واقتصادية هامة ، ولها صحافة ألمانية قوية تنطق بلسانها . وقد نظمت النازية دعايتها في أمريكا على يدها ، وانبث دعاتها فى جميع أنحاء الامريكتين ، وفى زعم هتلر أن المستقبل فى العالم الجديد سيكون لهذه الكتلة الجرمانية القوية ، وأنها سوف تتولى قيادة أمريكا على هدى المبادىء الاشتراكية الوطنية ، وبذلك يقضى هتلر على نفوذ اليهودية والمالية العليا ، وهما القوتان اللتان تسيطران اليوم فى نظره على أمريكا

وهتلر فوق ذلك يشك فى مقدرة أمريكا العسكرية ويرى أنها لا تضارع فى مستواها قوة فرنسا أو قوة بريطانيا ، وأن الجندى الامريكى لم يكن نموذجاً بديعاً فى الحرب الكبرى

هذا فيما يتعلق بأمريكا الشمالية ، وأما فيما يتعلق بأمريكا الجنوبية فان هتلر يبدى اهتماماً خاصاً بالبرازيل ، وينقل الينا روشننج أن هتلر يحلم بانشاء ألمانيا جديدة فى تلك البلاد الغنية العظيمة ، وقد ظهر اهتمام ألمانيا بأمريكا الجنوبية فى الاعوام الاخيرة بنوع خاص فيما بذلته من الجهود الاقتصادية لكسب أسواقها ، وظهر من جهة أخرى أن الدعاية النازية تبذل جهوداً عنيفة فى

جمهوريات أمريكا اللاتينية ولا سيما فى البرازيل ، والارجنتين ، وشيلى ، وبيرو حيث توجد جاليات ألمانية قوية . ولم تكن الدعاية والدسائس النازية بعيدة عن الانقلابات السياسية العنيفة التى وقعت منذ حين فى البرازيل وبيرو وشيلى ، فقد ثبت فى جميع الاحوال أنها مؤامرات نازية ، دبرت لقلب الحكم فى هذه البلاد ، ووضعها تحت سيطرة عناصر فاشستية تقع تحت نفوذ النازى

***

ان الولايات المتحدة الامريكية تثير بمواردها العظيمة جشع النازية فهى فوق ضخامتها ، وتباين اقليمها ، تتمتع بثروات معدنية وزراعية عظيمة ، وفيها الفحم والحديد والنحاس والزنك والذهب والفضة والبترول بكميات وافرة ، ولها كل المزايا التى تجعلها فى مقدمة الدول الصناعية القوية ، ويبلغ سكانها نحو مائة وثلاثين مليونا منهم نحو ١٥ مليونا من المهاجرين من مختلف العناصر ، وهى اذا استثنينا الاعوام الاخيرة ، تتمتع برخاء لا مثيل له ويتمتع أهلها بمنسوب مرتفع من العيش لم تعرفه أية دولة عظمى أخرى . فهذه الكتلة الهائلة تثير بمواردها ونعمائها العظيمة ، غيرة ألمانيا النازية وحسدها ، وتثير جشعها وغرائزها المتوثبة الناهبة . هذا فضلا عما تثيره أمريكا بموقفها فى الحرب الحالية من حفيظتها وحقدها وجزعها ، إذ آلت على نفسها أن تشد أزر الديمقراطية ، وأن تقف وراء حصنها المنيع بريطانيا العظمى تنصرها على قوى الشر الهتلرية المتجنية ، وتعمل بما وسعت لتقويضها وتحطيمها

كذلك تتجه النازية ببصرها الى أمريكا الجنوبية ، وترى فى أقاليمها الغنية الشاسعة التى يحتشد بها قليل من السكان ، وتتمتع أيضاً بثروات معدنية وزراعية عظيمة ، مجالا هائلا للاستعمار الالمانى وسوقاً عظيمة للتجارة الالمانية

وفى وسعنا متى تأملنا الخريطة أن نقدر حقاً أن المحيط الاطلانطى على ضخامته وهوله لم يعد وحده كافيا لحماية أمريكا واطمئنانها ، وأن النازية الزاحفة من الغرب قد يتاح لها اذا لم تتحطم عند الحد الذى تقف الآن عنده بما لديها من قوات جوية هائلة ، فرصة لدفع عدوانها حتى القارة الامريكية . فأمريكا الشمالية يفصلها عن أوربا الغربية نحو ثلاثة آلاف ميل ، ولكن قطاع الجزر الشمالية الممتد بين دانمارك وجزائر فارو ، ثم ايسلندة ، والارض الخضراء يقرب أمد هذه المسافة الى حد كبير ، فالمساحة بين دانمارك وايسلندة نحو تسعمائة ميل ، وبينها وبين الارض الخضراء (جرينلند) نحو أربعمائة ميل ، ومن الارض الخضراء الى كندا نحو هذه المسافة ، وقد فطنت انكلترا الى خطورة هذا القطاع الشمالى فاحتلت جزائر فارو وايسلندة منذ اعتداء ألمانيا على دانمارك كما قررت أمريكا أخيراً احتلال الارض الخضراء حينما رأت خطر اقتراب الغواصات والطائرات الالمانية من هذه الجزيرة ، وعقدت أمريكا وبريطانيا بينهما اتفاقا للدفاع المشترك عن شواطىء أمريكا الشرقية من الجزيرة الخضراء الى جزائر الهند الغربية ونزلت بريطانيا لأمريكا

عن بعض القواعد البحرية والجوية فى أملاكها فى هذه المنطقة لتكون مراكز أمامية لهذا الدفاع المشترك

وأما أمريكا الجنوبية فلا تبعد عن أقصى نقطة فى غرب أفريقية سوى نحو الفي ميل وفي وسع الطائرات التى تقوم من داكار أوسنت لويس فى السنغال مثلا أن تطير الى شاطىء البرازيل الشمالى الشرقى فى ظرف ساعات معدودة . وهذا يفسر لنا اهتمام الالمان بالتسرب الآن الى السنغال والى ثغر داكار باسم لجنة الهدنة وباغضاء حكومة فيشى

كذلك تصلح جزائر « الأزور » التابعة للبرتغال والتى تبعد عن شواطىء الولايات المتحدة نحو الفى وخمسمائة ميل فقط أن تكون قاعدة للطائرات المغيرة المتجهة الى الغرب

وفى ذلك كله ما يفسر لنا يقظة أمريكا واهتمامها بالمعركة الأوربية وبشد أزر الديمقراطية فى شخص بريطانيا التى تعتبرها خط دفاعها الأول وتأهبها لمواجهة الطوارىء

وقد رأينا ما يساور المانيا الهتلرية من أطماع بعيدة المدى نحو القارة الأمريكية وهذه الأطماع التى كانت قبل أعوام تبدو أحلاماً مغرقة ، تتخذ اليوم صفة المشاريع المحتملة وتملأ أذهان الغزاة الظافرين الذين لم تخب جذوة عدوانهم بالاستيلاء على أوربا وتدميرها واستصفاء جميع ثرواتها

وفى الميثاق الذى عقدته المانيا مع اليابان وما ينص عليه من دخول اليابان الحرب الى جانب المانيا ، اذا دخلتها أمريكا ضدها ، ما يدل بصورة عملية على اتجاه المشاريع الالمانية نحو أمريكا . ومن المعروف أن اليابان وأمريكا تتنازعان السيطرة فى المحيط الهادى والمانيا تستغل لدى اليابان هذه المنافسة فتحرضها على مخاصمة أمريكا وبريطانيا فى الشرق الأقصى لكى تستغرق بذلك جزءاً من اهتمامهما وقواتهما ، ودخول أمريكا الحرب ضد المانيا أمر محتمل ، وقد يكون أقرب مما نتصوره ، والمسألة لا تقتضى أكثر من اعتداء الغواصات والطائرات الألمانية على السفن الأمريكية التى تحمل الامداد الى بريطانيا العظمى ، فاذا وقع ذلك وهو ليس ببعيد الوقوع فمن المرجح أن تدخل أمريكا الحرب الى جانب بريطانيا وتتخذ المعاونة الامريكية لبريطانيا عندئذ صوراً أعظم وأتم مما هى اليوم . وعندئذ تكشف لنا النازية عما تستطيع أن تقوم به من المحاولات العملية لتحقيق مشاريعها فى العالم الجديد

ويقول لنا روشننج في كتابه ان هتلر كان شديد الايمان بأن أمريكا لن تدخل حرباً أوربية أخرى ، وأنه لن يظهر بها زعيم جديد من طراز ولسن يقودها الى مثل هذا المعترك . ولكن الحوادث تدحض اليوم هذا الأمل ، فأمريكا ليست بعيدة عن دخول الحرب الأوربية والرئيس روزفلت خير خلف لسلفه ولسن فى قيادتها الى جانب الديمقراطية

محمد عبد الله عنان

سياسة اليابان الاستعمارية

نظام عالمي جديد !

تتردد اليوم هذه الكلمة في دول العالم الكبرى حتى غدت زيا ، «مودة» يتخذها قادة السياسة ومفكروها ، ويرتديها دعاة الشعوب والاحزاب

فلبريطانيا نظام معروف التاريخ واضح المعالم معين الاهداف ، هو هذه الديموقراطية التى تناضل عنها المتألبين عليها من جميع الارجاء ، حتى اذا قدر لها الظفر فى المعركة القائمة تأيدت قوة هذا النظام واتضحت مزاياه ، بعد ان تحوره وتعدله الى صورة جديدة تكفل لجميع الطبقات أن تجنى ما يؤتى من الثمار ، وبذلك تنصرف الشعوب عن تلك المبادىء والانهاج التى ظهرت وشاعت فى العهد الاخير ، وتقبل على اتخاذ الديموقراطية حين تبين انها تحقق أقصى ما يتيسر للانسانية من صور العدالة والحرية

ولالمانيا نظام تبشر به الآن فى أوربا حتى اذا قدر على العالم نصرها طبقته فى ربوعه جميعا ، وأساس هذا النظام الفلسفة الالمانية الجنسية التى تقسم العالم أجناسا وشعوبا متفاوته القوى والملكات ، يتسنم الالمانى ذراها حيث يكون له حق سيادتها وتوجيهها وعليها واجب الخضوع والامتثال ، فعلى العالم أن يزرع الارض ويخرج ما تحت اثقالها ولالمانيا أن تأكل الثمار وتستغل الكنوز ، وتختص المانيا نفسها بصنع سلاح الحرب وعتادها لترهب العالم الاعزل وتبقيه تحت أمرتها أسيرا ذليلا

ولروسيا نظام جديد طبقته على شعبها بالنار والدماء ، وتبينت لها وجوه تعذره واخفاقه فأجرت ــ وما تزال تجرى ــ عليه كثيرا من صور التعديل والتحوير ، وخلاصته تحريم الملكية وتحريم الحرية على الافراد ووضع أسبابهما فى يد الحكومة ، وذلك بعد ان نقلت السلطة ــ التى كانت فيما مضى فى يد الطبقة العليا ، وغدت الآن فى يد الطبقة الوسطى ــ الى قبضة الطبقة الدنيا وحققت بذلك ــ كما يقولون ــ «حكومة الصعاليك» . ولم تن روسيا عن اذاعة هذا المبدأ فى كل ما يتاح لها من الشعوب فى السلم والحرب على السواء ، فهى تبث الدعاة وترسل عيونها اينما وجدت سبيلا ، وهى الآن تتخذ سياسة ترجو من ورائها تحطيم قوى أعدائها المتناحرين فى حومة القتال

فلم لا تبتكر اليابان نظاما تجرى عليه العالم جميعا ، ولها فيه ما لها من أطماع سياسية واقتصادية ؟ الواقع أن اليابان تعد منذ عهد بعيد نظاما عالميا خطيرا ، وهى تجهر الآن بما تتخذه من الوسائل لاقامته واذاعته ، وبما تسعى اليه فى هذا السبيل من المقاصد والاهداف

***

يلخص كتاب اليابان هذا النظام الجديد في عبارة قصيرة هي ان « اليابان الكبرى تتولى تعليم العالم » • وهم لا يقصدون بالتعليم ما يلقى في المعاهد أو يذاع في الكتب ، وانما يريدون به السيادة اليابانية التي يزعمون أن فيها خلاص العالم وراحة الانسانية

ولنرجع الى هؤلاء الكتاب نترجم عنهم بعض ما قالوا فنجد أحدهم ـ الدكتور يوسوجي شنكتش ـ يقول : « يتضح الآن جيدا ان خلاص الجنس البشرى كله في الرسالة التي تؤديها امبراطوريتنا • لقد أقام شعبنا ، بفضل أباطرته المصلحين الخيرين ، دستورا قوميا عظيما لا مثيل له في العالم ، فاذا جاء الجنس البشرى ليتبين فضائل امبراطورنا وليحيى في ظله الكريم ، فان النور سوف ينبثق من وجه الانسانية ، وهذه هي رسالة شعبنا وانها في الحق لرسالة خطيرة مجيدة » • وهذا صحفي آخر يكتب في سنة ١٩٢٠ قائلا : « ان الشعب والآلهة الموكل اليهم أمر اليابان انما يعملون ليحققوا أمرا عظيما سميا، هو توحيد العالم تحت عرش امبراطور اليابان ، فاننا لا نرمى الا الى بسط حكم امبراطورنا فوق ربوع العالم جميعا »••

هذه هي الرسالة التي تريد اليابان ابلاغها للشعوب ، مبتدئة بما يقع منها في شرق آسيا ، ثم بما يترامى منها في أرجاء المحيط الهادى ، ثم توسع آفاقها حتى تعم الدنيا بأسرها ، وليست هذه الرسالة حديثة العهد شأن رسالة روسيا وألمانيا ، بل يرجع تاريخها الى عدة قرون خلت ، فقد حاولت اليابان منذ عهود بعيدة ان تلقى سيادتها على ساحل آسيا فتقهر كوريا وتسيطر عليها ، ولكن هذه المحاولة لم تصبح سياسة مقررة محددة الا في القرن السادس عشر عندما ظهر في اليابان قائدها الشهير ـ هيديوش ـ الملقب بنابليون الياباني ، الذى زج بشعبه في معترك استعماري مترامي الآفاق

ووجوه التشابه بين نمو الجزر اليابانية ونمو الجزر البريطانية واضحة كثيرة • فقد ظلت اليابان دهرا طويلا تعتمد في ثقافتها وحضارتها على الصين كما كانت انجلترا تعتمد على فرنسا ، وتعرف هذه الفترة الطويلة في تاريخ الشعبين « بفترة التقليد » • وفي تلك الاثناء كانت الجزيرتان ترسلان حملات حربية كثيرة الى ما يواجههما من شواطىء القارتين وكان بحارتهما وقرصانهما يجوبون ما حولهما من الآفاق وينقلون اليهما السلع والأسرى وأسباب الحضارة • وكما ان انجلترا لم تحقق تضامنها القومي الا عندما سارت اليها « الآرمادا » تريد غزوها وقهرها واخضاعها ، فكذلك ظلت اليابان مشتتة القوى متناحرة الوحدات حتى رست على شاطئها « أرمادا » أرسلتها عليها الصين في عهد « كوبلاى‌خان» امبراطور المغول الذى أراد ان تعترف به تلك الجزيرة الملقاة على مقربة من مملكته سيدا حاكما ، وأرسل اليها وفدا يطلب اليها ان تنضوى تحت عرشه وامرته ، فلما ردت رسله وأبت عليه ما أراد أعد لها أسطولا جبارا يتألف من تسعمائة سفينة ويحمل خمسة وعشرين ألف مقاتل ، وابحر هذا الاسطول في شتاء سنة ١٢٧٤ ليجهز على الجزيرة بضربة قاصمة ، فرسا الاسطول على الشاطىء حيث انزل جيشه الكبير ولكن أشرقت شمس

اليابان ذات صباح فلم تجد هؤلاء الجنود الا أجداثا ملقاة ، وهبت على الاسطول فى اثناء الليل عاصفة عاتية شتت سفنه فى أرجاء البحر فمنها ما ابتلعته الامواج ومنها ما قذفت به مهشما على الصخور ، على ان نفرا من البحارة استطاع ان يلوذ بالفرار عائدا الى شاطىء الصين . وعاد كوبلاى خان فارسل اسطولا آخر بعد سبع سنوات فكان اسوأ من الاول حظا ، فقد انبثق من حوله من بين مياه البحر بخار خانق أودى بجموع رجاله ، وكان مصدره بركان من هذه البراكين التى كثيرا ما تثور هناك فى غور البحار

خرجت اليابان من هذه الاحداث شاعرة بأن القدر أعد وهيأ لها من المناعة والحصانة ما يرد عنها عادية الاشداء . وهذا الشعور ذاته هو الذى يملأ قلب الانجليزى حين لا يجد فى أرض وطنه أثرا لقدم دخيلة استطاعت ان تعبر اليه البحر وتغزو أرضه المنيعة . فكما يعتقد الانجليزى أن الله تعالى أرسل ريحا صرصرا عاتية شتت الارمادا فى عرض البحر وألقت رجالها طعاما للاسماك ، كذلك يتحدث اليابانى عن « ريح الله » وعن « زحمة السماء » وعن « الشعب الالهى » حديثا ملؤه الايمان الوثيق

وراحت اليابان بعد أن اتحدت قواها واستقرت قوميتها تتخذ منهاجها الاستعمارى ، فسعى بحارتها يغامرون فى آفاق البحار للتجارة وللقرصنة ، وكانت سفنهم الشراعية المشتتة نواة الاسطول اليابانى الكبير . ثم كانت النهضة الصناعية التى غمرت اليابان ففجرت ينابيع ثروتها ووسعت آفاق تجارتها ، فلما جاء القرن السادس عشر وقام البطل «هيديوش» يبشر اليابان بأن ما اجتمع لها من القوة والثروة كفيل بأن ينشىء لها دولة كبرى تنشر لواء اليابان فوق أرجاء الصين وكوريا والهند وايران وجزر البحار الجنوبية . ويؤكد الذين يعرفون تاريخ هذه الحقبة الخطيرة فى تاريخ العالم ان هذا المشروع العظيم كان وشيك التحقيق لولا ان الموت عاجل الرجل الذى فكر فيه ودعا اليه ، فخبت بموته الجذوة العسكرية التى أوقدها وأذكاها وقضت اليابان من بعده ثلاثة قرون فى دعة وخمول حتى كاد العالم أن ينسى أمرها . ولكن فى تلك الفترة الطويلة اتضحت وتركزت سياسة اليابان الخارجية بعد ان قامت أصولها وقواعدها على الاسس الدينية والخلقية

***

ثم تنبهت اليابان فى القرن التاسع عشر على صوت الحركة الاستعمارية التى أخذت توجه شعوب أوربا الى أقاصى العالم ومجاهله تفتحها وتسيطر عليها وتستغل مرافقها . ورأت ان النزاع يحتدم والقتال ينشب بين هذه الشعوب فلا يقدر الظفر الا للقوى ولا يقضى بالهزيمة الا على الضعيف ، فقر عزمها على ان تنفض عنها ثوب الضعف وتعتد بكل ما يسعها من القوى . وجعلت « الرسالة المقدسة » محور حياتها وجوهر جهادها ، وأخذت تعتد بأداة الحرب الحديثة لتنافس القوات الكبرى فى مضمار التنافس الاستعمارى . وبدأت منذ هذا التاريخ تجنى الثمار ، فأحرزت نصرين كبيرين فى أرض آسيا ، أحدهما

انتصارها على الصين سنة ١٨٩٥ وثانيهما على روسيا بعد ذلك بعشر سنوات . فأوحت هذه النتائج الباهرة الى شباب اليابان أن قد آن له أن يحقق مشروع « هديوش » فيبسط يده على أفسح شعوب آسيا ويقضى بأمره فى أضخم شعوبها . وكانت أول خطوة فى هذا السبيل غزو كوريا وقهرها سنة ١٩١٠ ، ثم سيرت جيوشها الى الصين ومنشوريا ولكنها بدأت تلقى المقاومة والهزيمة على أيدى منافسيها من الشعوب الاوربية وهى بريطانيا وفرنسا وألمانيا وامريكا

ثم قامت الحرب الكبرى فلمحت اليابان من خلالها ان الفرصة بدأت تسنح وتواتيها . فلم تتردد طويلا فى أن ترسل الى الصين المشتتة العزلاء « واحدا وعشرين مطلبا » ! تفصح عما يريده ويدبره هذا الشعب الناهض الطامح من الآمال ، التى تتلخص الآن فى جعل أقاليم الصين الفسيحة ومواردها البكر الخصبة منطقة نفوذ تستبد اليابان بأمرها وخيرها معا . وقد حققت اليابان شطرا من هذه المطالب عقب انتهاء الحرب حين وضعت يدها على مناطق شانتنج ومنشوريا ، وكان بعض هذه المغانم من الاسلاب التى جردت منها ألمانيا عقب هزيمتها . ففى معاهدة فرساى تأكد حق اليابان فى شانتنج وتقرر موقفها فى هذه المنطقة الصينية ، وكذلك وضعت بعض جزر البحار الجنوبية تحت الانتداب اليابانى ، كما منحت اليابان مقعدا دائما فى مجلس عصبة الامم وبذلك اعترف بها كأحدى الدول العظمى التى توجه العالم وتشرف على سياسته

وقد سعت العناصر المتحررة فى اليابان ، كما أدت مشاكلها الاقتصادية المعقدة ، الى كبح جماح الطبقة العسكرية حينا ما . ولكن لم يلبث هذا الشعب المضطرم بالآمال والاطماع ان عاد يسلم أمره الى الجيش حين توفق فى سنة ١٩٣٠ الى غزو منشوريا وقهرها وتكوين دولة منها اسمها « منشوكو » التى تعدها اليابان نواة امبراطورية كبرى تترامى حدودها الى تخوم أوربا غربا وشواطىء أمريكا شرقا

وفى سنة ١٩٣٢ اعلنت اليابان انها تطبق فى آسيا الشرقية سياسة مونرو التى تطبقها الولايات المتحدة فى القارة الامريكية ، فلا تسمح لاية دولة ان تتخذ سياسة أو تكون نفوذا فى مناطق آسيا الشرقية يتنافى مع سيادة اليابان وخططها العسكرية والاقتصادية . وفى تلك السنة ذاتها أعلنت انها تستنكر وتناقض المعاهدات البحرية التى عقدتها من قبل فى واشنجتون ولندن وأقرت فيها حق كل من امريكا وبريطانيا فى التفوق البحرى عليها، وأخذت تسعى بعد ذلك الى أن تجعل اسطولها كفءا لاحد الاسطولين الامريكى والبريطانى ، وتلا ذلك حربها مع الصين التى أدت الى الاستيلاء على المقاطعات الشمالية الغنية بمناجمها وخيراتها ، والتى لم تقف رحاها منذ أربع سنوات تجاهد فيها اليابان أن تبسط لواءها على آفاق الصين الخصبة المأهولة

ثم كانت الحرب الكبرى الثانية التى ترى اليابان انها فرصة أخرى هيأتها لها العناية الالهية ، لتحقيق آمالها . فعقدت اتفاقا مع قوات المحور الاوربية لتستطيع ان تزيد فى

ضغطها على الدول الديموقراطية . ولكن بعض الساسة فى أوربا وامريكا يزعمون برغم ما شهدوه من أطماع اليابان وجهودها الاستعمارية منذعدة قرون ــ أن هذه الدولة لا يمكن ترضيتها ومصالحتها بشيء من المنح والهبات التى تزيد نفوذها السياسى وتوسع سوقها التجارية . وهذا الزعم ليس خطأ بينا مؤذيا تخادع بها بعض الدول نفسها حين تتغاضى عن الحقيقة الناطقة وهى أن اليابان تتجه وجهة معينة صريحة لا تعدل ولا تنحرف عنها حتى تسيطر على كل ما يترامى فى غربها وشرقها وجنوبها من الاقاليم والشعوب تمهيدا لفرض سيادتها ونفوذها على العالم جميعا ، ولن تنحرف اليابان عن هذا الطريق الا يوم ان تحل بها كارثة حربية خطيرة . توقظها مما تسرح فيه من الاحلام وتفتح عينها على خرافة مناعتها وحصانتها

ان تفكيرنا الآن مركز فى مقاومة النظام الذى تريد المانيا ان تفرضه على أوربا ، ولكن هذا النظام الالمانى أهون شأنا وأقل خطرا من ذلك النظام الذى تريده اليابان بالعالم . وبريطانيا تعرف انها لا تخشى كثيرا على مكانتها وسيادتها لو فرض انتصار ألمانيا وتحقق سياستها ، انما يأتيها الخطر الحق من كل جانب اذا نجحت اليابان فى اقامة امبراطوريتها . ان اليابان ــ لا ألمانيا ــ هى التى تملك « الاسلحة السرية الرهيبة » التى يحق لنا أن نخشى بأسها ونتقى خطرها الذى تبرز الآن قرونه فى وجه بريطانيا وامريكا على السواء

ان « الخطر الآرى » الذى أرهق العالم بهذه الحرب المروعة لاهون شرا وأقل بأسا من « الخطر الاصفر » الذى كاد ان ينطلق من عقاله فى أقصى الارض

(من مقال بقلم جيرالد ساميسون فى صحيفة ذى فورتنيتلى الانجليزية)

العباقرة والاطفال

كان تولستوى يحب أن يركض ويمرح مع الصغار من أبناء الفلاحين . وكان تورجنيف يمضى وقت فراغه فى مداعبة طفل روسى اسمه « اليوشا » . وكان فلوبير يزين مخدع نومه بصور مختلفة لاجمل الاطفال . ولما غرق الشاعر شيلى كان يتنزه فى قارب برفقة طفل ناشىء . أما جان جاك روسو فأرسل أبناءه الى ملجأ اللقطاء . والمسيح عليه السلام ينصحنا قائلا : كونوا أطفالا

الحلقة المفقودة
فى وثائق تاريخ مصر الحديث

بقلم الاستاذ محمد محمد توفيق

عند ما هم ساكن الجنان المغفور له الملك فؤاد الاول بنشر تاريخ مصر الحديث تبين لجلالته أن جانباً كبيراً من وثائق هذا التاريخ موزع بين مختلف دور الحفظ فى الغرب، فسعى سعيه المشكور فى نقل صور ما تيسر نقله منها بواسطة بعض العلماء الاجانب . ثم اهتم بالوثائق التركية التى كانت مودعة بالقلم التركى بدار المحفوظات العمومية قبيل وفاته رحمه الله فأصدر أمره الكريم بتعيين طائفة من المترجمين للتوفر على ترجمتها أو تلخيصها . وكان قبل ذلك قد كلف أستاذاً فرنسياً فاضلا هو الاستاذ ج . دينى بوضع الطريقة العلمية للعمل فى هذه الوثائق . فأصدر الاستاذ كتابه القيم عن الوثائق التركية فى القاهرة . وأسهب فى مؤديات مختلف الوثائق ورسم الطريقة التى يجب أن تتبع عند الاشتغال بها

ولم يكتف جلالة الملك فؤاد الأول بذلك بل رأى أن يسير العمل فى تلخيص الوثائق وترجمتها تحت رعايته المباشرة — وكان ذلك سهواً منه منقطع النظير على مادة تاريخ مصر الاصلية — فأصدر أمره الكريم بنقل المحفوظات التركية التى كان يلخصها المترجمون أو يترجمونها الى قصر عابدين العامر ، حيث خصص لها جناح مستقل فى مبنى ملحق بالقصر

وعكف المترجمون على العمل بارشاد دقيق من كبار رجال القصر، وما يزالون يعملون . وقد علمت انهم كادوا يصلون الى قطع ثلث المرحلة الوثائقية التى بين أيديهم

وصادف ذلك اتجاهاً جديداً فى الدراسات الجامعية العليا للماجستير والدكتوراه بقسم التاريخ بجامعة فؤاد الأول ، إذ وجه الأستاذ الكبير شفيق غربال بك أستاذ التاريخ الحديث وقتئذ بكلية الآداب تلاميذه وطلاب بحثه الى الاستفادة من مادة هذه الوثائق فى رسالاتهم من عصر محمد على الكبير ، فوفد عدد من الطلاب الى مبنى الوثائق الملحق بقصر عابدين . ولقوا من رياسة القلم التاريخى ومن المترجمين كل عناية وتشجيع . ووضع بعضهم رسائل قيمة فى نواح متعددة من تاريخ محمد على باشا : فى التعليم ، وحالة الفلاح ، والمطبعة الأميرية ، وحروب الوهابيين الخ الخ . . وما يزال هؤلاء الباحثون يعملون فى إتمام أبحاثهم ويتزودون أولا فأولا بما يتمه المترجمون من ملخصات أو تراجم

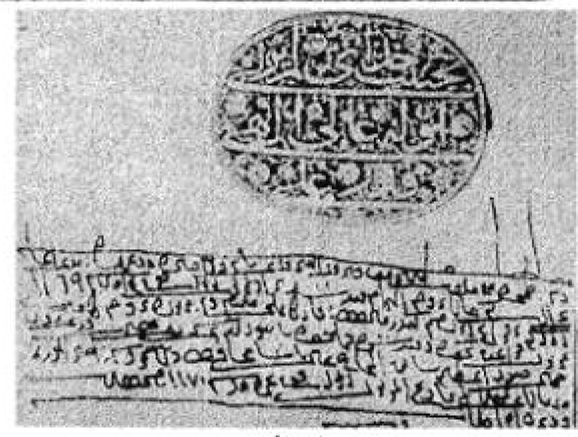
الحلقة المفقودة

فى وثائق عصر محمد على الكبير

ظلت الحال على ذلك حتى التحقت منذ ثلاث سنوات بخدمة دار المحفوظات العمومية وثائقياً بالقلم التركى . وصادف ذلك اشتغالى بالبحوث التاريخية العليا مع أستاذى الكبير شفيق غربال بك

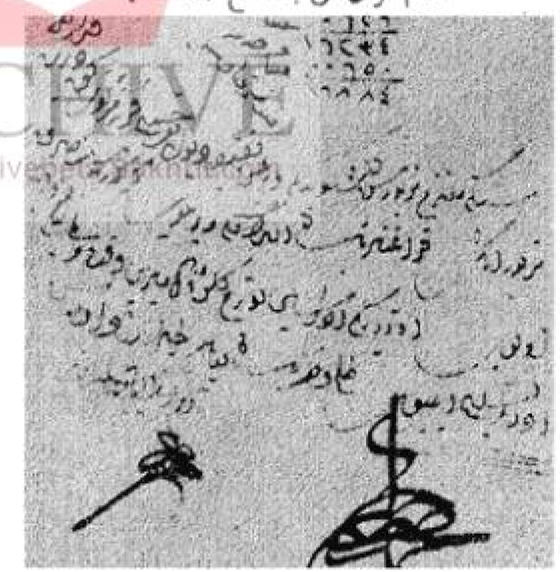
فأفهمنى أولو الأمر فى أول عهدى بالعمل الوثائقى والبحوث التاريخية ان دار المحفوظات لم تعد تحوى شيئاً ذا قيمة من الوثائق التركية ، وان الذى نقل الى القصر هو المهم منها ، فاتصلت بقسم الوثائق فى عابدين وتحدثت الى حضرات القائمين بالعمل فيها وتناولت بالبحث أنواع الوثائق هناك ، فتبين لى أنها تحتوى صور الاوامر العالية الصادرة من محمد على باشا واليه ، والمحفوظات السياسية والحربية ، ومحاضر جلسات مجلس الشورى وما الى ذلك . وهى فى مجموعها تعتبر حقيقة أهم وثائق العصر

ولكن أين المحفوظات المالية لعصر محمد على الكبير وخلفائه الى عصر اسماعيل ؟ وأين المحفوظات الادارية غير الأوامر الادارية العالية ؟ وأين الدفاتر التى تحوى البيانات الدقيقة عن كل هذه الحركة العمرانية التى تحدثنا عنها وثائق عابدين ؟ ثم أين محفوظات السنوات العشر أو الخمس عشرة الاولى



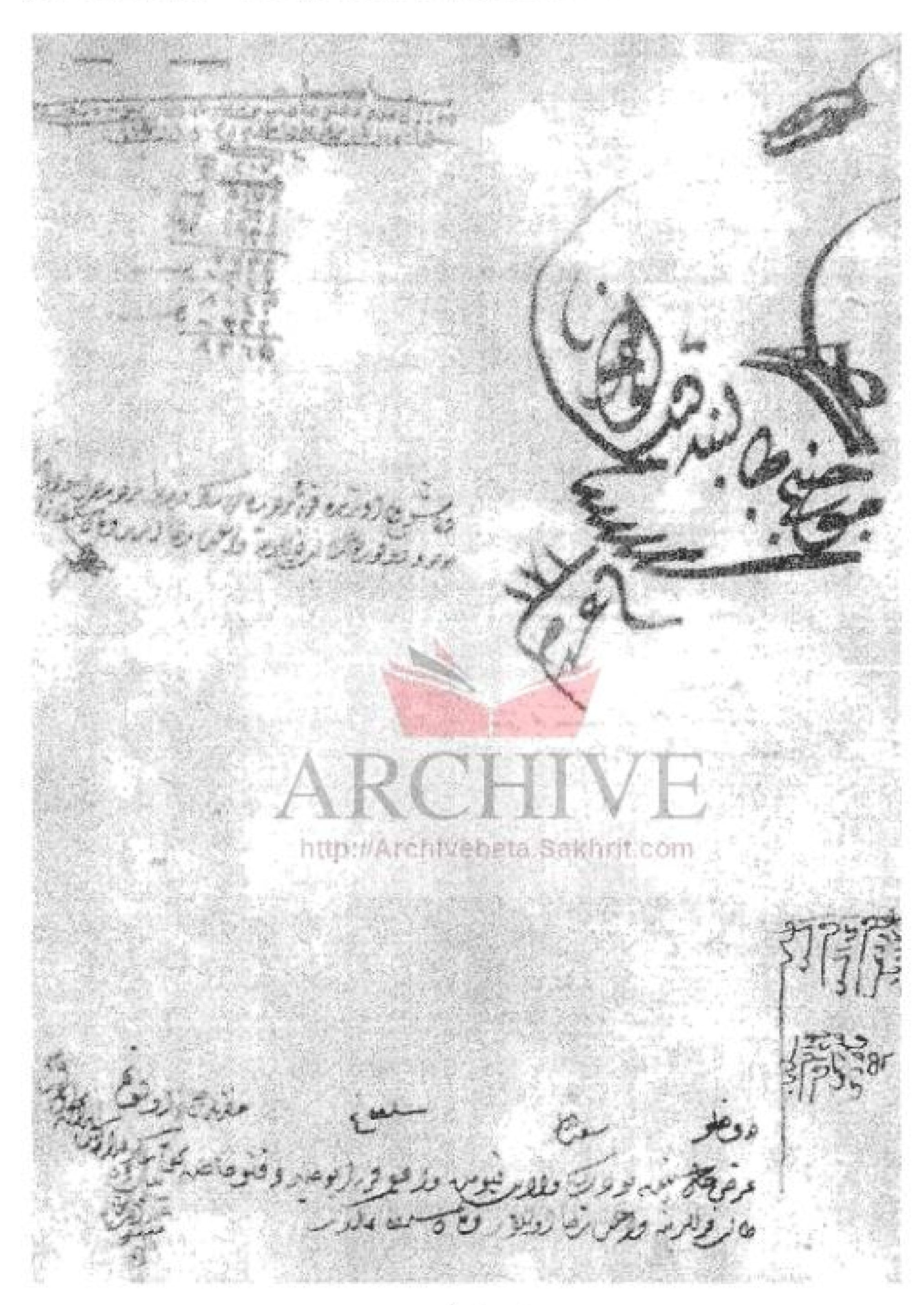
تقسيط التزام

الجزء الاعلى من احدى الأوراق الرسمية التى كانت تسمى « تقاسيط » — وهى الوثائق الرسمية التى تثبت أحقية الملتزمين بتحصيل الأموال الأميرية فى العصر العثمانى . ونجد صيغة محررة بخط « قيرمة » وتفسير السطر الأول منها : « مقاطعة قرية طموه مع ملفت طين وقف فيروز النبراوي تابع ولايت جيزة در عهدة المير أغا الخ . » وفى أعلى خاتم الوالى على باشا مع جملة دعائية



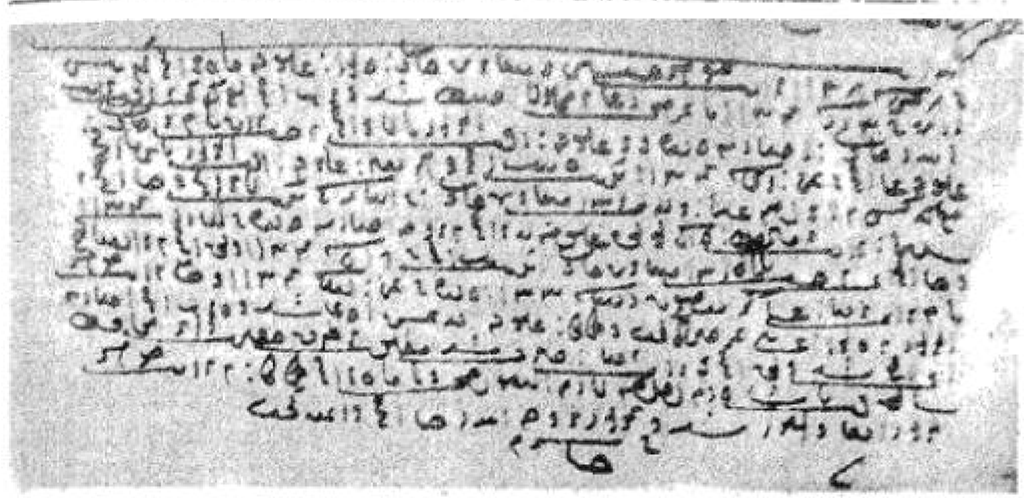
الجزء الاسفل من تقسيط التزام

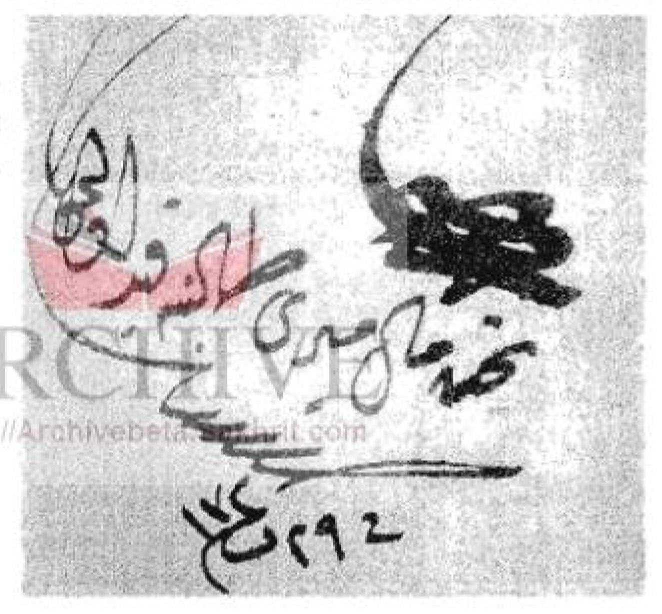
ونجد فيه صيغة بالتركية لتوجيه الالتزام الى أحد الملتزمين بتحصيل الأموال الأميرية . وهو ينص على ضرورة تحصيل الأموال وتأديتها للديوان فى حينها والحذر من ظلم الاهلين أو التعدى عليهم . وفى أسفل امضاء الدفتردار « محمد »



ورقة التزام

نموذج لورقة توجيه التزام الى أحد الملتزمين بتحصيل الأموال الاميرية فى العصر العثمانى في مصر . ونجد فى أسفل الورقة عريضة الملتزم الى الوالى ، وفى أعلاها الى اليسار بيان ديوان الروزنامة عن الاموال المطلوبة من قرية أبوصير دفنو بالفيوم . والى اليمين الامر الباشوى من الوالى العثمانى بتوجيه الالتزام الى الملتزم المذكور





اعتماد مرتب لأحد الجاويشية

صورة قيد مرتب خمس بارات يوميا للمدعو « عبد الله جوهر حبشي عن متقاعدي جاوشان ديوان » ابتداء من ٨ س (صفر) سنة ١١٣٨ هـ

أمر من أحد الولاة العثمانيين

صورة أمر من أحد الولاة العثمانيين على إحدى أوراق الالتزامات . وهو ينص على اعتماد الالتزام المذكور بشرط دفع الأموال الاميرية . وهو محرر فى ٢٩ ب (أى رجب) سنة ١١٧٢ هـ . وفى أعلاه علامة « صح » التى تدل على المراجعة والاعتماد

من حكم محمد على باشا الكبير التى لا نجد لها وثائق فى عابدين الا ما يعد على الاصابع ؟ هل ضاعت هذه الوثائق ؟ هل احترقت فى الحريق المشهور الذى دها القلعة فى عصر محمد على باشا كما زعم المهتمون بالوثائق التركية ؟

كل هذه أسئلة لم أجد الجواب عنها إلا بالبحث والتنقيب الطويلين فى محفوظات دار المحفوظات العمومية بالقلعة . ويسرنى أن أكون أول من يرفع عنها الستار ويجيب عنها إجابات دقيقة حاسمة

فأما المحفوظات المالية والادارية ومحفوظات الحركة العمرانية فى عصر محمد على باشا فقد وجدتها فيما أهمل شأنه من محفوظات القلم التركى بدار المحفوظات التى عرفت بمحفوظات الروزنامة . تلك الدفاتر والأوراق التى لم يدن منها أحد ، ولا نفض عنها تراب القرون أحد . تلك المحفوظات

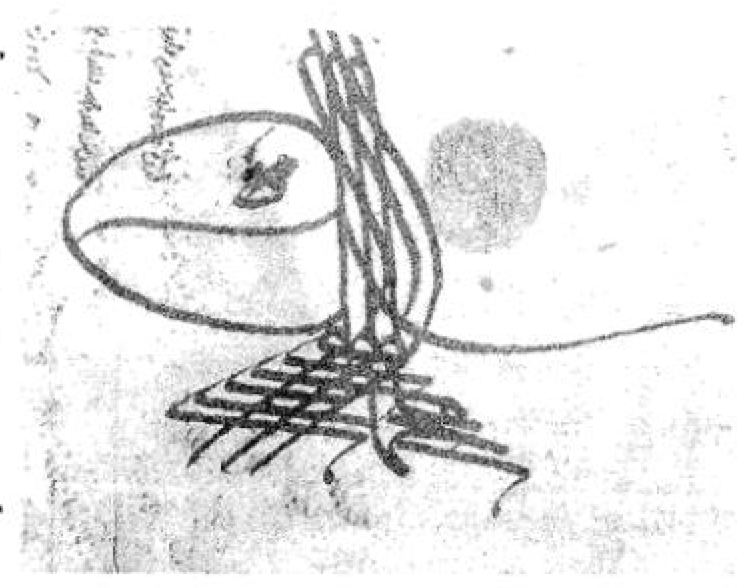


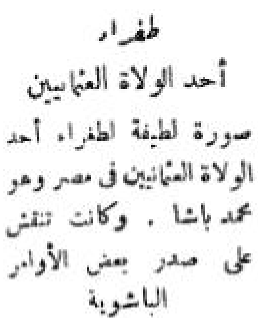
خدام أحد المساجد

قائمة بأسماء خدام أحد المساجد في العصر العثماني . والاول الى اليمين هو « شيخ محمد اسماعيل إمام جامع شريف » وله يومية ٨ بارات . ويليه « شيخ محمد ابراهيم خطيب جامع شريف » . ثم « شيخ أحمد اسكندراني سر مؤذنان (أى كبير مؤذني) جمعة (أى يوم الجمعة) . في يوم ٦ » الخ الخ . .

مرتبات الجراية والعليق

صورة لقيد مرتبات الجراية والعليق لوالى مصر العثمانى وقاضى القضاة والدفتردار (بمثابة وزير المالية) . وتقرأ فى أعلى « عادت (عادة) جرايه وعليق أسبان (خيول) دستور مكرم ، مشير مفخم حضرت (حضرة) وزير (الوالى) دام اجلاله . فى شهر أردب ٧٥٠ حنطة أردب ٢٥٠ شعير أردب ٥٠٠ » ويلاحظ أن الارقام مكتوبة برموز مصطلح عليها





طغراء
أحد الولاة العثمانيين

صورة لطيفة لطغراء أحد الولاة العثمانيين فى مصر وهو محمد باشا . وكانت تنقش على صدر بعض الأوامر الباشوية

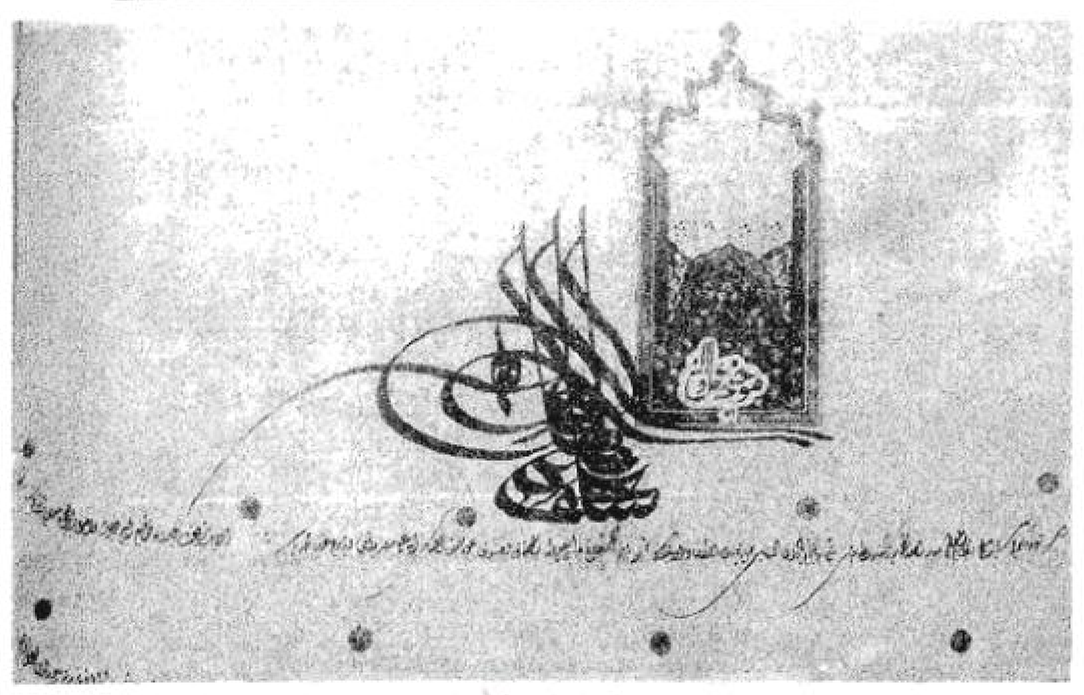
المحررة بنوع من الخط حار الموظفون القدماء فى أمره وحسبوه خطاً « كفرياً » مغلقاً وهم أحد أمناء دار المحفوظات بالاستغناء عن المحفوظات المحررة به . ومن الغريب أن حضرات القائمين على الوثائق التركية الى الآن لم يهتموا بشأن هذه المحفوظات وحسبوها بعض الاحسانات والمرتبات الخيرية . مع أنها عن الناحية المالية والادارية فى تاريخ محمد على الكبير ، وهى تتمم جميع حلقات عصره السياسية والحربية والزراعية والصناعية والتجارية والتعليمية ، وبدونها يصعب إعطاء صورة دقيقة عن مختلف مظاهر العصر الذهبى فى تاريخ مصر الحديث

وأما محفوظات السنوات العشر أو الخمس عشرة الأولى من عصر محمد على الكبير ، فلا هى ضاعت ، ولاهى احترقت ، وانما هى بعينها هذه المحفوظات التى أهمل شأنها الى الآن . وأعتقد أن حضرات الذين جزموا بضياعها أو احتراقها لم يفطنوا الى هذه الحقيقة لأنهم متأثرون باستقلال محمد على باشا وامبراطوريته الكبيرة . ولم يتريثوا ليعلموا أن محمد على باشا بدأ حكم مصر وهو وال عثمانى يكاد لا يختلف عن أى وال آخر سبقه إلا فيما يدبره لمصر من استقلال وقوة ومجد . وقد ظل محمد على باشا عدة سنوات والياً عثمانياً يأتيه الفرمان بتجديد ولايته كل عام . ومحفوظات الوالى العثمانى كما سنثبت ببحوثنا الوثائقية الشهرية التى أصدرنا البحث الأول منها لاتعدو محفوظات ديوان الوالى والديوان الدفترى ، وديوان الروزنامة . وكل ذلك ممثل فيما كشفنا عنه النقاب من الدفاتر والأوراق المحفوظة بالمخزن التركى بدار المحفوظات العمومية والتى أعمل على جمعها وترتيبها ووضع الملخصات عنها منذ حين ، وسأتوفر على درسها إن شاء الله لعلى أضع بها قواعد تاريخ محمد على الكبير ــ الذى لم يقم به أحد من الباحثين بدقة الى الآن



براءة سلطانية

وهذه براءة سلطانية صادرة الى المدعو السيد سعدى خليفة بتاريخ ٢٧ ربيع الثانى سنة ١٢٠٩ هجرية، ومحررة بالخط الديوانى الجلى البديع ومتوجة بطغراء السلطان



طغراء السلطان

صورة جلية للجزء الأعلى من فرمان صادر من السلطان سليم الثالث الى والى مصر عزت محمد باشا . ونجد فى أعلاه مكتوبا « موجبنجه عمل أولنه » أى « ليعمل بموجبه » . ويخاطب السلطان واليه بقوله « دستور مكرم مشير مفخم نظام العالم مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب متمم مهام الانام بالرأى الصائب ممهد بنيان الدولة والاقبال مشيد أركان السعادة والاجلال المحفوف بصنوف عواطف الملك الاعلى مصر واليسى (أى والى مصر) وزيرم (أى وزيرى) عزت محمد باشا أدام الله تعالى اجلاله »

الحلقة المفقودة فى وثائق تاريخ مصر العثمانى

ولم يقتصر تحقيق على هذه الناحية الخطيرة من تاريخ محمد على باشا وأسرته الكريمة . فان للمسألة وجهاً آخر لا يقل عن ذاك خطراً

فان تاريخ مصر تحت الحكم العثمانى لم يطرق أحد باب وثائقه الى الآن . ولعل أحداً من الباحثين لم يعرف أنها محفوظة بالقلم التركى بدار المحفوظات العمومية ، حتى بدأت أنقب فى هذه المحفوظات وأنبأت الهيئات العلمية بجامعة فؤاد الأول بنبأ العثور عليها بين وثائق الدار . وهى مجموعة هامة جداً من الدفاتر والأوراق سأبعث بها موات تاريخ مصر العثمانى إن شاء الله لعلى أرسل عليه قبساً من النور بعد ما قيل إنه أظلم العصور التاريخية المصرية إطلاقاً . وسأحاول أن ألم أيضاً بما هو مودع فى دور الحفظ فى استانبول من هذه الوثائق حتى يتم لنا درس ثلاثة قرون من تاريخنا المصرى أهمل درسها الى الآن اهمالا شديداً ووضع بعض الباحثين فيها كتباً ناقصة جائرة الأحكام وغير دقيقة

نظرة فى لغة الوثائق التركية وخطوطها

وكل هذه الوثائق التركية محررة باللغة التركية العثمانية التى تكثر فيها الألفاظ العربية والفارسية والتركية القديمة بحيث لا تسهل قراءتها إلا للباحث الملم بأنماط الكتابة التركية القديمة

وهى مكتوبة بعدة خطوط أهمها النسخ والديوانى وجلى الديوانى (المعروف بالهمايونى) والفارسى والخط السرى المسمى خط قيرمه

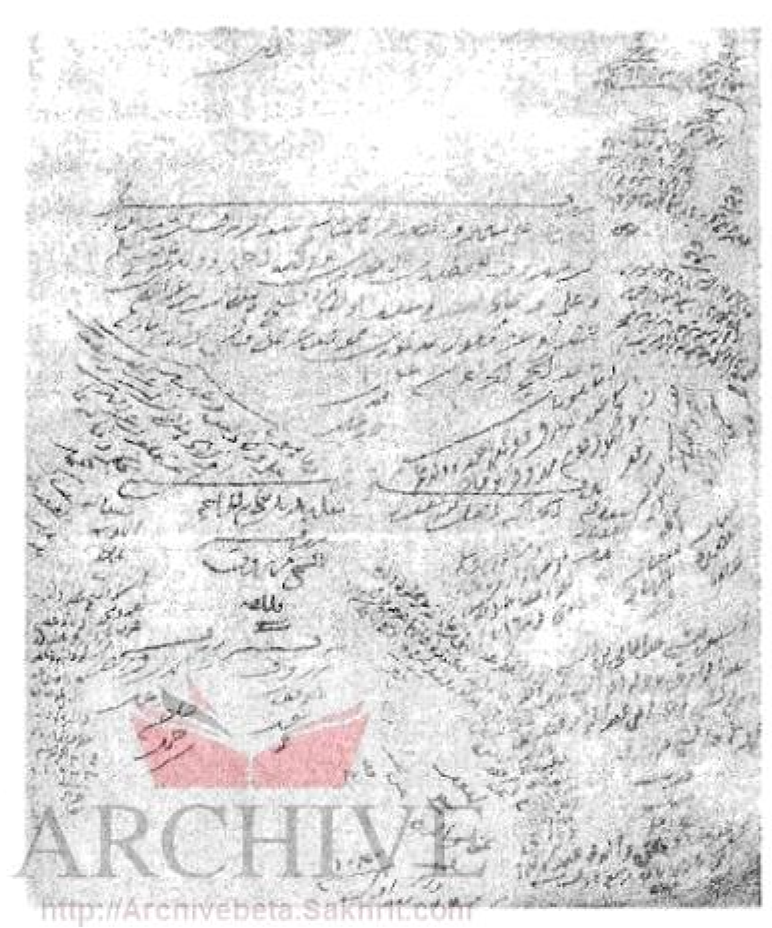
وهذه الخطوط يغلب عليها طابع السرية . ويهمنى هنا أن أحدث قراء الهلال عن خط واحد منها هو المسمى خط « قيرمه » فانه حير الباحثين مدة طويلة وأوقف سير الأبحاث التاريخية لصعوبة قراءته التى تبلغ درجة الاستحالة فى كثير من الأحيان مما حدا ببعض الباحثين فى تاريخ تركيا والشرق الأدنى الى نبذ مجموعات بأكملها من الوثائق لاستحالة تناولها أو مطالعتها

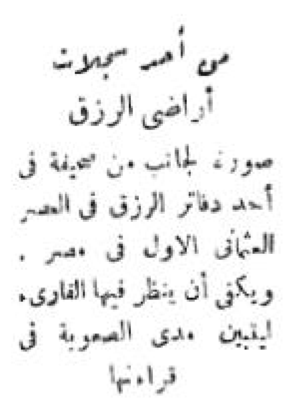
هذا الخط هو من مبتكرات خطاطي الترك كما أثبت ذلك فى بحثي « مصطلح وثائق تاريخ مصر الحديث » . والذى حمل العثمانيين على استنباطه واستعماله فى معاملاتهم المالية والادارية هو رغبتهم فى خلق جو من « السرية » فى دواوينهم - وعلى الأخص ديوان الروزنامة

وقد بالغ موظفو الادارة العثمانية فى تركيا ومختلف الولايات العثمانية - ومن جملتها مصر - في هذه السرية فجعلوا وظائف الكتابة والاعمال الحسابية وراثية فى أبنائهم وحفدتهم أو أتباعهم من أخص المماليك ، بحيث ينشأ ابن الكاتب أو مملوكه الخاص فى الديوان ويتلمذ على والده أو مولاه ويظل تلميذاً « شاكرد » يتقاضى أجراً بسيطا حتى يموت الوالد فيرشح الابن أو التابع للوظيفة التى خلت بوفاة الأستاذ .. ومن مبالغاتهم فى السرية أيضاً انهم كانوا لا يحتكون بجمهور الناس . وانهم ابتدعوا للارقام رموزاً غير الارقام المعروفة وكانوا يحررون بها مختلف الأوراق المالية . كذلك جعلوا أسماء الأعلام والوظائف وما اليها على هيئة الرموز بقدر المستطاع ، بحيث يقف المرء حائراً فى الورقة أو الدفتر الذى يعثر عليه ، ويكاد يجزم أول وهلة انه محرر بخط غير الخط العربى. فاذا عرف انه عربى وعالج قراءته استعصت عليه القراءة . وهذا هو بعينه الذى أدى الى ترك تلك المحفوظات الثمينة مهملة فى زوايا النسيان طوال هذه السنين ، حتى ساقتنى الظروف السعيدة الى

رموز الاعداد بخط « قيرمه »

يجد القارىء فى هذا النص بعض رموز الاعداد بخط « قيرمة » الذى أشار اليه كاتب المقال . فالأول رمز لعدد ١٠٠ر٠٠٠ر١ والثانى لعدد ١٥٦ر٠٠٠ر١ والأخير لعدد ٧٣٩ر٩٠ر٥





من أحد سجلات
أراضى الرزق

صورة لجانب من صحيفة فى أحد دفاتر الرزق فى العصر العثمانى الاول فى مصر . ويكفى أن ينظر فيها القارىء ليتبين مدى الصعوبة فى قراءتها

العمل فيها فوضعت بحثاً فى رموزها ومصطلحاتها استنفد منى وقتاً طويلا . ولكنى آثرت ضياع الوقت الطويل فى وضع مفتاح لهذه الوثائق على غير هذا العمل من البحوث السهلة ، علماً بأنى بذلك أخدم غيرى من الباحثين الذين يحبون أن يتوفروا على مختلف البحوث العثمانية

وقد ظل هذا الخط يستعمل فى مصر حتى نهاية عصر محمد على باشا تقريباً . ثم أخذ فى الانقراض تدريجياً حتى اختفى . وبموت كتّابه انتفى الانتفاع بالوثائق المحررة به على مر السنين . ولئن وجد الآن من يقرأ بعض نصوصه المألوفة فى بعض التقاسيط ، فلقد دلتنى الممارسة على أنهم لا يتعدون ذلك . ولعل كاتب هذه السطور هو أول من استطاع معالجة مختلف الوثائق والدفاتر المحررة به بحيث لا يدع اسماً الا قرأه على حقيقته ، ولا وظيفة الا فسرها ، ولا رقماً الا حل رموزه ، وبهذه الخبرة الوثائقية الخطية التى يسميها علماء الافرنج « Paléographie » شرعت فى إصدار سلسلة تاريخية سميتها « دراسات وثائقية فى تاريخ مصر الحديث » ، لعلى بذلك أخدم ناحية هامة من نواحى قوميتنا المصرية

محمد محمد توفيق

من آثار عصر الرشيد

قصر الاخيضر

بقلم الاستاذ محمد عبد العزيز

الامين المساعد بدار الآثار العربية

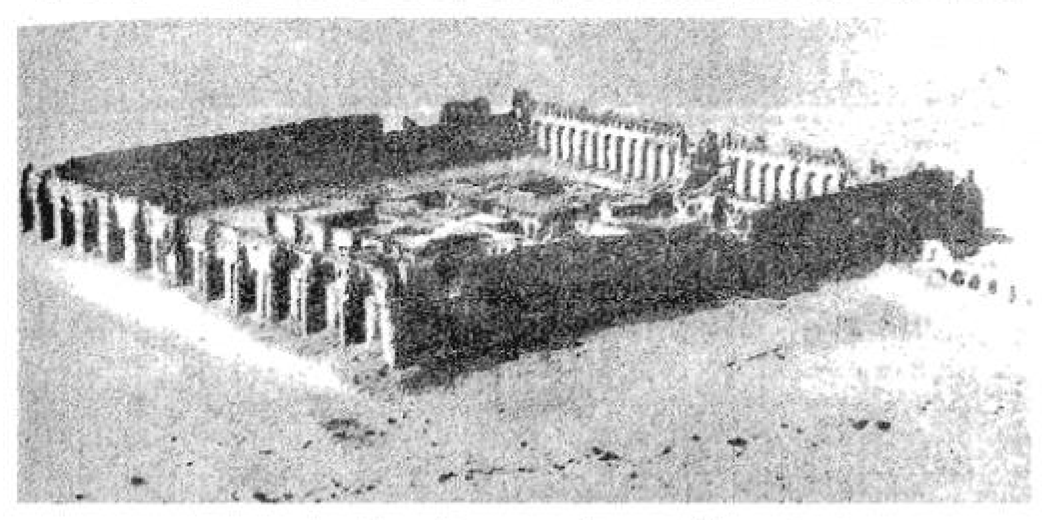
فى الجنوب الغربى من كربلاء – على بعد خمسة وخمسين كيلو متراً – والى الشمال الغربى من الكوفة – على مسافة خمسين ميلا تقريباً – وسط تلك الصحراء المترامية الأطراف ، تقوم أطلال عظيمة عالية ، يخالها الناظر اليها من بعد انها تلال من صنع الطبيعة ، فاذا اقترب منها وجدها جدراً قائمة من عمل الانسان ، أبقتها يد الدهر من قصر محصن كان يقوم فى تلك البقعة منذ أزمان ، فاذا دلف اليها رأى نفسه بين أسوار قد لعب بها البلى فذهب بجمالها ورونقها ، وكشف لامين عن طوبها وحجارتها . وعقود لم يبق منها إلا بقايا ناتئة ، وجدران بعضها قد احتفظ بقامته المديدة وبعضها لم يقو على مجالدة عوامل التعرية ، وأعمدة لا يشاهد منها اليوم إلا الأسس التى كانت تقوم عليها

هذه الأطلال القائمة لفتت نظر نفر من علماء الآثار أوتوا فوق علمهم نصيباً من الذكاء وفيراً ، فأقبلوا عليها يقتلونها بحثاً وتحليلا ، ويستنطقونها عمن شادها ، وعن العصر الذى عاش فيه بانيها ، فتجيبهم تارة بما يكشف لهم عن بعض سرها ، وتمعن فى الصمت أخرى فيتخبطون فى بيداء الظن والتخمين . على انهم رغم ذلك قد استطاعوا بحذقهم أن يخرجوا لنا صورة ناطقة لذلك الأثر الخالد ، نحس فيها بالحياة تسرى فى أجزائه ، وتتردد فى جنباته . وان نظرة واحدة الى الصور المنشورة لتغنى عن كل شرح وإيضاح

على هدى هذه الأبحاث الأثرية نحاول أن نقدم لهذا الأثر وصفاً مجملا ، إن أعوزه التفصيل الدقيق الذى يتطلبه علماء الآثار خاصة ، فلا ينقصه الوضوح الذى يرضى عنه المؤرخون ، والذى يترك فى الذهن أثراً بيناً لهذا البناء العظيم الذى وصل الينا من ذلك العصر الزاهر : عصر هارون الرشيد

* * *

ينقسم هذا البناء الى قسمين رئيسيين هما الحصن والقصر . أما الحصن فمربع متسع الأرجاء مرتفع الأسوار ، مدعم بسلسلة من الأبراج تكتنفه من جميع جهاته . أسواره صماء من أسفل ،



منظر خارجي مأخوذ من الجو للقصر والحصن في حالتهما الراهنة
[نقلا عن كتاب الاخيضر لمصلحة الآثار القديمة في العراق]

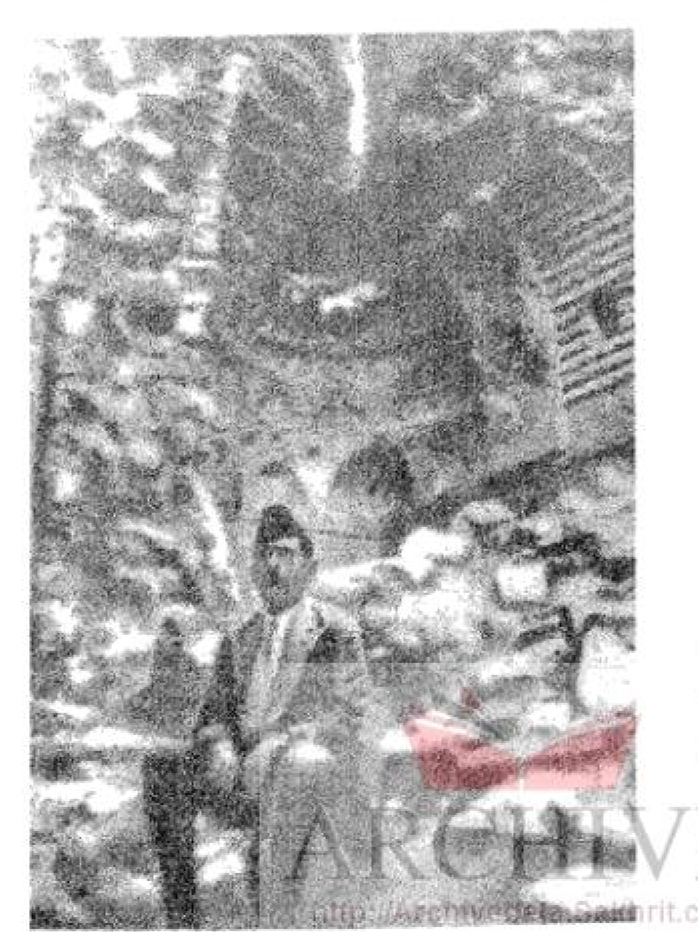
جوفاء من أعلى ، تنطوى فى تجويفها على مجاز عرضه متران ، يمتد على طول السير من جميع جهاته، وقد حصن هذا المجاز بمزاغل تسدد منها السهام أو تلقى منها القذائف لاقتناص الاعداء أو الفتك بهم

وأما القصر فواقع داخل الحصن ، فى الجهة الشمالية منه . وتكاد تلتصق واجهته الشمالية بالسير الشمالى للحصن حتى كأنهما بناء واحد ذو مدخل واحد ، جدرانه مدعمة بأبراج صغيرة وتخطيطه غاية فى الدقة والاحكام ، ويتكون من خمسة أقسام لكل قسم منها نظامه وترتيبه : أما القسم الشمالى فيلاصق سور الحصن الشمالى ، وقد كشفت الأبحاث الأثرية فيه عن بهو كبير به على اليمين وعلى اليسار حنايا ذات عقود ، خلفها غرف صغيرة لعلها كانت مخازن ، ووراء هذه المخازن من جهة الغرب بهو كبير آخر أثبتت الحفائر التى قام بها علماء الآثار أنه كان مسجداً . ومن جهة الشرق صحن تحيط به غرف لعلها كانت مخصصة للوافدين على صاحب القصر من الضيوف

والمرجح ان كلا من الجزءين الأوسط والشرقي من هذا القسم من القصر كانا مكونين من ثلاث طبقات بينما الجزء الغربى ـ حيث المسجد ـ مكون من طبقة واحدة فحسب

ويتكون القسم الأوسط من القصر من رحبة واسعة يتلوها الى الجنوب قاعة الاستقبال ويحيط بهذه الاخيرة قاعات صغيرة احتفظت بعضها ببقايا من الزخرفة تجمع بين البساطة والجمال . وينتهى هذا القسم بثمانى غرف موزعة حول صحنين لعلها كانت مسكن الخدم

أما القسمان الغربى والشرقى المجاوران للقسم الأوسط سالف الذكر فيتكون كل منهما من دارين . والدور الاربعة مستقل بعضها عن بعض استقلالا تاماً ، وتشتمل كل منهما على غرفة كبيرة فى الوسط لعلها كانت حجرة الاستقبال ، ثم غرف جانبية بعضها واجهته الى الجنوب تصلح للنوم شتاء ، وبعضها تتجه الى الشمال يطيب فيها النوم صيفاً . ويكاد يكون تخطيط هذه الدور الاربع متشابهاً

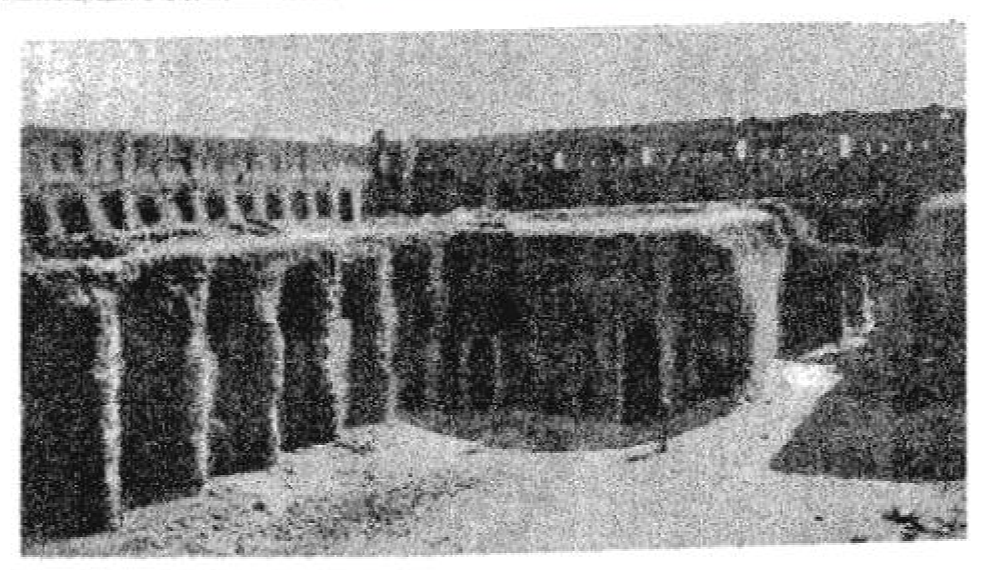


منظر داخلي للمسجد الموجود في القصر في حالته الراهنة وقد ظهرت فيه بقايا قبة الزاوية

[نقلا عن كتاب الاخيضر]

ترى من ذا الذي أقام هذا الصرح العظيم ؟ ومتى شيد ؟ وهل للاسم الذي يحمله من دلالة تعين على كشف الغطاء عن حقيقته ؟

أسئلة لن نظفر لها بجواب عند المؤرخين أو الجغرافيين القدماء، سواء منهم الشرقيون أو الغربيون . وكما سكت هؤلاء عن الجواب ، كذلك سكتت الحفائر التي قام بها علماء الآثار في هذه الاطلال،



منظر داخلي للقصر في حالته الراهنة

[نقلا عن كتاب الاخيضر]



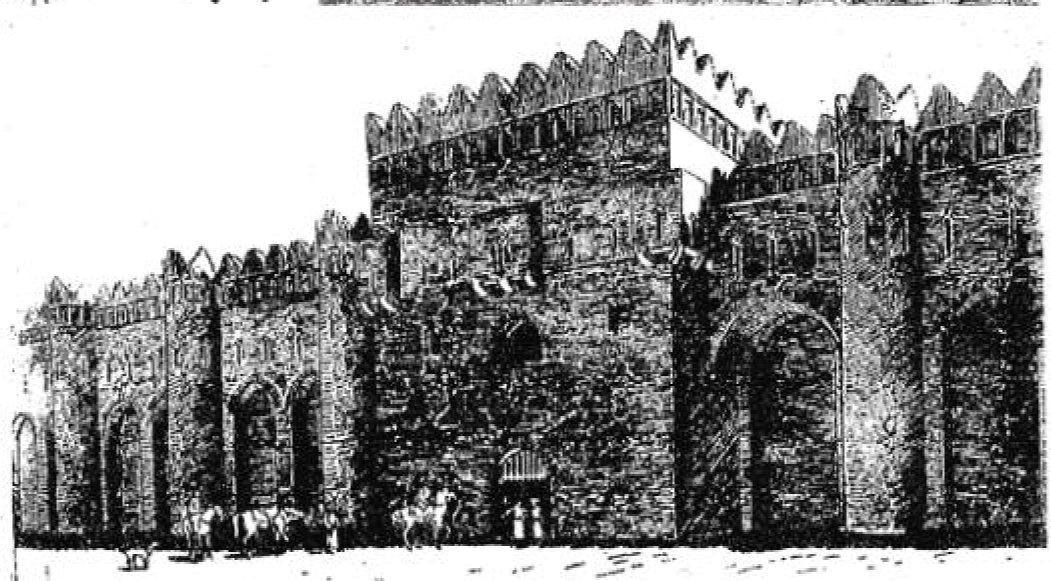
منظر تصوري لداخل المسجد الموجود بالقصر

[نقلا عن كتاب Oscar Reuter]

اذ لم يعثر فى القصر أو الحصن على نص يميط اللثام عن هذا السر المكنون .

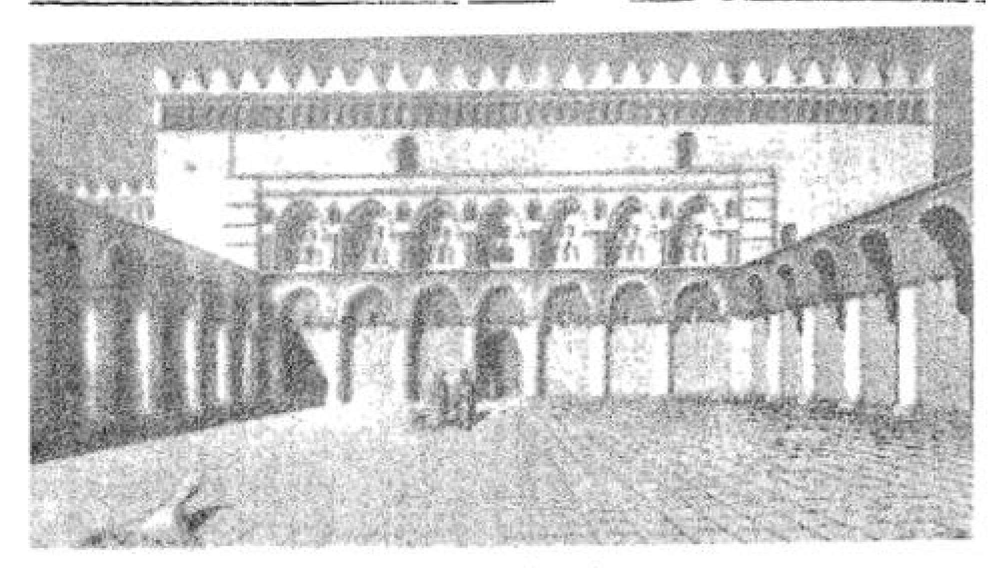
على أن هذه الحفريات ان كانت قد بخلت بالنصوص الصريحة التى تزيل اللبس فقد قدمت لنا بعض الشواهد التى تنير هذا السبيل المظلم ، وتلقى عليه شعاعا يقربنا الى الحقيقة

لقد تخبط العلماء فى الاجابة على هذه الاسئلة تخبطا لا يشفع فيه الا اخلاصهم فى



منظر خارجى تصورى لمدخل القصر

[نقلا عن كتاب Oscar Reuter]



منظر داخلي تصوري للقصر

[نقلا عن كتاب Oscar Reuter]

البحث . فحاولوا أن يتخذوا من ذلك الاسم الذى اشتهرت به هذه الاطلال سبيلا يكشفون به عن الحقيقة . فقال بعضهم أن كلمة « الاخيضر » تحريف لكلمة « الاكيدر » أحد أمراء كندة الذين أسلموا فى صدر الاسلام . وعلى ذلك يكون هذا القصر قد شيد قبل الاسلام . وقال آخر إن « الأخيضر » لقب أحد رجال القرامطة ـ اسماعيل بن يوسف الاخيضر ـ والقصر على هذا الاساس يكون قد شيد فى القرن الرابع الهجرى . ولكن هذا الرأى يحمل فى ثناياه عوامل هدمه لأن قصر الفترة التى حكم فيها القرامطة تلك الجهة وحالة القلق التى سادتها وكثرة الانقلابات التى توالت فى خلالها ، تحول دون تشييد هذا القصر العظيم فى فترة كهذه . وعلل آخرون هذه التسمية باخضرار الموقع القائم فيه هذا الأثر[(١)] ، فالاخيضر تصغير كلمة « الاخضر » وتسمية الموقع بأسماء ألوان مصغرة أمر مألوف فى البادية . وهذا التعليل وان كان مقبولا لا يوصلنا الى معرفة ما نحن بصدده

ولئن كانت هذه المحاولات لم تنته الى رأى قاطع فى الموضوع ، فان النتائج التى انتهت اليها الحفريات الاثرية قد خطت نحو الحقيقة خطوات واسعة . فلقد كشفت معاول العمال عن مسجد كان مشيداً فى القصر وبهذا الكشف العظيم لم يصبح ثمة مجال للشك فى أننا أمام أثر إسلامى

ترى فى أى عصر من عصور الاسلام شيد هذا الاثر . لقد وجد فى الاخيضر مظاهر معمارية اسلامية[(٢)] يرجح معها أنه قد بنى فى المدة الواقعة بين سنتى ١٠٢ و ١٨٤ (٧٢٠ - ٨٠٠ م) ولكن أليس من الميسور أن نحصر تاريخه فى مدى أضيق من هذا الذى حددته لنا المظاهر المعمارية ؟ لنعد الى التاريخ نقلب صفحاته ، ونراجع حوادثه علّه يعاوننا على تحقيق ذلك : ان هـذا

---

(١) يمتد بالقرب من الأثر واد رملى تتجمع فيه المياه وتساعد على نمو النباتات يعرف بوادى الابيض

(٢) مثل القبوات المتداخلة والزخارف الحادثة من طريقة استعمال الطابوقة (هكذا يسمى الطوب فى العراق)

القصر المحصن لا يمكن أن يكون قد أقامه رجل من عامة الناس ، لأن اتساع رقعته ، وعظم حجمه ، وضخامة بنائه ، تشعر كلها بأن الباني له إما خليفة من الخلفاء أو حاكم أو أمير من الامراء ممن يسمح لهم ثراؤهم بتشييد مثل هذا البناء . أما الخلفاء الأمويون فلئن كانوا حقاً يميلون الى سكنى الصحارى ، ويؤثرون العيشة البدوية على الحضرية لقرب عهدهم بحياة البداوة إلا انهم سكنوا جميعاً الجانب السورى من الصحراء اذا استثنينا مروان الثانى الذى عاش فى حران

وأما الحكام والأمراء الأمويون فقد أقاموا فى العراق فى واسط أو البصرة أو الكوفة

وأما الخلفاء العباسيون فقد كانوا على عكس أسلافهم من الأمويين يحبون المدن ولم يعرف عنهم أنهم آثروا الصحراء بسكناهم . بقى إذن الحكام والأمراء العباسيون ،فهل أقام هذا الأثر واحد منهم

إن فى تاريخ (عيسى بن موسى) ابن عم السفاح أول الخلفاء العباسيين من الحوادث مايستقيم معها أنه قد يكون هو المشيد لهذا القصر . ذلك ان السفاح عهد بالخلافة بعده لأخيه المنصور على أن يكون ابن عمه عيسى بن موسى خليفة بعد المنصور . وما كاد هذا يصبح خليفة حتى تحركت فى نفسه المطامع فأراد أن يجعل الخلافة لولده المهدى من بعده . وقد كان عليه أن يقصى عيسى بن موسى عن ولاية العهد التى بويع له بها من قبل . وسلك فى سبيل تحقيق ذلك وسائل شتى بعضها يحمل فى ثناياه الترغيب ، وبعضها ينطوى على الترهيب ، وأفلح آخر الأمر فى مسعاه ، وتنازل عيسى عن ولاية العهد بشرط أن يلى الخلافة بعد وفاة المهدى . وتربع هذا على عرش الخلافة ولكنه سرعان ما أخذ يعمل على إقصاء عيسى بن موسى من ولاية العهد لكى يفسح الطريق لولده الرشيد حتى يلى الخلافة بعده . وقد كان المهدى فى سلوكه أشد من أبيه قسوة وأعظم عنفا . فحرم عيسى من ولاية الكوفة وقد كانت له منذ ثلاثة عشر عاما ثم أمعن فى مضايقته حتى برم بهذه الحياة. ولم يتسع صدره لتلك الصدمات يسددها اليه أهله وعشيرته ، فتنازل عن ولاية العهد للرشيد ولجأ الى ضيعة يقضى بها ما بقى له من العمر بعيداً عن السياسة ورجالها ، وكان لا يدخل الكوفة إلا فى شهرين فى السنة : فى شهر رمضان فيشهد الجمع والعيد ، وفى أول ذى الحجة فاذا شهد الصلاة رجع الى ضيعته . هذه الشواهد التاريخية التى أجملناها قد يرجح معها أن أميراً فى مثل ثراء عيسى بن موسى هو الذى بنى قصر الأخيضر . ولعله بناه فى عام ١٦١ ﻫ أى فى السنة التى اعتكف فيها عن الحياة العامة

نحن إذن أمام قصر عظيم بنى فى عهد الرشيد(١٤٩-١٩٢ﻫ) وللرشيد أثر غير مباشر فى تشييده وهو يفصح بأطلاله الباقية عن مدى تقدم فن العمارة الاسلامية فى ذلك الوقت

محمد عبد العزيز

مراجع هذا البحث :

(١) Gertrude Bell : Palace and Mosque at Ukhaidir.

(٢) Creswell : Early Moslem Architecture Part II.

(٣) مصلحة الآثار القديمة : الاخيضر (٤) تاريخ الطبرى ج ٩ طبعة مصر

من قصص التاريخ

الخيزران

بقلم الاستاذ طاهر الطناحى

وأرق الخليفة موسى الهادى ذات ليلة ، واشتد به الارق ، وتقاسمته الهموم ، وهاج له فى ظلام الليل ما يجرى حوله من تسلط والدته « الخيزران » على شؤونه ، وتدخلها فى أمور دولته ، ومعارضتها له فى خلع أخيه هرون الرشيد من ولاية عهده . . فدعا بجاريته « أمة العزيز » وأمرها أن ترسل فى طلب جليسه وأنيسه « عيسى بن دأب » . وكان عربياً صميماً من أهل الحجاز ، ومن أكثر رجال عصره علماً وأدباً ورواية . فدخل عليه عيسى وهو في بيت شتوى صغير ، وأمامه كتاب يقرؤه ، فرفع رأسه اليه ، وقال :

— يا عيسى . . . !

— لبيك يا أمير المؤمنين

قال الهادى :

— أرقت الليلة ، واشتملت علىّ الخواطر ، فحدثنى من أخبار الناس ، عساك تدفع عن نفسى بعض ما تجد

فأخذ عيسى بن دأب يحدث الخليفة ، ويروى له بعض السير والاخبار ، ثم تغلغل بهما الحديث الى أخبار مصر وفضائلها ومساوئها ، فقال الهادي :

— ان فضائل مصر يابن دأب أكثر من مساوئها

فقال ابن دأب :

— هذه يا أمير المؤمنين دعوى المصريين بغير برهان . وأهل العراق يأبون هذه الدعوى ، ويذكرون أن عيوبها أكثر من محاسنها

— مثل ماذا ؟ . .

— ان من عيوب مصر انها لا تمطر كثيراً . واذا أمطرت كره المصريون مطرها ، وابتهلوا الى الله بالدعاء أن يرفعه عنهم . وقد قال الله تعالى : « وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى

رحمته » فهذه رحمة عجلة لهؤلاء القوم ، وهم لها كارهون ، وهى ضارة لهم غير موافقة ، لا تزكو بها زرعهم ، ولا تخصب بها أرضهم

— ثم ماذا ؟

— ثم من عيوبها الريح المريسية ، وهى الجنوبية ، وذلك أن أهل مصر يسمون أعالى الصعيد الى بلاد النوبة « مريس » فاذا هبت الريح المريسية ثلاثة عشر يوما اشتروا الاكفان، والحنوط ، وأيقنوا بالوباء القاتل والبلاء الشامل

— ثم ماذا يابن دأب ؟

— ثم من عيوبها اختلاف جوها ، فالمصريون يغيرون ملابسهم فى اليوم الواحد مراراً ، فيلبسون القميص مرة ، والمبطنات مرة . والحشو مرة أخرى . ذلك لتباين مهاب الرياح فيها ليلا ونهاراً فى سائر الفصول

أما نيلها ، فكفى ما عليه من الخلاف لجميع الانهار ، وليس بالفرات ولا الدجلة ولا بأنهار بلخ وسيحان وجيحان شىء من التماسيح . وهى فى النيل ضارة بلا منفعة ، ومفسدة غير مصلحة

قال الهادى :

— ويحك يابن دأب . . كنت مشغوفا بزيارة مصر لأروح فيها عن نفسى ما أنا فيه من غم واكتئاب فزهدتنى بوصفك لها ، فدع عنك ذكرها ، وأخبرنى ما ترى فى أمر هؤلاء القواد الذين يترددون على أمى ، يؤملون بكلامها عندى قضاء حاجاتهم ، واجابة رغائبهم

— لقد مددت يا أمير المؤمنين فى برك بأمك الخيزران ، وطاعتك لها ، وسماعك لقولها حتى صار لها عندك ما كان لها عند أبيك المهدى من الاستبداد به والسيطرة عليه ، والتدخل فى شؤون ملكه . فالرأى أن تجمع هؤلاء القواد الذين يقصدونها فيما يريدون ، وتأمرهم ألا يقربوا بابها

— أصبت ، وسآمرها كذلك ألا تستقبل أحداً منهم ، فما للنساء والكلام فى أمور الرجال

***

انصرف ابن دأب الى داره ، وانصرم الليل فى بطء عن الهادى ، وأقبل الصباح واستوى الخليفة على سرير الخلافة والى جانبه وزيره الربيع بن يونس ، وكاتبه عبيد بن زياد ، فدعا بالقواد الذين يترددون على باب الخيزران ، فلما وقفوا بين يديه ، قال لهم :

— أيما خير أنا أم أنتم ؟

— فقالوا :

— بل أنت يا أمير المؤمنين

— فأيما خير : أمى ، أم أمهاتكم ؟

— بل أمك يا أمير المؤمنين

— فأيكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه ، فيقولوا ، فعلت أم فلان ، وصنعت أم فلان ، وقالت أم فلان

— ما أحد منا يحب ذلك يا أمير المؤمنين

— إذن ، فما بالكم تقصدون أمى ، فتتحدثوا معها ، وتتوسلوا بها ، وتسعوا اليها لقضاء حاجاتكم عندى

فسكت القواد ، وسقط فى أيديهم ، وانقطعوا عن باب الخيزران

علمت الخيزران بما حدث ، فشق عليها ذلك ، وكانت قد وعدت أحدهم بقضاء حاجة له عند الهادى ، فذهبت اليه ذات يوم ، وسألته قضاءها ، فاعتل عليها بعلة فقالت له :

— لابد من إجابتى

— لا أفعل . . !

— انى ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك أحد قوادك

— ويل لابن الفاعلة ، قد علمت انه صاحبها . والله لا قضيتها لك .. !

— إذن والله لا أسألك حاجة أبداً

— إذن والله لا أبالى . . !

فقامت مغضبة ، فقال لها الهادى :

— مكانك ، فاستوعى كلامى ، والله ، والا نفيت من قرابتى من رسول الله (ص) لان بلغنى انه وقف ببابك أحد من قوادى ، أو من خاصتى ، أو من خدمى ، لأضربن عنقه ، ولأقبضن ماله ، فمن شاء ، فليلزم ذلك . ما هذه المواكب التى تغدو كل يوم الى بابك . أما لك مغزل يشغلك ، أو مصحف يذكرك ، أو بيت يصونك . إياك إياك أن تفتحى فاك فى حاجة لمسلم أو ذمى

سمعت الخيزران ذلك من ولدها الهادى ، فاكتأبت وقامت منصرفة لا تعقل ما تطأ ، ودخلت قصرها فى وجوم ، وآوت الى غرفتها ، وانطرحت على سريرها ثم أجهشت بالبكاء ، فأسرعت اليها جاريتها « عتبة » وسألتها عما بها ، فأفضت اليها بما حدث ثم قالت لها : « ادع لى خالصة » . وكانت خالصة من أدنى جواريها ، وأشدهن حباً اليها ، فأسرت اليهما بكلام خطير . . !

وانهن لكذلك واذا بالهادى يدخل على أمه ملاطفاً لها ، مسترضياً نفسها ، معتذراً اليها ، وهو يقول :

— إنى أريد لك يا أمى ألا تخرجى من خفر الكفاية الى بذاذة التبذل ، فليس من قدرك أن تنزلى لقضاء حاجات الرجال . .

فسكتت الخيزران ساعة شعر فيها الهادى بما تضمره له والدته من حقد ونقمة وغضب ، ثم قالت له :

— لقد أمرت ألا أتحدث اليك فى شؤون الرجال، وألا أتدخل فى أمور دولتك ، أولا تريد أن أتحدث معك أيضاً فى شأن أخيك هرون ، لأردك عن غيك ، وأنبهك الى سوء ما تفعل ان خلعته من ولاية العهد ؟ !

فنهض الهادى مغضباً ، وقال بصوت مرتفع :

— ما للنساء والاعتراض في أمر الملك ، عليك بصلاتك وتسبيحك وتبتلك ، ولك بعد ذلك طاعة فيما يجب لك

وانصرف غير مبال بها ، ولا سامع لقولها . وبعد أيام جاء الى الخيزران رسول من الهادى يحمل « أرزّة » ويقول لها :

يقول أمير المؤمنين استطبت هذه الأرزة ، فأكلت منها ، فكلى منها

فأخذتها « خالصة » منه ودخلت على مولاتها ، فقالت لها :

— هذه أرزة بعث بها أمير المؤمنين ، وانى أخاف أن يكون فيها شيء تكرهينه . والرأى أن نأتى بكلب يأكل منها أولا

وأحضرت خالصة كلباً ، وأطعمته منها ، فما مضت برهة حتى سقط جثة هامدة . فقالت الخيزران :

— أراد أن يقتلنى . . متى أستريح من هذا القاسى القلب ، الشرس الاخلاق ؟ انى لأرجو أن يأتى يومه ، وأرى أخاه الرشيد يملأ الدنيا نوراً وسروراً

وعاد الرسول ، فأخبر الهادى بما حدث ، فقال الهادى :

— لقد كنت أرجو أن تأكل من تلك الأرزة . ولو أكلت لاسترحت .. متى أفلح خليفة له أم . . . !

* * *

كانت الخيزران تحب ولدها الثاني هرون الرشيد ، وتؤثره على الهادى لكرم نفسه ، وعظيم طاعته لها ، وأدبه معها . وكان زوجها المهدى قد أقامه ولياً للعهد بعد أخيه ، وجعل على تربيته يحيي بن خالد البرمكى ، فأراد الهادى بعد وفاة أبيه أن يخلع أخاه ، ويقيم ولده الأكبر جعفراً ولياً للعهد من بعده ، وتابعه فى ذلك بعض القواد ، ودسوا الى الشيعة ، فتكلموا فى أمر الرشيد وتنقصوه فى المجالس العامة ، وقالوا لا نرضى به ولياً للعهد ، وأمر الهادى ألا يسار أمامه بحربة كعادة أولياء العهد فى الدولة ، فانفض الناس من حوله ، واجتنبوه ، فلم يكن أحد يجترىء أن يسلم عليه أو يقترب منه غير يحيي وأولاده البرامكة

وغضب الهادى على يحيي ، واتهمه بأنه يفسد أخاه عليه ، ويحرضه على التشبث بولاية العهد ، فبعث فى طلبه ، فلما حضر اليه ، قال الهادى :

— يا يحيى . . مالى ومالك . . . !

فأجاب يحيى :

— أنا عبدك يا أمير المؤمنين ، فما يكون بين العبد ومولاه إلا طاعته

— فلم تدخل بينى وبين أخى هرون وتفسده علىّ . ؟ !

— من أنا يا مولاى حتى أفسد بينك وبين أخيك . انما أقامنى المهدى على تربيته ، وصيرنى فى خدمته ، فقمت بما أمرنى به ، ثم أمرتنى أنت بذلك ، فانتهيت الى أمرك ، وعملت برأيك

— ولكنى علمت أن أخى هرون يريد التنازل عن ولاية العهد لابنى ، وأنت ترده عن ذلك

— يا أمير المؤمنين ، إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان ، هانت عليهم أيمانهم ، وإن تركتهم على بيعة أخيك ، ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته . وأصون للخلافة فى أولادك وأولاد أبيك

— صدقت . . . ونصحت . . . ولى فى ذلك تدبير . . .

ثم أذن له فى الانصراف ، فانصرف ، لكن وزير الهادى « الربيع بن يونس » وبعض القواد العرب الذين كانوا يحسدون يحيى ، ويخشون نفوذ الفرس العظيم فى بلاط الخليفة أخذوا يوغرون صدره ، ويردونه عن رأيه الأخير

وعلم يحيى بما يدبر له وللرشيد ، فنصحه فى الاستئذان للخروج للصيد ، فيغيب عن بصر الخليفة ، ويدافع بهذه الغيبة الأيام ، فأذن له الهادى فى الخروج وغيب أربعين يوماً ، فأنكر غيبته ، وبعث اليه فى العودة ، فجعل يتعلل ويعتذر ، فغضب الهادى ، وبسط مواليه فى المجالس بشتم الرشيد ، وخروجه على أمر الخليفة ، وتحريض يحيى إياه على مخالفة أخيه ، وخافت الخيزران على هرون ، فبعثت جاريتها الى يحيى بن خالد ، تقول :

— الله . الله فى ابنى . لا تقتله ، ودعه يجيب أخاه الى ما يريد ، فبقاؤه أحب إلىّ من الدنيا وما فيها

فصاح يحيى فى الجارية :

— ما أنت وهذا . بلغى مولاتك إن يكن الأمر كما تقول ، فانى وولدى وأهلى سنقتل قبله ، فان اتهمت عليه ، فلست بمتهم على نفسى وعليهم . . !

فرجعت الجارية وأخبرت مولاتها بما قال يحيى بن خالد ، فتمتمت بعبارات غير مفهومة ، ودعت جاريتها « خالصة » وسألتها عما فعلت مع « أمة العزيز » جارية الهادى ، فأنبأتها أنها وافقت على ماتريد ، وقد سرت سروراً كبيراً بهذا الوعد الجميل الذى وعدته إياها ، وهو زواجها بهرون الرشيد اذا نجحت المؤامرة

***

عاد الرشيد من الصيد ، وكان الهادى قد اعتلت صحته فى ذلك الحين ، وانقطع عن الناس ، فلما علم بحضور يحيي أمر بحبسه حتى يرى فيه رأيه بعد شفائه ، فأدخل الحبس فى ليلة مظلمة ، وبعثت الخيزران فى تلك الليلة الى « أمة العزيز » بعض جواريها ، فدخلن على الهادى فى منتصف الليل وهو على سريره مستغرق فى نومه ، فوضعن الوسائد على وجهه حتى قضى . . !

خرج الجوارى فى صمت وسكون ، فلم يشعر بهن أحد ، إذ كانت أمة العزيز قد دبرت كل شيء واحتاطت لكل شيء ، وبعد ساعة من خروجهن صاحت : « وامولاه . . واخليفتاه . . » فهرع الناس على صوتها ، فاذا الهادى قد مات . . !

وجاءت « خالصة » الى الخيزران ، فقالت لها :

— مات يا سيدتى موسى الهادى . . .

فقالت :

— ان كان موسى قد مات ، فقد بقى هرون . . هات لى سويقاً ، واسقنى ، واسق الجوارى ، ووزعى الأموال عليهن

ففعلت ما أمرت ، ثم بعثت الخيزان الى يحيى بن خالد فى حبسه تقول : « يا يحيى ان الرجل قد مات ، ونحن نساء ، فادخل اليه ، وأصلح من أمره » فدخل يحيى على الهادى ، وهو على سرير موته ، فأصلح من أمره ، وانطلق الى هرون ، فلما وصل الى قصر الخلد حيث كان يقيم تلقاه خادم ، فأنبأه أن « مراجل » زوجة هرون الفارسية قد ولدت غلاماً ، فأتى الرشيد مسرعاً ، فسأله عن الخبر ، فأجابه يحيى :

— لتهنك الخلافة ، وليهنك غلام من مراجل

فسر الرشيد بهذه البشرى ، وكان هذا الغلام عبدالله المأمون ، وكانت ليلة مات فيها خليفة ، وولى فيها خليفة ، وولد فيها خليفة . . ودعا يحيى بن خالد كاتبه ، وأمره أن يكتب الى ولاة الدولة وعمالها بخلافة الرشيد ، واستتب للرشيد الأمر ، وتزوج بأمة العزيز ، فكان له منها ولده « على » ، ومضى عهد طوته بغدرها جارية ، وظهر عهد أنشأته بيدها جارية

طاهر الطناحى

بويع للخليفة موسى الهادى سنة ١٦٩ هـ وقتل سنة ١٧٠ هـ . وكانت والدته الخيزران من جوارى المهدى ، فتزوجها وماتت سنة ١٧٣ هـ . وكانت تكره الوزير العربى « الربيع بن يونس » وزير المهدى والهادى ، وقد أبت على هرون الرشيد تعيين الفضل بن الربيع خلفاً لوالده . واستعان بها البرامكة فى أوائل عهد الرشيد

محمد على الكبير

يواجه الدول بعزمه على الاستقلال

بقلم الاستاذ محمد بك رفعت

المراقب العام للتعليم الثانوى بوزارة المعارف

«لا يمكننى أن أرضى بترك ما شيدته من المنافع والمرافق الحيوية بمصر طوال هذه السنين التى كلفتنى اموالا باهظة ـ لا يمكننى ترك هذا للفناء فى يد الباب العالى بعد موتى . وان قلبى لينفطر كلما ذكرت ان ثمرة أتعابى معرضة للضياع » محمد على

لما نمى إلى حديث الذكرى المئوية لفرمان تثبيت محمد على الكبير والياً على مصر بحق الوراثة فى ذريته ، حسبت أن الفكرة لا تعدو نطاق النشر الصحفى والاهتمام النظرى بالموضوع ، ولم يتسرب الى ظنى أن بلاداً كمل استقلالها ونضج شعورها القومى والتاريخى يمكن أن تعنى بأمر شكلى جاءها على يد سلطان دولة أجنبية ظل يناهض البلاد وسيدها عدة سنوات . وزاد فى دهشتى أن الكاتبين فى الموضوع على الرغم من خبرتهم ومكانتهم العلمية قد حملوا الوثائق الرسمية معانى وأهمية لا تستحقها ، إذ أنهم ليعلمون حق العلم أن السلطان لم يصدر فرمان يونيه سنة ١٨٤١ الا مضطراً وبعد ضغط شديد من سفراء الدول بالقسطنطينية ، وأن كل فقرة بل كل كلمة فى الفرمان لتنطوى على نية الاذلال ومعنى التبعية التى حاربها محمد على وعمل جهده للخلاص منها

وانهم ليعلمون أكثر من ذلك أن مصر فى عهد محمد على كانت متمتعة بأكثر من الحقوق التى ذكرها فرمان الباب العالى ، بل إنها كانت تعمل حرة من كل قيد مستقلة عن الباب العالى حتى فى علاقاتها السياسية مع الدول الاجنبية ، فكانت على الحياد حين أعلنت روسيا الحرب على تركيا فى سنة ١٨٢٩ ، وكان لها ممثلون أمام بعض الدول الاجنبية ، وكانت لها أملاك شاسعة وحكومات تدين بالطاعة لها لا للسلطان ، وكان لها جيش ظافر وأسطول عظيم بلغ فى مهابته

المرتبة الثالثة فى البحر الابيض المتوسط بعد بريطانيا وفرنسا . لجاء الفرمان وقضى على معظم هذا السلطان الواسع وسلب مصر حق بناء الاساطيل ولم يسمح لجيشها إلا بالثمانية عشر ألف جندى — ذلك العدد الذى تحجر وأصبح من المظاهر الحفرية فى كل الفرمانات التي تلت والتي لم تتخلص البلاد من ربقته إلا مرة فى عهد الخديو اسماعيل ونهائياً فى عهد حفيده الفاروق

يقول بعضهم إن الفرمان جاء بحق الحكم الوراثى فى الاسرة العلوية ، وفاتهم أن محمد على كان قد وضع أساس ذلك الحكم منذ أن قام مشايخ البلاد وتجارها وصناعها بحركتهم القومية المشهورة فى ٥ صفر سنة ١٢٢٠ هجرية (مايو سنة ١٨٠٥ م) ، وفيها أعلنوا خلع الوالى التركى خورشيد باشا والمناداة بمحمد على باشا واليا على مصر بشروطهم ومواجهة الباب العالى بالأمر الواقع لا يقبلون فيه تعديلا أو تغييراً

منذ ذلك التاريخ صمم محمد على أن يتخذ من مصر وطنا له ولأولاده ولذريته من بعده وأن يحكم البلاد لا لمدة سنة أو سنتين أو ثلاث بحسب الأصول العثمانية المرعية التى لم تكن تهتم إلا بجمع المال وإرسال الجزية ومص دماء الأهالى بكافة الطرق ، ولكن بحسب أصول الحكومات الملكية الحديثة التى تعنى بتوطيد دعائم العرش والقيام بالاصلاحات العامة والنهوض بالشعب من جميع الوجوه حتى ترتقى البلاد فى ظل العرش ويعتز العرش بقوة الشعب

وما ان ثبتت قدم محمد على فى مصر على أثر فشل الحملة الانجليزية التى نزلت بمصر بقيادة الجنرال فريزر فى سنة ١٨٠٧ ورحيلها عن البلاد ، حتى أرسل لجلب أسرته وأولاده وذوو قرباه من بلدته « قولة » فعينهم فى المناصب المهمة واعتمد عليهم فى حكمه وحروبه ، فكان نجاحه بذلك عظيما . واستمر محمد على للنهاية يثق بأولاده وأحفاده ويوليهم عطفه واهتمامه ، فحاط بذلك ملكه بسياج متين من الولاء وتبادل المحبة ، ولم يصب ملكه بشيء من المؤامرات والمنافسات التى عرفت عن دول الشرق

وما جاءت سنة ١٨٣٨ قبيل الحرب الشامية الثانية حتى صمم محمد على على أن يواجه الدول بعزمه الثابت على الاستقلال نهائيا عن تركيا ، فجمع ممثلى الدول جميعا وأبلغهم هذا العزم قائلا :

« لا يمكننى أن أرضى بترك ما شيدته من المنافع والمرافق الحيوية بمصر طوال هذه السنين مما كلفنى أموالا باهظة ، كدور الصناعة البحرية والاسطول والبواخر والمصانع وعددها وآلاتها وعمالها ، والمدارس المختلفة والبعثات والمعاهد التي أنشأتها على النمط الاوربى والمناجم التى فتحتها لاستخراج الفحم والحديد ، والقنوات والطرق التى شققتها ورسمتها بمصر وسوريا — لا يمكننى ترك كل هذا للفناء فى يد الباب العالى بعد موتى . وان قلبى لينفطر كلما ذكرت أن ثمرة أتعابى معرضة للضياع وأن مصيرها للفناء وأن أولادى وأسرتى سيتركون بعد موتى تحت رحمة الباب العالى » (سجلات وزارة الخارجية البريطانية من كامبل القنصل البريطانى الى بالمرستون وزير الخارجية ٢٥ مايو سنة ١٨٣٨)

وكان محمد على مصمما على اتخاذ هذه الخطوة رغم عدم تشجيع الدول له لولا قيام الحرب الشامية الثانية بينه وبين السلطان وقيام أزمة ١٨٣٩ - ١٨٤١ التي انتهت بالفرمان

على أن الفضل في إصدار الفرمان وفي تأييد حق الوراثة لمحمد على لا يرجع مطلقاً للباب العالى خصم محمد على ، انما الفضل فيه يرجع الى الدول الكبرى التي حزمت أمرها بعد انكسار قوات السلطان في موقعة نصيبين في يونيه سنة ١٨٣٩ وعقدت معاهدة لندن ١٥ يوليه سنة ١٨٤٠ ، وبمقتضاها تعهدت الدول بمساعدة السلطان فعلا في إخضاع محمد على وبينوا في ملحق خاص أن يعرض السلطان على محمد على حكومة مصر وراثية وولاية عكا طول حياته وأن يكون لمصر حق الاستقلال الداخلى بقيود معينة تربطها بالدولة مثل دفع الجزية وعدم تمثيل مصر في الخارج وتحديد الجيش والأسطول ، فاذا لم يقبل محمد على هذه الشروط في مدي عشرة أيام ينقص من حقوقه حكومة عكا ، فاذا تأخر عشرة أيام أخرى فللسلطان الحق في اتخاذ أي طريق تشير عليه به الدول

ولما تألبت الدول العظمى عدا فرنسا ضد محمد على ولم يتمكن من التغلب عليهم، حاول السلطان أن يستغل المركز ضد محمد على فأصدر في ١٥ سبتمبر سنة ١٨٤٠ فرمانا بعزل محمد على من مصر . وعلى أثر ذلك قامت فرنسا قومتها المشهورة وهددت الدول بالدخول في الحرب ضدها الى جانب محمد على ، واضطرت الدول الى تنبيه الباب العالى لاعادة محمد على رسميا الى حكومة مصر وجعلها وراثية في ذريته بشرط ان يعيد الاسطول العثماني الذي كان في قبضته وأن يخلى جميع الاقاليم التي يحكمها عدا مصر وملحقاتها في أفريقية فلم يسع السلطان سوى الرضوخ

ولما جاء فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ متضمنا قيوداً لم يستسغها محمد على ، وفي مقدمتها ترك اختيار الوارث للحكم من أسرة محمد على في يد الباب العالى ، ثارت ثائرة محمد على ورفض قبول الفرمان ما لم يعدل بحسب طلبه وكتب خطابه الى الصدر الاعظم وفيه يقول : « ان الله جل جلاله لا يكلف نفساً الا وسعها فكيف يطلب السلطان خليفة الله في أرضه أن يضيف الى منته شروطا يتعذر تنفيذها» (أوراق برلمانية المسألة الشرقية من محمد على الى الصدر الأعظم مارس سنة ١٨٤١). وعلى أثر ذلك تدخلت الدول ثانية وفوضت الى سفرائها مهمة تعديل الفرمان بحسب رغبات محمد على فصدر فرمان يونيه سنة ١٨٤١ وقد اعتمد سفراء الدول الفرمان الاخير بالصيغة الآتية :

« نحن الموقعين أدناه ممثلي الدول الأربع العظمى حلفاء الباب العالى نعلن بحسب طلب الباب العالى أنه قد وصلنا الفرمان الجديد المراد ارساله الى محمد على باشا حاكم مصر ولم نر فيه شيئا يدعو إلى معارضتنا . وعلى ذلك لم يبق علينا الا أن نطلب الى الباب العالى إرسال الفرمان الى صاحبه بأسرع ما يمكن »

	النمسا : أوستن	بروسيا : كونجزمارك
٢٢ مايو سنة ١٨٤١	انجلترا : بنسنبي	روسيا : بوتنف

فهل جدير بالذكر فرمان كهذا أصدره السلطان مضطراً وكان قبل ذلك ببضعة شهور قد أصدر فرماناً مثله بعزل محمد على من الحكم حتى من مصر ؟ وهل من العزة القومية أن تهتم البلاد بوثيقة هى افتئات على حق مصر ورمز إذلالها وإرغام سيدها على قبول شروط مهينة فرضتها الدول فرضاً على حكومة مهزومة مهيضة الجانب مسلوبة الارادة كحكومة الباب العالى فى ذلك الوقت وأجبرت على قبولها بطل السيف محمد على الظافر فى حرب كان العدو فيها هو الهاجم . ولو شاء محمد على فى ذلك الوقت لزحف نحو القسطنطينية وأشعل نار حرب أوربية لا تبقى ولا تذر . ولكنه آثر السلام واستمع لنصح الدول وبقى ينتظر حتى أحكمت الدول أمرها ضده كما أحكمته ضد نابليون من قبل وكانت النتيجة ذلك الفرمان الهزيل

وفيما يلى ترجمة بعض النصوص لنتبين منها درجة الاذلال التى لحقت مصر من جراء هذا الفرمان :

١ - « رأينا بسرور ما عرضتموه من البراهين على خضوعكم Soumission وتأكيد أمانتكم وصدق عبوديتكم لذاتنا الشاهانية ولمصلحة بابنا العالى . . »

٢ - « ... فتقدرون فى الوقت نفسه احساناتنا اليكم قدرها marques de faveur وتجتهدون ببث هذه المزايا فى أولادكم . . . »

« ولذلك صممنا على تثبيتكم فى الحكومة المصرية المبينة حدودها فى الخريطة المرسومة لكم من صدرنا الاعظم ومنحناكم فضلا عن ذلك ولاية مصر بطريق التوارث بالشروط الآتية :

« متى خلا منصب الولاية المصرية تنتقل الولاية بالارث منكم الى أولادكم فأولاد أولادكم من الذكور من ذريتكم ثم يصدر الأمر بالتعيين من لدنا . واذا انقرض نسل الذكور من أولادكم فيعين الباب العالى شخصاً آخر فى الحكم ولا يكون لأولاد النساء من ذريتكم حق أيا كان فى الوراثة »

٣ - « على أن حق التوارث الممنوح لوالى مصر لا يمنحه رتباً ولا لقباً أعلى من رتبة سائر الوزراء ولا حقاً فى التقدم عليهم بل يعامل بذات معاملة زملائه من حيث اللقب والأسلوب »

« وكل ما هو مفروض على المصريين من الأموال والضرائب يجرى تحصيله باسمنا السلطانى . . وترسل الى خزانتنا السلطانية المبلغ الذى سيقرر فى فرمان خاص (٨٠٫٠٠٠ كيس أى ٤٠٠٫٠٠٠ جنيه) هذا فضلا عن ارسال الغلال والخضر المعتاد إرسالها الى المدن المقدسة

« ويكفى أن يكون لمصر ثمانية عشر الف نفر من الجند للمحافظة فى داخلية البلاد ولا يجوز أن تتعدوا هذا العدد لأى سبب ما »

٤ - « ولكن حيث أن قوات مصر البرية والبحرية معدة لخدمة الباب العالى كسائر قوات المملكة العثمانية فيسوغ أن يزاد هذا العدد فى زمن الحرب .. »

« يرسل الى الاستانة سنويا أربعمائة جندى »

٥ – «يجب أن لا تختلف هيئة الملابس والعلامات ورايات الجنود المصرية عن مثلها من ملابس ورايات باقى الجنود العثمانية وللحكومة المصرية أن تعين وترقى الضباط البريين والبحريين حتى رتبة قائمقام . أما ما كان أعلى من هذه الرتبة فالتعيين فيها راجع الى ارادتنا الشاهانية »

٦ – « ولا يسوغ لوالى مصر أن ينشىء من الآن فصاعداً سفنا حربية إلا باذنتا الخصوصى »

٧ – « وحيث ان الامتياز المعطى بوراثة ولاية مصر خاضع للشروط الموضحة بعاليه فعدم تنفيذ أحد هذه الشروط موجب لابطال هذا الامتياز والغائه . . . »

٨ – « بناء على ذلك قد أصدرنا خطنا هذا الشريف السلطانى كى تقدروا أنتم وذريتكم قدر منحتنا الشاهانية فتعتنوا كل الاعتناء باتمام الشروط المقررة فيه

« Telle étant ma volonté impériale, toi et tes descendants, sachez apprécier cette faveur souveraine... »

إلا أن كرامة ذكرى محمد على الكبير لتأبى علينا أن نحتفل بفرمان أقض مضجعه وشتت بلباله فأورثه ضعفاً من بعد قوة واستكانة من بعد عزة وصولة ، ودخلت البلاد على أثره فى عهد تراخ وخمول شمل جميع النواحى حتى تضعضعت صحة العزيز ووهنت قواه العقلية كما انتابت العلل والسقام ابنه الاكبر البطل ابراهيم فعاجلته المنية فى نوفمبر سنة ١٨٤٨ وتبعه الرجل العظيم فى أغسطس سنة ١٨٤٩

إن الشعوب التى تعتز بقوميتها وبنضجها السياسى لتكره أن يكون دستورها الأساسى منحة من الملوك

ولقد أدرك المغفور له الملك فؤاد الأول قوة شعور الأمة فى هذه الناحية فكوّن لجنة الثلاثين كجمعية تأسيسية تمثل جميع الآراء فى الأمة لوضع دستور البلاد فجاء الدستور محققاً لرغبات الأمة من جميع الاحزاب . فكيف يمكن أن تقبل الأمة أن يكون الفرمان الصادر من لدن الحاكم الاجنبى مصدراً لواحد أو أكثر من الحقوق التى تتمتع بها الاسرة المالكة كحق كسبته بفضل الاتفاق الأول الذى تم بين ممثلى الشعب المصرى ومحمد على الكبير فى مايو سنة ١٨٠٥ ذلك الاتفاق الذى نما واستوثق على مر السنين وتقدست روابطه بالدماء الذكية التى أريقت فى ميادين الفتح والكشف والذود عن استقلال البلاد فى سبيل مجد مصر وإعلاء اسم ولى النعم « أفندينا » المحبوب

محمد رفعت

الـــراديو

أداة الديمقراطية أم سلاح الديكتاتورية ؟

يفصل « الكلام » بين المراحل التى جراها التاريخ البشرى فصلا واضحاً . فكانت أولى هذه المراحل عند ما عرف الانسان النطق فاتخذ اللسان أداته فى الخطاب . وكانت المرحلة الثانية عند ما أخذ القلم مكانه إلى جانب اللسان فى إيجاد الصلة بين الأفراد . ثم كبرت أداة الكتابة واتسع نطاقها فكانت المطبعة وما أذاعت من كتب وصحف أول معالم المرحلة الثالثة . وكذلك كبرت أداة النطق واتسعت آفاقها فكان الراديو سمة المرحلة الرابعة التى بلغ فيها سمع كل فرد متحضر طرف من الفن والثقافة

وهذا الرأى لا يقصر « الكلام » على ما يجرى به اللسان فحسب ، بل يعنى به كل وسيلة تنقل فكرة ما من فرد لفرد أو بين جماعة وجماعة

فما مدى تأثير هذه الأداة الساحرة (الراديو) فى مجرى الحياة السياسية ، والحياة الفكرية ، فى فترة من أحفل فترات التاريخ ؟

فى العالم الآن زهاء مائة مليون راديو لا يقل عدد من يسمعون إذاعتها عن خمسمائة مليون نسمة (١) وسيصل الجزء الغالب من العالم المتحضر عما قريب إلى ما وصلت اليه أمريكا حيث تملك تسع من كل عشر أسر فيها أجهزة الراديو . وهذا مستوى لم يبلغه الكتاب ولا الصحافة يوما ما رغم قدم عهدهما وتنوع أساليبهما وتوافر العقول الذكية على إنتاجهما . فاذا أقر نابليون بأنه يخشى أربع صحف تعاديه أكثر مما يخشى جيشاً مؤلفاً من عشرة آلاف جندى ، فما عسى أن يقول الآن قادة الشعوب وزعماء المذاهب عن هذا الراديو الذي يهدر فى أسماع مئات الملايين بما يؤيد ويثبت ، أو بما ينكر ويسفه ، آراءهم ومبادئهم وأشخاصهم ؟ ؟

إن هذا الراديو هو الذى أبرز معنى «الدعاية السياسية» وقوتها فى السلم والحرب على السواء . فألمانيا ترى أن من الواجب الوطنى على كل أسرة أن تقتنى جهازاً تسمع منه ما تلقيه الحكومة من أنباء وما تصدره من أوامر، ولهذا أعدت طرازاً خاصاً من هذه الاجهزة زهيد الثمن يسير الشراء ليكون فى متناول البيوت الفقيرة فى المدن والقرى ، واليابان ترسل آلاف الاجهزة الى القرى

---

(١) قدر مكتب الاذاعة اللاسلكية الدولى فى جنيف أن عدد أجهزة الراديو فى العالم سنة ١٩٣٧ بلغ ٦٩٫٧٠٠٫٠٠٠ جهاز ، وأن هذا العدد يزيد سنويا بمعدل سبعة ملايين راديو تقريبا

الصينية بلا أى مقابل لتذيع فى أهلها ما تريد من أقاويل تبرر بها سياستها وتلين بها قناة أعدائها ، وكذلك تفعل ألمانيا فيما يجاورها من بلاد البلطيق والبلقان حيث تهدى أجهزة الراديو كثيراً من النوادى العامة والحانات

ولكنا نريد هنا أن نعرف : هل الراديو أداة الديمقراطية ، أم هو سلاح الديكتاتورية ؟

إن الراديو كسقراط ، هذا الفيلسوف الذى فاخر بأنه هبط بالفلسفة من ملكوت الآلهة وأسكنها منازل الناس . وكذلك فعل الراديو : فأخرج الثقافة من المدارس والجامعات ونزعها من سطور الكتب وصدور الكتاب ، ونفذ بها الى البيوت والأندية يسمعها الطفل الدارج والكهل الفانى والعامل المنزوى فى المدينة والفلاح النائى فى الريف ، وسار بها فى الطرق والأسواق تتوثب بين السابلة والجمهرة تعرض عليهم مفاتنها ومباذلها وتفتح أحضانها لكل من رضى أن ينقدها الثمن الزهيد والجهد اليسير . وكذلك انتزع الموسيقى والغناء من معقليهما بقصور الملوك والاغنياء وأرسلهما فى أسماع الأوساط والفقراء ، فلم يدع «دنانير» معتصمة فى قصر جعفر يستأثر ويستمتع بها وحده بل أطلقها من إساره وأذاعها متعة لكل فرد منا على صورة ما . ومن هنا كان الراديو أداة الديموقراطية : فقد وزع أكداس الثقافة والفنون التى كانت مركزة فى طبقة واحدة على سائر الطبقات ، وهيأ للجاهل والفقير أن يجدا أمراً ما يحادثان فيه المثقف والغنى ، فجميعهم سواء فى استماع أكثر ألوان الموسيقى والغناء ، وأكثر ألوان الأنباء والاحاديث

هذا جانب الديمقراطية فيما يذيعه الراديو من فن وثقافة . يقابله جانب آخر أهم خطراً وأنفذ أثراً وأحق بالتفكير . فأهم خصيصة فى الديموقراطية وضوح الفردية فى أخلاق الناس وأفكارهم وأنهاجهم فى الحياة ، ومن بذرة هذه الفردية - كما يقول بولدوين - ينمو الجذع الذى تقوم عليه وتتفرع منه الديموقراطية الصحيحة الراسخة . ولكن الراديو بما يحققه من وجوه التماثل أو التقارب بين الطبقات والأفراد ، يضعف الشخصية الفردية فيطمس سماتها ويخفى علاماتها . ذلك أنه يملأ الأذهان بثقافة واحدة ، ويصب فى الأسماع موسيقى واحدة ، فيوجه الأفكار والأذواق وجهة معينة لا تفاوت فيها ولا اختلاف . وان « الانتاج النمطى » الذى يذكره الاقتصاديون حين يتحدثون عن الصناعة الحديثة وما تخرجه آلاتها من منتجات متماثلة كل التماثل ، يمكن أن نتخذه الى حد ما حين نتحدث عن الأذهان والأذواق المتشابهة التى ينتجها الراديو فى جمهرة من يستمعون موسيقاه وأغانيه ومحاضراته

جمهور الراديو ، كجمهور الزعيم ، متشابه التفكير والشعور الى درجة يفنى عندها التفكير الذاتى وتتضاءل فيها الشخصية الفردية ، وهذه هى الحرب التى يشهرها الراديو على الديموقراطية فى أبرز خصائصها وأهم دعائمها

ولكن أليس هذا شأن التعليم كذلك ؟ ألا تخرج المدرسة الواحدة أبناءها متشابهين إلى

حد ما فى ثقافتهم وتفكيرهم وحياتهم تشابهاً يمكن معه إرجاع التلميذ إلى المعهد الذى نشأه وخرجه، ويتعذر معه توجيه كل تلميذ الى ناحية خاصة من نواحى الحياة المتشعبة المتعددة ؟

بلى هذا صحيح ، ولكن لابد منه تحقيقاً للروح القومى الذى لا سبيل الى تهيئته وتنميته إلا بايجاد قدر مشترك من الفكر والشعور يصيبه جميع أفراد الامة الواحدة ، وهذا القدر هو الذى تكونه المدرسة فى مراحل التعليم الاولى . أى ان الوحدة القومية ، التى لا غنى عنها فى هذا العالم المقسم شعوبا متنافسة متناحرة ، لا تتحقق إلا اذا تماثل الأفراد فى المراحل الاولى من الطريق الذى يوجهون فيه تفكيرهم وشعورهم ، ولا يتأتى هذا إلا اذا جمعنا أجيال الأمة الناشئة فى مدارس متشابهة الأساتذة والانهاج وأساليب الحياة . ولكن إذا انتهى الأفراد من هذه المدارس التى ألقت فيهم القدر اللازم من بذور التشابه والتقارب ، وجب أن يوجهوا وجهات مختلفة تحقق لكل منهم فرديته المستقلة وفق ماله من ملكات وما يبذل من الجهود . وهذه هى رسالة التعليم الجامعى الذى ينمي روح الفردية فى الطلاب ، فيخرّج كلا منهم مستقلا بذاته استقلالا يمكن المجتمع من الافادة من شتى المواهب والتوجه فى جميع أنحاء النشاط ، والجامعة لا تحقق فى مهمتها الا اذا سارت كما تسير المدرسة فصبت أبناءها فى قوالب متماثلة ، مهما ملأت هذه القوالب بأكداس المعرفة والثقافة

وهكذا الأمر فيما يبثه الراديو من ألوان الثقافة الفكرية والفنية ، فانها لا تتيح لكل أحد من آحاد الأمة أن يستقل بشخصيته وينمى فرديته ، وأن يبرز ما أوتى من سمات وعلائم خاصة به دون سواه ، فليس من السهل أن تلق الى الجميع ثقافة واحدة وتغذيهم بفن واحد ، ثم تطلب إلى كل فرد منهم أن يتميز من الآخر فى أسلوب تفكيره ومنحى شعوره ، أي ليس من السهل إذاً أن تذكو الديمقراطية وسط جماعة أفرادها صور متماثلة متشابهة كأن كلا منهم — على حد قول نيتشه — فرد من القطيع

هذان جانبا الصورة من أمر الثقافة التى يذيعها الراديو فى الجماعات ، جانب ينشر الديموقراطية وجانب يطويها ، جانب يكافح الديكتاتورية وجانب يذكيها ، وما نظن أن الأمر يعالج إلا بقصر الراديو على ما تقصر عليه المدرسة من التثقيف الشعبي العام ، على أن يتاح للناس عن طريق الكتاب الجدى والصحافة الراقية ثقافة ممتازة متشعبة كهذه التى يهيئها التعليم الجامعى فتمكن الأفراد من التنبه الى فردياتهم وتنمية سماتهم وملكاتهم الخاصة

على أن هذا الرأى يؤدى بنا الى مسألة أخرى : هل الراديو يعاون ، أم يعطل ، الحركة الثقافية التى تتولاها الصحافة والكتاب ؟ ولا نريد أن نستند فى إجابة هذا السؤال الى الفرض والتقدير بل الى دراسة علمية قام بها أحد المعاهد الكبرى (١) بين آلاف من الأفراد يمثلون

(١) مدرسة الشئون العامة والدولية بجامعة برنستون الأمريكية وقد قامت بدراسة كبيرة فى العام الماضى عن أثر الراديو فى الرأي العام وما بينه وبين « المطبعة » من وجوه المنافسة أو التعاون

جميع الطبقات . فقد أجمعت الأرقام والوقائع التى توافرت لهذه الدراسة المستفيضة على أنه كلما كان المرء مقبلا على استماع ما يذيعه الراديو من الأنباء كان أكثر إقبالا على مطالعة الجرائد والمجلات ، ذلك أنه كلما زاد الراديو فى طلعة المرء الى استقاء الأخبار وتبين وجهات التفكير ، صار أقل اكتفاء بما يذيعه عليه من أنباء مقتضبة موجزة ومن تعليقات يبدو عليها طابع التوجيه والدعاية ، فزادت رغبته فى التماس شتى المصادر ليقف على جميع وجهات الرأى وضروب الأخبار. وكذلك يؤدى استماع الأنباء الى إغراء كثيرين ممن لم يألفوا قراءة الصحف بمطالعتها ، وممن تضيق دائرة قراءاتهم بتوسيع نطاقها ، ذلك أن الثقافة ــ كالمال ــ كلما زاد نصيب المرء منها زاد كلفه بها وإقباله عليها

ولهذا نظن أن الصحف المصرية لم تكن على حق فى أن تخشى منافسة الراديو بما يذيعه من الاخبار ، بل لها أن تطمئن الى أنه كلما زادت كمية ما يذيعه الراديو من الانباء زاد إقبال الناس على قراءتها ، ليتلمسوا فيها تكملة وتوضيحاً لما يأتيهم به الراديو موجزاً مقتضباً . وصحفنا تعلم أن زميلاتها الكبرى فى أمريكا تملك أكثر محطات الاذاعة اللاسلكية هناك ، لا لتوجد توازناً وتعادلا بين ما تذيعه شفاهاً وما تذيعه محرراً فلا يطغى جانب منهما على جانب ، بل لتستعين بالراديو وبالجريدة معاً على إثارة طلعة الناس وإذكائها ، فلا يفرغون من الاستماع الا ليتناولوا ما يقرأون ، فيلقون فى كل منهما ما افتقدوه فى الآخر من آراء ومن أنباء

وكذلك أمر الراديو مع الكتاب ، ونلاحظ أولا أن سوق الكتاب تروج أينما تروج سوق الصحافة ، وكلما زاد المرء إقبالا على الصحف زادت رغبته فى تكملة ثقافته عن طريق الكتب . وكان الخاصة يخشون أن تغنى الصحف قراءها عن الكتب ، وكان المؤلفون يرون فى الصحافيين المزاحمين والاخصام ، ولكن تبين أن الصحيفة تغرى بالكتاب وأن الصحفى يمهد السبيل للمؤلف ، وأن المنصرفين عن المطالعة الهينة فى الجرائد هم أنفسهم الذين ينصرفون عن المطالعة الجدية فى المؤلفات . وهذا ما ينطبق على العلاقة بين الراديو والكتاب . فاستماع المرء لما يذاع من أنباء السياسة مثلا قد يغريه بمطالعة البحوث السياسية ، ودراستها فى مراجعها دراسة يميز بها فيما يسمع وجه الحقيقة من وجه الدعاية ، وكذلك الشأن فى إذاعة قصة أو قصيدة مما قد يحمل نفراً ممن سمعوا على تلاوتهما ليفيدوا من القراءة الكثير الذى فاتهم فى السماع

والفارق الكبير بين ما يفيد المرء من القراءة وما يفيد من السماع هو الذى يستأثر للصحيفة وللكتاب دون الراديو بالثقة والتقدير . فالمرء يستطيع أن يمعن تفكيره ويركز ذهنه فى أثناء القراءة أكثر مما يستطيع فى أثناء الاصغاء ، ولهذا ينصرف عن الراديو الى الصحيفة أو الكتاب اذا أراد أن يدرس أمراً دراسة جدية تتطلب الاناة والتدقيق . وفى وسع القارىء أن يرجع بصره ويجيله فيما يمر به من السطور والصحائف فلا يفوته منها شيء يستحق منه التروى والتفكير.

على نقيض المستمع الذى تتزاحم الكلمات فى أذنه فلا يستطيع التريث عند إحداها أو استعادة ما فات منها ليفكر فيه متأنياً متعمقاً . بل عليه أن يلاحق الخطيب أو المحاضر فيما يهدر به فى صخب وعجلة واسراف . والثقافة الجدية المتازة لا يمكن أن تتيسر للمرء الا اذا أخذ نفسه بالتفكير والتأمل والتقدير والموازنة مما لا سبيل اليه أمام المحاضر والخطيب ، ولكنه يتوافر للقارىء على أوفاه حين يقلب الصحائف ويستعيدها كيف يشاء

وهذا ما دعا الأديب الفرنسى جورج دوهاميل الى أن ينقد الراديو ويسفهه فى رسالته الحديثة التى سماها « الدفاع عن الحروف الهجائية » فهو يقسم الثقافة قسمين : ثقافة راقية تقوم على أساس الكلمة المقروءة ، وثقافة مبتذلة وهى التى تلقى فى أسماعنا وتعرض أمام أبصارنا . وذلك أن الثقافة العالية الممتازة تتطلب التأمل الجدى والتفكير الطويل ، وهذا ميسور اذا كانت مكتوبة بحيث يمكن التمهل والتأنى فى القراءة ، وتقليب الصحائف للمراجعة والتعقيب ، ولكن كيف يمكن أن نتأمل أو نفكر أو ننقد ما يفيض به الراديو دون رفق أو اناة ؟ ويقول دوهاميل إن الانسان يتحول أمام الراديو الى « جهاز التقاط » مهمته أن يتلقى كل ما يوجه اليه دون تمحيص أو تحقيق . وإذ كان هذا شأن آلاف الآلاف من الناس الذين تملأ أجهزة الراديو بيوتهم وأنديتهم فى جميع الاقطار ، فان العالم لابد أن يصاب بنوع من «الشلل الفكرى» يعطل فيه القدرة على نقد الافكار وبحث الآراء ، لاختيار الثمين والصواب منها ، وتجنب الغث والخطأ فيها

وثمة شىء آخر هو أن مجال الاختيار من ثقافة الراديو ضيق النطاق فلا يستطيع الفرد أن يأخذ منها ما يلائمه ويدع ما لا يرضيه ، بل ان الجميع يسمعون ويرون شيئاً واحداً عليهم أن يقبلوه ، فكأن الناس لا يلتمسون ثقافة متعددة الجوانب متفاوتة الاساليب يصقلون بها أذهانهم ومشاعرهم ، بل يسمعون أوامر عسكرية يجب أن يلبوها ويطيعوها ، أما الكتب فمجالها رحب فسيح يتسع اشتى ألوان الثقافة وضروب التفكير فتمكن المرء من الاختيار الذى لا تتيسر بدونه الثقافة الراقية . والواقع أنا نلتمس فى الراديو « الثقافة الاخبارية » التى لا تتطلب تأملا ولا تفكيراً ، أما الثقافة الذهنية التى تحمل على البحث وتروض على التفكير فرجعها الى الكتاب وحده

والخلاصة ان الاصغاء الى الراديو أيسر وأسهل ، ولكن الفائدة التى تعود من القراءة أكبر وأجزل . وهذا كفيل ببقاء الكتاب والصحيفة ونمائهما مهما ذاع صوت الراديو فى الآفاق

ح . غ .

التعاون الاقتصادى والمالى

بين الامريكان والانجليز فى هذه الحرب

بقلم الأستاذ على الجريتلي

مدرس ادارة الأعمال بكلية التجارة

ليس من اليسير قياس شعور الرأي العام فى بلد ما ومدى تأثره بالحوادث السياسية الكبرى ، إذ من الخطل الاعتماد على أقوال الجرائد أو خطب الزعماء فى الحكم على آراء الجماهير ، فكثيراً ما تعبر الجرائد عن آراء محرريها الشخصية أو آراء بعض الطوائف أو الاحزاب . وقد يكون الزعيم مؤمناً بمبدأ يحاول فرضه على أتباعه فرضاً ، فاذا ما حان وقت التنفيذ وجد نفسه وحيداً بلا نصير . فترى مثلا أن محررى الصحف الامريكية فى السنوات الاخيرة وجدوا فى حوادث أوربا مجالا واسعاً لخيالهم الخصب ونشاطهم العظيم ، وكانت رسائلهم مفعمة بالنقد الصريح للدول الدستورية التى كانت ـ فى رأيهم ـ تلقى اللطمات المتوالية من ألمانيا وايطاليا بدون أن تجيب عليها الا بالاعتراض الاجوف ، حتى اذا ما حان وقت العمل لوقف الاعتداء على الدول الصغيرة تراجعوا بانتظام . ونقرأ فى خطب روزفلت الطنانة نقداً لاذعاً للدول التى ضربت بالنظم البرلمانية عرض الحائط ولجأت الى تنفيذ مطالبها بحد السيف ، فى حين أنه كان يردد باستمرار عزم أمريكا على البقاء بمعزل عن النزاع الاوربى الحالى ـ والواقع أن آراء الرئيس وكتابات الجرائد فى أمريكا كثيراً ما تتعارض مع ما يراه مجلس الامة . والكل يذكر نشاط الرئيس ويلسون فى مداولات الصلح فى فرساى وسعيه المواصل لانشاء عصبة الأمم ، ثم ما كان من رفض مجلس الأمة للموافقة على اشتراك الولايات المتحدة فيها

وقد توصل بعض المعاهد العلميـة الأمريكية الى مقياس تقريبى لآراء الجماهير . فهى تستفتى الآلاف من جميع الطبقات وفى كافة أنحاء البلاد فى المشاكل الهامة التى تواجه الشعب ثم تبوب النتائج وتنشرها وفى النشرة الاخيرة لأحد هذه المعاهد Gallup Survey نجد أن ستين فى المائة تقريبا من الرأى العام يرى مناصرة انجلترا ، حتى ولو أدى ذلك الى الاشتباك الفعلى فى الحرب . والنتيجة الاخيرة تخالف النتائج السابقة التى نشرها المعهد المذكور وتثبت أن غالبية الشعب لم تعد ترى سلامة أمريكا فى البقاء على الحياد

ويرجع هذا التغير الى الحوادث الجسام التى أدت الى انهيار فرنسا فى يونيه الماضى فقبل ذلك

كان معظم الامريكان مؤمنين بقدرة الحلفاء على صد الزحف الالمانى دون أية مساعدة من الولايات المتحدة ، وكان هناك رأى شائع ـ ردده فورد ولندبرج ـ بأن الحرب الحالية ليست الا نزاعاً بين الدول الاستعمارية وأن انجلترا ترمى من وراء الحرب الى الاحتفاظ بالتوازن الدولى الذى ترتضيه فى أوربا ، كما جاهر بعض أنصار العزلة بأن دولة الامبراطورية البريطانية قد دالت وبأنه خير للولايات المتحدة أن تخطب ود الدول الناشئة كألمانيا وايطاليا ، ولقد نجحت الدعاية الألمانية الى حد بعيد فى اقناع بعض الأمريكان بأن « النظام الجديد » للعالم سوف يحترم مبدأ منرو ولن يتدخل فى الشؤون الداخلية للامريكتين . ثم أن تاريخ تدخل أمريكا فى الحرب الماضية كان لا يزال عالقاً بالأذهان . فقد احتاج الحلفاء حينئذ الى كميات هائلة من المواد الغذائية ومن معدات الحرب قصرت مواردهم عن انتاجها بالسرعة اللازمة فعمدوا الى بيع ما يملكونه من القراطيس المالية فى بورصة نيويورك وغيرها بغية الحصول على العملة الأجنبية لدفع قيمة مشترياتهم ، فباعت انجلترا وحدها ما قيمته ١٠٠٠ مليون جنيه من الاوراق المالية . الا أنه سرعان ما نضب معين موارد الدول المتحالفة واضطرت الى عقد قروض طائلة فى أمريكا أثبت تاريخ ما بعد الحرب أنها كانت فوق ما تستطيع ماليتهم تحمله ، فقد أدى اضطراب العملات الى ادعاء الساسة فى الدول المدينة باستحالة سداد هذه الديون ومطالبتهم بضم مشكلة التعويضات وديون الحرب وتعليق دفع تلك الديون على قيام المانيا بسداد أقساط التعويضات بانتظام . ورغم تخفيف عبء الديون فقد توقف معظم الدول عن الدفع بتاتاً بحجة انهيار الصرح السياسى والمالى لمدينيهم ورفض بعض الحكومات الجديدة ـ كروسيا السوفيتية ـ الاعتراف بديون الحكومات السالفة ، فضلا عن عجز المانيا عن سداد أقساط التعويضات حتى بعد تخفيفها فى مشروعى دوز ويونج . وباشتداد وطأة الأزمة العالمية ألغيت التعويضات فى مؤتمر لوزان سنة ١٩٣٢ وأعلن الرئيس هوفر الموراتوريوم المعروف للديون الدولية ، ولم تدفع معظم الدول من وقتها الى الآن شيئاً يذكر . ومن العدل أن نشير الى أن السياسة الجمركية التى اتبعتها أمريكا وفرضها الضرائب العالية على الواردات الاجنبية جعلت من الصعب على الدول المدينة دفع الفوائد والأقساط عيناً . ولا يخفى ما كان لتوقف الحلفاء عن الدفع من أثر سيىء على العلاقة بينهم وبين أمريكا ، مما أدى الى صدور قانون جونسون الذى يحرم إقراض الدول التى لم تف بتعهداتها لامريكا ، والذى كان صدوره نصراً كبيراً لدعاة العزلة الذين يدعون بأن دخول أمريكا فى الحرب الماضية لم يكن بقصد الدفاع عن حقوق الشعوب الصغيرة وتعزيز مبادىء الديموقراطية بل كان نتيجة لمساعى كبار الممولين وتجار الاسلحة الذين نجحوا فى إثارة شعور الرأى العام ضد المانيا بما لهم من السيطرة على وسائل الدعاية المختلفة

* * *

وعند إعلان الحرب كان الرأى السائد فى أمريكا يعارض أى سياسة ترمى الى الاشتباك فى

الحرب ، بينما كان رئيس الجمهورية يجاهر بنقد سياسة المانيا ويرغب فى قرارة نفسه فى مساعدة الدول الديموقراطية ، إلا أن يده كانت مغلولة بقانون جونسون وقانون الحياد الذى كان يحرم بتاتا إصدار السلاح للدول المتحاربة . وكانت الاوساط التجارية تشكو من تشدد انجلترا فى تطبيق قواعد القانون الدولى فيما يتعلق بالحصار البحرى ومن إقفال أسواق أوربا الوسطى فى وجه التجارة الامريكية . وبالرغم من ذلك فقد اتبع الرئيس روزفلت سياسة جريئة فى مساعدة انجلترا وفرنسا مع أن الموقف السياسى الداخلى كان يتطلب الحذر الشديد خشية إغضاب بعض الناخبين من أنصار العزلة قبل ميعاد الانتخاب لرئاسة الجمهورية . وقد كان ترشيح الحزب الجمهورى للمستر وندل ولكى مشجعاً لروزفلت ، إذ أعلن المرشح الجمهورى عزمه على تقديم كل مساعدة ممكنة لانجلترا ما خلا الدخول الفعلى فى الحرب . وقد أدى هذا التصريح الخطير الى إنقاذ الولايات المتحدة من سياستها التقليدية المعروفة ، وهى تجنب القطع برأى فى المشاكل الهامة الداخلية والخارجية فى الفترة السابقة لميعاد الانتخاب . وسنأتى فيما يلى على ذكر المعونة التى قدمتها أمريكا لانجلترا فى الميدان الاقتصادى ، فيخرج من ذلك المساعدات الدبلوماسية مثل الضغط الذى أوقعه الرئيس روزفلت على موسولينى قبيل دخول ايطاليا الحرب ، وكارسال البوارج الامريكية الى مانيلا تذكرة لليابان بما قد يجره دخولها فى الحرب الى جانب دول المحور من تغير فى سياسة الحياد الامريكية

***

بدأ الرئيس روزفلت سنة ١٩٣٩ حملته لتعديل قانون الحياد . وبعد مداولات دامت الشطر الاكبر من الخريف صادق البرلمان الامريكى على تعديل المادة التى تحظر تصدير الاسلحة للدول المتحاربة إطلاقا فأصبح فى وسع أية دولة شراء الأسلحة والمهمات من أمريكا ما دامت قادرة على الدفع نقداً وعلى نقل مشترياتها على سفنها ، لأن قانون الحياد يمنع السفن التى ترفع العلم الامريكى من الذهاب الى مياه الدول المتحاربة . ولو أن القانون فى ظاهره لا يحابى دولة ما إلا أن سيادة الاسطول البريطانى على البحار كفيلة بحرمان ألمانيا من الاستفادة من التسهيلات الجديدة ــ وعندما تبين من الاحصاءات الامريكية أن الروسيا تشترى من الولايات المتحدة كميات من القطن والمطاط والالومنيوم تزيد عن استهلاكها العادى ، وأن جانبا من الخامات الهامة فى الانتاج الحربى يجد طريقه الى ألمانيا عن طريق فلاديفوستك وسيبريا ، قررت الغرف التجارية الامريكية ــ بايعاز من الحكومة ــ تحديد الكميات المصدرة للروسيا ، وقد ذكر المستر مورجانتو ــ أحد مساعدى روزفلت ــ فى خطاب له فى مايو الماضى أن الولايات المتحدة ستستمر الى النهاية فى قبول الذهب سداداً لقيمة مبيعاتها من الاسلحة والبضائع للدول الصديقة وأنها لن تلجأ الى الوسائل المعروفة لتخفيض سعر الذهب بقصد تقليل المستورد منه . وقد علل سياسته بأن الحكومة تفضل الذهب على قصاصات من الورق تمثل ديونا لن تستطيع الدول المشترية سدادها بعد الحرب

وثمة أمثلة أخرى للمساعدة الامريكية مثل بيع الاسلحة القديمة لانجلترا ، وكالاتفاقية التي بمقتضاها تنازلت الولايات المتحدة للبحرية البريطانية عن ٥٠ مدمرة قديمة نوعاً مقابل الحصول على حق استعمال بعض القواعد البحرية والجوية في الممتلكات البريطانية . وقد حصلت أمريكا حين توقيع الاتفاقية المذكورة على وعد من الحكومة الانجليزية بأنه مهما تغيرت ملابسات الحرب فان الاسطول البريطاني لن يقع في أيدي الالمان

من ذلك نرى أنه حتى نهاية عام ١٩٤٠ كانت المساعدة الامريكية لانجلترا ضيقة النطاق ولم تتحمل أمريكا بسببها أية تضحية ـ غير أن السرعة الفائقة التي تطور بها الموقف الدولي وسيطرة النازيين على الموارد الاقتصادية الاوربية سيطرة تامة ، حدت برئيس الجمهورية الامريكية الى الاسراع في وضع أمريكا على قدم الاستعداد للحرب ، والى وضع جانب من الموارد الامريكية تحت تصرف انجلترا ما دامت تدافع عن النظم السياسية والاوضاع الاقتصادية التي ارتضاها معظم الامريكيين لأنفسهم والتي يخشون عليها من الانهيار اذا هزمت انجلترا آخر معقل قوي لها .
ومن هنا كان قانون الاعارة والتأجير الذي وافق عليه البرلمان الامريكي أخيراً . فبحيلة من حيل الدبلوماسية استطاع روزفلت تنفيذ خططه دون الالتجاء الى النضال الحزبي والشخصي والاجراءات المطولة التي يقتضيها الغاء قانون جونسون . والمشروع الجديد لا يرفع الحظر على الاقراض الخارجي كما أنه لا يمنح انجلترا هبة من العتاد الحربي بل ينص على أنه بمجرد إنجاز الصفقات التي عقدتها لجنة الشراء الانجليزية وتسديد ثمنها نقداً تقوم حكومة الولايات المتحدة باعارة الحكومة الانجليزية كل ما تحتاج اليه من الطائرات والسفن والمهمات مقابل تعهد بريطانيا برد العارية بعد انتهاء الحرب ، وبذا تستمر انجلترا حتى بعد عقد الهدنة في انتاج الطائرات والاسلحة وارسالها الى أمريكا . وفي ذلك حل ولو وقتي لبعض مشاكل التعطل التي عادة ما تعقب الحروب نتيجة للتحول من إنتاج معدات الدمار الى الانتاج العادي

وقد وجد بعض المفكرين من الانجليز تعارضا منطقيا بين الآراء التي طالما رددها روزفلت عن ضرورة نزع السلاح أو تحديده وبين احتفاظ أمريكا بكميات هائلة من الأسلحة بعد الحرب ، ويرون من الاصوب أن تسترد أمريكا قيمة تلك الاسلحة في صورة مواد غذائية من فائض انتاج الامبراطورية البريطانية تستخدمها الحكومة الامريكية في تخفيف عبء الفقر وسوء التغذية بين العمال العاطلين والمزارعين الفقراء . وقد ذكر أحد المتكلمين بلسان روزفلت أن بريطانيا قد تطالب بايداع ما قيمته ٢٠٠٠ مليون دولار من الاوراق المالية التي يملكها رعاياها في الشركات الامريكية كضمان للقروض العينية التي تقدمها أمريكا

ولتقدير أهمية المساعدة الامريكية يجدر بنا أن نتصور عظم الاعباء المالية التي يقتضيها مجهود انجلترا الحربي. فقد وصل رقم المصروفات في ميزانية السنة الاولى للحرب الى ٢٦٠٠ مليون من

الجنيهات، حصل وزير المالية على ما يقرب من نصفها عن طريق الضرائب المختلفة وعلى ٤٠٠ مليون من بيع الذهب والاوراق المالية السريعة التداول فى البورصات الخارجية ، واقترضت الحكومة الباقي من الشركات والافراد . وإذا ما ذكرنا أن انجلترا لم تبذل قصارى جهدها فى السنة الاولى وأن تقدير المصروفات فى الميزانية الجديدة يبلغ ضعف التقدير السابق أدركنا ضخامة الاعباء المستقبلة خصوصاً إذا ما حان الوقت الذى تبدأ فيه انجلترا حملتها الموعودة لاجلاء الالمان عن مراكزهم الحالية.

وثمة حقيقة أخرى وهى أن نقص الاستعداد الحربى فى انجلترا اضطرها الى شراء مقادير كبيرة من المهمات الحربية فى أسواق أمريكا ، مما أدى الى استنفاد جانب كبير من الذهب والعملة الاجنبية التى كانت تملكها عند إعلان الحرب ، فقد ذكر المستر مورجانتو أن هذا الرصيد قد نقص فى الستة عشر شهراً الاولى للحرب بمقدار ٢٣٠٠ مليون دولار (٥٧٥ مليون جنيه بحسب سعر الكامبيو الحالى وهو ٤٫٠٣ دولار للجنيه) رغم الكميات الطائلة من الذهب التى صدرتها الامبراطورية الى أمريكا ورغم رصيد دائن كبير نتيجة لصادرات الامبراطورية الى الولايات المتحدة

وفى تنفيذ المشروع الجديد تخفيف لعبء الحرب عن انجلترا ، رغم أنه يشير فقط الى تزويدها بالاسلحة والمعدات مما يتركها فى حاجة ماسة الى الاعتمادات الطائلة لدفع ثمن مشترياتها من المواد الخام والمواد الغذائية . فكلما ازدادت الواردات من أمريكا خف الضغط عن الموارد الاقتصادية الانجليزية وأمكن تحميل الاجيال القادمة شيئاً من عبء الحرب إذ تضطر الحكومة فى المستقبل لتخصيص جانب من موارد الانتاج لصنع المواد اللازمة لرد العارية ، وتحتاج انجلترا بوجه خاص الى الطائرات الدفاعية والهجومية والى السفن التجارية ، لان الغارات الالمانية على مراكز الصناعة والموانىء تؤدى الى بعض الأضرار المادية والى ضياع بعض وقت الانتاج بسبب التجاء العمال الى المخابىء . ثم ان خسارة انجلترا فى السفن وانقطاع مجىء السفن الامريكية الى موانىء انجلترا وضياع الوقت بسبب سير السفن فى قوافل بطيئة نوعاً ، كل ذلك يوضح عظم المساعدة التى تستطيع أمريكا تقديمها فى هذا الصدد وبخاصة إذا ما ذكرنا أن الاحواض الامريكية كانت تنتج بمعدل ٢٫٥ مليون طن سنوياً فى السنوات الأخيرة من الحرب الماضية . ولقد تم الاتفاق بين لجنة الشراء الانجليزية وبين شركات بناء السفن على أن تبنى عدداً كبيراً من السفن لحساب انجلترا . هذا وقد أمر روزفلت بأن يقوم الأسطول الأمريكى والطائرات المائية الامريكية بحراسة القوافل التى تنقل العتاد الحربى طيلة سيرها فى مياه نصف الكرة الغربى ، وفى ذلك تخفيف لبعض العبء عن السفن الحربية البريطانية . والمشروع الجديد يعود على أمريكا بفائدة محققة إذ يزداد الانتاج فى المصانع الأمريكية وتنشأ مصانع جديدة مما يزيد الطلب على العمال الفنيين المتعطلين ، ويستتبع ذلك ازدياد دخل العمال وبالتالى مقدرتهم الشرائية مما يعود بالخير على الانتاج الصناعى والزراعى فى أمريكا

***

ويرى بعض الخبراء أن المعونة الأمريكية ستكون الحد الفاصل بين حرب طويلة تكون نتيجتها التعادل وعدم الوصول الى نتيجة حاسمة وبين انتصار بريطانيا على قوات المحور ، إلا أن لعامل الوقت أهمية كبرى فى الموقف الحاضر فمن المهم معرفة الوقت الذى تستطيع فيه أمريكا إرسال الأسلحة والطائرات الى انجلترا على نطاق واسع ، إذ أن حالة التسلح الامريكى فى أواخر العام الفائت كانت تشبه حالة التسلح الانجليزى قبل ميونيخ ، كما أن تحويل بعض المصانع الحالية لانتاج المعدات الحربية يستغرق وقتاً طويلا ، وبناء المصانع الجديدة وتزويدها بالآلات اللازمة فضلا عن وضع الخطط الانتاجية موضع التنفيذ لا يمكن أن يتم ما بين طرفة عين وانتباهتها . إلا أن الأمل معقود على عظم موارد الولايات المتحدة وتوفر الخبراء فى الانتاج وفى التنظيم العلمى

وضماناً لسرعة التنفيذ عهد الرئيس الى لجنة من الخبراء تسمى « اللجنة الاستشارية للدفاع الوطنى » برئاسة مستر كنودسن مدير شركة الجنرال موتورز بالاشراف على سرعة تنفيذ بروجرام التسلح الواسع النطاق الذى يتضمن إنتاج ٥٠٠٠٠ طائرة و١٠٠٠٠ دبابة الخ . وقد بدأ المستر كنودسن عمله بمفاوضة نقابات العمال لزيادة ساعات العمل الأسبوعية من ٤٠ الى ٤٨ ، كما طلب الى أرباب العمل والى اتحادات العمال المختلفة اجتناب الاضرابات ما أمكن والاستغناء عن الاجازات السنوية . وتعمل لجنة ديز Dies لقمع أعمال التخريب التى يقوم بها بعض الأجانب فى المصانع الامريكية — كما أنه تقررت أخيراً أولوية للمصانع الحربية فى الحصول على المواد الخام كالصلب وخلافه . وليس من المنتظر ظهور عقبات فى الانتاج نظراً لسلامة المركز المالى وبعده عن خطر التضخم ، ولتوفر الملايين من العمال العاطلين ولروح التعاون التى يبديها رجال الاعمال

وتقدر قيمة الأسلحة الأمريكية التى أرسلت لبريطانيا حتى أوائل السنة الحالية بنحو ٣٣٠ مليون جنيه إلا أنه من المنتظر أن يتضاعف الرقم فى هذه السنة والسنوات المقبلة . ومن المحقق أنه فى الربيع وأوائل الصيف ستواجه انجلترا الهجمات الألمانية المتزايدة العنف معتمدة على مواردها الشخصية وعلى مساعدة أمريكية ضئيلة نوعاً ، فاذا ما صمدت الى آخر العام بدأ الانتاج الأمريكى فى النمو المطرد ولا يبعد أن يكون فصل الخطاب فى نتيجة الحرب

وستترتب على المعونة الامريكية التزامات متبادلة بين انجلترا وأمريكا . فهى تحد من سلطة الساسة الأوربيين ومن حريتهم فى التصرف فى مصير الشعوب فى مؤتمر الصلح المقبل كما أنها تعطي روزفلت وأعوانه فرصة لتنفيذ رغباتهم وتحقيق التعاون السياسى والاقتصادى الدولى فى ضوء المقترحات التى قدمها مستر سمنر ولز للحكومات الأوربية أثناء بعثته السياسية ، والتى ترمى الى العودة التدريجية الى نظم الحرية الاقتصادية بين شعوب الارض جميعاً

علي الجريتلي

أمريكا تستضيف الأحرار

سيذكر العالم ان امريكا كانت معقل الحرية يوم تنكر لها العالم جميعا ، ومعتصم الاحرار يوم اشتد بهم بأس العداة

تشعر أمريكا ان قد ألقى عليها اليوم مهمة الحفاظ على الحضارة الانسانية التى لا تكاد تجد لها مستقرا وسط النار الموقدة فى أرجاء اوربا، فأخذت تفتح أبوابها لاولئك المفكرين والفنانين والعلماء الذين ضاقت بهم أوطانهم ذرعا ، لانهم آثروا حريتهم وأكبروا رأيهم وأبوا ان يكونوا أداة فى أيدى طغاة بلادهم العتاة ، ذلك ان الحرية الفكرية ترادفها فى كثير من شعوب أوربا الخيانة الوطنية : فالعالم أو الاديب أو الفنان اما ان يكون صوتا من أصوات الدولة ولو خالف رأيه وانكر ضميره ، واما ان يلقى به فى غيابة مركز الاعتقال ليعانى ضروب الخسف والنكال ، واما ان يهجر وطنه ويضرب فى الارض يقاسى فى شعابها العسر والغربة والحرمان

لهذا اتجه أولئك الاحرار الى امريكا يعتصمون فيها مما يصيب الحرية ورجالها من بأس العداة الاشداء ، ويلقون فى رحابها من أكرام الوفادة واحسان المثوى ما يهيىء لهم اسباب العمل والانتاج . وأخذت جامعات أمريكا ومعاهدها تحفل بأولئك الاعلام الذين اضطهدوا فى بلادهم لما قارفوا من « الجرائم » ... وما هى الا ايمانهم بمبادىء سياسية لا تقر المستبدين بأمرهم على سطوتهم العادية وأطماحهم المدمرة ، أو بحوثهم العلمية التى لاتتفق مع مبدأ « تفاوت الاجناس » الذى بلغ فى بعض الشعوب درجة الهوس والجنون ، أو انهم لم ينحدروا من السلالة الآرية النقية التقية التى تكفل لاهلها - ولو كانوا مجرمين أو مجانين - حق التفوق والسيادة ...

واذا كانت ألمانيا وايطاليا وما وقع فى قبضتهما من الشعوب قد حرمت أعظم مفكريها وابرز فنانيها ، الا ان أمريكا قد غذت حياتها الفكرية والفنية بنخبة ممتازة من كبار العلماء والكتاب والفنانين والساسة والاساتذة . وبذلك غدا الناس يلتمسون احسن ماينتجه الذهن الالمانى والايطالى ، لا فى ألمانيا وايطاليا ، بل فى جامعات أمريكا ومعاهدها ، التى صارت مثابة جمع من العلماء الفائزين بجائزة نوبل فى العلوم والآداب ، وجمع من الكتاب والفنانين يعدون فى طليعة الاعلام المعاصرين

البرت اينشتين

أعظم وأشهر هؤلاء الاحرار الذين تستضيفهم أمريكا هو « اينشتين » الذى ابتكر

نظرية النسبية واجملها فى اثنتى عشرة صفحة ولكن العلماء وضعوا ما يقرب من اربعة آلاف كتاب ورسالة فى شرحها وايضاحها .. ومع ان هذا الرجل غير رأى العلم فى الكون تغييرا تاما بنظريته التى أقامت أكبر ثورة علمية فى القرن العشرين ، الا انه لم يحسن اختيار ابويه فقد كانا من اليهود ، والهر هتلر لا يغفر ان يكون امرء يهوديا ويغفر ما دون ذلك من الذنوب ....

فلم تبال ألمانيا النازية بما للرجل من شهرة علمية عظيمة ولا بانتاجه الفكرى الضخم ، بل عزلته من مجمعها العلمى الذى اقفر من اكثر رجاله البارزين ، وصادرت ما كان له من مال فى المصارف واستولت على أملاكه الخاصة ، ثم فتشت بيته لتبحث فيه عن اسلحة مخبأة ، وداهمت عصابات الشبان النازية مسكنه حيث عاثت فى كتبه وأثاثه حرقا ونهبا ..

وكان حينذاك فى امريكا فأعلن انه سيسعى للعيش فى بلد « يكفل للناس حريتهم السياسية ، ويعرف أهله معنى التسامح ، ويتساوى فيه الناس جميعا فى حكم القانون » . ولم يكن يعنيه المال فهو لا يلقى اليه بالا ، وحين منح جائزة نوبل وقيمتها المالية زهاء خمسة آلاف من الجنيهات تبرع بها لاعمال الخير ولم يبق لنفسه شيئا . وتسابقت اليه جامعات امريكا فظفرت به جامعة برنستون حيث ما يزال استاذا بها

ورغم ما لقى من عنت واضطهاد فى سنيه الاخيرة الا انه لا ينظر الى مضطهديه نظرة حقد وضغينة ، بل نظرة وادعة هادئة لا تتجاوز حد السخرية اللاذعة . سألته احدى السيدات ذات مرة : « هل أنت واثق من ان نظريتك صحيحة ؟ » فأجابها : « اعتقد ذلك . ولكن هذا لن يثبت الا سنة ١٩٨١ أى بعد ان اموت . وعندئذ ان ثبتت صحة نظريتى قال الالمان : انه كان ألمانيا صميما وقال الفرنسيون : بل كان يهوديا اضطهدته ألمانيا . وان ثبت خطأ نظريتى قال الالمان : انه كان يهوديا طردناه من بلادنا ، ورد عليهم الفرنسيون : بل كان ألمانيا صميما »

توماس مان

ما ان قبض النازى على زمام الامر فى ألمانيا حتى تبين عميد الادب الالمانى الحديث ـ توماس مان ـ أن لا حياة له فى وطنه الا فى مركز رهيب من مراكز الاعتقال حيث قد يلقى حتفه على حين غرة سرا . فلاذ بالفرار بعد ان شهد بعينيه جموع الشباب تحتفل فى ساحات برلين بتكديس آثاره الادبية وايقاد النار فيها

وهو يحتفظ بصورة احدى هذه المآسى التى ان عادت بألمانيا الحديثة الى العهود البائدة التى كانوا يخربون فيها المعاهد ويحرقون المكاتب وينكلون بالعلماء والادباء ، الا انها تزيد فى قدر الاديب العظيم وتكاد ترقى به الى مرتبة الشهيد اذ يضحى بماله وجاهه وأمن حياته فى سبيل حرية الفكر وكرامة الادب

ومع هذا لم يساور الرجل أى حقد على ألمانيا بل ظل يحتفظ لها فى قلبه أخلص الحب

والحنين ، فلما غادرها أقام فى قرية سويسرية قريبة من زيورخ حيث يتكلم الناس اللغة الالمانية ليظل أولاده – على حد قوله – يستمعون لغة وطنهم ...

وعقل قلمه ولسانه عمن اضطهدوه طويلا ، وفرق دائما بين النازى الذين آذوه والالمان الذين يفخرون به . ولكن لما تبدت سطوة هتلر تهدد الحرية فى العالم جميعا ، نزل الى الساحة بقلمه القوى اللاذع وفكره الفلسفى الدقيق ، وأخذ يشرح للناس معنى هذا النظام النازى ومدى ما يستهدف له العالم من نكره واذاه . وهاجر الى مثابة الاحرار فى امريكا حيث رحبت جامعة برنستون بعميد الادب توماس مان الى جانب عميد العلم اينشتين . وهو يلقى على طلابه محاضراته فى تمجيد الانسانية وتقديس الحرية ومقاومة كل نظام فى الحكم والسياسة يطغى على كيان الفرد وينكر عليه حق الحرية . وقد خلع عن نفسه الجنسية الالمانية واتخذ الجنسية الامريكية

توسكانيني

الفن – كالفكر – لا يحيا الا اذا تنسم الحرية ، فان حرمت عليه ذوى ومات . وكل فنان يؤثر فنه الرفيع على متاع هذه الدنيا لا يبالى ان يكافح فى سبيل الحرية أعنف الكفاح . وقد يكون الفنان أقدر على هذا النضال من المفكر ، لانه ينفذ الى القلوب ويثير فيها المشاعر ولانه يجمع حوله الناس جميعا على اختلاف ميولهم وثقافاتهم ، ولا يقتصر همه على الطبقة العالية التى تختص وحدها بتفهم أساليبه وادراك معانيه

فى طليعة هؤلاء الفنانين الاحرار الذين يناضلون الدكتاتورية الموسيقى الايطالى العظيم ارتيرو توسكانينى . عاش فى ايطاليا دهرا طويلا ولكنه أبى ان يحنى هامته لسطوة موسولينى ، وعجز هذا عن مقاومته فمكانته فى قلب الشعب الايطالى اسمى من كل مكانة . الا انه فى سنة ١٩٣١ أبى ان يعزف النشيد الفاشستى اذ يرى انه « ليس من الموسيقى » فهاج به نفر من رعاع الفاشست واوسعوه ضربا وايذاء . وبعد ذلك بسنتين بعث الى هتلر بكتاب عنيف ينكر عليه اضطهاد اليهود بما فيهم من افذاذ المفكرين والفنانين ، فحرم هتلر ان تعزف فى ألمانيا موسيقاه ...

ولما ضاق بالحياة فى ايطاليا اعتزم الهجرة منها ، ولكنهم احتجزوه فى ميلانو قسرا . غير انه استطاع ان ينجو منها هاربا وآوى الى نيويورك فأكرمت مثواه وقابلته بما يحق له من التجلة والاكرام . ووجد فيها مرادا حرا طليقا هيأ لعبقريته حياة النشاط والانتاج ، وستظل نيويورك مثابة أعظم الموسيقيين المعاصرين ما بقى فى أوربا حكم الارهاب

ويعيش الى جانبه فى أمريكا أكبر عازفى الكمان – كريزلر – الذى فر من أوربا هاربا ، لان عبقريته الموسيقية لا تكفى لغفران وزر يهوديته ...

هنريك برونيج

لم تقتصر ضيافة امريكا على العلماء والادباء والفنانين بل فتحت بابها للساسة الاحرار

الذين فروا من اوطانهم أمام سطوة الاعداء • وفى مقدمتهم هنريك برونتج مستشار ألمانيا فى الفترة التى عرفت فيها الحرية بين غليوم وهتلر

فر هذا الرجل من وطنه بعد ان أعلن النازى عن مكافأة عظيمة لمن يأتى برأسه !•• وتبعه رجال النازى الى مهجره فى سويسرا حيث هموا بقتله ذات مرة فى احد المستشفيات فاضطر ان يهجر أوربا بأسرها وان يأوى الى امريكا حيث عين استاذا بجامعة هارفارد

ولندرك مدى التفكير الالمانى فى هذه الايام نذكر ان صحيفة « الفرق السوداء » التى تعبر عن رأى الغلاة من رجال النازى حين روت هذا النبأ لم تجد ما تذكره عن جامعة هارفارد ـ وهى اكبر جامعات العالم طرا ومساهمتها فى شتى نواحى الثقافة معروفة مشهودة ـ الا ان احدى فرقها الرياضية فازت فى مباريات الجرى والسباحة فى الالعاب الاولمبية !•• وهكذا تفضل المانيا الحديثة قطع اللحم المتكتلة على السواعد والسيقان على كل ما تتوهج به الافئدة العظيمة وتختلج به القلوب النبيلة !

ثم قالت الجريدة « ان رجلا يدعى هنريك برونتج عين مدرسا فى جامعة هارفارد كما ان رجلا آخر اسمه البرت اينشتين عين مدرسا فى جامعة برنستون » وبرونتج هذا هو الذى مهد لهتلر طريق الحكم لامر ما ، فكان جزاؤه جزاء سنمار ••

***

كل رجل من هؤلاء الرجال الاربعة يمثل جمعا من الاحرار الذين هجروا أوطانهم فرارا من عذاب الاقوياء والتماسا للحرية فى مثوها الجديد

فوراء اينشتين جمع من العلماء والاساتذة يملأون الآن رحاب الجامعات الامريكية ، ويعمرون دور الصناعة والانتاج فى امريكا • وتوماس مان يمثل نفرا من أفذاذ الادباء شردوا فى الارض اما لانهم احرار واما لانهم يهود ، فاستضافتهم معاهد امريكا وصحفها الكبرى فأخذوا يواصلون جهادهم فى سبيل الفكر والحرية • ووراء توسكانينى جمع من الفنانين جعلوا من امريكا ـ التى طالما عاب عليها الاوربيون انصرافها عن الفن ـ مثابة الفن الرفيع ، وتشهد هوليود فى السنين الاخيرة وجوها ومواهب جديدة تغذى حركة التمثيل والموسيقى والتأليف فيها أخصب واجمل الغذاء • وبرونتج يمثل نفرا من الساسة الاحرار الذين شهدوا مصرع اوطانهم على ايدى الطغاة فآووا الى امريكا ليستأنفوا فيها نضالهم وجهادهم •••

وسوف تنجلى غمرة القوة والقسوة يوما ما ، ويعود هؤلاء الاحرار الى أوطانهم حين تحريرها ، فيذكرون ان امريكا كانت معقل الحرية يوم تنكر لها العالم جميعا ومعتصم الاحرار حين اشتد بهم بأس العداة ، وحسب امريكا هذا العمل الكريم مجدا وفخرا ••

العرب

خلاصة رسالة حديثة للمستشرق الانجليزى الاستاذ « جب »

العرب شعب يتجمع حول ذكرى تاريخية يحيا على آثارها . فمنذ ثلاثة عشر قرناً بشر محمد ، صلى الله عليه وسلم ، أهل المدائن والبادية فى غرب الجزيرة العربية بدين يوحد الله تعالى . ثم لم يلبث أن زحفت جيوش هذا الدين على أرجاء آسيا الغربية حتى ربضت على ربى الأفغان وجبالها ، وسارت فى شمال أفريقيا فأشرفت على بحر الظلام حيث كان ينتهى العالم المعروف . ونشرت هذه القوى أين اتجهت وأين استقرت دين الاسلام ولغة العرب ، فصهرت بذلك الشعوب المقهورة ـ وان كان بعضها أبى وقاوم ـ فى بوتقة القومية العربية ، فنشأ منها الشعب العربى الكبير الحديث . وإذا سألت اليوم : من هم العرب ؟ كان جوابك : انهم كل الجماعات التى تعد محور ماضيها وجوهر تاريخها الرسالة التى أداها محمد ، وذكرى الامبراطورية التى أنشأها العرب ، فضلا عن اتخاذها اللغة العربية وثقافتها لساناً لها وميراثاً مشتركا بينها

العرب تجاه العالم الحديث

كانت الشعوب العربية الى أقل من مائة عام تحيا وتقتات مما ورثته من الثقافة الاسلامية التى ازدهرت فى العصور الوسطى . وكان النظام الاسلامى القديم يكفل لهذه الشعوب ما يلزمها من المرافق الاجتماعية والاقتصادية ويضفى عليه طابعاً دينياً يدعمها ويثبتها ، فأدى هذا الى انصراف الناس عن التفكير فى شئون السياسة ووسائل الحكومة . ومع أن حيوية هذا النظام أخذت تتضاءل وتختفى شيئاً فشيئاً ، إلا أنه لم تتجه الرغبة يوماً الى تغيير عنيف قد يربك التضامن والاستقرار الاجتماعى . فعاش العرب فى دنياهم مكتفين بأنفسهم عن سواهم ، سائرين فى طريقهم المألوفة سير أسلافهم ، غير ملقين بالا الى ما تضطرب به أوربا من التطور السياسى والاقتصادى ، إذ كانوا ينظرون الى « الفرنجة » نظرتهم الى شعب بربرى يهيم فيما وراءهم من الفيافى ، ذلك أنهم كانوا عند العرب « كفاراً » تفضل السلطان فمنحهم امتيازات تجارية فيما سكنوه من مدن بلاده وموانيها

كانت هذه العزلة عن العالم سبباً فيما صدم العرب من انتهاك حرمتهم عندما شهدوا وعانوا تدخل أوربا فى أمورهم . فقد أحاط بهم الفرنجة وحاصروا بلادهم غربا وشرقا ، وأملوا إرادتهم على السلاطين وفرضوا سطوتهم على من دونهم من الامراء والزعماء . واشتبكت الجيوش

« الفرنجية » فى حروبهم ، وتدخل قناصل « الفرنجة » وتجارهم فى حياتهم الاقتصادية وشؤونهم الخاصة . فكان القرن التاسع عشر سلسلة متصلة من اطراد التدخل الأوربى فى حياة العرب ، ومن التفكك المستمر فى عرى النظام القديم ، وكذلك من محاولة العقليات السياسية المثقفة فى الأقطار العربية أن تدرك وتتخذ العوامل التى أدت الى اكبار شأن أوربا وبسط نفوذها . وكان أكثر الناس تأذياً من هذا الاتجاه هم المسلمون المخلصون الذين تعودوا أن ينظروا الى الاسلام على أنه مجمع كل حق وكل علم ، وإلى أنفسهم على أنهم المثل الأعلى الذى يجب أن تحتذيه الشعوب الأخرى، فاذا بهم يتصلون ـ أول مرة فى تاريخهم ـ بشعوب تتعالى عليهم وتسفه كل ما به يعتدون. فكانت هذه الحالة النفسية ، أكثر مما كانت الثورة السياسية والتطور الاقتصادى ، مثار كل ما حفل به المستقبل من وجوه النزاع والكفاح

فبدا فى أول الأمر أن التيار الأوربى سيجرف كل شىء أمامه . فبينما كانت أغلبية العرب غافلة عن إدراك هذه التغييرات التى تأخذها من كل جانب ، كانت هناك أجيال جديدة تتلق العلم فى مدارس أنشأتها الجاليات الأجنبية أو مدارس وجهت وفق أساليب التعليم الغربى ، ثم تخرج من هذه المدارس الى حياة أكثر ما فيها من المنشئات ومن المبادىء مشتق من الحضارة الغربية . وأهم من ذلك هذه الصحافة العربية الحديثة التى أخذت تنشر الأفكار الجديدة نشراً واسع النطاق ، فتنشىء بذلك عقلية جديدة تواجه وتجابه العقلية التى قامت على التقاليد الاجتماعية والدينية القديمة . ومع أن هذه النظم الجديدة عجزت عن أداء مهمتها على أكمل الوجوه ، ولا سيما فى المناطق التى كانت تحكمها تركيا ، إلا أنه لم يكن ثمة سبيل الى الرجعة الى الأساليب القديمة وعلى الأخص فيما يتعلق منها بالسياسة

على أنا اذا ذهبنا الى ما هو أعمق من ذلك وجدنا أن الغزو الأوربى أدى فى البلاد العربية الى صراع أخذ يعنف ويحتدم على مر الأيام . فقد فتح الغرب آفاقاً جديدة أمام الشباب ، أمام الجيل المتحمس ، الغيور ، المجدد ، المصلح ، الساعى الى اثبات نفسه . ولكن ما يتملك الشباب دائماً من القلق والضيق ، وما ينقصه من الخبرة والتجربة ، وما يتقسمه من عاملى المصالحة والعداوة مع الحياة القديمة ـ كل هذا خلق حالة نفسية مريرة مجهدة ، أدت الى كبح جماح الثورة التى كادت أن تشب نارها . على أن المعركة العنيفة الطويلة ظلت ناشبة بين فلسفتى الجيل القديم والجيل الحديث ، وظلت تلعب دوراً حيوياً فى حياة الشعوب العربية ، ولم يبد أنها ستقف رحاها أو ستخفت من جذوتها يوماً ما . ولكن شيئاً واحداً اتفق عليه الجيلان منذ بدء المعركة الى يومنا هذا ، هو أن مجىء أوربا الى بلاد العرب قد أيقظها من سباتها العميق طول العصور الوسطى ، وأن لا سبيل الى النوم والخمول مرة أخرى . فأخذ الشعور القومى ينبعث ويحيا ، بطيئاً فى أول أمره ، مطرد القوة متسع النطاق فيما بعد ، حتى صار المحور الذى يرتكز اليه العالم

العربي فى جهاده ضد القوى المادية والمعنوية التى زحفت عليه من الغرب تريده على الخضوع لها والفناء تحت سطوتها

* * *

لم يطرأ تغيير كبير على الأقاليم العربية منذ الفتوح التى حفل بها القرن السابع ، فبسطت آفاقها من الخليج الفارسى وجبال إيران متجهة غرباً مارة بسورية وفلسطين ومصر وليبيا وتونس والجزائر ومراكش حتى تنتهى بشاطىء المحيط الأطلسي . وكان العرب فى إبان قوتهم سادة على أكثر اسبانيا والبرتغال وجزر بحر الروم ، ومازال سكان مالطة الذين يتكلمون العربية شهوداً على ما كان للعرب من قوة بحرية فائقة فى هذه الأرجاء ، كما أنهم أسسوا دولا ما تزال قائمة على شاطىء افريقية الشرق وفى جزر الهند الشرقية ، وكانت أهم منطقة نفذ اليها الاسلام فى خلال السنين الألف الأخيرة منطقة السودان الشمالية

وثمة ظاهرة عامة هامة تشترك فيها جميع الأراضى العربية هى أنها محاطة بصحارى تفصل بينها بمفاوز يشق اجتيازها ، ولعل هذا هو ما يدعو عامة الناس الى تخيل العرب « بدواً » يضربون على ظهور الابل فى شعاب الصحراء . ولكن العرب ينقسمون ــ وكانوا على الأرجح منقسمين دائماً ــ جماعتين أساسيتين : سكان المدن المستقرين ، ورعاة البادية الرحل ، وبينهما طبقة من الزراع شبه مستقرة وشبه مرتحلة . وابن المدينة ــ لا البدوى ــ هو الذى تزعم فى جميع العصور ما ظهر من الحركات السياسية ، وهو مثابة ما تجمع من الثقافة العربية . أما البادية فكانت تقوم بدور اختزان القوى الناضجة الخالصة التى تعوض الأمة عما يفقده سكان المدن من حيويتهم نتيجة ما يتعرضون له من أسباب الوهن والانحلال . ولكن هؤلاء البدو اذا تركوا وشأنهم كانوا قوة فعالة فى التخريب والتدمير ، إذ لا ينفكون عن تهديد الأمن والحضارة فيما يجاورهم من الأمصار المستقرة التي تمثل واحات الحضارة وسط صحراء من الجاهلية ، فكانت فى كفاح دائم لتدفع عن نفسها عادية العدو عليها وتسللهم اليها وتهديدهم منشآتها وحضارتها . وقد ظل هؤلاء البدو ، ولا سيما فى العراق والجزائر ، يهددون آثار الحضارة خارج المدن المسورة المحصنة ، ولم تستطع الحكومة العثمانية التى كانت تتولى أمر جميع البلاد العربية ــ ما عدا مراكش ــ منذ القرن السادس عشر أن تقوم بعمل حاسم لكبح جماح البدو ورد عاديتهم

ولكن لما جاء القرن التاسع عشر تغير المجرى ، فان الحكومة القوية المركزية التى أنشأها محمد على فى مصر لم توفق فحسب الى إخضاع الجماعات البادية التى تضرب فى أرجاء وادى النيل ، بل استطاعت أن تقهر الامبراطورية البدوية القوية التي أقامها الوهابيون فى الجزيرة العربية وأخذوا يهددون بها أجوارهم فى العراق وسورية . ثم أخذت الحكومة العثمانية ــ بعد أن اعتدت بقوات حربية جديدة وفق الاساليب الاوربية ــ تقيم حكم القانون والنظام فيما يخضع لها

من الاقاليم العربية . ومع أن الصعاب التي واجهتها كانت أكبر مما واجهت مصر ، ومع أن ما اتخذت من الوسائل لتنفيذ خطتها كان ناقصاً عاطلا ، إلا أنها توفقت ـ الى حد ما ـ الى كسر شوكة البدو وتأمين رجال المدن وزراع القرى . ويمكن أن ندرك مدى الجهد الذي بذلته تركيا اذا قدرنا أن فرنسا ـ وهى أوفر من تركيا سلاحاً ومالا ـ قضت سنين عدداً وضحت جموعاً من أبنائها ، حتى أمكنها أن تنشر الهدوء والسلام فى ربوع الجزائر وحدها

وثمة مسألة أخرى : هى أن السياسة التى اتخذها العرب الفاتحون قبل الشعوب المقهورة لها الى يومنا هذا نتائج اجتماعية وسياسية خطيرة فى الاقطار العربية . فقد كانت الفتوح العربية نتيجة حركة قومية تثيرها وتلهمها العقيدة الدينية ، فأخذ أبناء الشعوب المغلوبة الذين اعتنقوا الاسلام يندمجون شيئاً فشيئاً ـ بوجه عام ـ فى الشعب العربى الناشىء الكبير . ولكن بعضاً من الشعوب النائية عن الجزيرة العربية ، المعتصمة فى أطراف الامبراطورية الاسلامية استطاعت أن تحتفظ ـ رغم تدينها بالاسلام ـ بقوميتها الممثلة فى لغتها القديمة وبعض تقاليدها . من هذه الشعوب الاكراد الجاثمون على جبال الشمال فى آسيا الوسطى ، والبربر المتناثرون فى شعاب افريقية الشمالية الغربية ، فقد ظل هؤلاء وهؤلاء متميزين من العرب بشىء من الخصائص القومية ، وان كان من الاسراف أن تتحدث عن شعور قومى قوى بين هذه الجماعات

ثم هناك أولئك الذين احتفظوا بعقائدهم القديمة ـ وهم المسيحيون واليهود ـ وظلوا حتى الآن أقليات محمية ، مستمتعين فى الغالب بتسامح كبير . ففى كل قطر عربى ـ باستثناء الجزيرة العربية ـ تقوم الى يومنا هذا أقليات جنسية أو دينية لا تندمج اندماجاً تاماً فى هذه العقائد والتقاليد التى يرجى أن تقوم على أسسها القومية العربية المنشودة

بل إنا نجد فى العرب أنفسهم شيئا من خطوط الفرقة والانقسام ، يرجع سببها ومنشؤها الى عوامل تاريخية قديمة قامت فى بدء التاريخ الاسلامى ، ولهذا كانت أشد تأثيراً من سواها فى جمع شمل الوحدة العربية جمعا وثيق العرى . فهناك الفرقة بين السنيين والشيعيين التى ترجع الى هذه المنازعة العائلية عمن هو أحق بالوراثة السياسية بعد الرسول ، والتى تطورت واتسعت فأدت الى فرق دينية تمثل كلا منها عقلية مختلفة عن الاخرى . وما زالت الشيعة قائمة فى العراق غالبة فى اليمن ، ولكن لا وجود لها فى غيرها من البلاد الاسلامية ، وهناك خلفاء الخوارج المتطهرين المتطرفين فى عمان وفى بعض مناطق الجزائر ، وهناك الوهابيون فى أواسط الجزيرة العربية وهم وسط بين الشيعة والخوارج

على أنه ليس من اليسير أن نتبين أثر الانقسامات الطائفية فى مجرى المسائل السياسية والاجتماعية فى الاقطار العربية . فالوطنيون المتطرفون يجهلون شأنها أو يقللون من تأثيرها ، ويستدلون على ذلك بكثير من المناسبات التى اتحد فيها أبناء جميع هذه الطوائف فيما أقيم وأثير

من المظاهرات والاعمال السياسية العنيفة . ولكن من المؤكد أنه رغم أن وحدة الشعور فيما يتعلق بالشؤون الخارجية لا سبيل الى إنكارها ، إلا أن لهذه الخلافات الطائفية أثراً ثانوياً وغير مباشر فى تحقيق الاستمرار الداخلى فى العالم العربى . على أن هذه الفوارق المتعلقة بشؤون الدين صارت أقل أثراً وأهون شأناً من الفوارق التى تعانيها بعض الشعوب التي تختلف جماعاتها فى تقاليدها وعاداتها ونظرتها الى الحياة

القومية العربية

أفاق العرب من غفوتهم ولن يغفلوا مرة أخرى ، وخلصت سياستهم مما ران عليها دهوراً من الجمود والتهاون ، ونبذوا الحياة الهادئة الوادعة التى استناموا فى ظلالها للاستكانة والخضوع ، وغدا العالم العربى من أقصاه الى أقصاه يفكر ويدبر ويسعى ويكافح

وقد حولت الجماعات الاجنبية المنبثة فى ثنايا الشعوب العربية — وما تزال تحول — الأقطار العربية دولا حديثة . فأخذت شعوبها بعد أن غادرت القواعد التى رست عليها عهداً طويلا تتساءل فى قلق ولهفة : أين تولى وجهها ؟ وغدا شعور العرب بأنفسهم ينبعث ويتحفز وتتجمع قواه ، وراح زعماؤهم الفكريون يعملون لتجديد مثلهم وأهدافهم الثقافية فى هذا العالم الجديد

وتقوم القومية العربية — كما تقوم كل قومية أخرى — على أساس من وحدة الشعور بين جماعاتها ، ويتألف هذا الشعور من الكبرياء والاعتزاز بالرسالة المجيدة التى أداها الاسلام، وبالآثار العظيمة التى أقامتها وخلفتها امبراطورية العرب ، وبهذه التقاليد الثقافية التى يمثلها الأدب العربى ، مقترنا بهذا كله شعور بالغيرة من سيادة أوربا المادية وإنكار لما تدعيه لنفسها من تفوقها الخلق ، وجميع هذه العناصر التى يتألف منها الروح القومى شائعة بين العرب فى جميع أقطارهم ، ومن الخطأ ، ومن الخطر ، أن نزعم أنها لم تنفذ بعد الى « الجمهرة الأمية » فى هذه الاقطار

واذا ذكرنا وقررنا أن القومية فى العالم الاسلامي قامت فى بادىء أمرها على أسس دينية لا أسس جنسية ، تبينا أن الأهداف الاولى التى ترمى اليها هذه القومية هو الأفكار والأعمال التالية : طرد « الفرنجة » وإعادة إنشاء الامبراطورية الاسلامية كما كانت فى عهد الخلفاء الأوائل، وإثبات قيم الاسلام الروحية والخلقية أمام العالم جميعاً

على أن هذه القومية الاسلامية نالها شىء من التعديل أول مرة حين انشقت القوميتان التركية والايرانية فى العهد الحديث عن الوحدة الاسلامية الكبرى ، فاضطر زعماء العرب الى أن يتخذوا بدلا منها قومية عربية أضيق نطاقا ، لأنها لا ترمى الى انشاء الامبراطورية الاسلامية بل تطمح فحسب إلى استرجاع امبراطورية عربية كهذه التى كان يتولاها خلفاء دمشق فى القرنين السابع والثامن (وذلك باستثناء ايران ، وان كان بعض الخياليين يحلم باسترجاع قرطبة وغرناطة) وما زال هذا

الحلم يتراءى الى يومنا في مخيلة كثيرين من الوطنيين الذين يأخذون الأمور في يسر وبساطة

ولكن ظهر في السنين الاخيرة طراز من التفكير يقدر الحقائق السياسية والاقتصادية تقديراً أكثر ملاءمة للواقع ، ويدرك تطور التاريخ وأحداثه فهماً أكثر دقة ووضوحاً ، ويقيم وزناً أكمل وأوفى للمبادىء الثقافية الغربية . وأخذ هذا الطراز الفكري يملأ أذهان ساسة العرب ومفكريهم ويهديهم طريقاً أدنى من سابقتها غاية وأيسر اجتيازاً . فماذا كانت نتائج هذا التفكير الجديد ؟ انه لم يؤد الى الاتجاه الاعمى الى أوربا ، بل أدى الى اختفاء هذا « التفرنج » الذي اتخذه ـ عن حسن نية ـ بعض المصلحين الأوائل . وعاد الجيل الناشىء يكبر ويجل التقاليد الاسلامية ، سواء في سيرة الأفراد الخاصة أو على أنها عنصر حيوي من عناصر الكيان القومي . ومن ناحية أخرى أخذ يختفي رأي الغلاة الذين كانوا ينقدون ويسفهون كل ما تعتد به أوربا ، وذلك اذا استثنينا نفراً قليلا من محترفي الدين المتعصبين وما يتبعهم من جمهرة الناس الجاهلة ، أما جميع المسلمين المستنيرين فيريدون أن يسلكوا طريقاً وسطاً ، فيجنون خير ما في الشرق والغرب من الثمار . وهم يعنون بذلك محاولة مزدوجة : ترمي إلى الغاء تقاليد العصور البائدة العقيمة ، وتسعى في الوقت ذاته الى حماية العالم الاسلامي من القوى المدمرة التي تنطوي عليها الحضارة الغربية . وبذلك تظهر ـ في الوقت الملائم ـ المثل العليا المنشودة للحياة وللثقافة العربية ، ولكن هذا الوقت لم يئن الى الآن

وثمة فكرة تنمو وتنتشر الآن مؤداها أن الذكرى التاريخية لم تعد تكفي أساساً للقومية العربية . نعم ، سيظل للذكريات الجميلة والمفاخر المشهودة مكانة عالية تجتمع عندها عواطف العرب جميعاً ، وليس في وسع العرب أن يتجردوا من ماضيهم الحافل كما تجرد الاتراك إثر ما أصابهم من أحداث قومية خطيرة . وسيظل الاسلام أهم صفحة في هذا السجل الماضي الى درجة لا يمكن أن يغفل عنها الساعون الى إنشاء مثل عربية عليا . ولكن هذا الماضي الذي يظل الجميع بلوائه ينطوي في الوقت ذاته على أسباب تاريخية تعمل للفرقة لا للوحدة ، فاذا نحن اعتمدنا على الروابط الدينية وحدها وجدنا في العالم العربي أقليات دينية قد تنال من قوة القومية الاسلامية ولا سيما أنها تضم نفراً كبيراً من أكثر الوطنيين غلواً وتطرفاً . وفضلا عن ذلك فان العالم العربي يحفل بجماعات وعناصر جديدة يهمها الحاضر أكثر مما يهمها الماضي ، ويعنيها أن تعيش وسط الدنيا التي تكتنفها بدل ان تعيش على ذكرى دنيا غابرة ، ومن شأن ذلك أن يفقد الماضي شيئاً مما له من التأثير المعنوي. ولهذا فانه إذا أرادت القومية العربية أن تتغلب على ما يواجهها الآن من الصعاب ، فعليها أن تنظر الى المستقبل قدر ما تنظر الى الماضي ، وعليها أن تنشىء نفسها على قواعد تلائم ما تعتز به من الذكرى وما تطمح اليه من الآمال

وقد أبانت تجارب ربع القرن الأخير بكل وضوح أن تقسيم العالم العربي الى عدد من الدول

الضعيفة الصغيرة يؤذى الشعور العربى إيذاء بالغاً . واذا كان لكل إقليم عربى مشاكله الداخلية الخاصة بشؤون وحدته واستقراره وحياته الاقتصادية ، الا أن كثيراً منها يمكن التغلب عليها إذا أخذت بعلاج واسع النطاق لا يتقيد بحدود السياسة المحلية الضيقة . وقد استطاعت بعض الاقطار المتجاورة بفضل ما بينها من النية الحسنة أن تزيل ما يثير بينها النزاع ، وأن تحل مكانها أسباب التعاون، ومن المرجح أن ينمو هذا الروح بين الاقطار العربية ليسهل تجميعها فى وحدات كبرى. ولكن يجب أن نذكر من الآن أن الوحدة العربية الكبرى لن تتم بفضل الذكرى الماضية فأثرها — مهما يكن — ضئيل بطىء ، بل نتيجة عمل مفاجىء ليس فى الامكان التنبؤ عن وقته ولا عن صورته

ويجب أن نذكر دائما أن العرب اليوم يختلفون إختلافا كبيراً عن العرب فى سنة ١٩١٥ . فان ما حققوه من وجوه التطور والارتقاء فى هذه السنين ماكان يخطر ببال أولئك الذين لم يعلمهم التاريخ الماضى مدى استجابة العرب السريعة لما يحيط بهم من ظروف الحياة ، ومدى تقدمهم السياسى المفاجىء . ولكن مهما يكن من قدرة هذه الأرض العربية الخصيبة على أن تنمي بذور الحضارة وتؤتى ثمارها ، إلا أن ما تفتقر اليه البلاد العربية من تدعيم بنائها السياسي ومن إقامة حياتها الاقتصادية ، يجعل الوحدة العربية وحدها — مهما تكن قوتها — غير كفيلة بتحقيق هذه الغاية وما تتطلبه من الوقت الطويل والجهد العظيم ، فلا غنى للعالم العربى اذاً عن لون من ألوان التضامن مع العالم الغربي يضمن له اطراد تقدمه السياسى والاقتصادى . وهذا ما قبله ورضيه جميع الساسة العرب الذين عرفوا ببعد نظرهم ونفاذ رأيهم على اعتبار أنه ضرورة سياسية تحتمها ظروف بلادهم ، ولكنهم تواصوا وأصروا دائما على ألا تكون هذه العلاقة ، علاقة بين السيد والتابع فى ميدان السياسة ، ولا علاقة استغلال القوى للضعيف فى ميدان الاقتصاد

والمهمة التى تلقيها هذه العلاقة الخطرة على مناكب قادة العرب وأوربا هى من أعظم التجارب التى تختبر وتمتحن مقدار كفاءتهم السياسية . فالعالم العربي الذى يتابع سيره وتطوره فى سبيل تجميع قواه السياسية وتدعيم حياته الداخلية يتطلب عقولا مرنة قديرة تعدل وتحور من آن لآخر فى علائقه بالعالم الغربى . وما من شك فى أن الجرح القديم ما زال ينز دماً وما زال يطلب النصفة ، ولكن يمكن أن تنشأ الصداقة النامية والتعاون الوطيد بين العرب وأوربا ، اذا وفق كل منهما الى رعاية حقوق الآخر ومصالحه ، وتقدير ما له من المزايا المعنوية

[خلاصة رسالة للاستاذ هـ . ا . ر . جب عنوانها العرب The Arabs نشرتها جامعة أوكسفورد]

الحرب القائمة

وهل تغير فى المزاج النفسي العام ؟

بقلم الاستاذ زكى طليمات

المفتش بوزارة المعارف العمومية

لعل أهم ما نحفل به فى هذه الآونة التى تستعر فيها معارك القتال – ساحبة وراءها ذيل الفناء والفقر – هو الوجه الذى ستطالعنا به الانسانية بعد أن تضع الحرب أوزارها . أما العالم ، وذلك من حيث الاماكن ومعالم البلدان ، فقلما يكون شغلنا الشاغل بعد أن ألفنا مناظر التخريب وتسوية الارض عاليها بسافلها . وبعد ان راعنا أن الذهن الذى أفنى قرونا عدة فى تهيئة وسائل البناء والتدعيم والعمران قد غلبته ناحية فيه ابتكرت فى سنوات قليلة أشد وسائل التدمير والتخريب وأسرعها . كذلك لا يعنينا البحث فيمن تكون له الغلبة فى هذه الحرب ، ولا انتصار فكرة اجتماعية على أخرى ، لان العقائد والمبادىء الاجتماعية لا تفرض على الشعوب فرضا . بل ان مرد الامر فى التأثر بها يرجع الى الواعية الباطنة التى هى من عمل الطبع المركب فى النفوس ، ومن صنع البيئة الاجتماعية ، ومن التجاريب والاحداث التى تتوالى على مر القرون ، فاذا صح وفرضت قوة غاشمة فكرة اجتماعية على شعب من الشعوب من غير أن يكون هناك اتصال بين ما تأصلت جذوره فى نفسية ذلك الشعب وبين ماهى عليه تلك الفكرة الوافدة المفروضة ، فان زمن معاناة الشعب لها لا تطول ، وسرعان ما يتفلت الشعب من تأثيرها ليعاود نظامه المتأصل فيه

بماذا تطالعنا الانسانية فى الغد ، وعما يسفر عنه وجهها المنهوك ؟

تلك هى عقدة المسألة !

ونحن ازاء هذه العقدة لا نقرع باب الغيب لنكشف المستور فى تلافيف المستقبل ، بله اننا نحاول فيما سنكتب أن نهتدى بلطف الحس ، وبالقياس والعبرة بالاحداث الماضية ، الى ان نستخلص اشارة الى الامر المزمع والحادث المتوقع

***

ان الفرد لا يتغير الا اذا تغير ما بنفسه ، والجماعات شأنها فى هذا شأن الافراد ، فهى لا تأخذ سمتا جديدا فى التفكير ووضع النظم وابتداع الاوضاع الا اذا نزل التغيير بمزاجها النفسى العام

والمزاج النفسى العام كلمة مبهمة بعض الابهام ، لا يمكن الاحاطة بكل مدلولها الا فى عبارات ، فهو من ناحية ركن من واعية الانسان فى عهد من العهود ، وهو من ناحية أخرى صورة مما يحفل به المجتمع فى ذلك العهد فيروقه ويرتاح اليه

ومن هذا المزاج العام تندفع التيارات التى تعمل على تحوير الاوضاع الاجتماعية القائمة أو تغييرها ، ومنها ينفلت المدد القاهر الذى يعمل على تحديد وجهات النظر الى الماديات والمعنويات فينبرى الذهن الى المحو والاثبات ، والهدم والبناء ، محاولا الخلق والتوليد لينشىء له دنيوات جديدة فى عوالم السياسة والاجتماع والفنون والادب ونظم التعليم

هذا المزاج يتحور بفعل الاحداث ، وقد يتبدل تبديلا تاما تحت تأثير الفوادح والخطوب والمستقصى أثر ذلك فى بطون التاريخ يطالعه الشاهد وراء الشاهد على ما تقرره ، وكفى بما نزل بالمجتمع من تغيير فى أوضاعه وتحوير فى نظمه ـ وذلك من جراء الحرب الكبرى الماضية ـ شاهدا ودليلا

أحداث وأحداث

وليس أمرا محتما أن يعقب كل حرب تغير فى المزاج البشرى العام ، فالحروب التى تهب اجابة لشهوة السلب والغزو والغلبة ، أو حب الانتقام قلما تنزل بهذا المزاج العام تبديلا شاملا ، وان كانت تخلف بعض الاثر فى مزاج الشعوب التى تباشر الغزو وتوفق فيه ، او تكابد الهزيمة وتلقى الفشل . الا انه أثر لا يلبث ان يفقد دفعته سريعا على توالى الايام ليعاود كل شىء سيرته الاولى ، لانها حروب مرتجلة لم يمهد لها الذهن تحت تأثير اعتراك المبادىء الاجتماعية واشتباك المذاهب الفكرية ، ولان أهدافها مادية اكثر منها معنوية

وأحداث الطبيعة المروعة المدمرة لمعالم الكون كالطوفان والزلازل لا يختلف أثرها فيما نحن بصدده عن أثر تلك الحروب السابقة الذكر ، لانها أحداث لا يد للانسان فيها ولا فكر ، ولان أثرها يزول بمجرد زوال هذه النكبة الطبيعية ، وبمعاودة الحياة سننها الاولى فى النشوء والمحافظة على الجنس ، فزلازل اليابان المتعاقبة أمرها معروف ، وهى تقع الفينة بعد الفينة دون أن تنسج أثرا يكون من شأنه ان يغير مجرى الحياة الاجتماعية والسياسية فى تلك البلاد أو ان ينقل الذهن اليابانى نقلة جديدة فى مظاهر تفكيره ، والحال لايختلف عن هذا فى بلاد الاناضول ، بل ان التاريخ فى عهده الاول يروى ضمن أخباره حادث طغيان الموج على القسم الغربى من حوض البحر الابيض المتوسط ـ وكان أرضا عرفت باسم اطلانطيد أو اطلانطيا ، ازدهرت فيها مدنية أولية، فابتلع البحر ديارها وناسها وضمها الى صدره الواسع ماء وموجا . هذه النكبة المروعة ، على خطبها الفادح ، لم تؤثر فى نظام المدنيات التى كانت تعيش الى جانبها ، ولم تغير وجه التاريخ الذى تصيغه أعمال

الرجال ، لانها نكبة ترجع اسبابها الى ثورة الطبيعة ، وفورة عناصرها المادية ، وهذه اشياء ليس للفكر البشرى فيها يدان ولا سلطان له عليها

الفتح الاسلامى

أما الحروب التى أعقبتها انقلابات اجتماعية وسياسية ، وأحدثت تبدلا فى القيم والاوضاع والمزاج النفسى العام شمل أثره بقاعا شاسعة من الارض ، فنختار منها واحدة فى التاريخ القديم . ولعل أبينها أثرا وأبلغها شاهدا : الفتوحات الاسلامية ، فقد سارت الجيوش الاسلامية من جزيرة العرب الى سورية وفارس ومصر وبلاد الهند وغيرها لا لمجرد الغزو ، ولا اجابة لبواعث أخرى مما تمليه الاثرة وشهوة التغلب والانتقام ، بل سارت تدفعها بواعث نفسية تستمد معينها من رسالة روحية ومبادىء معنوية ، هى رسالة التوحيد ومبادىء الدين الحنيف ، فكان فتحها فتح عقائد وغزوها غزو مبادىء ، وما أحدثته هذه الفتوح من انقلابات فى القيم والاوضاع الاجتماعية والسياسية أمره معلوم ، ويكفى أن نشير الى ان الفتح الاسلامى لوادى النيل أمات عالما كان قائما ومستكملا عناصر حياته وأنشأ مكانه عالما آخر لا يمت الى العالم الاول بشىء . وقد أطاح الزمان بتلك السيوف العربية ، وجر الفناء ذيله على تلك الوجوه التى كبرت ثلاثا عندما وضعت أقدامها على ضفاف النيل ، ولكن الزمان لم يمح ما خلفه ذلك الفتح من دنيا ما زالت قائمة

الغزو الجرمانى لاوربا الرومانية

وثمة مثل آخر وقع قبل الفتوحات الاسلامية .. وأعنى به اجتياح القبائل الجرمانية (الهون (The Huns)) لغرب أوربا وللدولة الرومانية . هذا الحادث ، وان اتفق مع الفتوحات الاسلامية من حيث القضاء على نظم قائمة وأوضاع وقيم كانت أصولها عريقة فى صميم المزاج العام الذى كان يسود الناس اذ ذاك ، الا انه يختلف اختلافا تاما فى بواعثه وفى جوهره ، اذ انه لم يحمل فى تلافيفه رسالة من عقائد أو مجموعة من مبادىء اجتماعية أو قيم أدبية عملت على انشاء العالم الجديد الذى خرج الى النور بعد ذلك . تدفقت جيوش هذه القبائل الجرمانية فى بقاع أوربا المتمدينة وعالم الثقافة الاغريقية والرومانية ، فأنزلت بالمعالم والدور والسكان اشنع ألوان الخراب والفناء ، يستوى فى ذلك المحاربون وغير المحاربين ، والهون برابرة لا تعمر صدورهم عقيدة سامية ، ولا تدوى فى رءوسهم أصداء مبادىء فكرية رفيعة يعملون بوحيها ويهدفون الى تحقيقها ، بل هم أقوام من الهمج اندفعوا الى الغزو اطاعة لشهوة الغزو ، وأمعنوا فى القتل حبا فى القتل ، فكان أن جرى وراء خيولهم الراكضة على اكداس القتلى الدمار فى الدور والفناء فى المحاصيل ، والاوبئة والفاقة والبلاء . وشاهد الناجون من القتل فى روما وفى غيرها من مدن ايطاليا ، معالم دنياهم المتمدينة تنهار فى بطء مخيف بيد الانسان وليس بيد الطبيعة ،

ولاحظوا ان قوائم حياتهم الاجتماعية تميد تحت أرجلهم ، وكان عهدهم بتلك المعالم وهذه القوائم ثابتة راسخة متأصلة الاعراق لقدم عهدها بالحياة • وتوالت ، سنين طويلة، موجات الدمار هذه على أيدي قبائل (الفاندال والغوطيين والفرانك) وهى قبائل منحدرة من نفس الارومة التي انحدرت منها قبائل (الهون) ، فكان ان تخطى الدمار دائرة النواحي المادية ، واندفع الى النفوس يغزوها ويغير من معالمها ، ويقوض من مبادئها

اذا تفاقم البلاء جنحت النفس الى تلمس اسباب النجاة فيه بدافع من غريزة حب البقاء، وهى غريزة أصيلة وقوية فى الانسان •• فكان ان انبرى العقل الباطن لدى أولئك المغلوبين على أمرهم ، يراجع ويفكر فى جد وامعان متلمسا أبواب النجاة من هذه الحال ، بعد أن أحس بأن كل ما يربطه بالماضى وعوالمه قد انقطع وان لا سبيل الى وصله ، وهكذا ولد الذهن المروع آراء جديدة تمخضت بدورها عن عقائد جديدة وأوضاع لم تكن ، وتحركت رغبات طارئة تركزت جميعها فأنشأت عالما جديدا بأوضاعه الاجتماعية وبدساتيره السياسية وبقيمه الادبية وبصيغه الفنية أو بالاحرى بمزاجه الفني العام • وخرجت أوربا جديدة على أنقاض الدولة الرومانية ومقاطعات الجول

الحرب الكبرى الماضية

وفى التاريخ القريب حدث فيه شيء من عناصر الفتح الاسلامى لان رجال هذا الحدث كانوا يحملون فى صدورهم قضية يدافعون عنها ، وفيه شيء من الغزو الجرمانى ، لان حربه استعرت بحال أفضت الى هلاك ملايين من البشر وخلفت مثلهم من المشوهين والمرضى ، ونشرت وراءها الضيق والفقر • هذا الحدث هو الحرب الكبرى الماضية (١٩١٤–١٩١٨) ، وهى حرب بدأت فى أذهان الناس قبل ان يفصح عنها دوى المدافع ، وهى حرب سارت الجيوش فيها من أجل مبادىء وأمنيات أختلجت بها الافئدة ، هذه المبادىء والامنيات تلخصها أقوال بعض رؤساء الحكومات فى ذلك الوقت

فقد قال « المستر اسكويث » رئيس الحكومة البريطانية : « نحن نحارب لنذود عما فى الانسانية من قوى خلقية رفيعة ، نحن نناضل فى سبيل حماية القانون ورفعة العدالة »

وقال الرئيس ولسن : « يجب أن يسود الامن العالم لتزدهر الديمقراطية ، وليست لنا أغراض مثارها الاثرة نريد تحقيقها بهذه الحرب »

وزاد على هذا « الهر بثمان هولفيج » بتقريره : « نحن نحارب من أجل الحق فى تقرير المصير » ، واتفقت بعض الآراء الاخر على ان الالمان اشعلوا تلك الحرب من أجل السيطرة على العالم ، هذه الاقوال هى ولا شك خلاصة آراء الشعوب التى خاضت تلك الحرب ، وقد تركزت وتبلورت فى أقوال رؤساء حكوماتها وقادة الرأى فيها ، ومهما اختلفت هذه الاقوال فى الصيغ فانها تتفق فى المعنى ، وهو ان الحرب الكبرى الماضية قامت قبل كل شيء على الفكر

والكلام عن تأثير الحرب الكبرى في تعديل المزاج النفسي العام أمره معلوم ، ويكفى أن نرجع البصر كرتين الى ما كنا عليه قبل هذه الحرب القائمة ثم نقارن هذا بما كان عليه المجتمع قبل عام (١٩١٤) حتى يطالعنا ما نزل بالمجتمع من هزات عنيفة وانقلابات كبيرة في نظمه السياسية وفي أوضاع الأدب والفن بل في مناهج التعليم

***

نرى مما تقدم ان الحرب التي تقوم على تغيير الاوضاع الاجتماعية بعد ان يتحول المزاج النفسي العام يجب أن يتوافر فيها :

(١) أن تكون حربا قامت في أذهان الناس قبل أن تنتقل الى ساحة القتال وان يكون مثارها صراع المبادىء والعقائد ، فهي والحالة هذه ، تهدف الى تحقيق رسالة معنوية قبل أي اعتبار آخر

(٢) أن تنزل هذه الحرب بالمحاربين وغيرهم فوادح التقتيل ، وان تنشر الدمار والبؤس وان تحل بالنفوس خيبة كبيرة في آمال كانت معقودة

بعد ذلك نعالج الحرب القائمة على غرار ما سبق لنستخلص سمات الوجه الذي يطالعنا به الغد

حرب اليوم صراع نظم ومبادىء ونضال عناصر وقوميات ، هي حلقة متممة للحرب الماضية من حيث أسبابها وأهدافها ، وباعتبار أن مظهرها هو النضال القائم بين الديمقراطيات والدكتاتورية • والدكتاتورية نظام سياسي واجتماعي تمخضت عنه الحرب الماضية في ألمانيا وايطاليا ، بعد أن كتب النصر للديمقراطيات ، ومنيت ألمانيا بالهزيمة

والحرب القائمة قد تتفق أيضا مع الحرب الماضية من حيث العناصر والوسائل ، ثم هي تنفرد بعد ذلك بميزات أخرى ، فاذا اتفقت مع الحرب القائمة في انه سيقت من أجلها ملايين من المحاربين ، وحشدت لتموينها جميع الموارد الاقتصادية ، وشمل الصراع فيها أكثر من قارة ، فانها تنفرد بأن أذاها المباشر يستوى فيه المحاربون وغير المحاربين ، وان التدمير ينزل بالعواصم والمدن والقرى والاهلين مثل ما ينزل بالجنود في المخابىء وفي الخطوط المحصنة ، وبأنها تقوم ، ضمن ما تقوم عليه من الوسائل على الضربات الحربية الخاطفة، وعلى النيل من الاعصاب والنفوس بالدعاية الحاذقة والمناورات الدبلوماسية الدقيقة، ثم بذلك التقدم المروع في آلات الفتك والتدمير وسيطرتها على السماء والارض والماء

فاذا أخذنا بالقياس على ما أنزلته الحرب الماضية بالمزاج النفسي العام ، فالامر الذي لا شك فيه أن هذا المزاج النفسي سيكابد هزة جديدة تتغير معها بعض الاوضاع الاجتماعية القائمة

كيف يأخذ المزاج النفسي في التحول ؟

ملايين من الجنود قد أخذوا مكانهم في الصف تحت العلم ، وملايين من المدنيين قد حشدوا

لتهيئة أسباب القتال فيما وراء ساحاته ، هذه الملايين العديدة من البشر قد تركوا حياة عملية كانوا يحيونها ، واضطروا الى هجر بيئات اجتماعية كانوا يعيشون فيها ، وانتظموا فى سلك جهاد عنيف يستلزم التفرغ له والتوفر عليه ، فهم والحالة هذه قد قطعوا مابينهم وبين ماضيهم العملى والعائلى والذهنى مدة طويلة

وهذه الملايين من البشر سيرون بأعينهم المدن والقرى تتقوض ، وسيبصرون مظاهر كل ما ألفوا رؤيته ينمحى أو يغير من سماته ، الانقاض والتغير يملآن السمع والبصر

وقليل من هذه الملايين من الناس سيخرج من هذه الحرب سليم الجسد والعقل ، أما الباقى فبين قتيل وجريح ومشوه ومريض • والاثر المباشر لهذه الحال عميق فى نفسية من يكتب لهم البقاء بعد ذلك ، اذ يحسون بتفكك العرى التى تربطهم بحياتهم السابقة ، فيتراءى لهم الماضى كأشباح تتلاشى فى ضباب • والانسان انما يعيش بماضيه ، فاذا انقطع ما بينه وبين هذا الماضى تغيرت نظرته الى الدنيا ، اذ الماضى كما يقول الفيلسوف برجسون: « هو الشرفة التى نطل منها على المستقبل ، وما الحاضر الا انحناءة الاشراف عليه »

وفوق هذا وذاك فلن تنقضى حرب مدمرة كهذه دون أن تجر وراءها ذيلا طويلا من نكد العيش ، اذ تعصف بالعالم موجات من الشقاء المادى والمعنوى يتطوح أثناءها العالم بين الفقر والجدب والاوبئة والحور والمجد الذى يتضح بالدماء • ولكل هذا تأثير عميق فى الاذهان • هذا التأثير ، وتلك الروعة من رؤية الماضى يذوب ويتلاشى بين أنقاض الحاضر ، وهذه المرارة فى النفوس ، لها اختلاجاتها العنيفة وهزاتها القوية فى واعية الافراد والجماعات ـ والمزج النفسى العام من عناصر هذه الواعية ـ هذه الواعية ستهب بحركة لا شعورية مهيبة بما بين يديها من العناصر ، وبما فرضته الحرب من خصائصها ووسائلها وأساليبها ، وتخلد الى التفكير للخلاص من هذه الحال وصوغ عالم جديد • والتفكير الذى تبعثه حاجة ملحة هى المرحلة التى تسبق العمل النافذ ، والعمل يهيىء الاسباب لتغيير ما هو كائن

المزاج النفسى العام المنتظر ؟

على أى حال يكون المزاج النفسى العام الذى سيعقب هذه الحرب ؟ يجب ان نلم المامة عاجلة بالعناصر التى ستعمل على تكييفه ، وهى عناصر مستمدة : أولا : من خصائص هذه الحرب ومن أساليبها ، ثم من مظاهر الحالة الاجتماعية التى ستعقب الحرب مباشرة ، وهذه المظاهر قد اجملنا شرحها فيما تقدم فلنعالج اذن أبين خصائص هذه الحرب ، وهى السرعة ، والمفاجأة ، ونهكة الاعصاب مع ما يتصل بها من ألوان الدعاية وبهلوانية المناورات السياسية ، والفزع ، ثم الاخذ بالناحية العملية والممارسة دون الناحية النظرية ؟

السرعة أمرها معروف ، وقد ألفنا أثرها من جراء الحرب الماضية فى تبديل مظاهر التفكير وتغيير أوضاع الاجتماع ، ولما تبلغ شأوها البعيد الذى بلغته فى هذه الحرب

والمفاجأة فى انزال الضربات الحربية غير المنتظرة ملء أسماعنا ، وقائمتها طويلة تبدأ بغزو النرويج وتنتهى بهياج بعض العناصر المشاغبة فى العراق

والدعاية والبهلوانية السياسية من جانب دولتى المحور ، أمر يقرع آذاننا ويلعب بنفوسنا على الوجه الذى نستقبلهما به

وحرب الاعصاب من جراء الدعاية التى تشن علينا غدت مرضا اجتماعيا جديدا

والفزع من الغارات المفاجئة قد أخذت له أعراق تمتد الى كل قلب

أما الاخذ بالناحية العملية دون الناحية النظرية فى الامور فأمر فرضته طبيعةهذه الحرب التى أوقفت الدول الديمقراطية المحاربة فى مواقف النزال ومواجهة الامر الطارىء من غير تمهيد ومن غير أن تعبأ بالاحصائيات الضخمة التى كانت ترسم مبلغ قوى جيوش الدكتاتورية ووفرة عتادها ، ولكن الامر الواقع لم يلبث ان دحض الخطط العملية التى انتهجتهاجيوش الديمقراطية الخطط الحربية النظرية لدى قوى دولتى المحور ، وبهذا أثبتت الحرب القائمة ان الخطط والاحصائيات الحربية المرسومة على الورق لا قيمة لها ، وان العبرة انما بالعمل القائم على الممارسة،ولو أخذت انجلترا وحلفاؤها بتلك الاحصائيات لاحجمت عن دخول هذه الحرب

***

هذه هى أبين مظاهر المزاج النفسى العام المنتظر ، كما تفرضها عناصر الحرب القائمة وخصائصها

وقد نضيف اليها مظهرا آخر مأتاه الحالة الاجتماعية التى ستلى الحرب مباشرة ، وهى حالة قلنا انها سيجفوها الرخاء والغبطة وسيسودها اليأس والخور . لهذا نميل الى التقدير بأن هذه الحالة المقبلة ستعمل على ظهور آراء فلسفية متشائمة تأتى علىغرار آراء الفيلسوف الالمانى « شوبنهور » أو ما يقاربها ، وهو الفيلسوف الذى تأثر فى آرائه بما كانت عليه أوربا عقب الثورة الفرنسية وحروب نابليون من دمار وبؤس وخيبة فى الآمال بعد ان طمح الناس طويلا الى عالم جديد ذى مستقبل ذهنى زاهر يأتى بعد هذه الثورة التى شعارها الحرية والمساواة والاخاء

زكى طليمات

اتحاد شعوب اللغة الانجليزية

هل تؤلف بريطانيا وامريكا شعباً واحداً؟

للاديب الامريكي المشهور روبرت شيرود

نحن نستعد الآن للحرب ، فدعنا نتأهب كذلك للسلم

وانا نعرف من هم أعداؤنا ، ونعرف ماذا علينا أن نحارب ونكافح ، وإن كنا قد نعنى من مهمة النزال فى ساحة القتال . ثم انا نعرف أن ما ستأتى به أحداث الشهور القليلة القادمة أحد هذه الامور الثلاثة :

إما نصر عاجل يفوز به هتلر ، وعندئذ يصير المستقبل واضحا معروفا لكل من يعنيهم الامر ، فلا حاجة بنا عندئذ الى التفكير فى وضع الخطط ، وإبداء الآراء ، فسيلقيها علينا من بيده الزمام وعلينا الطاعة والتنفيذ

وإما نصر حاسم تفوز به بريطانيا ، وهذا لا يتأتى إلا بسلسلة من المعجزات ، منها ثورات تشب فى جميع أوربا ، ومنها انهيار النظام النازى فى داخل المانيا . ويحق لنا أن نؤمل فى وقوع هذه الاشياء ، الا أن من الطيش أن نعتمد عليها كثيراً

وإما أن تستمر الحرب سجالا ، وهذا أكثر الامور احتمالا فى هذه الآونة ، فسيظل رأس بريطانيا جريحا داميا ولكن هامتها مرفوعة شماء ، وسيظل هتلر يسيطر على قارة أوربا ، وربما استطاع أن يوسع آفاق امبراطوريته فى آسيا

ونحن الامريكيين نحاول الآن أن نتأهب لأى حادث يحتمل أن تأتينا به الأيام ، بالتسلح بكل ما يمكن من العتاد وفى أسرع ما يمكن من الوقت . ولكن أعمال الدفاع الآلية الضخمة ليست الا وسائل مؤقتة للتهويل والخداع ، اذا لم يكن من ورائها شعب له « غرض » يذود عنه ويضحى له ويسعى اليه سعى الفداء . وليس لنا فى هذه الساعة « غرض » ما سوى المحافظة على الحال الراهنة دون تغيير أو تعديل ، وهذا لا يغنى شيئا ولا يجدى نفعا ، وانما يجب أن نفكر لا فى نطاق الشهور الآتية قريبا ، ولا فى حدود السنين الزاحفة علينا ، بل فى الاجيال والقرون القادمة . وأن نكون فكرة جديدة عن العالم الجديد الذى سنحيا فيه ونخلف اليه من بعدنا أولادنا وأحفادنا

وعقيدتي أن أهدى الطرق الى هذا العالم الجديد ، وأصح الخطط لانشائه ، وأقوى الوسائل الكفيلة بتدعيمه ، هو اتحاد الولايات المتحدة الامريكية مع الوحدات الست المستقلة التى تتألف منها الامبراطورية البريطانية ، وهى المملكة المتحدة ، وايرلندة ، وكندا ، واتحاد جنوب أفريقية ، وأستراليا ، ونيوزيلندة

قد يبدو هذا الرأى للمتشكك المرتاب خيالا جديداً على نسق ذلك الخيال الذى ساور ويلسون فى الحرب الماضية . إنه ليس كذلك . إنه الطريقة العملية لتحقيق زعامة عالمية جديدة ، هذه الزعامة التى ألقيت أعباؤها على عواتقنا ، سواء قبلناها أو رفضناها ، سواء رغبنا فيها أو كرهناها

لو كنا ـ نحن الامريكيين ـ نعيش فى هذا العالم وحدنا لجاز لنا أن نفكر فى العزلة بأنفسنا وراء حائط من الحديد . أما والعالم الذى يتكلم اللغة الانجليزية من القوة والضخامة الى درجة تمكنه من الحفاظ على مثل حياته المادية والمعنوية ، فلا حاجة به الى عزلة ترهقه فى مستقبل تاريخه عسراً وشراً . إن أرجاء هذا العالم الانجليزى تترامى فى قارات العالم وبحاره جميعا . تتوسطه أمريكا التي يجب أن تكون مركز سياسته الخارجية والحربية . وليس لهذا العالم أن يتدخل فى أى شأن يتعلق بقارة أوربا . وحسبه أن يؤلف قوة ضخمة جبارة ، تنتشر فى جميع المحيطات ، ويمتلك زمامها مائتا ألف ألف نسمة ، يتكلمون لغة واحدة ، ويؤمنون بالمبادىء الأساسية الثلاثة : الحرية والعدالة والسلام

تشرشل يتحدث عن هذا الاتحاد

تقوم بالأمر فى « اتحاد شعوب اللغة الانجليزية » حكومة منظمة على أساس التمثيل النسبي ، فيكون للولايات المتحدة فيها أغلبية الأعضاء ، إذ يمثلها ثمانية أفراد مقابل خمسة يمثلون سائر الشعوب الانجليزية . وسيظل لكل دولة فى هذا الاتحاد أن تستقل بجميع شئونها ، فترفع لواءها الخاص ، وتختار حكامها ، وتنظم ضرائبها ، وتشرع وتنفذ قوانينها ، وتحفظ مالها من العادات والتقاليد . بل سيكون لها مطلق الحرية فى أن تكره جميع الشعوب الأخرى اذا كان هذا الكره يروى غلتها ويريح قلبها

(وسيوضع هذا الشرط رعاية لعواطف الشعب الايرلندى !) ولكن تشترك جميع هذه الشعوب المتحدة فى حجر الزاوية من بنائها ، وهو « حقوق الانسان »

هذا هو الطريق الميسر الممهد الى هذا العالم الجديد . وهذه هى الوسيلة التى تلائم العقل وتلائم التقدم الانسانى . ذلك أن هذا الاتحاد قائم أولا على قاعدة اقتصادية سليمة ، فكل من الامبراطورية البريطانية والولايات الامريكية أكبر وخير عميل للاخرى . ثم هناك أمر آخر أهم شأنا وأنفذ

أثراً ، هو أن العروة الوثقى المعقودة بين الوحدتين العظيمتين لا سبيل الى انفصامها لأنهما يتكلمان معاً لغة شكسبير . .

في العصر الفيكتوري ، عند ما كانت انجلترا متكبرة جبارة ، كان اقتراح مثل هـذا الاتحاد لا يثير بين ساستها أدنى اهتمام . ولكن عند ما أخذت شمسها في السنين الأخيرة تتجه الى الغرب في شروقها وتألقها ، بدأت تتبين أن سياستها القديمة القائمة على توازن القوى في أوربا كادت تشرف بجميع ملكها على شفا الدمار . وهذا ما اعترف به هذا السياسي البعيد النظر النافذ البصر، تشرشل ، في خطاب عميق المغزى القاه في مجلس العموم ، إذ قال :

« لا ريب في أن معنى هذا العمل ـ نعني التنازل لأمريكا عن بعض القواعد الانجليزية في نصف الكرة الغربي ـ هو أن هذين الشعبين العظيمين اللذين يتكلمان اللغة الانجليزية ، هـذه الامبراطورية البريطانية وهذه الولايات الأمريكية ، سيندمجان معاً إلى حد ما في بعض شئونهما التماساً للفائدة المتبادلة وتحقيقاً للمنفعة العامة . واني إذ الق نظري الى المستقبل لا أرى من جانبي أية صعاب أو شكوك تعوق طريق هذا الاندماج ، وليس في وسع أحد أن يوقف التيار الدافق الذي سيحملنا اليه قريباً . ان هذا العمل يسير في طريقه سير المسيسبي في مجراه ، سيراً مطرداً متدفقا ، فدعوه يطرد ويتدفق ، حتى يغمر فيضه الذي لا تدافع أمواجه أرضاً أوسع آفاقا ، فتنبثق اذاً أيام أجمـل وأرغد من أيامنا . . هذا هو الرأي العظيم الذي يجب أن نقدره بكل ما يستحقه من العناية الفائقة ، فان الذي يبديه هو رأس الحكومة البريطانية حين كان يتحدث الى الصفوة المختارة من الشعب البريطاني »

إن تشرشل نصف أمريكي من جهة مولده ، وهو مؤرخ يعرف دقائق التاريخ الأمريكي . ثم هو يكاد يستشف حجب المستقبل ويتنبأ بما في ثناياه . وهذه الصفات الثلاث كفيلة بأن تعرفه جيداً أن الأمريكي يؤمن بهذا السؤال الذي القاه « واشنجتون » في خطبة الوداع ، وهو : « لماذا نزج بأمورنا وسط أمور أي جزء في أوربا ؟ لماذا نلق بسلمنا ورخائنا في هذه الشباك التي تنصبها أوربا من الجشع والتناحر والهوى والتحامل ؟» يعرف تشرشل ذلك جيداً ولهذا فهو يقرر أن بريطانيا ذاتها يجب أن تسير على رأي واشنجتون في المستقبل كما سارت عليه أمريكا في الماضي ، أي يجب أن تنأى بنفسها عن قارة أوربا ، وتتخذ لها مركزاً جديداً في العالم الجديد . إن تشرشل لا يتكلم عن أمر لا سبيل اليه وهو استدراج أمريكا الى شعاب أوربا . بل عن عمل لا غنى عنه وهو اتحاد مجموعة الممالك البريطانية مع الولايات الأمريكية

بريطانيا وامريكا ابتكرتا الحرية

إن تشرشل ـ كروزفلت ـ فاز بالزعامة برضى الشعب واختياره . فهو ثمرة نظام نشأ ونما

خلال سبعة قرون ، فوسط ظلام القرن الثانى عشر عند ما كان عهد الاقطاع يضطر شعوب أوربا أن تجثو على أيديها كما تسعى الماشية التماساً للقوت من أكف السادة الأمراء ، كان أبناء بريطانيا يثورون ويطالبون بحق عظيم ، هو حق التقاضى أمام محلفين عدول ، وقد ظفروا بهذا الحق ، ولم ينزل عنه أبداً . ثم فازوا بدستور - الماجنا كارتا - يقيد سلطة الملك ويخول الشعب كثيراً من حسن الحكم . ثم عززوا حقوقهم ووسعوها حتى أقاموا حكومة برلمانية تقوم بارادتهم وتخضع لرقابتهم . وفى القرن السابع عشر كان شاعرهم ملتون أول من تحدث عن حق الانسان فى « حرية الكلام »

وكذلك الشعب الأمريكى يعرف معنى الحرية منذ نشأته الأولى ، ففى القرن الثامن عشر ثار وحارب لها حتى ظفر بها . ويجب أن تذكر دائماً ما لا يذكر الا نادراً ، وهو أن الأعضاء الانجليز فى مجلس العموم الانجليزى كانوا يقولون وينادون إبان هذه الحرب الأمريكية : أن الأمريكيين يحاربون دفاعاً عن الحرية الانجليزية كما يحاربون دفاعاً عن حرية أنفسهم . فايثار الحرية وصيانتها إذاً من الصفات التى تتميز بها ، وتشترك فيها هذه الشعوب التى لا يعتبر تكلمها بالانجليزية أهم وأوثق ما بينها من الصفات

يستطيع أعداء الحرية أن يذكروا وقائع كثيرة تدل على أن أبناء بريطانيا وأمريكا جافوا الحرية حيناً وأنكروها . وفى وسعهم أن يتخذوا من معاملة الارلنديين وهنود أمريكا أمثالا يضربونها ويرددونها . ولكن ثمة أمراً هاماً لا سبيل الى انكاره أبداً ، هو أن فى كل جزء من أجزاء العالم الذى يتكلم الانجليزية لم تسفه الحرية ولم تزدر يوما ما كما سفهت وازدريت فى المانيا يوم تولاها هتلر ، حين كان التلاميذ الصغار والرجال الكبار ينشدون معاً : انى أبصق على وجهك أيتها الحرية !!

إن بريطانيا وأمريكا حاربتا ودميتا ذوداً عن الحرية ، ونشراً لها فى ربوع الارض ، وإذاعة لها بين كثير من الأجناس ، فهؤلاء الفرنسيون فى كندا هجروا وطنهم حين كان شعبه يرزح تحت سطوة البربون ، وكانوا جماعة من غلاة المتدينين الذين يسلمون أمورهم لزمام القضاء ، دون أن تسودهم فكرة العنف أو التمرد ، وكانوا بنجوة من تأثير فولتير الساخر وروسو الثائر وتعاليم الثورة الفرنسية المجتاحة . ولكن لم يمر بهم قرنان تحت اللواء البريطانى حتى نضج فيهم وثار بهم روح الحرية عنيفاً فائراً ، إثر ما نفذ اليهم من بريطانيا التى تتولى أمرهم ومن أمريكا التى أحسنت مثواهم . نعم ، قد يكون تطور قضية الحرية فى بريطانيا وأمريكا بطيئاً وانياً ، ولكنها تفيض رويداً فيض النهر زاخراً دافقاً ، وان آفاقهـا تتسع كلما اتسع نطاق الثقافة ، وان نموها ليزداد عمقاً كلما مرت بها التجارب

قد يدعى أعداء الحرية ان كل ما يقال عن الحرية التى نؤمن بها وتدافع عنها الشعوب التى

تتكلم الانجليزية ليس إلا نفاقا ورياء ما بقيت الهند والفلبين تحت سيطرة بريطانيا وأمريكا فهل لنا أن نسائلهم : أكان يباح لزعماء من قبيل غاندى وكزون أن يعيشوا فى الهند والفلبين لو ان هذه الاقاليم وقعت فى قبضتهم العاتية ؟ وهل يمكن أن نتخيل أمبراطورية هتلر المنشودة تسمح بمثل هذه الحقوق والحريات التى تخولها الامبراطورية البريطانية لممتلكاتها ومنها حق الانفصال والاستقلال ، إما أن النازى يقولون إن هذه الحريات الشائعة فى بناء الامبراطورية البريطانية هى من علائم ضعف الديمقراطية وتخاذلها ، فلو صارت المانيا « الدولة السائدة » لما اعترفت لأتباعها بأى حق من الحقوق ولا أباحت لهم أية حرية من الحريات

ان فكرة الاتحاد بين بريطانيا وأمريكا ليست جديدة مبتكرة ، بل قال بها بعض الساسة والمفكرين منذ عهد بعيد ، فحين ظهر فى أثناء الحروب النابليونية أن فرنسا غدت « الدولة السائدة » على أوربا ، وأن سياسة انجلترا الخاصة بتوازن القوى فى القارة صارت لا تثمر نفعاً ، وأن الفرنسى الجبار قد يفكر فى نشر نفوذه عبر المحيط الى أمريكا ـ حينئذ اقترح جيفرسون اتحاداً ـ بل زواجاً على حد قوله ـ بين بريطانيا وأمريكا . ولما أعلنت الولايات المتحدة ـ بعد اتفاقها مع الحكومة البريطانية ـ مبدأ مونرو قال ماديسون : « بتعاون جيش بريطانيا وأسطولها مع جيش أمريكا وأسطولها ، يحق للقارة الأمريكية ألا تخشى بأساً من سائر العالم . وفى هذا الصراع العنيف المحتدم بين الحرية والطغيان نكل لبريطانيا وأمريكا معاً مهمة الحفاظ على الحرية فى نصف الكرة الغربى على الأقل » . وهذا الذى قيل منذ عهد بعيد هو مانعيده اليوم مرة أخرى

الاتحاد : عبقرية أمريكية

وضع بنجامين فرانكلين ـ أبو السياسة الامريكية ـ أساس علائقنا بالخارج . وكان هذا الرجل ذا عقل عالمى واسع الآفاق . وهو الذى يقول : « اللهم اجعل حب الحرية وتقديسها ، ومعرفة حقوق الانسان ورعايتها ، تسود جميع شعوب الأرض ، حتى يستطيع الفيلسوف أن يلقى رحله أين شاء من ربوعها فيقول : هذا وطنى »

وكان حلم فرانكلين أن تخلص أوربا من هذه الآثار السيئة التى خلفها فيها عهد الاقطاع ، آثار القومية المتعصبة المتغالية العنيدة . وهذا هو الحلم الجميل الذى يتراءى لأمريكا وتود أن يتحقق يوما ما ، فتكون « اتحاداً » أكمل صورة من اتحادها الراهن وأوسع نطاقا ، أى تنشىء ولايات متحدة عالمية تكون صورة مكبرة للولايات المتحدة الأمريكية . هذا هو جوهر سياسة أمريكا الخارجية ، وهذه هى الرسالة التى تريد أن تبشر بها العالم جميعا . وقد اتخذت هذا الطريق السوى مدى تاريخها الحديث ولم تنحرف عنه سوى مرة واحدة ، وكان ذلك فى سنة ١٩١٩ عند

ما اضطربت سياستها بين ذلك الخيال المسرف العقيم الذى ارتآه ويلسون للتعاون العالمى القائم على أسس غير واضحة ولا راسخة ، وبين خيال يماثله اسرافا وعقما ارتآه أنصار العزلة ليقيموا بيننا وبين العالم سداً منيعا . وكان هذا الفشل تجربة مريرة قاسيناها طويلا . فقد خاب الأمل الذى علقناه على الخطوة الأولى خطة التعاون العالمى الذى يضمن السلام والرخاء ، وحسبنا أنا نستطيع أن نقبع منعزلين وفق الخطة الثانيه فلم يلبث هتلر أن تخطى أسوار هذه العزلة كما تخطى من قبل خط ماجينو . واليوم ترى أمريكا نفسها وسط معركة الموت لأن بريطانيا قد خاضت غمارها. ذلك أن الأمريكيين يعلمون أنه اذا قهر هتلر بريطانيا فانما يقهر شطراً من أنفسهم ، وانما يهدد مباشرة الجزء الباقى من كيانهم

قد تستطيع بريطانيا بمعجزة البطولة والصبر أن تقف طويلا ريثما تتأهب بالوسائل التى تدفع عنا عادية قارة أوربا بأسرها . وعندئذ نستطيع أن نقول لها : « شكراً ووداعا . والآن لا يهمنى مصيرك » . ولكنا مع ذلك سنواجه حينئذ مسائل أخطر وأقسى ، فانه اذا تحطمت قوى بريطانيا وجب علينا أن ننشىء قوى تماثلها . فعلينا أن نجند شباننا ورجالنا كرها ، وأن نكرس أكداس المال كل سنة ليكون الدفاع سياستنا الدائمة ، وعلينا أن نتخلى عن شعور الأمن والسلام الذى نعمنا وعملنا تحت ظلاله دهراً طويلا . إنا لا نريد هذا المستقبل المظلم . فليس الاستعمار من أهدافنا . إنا لا نقبله ولا نسيغه بحكم تاريخنا وطبيعتنا . إنما تنحصر عبقريتنا فى « الاتحاد » ، والتجربة الناجحة التى وحدت ثلاث عشرة ولاية — وكانت فى بادىء الامر ثمانى وأربعين ولاية — هى المنحة العظيمة التى تقدمها أمريكا لحركة التقدم الانسانى

لسنا نريد باتحادنا مع الامبراطورية البريطانيــة أن تصلح العالم بمبادىء الاخلاق ولا بقذائف المدافع ، ولا نريد أن نرسم لأوربا خريطة جديدة فى فرساى أخرى ، بل ما نريده هو أن نكفل سلامتنا مدى مائة أو مائتى سنة — وما أعظم ما تقطعه الحضارة من أشواط التقدم فى هذه الفترة الطويلة اذا عاش هذا الجزء الكبير من العالم آمناً ...

ونستطيع فضلا عن هذا أن نوقظ هتلر من حلم السيادة على العالم التى يريدها بايقادالثورة فى جميع أقطاره . فان هذا الاتحاد سيريه ان كل ما يعقده من الأواصر مع الدول الطاغية فى أوربا وآسيا لا خير فيه ولا جدوى ما بقينا قابضين على زمام الامر فى البحار . وأهم من ذلك أن نثبت للشعوب المقهورة المكبوتة ان الديموقراطية تنطوى على قوة فعالة تكفل لها الحياة والنصر ، وانه ما يزال على الارض قوة جبارة موحدة تريد أن تنشر على ربوعها سلاما عادلا لا يقوم على أساس من التخدير والخداع ، ولا على أساس الحالة الراهنة . ويجب ألا ننسى أن « عزلتنا » كانت أهم عامل فى هذه الحالة ، فاذا كنا قد نبذنا هذه العزلة ، فيجب علينا ألا نعود اليها يوما ما

[خلاصة مقال للاديب المسرحي الامريكى روبرت شيرود فى المجلة الامريكية لايف]

فن القيادة

الصفات التي يجب توفرها في القائد العام

للجنرال سير ارشيبالد ويفل

في عام ١٩٣٩ ـ قبل نشوب الحرب الحاضرة ـ ألقى سير ارشيبالد ويفل القائد العام للقوات البريطانية في الشرق الأوسط ثلاث محاضرات في جامعة كمبردج عن « القواد وفن القيادة » . ونحن ننشر فيما يلي ترجمة المحاضرة الأولى من تلك السلسلة القيمة

حينما أوليتموني شرف القاء هذه السلسلة من المحاضرات ، اخترت أن أطلعكم على بعض الملاحظات العامة عن القواد وفن القيادة بدلا من التحدث عن موقعة حربية بذاتها أو حقبة معينة من التاريخ ، لأني شعرت أن ذلك يساعد على إيضاح ما أرغب في عرضه عليكم من نقط خاصة بدراسة التاريخ الحربي ، أكثر مما يساعد عليه التحدث عن حرب معينة

إن نسبة ضئيلة منكم قد تصل الى مراتب القيادة ، ولكن الكثيرين منكم قد يحاربون ويقاسون أو يصلون الى النصر تحت إمرة القواد ، بل انكم جميعاً قد تواتيكم الفرصة لنقد القواد ، لذلك أرغب أن يكون نقدكم مستنداً ـ بقدر الامكان ـ الى أساس من المعلومات

إن القيادة ، وخصوصاً القيادة البريطانية ، لم تحظ من الدعاية منذ الحرب الماضية إلا بنصيب ضئيل !

لست أرمي الى الدفاع عن القواد أو التغني بمناقبهم ، ولكني أرغب في شرح الصفات التي لا بد من توفرها في القائد والظروف التي يطلب اليه ممارسة مهنته فيها

ما قاله سقراط

بينما كنت أحاول أن أحدد لنفسي الصفات الجوهرية للقيادة العليا ، ألقيت بنظرة على التاريخ لأرى كيف كان الأقدمون يعينون تلك الصفات . فقرأت عدداً من الآراء لطائفة مختلفة من الكتاب فيما يجب أن يتوفر للقائد من صفات حربية وغيرها ، فلم أجد بينها الا رأيا واحداً استطاع أن يصل الى لب الموضوع وقلبه ، هو رأي الحكيم سقراط الذي يقول :

« يجب على القائد أن يوفر لرجاله المؤن وكل ما يلزمهم في القتال من عتاد . وأن يكون له

من قوة التصور ما يمكنه من ابتكار الخطط ، ومن العقلية العملية والعزم ما يمكنه من تنفيذها ، ويجب أن يكون الى جانب ذلك ذكيا قوى الملاحظة ، لا يمل ولا يتعب ، يعرف كيف يجمع بين القسوة والرحمة ، وبين البساطة والحصافة ، وبين الكرم والشح ، وبين الاقدام والتريث ، وبين يقظة الحارس ودهاء اللصوص ! تلك وغيرها من الصفات الطبيعية والمكتسبة يجب أن تتوفر له ، فضلا عما تتطلبه مهنته بطبيعتها من إلمام بالفنون والحركات الحربية ، ذلك لأن جمعا تسوده الفوضى لا يمكن أن يسمى جيشا ، كما لا يمكن أن تسمى كومة من مواد البناء بيتا مشيداً »

ان أول مايعجبنى فى هذا التعريف هو ترتيبه للصفات . فهو يبدأ بالناحية الادارية ، وعندى أنها العماد الحقيقى للقيادة . وهو يضع الفن العسكرى وقيادة القوات فى المعارك فى آخر القائمة ، لا فى أولها كما يفعل معظم الناس . وهو الى ذلك يفرض العقلية العملية والعزم كصفتين من أهم الصفات . بينما تلك السلسلة الطويلة من متناقض الصفات تدل بوضوح على ميدان النشاط الواسع الذى تشمله القيادة ، وعلى تنوع الظروف التى يعالجها القائد ، وحاجته الى القدرة على التكيف تبعا لتلك الظروف

صدمات الحرب

وحتى هذا التعريف الذى وضعه سقراط لا يبرز — فى رأيى — بقدر كاف الصفة الاساسية الأولى فى القائد ، وهى صفة المتانة والقدرة على تحمل صدمات الحرب ، وقد يكون ذلك لأن هذا العامل لم يكن له وجود فى أيام سقراط . ولعلى أكون أقدر على تفسير ما أعنيه بتلك المتانة اذا أنا أوردت لها مثلا عمليا . . .

أذكر أنى فى أيام الشباب سمعت من صديق من رجال المدفعية الجبلية أن لجنة المدفعية كانت تعمد فيما مضى الى تجربة خاصة كلما قدم لها طراز جديد من المدافع . ذلك أن تلك الهيئة المبجلة كانت تنقل المدفع الجديد الى قمة برج تبلغ حوالى مائة قدم فى الارتفاع ثم تلقى بالمدفع من ذلك العلو الى الأرض . فاذا صلح المدفع للعمل بعد هذه التجربة عمدت اللجنة الى اجراء تجاربها الأخرى ، واذا أصابه عطب رفض على أنه غير متين الصنع

وكانت نظرية اللجنة فى هذه التجربة تقوم على أن البغال التى تحمل المدافع الجبلية قد تزل بها الأقدام وتهوى منحدرة على سفوح التلال والجبال ، فيجب أن تصنع المدافع بحيث تستطيع تحمل مثل هذا الحادث البسيط

وكذلك كانت لجنة الاسلحة الصغيرة تختبر البنادق والأسلحة الأوتوماتيكية اختباراً أظنه كان عبارة عن دفن السلاح فى الوحل حوالى ثمان وأربعين ساعة قبل تجربة ميزاته فى الطلق

ولعل ضرورة هذا الاختبار تتضح مما وقع فى الحرب الماضية . فقد وصلت الحملة الكندية الى فرنسا وهى مسلحة ببنادق « روس » ، وهى بنادق ثبتت دقة إصابتها للأهداف فى مباريات الرماية التى تقام فى « بيزلى » فى وقت السلم ، ولكن تعرضها لوحل الخنادق كان يصيبها بالعطب فتتعطل عن اطلاق الرصاص بعد بضع طلقات . ولم تنقض على استعمال هذه البنادق فى الميدان مدة قصيرة حتى رفض الكثيرون حملها وأصروا على التسلح بالبنادق البريطانية

صفة المتانة

وعقل القائد فى أثناء الحرب يدفن ، لا مدة ثمان وأربعين ساعة فحسب ، بل لمدة أيام أو أسابيع ، فى وحل المعلومات غير الوثيقة ورمال العوامل المجهولة ، وقد تصيبه فى أى وقت من الأوقات ـ من جراء حركة فجائية من العدو ، أو حادث غير متوقع ، أو انقلاب فجائى فى الجو ـ قد تصيبه صدمة لا تقل فى قوتها عن صدمة السقوط من ارتفاع ١٠٠ قدم على الارض الصلدة

ان الآلات أو الأجهزة الدقيقة السريعة العطب قليلة النفع فى الحروب . وهذا القول ينطبق على القائد ، عقله وجسمه ، كما ينطبق على قوة الجيش المعنوية والأسلحة والأدوات التى يتزود بها سواء بسواء

ان جميع مواد الحرب وأدواتها ، ومنها القائد ، يجب أن تكون على قدر معين من الصلابة يعلو بها عن حد الكسر . وكثيراً ما قيل إن مواد الحرب البريطانية أصلب من اللازم ، ومثل هذا يمكن أن يقال عن القواد البريطانيين ، ولكن ما أظننا باضافة هذا الجزء الفائض عن الحد اللازم من الصلابة الا ملتزمين جادة الصواب

لقد قام الجدل فى بعض الأحيان لمعرفة هل الحرب « فن » أم « علم » ؟ ولقد لاحظت أنه جاء فى دعوتى لالقاء هذه المحاضرات أن أختار نوعا من « علم » الحرب ، ولو كانت الدعوة موجهة من جامعة أخرى فربما كانت تنص على فرع من « فن » الحرب . على انى لا أعرف فرعاً من العلم أو الفن للمتنافسين فيه مطلق الحرية فى قذف الفنان أو العالم بالحجارة أو فى سرقة أدواته أو تدمير معداته ، وذلك فى الوقت الذى يعمل فيه هذا الفنان أو العالم ـ ودائماً ضد الزمن ـ فى لوحته أو تمثاله أو تجربته . ترى لو عمت هذه الظروف فكم من اللوحات المعروفة أو الاكتشافات العلمية كان يمكن أن يظهر للوجود ؟

كلا . . ليست الحرب فناً ولا علماً . فهى اذا قورنت بما يشابهها مدنياً لا تعدو أن تكون « مباراة » ، مباراة خشنة جداً مليئة بالختل والخداع ، تتطلب ـ كأساس ـ جسما وعقلا متينين

ان القائد يتصرف فى أرواح رجال ، لذلك يجب أن يكون على قدر من متانة العقل يؤهله لتحمل ثقل هذه المسئولية . أما عظم هذا الجهد فيمكنكم تقديره والحكم عليه من الموت الفجائى

الذي أصاب الكثيرين من قواد الحرب الماضية . فاذا قرأتم تاريخ الحروب فتنبهوا الى الهزائم التى كان مرجعها الافتقار الى صفة المتانة

واني أود هنا أن أذكر شيئاً عن الخواص الجسمانية للقائد : الشجاعة ، والصحة ، والشباب . ولا يهمنا المظهر الشخصى ، فلا شك فى أن المظهر المهيب يمكن أن يكون خاصة مفيدة ، ولكن مهرة القواد كأصائل جياد السباق يمكن أن تكون على أى لون أو شكل

أما الشجاعة البدنية فليست عاملا أساسياً فى بلوغ المراتب العسكرية العليا ، كما كانت قديماً أيام كان القتال يدور وجهاً لوجه ، ولكنها ما تزال اليوم على جانب كبير من الأهمية فى تحديد درجة الخطر التى يرتضي القائد التعرض لها حينما يرغب فى أن يرى بعينيه مراحل القتال ، وقد نرى فى الحرب الميكانيكية القائد يتقدم قواته فى القتال أو يستكشف ويقود من الجو

ومن الأمثلة على مبلغ تعرض القواد قديماً لنيران القتال ، قد يهمكم أن تعلموا أن فى هجوم مارلبره على شلنبرج فى إبان معركة بلنهيم قتل من جيش الحلفاء ستة جنرالات وجرح خمسة ، بينما كان بين الألف والخمسمائة قتيل أربعة « ماجور جنرال » وثمانية وعشرون « بريجادير » أو « لفتنانت كرنل »

وهناك قصة طريفة تروى عن أحد مارشالات نابليون ، وهو المارشال ليفيفر ذلك الجندى الشيخ الشجاع الذى أصبح فيما بعد دوق دانزج ، فقد أبدى صديق له من المدنيين حسده على ما يملكه من نياشين وأوسمة ومنزل أنيق وغير ذلك من الممتلكات ، فضاق المارشال ذرعاً بذلك وقال لحاسده :

— اذا كنت ترغب فى امتلاك كل ما أملك فعليك أن تخرج معى الى الحديقة وتدعنى أطلق عليك عشر رصاصات من بعد ٤٠ خطوة . فاذا قدر لك أن تحيا بعد ذلك سلمتك منزلى وكل ما أملك !

واعترض الصديق بطبيعة الحال على طريقة هذه المنحة ، فقال المارشال :

— تذكر انى لم أحصل على كل ذلك قبل أن تطلق علىّ مئات الطلقات من هذا البعد

الشجاعة الهادئة

ولا شك فى أن الشجاعة ، مادية ومعنوية ، من مستلزمات القائد . ولقد امتدح فولتير فى القائد مارلبره « تلك الشجاعة الهادئة وسط المعمعة ، وطمأنينة النفس فى أوقات الخطر ، فهما أعظم هبة تمنحها الطبيعة للقائد » . ومن بين الكتاب الحربيين المعاصرين كاتب لم يكن شديد الاعجاب بالقائد جوفر ، ولكنه اضطر الى تقرير أن هدوءه الذى لا يتزعزع وارادته العنيدة فى أسود أيام الارتداد كان لهما من النتائج ما عوض الكثير من أخطائه العسكرية

ولا شك كذلك فى أن صحة القائد تحتل مكانها من الأهمية ، ولكنها ليست إلا صفة نسبية . فأننا جميعاً نفضل أن يكون فى جانبنا نابليون مريضاً ، من أن ينضم الينا كثير من خصومه أصحاء . فقد يحوى الجسم الضعيف نفساً قوية عظيمة ، كما أثبت ذلك وولف وغيره . ولو عرض مارلبره فى أيام معركته العظيمة على مجمع معاصر من الأطباء لوجدوا جسمه مليئاً بالعلل والأمراض

بعد ذلك تأتى مسألة السن التى تثير كثيراً من الجدل . وقديماً أوضح أحد شعراء الرومان مهازل استخدام الشيوخ فى الحرب وفضائح كبار السن فى الحب ، ولكن ليس من السهل أن نقرر السن التى يبطل فيها خطر القائد على الأعداء أو « الدون جوان » على النساء . ولقد يمكن ذكر هانيبال ، والاسكندر ، ونابليون ، وولنجتون ، وولف ، كأمثلة تدلل على أن أعظم الانتصارات الحربية معقودة للشباب ، بيد أن يوليوس قيصر وكرومويل لم يبدأ أيهما حروبه الجدية إلا بعد أن تخطى الأربعين بسنوات ، ولقد كان مارلبره فى الحادية والستين عند ما أحرز أعظم انتصاراته ، وكانت آخر معارك تورين وهو فى الثالثة والستين أحسن معاركه وأكثرها جرأة . ومولتكه ، وهو أكفأ القواد فى العصر الحديث ، لم يبرز اسمه الا وقد بلغ السادسة والستين ، ولم يؤكد شهرته وذيوع اسمه إلا فى سن السبعين . وكان روبرتس فى السابعة والستين عند ما خرج الى جنوب أفريقا بعد ما أصابه من هزائم ، فاسترد ناصية الحال بتطويقه جيش البوير فى باردبرج وبالاستيلاء على بلومفونتين وبريتوريا . وكان فوش فى سن السابعة والستين على أعظم جانب من النشاط والحيوية والقدرة على الابتكار .

ويجب علينا اذا أخذنا فى المقارنة بالماضى ، أن نذكر أن رجال العصر الحاضر لا يبلغون الاكتمال الا فى سن متأخرة ، فلقد عين ولنجتون وولف ومور وكروفورد وهم فى سن الخامسة عشرة ، واشترك بعضهم فى المعارك لتوه

إنه فى الواقع من المحال مقارنة فضائل الشباب وتوثبه وجرأته بمزايا حكمة الناضجين فى السن وخبرتهم ، واذا كان العقل الناضج ما يزال قادراً على تفهم الآراء الحديثة وتحمل الصدمات المفاجئة وتنفيذ الخطط الجريئة ، فان خبرة هذا العقل وحكمته ترجحان كفته على كفة الشباب : على أنه لا ريب فى أن قائداً شاباً ماهراً يفوز على قائد شيخ محنك ، لذلك كان ميلنا الحديث الى الأخذ بتخفيض السن فى القيادة خطوة فى الاتجاه الصحيح ، حتى ولو أدى ذلك التبكير الى فقد قائد محنك قبل الأوان

الصفات الجوهرية الاولى

لست أظننى فى حاجة الى الافاضة فى الكلام عن الخواص الادبية فى القائد ، فما من قدر من العلم يمكن أن يخلق من الرجل قائداً أو زعيما ان لم يحز هذا الرجل الصفات الطبيعية اللازمة لذلك.

وصفات الزعامة معروفة لديكم . وسأتحدث عنها فيما بعد فى محاضرتى الثانية ، لذلك أقتصر هنا على ذكر الصفات الجوهرية

يجب أن تكون للقائد شخصية ، أى أنه يعرف ما يريد وأن يكون له من الشجاعة والارادة ما يكفل بلوغه ما يريد . ويجب أن يكون شغوفا بدراسة البشرية متفهماً لها ، فان عمله دائم الاتصال بالرجال. على أن أهم ما يجب أن يتوفر فى القائد من صفات هى صفة روح المقاومة والنضال والعزم على الانتصار

انكم جميعاً تدركون ذلك الروح وتتفهمونه فى الألعاب الرياضية ، روح الرجل الذى يلعب أحسن مايستطيع عند ما تنقلب الأمور ضده ، ويهاجم ويكر عند مايبدو انه كان مهزوما، ويرفض على الدوام أن يسلم بالهزيمة

وهناك صفة جوهرية أخرى أريد أن أؤكد أهميتها وأبرزها كالطابع الحقيقى الذى يفرق بين القائد الممتاز والقائد العادى . تلك هى روح المغامرة ، فيكون القائد مشوبا بروح المقامر المغامر . ولقد قال نابليون : « لو أن فن الحرب لم يتكون الا من تجنب الأخطار لكان المجد فى متناول متوسطى الذكاء » . وكان نابليون اذا استعلم عن قائد سأل عن مبلغ حظه فى الحروب ، وكان ما يعنيه طبعاً مبلغ جرأته وشجاعته ، فان القائد الجرىء قد يواتيه الحظ ، وما من قائد يمكن أن يكون من المجدودين اذا افتقر الى الجرأة والشجاعة

ان القائد الذى يتقيد بالأنظمة والقوانين ويرضى بأن تقف فى طريقه ، قلما يربح معركة . وهأنذا أسرد عليكم من تاريخ الحروب البحرية مثلا لذلك

منذ نحو ١٧٥ عاماً كان أحد أمراء البحر ـ وهو من أصحاب الذمة والضمير ولكنه كان على قدر محدود من الكفاءة ـ يروح ويغدو على ظهر سفينة القيادة مناقشاً مساعده ، بينما كان أسطول الاعداء على مقربة منه وتحت رحمته . وكانت النقطة التى يدور حولها الجدل والنقاش هى التحقق من أن التوزيع الذى ارتآه الاميرال يتفق وبعض التعليمات الطويلة المعقدة التى أصدرتها الاميرالية فى ذلك الحين . واستطاع المساعد فى نهاية الامر أن يؤكد مطابقة الخطة للتعليمات ، ولكن أسطول الاعداء انتفع بالوقت الذى ضاع فى الجدل ولاذ بالفرار . وعاد الاميرال بعد ذلك الى الوطن فحوكم عسكرياً ونفذ فيه حكم الاعدام رمياً بالرصاص ، ليكون عبرة لغيره ومشجعا لهم أيضا . فاذا كان هذا الحادث يشجع أمراء البحر على عدم التقيد بالتعليمات والقوانين وقت الحاجة ، فان حياة الاميرال بينج لم تزهق هباء

ولعل من الطريف أن نلاحظ قلة ما تلقاه كثير من أحسن قوادنا ـ أمثال كرومويل ، ومارلبره ، وولنجتون وضباطه ، وجراهام ، وهيل ، وكروفورد ـ من دراسة حربية فى وقت السلم

ميكانيكا الحرب

ها نحن قد تحدثنا عن الصفات الجسمانية والادبية التي يجب أن تتوفر فى القائد ، فلنتحدث الآن عن الصفات العقلية

إن أهم هذه الصفات هو ما يسميه الفرنسيون « الادراك العملي » ونسميه نحن « الادراك العام » وهو معرفة ما يمكن وما لا يمكن من الامور . ويجب أن تقوم هذه الصفة على أساس متين صحيح من الالمام بميكانيكا الحرب : أى الطبوغرافيا ، وحركات القوات ، والتموين . هذه هى الاسس الحقيقية للمعلومات العسكرية ، لا الستراتيجية والتكتيك كما يظن معظم الناس . والافتقار الى هذا الالمام بالاصول الادارية والحركات الحربية ، لا الجهل بالستراتيجية نفسها ، هو ما يجر من نسميهم هواة الستراتيجية الى الخطأ ، إذ أن أصول الستراتيجية يمكن أن يلم بها الشخص المتوسط الذكاء فى وقت قصير جداً

ودعونى أصور لكم ذلك بصورة من الحياة العامة . . .

اذا اعتزم رجل قضاء إجازته فى مكان ما ، فقد يقرر أن مصر مكان ملائم ، وهذا سهل . ولكنه يجب عليه الى جانب ذلك أن يقدر الوقت الذى سيقضيه فى الوصول الى هناك ومصاريف الرحلة ويقارن بين هذا وبين مدة إجازته ومقدرته المالية ، وهذا هو الجزء المعقد الصعب فى الامر

ومن الامثلة السياسية مسألة المتعطلين ، فهناك عمل يتطلب عمالا ، ومن السهل على أى انسان أن يرى لنفسه أنه يحسن أن يعهد بهذا العمل للمتعطلين . ولكن التغلب على المشاكل العملية من تدبير الانتقال والسكن والمال وغير ذلك هو الامر الصعب المعقد

ومن الأسف أن معظم الكتب العسكرية تبرز الستراتيجي والتكتيك على حساب العوامل الادارية . فمثلا هناك عشرة من طلاب المدارس الحربية يستطيعون شرح كيفية الانتصار فى معركة بلنهيم ، مقابل طالب واحد يستطيع شرح الاستعدادات الادارية التى مهدت للمعركة . وفى الحرب الماضية استغرقت الاستعدادات الادارية شهوراً طويلة قبل أن تصبح خطة اللنبي فى الزحف على غزة خطة عملية يمكن تنفيذها . واذا عدنا الى مادلبره وجدنا أن خطته فى أعظم معاركه ــ عام ١٧١١ ــ لا تخرج عن خطة بسيطة قد يفكر فيها غلام ، ولكن قد لا يستطيع تنفيذها غيره من القواد . وبالمثل مناورة روبرتس قبل معركة باردبرج عام ١٩٠٠ ، ومناورة اللنبي فى موقعة غزة ــ بيرشيبا عام ١٩١٧ ، فكل منهما من الخطط البسيطة كالخطة التى اتبعها مارلبره عام ١٧١١ ، ولكنها تستلزم استعداداً طيبا دقيقا لتنفيذها . وانى لأود أن تذكروا دائما ، عند دراستكم للتاريخ الحربى أو المواقع الحربية ، أهمية هذا العامل الاداري لأنه النقطة التى يخطىء عندها كثير من النقاد والقواد على السواء

القيادة الحديثة

وأخيراً فانى أتساءل هل تدركون مبلغ التعقيد الذى تنطوى عليه العسكرية الحديثة ؟ فاليوم يجب أن يدرس القائد كيفية استخدام القوات الجوية ، والقوات الميكانيكيـة المدرعة ، والمدافع المضادة للطائرات . ويجب أن يعرف القدر الكافى عن اللاسلكى ليحسن استخدامه فى الاتصالات ، وأن يلم بفن التخبئة ووسائل الدعاية ، وأن يطلع ويدرس كل ما جد واستحدث فى الهندسة العسكرية . . كل هذا الى جانب المستلزمات العادية لمهنته

ولا شك ان الاحوال تختلف تمام الاختلاف فى ميادين القتال الحديثة عنها فى الميادين القديمة . ففى معركة مارلبره اختار مارلبره بنفسه مواقع المدفعية وفتش جبهة القتال بأكملها ، ثم جلس ليتناول طعام الغداء فى الميدان تحت نيران المدفعية منتظراً حركة زميله أوجين الذى كان يحتل الميمنة على مسيرة أربعة أميال ، وهى مسافة بعيدة فى تلك الأيام . وكان نابليون فى موقعة استرلتز يرى بعيني رأسه العدو وهو يكشف نفسه للهجوم المضاد المدبر ، فكان فى مقدوره أن يعين اللحظة المناسبة للبدء فى ذلك الهجوم . وعند ما رأى ولنجتون العدو فى معركة سالامنكا يخطىء فى حركاته ، لم يتطلب الامر منه إلا النطق ببعض أوامر شفوية ، ثم التفت فى وثوق الى ممثل أسبانيا قائلا : « يا عزيزى الافا . . . لقد خسر مارمون الموقعة » . وحتى فى موقعة سيدان ـ بعد ذلك بستين عاماً ـ كان فى استطاعة مولتكه وأمبراطوره أن يراقبا اندحار الجيش الفرنسى من فوق تل قريب . أما فى الحرب الماضية فلم يكن فى استطاعة قائد أية كتيبة أن يدفع برجاله الاحتياطيين الى الالتحام ويرى المعركة والموقف مثل ما كان يراه أولئك الأقدمون . هذا فى حين ان القائد لم يكن ليظهر فى الميدان ، بل كان يجلس فى مكتبه ، أو يسير فى قلق فى حديقة أحد القصور القديمة منتظراً بنافد الصبر أنباء المعركة . فاذا ما بلغته بعد طول انتظار كانت فى غالب الأحيان أنباء مضللة

هذا عن الماضى ، ولنتحدث الآن عن المستقبل . هناك قوات جديدة ستشترك فى الحرب الحديثة سواء على الارض أو فى الجو ، لم يعرف بعد مبلغ قوتها ومقدرتها . . . وبعض هذه القوات جرب تجربة جزئية فى الحرب الماضية ، ولكن أدخلت عليه بعد ذلك تحسينات عدة ، وبعضها لم يبدأ فى تحسينه إلا أخيراً ، وبعضها لم يجرب حتى الآن

فالقائد ـ أو قل النابغة ـ الذى يستطيع بقوة تصوره استخدام القوات الجديدة بنجاح سيسجل اسمه بين الخالدين من القواد . ولكنه لن يصل الى هذا المجد بسهولة

لنفكر فيما سيواجهه وما يلزمه من صفات . ان هذا القائد سيقود على الارض قوات تتحرك بسرعة وتذهب الى مدى أكبر بكثير من سرعة ومدى أقوى فرق الفرسان التى عرفت فى الماضى ،

أضيفوا الى ذلك ضرورة درسه لستراتيجي والتكتيك البحرى فضلا عن ستراتيجى وتكتيك الفرسان

انصور موقفه فى المعركة والسرعة التى يجب أن يقرر بها حركات قواته ، قد تستمد من موقعة جوتلاند البحرية لا من معارك سهل سالسبرى أو لونج فاللى . ولا حاجة بى الى القول بأنه يجب أن يكون فى مقدوره قيادة القوات الجوية بنفس الخبرة والدراية التى يقود بها القوات البرية

ويبدو لى انه ليس جوهرياً أن يكون القائد الحديث جندياً درس الطيران ، أو طياراً درس الحرب البرية ، ان الجمع بين الاثنين ، لا أحدهما فقط ، هو كفيل النصر فى حرب قادمة . أضف الى ذلك ان دراسة القائد ومعلوماته يجب أن تستند الى أساس متين من الادراك العام ، ومعرفة تامة بالبشر ، الذين على خصالهم وطبائعهم ، لا على الآلات ، تقوم أساس العمليات الحربيـة . وذلك ما سأتحدث عنه فى محاضرتى التالية

ا . ويفل



مثل الأديب العظيم

لم أحاول أن أزعزع يقين رجل ، أو أفسد عليه مبادئه ، ولم أكتب شيئا
أندم عليه وأنا مسجى على فراش الموت «والتر سكوت»

العالم الجرماني

كيف يكون العالم لو سادته المانيا ؟

للكاتبة الامريكية المشهورة السيدة دوروثي تومسون

أعد الالمان خطة واضحة دقيقة يريدون تنفيذها اذا انتهت الحرب الدائرة بانتصارهم . وأعتقد أنى أعرف الدقائق المهمة فى هذه الخطة الخطيرة ، لانى سمعت عنها وتحدثت فيها الى نفر من أعلام المانيا وممن يتصلون بزعمائها ، وهم أولئك الذين أمدونى من قبل بأنباء كثيرة عن الخطط الحربية الالمانية فأثبتت الايام والوقائع صحتها ودقتها ، ولهذا فانى آخذ بآرائهم وأنبائهم فى وصف الدنيا التى تريد المانيا ـ اذا غلبت ـ إنشاءها

وحدة اقتصادية كبرى

ترمى خطة المانيا الى جعل قارة أوربا وحدة « جمركية » لا تقوم فيها حواجز التجارة وأسوار الأسواق ، والى وضعها تحت ادارة مالية واقتصادية كاملة مركزها برلين . وبهذا تنشىء المانيا دفعة واحدة أفسح سوق « للتجارة الحرة » وأكبر « اقتصاد منظم » عرفه العالم حتى الآن ، ففى أوربا الغربية وحدها ـ دع روسيا ـ ستقوم وحدة اقتصادية تتألف من ٤٠٠ مليون نسمة من الجنس الابيض، وكلهم على حظ وافر من المهارة والحضارة وارتقاء مستوى الحياة ، ويمتلكون ـ فضلا عن هذه المؤهلات ـ الموارد الضخمة فى الامبراطوريات البريطانية والفرنسية والهولندية والبلجيكية ، ومن كل هذه الموارد والملكات تتألف أوربا الجرمانية المنشودة

ويرى الألمان أن القوة السياسية تتبع القوة الاقتصادية ، وأن نقيض هـذه القضية ليس صحيحاً . ولهذا فان مساحات الأرض وحدودها لا تعنيهم ، إذ لن تكون ثمة «فرنسا» أو«انجلترا» إلا بالمعنى الذى تدل عليه لغة كل منهما ، بل لن يلقى الألمان بالهم كثيراً الى النظم والأنهاج السياسية، فسيبقى ملك بلجيكا على عرشه وقد يمنح عليه عرش هولندة ، وسيظل موسولينى فى شرفته وفكتور أمانويل فى قصره ، ولكن لن يكون لأى شعب من شعوب أوربا أن يدير نظامه المالى والاقتصادى ، أو أن يفرض على التجارة ما يريد من الضرائب والمكوس

سيكون الضغط الاقتصادى وسيلة المانيا الى صبغ جميع أقطار أوربا بالصبغة النازية . وقد

أنشأت المانيا منذ عهد بعيد العلائق الوثيقة مع جماعات من رجال الأعمال والصناعات الكبرى ليتخذوهم أداة تنفذ هذا الضغط الاقتصادى ، أما من وقف منها موقف العداء والمعارضة فسوف يعاقب « بالمقاطعة » عقابا صارما . وقد أخذت جيوش الالمان فى البلاد التى احتلتها تدمج وتآخى مع الجنود المندحرين ، وتتابعهم بالدعاية الملحة التى توهمهم أن الحرب الالمانية ليست الا ثورة اجتماعية كبرى قامت اليها وساهمت فيها أوربا بأسرها

موقف الولايات المتحدة

أما فيما يتعلق بالولايات المتحدة الأمريكية فان منظمى هذا العالم الجرمانى يضحكون من فكرة الغزو المسلح التى قد تساور بعض الساسة والعسكريين فى أوربا وأمريكا . انهم يقولون انه ما من داع يضطر المانيا الى أن تقف من أمريكا موقف العداء السياسى أو الحربى ارغاما لها على قبول النظام الجرمانى . وحسب المانيا انها ستقفل فى وجه أمريكا باب الاسواق التى توزع فيها الآن ماتنتج من المواد الخام ومن منتجات الصناعة والزراعة ، فتنزل بها راغمة من مكانتها الاقتصادية الرفيعة

وقد أنشأ الألمان فى الولايات الامريكية — كما أنشأوا فى أكثر أقطار الدنيا — علاقات متينة مع كثير من المنشئات الصناعية والتجارية الكبرى ، وهيأوا لها مزايا جزيلة نظير تعاونها مع دور الصناعة والتجارة فى المانيا . وكذلك قرروا أن يرفضوا الأخذ والعطاء مع المنشئات التى يملكها أو يديرها أفراد لا ينظر اليهم النازى بعين الرضى ، فمن ذلك أن تحرم الجرائد التى يملكها ويحررها أناس يعادون النازية من الأموال المخصصة للاعلان التجارى عن المنتجات الألمانية

وهذه هى الطريقة التى اتبعتها المانيا من قبل مع الصحف فى أقاليم البلقان ، ومن المعروف ان وزارة الدعاية الالمانية تستولى على جميع الأموال التى تخصصها دور الأعمال للاعلان التجارى فى الخارج وتتولى توزيعها على الصحف وفق خطتها تجاه المانيا

ولن تكون ثمة قيمة كبرى لرصيد الذهب الضخم المكدس فى الولايات المتحدة الأمريكية . ذلك ان العملة الدولية هى المارك الألمانى الذى تقدر له برلين قيمته وكميته كيف شاءت . وستقوم جميع التجارة الخارجية على أساس المقايضة كما كان الشأن فى بدء قيام الحضارة الانسانية. وسيتطلب هذا العالم الاقتصادى الفسيح كثيراً من المواد الخام ولكنه لن يدفع لها ثمناً سوى بضائعه المصنوعة

أما امريكا الجنوبية فستقهرها المانيا برجال الاعمال لا بقذائف المدافع . فسيواجه أصحاب المزارع الكبرى فيها بسؤالين لا ثالث لهما ؟ أتريدون أن تبيعوا لألمانيا ما تنتجون من اللحم والقطن والمواد الخام مقابل ما نرسله اليكم من الآلات والسيارات والمنتجات الصناعية المختلفة ، أم تريدون أن « تقاطعوا » فلا أخذ ولا عطاء ولا بيع ولا شراء ؟

واذا كانت أوربا هي السوق الأولى لأمريكا الجنوبية — لأن الولايات المتحدة لا تستطيع أن

نشترى منها لأنهما ينتجان أصنافا واحدة متنافسة ـ فان ألمانيا واثقة من فوزها فى هذا الميدان ، وقد بدأت طلائعه منذ عهد بعيد حين أخذت ألمانيا تتدخل تدخلا اقتصاديا نافذاً فى جميع أقطار أمريكا الجنوبية ، وأخصها المكسيك ، مصحوباً ومؤيداً بدعايات سياسية واسعة النطاق

سيطرة ألمانيا

ستكون ألمانيا وسط هذا العالم الفسيح بمثابة « المحرك » الصناعى والاقتصادى ، ويستتبع ذلك أن تستمتع بمزايا جزيلة المنافع . فتعكف فرنسا مثلا على الارض تستنبتها القوت ، على أن يسمح لها بالصناعات الترفية . اذ لا بأس ـ على حد قول الالمان ـ من أن تصنع أزياء السيدات وحقائبهن . ولن تكون لندن يومئذ مركزاً ماليا لأن النظام المالى سيتغير تغيراً شاملا ، بل مركزاً اقتصاديا مهما تحت ادارة النازى وسيطرته

وكذا تيسر لألمانيا أن تجد فى فرنسا أو بريطانيا أو غيرها رجالا يميلون الى النازية ولتهم أمور بلادهم نيابة عنها ، والا فيوضع على رأسها حكام من ألمانيا نفسها ، وبذلك تكون الحركات السياسية فى أرجاء أوربا واقعة تحت أعين الجستابو التى لا تغفل ولا تغفو

كيف تغزى بريطانيا

لا سبيل الى تنفيذ هذا المنهاج الخطير الا اذا خرجت ألمانيا من حربها مع بريطانيا بنصر حاسم . ولا يكون هذا الا بغزو الجزيرة البريطانية عندما تضعف قوتها الحربية وتوشك على التخاذل . وعندئذ ينشىء النازى مجرى وسط بحر المانش من المحتمل أن يمتد من انتورب الى كاليه ، ويكنسون منه كل ما يلقى فيه من الألغام وينشئون على جانبيه حاجزين منيعين من الألغام ، ويجرون فيه قواربهم السريعة حاشدة بالجنود ، تحميها الغواصات فى البحر ونيران المدافع المنتشرة فوقها من الجو ، وستكون هذه المدافع من حجم ومدى لم يعرفا فى هذه الحرب

وقد توجه الكتائب النازية المحشودة الآن فى النرويج لغزو اسكتلندة فى الوقت الذى تسير فيه الجنود لغزو انجلترا . وتستخدم فى هذه الغزوة غواصات وقوارب وطائرات من أحجام ضخمة غير مألوفة

وينزل هؤلاء الغزاة دفعة واحدة فى عشرات من المواقع على شاطىء بريطانيا ، وذلك بفضل القوارب السريعة التى يحمل كل منها مائتين من الجنود ومعداتهم الخفيفة ، ويستطيع أن يعبر البحر بين شاطىء القارة وشاطىء الجزيرة عدة مرات فى الليلة الواحدة

ويقول الألمان إن لندن أيسر مدن العالم غزواً اذا استطاعت جنودهم أن تنزل فى أرض انجلترا . فان الطرق الموصلة اليها خالية من جميع وسائل الدفاع ، ويمتد اليها كثير من الطرق

المهدة الفسيحة المشتبكة فى مفارق واسعة ، فيسهل تسيير فرق الجند فيها وييسر للغزاة اتصالهم وتعاونهم مع بعض . وفوق كل هذه الاعمال الحربية هجمات جوية عنيفة تؤيد جنود الأرض وتنجز لهم مهمة الغزو والاحتلال

الاسطول والامبراطورية

وستكون الجزر البريطانية رهينة فى قبضة ألمانيا لقاء الامبراطورية والاسطول . فمن المرجح أن تقرر بريطانيا اذا توقفت ألمانيا الى غزو أرضها الى تحطيم أسطولها واغراقه أو الى ارساله الى منطقة أخرى يستأنف فيها الكفاح . ولكن الألمان يقولون منذ الآن انه لن يسمح له بأن يتخذ مقراً له فى مصر أو فى كندا أو غيرهما من الأرجاء ، وستكون الجزر البريطانية وجميع سكانها تحت امرتنا ورحمتنا حينذاك ، فنهدم جميع الموانىء ونقطع عنهم القوت ، فاما يرضخون لما نمليه من الشروط واما أذقناهم لباس الجوع والخوف

والنازى يؤمنون بنظام الودائع والرهون ، منذ اتخذوه مع اليهود فاضطر اخوانهم فى الدين فى الأقطار الأخرى أن يفتدوهم بالأموال الضخمة . أى ان العاطفة الكريمة والشعور الانسانى واحساس الضمير ـ كل ذلك صارت وسائل نافذة فى أيدى النازى يتخذونها فى تنفيذ مآربهم

ماذا عن روسيا

وماذا عن روسيا ؟ « إنها لن تغزى ، فليس لألمانيا شأن بنظامها السياسى ، بل سيعمل ويتعاون معها ستالين . وسينصرف همها الى تنظيم وسائل النقل عبر الأرجاء الروسية ، والى زيادة إنتاجها من البترول ، والى استغلال ما تحفل به من المعادن الوافرة والموارد الخصبة . وتحفل روسيا الآن بالمهندسين الألمان ، وهى ترحب بغيرهم اذا تيسر لنا أن نرسل أكثر منهم ، ولا عيب فى النظام الروسى ، وانما هو يتطلب تنظيما نازيا ومهارة فنية المانية ليكون أوفر ثمرة وأجدى نفعاً ، لان « السلاف » تنقصهم روح التنظيم المجدى والأدارة الكاملة »

ويعتقد الألمان أن « الطغام » من العمال والفلاحين لن يقاوموهم ولن يعارضوهم جديا . حتى لو تيسرت لهم وسائل المقاومة والمعارضة ، لأنهم يعتقدون أن الديمقراطيات أرغمت هؤلاء الطغام على أن يفكروا فى الاكل والعمل فحسب دون أن يعنوا بمسائل القومية أو بالحرية الشخصية

وأما ما تخلف من آثار العهد البائد ـ ويعنون به العهد الحالى الذى سيعقبه العهد الهتلرى ـ فلن تقوى على البقاء طويلا أمام ضربات الجستابو . هذا الى أنه ليس من عمل يحجم عنه أبناء البلاد الرأسمالية ما وجدوا فيه مالا وربحا ، فقد علمهم هذا النظام ألا يؤمنوا الا بالمال ، سواء فى ذلك العمال وأصحاب الأعمال

[خلاصة مقال للكاتبة الاميركية الكبيرة دوروثى توسون عن مجلة Readers Digest]

العلم والعالم

العلماء متفائلون

مستقبلنا كما يراه العلماء

هل يدفع العلم بالانسان ، وقد أعده بوسائل الموت والهلاك ، الى حيث يضعف ويهزل ويفنى ، أم لا يزال من أمل فى أن يفتح العلم أمام البشر أبوابا جديدة تزيد فى رقيهم وراحتهم ؟

سؤال وجهنا الى نفر كبير من علماء امريكا البارزين . بعضهم نال جائزة نوبل العلمية وبعضهم فى منصب الاستاذية بالجامعات ، وبعضهم من رجال البحث والكشف فى معاهد العلم ومعامل المصانع الكبرى . فاجمعوا رأيهم على نفى السؤال الاول وأجابوا جميعا على الثانى بالايجاب

جميع هؤلاء العلماء متفائلون : وهم يعجبون من رأى بعض المفكرين فى ان العصور المظلمة تنذرنا اليوم بالرجوع ، اذ هم يرون ان الجنس البشرى مقدم الآن على حياة أجدى وأرغد من حياته الراهنة

فهم يقولون ان أكثر الحروب التى تثور الآن بين الشعوب انما تشب نزاعا على « الموارد الطبيعية » وما تنتجه من مواد الزراعة والصناعة . ولكن فى الافق العلمى من البشائر ما يدل على ان كثيرا من هذه المواد يمكن انتاجه فى المعامل انتاجا علميا صناعيا . فلم لا يؤدى هذا الاتجاه العلمى الى تخليص العالم من شرور الحروب بدلا من اللجوء الى المداومات السياسية أو المواعظ الخلقية ، اذ يتبين الناس حينذاك ان من الغباء ان يقتل بعضهم بعضا سعيا وراء اشياء فى استطاعتهم ان يحصلوا عليها بكميات وافرة من سبل أخرى

ولا يخشى العلماء ان يستهلك ويستنفد الجنس البشرى ما فى الطبيعة من المواد الخام فتقف حركة تقدمه ثم ينكس الى الوراء . وهم يضربون مثلا بالزيت . ومن ما تنتجه الآن آبار الولايات المتحدة الامريكية من « الجزولين » لا يكفيها اذا ظل استهلاكها بمعدله الحالى اكثر من ثلاثين سنة ولكن فى باطنها من هذه المادة ما لو استخرج كله ــ ولو ان ذلك يقتضى الآن نفقات باهظة ــ لكفاها ثلاثة آلاف سنة وكذلك ما فى أرضها من الفحم اذ يكفيها ما يقرب من ألفى عام

هذا فضلا عما يبتكره العلماء من وسائل انتاج هذه المواد كاستخراج الجزولين من القمح والخشب وورق الشجر . وكمية الجزولين التى تستخرج الآن من الزيت الخام ثلاثة امثال ما كان يستخرج من قبل بفضل التقدم العلمى . كما ان القوة التى تتولد من كمية معينة من الجزولين تزداد وتتضاعف يوما بعد يوم بفضل جهود العلماء والمكتشفين

وكذلك الامر فى الزراعة . فيمكن الآن أن تستنبت النباتات بدون حاجة الى تربة الارض فالكيمائى يستطيع ان يزرع الآن شجرة القطن مثلا ، فى حوض مملوء بالماء ، وقد طبق هذا الكشف العلمى الخطير فنجح الى درجة يستعد ينتقل فيها من معامل العلماء الى ساحة الانتاج العملى . والمساحة التى تزرع من أرض العالم الآن لا تتجاوز ١٢ ٪ منها ، فاذا استغلت كشوف العلم فى زراعتها استغلالا تاما ، لاستطاعت ان تمد بالغذاء الكافى ضعف عدد سكان العالم جميعا . فماذا يكون الامر لو زرع سطح الكرة الارضية كله ــ وسيتمكن العالم من ذلك فى يوم قريب أو بعيد ــ واتخذت فى زراعته كل ما يصل اليه العلم من الكشوف ؟

وهذا فضلا عن هذه المواد الغذائية الصناعية التى استطاع العلم انتاجها . ففي المانيا مصانع تخرج السكر من الخشب ، بل تخرج الدهن من الفحم . فكيف يجوز للعالم ان يخشى الجوع يوما ما ، بل كيف يجوز له بعد الآن ان يحارب فى سبيل الطعام ؟!

وعلم الغذاء أو علم الفيتامين ، يتقدم تقدما سريعا ، مما يمكن الانسان من أن يحصل على اكبر كمية ممكنة من الغذاء من أقل كمية ممكنة يتناولها من الطعام . وسيكون للاسمدة التى تسمد بها النباتات أثر كبير فى تحديد ما تشتمل عليه ثمرتها من الغذاء

ويقول أحد هؤلاء العلماء البارزين الذين اشتركوا فى الاجابة : « تصور هذا الرجل الذى لا يكل من العمل ولا يناله الاعياء ، هذا الذى يصل ليله بنهاره دون أن يفقد نشاطه وحيويته . ان الفضل فى ذلك عائد الى انه يختار بوحى غريزته الوانا من الاطعمة تلائم جسمه وتغذيه ويرفض كل ما عداها . وانك لا تعثر على هذا الرجل كثيرا لانه فى كل مائة رجل لن تجد اليوم سوى شخص واحد من هذا القبيل . ولكنا نحن العلماء نسعى حتى نجعل فى كل مائة عشرين أو خمسين ، وقد نستطيع يوما ما ان نرقى بجميع الناس — فيما عدا من يرثون الكسل وراثة — الى هذا المستوى من القوة الكاملة والنشاط الموفور »

واما فى الطب فان مادة « السلفانلاميد » ومشتقاتها قد أتت فى السنين الاخيرة بما يقرب من الاعاجيب فى علاج كثير من الامراض . ومع هذا فالعلماء يعتقدون ان ما ستسفر عنه الاعوام القادمة أهم واخطر مما شهدوه فيما مضى

وهناك ميكرسكوب الذرات الذى يكبرها الى درجة لا يتصورها العقل ، أو يضخمها بما يتراوح بين عشرة آلاف وثلاثين ألف مثل ، ويمكن من التقاط صورة فوتوغرافية اكبر من الاصل بمقدار مائة ألف أو مائتى ألف مرة

هذه أمثلة شتى لما يرجى للعلم من التقدم فى السنين القادمة ، وسيؤدى كل هذا الى راحة الانسان وارتقائه ولا سيما اذ ينقص من كمية عمله حتى قد لا تتجاوز سنين قلائل من حياته وساعات قصيرة من يومه . ولكن هؤلاء العلماء اجمعوا على أمر آخر هو ان التقدم العلمى لا يمكن ان يستمر وينمو الا اذا كفلت للعلماء والباحثين جميع اسباب الحرية ومظاهرها ، حتى لو كان الميدان الذى يعملون فيه بعيدا عن شئون الحياة . ذلك ان الذهن لا يتهيأ له العمل والنشاط والابتكار الا اذا كان مطمئنا الى نتائج جهوده وتقديرها . وقد كانت الحرية التى ظفرت بها أوربا فى القرن الثامن عشر السبب المباشر فى النهضة العلمية الكبرى التى ارتقت بالعالم فى مائة وخمسين سنة رقيا علميا وماديا لم يشهد مثله منذ ظهر الانسان . وما ذلك الا لان العلماء عاشوا فى جو الحرية الذى حث ملكاتهم وارعفها ومكنهم من ان يسموا الى علمهم وبحثهم وكشفهم مطلقين من كل اعتبار

قلة الولد فى فرنسا

الشعوب تزيد وفرنسا تنقص

عندما قال المارشال بيتان ان فرنسا هزمها العدو الداخلى قبل ان يهزمها العدو الخارجى ، عدد بين الاسباب التى أضعفت قوى الشعب الفرنسى وحطمتها « قلة الولد »

فرنسا التى اجتاحت اوربا فى عهد نابليون كانت أوفر دول اوربا سكانا ، اذ كانت تضم ثلاثين مليون نسمة . اما فرنسا التى هزمها هتلر فكانت أقل من جميع الدول المتحاربة فى عدد سكانها . فان اثنين واربعين مليونا من الفرنسيين واجهوا ثمانين مليونا من الالمان ، ثم انضاف اليهم ثلاثة واربعون مليونا من الايطاليين

لقد كانت جميع الشعوب تزداد الافرنسا فكانت فى نقصان

ففى سنة ١٩٣٧ زاد عدد سكان بريطانيا ١٢٦ر٠٠٠ فرد ، والمانيا ٤٧٨ر٠٠٠ نسمة ، وايطاليا ٣٧٦ر٠٠٠ شخص ، واليابان ٨٠٠ر٠٠٠ نسمة ، اما فرنسا فقد زاد عدد الوفيات فيها على عدد المواليد باثنى عشر الف شخص

أدت هذه الحالة الى ان بعض مناطق فرنسا كادت ان تقفر من سكانها . فقد نقص عدد أهليها بمعدل ٤٥ ٠/٠ من مجموعهم . وكانت بعض هذه المناطق ملأى بالكهول والشيوخ ولكنها تكاد تخلو من الصبية والشبان . ونسبة المسنين فى فرنسا تزيد عنها فى اكثر الشعوب اذ ان ١٤ ٠/٠ من أهلها جاوزوا سن الستين .

اما متوسط عدد الاطفال فى الاسرة الفرنسية فلا يبلغ طفلين اثنين ، ذلك ان اكثر الاسر الفرنسية سواء فى المدن أو القرى تصر على الا تأتى بأكثر من طفل واحد ، تهيبا لنفقات الحياة من قبل الأب ، وايثارا للصحة والجمال من قبل الام . وكان معدل اطفال الاسرة الفرنسية فى عهد نابليون اربعة اطفال ، وهذا هو المعدل فى الاسرة الالمانية فى الوقت الحاضر وان كانت المانيا لا تكتفى بذلك وتريد زيادته الى خمسه أو ستة اطفال !

وجريمة الاجهاض لا يعاقب عليها فى فرنسا بالشدة التى يعاقب بها فى جميع الدول الراقية . بل ان فى فرنسا كثيرا ممن يحترفون صناعة الاجهاض وهم يمارسون عملهم فيما يشبه العلانية

هذا هو أهم الاسباب فى هزيمة فرنسا ، ولهذا انشأت الآن وزارة خاصة بشئون الاسرة تدعو الناس الى الزواج وتريد ان تيسره لهم ، وتحضهم على النسل وتريد ان تخفف عليهم أعباء تنشئته ، فما زال الحق للقوى ، والكثرة من اسباب القوة

التقويم السوفياتى

الاسبوع ستة أيام

تسير روسيا الآن على تقويم يختلف عن التقويم الذى يسير عليه سائر العالم . وكانت قبل قيام الشيوعية تتخذ تقويم يوليوس قيصر بينما تأخذ جميع الدول المتحضرة بتقويم البابا غريغورى ، فلما تولى لينين أمر روسيا قرر يوم ٢٦ يناير سنة ١٩١٨ ان يلغى ثلاثة عشر يوما لتسير على نهج الدول الاخرى ، أى اعتبر ذلك اليوم ١٣ ، بدلا من ٢٦ ، من شهر يناير

ولكن روسيا رأت فيما بعد ان تبتكر تقويما خاصا بها ، فقررت يوم اول اكتوبر سنة ١٩٢٩ ان تلغى من الاسبوع يومى السبت والاحد ، وبذلك يكون الاسبوع السوفياتى خمسة أيام فحسب . وظلت السنة اثنى عشر شهرا ولكن جعل كل شهر ستة اسابيع . وتقرر كذلك ان يعمل الناس اربعة أيام من الاسبوع ويستريحوا يوما ، اما الخمسة الايام الباقية من السنة فرئى ان تجعل اجازة قومية عامة . وبذلك تبلغ الراحات الاسبوعية طول السنة ٧٢ يوما فضلا عن العيد القومى ومدته خمسة ايام

وهذا الاتجاه يدل على ان روسيا لا تريد ان تجعل للدين أية ظاهرة قومية . فلم تعد الاجازة الاسبوعية يوم الاحد الذى يذهب فيه المسيحى الى الكنيسة ، ولم تعد الاجازة السنوية متعلقة بالاعياد الدينية المعروفة

ولم يقتصر التغيير على ذلك بل لجأت روسيا الى ما سمته « يوم الاجازة المتحرك » ذلك ان اليوم الذى يعفى فيه المرء من العمل كل اسبوع لم يكن يوما ثابتا كيوم الجمعة عندنا او يوم الاحد فى أوروبا ، بل جعل لكل فرد يوم معين ، وبذلك يكون خمس عدد الناس فى كل يوم خاليا من العمل واربعة اخماسهم قائمين بأعمالهم ، أى لا يتوقف دولاب العمل فى يوم ما توقفا تاما بل يظل ٨٠ ٠/٠ من مجموع المشتغلين قائما

بما يوكل اليهم من الاعمال . ويستثنى من ذلك الايام الخمسة المخصصة للعيد القومى ففيها يعافى الناس جميعا من العمل

وكان كل فرد يعطى بطاقة ملونة باللون الذى يدل على يوم اجازته ، فالاصفر لليوم الاول من الاسبوع . والاحمر للثانى ، والازرق للثالث ، وهكذا . وبذلك يقول المرء لصاحبه مثلا سأزورك فى اليوم الاصفر أو سنذهب معا الى السينما فى اليوم الاسود وما شابه ذلك . ومعنى ذلك أن الانسان يضطر الا يختار اصحابه كيف يشاء بل من بين من يحملون بطاقات تماثل بطاقته فى لونها ! ومن شأن هذا النظام فضلا عن ذلك ان يضعف من الروابط العائلية التى تتأكد من الزيارات المتبادلة فى أيام الاجازات ، اما اذا كان الاخ لا يستريح من العمل الا يوم يكون أخوه مشتغلا به فان صلاتهما تضعف حتى تكاد تزول . ولكن روسيا السوفياتية لا تلقى بالا الى مثل هذه الصلات العائلية لانها من تركة الماضى وآثاره ..

ولكن لم يلبث السوفيت ان تبينوا ان كثرة أيام الراحة بسبب قصر الاسبوع أدى الى قلة الانتاج العام ، فعادوا فى سنة ١٩٣٢ الى تغيير التقويم بجعل السنة ١٢ شهرا والشهر خمسة اسابيع ، والاسبوع ستة أيام ، وأطلق على كل يوم أحد الارقام . فهذا اليوم الاول يليه اليوم الثانى فاليوم الثالث وهكذا .. وجعل سبعة شهور من السنة ثلاثين يوما والخمسة الباقية واحدا وثلاثين يوما على ان يمنح هذا اليوم الزائد اجازة للتلاميذ والعمال على ان يزاولوا فيه التمرينات الرياضية والحربية . وصار يوم الراحة الاسبوعية واحدا للجميع باستثناء من يعملون فى الخدمات العامة كالتلغراف والتليفون والسكك الحديدية ومحطات الماء والكهرباء والغاز وما شاكل ذلك فقد أبقت على نظام « يوم الاجازة المتحرك » وذلك ليستمر العمل قائما فيها باستمرار

على انه فى يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٤٠ قررت حكومة السوفيت ان تجعل الاسبوع سبعة أيام لان ساعات العمل زيدت فى الدول الرأسمالية فازداد تبعا لذلك الخطر المحدق بروسيا الشيوعية فوجب عليها ان تزيد ايام العمل وتنقص أيام الراحة لتشرع فى تهيئة اسباب الدفاع عن نفسها ضد أعدائها الرأسماليين

ومهما يكن فان التقويم السوفياتى تجربة اجتماعية واقتصادية تستحق التفكير الطويل ولاسيما اذا عرفنا ان امريكا معنية منذ سنين بتغيير تقويمها وأن فيها جمعيات كثيرة تدعو الى هذا الاصلاح اللازم وتصدر فى امريكا مجلة كبرى خاصة بالدعوة الى نظام جديد فى التقويم

الرحالة بيرد

يعود من القطب الجنوبى

عاد أخيرا الرحالة الامريكى العظيم «الاميرال ريتشارد بيرد» من الرحلة التى قام بها فى العام الماضى الى القطب الجنوبى . وكانت هذه هى المرة الرابعة التى يذهب فيها بيرد الى هذه الآفاق والمجاهل ، وكانت أولى رحلاته الى القطب الجنوبى فى سنة ١٩٢٦ وقد استخدم فيها الطائرات ، وتلتها رحلة أخرى بعد ذلك بعامين ثم رحلة ثالثة فيما بين سنتى ١٩٣٣ و١٩٣٥ وفيها أقام شتاء كاملا بين صقيع القطب الجنوبى

وقد بدأ رحلته الاخيرة من ميناء فالباريزو فى جمهورية شيلى بامريكا الجنوبية يوم ٢٨ ابريل من العام الماضى . وكانت رحلة رسمية نظمتها حكومة الولايات المتحدة الامريكية ، وأوفدت مع بيرد جمعا كبيرا من العلماء والرحالة وقدرت لها مليونا من الجنيهات وطلب بيرد بعد ذلك زيادة المبلغ بخمسين ألف جنيه لاكمال الرحلة

وعاد بيرد بعد ان توفق الى اكتشاف آفاق

جديدة مساحتها تسعمائة ميل مربع لم تطأها من قبل قدم أحد من الرحالة . وقد ترك وراءه فى المنطقة القطبية تسعة وخمسين من رجاله لاتمام الرحلة مع قيامه بالاشراف عليها بواسطة اللاسلكى وهو مقيم فى واشنجتون

وقد أوفدت فى العام الماضى الى منطقة القطب الجنوبى خمس رحلات مختلفة منهـا واحدة من انجلترا وواحدة من ألمانيا . وتبلغ مساحة هذه المنطقة الآن زهاء ستة ملايين من الاميال المربعة ونقول « الآن » لانها تزداد من حين الى حين بما يبلغه المكتشفون من أراضيها . وهى موضع النزاع بين كثير من الدول التى أخذت كل منها تحدد لنفسها منطقة ما وترفع عليها علمها وتطلب الى الدول الاخرى الا تتعدى عليها وتتجاوز حدودها

وكان الاميرال بيرد قد أعلن انه يمكن ان يستخرج من القطب الجنوبى كميات عظيمة من البترول والفحم تكفى الولايات المتحدة الامريكية مدى مائة سنة كاملة . والآبار والمناجم الحافلة بهذه المواد لا تبعد عن « رأس هورن » التى ينتهى عنده طرف امريكا الجنوبيـة بأكثر من ستمائة ميل ، فمن الممكن بعد قليل ان تستغل هذه المناطق وتستثمر خيراتها

امريكا تتبرع بدمائها

لانقاذ الجرحى فى بريطانيا

تكاد تقطع الحرب بأهوالها كل ما بين البشر من اسباب المودة والتعاطف ، ولكن قد ينبثق فيها من آن لآن علائم تدل على ان العواطف الانسانية لم تزل بتاتا ، ومنها هذه الدماء التى يجود بها الآن الرجال والنساء فى امريكا لاولئك الذين يحتاجون اليها فى بريطانيا من الجنود الجرحى فى ميادين القتال ومن النـاس الجرحى تحت وابل القذائف الجوية

تقدم عشرات الالوف من أهل امريكا دماءهم ليأخذ منها الاطباء كميات يرسلونها فى الطائرات عبر المحيط الاطلنطى الى بريطانيا . وبدأ العمل منذ العام الماضى فى نيويورك حيث يتقدم كل اسبوع زهاء ألف رجل وامرأة . وقد وسع نطاقه لما أبدى الرأى العام سخاءه بهذه التضحية الكبيرة والواقع ان بريطانيا فى اشد الحاجة الى هـذه الدماء فقد ارسلت ذات مرة برقية واحدة تطلب بها الدم من عشرين ألف شخص فى مدى شهر واحد

ولا يصلح كل انسان لنقل الدم منه ، بل يجب أن يكون سليم الصحة وافر العافيـة ، يتراوح عمره بين العشرين والستين ، لئلا يهزل بدنه ويصاب بفقر الدم وآثاره الوخيمة . والرجل السليم يستعيد قوته ونشاطه بعد نقل الدم منه بأيام قليلة . ويستطيع ان يجود بكمية أخرى بعد مضى خمسة اسابيع فقط

ولا يقتصر هذا العمل على مغزاه الانسانى النبيل ، بل كان له أثره فى تقدم البحث العلمى فى هذا الموضوع . ففى الحرب الماضية كانت الدماء تنقل مباشرة من الاصحاء الى الجرحى فلم تكن تجدى نفعا فى كثير من الاحيان لان الدم يفقد قيمته بعد ان يغادر الجسم بأيام قليلة . وليس من المتيسر دائما ان يكون السليم الى جوار الجريح وان يكون دم كل منهما ملائما لدم الآخر . ومن المعروف انه لا يمكن تغذية الانسان بأى دم كيفما كان ، فان الدم البشرى انواع ولا يمكن خلط بعضها ببعض دون التعرض لاخطار قد يكون منها الموت . ولهذا رئى العدول عن نقل الدم السائل والاكتفاء بنقل مادة « البلازما » وهى المادة السائلة التى تبقى فى الدم بعد ان تزول منه الكريات الحمراء والبيضاء . وهذه هى المادة اللازمة لانقاذ الجريح أو المريض اثر ما يصيبه من الصدمات فى ميدان القتال أو تحت

وابل الطائرات أو نتيجة ما يحدث من الانفجارات وما شابه ذلك

هذا الى أن مادة « البلازم » لا تختلف من جسم لجسم باختلاف دمائهما . وعلى هذا يمكن تغذية جميع الاجسام بها دون البحث فى تركيبها وتقسيمها الى انواع واشكال . ويمكن حفظ هذه المادة فترة طويلة تبلغ عدة شهور فيسهل اذن نقلها عبر البحار سواء فى السفن أو الطائرات

وجميع المستشفيات الانجليزية ، ما كان منها ملحقا بالجيوش المقاتلة أو قائما فى ارجاء البلاد ، مزودة بكميات وافرة من مادة «البلازم» واكثرها مستورد من امريكا حيث تقدم ألوف الناس من جميع الطبقات بدمائهم عن طيب خاطر لاخوانهم الذين يجودون بأرواحهم دفعا عن الحياة التى لا ترضى امريكا بديلا بها

تجارة الماس

تنتقل الى مدينة لندن

كانت مدينة روتردام فى هولندة مركز تجارة الماس فى العالم . يقصدها أهل الثراء فى امريكا وآسيا واوربا لشراء زينتهم من الماس . ولكن لما اجتاحتها جيوش المانيا وطائراتها ونهضت الفرقة الخامسة فى المدينة لتأدية مهمتها كانت قطع الماس قد تسربت من المدينة سرا . ذلك ان « اتحاد الماس » الذى يشرف على تجارته فى جميع العالم يتألف من أفراد من كبار الماليين البريطانيين أو المنتمين الى بريطانيا ، فقرر قبيل الغزو الالمانى ان ينقل ما فى هولنده من الماس الى مدينة لندن

ويقال ان احدى موانىء انجلترا استقبلت بين أفواج اللاجئين اليها من ارجاء أوربا عند هبوب العاصفة النازية فى صدر الصيف الماضى رجلا بسيط المظهر مهلهل الثياب ، ولكنه أحدب الظهر ، لا لانه خلق كذلك بل لانه كان يحمل على ظهره كيسا من الجلد محشوا بقطع الماس التى كلف بنقلها من روتردام الى لندن . وهذا الرجل هو احد كبار تجار الماس فى هولندة

ويحسب الناس ان الماس لا يستخدم الا زينة للاثرياء والمثريات . ولكن له منفعة عظيمة فى الصناعات الدقيقة ولاسيما صناعة الاسلحة الحربية . فالبنادق والمدافع والطائرات تصنع من أجود وأمتن انواع الصلب بعد صهره واذابته وصبه فى القوالب الدقيقة المخصصة لاخراج القطع اللازمة لتكوين السلاح . ويجب ان يكون هذا السلاح دقيقا جدا الى درجة تقدر — بوساطة الميكرسكوب — بجزء من عشرة آلاف جزء من البوصة الواحدة . ولا يكون هذا الا اذا كان الصلب المصنوع ناعما مصقولا كالحرير ، ولا يتيسر هذا الا اذا استخدم فى قطعه وصقله مادة اشد منه قوة وصلابة . وهذه المادة هى الماس الذى تصنع منه فى مصانع الاسلحة اسنان المنشار المخصص لقطع الصلب وصقله دون صهره واذابته لان ادخاله النار يفقده شيئا من صلابته . ويقدر ثمن هذا المنشار بخمسة عشر ألف جنيه ، ولكن يقدر كذلك انه يصلح للعمل مدى ألف عام !

وقد استمر تسرب الماس من أوربا الى انجلترا منذ قيام الحكم النازى ، فان اضطهاد اليهود فى المانيا اضطرهم الى الفرار بعد ان باعوا ما بقى لهم من ممتلكات واشتروا بها قطعا صغيرة من الماس يسهل عليهم تهريبها . وكان من وسائل هذا التهريب تجريح الجسم وغرسها داخل الجرح ثم ترك اللحم يلتئم عليها حتى اذا نجوا بها أعادوا فتح الجرح واستخراج الماس منه . وكان الالمان يبيعون حينذاك أكثر ما يملكون من الماس لان اقبال اليهود على شرائه دعا الى ارتفاع اثمانه جدا . ولم يبق بعد ذلك فى ألمانيا كثير من هذه المادة التى تدعو اليها الحاجة فى مصانع الاسلحة وصارت تجارتها مركزة فى مدينة لندن

الحركة الفكرية

حرية الكتب

أثرها في أخلاق الافراد والشعوب

ماذا أفاد الانجليزى من حريته المطلقة فى قراءة ما يشاء من الكتب وقد اتيح له هذا الحق الخطير منذ قرون ؟ هل صار الآن أعقل، واسعد، وأكثر تسامحا وأوفر علما وثقافة ، مما كان قبل ان يظفر بهذه الحرية ؟

أجاب الاديب المفكر الانجليزى ، سير هوج والبول ، عن هذا السؤال فى بحثه الجديد فى « حرية الكتب » فقال : ان أول وأهم ما يعتز به الانجليزى هو « شخصيته الفردية » ، ذلك أن شعوره بأن هذه الشخصية ملك خاص له يتصرف فيه كيف يشاء، هو مصدر ما يشعر به من القوة والكبرياء ومن المرح والتفاؤل . ولهذا يأخذ الانجليزى منذ يتبين وجوده ويبلغ رشده يسعى الى تدريب هذه « الشخصية » وتغذيتها وتقوية دعائمها . وطريقه الى ذلك هو مايستمتع به من الحرية الكاملة المطلقة فى قراءة كل مايريد من الكتب واختيار ما يشاء من ألوان الثقافة

كان الانجليزى فيما مضى محروما من اكثر ضروب الحرية ، فأخذ يخوض المعارك واحدة تلو أخرى حتى فاز بها جميعا . فكان فى حين ما غير حر فى عقيدته الدينية وفى تأدية طقوسها وفرائضها ، وكان مجردا من الحرية السياسية لا يستطيع ان يقوم حكامه ويناقشهم الحساب اذا هم ظلموا أو أساءوا . بل كان مقيد الحرية حتى فى اختيار متعه فلا يباح له منها ما لا تقره الحكومة والكنيسة وما يماثلهما من القوى السائدة ولكنه ناضل وحارب حتى فاز بالحرية المطلقة فى جميع هذه النواحى ، وكان أهمها واجداها « حرية الكتب » أى حرية الكتاب فى اصدار ما يشاءون وحرية الناس فى قراءة كل ماتجرى به الاقلام

ويقرر سير والبول ان اكبر أسباب «الكبرياء الانجليزية » المعروفة شعور الانجليزى بأنه يعيش فى بلد يبيح له أن يعرف كل شيء اذا أراد ، بوساطة هذه الآلاف المؤلفة من الكتب التى تصدر فى جميع الموضوعات ، وتتناول من كل موضوع جميع وجهات النظر المتباينة ، سواء وافقت أو عارضت نظام الحكومة ومجرى السياسة واسس الاقتصاد والاجتماع الموضوعة وغيرذلك من الامور المقررة الثابتة . ذلك ان اطلاق هذه الحرية فى مداها الرحب الفسيح معناه اعتراف القانون ، واعتراف المجتمع ، بان الانجليزى بلغ من الرشد والنضوج والتعقل ما يجعله يفكر فيما يقرأ فلا يقبله على علاته دون نقد ونقاش ، مما يجعله اذن بمنجاة من خطر الدعاية المغرضة الهدامة

ويتساوى فى هذا الشعور « بالكبرياء » جميع الافراد فى الشعب الانجليزى ، حتى من كان منهم غير كلف بالقراءة غير مقبل على الثقافة لنقص فى قدرته الفكرية أو لانصرافه الى العمل والرزق أو لاهتمامه بضروب أخرى من النشاط . ولكن شعوره بأنه يستطيع ان يتناول أى كتاب يشاء يولد فيه روح « الاعتزاز » بهذا الوطن الذى يطلق له الحرية التامة ، والذى يعترف له بنضج الرأى وسداد الحكم والتقدير

لقد صدرت فى الادب الانجليزى كتب كثيرة تعد بلا ريب خطرا على الدولة ، بما تبثه من آراء تناقض اسلوب الحكم ونظام الحياة فى انجلترا ، نذكر منها قصتى شكسبير « كوريولانوس »

و « يوليوس قيصر » ، وكتاب الشاعر بوب « موضوع عن الانسان » ، وقصة الروائى ديكنز « أوقات عصيبة » ورواية القصصى ثيكرى « كاثرين » وقصيدة الشاعر شيلى « الملكةماب» وغير ذلك كثير من الآثار التى امتازت بالعنف والجموح والثورة ، ومع هذا لم تلق أيةمعارضة فى اصدارها واذاعتها على ملأ القراء . نعم ، تعرضت امثال هذه الكتب فى عهود شارل الاول وكروموبل الى شىء من الرقابة والتقييد ، ولكن سرعان ما تبين الانجليزى بغريزته الملهمة انهذه القيود تأتى بنقيض ما فرضت له ، فما ان يمنع الكتاب أو يحرق حتىيتهافت الناسعليه ويأخذون بما فيه ، وقد انساهم الاضطهاد ما قد يكون فيه من الاخطاء والاوهام

عالم ديمقراطى

كيف تؤمن جميع الشعوب بالديموقراطية

ألف نفر من كبار الاساتذة والمفكرين فى امريكا مجمعا للبحث فى شئون الديموقراطية بحثا يرمى الى تخليصها مما لا تزال تعانيه من المثالب والسيئات ، والى تقوية دعائمها ليتيسر لها الثبات امام ما يوجه اليها من الصدمات ، والى الدعوة الفكرية لها حتى تعم شعوب العالم جميعا

وقد أصدر هذا المجمع كتابا سماه « مدنية الانسان » ومع ان عدد صفحاته لا يزيد عن المائة الا قليلا الا انه قد ساهم فى تأليفه سبعة عشر من كبار اساتذة الجامعات والكتاب المعروفين ، وكل منهم يمثل لونا خاصا منألوان الثقافة والتفكير، ومنهم الاديب الالمانى توماس مان والكاتب الايطالى جاتينيو سالفينى وغيرهما من أدباء الديموقراطية ومفكريها

يرى هؤلاء الكتاب ان لا بد من اقامة « ديموقراطية شاملة » تنهض على أسس يرضاها جميع الافراد والطبقات فى الامة ، ويرضاها جميع الشعوب والحكومات فى العالم بأسره . ولا تخرج هذه الاسس عن ثلاثة أمور :

أولا ، اقامة هيئة كبرى ، لها ما يقرب من سلطة الحكومة ، ويسرى أمرها على جميع الدول وتساهم فيها جميعا على قدم التسوية بينها

ثانيا ، تنظيم الدولة تنظيما من شأنه انيجعل مهمتها الاولى والاخيرة رعاية المصلحة العامة ، فلا تباشر من العمل ولا تتخذ من السياسة ما يناقض هذا المبدأ ، كتضحيتها راحة الناس وصحتهموغذائهم فى سبيلاعداد السلام والتأهب للحرب مثلا

ثالثا ، جعل المجتمع الديموقراطى « مجتمع أفراد » يرمى الى تهيئة ضروب الرقى والراحة والنظام والنشاط لكل « فرد » فيه ، لان هذا الفرد قوة فعالة لها فى المجتمع أثرها وخطرها . والديموقراطية فى اسمى صورها هى التى تكون « فردا صالحا » وتهيىء له الحياة فى « جماعة صالحة »

ويقول هذا الكتاب : ان العالم كله يجب ان يسير على نظام واحد ، وليكن هذا النظام ديموقراطيا أو ديكتاتوريا ، اما ان يتخذ نصفه نهجا فى السياسة والاجتماع والاقتصاد يخالف ويعارض نهج نصفه الثانى ، فهذا ما يؤدى دائما الى النزاع والصراع ، والى اضعاف كل منهما قوة الآخر وافساد غاياته

واذ كانت الديموقراطية هى النظام الطبعى الذى تستجيب له الاذهان والمشاعر ، ولها حتى الآن الغلبة فى ميدان الفكر والعلم والقوة المادية ، فيجب ان تعبأ قوى الشعوب فى سبيل نشرها فى أقطار الدنيا كلها ، ولكن لن يكون هذا بطريق اليسر والدعة والتراخى ، بلبطريق الجهاد والكفاح ، طريق الحرب والنصر . ولاشك ان من الواجب ترجمة هذا الكتاب الى جميعلغات العالم ليقرأه كل فرد فيدرك واجبه — فىالحرب والسلم — حيال الديموقراطية ونصرتها

رسالة الاسلام

نهضة اسلامية فكرية فى الهند

أصدر الكاتب الهندى « يوسف على » حديثا كتابا بالانجليزية موضوعه « رسالة الاسلام » ، وهو بحث من سلسلة بحوث تصدر الآن فى انجلترا عن « حكمة الشرق » لتكون « سفراء المودة والحسنى والتفاهم بين الشرق والغرب ، الشرق الذى يمثل العالم القديم بتفكيره وشعوره والغرب الذى يمثل الدنيا الجديدة بحركتهـا وحياتها » وبذلك يتضاءل حتى يزول ما بين شعوب الشرق والغرب من اسباب الفرقة وعوامل النضال ودواعى الصراع

وقد اعتمد المؤلف فى حديثه عن رسالة الاسلام على المصدر الاسلامى الاول ، أى القرآن الكريم فترجم من آياته ما يوضح قيم الاسلام الخالية وما يضعه للحياة من نظم وانهاج . والاسلام ، من حيث العقيدة ومن حيث المعاملة ، يلائم سائر الاديان الكبرى ، وبذلك يمكن ان تتحد كلها معا على صورة ما تزيل ما يثور بين ارجاء العالم من آن لآن من النزاع والقتال . ويؤلف اجزاء الانسانية معا متفاهمة متعاونة متآزرة

وتجاوز المؤلف فى حديثه عن الاسلام عما يخرج عن نطاق الجوهر الصميم من أقوال الفقهاء ووجهات المذاهب ، لان مثل هذه التفاصيل لم تنشأ غالبا الا بدافع التعصب الذى يصرف المرء عن اللباب الى القشور ، أو تنشأ عن رغبة رجال الاديان فى اثبات وجودهم وابراز مكانتهم بما يثيرونه بين أنفسهم من ضروب الخلاف وتفريق الناس بينهم شيعا واتباعا

ومع ان هذا الكتاب لم يأت بجديد عما يعرفه المسلم المثقف لانه لم يكتب الا لغير المسلمين من قراء الانجليزية ، الا ان القارىء المسلم يفيد منه فائدة جزيلة هى تبينه من خلال أقوال المؤلف أثر الفلسفة الهندية فى توجيهه الى فهم الاسلام . فقد خلع عليه مسحة صوفية يخلو منها الاسلام كما كان يفهمه المسلمون فى صدره الاول ، ولم تعرف ولم تتضح فيه الا فى القرن السادس الهجرى وذلك على الارجح بتأثير الفيلسوف الصوفى الامام الغزالى . اما المسلمون الهنود فيضفون على الاسلام طابعا صوفيا يستمدونه مما رسب فى اذهانهم ومشاعرهم من آثار الفلسفة الهندية التى تدرك الحياة ادراكا صوفيا غامضا . ويتبين هذا الروح فيما تحدث عنه المؤلف من «وحدة المجموع فى الخالق» كما تفهمها وتشرحها العقيدة الاسلامية

كما ان فى الكتاب اتجاها شيعيا واضحا بدليل ان المؤلف اختص الامام على بن ابى طالب وحده بالثناء والتقدير ، ولم يشأ ان يتحدث على هذا النسق عن غيره من الصحابة الكرام والخلفاء الراشدين

ومن دواعى الغبطة والامل ان تقوم اليوم فى الهند نهضة اسلامية فكرية ترمى الى الدعوة للدين الاسلامى بين الشعوب التى تجهل ما ينطوى عليه من المثل العليا فى الاخلاق والمعاملات على السواء . ومما يساعد على أداء هذه الدعوة ان كثيرا من المسلمين الهنود يجيدون الكتابة الادبية باللغة الانجليزية ، مما يعين على رواج كتبهم واذاعتها ومقدرتها على التوضيح والاقناع . وهؤلاء الكتاب من المثقفين الممتازين الذين يعرفون وجهات التفكير الحديث فيسيرون فى شرح الاسلام على نهج يوفق بين أصوله ومبادئه وبين دعائم الحياة الحديثة وما ترمى اليه من الاهداف ، وبذلك يثبتون ان الشعوب المسلمة تستطيع — اذا هى أخذت بمبادىء الاسلام — أن تجارى غيرها من الشعوب فى مضمار الحياة ، وكذلك يثبتون للشعوب التى ضاقت بحياتها الراهنة ان الدين الاسلامى يمكنه التوفيق بين مطالب الحياة الحديثة ومثل الفضائل العليا

القاموس الامريكي

مليون كلمة وعبارة تبتكرها أمريكا

يلقى الذين درسوا الانجليزية على شكسبير وديكنز وكارليل من الادباء القدامى ، أو درسوها على فرجينيا وولف وشو وويلز من الكتاب المحدثين — يلقون شيئا من الجهد والعسر في قراءة الصحف والقصص الامريكية ، لما تحفل به من ألفاظ وعبارات لم تعرف في الانجليزية الاصيلة ، أو خرج بها الكتاب في امريكا عن معناها الاول ، حتى صار بين لغة شكسبير ولغة امريكا من وجوه الخلاف والفرقة ما يكاد يقيم « لغة امريكية » مستقلة بذاتها

وقد أخرجت معاجم لشرح معنى الكلمات والعبارات التى ابتكرها الامريكيون ، ولكنها تقتصر على ما يتردد في الصحف والحديث من الالفاظ ، فلا تكفى القارىء الذى يريد ان يفهم مثلا قصص أديب امريكا الاول «مارك توين» فهما كاملا لا يفوته فيه نكاهة واحدة من نكاهاته اللفظية البارعة الدقيقة

ولهذا أخذ فريق من اساتذة جامعة شيكاغو منذ سنة ١٩٢٥ في اعداد قاموس للغة الامريكية يتألف من عشرين مجلدا . انجزوا منها حتى الآن عشرة مجلدات . ويقتصر هذا المعجم على ما ابتكرته امريكا — ادباؤها وعامتها — من الالفاظ والعبارات ، وشرحها على النهج الذى تتبعه المعاجم العربية الكبرى في شرح ألفاظها من إيراد ما قاله الادباء والشعراء توضيحا لمعانيها ووجوه استعمالها

ويقدر عدد الالفاظ والعبارات التى ابتكرتها امريكا بألف ألف ، أى ما يوازى امثال اللغة الانجليزية الاصيلة عدة مرات . ولا عجب في ذلك اذا عرفنا ان مارك توين وحده ابتكر ١٢٫٠٠٠ عبارة أو كلمة جديدة توارثها من بعده الكتاب والقراء حتى شاعت على الالسنة وفى الصحف

وقد أخذ الامريكيون منذ هبطوا أرض امريكا في ابتكار المفردات والمصطلحات ، اما بطريق الاشتقاق من اللغة الانجليزية واما بطريق الاستقاء من اللغات الاخرى . فمنذ رست السفينة «ماى فلور» على شاطىء امريكا وهبط منها ركابها أخذ كل منهم قطعة من الارض ليزرعها ويعيش من ثمرها ، فاطلق كل واحد على أرضه كلمة « قسمتى » . وشاعت الكلمة وثبتت فلم تعد وحدة الارض الزراعية هناك الفدان Acre كما هو الشأن في انجلترا بل « القسمة » التى أطلقوها منذ القدم ، وهكذا . وكان لتكون الشعب الامريكى من مهاجرين من مختلف ارجاء العالم أثره في تكوين اللغة الامريكية التى تشتمل الآن على آلاف من الالفاظ المشتقة من لغة الهنود الحمر والاسبان والايطاليين والصينيين وغيرهم من مختلف الشعوب

ويعين اساتذة جامعة شيكاغو في هذا العمل نفر كبير من « الهواة » الذين تطوعوا لقراءة كثير من الآثار الادبية الامريكية القديمة لاستخراج ما في طياتها من الفاظ وعبارات امريكية . وخص هذا العمل بمنحة كبيرة من منح روكفلر المخصصة للتعليم والتثقيف

فى سبيل الزنوج

قصة مفكر امريكى مكافح

أمضى المفكر الزنجى الامريكى الدكتور برجهاردت ديبوا خمسين عاما طوالا يناضل في سبيل الزنوج ، فرأى ان يصدر بمناسبة بلوغه سن السبعين كتابا يعرض فيه قصة هذا الجهاد العنيف . وعنوان هذا الكتاب «غسق الفجر» الفجر الذى يكاد ينبثق على الجنس الاسود بعد ان عاش في الظلام قرونا

وقصة الدكتور ديبوا الحافلة بضروب الكفاح دليل على أن سواد البشرة وتجعد الشعر وغلظ

الشفاة شيء ، وذكاء العقل وتوقد الذهن وترهف الاحساس شيء آخر

ولد هذا الرجل في قرية امريكية فيها خمسة آلاف من البيض وخمسون من السود . فكان هؤلاء الزنوج الضعاف الفقراء عبيدا مسخرين في بيوت البيض ومزارعهم . ودخل المدارس الابتدائية فبدا فيه من الذكاء والنشاط ما مكنه من ان يرقى الى التعلم في احدى الجامعات .

وبدأ عندئذ يتنبه الى ما يعانيه العبيد من الآلام، فهؤلاء هم زملاؤه البيض في الجامعة ينظرون اليه شذرا ، وهؤلاء هم الزنوج يركلون في الشوارع فلا يعجب لهذا ولا ينكره أحد من البيض أو السود ، وهذه هي الحبال التي يشنق بها الزنوج في الغابات اذا فارقوا اثما لا يعاقب عليه الابيض بكلمة تأنيب . وغير ذلك من الوان النكال فضلا عن اقفال ابواب الرزق الفسيحة في وجوه السود ليبقوا خدما وعبيدا

أخذ ديبوا يدرس هذه الحال فلما انتقل الى جامعة هارفارد جعل موضوع رسالته لدرجة الدكتوراه « القضاء على تجارة الرقيق » وقد وجد من عالم التربية الامريكي المشهور ، وليم جيمس ، معاونة كبيرة على معالجة هذه المشكلة الخطيرة علاجا حاسما

وكان أحد الاثرياء قد تبرع لجامعة هارفارد بمبلغ من المال يخصص للانفاق على الطلاب السود فمنح ديبوا جزءا منه مكنه من السفر الى أوربا حيث استأنف بحث موضوعه في جامعة برلين وفيها وضع رسالة اثبت فيها ان قضية الزنوج في امريكا وافريقية وآسيا واحدة ، وان سببها الوحيد هو الاستغلال الاقتصادى الذى تهيأت وتوافرت وسائله للبيض الاقوياء

وعاد الى امريكا حيث امتهن التدريس في جامعاتها بمرتب يعد ضئيلا جدا في امريكا اذ لا يتجاوز ثمانمائة دولار في السنة ، ولكنه انصرف بكل جهده للكتابة والخطابة فأصدر بحوثا شتى تناول فيها أخلاق الزنوج، محاولات لتحسين حالة الزنوج الاجتماعية ، الزنوج في ميدان العمل، الكنيسة الزنجية، الجرائم الزنجية، صحة الزنوج ، الخ الخ

واتصل حينذاك بالمفكر الزنجي « بوكر واشنجتون » الذى يعرف باسم « باستلوتزي الاسود » لانه يعد من كبار المفكرين في شؤون التربية . ولكن الزعيمين الاسودين لم يتفقا على منهاج واحد ، فكان من رأى ديبوا تمكين الزنوج من التعليم الجامعي وحثهم عليه ، وكان رأى واشنجتون ان ينصرفوا الى التعليم المهنى ليبرعوا فيه لان فقرهم هو علة ما يعانون

وقامت بعد ذلك الحركة المعروفة في تاريخ امريكا باسم « حركة نياجرا » وكانت ترمى الى اصلاح شؤون الزنوج بان تباح لهم حرية الكلام والنقد ، وبأن لهم ما للبيض من حق التعليم العالى وحق الحصول على الاعمال والمناصب الكبيرة وتزعم ديبوا هذه الحركة ورأس المجمع الذى الف في سنة ١٩١٠ لتحسين حال الشعوب الملونة ، واختص باعمال الدعاية اللازمة لهذه الحركة الكبيرة فأصدر مجلة « الازمة » التى نشأ فيها كثير من الكتاب الزنوج المعروفين الآن

ولما اشتركت امريكا في الحرب الماضية طالب بان يدرب الجنود السود الممتازون ليكونوا ضباطا على رفاقهم . وارسلته الحكومة الى أوربا لتفقد أحوال الجنود الزنوج ولكتابة تقرير عن نصيبهم الكبير في الاعمال الحربية . وفي أوربا سعى الى عقد « المؤتمر الافريقى » الذى طالب بأن يمثل الزنوج في مؤتمر الصلح . وعاد الى امريكا مستأنفا جهاده في سبيل الزنوج ، لانه يعتقد ان مشكلتهم تكمن في صميم القضية الديموقراطية وان لبقائها أو لحلها أثره في مستقبل هذا العالم الذى يكون الزنوج جزءا كبيرا من عدد سكانه فضلا عن مساهمتهم في كثير من وجوه النشاط العملى

فريا ستارك فى الجزيرة العربية

كتاب جديد للرحالة الانجليزية

«شتاء فى الجزيرة العربية» هو الكتاب الحديث الذى أصدرته نزيلة القاهرة السيدة الانجليزية فريا ستارك ، هذه الرحالة ، العالمة ، الاديبة ، التى طوفت فى ارجاء الشرق الاوسط وعاشت فى مجاهله وصحاريه ، فأخرجت عنه طائفة من أمتع وأثمن كتب الرحلات ، وعرضت للقارىء الاوربى والامريكى صورا جميلة أخاذة للحضارة الشرقية القديمة والحديثة ، ممثلة فى أخلاق الناس واساليب حياتهم ، كما هى ممثلة فى آثار هذه الحضارة ومنشآتها التليدة

وهذا الكتاب الاخير هو قصة رحلة طويلة قامت بها فريا ستارك فى صميم الجزيرة العربية وعلى شواطئها الجنوبية والشرقية . وكان يرافقها فى هذه الرحلة سيدتان انجليزيتان تعنى احداهما بالبحث فى الآثار ، والاخرى بالبحث فى الجيولوجيا . ولهذا جاء الكتاب الذى جاوز ثلاثمائة صفحة دراسة علمية تاريخية معروضة فى عرض أدبى شائق ، ذلك ان فريا ستارك تعنى فى رحلاتها بان تنفذ الى حياة الافراد والجماعات ببصيرة المرأة الذكية البارعة الرقيقة

وقد أقامت فترة طويلة من رحلتها فى حضرموت حيث اتخذت من أهلها كبارا وصغارا ، أصدقاء تخالطهم فى بيوتهم وانديتهم . فكانت تعيش فى جوار السلطان وكبار رجاله وتزورهم ويزورونها وكانت النساء اللاتى يخشين رؤية الوجوه البيضاء الحمراء يألفنها ويقبلن عليها ، وكان بيتها مقصدا لافواج من المرضى يلتمسون عندها الدواء والشفاء والكلمة الطيبة ، بل كان الخدم يتحدثون اليها عن شؤونهم واسرارهم ويبثونها ما يسوقون من أقاصيص غرامهم ومغامراتهم ، وهكذا كانت صديقة الجميع فاستطاعت ان تجعل من كتابها صفحة « انسانية » لا تقتصر على العرض والبحث بل تتخذ من حياة العرب مادة أدبية لكتابها الجميل

والذين قرأوا مؤلفات فريا ستارك السابقة تبينوا فيها كيف استطاعت ان تريهم — بعين التخيل أو الذاكرة — مظاهر الحياة ومعانيها فى صحارى الغرب ، وأحياء بغداد ، وتخوم ايران — هؤلاء القراء سيلمسون ثروة أدبية علمية أخرى فى كتابها الجديد الذى يتحدث عن آفاق ما زالت معارفنا عنها — نحن ابناء البلاد العربية — غامضة تتطلب منا الرجوع الى مثل كتب فريا ستارك

وتعنى المؤلفة فيما تصدره من الكتب بناحية الصور والرسوم ، وقد وضعت فى كتابها الجديد طائفة منها تزيد فى روائه وتوضح نواحيه .

والخلاصة ان هذا الكتاب من اطرف وأثمن كتب الرحلات ، وانا نهنىء المؤلفة بما وفقت اليه فى اصدار الكتاب ، راجين ان يتحفنا قلمها الخصب بكثير من أمثاله

الحياة النبيلة

ها أنذا أموت بعد أن عمرت مائة عام وعزائى أني لم أسخر يوما ما من أضعف الرجال ، ولم أزدر مدى حياتى أبسط الفضائل

« فونتنل »

الكتب الجديدة

الاكليل

تأليف ابن الحائك الهمداني

حرره وعلق حواشيه الاستاذ نبيه أمين فارس

مطبعة جامعة برنستن بأمريكا في ٢٥٠ صفحة

صارت جامعة برنستن الامريكية مركز حركة الاستشراق في العالم الجديد ، فمعهد الدراسات الشرقية بها يضم نخبة من علماء الشرق والغرب برئاسة الاستاذ الجليل فيليب حتى ، وهم يواصلون اصدار الكتب العلمية والتنقيب عن المخطوطات الدارسة ، ويبذلون في سبيل ذلك من الجهد والوقت والمال ما يقصر دونه الشكر والتقدير

وآخر هذه الافضال اخراج الجزء الثامن من الكتاب القيم المشهور « الاكليل » ، وقد حرره وعلق حواشيه أحد ابناء الجامعة الاستاذ نبيه أمين فارس

ألف هذا الكتاب في صدر القرن الرابع الهجري ، وكان يتألف من عشرة اجزاء باد ستة منها وبقي اربعة هذا احدها ، وقد بقيت منها عدة نسخ موزعة بين متاحف ومكاتب لندن وباريس وميلان والفاتيكان وستراسبورج واستانبول وبرنستن

وموضوع الكتاب كما قال الاستاذ فارس في مقدمته النفيسة « وصف آثار البلاد — اليمن — وبقايا ابنيتها وقصورها وسدودها التي شاهدها المؤلف بأم عينيه فجاء وصفها بعيدا عن التكهن والاختراع . وما لبث ان مرت القرون وظهر علماء الآثار فجاءت اكتشافاتهم مصدقة لما ذكر . فاهمية الاكليل اذن لا تنكر اذ تحفظ لنا صفحاته أخبار عرب الجنوب وتصف لنا تقدمهم وطول باعهم في البناء والخطط والعمران وترينا ممالك زاهرة زاهية وشعوبا متقدمة راقية وتجارة مزدهرة رابحة . وتحدثنا عن أقوام شادوا قلاعا حصينة وبنوا قصورا تناغي النجوم وتناطح السحاب وخططوا مدنا واسعة منتشرة الاطراف وحفروا آبارا عميقة مياهها عذبة وأجاج وأقاموا سدودا عظيمة لحبس السيول واستخدامها في اعمال الري وعبدوا طرقا للتجارة والسفر امتدت فوق السهول وعبرت الاودية على قناطر وجسور واخترقت الجبال في انفاق نقبت في صميم الصخر ونحتوا التماثيل على القبور ورفعوا الانصاب في العواصم والثغور »

وقد بدأ الاستاذ فارس جهده في اخراج هذا الكتاب منذ سنين ، فأصدر في سنة ١٩٣٥ ترجمة انجليزية للنسخة الخطية التي أصدرها الاب انستاس الكرملي بعد ان عارضها ببعض النسخ الاخرى وارفقها بحواش تاريخية وجغرافية ولغوية ، ثم أصدر هذا الاصل العربي بعد ان قارن بين عدد من النسخ الخطية الباقية وعارض بعضها ببعض ليستخلص منها وجه الصحة في كل كلمة وعبارة ، وأضاف الى المتن حواشي نافعة وفهارس دقيقة

والكتاب تلذ قراءته للمؤرخ والجغرافي وللاديب ، فهو قصة رحلة في ارجاء اليمن تسرد ما قيل عن آثارها وشاهدها ووقائعها من قصائد الشعراء واقوال الرواة . وقد طبع طبعا أنيقا متقنا على ورق صقيل . وكان للاستاذ فيليب حتى فضل التوجيه والارشاد في اخراج هذا الكتاب ، فكان له حق المشاركة فيما يستحقه هذا الكتاب من شكر الاوساط العلمية وتقديرها

٨٩ شهراً فى المنفى

للاستاذ محمود حسنى العرابى

مطبعة النهار فى ١٢٨ صفحة

ساهم الاستاذ العرابى بنصيب وافر عنيف فى الحركة الاجتماعية فى مصر ، فلقى فى سبيل ذلك صعابا كان منها النفي من وطنه والغربة سنين طويلة . وهو فى هذا الكتاب يروى قصة خروجه من مصر واقامته فى المانيا وما اعترضه فى هذه الاثناء من المتاعب والخطوب . ولكنه لا يرويها قاتمة تنقبض النفس لقراءتها بل يبث فيها من روح السخرية والدعابة ما يشوق المرء حين يقرأها ، وما يبث فى النفس الامل والتفاؤل كلما ولت عنها الايام

والكاتب يتجول بالقارىء فى بعض ارجاء اوربا ، ويعرض له فى اثناء كتابه صورا من الحياة فيها ، خلال فترة حفلت وماجت بالاحداث الخطيرة . وفضلا عن ذلك فان القارىء – ولاسيما الشاب – يفيد منه كثيرا ، حين يدرك ان الرجل الذى يريد ان يحيا ملء حياته يجب ان يتعرض للتجارب التى تصقله وللمحن التى تصهره وان تفكيره لا ينضج الا اذا قومته الهزائم والاخطاء

وقد وضع الكتاب فى صورة « يوميات صحفية » ونحا المؤلف نحوا سهلا شائقا ، يمزج الجد بالهزل ، والالم بالدعابة

مصر فى عهد الاسلام

تأليف الاستاذ محمود عكوش

مطبعة دار الكتب المصرية فى ٢٧٢ صفحة

ظهر البحث الاول من هذا الكتاب وقد تناول فيه مؤلفه – الاستاذ محمود عكوش سكرتير لجنة حفظ الآثار العربية والاستاذ السابق بالمعهد الفرنسى لآثار الشرق بالقاهرة – انباء فتح العرب لمصر والاسكندرية وبسط أمورا تاريخية على جانب عظيم من الاهمية منها روايات أفسدها النقل المحرف والحشو الباطل فجلا عنها نور الحقائق واماط اللثام عن بعض ما خفى من الوقائع المتعلقة بفتح العرب لمصر ، فأظهر موقف القبط من العرب على حقيقته واسقط الاتهام الموجه الى القبط عن التواطؤ المزعوم مع العرب وكشف عن مدى المساعدة التى قدمها القبط الى المسلمين وحدد تواريخ بعض الوقائع الحربية التى قامت بين جيوش العرب والروم

وقد اهتم المؤلف وهو يبسط الحقائق على علاتها ويردها الى أصولها ان يناقش الآراء التى أوردها المستشرق الانجليزى المعروف الفرد بتلر فى كتابه « فتح العرب لمصر » وان ينقدها نقد عالم لعالم ، فتكلم عن وقائع عمرو مع الرومانيين واسهب فى الحديث عن حقيقة شخصية المقوقس ومراجعة أقوال فحول المؤرخين عنه ، ثم عرج فى الكلام على ارمانوسة المصرية ومعاملة العرب لها اثناء الحصار ، وعن فتح الفيوم ، والزحف الى الاسكندرية والمساجد التى شيدت فى كافة ارجاء البلاد ، ولم ينس المؤلف وهو يناقش آراء بتلر ان ينتصر لجانب البلاذرى وابن الحكم والاصطخرى وابن قتيبة والطبرى وغيرهم من المؤرخين الذين تناولوا فتح مصر ، وان يزين ابحاثه بعدة لوحات وصور نادرة بعضها مما رسمته البعثة الفرنسية فى مصر والآخر من محفوظات لجنة الآثار العربية

ويمتاز هذا الكتاب بتحرى الدقة ويدل على سعة اطلاع المؤلف وتعمقه فى البحث وتلمسه الحقائق وبراعته فى الاستنتاج الصحيح، يساعده على ذلك غزارة مادته فى التاريخ الاسلامى والمامه بكافة المصادر التى استند اليها وألم بها الماما

أشواق

للاستاذ محمود ابو الوفا

مطبعة مصر فى ١٢٠ صفحة

يمتاز الاستاذ الشاعر محمود ابو الوفا بمزايا جمة جميلة

فهو ، أولا ، شاعر واضح النفس صافى الذهن ، فليس فى شعره غموض ولا قتام ولا اضطراب ، ولهذا يحب المرء قراءته ، وتلاوته ، وترديده ، لان النفس تهفو دائما الى الشعر المشرق الذى ينفذ اليها دون جهد وعناء ، بل ينساب من اللسان الى القلب كما ينساب المجرى الوادع بمائه الفضى المتألق

وهو ، ثانيا ، سلس البيان بليغ العبارة ، تسرى فى شعره نغمات البلاغة العربية الصحيحة ولهذا يخلو شعره من هذا الالتواء اللفظى الذى تصده الاذن ، كما تصده فى كثير من شعرنا الحديث ، الذى أقدم عليه ناظموه قبل ان يأخذوا عدتهم من الثقافة العربية الناضجة

وهو ، ثالثا ، رجل حافل النفس بالمشاعر القومية والدينية ، فلا يقع أمر يتصل بشأن من شؤون الوطن او الدين ، حتى يهز نفسه هزا عنيفا ، فتفيض بشعر ملؤه الصدق والوفاء

هذه بعض مزايا الاستاذ ابو الوفا ، تتمثل فى ديوانه الحديث « اشواق » الذى ضم مجموعة من خير قصائده ومقطعاته الغنائية ، والغرامية ، والقومية

وان ما فى هذه القصائد من البلاغة المقرونة بالسلاسة ، ومما يسرى فيها من روح الفضيلة وعاطفة الوطنية ، ما يجعلها جديرة بان تلقى فى اذهان النشء على الاخص ، فيشبون على حب الادب القويم ، والخلق الفاضل

وقد طبع الديوان طبعا انيقا ، مشكلا ، مما ييسر قراءته

دراسات وثائقية فى تاريخ مصر الحديث

للاستاذ محمد محمد توفيق

مطبعة الاعتماد فى ٣٢ صفحة

« الوثائق » من أهم واصدق مصادر التاريخ ولكن قراءتها ودراستها تقتضى جهدا ناصبا ودقة بالغة ، فلا يقبل عليها الا من يصرفون وقتهم ويخلصون جهدهم للبحث العلمى الثمين

وقد ظلت دراسة التاريخ المصرى الحديث ، دراسة وثائقية ، وقفا على نفر من الباحثين الغربيين من اساتذة الجامعات وكبار المؤرخين ، الذين لقوا من الرعاية الكريمة والتوجيه السديد فى رحاب المغفور له الملك فؤاد الاول ما مكنهم من التفرغ لهذه البحوث العلمية ، فجلوا كثيرا من غوامض التاريخ المصرى الحديث ، أما مؤرخونا فقد احجموا عن هذه الساحة العلمية الحديثة وتهيبوا لقاء ما تقتضيه من علم وجلد وصبر ، الى ان أقدم الاستاذ محمد محمد توفيق على احتمال نصيبه من هذا العبء العلمى بسلسلة من البحوث اعتزم إصدارها عن تاريخ مصر فى العهد العثمانى ومنذ ولاية محمد على الى مطلع القرن العشرين ، مستقاة من هذه الوثائق التى يصرف وقته فى دراستها بدار المحفوظات العمومية وبديوان جلالة الملك بقصر عابدين ، دراسة مبنية على اسس البحث العلمى التى أشرب روحها فى اثناء دراسته الجامعية

والبحث الاول من هذه البحوث يتناول « نظام الالتزام فى عهد محمد على الكبير » ، وكان هذا العمل من أهم ما قام به عاهل مصر الاول من ضروب الاصلاح الحكومى والشعبى ، اذ دعم ونظم مالية الدولة الناشئة الناهضة ، وحقق به العدل فى توزيع الضرائب على الافراد ، ومكن لمصر ان تقوم بهذه النهضة القومية فى سياستها وجيشها وحياتها العامة . وقد توفق المؤرخ فى رسالته الوجيزة الى تقديم فكرة واضحة عن نظام الالتزام ومثالبه وسيئاته ، ثم الى عرض أدوار الاصلاح التى اتبعها محمد على لالغاء الالتزامات المختلفة ، مصححا ــ بما عثر عليه من الوثائق الدفينة التى ترجمها من التركية الى العربية ــ كثيرا من الاخطاء التى وقع فيها المؤرخون ، وقد أعان المؤلف على غايته مقدرته على فك الغاز الخطوط القديمة ومعرفته التامة

باللغة التركية بما درس ونسى من الفاظهـا وعباراتها

وقد أردف البحث بترجمة فرنسية ليكون مزدوج الفائدة لمن يدرسون تاريخ مصر الحديث من علمائنا ومن علماء الغرب . وقراء الهلال الذين يعرفون أسلوب المؤلف السائغ الشائق يدركون مدى ما يفيده التلاميذ والطلاب من مطالعة هذه السلسلة ، وهى لا تقل عن الفائدة التى يجنيها اساتذة المدارس والجامعة مما فيها من المادة التاريخية الجديدة . ولهذا نرجو ان تلقى هذه السلسلة من الاوساط العلمية والثقافية ما تستحقه من التقدير والرعاية

WORLD UNREST
By Esther F. Wissa

مطبعة هوايتهد موريس بالاسكندرية
عدد صفحاته ٢٤٠ صفحة

يبحث هـذا الكتاب فى شؤون الاجتماع والسياسة بحثا مشربا بالروح الدينى والنزعة الخلقية

وضعته السيدة الجليلة « استر فهمى ويصا » باللغة الانجليزية منذ سنين ، عندما اضطربت شؤون العالم : فأزمته الشدائد المالية، واستهدف لخطوب القتال، وسرت فى حياته الخلقية والروحية ألوان السوء والفساد . ثم نشرته فى هذه الايام عندما اشرفت هذه الحال العنيفة الشريرة على ذروتها ، موقنة ان العالم يبدأ صفحة جديدة بشرته بها الكتب المقدسة منذ عشرات القرون

وقد ذكرت المؤلفة فى مقدمة الكتاب انهـا فكرت فى موضوعه وشرعت فى تأليفه بعد ان قرأت منذ عشر سنوات كتابا اسمه « أصول علماء صهيون الكبار » . وهو كتاب وضع سرا كما يقال فى مؤتمر يهودى عقد فى بازل سنة ١٨٧١ ثم سرق وتسرب الى يد رجل روسى فترجمه فى سنة ١٩٠١ وأراد أن يذيعه على العالم ولكن الصهيونيين حاولوا ان يحولوا دون ذلك لانه عرض للوسائل التى يفكرون فيها بشأن موقفهم من العالم الذى يعانون فيه الاضطهاد .

قرأت المؤلفة هذا الكتاب فساءها ان يفكر اليهود فى هذا وهم الذين انجبوا ابراهيم واسحق ويعقوب وموسى، وفيهم ظهر عيسى والحواريون، وهم الذين وعدهم الله فى العهد القديم باعادة ملك اسرائيل بل هم — كما تقول المؤلفة — « عبقرية العالم » ففى وسعهم اصلاحه واسعاده بدلا من تخريبه واشقائه . فوضعت هذا الكتاب فى اسلوب قصصى يمثل محاكمة أحد ابناء صهيون ، وتولت هى دور « المدعى العام » وأوسعت المجال مع هذا للدفاع

وتقول السيدة استر ويصا فى مقدمة الكتاب ان من يقرأ التوراة والانجيل قراءة روحية عميقة يستنبط من بين آياتهما وصفا كاملا لكل ما يضطرب به العالم من أمور الشر والخير ، ويتنبأ بما يعقب هذه الحال من عهد ينعم فيه البشر بالسلام والرخاء والسعادة والوفاق . وهذا ما توفقت اليه المؤلفة بعد ان أمضت ساعات وساعات من كل يوم فى قراءة العهدين القديم والجديد ، وبعد ان حاولت ان تفهم ما فيهما من أمور صوفية غامضة فهما دقيقا . وبعد ان أمضت وقتا طويلا لا تفكر الا فى هذا المجال الروحى الفسيح وما فيه من تنبؤات . فانتهت من هذه الدراسة ، بل من هذه الرياضة الروحية ، الى ان أهل العالم لم يفهموا نصوص الكتب المقدسة على وجههـا الصحيح

هذه هى الفكرة العامة فى هذا الكتاب الذى وضعته السيدة الجليلة استر ويصا، مشربا بالروح الدينى العامر العميق ، معروضا فى عبارة انجليزية كلها سلاسة وحرارة واخلاص، وبه اثبتت المؤلفة ان جهودها لم تقتصر على ما بذلته فى الحياة الاجتماعية والسياسية فى مصر زمنا طويلا ، بل تعدتهـا الى بحث مشـاكل العالم الاجتماعيـة والسياسية بحثا فيه روح الدين الخالصة وفيه نزعة الشرق الصادقة

الحرب الحديثة

للاستاذ رياض محمود مفتاح

مطبعة الرسالة فى ٢٢٢ صفحة

« ستكون الحرب الحديثة هى الباعث لدول الشرق العربى على ان تصحو من غفوتها ، مستعيدة مجدها القديم فى ظل حلف عربى موحد السياسة الخارجية ، مجيلة النظر فى نظمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية على ضوء التطورات العالمية والتجارب الخاصة لكل منها »

هذه الفقرة تلخص موضوع هذا الكتاب الذى أخرجه الاستاذ رياض محمود مفتاح بدافع وطنى صادق جرىء ، لينبه الشرق العربى الى ان يحدد موقفه وأمانيه فى هذا الوقت ، الذى مهما يكن حرجا عصيبا الا انه فرصة سانحة يجب انتهازها

والكتاب يتناول خمس مسائل خطيرة : (١) موقفنا الدولى الحاضر الذى يحتم علينا تكوين حلف الشرق العربى لصد كل سياسة معادية ، مع اتخاذ مبادىء الاسلام الخالدة القائمة على الايمان والعدالة والتسوية للانسانية جمعاء (٢) نظمنا السياسية وما يجب حيالها من نبذ الخلاف وتحقيق الاتحاد ، والتخفيف من غلواء الحرية والديموقراطية ، بتقييد حق الانتخاب المباشر لكل فرد والحذر فى منح الحريات العامة والحقوق السياسية (٣) قوتنا العسكرية وما يجب علينا من تكوين جيوش ضخمة معدة وتربية الشعب تربية عسكرية وتحتيم واجب الجندية على جميع الافراد والطبقات (٤) انظمتنا الاقتصادية وموقفها من المذاهب الثلاثة الشيوعية والاشتراكية القومية والرأسمالية، ثم النظام الاسلامى الخالد والزكاة، ثم وجوب السير على سياسة وطيدة فى الاستقلال الاقتصادى واقامة صرح اقتصادى اتحادى (٥) وأخيرا انظمتنا الاجتماعية وما تعانيه الآن من عوامل الانحلال الخلقى فى سيرة الافراد ونظام الاسرة وما يجب علينا ان نتخذه من الاخلاق والاصول الاسلامية ، مع انشاء ثقافة شرقية عصرية تقوم على أسس العلم لتنظيم المجتمع تنظيما كاملا

هذه هى أهم الدروس التى تلقيها الحرب الحديثة على مصر خاصة والشرق العربى عامة ، ومن واجبنا ، مفكرين وعامة ، ان نصرف فكرنا وجهدنا الى مطالعة هذه الدروس وتدبرها ، حتى نخرج من هذه المحنة بما يحق للشعوب المتيقظة من المنافع والمزايا ، فان العالم جميعا — ونحن فى طليعته — مقدم على تطور خطير فى جميع ظروف حياته ، فلا يصح لنا ان نحجم عن التفكير فى المستقبل حتى تداهمنا على غرة أحداثه

قواعد الحرب النابليونية

ترجمة اليوزباشى مصطفى حلمى عزت

مطبعة الحرية فى ٦٠ صفحة

وضع هذه الرسالة الوجيزة قائد انجليزى مشهور ، هو الجنرال سير تشارلز تونسهند ، الذى أبدى كثيرا من المهارة والبطولة فى ميدان العراق فى الحرب الماضية . وهى مقدمة كتاب كبير ألفه عن غزوته فى العراق التى طبق فيها القواعد الخالدة التى سار عليها عبقرى الحروب نابليون . وقد شرح فى هذه المقدمة هذه القواعد واثبت ان جميع القواد الالمان من كلاوزيفتز المعاصر لنابليون الى مولتكة قاهر النمسا وفرنسا لم يخرجوا عنها بل لم يضيفوا اليها . واثبت ان فرنسا هزمت فى سنة ١٨٧٠ لانها أهملتها وانتصرت فى الحرب الماضية لانها أخذت بها

ومترجم هذا الكتاب من ضباطنا المثقفين ، فقد كان معلما بالمدرسة الحربية سابقا ، وقد أحسن بترجمة هذه الرسالة الشائقة ، كما أحسن بالمقدمة التى كتبها عن المؤلف وحربه فى ميدان الشرق الاوسط

معرض الآراء الحديثة

للمفكر الانجليزى لويس ديكنسون
ترجمة الاستاذ محمد رفعت

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
فى ١٧٦ صفحة

التقت فى احدى المنتديات جماعة من الساسة والمفكرين ، يمثل كل منهم طائفة خاصة ونهجا معينا فى التفكير ، وأخذ كل يشرح نظرته الى الحياة ويبررها ويدافع عنها ويسفه خصومها

هذا هو موضوع الكتاب القيم الشائق الذى ألفه المفكر الانجليزى لويس ديكنسون ، وسار فى عرضه على طريقة سقراط فى التحدث والنقاش والحوار . فقد تخيل منتدى يتحدث فيه نفر من رجال الاحزاب والافكار السياسية المختلفة ، فيلقى كل منهم برأيه فيما يشغل الافراد والجماعات من مشاكل السياسة والحياة ، والافراد الذين اشتركوا فى هذه الاحاديث يمثلون على التوالى حزب المحافظين ، فالاحرار ، فالاشتراكيين ، فالفوضويين ، فالاساتذة ، فالعلماء الطبيعيين ، فالصحفيين ، فرجال الاعمال ، فالشعراء ، فالاعيان ، فجماعة الاصدقاء ، فالادباء . ومن هذا تتبين المدى الفكرى الواسع الذى شمله المؤلف بما يمتاز به من وضوح الفكرة وقوة المعارضة الى حسن العبارة وبيان الاسلوب

ومترجم الكتاب — الاستاذ محمد رفعت — عرف بتمكنه الكامل من اللغتين الانجليزية والعربية . فكان كتابه هذا مثالا يحتذى فى الترجمة الامينة الدقيقة ، السلسة الواضحة ، فان حرصه على ان ينقل الاصل الانجليزى نقلا كاملا ، لم يعجزه عن عرض كتابه فى عبارة مشرقة رشيقة

ويقول الاستاذ المترجم فى مقدمة وجيزة عن الكتاب والمؤلف ان فى الكتاب « آراء كثيرة ، بعضها خطأ وبعضها صواب ، بعضها قائم على العقل والمنطق ، وبعضها مغالطات وبلاغات خطابية ، شأن كثير من الآراء التى يعرضها الناس فى أحاديثهم ويدافعون عنها بحماسة ، وليست هى فى الغالب الا سفسطة وكلاما منمقا» ولكن هذا لا ينقص من قدر الكتاب لانه يمثل الحياة كما هى ، بما فيها من رأى حافل وكلام فارغ . وأحسن المترجم بهذه الصفحات التى أضافها فى ذيل الكتاب وشرح فيها ما ورد فيه من اعلام واشارات تاريخية قد تخفى على القارىء

اننا فى عهد تضطرم فيه الاذهان وتضطرب فيه الشعوب بين مختلف الآراء والمبادىء ، فمن واجب كل مثقف ان ينفذ الى صميم الظواهر التى تتنكر وراءها الاحزاب والدول المختلفة ، وهذا الكتاب الفكرى يعين المرء على أن يتبين وجه الحقيقة من وجه الدعاية فى كثير من مسائل السياسة والاقتصاد والاجتماع

الثائر

قصة للاديب محمد حسين مصطفى مبروك

مطبعة آمون بالجيزة فى ١٠٠ صفحة

تمثل هذه القصة ما ينشأ بين الطبقتين الغنية والفقيرة من الصراع اذا اتصلت بين فردين منهما علاقة الحب والزواج . فهى قصة فتى فقير أراد ان يتزوج من أسرة غنية ، فأبت عليه ذلك ، فثار ، وتعلم ، وصار طالبا فى الحقوق ، فدكتورا فى القانون ، فمحاميا شهيرا ، فسكرتيرا برلمانيا ففاز بيد الفتاة التى أراد

وأسلوب القصة سائغ ، وسياقها جميل ، وقد عالج الكاتب فن القصة من قبل فى قصة سماها « صفاء » ، ويرجى منها التقدم والاجادة فى هذا المجال الادبى . وقدم القصة بمقدمة طيبة الدكتور وحيد رأفت استاذ القانون بكلية الحقوق

عبقرية طبيب

للاستاذ شاهين ابراهيم شاهين

المطبعة الفخرية فى ٦٤ صفحة

الطبيب الذى تترجمه هذه الرسالة هو الدكتور السباعى حسنين بك ، وهو عالم له بحوث ومؤلفات ، وهو رجل وافر النشاط كثير الجهود فله أثر بارز فى النهضة الصحية التى بدأت تشمل مصر وتصلحها

وقد كتبت هذه الرسالة بروح الوفاء والاعجاب ، وجمعت بين تحرى الحقائق دون اسراف واطناب ، وبين طرافة القصة فى عرض الموضوع ، الذى لم يقصره على سرد تاريخ الحياة ، بل تجاوزه الى وصف البيئة المصرية الحديثة وما أحاط بها من ضروب التطور والارتقاء . واسلوب المؤلف شائق ، والروح الذى دفعه للكتابة طيب مشكور

المهندس الصغير

للاستاذ محمد عاطف البرقوقى

مطبعة المعارف فى ١٢٨ صفحة

يتناول هذا الكتاب وسائل النقل وتطورها منذ كان الانسان يسير على قدميه فحسب الى ان صار يركب السيارة والطيارة ، وهو يتناولها من الناحيتين الفنية والتاريخية ، ففى الاولى يتحدث عن تركيب كل جهاز وكيفية حركته ونوع الوقود اللازم له والسرعة التى وصل اليها ، وفى الثانية يعرض تاريخ هذه المخترعات وقصد مخترعيها ، مما يعين على التوضيح والطرافة ، ويشوق القراء الى دراسة العلوم والاستزادة منها

ولم يغفل المؤلف ما يتصل بمصر من هذا الموضوع . فذكر تاريخ انشاء الطرق فيها وتاريخ وزارة المواصلات والبريد والسكك الحديدية والسيارات

والاستاذ البرقوقى ، هو مفتش العلوم الطبيعية بوزارة المعارف ، يتخذ فى كتابه اسلوب الدرس فى الشرح ، فيلجأ الى التبسيط والتوضيح ، مستعينا بأسلوب واضح سهل ، مما يجعل الكتاب متعة للتلميذ والطالب والقارىء العادى . وقد زينه بكثير من الصور والرسوم ، ليسهل للجميع فهم هذه الآلات والتوسع فى دراستها

العلم المصرى

للنقيب عبد الرحمن زكى

صفحاته ٣٢ ـ طبع بمطبعة وزارة الدفاع

الصاغ عبد الرحمن زكى من خيرة الشبان النابهين ، وله بحوث نفيسة فى تاريخ الجيش المصرى ومؤلفات قيمة . وقد عرض فى هذه الرسالة البليغة تاريخ العلم المصرى فى جميع العصور وأورد اقوال المؤرخين والرسوم الاثرية للعلم فى مصر الفرعونية ، ثم فى مصر الاسلامية ثم فى العهد العثمانى ، ثم فى العصر الحديث

وقد وصف بعد هذا حفلة تسليم العلم الى الحرس السلطانى يوم ٢٩ يناير سنة ١٩١٨ حينما خاطب « السلطان فؤاد » جنوده قائلا : « هذا العلم المقدس هو الرمز الى عزة العرش وسلامة الامة ، الى كرامة مصر وشرف الوطن فهو وديعتى لديكم ، فاحفظوه ولتفده الاموال والارواح » ثم أورد القانون الذى أصدره « الملك فؤاد » فى سنة ١٩٢٢ خاصا بالعلم الاهلى الذى يرمز الى استقلال مصر

وختم الرسالة بوصف الحفلة الباهرة التى اقيمت فى ١١ ابريل سنة ١٩٤٠ احتفالا بتسليم جلالة الملك فاروق الاول العلم الى الكلية الحربية . وتناول بعد ذلك نصوص القانون الذى سنته وزارة الخارجية لتنظيم رفع العلم المصرى

والرسالة مصدرة بخطبة اللواء محمد صالح حرب باشا يوم تسليم العلم للكلية الحربية ، وقد تحدث فيها عن هذا الرمز المجيد الذى يجب ان تنشىء أطفالنا على تقديسه واحترامه ، وتدرب جنودنا على فدائه بالارواح

بين الهلال وقرائه

ملوك بني غسان

ونزوح الازد وتفرقهم

(السلط ــ شرق الاردن) سامى الحورى جويني

ا : كيف يمكننا ان نوفق بين اقوال مؤرخي العرب في عدد ملوك غسان وزمن حكمهم ؟ فهم عند حمزة الاصفهاني ٣٢ ملكا حكموا (٦٠٠) سنة يوافقه على ذلك ابن سعيد عن صاحب تواريخ الامم . وكذلك يوافقهم ابو الفداء في عدد الملوك ويخالفهم في مدة الحكم إذ هي عندهم (٤٠٠) سنة . بينما نجدهم عند نولدكه عشرة ملوك حكموا قرنا وبعض القرن ، وعند ابن قتيبة ١١ ملكا ، وكذلك عند المسعودى ، اما عددهم عند الجرجاني فهو تسعة فقط ولا يخفى ما في ذلك من التشويش

ب : اختلف المؤرخون فيمن ملك من ملوك غسان أولا . فمنهم من قال انه جفنة بن عمرو ــ كحمزة وابن سعيد ــ ومنهم من قال الحارث ابن عمرو ــ كالمسعودى ــ ومنهم من قال ثعلبة ابن عمرو ــ كابن خلدون عن السهيلي

ج : ذكر البلاذرى في كتابه فتوح البلدان تفرق الازد بعد اقامتهم على عين ماء غسان بعد حروب علقت بينهم وبين قبيلة عك واهل نجران وقد وافقه ابن خلدون عن السهيلي الا انه ذكر خبر تفرقهم قبل مرورهم على عين ماء غسان : وجاء بقول ابن سعيد في تاريخ ابن خلدون ما يوافق رأى البلاذرى : فأى الآراء أصوب ؟

(الهلال) عندنا ان هذا الخلاف انما يرجع الى انه لم يكن للعرب قبل ظهور الاسلام من مادة التاريخ الا ما توارثوه بالرواية ، مما كان شائعا بينهم من اخبار آبائهم واجدادهم وأنسابهم وما في حياة هؤلاء واولئك من قصص البطولة والكرم والوفاء ، ثم ما كان من اخبار البيوتات التى تناوبت الامرة على قريش ، وما أصاب « سد مارب » وما يتبعه من تفرق الناس في البلاد ، الى غير ذلك مما قام اللسان فيه مقام القلم والذاكرة مقام الكتاب ، الى ان بدأ تدوين التاريخ في فجر الاسلام . . ومن هنا كان اختلاف الروايات ، ومن هنا أيضا يميل محرر هذا الباب الى ترجيح ما جاء في سيرة « ابن هشام » نقلا عن « ابن اسحق » . لان هذا الاخير أقرب مؤرخي العرب ــ تأريخا بالمعنى الصحيح ــ الى العصر الجاهلي . فليرجع اليها السائل الفاضل اذا شاء . .

ولقد حقق المرحوم امين بك واصف بعض هذه المسائل في كتابه «فهرست المعجم الجغرافي» فقال في بعض فصوله انه « لما تفرق بنو قحطان بعد سيل العرم رحل آل جفنة من اليمن والازد من بني كهلان الى الشام ، ونزلوا بماء يقال له غسان ، فسموا به ، واقاموا ببادية الشام وتزاحموا مع ضليح فغلبوهم على أمرهم واخرجوهم من ديارهم وبقى الغساسنة ملوكا بالشام اكثر من اربعمائة سنة ، واولهم جفنة بن عمرو بن ثعلبة ، وآخرهم جبلة بن الايهم صاحب الحادث المشهور ، الخ . . . »

ولعل الخلاف على عدد ملوك الغساسنة ومن حكم منهم اولا راجع الى ان بعض المؤرخين قد ارجع الغساسنة الى اصلهم قبل ان يرحلوا ، حتى لتجد بينهم من يقول عن « غسان » انها

« ماء بسد مارب باليمن » ومنهم من يقول انها « ماء بالمشلل » وهو جبل وراء وادي عزوز القريب من المدينة ، وهكذا ...

* * *

اما قصة نزوح الازد وتفرقهم فلعل أحسن ما كتب في تسجيلها ان عمرو بن عامر ، والد جفنة اول ملوك الغساسنة ، لما رأى ما يوشك ان يصيب « سد مارب » الذي كان يحبس عنهم الماء فيصرفونه حيث شاءوا من ارضهم ، اعتزم النقلة ، فكاد قومه ، فأمر أصغر ولده سرا ان يلطمه اذا ما أغلظ له ، ففعل ، فقال عمرو « لا أقيم ببلد لطمني فيه اصغر ولدي » ، فانتقل هو وولده وولد ولده ، فقالت الازد لا نتخلف عن عمرو فخرجوا معه ، فساروا حتى نزلوا بلاد « عك » فحاربتهم « عك » وكان الحرب بينهم سجالا ، ثم ارتحلوا عنهم فتفرقوا في البلدان ، فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر « الشام » ، ونزلت الاوس والخزرج « يثرب » ونزلت خزاعة (مرا) ونزلت أزد السراة « السراة » وأزد عمان « عمان » ثم ارسل الله السيل على السد فهدم .. والله أعلم ..

اتجاه الرياح

(الحصن - شرق الاردن) ابراهيم البيروتي

هل لهبوب الرياح علاقة بدورة الكرة الارضية؟ وان كانت هناك علاقة فلم لا تتجه الرياح وجهة واحدة ؟

(الهلال) نعم لهبوب الرياح علاقة بدوران الكرة الارضية حول نفسها ، وهناك قانون معروف باسم قانون فريل « Ferrel » مؤداه ان الاجسام المتحركة على سطح الارض تنحرف الى يمين اتجاهها في نصف الكرة الشمالي ، والى يساره في نصفها الجنوبي . وتتبع الرياح هذا القانون . فهي في هبوبها مثلا من المنطقة المدارية الثقيلة الضغط الى المنطقة الاستوائية الخفيفة الضغط تتجه في نصف الكرة الشمالي نحو الجنوب الغربي بدلا من اتجاهها الى الجنوب مباشرة ، وبذا تكون قد انحرفت الى يمين اتجاهها وهي التي تسمى بالرياح التجارية الشمالية الشرقية . وكذلك الحال فيما يتعلق باتجاهها في نصف الكرة الجنوبي اذ تنحرف نحو الشمال الشرقي ، وفيما يتعلق بالرياح العكسية والرياح القطبية ، وهذه تسمى بالرياح الدائمة

أما لماذا لا تتجه الرياح جميعا اتجاها واحدا فلانها لا تخضع لعامل دوران الارض وحده ، وانما تخضع في الوقت نفسه لمؤثرات وعوامل أخرى ، أهمها اختلاف الضغط بين منطقتين ، فتراها تخرج من مناطق الضغط الثقيل الى مناطق الضغط الخفيف ، متبعة في ذلك قانون « فريل » سالف الذكر ..

التصوف في الاديان المختلفة

(مصر) ميخائيل باتوب بشاي

ما التصوف ؟ وهل هو مذاهب متعددة ؟ وهل يتلون بلون عقيدة المتصوف الدينية كالمسيحية او الاسلام ؟ ارجو ان تذكروا اسماء بعض كبار المتصوفين ..

(الهلال) اختلف المفسرون في تفسير كلمة « التصوف » . فمنهم من ارجعها الى لبس الصوف الذي كان يؤثره المتصوفة على سواه مبالغة في الزهد والتقشف ، ومنهم من قال انها من « الصفاء » لما يقصد به من صفاء الروح ، ومنهم من قال غير ذلك مما افاضت في شرحه كتب اللغة ومؤلفات التصوف

وقد وجد التصوف في كل الاديان تقريبا ما عدا الوثنية . ففي البراهمية مثلا نجد ان اعلى درجات الكهنوت هي درجة « النسك » التي لا بد ان يهيم فيها المتعبد على وجهه في الغابات شريدا طريدا ، يقتات بالعشب وما اليه حتى اذا ما جاز هذه المرحلة بنجاح سمي «فقيرا»

وخرج من انسانيته وصفت روحه .. وجاءت البوذية فأيدت ذلك بذكر ان الاندماج في « النفس الاولى » ــ أى الذات العلية ــ يجب له انكار الذات والتأمل والزهد فى الدنيا ، الخ ...

وظهرت فى المسيحية مذاهب فى التصوف كثيرة ، على ايدى رهبان الاديرة المختلفة ، فمنهم من جعلها انقطاعا للعبادة ، ومنهم من اشرك فيها بعض الاعمال الدنيوية على ان تنصرف الى الخير ، والخير وحده .. ولما ظهر الاسلام ظهرت فيه طرائق فى التصوف مختلفة ما يزال بعضها قائما بين ظهرانينا . واشهر متصوفة الاسلام « شقيق البلخى » و « رابعة العدوية » و « الامام الغزالى »

وبذا ترون ان التصوف لابد ان يتلون بلون العقيدة الدينية للمتصوف ، لان لكل صوفى طريقته الخاصة فى العبادة ، على اساس تلك العقيدة ، وان كانت جميعها تتفق فى الغاية ، وهى « الوصول » ، ومعناه فى لغة المتصوفة الاتصال الروحى بالذات العلية

طفلة ثائرة

(المحلة الكبرى . شركة مصر : الاصيل)

لى ابنة اخت صغيرة عمرها خمس سنوات كثيرة الثوران والاهتياج وتبدو كالبلهاء أو المجنونة . فهى تسب وتلعن الجميع لا فرق عندها بين القريب او البعيد . واذا بكت صرخت باعلى صوتها وارتمت على الارض وتمرغت فى التراب والقاذورات ويخيل الى انها لن تهدأ أبدا من فرط ثورانها وطول بكائها . فهل هذا مرض أم ترى بها طائف من الجن ؟ وما علاج مثل هذه الصغيرة لنردها الى الخلق القويم ولين الجانب مثل سائر الاطفال ؟

(الهلال) هذه المسكينة ضعيفة الاعصاب ونرجح ان ضعفها وراثى . وعلى كل حال يجب عرضها على طبيب مختص فى الامراض العصبية ليحلل دمها أولا ثم يصف لها العلاج الذى يناسب حالتها . ومثل هذه الحالة اذا لم تكن ناتجة عن مرض وراثى خبيث يسهل علاجها بالمقويات كالكالسيوم والفسفور والحديد بمعرفة الطبيب طبعا . ثم يحسن نقلها الى جو هادىء ومعاملتها اذا ما ثارت معاملة الاشفاق كالمريض سواء بسواء ــ مع الاقلال مما يسبب لها الاهتياج والثوران وقد ثبت ان امثال هذه الطفلة تخف حالة التوتر العصبى عندهم بالتقدم فى السن ــ وبخاصة بعد انقضاء دور المراهقة . فاعملوا بما يصفه الطبيب اولا . ثم وفروا لابنتكم الجو الهادىء تلمسوا فى حالتها تقدما محسوسا

الماس والبلاتين : أين يوجدان ؟

(عمان ــ شرق الاردن) شمس الدين سامى

قرأت فى أحد كتب الكيمياء المعدنية باللغة التركية ان الماس الخام يوجد عادة بين رمال الاراضى « اللحقية » . وقد استعمل المؤلف هذه الكلمة مقابل كلمة Alluvion الافرنجية ، ولكنى لم أظفر بتفسير لها فى كتب اللغة التى تحت يدى ، فماذا يقصد بها المؤلف ؟

كذلك يذكر الكتاب نفسه ان معدن « البلاتين » يوجد هو الآخر فى الاراضى الرميلية اللحقية القديمة . فهل لكم ان تفيدونى عن طبيعة الاراضى أو الرمال التى يحتمل ان يوجد فيها احد هذين المعدنين ؟ وهل لكم ان تفيدونى ايضا عن احسن كتاب عصرى يبحث فى خامات المعادن وكيفية وجودها بطبيعة الارض باللغة العربية ؟

(الهلال) أن كلمة Alluvion أو Alluvium قد وردت فى المعاجم بمعنى « غرين » أو « طمى » أو « رسوب » . وبذا يكون المؤلف قد قصد بقوله « الاراضى اللحقية » « الاراضى الرسوبية » والاجماع على ان اغنى مناجم الماس فى العالم

هى الموجودة فى جنوب افريقا ، وعلى الاخص فى « كمبرلى » . اما « البلاتين » فيوجد فى جبال « أورال » الفاصلة بين روسيا الاوربية وروسيا الاسيوية ، وهناك من يقول بانه لم يوجد بعد فى سواها ..

ولعل خير كتاب يستطيع السائل ان يجد فيه بغيته باللغة العربية هو كتاب « الجيولوجيا » لمؤلفه الدكتور حسن صادق باشا وزير الدفاع فى مصر ، وضعه ايام كان مديرا لمصلحة المساحة والمناجم والمحاجر

كثرة النعاس وعلاجها

(ومنه أيضا)

يتغلب النعاس على كثير من الاشخاص ، فما هو السبب ، وما هو العلاج ؟

(الهلال) النوم ضرورة طبيعية لا بد منها للاستجمام واستعادة اعضاء الجسم وعضلاته نشاطها . وقد حدد الاطباء وعلماء الصحة الاوقات اللازمة للنوم فى مختلف ادوار العمر ، وهى تقصر كلما تقدمت السن بالانسان ، كما تطول فى بعض حالات الضعف والمرض

اما ما يصيب بعض الناس من فتور وخمول يؤدى الى الرغبة فى النوم فى غير مواعيده ، فانما يرجع فى معظم الحالات الى هبوط عام فى الصحة ، نتيجة لعدم انتظام الدورة الدموية ، أو بسبب سوء الهضم ، أو تحت ضغط مؤثرات أخرى خارجية كالاصابة بمرض من الامراض

ومن البديهى انه يمكن ازالة هذا الفتور بازالة اسبابه ، عن طريق استشارة الاطباء الاخصائيين

سرعة النور

(كوماس ـ افريقا الغربيه) سليمان نصار

يقال ان للنور سرعة محدودة ، وان الشمس لا يصل نورها الى الارض حالا عند بزوغها ، فكم من الوقت يلزم لذلك ؟

(الهلال) تتراوح سرعة النور بين ١٨٦٫٠٠٠ و ١٨٦٫٦٠٠ ميل فى الثانية ، أى بمتوسط ٣٠٠٫٠٠٠ كيلومتر تقريبا

ولما كان متوسط المسافة بين الارض والشمس ٩٣٫٠٠٠٫٠٠٠ ميل فان ضوء الشمس يخترق هذه المسافة فى ٨ دقائق و ١٤ ثانية ، بينما يقطعها الصوت في ١٥ سنة

ميزانية الدولة العثمانية

(حلب) حسين يزيد

هل كان للدولة العثمانية قبل انشاء سكة حديد الحجاز نظام مالى قائم يستدل منه على ميزانية الدولة السنوى ؟

وهل استعانة الدولة بشيء من ميزانيتها على الصرف على خط الحجاز أم اقتصر الامر على التبرعات المجموعة من انحاء العالم الاسلامى . وان كانت الدولة تحملت شيئا فهل يمكن التوصل لتقديره ولو بصفة تقريبية ؟

(الهلال) المعروف يقينا عن السلطنة العثمانية انه كان لها منذ اوائل ايامها نظام مالى من ادق ما عرف فى تاريخ الحكومات . وكان للشئون المالية ديوان خاص هو الديوان الدفترى ومن تحته ديوان حسابى هو المعروف بديوان الروزنامه

وبرأس الديوان الدفترى الدفتردار ـ وهو بمثابة وزير المالية الآن ـ وبرأس الروزنامة « الروزنامجى » . ونعلم يقينا ان محفوظات هذين الديوانين موجودة فى استانبول وفى مختلف عواصم الولايات التى كانت خاضعة للعثمانيين، ويمكن الرجوع اليها لدراسة الميزانيات دراسة تفصيلية . ونحن نعتقد ان الجواب عن سؤالكم ستجدونه فى هذه المحفوظات المالية اذا استطعتم التوصل اليها . كذلك يمكن بمراجعة صحف سنة ١٩٠٨ التيقن من تكاليف هذا الخط الحديدى والمدة التى استغرقها انشاؤه

الشرق والغرب

فى كتب الصينيين القديمة أسطورة يتناقلها القوم من زمن بعيد معتقدين أن أيام الاكبر ابن السماء قد أفضى بها الى كاهنه الاعظم الذى دون تفاصيلها فى سجلات هيكله وحرم قراءتها الاعلى الكهنة والابرار من الناس

والصينى المطلع يقصها عليك لكى يثبت لك ان وطن (الرجال الصفر) مهد المدنيات جميعاً ، وان النور كان ولا يزال يشع على الغرب منبعثاً من الشرق

فاسمع الاسطورة واطبعها ايها الشرق على صفحة ذاكرتك

فى ذلك العهد البعيد الغارق فى القدم ، كان ابن السماء (يوفى) سجين الاعداء فى كهف مظلم وسط الجبال التى يطلق عليها أبناء الغرب اليوم اسم (هلفيسيا) أو (سويسره)

وكان الناس لا يعرفون فى ذلك الوقت من الثياب غير الجلود والقدود والفراء ، يسترون بها عوراتهم ، ويتقون بواسطتها لفحات البرد والزمهرير ، ومن الاسلحة غير الحجارة والأغصان ، يصنعون منها القؤوس والهراوات

رحل (يوفى) عن بلاده التى تشرق الشمس من وراء قممها الشاهقة ، متجهاً الى الأقطار المجهولة التى تغوص الشمس فى بحارها المظلمة المائجة

سار على قدميه وحيداً وقطع المسافات الشاسعة ، ووصل بعد شهور ، لقى فيها من العناء أشده ، الى بقعة من الارض جرداء قاحلة ترتع فيها قبيلة من البشر المتوحشين أطلقوا على أنفسهم اسم (الذئاب السوداء)

عبثاً حاول يوفى أن يخاطب أولئك الهمج بلغة أبناء السماء ، فانهم لم يفهموا من حديثه شيئا ، بل ارتابوا فى أمره وقبضوا عليه وحبسوه فى ذلك الكهف

وعقد شيوخ القبيلة مجلساً برياسة كبيرهم — واسمه (الثور الهائج) — وجعلوا يتداولون فى

مصير الرجل الغريب ذى البشرة الصفراء الذى ساقته الاقدار العمياء اليهم كما تسوق الغزلان الى مغاور الضباع

وبينا القوم يتباحثون ويتجادلون تناول يوفى من جعبته حجراً مقلوما مهذباً وجعل ينحت فى العظام المبعثرة حوله رسوماً مختلفة الاشكال والانواع

صاح أحدهم بصوت دوى كهزيم الرعد فى أرجاء الكهف : « ليمت الرجل الأصفر »

لكن يوفى لم يأبه به ، بل ظل مستمراً فى عمله على ضوء مشعل وضعه أمامه بين الصخور

وألقى الزعيم على الرجل الذى نادى بموت الغريب هذا السؤال :

— لماذا يطلب (الدب القوى) موت الرجل الأصفر ؟

فأجاب الدب القوى :

— لأن وجوده بيننا خطر علينا

واحتدم الجدال على أثر ذلك بين الشيوخ المجتمعين

— أى خطر تخشاه القبيلة من رجل واحد لا حول له ولا سلاح معه ؟

— قد يتبعه رجال آخرون . انظروا الى بشرته الصفراء انها تختلف عن بشرتنا نحن . فهو ينتمى إذن الى قبيلة لا نعرفها ، فلنكن منه على حذر أيها الاخوان

— ينبغى لنا أن نقتله لكى نأمن شره وشر قبيلته

— نعم . لنقتله . فقد يخوننا ويطلع القبائل المعادية على أسرارنا وغاباتنا

— أية خيانة تخشون يا قوم ؟ لقد أضاع الجبن رشدكم ، احتفظ بهذا الغريب الأعزل حتى اذا ما تعلم لغتنا استطعنا أن نتحدث معه ونعرف منه أموراً نجهلها

— نعم . واذا اتضح لنا انه سىء النية وانه يضمر الشر للقبيلة ، فان أمامنا من الوقت متسعاً لكى نذبحه ، ونعد من لحمه طعاما ومن دمه شرابا

أيظن (الثعلب الماكر) أن هذا الرجل الاصفر يأتى من ناحية الشرق دون أن يكون وراءه قطيع من أمثاله ، أخشى أن نهاجم بعد أيام فى مغاورنا وأن نؤخذ على حين غفلة . فكونوا أيها الاخوان على حذر

— لقد أصاب (الابل السريع) فى قوله . فلنكن على حذر

كان هذا الكلام مشجعاً للابل السريع فاستطرد قائلا :

— سوف يغزو الرجال ذوو الوجوه الصفر غاباتنا ومراتعنا . لا شك فى انهم يهجرون الآن جبالهم وسهولهم سعياً وراء القوت والصيد ، فعلى (الذئاب السود) أن تحرص على أملاكها حرصها على حياتها

كان فى لهجة (الأيل السريع) شيء من التهديد والوعيد . وشعر (الثعلب الماكر) أن رجال القبيلة سوف يقتلون الغريب فحاول انقاذه مرة أخرى قائلا :

— ان (الثور الهائج) هو كبيرنا وزعيمنا وصاحب الأمر والنهى فينا . ليقل كلمته . لكننى أؤكد لكم أن قبيلة (الذئاب السود) سوف تندم على قتل هذا المسافر

فقال (الثور الهائج) بعد سكوت قصير :

— ليذهب (الثعلب الماكر) وليأتنا بالرجل . لابد من اتخاذ قرار نهائي بينما نساء القبيلة يقمن باعداد طعام المساء

نهض (الثعلب الماكر) وتوغل فى الكهف . ثم عاد وحده وقد ارتسمت على وجهه أمارات الدهشة المزوجة بالخوف . فسأله رئيس القبيلة :

أين الغريب ؟

ان هذا الرجل ليس كبقية الرجال

— أفصح

— رأيت الغريب ينحت فى عظام الثعالب والثيران رسوم نعاج وغزلان . ناديته فلم يلتفت إلىّ . صحت به فلم يتحرك . إنه لا يأبه بالموت الذى يحوم حوله . فلا بد أن يكون هذا الغريب على صلة بالارواح التى تحميه وترد عنه الاذى . وقد رأيت على صفحة الصخر أمامه رسم ثعلب وثور خيل إلىّ أنهما يتحركان

فقال (الثور الهائج) وقد استولت عليه الدهشة :

— هيا بنا . . .

ونهض الشيوخ جميعهم ودخلوا الكهف وراء زعيمهم

أكان الغريب يجهل معنى الخوف ، أم كان يحتقر أعداءه ولا يحسب لهم حساباً ؟

نظر رجال القبيلة الى الرسوم التى نحتها الرجل الأصفر على العظام والصخور ، فتراجعوا مذهولين وظلوا لحظة صامتين وفى أماكنهم جامدين

لكن (الثور الهائج) اقترب من الغريب ووضع يده برفق على كتفه وقال :

— من علمك أيها الغريب صنع أشياء مثل هذه ؟ قل . من علمك ؟

نسى زعيم القبيلة أن الرجل الاصفر لا يفهم لغته وأنه لا يستطيع على سؤاله جواباً ، لكن دهشة القوم تضاعفت عند ما رأوا ذلك الغريب يرفع رأسه ويبتسم لهم ويجيب زعيمهم على سؤاله :

— ان (يوفى) قد تعلم هذا كله فى بلاد تشرق منها الشمس التى تضىء عليكم بنورها

وتنعشكم بحرارتها . وهو يعلم أشياء أخرى كثيرة ويحمل معه الامان والسلام

خاطبهم بلغتهم . وقد تعلم تلك اللغة وأدرك أسرارها فى يومين اثنين قضاهما بينهم !

جلس القوم حوله . وقال (الثور الهائج) بصوت هادىء :

حدثنا عن البلاد التى تشرق منها الشمس

فأجاب (يوفى الاصفر) :

— لم أتناول طعاماً منذ يومين

فنظر القوم بعضهم الى بعض وتساءلوا كيف يستطيع الرجل الغريب أن يحتفظ بابتسامته ويبقى مكباً على عمله ولم يدخل جوفه طعام منذ يومين ؟

ان الذى ينبه أعداءه بلين وهوادة الى تقصيرهم فى معاملته وهو السجين الاعزل لرجل أعظم من بقية الرجال بلا شك والارواح تحرسه

فقال (الثور الهائج) للرجل الاصفر :

— اتبعنا أيها الغريب

فنهض (يوفى) وخرج مع الشيوخ الى مدخل الكهف حيث كانت النساء قد وضعن اللحوم فى آنية من جذور الاشجار

وبدأ القوم يأكلون . . . وفعل الغريب مثلهم ، وجعل يحدثهم عن المشرق ويرفع عن أعينهم الغشاوة ويقول لهم إن الانسان مكون من شىء آخر غير اليد التى تقتل والجوف الذى يلتهم

أفهمهم أن عبادة البطون ، والفتك بالغريب ، وتغذية الحقد والضغينة بأعمال السلب والنهب والقتل ، ليست الغاية القصوى لهذه الحياة التى يحياها البشر . فأصغى القوم لحديثه وأمسك بعضهم عن الاكل لكي يستمعوا له ويدركوا معنى تلك الحكم الغالية التى كانت تنهمر كالغيث من بين شفتيه

قال لهم انه قادم من سهول (موغوليا) وان أجدادهم أيضاً أتوا من تلك السهول وتدفقوا على الغرب . لكن قبيلته أعرق فى القدم من قبيلتهم وأقرب الى أبناء السماء من (الذئاب السود) ، وأنه جاءهم بقوة الفكر وسلاح العقل لكي يرتقوا بواسطتهما ويرتفعوا عن مستوى الحيوان

وبعد أن تكلم الرجل الاصفر طويلا ، نهض شيوخ القبيلة وكهولها ونساؤها وأقروا للغريب بفضله ، وقد شعروا جميعاً بأن قوة خفية لا يدركونها تكمن فى صدر ذلك الرجل الذى أوفدته الشمس المشرقة رسولا اليهم

وشربوا جميعاً عصير الكروم فى أجحاف الرؤوس وقرون الثيران

لكن (يوفى) لم يشرب . بل تناول من جعبته رسماً جديداً وأعطاه لزعيم القبيلة قائلا :

— احتفظ بهذا يا أخي واذكرني كلما وقع نظرك عليه . لم أصل بعد الى آخر مرحلة من مراحل السفر ، ولن أتوقف عن السير إلا عندما أبلغ شاطىء المياه الزرقاء

فتبادل القوم نظرات ملؤها الدهشة والاستغراب . . كان الرجل يتكلم كأنه حر فى استئناف السفر !

أنسى أنه فى قبضة (الذئاب السود) ، وان فى استطاعة القبيلة أن تذبحه باشارة من زعيمها ؟

قال (الثور الهائج) للغريب :

— لماذا لم تشرب معنا عصير الكروم ؟ ان فى امتناعك عن الشرب لاهانة لنا

فأجاب (يوفى) قائلا :

— انى فى حاجة الى الاحتفاظ بمداركى كاملة غير ناقصة . وشرابكم هذا يجعلنى أقرب الى الحيوان منى الى الانسان ، ان أبناء السماء لا يتناولون غذاء غير العصافير والأثمار والمياه الصافية . أما اللحوم والدماء وعصير الكروم فهى غذاء رجال الغرب وحدهم

وقص عليهم الرجل الاصفر غير هذا . وكان ينثر عليهم الحكم والنصائح وهم يفرغون فى أجوافهم ذلك الشراب الذى سموه عصير الكروم

وبعد ساعة واحدة كانوا جميعاً مستلقين على الارض وقد فقدوا صوابهم ، ويوفى وحده بينهم يتكلم عن الشمس المشرقة وعن بلاده مهد الانسانية ومبعث الحضارة

ولما تبين » أن لا أحد يصغى اليه نهض من مكانه والحزن يملأ نفسه ودخل الى الكهف واستسلم لسنة النوم

رأى الثور الهائج حلماً أزعجه وأقلق راحته . رأى الرجل الاصفر يحتل فى القبيلة محله ، وينتزع من يده هراوة الزعامة ، وينشر بين (الذئاب السود) تعاليمه . فدب الحسد الى صدره وقرر أن يتخلص من ذلك الغريب المزاحم الخطر

ونهض خائفاً مذعوراً

واذا بالرجل الاصفر أمامه وعلى ثغره تلك الابتسامة التى لم تفارقه لحظة منذ الساعة التى وقع فيها فى قبضة (الذئاب السود) فصاح به (الثور الهائج) قائلا :

— ما بك أيها الغريب ، ومالى أراك واقفاً أمامى والشمس لم تطلع بعد من وراء الجبال ؟

فأجابه (يوفى الاصفر) :

— عزمت على الرحيل أيها الزعيم . فقد غادرت البلاد التى تشرق منها الشمس وينبعث منها النور على أن أصل الى البلاد التى تغرب فيها الشمس وينطفىء فيها النور . انى أعلم أين يبدأ العالم ،

وأريد أن أعلم أين ينتهى . وعندما يتم لى ذلك سوف أعود الى قبيلتي حاملا الى شيوخها وحكامها حقيقة يجهلونها الآن

فنظر اليه (الثور الهائج) وقال والشرر يتطاير من عينيه :

— كلا لن تذهب . ان حياتك ملك لى . وأنت الآن فى قبضتى . ان (الذئاب السود) جائعة أيها الغريب وسأقدم لها لحمك ودمك طعاماً وشراباً

فبدا الاحتقار فى ابتسامة الرجل الاصفر وأجاب قائلا :

— ان حياة الانسان ليست ملكا لانسان آخر . بل ليست ملكا لصاحبها . فكيف تنتزع حياتى أيها الرجل ، وقد نفختها فى روح سامية لا تدركها ولا تدرك معناها ؟ ان حياتى كحياتك أنت وحياة هؤلاء جميعاً ملك للذى أنعم بها علينا ، وله وحده الحق فى أن يستردها متى شاء ، وهو أقوى منك وأطول باعاً من ذئابك السود

لم يدرك الثور الهائج معنى هذه الكلمات التي فاه بها الغريب . لكنه شعر بقوة خفية تتسلط عليه فارتعدت فرائصه دون أن يعلم لذلك سبباً . وكان رجال القبيلة قد استيقظوا من سباتهم ونهضوا من مراقدهم فأحاطوا بزعيمهم وقد سرت فيهم رعشة غريبة لم يدركوا أيضاً لها معنى أو سبباً

ونظر أولئك الرجال الذين يحملون أسماء الحيوانات الى ذلك الرجل الاصفر الذى قال لهم ان اسمه (يوفى) أى (العقل الراجح) وانه من أبناء السماء

ونظر (يوفى) اليهم نظرة احتقار ، نظر الى (الثور الهائج) والأيل السريع والثعلب الماكر والفيل الجبار والاسد المفترس

نظر الى أولئك الرجال وابتسم مرة أخرى وقال :

— سوف يجىء يوم تبلغون فيه درجة الكمال التى نسعى اليها ، وسوف يلحق بى من أبناء قومى رجال آخرون يحملون اليكم مبادىء التهذيب الفكرى التى نضع الآن أسسها

وغادرهم الرجل الاصفر واستأنف سيره الى شواطىء المياه الزرقاء التى تغوص الشمس فى لجتها

وقبل أن يغيب عن أنظارهم التفت (يوفى) اليهم ورفع يده للوداع

لقد تغلب الرجل الاصفر على أعدائه بلا قتال وهزمهم بلا سلاح ، وأثبت لأولئك الهمج المتوحشين أبناء الغرب وسكان المغاور والكهوف أن العقل أمضى من القوة ، وان رجلا واحداً يتسلط بفكره وارادته على قبيلة كاملة !

طرد الغاصب

ترك أحمس الاول مدعويه الكثيرين في المكان الذي أعد لهم فيه مأدبة فاخرة فراحوا يغنون ويرقصون ، وقصد كعادته الى الخلوة التي كان يأوي اليها في قصره للتفكير في مستقبل أمته ووضع الخطط لانقاذ مصر من حكم « الرعاة » وطردهم الى ما وراء الحدود

كان الرجل قد عزم عزما صادقا على القيام بهجوم عام لاقصاء آخر عدو عن أرض وطنه ، فأعد العدة لذلك الهجوم الخطير ، ودعا قواد جيشه وحكام المقاطعات والاقاليم الى مأدبة في حدائق القصر على احدى ضفاف النيل المبارك . فلبوا الدعوة وأقسموا يمين الطاعة لفرعون والاخلاص للوطن ، وعاهدوه على الاستماتة في الحرب الى أن تقضي الآلهة بما تريد

ولكن واحدا منهم ، وهو عميد القواد وشيخ من شيوخ الحرب وبطل من أبطال الميادين ، وقف في وسط ذلك الجمع المحتشد حول المائدة وصاح بأعلى صوته :

ـ مولاي فرعون : لقد هرعنا اليك ووضعنا أنفسنا تحت تصرفك للقيام بواجب وطني مقدس . وقطعنا كل صلة تربطنا بأولئك الذين يرهقون بلادنا بالعسف ويستعبدوننا منذ مئات السنين ، فسر بنا الى مقاتلتهم ، ولكن فكر من جهتك في قطع كل صلة تربطك بهم ، وأنت تدرك ما أعني ، وعليك سلام الآلهة !

***

نعم ، أدرك فرعون ما كان ذلك القائد الشيخ يعنيه ، وفطن الى أن ما يطلب منه ليس الا جزءا لا يتجزأ من واجبه كملك ، وكمصري

فأجاب قائلا :

ـ سيكون أحمس ، أيها القائد المحنك والشيخ الحكيم ، عند حسن ظنكم به ، ولن يتواني

فى القيام بواجبه كاملا ، مهما يكن ذلك الواجب صعبا قاسيا مؤلما !..

وبعد أن قال فرعون هذا ، خرج من المكان تاركا المدعوين فيه يأخذون نصيبهم من الفرح والمرح

ودخل خلوته وشفتاه ترددان اسما عذبا : « نور !.. نور !.. »

هو اسم المرأة التى كان أحمس الاول يحبها وكانت تحبه ، والتى أشار القائد الشيخ بوجوب قطع كل صلة بها ، لانها ابنة أمير من أمراء « الرعاة » أعداء مصر وغزاتها

***

يعرف التاريخ أولئك « الرعاة » باسم « الهكسوس » وهو اسم مركب من كلمتين يونانيتين : « هيكو ـ شاسو » ومعناهما « أمراء البدو »

غزا الهكسوس مصر ، وتدفقت جموعهم عليها من الشرق فى أواخر حكم الاسرة السادسة عشرة ، أى حوالى سنة ٢١٠٠ ق.م، فانتشروا فى الوجه البحرى ، وتسربوا الى الوجه القبلى ، وشيدوا عاصمتهم فى جنوب بحيرة المنزلة ، وحكموا البلاد خمسة قرون

واختلف المؤرخون فى وصف حكمهم ونوعه وأسلوبه ، فقال بعضهم انهم كانوا متوحشين قساة القلوب، استعبدوا الناس واسترقوا النساء والاطفال، وخربوا المدن وظلموا العباد . وقال آخرون انهم لم يتعرضوا للسكان فى معيشتهم ودينهم ، بل حاولوا التقرب اليهم والامتزاج بهم وشيدوا المعابد لآلهة المصريين وتثقفوا بثقافتهم

غير أن الامر الذى لا شك فيه أنهم كانوا أجانب ، وأن المصريين كانوا ينظرون اليهم نظرهم الى أجنبى غاصب دخل البلاد واحتلها بلا حق

وعند ما اشتدت سواعد المصريين ، واستعادت مصر قوتها السابقة ووحدتها الضائعة ، قام أبناء البلاد يناجزون أولئك الاغراب ويجاهدون فى سبيل اقصائهم عن أرضهم ووطنهم

تلك سنة الحياة منذ انقسم الجنس البشرى الى قبائل وألفت القبائل أمما وشعوبا

فالاجنبى مكروه فى كل بلد يحتله ويقيم فيه حكمه على القوة الغاشمة

وحياة الامم سلسلة متواصلة الحلقات من الحروب والثورات فى سبيل الحرية العزيزة الغالية

وحياة الامة المصرية لم تشذ عن هذه القاعدة . فقد غزتها شعوب غريبة غير مرة فى التاريخ . وتألبت عليها جحافل الفاتحين وبسطت سلطانها على الوادى السعيد ، ولكنها أجليت عنه بعد كل غزوة ومحنة ، وعادت البلاد الى أصحابها ، وعاد النيل الى أبنائه

***

جلس أحمس الاول على عرش مصر من سنة ١٥٨٠ الى سنة ١٥٥٠ ق.م. وعلى يده تم تحرير البلاد وانقاذها من النير الاجنبي

كان اسلاف ذلك الملك الوطنى العظيم قد باشروا الحرب وشرعوا فى توحيد كلمة المصريين وجمع صفوفهم تحت راية الوطنية والقومية . فزحزحوا الهكسوس عن مواقعهم، وزعزعوا مركزهم ، واضطروهم بعد حروب متواصلة دامية الى الاعتصام باقليم «جاسان» وما يجاوره من الاراضى الواقعة فى الشمال الشرقى من الدلتا ، وهى التى تسمى اليوم مديرية « الشرقية »

وكان ملكهم منحصرا فى تلك البقعة من الارض المصرية عند ما هبط مصر يوسف الصديق وتبعه اخوته والاسرائيليون

وظل القتال ناشبا بين المصريين والهكسوس أجيالا طويلة ، وتخلله من الجانبين كر وفر ، وهجوم ودفاع ، وتقدم وتقهقر ، الى ان بزغت بجلوس أحمس على العرش شمس عصر جديد ، عصر الحرية والاستقلال

***

كان احمس شابا جميلا ، قوى العضلات مفتول الساعدين ، رابط الجأش ، واسع الآمال جريئا ، لا تخيفه الاهوال ولا تقف فى سبيله العقبات

وكان ذلك الشاب الجميل شاعرا يحب الجمال !

هاجم بجيشه ذات يوم مدينة حصينة من مدن الهكسوس ، فاقتحم أسوارها ، وفتك بحاميتها ، وضمها الى ملكه ، وساق أمامه الاسرى والسبايا الى قصره فى طيبة

وما كان فرعون يدرى ان احدى الاسيرات اللواتى ساقهن أمامه من تلك المدينة سوف توقعه فى أسرها !

تلك الاسيرة هى « نور » ابنة القائد « طورس » الذى كان يحكم المدينة باسم ملك الرعاة ويتولى الدفاع عنها والمحافظة عليها

وقد خانه الحظ فوقع فى الاسر مع نسائه وابنته وصفوة أعوانه . ولكن الفتاة « نور » عرفت كيف ترسل سهام عينيها الى قلب فرعون ، وتحمله على معاملة أبيها ورفاقه بالحسنى، ثم على اخلاء سبيلهم جميعا وتركهم يعودون أحرارا الى أرض جاسان حيث أهلهم وعشيرتهم

أحب فرعون الفتاة الغريبة حبا ملك عليه مشاعره ولبه ، ولم تكن الفتاة مخادعة مخاتلة، بل أحبته كما أحبها ، وبادلته اخلاصا باخلاص وأمانة بأمانة ، وعرضت عليه التوسط بينه وبين قومها ، وتمكنت بدهائها من تذليل صعاب كثيرة وعقبات جمة ، وخيل للهكسوس ان

فرعون سوف يتعاقد معهم بفضل تلك الحسناء على تقسيم مصر دولتين : دولة يحكمها الملوك المصريون ، وأخرى يقيم فيها الرعاة خاضعين لملوكهم

وكان طورس ، والد الفتاة ، يتذمر احيانا ويصرح برغبته فى انقاذ ابنته من قصر فرعون ، ولكن رفاقه كانوا يهدئون روعه ويحملونه على العدول عن رغبته قائلين :

ـ انك تضمن سلامة قومك بمعونة تلك الفتاة التى تقيم فى قصر فرعون . فقد استولت على فؤاده ، ولن يهددنا خطر ما دامت « نور » تعيش فى كنف احمس وتحتل قلبه ..

***

ولكن أحمس ، بعد ان دفع بالمصريين الى الامام كالسيل الجارف ، أصبح غير قادر على حصر ذلك السيل ومنعه من متابعة تدفقه

فقد عزم فرعون على انقاذ وطنه من الحكم الاجنبى ، واقصاء الغاصبين عن مصر ، وهبت أمته هبة واحدة تشد ازره وتوافيه بالرجال والاموال والعتاد ، فلما حصر فلول الهكسوس فى شقة ضيقة على الحدود الاسيوية ، شعر بقدرته على طردهم من البلاد ، وعلى مطاردتهم خارج مصر الى الاقطار المجاورة

وتنازعته رغبتان : رغبة القيام بواجبه الى النهاية ، وتحرير بلاده ومحو كل أثر للاجنبى فيها ، ورغبة ارضاء المرأة التى أحبها وأحبته ، وأخلص لها وأخلصت له ، وشرب معها كأس الغرام مترعة ، وأسمعته أعذب انغام الحب والهيام ، وارتشف من شفتيها فى الليالى المقمرة حلو الرضاب !

كان صوت الوطن يهيب به فى النهار بألسنة القواد المتحمسين :

« هيا الى القتال فالسيوف متعطشة الى الدماء ، والنفوس توافة الى النزال ، ومصر راغبة فى الحرية الكاملة والاستقلال التام ! »

وكان صوت الحب يهمس فى أذنه ، فى سكون الليل ، بلسان الحسناء الساخرة :

« دع عنك صليل البواتر ولمعان النصال وهدير الجيوش المتلاحمة ، وارفق بقوم لا يلحقون بك أذى ولا يطلبون غير بقعة من الارض يقيمون فيها آمنين . فمصر واسعة الارجاء مترامية الاطراف . وخير لك ان تكتسب صداقة عدوك من ان تثير عليك احقاده وضغائنه ! »

وبين الصوتين ، وبين الرغبتين ، وبين الدافعين ، كان فرعون حيران ، قلقا ، مضطربا !

***

عزم أحمس على اتخاذ قرار حاسم ، واستشارة امراء الدولة وقوادها واقطابها فى الامر فدعاهم الى تلك المأدبة والتقى مئات منهم حول موائدها ، وكانوا جميعا على رأى واحد

وعزيمة واحدة : « الحرب الحرب !»

وكان ذلك المنظر الرائع ، منظر مصر بأسرها ممثلة فى قادتها ، قد شجع فرعون على استئناف القتال ، والمضى فى طريقه الى النهاية ، وقد وثق من النصر وثوقه من طلوع الشمس فى كل صباح ، وغروبها فى كل مساء ...

وأرسل فى طلب « نور » فوافته الى خلوته الهادئة حيث كان مباحا لها ذلك دون سواها من النساء

وكانت الفتاة قد فطنت الى الخطر الذى يهدد علاقتها بفرعون ، ومن ثم يهدد كيان قومها وبقاءهم فى أرض مصر

دخلت على أحمس باسمة الثغر ، متشحة بثوب شفاف ، معطرة الجسم ، ذابلة العينين . فتلقاها فرعون بين ذراعيه ، وضمها الى صدره ، وطبع على فمها قبلة افرغ فيها كل ما كان يفيض به قلبه من حب وغرام

ثم دفعها عنه فجأة ، ونهض واقفا على قدميه ، وقال لها بصوت لا أثر فيه للنبرات التى ألفتها « نور » فى صوته من قبل :

ـ نور ! هذه قبلة الوداع يا ابنة طورس .. فعلى فرعون بعد الآن ان ينصرف بكليته الى تنفيذ ارادة مصر المستمدة من ارادة الآلهة ! عودى الى أهلك فأنت حرة .. ولكن قولى لابيك ولذوى قرباك ان كل صلة بيننا قد انقطعت منذ الآن ، وان السيف وحده يحكم بيننا !

فاغرورقت عينا الفتاة بالدموع وقالت لحبيبها :

ـ ولكن أى ذنب اقترفت « نور » يا أحمس ، وأى ذنب اقترف أهليا . لكى تحكم عليهم بهذا المصير ؟ دعنى أطلعك على ما يعرضه عليك أبى باسمه وباسم مليكه وشعبه

ـ ماذا يقترحون ؟

ـ انهم يدعونك الى الاجتماع بهم ، ومفاوضتهم فى أمر الجلاء عن الارض التى ترغب فى امتلاكها ، والبقاء فى المنطقة التى تخط حدودها بنفسك .. أترفض مقابلتهم يا أحمس؟

ـ نعم .. فمصر تأبى على أن أفرط فى حقوقها وأن أساوم على أرضها . ليس للرعاة ما يطالبون به هنا . وليس لاجنبى فى وادى النيل أن يطمع فى امتلاك ذرة من ضفتيه أو نقطة من مائه ! فاذهبى وقولى لقومك : « ارحلوا الى أرض لا صاحب لها ولا مالك يحتلها .. أما هذه الارض فان أصحابها يريدون العودة اليها ، واسترجاعها من غاصبيها!»

ـ أهذه كلمتك الاخيرة ؟

ـ نعم : الجلاء عن مصر بلا مفاوضة ولا مساومة ولا جدال ولا ابطاء .. والا فالحرب التى لا تبقى ولا تُذر ، ولتكن ارادة آمون القاضية بيننا !

ـ وأنا ؟ أنا يا فرعون ؟ أتطردنى من قصرك بعد أن كنت أحتل فيه المكان الاول بعدك؟

ـ نعم .. أطردك منه يا « نور » وفؤادى يقطر دما والصدر يتمزق ! أطردك منه بالرغم من اننى أحببتك وما زلت أحبك ! أطردك منه لان مصر تأمرنى ان أقطع كل صلة بالغرباء الذين استعد لمهاجمتهم فى الارض المصرية التى يقيمون فيها

ـ واذا طلبت منك البقاء ؟

ـ لن أجيبك الى طلبك ، لان مصر أعز على منك ، ولان واجبى نحو بلادى أهم عندى من واجبى نحوك ، ولانه ينبغى للملك يا نور أن يصغى الى صوت الوطن ويصم أذنيه عن أى صوت عداه أيا كان مبعثه !

ـ انك تحتم اذا جلاء الهكسوس عن مصر ...

ـ وأحتم جلاءك انت أيضا عن قلب فرعون فالجلاء الاول يتطلب الجلاء الثانى .. فحكمى العقل كما حكمته أنا .. وانصحى قومك بأن يحكموه من ناحيتهم ، فيرحلوا بمواشيهم وامتعتهم واسلحتهم ، فانا لن نتعرض لهم بأذى اذا نزلوا على رغبتنا !

***

حملت « نور » ارادة فرعون الى أبيها ، وابلغها الاب الى مليكه ، واذاعها الملك على الشعب . فاختلفت الآراء وتضاربت الرغبات ، وسادت الفوضى بين جموع الرعاة

أسرع بعضهم الى الرحيل بعد أن ادركوا عجزهم عن المقاومة وعزم المصريين على الحرب والنضال . وبقى البعض الآخر على أمل ان يعدل المصريون عن عزمهم ، أو يفشلوا فى مهاجمة المدن والحصون

لكن أحمس كان صادقا فى عزمه وكانت جيوشه جديرة بالثقة التى وضعها فيها

فان الهكسوس لم يقووا على الدفاع ولم يصمدوا للجيوش الزاحفة ، فأرسلوا الى أحمس وفودا من زعمائهم برئاسة طورس تطلب المفاوضة فى أمر الجلاء

وكانت « نور » بين الرسل الموفدين الى فرعون !

ولكن أحمس رفض مقابلتهم ، وأرسل الى الفتاة التى أحبها رجلا من اخصائه يقول : « ان مولاى يكرر للوفد يا نور ما قاله لك من قبل : فليرحل القوم عن مصر بلا مفاوضة وبلا حرب اذا شاءوا ! »

فعاد المندوبون ادراجهم

وبدأ رحيل القوم ، قبيلة بعد قبيلة ، وعشيرة اثر عشيرة

ورحل ملكهم بعد ان اطمأن على سلامة قومه ، وكان ذلك اليوم يوما مشهودا فى تاريخ مصر

فقد مر ملك الهكسوس واسرته ونساؤه ورجال بطانته امام أحمس الاول ، فرعون مصر الوطنى المظفر ، فرفع الملك يده بالتحية ورد فرعون عليه تحيته ، وانسابت صفوف الرعاة انسياب الافاعى متجهة نحو الشرق ، من حيث أتت قبل ذلك التاريخ بخمسة قرون

وبينما فرعون واعوانه من حوله ينظرون الى ذلك الكابوس الحى يزول شيئا فشيئا ، اذا بصوت يرتفع من وسط الصفوف وصيحة ممزوجة بالزفرات تنفجر فى سفح التل الصخرى الذى كان فرعون واقفا عليه :

ـ الوداع يا فرعون ! الوداع يا أحمس لتكن حياتك طويلة وايامك سعيدة ، ولتبارك الآلهة مساعيك ، ولتحقق لك آمالك وامانيك

عرف فرعون صوت الفتاة « نور » ورآها تخترق الصفوف وتجثو على ركبتيها امامه ، فأشار اليها قائلا :

ـ انهضى ايتها المحبوبة العزيزة واذهبى بسلام مع أهلك الى حيث تريد الآلهة .. وليحرسك آمون ، ويدفع عنك الاذى ، ويبعث اليك من يملأ قلبك حبا وحياتك سعادة !

***

وتغلغلت الفتاة بين الامواج البشرية المتدفقة نحو الشرق ، واختفت بينها عن نظر فرعون

ورفع أحمس يديه الى السماء قائلا :

ـ لترفع الآن آيات الشكر الى الآلهة ولننصرف الى ادارة شئون البلاد بعد ان طهرتها الآلهة من الغاصبين

ربيبة فرعون

ظل أمير « سيهول » يطارد الاسود والغزلان عشرين يوما في هضاب لبنان ووهاده وأدغاله ، حتى أدركه ورجاله التعب ، فاصدر أمره بالعودة الى قلعته المنيعة ، في أعالي الجبال ، حيث تنتظره زوجته المحبوبة « صارية » مع ولده وابنتيه

ولما بدا الامير على ظهر جواده ، في سفح الجبل الذي تكلل هامته أسوار القلعة فتحت الابواب وأسرعت الزوجة الى استقبال بعلها فرحة ضاحكة

وبعد أن ضم أمير سيهول أولاده الى صدره ، واستراح من عناء الطريق ، طوقت صارية عنقه بذراعيها ، وقالت له بصوت حاولت عبثا أن تجعله هادئا :

ـ أي زوجي المحبوب • لقد طالت على غيبتك ، وأوشكت منذ يومين أن أبعث الرسل في طلبك والبحث عنك • ان لدي أمرا خطيرا ينبغي أن أطلعك عليه في الحال

فتقطب جبين الامير وسألها بلهفة ممزوجة بالقلق :

ـ هل حدث في غيبتي ما جعل حياتك في خطر ، أو عكر عليك صفو الايام والليالي ؟

فهدأت صارية روعه باشارة ، وقالت :

ـ كلا • لم يحدث شيء من هذا أيها الحبيب • فاستمع واصغ الي : منذ أيام جاءني رسول من مصر ، يحمل الي أخبارا من بلاط فرعون

ـ تهوطمس ؟

ـ نعم ، تهوطمس الثالث ، الذي أصبح كما تعلم سيد مصر الاوحد والجالس على عرش الفراعنة ، بعد موت الملكة هتشبسوت ، زوجة والده ، التي كانت تشاركه السلطة بعد وفاة زوجها

ـ وماذا حمل اليك الرسول من أخبار يا صارية ؟

ـ قبل أن أفضى اليك بمضمون الرسالة ، دعنى اذكرك بالعهود التى قطعتها على نفسى عند ما رضى فرعون أن أصبح زوجة لك فانك لا تجهل أيها الحبيب أنى ربيبة تهوطمس وأهل بيته ، واننى مدينة بالحياة والثروة والجاه الى الملكة هتشبوت الراحلة، والى تهوطمس الثالث ، المالك اليوم على مصر • وعند ما هبطت مصر زائرا حللت ضيفا على قصر الملكة ، ووقع نظرك على فاخترتنى زوجة لك ، ولكن تحقيق هذا الحلم لم يكن أمرا سهلا ، وكان لا بد من قبول فرعون وهتشبوت ورضاهما • وقد تحققت أمنيتنا فيما بعد ، ورحلت معك عن مصر ، وأصبحت زوجة لك ، وأقمت معك منذ ذلك الوقت فى هذه الجبال الوعرة • ولكننى لم أنس الشروط التى تم بموجبها هذا الزواج ، والعهود التى أقسمت بآلهتنا على تنفيذها عند ما يرغب الى فرعون فى ذلك

ـ نعم ، لا أجهل تلك العهود والشروط

ـ قال لى تهوطمس ، على مسمع ومرأى من زوجة أبيه وشريكته فى الحكم هتشبوت : « صارية ، لقد وقعت أسيرة بين أيدى جنودنا فى احدى الغزوات البعيدة ، فانقذت حياتك، وأدخلتك الى هذا القصر حيث رعتك الملكة بعطفها وشملتك بحبها ، فانت اذن مدينة لنا بكل ما تملكين ، بلا استثناء الحياة ! واذا كنا الآن نرضى بالزواج الذى ترغبين فيه ، وبرحيلك عن هذه الديار الى مملكة نائية ، فاننا نشترط عليك شرطا لن تستطيعى الفرار من تنفيذه عند ما أدعوك الى ذلك • صارية : يجب أن تقطعى عهدا على نفسك بأن تمنعى زوجك ورجاله ، فى كل آن ومكان ، من خوض غمار الحروب فى صفوف أعداء فرعون • واذا شاءت الآلهة أن يشهروا يوما من الايام سلاحا ، ففى وجه خصومنا لا فى وجهنا يشهرونه • هذا كل ما أطلبه منك مقابل الزواج الذى رضيت به الملكة ورضيت أنا به • فليكن زوجك دائما أبدا ، أيا كانت الظروف والاحوال ، صديقا لنا • واذا أبى أن يكون حليفنا فى الحروب فليبق على الحياد ويتجنب الانضمام الى الاعداء • اذهبى بسلام ولتحرسك الآلهة ! »

ـ نعم ، هذا ما قاله تهوطمس ، أعلم ذلك

ـ وقد جاء الوقت لكى أبر بالوعد وأنفذ العهد أيها الحبيب

ـ كيف ذلك ؟

ـ اليك الآن مضمون الرسالة التى يحملها الينا خادم من قصر فرعون : « لقد ماتت الملكة هتشبوت ولحقت بآبائها وأجدادها فى العالم الآخر ، وارتقى تهوطمس الثالث عرش مصر ، لا يشاركه فى الحكم والسلطان انسان • ولما كان ملوك آسيا وامراؤها قد طغوا

وتجبروا ، وتعددت غزواتهم على حدود مصر ، وامتنعوا عن دفع الجزية لفرعون ، وتطلعوا الى المساواة به ، واعتدوا على الشعوب الآمنة الخاضعة له ، فان تهوطمس الثالث يجرد الآن جيشا لجبا سوف يجتاز المسافات الشاسعة ، بقيادة فرعون نفسه ، لتأديب أولئك المغرورين وسحق جيوشهم ، واجتياح ممالكهم واماراتهم ودك حصونهم وبسط سلطان مصر على الشعوب التابعة لهم • ففرعون يا صارية قد أوفدني رسولا اليك ، لكى اطلعك على عزمه ، واذكرك بالعهد الذى قطعته على نفسك : يجب أن يظل أمير سيهول زوجك بعيدا عن ميادين القتال ، لان فرعون لن يعفو عن أحد ، ولن يترك للرحمة منفذا الى قلبه • فاذا بقى أمير سيهول على الحياد ، فان تهوطمس لن يلحق به ضررا ولن يسيء الى أحد من اتباعه •واذا أراد زوجك ان ينضم برجاله الى جيش فرعون ، فان تهوطمس ينادي به بعد النصر ملكا على هذه الديار ، عند ما تنهار عروشها ويشتت ملوكها وأمراءها أو يساقون أسرى الى مصر »

سكتت صارية ، ونظرت الى زوجها فاذا به قد استغرق فى أفكاره •••

ثم استطردت قائلة :

ـ هذا ما حمله الى الرسول أيها الحبيب • واذا صدق ظنى فان جيش فرعون فى طريقه الآن الى هذه الديار ، ولن يمضى وقت طويل حتى يكون نصيب أصدقائك من ملوك وأمراء مطروحا فى كفة الأقدار !

سكتت صارية ثانية • وحدقت البصر فى الامير فاذا به على حاله من التفكير ••

أدركت أن عاملين يتنازعانه : عامل القرابة والجوار ، الذى يدفعه الى التضامن مع الملوك والامراء الاسيويين فى محاربة فرعون • وعامل الحب والوفاء ، الذى يفرض عليه البقاء على الحياد ، لكيلا يقال عن زوجته المحبوبة انها خانت العهود وحنثت بالوعود ••

أدركت صارية أن هذين العاملين يتنازعان زوجها • ولكنها لم تدرك ان هناك عاملا ثالثا سيرجح كفة الميزان وهو عامل الخوف !

فان أمير سيهول كان يعلم علم اليقين ان تهوطمس الثالث سيهزم اعداءه فى الميادين وان النصر سيعقد له فى المعارك • فاذا انضم الامير الى اعداء مصر فانه يسير الى الهلاك بقدميه !

فرفع رأسه ونظر الى زوجته• وطوقت صارية عنقه بذراعيها وسألته وقد ترقرق الدمع فى عينيها :

ـ ماذا أنت صانع أيها الحبيب ؟

فضمها الامير الى صدره ، وقبلها ، وقال بعد سكوت قصير :

ـ لقد تعهدت لفرعون يا صارية بار قى زوجك صديقا له ويمتنع عن محاربته فلن أحاربه ما حييت !

***

ارتقى تهوطمس الثالث عرش الفراعنة فى سنة ١٤٩٣ قبل الميلاد ، وظل ردحا من الزمن يحكم البلاد بالاشتراك مع زوجة أبيه الملكة هتشبوت ، الى أن انفرد بالسلطة فى سنة ١٤٧٢ قبل الميلاد ، أى بعد وفاة هذه الملكة العظيمة

وكان أول عمل فكر فيه ، ضرب ملوك آسيا وأمرائها ضربة قاضية ، وبسط سلطانه على البلدان الشاسعة الخصبة الواقعة بين البحر الابيض والبحر الاحمر ومجرى الفرات

وكان ألد أعداء فرعون ، واشد الملوك والامراء غطرسة ملك « قادش » فى سورية فقد حض ذلك الملك جيرانه على العصيان والانتقاض ، وجعل يمنيهم بحلو الامانى اذا هم هاجموا مصر معه وافتتحوها بحد السيف وقوضوا عرشها واستولوا على كنوز الفراعنة ٠

وما زال بهم ، يستثير الضغائن ويستنهض الهمم ويوغر الصدور ، حتى التفوا حوله جميعا كتلة واحدة ، واقسموا بين يديه انهم سائرون معه الى النهاية ، بجيوشهم وعتادهم ، ونادوا به قائدا عاما عليهم ، وطلبوا منه ان يمشى فى طليعتهم الى الغزو فالنصر فالعز والمجد ٠٠

وبينما رسل ملك قادش يطوفون الجبال والسهول والمدن والصحارى ، من شاطىء البحر الى اطراف البادية ، لدعوة الناس الى السلاح ونشر تلك البشرى المفرحة ، اذا بالاخبار ترد على الملك من مصر ، منبئة بان فرعون لم ينتظر زحف اعدائه عليه ، بل انه مسرع اليهم ، زاحف بجيش عرمرم لمقاتلتهم فى بلادهم !

ذعر ملك قادش فى بادىء الامر من هذا النبأ الفجائى ، ولكنه تمالك نفسه ، وارسل فى طلب حلفائه ، ودعاهم لعقد اجتماع عام فى مدينة « مجدو » الحصينة

فوافوه جميعا الى تلك المدينة ، ما عدا امير سيهول الذى تخلف عن الحضور

ونظر الحلفاء فى أمرهم ، وقرروا حشد جيوشهم فى سهل « مجدو » المترامى الاطراف وانتظار جيش فرعون فى ذلك الميدان ، وضربه هناك ضربة لن تقوم له بعدها قائمة

***

أما سهل مجدو هذا ، فانه يعرف الا ن بسهل « ابن عامر » وهو يمتد من ساحل البحر الابيض الى ما وراء بحر الجليل ونهر الاردن ، وتتخلله جبال الكرمل ، وهو من الوجهة الحربية خير ميدان للقتال

ومن يعرف ذلك السهل ، بربواته وأخاديده ومنعرجاته ، يخيل اليه ان الطبيعة قد أوجدته فى ذلك المكان لكى يصمد فيه عدو لعدو ، ويلتحم فيه جيش بجيش ، وتطلق فيه للخيل الاعنة ، فتشتبك السيوف بالسيوف والرماح بالرماح !

هناك ، فى ذلك السهل ، جمع ملك قادش جموعه ورتب جيشه فى انتظار تهوطمس فرعون مصر

كان امام الجيش المصرى ثلاثة سبل للوصول الى مجدو وسهلها ، واعتقد ملك قادش ان عدوه سيهاجمه من الجنوب ، لكن تهوطمس خيب ظنه ، وقام بحركة التفاف تدل على خبرة واسعة فى الشئون الحربية ، فداهمه من الوراء وقطع عليه خط الرجعة فحال بينه وبين أسوار مجدو

***

فى يوم مشهود من صيف سنة ١٤٧١ قبل الميلاد ، وقعت معركة من اكبر المعارك الحربية التى دونها التاريخ القديم ، فى سهل مجدو ، المعروف اليوم بسهل ابن عامر ، والذى جاء ذكره فى التوراة باسم « هر مجدون » أى « الحرب العظمى ! »

ففى صباح ذلك اليوم ، نهض تهوطمس الثالث من فراشه مبكرا ، وأصدر أمره بالهجوم على العدو ، واعتلى مركبته والرمح بيمينه وسار فى مقدمة جيشه يطلب النزال والطعان

وما رأى الجنود فرعون العظيم يتقدمهم الى القتال معرضا صدره للنبال والسيوف ، حتى اندفعوا خفافا وقد ملأوا الارجاء بصياحهم ، فماج السهل الممتد حول مجدو بالجنود ، وانعكست اشعة الشمس على الدروع والنصال المسلولة ، فبدا السهل كأتون تتأجج فيه النيران ويلمع فيه وميض البرق ، وارتفع صهيل الخيول وقد حثها الفرسان بالمهاميز حتى سالت دماؤها ، واشتبك الجيشان فى معركة كتب فيها النصر لفرعون وكتبت فيها الهزيمة لاعدائه !

حاول ملك قادش أن يدفع العار عن جيشه وعن حلفائه ، لكنه ادرك عجزه ، وانه هالك اذا لم يلتجىء الى أسوار المدينة قبل أن يسدل الظلام سدوله على ميدان القتال ..

وبينما جيوش الملوك والامراء تولى الادبار وتطلب النجاة من حيث تجدها ، كان ملك قادش وأمير مجدو ومعهما بعض الرجال الاشداء يخترقون صفوف الجيش المصرى ، وسيوفهم تقطر دما ، متجهين الى أبواب المدينة

وصلوا اليها ، لكن السكان رفضوا فتحها فى وجوههم ، خوفا من لحاق المصريين

بالفارين ، ودخولهم المدينة على أثرهم ، فالقوا من فوق الاسوار حبلا ، ورفعوا الملك والامير ورجالهما من دون أن تفتح الابواب

وغنم المصريون فى تلك المعركة الفين ومئتى جواد ، وخمسمائة قوس ، والفى خروف وتسعمائة وعشرين مركبة ، ومائتى درع ، وعشرين الفا من الماعز ، وكثيرا من المعدات الحربية والمؤن الاخرى

وكان الملوك والامراء الذين انهزموا فى معركة مجدو ينتظرون أن ينفذ تهوطمس الثالث وعيده ، ويطاردهم فى معاقلهم ويقطع رؤوسهم أو يسوقهم امامه اسرى الى أرض مصر

لكن تهوطمس كان حليما حكيما سياسيا ، فقد عفا عن اعدائه ، لكنه اشترط عليهم ان يرسل كل واحد منهم أحد ابنائه الى مصر « لتلقى العلوم فيها » ومعنى هذا ان اولئك الابناء يظلون رهائن تحت يد فرعون ، ضمانا لبقاء آبائهم فى حظيرة الطاعة

***

وأرسل فرعون قائدا من قواده الى أمير سيهول حاملا اليه تحية تهوطمس الثالث ، وقراره بجعله ملكا على الملوك والامراء ، ومراقبا عليهم من قبل فرعون وزوده فوق ذلك بالتحيات العطرة لزوجة الامير ، صارية الحسناء التى حملت زوجها على البقاء بعيدا عن ميادين القتال

وصل القائد رسول فرعون الى قلعة سيهول ، فاذا به يصل الى مأتم

كان الامير قد فارق الحياة منذ يومين ، فمثل القائد بين يدى صارية زوجة الامير الراحل وافضى اليها برسالته ، فبكت ولطمت خديها ، ثم قالت لرسول فرعون :

ـ عد الى تهوطمس وقل له ان صارية تحييه وتهنئه على انتصاره الباهر . ولكنها تبكى فى آن واحد زوجها ونصيرها فان أمير سيهول قد اغتالته يد اثيمة والمجرم الذى سدد الى صدره ضربة الخنجر القاتلة جندى من جنود قادش صاح وهو يضرب الامير انه ينتقم لقومه وعشيرته من الخائن الذى امتنع عن تلبية النداء والسير الى القتال . وقد القى ذلك الجندى بنفسه من فوق أسوار القلعة ، بعد ارتكاب جريمته ، وسقط ميتا على الصخور

وهنا خنقتها العبرات فسكتت ... لكنها تجلدت واستطردت قائلة :

ـ عد اذن الى فرعون أيها القائد وقص عليه ما حدث واذا كان تهوطمس قد بر بوعده ونادى بأمير سيهول ملكا على ملوك هذه الديار ، فان ربيبة فرعون صارية قد برت أيضا بوعدها فكلفها وفاؤها ثمنا غاليا : هو حياة زوجها . وسعادتها ، ومستقبل ابنائها !

الانتقام الدموي

عاش الامير « نملوت » المصرى فى عصر زالت فيه هيبة فرعون وضاعت سلطته ، وتضعضعت فيه قوى مصر وتفككت وحدتها فقام كل أمير من أمراء الاقاليم يشبع ظمأ نفسه التواقة الى الحكم والاستقلال المحلى ، ويسعى الى تحقيق مطامعه وأغراضه فانقسمت الدولة الى دويلات ، والأمة الى شيع وأحزاب

وكان ذلك فى القرن الثامن قبل الميلاد وقد نشأت تلك الحالة عن سلسلة متواصلة الحلقات من الحروب الاهلية والأخطاء المتكررة التى ارتكبها الفراعنة منذ القرن العاشر قبل الميلاد فأصبحت مصر فريسة للاجنبى بعد أن كانت قوتها مضرب الامثال ، وسطوتها تبعث الرعب فى صفوف الأعداء ، وجيوشها المظفرة تغزو بلادهم وتدك عروشهم وتخضع ملوكهم لفرعون العظيم

وكان الامير « نملوت » المصرى أحد أولئك الراغبين فى الجلوس على عرش مستقل ، وان كان عرشاً صغيراً متداعى الأساس واهى الدعائم

أما الشعوب التى طمعت فى الاستيلاء على مصر واقتسامها فكانت ثلاثة شعوب قويت سواعد أبنائها بما انتاب الدولة المصرية من خور ووهن : وهى الشعب الحبشى الباسط سلطانه فى الجنوب ، والشعب اللوبى الضارب فى الغرب ، والشعب الأشورى القادم من الشرق

وشعر كل من أمراء الأقاليم المصرية بأن لا بد له من التحبب الى أحد تلك الشعوب الثلاثة القوية والتحالف معه ، ووقع اختيار « نملوت » على اللوبيين فانضم اليهم وتطوع لخدمتهم مقابل وعد قطعه له ملكهم وهو أن يتركه حراً في اقليمه ، ويعترف بسلطته فى أمارته

وتم الاتفاق بين الفريقين على أن يغزو اللوبيون وادي النيل من الغرب ، وأن يعترف «نملوت» بسيادتهم فى اقليم الدلتا الخصب

وزحفت جيوش لوبيا على مصر بقيادة الملك « طفنخت » الذى كانت نفسه تتوق الى التمتع بتاجين : التاج اللوبى ، والتاج المصرى

ولم تجد الجيوش الزاحفة فى طريقها جيشاً يصدها فاحتلت جزءاً كبيراً من البلاد وأقامت فيه الحكام والقواد . وكان «نملوت» المصرى أحد الأمراء الذين عينهم « طفنخت » من قبله لادارة شؤون البلاد المحتلة

***

وأدخلت تلك الحوادث الغم والكدر على نفس «سيفين» زوجة «نملوت» الباسلة الحكيمة العاقلة . فقد ساءها أن يخرج زوجها على مليكه وأبناء قومه ، وأن يكون عونا للاجنبي على استعباد وطنه وتشتيت شمل أمته ، وحاولت منذ البدء أن تثنيه عن عزمه وتمنع تحالفه مع اللوبيين وانقياده لمشيئة طفنخت قائلة :

ـــ إذا كان لابد لك من الخضوع لسيد فليكن خضوعك لفرعون سيد البلاد الشرعى . واذا كان لابد لك من البقاء تابعاً لأحد ، فليكن المتبوع سليل الفراعنة ، وليكن جهادك فى سبيله . ولو فعل جميع أمراء الأقاليم كذلك ما استطاع الغريب أن يتغلب على مصر ، وما بسط الأجنبى سلطانه على ذرة من وادى النيل !

لكن « نملوت » لم يعر أقوال زوجته أذناً صاغية ، بل أعرض عنها واندفع فى تنفيذ الخطة التى عول عليها ، وبرر عمله بقوله :

ـــ ان المرأة قصيرة النظر لا تحسب للمستقبل حساباً . ألا تعلمين أن ملك اللوبيين سوف يقسم هذه البلاد الى ممالك وسوف يجلس زوجك يا « سيفين » على عرش مملكة حرة قوية !

فسكتت « سيفين » على مضض . ورفعت يديها الى السماء داعية :

ـــ ليكن آمون فى عونك يا « نملوت » وليدفع عنك الأذى ، وليحرس هذه البلاد من ظلم الظالمين ويرد عنها كيد الكائدين !

***

وما كاد الملك « طفنخت » يجتاح الدلتا ويزحف الى الجنوب ويدخل ممفيس ظافراً ، حتى انكشفت طويته وظهرت أغراضه ، فقلب لحلفائه من الأمراء المصريين ظهر المجن ، وعاملهم معاملة السيد لتابعيه والحاكم لمحكوميه ، وكان نصيب « نملوت » من معاملة الملك الظافر ان عينه حاكما على احدى المدن الصغيرة باسم اللوبيين وبالنيابة عنهم . فاتضح للرجل أن زوجته كانت صادقة فيما ذهبت اليه

وكاشفها ذات يوم بما يخالج نفسه من مخاوف . واعترف أمامها بخطئه ، فلم تشمت المرأة فيه بل طيبت خاطره وقالت :

ــــ ان الفرصة مازالت سانحة ، وأمامك يا « نعلوت » متسع من الوقت لاصلاح ذلك الخطأ والعودة الى سواء السبيل ، فان الاخبار الواردة علينا من الجنوب تنبىء بأن ملك الاحباش قادم الى مصر لطرد اللوبيين منها

ولكن « نعلوت » قاطع زوجته قائلا :

ــــ كنت يا « سيفين » تلومينني على انضمامي الى اللوبيين الأغراب ، فهل تريدين منى الآن أن أكرر الخيانة وأنضم الى الأحباش ، وهم عنا غرباء أيضاً مثل اللوبيين !

ــــ هذا ما أريده منك . ولكنك مخطىء فى ادعائك أن الاحباش غرباء عنا مثل اللوبيين ، فان الفراعنة يصاهرون ملوك الحبشة ، وهؤلاء يصاهرونهم أيضاً منذ مئات السنين ، فقرابة الدم تجمع بين مصر والحبشة ، وملوك القوم قد تثقفوا ثقافتنا واتخذوا « آمون » لهم رباً يعبدونه ، فالدم المصرى يجرى فى عروقهم وأصبح دين المصريين دينهم . وامتدت اليهم ثقافة مصر . وها هى عاصمتهم « نباطة » يدل مظهرها على أنها مدينة مصرية أكثر منها حبشية : فمعابدها وهياكلها وقصورها وبيوتها وتماثيلها ولغتها ، كل ذلك مطبوع بالطابع المصرى ، رافل فى ثوب الحضارة المصرية . فخير لنا أن يكون الحاكم فى مصر حبشياً يمت الينا بصلة القربى ، من أن يكون ذلك الحاكم غريباً لا يجمع بيننا وبينه نسب ولا دين . ففكر فى هذا كله يا نعلوت أما أنا فقد عولت على مساعدة الاحباش القادمين الينا من الجنوب ، وعلى المساهمة فى انقاذ مصر العزيزة من النير اللوبى على يد اخواننا وأقربائنا الاحباش

وتركت « سيفين » زوجها حيران غارقاً فى أفكاره ، لا يدرى الى أية جهة يدير دفة سفينته ، وقد اكتنفتها أمواج المطامع والغايات من كل صوب

***

كان الملك « بعنخى » يسير بالحبشة فى ذلك العهد من مجد الى مجد ، ومن نصر الى نصر .. وكانت عاصمته « نباطة » القريبة من الشلال الرابع فى أعالى النيل سيدة المدن وأم العواصم ، تقوم فيها الأهرام والتماثيل المصرية والقصور الفرعونية ، وترتفع فيها الأصوات بالتهليل والصلاة لآمون القادر على كل شىء

ووصلت أخبار الغزوة اللوبية الى مسامع « بعنخى » فثار ثائره وأدرك أن فرصة سانحة قد أفلتت منه . ولكنه لم يفقد الأمل فى ادراكها ، وشعر أنه أولى من غيره بفتح مصر وبسط سلطانه عليها لأنه نشأ على ثقافتها ، ولأن الدم الذى يجرى فى عروقه هو مزيج من دم آبائه

الاحباش ودم الفراعنة ملوك مصر . فعول على الزحف الى مصر بجيش لجب لاحتلالها وطرد اللوبيين منها فبعث الى الامراء والاقيال والقواد التابعين له يقول :

« اجمعوا جموعكم ، وقاتلوا عدوكم وعدو مصر ، ولا تتركوا أحداً من جنوده يفر ، استولوا على المؤن والأسلحة والسفن . هكذا يريد بعنخى فافعلوا ما يريد ! »

وزحف الجيش بخيله ورجله فاجتاز الحدود المصرية ، وأسرع فى التقدم شمالا فى طلب اللوبيين ، وأذاع العاهل الحبشى على جنوده نداء جاء فيه : « ليست الحرب التى تخوضون غمارها الآن شبيهة بلعبة النرد التى تتسلون بها فى أوقات الفراغ . فيجب أن تقاتلوا فى الليل وفى النهار ، وأن ترغموا العدو على منازلتكم وتبحثوا عن جيوشه لقهرها فانتقوا أحسن ما عندكم من جياد ، واجمعوا جموعكم ، فأنتم لا تجهلون ان آمون هو الرب وانه هو الذى اختارنا وبعثنا

« واذا ما بلغتم مدينة طيبة فاغتسلوا فى النهر المقدس وارتدوا أجمل ثيابكم ، وامتنعوا عن شد أقواسكم ، ولا تفاخروا بقوتكم لأنها مستمدة من قوة آمون وليس لأحد قوة الا به ، فهو الذى يجعل الضعيف قويا والقوى ضعيفاً

« أسكبوا الماء المقدس على أجسامكم فى هيكله ، واضرعوا اليه قائلين : اهدنا يا رب سواء السبيل لكي نقهر الأعداء فى ظل سيفك »

* * *

وبينما كانت طلائع الجيوش الحبشية تدخل المدن المصرية حيث يستقبلها الأهلون بالترحاب ويشتركون معها فى شكر آمون على ما أولاها من نصر مبين ، كان الملك « بعنخى » يغادر عاصمته نباطة على رأس جيشه الكبير ، فى مئات من السفن التى أعدها لهذا الغرض ، والتى راحت تمخر عباب النيل المقدس فى طريقها الى طيبة ومنفيس

فارتد اللوبيون أمام الجيش الغازى ، وأمام السكان الذين انضموا اليه فرحين مهللين

* * *

وبلغ « بعنخى » أسوار المدينة التى كان الأمير « نملوت » المصرى يحكمها ويقود حاميتها باسم الملك « طفنخت » اللوبى

وكانت تجرى ، فى تلك اللحظة ، وفى داخل قصر نملوت ، مأساة مروعة بين الزوج وزوجته ، ورجال القصر ونسائه ، اذ كان الأمير يريد البقاء على إخلاصه للملك اللوبيين ، فى حين أن زوجته سيفين كانت تلح عليه بأن يفتح أبواب المدينة لملك الأحباش ، ويرحب بمقدم قوم لا يضمرون لمصر والمصريين عداء

واحتدم الجدل بين الامير وزوجته . فصاح بها مهدداً :

— هؤلاء أغراب وأولئك أغراب ، فدعيني يا سيفين أحارب الأحباش ما داموا يريدون إخضاع مصر كما فعل اللوبيون ، فالأجنبي يريد أن يحل محل الأجنبي ، وأنا لا أرضى بأن تعترضني زوجتي في أعمالي .. اغربي عن وجهي والا فالويل لك ولمن يرى رأيك من النساء . عودي معهن الى الخدور ودعي الحرب للرجال

فثارت زوجة الأمير واقتربت منه كاللبؤة الكاسرة صائحة :

هؤلاء أغراب وأولئك أغراب ، نعم . . ولكن على المرء أن يختار من الشرين أهونهما ، ومن البليتين أخفهما ، ومن الغريبين أقلهما أذى ، فمن العار أن يحارب المصريون الاحباش ويناصروا عليهم اللوبيين فالى اللقاء يا نملوت . . وسوف تعلم أن الحق في جانبي ، وتدرك أن زوجتك تعمل الآن لانقاذك وصيانة كرامتك وسمعتك !

***

وخرجت سيفين من قصر زوجها ونادت النساء فالتففن حولها ، وانطلقن جميعاً في أنحاء المدينة داعيات جنود الحامية الى التمرد والعصيان ، فدب الاضطراب في الصفوف ، وارتفعت من بينها أصوات تقول : « لا نريد أن نحارب الأحباش ! لا نريد أن نطلق النبال على اخواننا المرافقين لبعنخي ! »

واندفعت سيفين على رأس فريق من الجنود المصريين ، وقد اختلطت بهم النساء الى مقر الجنود اللوبيين الذين كانوا معتصمين بحي من أحياء المدينة ، فسلم أولئك الجنود أنفسهم بلا قتال ، وساقت سيفين أمامها قائدهم اللوبي ، وخرجت مع رفاقها ورفيقاتها من المدينة الى السهل الذي ضرب فيه بعنخي خيامه

وقصدت النساء الى المكان الذي كان الملك جالساً فيه . يحيط به قادة الجيش ورجال الحرس، فخاطبته بجرأة قائلة :

— أيها الملك الصديق ! كان في استطاعة الأمير « نملوت » حاكم هذه المدينة أن يقاوم جيشك ويصدك عن الاسوار خاسراً خائباً ، ولكنه يصغي الى صوت الدم ويؤثر التعاقد مع ملك يمت بالنسب الى ملوك مصر ، على البقاء وفياً لملك غريب عن الديار . فاقطع على نفسك عهداً بأن لا تلحق بنا أذى ، ونحن نسلم اليك المدينة ونتصافى ونتحالف . وها أنذا زوجة نملوت ، وأولئك هن نساء القصر وزوجات القواد وبناتهم . يتقدمن اليك طالبات منك الأمان والسلام !

فنهض بعنخي وبسط ذراعيه قائلا :

— عليكن السلام ، ولكن الامان !

ودخل ملك الاحباش المدينة بلا قتال وقصد الى قصر « نملوت » فوجد الأمير المصري في

انتظاره أمام الباب الكبير وحوله قواد الجيش والاعيان ، فبادره الملك بقوله :

— من أضلك يا نملوت ؟ من أضلك ؟

— خدعت أيها الملك وظننت أننى أسير فى سبيل المجد !

وتصافح الرجلان فقال الملك :

— نحن لا نضمر لهذه البلاد شراً ، وما جئنا الا لننقذ أبناء العم من النير الاجنبي ونقيم فى البلاد حكماً عادلا

وحل الملك « بعنخى » فى تلك الليلة ضيفا على الامير نملوت ، واتفق الاثنان على استئناف الزحف فى اليوم التالى لمطاردة الملك « طفنخت » وفلول جيشه

ولكن الامير المصرى طلب من الملك الحبشى معاملة الحامية اللوبية بالرفق والحسنى ، فأقره الملك على طلبه ، وسمح له باطلاق سراح الجنود اللوبيين الباقين فى المدينة مع قائدهم ، على أن لا يحاربوا الاحباش ولا يعتدوا على المصريين فى المستقبل

وعند ما طلع فجر الغد ، أرسل نملوت فى طلب القائد اللوبي الذى أسرته زوجته « سيفين » فى اليوم السابق ، ولكن الرسول عاد يقول :

— لم نجد القائد أيها الامير . . ولم نجد فى الحصن اللوبى أحداً من الجنود !

دهش « نملوت » وهم بالخروج من القصر ليتحقق بنفسه اختفاء اللوبيين وقائدهم ، ففوجىء بصياح منبعث من الجناح الخاص بالنساء . واذا بعضهن يهرعن اليه باكيات مولولات ويقرعن الصدور بأيديهن ! فسأل الامير مذعوراً :

— ما الخبر ؟ »

فألقت احدى النساء بنفسها على قدميه ، وعفرت جبينها بالتراب منتحبة قائلة :

— مولاى ! مولاتى سيفين ! أواه ! أواه . . !

— مولاتك ؟ ما بها يا امرأة ؟

— ماتت ! ماتت !

— سيفين ماتت ؟

— قتلوها ! . . فلتعش أنت من بعدها يا مولاى !

أسرع الأمير المصرى الى حجرة زوجته فاذا به أمام جثة هامدة طوق عنقها بشعرها فماتت خنقا ! . . وأبصر الزوج فى ركن من أركان الحجرة رجلا غريباً لا يعرفه . أحاطت به النساء وأوثقنه ، فسأل غاضباً ، وعيناه تقدحان شرراً :

— من الرجل ؟

فأجاب الغريب برباطة جأش وبصوت خيل للسامعين أنه منبعث من جوف القبر :

— عبد من عبيد القائد اللوبى « فخت » أمره سيده بأن يخنق هذه المرأة فنفذ الامر . ويقول سيدى إن هذه المرأة كانت سبباً فى ضياع المدينة ودخول الاحباش اليها آمنين مطمئنين . وقد انتقمنا لأنفسنا . ورحل رجالنا عن دياركم بعد أن أخذنا بالثأر !

فأمر نملوت بضرب عنق القاتل وركع أمام جثة زوجته الحكيمة الباسلة فبكى بكاء مراً ، ثم بسط يده فوق رأسها قائلا :

— سوف أنتقم لك يا سيفين من الجناة الاوغاد ، وسوف أغسل بالدم العار الذى لحق بى لأني لم أصغ فى باديء الأمر الى نصائحك

وانطلق « نملوت » على رأس جيش من جيوش الاحباش والمصريين فى طلب الاعداء

واستأنف « بعنخى » الزحف الى الأمام فمزق فلول اللوبيين فى المعارك ، وما مرت شهور حتى كان الملك « طفنخت » قد لجأ الى الصحراء وانفض من حوله الانصار فبعث الى بعنخى يقول :

« انى أشقى الرجال أيها الملك . وقد تولانى الخوف والجزع . وأنا الآن فريسة الجوع والعطش فقل لى إنك عفوت عنى لكى أسلم نفسي اليك أيها الملك العادل المظفر »

فعفا عنه بعنخى ، وطلب اليه أن يعود الى بلاده ، ففعل .

أما « نملوت » فقد أجابه « بعنخى » الى رغبته ، وسلمه القائد الاوبى « فخت » فذبحه الامير المصرى ذبح الانعام فى المكان الذى قتلت فيه زوجته سيفين

وعاش الاحباش والمصريون فى أمان ووئام مدة من الزمن ، ثم انفرد كل منهما بوطنه

رسول فرعون

أحاط رجال الدولة بفرعون الكئيب الحزين ، وحاولوا عبثا تهدئة خاطره وادخال السرور على نفسه ، وجاءوا بأبرع الراقصات واجمل النساء وأمهر العازفين على آلات الطرب ، وأشهر المغنين فى « طيبة » وأقاموا فى العاصمة المصرية الافراح والليالى الملاح . ولكن ذلك لم يخفف من حزن فرعون وكآبته ، ولم يجد منفذا الى صدره المنقبض

ـــ كرتميس !.. كرتميس !

تلك هى الكلمة التى كانت ترددها شفتاه فى صحوه ومنامه ، فى روحاته وغدواته فى داخل قصره بطيبة أو فى الحدائق الغناء على ضفاف النيل المبارك

ـــ كرتميس !.. كرتميس !

احرزت الجيوش المصرية انتصارات باهرة فى الميادين ، ولكن تلك الانتصارات لم تكن كافية لمحو ذلك الاسم من ذهن فرعون

وامتدت حدود مصر الى مسافات شاسعة شرقا وغربا وجنوبا وخضعت لها الممالك الاسيوية والافريقية . ولكن تلك الفتوحات لم تكن كافية لتعزية فرعون عن فقد من يحب

ـــ كرتميس !.. كرتميس !

طبع ذلك الاسم ـ بل نقش نقشا ـ فى قلب العاهل الفاتح ، ولكن فرعون العظيم القدير ، الذى استطاع أن يحتفظ بملكه المترامى الاطراف ، ويبسط سلطانه على أرباب التيجان فى العالم المعروف فى ذلك الوقت ، عجز عن الاحتفاظ بامرأة أحبها وأخضع قلبه لمشيئتها

فقد هربت المحبوبة المعبودة من القصر فى ليلة مظلمة ، وآثرت العودة الى أهلها فى

البلاد الواقعة « ما بين النهرين » حيث تشرق الشمس وتهب الرياح العاصفة ـ على البقاء فى ديار الغربة وفى قصر فرعون !

وطار قلب تحتمس الاول شعاعا ، وجن جنونه ، وتولاه القلق واليأس ، وحل الاضطراب فى حياته محل الراحة والهناء

وراح يبحث عن المحبوبة الهاربة ، ويردد فى كل آن ومكان اسمها العذب :

ـــ كرتميس !.. كرتميس !

***

أعاد « احمس » الى مصر استقلالها والى الاسرة المصرية المالكة تاجها ، بعد أن تم له النصر وطرد « الهكسوس » الرعاة من وادى النيل ، ومات ذلك الملك المنصور تاركا لخلفائه دولة قوية منيعة الجانب

وجلس على عرش مصر بعده امنوفيس الاول ، فسار فى الطريق الذى خطه سالفه وعزز الملك بفتوحات جديدة ومشروعات عمرانية جليلة ، ومات فى سنة ١٥٤٠ ق.م فبكته الرعية ، واقسم خلفه « تحتمس الاول » أن يتم ما بدأ به ذلك الملك العادل الصالح

وتولى تحتمس الملك من سنة ١٥٤٠ الى سنة ١٥١٥ ق. م فبلغت مصر فى عهده أوج العلى ، وحرقت البخور فى الهياكل تكريما له، ورفعته الى مصاف الآلهة فعبدت «ابن توت» وأجلسته على عرش القلوب بعد أن أجلسته على عرش الملك

وحدث فى اثناء غزوة قام بها الجيش المصرى الظافر فى أقاصى الشرق ، على ضفاف الفرات ، ان ساق الغزاة الفاتحون أمامهم طائفة من الاسرى والعبيد والسبايا ، حاملين ابدع ما حوته تلك البلاد من نفائس

وجاء قواد الجيش الى فرعون بفتاة تحاكى البدر بهاء ونورا ، وعود الخيزران تثنيا وامتشاقا ، والظبى دلالا ونفورا . وهى ابنة أمير من أمراء البادية ، نازل المصريين فى الميادين وحاربهم محاربة الابطال وابنته الى جانبه ، تشد ازره وتضرم فى صدره نار الحماسة ، وتحرضه على القتال ، الى ان سقط الاب صريعا فى حومة الوغى ، ووقعت الابنة أسيرة فى ايدى الغالبين المنتصرين

وقال قائدهم :

ـــ ستكون هذه الغانية هديتنا الى فرعون !

وتقبل تحتمس الهدية ، وحلت الفتاة فى قصر طيبة ، وأقامت بين النساء معززة مكرمة،

وما لبث فرعون ان جعلها رئيسة عليهن جميعا ، تأمر فتخضع لامرها الراقصات والخادمات والاماء وحاملات العطور والرياحين

ولكن كرتميس لم تكن سعيدة ولم تكن راضية بتلك الحياة الجديدة وعند ما أرسل تحتمس فى طلبها ، وكاشفها بحبه وأفضى اليها بما أثارته فى نفسه من غرام لم يعد ذلك الملك الواسع السلطان قادرا على كبح جماحه ، فألقت الفتاة بنفسها على قدميه وقالت والدموع تنهمر من عينيها النجلاوين :

ــ اذا كنت أيها المولى القدير تحبنى حقيقة ، وتكن لى فى صدرك ما تبوح به الآن من شعور قوى ، فأثبت لى ذلك بالبرهان الساطع والدليل المحسوس ، وأعد الى حريتى ، واطلق سراحى ، ودعنى أذهب الى حيث نشأت وترعرعت فى جوف الصحراء المحرقة ، وسط الرمال التى لا نهاية لها ، حيث لقى آبائى واجدادى حتفهم فى الحروب ، وحيث أريد أن أقضى حياتى وأموت !

لكن فرعون لم يجبها الى طلبها ، وجعل يمنيها بطيب الآمال وحلو الامانى ، قائلا انها ستعيش فى القصر محاطة بالاجلال والمحبة والاكرام ، لا فرق بينها وبين الملكة المتوجة وان بقاءها فى طيبة يضمن لها ولفرعون السعادة والهناء فى مستقبل الايام

وحاولت كرتميس فيما بعد غير مرة أن تحمل فرعون على اخلاء سبيلها واعادتها الى بلادها وعشيرتها ، ولكنها كانت فى كل مرة تلاقى منه اعراضا ورفضا ، فعولت على الهرب من القصر

وحققت بغيتها بمساعدة من تمكنت من اغرائه بالمال من الحراس ، وتفقدها تحتمس ذات يوم فلم يجدها

وانقلب فرعون منذ ذلك الوقت من حال الى حال • وساورته الهواجس والهموم وراح يردد اسم الحسناء الشاردة :

ــ كرتميس ! كرتميس ! كرتميس !

***

ــ أريد أن تجتاح البلاد ، وتخضع سكانها ، وتفرض عليهم الجزية ، وتسوق الاشداء منهم الى الاسر ، وتنزل العقاب الصارم بكل من يخيل اليك أن له علما بمقر كرتميس ويتذرع بالنكران • أسامع أنت ؟

فركع القائد أمام فرعون وأجاب :

ــ سامع يا مولاى

ـــ اذهب ! وليزحف الجيش منذ الليلة الى الشرق !

وفى المساء ، غادرت الجحافل المصرية ضواحي طيبة حيث ظلت تحتشد بضعة أسابيع

سار جيش الى الشمال فالشرق لغزو بلاد الاشوريين والبابليين والفرس

وسار جيش الى الجنوب لغزو بلاد كوش ـ المسماة الآن « اثيوبيا » أو « الحبشة »

وأمر فرعون بأن تنصب على شرفة قصره العليا خيمة ارجوانية ، ويوضع فيها سرير الملك ، لكى يشرف على الطرق المتشعبة من طيبة الى اطراف المملكة ، وأقسم أن يظل مقيما فى تلك الخيمة الى أن يحمل اليه الرسل خبرا سارا عن كرتميس

وأوفد مع الجيش الزاحف شمالا وشرقا مائة رسول من عبيد القصر المشهورين بسرعة الجرى وقطع المسافات البعيدة بلا عناء ـ وعهد الى قيادة الجيش فى أن تعيد الى طيبة رسولا واحدا كل يومين أو ثلاثة ، حاملا الى القصر آخر الاخبار

ودار القمر دورته مرة بعد مرة ، ولم يحمل الرسل الى فرعون غير أنباء الانتصارات المتوالية التى احرزها جيشه فى ميادين القتال

ولم يكن هذا ما يتوق اليه تحتمس ، بل كان يرغب قبل كل شيء فى معرفة ما تم من أمر كرتميس ، وهل تمكن قواد جيشه من العثور عليها وهل هى عائدة الى القصر أم لا

وفد الرسل الواحد بعد الآخر ، وكان فرعون كلما جيء اليه برسول قادم من الشرق يبندره سائلا :

ـــ ما وراءك من أخبار ؟

فيجيب الرسول :

ـــ انتصر جيشك يا فرعون

ولكن تحتمس كان يقاطعه قائلا :

ـــ أليس وراءك غير أخبار الحرب والقتال ؟

ـــ كلا يا مولاى !

ـــ اذهب اذن !

وبعد أن وفد على طيبة ثلاثون رسولا لا يحملون غير أنباء الانتصارات ، صاح فرعون مغيظا محنقا :

ـــ ليس هذا ما أود معرفته ! ليس هذا ما أتوق اليه ! كرتميس ! كرتميس ! أريد أن أعلم ماذا حل بكرتميس ولن ينزل الرسول بعد اليوم حيا من هذا المكان ان كان لا يحمل الى أخبارا عن كرتميس

فارتجف رجال القصر من الخوف • وأسرع الكهنة الى الآلهة يتوسلون ويضرعون اليها بأن تحقق رغبة فرعون وتنقذ حياة الرسل المساكين

وبعد عشرة أيام وفد رسول جديد ، ومثل بين يدى تحتمس الاول ، فوجده وحيدا تحت خيمته

وقد وضع أمام وسادته سيفا مسلولا

وصاح فرعون :

ـــ أمعك خبر عن كرتميس ؟

ـــ كلا يا مولاى

ـــ خذ اذن !

ومزق السيف صدر المسكين وأسكت دقات قلبه ، فخر على الارض جثة هامدة

واستلقى فرعون على سريره وهو يرتجف من الغضب

وشاءت الاقدار أن يفد على القصر في ذلك اليوم أربعة من الرسل ، قتلهم فرعون الواحد بعد الآخر لانهم لم يحملوا اليه الخبر السار الذى كان ينتظره

وانقضى عشرون يوما لم يفد فيها على طية رسول آخر من الجيوش

وقلق فرعون واضطرب ، وخشى ان تكون هناك كارثة قد حلت بجنوده ، فهجر الرقاد جفونه ، وواصل الليل بالنهار على الشرفة ، وعيناه شاخصتان الى الطريق ، رافضا ما كان يحمله اليه العبيد من طعام وتأتيه به الاماء من شراب وعطور

وفجأة ، فى منتصف الليل ، استيقظ تحتمس على ضوضاء منبعثة من سلم الشرفةوسمع صوتا قويا يصيح قائلا :

ـــ لن يقف حارس فى وجهى فلا بد من الوصول الى فرعون لاننى احمل أخبارا يجب أن تبلغه فى الحال

وصاح تحتمس من ناحيته :

ـــ على بالرجل !

واندفع الى الشرفة شاب فى العقد الثالث من العمر ، قوى البنية مفتول الساعدين اسود البشرة ، وانطرح على الارض أمام فرعون قائلا :

ـــ انى أعلم يا مولاى ما ينتظر الرسول الذى لا يحمل اليك خبرا عن الفتاة كرتميس وانى أحمل اليك ذلك الخبر • غير انه خبر ليس فيه ما يسر

ـــ افصح •• افصح

ـــ ان كرتميس يا فرعون قد انتقلت الى عالم غير هذا

ـــ ماتت ؟

ـــ ماتت منتحرة بعد أن انتزعناها من ديار أهلها ومن بين عشيرتها

ـــ كيف حدث ذلك ؟

ـــ خرج الينا القوم من بطن الصحراء وكانت كرتميس نفسها تقودهم وتحثهم على القتال • ولكننا صمدنا لهم ، ودفعنا هجومهم ، ثم تغلبنا عليهم شيئا فشيئا حتى هزمناهم هزيمة منكرة ، وفتكنا بهم فتكا ذريعا وما انتهى ذلك اليوم المشهود حتى كانت أشلاؤهم تملأ السهل ، ومواشيهم شاردة فيه • وقد وقع فى الاسر كثيرون منهم بينهم كرتميس التى جرحت فى المعركة

ـــ وبعد ؟

ـــ أقمنا حولها الحراس وضمدنا جرحها وأحطناها بكل عناية • ولكنها يا مولاى اغتنمت فرصة الظلام الحالك وخنقت نفسها بشعرها الطويل المسترسل على كتفيها

ـــ ويحكم ! أما فكرتم فى حراستها ليلا كما فكرتم فى حراستها نهارا ؟

ـــ لم يعتقد أحد منا يا مولاى انها ستقدم على ذلك العمل الجنونى

ـــ انك تستحق الموت كسواك من الرسل الذين سبقوك ولكنى سأبقى عليك وأحتفظ بك الى ما بعد عودة الجيش

ـــ لدى خبر آخر يا فرعون

ـــ تكلم

ـــ ان الجيش العائد من الصحراء الشرقية ، يسوق أمامه أسرابا من « الخيول »

ـــ آه •• الخيول •• تلك الحيوانات التى يستخدمها اعداؤنا فى السفر والحرب ، فيمتطونها ويروضونها ويدربونها على الجرى والقتال • لقد احسنتم صنعا • وهذا الخبر يحملنى على العفو عنك • اذهب فأنت حر طليق

خرج الرسول ، ونظر فرعون حواليه وعند ما ايقن أنه وحيد على شرفة القصر ، وان لا أحد يراه ، أمسك رأسه بيديه ، وتفجرت الدموع من عينيه ، وبكى بكاء مرا ، بينما كانت شفتاه ترددان الاسم المحبوب :

ـــ كرتميس !•• كرتميس !

***

رجع الجيش الفاتح من أرض بابل وأشور وفارس ، يسوق أمامه آلافا من الاسرى

والسبايا ، وقطعانا من الخيول المطهمة والافراس الاصيلة ، وأثقالا لا يحصى لها عدد ووزن من اسلاب المعارك وتحف القصور

واصغى تحتمس بامعان الى ما قصه عليه قواد جيشه من أمر كرتميس وكيف آثرت الانتحار على العودة الى الاسر ، وقال بعد ان اطلع على نتيجة تلك الحملة الموفقة التى قام بها جيشه الباسل على الدول المجاورة :

ــ لقد احرزتم فى المعارك نصرا أنسانى ما عداه من أمور • وأحرز الجيش فى الجنوب نصرا آخر يبسط سلطان فرعون على بلاد كوش • وفرعون فخور بجنده وقواده • وقد عجزتم عن اعادة امرأة هاربة الى القصر الذى هربت منه ، ولكنكم أتيتم بعامل جديد من عوامل النصر فى الايام المقبلة • أتيتم بالحيوان الذى يعد خير صديق للرجل بين ذوات القوائم الاربع • فان الهكسوس قد جاءوا ببعض الخيول من الشرق ، ولكنهم لم يعتنوا بتربيتها فى وادى النيل • أما الآن ، فاننا سننشىء لها المرابط ونهيىء لها المراعى الخصبة ونخصص لها من أبناء مصر من يتولى تربيتها وتحسين نسلها • وسوف يستخدم ملوك مصر فى المستقبل تلك الخيول والافراس لعظمة مصر وبسط سلطان فرعون على الشعوب الاخرى

وبعث تحتمس فى طلب الرسول الذى حمل اليه خبر موت كرتميس وجلب الخيول الى مصر ، فأنعم عليه وكافأه ، واختاره رسولا خاصا له ، وعرف الرجل منذ ذلك الوقت باسم « رسول فرعون »

ونسى تحتمس الفتاة كرتميس ، كأن ذكرها قد ذاب على حرارة الدموع التى تساقطت من عينيه فى تلك الليلة

وانصرف المصريون منذ ذلك الوقت الى العناية بتربية الخيول ، وما مرت سنوات معدودة حتى كان عددها قد تضاعف فى وادى النيل ، وأنشأ فرعون فى جيشه فرقا من الفرسان الذين عاد اليهم الفضل فى فتح الاقطار واخضاع الامصار

حسّان بن زياد

جلست مرتا على شاطىء النيل ، أمام بيت ابيها ، والقت صنارتها فى النهر كعادتها كل يوم ، ثم التفتت الى عمها الشيخ ، الجالس بقربها ، وقالت مشيرة الى حصن بابيلون الرابض هناك كالضبع الاشهب ، تحيط به الخنادق والصخور والرمال :

ـ اذن ، لقد خرجت يا عمى من هذا الحصن على ان لا تعود اليه أبدا ؟

فأجابها الشيخ قائلا :

ـ نعم يا بنيتى . لقد خدمت فيه عشر سنوات مع ابيك . ولكننى لم أعد أطيق البقاء فيه بعد موت أخى المحبوب فهجرته وتركت الخدمة ، وعزمت على الاقامة معك فى منزلنا الصغير هذا ، ولكن ينبغى ان تصغى الى وتعملى بنصيحتى وتتزوجى الرجل الذى اخترته لك بعلا ...

ـ أتريد ذلك حقا يا عمى ؟

ـ نعم لاننى أشعر بدنو أجلى ويؤلمنى أن أرحل عن هذا العالم قبل ان يطمئن بالى من ناحيتك ، وأعلم أنك فى مأمن من عاديات الزمن

ـ ليكن لك ما تريد يا عمى العزيز لن أرد لك طلبا ولن أعصى لك رغبة

وفى اليوم التالى عقدت خطبة الفتاة القبطية مرتا على الضابط الرومانى لوسيوس سابينوس، المسيحى سرا ، والذى كان يخشى المجاهرة بدينه وايمانه أمام الرومانيين اخوانه ، خوفا على حياته ...

وكانت الفتاة فى الثامنة عشرة من عمرها ...

***

سنة ٦٣٨ ...

مات عم الفتاة وبقيت مرتا يتيمة وحيدة فى المنزل الذى فيه رأت النور ، وفيه مات أبوها قبل عمها ...

وألح الضابط لوسيوس سابينوس على الفتاة فى أن تذهب معه الى الكاهن لكى يعقد لهما ، ويعيشا معا فى هناء وصفاء . لكن مرتا أبت الا أن تلبس الحداد على عمها سنة كاملة، ثم تفكر بعد ذلك فى الزواج

ولكن الأقدار شاءت أن لا يعقد ذلك الزواج وان تسير مرتا القبطية فى طريق غير الذى أراده لها عمها قبل موته

جلست ذات يوم فى مكانها على شاطىء النيل ، حيث وافاها خطيبها ، وكان مضطربا قلقا شارد الفكر

ـ ما بك اليوم يا سابينوس ؟

فمسح الرومانى بطرف قميصه العرق المتصبب من جبينه ، وتنهد وقال :

ـ لقد حمل الينا الرسل اليوم أخبارا مزعجة يا مرتا . واخشى ان تتطور الحوادث وان يقع ما يودى بسعادتنا وراحتنا

ـ أفصح يا سابينوس !

ـ لقد حدثتك قبل اليوم عن اولئك العربان الذين تدفقوا من جوف الجزيرة ، ففتحوا الأقطار والامصار ، ودكوا الحصون والقلاع ، ورفعوا على الحواضر والبوادى أعلاما لم نعهدها من قبل وفرضوا الجزية على الشعوب التى أخضعوها لسلطانهم ـ كل ذلك باسم رسول جديد ودين جديد

ـ نعم ، لقد حدثتنى عنهم يا لوسيوس : أولئك هم العرب ، ورسولهم اسمه محمد ، ودينهم هو الاسلام

ـ انهم قادمون الى مصر يا مرتا ... آه ... لقد صدق المنجمون وحدث ما توقعناه عندما اندس بيننا ذلك التاجر البدوى ... الذى يقود الآن جيوش المسلمين لفتح مصر واخضاعها لدين محمد ...

ـ أى بدوى تعنى ...

ـ كنا منذ سنوات نقيم مهرجاننا السنوى كعادتنا ، والشعب فى فرح ومرح ينظر الى « الكرة » التى كان الشبان يتقاذفونها ويلعبون بها ، والتى يعتقد المصريون ان الرجل الذى تقع الكرة فى كمه سيكون على هذه الديار سيدا وأميرا . فقد سقطت الكرة فى كم ذلك

التاجر البدوى ، وضحك الناس كثيرا عند ما رأوه حائرا بينهم ، يجر اطماره البالية ، وقد أخذته الدهشة واستولى عليه الذهول ...

ـ وهل اعتقد الناس ان ذلك الرجل ...

ـ اصغى الى النهاية . أخذ الشبان الكرة من كم البدوى ، ودفعوها الى بعيد ، وعادوا يتقاذفونها ، فاذا بها ترتفع فى الفضاء وتسقط مرة أخرى فى كم الرجل

ـ عجيب هذا !

ـ نعم . حينذاك أخذ البدوى الكرة بيده ، ونظر الى الجموع المحيطة به بعينين يتطاير الشرر منهما ، وصاح بصوت قاصف كالرعد : « اننى راحل عنكم يا قوم ! وقد أعود اليكم سيدا وأميرا ، كما انبأتكم هذه الكرة ! وستذكرون غدا ما حدث اليوم لعمرو بن العاص ! »

ـ أهذا ما قاله لهم ؟

ـ نعم ... أو تعلمين الآن من يقود جيوش المسلمين لفتح مصر ؟

ـ من ؟

ـ عمرو بن العاص يا مرتا !..

***

كان التاجر البدوى عمرو بن العاص قد طاف الامصار العامرة فى ذلك العهد ، حاملا تجارته من دمشق الى غزة الى مصر الى السودان فالحبشة ، ثم عاد مهاجرا الى النبى الكريم ، فاكتسب ثقته ، واشترك فى حروب المسلمين فى بلاد العرب وفلسطين ، ونازل جيش الارطبون فى معركة دامية كان النصر حليفه فيها ، مما جعل عمر بن الخطاب يقول : « لقد رمينا ارطبون الروم بارطبون العرب ! »

وبعد ان تم لجيش المسلمين الاستيلاء على فلسطين كلها ، طلب عمرو بن العاص الى الخليفة عمر ان يأذن له بالزحف على مصر ، وكتب له يقول : « انك ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم ، وهى اكثر الارض أموالا وأعجزها عن القتال والحرب ! »

وزحف عمرو بن العاص على وادى النيل بأربعة آلاف رجل !

العريش ـ صحراء التيه ـ الرمال المحرقة والمياه المالحة ـ بلبيس ـ لم يقف عمرو بن العاص أمام كل تلك العقبات غير الوقت الكافى لتذليلها واجتيازها ...

وها هو الآن أمام الحصون المنيعة ، والقلاع الضخمة ، التى أقامها الرومان فى مصر للاحتفاظ بها والدفاع عنها ...

لكنها قلاع وحصون لم تجد أمام شجاعة الفرسان ومهارة القواد نفعا ، فان العرب استولوا عليها ، ورفعوا أعلامهم على أبراجها

ووصل عمرو بن العاص الى « قصر الشمع » أو حصن « بابيلون » حيث حاول المقيمون فى داخله الدفاع عنه فى بادىء الامر ، لكنهم ما عتموا أن أخلوه للغزاة الفاتحين

وكان ذلك فى السنة الثامنة عشرة للهجرة ، الموافقة لسنة ٦٣٩ للميلاد

ولم يعط الرومانيون للقبط أبناء البلاد سلاحا لمحاربة العرب خوفا من ان ينقلبوا عليهم ويحاربوهم بذلك السلاح ، ولم يكن القبط راضين عن معاملة الرومانيين لهم فى اثناء حكمهم الظالم ، فظلوا بعيدين عن الحرب ، بل انهم فى كثير من المواقع ساعدوا العرب على الرومان ، وانتهى الامر بأ نانحاز زعيمهم المقوقس الى المسلمين وعقد معهم معاهدة صلح فرضت بموجبها الجزية على سكان مصر القبط على كل شخص ديناران واستثنى الشيوخ والنساء والصبيان ، وتعهد العرب مقابل ذلك بألا يتعرضوا لدينهم وأملاكهم وأموالهم وأرواحهم

ولكن ، ماذا حل بمرتا ، الفتاة القبطية ، وبخطيبها الرومانى لوسيوس سابينوس ، فى أثناء ذلك كله ؟

لقد حارب الرجل فى صفوف الجيش الرومانى وقام بواجبه الى النهاية ، لكن خلافا نشأ بينه وبين خطيبته مرتا ، التى أبت ان تظل مخلصة أمينة ، حافظة عهدالضابط الرومانى بعد ان حل الجفاء بين زعماء الرومان وزعماء مصر ، وطاف الشيوخ القبط على مرابع القوم ومساكنهم فى المدن والحقول ، قائلين لهم انه خير لمصر ان يحكمها المسلمون اذا كانوا سيعدلون فى حكمهم ، من ان تظل رازحة تحت نير الرومان القساة الظالمين ؟

كانت مرتا تنظر الى الضابط الرومانى نظرها الى صديق حبيب ، فأصبحت بعد ان رفض الرومان تسليح القبط ، وبعد ان جاهر القبط بميلهم الى العرب ، تنظر اليه نظرها الى عدو غريب

وفى اليوم الذى استولى فيه العرب على حصن بابيلون ، كان لوسيوس سابينوس يحارب مع فريق من اخوانه فى معركة دارت رحاها بين الرومان وفرسان احدى القبائل العربية ، على ضفاف النيل ، فى الجهة الجنوبية من الحصن العظيم

وأصيب لوسيوس بجرح بليغ فى كتفه ، وتمكن من السير على قدميه ، ودمه يسيل بغزارة ، فوصل الى ذلك البيت الصغير ، الذى تقيم فيه الفتاة التى يحبها ، والتى أعرضت عنه وأغلقت فى وجهه بابها

دخل سابينوس بيت مرتا ، فرق له قلبها عند ما رأته على ذلك الحال ، وقبل ان تتمكن من مؤاساته ، فارق الضابط الحياة ، بعد ان فتح عينيه وتمتم كلمات لم تفهم منها مرتا غير كلمة واحدة : اسمها !

مات لوسيوس سابينوس ، فركعت مرتا القبطية على ركبتيها أمام جثمانه ، ورفعت يديها الى السماء ، وتوجهت بصلاتها الى الخالق القهار ، طالبة لذلك الجندى الباسل الذى قضى شهيد الواجب ، الراحة والسعادة فى العالم الآخر !

وبينما هى راكعة تصلى ، اذا بالباب يفتح على مصراعيه ، وصوت أجش يهدر وراء الفتاة :

ـ لقد قتلت هذا الرومانى أيتها المصرية الخائنة !

فانتفضت الفتاة ونهضت مذعورة ، فاذا بها أمام جنديين رومانيين ، يهددانها ويتوعدانها

تراجعت الى زاوية الحجرة ، وتناولت سكينا للدفاع عن نفسها ، لكن الله أرسل اليها فى تلك الساعة الحرجة من يرد عنها العدوان وينقذها من أيدى ذينك الشقيين

دخل من الباب اعرابى كالح الوجه براق العينين ، بيده سيف يقطر دما ، وما وقع نظره على الجنديين الرومانيين حتى وثب بهما صائحا :

ـ لن تفلتا منى الآن ورب الكعبة !

سقطت الفتاة مغشيا عليها ، وعند ما استفاقت من سباتها ، وجدت نفسها مستلقية على فراشها ، والاعرابى الغريب بجانبها ، وفى ناحية من الحجرة ثلاث جثث غارقة فى بحر من الدماء ...

نظرت مرتا القبطية الى ذلك الذى أنقذ حياتها ، ولسان حالها يقول : « شكرا لمن دفع عنى الموت . ولكن من أنت ؟ »

أدرك الاعرابى سؤالها الذى لم تفه به شفتاها ولكن نمت عنه عيناها ، وتكلم بلغة لم تفهم منها الفتاة شيئا !

***

ذلك الاعرابى هو حسان بن زياد اليافعى ، الذى التحق هو واخوته وأبناء عمه بجيش عمرو بن العاص ، وأبلى فى الميادين البلاء الحسن

وكان حسان بين رجال تلك القبيلة التى جاءت من يافع ، والتى اجتازت نهر النيل عند الفسطاط ، فى طليعة جيش المسلمين ، وركزت العلم فى مكان مقابل للمكان الذى كان بيت مرتا القبطية قائما فيه

ومنذ ذلك الوقت ، أى منذ اليوم الذى اجتازت فيه تلك القبيلة اليافعية نهر النيل وركزت العلم فى الضفة الغربية ، سمى ذلك المكان « الجيزة » ولا يزال هذا الاسم يطلق عليه الى يومنا هذا دلالة على أن العرب « اجتازوا » النيل هناك من ضفة الى ضفة !

وتلك القبيلة اليافعية هى التى كان الخليفة عمر بن الخطاب يعنيها ، عند ما كتب لعمرو بن العاص يقول : « لا تجعل بينك وبين قومك بحرا . فابن سورا يحمى المسلمين فى جيزة الفسطاط ! »

وقد أراد عمرو بن العاص أن ينزل عند رغبة الخليفة ويبنى حول جيش المسلمين فى الجيزة سورا منيعا ، لكن اليافعيين ومن كان معهم من أبناء البادية أبوا الا أن تظل السهول مكشوفة من أمامهم ومن ورائهم ، وقالوا لعمرو بن العاص قائدهم : « دعنا من السور يا عمرو ، فانما أسوارنا صدورنا ! »

***

سنة ٢١ للهجرة ـ الموافقة لسنة ٦٤٢ للميلاد ...

بنى عمرو بن العاص فى الفسطاط الجامع الذى يحمل اسمه الى الآن ، ويخلد ذكره فى وادى النيل

وكان بين الذين أشرفوا على بناء الجامع وزخرفته ، حسان بن زياد اليافعى ، البطل المغوار الذى أحبه عمرو بن العاص ووضع فيه ثقته وجعله من أمنائه والمقربين اليه

أما مرتا القبطية ، فقد تزوجها حسان ابن زياد واستولدها أبناء وأقام معها فى الجيزة ، بعد أن تم للمسلمين فتح مصر ، وعاد من العرب الى الجزيرة من عاد ، وبقى منهم فى مصر من بقى ...

وقد رحل عن مصر اثنان من أبناء حسان بن زياد ومرتا القبطية ، عائدين الى الحجاز لاداء فريضة الحج ، لكنهما لم يرجعا الى مصر ...

وكان ذلك فى سنة ٥١ هجرية

مرتا النصرانية

هزم فرسان العرب على أبواب « بوردو » جيش الافرنج هزيمة شنيعة ، ودخلوا المدينة فاتحين ، وأسروا حاميتها ، وضربوا عنق حاكمها ، وعللوا النفس بعد ذلك الانتصار الباهر بفتح بلاد « غاليا » من جنوبيها الى شماليها ، وبسط سلطانهم على أوربا من أدناها الى أقصاها

وأرسل الدوق اود ، أمير اكيتانيا ، يستنجد بملك فرنسا شارل ـ الذى لقب فيما بعد بشارل مارتل ـ فاسرع الملك الى نجدته ، وتدفقت جيوش الافرنج من كل فج وصوب الى الاقاليم التى يحتلها العرب ، واستعد عبد الرحمن الغافقى ، قائد المسلمين ، للقاء تلك القوة الهائلة الزاحفة على معسكره

والتقى الفريقان فى سهول « بواتيه » حيث كان العرب قد ضربوا مضاربهم ، ووضعوا فيها نساءهم وأسلابهم ، وصمدوا للافرنج . لكن الافرنج لم يبدأوا بالهجوم ، بل صمدوا للعرب من ناحيتهم ، وظل كل فريق يرقب حركات الفريق الآخر ، منتظرا الفرصة السانحة للانقضاض عليه

وكان عبد الرحمن ، فى اليوم الذى بدت فيه طلائع الافرنج بين الهضاب المحيطة ببواتيه ، جالسا فى خيمته ، وحوله أمراء الجيش وأصحاب الرأى الراجح فيه ، يتباحث معهم فى الخطة التى يرون اتباعها ، واذا بحامل سلاحه يدخل عليه ويقول ان امرأة تطلب المثول بين يديه

سأله عبد الرحمن من تكون تلك المرأة ، فأجاب حامل السلاح انها معروفة فى الجيش مشهورة فى تلك البلاد ، وتعرف باسم « مرتا النصرانية »

عرفها عبد الرحمن فأمر بادخالها فدخلت ، وبادرها القائد العربى بقوله :

ــ أهلا بك يا مرتا • خذى مجلسك بين أمراء العرب هؤلاء ، وتكلمى على مسمع منهم اذا كان لديك ما تطلبين ، فاننا لن نرفض لك طلبا ، ولن نرد لك رجاء

فجلست مرتا بعد أن حيت الحاضرين وقالت :

ــ جئتك أيها الامير طالبة تحقيق أمنية طالما عللت النفس بها منذ شهور

ــ وما هى تلك الامنية ؟

ــ وصلت منذ ساعة الى معسكرك ومعى عشرة من أبناء قومى ، وقد جئنا نطلب الالتحاق بجيشك ومقاتلة الافرنج فى المعركة القادمة

ــ لقد عهدناك يا مرتا شديدة الاخلاص لزوجك العربى ، ولكننا لم نعهدك عدوة قومك فما الداعى الى هذا الانقلاب ؟

ــ كنت حافظة عهد قومى عند ما كانوا من جهتهم حافظين عهدى • أما الآن فقد خانوا ذلك العهد فأصبحت من جهتى فى حل من واجب الاخلاص لهم !

ــ وكيف ذلك ؟

ــ لقد قتلوا زوجى فجئت مع عشرة من ذوى وذويه نسعى الى الثأر ونطلب الحرب والانتقام • فاسمح لنا يا عبد الرحمن بان نقاتل فى صفوف جيشك ، راجين لك ولانفسنا النصر المبين !

ــ لك ما تريدين يا مرتا !

قال عبد الرحمن الغافقى هذا ، وأمر بأن يعطى رفاق المرأة ما يلزمهم من سلاح ، وان يلحقوا بالكتيبة التى يقع اختيارهم عليها

***

من هى تلك المرأة التى لقبها العرب بمرتا النصرانية، وكيف انقلبت على قومها وحاربتهم؟

هى مرغريت دى فونتان ، ولدت من أبوين افرنجيين ، فى اسبانيا النصرانية ، وفى سنة ٧١١ للميلاد الموافقة لسنة ٩٢ للهجرة ، كانت الفتاة فى الخامسة عشرة من عمرها ، عند ما اجتاز العرب والبربر بقيادة طارق بن زياد مياه المضيق وتدفقوا على أوربا ، وأنشأوا دولة الاندلس

أحبت الفتاة مرغريت شابا عربيا يدعى قاسم العامرى، جاء مع الجيش الفاتح الى الاندلس بعد أن حارب فى الشام ومصر والقيروان والمغرب ، واكتسب فى ميادين القتال شهرة واسعة • وكان الشاب قد أصيب بجرح خطر فى احدى المعارك التى دارت رحاها بين العرب والقوط فى شمالى اسبانيا ، فأنقذه والد الفتاة من الموت ، وأضافه فى بيته ، حيث

رأته الفتاة للمرة الاولى ، فعلق به قلبها ، وبادلها الشاب العربى الحب الخالص ، ورضى والد الفتاة بأن تصبح ابنته زوجة لذلك الغريب الشجاع ، فتم للعاشقين ما أرادا ..

ولحقت مرغريت بزوجها الى الميادين منذ ذلك الوقت ، وأطلق عليها العرب اسم مرتا النصرانية ، وشهدت بجانب قاسم المعارك الدموية التى تطاحنت فيها جيوش العرب والافرنج فى بلاد غاليا حول مدن نربون وتولوز وبوردو ، من سنة ٧٢٠ الى سنة ٧٢٨ للميلاد

وحدث فى سنة ٧٢١ ان احرز الدوق اود ، أمير اكيتانيا ، انتصارا هاما على العرب ، فأثار ذلك الانتصار غضب المسلمين فى الاندلس، وراح ضحية غضبهم كثيرون من الافرنج القاطنين فى الاقاليم التى كان العرب يحتلونها ، وقتل والد مرتا فى مناوشة وقعت بين بعض الجنود العرب وسكان القرية التى يوجد فيها قصره

وبعد اسبوع واحد من مقتل الرجل ، لحقت به زوجته

ومنذ ذلك الوقت ، اقامت مرتا مع زوجها العربى فى بلاد اكيتانيا ، وظلت ناقمة على المسلمين لانهم قتلوا اباها وعجلوا وفاة أمها ، وامتنعت عن خوض غمار المعارك فى صفوف العرب ، وصنع قاسم العامرى مثلها ، ونزل الاثنان فى منزل منعزل ، على مقربة من مدينة بوردو

وحدث بعد ذلك ان عقد زواج القائد العربى المعروف بالمنيذر على ابنة الدوق اود الاكيتانى ، وخرج ذلك القائد على قومه واصلاهم حربا عوانا ، وكان قاسم يمت بالنسب الى المنيذر الخائن ، لكنه لم ينضم اليه فى تمرده وعدوانه ، وظل محافظا على حياده ، لايقاتل الافرنج ولكنه لا يساعدهم على بنى قومه

وأراد عبد الرحمن الغافقى ان يضرب ضربة قاضية فى بلاد غاليا ، وان يفتح للمسلمين طريقا فى أوربا ويسير فى طليعتهم الى الامام ، للعودة الى الشرق بعد اجتياح البلدان الواقعة على شواطىء البحر الابيض الشمالية ، لكى يتم فتح العالم المعروف فى ذلك الوقت . فاجتاز بجيشه الجبال الفاصلة بين اسبانيا وغاليا ، وقتل المنيذر فى معركة حامية وانتشر فرسانه فى السهول والبطاح ودكوا الاسوار وفتحوا المدن ورفعوا عليها اعلام المسلمين

وغضب الافرنج لانتصارات العرب المتوالية ، كما غضب العرب من قبل لانتصار الدوق اود الاكيتانى ، فراح ضحية غضبهم كثيرون من العرب الذين كانوا يقيمون فى الاقاليم التى كانت سلطة الافرنج لا تزال مبسوطة عليها

وقتل زوج مرتا النصرانية ، قاسم العامرى ، بيد الافرنج ، كما قتل ابوها من قبل بيد العرب !

عند ما أمر عبد الرحمن الغافقى بأن يعطى للمرأة ورفاقها ما يريدونه من سلاح وأن تترك لهم الحرية فى الالتحاق بالكتيبة التى يقع عليها اختيارهم ، لم يكن القائد العربى قد عرف بعد تفاصيل ما حدث لمرتا النصرانية ، فطلب اليها أن تقص عليه قصتها فأجابته الى طلبه وصدعت لامره . وختمت حديثها بهذه الكلمات :

— ليست المرأة التى تخاطبك الآن يا عبد الرحمن افرنجية .. ولا هى عربية ! انما هى امرأة فقط ! امرأة قتل زوجها ظلما وعدوانا ، بعد أن قتل أبوها ظلما وعدوانا أيضا ! لقد ثارت لابى بامتناعى عن محاربة الافرنج فى صفوف العرب ، وحملى زوجى أيضا على الامتناع عن القتال فقد أفقدتكم فى السنوات الاخيرة سيفا قاطعا ورأيا صائبا ، لانكم كنتم تعتمدون على قاسم فى حل المصاعب وفض المشاكل . والآن ، لا بد لى من الثأر له ، ولا سبيل الى ذلك الا بمحاربة الافرنج الذين سفكوا دمه وافقدونى الشخص الوحيد الذى بقى لى فى هذا العالم . أما الشبان الذين لحقوا بى الى هنا ، والذين جاءوا أيضا يطلبون الحرب والطعان ، فانهم من ابناء هذه البلاد ، لهم على امير اكيتانيا ثأر يسعون اليه ، وجميعهم يعرفون زوجى ، وأنا الكفيلة لك بأنهم لن يخونوا العرب فى الميدان

***

مضت بضعة أيام لم يقع فيها حادث يذكر ، ولم يشتبك فيها العرب والافرنج الا فى مناوشات لا اهمية ولا نتيجة لها

وقرر عبد الرحمن الغافقى أن يبدأ بالهجوم ما دام الافرنج يترددون فى مهاجمته فأصدر أمره الى فرسانه ، فانطلقوا على خيولهم كالشهب المارقة

لكن هجماتهم المتكررة تحطمت على صفوف الافرنج الذين صمدوا لهم بدروعهم الفولاذية وأسلحتهم الثقيلة الماضية ، كأنهم « سور من حديد »

لم يكن عبد الرحمن ينتظر تلك المقاومة ، وأدرك بعد مضى ساعات أن العدو الذى أمامه أربط جأشا وأثبت قدما فى القتال من الاكيتانيين والقوط وغيرهم من أبناء البلدان التى اجتاحها بجيشه

وبينما كان القائد العربى الشجاع يفكر فى خطة جديدة يعمد اليها لاختراق ذلك السور الحديدى ، اذا بالافرنج يعمدون من ناحيتهم الى خطة شيطانية قضت على آمال القائد فى ذلك اليوم المشهود .. فقد ابتعد الدوق اود الاكيتانى برجاله عن ميدان القتال ،

وطوق الجيش العربى ، واندفع بفرسانه نحو المعسكر حيث النساء والاسلاب !

ورأى العرب ذلك ، فتركوا الميدان وعادوا مسرعين الى المعسكر ، لانقاذ ما يستطيعون انقاذه من نسائهم وأسلابهم

وحاول عبد الرحمن ان يعيدهم الى جبهة القتال وان يحول دون الانهزام ، ولكنه اخفق فى محاولته ، وهجم الافرنج بقيادة الملك شارل على كتائب العرب المضعضعة ، وكان ما كان ...

قتل عبد الرحمن الغافقى فى تلك المعركة التاريخية ، المعروفة بمعركة بواتيه ، والتى اطلق بعدها على ملك الافرنج اسم شارل مارتل ـ أى شارل المطرقة ـ لانه فى نظر القوم قد طحن الجيش العربى طحنا فى ذلك اليوم المشهود !

وفى صبيحة اليوم التالى ، هم الافرنج بالهجوم على معسكر العرب ، لكنهم وجدوه خاليا من الجيش لان العرب كانوا قد انسلوا بعيدا عن ذلك المكان ، بعد ان ذاع فى المعسكر خبر مصرع عبد الرحمن الغافقى الباسل الذى سقط فى الميدان والسيف بيده !

وقيل ـ ولكنه قول مبالغ فيه ـ انه قتل من العرب فى تلك المعركة مائة الف فارس وراجل ، وانهم تركوا فى خيامهم جميع الاسلاب التى جاءوا بها من المدن الافرنجية منذ اجتيازهم الجبال الى غاليا

أما جثة عبد الرحمن الغافقى ، فقد وجدت وراء صخرة كبيرة ، بجانب جثة الجواد الادهم الذى كان القائد يمتطيه فى تلك المعركة ، ووجدت بجانب الصخرة أيضا جثة امرأة اصيبت فى وجهها بثلاثة جروح وفى صدرها نصل سيف كانت اصابع يدها لاتزال منضمة على قبضته

تلك المرأة هى مرتا النصرانية ، التى حاربت بجانب عبد الرحمن الغافقى الى ان ادركه الاعداء ، فحاولت ان تدافع عنه وعن نفسها ، وعند ما يئست من الحياة اغمدت سيفها فى صدرها وكان ذلك فى سنة ١١٤ هجرية الموافقة لسنة ٧٣٢ للميلاد

***

ان انقسام الاسبانيين بعضهم على بعض قد ساعد العرب على قهرهم وكان سببا للقضاء عليهم

وانقسام العرب بعضهم على بعض ، فى بلاد غاليا ، مكن الافرنج منهم ، وساعد شارل مارتل على سحق جيش عبد الرحمن فى بواتيه !

فالتاريخ يعيد نفسه ، وكل وحدة تنقسم يكون مصيرها الخذلان والفشل والهلاك !

بلاط الشّهداء

أوفد الدوق « أود » سيد اكيتانيا رسله الى شارل ملك الافرنج يستنجد به ويقول :

« لقد اجتاحت جيوش العرب بلادى ، وهزمت فرسانى ، وساقت الأسرى والسبايا الى الأندلس ، فأسرع إلى أيها الصديق بأبطالك قبل أن يعم الخطب ويحل بك وبشعبك ما حل بى وبشعبى ! العونة يا شارل العونة ! »

ولبى ملك الافرنج النداء ، ونفخ فى بوق الحرب ، وسار على رأس جيش لجب ، لملاقاة الغزاة الفاتحين ، ومحاولة ردهم على أعقابهم خائبين

والتقى الجيشان ، جيش العرب المسلمين وجيش الافرنج النصارى ، فى السهول الواقعة بين تور وبواتيه ، على ضفاف نهر اللوار ، وعرفت تلك المعركة الهائلة فى التاريخ باسمين : باسم معركة بواتيه عند الافرنج ، وباسم معركة بلاط الشهداء عند العرب

وقد أطلق عليها العرب هذا الاسم لكثرة ما جرى فيها من دماء زكية واستشهد فيها من أبطال صناديد

ويدعي الافرنج فى تواريخهم ان عدد القتلى العرب الذين سقطوا فى تلك الملحمة الدموية ، يزيد على مائة الف فارس وراجل !

وكان ذلك فى الحادى والعشرين من شهر اكتوبر سنة ٧٣٢ للميلاد ، الموافقة لسنة ١١٤ للهجرة

وفى ذلك اليوم استشهد القائد العربى العظيم عبد الرحمن الغافقى الذى يسميه الافرنج الى اليوم « الامير أبد رام »

وفى ذلك اليوم أيضاً ، سقط فى حومة الوغى ثمانية اخوة كانوا يحاربون فى صفوف العرب ، دون أن يكون فى عروقهم دم عربى ، وقد استشهدوا فى سبيل الفتح الاسلامي دون أن يكون دينهم الاسلام

وفى ذلك اليوم المشهود سقط فى حومة الوغى رجل كان يحارب فى صفوف الافرنج ولم يكن منهم . وقد استشهد فى الدفاع عن النصرانية فى الغرب ، وما كان يدين يوما من الايام بدين المسيح

ذلك الرجل هو عامر السعودى الذى كان الافرنج يسمونه « الفارس المقنع » لأنه كان يخفى وجهه بقناع أحمر ، ولا ينزعه أمام الناس فى حال من الاحوال

أما الفرسان الثمانية ، فهم أبناء السيد فيليب النافارى Philippo le Navarais فلما قتل الدوق أود أباهم ظلماً وعدواناً ، عزموا على الثأر والانتقام وراحوا يطلبونهما فى ميادين القتال ، لاشأن لهم بالغاية التى من أجلها تتصادم الجيوش وتتذابح الفرسان ، ولا مرمى يقصدون اليه غير إذلال الامير الذى أذلهم وقتل أباهم

* * *

فى مكتبة الفاتيكان البابوية بين أكداس المخطوطات التى لا يدخل عددها تحت حصر ، رقعة قديمة بالية دون فيها راهب اسبانى عاش فى الجيل الثامن للميلاد ، قصة « الفارس المقنع » عامر السعودى العربى ، والاخوة الثمانية أبناء فيليب النافارى ، الذين لقوا حتفهم فى معركة بواتيه

وقد حمل تلك الرقعة القديمة الى مكتبة الفاتيكان ، فى الجيل الثامن عشر ، حبر مسيحى هو الأب سمعان السمعانى المارونى اللبنانى ، الذى عهد اليه قداسة البابا فى ذلك الوقت فى أن يبحث عن المخطوطات القديمة فى أديرة مصر وسورية ولبنان ، فعثر فيها على تلك الرقعة التى كتبها راهب اسبانى لم يذكر فيها اسمه ، ولا يعرف أحد كيف انتقلت تلك الوثيقة التاريخية من بلاد الاندلس الى أديرة الرهبان فى الشرق

والوثيقة مكتوبة باللغة اللاتينية ، وقد عثرنا على نسخة منها فى متحف بونابرت بالقاهرة نقلناها الى اللغة العربية بدقة وأمانة ــ مع الاشارة الى أن كاتبها مسيحي وقد دون ما دون بصفته مسيحياً ــ وهذه ترجمتها بالحرف الواحد :

« قص علىّ أحد الفرسان العرب الذين حاربوا فى جيش القائد المسلم عبد الرحمن فى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك عاشر خلفاء بنى أمية ، قصة ثمانية من الافرنج المسيحيين لم يتورعوا عن امتشاق الحسام ومحاربة اخوانهم فى كثير من المواقع ، فأراد الله لهم العقاب فماتوا فى معركة بواتيه حيث حصدتهم سيوف أبطال الملك شارل . أولئك الاخوة الثمانية هم أبناء الطاغية فيليب النافارى ، الذى أمر الدوق أود الاكيتانى بضرب عنقه لأنه سرق أموال الفقراء . قال محدثى إن أولئك الاخوة الثمانية حضروا ذات يوم الى معسكر المسلمين ووضعوا أنفسهم فى خدمة الأمير العربى عبد الرحمن قائد المسلمين ، فرحب بهم ، ولكنه لم يلحقهم بكتيبة واحدة من كتائب جيشه ، بل فرقهم وأرسل كلا منهم الى ناحية ، خوفاً من أن يكون وراء انضمامهم اليه مكيدة

مدبره . فان ذلك الرجل العظيم قد داخله الريب فى مسالك أولئك الاخوة الثمانية ، الذين جاءوا يطلبون الاحاق بالمسلمين وهم يحاربون النصارى . ولكن محدثى يقول إن الفرسان الافرنج قد أبلوا فى القتال بلاء حسناً واستبسلوا فى الدفاع عن أنفسهم وامتنعوا عن الرحيل مع الكتائب العربية عند ما صدرت اليها الأوامر بالابتعاد عن ميدان القتال بعد مقتل قائدها عبد الرحمن فى بواتيه . فان هذا القائد المحنك قد لقى حتفه فى حومة الوغى ، ولم تتفق كلمة العرب على من يحل محله بعد موته فى القيادة ، فخشى أمراء المسلمين أن يفنى جيشهم عن آخره ، بعد أن قتل منهم من قتل فى المعارك ، فرأوا ان الرحيل تحت جنح الظلام خير من البقاء وأوفى . أما الاخوة الثمانية ، فقد مكثوا فى أماكنهم ، وتصدوا لجيش الافرنج عند ما هجم على معسكر العرب الخالى من الجند ، فقاتلوا جميعاً وماتوا موت الأبطال ، وقد بكى محدثى وهو يقص علىّ قصة الأخوة الثمانية ، لا على موت أولئك الأغراب الذين لم تربطه بهم رابطة دين أو نسب ، بل على هزيمة العرب فى تلك الموقعة العظيمة . لقد بكى ذلك الجندى الشجاع موت القائد عبد الرحمن وتخاذل الأمراء بعد موته وتناحر العرب فى الأندلس وتنافر قوادهم فى الميادين واحجام من كانوا وراء جبال البرانس عن الاسراع لنجدة اخوانهم فى تور وبواتيه ، ان كل ذلك قد أسفر عن تلك الهزيمة الشنيعة التى وقفت تقدم المسلمين وتوغلهم فى بلاد الافرنج ، وأنقذت تلك الأقطار من الغزو والحروب وحالت دون وصول المسلمين الى روما المقدسة الخالدة

والجندى الذى قص علىّ قصة الاخوة الثمانية أحد أولئك الأبطال العرب الذين حاربوا فى اكيتانيا وشهدوا مجزرة بواتيه . وهو عت بالنسب الى فارس عربى حل به فى ذلك اليوم المشهود ما حل بالاخوة الثمانية أبناء فيليب النافارى ، وذلك الفارس العربى هو عامر المسعودى « الفارس المقنع » الذى أسره « القوط » فى احدى المعارك فاشترى منهم حريته بأن أفضى اليهم بأسرار خطيرة وأطلعهم على دخائل المسلمين . وقد أمر عبدالرحمن بضربه فضرب على مرأى من الناس ثم طرح فى السجن ففر منه والتحق بجيش الافرنج سعياً وراء الثأر والانتقام ، ومحدثى يلعن كل يوم فى أوقات الصلاة ذكرى ذلك الفارس الجاحد والمسلم الخائن . وقد مات ذلك الرجل فى معركة بواتيه . ومات ثلاثة فرسان من أبناء عمومته كانوا يحاربون فى جيش عبد الرحمن ويطلبون ذلك الخائن فى الميادين . ونحن اليوم نعيش فى وفاق مع العرب والبربر ، وكل من الفريقين لا يتجاوز الحدود التى رضينا جميعاً بتخطيطها . ولكن الحرب على الأبواب ، ولا يمكن أن يعيش سيدان فى بيت واحد . . . »

هذه ترجمة الرقعة القديمة التى عثر عليها السمعانى فى أحد أديرة الشرق فحملها الى مكتبة الفاتيكان ، والتى توجد نسخة منها فى متحف بونابرت بالسيدة زينب بالقاهرة

وقد رأيت أن فى نقلها الى العربية فائدة تاريخية قد تسترعى اهتمام الباحثين فى زوايا التاريخ، الناشرين لما أهمله المؤرخون فى تدوين الحوادث العظمى ، والوقائع الخطيرة

فان تلك الوثيقة الخطية القديمة التى يرجع عهدها الى الجيل الذى وقعت فيه معركة بواتيه أو بلاط الشهداء، كما سماها العرب ، تلك الرقعة البالية التى ظلت الف سنة مهملة فى زوايا دير من أديرة الشرق، حتى جاء السمعانى فى الجيل الثامن عشر فبعثها من رمسها ، تلك الحجة الصادقة التى دونها راهب مجهول من الرهبان المسيحيين فى بلاد الاندلس ، تضىء بنورها حادثاً عظيما من حوادث التاريخ ، طالما ثارت حوله المجادلات ، وتناقضت فيه الاقوال ، وراجت عنه الاشاعات

كان الافرنج يعتقدون — ولا يزال كثيرون منهم على اعتقادهم — أن العرب قد انهزموا فى واقعة بواتيه أو بلاط الشهداء وأن الملك شارل قد حطم صفوفهم تحطيما فاستحق من أجل ذلك لقبه المعروف ، إذ أن الافرنج يسمونه « شارل مارتل » أى « شارل المطرقة »

لكن كبار المؤرخين قد بحثوا فيما بعد عن الاسباب التى أدت الى فوز الافرنج وانكسار العرب فى بواتيه ، فوجدوا أن للخيال نصيباً كبيراً فى إذاعة الأخبار عن تلك المعركة الفاصلة ، وأن الذين نقلوا تفاصيلها قد بالغوا فى سردها ولم يكونوا للحقيقة محترمين وللعرب منصفين

نعم ان العرب هجموا على الافرنج

فتحطمت هجماتهم على دروع أولئك الابطال الذين صمدوا لهم فى السهول والهضاب كالأسوار الحديدية المنيعة . وصحيح أيضاً أن العرب فقدوا فى تلك المعركة عشرات الآلاف من الفرسان . ولكن هزيمتهم لم تكن تامة ولم يكن رجوعهم على أعقابهم نتيجة جبن أو عجز أو إحجام

لقد مرت أجيال على ذلك الحادث العظيم

وهدأت فى النفوس ثورة الاحقاد والضغائن ، ففى استطاعتنا الآن أن ننظر الى موقعة بلاط الشهداء بعين الروية والانصاف ، ونلقى على أنفسنا أسئلة لا نجد صعوبة فى الرد عليها ، اذا كنا منصفين ننشد الحقيقة المجردة عن الاهواء :

هل حطم شارل « المطرقة » صفوف العرب فى بواتيه ففروا لا يلوون على شىء ؟

كلا بل انهم تراجعوا بانتظام وخشى الافرنج أن يتعقبوهم خوفا من الوقوع فى كمين ، ومن ارتداد العرب عليهم وايقاد نار القتال من جديد

إذاً لماذا خسر العرب معركة بواتيه ؟

هذا هو السؤال الرهيب الذى يلقيه الباحثون على التاريخ بعد مضى عشرات الاجيال على تلك الملحمة الرائعة

نعم . لماذا خسر العرب معركة بواتيه ؟

لأنهم فقدوا قائدهم الاكبر ، عبد الرحمن الغافقي اليماني في ميدان القتال ، ففقدوا معه وحدة القيادة ، وهبت على أمرائهم ريح الخلاف ، والجيش الذي لا رأس له لا قيمة له ، فرأى أولئك الامراء أن خير ما يصنعونه أن يتقهقروا من الميدان ويتجنبوا كارثة كان لابد من وقوعها

ولماذا لم يسرع أمراء الاندلس الى نجدة اخوانهم وشد أزر عبد الرحمن الغافقي بعد أن تحالف عليه الدوق أود الاكيتاني والملك شارل الافرنجي ؟

لأن الخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان الأموي ، خشي أن يمتد نفوذ موسى بن نصير ، الفاتح العربي العظيم فتحدثه نفسه في إنشاء مملكة مستقلة في الاندلس ، تزاحم دولة الامويين في المجد والسؤدد ، فأمره بأن يقف عند حده ، وأن يمتنع عن اجتياز جبال البرانس ببقية الجيش العربي العظيم . ولأن الأمراء المسلمين في الاندلس كانوا من ناحيتهم في خلاف مستمر وتناحر يؤسف له ، فتركوا عبد الرحمن الغافقي وشأنه ، وأحجموا عن مساعدته عند ما اقتضت الضرورة والاحوال

ولماذا لم تعش دولة العرب في الاندلس طويلا ؟

لأن معركة بواتيه أو بلاط الشهداء جعلت الاسبانيين يدركون أن العرب ليسوا آلهة حرب لا يقهرون ، وان كسرهم في ميادين القتال أمر مستطاع ، واجلاءهم عن البلاد التي دخلوها فاتحين ليس من الصعوبة بقدر ما كانوا يظنون . ولأن أمراء العرب من ناحية أخرى كانوا مسترسلين في تخاذلهم وتنافرهم . وكل أمة ينقسم بعضها على بعض يكتب لها في صفحة القدر الخذلان والزوال

هذا ما توحيه تلك الرقعة الخطية الى الباحث المفكر ، عن موقعة بواتيه ، التي حاول بعض المؤرخين أن يجدوا وجه شبه بينها وبين موقعة حطين ، وهم في محاولتهم مخطئون

ان الافرنج لم يفنوا جيوش العرب بحد السيف في بواتيه ، ولم يأسروا قائدهم ، بل أوقفوهم عن التقدم ، ثم ارغموهم على التقهقر بعد ان قتلوا عبد الرحمن الغافقي والسيف بيده

أما صلاح الدين ، فانه أفنى جيش الافرنج في حطين فلم ينج منه غير عشرات معدودة ، وأسر قائده وساقه أمامه ذليلا

هذا ما ينبغي للمؤرخ أن يدونه ، اذا مانظر الى وقائع التاريخ بلا تحيز ولا مفاضلة وترك ما عليه عليه العاطفة الدينية أو القومية جانباً ، اذا كان شرقياً أو غربياً ، مسلماً أو مسيحياً

عبد الرحمن الناصر

أخذ كل من القواد والامراء مكانه حول عبد الرحمن الناصر وقد استوى فى مجلسه فى صدر القاعة ، وتطاولت الاعناق نحوه ، وشخصت الابصار اليه ، وكل من الحاضرين يسائل نفسه : « أى حادث جلل استدعى هذا الاجتماع ؟ »

ألقى عبد الرحمن نظرة على ابطاله ، وعند ما أيقن انهم جميعا قد لبوا دعوته ، واسرعوا الى مجلسه ، وجه اليهم الخطاب قائلا :

ـــ لقد دعوتكم يا رفاقى فى الجهاد وأعوانى فى تثبيت دعائم هذا الملك ، لكى أفضى اليكم بما عولت عليه وعزمت القيام به نحو حصن من حصون الاعداء المنيعة ، وقلعة من قلاعهم المتمردة ، وأظنكم قد ادركتم أى حصن أعنى وأية قلعة أقصد

وسكت لحظة . فتبادل الامراء والقواد النظرات ، ثم ألقى أحدهم ، فى وسط ذلك السكون هذه الكلمة : « سمورة ! »

فابتسم عبد الرحمن الناصر ، ورفع يده الى لحيته ، وجعل يعبث بها بأصابعه قائلا :

ـــ لقد أصبت يا هشام . اياها أعنى ! فقد استولى العرب على الاندلس من أدناه الى اقصاه . وخضع لهم حكام المدن وغطارفة الجبال . وضربت الاتاوة على المقاطعات النائية . والبلاد تتمتع الآن بما تصبو اليه من راحة وهدوء وعزة واطمئنان . لكن شيئا واحدا ينغص على الآن عيشى ويملأ ليالى بالاحلام المزعجة والافكار المقلقة . فان « سمورة » مدينة الجلالقة ومعقلهم الحصين لا تزال متمردة علينا ، رافعة لواء العصيان قائمة على جبلها الاشم ، تتحدى جيوشنا الجرارة ، وتردها عن اسوارها المنيعة خائبة خاسرة . فهل يجمل بعبد الرحمن الناصر ان يغض الطرف عما أصاب جيوش العرب من فشل واندحار ، أمام جبل سمورة ، وان تردد الاجيال المقبلة ان ملوك الاندلس عجزوا عن استرداد هذه

المدينة ، بعد ان طردهم منها الاسبان واعتصموا فيها مكابرين مفاخرين ؟ يا امراء العرب وقواد الجيش ، لقد دعوتكم للاسترشاد برأيكم • فما قولكم فى اعادة الكرة ، ومهاجمة سمورة ، واقتحام أسوارها ، ودخولها عنوة ، أيا كانت خسائرنا وأيا كانت قوة المدافعين عنها ؟

تشاور الحاضرون فيما بينهم ، واستحسنوا رأى عبد الرحمن ، فنهض واحد منهم وهو أكبر الجميع سنا ، وقال :

ـــ ان رأينا هو رأيك يا أمير المؤمنين • فان شوكة الجلالقة تزداد يوما عن يوم • وينبغى لنا ان نقضى عليهم وان نتدارك الخطر ونضربهم الضربة القاضية ، قبل ان يستفحل امرهم ويتعاظم شرهم • فاذا شاءت ارادة أمير المؤمنين ، سرنا غدا بماية ألف من رجالنا البواسل لفتح سمورة ونصب اعلامنا فيها !

فطفح وجه عبد الرحمن الناصر بشرا وقال :

ـــ لا عدمتكم انصارا • اعدوا اذن للملحمة القادمة عدتها ، وموعدنا فى مثل هذا اليوم من الاسبوع المقبل !

***

بعد أن تدفقت جيوش العرب على الاندلس ، ودكت حصونها ، واجتاحت مدنها ، ومزقت كتائب المدافعين عنها ، ظل ثلاثون من صناديد الحرب ، معتصمين فى أعالى الجبال فى مكان اطلقوا عليه اسم « الصخرة » يقتاتون من العسل وجذور الاشجار ، ويأبون الاستسلام للغزاة الفاتحين •••

قابل العرب عصيانهم بالاحتقار ، فتركوهم وشأنهم ، وما كانوا ليظنوا فى ذلك الوقت ان اولئك الابطال الثلاثين ، سوف تتكون منهم نواة جيش عظيم ، يعيد على العرب الكرة بعد الكرة ، ويسترجع منهم المواقع الحربية موقعا بعد موقع !

اصبحت تلك « الصخرة » وكر القومية الاسبانية ، وبركان الوطنية المتأجج ، وخرج أولئك الثلاثون من مكمنهم فانضمت اليهم فلول الجلالقة المبعثرة ، وجعلوا يهاجمون الحصون والقلاع والمدن ، وتمكنوا فى سنة ١٣١ هجرية ، الموافقة لسنة ٧٤٨ للميلاد ، بقيادة ملكهم « الاذفونش » الكاثوليكى من استرجاع سمورة وقلعتها من العرب ، واحتفظوا بها منذ ذلك الوقت ، وعبثا حاول العرب اخراج المعتصمين فيها ، فقد تحطمت هجماتهم على اسوارها كما تتحطم الامواج على الصخور ، وظلت المدينة الحصينة تسخر طوال تلك السنين من الجحافل المسيرة لاخضاعها ، وظلت قلعتها الشامخة رابضة فوق جبلها الشامخ

كأنها وكن من وكون النسور ، يهزأ باسراب الزرازير !

وعند ما تولى عبد الرحمن الناصر ، خرج عليه اعمامه ومعهم فريق من كبار الزعماء والقواد والامراء ، فاضطر الخليفة الاموى الى ترك الجلالقة وشأنهم ، للقضاء على اعدائه فى الداخل ، والتخلص ممن كانوا ينازعونه الملك والسلطان ، فاشتد ساعد اعدائه ، وانضم اليهم بعض الخوارج من العرب ، كاسحق بن امية وغيره ، فجعلوا يكشفون لهم عن عورات المسلمين ، ويساعدونهم على النيل منهم !

لكن عبد الرحمن الناصر تغلب على اعمامه وانصارهم ، فاستتب له الامر ، وعاهد نفسه على بسط سلطان العرب من جديد على البقاع والامصار التى اضاعها عليه انهماكه فى الشئون الداخلية والحروب الاهلية

وأول ما فكر فيه وعزم عليه ، انتزاع سمورة الحصينة من الجلالقة المتمردين ، وبذل قواه فى هذا السبيل

***

استيقظ أهل سمورة مذعورين ، ونهضوا خائفين على أصوات الاجراس والنواقيس وهى تدق بالتواتر ايقاظا للناس منذرة بالخطر القريب والويل الداهم

وانقض الخبر من فوق أبراج الكنائس والحصون على السكان انقضاض الصاعقة ، وقد أرسله الحراس من مكامنهم فى جهات المدينة الاربع : « العدو ! العدو ! »

وبدت رايات العرب وأعلامهم فى السهول والوديان ، وقد انتشروا فيها على مسافات شاسعة ، وطلعت الشمس من وراء القمم والآكام ، فسطعت تحت اشعتها السيوف والدروع والرماح ، وهب نسيم الصباح فحمل الى المدينة مع أريج الحقول والغابات صهيل الخيول وجلبة الجنود !

وأيقن القوم أن ذلك اليوم سيكون من الايام الدموية الهائله ، وأن مستقبل مدينتهم سيطرح فى حلبة الرهان !

فاستعدوا للمقاومة ...

واستعد العرب للهجوم ...

وكان القواد يسيرون فى طليعة جيشهم ، ومن ورائهم ماية الف من ابطال الحرب المغاوير ، بين مخترط سيفه ، وشارع سنانه ، وقد اختارهم عبد الرحمن وأعد كتائبهم بنفسه ، لانه كان يعلم أن فى سمورة رجالا أعزة النفوس عركتهم الحوادث ودربتهم الحروب ، وانه لن ينال منهم منالا ولن يتمكن من اخضاعهم ، الا اذا نازلهم بخيرة جنوده

وصفوة قواده ، عملا بالقول الحكيم : لا يفل الحديد غير الحديد ، ولا يغالب الصنديد غير الصنديد !

والتحم الفريقان فى معركة دامت طول ذلك النهار ، بيعت فيها الارواح رخيصة ، وسالت فيها الدماء جداول ، وطوحت الطوائح بسمورة المنيعة فدخلها العرب فاتحين منصورين !

لكنهم أهملوا الحصون كعادتهم ، وانتشروا فى المدينة مهللين مكبرين ، ولم يعملوا على تأمين أنفسهم بالاستيلاء على القلاع والآجام جميعها ، عملا بقولهم المأثور : « كل محصور مأخوذ ! » فاعتصم المقاتلون من الجلالقة وراء تلك الجدران المنيعة ، واجتمع زعماؤهم للتشاور والمداولة

وكان ساعدهم الايمن ومرشدهم المسموع الكلمة ، فى ذلك الظرف العصيب ، قائد من أشهر قواد العرب الخارجين على عبد الرحمن ، وهو أسحق بن أمية ، الشجاع المحنك!

رسم ذلك العربى المحارب فى صفوف أعداء أمته خطة لانقاذ سمورة من الفاتحين وطرحها على بساط البحث أمام زعماء المدينة المقهورة ، فأقروها جميعا ، وعزموا على وضعها موضع التنفيذ عند ما يرخى الليل سدوله على الاسوار

وفى الساعة المعينة ، انقض الجلالقة من جديد على العرب الذين أهملوا وسائل الحيطة بعد النصر ، فأخذوا على غرة منهم ، ولم يقووا على صد المهاجمين ، فتراجعوا أفواجا أفواجا ، مسرعين الى الخندق المحيط بالمدينة لاجتيازه والعودة الى السهول،فتمكن خمسون الفا من عبور القنطرة القائمة عليه وسقط خمسون ألفا منهم صرعى فى حومة القتال !

وأراد الجلالقة أن يعبروا الخندق وراء الهاربين ، للقضاء عليهم ، فاعترضهم أسحق ابن أمية ــ وقد هاله ما أصيب به العرب من خسائر جسام وآخذ نفسه على ما بدر منه ــ صائحا بهم :

ـــ اياكم أن تلحقوا بهم ! فان العرب لم يعبروا الخندق ويسرعوا الى السهل الا لكى يقيموا فيه كمينا لاستدراجكم ! انى أعرف منكم بعاداتهم وتقاليدهم . فارجعوا الى المدينة واكتفوا بما أحرزتم اليوم من نصر عظيم !

***

أدخل ذلك الانهزام الشنيع الحزن الى قلب عبد الرحمن الناصر ، وظل منذ ذلك اليوم المشئوم يفكر فى أخذ الثأر ، لانه كان يأبى أن يسجل على نفسه العجز الذى سجله أسلافه على أنفسهم ، وأن يوصم بما وصموا به ، وأن يطوى الصفحة المجيدة التى دونها

فى تاريخ العرب والاندلس ، دون ان يغسل ذلك العار الذى لحق جيشه فى سمورة ، ويمحو أثره بانتصار باهر وفتح مبين !

وكأن الاقدار شاءت أن يكون عونه فى أخذ الثأر من أهل سمورة ، ذلك الرجل نفسه الذى كان من قبل عونا لهم على صد العرب عن أسوارهم : اسحق بن أمية !

فقد عاد ذلك القائد المغوار الى حظيرة الواجب بعد معركة سمورة بأيام معدودة ، وطلب العفو والامان ، وتقرب من الخليفة الذى عرف قدره وأحله فى حاشيته المحل اللائق به ، فأصبح اسحق بن أمية ، بين مساء وصباح ، موضع ثقة عبد الرحمن وأمينه ونجيه

وكما رسم اسحق من قبل للجلالقة خطة الدفاع وطرد العرب من مدينتهم المجتاحة ، فانه رسم فيما بعد ، وبالاشتراك مع مولاه عبد الرحمن الناصر ، خطة هجوم جديد للاستيلاء على المدينة ودك أسوارها واقتحام حصونها

أدرك الخليفة ان وجوده لا بد منه فى الميدان ، فعزم على قيادة جيشه بنفسه ، وفى صبيحة يوم من أيام شوال سنة ٣٢٧ هجرية الموافقة لسنة ٩٣٨ للميلاد ، وصل ذلك الجيش الى السهول الممتدة أمام سمورة ، وانتشر فيها انتشار السحاب فى السماء !

سار عبد الرحمن الى الجلالقة فى هذه المرة بمئتى الف مقاتل من بواسل الابطال والفرسان ، ولم يأبه لتشاؤم المنجمين الذين قالوا له ان جيشه سيهزم لانه بلغ سمورة بعد كسوف الشمس بثلاثة أيام ، بل أعد للهجوم عدته ، ورتب للقتال جنوده ، وما طلع فجر الغد حتى دكت الاسوار وتسلمت الحصون وسقطت الآجام وفتحت القلاع أبوابها فدخل عبد الرحمن الناصر مدينة الجلالقة ، واحتاط لكل مفاجأة وانتقاض

***

سكر العرب بخمرة النصر ، وراحوا ينزلون بأولئك الاعداء الالداء أنواع الانتقام وقد عجز قوادهم عن كبح جماحهم بعد ذلك الفوز المبين !

ترك عبد الرحمن الناصر جنوده وشأنهم وقد أطلقوا لثوران غضبهم العنان ، وامتطى صهوة جواده ، وانطلق ومعه بعض اتباعه متجولا فى ميدان القتال ، باحثا عن جريح يواسيه ، وحزين يعزيه ، وتائه يعيده الى أهله ...

طرق أذنيه وهو مار تحت اسوار المدينة نحيب طفل يبكى ، فانصت ، ثم ترجل وقصد الى مبعث الصوت ، واذا به أمام وليد لا يزال فى لفائفه ، مطروحا بين الاعشاب فى اخدود ضيق تحت حائط متهدم . فالتقطه عبد الرحمن ، واحتضنه ، وجعل يبذل له من تدليل وحنان ما يستطيع بذله رجل عرف كيف يحب رعيته وأبناءه

فسكت الطفل ، وارتسمت على ثغره ابتسامة الاطمئنان ، وركن الى ذلك الصدر القوى كما يركن العصفور الى عشه . فحمله عبد الرحمن الناصر على جواده ، ورد عليه طرف ردائه ، واستمر فى جولاته فى السهول والهضاب

ثم قصد قبل غروب الشمس الى مضرب فسيح نصب أمام تلك القنطرة التى شهدت من قبل انهزام العرب ، وشهدت فى ذلك اليوم انتصارهم وهناك جلس الخليفة يحيط به امراء جيشه ، فى أبهة المجد وعظمة الملك وأمر ان يؤتى اليه باسلاب المعركة ، فمر الجنود أمام مولاهم وقائدهم ، يسوقون الاسرى افواجا افواجا ، والسبايا جماعات جماعات

وفجأة ، علا فى الخارج صراخ ونحيب وحدثت فى باب المضرب جلبة استرعت اهتمام عبد الرحمن ، فخاطب الحراس سائلا : « ما الخبر ؟ »

وقبل ان يلاقى سؤاله جوابا ، شقت صفوف الجنود امرأة فاقدة الصواب ، وقد حلت شعرها ، ومزقت ثوبها ، وأرسلت صوتها بالنواح والعويل ، فوقفت فى وسط المضرب صائحة :

ــ أين هو ملك العرب ؟

احاط بها الحراس من كل جانب ، لكن عبد الرحمن ردهم عنها قائلا :

ــ دعوها ولا تزجروها !.. هل بينكم من يعرف من أمرها شيئا ؟

فقال أحد الجنود :

ــ رأيناها منذ ساعات يا أمير المؤمنين ، تروح وتجىء بين الجثث والاطلال ، تارة تركض كأن بها مسا من الجن ، وتارة تنطرح على الارض تفحصها ، وعلى الاشلاء تقلبها ، ثم تنهض معولة . فجئنا بها اليك يا مولاى مع من جئنا بهن من سبايا الحرب

فخاطب عبد الرحمن المرأة سائلا :

ــ أنا ملك العرب ! فمن أنت وما دهاك يا امرأة ؟

فنظرت اليه بعينين يتطاير منهما الشرر ، وينبعث منهما الحقد والغضب ، وقالت :

ــ أعد الى ولدى يا قاتل النساء وذابح الاطفال ! أهذا هو العدل الذى تحمله الينا ، والامان الذى تعدنا به ؟.. ان جنودك يطلقون أيديهم فى السلب والنهب ، ويشتتون فى العراء من لا تتناوله سيوفهم من السكان ، ويفصلون بين الاخ وأخته ، والرجل وزوجته ، والام وطفلها ! أمن أجل هذه الاعمال يسمونك « الناصر » يا عبد الرحمن ! انعم به اذن من نصر وانعم به من لقب !

فقطب الملك جبينه ، ونظر الى المدينة وقد اندلعت فيها النيران . وارتفع منها الصياح ،

ثم نظر الى تلك المرأة المذعورة ، وخيل اليه أن الضمير قد تجسم فيها وجاء يؤنبه على الفظائع التى يرتكبها جنوده فى مدينة ذنبها الوحيد انها دافعت عن حريتها وأبت الخنوع والاستسلام !

والتفت الى من كانوا يحيطون به من القواد وقال :

ـــ احملوا الى الجند أمرى بالكف عن الارهاق . واضربوا عنق كل معاند مخالف !

ثم خاطب المرأة السمورية بلهجة الرحيم الشفوق ، قائلا :

ـــ خففى عنك يا امرأة . اننى أؤمن سكان هذه المدينة على أرواحهم وأموالهم . فاطمئنى ...

فقالت المرأة والزفرات تخنقها :

ـــ وولدى ؟.. طفلى الرضيع الذى انتزعه جنودك الاجلاف من بين ذراعى ، فانتزعوا معه روحى من بين جنبى ؟ أتعيده الى يا عبد الرحمن ؟ أم انك تحلل ما تحرمه الشرائع ، وترضى بأن يرتكب جنودك ما ينهى عنه المسيح وينهى عنه محمد ؟ أعد الى ولدى اذا كان فى صدرك قلب يختلج بشعور الاب ويعرف حب الوالدين !

ـــ ان قلب عبد الرحمن يا امرأة ليس بالقلب المظلم الجوانب كما تظنين .. وقد تكون العناية الآلهية هى التى قادتك الآن الى . انظرى ! ألا يكون هذا الطفل ولدك ؟

قال الخليفة هذا ، ورفع طرف ردائه عن الطفل الذى حمله معه الى ذلك المضرب ، والذى كان نائما مستكنا بجانبه ، ووضعه أمام المرأة الحزينة

وكأن الرضيع أحس بأنه على مقربة من أمه ، فجعل يصرخ فرحا مسرورا

فأرسلت المرأة صيحة سرور وطرب ، واندفعت نحو الطفل تغمره بالقبلات وتغسله بالدموع ، ثم خرت على وجهها وسجدت الى الارض وقالت :

ـــ انك أيها الملك لاعلى الملوك نفسا وأرحمهم قلبا وأكرمهم خلقا . فليرزقك الله عمرا طويل الآباد ، وليرع بعين عنايته ابناءك من بعدك وأحفادك من بعد أبنائك !

***

وكتب عبد الرحمن الناصر فى وصيته انه حكم الاندلس خمسين سنة ، منها أربعة عشر يوما يعدها « الايام السعيدة » فى حياته الطويلة

وذكر ان أحد تلك « الايام السعيدة » هو ذلك اليوم المشهود ـ « يوم سمورة » ـ الذى هزم فيه الاعداء ،واستولى على تلك المدينة الحصينة ، وأعاد الى الام السمورية الحزينة طفلها المفقود !

سمورة

ليس فى العالم مدينة حامت حولها المطامع ، وتطاحنت تحت أسوارها الجيوش ، واستماتت فى الدفاع عنها الحاميات ، وسالت فى أزقتها وشوارعها الدماء ، وتكدست فى البطاح والآكام المحيطة بها الأشلاء ، وملأت جوها نتانة الجيف ممزوجة بأريج الحدائق والبساتين — كتلك المدينة المشئومة ، التى كان العرب يسمونها « سمورة » والتى يسميها الاسبانيون اليوم « زامورا » !

عشرون مرة أخذها العرب عنوة من « الجلالقة » وعشرون مرة هاجمها الجلالقة واستردوها من العرب !

وقد دوّنت اسمها فى سجل التاريخ بأحرف من حديد ونار !

ولا تزال قلاعها الى الآن قائمة فوق ربواتها ، تناطح السحاب وتتحدث الى العالم عن ذلك الماضى الدموى الرهيب

دخلها العرب فاتحين ، لكن « الأذفونش » — أو اذا شئت فسمه باسمه الأسبانى « ألونزو » الكاثوليكى — هاجمها بفلول جيشه واستردها منهم فى سنة ٧٤٨ للميلاد

وأعاد العرب الكرة فاقتحموا أسوارها فى سنة ٨١٣ لكنهم خسروها من جديد !

واستردها عبد الرحمن الناصر فى سنة ٩٣٨ وعاد اليها الأسبانيون بعد موته !

ودخلها العرب أيضاً ثم أخرجوا منها فى سنى ٩٤٥ و٩٦٣ و٩٨٤ و٩٨٦ للميلاد !

واستتب الأمر فيها للاسبانيين ، فى عهد فرديناندو الأول ، الملقب بالكبير ، والذى يعد أول عاهل أسبانى تمكن من إقامة صرح الدولة الاسبانية على أسس وطيدة ثابتة

وقد أصلح ذلك الملك مدينة سمورة وحصونها وآجامها ، وأعطاها هدية لابنته المحبوبة ، دونيا أوراكا ، فى سنة ١٠٦١ للميلاد

لكن سمورة ، المدينة المشئومة ، مدينة الموت والعويل ، التى امتزجت فيها دماء الشهداء

والضحايا من عرب وجلالقة وقوط وغيرهم ، رجالا ونساء وشيوخاً وأطفالا . سمورة هذه مدينة الجثث والقبور ، أبت الا أن تكون لابنة الملك الراحل بائنة دموية مفجعة !

مات فرديناندو سنة ١٠٦٥ للميلاد ، فقام ابنه ينازع « أوراكا » أخته امتلاك المدينة ، التى كانت فى نظر الاسبانيين فى ذلك العهد ، جوهرة من جواهر التاج !

وبعد أن كان العرب والاسبانيون يتطاحنون تحت أسوار «سمورة» أصبح الأسبانيون أنفسهم يتناحرون تحت تلك الأسوار ، ويتقاتلون فى سبيل المدينة المشئومة !

***

وكان سكان سمورة فى ذلك الوقت يؤلفون مزيجاً غريباً من الجلالقة والعرب وقد جمعت الكوارث بينهم وقربت الملمات بين ميولهم ، فأصبحوا يعتبرون أنفسهم « سموريين » قبل كل شيء ، وصاروا ينظرون بعين الريبة والقلق الى كل جيش جديد قادم للاستيلاء على المدينة وطرد الجنود المقيمين فيها

ذلك لأنهم كانوا قد ملوا الحروب والمذابح ، ولأن الفاتحين كانوا ينزلون بهم دائماً أنواع العذاب والارهاق ، أياً كانوا وأياً كانت جنسيتهم وأغراضهم

وعند ما قام ولى العهد ــ وقد أصبح ملكا بعد وفاة أبيه فرديناندو فى سنة ١٠٦٥ للميلاد ــ ينازع أخته مدينة سمورة ، ويهدد باقامة الحصار عليها ، ومنع الارزاق عنها ، إلا اذا فتحت له أبوابها وسلمت اليه قلاعها ، طلب سكان المدينة من قائد الحامية أن ينزل على ارادة الملك الشرعى للبلاد ، فيحقن الدماء ، ويدفع عن مدينتهم شبح حرب جديدة ، ومجزرة يذبح فيها الأخ أخاه ، والأب ابنه !

لكن القائد أبى الاذعان وعزم على المقاومة

وأطلقت الحرب من عقالها ، وظلت سمورة سنوات عديدة تعانى من آلامها ما لم تعانه مدينة من قبل ولا من بعد !

***

لندع الجيوش تتحارب ، والأبطال ينازل بعضهم بعضاً فى ميادين القتال ، والدماء تملأ حول سمورة الخنادق والغدران ..

ولننتقل الى منزل من منازل المدينة ، ترتفع منه أصوات خافتة كأنها تصدر من صدور مكلومة ، أو كأن الذى يرسلها من فمه يخشى أن تصل الى خارج المنزل وتطرق الآذان

من يقيم فى ذلك المنزل ، وأصوات من تلك الأصوات ؟

هو منزل محمد بن عبد الله الأموى ، والأصوات أصوات البقية الباقية من أسرته

كانت تلك الأسرة كثيرة العدد ، وكان محمد بن عبدالله الأموى ، اذا ماخرج الى الحرب ، يتبعه عشرون من الفرسان المغاوير هم أبناؤه وأحفاده ، ووراءهم تسع نساء يحملن الماء والطعام ، لتغذية المحاربين واسعاف الجرحى والمصابين

سقط محمد بن عبد الله الأموى صريعاً فى حومة الوغى . وسقط من بعده ، قتيلا مثله ، ابنه الأكبر . وتبعهما الأبناء والأحفاد الواحد بعد الآخر . .

وبعد أن توالت الحروب وتتابعت المعارك وحصد ملك الموت فى خلالها من حصد من الأحياء ، رجالا ونساء ، أقامت تلك البقية الباقية من الأسرة العربية فى ذلك المنزل الصغير ، ولبثت تنتظر اليوم الذى ينتقل فيه اللاحقون الى جوار السابقين !

ممن تتألف تلك البقية الباقية ؟

من الأم وهى حفيدة محمد بن عبد الله الأموي ، وقد ناهزت الأربعين من العمر . .

والابنة « فاطمة » ولم تبلغ العشرين . .

والابن المريض العليل ، وهو فى الثامنة من سنيه . .

أما الأب ، فقد خرج ذات ليلة الى الجبل للصيد والقنص ، فلم يعد وغلب على ظن الزوجة وابنتها أن لصوصاً من الجلالقة قد اغتالوه فى ذلك الوعر الموحش

وأفراد الأسرة العربية الثلاثة يعانون منذ ذلك اليوم أنواع العوز والفاقة والفقر . وكأن الاقدار شاءت الا أن تحط عليهم بأثقالها ، فولجت الامراض باب المنزل ، وانقضت على الام فتركتها كسيحة لا تقوى على الحراك ، وعلى الابن فتركته فاقد الرشد وهو أقرب الى الموت منه الى الحياة

وفى تلك الليلة التى كانت الاصوات تتصاعد فيها من ذلك المنزل ، كانت الام تنتحب ، والابن يصيح ، والفتاة المسكينة تروح وتجيء من هذا الى تلك ، دون أن تجد كلمة تسكن بها روع المريضين . .

ودون أن تجد فى ركن من أركان البيت بقية طعام تسد به رمق الجائعين !

***

خرجت الفتاة ليلا وانسلت الى ما وراء الاسوار ، وجعلت تجتاز السهل المحيط بها بخطى واسعة سريعة . .

ووصلت الى معسكر الجيش المحاصر للمدينة ، وقالت للحارس الذى أوقفها فى الطريق :

— دعنى أصل الى قائدكم لأننى أريد أن أفضى اليه بأمر هام !

أما القائد الذى كانت الفتاة تعنيه ، فهو الفارس العظيم والبطل الشهير « رودريغ دياز دى

بيفار » الذى منحه العرب والاسبان لقب « السيد » اقراراً من الجميع بشجاعته واقدامه وعلو همته

كان « السيد » كامبيادور يقود الجيش المحاصر لسمورة ، ويرغب فى انتزاعها من مالكيها ، لضمها الى المملكة الاسبانية الموحدة ، وجعلها تابعة لسلطة التاج ، خاضعة للاذفونش السادس ، سيده وولى نعمته

مثلت الفتاة العربية أمام ذلك القائد الاسبانى ، فاذا بها أمام رجل لا يستطيع الإنسان أن يعرف عمره ، لأن لحية كثيفة كانت تكسو وجهه ، وقد رد عليه معطفه فلم يظهر منه غير تقبين لامعين وسط غابة من الشعر الاسود

نظر الى الفتاة ولم يفه بكلمة . ثم أشار اليها بالجلوس فجلست ، وظل يحدق فيها البصر وهى تنظر اليه بعينين أفقدهما الحزن كل شعاع

وبعد سكوت طويل ، انبعثت من بين شفتيه هذه الكلمات :

ـــ أى النساء أنت وماذا تريدين ؟

فقالت فاطمة :

ـــ أنا فتاة عربية ابنة عربى وحفيدة عربى . أقيم فى مدينة سمورة حيث رأيت النور . وفيها أقامت أسرتى منذ اليوم الذى دخلها عبد الرحمن الناصر فاتحاً منصوراً ، ونصب فيها أعلام المسلمين . لم يجنح أحد من أسرة جدى محمد بن عبد الله الأموى عن دينه وتقاليده وتعاليمه ، واذا كنا جميعاً قد آثرنا البقاء فى سمورة على الرحيل عنها ، فما ذلك إلا لأن تربتها تضم رفات الجد وأبنائه من بعده وأحفاده من بعد أبنائه . أما الآن ، فلم يبق أيها « السيد » من تلك الأسرة العربية العريقة غير امرأة كسيحة وولد مريض والفتاة التى تراها الآن ماثلة بين يديك . اننا عراة حفاة جائعون . لكننى ما جئتك أيها القائد لكى أطلب منك ثوباً أو حذاء أو طعاماً . لخير لنا أن نموت على قارعة الطريق من أن نبسط أيدينا متسولين ، لكننى جئتك طالبة منك أمراً واحداً ، وهو أن تفتح أمامنا سبيل الرحيل الى ما وراء هـذا الجيش اللجب الذى تقوده . انى أحتفظ بقطعة من الزمرد ، هى الأثر الوحيد الباقى من حلى نساء أسرتنا وجواهرهن ، فخذها أيها « السيد » واعطنى بدلا منها دابة أنقل على ظهرها أمى الكسيحة وأخى المريض . ومر جنودك بأن يفسحوا لنا الطريق ولا يعترضونا فى الرحيل !

ظل « السيد » صامتا يصغى الى الفتاة العربية وهى تبسط له طلبها بأنفة وإباء ، ثم قال لها بعد أن انتهت من كلامها :

ـــ لك ما تريدين أيتها الابنة البارة والفتاة الشجاعة . سأطوف بك على خيول الجيش وأترك

لك الحرية فى أن تختارى منها الجواد الذى تريدين ! والآن على بالجوهرة التى أشرت اليها !

فتناولت فاطمة من طيات ثوبها الزمردة الثمينة ودفعتها الى القائد الاسبانى ، قائلة :

ــ خذها ثمناً لجوادك فانى لا أريد أن أكون مدينة لاسبانى بشيء !

***

ابتعدت الأسرة العربية عن سمورة فى حراسة ثلاثة من رجال السيد الملثمين . واجتازت صفوف الجيش دون أن يعترضها معترض ، ووصلت الى ظاهر الجبل حيث الطريق ممتدة الى الشرق والجنوب

وهنالك وقف الفرسان الثلاثة ، وتقدم واحد منهم وخاطب الفتاة قائلا :

ــ أيتها العربية الحسناء لقد رفضت الركوب على متن جواد من جيادنا ، وفضلت اجتياز الطريق مشياً على قدميك ، بينما يحمل هذا الجواد الذى اشتريته منا أمك وأخاك المريضين . فهل لك الآن أن تقبلى رجاء من قبل رجاءك وأجابك الى طلبك ؟

وأماط الفارس عن وجهه اللثام ، فاذا بالفتاة ترى أمامها « السيد » رودريج دياز دى بيفار بنفسه ، وقد أمسك بيده تلك الجوهرة الثمينة التى أخذها من الفتاة فى الليلة السابقة

تراجعت فاطمة مذهولة . فقال لها الاسبانى :

ــ احتفظى بها إكراماً لأهلك وإحياء لذكرى الأموات الأمجاد منهم . فانى أحترم تلك الذكرى كما يحترمها العرب أنفسهم . واذا كان أبناء قومك قد أطلقوا على اسم « السيد » فانى أعلم أن أبطالهم جميعاً أسياد وأبناء أسياد . فاقبلى يا ابنتى أن أعيد اليك هذه الجوهرة ، وان أحفظ ذكرك فى أعماق صدرى ، وأمجد فيك الاباء والاخلاص والنبل والشرف !

فتناولت الفتاة من يد القائد جوهرتها العزيزة ، ونظرت اليه وقد انهمرت الدموع من مقلتيها دفعة واحدة وقالت :

ــ لم يخطىء أولئك الذين أطلقوا عليك ذلك اللقب ، يا سيد الرجال !

وسارت الأسرة فى طريقها نحو الاقطار التى كانت الأعلام العربية لا تزال مرفوعة عليها تاركة وراءها سمورة ، بلد الدم والنار !

آمنة الأموية

لكل شيء اذا ما تم نقصان   فلا يغر بطيب العيش انسان
هي الأمور كما شاهدتها دول   من سره زمن ساءته أزمان

دالت دولة العرب بالاندلس ، وكان الشقاق الذي دب بين أمرائهم وزعمائهم وبالا عليهم . فانهزمت شراذمهم المبعثرة أمام جيوش الاسبانيين المتراصة ، واندثرت معالم مدنيتهم ، وانتقلت قصور غرناطة وأشبيلية وطليطلة وقرطبة وما بها من ثروة وكنوز من يد المغلوب الطريد الى قبضة الغالب المطارد

بيد أن سكان المناطق الجبلية ظلوا عشرات السنين في قتال مع الاسبانيين يعلنون الثورة إثر الثورة ، وينادون بالجهاد تلو الجهاد . وهم مع عدوهم في كر وفر ، يتغلبون عليه تارة ، وتارة يتغلب عليهم فيعمل فيهم السيف والنار ويبيد الزرع والضرع ويلحق من بقي منهم على قيد الحياة بمن لقي حتفه في الميادين

هكذا كانت الحال في عهد كارلوس الخامس وفيليب الثاني ، حتى تم النصر أخيراً للاسبانيين فقضوا ـ في عهد فيليب الثالث ـ قضاء لا نهوض بعده على بقايا الدولة الاندلسية الزاهرة . فرحل من العرب من رحل ، وتنصر منهم من تنصر ، وقاد زبانية محاكم التفتيش الى المحارق والمشانق من ظل من القوم محافظاً على تقاليد أجداده متمسكا بأهداب دينه

* * *

حول الاسبانيون في بادىء الامر قصر الحمراء بغرناطة الى مساكن للبعض من زعمائهم ، فعبثت أيدي أولئك الجهلاء بطرائف القصر وبدائعه . وكانت خيولهم تحرث بحوافرها فسيفساء الأحواش ، وتلتهم بدل العلف أوراق الفل والياسمين

ريح من الجنون هوجاء عاتية مرت بهم ، فدفعتهم أمامها وحملتهم على تحليل كل محرم منكر ،

فاندفعوا ممعنين فى الهدم والتخريب والنهب والسلب ، وهمهم الوحيد ألا يتركوا للعصور المقبلة أثراً أو ذكرى من العصور الخالية

وذهب بهم الظلم والعنف فى الاضطهاد الى سلب الأمهات أبناءهن ، لكى يشب أولئك الأبناء فى معاهد غير التى تربى فيها آباؤهم وعلى دين غير دينهم وتقاليد غير تقاليدهم

وكان « الدون جوان الفاريز » بين أولئك الزعماء الذين سمح لهم بالاقامة فى قصر الحمراء ، وكان الرجل من أشد أعداء العرب قسوة ، ومن القائلين بوجوب إبادتهم جميعاً من غير استثناء : النساء ، والعجائز ، والاطفال والرضع

وقد نسى أو تناسى أن العمل برأيه كان يحتم عليه أولاً أن ينزع عن نفسه الاسم الذى كان يحمله ، اذ أن لفظة « الفاريز » ليست إلا تحريفاً لكلمة « الفارس » العربية

وكانت تقيم فى القصر فتاة بارعة الجمال يدعوها الناس « ايزابيلا » ، ظلت مدة ملتحقة بالبلاط كوصيفة للملكة ، ثم غضبت عليها سيدتها فأقصتها عنها للاقامة فى قصر الحمراء

لم تعرف الفتاة أبويها ، ولم تعلم شيئاً عن أسرتها . فكانت تظن نفسها من أولئك التعساء المساكين ، الذين يأتون الى هذا العالم على أثر غلطة أو خيانة فتلقى بهم أمهاتهم على قارعة الطرق حيث تلتقطهم أيدى المحسنين من ذوى الرحمة والشفقة

ظنت نفسها لقيطة يتيمة ، فكانت دائماً مكروبة النفس كسيرة القلب ، لا يحلو لها عيش ولا يلذ لها مقام تنظر الى الحياة نظرة اليائس منها ، لا تطلب من غدها إلا أن يصطحب الموت النقذ فيحصدها منجله ويجرفها تياره

ومما كان يزيد عيشها مرارة وحياتها غصة ، تألب الأشراف الاسبانيين حولها وتقربهم اليها ، ومحاولتهم إغراءها بالوعد حيناً وبالوعيد أحياناً

وكان أكثر الطامعين فيها جرأة وأشدهم رعونة وقحة القائد جوان الفاريز ، الذى ضيق عليها الخناق وسد عليها المنافذ الى حد لم تعد قادرة معه على التخلص من ذلك المراود العنيد

أبصرته ذات يوم وهو يجتاز أروقة القصر مقبلا عليها فغادرت حجرتها مسرعة وهرولت الى حدائق القصر تختبىء فيها عن الانظار

جلست كعادتها كل يوم على صخرة أمام نافورة . فشردت أفكارها فى عالم المخاوف والأوهام . وبينما هى كذلك اذا بها تسمع وقع أقدام على الحصى ، فرفعت طرفها منتفضة ورأت الحارس يعقوب قادماً

كان ذلك الحارس صديقها الوحيد بين أولئك اللئام ، فأشارت اليه بالاقتراب فاقترب وبادرها قائلا :

– كنت آتياً الى هنا ، وكنت عالماً انى سأجدك عند هذه النافورة التى أقامها أبوك

فارتسمت على وجه الفتاة أمارات الدهشة والاستغراب وسألت الشيخ :

– أبى ؟ تقول ابى أقام هذه النافورة ؟ ومن هو أبى ؟

– أزفت الساعة التى ينبغى على فيها أن أمزق الصمت الذى لزمته الى الآن فأفضي اليك بالسر الذى أحمله دفيناً فى صدرى

– تكلم يا يعقوب . انك تخيفنى

– ايزابيلا ، لقد بلغت أمس العشرين من عمرك

– أجل

– والاسم الذى يناديك به الناس هنا ليس اسمك الحقيق

– وماذا أدعى إذن ؟

– آمنة

– هذا اسم عربى

– والدم الذى يجرى فى عروقك عربى أيضاً

– أفصح

– أنت ابنة الأمير « محمد بن أمية » الذى أكرهه الاسبانيون على اعتناق النصرانية وأطلقوا عليه اسم « فردينا ندو دى فالورى » ، وقد انتقض عليهم ثانية وأضرم فى البلاد نيران الثورة ، فتبعته جموع العرب ولقى العدو من بأسه وبطشه أهوالا كثيرة

– وبعد ؟

– سقط أبوك فى حومة القتال شهيد الواجب فى سبيل الدين والوطن

– وأنا ؟

– كان الاسبانيون قد اختطفوك عند ما ثار أبوك عليهم . فأدخلوك فى أحد الاديرة ، وأخفوا عنك حقيقة مولدك ، وأبدلوا اسم آمنة باسم ايزابيلا

– وأنت ؟ كيف علمت ذلك ؟

– كنت من رجال أبيك

– أنت إذن عربي ؟ !

– أنا اسرائيلى من أبناء هذه البلاد أدعى « يعقوب القيرواني » . لأن جدى قدم الى الاندلس من القيروان . كان العرب يعاملون أهلى وعشيرتى بالحسنى ، وكنت كاهناً أؤدى فروض الصلاة لأبناء اسرائيل ، وأنحر الذبائح فى الهياكل ، لكن الزمن تبدل حالا بحال عند ما

انهزم العرب أمام الأسبانيين ، فأساء الحاكم الجديد الينا ، واضطهدنا فى عاداتنا وديننا ، فأقفلت هياكلنا أو تهدمت ، وشردت عشائرنا فى طول البلاد وعرضها . نظرت الى الوراء ، الى الماضى ، الى رغد الحياة الذى كنا ننعم فيه من قبل ، الى الحرية التى كنا نتمتع بها فى عهد ملوك العرب ، فأردت أن تعود تلك الأيام ، وأن أرجع الى هيكلى ، لكن رجوعى كان متوقفاً على رجوع العرب ، ففكرت فى الأمر ملياً ، وتذكرت تلك الكلمات من التوراة « أأن تكون كاهناً لبيت رجل واحد خير لك ، أم أن تكون كاهنا لسبط وعشيرة من اسرائيل » ثم اندفعت فى الحماسة فهجرت بلدتى وانضممت الى صفوف الثوار تحت إمرة أبيك . قاتلت معه ، ثم قاتلت مع مولاى عبد الله بعد مقتل أبيك ثم .. ثم انهزمت مع المنهزمين ، وشردت مع المشردين . وقد عثرت على أثرك ، وما دخلت متخفيا فى خدمة العدو وأقمت فى هذا القصر الا لأنك فيه تقيمين يا آمنة

فألقت الفتاة بنفسها بين ذراعى ذلك الجندى المخلص الأمين وبكت . فأخذ يعقوب رأسها بيديه ووضع قبلة على جبينها ، ومن عينيه اللتين حبست فيهما الأهوال والعبرات زمنا طويلا ، سقطت دمعتان على غدائر آمنة السوداء

***



— يعقوب ! يعقوب !

— من المنادى ؟

— آمنة . انهض . أسرع

— ماذا جرى ؟

— قتلته

— من هو ؟

— جوان الفارز . . هاجمنى فى حجرتى ، فأغمدت فى صدره خنجرى

— الويل لنا !

— أينبغى أن ألقى عليك درساً فى الشجاعة ورباطة الجأش وأنت من جنود أبى ؟

— ماذا تريدين أن أصنع ؟

— أن تهرب معى بعيداً عن هذه الديار قبل أن يطلع الفجر وينكشف أمرى

— هيا بنا اذن !..

هربت الفتاة القاتلة المنتقمة من غرناطة بصحبة صديقها الشيخ . فقطع الاثنان المفاوز الشاسعة محترسين من المرور فى المدن ، مفضلين اجتياز الطرق الوعرة والمناطق الجبلية ، ووجهتهما شاطىء الجنوب . لكن الاسبانيين أطلقوا فى أثرهما شرذمة من رجالهم ، ولم يكن من الصعب

عليهم معرفة من ارتكب الجريمة فى القصر ، وقد عثروا على جثة زعيمهم فى حجرة الفتاة

* * *

جبل طارق . . .

يا للذكريات التى تثير الشجون فى الصدور !

من هنا دخل العرب فاتحين بقيادة طارق بن زياد ، ومن هنا غادرت فلولهم الاندلس بعد زوال ملكهم

وهناك . . على ذلك الشاطىء الذى يعلوه جبل شاهق من الصخر الاصم ، أدرك الجنود الاسبانيون آمنة ورفيقها وألقوا القبض عليهما ، فأعادوهما مكبلين بالحديد الى غرناطة حيث طرحا فى سجن مظلم

وتولت التحقيق معهما « محكمة التفتيش » الصارمة المخيفة

بمجرد الشبهة يؤدى الى المشنقة أو الى المحرقة ، فكيف بهما وقد ثبت للجميع أن الفتاة قاتلة !

وصدر الحكم . . .

الفتاة ازابيلا ، التى صرخ فيها دمها العربى ودفعها الى الاجرام تحرق حرقاً . والحارس يعقوب ، الذى نهج منهج يهوذا فخان أسياده ، يحرق على أثرها ، وينثر رماد الجثتين فى الهواء

وفى اليوم الثانى من الشهر الثالث سنة ١٥٨٧ ، صعدت آمنة ابنة محمد بن أمية ، المعروف باسم فرديناندو دى فالورى ، الى المحرقة التى أعدتها محكمة التفتيش فى حوش قصر الحمراء تحت نافذة الحجرة التى قتلت فيها الفتاة وحشاً حاول افتراسها

وصاحت ضحية الجور والاستبداد فى أولئك الظالمين الغاشمين :

ـــ أيها السفلة الأوغاد ، أرحب بهذه النيران التى تنقذنى منكم وسوف تلقون جزاءكم فى نيران الجحيم الدائمة السعير !

واكتنفتها الألسنة الحمراء ، فصعدت روحها الى السماء تشكو للقهار القدير ظلم الانسان لأخيه الانسان !

الأميرة الإفرنجية

حدث فى سنة ٥٧٨ هجرية ، الموافقة لسنة ١١٨٢ للميلاد ، ان الافرنج فى بيروت ـ المدينة الجاثمة على ساحل لبنان ـ فتكوا بقافلة كانت تحمل الارزاق والاسلحة والسلع المختلفة الى يوسف صلاح الدين الايوبى ، فهاج هائج السلطان ، وثار ثائره ، وعزم على الانتقام من المعتدين ، والاستيلاء على المدينة البحرية وضمها الى أملاكه الشاسعة

وكان الامر قد استتب له فقبض على زمام السلطة فى الاقطار المصرية والشامية ، وجعل يهاجم ، الواحد بعد الآخر ، الحصون والمعاقل الباقية فى قبضة الافرنج ، تمهيداً للاستيلاء على بيت المقدس ، حيث كان يقيم الملك بلدوين الرابع • على رأس الدولة التى أسسها الصليبيون هناك

سنحت له الفرصة للاستيلاء على بيروت فاغتنمها ، وسار اليها بفريق من أبطاله ، فغزا برها ، وقطع أشجاره ، وأحرق زرعه ، وكان أخوه « العادل » قد أرسل اليه من مصر ثلاثين مركبا فسار الى دارا وعسقلان وغزاهما وضربهما ، ثم عاد الى بيروت وهاجمها من جديد •••

لكن ملك القدس ، بلدوين الرابع ، أسرع الى نجدة المدينة ، فحارب صلاح الدين واضطره الى العودة على أعقابه

وتوالت المعارك وتتابعت منذ ذلك الوقت بين الفريقين ، وكان صلاح الدين قد غادر القاهرة على ألا يعود اليها الا بعد ان يرفع اعلام المسلمين على المدن والقلاع الشامية جميعها ، سواء أكانت خاضعة للافرنج أو لسواهم من أمراء العرب ، فتطاحن الابطال فى الميادين من حلب الشهباء الى صحراء سيناء الى واحة دمشق الى بادية الشام

وفي سنة ٥٧٩ هجريه ، الموافقة لسنه ١١٨٣ للميلاد ، كان صلاح الدين قد أخذ قلعة حلب عنوة ، واستولى على تلك المدينة وطرد منها أميرها ، فرجع بعد ذلك الى الجنوب ، وعبر نهر الاردن بجيشه ، وأحرق بيسان ، وتوغل في ذلك الوعر متجها الى حصن من حصون الافرنج الحصينة ، ومعقل من معاقلهم المنيعة لاقامة الحصار عليه ، وانتزاعه من أصحابه

ذلك الحصن الحصين ، والمعقل المنيع ، هو مدينة « الكرك » بأسوارهاوآجامها وصخورها مدينة الكرك ، الصغيرة بحجمها ، الكبيرة باسمها ، الرابضة فى وسط الجبال والهضاب ، بحاميتها الشجاعة ، تتحدى الغزاة والمهاجمين ، وتصدهم عنها خائبين

طلب صلاح الدين الى أخيه العادل أن يمده بنجدة قوية من جيوشه المصرية ، فلبى العادل النداء ، وسير الى الكرك جيشا عظيما ، التحق به هناك رجال صلاح الدين . ونصب العرب المجانيق حول المدينة ، وأقاموا عليها كمينا من جميع الجهات

وكان ذلك فى شهر نوفمبر من تلك السنة

هجم العرب على الاسوار والابراج مرة بعد مرة ، دون ان يتمكنوا من اقتحامها أو احداث ثغرة فيها أو هدم ركن منها

ذلك لان الافرنج كانوا قد احتاطوا للامر ، فجلبوا من الاقطاعات التابعة لهم ما استطاعوا جلبه من رجال الحرب والذخيرة والعتاد ، فصمدوا للمهاجمين ، واتقين ان الغلبة ستكون لهم فى النهاية ، وان السلطان سيضطر الى رفع الحصار والابتعاد عن مدينتهم ، بعد ان يشعر بعجزه عن الاستيلاء عليها

***

والآن لنترك الجنود والقواد فى حومة القتال ولننتقل الى داخل الاسوار ، ونتجه الى ناحية معينة الى برج من الابراج المشرفة على الهضاب ، حيث نرى حركة غير عادية وجلبة غير جلبة الجند فى مجالسهم ومجتمعاتهم

فى ذلك البرج أناس يروحون ويجيئون بينهم الرجال والنساء والاطفال . هذا يحمل أزهارا ، وذلك يحمل شموعا مضاءة ، وتلك تضم بين يديها مجموعة من الشرائط الملونة

وبين الجماعة أيضا رهبان يسرعون وفى أيديهم المسابح والمباخر ، وجيش من الخدم ينقل من مكان الى مكان الاطباق والدنان المملوءة بأنواع الطعام والخمور

وعلى جميع الوجوه يطفح السرور ، لكن الابتسامة تمتزج من وقت الى آخر بشيء من المرارة ...

ذلك لان القوم يحتفلون بزواج اثنين من أبناء الامراء ، ولانهم يخشون من جهة أخرى أن يعكر صفو الاحتفال حادث مؤلم ، من جراء تلك الحرب وذلك الحصار

اسم « العريس » هومفروا الرابع كونت دى تورون ، وهو من الفتيان الذين يعول عليهم الافرنج فى الحروب والملمات ، وسليل أسرة عريقة فى الحسب والنسب

أما العروس ، فهى ربيبة الكونت رينو دى شاتيليون وابنة زوجته من رجل آخر ورينو هو السيد المطاع وفخر الصليبيين فى ذلك العهد . يقيم فى انطاكية حيث مركز امارته ، ويبسط سلطانه عبر الاردن ، وليست الكرك غير حصن من حصونه العديدة

عقد كبراء الاسرة مجلسهم العائلى ، فى قاعة من قاعات ذلك البرج العظيم ، وتداولوا فى الامر ، فاقترح بعضهم أن تقام الافراح فى ناحية أخرى ، وان يبتعد العروسان عن جبهة القتال بقدر المستطاع

لكن الامير الشاب أبى الا أن تكون الحفلة فى ذلك البرج ، قائلا انه يؤثر صليل السيوف وهدير المجانيق وصهيل الخيول ، على الاصوات الاخرى ، أيا كانت عذوبتها

***

قبيل غروب الشمس ، فتح باب من ابواب الكرك ، وألقى المعبر على الخندق المحيط بالاسوار ، فاجتازه اربعون من الرجال والغلمان ، حاملين على أكتافهم ورؤوسهم آنية وأطباقا كثيرة ، متجهين الى معسكر العرب ، وأمامهم فارس فى عدة حربه ، ممتطيا جواده رافعا بيمناه علما أبيض اللون ناصعا

طلب الفارس من الحراس أن يذهبوا به الى صلاح الدين الايوبى ، فأجابوه الى طلبه . وأمر السلطان بادخاله عليه فى مضربه ولما مثل الفارس الافرنجى بين يديه خاطبه قائلا :

ـــ ايها المولى . أوفدتنى اليك الاميرة « اتيانات » والدة الامير هومفروا دى تورون الذى تحتفل الليلة بقرانه ، وعهدت الى بأن أسلمك هذا الكتاب ، وأن اترك فى مضربك هذه الهدايا التى يحملها رجالى

فابتسم صلاح الدين ومد يده لاستلام الكتاب من حامله قائلا :

ـــ اننى أذكر اتيانات ولا أنساها ، واذا كنت آسف اليوم لشىء ، فذلك لانى أقيم الحصار وأنشر الرعب حول حصن هى مقيمة فيه ، لاننى لا أريد أن تكون حياتها فى خطر !

ثم قرأ الكتاب الذى بعثت به الاميرة الافرنجية دون أن تفارق الابتسامة شفتيه :

« يا سلطان العرب

« يعم الابتهاج الليلة مدينتنا الصغيرة كلها ، ونحتفل بزواج ولدى هومفروا ، ولكننى أبيت الا أن يكون لك نصيب فى أفراحنا ياصلاح الدين • الا تذكر اياما كنت فيها عبدا رقيقا سجينا فى قصورنا ، تحمل على ذراعيك الطفلة اتيانات ، وتطوف بهـا الحدائق والبساتين ؟ لقد كبرت اتيانات يا يوسف ، وتزوجت ، ورزقت ولدا هو اليوم سيد قومه ، ولا شك فى انك سوف تحبه لو رأيته كما كنت تحب أمه وهى طفلة صغيرة ، لانه جيل وشجاع مقدام ، جدير بحبك وعطفك واعجابك يا صلاح الدين ، وقد حملت اربعين من رجاله وغلمانه نصف ما أعددناه لحفلة الليلة من طعام وشراب هدية لرجالك وغلمانك • فاشتركوا معنا يا عقبان الميادين وجبابرة الحروب فى هذا الاحتفال العظيم والعيد الكبير • واذكر دائما بالخير يا سلطان العرب تلك التى حملتها على ذراعيك طفلة والتى لم تشك لحظة واحدة فى ان الرجل الخامل الذى كنته سوف يصبح فى المستقبل فى عداد الابطال البواسل الامجاد • وتقبل تحية الوداد والاعتراف لك بالنبل والنبوغ من صديقتك الصغيرة بالامس الكبيرة اليوم » « اتيانات »

***

وعندما انتهى صلاح الدين من قراءة الكتاب لمح الحاضرون دمعتين نفرتا من عينيه وانحدرتا على خده ولحيته واستقرتا على ذلك الاسم الغريب الذى أثار فى صدر السلطان شتى الذكريات !

ثم التفت صلاح الدين الى الفارس حامل الكتاب والهدايا وقال :

• أيها الرسول الافرنجى

« عد الى مولاتك اتيانات وقل لها ان يوسف صلاح الدين لا يزال يذكر تلك الايام التى قضاها فى الاسر والعبودية ، متنقلا بين قصور الافرنج وأبراجهم وحصونهم ، وانه لا ينسى ما دامت الحياة تدب فيه أن تلك الطفلة التى أحبها وأحاطها بانواع العطف والدلال كانت تبعث فى نفسه الامل والرجاء ، وتدفع عنه بابتسامتها الحلوة ، ومداعباتها اللطيفة ، شبح اليأس والضعف والقنوط ! قل لها اننى أحفظ لها جميل الذكرى ، وآمل أن يكون شأنها معى كشأنى معها • اننى اتقبل هديتها ، وسأوزع محتويات هذه الاطباق والآنية على رجالى وغلمانى ، لكى يشاركوا الافرنج الليلة فى أفراحهم ، ويأخذوا نصيبهم من وليمة العرس ولتكن ايتانات واثقة ان الحرب ستضع أوزارها الليلة وغدا وبعد غد • فان رجالى لن يقتربوا من البرج الذى تقام فيه حفلة الزفاف ، ولن يزعجوا العروسين وذويهما

بصياحهم وضجيجهم وقعقعة أسلحتهم . فاذهب ، واحمل الى مولاتك العزيزة الشريفة أعطر تحية وأطيب سلام من صلاح الدين، صديقها بالامس وصديقها اليوم ! »

***

انصرف رسل الافرنج من لدن السلطان عائدين الى أسوارهم فرحين منذهلين مما رأوا وسمعوا ...

وأصدر صلاح الدين أمره الى القواد والجنود فاوقفوا القتال ، وشهدت أسوار الكرك وسهولها وآكامها في تلك الليلة مشهدا لم تدون صفحات التاريخ مثله في جميع العصور : جيشا يتوقف عن مهاجمة قلاع يحاصرها منذ أسابيع ، ويشترك في أفراح يقيمها عدوه المحاصر داخل الاسوار

هذا ما حدث مرة واحدة في التاريخ ، بأمر من يوسف صلاح الدين الايوبي ، سلطان الديار المصرية والشامية ، اكراما لصديقته الافرنجية ايانات ، في شهر نوفمبر من سنة ١١٨٣ للميلاد ، الموافقة لسنة ٥٧٩ للهجرة !



الحبيب القاتل

دارت رحى القتال وحمي وطيسه فى الصحراء حول تدمر ، واحتكت ركاب العرب بركاب التتار ، فكانت موقعة دموية هائلة روت فيها دماء الابطال رمالا لم يسل فوقها سائل منذ شهور

وما ان غربت الشمس حتى كان فرسان العرب قد مزقوا جيش التتار شر ممزق . فأطلق من بقى منهم على قيد الحياة للخيول الأعنة طلباً للنجاة فى بطن الصحراء . وعاد العرب بقيادة الامير منقذ الشهابي ، مستاقين أمامهم عدداً وافراً من الرجال عبيداً ومن النساء سبايا

وكان بين الاسرى الشاب « مرتان » والفتاة « جهار »

هى ابنة أحد زعماء التتار وهو ابن خالها . وكانا قد تعاهدا على الزواج ، عملا برغبة الوالدين واجابة لنداء القلب فى آن واحد

الفتاة نموذج الجمال التتارى المشهور ، الذى طالما تغنى به الشعراء ، ذات قامة هيفاء ووجه أسمر وجسم بض

وألحاظ بأسياف تنــادى على عاصى الهوى الله أكبر !

قادها الامير منقذ الى احدى قلاعه فى سهول حوران ، ولم يعاملهما كما يعامل الأسرى الأذلاء ، بل أكرم مثواهما كأنهما غريبان نزلا عليه ضيفين

لكن الشاب والفتاة كانا يحنان الى الربوع النائية ، التى نزل فيها أهلهما وضرب فيها أبناء عشيرتهما المضارب . فجعلا يتحينان الفرص للفرار من الأسر وإن كان أسراً خفيف الوطأة

جلس مرتان يوماً يبث حبيبته نجواه وقد هاجت شجونه ، فحال دون تسرب اليأس الى قلب الحبيبة ومناها بطيب الآمال وحلو الرجاء

— علمت ياجهار أن الامير منقذاً وأفراد أسرته عزموا على الرحيل عن هذه الديار والنزول فى وادى التيم

— كيف علمت ذلك ؟

— سمعت الخدم يتحدثون به . فان الأمير من الأنصار المقربين الى السلطان نور الدين . وقد حنق عليه السلطان صلاح الدين فخاف الأمير سوء العاقبة وقرر الاقامة فى الجبال الشمالية هرباً من انتقام صلاح الدين . فعلينا أيتها الحبيبة ألا ندع الفرصة السانحة تمر دون أن نغتنمها فنفر من الأسر ونستعيد حريتنا

* * *

علم الافرنج أسياد السواحل بقدوم الشهابيين الى وادى التيم ، فجردوا عليهم جيشاً قوياً لمحاربتهم وصدهم عن تلك الديار . فكانت بين الفريقين معركة حامية فى سهل البقاع ، أسفرت عن فوز الشهابيين فوزاً مبيناً ، فطاردوا أعداءهم وأعملوا فى أقفيتهم السيف واحتلوا البلاد وأقاموا فيها عنوة وقسراً

وتمكن مرتان وخطيبته جهار من الهرب فى خلال المعمعة . فسارا نحو الشمال على أمل أن يصلا الى عشائر التتار الضاربة وراء المناطق الحضرية

قضيا ليلتهما الاولى فى خرائب بعلبك ، والتقيا فى صبيحة اليوم التالى بقافلة من قوافل التجار قاصدة الى الشرق فانضما اليها

لكن غزواً من البدو الرحل هاجم القافلة فتشتت المسافرون شرقا وغربا . وعبثا حاولت الفتاة جهار أن تقف لحبيبها على أثر

ذرفت المسكينة دموعا حارة وجعلت تندب سوء طالعها وقضت تلك الليلة بين الصخور الصماء التى لم ترق لنحيبها

تابعت السير بالمسير ليلا ونهاراً ، فالتقطها أخيراً أحد النساك المقيمين على مقربة من قلعة الحصن ، وأرسلها مع أصدقاء له الى جبال لبنان ثم الى الأرض المقدسة ، ومن هناك تمكنت الفتاة من الوصول الى مصر حيث مثلت فى حضرة الملك الناصر يوسف صلاح الدين

* * *

وقع عليها نظر القائد الفاسق أحمد الغورى فرآها

كالورد خداً والهلال تباعداً والظبى جيداً والقضيب تأودا

فطمع فيها ، لكنها كانت ضيفة على السلطان ، فجعل القائد يرقب الفرص لاختطافها حتى تيسر له ذلك فحملها بواسطة أنصاره وزبانيته الى منزل حقير مجهول فى ضواحى القاهرة

تمنعت الفتاة التعسة وحاولت أن تدافع عن شرفها . لكن أحمد الغورى كان شرساً غليظ

الكبد ، فافترسها كما افترس من قبل غيرها من الفتيات . فأقامت في ذلك المنزل المنعزل قوة وقهراً تبكي شبابها الذابل وحبها الضائع

دخل عليها مختطفها يوما فرآها على هذه الحالة فبادرها سائلا :

— أتحبين أحداً أيتها الحسناء ؟

فصمتت الفتاة برهة ، ثم أجهشت بالبكاء . .

وكاتم الحب بين البين منهتك　　　وصاحب الدمع لا تخفى سرائره

أرادت أن تخفى حبها فخانتها العبرات ، واشتد غيظ القائد الغورى فصاح :

— والله ان وقع غريمى بيدى لأقتلنه وأمثلن به تمثيلا !

* * *

شاءت الأقدار أن يظل مرتان على قيد الحياة وأن يفر من بلاد الشام قاصداً الى مصر طلب المثول بين يدى صلاح الدين فأذن له وقص على السلطان قصته ، وقال له ان أخبار خطيبته جهار قد بلغت اليه وانه علم بنزولها ضيفة على حرم السلطان

فاكفهر وجه صلاح الدين وقال :

— أجل يا بنى ، خطيبتك نزلت ضيفة على حرمى ، لكن نذلا زنيا قد اختطفها من القصر ولم يتمكن رجالى من القبض عليه ولم نعلم بعد من هو ذلك المعتدى الاثيم

— إذاً لدى رجاء أفضى به اليك يا مولاى : دعنى أبحث عن خطيبتى ومر إذا شئت أن يمد الىّ رجالك يد المساعدة

— لك ما تريد

* * *

خرج مرتان من القصر وبيده أمر خطى من السلطان ، وبحث طويلا فاكتشف السر علم أن القائد أحمد الغورى يحتجز الفتاة فى ذلك المنزل البعيد ، فتربص له ذات ليلة وأعد القوس والسهام وعزم على الانتقام منه قبل أن يقتحم المسكن ويصل الى حبيبته

ظل ساعات طويلة يسترق السمع . .

خيال على سطح المنزل . .

لا شك فى أن القائد صعد يستنشق الهواء . .

ها هو ذا قد اقترب من حافة السطح . .

شد مرتان الوتر وأرسل السهم . .

صرخة مفجعة فى سكون الليل وجسم يهوى من أعلى السطح الى الحضيض !

لكن الصرخة ليست صرخة رجل . .

أسرع مرتان الى ذلك الذى ظنه عدوه الألد ، فاذا به أمام المرأة تئن وتتوجع ، والدم يسيل غزيراً من صدرها !

— أواه ! حبيبتى ! جهار . . ما أتعسنى وأشقانى !

— مرتان . . خير لى أن أموت بيدك . . صعدت الى سطح المنزل طلباً للانتحار . . نعم . يئست من الحياة بعيدة عنك . . فساعدتنى أنت على التخلص منها . . شكراً لك أيها الحبيب!

فأكب العاشق التعس على حبيبته يمزج دموعه بدمائها ، وقد أغمضت جفنيها ولسان حالها يقول :

قتـل النفوس محرم لـكنه حل إذا كان الحبيب الفاعـل
أرضى ويغضب قاتلى فتعجبوا يرضى القتيل وليس يرضى القاتل!



قلعة البحر

فى سنة ١٢٥٠ للميلاد ، أخلى الصليبيون ميناء دمياط ودفعوا الفدية التى فرضها عليهم المصريون ، مقابل إعادة الحرية للملك لويس التاسع ، الذى وقع أسيراً مع جيشه فى المنصورة . وبعد أن ألقى الافرنج نظرة وداع أخيرة على الارض التى كانوا يطمعون فى الاستيلاء عليها ، والتى ذاقوا فيها مرارة الهزيمة وعذاب الأسر ، أبحرت مراكبهم نحو الشرق ناشرة أجنحتها البيضاء على صفحة المياه الزرقاء

قصد الملك لويس التاسع ، ملك فرنسا وقائد الحملة الصليبية السابعة ، الى أرض فلسطين وسواحل لبنان ، على أمل أن يجمع هناك شمل رجاله ، ويعد عدته لهجوم جديد يقوم به على مواقع المسلمين

وكانت الحصون والقلاع الصليبية منتشرة فى تلك الاقطار ، تشرف من أعالى القمم الشاهقة على السهول المنخفضة وعلى شواطىء البحر ، كأنها وكور معلقة فى الفضاء ، تتحفز فيها العقبان للانقضاض على العدو من الجهة التى تبدو منها طلائعه

طاف الملك الفرنسى التقى الورع فى البلاد شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً ، وأقام فى حصونه وقلاعه حاميات تقوى على مواجهة الغزوات وصدها ، وقرر أن يتخذ « قلعة البحر » فى « صيدا » مقراً له ولأسرته وحاشيته

وقلعة البحر بناها الصليبيون بين سنتى ١٢٢٧ و ١٢٢٨ للميلاد ، فى جزيرة صغيرة بمدينة صيدا ــ أو ساجيت كما كانوا يسمونها ــ للدفاع عن تلك المدينة ، وكانت الجزيرة المحصنة تتصل بالبر بواسطة جسر من الحجر يبلغ طوله ٧٠ متراً ولا تزال خرائبه قائمة الى أيامنا هذه

وشيدوا على اليابسة قلعة ثانية ، أطلقوا عليها اسم « قلعة البر » ، وكان جيشهم يتفرق بين القلعتين فى أيام الحصار والهجوم والدفاع

أقام الملك لويس التاسع فى « قلعة البحر » ومعه زوجته « مرغريت دى بروفانس » والكونتس « دارتوا » زوجة أخيه الذى قتل فى معركة « المنصورة » والسيف فى يده . ونزل معه فى القلعة أيضاً أخواه الفونس وشارل وزوجتاهما

فالأسرة الملكية كانت كلها مجتمعة إذن فى « قلعة البحر » عندما عزم الملك الفرنسى على اتخاذها مقراً له ، فى أثناء إقامته فى الارض المقدسة

وكان الملك يشرف بنفسه على تحصين المدينة وتقوية أسوارها ، لجعلها فى مدة قصيرة منيعة الجانب صعبة المنال ، ولبث ينتظر الفرص السانحة لاعادة الكرة على معاقل المسلمين وعواصم ممالكهم

لكنه لم يقدم على حرب جديدة واسعة النطاق ، فانقضت أربع سنوات لم تقع فيها بين المسلمين والصليبيين غير معارك ومناوشات معدودة . وفى ٢٥ ابريل سنة ١٢٥٤ أبحر الملك لويس عائداً الى وطنه مع زوجته وذويه

***

أصدر الملك أوامره الى حاشيته بوجوب الاستعداد للرحيل ، وعهد الى طائفة من أشراف فرنسا فى الدفاع عن المدينة بعد رحيله ، وأوصاهم بأن يظلوا على أتم ما يكون من الوفاق والوئام مع الأمراء والأقيال الصليبيين المنتشرين فى الارض المقدسة وفى جبال لبنان وما وراء الأردن وجبال الاسماعيلية ، وطلب من زوجته الملكة مرغريت أن تكون على أهبة الرحيل مع وصيفاتها وخادماتها وحرسها

وكانت احدى وصيفات الملكة وأحبهن اليها ، فتاة فرنسية تدعى « سيلفيا بومون » صحبت مولاتها الى مصر ولبنان ، وأخلصت لها في السراء والضراء ، وشاركتها نعيم الحياة وبؤسها ، فكانت لها الخادمة الطائعة ، والصديقة الوفية ، والرفيقة المتفانية حباً واخلاصاً

أفضت اليها الملكة برغبة الملك فى الرحيل عن صيدا والعودة الى فرنسا ، ظناً منها أن الفتاة ستقابل هذه البشرى بالاغتباط ، وتفرح لقرب العودة الى الوطن والاهل والخلان

لكن سيلفيا لم تبتسم ، بل قابلت الخبر بوجه عبوس ، وجمود أثار دهشة الملكة ، ودموع انحدرت من مآقيها على الرغم منها . وخيل الى الملكة أنها دموع حزن وانقباض ، لا دموع فرح وانشراح

فأخذت مرغريت رأس وصيفتها المحبوبة بين يديها ، وقالت لها بلهجة ملؤها العطف والحنان :

— سيلفيا . . . يخيل إلىّ أن خبر رحيلنا عن هذه الديار يؤلمك . قولى لى : ما الداعى

الى هذه الدموع التى لا تنم عن ارتياح وسرور ؟

فألقت سيلفيا بنفسها على قدمى مولاتها وانهمرت الدموع من عينيها كالغيث المدرار ، ثم رفعت رأسها ونظرت الى مرغريت نظرة أفرغت فيها كل ما فى صدرها من أمل ورجاء واحترام ، وقالت بصوت تقطعه الزفرات :

— مولاتى ! أريد البقاء هنا . . . لا أرغب فى العودة الى فرنسا . . . لم يبق لى هناك أحد من الاهل والاصدقاء . . . أنا يتيمة الابوين ، لا أسرة لى أنتمى اليها ولا بيت لى ألجأ اليه . . . ولو لم يغمرنى عطف مولاتي الملكة ومولاى الملك ، لكنت الآن فى حالة بؤس وشقاء ، بل لكنت الآن فى عداد الاموات

— وماذا تخشين يا ابنتى ، ما دمت مقيمة فى كنفى ، ومادام الملك يشملك برضاه ، بينما أرعاك أنا بعنايتى ؟

— مولاتى . . . اننى . . .

-- سيليفيا . . . أخشى أن أكون قد أدركت الحقيقة . انك تحبين . لا أعتقد أن عاطفة غير عاطفة الحب تحملك على التخلي عنى فى الساعة التى يبلغ فيها فرحى أقصاه ، والتى أستعد فيها للعودة الى عاصمة فرنسا المحبوبة . قولى لى الحقيقة يا ابنتى . . . يا أختى . . . ولاتخفى عنى شيئاً . لقد عرف قلبي الحب ، وأنا امرأة مثلك يا سيلفيا ، أفقه ماتنطوى عليه قلوب النساء ، وما ينتابها من عذاب أليم اذا ما داعب إله الحب أوتارها بأنامله !

تشجعت الفتاة وأدركت أن لا بد لها من الافضاء الى مولاتها بالسر الذى تكتمه فى صدرها ، وأن يوم الرحيل قريب ، وأن الملكة مرغريت أولى الناس بالاطلاع على ذلك السر ، وأكثرهم تسامحاً فى الموافقة على رغبة الفتاة فى البقاء

فجلست الملكة على مقعد وثير ، أمام نافذة غرفتها المشرفة على البحر ، وجلست سيلفيا على الارض عند قدميها . وهناك ، على صوت هدير الامواج المتكسرة على أسوار القلعة وصخور الشاطىء ، أفضت الى مولاتها بما يتأجج فى صدرها من غرام مقيم

قالت سيلفيا بومون لمرغريت دى بروفانس :

— تذكرين يا مولاتى انى خرجت منذ سنتين مع قافلة فرنسية تحرسها كوكبة من فرساننا الاشاوس . وكانت تلك القافلة تقصد الى الأراضى المقدسة لزيارتها وتقديم النذور التى حملها جماعة من الرهبان أبناء قومنا من فرنسا . وقد هوجمت القافلة فى الطريق ، وقتل فريق من الفرسان ، وتشتت الرجال والنساء فى البرارى والقفار ، ووصل منهم من ساعدهم الحظ وأخذ الله بأيديهم الى بعض معاقل الصليبيين ففازوا بحياتهم ، أما أنا فقد أغمى علىّ فى أثناء المعمعة .

وعند ما أفقت وجدت نفسى كما تعلمين فى مضرب وسط الجبال وحولى جماعة من النساء العربيات

— أعلم ذلك كله يا ابنتى . فقد أنقذ حياتك شاب من أبناء هذه البلاد أشفق عليك واحتملك على صهوة جواده الى مضارب عشيرته ، ثم أعادك الى صيدا ، ووصل بك الى الأسوار ، ولم يغادرك الا بعد أن دخلت المدينة آمنة

— ان ذلك الشاب يا مولاتى فى صيدا الآن

— كيف ذلك ؟

— نعم . فقد اشترك مع المسلمين فى هجومهم على المدينة فى العام الماضى ، عند ما هاجموها فى غيبة الملك ، واقتحموا أسوارها ، وأهلكوا حاميتها ، وقتلوا من الصليبيين الفى شخص لا نزال نبكيهم الى الآن

— رحمة الله عليهم !

— كان ذلك الشاب الذى أنقذ حياتى منذ سنتين بين الهاجمين المغيرين ، وقد شاءت الاقدار أن أعثر عليه جريحاً فى زقاق مظلم ، وما وقع نظرى عليه حتى سمعت صوتا هو صوت الضمير يهيب بى أن أنقذى حياة هذا الرجل كما أنقذ حياتك من قبل ، وقد أنقذت حياة الشاب ونقلته الى منزل جندى يمت الىّ بصلة نسب ، وهو لا يزال مقيما فيه الى الآن

— وهل شفى من جراحه ؟

— نعم . ولكن حياته لا تزال فى خطر ، فهو مهدد بالموت على الدوام ، لأنه يشكو ضعفاً فى قلبه .. وقد زاد ذلك القلب ضعفاً بعد أن برح به الحب !

— هل يحبك ؟

— وأحبه !

— ما اسمه ؟

— رامح

— ابن من هو ؟

— ابن الامير طالب من عرب البلقاء ، وأبوه من أسياد قومه

— إذن ، فأنت ترغبين فى البقاء هنا لتسهرى على حياة هذا الشاب ، وهو يرغب فى اتخاذك زوجة له ؟

— لن يتم هذا الزواج يا مولاتى ، فرامح مشرف على الموت ، ولن يعيش طويلا . واذا كنت أرغب الآن فى البقاء بجانبه ، فلكى أخفف عنه أهوال المرحلة الاخيرة من مراحل هذه الدنيا . وهذا نذر تعهدت بوفائه أمام العذراء مريم عند ما أنقذ هذا الشاب العربى المسلم حياتى . فقد

نذرت لها أن أنقذ حياة شاب من الأعداء .. وأبت الأقدار الا أن يكون ذلك الشاب هو منقذى بعينه ، وأن تحل عاطفة الحب فى قلبي محل عاطفة العرفان بالجميل والوفاء بالنذر !

ـــ لك ما تريدين يا ابنتى !

* * *

أقلعت المراكب من صيدا حاملة الملك لويس التاسع وأهله وذويه وحاشيته ، قاصدة الى فرنسا ، كما أقلعت قبل ذلك اليوم بأربعة أعوام من دمياط قاصدة الى لبنان . وبقيت سيلفيا بومون ، الفتاة الكريمة النفس النبيلة العواطف ، فى مدينة صيدا ، تحمل أمراً من الملك الفرنسى بأن لا يعترضها أحد فى روحاتها وغدواتها ، بين قلعة البحر وحصون الصليبيين فى الاقطار المقدسة ، وأن لا يمس أحد بالسوء ذلك الشاب العربى الذى أنقذته الفتاة من الموت

وأقامت سيلفيا بومون خمس سنوات كاملة فى مدينة صيدا ، تسهر على راحة الشاب المريض وتحنو عليه حنو الأم على رضيعها ، وحنو العاشقة على حبيبها

ولكن ملك الموت سطا عليه فى سنة ١٢٥٩ ، فحملته الفتاة الشجاعة الى خارج المدينة ، حيث سلمت جثته ، بعد أن غمرتها بدموعها ، الى أبناء قومه ، فنقلوها فى هودج الى مضارب الحى فى جبال « وادى التيم » حيث دفنت وسط البكاء والعويل

هناك يرقد رامح بن طالب بن عدى أمير قبيلة « العوادى » من بطون حمير ، التى التحق رجالها بأبطال الفتح الاسلامى وأبلوا فى الميادين أحسن بلاء

أما سيلفيا فقد عادت الى وطنها ، ودفنت نفسها فى دير قصى فى سهول نورمنديا ، حيث قضت حياتها فى عبادة الله والبكاء على حبها العقيم !

ناسك الأرز

للمرة العاشرة أقام العرب كمينا على طرابلس الحصينة وحاصروا أسوارها وهاجموا قلاعها، وللمرة العاشرة صمدت لهم حاميتها، وأمطرتهم وابلا من السهام والنبال والحجارة، وردتهم عن المدينة . فعادوا على أعقابهم لكي يجمعوا شملهم ، ويضاعفوا عددهم ومعداتهم، ويعيدوا الكرة من جديد على الحصون المتمردة

كان ذلك سنة ٥٨١ هجرية ، الموافقة لسنة ١١٨٥ للميلاد . فاقسم يوسف صلاح الدين الايوبى ألا يظل على رأس السلطنة المصرية والشامية أكثر من سنتين ، اذا استطاع الافرنج أن يحولوا بينه وبين الاستيلاء على معاقلهم فى تلك الديار، وتدمير مملكة أورشليم التى أعادها الصليبيون الى عالم الوجود ، وظلوا محتفظين بها منذ عهد بطلهم العظيم غوفريد الاول ــ المعروف عندهم باسم « غود فروادى بويون ! »

وعزم السلطان قبل كل شىء على أن يبذل جهده ، ويحصر قواه ، فى الاستيلاء على مدينة طرابلس ، الرابضة فى سفح لبنان الشمالى ، الفاتحة أحضانها للسفن القادمة من الغرب ، المحاطة بسلسلة من الاسوار القائمة والابراج الشاهقة والآجام المنيعة ، تعلوها جبال لبنان الشامخة ، وتحنو عليها وترد عنها غزو الغزاة وجحافل الفاتحين

وكان يحكم طرابلس ويقود الافرنج هناك فى ذلك الوقت فارس من فرسانهم الاشاوس، وبطل من أبطالهم البواسل ، ومفخرة من مفاخر الصليبيين فى الشرق ، يعرفه العرب باسم « القومس التولوزى » وأبناء قومه باسم « ريمون الخامس كونت دى تولوز »

أوفد الكونت الى وطنه رسولا أمينا لطلب النجدة والمعونة من اخوته وأعمامه ، فلبوا النداء وأجابوا الطلب

وعاد الفريقان ــ العرب والافرنج ــ الى الكر والفر والهجوم والدفاع . فاستحالت

تلك الربوع الفيحاء والجبال الجرداء الى ميدان واسع الارجاء ، يتطاحن فيه رجال الحرب وجبابرة البأس ويتقاتلون ، وقد أشرف عليهم ملك الموت من أعالى تلك القمم ، ورفرف باجنحته السوداء على المجزرة ، وبيده المنجل الحاصد يتناول به الارواح ويختطفها

***

في ذلك الوقت ، كان يقيم في كهف منحوت في الصخر الاصم ، في ظلال أشجار الارز الباسقة ، وفي رعاية أغصانها الخضراء ، ناسك متعبد أثقلت السنون كاهله وأحنت رأسه وكتفيه ، وغطت الشعور البيضاء وجهه وعنقه وصدره كما تغطى الثلوج في الشتاء رؤوس لبنان وهضابه وسفوحه

لم يعرف أحد من أمره شيئا ، ولم يستطع أحد أن يرفع طرفا من الستار الذى اسدله الرجل على ماضيه ، فاطلق عليه الرعاة والصيادون والفلاحون الذين كانوا يسكنون تلك المنطقة الوعرة ، اسم « الناسك » مجردا من كل لقب وتعريف

وانتشر ذكره في الآفاق وذاع صيته في البلاد ، فصار الناس يقصدون اليه على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم ، المسلم يسابق النصراني والنصراني يزاحم المسلم ، للتبرك بلثم يديه والتوسل اليه بان يكون واسطة بينهم وبين الله عز وجل ، لتحقيق أمنية أو دفع مرض أو ابعاد خطر

وكانت تأتى اليه مرة في الاسبوع فتاة بارعة الجمال ، طويلة القامة ، قوية البنية ، ممتطية صهوة جواد أصيل ، يصحبها دائما فارس من فرسان ريمون دى تولوز ، فتقضى عنده سحابة نهار ، ثم تعود مع الفارس رفيقها الى طرابلس حيث كانت تقيم.

من هي تلك الفتاة ، وأية صلة تربطها بذلك الناسك المتعبد المعتزل في صومعته ؟

اسمها « ماري تريز » ولا يعرف أحد اسم الاسرة التى تنتمى اليها . وكل ما وصل الناس الى معرفته عنها انها وصلت ذات يوم وحيدة ، ماشية على قدميها من مكان مجهول ، وذهبت الى الكونت ريمون دى تولوز صاحب طرابلس ، وطلبت اليه أن يحتفظ بها في قصره بين النساء الكثيرات اللواتى كن يعشن فيه ، بعد أن فقدت أباها في الحرب الصليبية

قالت له انها من أسرة فرنسية شريفة عريقة ، وانها جاءت الى الارض المقدسة مع أبيها وفاء لنذر وقياما بواجب الحج الى بيت المقدس . وبعد أن أديا الفريضة أراد الاب أن يأخذ نصيبه من القتال فلقى حتفه في الميادين

عطف الكونت ريمون عليها ، وجعل لها مكانا في قصره بين مثيلاتها وهن كثيرات ، ومنذ ذلك الوقت – أى منذ سنة ١١٧٥ – أقامت الفتاة في داخل المدينة ، وسمح لها

الكونت بأن تخرج مرة فى الاسبوع فى صحبة أحد فرسانه لزيارة ذلك الناسك الذى حدثته عنه كثيرا ، والذى بلغت أخباره فيما بعد مسامع الكونت الشريف ، فأراد أن يتقرب منه ويتحقق بنفسه من صحة ما يشيعه الناس عن صاحب الكهف فى ظلال الارز

ظلت الامور سائرة على هذا المنوال عشر سنوات . فالفتاة تذهب الى الصومعة مرة فى الاسبوع . والكونت يصحبها اليها من وقت الى آخر . وشهرة الناسك تنتشر يوما عن يوم وصيته يجتاز الهضاب والجبال والسهول ويتسع مع مضى الوقت

وفى صبيحة يوم من أيام الشتاء الباردة فى سنة ١١٨٥ للميلاد ، وفد على قصر الكونت ريمون دى تولوز راع لبنانى طلب المثول بين يدى صاحب طرابلس قائلا انه يحمل اليه رسالة من ناسك الارز

ولما دخل الراعى على الكونت فى مخدعه حياه باسم الناسك وقال :

ـــ ان القديس الذى نحترمه ونجله جميعا قد أوفدنى اليك يا مولاى لكى أفضى برغبة قد تكون آخر رغباته : انه يطلب منك أن تذهب اليه لساعتك ، ومعك الفتاة مارى تريز . يريد منك أن تكون عنده الليلة لانك لو وصلت الى صومعته غدا فقد لا تجده فيها حيا

نهض الكونت ريمون دى تولوز من مقعده مضطربا وأسرع الى الفتاة فناداها من حجرتها . ثم أمر كوكبة من فرسانه باللحاق به . وتوجه الجميع الى غابة الارز

***

قال الناسك الشيخ بصوت متهدج ضعيف :

ـــ مولاى . لقد آن الاوان لكى أطلعك على حقيقة أمرى وأكشف لك الستار عن ماضى وسر حياتى . اننى أشعر بدنو أجلى . ولن تمر ساعات معدودة حتى تكون النفس قد فارقت منى الجسد صاعدة الى خالقها فى ملكوته ... مولاى ... اصغ الى الكونت « هنرى دى مونفور » الذى يحدثك

ـــ هنرى دى مونفور !

ـــ نعم ... هنرى دى مونفور ... لا يدهشنك ذلك يا مولاى . انكم تعتقدون جميعا أن ذلك النبيل الفرنسى الذى جاء الى الارض المقدسة مع ابنته ، على أثر وفاة زوجته وأخته وابن اخيه فى ليلة واحدة ، قد قتل فى الحرب حيث اندفع يائسا الى الموت ، وجعل يزج بنفسه فى مواطن الخطر عن عمد وقصد

ـــ نعم ... هذا ما نعتقده جميعا ...

ـــ انكم لا تعرفون الحقيقة ••• لم يمت هنرى دى مونفور ، وهو الذى يحدثك الآن يا ريمون دى تولوز •••

سكت الشيخ هنيهة ثم استطرد قائلا :

ـــ كنا عائدين من القدس ووجهتنا ساحل لبنان • وكان عددنا نحو عشرين رجلا وثلاث نساء ، منهن ابنتى ، فداهمنا كمين كبير من الاعداء فى غابة كثيفة ، ودارت بيننا رحى القتال ودارت معها الدائرة علينا • وفى أثناء القتال ، أخذت عينى رجلا من رجالنا رافعا فأسه لكى يجهز على جريح غارق فى بحر من الدماء ، فأسرعت اليه ، وحلت بينه وبين ما كاد يفعل • وقلت للجريح : « لا تخف •• لن تمتد اليك يد بسوء ما دمت على الارض جريحا ، وبعد المعركة ، عند ما تغلب الاعداء علينا وساقوا أمامهم الاحياء منا أسرى فى القيود يرسفون ، ذهبوا بنا الى قائدهم وسيدهم

ـــ هل عرفت اسمه ؟

ـــ الامير غالب الشهابى •• وهو ينتمى الى أسرة عربية حلت من مدة قصيرة فى « وادى التيم » وبسطت سلطانها على ذلك الاقليم الحصين

ـــ أعرف هذا الامير وأعلم أنه نبيل شجاع

ـــ نعم •• لقد أثبت ذلك بالادلة والبراهين

ـــ أتمم قصتك يا أخى

ـــ جىء بنا الى ذلك الامير ، فاذا بى أمام الجريح الذى أنقذت حياته فى حومة القتال!

ـــ أما قلت له ذلك ؟

ـــ عرفنى قبل أن أفوه بكلمة ، وما وقع نظره على حتى صاح بقومه : « فكوا قيود هذا الرجل وأعيدوا اليه حريته ! » حينذاك أدركت اننى امام بطل من اولئك الابطال الذين يضعون الشهامة فى الحروب نصب اعينهم ويسيرون على منهج الجبابرة الاقدمين • فقلت له : « انك تعيد الى حريتى ايها المولى لاننى انقذتك من الموت فى اثناء المعركة • لكننى أرفض عفوك هذا واطلب منك ـ اذا كنت ترغب فى معاملتى بالمثل ومقابلة المعروف بالمعروف ـ ان تطلق سراح ابنتى الاسيرة وتعيدها الى الحياة الحرة • اما أنا فاننى أوثر البقاء فى الاسر على ترك ابنتى مقيدة بأغلاله ! »

ـــ وماذا قال لك بعد ذلك ؟

ـــ نظر الى بعينين كأنهما جمرتا نار تقدحان وسط غابة من الشعر وقال : « اننا لانحتفظ بالنساء ما دمنا نفرج عن الرجال • فاذهب مع ابنتك ، انك لجدير بان أعاملك هذه المعاملة،

لانك كنت فى ساحة القتال عدوا شريفا وبطلا نبيلا » فبسطت له يدى فصافحها وقال : « اذهب » فقلت له : « لقد انقذت حياتك فقط ، اما انت فقد قابلت ذلك بنعمتين وانقذت من العبودية والاسر حياتين • فلا ازال اذن مدينا لك بفضل ومعروف » فأجابنى : « اذا كنت تريد الا اطالبك يوما من الايام بوفاء هذا الدين ، فاقسم بايمانك امام هؤلاء الابطال على اجتناب الحرب بعد الآن ، واقطع على نفسك عهدا بألا تشهر فى وجوهنا سلاحا »

ـــ وهل فعلت ذلك ؟

ـــ نعم ••• كان لا بد لى من قطع ذلك العهد والقيام بذلك القسم ، فاقسمت وتعهدت• ومنذ ذلك الوقت عزمت على قضاء أيامى الباقية فى صومعة منعزلة ، فى أعالى هذه الجبال ، بعيدا عن الناس •• وعن الحرب !

ـــ وابنتك ؟

ـــ ابنتى ؟•• أما عرفتها بعد يا أخى ؟ لقد لجأت اليك فاضفتها ، وهى تقيم فى قصرك منذ عشر سنوات !

ـــ مارى تريز ؟!

ـــ مارى تريز ، نعم ••• لقد برت بوعدها ، ولم تبح لاحد باسمها ، ولم تقل أمام أحد ان الناسك الذى تزوره مرة فى الاسبوع هو والدها الكونت دى مونفور !

ضمت الابنة البارة رأس أبيها بين ذراعيها وأجهشت بالبكاء • فجعل الشيخ يداعب جدائل شعرها بيديه المرتعشتين ، وقال :

ـــ اننى راحل عن هذا العالم يا ابنتى ، لكننى أرحل هادىء البال مرتاح الضمير ، مطمئنا من نحوك ••• اننى أتركك فى رعاية سيد قوى الجانب عالى الهمة واسع الصدر كثير الرحمة نبيل الشعور ••• انك تفقدين أباك ، ولكنك تجدين فى ريمون دى تولوز أبا وأخا وحاميا ونصيرا •••

ثم التفت الشيخ الى الكونت ، وبيده ملف من الاوراق تناوله من تحت فراشه ، وقال :

ـــ ان هذه الاوراق والوثائق يا ريمون ، تثبت حق هذه الفتاة فى ارث أبيها وفى لقب أسرتها ••• فخذها وأعد اليها ما تستحقه من مال وعزة وجاه

وكأن الله أراد ألا تفارق الروح جسد ذلك الناسك الا بعد أن ينتهى من سرد قصته ، وافشاء سره • فانه ما وصل الى هذا الحد من حديثه حتى خفت صوته فجأة ، وانتابته رعشة قوية ، فانتفض كما ينتفض العصفور الجريح ومال برأسه على صدر الفتاة ••

***

بعد أن وضعت جثة الناسك هنرى دى مونفور فى كفنها ، ولفت فى لفائفها ، خرج الكونت ريمون دى تولوز والفتاة مارى تريز دى مونفور ومن كان يصحبهما من الفرسان خارج الكهف

وتنفيذا لرغبة سبق للناسك أن أفضى بها ، تركت الجثة فى داخل الكهف ، وردت الصخور على بابه ، وهيل عليه التراب ، ونثرت الاغصان والرياحين

وظل الناسك مقيما فى كهفه بعد مماته كما كان مقيما فيه فى حياته

واستحالت الصومعة الى قبر ساكن

وفى سنة ١١٨٧ ، صعدت الفتاة مارى تريز الى غابة الارز ، وودعت اباها الوداع الأخير ، قبيل رحيلها عن تلك الديار عائدة الى وطنها فرنسا

وفى ذلك اليوم الذى زارت فيه الفتاة قبر الناسك للمرة الاخيرة ، كان صلاح الدين الايوبى يجتاز أسوار أورشليم ويدخلها فاتحا منصورا ، وقد بر بقسمه واجتاح المملكة الصليبية ودمر حصونها ، قبل مضى سنتين على القسم الذى فاه به

وكان ذلك فى سنة ٥٨٣ للهجرة ، الموافقة لسنة ١١٨٧ للميلاد

وفى سنة ١١٩٤ مات الكونت ريمون دى تولوز ، ودفن فى طرابلس ، المدينة التى حكمها آباؤه وأجداده من قبل ، والتى دافع عنها دفاع الابطال

***

تلك هى قصة هنرى دى مونفور ...

وقد تناقلت الاحقاب من بعدء تلك القصة الرائعة ، وجعل الرواة يضيفون اليها كل يوم جديدا ، ويغالون فى سردها ويبالغون ، حتى جاء يوم أصبح فيه الناس يعتقدون أن فى قبر الناسك كنزا ، وأن ذلك الكنز لا يقدر بمال !

ودفع الجشع بعضهم الى البحث والتنقيب ، من سواحل طرابلس الى غابة الارز ، لكنهم لم يعثروا على شىء ، ولم يكشفوا فى سفوح الجبال الا عن هياكل بشرية ، هى بقايا أولئك النساك الابرار ، الذين كانوا يهرعون الى الصخور والكهوف فيتخذونها مسكنا لهم ، ويتفرغون فيها للصلاة والعبادة ، كما فعل هنرى دى مونفور

وقد يكون اولئك الباحثون المنقبون قد عثروا على جثمان « ناسك الارز » وبعثروا عظامه فى الوادى المقدس ـ وادى قاديشا بلبنان ـ دون أن يعلموا السر الذى كان ذلك التقى الورع يضمه فى صدره

الجمال الجانى

هبط جان دى جرامون ، النبيل الفرنسى الشجاع ، الارض المقدسة فى سنة ١٢١٧ ، مع جنود الحرب الصليبية الخامسة الذين فشلوا وهزموا فى المعارك ، وتشتتت بقاياهم فى المدن والحقول والقلاع ، بعد أن عاد منهم من عاد الى بلاد الغرب

ولجأ جان دى جرامون ، وكان فى ذلك الوقت فى الخامسة والثلاثين من عمره ، الى حصون « عكاء » المنيعة ، حيث عرفه الشيخ سعد النصرانى ، تاجر الخيول ، وزوجه ابنته « مريم » أجمل بنات النصارى فى ذلك الوقت

وكان الفارس الصليبى الفرنسى يخرج الى القتال كلما دعت الحاجة ، ثم يعود الى عكاء أو الى غيرها من الاماكن الحصينة ، حيث تنتظره زوجته ، خائفة مصلية

ومرت الاعوام تتلو الاعوام ، وجان دى جرامون يتنقل من قلعة الى قلعة ومن مدينة الى مدينة ومعه زوجته ، تتجاذبهما الراحة حينا والحروب أحيانا

أراد الفرنسى ، وقد تقوس ظهره وضعف بصره وخمدت جذوة همته ، أن يعود الى وطنه ويقضى فيه بقية حياته ، لكن الزوجة مانعت فى الرحيل عن الارض المقدسة ، وقالت انها لن تموت الا فى الديار التى عاش فيها السيد المسيح ووطئتها أقدام الرسل والانبياء

فبقى جان دى جرامون فى الشرق مرغما • وكأن الله أراد ان يفىء ظلمة شيخوخته وينسيه وحشة الغربة ، فرزقه وهو فى التاسعة والستين من عمره ابنة أطلق عليها الشيخ اسم « نور » العربى قائلا انها الشعاع الذى ينير أيامه الاخيرة ، قبل نزوله الى غياهب القبر وكان ذلك سنة ١٢٥١ للميلاد

وفى سنة ١٢٥٨ مات جان دى جرامون فى مدينة طرابلس ، ودفن فى مقابر الصليبيين، داخل قلعة ريمون دى تولوز ، المشرفة على المدينة « المثلثة »

وبقيت « نور » دى جرامون ، مع أمها مريم ، فى حماية الامراء والاقيال الصليبيين ، فى ربوع الشام وجبال لبنان ، الى أن لبت الام دعاء ربها ، فى سنة ١٢٦٤ ، فى مدينة طرابلس ، فدفنت فى الضريح الذى ضم رفات زوجها من قبل

***

سنة ١٢٦٦ للميلاد

بلغت نور الربيع الخامس عشر من عمرها • واسترعى جمالها الانظار وأثار فى صدور الجنود والزعماء والاشراف شتى العواطف والرغبات

كانت أمها مريم أجمل نساء النصارى فى عهدها • ونور هى الآن بلا شك أجمل الفتيات فى حصون الصليبيين وفى قرى المسيحيين وجبالهم على الاطلاق : فهى طويلة القامة ممشوقة القوام ، ينبعث من عينيها بريق هو والسهام سواء ، فيمزق الدروع ويخترق الصدور وينفذ الى القلوب • وتسترسل على كتفيها جدائل شعر أسود ، يتماوج كصفحة البحر يعلوها الزبد لحظة ثم يختفى لكى يعود فيختفى ثانية • ويبرز من صدرها المرمرى نهدان مكعبان وجدا لاغواء النساك فى الصوامع • وتطفو على شفتيها الورديتين ابتسامة أخاذة ساحرة ، لا تفارقهما فى الصحو ولا فى الرقاد • ويشع من ذلك الوجه الفتان حسن يسلب الالباب ويضعضع الرؤوس

وصفوة القول ، كانت نور دى جرامون ، التى يسميها الافرنج « نورا دى جرامون » من اولئك النساء المتحليات بجمال لا عيب فيه ، واللواتى تقذف بهن الاقدار من وقت لآخر الى هذا العالم ، لكى يجنين بجمالهن على الرجال ، ثم يجنين به على نفوسهن

وهذا ما حدث لنور دى جرامون ، ابنة جان دى جرامون ومريم السورية

***

سنة ١٢٦٧ للميلاد •••

كانت نور تقيم فى قلعة ريمون دى تولوز فى طرابلس ، وكان الفرسان الصليبيون فى تلك السنة قد خرجوا للضرب والطعان ، ولم يبق منهم فى القلعة غير عدد صغير ، لا يتجاوز اصابع اليدين

وكان بين اولئك الباقين فى القلعة اثنان من ابناء الاشراف الفرنسيين ، احدهما يمت بالنسب الى أسرة لوسينيان الشهيرة ، والآخر من اقارب جان دى جرامون، يدعى لويس دى جرامون

وكان الاثنان من عشاق نور الفاتنة ، أخذا بجمالها ، وعلقا بها ، وقامت بينهما عداوة

شديدة بسبب تلك الفتاة التى اعرضت عن الاثنين ولم يبد منها ما يشجع احدهما على المضى فى حلمه الغرامى

واغتنم الشابان فرصة غياب الفرسان عن القلعة ، لتعقب الفتاة فى روحاتها وغدواتها ، والالحاح عليها بأن تبادلهما الحب وتهبهما جمالها

وكان لا بد من وقوع اصطدام بين العاشقين . وقد وقع ذلك الاصطدام وادى بهما الى المبارزة تحت أسوار القلعة ، فقتل لويس دى جرامون بطعنة سددها مزاحمه الى صدره

وتوالت الحوادث وتتابعت بصورة مخيفة حملت الاقيال الصليبيين الى عقد اجتماع عام للبحث عن الوسيلة المثلى لانقاذ الشبان المتحمسين من جمال نور دى جرامون

فقد خطبت الفتاة شابا من أشراف مرسيليا ، احبها وأحبته ، فهوجم الشاب ذات ليلة وهو عائد الى القلعة ، وقتل قبل ان يصل الى أبوابها ، واعترف أحد الفرسان بأنه قاتله لانه يحب الفتاة نور دى جرامون ولا يطيق صبرا على رؤيتها ملكا لغيره

وبين سنة ١٢٦٨ وسنة ١٢٨٠ ، أى فى مدة اثنتى عشرة سنة ، وقعت فى حصون الصليبيين وقلاعهم عشرون حادثة مبارزة بين الشبان من أبناء الاشراف وابناء الشعب على السواء ، بسبب نور دى جرامون ، الفتاة الساحرة ، التى سطت بجمالها على قلوب الجميع ، وجلبت لنفسها بذلك الجمال المتاعب والمخاوف والمخاطر

عقد الامراء والاقيال مجلسهم وتبادلوا الآراء فى تلك الحالة الخطيرة ، وقرروا فيما بينهم ان يرسلوا الفتاة الى الحصون النائية فى أطراف بادية الشام ووراء الاردن ، فيحول بعد المسافة بينها وبين اولئك الذين لعب جمالها برؤوسهم !

ولكن انتقال نور دى جرامون من السواحل الى المناطق الجبلية والصحراء القاحلة ، لم يمنع جمالها من البقاء على حالته من البهاء !

وما اقامت وراء الاردن سنة واحدة ، حتى سقط ثلاثة من الفرسان الشجعان قتلى فى مضمار المبارزة بسبب تلك الساحرة المشؤومة !

وبلغ خبرها مسامع الامراء والحكام المسلمين فى مدن سورية وفلسطين ، فعزموا على مهاجمة الحصون التى تلتجىء اليها نور دى جرامون لحماية جمالها من فرسان الصليبيين ، ولحماية نفسها من ذلك الجمال ، فجعلوا يبثون الارصاد فى كل مكان ، ويحملون بجموعهم ومعداتهم على كل حصن تجتاز أسواره ، فتقع حول ذلك الحصن معارك هائلة ، ويمتلىء الفضاء قعقعة وصهيلا ، وتمتزج فى البطاح المحيطة به دماء العرب بدماء الافرنج ، وتشبع الجوارح والضباع من لحوم القتلى ، وتمتلىء المغاور والاودية بالجرحى والتائهين

وفى سنة ١٢٨١ عادت نور دى جرامون ، وقد بلغت الثلاثين من عمرها الى قلعة طرابلس ، تعبة راغبة الى مضيفيها من الاقيال الصليبيين ان يمهدوا لها سبيل الرحيل عن لبنان والابحار الى فرنسا ، قائلة انها وطدت العزم على دخول الدير وارتداء ثوب الراهبات هربا من الرجال وهربا من جمالها ، وقد أصبح عبئا تنوء تحته منهوكة القوى !

فأجابها الاقيال الى رغبتها ، وفى يوم عيد الميلاد سنة ١٢٨٢ صعدت نور دى جرامون الى سفينة فرنسية ، وابحرت السفينة فى ذلك اليوم قاصدة الى بلاد الافرنج

ولكن الاقدار أبت أن تختم المأساة عند هذا الحد

ففى اليوم التالى ، هبت عاصفة هوجاء ارغمت السفينة على العودة ادراجها الى طرابلس. وعند ما اقتربت من الشاطىء ، قذفت بها الرياح فتحطمت ، وغرق فريق من ركابها وانقذ الفريق الآخر

وكانت نور دى جرامون بين من قدرت لهم النجاة ، فعادت الى قلعة ريمون دى تولوز، واعتقدت منذ ذلك الوقت ان الله عز وجل يريد لها البقاء فى الشرق ، وانه أثار تلك العاصفة لمنعها من الرحيل الى حيث تريد

فأقامت مدة من الزمن فى طرابلس ، وفى سنة ١٢٨٥ ، عند ما عاد الفرسان الى التناحر بسببها ، غادرت القلعة وجعلت تنتقل من جديد ، من حصن الى حصن ومن بلدة الى بلدة ، والمصائب تلازمها ، والموت يحل معها فى المكان الذى تحل فيه !

وانتهى بها المطاف أخيرا الى مدينة عكاء ، وكان ذلك فى سنة ١٢٨٨ .

وهناك ، ذاقت نور دى جرامون بعض الراحة مدة من الزمن، ثم هبت فجأة على معسكر الصليبيين فى تلك المدينة الحصينة عاصفة جنون غرامى كالتى اكتسحت من قبل عقول الفرسان وقلوبهم فى طرابلس وغيرها من مراكز الصليبيين

ووقعت مبارزات عديدة ، داخل اسوار عكاء وخارجها ، بسبب نور دى جرامون ، ذات الجمال الساحر الجانى !

وأوشك أمراء الافرنج فى عكاء ان يطردوا تلك الفتاة الخطرة من مدينتهم ، خوفا من فتنة عامة يسببها جمالها بين فتيانهم وجنودهم ، ولكن حادثا لم يكن فى الحسبان غير مجرى الامور واسترعى اهتمام الناس : وذلك الحادث هو قيام الملك الاشرف خليل ابن قلاوون بجيشه الى عكاء لانتزاعها من قبضة الافرنج !

كان السلطان بيبرس قد استولى على يافا وانطاكية وغيرهما من مدن الصليبيين. واستأنف السلطان قلاوون الالفى مهاجمة الافرنج بعد ذلك ، فاستولى فى سنة ١٢٨٩ على بعض

مراكزهم وانتزع منهم مدينة طرابلس . وجاء بعده الملك الاشرف خليل بن قلاوون ، يسعى لطرد البقية الباقية من الصليبيين فى تلك الديار

يقول « الحريرى » ان الملك الاشرف توجه لغزو عكاء ونازلها رابع شهر ربيع الاول بجيوش الاسلام وبأمم لا يحصى عددهم . وجدوا فى الحصار وثبت فيها الافرنج ثباتا عظيما . فجاء الملك المظفر صاحب حماه وعساكره ومعه الملك الافضل . وأصحبوا معهم من حصن الاكراد المنجنيق العظيم الملقب بالمنصورى ، حمل على مابة عجلة . وزحف الجيش الى عكاء سحر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الاول . فارتجت الارض بضرب الطبول واشتد عليها الحصار ، وحين لاحق المسلمون السور هرب الافرنج الى البحر . وارتفعت رايات الاسلام ونكست رايات الافرنج . وعمل السيف فيهم عند طلوع الشمس . وهدمت أبراج عكاء وأسوارها . وغنمت العساكر غنائم كثيرة وقتلوا الافرنج الذين مسكوهم عن آخرهم

ولم يفلت الا الذين هربوا فى المراكب . وأمر السلطان بهدم المدينة الى الارض فدكت دكا . وكان هذا الفتح فى ١٩ جمادى الآخر سنة ٦٩٠ هجرية

ويوافق هذا التاريخ الثامن والعشرين من شهر مايو سنة ١٢٩١ للميلاد

وقتل جنود الملك الاشرف جميع الرجال ، ولكنهم لم يقتلوا النساء بل ساقوهن الى قواد الجيش والى الملك الاشرف مع من وجد فى عكاء من الاطفال

***

أدركت نور دى جرامون أن عكاء ساقطة لا محالة فى قبضة المسلمين ، وانها ستساق ذليلة الى حيث يريد الغالبون

فحاولت ان تهرب الى المراكب الراسية فى البحر مع من هرب اليها ، ولكنها لم تفلح فى محاولتها ، فآثرت الموت على البقاء حية والوقوع فى الاسر

وبينما جنود الملك الاشرف يطاردون الرجال فى أزقة المدينة وداخل مكامن حصونها ، ويلتقطون النساء الهائمات على وجوههن هنا وهناك ، رأوا امرأة بارعة الجمال ، تصيح صيحة اللبؤة الجريحة ، وتقذف بنفسها الى الماء من أعلى أحد الابراج المشرفة على البحر

هكذا ماتت نور دى جرامون التى يعرفها الافرنج باسم « نورا دى جرامون » والتى جنى جمالها على عشرات الفرسان بسببها ، ثم جنى عليها فراحت ضحيته طعمة للاسماك فى بحر عكاء !

القبلة السوداء

عاد تيمورلنك الطاغية الجبار والفاتح الذى لم يقهر ، فائزاً منصوراً من غزواته الأولى ، الى مدينة سمرقند التى قرر جعلها عاصمة ملكه الواسع ، وجعل يشيد فيها المبانى الشاهقة والقصور الفاخرة ، ويغرس خلالها الحدائق الغناء وحولها الغابات الكثيفة ، ويغدق النعم والخيرات على أرباب الفنون والعلوم ، تشجيعاً لهم على العمل لجعل عاصمته أجمل العواصم المعروفة والمدن المشهورة

كان ذلك الرجل الأعرج ـ أو الذئب الأعرج كما كان يسمى نفسه ـ يجمع فى شخصه طائفة من العيوب والفضائل . فكان فى وقت واحد رقيق الشعور وقاسيه ، واسع الصدر ومتعنتاً ، يتذوق الجمال فى حدود مملكته ويهدم معالمه عند الآخرين ، يحرص على حياة رعاياه ويأمر بذبح السكان رجالا ونساء وأطفالا فى كل مدينة يقتحم أسوارها فاتحاً . ولو وقفت أمام الضريح الذى شيده لنفسه فى سمرقند ، وأمام المسجد الذى شيدته زوجته « بيبى خانم » على ربوة مشرفة على المدينة ، وأمام الآثار الاخرى الباقية من ذلك العهد البعيد ، لأخذتك الدهشة واستولت عليك الحيرة ، ولتساءلت كيف أن تيمورالأعرج ، الذى ضرب الممالك ودمر المدن وقتل بالحديد والنار مئات الآلاف من الناس ، ودفن منهم عشرات الآلاف أحياء ، قد أبقى على تلك الآثار الخالدة ؟ بل كيف أنه هو الذى أشرف على عمل أرباب الفنون والصنائع الذين خرجت تلك الآثار من بين أيديهم تنطق بروعة الجمال وتحدث الأجيال الآتية عن عظمة الأجيال الغابرة ؟

كان تيمورلنك يترك فى عاصمته جيشاً من الصناع والعمال والمهندسين والأسرى ، يعملون فى غيابه ، ويرحل على رأس جيش آخر من الأبطال الصناديد والفرسان المغاوير ، لتدويخ الممالك المجاورة وتحطيم العروش القائمة والاستيلاء على التحف والنفائس عند الشعوب الأخرى ، ثم يقفل راجعاً الى سمرقند ووراءه الملوك والأمراء والقواد والأسرى يرسفون فى القيود ، وخيوله تنوء

تحت أحمال ثقيلة من الجواهر والذهب والفضة والأوانى الثمينة ، ورائحة الدم المسفوك تتصاعد من أيدى رجاله وسيوفهم ، ومن سنابك الخيول وصدورها

خاض منذ صباه غمار المعارك ، فأخضع خصومه وحملهم على المناداة به سيداً وأميراً . ثم قاد جيوشه المظفرة الى فتح الامارات الاسيوية الوسطى ، واجتاز بها حدود خراسان وايران وروسيا والقفقاس وسيبيريا ففتحها جميعاً ، ورفع أعلامه خافقة دامية على أسوار كابول وشيراز وطهران وكربلاء وبغداد ، ورجع كعادته الى سمرقند ، يفكر فى فتح البقية الباقية من العالم المعروف فى ذلك الوقت

وكان قد بلغ الثانية والستين من العمر ، وقضى معظم تلك السنين على صهوة جواده والسيف بيده !

* * *

قالت زوجته بيبى خانم ، وقد طوقت عنق تيمور بذراعيها ، وأشارت الى المقاعد الوثيرة ، والأسرة المغطاة بالسجاجيد ، والتحف النادرة ، والسجف الزاهية ، وكل ماكان يملأ حجرتها الملكية التى هجرها الزوج وآثر عليها الحروب والميادين :

— أما آن الوقت يا تيمور ، يا سيدى المحبوب ، لكى تمنح نفسك الراحة التى أمسيت فى حاجة اليها ، وتترك لابنائك وأحفادك وأعوانك مهمة اتمام العمل العظيم الذى بدأت به ؟ ان نساءك الكثيرات ، وعلى رأسهن زوجتك هذه التى تحبها وتحبك ، ينتظرن عودتك ساهرات قلقات مضطربات ، ويرقبن كل ليلة من فوق أبراج القصر هبوب الغبار الذي تثيره جحافلك القادمة من بعيد . ولكنك لا تلبث أن تعد العدة لحرب جديدة ، فترحل عنا قبل أن نكحل العيون برؤيتك ، ونشفى الغليل بقبلة منك !

فأجاب تيمورلنك :

— إن الله يا امرأة قد خصنى بقضاء مهمة فى هذا العالم لا بد من انجازها . وقد حققت شطراً من تلك المهمة وبقى على تحقيق الشطر الآخر، ثم آخذ نصيبي من الراحة والهدوء في هذا القصر، وفى أحضانك ، وبين النساء اللاتى جمعتهن فى هذه القاعات الواسعة

— أتفكر فى فتح جديد ؟

— نعم . سأسير على رأس جيشى لفتح الهند والسند . ثم أنطلق الى الغرب لتأديب السلطان بايزيد الذى ينازعنى المجد والسؤدد . وبعد ذلك فقط أترك لابنائى قياد الملك ، وأنصرف الى اتمام الضريح الذى أشيده لنفسى فى هذه العاصمة

فقالت بيبى خانم :

— سر على بركة الرحمن يا تيمور ، وعد الينا بأسلاب جديدة وفخر جديد ، وفى انتظارك، سأنصرف من ناحيتى الى تشييد المسجد الذى سمحت لى بأن أطلق عليه اسمى ، على مقربة من الضريح الذى سيضم رفاتك بعد عمر طويل !

***

زحفت جحافل تيمورلنك الى الهند فى سنة ٨٠١ هجرية ، الموافقة لسنة ١٣٩٨ للميلاد ، وفى سنة واحدة أخضعت لسلطانها الامارات والممالك والمدن

قاومت مدينة دهلى مقاومة عنيفة فأمر تيمور بعد أخذها بذبح الأسرى فقطع جنوده أعناق مائة الف من أولئك المساكين . وقاومت مدن أخرى فأمر تيمور بتدميرها وإحراقها فمات تحت الأنقاض وبين النيران عشرات الآلاف من السكان ، وحمل الجنود الفاتحون جميع ما تيسر حمله وقفلوا راجعين مع قائدهم وملكهم الى العاصمة سمرقند

وكان ذلك فى سنة ٨٠٢ للهجرة الموافقة لسنة ١٣٩٩ للميلاد

ووجد تيمور المسجد مشيداً ، والضريح على وشك الانتهاء

***

أما الضريح فقد أشرف على بنائه المهندس الفارسى عبد الله الاصفهانى ، وحفر اسمه على أحد جدرانه باذن من تيمورلنك ، وأقام فوقه قبة زرقاء جاءت آية من آيات الابداع ، وجعل غطاء القبر قطعة واحدة من حجر اليشم ، ولكن تيمورلنك أمر أبناءه وأخصاءه بأن لا يدفنوا جثمانه فى تلك الحفرة المغطاة بذلك الحجر الثمين ، بل فى مكان آخر مجهول ، فى ركن من أركان الضريح ، وبأن يضعوا فى الحفرة بعض الحلى والجواهر ، حتى اذا ما سطا اللصوص على القبر فى مستقبل الأيام ، بقى الجثمان فى مأمن من الانتهاك

وأما المسجد فله قصة من نوع آخر !

فالرجل الذى أشرف على بنائه لم يترك اسمه محفوراً على جدار ، بل ان الملك والملكة كانا يجهلان ذلك الاسم لأن الرجل أبى أن يبوح به

فقد وصل ذلك الغريب الى سمرقند فى غياب تيمورلنك فى الهند ، وكانت الملكة بيبى خانم قد أعلنت عن رغبتها فى تشييد مسجد يحمل اسمها ، وحاجتها الى مهندس بارع تعهد اليه فى القيام بهذا العمل العظيم

وتقدم الرجل بتصميم نال إعجاب الملكة . فوجد الغريب حظوة لديها ، وتم الاتفاق بينها وبينه على أن يبدأ فى بناء المسجد حالا ، ويطلب الأجر الذى يريده

وكانت دهشة الملكة عظيمة عند ما أجابها الرجل :

— ان الأجر الوحيد الذى أرضى به أيتها الملكة المحبوبة التقية ، هو أن تسمحى لى بأن أطبع على خدك الايمن قبلة واحدة ! . .

ولكن الملكة أفاقت من دهشتها عند ما أخبرها الرجل انه رأى حلماً ، وانه يرغب فى تحقيق ذلك الحلم بأن يقوم بعمله مقابل تلك القبلة التى يطلبها ، لأنه غنى وليس فى حاجة الى مال

ورضيت الملكة بيبي خانم بأن تدفع للرجل الاجر الذى فرضه عليها

ووضعت تحت تصرفه الصناع والعمال ، وراح الرجل يبذل وقته وراحته وفنه ، فشيد على تلك الربوة العالية مسجداً أفرغت فيه جميع آيات الجمال والروعة والجلال !

وجاء وقت تصفية الحساب فطبع الغريب على خد الملكة الايمن قبلة حارة ، وأقسمت الملكة فيما بعد انها شعرت ، عند ما اقتربت شفتا الرجل من خدها ، أن جمرة من نار تمزقه وتخترقه

وتركت القبلة على خد الملكة لطخة سوداء !

حاولت أن تمسحها فغسلت وجهها بالماء ، ولجأت الى العطور والمساحيق ، واستعانت بالأطباء والأولياء ، ولم تترك وسيلة الا توسلت بها لنزع تلك اللطخة السوداء عن خدها . ولكن اللطخة ظلت مطبوعة فى مكانها ، وقد اتخذت شكل شفتين مضمومتين !

وعند ما عاد تيمورلنك الى سمرقند وقف مبهوتاً معجباً أمام « مسجد بيبي خانم » الذى شيده لرجل الغريب .

ولكنه دهش لرؤية اللطخة السوداء على خد زوجته المختارة المحبوبة

قصت عليه القصة كما حدثت ، وألقت بنفسها على قدميه طالبة المغفرة قائلة انه كان يجب عليها أن ترفض الثمن الذى فرضه الرجل للقيام بعمله . ولكن تيمورلنك هدأ روعها وطيب خاطرها .

ثم طلب أن يؤتى اليه بالغريب المجهول ليهنئه ويشكره

فبحثوا عنه ولكنهم لم يجدوه

حينذاك فكر تيمورلنك طويلا ، ثم قال :

— للاحلام أحياناً تأثير عظيم فى حياة الناس . لقد قال ذلك الرجل كما فهمت ، انه حلم حلماً دعاه الى طلب الأجر الذى فرضه على الملكة . لقد حلمت أنا الآخر حلماً فى الهند : وهو ان ملاكا نزل من السماء لتشييد مسجد عظيم فى سمرقند . فلا بد أن يكون ذلك الرجل الغريب هو الملاك الذى رأيته فى المنام ، والذى هبط من السماء لتحقيق ذلك الحلم !

فتقدم من الملك ولى من أولياء الله كان مشهوراً بالورع والتقوى ، وقال :

— أيسمح لى مولاى أن أقص ما رأيت الليلة البارحة ؟

قال تيمورلنك :

ـــ تكلم يا ملا حسن

فقال ملا حسن :

ـــ رأيت أمس، وأنا أصلى الى الله بأن يحفظ مولاى ويرفع شأن ملكه ، نوراً باهراً ينبعث من أعلى المئذنة الكبرى ، فى جامع بيبي خانم . ثم أخذت عيناى طيفاً يشبه الرجل الغريب الذى شيد المسجد . ورأيت الطيف يبسط جناحين ناصعى البياض كالثلج يغطي الجبال الشاهقة ، ويرتفع الى السماء محاطاً بهالة من نور !

وساد السكوت والسكون

وقام تيمورلنك الى زوجته ، ووضع على خدها الايسر قبلة لم تحرقها ولم تمزق بشرتها، وقال:

ـــ ذلك هو الملاك الذى رأيته فى الهند . لقد تحقق حلم الغريب ، وتحقق حلم تيمور !

***

وظلت اللطخة السوداء مطبوعة على خد الملكة ، ملازمة لها حتى الموت . ويؤكد الذين يقصون هذه القصة فى سمرقند ان جثة بيبي خانم قد بليت فى مقرها الاخير ، ولكن رأسها لم يتطرق اليه العفن ولم يبل بعد ، لأن القبلة السوداء التى طبعها الملاك السماوى على خدها الأيمن قد حفظت الرأس من عاديات الزمن

أما مسجد بيبي خانم، فانه لا يزال قائماً فى سمرقند ، وكثيراً ما يطوف اسم تيمورلنك وزوجته على الشفاه عند ما يتصاعد صوت المؤذن داعياً الى الصلاة والفلاح ، من أعلى المئذنة الكبرى ، التى تناطح السحاب على الربوة المرتفعة ، وتشرف على عاصمة تيمور الأعرج !

الرسالتان

ولد تيمور لنك ــ أو الذئب الأغبر ــ فى سنة ١٣٣٦ فى « قيش » أو المدينة الخضراء ، على مقربة من سمرقند التى جعلها فيما بعد عاصمة لملكه ، وكان أبوه سيد قبيلة البارولا التركية وحاكم ولاية قيش . لكن تيمور فقد أباه وهو فى ميعة الصبا ، وجرده خصوم أسرته من أمواله وأملاكه ، فنشأ الأمير الشاب وفى قلبه الحقد والغيظ والرغبة فى الثأر والانتقام . وقد قال لزوجته فى اليوم الذى عقد له عليها : « لقد حرمت من كل شىء فى هذا العالم لكننى سأكتسب كل شىء بحد السيف وأبسط سلطتى على العالم بأسره . »

وساعد الحظ تيمور الأعرج ، فحقق تلك الأمنية ، وامتدت سلطته الى بعيد ، فملك شطراً من العالم الذى أراد اجتياحه واستعباده

وفى سنة ٨٠٣ هجرية الموافقة لسنة ١٤٠٠ للميلاد ، كان تيمور لنك قد وصل الى تخوم الممالك الشامية ، وأعد العدة لغزوها ، لكى يخلو له الجو ، فيجعل الشام قاعدة لأعماله ، ويوجه قواه لمقاتلة سلطان الاتراك من ناحية وسلطان مصر من ناحية أخرى

وكان الجالس فى ذلك الوقت على سدة الملك الناصر فرج زين الدين ، الملقب بأبى السعادات ، خليف السلطان الظاهر برقوق وثانى ملوك الشراكسة فى الديار المصرية

* * *

فى السنة السابقة ، كان الملك الناصر أبو السعادات قد خرج من مصر بجيش قوى وقاتل أمراء الشام فى فلسطين وتغلب عليهم وضرب أعناق بعضهم وشرد أهلهم وأنصارهم ، فرحل عن أرض الشام مع من رحل منهم رجل يدعى أحمد بن عمر الظاهرى ، من أنصار أحمد بن يلبغا عدو الملك الناصر فرج زين الدين ، فالتجأ الى معسكر تيمور لنك ، وجعل يوغر صدر الفاتح التارى على سلطان مصر ويصف له الكنوز المخبأة فى أرض النيل ، والقصور القائمة على ضفتيه ، والغيد

الحسان اللواتى تعج بهن تلك القصور ، واللواتى هن جديرات بقائد المغول وسيد العالم تيمور ابن العذراء !

وأوفد الفاتح التتارى الى الملك الناصر أبى السعادات رسولا يحمل الكتاب الآتى ، الذى وضع نصه احمد بن عمر الظاهرى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . القوة لله قل اللهم فاطر السموات والارض ، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . اعلموا اننا جنود خلقنا الله من سخطه ، وسلطنا على من حل عليه غضبه . لا نرق لشاك ولا نرحم عبرة باك . وقد نزع الله الرحمة من قلوبنا ، فالويل كل الويل لمن لم يكن من حزبنا . قد خربنا البلاد ويتمنا الاولاد ، وأظهرنا فيها الفساد . فخيولنا سوابق ، ورماحنا خوارق ، وسهامنا موارق ، وسيوفنا صواعق ، ولتوثنا سواحق ، وعددنا كالرمال ، وقلوبنا كالجبال ، ومن رام سلمنا سلم ، ومن نال حربنا ندم . فملكنا لا يرام ، وجارنا لا يضام . فان قبلتم شروطنا كان لكم ما لنا ، وعليكم ما علينا ، وإن أبيتم ، وفى بغيكم تماديتم ، فلا تلوموا إلا أنفسكم . فالحصون بين أيدينا لا تمنع ، والعساكر لا ترد ولا تنفع ، ودعاكم علينا لا يستجاب ولا يسمع ، لأنكم أكلتم الحرام ، وارتكبتم الآثام ، وضيعتم الجمع ، وغرقتم فى بحر الطمع . وسلكتم فى طريق البغى والعدوان . فابشروا بالذل والهوان . فاليوم تجزون عذاب الهون ، لأنكم بغير الحق فى الارض تستكبرون ، ودائماً كنتم تفسقون . وقد ثبت عندكم اننا كفرة ، كما ثبت عندنا أنكم فجرة . وقد سلطنا عليكم الله بيده أمور مقدرة ، وأحكام مدبرة . فعزيزكم لدينا ذليل ، وكثيركم عندنا قليل . فاننا ملوك الارض شرقا وغربا ، ونأخذون كل سفينة غصباً ، وقد أوضحنا لكم طريق الصواب ، فأسرعوا الينا برد الجواب . من قبل أن ينكشف الغطا ، ويقع الضرب والسطا ، وتوقد الحرب نارها ، وترمى عليكم شرارها ، ولا تبقى لكم بقية ، وينادى عليكم منادى الفناء هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً . وقد أنصفناكم إذ راسلناكم ، ونثرنا لكم جواهر هذا الكلام والسلام »

* * *

حمل الرسول كتاب تيمور لنك الى الملك الناصر وجد فى السير والمسير الى مصر . لكن أحمد بن عمر الظاهرى كان قد سبقه فى الطريق ، وحرض عليه الامراء والاقيال ، فقتلوه واطلعوا على مضمون الكتاب ، ثم عهدوا به الى رسول آخر حمله الى أبى السعادات فى مصر

وكان أحمد بن عمر الظاهرى قد وصل الى وادى النيل قبل الرسول . وذهب الى الملك الناصر فرج زين الدين ، وألقى بنفسه على قدميه ، وطلب منه العفو والأمان ، وقال له ان الطاغية التتارى يضمر له الشر والعدوان ، ولكنه أضعف من أن يستطيع النيل منه ، لأن جيشه

قليل العدد ، وفرسانه متمردون عليه ، وأسلحته مفلولة لا تخيف الابطال فى الميادين

ولم يكن الظاهرى يقصد من ذلك كله غير حمل الملك الناصر على قبول الحرب وخوض غمارها ، لأنه كان يعلم حق العلم أن جيش أبى السعادات لن يستطيع الوقوف أمام تيار التتار الجارف ، وجموعهم المتدفقة

عجز الرجل عن الانتقام لنفسه والثأر لأهله وأسياده من أبى السعادات ، فعمد الى الدس والوقيعة ، وسعى الى التشفى من ذلك السبيل ، فجعل يوغر صدر تيمورلنك على فرج ، وصدر فرج على تيمورلنك

وبينما الملك الناصر يستعد لمواجهة الخطر الداهم ، اذا بالرسول يفد عليه حاملا كتاب الذئب الاغبر ، بما فيه من تهديد ووعيد . فجمع حوله أقطاب مملكته . وأطلعهم على مضمون الكتاب . ثم طلب من أحمد بن عمر الظاهرى أن يفضى اليهم بحقيقة الحال ، وبما يعلم من أمر التتار وقائدهم . فانطلق الظاهرى فى كذبه ، وعرف كيف يثير فى صدور القوم مراجل الغضب على أولئك الغزاة الفاتحين ، الذين اجتاحوا ممالك المسلمين فى الشرق ، وتركوها وراءهم خراباً يباباً

وأرسل الملك الناصر فرج زين الدين الى تيمور الاعرج الرد الآتى على كتابه ، وهو الرد الذى وضع أحمد بن عمر الظاهرى صيغته ، كما وضع من قبل صيغة الكتاب الذى حرض تيمورلنك على ارساله الى الملك الناصر :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، انك على كل شىء قدير . ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً . وصل الكتاب المخبر عن الحضرة الايخانية ، والشدة العظيمة القانية ، تقولون انكم خلقتم من سخطه ، ومسلطون على من حل عليهم غضبه ، ولا ترقون لشاك ، ولا ترحمون عبرة باك ، وقد نزع الله الرحمة من قلوبكم ، فذلك من أكبر عيوبكم . وهذه من صفات الشياطين ، لا من صفات السلاطين . وكفى بهذه الشهادة عليكم واعظاً ، وبما وصفتم به أنفسكم ناهياً وآمراً . قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ففي كل كتاب لعنتم ، وبكل قبيح وصفتم ، وعلى لسان كل رسول ذكرتم ، وعندنا خبركم من حين خلقتم ، وزعمتم انكم كفرة ، لعنة الله على الكافرين . من تمسك بالأصول فلا يبالى بالفروع . فنحن المؤمنون حقا ، والقائلون صدقا ، فلا يداخلنا عيب ، ولا يصدنا ريب ، القرآن علينا نزل ، وهو رحيم بنا لم يزل . وتحققنا تنزيله ، وعلمنا تأويله . انما النار لكم خلقت ، ولجلودكم أضرمت ، وفى الجحيم لكم سعرت ، اذا السماء انفطرت . ومن أعجب العجب تهديد الرتوت بالتوت ، والسباع بالضباع ، والكماة بالكراع . فنحن خيولنا رقية ،

وسيوفنا يمانية، ورماحنا خطية، وسهامنا خليجية، ولتوتنا مصرية، وأكتافنا شديدة المضارب، ووصفها فى المشارق والمغارب. فلابد ما نأتيكم بخيـل جياد، وسيوف حداد، ورماح مداد، وأبطال شداد. فاذا هجموا على البحر مزقوا أمواجه، أو على البر الاقفر خرقوا فجاجه، قوام بالليل هيام بالنهار، لا تهولهم السباسب ولا بعد الديار. نشأوا على الحروب والقراع، وألفوا الفروسية من عهد الرضاع. فليس بيننا وبينكم سوى نظرة العين، وزعقة غراب البين. فان قتلنا كم فنعم البضاعة، وان قتلتمونا فبيننا وبين الجنة ساعة. ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون. وأما قولكم ان قلوبكم كالجبال، وعددكم كالرمال، فالجزار لا يبالى بكثرة الغنم، وان كثيراً من الحطب يكفيه قليل من الضرم. وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله، والله مع الصابرين، الفارين من الرزايا لا من المنايا، فنحن المنية عندنا غاية الامنية. ان عشنا سعداء، وان متنا شهداء. ألا ان حزب الله هم الغالبون. أبعد أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين تريدون منا الطاعة، ليست لكم ولا طاعة. وطلبتم أن يأتيكم أمرنا قبل أن ينكشف الغطاء، ويقع الضرب والسطا. هذا كلام فى نظمه تركيك، وفى سلكه تفكيك. لو كشف الغطا، لبان الصدق من الخطا، بعد تبيان، والكفر بعد ايمان. أم اتخذتم إلهاً ثانياً. لقد جئتم شيئاً إداً، تكاد السموات يتفطرن منه، وتنشق الارض وتخر الجبال هداً. قل لكاتبكم الذى وصف رسالته، ورصف مقالته، وصل كتابه فكان كصرير الباب. أو كطنين الذباب. سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً. والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه والسلام »

* * *

ودارت رحى القتال بين الفريقين فى الأقطار الشامية، وانطلق التتار يذبحون ويدمرون ويخربون ويسلبون ويسبون، وأحرقوا حلب ودمشق وغيرهما من المدن، ولكن العناية الالهية أدركت الديار قبل أن يعم فيها الخراب والدمار، فاشتبك تيمورلنك فى حرب جديدة مع السلطان بايزيد، وتحول عن مصر الى الاناضول، حيث نازل الاتراك وسحق جيوشهم سحقاً فى واقعة أنقرة الدموية. فى سنة ٨٠٥ هجرية الموافقة لسنة ١٤٠٢ للميلاد

أما احمد بن عمر الظاهرى، فقد عاد الى جيش تيمور، وشاءت الأقدار أن يسقط قتيلا فى مناوشة بين التتار وجنود الملك الناصر فى نفس المكان الذى وقع فيه سيده احمد بن يلبغا أسيراً، قبل ذلك بسنتين . .

صلاة الظهر

بدأ المسيحيون يصلون صلاة الظهر من سنة ١٤٥٦ ، ولا يزالون محافظين على هذه العادة . فلماذا ؟

— ما اسمك ؟

— أوسكار

— وهذه الفتاة ؟

— هى خطيبتى . واسمها ماتيلدا

— وما ذا تريدان ؟

— الانضمام الى جيشك المحارب وأخذ نصيبنا من القتال ، فاما أن نثأر لذوى قرابتنا من قاتليهم ، وإما أن نموت فى سبيل الانتقام

— وهذه الفتاة . . . أترغب فى الانضمام الى الجيش ؟

— نعم

دهش جان هونياد القائد المجرى الباسل المحنك لما طلبه منه ذلك الشاب الغريب ، ولكنه نادى أحد أعوانه وقال له مشيراً الى الشاب والفتاة :

— اذهب معهما الى مخازن الاسلحة ، وليأخذا منها ما هما فى حاجة اليه ، وألحقهما بفرقتك ، وأرجو منك أن توافينى بأخبارهما من وقت الى آخر

فشكر أوسكار وماتيلدا القائد الكبير على تحقيق أمنيتهما ، وذهبا مسرعين وراء الضابط

* * *

كانت ماتيلدا تعيش مع أبيها وإخوتها الثلاثة فى قرية نائية بجبال البلقان ، وكان أوسكار ـ وهو ابن جار لها ـ يتردد على منزلها ، فأحبها وأحبته ، وتعاهد الاثنان على الزواج . ولم يمانع الأب والاخوة الثلاثة فى ذلك ، فأعلنت خطبة الشاب والفتاة وجعلا يتقابلان ويتبادلان الاحاديث الغرامية ، ويعللان النفس بألذ الاحلام لمستقبلهما القريب

كان ذلك فى أوائل سنة ١٤٥٦ للميلاد ، وكانت جيوش الاتراك قد استولت على القسطنطينية بقيادة السلطان محمد الفاتح ، وتحولت بعد ذلك النصر العظيم الى الديار الاوربية ، وتدفقت على السهول والمدن وهدفها الاوحد هو مدينة بلغراد الحصينة الرابضة على ضفاف النهر ، المنيعة الاسوار ، القائمة هناك كالسد المنيع فى طريق الغزاة الفاتحين

وكان النصر فى بادىء الامر حليف السلطان وجيشه ، فاقتحم المعاقل ودك الحصون وقوض الامارات . كان التدمير والتخريب نصيب القرية الصغيرة التى تعيش فيها ماتيلدا مع أهلها وخطيبها ، فقد اجتاحها الجيش الفاتح فى طريقه وحاول أهلها أن يمنعوا الجنود من المرور فكان نصيبهم القتل والاسر . . . وعند ما جلا الاتراك عن القرية وجدت ماتيلدا نفسها وحيدة مع خطيبها بين الانقاض والاطلال . وقد مات أبوها واخوتها الثلاثة وأهل أوسكار جميعاً فى أثناء المعركة

بكى الشاب وبكت الفتاة . ولكنهما تجلدا ، ثم ذهبا الى كنيسة القرية وقد تهدم سقفها وركعا متعانقين ، ورفعا أكف الضراعة الى الله طالبين الانتقام لذوى قرابتهما ، مقسمين أنهما لن يعقدا زواجهما الا بعد أن يتم لهما الاخذ بالثأر من الاعداء

وكانت أوربا فى ذلك الوقت ترتعد فرقاً وقد انتشرت فيها أخبار الانتصارات الهائلة التى أحرزها السلطان محمد الثانى وجيشه المخيف ، فرفع البابا كاليست الثالث صوته داعياً الملوك والامراء الى القتال ، محرضاً إياهم على صد تيار الاتراك الجارف عن المجر وحدود الممتلكات البابوية

وكان ذلك الحبر الجليل فى الثمانين من عمره ، ولكنه كان يجمع بين حكمة الشيوخ ونشاط الفتيان ، وما وصل رسله الى عواصم الممالك والامارات المسيحية فى الغرب حتى هرع المتطوعون من كل فج وصوب ملبين نداءه ، مسرعين الى بلغراد الحصن الحصين وملتقى الأمراء والزعماء ومقر القائد الأعلى لذلك الجيش اللجب ، جان هونياد المجرى

وكان الشاب أوسكار والفتاة ماتيلدا بين الذين لبوا نداءين : نداء البابا كاليست الثالث الى الجهاد ، ونداء الدم المطلول الذى يطالب الثأر والانتقام

* * *

وصل الاتراك الى بلغراد ، وأمر السلطان محمد الثانى بحصارها من جميع الجهات . وكان

هونياد قد أعد عدته للدفاع وحسب حسابا للطوارىء ، فجمع فى المدينة من الرجال والاسلحة والذخائر والزاد والمؤن ما يكفى سنوات ، واتخذ الحيطة اللازمة لايفاد الرسل الى حلفائه وأنصاره بطريقة تضمن إفلاتهم من أيدى المحاصرين وذهابهم ورجوعهم بأمن الى حيث شاء ومتى شاء

وكان الجيشان يشتبكان كل يوم فى مناوشات منفردة منفصلة ، وما مرت على الحصار أسابيع معدودة حتى أدرك هونياد أن الشاب أوسكار والفتاة ماتيلدا بطلان من أبطال الحروب ، وأسدان من أسود المعارك ، وان شجاعتهما لا تقل عن شجاعة الصناديد من رجاله الأشداء الذين رافقوه فى حروبه منذ أن خاض غمار القتال الى أن تكلل رأسه بالشيب

فدعاهما اليه ذات يوم ، وهنأهما على ما قاما به من أعمال مجيدة ، وختم كلامه قائلا :

ـــ اننى فى حاجة الى خمسة من الجنود الأمناء أريد أن أبعث بهم رسلا الى البابا فى مهمة دقيقة خطيرة . فهل ترغبان فى السير مع ثلاثة من رجالى المخلصين ؟

فكان الجواب كلمة واحدة نطق بها الاثنان معا

ـــ نعم !

ـــ بارك الله فيكما ! . .

وفى اليوم التالى خرج خمسة من الجنود لم يعلم أحد بأمرهم غير هونياد القائد العام . ولم يفطن الذين رأوهم يجتازون الأزقة أن أحدهم فتاة فى ثياب رجل . . .

***

ووصل الرسل الخمسة الى مقر الحبر المسيحى دون أن يحدث لهم فى الطريق حادث ، وأبلغوه رسالة القائد العام ، وأخذوا منه الرد عليها ، ونزلوا فى ضيافته تلك الليلة ، واستعدوا للعودة فى صباح اليوم التالى من حيث أتوا

وفى دجنة الليل بدت ظاهرة غريبة ألقت الرعب فى النفوس وطارت لها القلوب هلعا

فقد بهر أعين الناس أجمعين فى تلك الليلة نجم هائل الحجم ملأ الفضاء ضياء وامتد منه ذيل طويل ملتهب كأن نيراناً متأججة قد اندلعت ألسنتها فيه فامتدت الى الفضاء تبحث عن نجوم تلتهمها ، وتهدد الارض بالخراب والدمار . . .

أوجس الاتراك خيفة من ذلك النجم المذنب ، وأوجس الجيش المدافع عن بلغراد منه خيفة أيضا ، وارتعدت فرائص البابا وحاشيته ، وبات الناس ينتظرون الساعة التى تصبح فيها الارض كتلة من نار . وعقد البابا مجلساً من الكرادلة ، وقرر المجتمعون أن يدعوا المسيحيين فى جميع الأنحاء الى رفع صلواتهم الى الله لكى يدفع عن العالم شر الكارثة الداهمة ، وطلبوا من رؤساء الدين فى مناطق نفوذهم أن يقيموا « صلاة التبشير » ظهراً ، وأوفدوا الرسل الى الاقطار المجاورة

حاملين هذا القرار باسم البابا ومجلسه . ودعا كاليست الثالث رسل هونياد الخمسة وخاطبهم قائلا :

ـــ انكم عائدون الى بلغراد ، فأسرعوا بالرحيل اليها الساعة ، وبلغوا هونياد وأركان حربه وأعوانه وأنصاره أننا قررنا إقامة « صلاة الظهر » فى كل يوم لكى ينقذنا الله من هذا النجم المذنب ومن أمثاله فى مستقبل الايام

* * *

وحمل الرسل الخمسة رغبة البابا الى القائد العام للجيش فى بلغراد ، وكان غيرهم قد حملها الى جهات أخرى ، فجعل المسيحيون يقرعون أجراس الكنائس فى منتصف النهار ، ويقيمون الصلاة متضرعين الى الله أن ينقذهم من النجوم المذنبة

وكان الاتراك من ناحيتهم قد توقفوا عن القتال ، وأقاموا فى المعسكر حلقات الذكر ، وأحاطوا بالأئمة والعلماء وجعلوا يصلون ويتلون الآيات الألهية دفعاً للخطر الذى كان يهددهم كما يهدد أعداءهم فى آن واحد

ولكن النجم لم تطل إقامته ، فقد انصرف مع ذيله المنير من الفضاء بعد أن ظل يلتهب مدة من الزمن دون أن يلحق أذى بأحد من الناس ! . وبعد أن زال الخطر عاد الجيشان الى الحرب !

وتوالت المعارك . وأخيراً تمكن هونياد من جمع جموعه والخروج على رأسها فى هجوم عام فوجىء به السلطان محمد الثانى مفاجأة ، فاضطر الى التقهقر ورفع الحصار عن المدينة . فتعقبه هونياد برجاله ، وأنزل به خسائر فادحة ، فأصدر السلطان أمره الى فلول جيشه بالتقهقر السريع ، وهرع الرسل الى البابا كاليست الثالث والملوك المجاورين يحملون اليهم خبرين : خبر انهزام الاتراك وعودتهم الى بلادهم خاسرين ، وخبر سقوط هونياد جريحاً فى الميدان وموته متأثراً بجراحه

وكان ذلك البطل فى الثامنة والستين من عمره

وعند ما بلغ السلطان محمد الثانى خبر موت خصمه العنيد ، وقف فى وسط المجلس ووقف قواده وأعوانه حواليه . فاذا به يقول :

ـــ وددت لو قدر لى أن أموت كما مات هذا البطل العظيم !

* * *

وبعد أن عادت الطمأنينة الى نفوس السكان وأيقنوا أن الاتراك تحولوا الى جهات أخرى ، أسرع أوسكار وخطيبته ماتيلدا الى الكاهن خادم الرعية فى بلغراد ، وطلبا اليه أن يعقد لهما ويبارك زواجهما . فأجابهما الكاهن الى رغبتهما ، وعقد زواج الحبيبين فى الكنيسة الواقعة على مقربة من باب المدينة الذى دخلوا منه عند ما لجأوا اليها . وكان ذلك فى منتصف النهار ، فقرعت الاجراس « صلاة الظهر » بينما كان الكاهن يرفع يده ليبارك الزوجين



فائِزَة

كان العالم المؤرخ التركى المشهور نور الدين بك مصطفى رحمه الله يحتفظ فى مكتبته القيمة بالقاهرة بطائفة من الوثائق والمذكرات الخاصة بالحروب والوقائع التى كان الشرق ميدانا لها ، والتى خاضت الجيوش العثمانية غمارها فى عهد السلاطين . وكانت تلك الأوراق تضم فى طياتها تفاصيل حوادث لم يذكرها التاريخ ولم تدوّن فى كتب

وكنت ممن يعطف عليهم ذلك العالم الراحل الكريم ، فما وجدت يوما باب مكتبته مقفلا فى وجهى، وما طلبت منه يوما اطلاعى على ملف من تلك الملفات التاريخية الثمينة الا أجابنى الى طلبى مرتاحاً مسروراً

قابلته ذات يوم فى طريق الجيزة ، وكنت أروح وأجيء فى الرصيف فبادرنى قائلا :

ـــ لا أظنك إلا باحثاً عن موضوع تعالجه فى سلسلة مباحثك في زوايا التاريخ . أليس كذلك ؟

ـــ أي والله يا أستاذى الجليل !

ـــ تعال إذن . فعندي ما يشفى غليلك ويوفر عليك مؤونة البحث

فجلست بجانبه ، فى سيارته ، وعدنا مسرعين الى المكتبة ، بل الى الينبوع الذى لا ينضب

ولم أبحث طويلا بين الأوراق المتراكمة المتراصة . بل ان نور الدين بك رحمة الله عليه ، تناول من بينها ملفاً صغيراً ووضعه أمامي قائلا :

ـــ انى أريد ترجمة هذه المذكرات القصيرة الى اللغة العربية . وهى كما ترى مدوّنة بالتركية. فهل لك أن تأخذ القلم والورق ، وتكتب ما أمليه عليك ، وهو ترجمة حرفية لما تراه مكتوبا فى هذه الورقة

ـــ سمعاً وطاعة !

وأملى علىّ المرحوم نور الدين بك مصطفى ما يلى ، أنشره الآن بالحرف الواحد بلا زيادة ولا نقصان :

***

دوّن هذه المذكرات الضابط العثمانى محمد أغا الهرسكى نسبة الى بلاد الهرسك التى ولد فيها

وقد تتبع حياة بطلة الحوادث التى يقصها فى هذه المذكرات خطوة خطوة ، الى أن سقطت صريعة برصاص العدو فى ساحة الشرف

كانت « فائزة » فى الرابعة والعشرين من عمرها عند ما عرفتها . ولم تكن جميلة ولكنها كانت خفيفة الروح ، حنطية اللون ، سوداء العينين . أما شجاعتها فانها كانت تفوق شجاعة الرجال الذين حاربت معهم جنباً الى جنب فى ميادين القتال

قامت الثورة فى صربيا سنة ١٨٧٦ ووقعت الحرب بينها وبين الدولة العلية ، وكان نصيبى الالتحاق بجيش عثمان باشا الغازى ، الذى زحف على حدود صربيا وطحن الجيوش الصربية طحناً واستولى عنوة على حصون زايتشار

وهناك رأيت فائزة للمرة الاولى

فقد أتت الى معسكر الجيش وطلبت مقابلة القائد العام فاستقبلها عثمان باشا وكنت أنا فى ذلك الوقت بين رجال حرسه الخاص

وقصت عليه قصتها . فقالت ان أباها وأخاها قتلا فى المعارك الاخيرة ، وان الصربيين مثلوا بجثة أبيها أشنع تمثيل ، وانها أصبحت وحيدة فى هذا العالم ، ولا أمل لها فى الحياة ، وهى تطلب الانضمام الى الجنود المحاربين لكى تثأر لأبيها وأخيها بيدها

وحاول عثمان باشا الغازى أن يحملها على العدول عن عزمها فلم يفلح . ورأى نفسه مضطراً أمام إلحاحها الى إجابتها لرغبتها بالرغم من أنه يخشى غضب السلطان الذى كان يحرم على النساء الانضواء تحت ألوية الجيوش المحاربة

دخلت إذن فائزة فى سلك الجندية كجندى بسيط . وارتدت ثوبها العسكرى ، وكان كثيرون من رفاقها يجهلون فى بادىء الأمر انها امرأة

وعهد الىّ عثمان باشا الغازى بأن أسهر عليها وأكون لها عوناً فى ساعة الشدة

ولم يحدث قط أن سمح أحد الجنود لنفسه بأن يعتدى عليها أو حاول التحكك بها

***

بدأت الحرب بين تركيا وصربيا فى عهد السلطان عبد العزيز . وظلت قائمة بعد أن ارتقى العرش السلطان الشاب عبد الحميد الثانى

ثم تعقدت الامور بين الدولة العلية وروسيا ، ونزلت الجيوش الروسية الى الميدان ، واتخذت الحرب صورة أخرى . فعبأ الباب العالى جيوش الدولة جميعها ، وبدأت المعارك الدموية بين الروس والعثمانيين

وبقينا مدة سنتين كاملتين نحارب كل يوم ، بل كل ساعة ، واعتقدنا فى وقت من الاوقات أن حياتنا كلها ستنقضى فى وسط الميادين !

* * *

فى صيف سنة ١٨٧٧ كنت فى مدينة « بلفنا » ببلغاريا . وكان عثمان باشا الغازى قد حصن المدينة وربض فيها بجيشه ينتظر قدوم الجيش الروسى المهاجم . ووقعت حول المدينة أفظع معارك عرفتها تلك الحرب الطاحنة ، بل أفظع معارك عرفها تاريخ الدولة العثمانية الحديث

ففى أقل من خمسة أشهر ، قام الروس بثلاث من الهجمات على حصون المدينة وخطوط الجيش العثمانى . لكنهم عادوا عنها خاسرين . وفقد العدو فى تلك الاشهر الخمسة أكثر من أربعين ألفاً من الجنود سقطوا فى السهول والهضاب المحيطة بالمدينة

وكانت رائحة الجثث تتصاعد فى الفضاء وتسمم الهواء الذى نستنشقه

* * *

كانت فائزة لا تزال باقية فى الجيش ، تحارب مثلنا ، وتشترك فى الهجوم والدفاع ، وتغضب اذا وقعت معركة لا تشترك فيها

قلت لها يوما :

ـــ أراك تبحثين عن الموت وتسعين اليه ! ان الجندى يجب عليه أن يحيط نفسه بالحذر وأن يقضى على عدوه دون أن يمكن العدو منه

فأجابتنى قائلة :

ـــ كلا . لن أموت بالسرعة التى تظنها ، اننى أشعر بذلك وأعلم أننى لن أسقط فى الميدان قبل أن يتم لى الانتقام الى النهاية وقبل أن أثأر لأخى وأبى من قاتليهما

* * *

فى شهر نوفمبر ١٨٧٧ عدل الروس عن مهاجمة المدينة بعد أن فشلوا فى الاستيلاء عليها عنوة ، وقرروا إقامة الحصار عليها من جميع الجهات

وهذا ما فعلوه ، وهذا ما جعل مركزنا حرجاً

وبعد مرور أسابيع ، قرر عثمان باشا الغازى أن يحاول الجيش العثمانى المحاصر فى المدينة الخروج منها واختراق صفوف الروس المحاصرين والسير الى مدينة « صوفيا »

ووضعت الخطط لتنفيذ هذا القرار . ولكنها كانت محفوفة بالمخاطر

حاولنا مراراً أن نخرج من المدينة ، ولكن الحصار كان محكماً ، والجيش الروسى كان يقظا ، فكنا فى كل مرة نعود على أعقابنا الى داخل المدينة ، كما كان الجيش الروسى يعود على أعقابه الى خارجها كلما حاول مهاجمتها

ومر شهر كامل وكل مساعينا للخروج تذهب أدراج الرياح . وأصبحت الحالة لا تطاق

عهد إلىَّ مرة بالخروج من المدينة فى مهمة كشف عادية ، أمام خطوط الأعداء ، فأبت فائزة إلا أن ترافقنى . ورافقتنى فعلا

ولكن أعين الحراس رأتنا . وكنا أربعة جنود وفائزة . فقابلنا الاعداء برصاص بنادقهم ، فاضطررنا الى العودة مسرعين . ولكننى أصبت برصاصة فى كتفى وأخرى فى فخذى ، وقتل جوادى تحتى ، فأصبحت عاجزاً عن الفرار

وطلبت من رفاقي أن يتركونى فى مكاني وينجوا بأنفسهم

فصاحت فائزة :

— وكيف نتركك هنا لكي يقبض عليك أولئك الآثام ؟ انهم سيعذبونك ويعدمونك بلا شك ! لن أفعل هذا . وسأحملك على سرج جوادى وأعود بك الى « بلفنا » واذا قدر لك أن تموت فليكن موتك بين اخوانك . لقد سهرت على منذ انضمامى الى الجيش . فلا أقل من أن أعاملك بالمثل !

وحملتنى فائزة على سرج جوادها ، وعادت بى الى المدينة

وهكذا أنقذت الفتاة الباسلة حياتى بدلا من أن أنقذ أنا حياتها !

***

فى شهر ديسمبر ١٨٧٧ ، خرج الجيش العثمانى من المدينة ، وعلى رأسه عثمان باشا الغازى ، لأن البقاء فى بلفنا أصبح متعذراً علينا

ولا أصف هنا هول المعارك التى دارت بيننا وبين الجيوش الروسية اللجبة التى كانت تسد علينا الطرق والمنافذ . فان التاريخ سوف يحفظ ذكر هذه المعارك فى صفحاته ، وتتداوله الأحقاب المقبلة فى بلادنا المحبوبة ، ويعلم أبناؤنا وأحفادنا أننا فعلنا فى سهول بلفنا وهضابها ، وفى طريق صوفيا ، ما لم يفعله جيش !

وفى ١٠ ديسمبر ١٨٧٧ ، اضطر عثمان باشا الغازى أن يسلم نفسه مع جيشه للعدو

ولو لم يفعل القائد العظيم ذلك ، لكان نصيب الجيش العثمانى الباسل الفناء التام !

وكان جيشنا يبلغ عدده ٤٠ ألف مقاتل !

***

فى اليوم التالى لاعلان التسليم ، جاءنى صديق من الضباط وأخبرنى أن فائزة قد انتحرت !

أسرعت مهرولا الى المكان الذى قال لى صديقى أن الفتاة ملقاة فيه جثة هامدة . فوجدت نفسى أمام منظر ترك فى نفسى أثراً عميقاً

رأيت فائزة جالسة على الأرض ، وقد اتكأت الى صخرة صغيرة ، وفى صدرها جرح بليغ تنهمر منه الدماء ، وحولها ثلاثة من الرفاق

وكانت تسلم الروح فحاولت أن أسعفها بالعلاج ، وأن أخاطبها ، ولكننى أدركت أن محاولتى لن تجدى نفعاً

وغمغمت فائزة هذه الكلمات قبل أن تصعد روحها الطاهرة الى خالقها :

— لن أطيق البقاء فى الأسر . فأوثر الموت على الحياة !

وقد أمر عثمان باشا الغازى بأن تدفن فى المكان الذى انتحرت فيه ، وبأن تسير فى جنازتها الفرقة التى حاربت الفتاة الشجاعة فى صفوفها ، مدة سنتين كاملتين !

***

هنا تنتهى مذكرات محمد أغا الهرسكى وفيها موضوع هذه الرواية المؤثرة

ولكننى فضلت نشر الترجمة بحروفها فان فى بساطة أسلوبها ما يجعل هذه المأساة أروع بكثير من تسطيرها بأسلوب محلى بالألفاظ المنمقة !

فاطمة الفيومية

طاف المنادون فى شوارع القاهرة ، ودوت أصواتهم فى أنحاء المدينة منبئة بأن «السر عسكر» نابوليون قائد الفرنسيين الفاتحين ، سوف يرأس فى اليوم التالى حفلة فتح الخليج ووفاء النيل ، لكى يثبت لأبناء البلاد انه ما جاء اليهم للقضاء على عاداتهم وتقاليدهم كما يشيع خصومه وأعداؤه ، وانما جاء لاحياء مجد مصر والسير بها الى الامام فى مدارج الرقى والعلى

وفى اليوم التالى – ١٨ أغسطس سنة ١٧٩٨ – هرع الناس من كل فج وصوب الى مكان الاحتفال فى جزيرة الروضة ، ليروا عن كثب ذلك الفتى الافرنجى الذى يعبده جنوده ويطيعه ضباطه ويقول عنه مواطنوه انه فاق بنبوغه العباقرة وهزم كبار القواد ، وانه يحلم بانشاء دولة شرقية تمتد من مصر الى الشرق كله

وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً فى تاريخ مصر . فقد أصدر نابوليون أوامره الى ضباط الجيش وجنوده بأن يشاركوا الشعب فى أفراحه ، ويكونوا ساهرين على الأمن ، ويثبتوا لأبناء مصر من ناحيتهم أن ما يقوله قائدهم ليس كذبا ومراوغة

وهتفت الجموع المحتشدة حول المكان هتافا عالياً مستمراً لمشايخ الطرق والعلماء والفقهاء والوجوه والاعيان ، الذين لبوا دعوة القائد الفرنسى الشاب وأحاطوا به على المنصة العالية – التى وقف فيها بونابرت وأركان حربه – للاشراف منها على جنوده وهم « يفتحون الخليج »

* * *

وانقضى ذلك اليوم من دون أن يحدث فيه ما يعكر صفاء العيد . وعاد كل الى داره عند غروب الشمس وعادت «فاطمة الفيومية» الى منزل خالتها فى شبرا مع العائدين من أبناء الناحية. وقالت الخالة لابنة أختها :

– ألم يحدث اليوم ما يكدرك يا ابنتى ؟

— كلا . بل اني أعد هذا اليوم من أسعد أيام حياتي لو لم يعترضنى فى أثناء عودتى ذلك الشاب الذى نصحتنى باجتنابه وحذرتنى من الاقتراب منه

— حسن الصواف ؟

— نعم . فقد حاول أيضاً أن يتحكك بى . لكننى تخلصت منه فى هذه المرة كما تخلصت منه من قبل . ولم يجرؤ على اللحاق بى لأنني كنت مع جماعة من أبناء القرية

— أعود فأحذرك يا ابنتى من الوقوع فى شرك هذا اللعين . فان له يداً فى موت أبيك يوم دخل الافرنج الى هذه البلاد . فهو من صنائعهم ، وكان بينه وبين أبيك عداء قديم . ولابد أن يكون قد اغتنم الفرصة وأوقع به وحرض أولئك الجنود الذين قتلوه على الفتك به والتمثيل بجثته كما تعلمين

— سأكون على حذر يا خالتى

— نعم . واذا ما أحدق بك الخطر يوما من الايام فعليك بالالتجاء الى الشيخ سليمان الفيومى الذى كان ولا يزال يعطف علينا ..

— والى مروان الشركسى أيضاً

— نعم والى مروان الشركسى . . اذا عاد الينا

* * *

مرت الايام . . .

وأبحر نابليون بونابرت عائداً الى فرنسا . وألقى مقاليد الامور الى صديقه الجنرال كليبر فعينه خلفاً له وحاكما على مصر وقائداً للجيش الفرنسى المرابط فيها

وسار الخلف على منهج السلف ، ليس فقط فى معترك السياسة وميادين القتال ، بل أيضاً فى معيشته وسلوكه

كان بونابرت يميل الى مغازلة النساء وكثيراً ما استحل أعراضهن . فحذا كليبر حذوه . وكما أن بونابرت قد هام في حب زينب البكرية وافترسها ـ على ما يقال ـ فان كليبر قد هام أيضاً فى حب فتاة مصرية حسناء وحاول افتراسها

تلك الفتاة هى فاطمة الفيومية . .

* * *

سنة ١٨٠٠

دخل عليه ذات يوم الجاسوس حسن الصواف وقال :

— انى أحمل الى مولاى القائد أخباراً تسره عن الفتاة التى نالت حظوة فى عينيه

كان حسن الصواف أحد أولئك الخونة الذين لا تخلو منهم بلاد فى أيام الاحن والحروب فكان يساعد المحتلين على التنكيل بالمصريين ، وكان لهم عونا على مصر يقود الى سجونهم رجالها والى مخادعهم حسانها

أعرضت عنه فاطمة الفيومية التى أحبها ، فأراد بها السوء وعزم على الانتقام منها بالقائها بين أحضان ذلك القائد الفرنسى الشرس

تهلل وجه الجنرال كليبر سروراً عندما أفضى اليه حسن الصواف بذلك الخبر السار وابتسم قائلا :

— هات ما عندك يا صواف . فان كان خبرك مما يثلج الصدر نفحناك بعطاء حسن !

— ان فاطمة الفيومية يامولاي فى أيدينا . لقد قلت لك انها ابنة فلاح كان خادماً عند الشيخ سليمان الفيومى . وقد قتل أبوها فى الاضطرابات التى وقعت فى القاهرة على أثر دخولكم اليها . وسليمان الفيومى هو — كما تعلم — الذى أجار نساء المماليك بعد فرارهم . ولا يغرنك ما يظهره لك الآن من خضوع واستسلام ، فانه يضمر لك ولقومك الشر كله

— دعنا من الشيخ سليمان الفيومى وحدثنى عن الفتاة

— لقد أعدوا لها زوجا . وبعد عشرة أيام سيعقد لها على مروان الشركسى ، أحد جنود مراد بك الهاربين ، وقد عاد متخفياً الى القاهرة

— وأين تقيم الحسناء ؟

— فى قرية بشبرا عند خالتها

— وما رأيك ؟

— ضع تحت تصرفى عشرة من جنودك وسيكون لك ما تريد

— حسناً !

قصد الخائن فى اليوم التالى الى شبرا مع رجاله وأقاموا كميناً على البيت من جميع جهاته واختطفوا الفتاة وهى خارجة الى الحقل وأتوا بها الى القائد الفرنسى

دخل الصواف على كليبر دافعاً أمامه تلك الغادة الهيفاء ، موجهاً اليها ما أوحت به اليه نفسه الشريرة من بذىء الكلام وساقط القول . فأشار القائد الى جاسوسه قائلا :

— دعها يا حسن ولا تزجرها . يجب على الصياد ألا يروع ظبية نافرة كهذه !

ثم التفت الى الفتاة وقال :

— لماذا يكتئب قلبك وتختلج شفتاك ؟ هدئى روعك ، لقد أعددنا لك فى القصر حجرة فاخرة ، فاذهبى اليها ونامى على فراشك الوثير الى الصباح ، وغداً ..

فقاطعته الفتاة :

— غداً ، ماذا تضمر لي في نفسك وأي رزء يحمل لي ذلك الغد ؟ لا أعرف تلك الحجرة التي تحدثني عنها ، لكني كثيراً ما سمعت عنها ، فطالما تصاعدت فيها زفرات أخواتي البائسات اللاتي نحر شرفهن نحراً بين تلك الجدران الصماء ! — ماذا تعنين ؟

— أنت تعلم جيداً ماذا أعني . انني أعلم ما ينطوي عليه القلب المظلم الجوانب الذي تضمه ضلوعك في صدرك الخشن . لكنك لن تنال مني شيئاً أيها القائد ، ولن أعود الى أهلي حاملة اليهم نفساً ذليلة وعرضاً مثلوماً

— تنتحرين إذن ؟ — هذا شأني

فالتفت كليبر الى جاسوسه وقال : قدها الى حيث تعلم يا حسن . وغداً ننظر في أمرها

* * *

نهضت المسكينة من نومها المضطرب قبل بزوغ الفجر وقبل أن يعرف الانسان صاحبه ، وجعلت تفكر باحثة عن سبيل للخلاص أو عن حيلة تدفع بها العار عن نفسها

رفعت طرفها فأبصرت الجدران مزدانة بمختلف الاسلحة فانتفضت في مكانها ، ثم أسرعت فتناولت خنجراً عربياً مرصعاً بالجواهر

جردته من غمده ، وتفرست ملياً في نصله الذي طالما لجأ اليه اليائسون من الحياة ، ملتمسين منه الراحة والنجاة من العذاب

لكنها بددت فكرة الانتحار وأعادت النصل الى غمده وأخفته في طيات ثوبها ، وجلست رابطة الجأش ثابتة العزيمة تنتظر ما خبأته لها الايام

طلع النهار فجاءها الجاسوس الخائن وطلب اليها أن تتبعه الى حجرة القائد . فمشت وراءه بلا تردد

كان كليبر في انتظارها ، وقد ارتسمت على شفتيه الغليظتين ابتسامته المعهودة . فأسرع الى لقائها وأجلسها بجانبه وقال :

— يقول المثل الفرنسي « الليالي توحي بالنصائح » فأية نصيحة أوحت بها اليك الليلة البارحة ؟

— سوف ترى — إن الغضب يزيدك جمالا

— انني عازمة على الدفاع عن جمالي — واذا اغتصبتك عنوة وقسراً

— سأقاوم ما استطعت . واعلم أيها القائد أن ورائي رجالا أعزة النفوس سوف ينتقمون لي

— انني أعرف أولئك الرجال ، فقد خبرتهم في ثورة القاهرة ، كما أنهم قد خبروا هذا السيف في المعارك

وأشار كليبر الى سيفه المعلق على فراشه ، وجعل يداعب بيديه غدائر فاطمة . لكن الفتاة ابتعدت عنه وقالت بصوت عميق أشبه بنفثات المكلوم المصدور :

ـــ لن تروى ظمأ هذا السيف من دمائنا بعد الآن !

وبأسرع من وميض البرق ، تناولت خنجرها المخبوء وبادرت غريمها بطعنة ظنتها صائبة ، لكنه تلقاها بذراعه ، فسال دمه على ثوبه الازرق . وقبض بيده على يد الفتاة فسقط الخنجر على الارض

ونادى القائد جاسوسه . فأسرع حسن الصواف ، وشد وثاق الفتاة ووقف ينتظر أوامر سيده

فقال كليبر :

ـــ احبسها فى حجرتها . وليبق ما جرى الآن سراً مكتوما بيننا . . .

فالتفتت اليه الفيومية الحسناء وقالت :

ـــ لن تنجو من أيدى الرجال ان أخطأتك أيدى النساء

رأى الفتاة رجل مصرى من خدم القصر فعرفها ، ونقل خبرها الى خالتها والى مروان الشركسى ، وكان العاشق الولهان يبحث عنها فى كل ناحية ومكان

وبواسطة ذلك الخادم ، تمكنت الفتاة من مخاطبة حبيبها ورسم الثلاثة معا خطة لانقاذ المسكينة من غاصبها

وبعد عشرة أيام من ذلك التاريخ ، سقط القائد كليبر قتيلا بيد سليمان الحلبي

وعمت الفوضى قصر الحاكم واختلط فيه الحابل بالنابل . فاغتنم مروان الشركسى الفرصة السانحة وجاء بفرسه الى جوار القصر ، حيث لاقته حبيبته بعد أن خرجت من سجنها بمعونة ذلك الخادم الصديق

لكن حسن الصواف فطن الى فرارها ، فلحق بهما واعترض العاشقين قبل رحيلهما ، فصاحت فاطمة الفيومية بمنقذها :

ـــ هذا هو أصل البلية . هذا هو الخائن وقد جاء من تلقاء نفسه يطلب العقاب على ما جنت يداه

فوثب مروان الشركسى وقبض على عنقه وظل يضغط عليه حتى تركه جثة هامدة

ثم اعتلى السرج ووراءه فاطمة . وأرخى لفرسه العنان فانطلقت كالشهاب المارق تنهب الارض نهبا الى حيث السعادة والهناء والراحة ، ولسان حال العاشقين يقول :

أطيب الطيبات قتل الأعادى   واختيال على متون الجياد
ورسول يأتى بوعد حبيب   وحبيب يأتى بلا ميعاد !

يعقوب المجنون

ظلت مدافع الفرنسيين تصب نيرانها على المدينة أياما وأسابيع . واعادت جيوشهم على اسوارها الكرة بعد الكرة . وحاول قائدهم الشاب « نابوليون بونابرت » ان يقتحم بمشاته وفرسانه تلك السلسلة الهائلة من الحصون والمعاقل . لكن المدينة المنيعة ظلت فى مأمن من السقوط ، فردت حاميتها دفعة بعد أخرى هجمات الفرنسيين وصدتهم عن الاسوار فعادوا على أعقابهم كل مرة خاسرين

وللمرة الاولى ذاق القائد الفرنسى النابغة مرارة الفشل ، وشعر بخيبة الانكسار أمام تلك المدينة الصغيرة ، الرابضة على شاطىء البحر الابيض وسط حلقات متماسكة من الجدران والصخور والآجام والقلاع ، تقيم خلفها حامية شجاعة مدربة ، يقودها رجل عرف بسداد الرأى وثبات العزيمة وقوة الارادة ، كما عرف من ناحية أخرى بالاقدام والقسوة ، واشتهر بالفظائع التى اقترفها فى سبيل الاحتفاظ بسلطته والقضاء على اعدائه

ذلك هو « احمد الجزار » وتلك هى مدينة « عكاء »

والحادث الذى نرويه اليوم وقع فى سنة ١٧٩٩ ، وهى السنة التى ضرب فيها بونابرت الحصار على عكاء بغية الاستيلاء عنوة عليها واقامة حامية فيها تحرس مواصلات الجيش الذى كان يقوده ، معولا عليه لكى يغزو الشرق ويصل الى الهند ويقضى على سلطان الانكليز هناك ، ويمثل من جديد الدور الذى مثله الاسكندر من قبله

***

أخذت أعين الحراس ذات ليلة ، وهم يرقبون ضواحى المدينة من اعلى الربوات المحيطة بها ، شبحا ينسل خارج الاسوار ويطلق للريح ساقيه ويجتاز مسرعا المسافة الفاصلة بين المدينة ومحاصريها

وما وصل الرجل الى الصف الامامى حتى احدق به الجند من كل ناحية موجهين الى صدره حراب بنادقهم . فوقف الغريب فى وسط تلك الهالة المخيفة تعبا لاهثا

ـــ من انت والى أين تقصد ؟

ألقى الجنود عليه هذا السؤال بلغتهم الفرنسية ، وكانت دهشتهم عظيمة عند ما سمعوه يجيب على سؤالهم بتلك اللغة نفسها قائلا :

ـــ لست غريبا عنكم ايها الاخوان .. وقد يوجد بينكم من يعرفنى .. فدعونى أصل الى قائدكم الجنرال بونابرت وقولوا له ان « اندريا سفورزا » يطلب المثول بين يديه

ظن الجنود أنهم أمام مجنون تائه أو جاسوس يلجأ الى حيلة للوصول الى القائد . فقبضوا على الرجل واوثقوا يديه وقادوه الى بونابرت

وما كاد نظر القائد الفرنسى يقع على الاسير حتى نهض عن الوسائد التى كان جالسا عليها وصاح مندهشا :

ـــ اندريا ! ماذا حل بك وكيف أراك على هذه الحالة ؟

فضحك الرجل وأشار برأسه الى الجنود قائلا :

ـــ ان جنودك يا نابوليون لا يعرفون الاصدقاء ولا يفرقون بينهم وبين الاعداء . فمرهم قبل كل شيء بأن يحلوا هذه القيود ويعيدوا الى حريتى ثم يكون لى معك شأن آخر

فأمر بونابرت جنوده بأن يفكوا وثاق الغريب ويتركوهما فى خلوة

***

ودار بين الرجلين الحديث الآتى :

ـــ قص على الآن يا اندريا ما حدث لك منذ اليوم الذى غادرتنى فيه

ـــ غادرتك على أثر الانتصار الباهر الذى احرزه جيشك فى واقعة « ريفولى » بايطاليا وقصدت الى السواحل حيث تنكرت فى ثوب راهب عائد من الاراضى المقدسة . ورحلت على ظهر سفينة انكليزية الى الشاطىء الاسبانى ، لكن عاصفة هائلة فاجأتنا فى الطريق فحاول ربان السفينة ان يلجأ الى الساحل الافريقى فوقعنا من سيء الى اسوأ وانتقلنا من مصيبة الى أهول منها . فقد هاجم السفينة قوم من القرصان واطلقوا ايديهم فيها بالنهب والسلب واقتادوا المسافرين والبحارة جميعا أسرى فى القيود يرسفون

ـــ وبعد ؟

ـــ بقيت فى الجزائر تحت رحمة أولئك القرصان حتى جاء من ابتاع منهم الرجال الاشداء والنساء الجميلات . فكنت بين الذين وقع عليهم الاختيار ، ورحلت من جديد مع

من رحل بصحبة ذلك النخاس فى سفينة اقلعت بنا الى عكاء ...

ـــ ان ما تقصه على لاقرب الى الحكايات الخيالية منه الى الحوادث الواقعة . وبعد ؟

ـــ انزل بعضنا الى هذه المدينة الحصينة وعرضنا للبيع فى اسواقها ، فاشترانى احمد باشا الجزار مع ثلاث من النساء

ـــ عجيب جدا ... وبعد ؟

ـــ اقمت فى قصره حيث تظاهرت منذ اليوم الاول بالجنون المطبق . وعند ما كانوا يسألوننى عن اسمى كنت أجيبهم ان الايطاليين ابناء قومى يسموننى « يعقوب المجنون »

ـــ كذبة لا قيمة لها فى نظرك .. فقد تعودت الكذب .. وبعد ؟

ـــ تعودت الكذب ، نعم . فاننى منذ اليوم الذى رضيت فيه ان اتحول الى جاسوس يعمل لحسابك وحساب الفرنسيين لم أفه بكلمة صدق واحدة !

ـــ ألا يكون ما تقصه على الآن كذبة جديدة ؟

ـــ كلا . لانك تعلم اننى لا اكذبُ الا على الخصوم والاعداء ؟

ـــ اعلم ذلك واثق بك ثقة عمياء .. وبعد ؟

ـــ انطلت الحيلة على القوم وظنونى مجنونا ولم يشكوا لحظة واحدة فى أمرى . فتركونى حرا طليقا أمرح فى المدينة كما أريد وأذهب الى حيث اشاء وأعود عند ما تحلو لى العودة . واجد دائما فى قصر الجزار فراشا وطعاما وشرابا

ـــ حياة هادئة لا اظنك ترضاها لنفسك

ـــ اصبت يا نابوليون . فقد مللت هذه الحياة ، ولذلك جعلت ابحث عن السلوى .. فوجدتها

ـــ واين وجدتها ؟

ـــ فى الحب !

ـــ آه !

ـــ نعم فى الحب . فقد أحببت امرأة جميلة فاتنة ساحرة .. احدى أولئك النسوة الثلاث اللواتى اشتراهن الجزار من النخاس الجزائرى . ولكن وقع ذات يوم ما لم يكن بالحسبان

ـــ راقبك الجزار فاكتشف أمرك وفضح حبك وأراد أن يفتك بك

ـــ لقد أدركت الحقيقة . هذا ما وقع لى تماما . فقد أصدر الجزار أمره بالقبض على وضرب عنقى بلا محاكمة ولا اتهام ولا دفاع

ــ طبعا ... والمرأة ؟

ــ لقد وضعوها فى كيس مثقل بالحجارة والقوها فى البحر

ــ مسكينة !

ــ نعم مسكينة . وقد حزنت عليها جدا . ومما ضاعف حزنى انها تحمل فى بطنها ثمرة غرامنا . ولو بقيت على قيد الحياة وظلت علاقاتنا مجهولة لوضعت مولودا ولظنه الجزار ابنه ، لانه كان يحبها أيضا حبا جما ويفضلها على بقية السرارى اللواتى يعج بهن قصره

ــ سواء أكان المولود ثمرة غرامك أنت أو ثمرة غرام الجزار فهذا أمر لا يهمنى كما انه لم يعد يهمك بعد أن ماتت المرأة غرقا وبعد أن تمكنت أنت من الفرار . فقل لى الآن: اية أسرار تحمل فى جعبتك لاطلاعى عليها ؟

ــ ان الاقدار تحنو عليك وترعاك بعين عنايتها يا نابوليون . ولو قيل لك او قيل لى فى ايطاليا منذ سنتين اننا سنفترق ثم نلتقى ثانية امام اسوار عكاء لما صدقنا ...

ــ حقا ...

ــ ان المدينة محصنة منيعة أكثر مما تظن . وفيها من السلاح والارزاق ما يكفى حاميتها شهورا عديدة . ثم ان السفن الحربية الانكليزية تدافع عنها بحرا بقيادة « سيدنى سميث » وتضمن مواصلاتها مع الخارج ، بينما « الطوان دى فيليبو » زميلك فى عهد المدرسة وعدوك اللدود الآن يشرف على الدفاع عن القلاع والاسوار . ثم ان الجزار رجل ليس كالرجال ، فهو قوى عنيد صلب شجاع ، ولا اظنك قادرا على قهره بل انني اعتقد ان هذه المدينة لن تؤخذ الا اذا فتح أبوابها خونة من الاعداء

***

تفشت الامراض فى الجيش الفرنسى وولج اليأس نفوس الجنود وفشلت هجماتهم على الاسوار . فأدرك نابوليون بونابرت ان الحظ يخونه فى هذه المرة وان آله الحرب يولى له ظهره ، فأصدر أمره ذات يوم برفع الحصار عن عكاء والعودة الى الوراء . الى مصر

وعاد معه الجاسوس اندريا سفورزا ، أو شارل ريمار ، أو ريشارد ، أو لوكومب ، أو يعقوب المجنون ــ سمه ما شئت ــ فللجواسيس اسماء عديدة وليس اصعب من معرفة اسمائهم الحقيقية !

وقد مات « يعقوب المجنون » فى مصر سنة ١٨٠٠ وهو يبكى تلك المرأة التى أحبها فى قصر احمد باشا الجزار فى عكاء

وفاء النيل

صمد مراد بك للفرنسيين بجيشه فى سهل « امبابة » ورتب جنوده للقتال ونزع عجلات المدافع وركزها فى التراب ظناً منه أن هذا الاسلوب أفضل من سواه فى موقف الدفاع ، وأصدر أوامره الى الفرسان بأن يكونوا على أهبة وعدة ، لأن النصر يتوقف على نجاحهم فى الهجوم وتشتيت شمل الجنود الفرنسيين الذين أعياهم التعب والسير المتواصل

وفى ٢١ يوليه سنة ١٧٩٨ — الموافق للحادى عشر من صفر سنه ١٢١٣ هجرية — التقى الجيشان حول القرية الصغيرة فى السهل الذى دون اسمه منذ ذلك اليوم فى سجل التاريخ

كان القائد الشاب نابوليون بونابرت قد هزم المماليك فى كل موقعة نازلوه فيها فسار من نصر الى نصر ، واجتاز الصحراء والحقول والمدن ، من الاسكندرية الى القاهرة ، فوصل الى «امبابة» حيث وجد مراد بك والمماليك فى انتظاره ، لمنعه من دخول العاصمة ورده عنها

وكانت معركة دموية هائلة ، امتازت بهجمات الفرسان المماليك على صفوف الفرنسيين هجمات متواصلة ، تحطمت جميعها كما تتحطم الامواج على الصخور ، وعجزت مدفعية مراد بك عن مساعدة الفرسان لأن رجالها كانوا غير قادرين على نقلها من مكان الى مكان . وما انتهى ذلك اليوم المشهود ، إلا وقد فرت فلول المماليك وشردت فى السهول والحقول ، تاركة وراءها سبعة آلاف جثة يجرف معظمها النيل فى تياره ، وآلافاً من الجرحى لا يجدون من يواسيهم ويضمد جراحهم

أما مراد بك ، أمير المماليك وقائدهم الاكبر ، فقد ابتعد عن ذلك المكان ، وتبعه ألفان وخمسماية من رجاله المخلصين ، فتوغلوا جميعاً فى الصحراء ، متجهين الى الوجه القبلى طلباً للنجاة وهرباً من الموت

وفى اليوم التالى ، دخل الجنرال « ديبوى Dupuy » القاهرة واحتلها باسم رئيسه بونابرت ورفع عليها أعلام الجمهورية الفرنسية

وفى الخامس والعشرين من شهر يوليه أقام الجيش الفاتح معسكراته فى أنحاء العاصمة

* * *

اضطر جنديان من الفرنسيين ، هما الأخوان « لوفوا Lefoy » الى الابتعاد عن حومة المعركة ، فى امبابة ، أمام مطاردة اثنين من المماليك ، لكنهما تمكنا من النجاة وظلا سبعة أيام كاملة ، يتنقلان من مكان الى مكان ، مختبئين ، خائفين ، الى أن وصل بهما المطاف الى جزيرة الروضة ، حيث وجدا رجلا مصرياً معه قارب صغير ، فطلبا منه أن ينقلهما الى الضفة الاخرى ، وأجابهما الرجل الى طلبهما

ووقفت زوجته تنتظر عودته ، وبينما هى كذلك اذا بالجنديين ينقضان على المسكين فى وسط النيل ويشبعانه ضرباً ، ثم يوثقان يديه ويلقيانه فى الماء !

جعلت المرأة تصيح وتستغيث ، فردت عليها قهقهة الجنديين المجرمين وذهب صراخها أدراج الرياح

ونزل الجنديان على الضفة الثانية ، وابتعدا عن نظر المرأة ، تاركين القارب تتقاذفه مياه النهر مصحوبين بلعنات المسكينة ، التى جعلت تلطم خديها ، وتشد شعرها ، وتمزق ثوبها ، صائحة مرددة : « وا أسفاه عليك يا عبد الوهاب . . ! ستبكيك خديجة ما دامت حية تسعى . . ! وستنتقم لك من القوم الظالمين . . . ! ألا لعنة الله عليكما . . ولكن موتكما غرقاً فى النيل كما قتلتما زوجى غرقاً فيه . . ! إن النيل وفى أمين ، وقد وكلت اليه انتقامى ، فسيكون لى ولزوجى وفياً أميناً ! »

قالت المرأة هذا وراحت تنعى للناس زوجها « عبد الوهاب الجيزاوى » فبكاه الناس معها وأقاموا له مأتماً ، وحاولوا ما استطاعوا أن يخففوا عن الزوجة المسكينة وقع ذلك المصاب الأليم

ولم يعلم أحد كيف ولماذا قامت بين عبد الوهاب والجنديين تلك المشاجرة التى أدت الى قتله

وانتقلت المرأة بعد موت زوجها الى منزل أحد أقاربها ، وهو رجل سورى يدعى سيد بدر من سكان الحسينية بالقاهرة

* * *

كان الاميرال نلسون الانجليزى قد دمر الاسطول الفرنسى فى خليج أبي قير ، فى اليومين الأول والثانى من شهر أغسطس ، فأحدث ذلك تأثيراً عظيما فى الجيش وفى المدينة . وقام فريق من الضباط الفرنسيين يدسون لقائدهم ويشوهون سمعته ويثيرون ضده الأحقاد والضغائن ، بينما

كان فريق من كبراء المصريين يعملون لعرقلة حركاته ومشروعاته فى العاصمة

لكن ذلك النابغة العظيم لم يحسب لأحد من خصومه وأعدائه حساباً ، فمضى فى سبيله ، يرسم لفرق الجيش خطط الهجوم والانتشار والاحتلال ، ويستدعى اليه رؤوس المدينة ويكتبهم ويخطب ودهم الواحد بعد الآخر

وفى اليوم الأول من شهر « فروكتيدور » آخر شهور السنة الجمهورية ، الموافق للثامن عشر من شهر أغسطس سنة ١٧٩٨ ، خرج القائد نابوليون بونابرت فى موكب عظيم يحف به قواده وجنوده ، وتوجه الى مصر القديمة للاحتفال بعيد وفاء النيل !

أراد القائد الفرنسى بذلك أن يستميل المصريين اليه ، بمشاركتهم فى أعيادهم ، واحترام تقاليدهم ، بعد أن وعدهم بأنه لن يلحق بمصر أذى ، وقطع على نفسه عهداً بادخال اصلاحات كثيرة على القاهرة . .

أقيمت فى ذلك المكان منصة عالية ، جلس عليها بونابرت وحوله عظماء البلاد وأمراء الجيش . وصدحت الموسيقى بالأناشيد الفرنسية والأنغام العربية ،وكان الاحتفال بالغا أقصاه من حيث الزينة والعظمة والجلال

وبينما الناس فى فرح ومرح ، يهزجون ويغنون ويرقصون ، واذا بصياح مزعج يعكر صفاء العيد ، وأصوات استغاثة تطرق الآذان ، آتية من عرض النيل . .

وأسرع الجنود من كل ناحية ، فى زوارقهم ومراكبهم ، الى مصدر الاصوات ، لكنهم وصلوا بعد فوات الوقت

وسأل بونابرت ما الخبر ، فقيل له ان جماعة من جنوده ركبوا زورقا وخرجوا للنزهة فى النيل ، فانقلب بهم الزورق ، وغرق منهم عشرون لا يحسنون السباحة ، ونجا اثنان فقط !

وكان « الامباشى لوفوا » بين الغرقى ، وهو أحد الأخوين اللذين قتلا عبد الوهاب الجيزاوى يوم ألقياه فى النيل !

***

عاد سيد بدر الى بيته ، بعد ذلك بيومين ، ووجهه طافح بشراً ، ونادى خديجة قائلا :

ـــ تعالى . . اسمعى : لقد انتقم لنا النيل من أحد الأخوين ، ولا بد أن ينتقم لنا من الآخر

وقص على الزوجة الحزينة ما وصل الى علمه من ذلك الحادث ، وكيف ان «الامباشى لوفوا» مات غرقا فى النهر ، فى يوم الاحتفال بوفاء النيل

فابتسمت خديجة للمرة الاولى بعد موت زوجها ، وقالت : « حقا . ان النيل وفى أمين ! »

***

أراد نابوليون بونابرت أن يستعجل الحوادث أو يتجنبها . وأن يستعد للطوارىء ثم يقوم بما كان يفكر فيه من غزو سورية واحتلالها كما غزا وادى النيل واحتله ، فأرسل قواد جيشه شمالا وجنوبا وشرقا وغربا لمطاردة المماليك والقضاء على فلولهم ، وترك حاميات فرنسية فى مواقع البلاد الحربية ومدنها الكبيرة ومنافذها الهامة

فقام الجنرال ديزى Desaix فى خمسمائة رجل وثمانى سفن حربية لاحتلال الوجه القبلى وطرد مراد بك والألفى بك وغيرهما من أمراء المماليك ، الذين تركوا القاهرة وحاولوا أن يعتصموا فى تلك الجهات . وبعد معارك عديدة ، هزم فيها الفرنسيون المماليك فى كل مكان ، تم لذلك القائد ما أراد ورفع علم الجمهورية الفرنسية على جميع المدن الواقعة على ضفاف النيل . وقد أبدى « ديزى » فى ميادين القتال شجاعة فائقة ، كما تحلى بعد النصر بفضائل نادرة ، فأطلق عليه المصريون اسم « الملك العادل »

وقام الجنرال « دوجا » Dugua بفرقة من الجيش لاحتلال « المنصورة » والاقاليم المحيطة بها ، فأبدى أيضاً بعد النصر حكمة بعيدة وعطفا كبيراً ، بالرغم من انتقاض المنصوريين على الحامية الفرنسية ، المكونة من ١٢٠ من الجنود ، وذبحها عن آخرها !

وقام قواد آخرون ، لاحتلال المدن والقلاع وطرق المواصلات ، وكان بونابرت نفسه يخرج من القاهرة من وقت الى آخر للاشراف على تنفيذ خططه وأوامره

وظن القائد الفاتح ان الأمر قد استتب له وان القاهرة قد قهرت ، وان سكانها لن يحركوا ساكناً . .

لكنه كان مخطئاً فى ظنه . فان الافكار كانت قلقة مضطربة ، وكان سكان المدينة ينظرون بعين الحذر والخوف الى أولئك الوافدين من أوربا ، الذين قيل عنهم إنهم أحدثوا فى بلادهم ثورة هائلة على القوانين والانظمة والتقاليد والدين ، والذين لا يوجد بينهم واحد يذكر اسم الله وينتمى الى مذهب من المذاهب أو دين من الاديان

واذا كان سكان القاهرة لم يثوروا على المحتلين ، فذلك لأنهم كانوا يخشون بطشهم ، ويرقبون الفرص السانحة للانتقاض عليهم وأخذهم على حين غفلة !

وكان أصحاب الكلمة المسموعة والرأى النافذ من خصوم الفرنسيين ، الذين لم ينخدعوا بالوعود والهدايا ، ولم يعلنوا ولاءهم لبونابرت وحكومته ، يزكون النار الباقية تحت الرماد ، ويغذون فى النفوس الاحقاد ، ويعدون العدة لليوم العصيب

وارتكب بونابرت غلطة عجلت بمجىء ذلك اليوم

فقد أحوجته نفقات جيشه الى المال، وما من سبيل الى الحصول عليه وعلى الذخيرة والارزاق

من فرنسا ، بعد تدمير أسطوله فى أبى قير ، فعمد الى حيلة لابتزاز الأموال من السكان ، دون أن يفرض عليهم الضرائب، وذلك باصداره قانونا جديداً يقضى على كل صاحب ملك وعقار أن يتقدم اليه بالأوراق والوثائق التى تثبت ملكيته لكى يعتمدها ، ويسجلها ويقرها . . مقابل رسم معين يدفعه صاحب الملك لخزانة الجيش الفرنسى

أراد أن يتقى شراً فوقع فى شر !

فقد اغتنم الناقمون عليه الفرصة ، وأشاعوا فى طول البلاد وعرضها ان الفرنسى الخبيث يريد انتزاع الحجج والمستندات من أيدى أصحابها ، فلا يبقى معهم ما يثبت ملكيتهم ، فيؤول كل شىء فى مصر إلى أيدى المحتلين الاجانب

استصرخوا المتحمسين من أبناء الشعب وصاحوا ابهم قائلين : « لقد طفح الكيل وبلغت سيئات الفرنسيين حداً لا يطاق ! فاما الثورة اليوم . وإما الفناء غداً ! »

وكانت ثورة القاهرة على بونابرت وجيشه ، فى اليوم الثالث والعشرين من شهر اكتوبر سنة ١٧٩٨ ـ الموافق ليوم الاحد ٢١ جمادى الاول سنة ١٢١٣

فقد جمع « فتوات » الاحياء فى ذلك اليوم جموعهم ، وانتشروا فى المدينة صائحين غاضبين ناقمين ! ومشى « سيد بدر » على رأس أبناء الحسينية . وقد زاد عددهم عن الألف

وصل خبر الفتنة الى الجنرال ديبوى ، حاكم القاهرة ، وهو ذلك القائد الذى دخل المدينة واحتلها باسم بونابرت ، فأراد أن يخمد الحركة فى مهدها ، وخرج من قصره على رأس كوكبة من الفرسان ، وأسرع الى منزل كبير العلماء ، الشيخ عبد الله الشرقاوى

وهناك التقى بجموع الثائرين ، وهم كثيرون ، فخاطبهم مهدداً ، طالباً منهم العودة من حيث أتوا ، فما كان منهم الا أن هاجموا فرسانه بالعصى والحجارة والنبابيت فدارت معركة حامية بين الفريقين سقط فيها الجنرال ديبوى صريعاً

وعلا الصياح من كل حدب وصوب ، وأدرك السكان أنهم قد اندفعوا فى حركة لابد من المضى فيها ، وأن الجيش الفرنسى سيهاجم المنازل ويطلق عليها مدافعه ، فأقاموا المتاريس فى كل ناحية . وأسرع كل منهم الى سلاح يحمله ، أياً كان ، فاختلطت فى الأيدى البنادق بالنبابيت والسيوف بالحجارة ، والخناجر بالقضبان الحديدية . .

وشعر مشايخ القاهرة بحرج الموقف فعقدوا اجتماعا قرروا فيه حض الشعب على المضى فى ثورته ، دون أن يتظاهروا أمام الفرنسيين بأنهم المحرضون

وكان الشيخ السادات أشدهم تحمساً للثورة ، وأبعدهم أملا فى نجاحها .

وما علم نابوليون بونابرت بمصرع القائد ديبوى ، حتى ثار ثائره . فجمع حوله قواد المناطق

والكتائب. وأصدر اليهم أوامره ملحاً فى تنفيذها سريعاً ، لاخماد الفتنة قبل استفحالها ، وارهاب الثائرين قبل أن يحرزوا نصراً جديداً

وعين الجنرال « بون Bon » خلفاً لديبوى فى منصب الحاكم . وأمر الجنرال « دومرتان Dommartin » باطلاق المدافع على الأحياء الثائرة ، وأرسل يتوعد الشيخ السادات وغيره من رجال الدين بأنه سيدمر القاهرة اذا ظل الشعب على حاله من الهياج

ولم تسفر المخاطبات الاولى عن نتيجة ما ، فدوى فى الجو هدير المدافع ، وتساقطت قنابلها كالوابل المدرار على أحياء المدينة الهائجة ، وانطلق الجند فى الشوارع والازقة والطرقات ، يهاجمون الثائرين وراء متاريسهم ، ويقتحمون البيوت التى اعتصم فيها السكان . ودارت رحى القتال فى كل ناحية من القاهرة ، من الصباح الى المساء ، مدة يومين كاملين . .

***

وفى أثناء ذلك ، كان خمسة من الجنود الفرنسيين قد خرجوا للنزهة على ضفاف النيل ، فى جزيرة الروضة ، حيث ركبوا زورقاً وتوغلوا فى النهر صعداً نحو الجنوب

وعند ما عادوا ، فى المساء ، الى المكان الذى ركبوا فيه الزورق ، ونزلوا الى البر ، هاجمهم جماعة من « أبناء البلد » وكانوا من الذين أضرموا نار الثورة منذ الصباح . .

فوجىء الجنود بذلك الهجوم ، ورأوا أن خير وسيلة للنجاة هى أن يعودوا فى زورقهم الى عرض النهر ، فأسرعوا اليه ، وحاولوا الابتعاد عن الشاطىء ، لكن المهاجمين تبعوهم ، وضيقوا عليهم ، وأمطروهم وابلا من الحجارة ، ثم جعلوا يطاردونهم فى الزوارق ، حتى أدركوهم وألقوا بهم جميعاً فى النيل ، فماتوا غرقاً

وكان بين أولئك الجنود الفرنسيين الخمسة الجندى « لوفوا » شقيق الامباشى لوفوا ، وأحد الاثنين اللذين قتلا عبد الوهاب الجيزاوى بأن ألقياه فى النهر !

وانتهت ثورة القاهرة ، وأصدر بونابرت عفوه عن الشيخ السادات ، بعد أن تعهد له بتهدئة الخواطر ، ومنع تكرار الفتنة . وعقد القائد الفرنسى مجلساً من مشايخ القاهرة وعظمائها ، وتبادل معهم الآراء فى خير الطرق المؤدية الى إحلال الوئام محل الخصام . .

وشمل الهدوء المدينة . .

وعلمت المرأة خديجة ، زوجة عبد الوهاب الجيزاوى ، بمقتل الجندى « لوفوا » الذى أغرقه الثوار فى النيل ، فى جزيرة الروضة ، وفى نفس المكان الذى غرق فيه عبد الوهاب قبل ذلك اليوم بعشرة أسابيع ، فابتسمت للمرة الثانية بعد موت زوجها ، وقالت : « حقاً . إن النيل وفى أمين ! »

لغز أبى قير

فى ٢١ يولية ١٧٩٨ أحرز القائد نابوليون بونابرت نصرا عظيما فى معركة « امبابة » المعروفة فى التاريخ خطأ باسم معركة « الاهرام »

وفى اليوم التالى دخل الجنرال « دوبوى » مدينة القاهرة واحتلها باسم القائد الاعلى للجيش الفرنسى الفاتح

وفى ٢٥ يولية كان الجيش الفرنسى بكامله يقيم معسكراته فى العاصمة المصرية ويستعد لمطاردة المماليك فى أنحاء البلاد

واعتقد بونابرت انه قضى قضاء تاما على آمال اعدائه الانكليز فى زحزحته من مراكزه والحاق الضرر به برا وبحرا

ولكنهم فاجأوه بعد أيام من نصره المبين فى امبابة ، بهجوم بحرى قضى على اسطوله وجعل موقفه محفوفاً بالاخطار

ففى اليومين الاولين من أغسطس سنة ١٧٩٨ ، أى بعد معركة امبابة التاريخية بعشرة أيام ، وثب نلسون الانجليزى على الاميرال برويس الفرنسى ، وهزمه شر هزيمة فى خليج أبو قير

وبدأت المعركة بحركة التفاف رائعة ادهشت رجال البحرية أجمعين

***

وصل الاميرال برويس باسطوله الى خليج أبو قير ، فأصدر أوامره الى جميع الوحدات بأن تلقي مراسيها على مسافة الفين واربعمائة متر من الشاطىء ، وان تدع جزيرة «ابو قير» الصغيرة الى يمينها فنفذت الوحدات أوامر القائد العام ، واصطفت فى جهة واحدة أمام

الشاطئ، على المسافة التى عينها برويس ، وعلى بعد ثمانية أمتار من الجزيرة

وكان عدد الاسطول الفرنسى سبع عشرة قطعة من احدث القطع الحربية فى ذلك العهد • وكان الاميرال برويس قد جعل مركز القيادة العامة فى السفينة « الشرق » واختار من بين ضباطه القومندان « لوس دى كازابيانكا » لقيادة السفينة نفسها

وفى يوم أول اغسطس سنة **١٧٩٨** بدا الاسطول الانجليزى فى عرض البحر مؤلفا من أربع عشرة قطعة حربية يقودها داهية الانجليز ونابغة العصر الاميرال نلسون

واقتربت سفن الاسطول الانجليزى من سفن الاسطول الفرنسى ، وأدرك الجميع ان معركة حامية ستنشب فى ذلك اليوم أو فى اليوم التالى ، وجعلوا يعدون للقتال عدته

وعقد الضباط الفرنسيون اجتماعا تبادلوا فيه الآراء فى أحسن خطة يسلكونها ، فكان رأى الاميرال برويس ، القائد العام للاسطول ، ان تبقى السفن فى أماكنها ولا تتحرك ، وان تنتظر هجوم العدو وتصده

وكان الاميرال نلسون فى ذلك الوقت يصدر أوامره الى سفنه ببدء القتال والهجوم فى الحال دون انتظار الى الغد

وعند ما تقارب الاسطولان خرجت من صفوف السفن الانجليزية سفينة من أعز السفن قوة ومناعة ، أطلق عليها اسم جبار عنيد : « جالوت ! » ــ أو جوليات ــ دلالة على انها لا تقهر

وطافت السفينة حول جزيرة « ابو قير » ثم ألقت مراسيها بين الاسطول الفرنسى والشاطئ المصرى • ولحقت بها بعض السفن الاخرى ورست معها فى ذلك المكان فى صف واحد

وبينما كانت هذه السفن تقوم بحركة الالتفاف حول الجزيرة ، كان الاميرال نلسون يصدر أمره باطلاق المدافع على اسطول العدو

وكان ذلك فى الساعة السادسة مساء

وفى الساعة الثامنة اصيب الاميرال برويس بشظية قنبلة وهو يرقب سير القتال على ظهر سفينة الشرق ، فسقط يتخبط بدمه وأسلم الروح

وانفرد الضابط كازابيانكا بقيادة السفينة الرئيسية ، ولكن الاسطول فقد قائده الاعلى فتضعضعت وحداته وارتبكت حركاته

واشرف على الهلاك •••

***

وكان الجنرال لوس دى كازابيانكا قد ذهب الى الجنرال بونابرت قائد الحملة الفرنسية قبل ان يلتحق بالجيش البحرى ويتسلم قيادة السفينة « الشرق » من الاميرال برويس ، وطلب منه أن يسمح له بأخذ ابنه معه • فسأله بونابرت :

ـــ وما اسم ابنك ؟

ـــ جيوكانتو

ـــ وعمره ؟

ـــ عشر سنوات

ـــ أفهم ان تخاطر بحياتك فى سبيل الوطن • ولكن المخاطرة بحياة هذا الفتى الصغير ضرب من الجنون

ـــ لقد ألح على ابنى جيوكانتو لكى اصطحبه معى فى هذه الرحلة • وهو شجاع أيها الجنرال ، لا أخشى عليه خطرا

ـــ لا يدهشنى ان يكون ابنك شجاعا وهو من ابناء جزيرة « كورسيكا » موطنى وموطنك أيها القومندان • فليكن لك ما تريد ، وليذهب جيوكانتو الصغير معنا الى مصر • وانني أرجو ان يكلل الفوز مساعينا وان نعود جميعا الى فرنسا بعد ان نرفع علمها خافقا فى الشرق

ـــ شكرا لك يا جنرال !

***

سافر الابن اذن مع أبيه ، وأقام فى السفينة التى كان القومندان كازابيانكا يقودها ، والتى جعلها الاميرال برويس مركزا له

ولما قتل الاميرال وحل محله فى السفينة القومندان الكورسيكى ، وقف الابن جيوكانتو بجانب أبيه ، وجعل يصغى اليه وهو يصدر أوامره الى الضباط والجنود فى اثناء المعركة

وبدأت الدائرة تدور على السفن الفرنسية ، فتغرق الواحدة بعد الاخرى وما أزفت الساعة العاشرة حتى كانت ألسنة النيران قد اندلعت فى السفينة « الشرق » وبعد هنيهة انفجرت مراجلها وأشرفت على الغرق

صاح القومندان كازابيانكا فى رجاله :

ـــ حاولوا انقاذ انفسكم قبل ان تغرق بكم السفينة ، وابذلوا جهدكم فى الوصول سباحة الى السفن الاخرى حيث تستطيعون استئناف القتال وشد ازر اخوانكم !

وجعل البحارة يقذفون بأنفسهم الى الماء محاولين الوصول الى السفن الفرنسية الباقية

فى وسط المعركة ، بين القنابل المتساقطة كالمطر المدرار ، والنيران المتصاعدة من كل مكان

وأراد أحدهم أن يفسح مكانا فى أحد زوارق النجاة لقائد السفينة القومندان لوس دى كازابيانكا ، فرفض القومندان ما عرض عليه قائلا :

ـــ كلا ! لن ابارح سفينتى الا بعد ان تخلوها جميعكم . فالقائد لا يحق له أن يفكر فى انقاذ نفسه الا بعد أن يضمن نجاة رجاله أجمعين !

حينذاك التفت البحارة الى جيوكانتو الصغير ، ودعوه الى اللحاق بهم فرفض الابن أن يترك أباه وحده ، وصاح بهم قائلا :

ـــ ان واجب الابن يقضى عليه بالبقاء بجانب أبيه الى النهاية ! لن أترك السفينة الا بعد أن يتركها أبى !

وعبثا حاول لوس دى كازابيانكا اقناع ابنه الشجاع بمغادرة السفينة قبل ان تغرق ، وعبثا حاول البحارة أن يجروه من مكانه بالرغم منه ...

ووجد الاب نفسه بين عاملين : عامل الواجب الوطنى الذى يقضى عليه بالبقاء ، وعامل الحب الابوى الذى يقضى عليه بانقاذ ابنه

ولكن الجندى فى الميدان لا يعرف غير واجب واحد ، هو واجبه العسكرى ، واجبه الوطنى

فكظم الاب النبيل مشاعره المتلاطمة فى صدره ، وحبس دموعه وقد اوشكت ان تنفجر ، وضم ابنه الى صدره قائلا للرجال :

ـــ اسرعوا .. وسألحق بكم مع هذا الفتى

ووضع قبلة على جبين ابنه البطل الصغير وتمتم قائلا :

ـــ انك لجدير بالارض التى أنبتتك ، والتى انبتت لفرنسا نابوليون العظيم !

وكانت النيران قد أحاطت بالاثنين ، الاب والابن ، فتعانقا وغارت بهما السفينة فى جوف اليم وهما ينشدان الاناشيد الحماسية !

ودون التاريخ فى تلك اللحظة حادثة من أروع حوادث البطولة ، فى ذلك العهد المفعم بالبطولة

***

وفى اليوم التالى ، قبل الفجر ، كان الاسطول الفرنسى قد اغرق فى خليج «ابو قير» ، ولم تنج منه غير اربع سفن قادها الاميرال دى فيلنوف خارج منطقة الخطر وفر بها عائدا الى فرنسا

وعندما بلغ نابليون خبر ذلك الانكسار الذى منيت به بحريته ، صمت واجما ، ثم التفت الى قواده وقال :

ـــ اذن سوف تواصل انتصاراتنا فى البر حتى نمحو الاهانة التى ألحقتها بنا انكلترا فى البحر !

***

وقد يسأل القارىء :

ـــ وأين السر الذى تضمنته معركة « أبو قير » البحرية فى غمرتها ؟

والجواب عن هذا السؤال :

ـــ ان السر الذى لم يتمكن أحد بعد من اماطة اللثام عنه ، ومعرفة حقيقته ، هو التفاف السفينة « جالوت » حول جزيرة « أبو قير » الصغيرة ولحاق بعض السفن الانكليزية بها، فان حركة الالتفاف تلك كانت السبب المباشر لانتصار الانجليز فى تلك المعركة ، لانها جعلت الاسطول الفرنسى بين نارين : نار الفريق الذى التحق بالسفينة « جالوت » ونار الفريق الآخر المقبل على الاسطول الفرنسى من عرض البحر . ولم يكن فى وسع السفن الفرنسية أن تتحرك الا من وجهة واحدة ، لان جزيرة « أبو قير » كانت تسد عليها الطريق من الناحية الثالثة

فهل أصدر الاميرال نلسون أمره الى الضابط « فولى » قائد السفينة « جالوت » بالالتفاف حول الجزيرة ؟ أو ان الضابط قد فعل ذلك من تلقاء نفسه ، فكان هو فى الحقيقة بطل ذلك الانتصار الرائع ، ولم يكن للاميرال نلسون العظيم نصيب فيه ؟

ذلك هو السر الغامض الذى لم يكشف عنه الستار بعد : فمن هو المنتصر الحقيقى فى معركة « أبو قير » ، نلسون أم فولى ؟

لقد مرت السنون على ذلك الحادث وبدأت عملية البحث عن السفن المغرقة فى «أبوقير» وقررت الحكومة الفرنسية اطلاق اسم كازابيانكا على احدى قطعها البحرية . ولم تظهر بعد الحقيقة عن حركة الالتفاف التى كانت سببا فى فوز الانكليز واندحار الفرنسيين فى المياه المصرية



هو مصرى أحب وطنه حب المصرى الصميم الوفى لبلاده . وخدمه فى ميدان الجهاد والتضحية مدفوعا بحرارة ذلك الحب الخالص المتين

اسمه « محمد كريم » وهو ابن فلاح جرت فى عروقه وعروق آبائه وأجداده دماء الفلاحين الممزوجة منذ القدم برائحة التربة المصرية الخصبة ، وبمياه النيل العذبة المباركة

وكان محمد كريم ذكيا عالى الهمة واسع الآمال ، فتطلع الى المدن دون القرى والمزارع والحقول ، وعزم على أن يفسح لنفسه طريقا الى الثروة فى معترك الحياة ، فى عاصمة مصر الثانية ، حيث يكثر اختلاط الناس بعضهم ببعض ، وحيث يهبط الاجانب من وقت الى آخر ، فيعقدون مع أبناء البلاد صفقات تدر الربح على الفريقين

أقام محمد كريم فى الاسكندرية ، وكان يميل بطبيعته الى الأخذ والعطاء ، والبيع والشراء ، فتمكن بمساعدة بعض التجار الذين كانوا يعرفون أهله ويعاملونهم ، من الاشتغال « قبانياً » فى الميناء ، يشرف على وزن البضائع الصادرة والواردة ، ويتولى تسلمها أو شحنها لحساب أصحابها

ولكنه لم يقنع بتلك الحرفة التى لا تتفق مع مطامعه وآماله البعيدة ، والتى تضيق دائرة نشاطها بذكائه وفطنته . فلم تمر سنوات معدودة على ذلك اليوم الذى اشتغل فيه محمد كريم قبانيا بالاسكندرية حتى كان الرجل قد ارتفع من مقام الى مقام ، وأصبح فى المدينة رجلا من رجالها الافذاذ ، وزعيما من زعماء الاقتصاد والتجارة ، وعلماً يشار اليه بالبنان

أصبح محمد كريم القبانى مدير المكوس وجابى الاموال على الصادرات والواردات ، وأصبح الرجل الوحيد الذى كان حاكم المدينة المعين من قبل المماليك يتملقه ويتودد اليه ، لأن كلمة محمد كريم فى كل ظرف وحال نافذة ، بينما كانت كلمة الحاكم دائما فى حاجة الى تأييد محمد كريم كى يحلها الناس محلها من الاعتبار

كانت مصر في ذلك الوقت كما كانت في كل عهد ، محط أنظار الغربيين وهدفا لمطامعهم . وكانت دولتان كبيرتان من دول الغرب ، هما انكلترا وفرنسا تتطلعان الى الاستيلاء عليها ، لأن وادي النيل ، كان منذ قديم الزمان ولا يزال الى يومنا هذا مفتاح الشرق

وكانت انكلترا وفرنسا تطمعان في السيطرة على الاقطار الشرقية كلها ، فتطلعت كل منهما الى « المفتاح » بغية الاستيلاء عليه

وأوشكت انكلترا أن تسبق فرنسا في بادىء الامر ، إذ حاول أمير البحر « نلسون » أن يحتل الاسكندرية بلا قتال ، فرست سفنه ومراكبه تجاه المرفأ ، وأوفد رسلة الى المدينة ، فقابلوا حاكمها وأصحاب الكلمة النافذة فيها ، وحذرهم من الفرنسيين الذين يستعدون للشخوص الى مصر بجيش قوي ، واقترحوا عليهم أن يسمحوا لأمير البحر الانكليزي بدخول الثغر والبقاء فيه للدفاع عن الاسكندرية اذا هاجمها الفرنسيون

ولكن محمد كريم حمل زملاءه ورفاقه على رفض هذا الاقتراح ، ورجع الرسل الى نلسون بخفي حنين

وكان الفرنسيون أكثر جرأة من الانكليز ، فوصلت سفنهم ومراكبهم بعد ذلك بقليل الى الى الثغر المصري تحمل جيش القائد « نابليون بونابرت » ونزلوا الى البر في محلة « العجمي » في يومي ٢ و ٣ يوليه سنة ١٧٩٨ ، الموافقة لسنة ١٢١٢ للهجرة

حاول السكان بمعونة الحامية المصرية الضعيفة صدهم فلم يفلحوا ، وهزم الفرنسيون جيش المماليك الذي اعترض سيرهم نحو القاهرة ، في بلدة شبراخيت ، في ١٤ يوليه ، وشعر «مرادبك» سيد مصر وقائد المماليك في ذلك الوقت بأن حكم البلاد يفلت من يده ، ففر مسرعاً الى العاصمة للدفاع عنها ، وجمع تحت لوائه جيشاً قوياً صمد للغزاة الفاتحين في امبابة ولكنه مني بالهزيمة في تلك المعركة التي دارت رحاها في ٢١ يوليه . وفي اليوم الرابع والعشرين من ذلك الشهر ، أي بعد ثلاثة أسابيع من يوم نزول الفرنسيين الى البر في الاسكندرية ، دخل نابليون بونابرت مدينة القاهرة ورفع على أسوارها وقلعتها أعلام الجمهورية

***

لم تسد السكينة البلاد ولم يرفرف عليها السلام على أثر استيلاء الفرنسيين على القاهرة ، وفرار مراد بك وأعوانه وفلول المماليك الى الصعيد . فقد قامت في مصر الثورات ، وتوالت الاضطرابات ، ولم ينعم الفرنسيون بثمرة انتصارهم إلا في الاماكن التي وضعوا فيها حاميات قوية

وكان محمد كريم القباني منظم الهياج على الفرنسيين في الاسكندرية ، فأدرك القوم أن المدينة لن تهدأ وتركن الى المسالمة الا اذا أبعد ذلك الزعيم عنها . فأصدر قائدهم « كليبر » أمره الى

جنوده باعتقال الرجل وارساله الى القاهرة ، لكي يرى القائد العام رأيه فيه

وفى اليوم الثانى من شهر أغسطس سنة ١٧٩٨ رست على ساحل النيل ، أمام بولاق ، سفينة شراعية تقل الاسير ، الذى أرسل الى أحد السجون ـ وكانت جميعها غاصة بالمعتقلين ـ توطئة لمحاكمته أمام محكمة عسكرية

* * *

حوكم كثيرون من أبناء مصر فى ذلك الوقت ، وحكم على بعضهم بالسجن وعلى البعض الآخر بالاعدام ، ونفذت فيهم تلك الاحكام . ولكننا لا نورد هنا تفاصيل تلك الحوادث الرهيبة والمآسى المفجعة . ولا ننقل عن سجلات التاريخ تلك الصفحات الرائعة التى دونت عن محاكمة « محمد كريم » القبانى الاسكندرى . ولكننا نكتفى بذكر حادثة وقعت فى أثناء محاكمة ذلك الشهيد ، وأغفل تدوينها فى « محاضر » التحقيق عن عمد ، وبأمر من القائد العام بونابرت

فقد اتهم محمد كريم بأنه تولى ، بعد نزول الفرنسيين الى البر وزحفهم على القاهرة ، تحريض سكان الاسكندرية على حاميتهم ، وحمل عربان مديرية البحيرة على عرقلة الزحف ، وإرسال الخطابات الى مراد بك لاطلاعه على ما يجرى فى الوجه البحرى ، وإثارة الاضطرابات والثورات فى كل مكان يمتد اليه نفوذه

لم ينكر محمد كريم التهمة التى وجهها اليه القائد ديبوى ، حاكم القاهرة ورئيس المحكمة العسكرية فيها ، بل اعترف بكل ماحوته من تفاصيل ، وأضاف اليها ماغاب عن معرفة الفرنسيين ، وقال لرئيس المحكمة :

ـــ لقد فعلت كل ذلك مدفوعا بحبى لأرض نبتت فيها أسرتى ، ودفن فيها أجدادى ، فافعل أنت ما يمليه عليك واجبك . أما أنا فان ضميرى مرتاح الى ما صنعت فى سبيل الواجب

وصدر الحكم باعدام المتهم رميا بالرصاص . ولكن القائد بونابرت ، الذى كان يحاول اكتساب القلوب واستمالة الشعب أصدر قراره بعد الموافقة على الحكم ، بأن يسمح لمحمد كريم بافتداء نفسه اذا شاء ، بمبلغ ثلاثين ألف ريال ، على أن يدفعها فى خلال أربع وعشرين ساعة على الاكثر

وعند ما تليت صورة الحكم على القبانى مقرونة بقرار القائد العام ، ضحك وقال :

ـــ اذا كنتم تعدوننى مذنبا ، فان دفع ذلك المبلغ من المال لن يجعلنى بريئا فى نظركم ، والبراءة لا تباع ولا تشترى . أما اذا كنتم لا تعدوننى مذنبا ، فما معنى تلك الفدية التى تطلبونها ؟

وحاول أصدقاؤه أن يحملوه على العدول عن عناده ، ودفع المبلغ والعودة الى ميدان العمل . ولكنه رفض بإباء وقال لمحدثيه :

ـــ إما البراءة بلا قيد ولا شرط ، وإما الاعدام بلا شفقة ولا رحمة ، فاذا كان مقدراً لى أن أموت ، فان دفع المبلغ لن يدفع عنى الموت ، واذا كان مقدراً لى أن أعيش . فعلام أدفع الفدية ؟

وأمام ذلك العناد العجيب ، قرر بونابرت تنفيذ حكم الاعدام عند باب القلعة ، رمياً بالرصاص

* * *

حدث ذلك فى يوم ٥ سبتمبرسنة ١٧٩٨ ، وتحدد يوم ٦ سبتمبر موعداً لتنفيذ الحكم فى المتهم العنيد الذى رفض أن يفتدى نفسه ، وهو صاحب المال الوافر والأملاك الشاسعة

وفى مساء يوم ٥ سبتمبر ، دخلت على القائد ديبوى ، فى مقره بالقاهرة ، فتاة فى العقد الثالث من العمر ، جميلة الوجه ، طويلة القامة شقراء الشعر ، زرقاء العينين ، وبدون توطئة ولا مقدمة ، بادرته بهذه الكلمات التى تركت الرجل حيران مذهولا !

ـــ أيها القائد ، ان التى تخاطبك الآن فتاة يجرى فى عروقها دم فرنسي، وهى ترغب اليك فى أن تحقق أمنيتها وتجيبها الى طلبها ، ولن يكلفك هذا شيئا على الاطلاق ، لقد حكمتم بالاعدام على محمد كريم القبانى الاسكندرى ، وسمحتم له بأن يفتدى نفسه بثلاثين الف ريال فأبى ، واليك الآن مبلغ الفدية التى تطلبونها . فأصدر أمرك باطلاق سراح السجين ، الذى قررتم إعدامه غداً!

قالت الفتاة هذه الكلمات . ثم ألقت على مقعد بجانب الجنرال ديبوى ، كيساً مملوءاً بالفضة والذهب ، وأردفت قائلة :

ـــ أرجو أن تعد هذا المال ، ولكننى أؤكد لك أن هذا الكيس يحوي المبلغ المطلوب كاملا

سكت ديبوى ، وفكر طويلا ، ثم قال للفتاة :

ـــ لا أسألك أيتها الآنسة عن الدافع الذى حملك على هذا العمل ، فقد يكون فى حياتك سر ترغبين فى كتمانه

فقاطعته الفتاة قائلة :

ليس فى حياتى سر كما تظن ، ولا تربطنى بهذا المصري رابطة أثيمة كما قد يتبادر الى ذهنك . ولكنه رجل نبيل شريف ، أنقذنى من الموت فى الاسكندرية يوم نزولكم اليها ، وقد قتل أبى فى ذلك اليوم خطأ ، وبقيت مع والدتى واخوتى الصغار، ففتح لنا محمد كريم باب داره فاحتمينا فيها، ونحن والحمد لله أغنياء . جمعنا ثروة طائلة فى هذه البلاد ، واذا دفعنا اليوم فدية السجين المصري ، فاننا نسدد ديناً علينا ، ونثبت اننا لا ننكر الجميل

* * *

رفع ديبوى أمر الفتاة الى القائد بونابرت . فطلب القائد أن يرى الفتاة فذهبت اليه ،

وألقت نفسها على قدميه ، وألحت عليه بقبول ما تعرضه ، لأنها تريد أن تنقذ حياة الرجل الذى أنقذها وأسرتها من الموت

سألها القائد :

ـــ ما اسمك ؟ ومن أى أسرة أنت ؟

ـــ اسمى « مارى آن انجليدس » وأنا ابنة رجل يونانى ، وأمى فرنسية كان أبى يزاول التجارة فى الاسكندرية ويجوب البحار بين الثغور المصرية والثغور اليونانية ، وقد مات تاركا لنا ثروة كبيرة . فلن يضيرنا أن ندفع منها ما تطلبونه ، لانقاذ حياة الرجل الذى أحسن الينا

* * *

فى يوم ٦ سبتمبر ١٧٩٨ ، نفذ حكم الاعدام فى محمد كريم القبانى الاسكندرى رمياً بالرصاص أمام مدخل القلعة المشرفة على القاهرة

أما كيف رفض بونابرت ما عرضته عليه الفتاة ؟ ولماذا رفض ؟

هذا مالم يسجله تاريخ ولم تدونه مذكرات

ولو لم يقص بونابرت نفسه قصة الفتاة مارى آن انجليدس ، على أحد أعوانه الضباط ، فيخصها ذلك الضابط ببضعة سطور فى مذكراته ، لبقى هذا الحادث مجهولا ، ولما علم الناس فيما بعد بما أقدمت عليه تلك الفتاة اليونانية الفرنسية النبيلة ، التى أرادت أن تنقذ من الموت رجلا مصريا نبيلا

احمد القاضي

مشى ابراهيم باشا بجيشه المظفر وأعوانه وحلفائه البواسل من متطوعي لبنان والبادية من نصر الى نصر ومن فتح الى فتح ، وانهزمت أمامه فى كل مكان جحافل الاتراك . وما هى إلا سنوات قليلة حتى كانت الاعلام المصرية تخفق على المدن والقرى والجبال والقلاع من غزة هاشم وعكاء الحصينة فى الجنوب ، الى دمشق الفيحاء وبادية الشام فى الشرق ، الى حمص المنيعة وحلب الشهباء فى الشمال . وتم لابن محمد على باشا بعد تلك الانتصارات الباهرة ما عجز دونه غيره من نوابغ القواد وكبار الفاتحين . فأقام الحكم باسم أبيه فى الاقطار الشامية واللبنانية من أدناها الى أقصاها

وبعد أن فرغ من الحروب وترك فى كل موقع حربى ومعقل حصين حامية من جنوده أو من رجال صديقه وحليفه بشير الشهابى أمير لبنان ، جعل ابراهيم يوجه اهتمامه الى وضع إدارة البلاد على أسس متينة عادلة ، وإعادة الطمأنينة الى نفوس السكان وإحلال الانصاف والنزاهة فى العمل محل الرشوة والظلم ، فى أقطار كانت تئن من الفوضى ، وقد أعدم الاتراك فيها كل نزاهة وانصاف وطمأنينة وعدالة ونظام

وكان الامير بشير الشهابى قد رضى مختاراً بجعل إمارته الجبلية تابعة فى ادارتها لمصر . وكان أول من رفع لواء العصيان وانضم برجاله الى الغزاة وسار فى طليعة الجيش الفاتح مع ابنائه يهاجم المدن ويدك الحصون . وكان ابراهيم باشا ينظر اليه نظرة الابن الى الاب والشاب الى الشيخ ، يستنير بآرائه ويستفيد من حكمته عملا باشارة محمد على باشا ، لأن عزيز مصر كان يعول على الامير الشيخ الذى عركته الايام وجربته الحوادث وصقلته الحروب ، ويطلب من ابنه ابراهيم أن يعمل دائماً بنصيحته ويتبع إرشاده

نزل ابراهيم باشا فى ضيافة حليفه الامير بشير اللبناني فى قصر « بيت الدين » مقر الامير .

وأقام له سيد لبنان فى تلك الليلة وليمة فاخرة دعا اليها زعماء الجبال ومشايخ القرى : وأشعلت النيران على القمم ابتهاجاً بقدوم القائد العظيم ونزوله ضيفاً على صديقه . وظلت الافراح قائمة ثلاثة أيام بلياليها ، والناس فى سرور وحبور ، ينشدون الاناشيد الحربية ويملأون الجو بأهازيجهم

وفى الليلة الثالثة ، بينما كان القوم فى مجلس سمر يتبادلون الاحاديث ويضعون للغد خطته ويعدون له عدته . قال الامير اللبنانى لضيفه العظيم :

ـــ لقد علمت أيها القائد من أمرنا الشيء الكثير ، فقد أطلعناك على شؤوننا وأحوالنا ، وهتكنا لك الحجاب عن أسرارنا ، ووفينا بالعهد الذى قطعناه لأبيك عند ما أضافنا فى مصر وتعاقد معنا على محاربة الدولة . والآن ، بعد أن تم لنا النصر واستولينا على البلاد التى أراد أبوك أن يبسط سلطان مصر عليها ، دعنا نطلعك على بعض الدخائل التى قد تجد فيها كحاكم وقاض وادارى ما يستدعى اهتمامك ويستحق التفاتك

ـــ اننى أهتم بصغائر الأمور قبل كبائرها أيها الصديق . فأطلعنى على ما تريد

ـــ فى هذا القصر امرأة عربية أرغب اليك فى أن تدعها تقص عليك قصتها ، فتنصفها اذا استطعت الى ذلك سبيلا ، لأننى كنت الى الآن عاجزاً عن إنصافها وغير قادر إلا على شيء واحد ، وهو أن أضيفها فى قصرى وأمنع عنها كل خطر وضرر . .

***

وقصت المرأة قصتها على ابراهيم ، بشير ومن كان يحيط بهما فى ذلك المجلس قالت :

« عند ما رحل نابوليون بونابرت عن هذه البلاد منذ خمسة وثلاثين عاما أو أكثر ، على أثر فشله أمام أسوار عكاء ، تخلف عن الرحيل معه كثيرون من رجاله ، إما لأن المرض قد منعهم من متابعة السير وإما لأنهم قد وقعوا فى أسر رجال « الجزار » حاكم عكاء وأنصاره من أبناء الجبال . وكان بين أولئك المتخلفين شاب من ضباط الجيش الفرنسى يدعى «جان جاك كاديو» من سكان مقاطعة بريتانيا الفرنسية

« دخل جان جاك مدينة عكاء بعد رحيل الفرنسيين بأيام معدودة . وذهب الى الوالى أحمد الجزار وعرض عليه الدخول فى خدمته والاقامة فى قصره ، قائلا انه يعتنق الاسلام ويقطع كل علاقة تربطه بوطنه وأمته وأهله

« رضى الجزار لأنه توسم فى الشاب الغريب الذكاء والفطنة والشجاعة ، فأجابه الى طلبه واستخدمه فى تنظيم جيشه وتدريب جنده على إطلاق المدافع وتحصين الأسوار . وصار الشاب منذ ذلك اليوم يعرف باسم « أحمد القاضى » وقد سمى نفسه كما ترون باسم الوالى « الجزار » أما « القاضى » فهى تحريف كلمة « كاديو » الفرنسية أى اسم الأسرة التى ينتمى اليها ذلك الشاب

« وبعد ذلك بسنوات قليلة تزوج أحمد القاضي امرأة تركية من عكاء ورزق منها ابنة سماها « وردة » وابناً أطلق عليه اسم « فؤاد » وظل مقيماً فى عكاء بعد ذهاب الجزار وتولية عبد الله باشا ، الذى حاربكم ودافع عن عكاء أمام جيشكم حتى انتصرتم عليه واستوليتم على المدينة وأرسلتم الرجل الى مصر مقيداً أسيراً

« أما أحمد القاضى الذى كان فى الدفاع عن المدينة ساعد عبد الله باشا الايمن ، والذى كان يقضي النهار والليل على الأسوار ، حاثا الجنود على مضاعفة الجهود مستنهضاً هممهم مشرفا على أعمالهم، فانه لم يقع بين أيديكم ولم تعلموا من أمره شيئا لأنه اختفى مع شرذمة من رجاله المخلصين وأبطاله الأشداء . وهو الآن يطوف فى أنحاء هذه البلاد مع تلك العصبة التى التفت حوله ، ويفتك بالجنود المصريين وحلفائهم اللبنانيين ، كلما التقى بأحدهم منفرداً فى الغابات والوديان والجبال

« وقد ظل ماضيه مجهولا من الناس ، حتى من ابنه وابنته ، الى أن أطلعهما عبد الله باشا نفسه ، قبيل رحيله عن عكاء ، على قصة أبيهما ودخوله فى خدمة الجزار ، فعلما منذ ذلك الوقت بالسر الذى يكتنف مولدهما وحياتهما ، وان الدم الذي يسرى فى عروقهما انما هو دم فرنسى أصيل

« وهالهما ما يقوم به أبوهما من أعمال معادية للجيش المصرى، وهما يعلمان أن وطنهما الأول - فرنسا - حليفة مصر فى هذه الحرب ، وأن من يناصب ابراهيم باشا العداء انما هو فى الوقت نفسه عدو فرنسا وحليف أعدائها

« وعلى أثر مناقشة حادة بين الأب وولديه ، وقع ما كان لابد من وقوعه ، وأعلن الأبن العصيان على أبيه ، وانضمت اليه أخته ورحل الاثنان عن المدينة قائلين انهما يفضلان الالتحاق بجيش ابراهيم ومحاربة أبيهما على البقاء فى صفوف أعدائه ومحاربة حليف وطنهما !

« لكن الأب القاسى العنيد أقسم انه يؤثر الموت لهما على خروجهما عليه ، وانه يهدر دمهما ويقتلهما بيده اذا نفذا وعيدهما والتحقا برجال ابراهيم

« وبعد أسابيع من ذلك اليوم المشئوم سقط فؤاد بن أحمد القاضى قتيلا فى« حوش بيروت» حيث اغتالته عصابة أبيه على مرأى من أخته التي تمكنت من الفرار ونجت بأعجوبة

« ووردة ، أخت القتيل الهاربة من غضب أبيها ، التى تخشى أن يتناولها خنجر القتلة أو أن يطعنها أبوها بنفسه الطعنة القاضية ، وردة هذه هى المرأة التى ترونها أمامكم ، والتى احتمت بالأمير بشير الشهابى فحماها ، واستجارت به فأجارها ، وطلبت منه الضيافة فأضافها فى قصره

« هذه قصتى فهل يرضى ابراهيم بأن تظل امرأة مثلى شريدة طريدة تقيم داخل هذه الجدران دون أن تجرؤ على الخروج والتمتع بالحرية ، لأن أباها يقود عصابة من القتلة ويتربص للفتك بها قبل الفتك بسواها ممن رفضت أن تناصبهم العداء ؟ »

ظل ابراهيم وبشير ومن كان فى مجلسهم يصغون صامتين لحديث المرأة . ولما انتهت من سرد قصتها قال ابراهيم :

— سأنصفك يا أختى كما أنصفت غيرك ، وأرد عنك كيد ذلك الوالد القاسى

* * *

أمر ابراهيم جنوده ببناء منزل صغير فى حرش الصنوبر ببيروت ، وفى نفس المكان الذى اغتال فيه القتلة « فؤاد القاضى » وطلب من المرأة أن تقيم فيه آمنة مطمئنة فى حراسة رجاله المخلصين

وما فعل القائد ذلك وحمل المرأة على الخروج من قصر الامير حيث تعيش إلا لكى يعلم أبوها بالامر ويحاول الاعتداء عليها ، فيقع فى قبضة الجند ويقدم حسابا عما اقترفت يداه

وهذا ما حصل . فقد هاجم احمد القاضى برجاله بيت ابنته ، واشتبك فى قتال مع جنود ابراهيم ففتكوا بعصابته وقادوه الى ابراهيم أسيراً ذليلا

وفى اليوم التالى ، عقد القائد المصرى فى منزل المرأة مجلسا حربيا ضم فريقا من القواد والزعماء ، فجىء بالرجل أمامه ، وبعد أن أطلع ابراهيم رفاقه على ماحدث وجه اليه الخطاب قائلا :

— لقد خنت أيها الجندى وطنك مرة أولى بانضمامك الى الجزار . وخنته مرة ثانية بدفاعك عن عكاء ، وقد هاجمها جنودى حلفاء وطنك ، وخنت دينك فجحدته ، واعتنقت الاسلام لا عن عقيدة بل سعيا وراء المصلحة. وخنت العواطف الأبوية بأن أرسلت من يقتل ولدك وفلذة كبدك ، وكنت عازما على أن تختم سلسلة خياناتك هذه باغتيال ابنتك بعد ولدك . وعقاب من يقترف تلك الخيانات جميعها التعذيب والموت ، لكننى لن أعذبك اكراما لابنتك . أما الموت فلا بد منه . واذا كنت تعد نفسك حقا جنديا شجاعاً وضابطاً يحسب للشرف والكرامة وعزة النفس حساباً، فانزل بنفسك العقاب الذى تستحقه ، واقطع حبل حياتك بيدك ولا تدع سيف الجلاد يعلو عنقك !

ساد المجلس سكوت رهيب . . .

أما احمد القاضى فانه طاف ببصره على أولئك الذين يحيطون به ، وقد اكتنفته أنظارهم البراقة وتطاير من عيونهم الشرر ، ثم مد يده الى أحد الجنود مشيراً الى خنجره . . .

فأعطاه الجندى الخنجر . وبأسرع من لمح البصر ، أغمد ذلك النصل الحاد فى صدره وسقط على الارض يتخبط بدمه دون أن يفوه بكلمة واحدة . . .

تلك كانت آخرة « احمد القاضى » فى يوم من أيام الشتاء سنة ١٨٣٦ ، فى منزل ابنته وردة ، بحرش الصنوبر ببيروت

أما وردة ، فقد بقيت بعد ذلك مقيمة فى بيتها ، وماتت بعد رحيل المصريين عن لبنان بخمسة أعوام ، فى سنة ١٨٤٥

الكهف الكبير

« لقد سقطت « مسولونجى » فى قبضتنا ، فليستعد الجيش للزحف فى الحال على حصن « اثينا » المعقل الاخير للثائرين »

هـذا ما قاله ابراهيم باشا ابن محمد على باشا قائد الجيش المصرى فى حرب « المورة » على أثر سقوط ذلك الميناء المنيع ـ ميناء مسولونجى ، الذي دافع عنه الثائرون اليونانيون دفاع الابطال المستميتين ، والذى استولى عليه ابراهيم باشا فى شهر ابريل ١٨٢٧ بعـد حصار دام شهوراً ، وخسر فيه الجيش المصرى ثلث عدده وعتاده

كان اليونانيون قد أعلنوا ثورتهم على الدولة العثمانية فى سنة ١٨٢٢ . فدارت رحى المعارك بين الثائرين وجيوش السلطان من تلك السنة الى سنة ١٨٢٧ ، ولم تتمكن الجيوش من القضاء على الثورة وتدمير حصون الثائرين ومعاقلهم إلا بعد ما نزل ابراهيم باشا الى الميدان بجنوده البواسل ، فقادهم من نصر الى نصر ، وانتهت حملته المشهورة بالاستيلاء على حصن أثينا فى يونيه سنة ١٨٢٧

***

كان القائد المصرى جالساً ذات ليلة فى مضربه ، يعد العدة لهجوم الغد ، واذا برجل غريب يصل الى المعسكر ويطلب المثول بين يدى ابراهيم باشا

ـــ فى الجبال اليونانية أيها القائد دير قديم مشهور ، تكدست فيه الاموال والحلى والجواهر ونفائس الفن على اختلاف أنواعها ، ويقيم فى هذا الدير زهاء خمسمائة راهب ألفوا الدفاع عن ديرهم الحصين ، وذلك بالاستعداد للحرب كلما فرغوا من صلاتهم وتهجدهم ، ولكن جيشك قادر على إخضاعهم والاستيلاء على الكنوز المخبوءة فى ديرهم وانى أعرف طريقاً خفية للدخول الى الدير خلسة. اذا ما خانك الحظ فى الميدان . فاذا سرت معى الى ذلك الدير عدت منه ومعك ثروة طائلة

— أى دير تعنى ؟

— دير ميجاسبيليون أيها القائد

— لقد سمعت كثيراً عن هذا الدير ، ولكن أية مكافأة تطلب منى مقابل الخدمة التى تعرضها

— فى الدير أيها القائد صورة فنية قديمة للعذراء مريم عليها السلام . وأنا راغب فى حمل هذه الصورة الى بلادى ، ولا أطمع فى شىء غير الاستيلاء عليها

— ومن أجل هذا تخون اليونانيين وتساعدنى على دخول الدير ؟

— إن ما أقدم عليه ليس خيانة أيها القائد . كنت خادماً فى الدير منذ عشرة أعوام . ولكننى من أشراف هنغاريا . ولم أخف شخصيتى وأشتغل خادماً عند الرهبان اليونانيين إلا من أجل الوصول الى الهدف الذى وضعته نصب عينى ، وهو الاستيلاء على الصورة الثمينة . وقد اكتشف الرهبان أمرى وهتكوا الحجاب عن سرى ، فقبضوا علىّ وأوسعونى ضرباً وحبسونى فى قبو مظلم مدة أسبوعين كاملين . وفى ذات مساء . فكرت فى الهرب . وساعدني الحظ فاهتديت الى سرداب سرى منحوت فى الصخر الأصم ، قد يجهل الرهبان أنفسهم وجوده . فخرجت منه وانطلقت هاربا فى الجبال وعدت الى بلادى . ولا يهمنى الآن غير شىء واحد هو الاستيلاء على صورة العذراء

***

كانت الفتاة « فروسينا » راعية الغنم التى يجرى فى عروقها دم ملكى تحرس قطيعها الصغير فى سفح جبل « سيلينا » الذى كان يعرف قديماً باسم « اركاديا » وكانت تلجأ الى مغارة فى سفح الجبل ، يسميها الفلاحون « الكهف الكبير »

وفروسينا فتاة تقية ورعة . عاشت فى الجيل الثامن للميلاد . وتركت بعدها اسماً طيباً وذكراً حسناً . وكان سكان الجبال والوديان فى تلك المناطق الوعرة يعدونها قديسة ويطلبون منها أن تتوسط لهم عند الله لكى يجعل مزارعهم خصبة وحياتهم سعيدة

خرجت فروسينا ذات يوم كعادتها الى الجبل . وتركت خرافها تمرح بين الصخور والاشجار . ودخلت الكهف وجعلت تطوف فى أرجائه ، فعثرت على صورة قديمة للعذراء مريم عليها السلام مرسومة على قطعة من القماش المتين ، مثبتة على لوحة من الشمع المجفف بالغراء

وأقبل العارفون على تلك الصورة القديمة يفحصونها ويدرسونها . فاذا بهم أمام أثر جليل يمت الى أصل المسيحية بسبب . إذ تبين لهم أن الصورة من صنع القديس « لوقا » الرسول صاحب الانجيل الذى يحمل اسمه . وان تاريخ الصورة الاثرية يرجع الى الجيل الاول للميلاد

وما مضت سنوات على اكتشاف تلك الصورة ، حتى كان النساك والزهاد والمتعبدون قد تقاطروا من جميع أنحاء اليونان على « الكهف الكبير » للتبرك بها والاقامة فى ذلك المكان

الذي عدوه مقدسا منذ العثور فيه على صورة العذراء التي تقوم بالمعجزات

وشيد حول الكهف دير لايواء الرهبان . أطلق عليه اسم « ميجاسبيليون » وهي كلمة يونانية معناها « الكهف الكبير »

ومنذ ذلك الحين كثرت هبات العظماء وهداياهم للدير . فتكدست الاموال والحجارة الكريمة والصور النفيسة والرسوم النادرة والمصابيح الذهبية والحلى والطنافس فى غرفه وأقبيته وأصبح دير « ميجاسبيليون » أغنى الأديرة اليونانية على الاطلاق

وذاع صيت الصورة صاحبة العجائب . فجعل الطامعون فيها يتطلعون الى الدير بعين الرغبة والحسد ويسعون للحصول على الصورة بالحلال أو الحرام على السواء . وقد لا يدهش القارىء لالتجاء بعضهم الى الدسائس والسرقة اذا علم أن طائفة من متديني النصارى يعتقدون أن سرقة الاواني الدينية والصور المقدسة والايقونات وغيرها من الادوات التي تثير فى نفوس المتعبدين شعور التقوى والصلاح ليست من الاعمال المحرمة . بل ان الله يغفر للسارق ذنبه

بمثل هذا الشعور عمد المنغاري « هانس » الشريف النبيل الى الدخول فى خدمة الرهبان فى دير « ميجاسبيليون » على أمل أن تسنح له الفرصة فيسرق الصورة النفيسة صاحبة العجائب ويحملها الى وطنه . إما لعرضها على الانظار وإما لبيعها

لم يكن ابراهيم باشا ليعلق أهمية على الصورة الاثرية ومكانتها فى نفوس أعدائه اليونانيين . ولكنه كان يرمى الى غرضين من مهاجمة الدير الشهير . أولهما اخضاع طائفة من الثائرين الذين لجأوا الى « الكهف الكبير » وجعلوه مركزاً للعصيان فى اركاديا . والثاني الاستيلاء على الكنوز الكثيرة المكدسة فى سراديب الدير لاستخدامها فى الحرب التي خاض أبوه غمارها

ولكن الدير منيع الجانب ، ودون الوصول اليه أهوال وأهوال . فاذا كان المنغاري « هانس » يعرف حقيقة سرداباً سرياً يؤدى الى داخل الكهف ، فان المهمة تصبح سهلة واقتحام الدير لن يكلف الجيش المهاجم خسائر فادحة

علم الرهبان ورفاقهم الثائرون بزحف فريق من الجيش المصرى على معقلهم المنيع فاستعدوا للدفاع ، وحملوا صناديق البارود الى المستودع الذى حفروه فى أعلى الجبل فوق مدخل الكهف ، ووزعوا البنادق والسيوف والخناجر على جميع القادرين على حمل السلاح

ووصل المصريون الى سفح الجبل فى ليلة مقمرة صافية الاديم . وبدأوا فى الحال يطلقون النار على المتاريس التي أقامها الرهبان فى مداخل الطرقات المؤدية الى الدير ، وأسرع هانس المنغاري مع لفيف من الجنود الاشداء الى المكان المعروف الذى يبدأ منه السرداب الخفى

ولكن الرهبان كانوا أبعد نظراً من الخائن المنغاري ، فتداركوا الخطر وسدوا على المهاجمين

سبل مفاجأتهم فى عقر الدير . وما كاد الغريب يصل برجاله الى المكان المعهود ، حتى قابلهم كمين من الثائرين بنار حامية اضطرتهم الى العودة مسرعين . وسقط هانس جريحاً فى القتال

وأعاد المصريون الكرة مرة ثانية فثالثة فرابعة . ولكنهم لم يتمكنوا من معرفة مكان السرداب، كما أنهم لم يعثروا لدليلهم على أثر

ودافع الرهبان ورفاقهم الثائرون عن الدير دفاع الليوث الكاسرة . واضطر المصريون بعد حصار طويل الى العدول عن قصدهم . وعادوا الى الوراء حيث حمى وطيس القتال بين بقية الجيش وفلول الثائرين

ولما أدرك الرهبان أن المصريين يرفعون الحصار ، رفعوا أصواتهم بالهتاف والتهليل وألقوا من أسوار الدير برميلا جعل يتدحرج فوق الصخور على سفح الجبال

ابتعد الجنود لانهم أدركوا أن البرميل مملوءاً باروداً ، وأن الرهبان قد أشعلوا فيه فتيلا ، وأنهم يودعون المحاصرين الراحلين بالقاء ذلك البرميل عليهم كقذيفة هائلة تحصد الأرواح

وانفجر البرميل قبل أن يستقر فى أسفل الجبل ، وكان لانفجاره دوى مخيف

وتناثرت منه أعضاء جسم بشرى سقطت هنا وهناك بين صفوف الجنود ، مع التراب وشظايا الصخور

وعرف فيها المصريون أجزاء متقطعة من جسم الخائن المنفارى هانس ، الخادم الشريف الذى رافق المصريين الى دير « الكهف الكبير » طمعاً فى الاستيلاء على صورة العذراء ذات العجائب ، فكان جزاؤه الموت، فقد أسره الرهبان بعد أن سقط جريحاً فى المعركة ، وقادوه من السرداب الخفى الذى كان يعرف سره الى داخل الدير ، وأبقوه عندهم الى أن رفع المصريون الحصار عن ميجاسبيليون، فوضعوه فى برميل البارود ، وأشعلوا النار بالفتيل والقوا البرميل على الجيش الراحل تحية الوداع !

ويعتقد اليونانيون أن العذراء هى التى أنقذت الدير فى ذلك الظرف العصيب

أما ابراهيم ، فقد قال عند ما بلغه خبر هانس وكيفية موته :

— لا أحمل موجدة على الرهبان الشجعان فقد دافعوا عن ديرهم دفاع الابطال وقتلوا الخائن قتلا لو كنت مكانهم لما اخترت له غيره !

الأسد السوداني

جلس الشابان الصديقان يتجاذبان اطراف الحديث ، في حوش المدرسة الحربية بالقاهرة ، وجعل كل منهما يفضي الى صاحبه بما يجيش في صدره من آمال واسعة ومطامع بعيدة

أحدهما احمد عرابي والآخر عثمان الصغير

تكلما طويلا عن مصر والسودان ، عن حاضر البلدين ومستقبلهما ، عن الحروب السابقة والمقبلة ، عن كل ما يثير اهتمام رجلين تدب فيهما روح النشاط ، ويجري في عروقهما دم فتي ، يدفعهما الى ركوب متن الاخطار سعيا وراء العلا

كان الصديقان يستقبلان الحياة بثغر باسم وثقة في الاقدار لا حد لها

جاء عثمان الصغير الى المدرسة الحربية ، فلم يجد فيها من يصادقه الا الشاب احمد عرابي ، فتوثقت بين الاثنين روابط المحبة ، وأخلص كل منهما لصديقه الاخلاص كله

غير ان الاقدار فرقت بينهما ، فذهب كل منهما في طريقه . لكنهما كانا يلتقيان بالروح ، وكان كل من الصديقين يسعى من جهته الى تحقيق تلك الآمال والاماني ، التي قربت بين قلبيهما في عهد الدراسة والتدريب

فقام احمد عرابي بثورته المشهورة ...

وقام عثمان الصغير بحروبه الدموية ...

***

سنة ١٩٠٠

تغلب الاسد البريطاني على الاسد السوداني ، بعد عراك دام عشرات السنين ، فأنشب في خصمه الصريع مخالبه ، وأبعده عن عرينه ، مخافة ان تنهض الاشبال من جديد لنصرة المغلوب

وقع « عثمان دقنه » فى أسر الانكليز ، فزجوه فى أعماق السجون

وكبلوا بالسلاسل ذلك الذى كان يقابل التهديد والوعيد بالكر والهجوم ، ويتصدى للمدافع والبنادق بالرماح والسيوف

أفل نجم الزعيم المهيب ، الذى ألقى الرعب فى نفوس أعدائه ، وحصد صفوفهم كما تحصد المناجل سنابل القمح ، فأصبح الآن سجين الجدران السوداء ، لا قوة له ولا حول

جلس فى بادىء الامر يذرف الدمع على أيام مضت ، كان يمرح فيها حرا طليقا فى الفلاة والغابات ، يستنهض الهمم ويستفز القوم للقتال ، داعيا الى الثورة وتحطيم الاغلال

ثم شردت افكاره الى الماضى البعيد ، فتذكر عهد الشباب ...

تذكر صديقه احمد عرابى وما حل به من فشل وشقاء ..

وتذكر ايام الصبى ...

تجلت للاسير صفحات حياته ، فجعل يقلبها واحدة واحدة ، ويقرأ فيها ما توالى عليه من حوادث .. وخيل اليه انه يحيا حياته من جديد ، وانه يعود الى تلك المدينة الافرنجية التى رأى فيها النور ، والتى كان يجرى فى أزقتها مع الصبيان ...

***

اسمها روان ، وهى من اعمال فرنسا ...

واسم والده « ريسبت » ...

جاء من وطنه سكوتلاندا الى روان ، مع زوجته الشابة ، وفتح فى المدينة الفرنسية حانة كان يؤمها العمال والفلاحون ، ورزق هناك ولده « جورج » سنة ١٨٣٦

لكن الرجل كان يحب الاسفار والمغامرات ، فسافر مع عائلته الصغيرة الى الاسكندرية

وهناك تعرف برجل تركى يدعى عثمان

وكان عثمان من النخاسين المشهورين فى ذلك العهد

عاونه ريسبت فى أعماله ، وأخلص له فى خدمته ، فاتخذه عثمان مرشدا له ، وعلق عليه الآمال البعيدة

لكن ريسبت أصيب بحمى خبيثة أودت بحياته ، وكان ذلك سنة ١٨٤٨

وظلت الارملة المسكينة مع وحيدها جورج ، حائرة فى أمرها ، تنظر الى المستقبل بعين الخوف والرعب

جلست يوما من الايام تبوح بقلقها الى صديق زوجها ، وطلبت اليه أن يعيدها الى وطنها ، فهز الرجل رأسه وقال :

ــ ان النخاس غليظ الكبد شرس الطباع ، لكنه يحفظ الجميل ولا يتخلى عن الصديق. لقد أخلص لي زوجك الخدمة والنصح ، فلا يجمل بي الآن ـ وقد مات ذلك الصديق ـ ان أترك زوجته وابنه فريسة للاقدار ، ينزل بهما الشقاء

ــ لو لم أكن واثقة من عواطفك لما تقدمت اليك بهذا الطلب ...

ــ لم تفطني بعد الى ما أقصد

ــ أفصح

ــ لقد مات زوجك ... فعلى عثمان النخاس أن يحل محله ..

ــ أتطلب الى ...

ــ ان تصيري زوجتي وأن يصير ولدك ولدي

ــ وديني ؟

ــ لا أجد في دينك عقبة تحول دون تحقيق رغبتي . ستظلين على دينك أو تعتنقين الاسلام اذا شئت

ــ وولدي ؟

ــ ان مستقبله بين يديك ، فعليك ان تختاري له السبيل الذي تريدين ان يسير عليه

فكرت المرأة حينا ، ثم رفعت رأسها وأجابت :

ــ قبلت . سأصير زوجتك . وهأنا بين يديك مع ولدي . ولكن ...

ــ ولكن ؟..

ــ أريد أن أكون زوجتك الوحيدة ، لا تشاركني في حياتي الزوجية امرأة أخرى

ــ سيكون لك ما تريدين ...

ــ سأدين بدينك مع ولدي ... فكن له الاب الحنون بعد وفاة ابيه

ــ سأكونه . وليس ما اعرضه عليك الآن الا نوعا من الوفاء نحو من كان لي أمينا وفيا

تزوج عثمان النخاس التركي بأرملة صديقه ريسبت ، وأطلق اسمه على ابن زوجته ، فصار جورج ريسبت يدعى عثمان الصغير

***

ماتت الأم ...

ومات عثمان النخاس ...

وورث عثمان الصغير عن مربيه ثروة طائلة ، وانصرف مثله الى النخاسة ، فكان يطوف البلاد شرقا وغربا ، ويعرض على الناس بضائعه الحية من عبيد وجوار ، وأقام في السودان

حيث يتسع مجال العمل وتكثر أبواب الرزق

سنة ١٨٨٣ ...

ألغيت النخاسة وكان الغاؤها ضربة قاضية على تجارة عثمان الرابحة ، فغضب حينذاك غضبته الاولى وانضم الى من كان يناوىء الانكليز والمصريين ، واستعاض بالرمح يطعن به صدور اعدائه ، عن السوط يدمى به ظهور عبيده وصدور جواريه

وهكذا تحول النخاس الى جندى ، وزعيم تجار النهود والنحور الى قائد حربى ..

وكان قد أرخى لحيته ، فأطلق عليه رجال القبائل السودانية الذين قادهم الى القتال والنصر ذلك اللقب الذى عرف به ودونه فى سجل التاريخ : « عثمان دقنه »

***

تلك هى الذكريات التى جاشت فى رأس الرجل عند ما وقع أسيرا وشد وثاقه كالمجرم وتذكر أيضا الانتصارات التى أحرزها على اعدائه ...

فى لحظة واحدة مرت أمام ناظريه مئات الحوادث التى كان بطلها ومحورها :

جمع الاموال للقيام بالثورة ..

محمد احمد بن عبد الله المهدى ينادى به قائدا عاما للدراويش ..

عثمان دقنه يعهد اليه فى مهاجمة القوات الانكليزية

المدن تسقط فى قبضة الدراويش ... العدو يتقهقر ... الاستيلاء على الخرطوم ... مقتل غوردون فى عقر داره ... المهدى يموت ... لكن عثمان يتابع القتال : الفوز لا يزال حليفه ... خبر موته ينتشر فى البلاد كل اسبوع مرة ... لكنه يكذب الخبر باحرازه انتصارا جديدا يضيفه الى انتصاراته السابقة ... ثم الهبوط بعد الصعود !

اتعب عثمان النصر فولى النصر وجهه عنه !

ووقع الاسد اسيرا ...

زاره اللورد كتشنر ذات يوم فى سجنه فنظر اليه الشيخ نظرة صافية . فسأله قاهره :

ــ ألا تعرفنى ؟

ــ لا ... لا اتذكرك !

ومات فى شهر دسمبر سنة ١٩٢٦ . وضمت الارض رفات ذلك الذى كان يضم فى صدره أسرارا ، لو باح بها قبل مماته لكانت سراجا يضىء الظلام الذى يخيم على صفحة من امجد صفحات التاريخ

الفلاحة التركية

الخميس ١٨ أبريل سنة ١٩١٨ الموافق ٧ رجب سنة ١٣٣٦

قيل لنا منذ الصباح ان جماعة من البدو يسوقون أمامهم طائفة من الاسرى الاتراك وانهم سيصلون الى المعسكر قبل الظهر

ووصول الأسرى حادث له فى حياتنا أهمية خاصة . وكثيرون هم الذين لا تصلهم أخبار عن أهلهم وذويهم الا بواسطة أولئك الأسرى

ما أغرب هذه الحرب !

هنا جماعة من العرب والسوريين يهاجمون مواقع حربية يدافع عنها هناك جماعة من الاتراك والعرب والسوريين

والأسير الذى يقع بين أيدينا لابد أن يكون تركياً أو عربياً . فاذا كان تركياً فانه يرسل الى مصرحيث ينضم الى اخوانه ومواطنيه الاسرى هناك . واذا كان عربياً فانه يلبس الكوفية والعقال وينضم الى الجيش العربى ويحارب غداً الذين كان يحارب فى صفوفهم بالأمس !

***

الساعة العاشرة صباحا بالحساب الافرنجى

ان الرفاق والزملاء يسيرون ساعاتهم على الحساب العربى . ولكنى لم أتمكن بعد من مجاراتهم فالظهر عندى فى الساعة ١٢

فالساعة العاشرة صباحاً معناها قبل الظهر بساعتين !

***

بدت طلائع البدو فى صدر الوادى

وخيل الىّ أن عددهم يبلغ مائة فارس . وقد بدأوا باطلاق الرصاص فى الفضاء منذ تبينوا مضارب المعسكر من بعيد . ولو لم نكن على بينة من أمرهم لاعتقدنا أن عدواً يهاجمنا

يجب أن نرد عليهم تحيتهم بأحسن منها

لذلك أخذ الرصاص يدوى فى الفضاء ، هنا وهناك

***

وصل البدو الى معسكر الأمير ومعهم الاسرى

اثنا عشر ضابطاً وجنديا ، بينهم خمسة فقط « أولاد عرب » والباقون أتراك وثلاثة منهم نمسويون . وكان النمسويون يتكلمون الفرنسية والاتراك لا يعرفون من العربية شيئا أما أبناء العرب الخمسة فانهم يحسنون التركية أيضاً

وما مرت ساعة على وصولهم ، حتى كان أبناء العرب الخمسة قد وجدوا فى المعسكر بعض المعارف والأصدقاء

أما الاتراك والنمسويون ، فقد وضعوهم فى مكان خاص لارسالهم بعد أيام الى العقبة

***

ودفعنى حب الاستطلاع الى الاختلاط بالأسرى . وكان معى أربعة من الرفاق الذين يحسنون التركية

وكان بين الاسرى رجل فى نحو الأربعين من عمره ، يدعى « كمال رفقى » وهو جندى بسيط . وقد عرفه أحد رفاقنا لأنه كان معه فى فرقة واحدة فى دمشق منذ أشهر

ولكمال رفقى هذا قصة

قال لى رفيقى :

ـــ سأقص عليك ما حدث لزوجة هذا الرجل فى بلاد القفقاس . ولكن لابد من سماع ذلك مرة ثانية ومن فمه مباشرة . وسأترجم لك أقواله فيما بعد

طلبنا من كمال رفقى أن يقص علينا قصة زوجته فى بلاد القفقاس ففعل . وقد شربنا معه الشاى وقدمنا له السجائر المصرية . .

ولكننى لم أفهم من قصته شيئا . وكنت على أحر من الجمر لمعرفة ذلك الموضوع الذى كان رفاقى يصغون اليه باهتمام

ولكنهم بعد عودتنا الى الخيمة التى كنت أقيم فيها ، قصوا علىّ ما أفضى به اليهم ذلك الجندى التركى . وكلفنى سماع القصة وتدوينها ثلاث علب سجائر مصرية دخنها الأصدقاء فى تلك السهرة

ولكنها قصة تستحق ثمناً أغلى من هذا . . لو لم تكن علبة السجائر فى ذلك الوقت تكلفنا

جنيهاً مصريا كاملا ، على شرط أن يكون هذا الجنيه ذهباً !

***

وهذه قصة زوجة كمال رفقي ، فهي فلاحة تركية مثله ، تكره الروس الذين أغاروا بجيوشهم على وطنها وارتكبوا فيه الفظائع ، وتكره الأرمن الذين تقول عنهم – كما يقول زوجها كمال رفقي – انهم يستحقون الذبح من أولهم الى آخرهم

كانت المعارك حامية فى القفقاس بين الاتراك والروس . وكان كمال رفقي قد التحق بفرقته وأرسل الى سورية ، وبقيت زوجته فى البيت مع طفلها الصغير

وكان عمر الطفل فى سنة ١٩١٦ أربعة أعوام

وكانت القرية التى تسكن فيها المرأة فى وسط الجبال ، بعيدة عن المدن الكبيرة ، ليس فيها أكثر من ثلاثمائة ساكن ، نزح معظمهم عنها بعد نشوب الحرب ، فالرجال التحقوا بالجيش والنساء رحلن الى المدن

ولم يبق فيها فى سنة ١٩١٦ أكثر من مائة نسمة بين نساء ورجال ، أصيبوا بجراح وأعيدو الى بلادهم بعد أن أصبحوا غير قادرين على حمل السلاح

هاجم الروس الجيش التركى وتوغلوا وراء الحدود وانهزم الاتراك أمامهم فى بادىء الأمر واجتاح الفرسان « القوزاق » البلاد وارتكبوا فيها من الفظائع ما تقشعر لهوله الابدان

وكان الحلفاء يدعون أن الالمانيين والنمسويين والاتراك هم الذين يقترفون الفظائع وأن الحلفاء يحاربون على حسب القوانين والشرائع

ولكن الذين اشتركوا فى الحرب عن كثب أو عن بعد ، يعلمون أن هذا الادعاء كاذب ، وأن الفظائع ارتكبت من الناحيتين

علم سكان القرية أن كوكبة من الفرسان القوزاق مقبلة عليهم وأنها تصل بعد ساعات معدودة فماذا يصنعون ؟

هرب منهم من هرب طالباً النجاة بالابتعاد عن الميدان واللحاق بقدر المستطاع بالجيش التركى المتقهقر . وبقى منهم من لم يستطع الهروب أو بلغ منه اليأس مبلغه ، فسلم مصيره للاقدار ووضع نفسه تحت رحمة الله !

وبقيت المرأة زوجة كمال رفقي مع من بقى فى القرية ، ولبثت فى منزلها الصغير مع ابنها الطفل تنتظر ما يخبئه لها الغد . .

وكان بيتها قائما على ربوة عالية يشرف على القرية ومنازلها

ووصل الاعداء الى القرية ، وانتشروا فيها يقتحمون البيوت ويقتلون الرجال ويعتدون على

النساء . . ويبحثون عن الطعام والشراب !

أدركت المرأة أنها هالكة ، وان نصيبها لن يختلف عن نصيب السكان الآخرين ، فيئست من الحياة وعزمت على أن تنتقم لنفسها ولابنها ولمواطنيها قبل أن تموت ، حتى ولو أدى ذلك الى موتها فيما بعد

دخل عشرة من الروس بيت كمال رفقى ، فوجدوا فيه المرأة فى انتظارهم وعلى ثغرها ابتسامة ترحيب ، وأمامها ولدها الصغير حاملا باقة من الازهار قدمها لأول جندى دخل البيت

وأشارت المرأة بيدها الى المائدة التى أعدتها على بساط نظيف ، فرشته على الارض ودعت الاعداء الى الجلوس لتناول الطعام

بهت الرجال لهذا الاستقبال ، ولم يلحقوا بالمرأة أذى . وجلسوا فرحين حول المائدة

وكان فى وسط المائدة ، بين الصحون والاطباق التى تكدست عليها أنواع الطعام ، إناء كبير مليئاً حليباً ساخناً ، فأشارت اليه المرأة طالبة من أولئك الأجلاف أن يشربوه قبل أن يبدأوا بتناول الطعام

وخطر لأحدهم خاطر أوحت به اليه التجارب الكثيرة التى مرت به فى تلك الحرب الدموية

نظر الرجل الى المرأة ، وأشار الى الاناء المملوء حليباً ، وكلمها بلغته . .

لم تفهم المرأة ما قاله الرجل ، ولكنها أدركت من لهجته ومن اشارته انه يطلب منها أن تشرب من الحليب وأن تسقى منه ابنها قبلهم

فمدت المرأة يدها ، وتناولت الاناء ، وأفرغت منه فى قدح ، وشربت ثم سقت ابنها . .

وشرب القوزاق وأكلوا . . وناموا

وظلوا نائمين !

* * *

وحدث فى اليوم التالى أن هاجم الاتراك القرية فأخلاها الروس وولوا هاربين

وأسرع من بقى حياً من السكان الى منزل المرأة ، زوجة كمال رفقى لأنهم لم يروها بينهم بعد رحيل الأعداء . فوقعت أعينهم على منظر فظيع

رأوا فى وسط القاعة الوحيدة التى يتألف منها المنزل تسع جثث حول مائدة مبسوطة على الأرض ، ورأوا فى ركن من القاعة المرأة الشجاعة تضم ابنها الى صدرها وقد فارقتهما الحياة

تخلصت الفلاحة التركية من جنود الاعداء بأن دست لهم السم فى الحليب والطعام . ولم تتردد عند ما طلبوا منها أن تشرب وتسقى ابنها بل شربت كأس الموت قبلهم

ووجد الجندى العاشر حياً ، وقد جر نفسه جراً الى الخارج على أمل أن يتمكن من

الهروب ، لكن قواه خانته ، فسقط على مقربة من بيت الفلاحة الشجاعة ، وهو الذى قص على الناس قصتها

وأعدم ذلك الروسى رمياً بالرصاص ، أمام باب المنزل الذى مات فيه رفاقه ، والذى ماتت فيه زوجة كمال رفقى وابنها الصغير

* * *

وعلم أنور باشا بما حدث فى تلك القرية ، وما قامت به المرأة ، فأرسل فى طلب زوجها كمال رفقى وأطلعه على خبر وفاة زوجته على تلك الصورة وأعطاه مبلغاً من المال مكافأة له . . بالنيابة عن زوجته

وقد أرسل كمال رفقى هذا الى العقبة ومنها الى مصر

هذه قصة من القصص الكثيرة التى بلغت فيها تضحية الافراد ، في أثناء هذه الحرب ، مبلغاً يصعب على العقل أن يصدقه اذا لم يكن هناك ما يثبته

[من مذكرات المؤلف فى حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨]





اذا انتهى المسافر فى البحر الأحمر من خليج السويس تستقبله أمواج خليج العقبة المتلاطمة ، حتى اذا اجتاز هذا الخليج الثانى ، بدا له حصن قديم متهدم ، يرجع تاريخ بنائه الى القرون الوسطى . حصن تزيد فى سواد حجارته وحشة ذلك المكان المنقطع عن المدنية ، وما يحوطه من بيوت حقيرة مشيدة بالطين والحجارة السوداء ، وما يكتنفه من أشجار نخيل هى وحدها أثر لرحمة الطبيعة لتلك الفيافى المجدبة الجرداء

ذلك الحصن هو « العقبة » . ولعمر الحق لقد أنصف من سماه العقبة ، إما لوقوف تلك الجبال الصخرية عقبة فى سبيل المسافرين ، وإما لوقوفها عقبة فى سبيل الفاتحين وفى سبيل المدنية

هنالك فى سفح تلك الجبال الشاهقة ، وفى طرف ذلك الخليج الذى يشكو كل شىء فيه ، حتى أسماكه وحيتانه العزلة والوحدة ، حطت الجيوش الانكليزية والعربية رحالها ، وأقامت معسكراً لها ، تسير منه الذخائر والأقوات الى المحاربين فى برارى سورية وفيافى الحجاز

هنالك ، فى عام ١٩١٧ ، كانت ادارة المهمات والمؤن موكولة الى ضابط انكليزى برتبة « كابتن » يدعى « جريفز » . فكان عليه أن يمد المحاربين والمحالفين من الأعراب النازلين الى جانب الجيش الانكليزى بالمؤن والذخائر ، فى نظير أوامر كتابية تصدر اليه من القيادة العامة . ولذلك كان يكثر من مخالطة القبائل العربية المحاربة اكثاراً سهل عليه تعلم لغتهم ومعرفة طباعهم وعاداتهم

ومن القبائل التى انضمت الى الثورة العربية فى الحرب الكونية ، وأبلت بلاء حسناً ، سواء أكان فى ميادين القتال أم فى قفو الآثار أو هدى الفصائل والقوافل الى معابر تلك الصحارى والقفار ، قبيلة « الحويطات » المشهور عنها عدا الشجاعة والاقدام ، حب الغزو وكتمان الحفيظة والمطالبة بالثأر والغضب للعرض قبل المال

وكان لزعيم من زعمائهم فتاة لا تتجاوز العشرين ربيعاً ، فاحمة الشعر ، عريضة الجبين ، معتدلة القوام ، بضة الجسم ، براقة العينين ، كحلاء ، واسعة الحدقتين ، لذلك أطلق عليها أبواها اسم « مها » . وكانت كسائر بنات بلادها سمراء اللون قد طبعت على وجهها الشمس أثراً جذاباً خلاباً

كانت « مها » تقوم كبنات الأعراب بتهيئة الطعام لأبويها ، وتعنى بتربية أخويها الصغيرين التربية البدوية ، ولم تكن تمنعها نعومة بشرتها وضعف حولها من مشاركة رجال قبيلتها فى غزواتهم

ضربت القبيلة مضاربها فى سفح جبال العقبة . وكان اذا دعا أهلها داعي الواجب فذهبوا طلباً للرزق أوللقيام بمهمة استكشاف أوهدى فصيلة ، ظلت « مها » الى جانب أخويها الصغيرين تقوم بحاجاتهما ، وتسهر على راحتهما ، فاذا أعوزها الزاد ذهبت الى الكابتن جريفز بوثيقة من قيادة الجيش فيعطيها ما تحتاج اليه

طال تردد الفتاة على الكابتن ، فلم يقو على رد سحر تينك العينين النجلاوين ، فعلق فى شبا كهما . وهام بحب الفتاة هياماً زاده انقطاع ذلك الجندى عن دون « مها » من بنات جنسها ، فتغلغل هواها فى عظامه ، وتملك لبه ، حتى منعه طيب الطعام والنام ، وحتى بدا عليه التقصير فى عمله ، وخشى عليه أصدقاؤه من عواقب ذلك الحب الذى لم يكونوا راجين له عاقبة محمودة ، لاختلاف الدين والجنسية بين الرجل والفتاة ، وتمسك العربى بتقاليده وعاداته ، وإيثاره أبناء جلدته على ما بهم من فقر وشظف عيش

ولم يكن الكابتن « جريفز » ليؤمل أن يتخذ الفتاة خليلة له ، وهى كسائر بنات البدو حصان ذات عفاف وصون ، تبذل دمها دون عرضها ، وتمنع أياً كان أن يمس شرفها المصون

ولم تكن تلك الفتاة بأقل ميلا الى « جريفز » منه اليها . لكنها كانت تصبر النفس ، وتكتم الهوى ، لعلمها بما يحول دون اجتماعهما من عقبات

تراخى الزمن بين الحبيبين وزاد فى وجدها وغرامهما ، فأصبحا لا يفكران إلا فى حبهما البرىء ، وأصبح الهوى بينهما كل ما فيهما ، حتى اذا لم يعد للكابتن « جريفز » من صبر ولا منصرف عن هواه ، تشجع وتجلد ، وعقد العزيمة على مفاتحة والد الفتاة بأمر حبه ، وعلى أن يخطبها منه لنفسه

أفضى بما جال فى صدره الى حبيبته . فنهته عن مكاشفة والدها بالأمر حذر أن يرحل بها الى مكان ناء ، وذكرته بتقاليد العرب وعاداتهم القومية التى لا ينصرفون عنها فى أي حال من الأحوال

حدثته بحديث قيس الملوّح وليلى العامرية . وقصت عليه ما ترويه عن جميل وبثينة ، فما

ازداد الا تشبثاً برأيه ، وما كانت الصعوبات التى صورتها له حبيبته لتثنيه عن عزيمته

ذهب « جريفز » الى والد الفتاة مثقلا بالهدايا والتحف ، وحياه فرحب به وأهّل. وأفضى الضابط الى ذلك الزعيم البدوى بما يجول فى صدره ، وطلب اليه يد ابنته ، آخذاً على نفسه أن يعتنق الاسلام وأن يهجر وطنه ، ويترك بعد الحرب جيشه ، ويلتحق بالقبيلة ، ويعيش بين ظهرانيها كفرد من أبناء الزعيم ، يشاطره نعيمه وبؤسه ، ويشاركه فى حروبه وغزواته

سكت الاعرابى مطرقا ينكت الارض بعصاه . حتى اذا أكمل الانكليزى حديثه نظر اليه نظرة ضمنها ماكان يفيض فى نفسه من غضب مكتوم . وغيظ مكظوم ، وحقد مدفون

ونظر الانكليزى الى وجهه فاقشعر جسمه ، وهو الجندى الذى تعود مقارعة الابطال وملاقاة الاهوال ، من عينين كأنهما جمرتا نار ووجه كالح كأنه حجر من جبال « العقبة »

ـــ أمثلك أيها الاجنبى يجرؤ على مكاشفتى بأمر فيه مساس بعرضي المصون ؟ أمثلك يا جريفز يجسر ، وهو فى خيمتي ، أن يطلب الىّ سلب كنزى واستلال روحى من بين جنبي ؟ لكنك ميمون الطالع لانك كاشفتنى بذلك وأنت جارى وضيفي . فاغرب عنى الى معسكرك ! . . اغرب قبل أن ينسيني غضبى واجب الضيافة وحقوق الجار ! . . والويل لك اذا رأيتك فى سبيلى خارج هذه الخيمة ! . .

خرج الكابتن جريفز يتعثر فى أذيال الخيبة والفشل ، محموما لا يعى ما يجب عليه أن يعمله ، ولا يقوى على جمع أفكاره الشاردة ، ليجد سبيلا الى الخلاص من ذلك المأزق

وبينما هو يسير على غيرهدى جهة البحر ، كأنه مدفوع بغريزة طبيعية الى اليأس ، فالانتحار ، اذا بصوت رخيم رقص له قلبه يناديه ، بل يهمس وراءه همساً :

ـــ جريفز ! . . جريفز ! . .

واذا بمهاته شاردة تجرى وراءه متعبة تصعد الانفاس ، فاستقبلها بين ذراعيه ، سعيداً فى دقيقته ، غير حاسب لعواقب تلك اللحظة حسابا

أجل .. ويح المحبين ! تنسيهم سكرة الحب متاعب الحياة وأخطارها ، كما ينسى العليل المدنف ظلمة قبره ووحشة انفصال روحه عن جسده !

قالت الفتاة :

ـــ سمعت حديثك وجواب والدى . وقد كنت مختبئة وراء سجف الخيمة ، أرقب ما يجرى. انى أعرف أبى حق المعرفة ، فهو لا يثنيه عن عزمه وعد ولا وعيد ولا دموع ولا توسلات ولا ضراعة . . اننى يا جريفز بك ولهى ! . . كتمت الحب أشهراً وأياما . . حتى كاد يودى جلدى بحياتي . . اننى ابتلعت جماره وبليت بأواره ، فكفانى ما قاسيت . . أما ولابد لنا أن نموت ،

فليكن موتنا بالجوع أو بالحديد أو بالنار مجتمعين متآلفين خيراً من أن نموت شتيتين بعيدين . . فالى الفرار . الى الهرب من هذا الوادى . . وادى الموت .. انى عارفة بوعثه ، عالمة بما سيعترضنا من خطر موت محقق من الوحوش الضارية ، من الجوع والعطش، من العدوين أهلى وقومك ، وهم سيهدرون فى الغداة دمك لعدهم إياك جنديا فاراً من واجبه .. ولكن .. لنمت معاً .. لنلتمس لنا وراء هذه الدنيا المملوءة بالضغائن والاحن ، المفعمة بالويلات والمصائب ، دنيا أخرى ، نعيش فيها متحدين متآلفين سعيدين ، لا خوف علينا من الفراق .. وماذا تنفع الدنيا بعد فراق الأليف

قالت الفتاة هذا وكأنها قد بذلت فى قولها مجهوداً كبيراً ، فارتمت الى الارض معولة باكية . تئن أنين المجنوب الموجع ، لما هاج فيها من عواطف متناقضة ، فى الواحدة منها مهلكة للجسم

وارتمى فوقها جريفز يمزج دموعه بدموعها ، وقد أنساه حبه واجب الجندى تحت سلاحه ، فاحتملها بين ذراعيه كما تحتمل الام الولهى وحيدها المريض ، وسار عدواً الى خيمته ، وبأسرع من وميض البرق احتمل بندقيته ومسدسه ، وملأ آنيتين مما يحتمله الجنود من الماء ، وناول حبيبته صرة تحتوى على ما تيسر من المأكل ، والق نظرة أخيرة على خيمته التى دفن على بابها شرف الجندية ، وجرى مسرعا الى مدخل الوادى ، تهديه الى طريقه مهاته النافرة ، التى سلكت به معابر تعرفها فوق الصخور ، لتضلل قومها وقد علمت انهم سيجدون فى لحاقهما ، ولتخفى عنهم آثارها . .

***

جلس الزعيم بعد خروج جريفز من حضرته جلوس الأرقم يرصد فريسته على قارعة الطريق ، كئيباً ، حزيناً ، وقد كسرت كلمات الانكليزى من كبريائه وعزة نفسه ، حتى استرسل به الحقد والغضب الى سكره أشبه بسبات النوم العميق

ظل رابضاً هكذا فى خيمته ساعات ولم يفق من سكرته إلا على أصوات بكاء ممزوجة بزمجرة وولولة شديدة تتصاعد من خيمة النساء ، فأحس بعصبية داهمة ، وقفز مسرعاً الى الخارج . . . درى ـ وقد افتقد فتاته ـ انها أطلقت للريح ساقيها . فصاح برجاله أن هبوا الى الأخذ بالثأر وما هى إلا ثوان حتى ثار القوم رجالا وفتياناً ونساء ، ومشوا وقد تقلدوا أسلحتهم الى المعسكر الانكليزى . فاعترضهم الحارس واذا به يتخبط من ضربة سيف بادره بها الزعيم . وكأن منظر الدم المسفوك رد اليه شيئاً من صوابه ، فالتفت الى رجاله واستوقفهم طالباً منهم أن يتمهلوا ريثما يقابل قائد المعسكر ثم يرى رأيه فى الامر . . .

عاد الزعيم من خيمة القائد تتبعه فصيلة من الفرسان الانجليز ، ثم تخير عشرة من أشد رجاله ، وساروا جميعا يقتفون فى ظلام الليل أثر الحبيبين الهاربين

ولا أدرى أى الاثنين كان أكثر حقداً على جريفز المسكين . أهو والد الفتاة وقد انتزعت منه مهاته . أم قائد الفصيلة الانكليزية وهو فى نظره جندى فار ، خان وطنه ومليكه ، وداس واجبه جرياً وراء اعرابية

***

. . . وبلغت بنا القافلة فى طريقنا من « الكويرة » الى « العقبة » الى عين ماء كان يعللنا الدليل بلقياها منذ الصباح . فارتمينا عن ظهور الجياد وقد حمدنا الله وتنفسنا الصعداء ، ننقع غلة الظمأ ونبرد وجوهنا من حر تلك الهاجرة ، وجلسنا الى تلك الصخور المحرقة ريثما تشرب الجياد

واذا بصوت خافت ضعيف حمله الينا الريح يطلب النجدة والمعونة ، فالتفتنا مندهشين عندما تبينا أن الصوت صوت امرأة . . .

واتجهنا صعداً فى الجبل الأجرد الى مصدر الصوت . واذا بفتاة لم تقع العين على أجمل منها جالسة وعلى ركبتيها رأس ضابط انكليزى ، وقد نشر الموت على وجهه اصفراره ، وطبعه بطابعه ، واذا بها هى تجيل لحظين لا قرار لها ولا تقرأ فيهما العين إلا آثار الألم النفسي واللوعة . . .

ثار ثائر الأعراب لرؤيتهم بدوية وعلى ركبتيها رأس أجنبي . . . لكن قائد القافلة نظر اليهم شذراً وقال :

— يجب ألا تروا فى هذا التعس إلا مدنفاً ماهوفاً يجب أن يغاث . وذلك حق من حقوق الجار

وأومأ الى طبيب القافلة فأنشق الانكليزى قليلا من دواء يحمله . فأفاق ونظر الى « مها » نظرة أودعها حياته وحبه وفاضت روحه صاعدة الى خالقها . . .

واذا بالفتاة انتزعت بأسرع من ارتداد الهدب الى الهدب مسدس الانكليزى من جنبه ، وأفرغت منه رصاصة فى مكان القلب من صدرها ، فانقلبت على حبيبها تبله ببقايا دموعها ، وتخضبه بسيل من دمائها الجارية . . .

***

المسافر من العقبة الى معان ، السالك اليها السبيل الوحيد وهو ذلك الوادى المظلم ، اذا بلغ الى تلك العين فارتوى من مائها ، ثم سار صاعداً الى الأكمة التى تشرف عليها ، يجد فوق بقعة من الحصى الاسود خشبة سوداء منصوبة كتب عليها بالانكليزية وبالمداد الابيض ما ترجمته :

« مضجع الفار من واجبه الكابتن البرت جريفز . والفتاة مها الهاربة من خدر أبويها »

لعمرك لا أدرى أى أمر على نفس القارىء والمسافر : أموت الحبيبين تلك الميتة الفظيعة ، أم وقع هذه الكتابة التى لا تزال تلحق اهانة ببريئين هجرا ظلم العالم واحتميا فى الأبدية ؟